جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة

(٣)

موسوعة أعلام الفكر الإسلامي

إشراف وتقديم
الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق
وزير الأوقاف

القاهرة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة

(٣)

موسوعة أعلام الفكر الإسلامي

إشراف وتقديم
الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق
وزير الأوقاف

القاهرة
١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

تقديـــم

للأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق
وزيـــر الأوقـــاف

لقد قدمت الحضارة الإسلامية للإنسانية عطاءً ثريا، حافلاً بعلوم ومعارف شتى كان لها إسهامها الكبير فى تقدم الأمة الإسلامية، وازدهارها، على مدى قرون عديدة، وقد حمل شعلة هذا العطاء آلاف العلماء والمفكرين، الذين كرّسوا كل جهودهم للدراسة الجادة والبحث العميق فى كل مجالات العلوم والفنون، وكانت لهم إضافات باهرة بالغة الأهمية، وبصمات واضحة فى مختلف التخصصات، وأسهموا بذلك فى دفع الحركة العلمية والنهضة الفكرية فى كل الاتجاهات.

وقد أفادت الإنسانية من ذلك كله فائدة عظيمة، كما كان لهذا العطاء أثره البالغ فى دفع حركة النهضة الأوروبية إلى الأمام؛ بعد أن تم ترجمة العلوم الإسلامية إلى اللغة اللاتينية فى القرون الوسطى، مما كان له أثره فى فتح آفاق واسعة أمام الفكر الأوروبى، للخروج من ظلام تلك القرون إلى عصر النهضة الأوروبية، التى فتحت الباب على مصراعيه للعصر الحديث.

ومن حق علمائنا ومفكرينا علينا أن نبرز عطاءهم، وأن نسجل لهم جهودهم،

وننشـر تراثهم مقروناً بالعرفان بالجميل، والتقدير الفائق لإنجازاتهم التى خدمت البشرية كلها.

ومن حق الأجيـال الجديدة علينا أن نقـدم لهم هذه النمـاذج الرائدة فى تاريخ حضـارتنا؛ لتكون قدوة لهم فى العطاء، وقدوة فى البحث المتواصل والجهد الفائق فى سبيل تطوير الحياة فى شتى النواحى، حتى يسيروا على الدرب، ويشمروا عن ساعد الجد، ويواصلوا مسيرة الأسلاف؛ لتنهض الأمة مرة أخرى على أكتافهم، وبجهودهم وثمرة كفاحهم، من أجل تقدم الحياة ورقيِّها وازدهارها.

وشبابنا فى أشد الحاجة إلى من يأخذ بيده، ويملأ الفراغ الفكرى الذى يحيط به، ويساعده على شق طريقه؛ من أجل خدمة أمته، والإسهام فى نهضتها. وهذا الأمر يتطلب تضافر كل الجهود، وحشد كل الطاقات؛ حتى تأخذ أمتنا الإسلامية مكانها اللائق بها بين الأمم.

و «**موسوعة أعلام الفكر الإسلامى**» التى نقدمها اليوم إلى القراء الكرام، تأتى فى إطار سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة التى يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية. فقد سبق أن قدَّم المجلس فى السنوات القليلة الماضية ثلاث موسوعات، هى : «**الموسوعة الإسلامية العامة**»، و «**الموسوعة القرآنية المتخصصة**»، و «**موسوعة علوم الحديث الشريف**».

وتأتى «**موسوعة أعلام الفكر الإسلامى**» لتلقى بعض الضوء على جهود نخبة مختارة من العلماء والمفكرين فى تاريخ حضارتنا الإسلامية فى مجالات العلم المختلفة، وغنى عن البيان أن العدد الذى تشتمل عليه هذه الموسوعة هو نزر يسير من كم كبير من الأسماء اللامعة التى ازدانت بها الحضارة الإسلامية.

ومن نافلة القول أن نؤكد أن إصدار موسوعة تشتمل على كل أعلام الفكر الإسلامى أمر بالغ الصعوبة، ويحتاج إلى سنوات عديدة، وإلى جهد مئات العلماء والباحثين، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله، ويكفى أن نقدِّم للقراء الكرام هذه

النمـاذج الرائدة التى تشـتمل عليهـا هذه الموسـوعة؛ لتـذكيـرهم بما قدَّمـه هؤلاء الرواد من عطاء غزير لا يزال له أثره البالغ حتى اليوم.

ولا يفوتنا هنا أن نسجل بالشكر والتقدير للأخوين الكريمين فضيلة الأستاذ الدكتور/ على جمعة محمد مفتى الجمهورية، والأستاذ الدكتور/ محمد الجوادى عضـو مجمع اللغة العـربيـة، مـا قـامـا بـه من جـهـد فـائق فـى التـخطيط والتنظيم والمراجعة لهذه الموسوعة، كما نشكر الأستاذ/أبو سليمان محمد صالح، على ما قام به من جهد فى الإشراف على الطباعة والمتابعة المستمرة.

والشكر أيضًا للأخ الأستاذ الدكتور/ عبد الصبور مرزوق على ما بذله من جهد كبير فى النصح والتوجيه.

وإذ نقدم الشكر لهؤلاء جميعًا ولكثيرين غيرهم من جنود مجهولين، كان لهم إسهامهم الكبير فى ظهور الموسوعة على هذا النحو، فلا يجوز لنا أن ننسى أن نقدم شكرنا الجزيل، وتقديرنا الفائق، لعلمائنا الأجلاء، الذين أسهموا بالكتابة فى هذه الموسوعة، فلولا تعاونهم، وما بذلوه من جهد مشكور لما كان لهذه الموسوعة أن ترى النور.

نسأل الله أن يجزى الجميع خير الجزاء، ونأمل أن يكون فى هذه الموسوعة فائدة لقارئ، أو نفع لباحث، وأن تساعد على تنشيط ذاكرة الأمة، وتحفزها إلى انطلاقة جديدة تعيد لها أمجادها السابقة، وتحمى هويتها المعرضة لأخطار الذوبان، وتسهم بدورها فى خدمة البشرية جمعاء.

والله ولى التوفيق ....

أ. د. محمود حمدى زقزوق

المحرم ١٤٢٥ هـ

مارس ٢٠٠٤م

المشاركون فى التحرير «هجائيا»

- أ . د . أحمد الطيب.
- أ . د . أحمد عبد المجيد هريدى.
- أ . د . أحمد عمر هاشم.
- أ . د . أحمد فؤاد باشا .
- أ . د . أحمد كشك.
- أ . د . أحمد المعصراوى.
- أ . د . إسعاد قنديل.
- أ . د . أيمن فؤاد سيد .
- أ . د . حامد جامع.
- أ . د . شوقى ضيف.
- أ . د . ضاحى عبد الباقى.
- أ . د . عبد الله محمد جمال الدين.
- أ . د . عبد الحليم محمود.
- أ . د . عبد الحميد مدكور.
- أ . د . عبد الحى الفرماوى.
- أ . د . عبد الرحمن سالم.
- أ . د . عبد الصبور شاهين.
- أ . د . عبد الفتاح بركة.
- أ . د . عبد الفتاح غنيمة.
- أ . د . عبد اللطيف محمد العبد.
- أ . د . على جمعة محمد .
- أ . د . على حلمى موسى.
- أ . د . على أبو المكارم.
- أ . د . محمد إبراهيم عبد الرحمن.
- أ . د . محمد الجوادى.
- أ . د . محمد حسن عبد العزيز.
- أ . د . محمد رجب البيومى.
- أ . د . محمد السيد جبريل.
- أ . د . محمد السيد الجليند .
- أ . محمد عبد الله عنان.
- أ . د . محمد على النجار.
- أ . د . محمد عمارة.
- أ . د . محمد مصطفى سلام.
- أ . د . محمد نبيل غنايم.
- أ . د . محمود أحمد الحفنى.
- أ . د . محمود حمدى زقزوق.
- أ . د . محمود على مكى.
- أ . د . مصطفى الشكعة .
- أ . د . منى أبو زيد .
- أ . د . موسى شاهين لاشين.

الإعداد والتحرير :

أ . د . على جمعة محمد

أ . د . محمد الجوادى

الإشراف الفنى :

أ . أبو سليمان محمد صالح

الآلوسى «المؤرخ»
(١٢٧٣ - ١٣٤٢هـ = ١٨٥٧ - ١٩٢٤م)

هو جمال الدين أبو المعالى محمود شكرى ابن عبد الله بن شهاب الدين محمود بن عبد الله بن محمود الحسينى الآلوسى البغدادى، والآلوسى اسم أسرة ضمت عددًا كبيرًا من علماء بغداد فى القرنين التاسع عشر والعشرين، أقاموا فى آلوس بين أبو كال ورقادى، وهو مكان على الضفة الغربية لنهر الفرات، لجأ إليه علماء بغداد فرارًا من الغازى المغولى «هولاكو»، ولم يعد أحفادهم إلى بغداد إلا فى القرن الحادى عشر الهجرى = السابع عشر الميلادى، وهى أسرة علم وثقافة يرد نسبها إلى الحسن والحسين، خرج منها أدباء وعلماء مبرزون.

أما محمود مؤرخنا، فهو أديب لغوى إضافة إلى أنه مؤرخ داعية من دعاة الإصلاح، معروف بمحمود آلوسى زادة، ولد فى رصافة «بغداد» فى ١٩ من رمضان سنة ١٢٧٣هـ، وأخذ عن أبيه وعمه وغيرهما، وتصدر للتدريس فى داره وفى بعض المساجد، وحمل على أهل البدع فى الإسلام برسائل فعاداه كثيرون، وسعوا به لدى والى بغداد عبد الوهاب باشا، فكتب هذا إلى مرجعه السلطان عبد الحميد الثانى العثمانى، فصدر الأمر بنفيه إلى بلاد «الأناضول»، ولما وصل إلى الموصل سنة ١٣٢٠هـ قام أعيانها ومنعوه من تجاوزها، وكتبوا إلى السلطان يحتجون؛ فسمح له بالعوده إلى «بغداد» فعاد إليها.

ولما نشبت الحرب العالمية الأولى، وهاجم البريطانيون العراق، انتدبته الحكومة العثمانية للسفر إلى نجد، والسعى لدى عبد العزيز آل سعود - ملك المملكة العربية السعودية بعد ذلك - للقيام بمناصرتها، فقصده «الآلوسى» سنة ١٣٣٣ هـ عن طريق سوريا والحجاز، وعرض عليه ما جاء من أجله فاعتذر، وآب صاحب الترجمة مخفقًا، ولزم بيته عاكفًا على التأليف والتدريس

ولما احتل البريطانيون بغداد سنة ١٣٣٥هـ، عرضوا عليه قضاءها فاعتذر انقباضًا من مخالطتهم، ولم يلِ عملا بعد ذلك غير عضوية مجلس المعارف فى بدء الحكومة العربية فى بغداد، التى توفى بها فى عام ١٣٤٢هـ ـ الموافق ١٩٢٤.

وكان الرجل من أنشط دعاة الإسلام فى العصر الحديث، وقد جاهد بالكتابة والخطابة والأسوة الحسنة فى محاربة البدع، وهو لهذا يعد من زعماء الحركة السلفية.

وللآلوسى مصنفات كثيرة بلغت ٥٢ مؤلفًا فى التاريخ والفقه والتراجم وفقه اللغة العربية والبلاغة ومسائل الخلاف العقائدى، ومن بينها:

- الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر.
- بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، فى ثلاثة أجزاء، وهو كتاب فى التاريخ طبع سنة ١٣١٣هـ = ١٨٩٦م، وهو تاريخ لعرب الجاهلية، صنفه إجابة عن سؤال ألقى فى المؤتمر الثامن للمستشرقين ١٨٨٩م.
- تاريخ بغداد فى ثلاثة أجزاء، حسبما ذكر صاحب معجم المؤلفين، ولعله يقصد تاريخ نجد.
- تاريخ «نجد»، طبع فى القاهرة سنة ١٣٤٣هـ.
- المسك الإذفر، وهو كتاب فى سير علماء بغداد فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين. طبع فى بغداد سنة ١٣٤٨هـ = ١٩٣٠م.
- أمثال العوام فى مدينة السلام، وهو كتاب فى اللهجات.
- وله سلسلة من المناظرات العنيفة فى الرد على الشيعة وعلى الرفاعية، وفى هذه الرسائل مناصرة للإصلاح الحنبلى فى الفقه، نخص بالذكر منها رسالته: غاية الأمانى فى الرد على النبهانى، التى نشرت باسم منتحل بالقاهرة فى مجلدين كبيرين سنة ١٣٢٧هـ.
- النحت وبيان حقيقته ونبذة من قواعده.

أ.د. عبدالله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة:

١- محمود شهاب الدين شكرى الآلوسى: روح المعانى جـ١ المقدمة.
٢- محمد بهجت الأثرى: أعلام العراق ص٧ وما بعدها، ٥٧ - ٦٨، ٨٦ - ١٤١.
٣- جورجى زيدان: مشاهير الشرق ٢ /١٧٥ - ١٧٧.
٤- عمر الدسوقى: فى الأدب الحديث ١ /٤٩ - ٥١، ١٣٩ - ١٤١
٥- نعيم الحمصى: تاريخ إعجاز القرآن، منشور فى ٢٩ / ٤٢٠ - ٤٢٢ M.M.I.A.
٦- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١٦٩/١٢ - ١٧٠.
٧- سركيس: جامع التصانيف ٨، ١٢، ٧٨.
٨- البغدادى: إيضاح المكنون ١٩٤/١.
٩- جمال الدين أبو المعالى: المسك الإذفر ١ /٣ - ٥٩.
١٠- جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٤ /٢٨٥.
١١- السندوبى: أعيان البيان ص٩٩ - ١١٠.
١٢- إبراهيم الدورى: البغداديون: أخبارهم ومجالسهم ٢٨ - ٣٠.
١٣- الأزهر س ٢٥ ع٣، المجمع العلمى العربى ٤٧٨/٤ - ٤٨٢.
١٤- مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ٣٦: ١٣٥ - ١٣٦.
١٥- خير الدين الزركلى: الأعلام ٤٩/٧.
١٦- زكى مجاهد: الأعلام الشرقية ١٨٤/٢ - ١٨٧.

الآلوسـى «المفسـر»
(١٢١٧ - ١٢٧٠ هـ = ١٨٠٢ - ١٨٥٤ م)

هو أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود ابن عبد الله الآلوسى البغدادى الحنفى، مفتى بغداد وعالمها فى القرن الثالث عشر الهجرى، ولد ببغداد فى منتصف شعبان سنة ١٢١٧هـ الموافقة لعام (١٨٠٢م)، وكان والده رئيسًا للمدرسين فى بغداد، وهم طائفة من علماء الدين يشتهرون بالتحصيل العلمى فى فروع الفقه والتفسير والحديث، وما تَجِب معرفته من علوم اللسان العربى: نحوًا وبلاغةً واشتقاقًا وعروضًا، ولهم أساتذة يعترفون بنبوغهم، ويُشيرون على ذوى الأمر بصلاحيتهم للإمامة والخطابة والتدريس بالمساجد، فيستجيبون.

وقد توفى عام ١٢٧٠ هـ الموافق ١٨٥٤م.

كان عبد الله الآلوسى ـ والد المفسِّر ـ رئيس هؤلاء المدرسين، وكان منزله ببغداد كعبة القاصدين منهم للاستفادة والتوجيه، وقد تفتحت عينا الناشئ الصغير، لتَريا الوالد فى مكان القدوة العلمية، ولتسمع من النقاش العلمى ما يرسمُ مثلاً عاليًا يجتذب الناشئ ويُغريه، ومن الطبيعى أن يكون والد أبى الثّناء حريصًا على تربية ولده، وتنشئته التنشئة العلمية ذات اليقظة البصيرة، والتحفز المتوثب.

فإذا كان الصبى ذا استعداد مناسب، فإن غصنه الأخضر سيأخذ فى النماء السريع بدوام التعهد، وحُسْن الرعاية، وقد ساعدته حافظته القوية على أن يستظهر المُتون العلمية الذائعة بين طلاب هذا العصر، وهى بعينها مُتون الأزهر التى تعاقب عليها المؤلفون شرحًا وتحشيةً وتقريرًا، كألفية ابن مالك، والرحبية، والخريدة، ونور الإيضاح، والعقائد النسفية، وغيرها.

وقد حفظ محمود كل هذه المُتُون قبل أن يبلغ الرابعة عشرة من عمره، ولم يقتصر فى تلمذته على والده وحده، بل اتجه إلى جلّة العلماء فى عصره، ومنهم: على السويدى، وأمين الحلى، وخالد النقشبندى، وعبد العزيز الشواف، وكان لكل عالِم من هؤلاء حلقة خاصة بمنزله يؤمّها الطلاب عن طوعٍ فى

أوقات معينة من النهار والليل، إذ يرون فى التدريس وحده وسيلة لإذاعة العلم دون التأليف، بل يرون فى تلاميذهم مؤلفات حيّة تتحدث وتتكلم وتذيع، فهم يرحِّبون بالنابغين منهم أتم ترحيب، وقد يحرصون على الاستئثار بمن يرونه ذا مقدرة عالية فى الفهم، ليرجع إليهم فضل تكوينه العلمى، ويصبح التلميذ دليلا واقعيًا على قدرة أستاذه.

وحين وجد الوالد العطوف همّة نَجْلِه ترمى به إلى استيعاب ما يقدر على الإحاطة به من دروس الزملاء، شجعه على مواصلة الزيارة، والاستفادة، وكان يقرّ عينًا به حين يرجع إليه بعد انتهاء اليوم الحافل، فيحدِّثه بما ألمَّ به من علم، وما دار فى حلبة الدرس من نقاش، وقد نال إعجاب أساتذته جميعًا، فمنحوه إجازاتهم العلمية عن تقدير، ولم يكتفِ الناشئ الطامح بعلماء بغداد، بل حرص على لقاء الأساتذة فى بيروت ودمشق، ورجع بإجازاتهم كذلك، والإجازة يومئذٍ شهادة سبق ودليل تبريز.

شارك الآلوسى فى التوجيه السياسى للعراق، فشارك داود باشا والى العراق فى عصره، ولما عزل الوالى وجاء خَلَفه اضطهد الآلوسى؛ فسجن وعذِّب، فقابل المحنة بصبر، شأنه شأن العلماء.

ولم تطل محنة الشيخ، فقد استمع الوالى الجديد رضا باشا إلى هواتف الخير من نفسه، إذ جاءت أنباءُ النابغة السجين، فطلب بعض مؤلفاته ليقرأها وكان على حظٍّ من المعرفة فنالت قبوله، وأصدر أمره بالإفراج عنه، وعيَّنه خطيبًا بأحد المساجد، وجعل يهرع إلى استماعه، ومشاهدة دروسه حتى اعتقد أنه رجل العلم الأول ببغداد، فأسند إليه عدة وظائف علمية كبيرة، ونهض الرجل بأعبائها، وكانت هذه الوظائف لا تشغله عن مُدارسة العلم للطلاب نهارًا، ومباشرة التصنيف ليلا، وكان من المعتاد أن تأتى الأسئلة الدينية من مختلف الجهات إلى الوالى ليُشير بالإجابة عنها. وقد جاءته من إيران (بلاد فارس) - كما كانت التسمية حينئذٍ - أسئلة دقيقة فى أصول المذهب لدى أهل السنة، فتصدر محمود الآلوسى للإجابة بكل براعة ومقدرة وحاول غيره الإجابة، فعقد الوالى مجلسًا لقراءة الإجابات المختلفة ليختار منها ما يصلح للرد الحاسم، وكانت إجابة الآلوسى من القوة بحيث كسفت شمسها ما حولها من النجوم، وقد جمعت إلى صواب الدليل، وسلامة الحكم، وقوة الاستشهاد عفّةً ونزاهةً، وتشجيعًا للسائل، وتقديرًا لدقة غوصه، وبُعْد مرماه.

وكانت وظيفة الإفتاء تُعَدّ أكبر وظيفة

علمية ببغداد، ولن يتسنم ذروتها غير شيخ عالم كبير له تلاميذ كبار، وتلاميذ تلاميذ، ولكن أشياخ بغداد لهذا العهد قد ألقوا السلم فى طوع لهذا الشاب، فتقلد رتبة الإفتاء ولم يتجاوز الثلاثين إلا بأيام.

وقد أحسّ عِظَم المسئولية، وبخاصة من الناحية المذهبية، لأن محمود الآلوسى كان شافعيًا كأبيه، ولا بدّ لمن يتقلّد منصب الإفتاء فى ديار الخلافة العثمانية، أن يكون حنفى المذهب، وهو اشتراط لم يَعُق الشاب الطامح، ففى فترة قصيرة درس المذهب الحنفى فى أوسع كتبه، وألمَّ بقضاياه الفقهية مقارنة بقضايا المذهب الشافعى، وكان حرّ العقل فى اختيار ما يرتاح إليه، إذ يقرأ فى كلا المذهبين عن يقظة، ثم يصدر الفتوى مؤيدة بالدليل عقلا ونقلا، وليس بين المذهبين كبير اختلاف كما يحاول قصار النظر القول لحاجة فى نفوسهم يبرأ منها العالم الحرّ النّزيه، وإنما هى وجهات نظر تتقارب وتتباعد، كما تختلف وجهات النظر بين علماء المذهب الواحد.

وقد ظهرت نعمة الله على المفتى، فاشترى دارًا واسعةً، جعل جانبًا كبيرًا منها لُملاقاة التلاميذ، وللترحيب بالطلبة الغرباء، مسكنًا ومطعمًا ومأوى. وكان شعراء بغداد يقصدونها كل ليلة بعد الغروب ليتطارحوا الأشعار فى حضرة المفتى عَلَى مسمع من تلاميذه، ولكن الوالى نجيب باشا الذى جاء بعد رضا باشا قد أكثر من المظالم ونهب حقوق الناس، فجاهره الآلوسى بسخط الناس عليه، ووقف أمامه وقفة الشجاع الصادع بكلمة الحق، فعزله عن الإفتاء، وبذلك قطع عيش الرجل وحورب فى رزقه محاربة جارمة، والشيخ حينئذٍ صاحب بيت عامر، تنهض به مدرسة علمية، يقطنها عشرات الطلاب، ويحتاجون إلى مواصلة الإنفاق، ولم يشأ أن يعلن للناس ضيق يده فأخذ يبيع نفائس الأثاث، وما عزّ وارتفع ثمنه من الكماليات؛ ليجرى كل شىء كما كان، وكان يُسلى نفسه بالتدريس والتأليف، مترقبًا أن تزول الغمّة عن قريب، ولكن الليل قد طال فشدّ الرِّحال إلى الأستانة ومعه تفسيره الكبير، ليكون دليل علمه وشفيع مقدمه، فاستطاع أن ينال رضا الخليفة، وأن يعود منتصرًا بعد أن برئت ساحته، وعاد إلى بغداد فأُجرِىَ له استقبال عظيم، وخرجت بغداد للترحيب به، وقد نَعِمَ برضا الخليفة، وعزل نجيب باشا وجاء فى إثره من رعى مكان الشيخ وأعاد له جاهَهُ الفقيد.

وقد ترك الآلوسى مؤلفات كثيرة، إذ كان ذا قلم سيّال، وخاطرِ سريع، وقد دوَّن رحلته إلى الأستانة فى كتاب حافل ألمَّ بما كان من

أمره منذ ترك بغداد حتى رجع إليها، واصفًا ما نزل به من المدن وما مرَّ عليه من الطرق، ومَن قابله مِن عِلْيَة الناس، ولولا أن أسلوب العصر قد أشاع فى ديباجته فنون السجع وطرائف المحسنات لكانت رحلته طُرْفة أدبية، لا تفقد بريقها على مرّ العصور، وحسبها أن تُعَدّ وثيقة تاريخية تسجّل حقبة واضحة من حقب التاريخ، إذا فاتها أن تكون أثرًا مرموقًا، تردّده النفوس متمتعةً راويةً.

كما أن نزعته الإصلاحية قد دفعت به إلى دراسة العالم الإسلامى دراسة واقعية، فرأى عوامل الضعف، وعرف كيف تفوّق العالم الغربى على بلاد الشرق بالقوة الحامية، والذخيرة الواقية، فألّف رسالة أسماها (سفرة الزاد لسفرة الجهاد) دعا فيها المسلمين إلى اليقظة علميًا واقتصاديًا وحربيًا، وأعلن أن الجهاد فريضة محتومة أمام اعتداءات الاستعمار، وملأ كتابه بأدلة سافرة من القرآن والحديث، وما قام به أعلام الإسلام من فتوح خالدة أنقذت الناس من الظلمات إلى النور.

وله بالإضافة إلى تفسيره الشهير :

١ - الأجوبة العراقية على الأسئلة اللاهورية.

٢ - الأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية.

٣ - روح المعانى فى تفسير القرآن الكريم والسبع المثانى.

٤ - سفرة الزاد لسفرة الجهاد.

رأى الشهاب الآلوسى أن النهضة الإسلامية لن تقوم إلاّ على أساس متين من دراسة كتاب الله وتوضيح آياته، وتفسير أحكامه، وأنه لا بد لأبناء اللغة العربية من تفسير جديد يجمع خُلاصة ما قاله الكبار من الأئمّة فى وضوح وإشراق، وكانت الدولة العثمانية قد عملت على نشر تفسير العلاّمة أبى السعود العمادى فى ربوع ولاياتها، وهو تفسير جيد حقًا، بذل فيه صاحبه من الجهد، ما جعله موضع الحفاوة بين أهل العلم.

وقد ذكر صاحبه الكبير أنه قرأ تفسيرى الزمخشرى والبيضاوى، فبَدَا له من بدائعهما ما حرص على تقييده وجمعه أثناء طلبه للعلم، ثم رأى أن يقوم بتفسير مماثل يجمع صفوة ما فى الكتابين، ويضيف إليهما ما فتح الله به عليه، وبقراءة ما كتبه أبو السعود نجد أنه لم يقتصر على الإمامين، بل قرأ ما وَسِعَه قراءته من كتب السابقين من أمثال ابن جرير، والنيسابورى، وابن كثير، والنسفى،

وابن عطية، وصاغ من ذلك كله تفسيره الكبير جامعًا بين اتجاهات حميدة لها وزنها العلمى لدى الدارسين. وقد توسع فى المسائل البلاغية توسعًا كان الزمخشرى رائده فى منحاه، حتى ليصحّ أن تخصّص رسالة بلاغية تحت عنوان «البلاغة القرآنية فى تفسير أبى السعود»!

هذا التفسير كان موضع النظر لدى الشهاب فرأى أن يحذو حذوه فى غير سرف علمى ينحو منحى الاصطلاحات وقضايا العلوم.

وقد أحسن العلاّمة الدكتور محمد حسين الذهبى رحمه الله حين أوجز التعريف بهذه الموسوعة الرائعة، فقال فى إيضاح مكانة هذا التفسير:

«وقد أفرغ - الآلوسى - وسعه وبذل مجهوده حتى أخرجه للناس كتابًا جامعًا لآراء السّلَف روايةً ودرايةً، مشتملا على أقوال الخَلَف بكل أمانة وعناية، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير، فنراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبى حيّان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبى السعود، وتفسير البيضاوى، وتفسير الفخر الرازى، وغيرها من كتب التفسير المعتمدة، وهو إذا نقل عن تفسير أبى السعود يقول غالبًا: قال شيخ الإسلام، وإذا نقل عن تفسير البيضاوى يقول غالبًا: قال القاضى، وإذا نقل عن الفخر الرازى يقول غالبًا: قال الإمام.

وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير يُنَصِّب نفسه حَكَمًا عدلًا بينها، ويجعل من نفسه نقّادًا مدقّقًا، ثم يُبدى رأيه حرًّا فيما ينقل، فتراه كثيرًا ما يعترض على ما ينقله عن أبى السعود، أو عن البيضاوى، أو عن أبى حيّان، أو عن غيرهم، وتراه يتعقّب الفخر الرازى فى كثير من المسائل، ويردّ عليه على الخصوص فى بعض المسائل الفقهية انتصارًا منه لمذهب أبى حنيفة، ثم إنه إذا استصوب رأيًا لبعض من ينقل عنهم انتصر له ورجّحه على ماعداه».

وأكاد أزعم أن دارسِ التفسير فى (روح المعانى) يستغنى به عن ما كتبه سابقوه، لأن الرجل الكبير قد قرأ كلّ ما وقع تحت يده من كتب هؤلاء، وأطال النظر فى مضامينها ووازَنَ وقارن، ورجّح وعلّل، ثم صاغ من خلاصتها الصحيحة فى رأيه سبيكة خالصة من معدن الذهب.

ودارس تفسير الآلوسى يلمح لديه اهتمامًا خاصًا بمسائل النحو، وهى عدوى أبى حيّان الغرناطى، إذ نهج فى تفسيره (البحر المحيط) نهجًا نحويًا ذا شعاب شتى، وأبو حيّان عالم صناعته النحو، ومهاجم شأنه الانتقاص والمؤاخذة، وما أبعد روحه عن روح أبى الثناءِ ، فلِمَ حاذاه ؟

لزم الشهاب حدود الاعتدال فى مناقشة الآراء الفقهية المخالفة لمنحاه، فلم يكن مثل أبى بكر بن العربى، شديد التعصب لوجهة بعينها، ولكن الحقيقة كانت وجهته، لأن سعة العلم تفتقر كثيرًا إلى سعة الصدر، ولن تفيد الأولى شيئًا مع فقدان الثانية، كما أن اعتدال الآلوسى فى شرح الآيات الكونية كان مثلًا شاهدًا أمام من يتورطون فى التفسير العلمى إلى مدىً يتّسع للتأويل البعيد، بحيث يلوون أعناق الآيات ليًّا لا يستقيم معه اطّراد الأسلوب العربى على نهجه المعهود، والأمثلة الدالة على ذلك مما يضيق به المجال.

وقد أخذ الدكتور الذهبى على الرجل أنه يضطر إلى التأويل - حينًا - فيما لا جدوى معه فى التأويل، لأنه مع حملاته الصادقة على الإسرائيليات فى أكثر المواضع يعلّق فى مواضع قليلة بما يُفهَم منه الارتياح إلى مغزى يلتمس فى مطاويها.

وللآلوسى اهتمامٌ بالتفسير الإشارى، إذ يذكر عقب كلٍّ نص ما يوحى به الذوق المستشف للقارئ المتأمل، وأصحاب التفسير الإشارى - من أمثال الآلوسى - لا يعتقدون أن ما يتذوقونه من اللطائف تفسير مفروض لا مَحيد عنه، ولكنهم يأخذون من إيحاءِ الألفاظ ما يعتبرونه متصلًا بالمعنى الأصلى على خفاءٍ لا يظهر لغير أرباب البصائر.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - التفسير والمفسرون، للدكتور الذهبى.

٢ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين للدكتور محمد رجب البيومى.

٣ - أعلام العراق للأستاذ محمد بهجت الأثرى.

٤ - أبو الثناء الآلوسى للأستاذ محمود العيطة.

٥ - الأعلام للزركلى جـ ٧ / ١٧٦.

ابن الأبَّار
(٥٩٥ - ٦٥٨هـ = ١١٩٩-١٢٦٠م)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى البلنسى، المعروف بابن الأبار. مؤرخ ومحدث وأديب وشاعر عربى أندلسى من أعلام القرن السابع الهجرى ومن أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى.

وكان مولد ابن الأبّار بثغر بلنسية العظيم، فى سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) فى بيت علم ونبل، وأصل أسرته من أُنْدَه الواقعة على مقربة من بلنسية، والتى ينتسب إليها كثير من العلماء. ودرس ابن الأبَّار الحديث والفقه والتاريخ على أقطاب عصره، وفى مقدمتهم أبوه عبد الله. ومن بينهم أيضاً الفقيه أبو عبد الله محمد ابن أيوب السرقسطى، والمحدث والمؤرخ أبو الخطاب أحمد بن عمر القيسى، والمؤرخ أبو سليمان داود بن سليمان الأنصارى.

على أن أعظم أساتذته على الإطلاق هو المحدث الأندلسى الكبير أبو الربيع سليمان ابن موسى بن سالم، وقد انقطع إليه ابن الأبار، ولازمه أكثر من عشرين سنة. ولما توفى قتيلا فى موقعة أنيشة فى سنة ٦٣٤هـ (١٢٣٧م) رثاه ابن الأبار بقصيدته التى تعتبر من أعظم المراثى الأندلسية.

وتولى ابن الأبار فى شبابه قضاء دانية، ولكن القدر كان يدخره لمهام أخطر وأجل. وكان شرق الأندلس بالأخص مسرحاً لموجة جديدة من الصراع بين القوى الوطنية والسيادة الموحدية، وكان والى بلنسية الموحدى يومئذ هو السيد أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عبد المؤمن، وقد تولى ابن الأبار منصب الكتابة لهذا السيد، ولكن السيد أبا عبد الله توفى بعد ذلك بقليل فى سنة ٦٢٠هـ، وقام فى ولاية بلنسية مكانه ولده السيد أبو زيد عبد الرحمن، فاستمر ابن الأبار فى منصبه كاتباً للوالى الجديد، وزادت حظوته ومكانته. ولم يلبث أن غدا موضع ثقة السيد وتقديره، وكان ذلك بالنسبة لابن الأبَّار بداية حياته السياسية، التى أخذت من بعد ذلك تتقلب فى مراحلها المتعاقبة المحزنة.

وقد اضطربت الأحوال فى بلنسية أثناء ولاية السيد أبى زيد عبد الرحمن حتى

استقر الأمر فيها أخيرًا لأبى جميل زيان بن مردانيش الذى أسند مهمة الكتابة أيضًا لابن الأبَّار.

ولما اشتد ضغط النصارى فى إسبانيا على مدينة بلنسية أُوفِد ابن الأبَّار سفيرًا إلى سلطان تونس أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى حفص للاستعانة به ضد نصارى إسبانيا مقابل اعتراف سكان بلنسية وأميرها بسيادة الدولة الحفصية، وكان ذلك عام ٦٣٦هـ (١٢٣٨م). ولكن بلنسية لم تصمد طويلاً فسقطت أمام هجمات النصارى فى نفس العام (٦٣٦هـ). وكان ابن الأبَّار قد استقر رأيه على الانتقال مع جميع أفراد أسرته إلى تونس للإقامة هناك. وقد استقبله أبو زكريا سلطان الحفصيين فى تونس استقبالاً حسنًا وولاَّه وظيفة الكتابة، ثم غضب عليه السلطان نظرًا لشدة اعتداده بنفسه ثم صفح عنه بوساطة المستنصر ابن السلطان. وكتب ابن الأبَّار كتابه المسمى «إعتاب الكُتَّاب» فى هذه المناسبة، وأهداه إلى السلطان. وبعد وفاة أبى زكريا تولى ابنه المستنصر شئون الحكم فقرب ابن الأبَّار، ولكنه غضب عليه بعد ذلك عندما نقل إليه بعض خصوم ابن الأبَّار أنه يتآمر على السلطان فكان مصيره القتل فى أوائل سنة ٦٥٨هـ (١٢٦٠م).

وقد ترك لنا ابن الأبار تراثاً حافلا من المنثور والمنظوم، والمصنفات التاريخية الجليلة. وأقوى وأروع ما صدر عن ابن الأبار، من نثر ونظم، هو ما كتبه أيام انهيار الأندلس، وأيام سقوط وطنه بلنسية من القصائد والرسائل، التى ما زالت تحتفظ برنينها المبكى. وقد انتهت إلينا قطعة مخطوطة من ديوانه تحفظ اليوم بخزانة الرباط الملكية. وأما تراثه التاريخى، فهو من أنفس ما انتهى إلينا عن تاريخ الأندلس وتاريخ رجالاتها، ولاسيما فى القرن السادس الهجرى، وأوائل القرن السابع . وقد كان ابن الأبَّار كاتباً، ومعاصراً لكثير من الحوادث التى يرويها.

وأهم مصنفاته التاريخية هو بلا ريب كتاب «التكملة لكتاب الصلة»، وهو موسوعة حافلة فى التراجم، يتخللها كثير من النبذ التاريخية الهامة. وقد وضعه ابن الأبار تنفيذاً لإشارة أستاذه أبى الربيع بن سالم كبير علماء شرق الأندلس يومئذ، وأريد به أن يكون «تكملة» لكتاب الصلة لابن بشكوال القرطبى.

ويقول لنا ابن الأبار إنه كان قد انتهى من وضع كتاب التكملة فى سنة ٦٣٦ هـ، ولكن هناك ما يدل على أنه لبث ينقحه ويزيد فيه حتى أواخر سنة ٦٥٥هـ، أعنى إلى ما قبل

وفاته بنحو عامين. وظاهر من محتويات التكملة أن ابن الأبار يعنى عناية خاصة بعلماء شرق الأندلس، وأحداثه التاريخية، وهى المنطقة التى ولد فيها، وسلخ فيها شبابه، واكتمل نضجه، واتصل بالعدد الجم من علمائها.

ويلى كتاب الصلة فى الأهمية كتاب «الحلة السيراء»، وهو أيضاً مجموعة نفيسة من تراجم رجال الأندلس والمغرب وغيرهم، تبدأ من المائة الأولى للهجرة حتى أوائل المائة السابعة. ولكتاب الحلة أهمية خاصة، ذلك لأنه يقدم إلينا خلال التراجم التى وردت به، نصوصاً تاريخية فى منتهى الأهمية، لا توجد فى مصادر أخرى ، ولا سيما عن بعض رجالات عصر ملوك الطوائف، وعصر الثورة ضد المرابطين ، هذا فضلا عما تتسم به معظم التراجم من روح الإنصاف والحياة.

وقد قام الدكتور حسين مؤنس، بنشر طبعة كاملة محققة من «الحلة السيراء» فى مجلدين (القاهرة سنة ١٩٦٤م).

ومن معاجم التراجم التى وضعها ابن الأبَّار أيضاً كتاب «المعجم فى أصحاب القاضى أبى على الصدفى السرقسطى».

وهذه هى معاجم التراجم الكبيرة التى انتهت إلينا من تراث ابن الأبَّار. وهنالك ما يدل خلال بعض تراجم التكملة أن ابن الأبار قد وضع معجماً لشيوخه، ومعجماً آخر فى أصحاب القاضى ابن العربى. وانتهت إلينا من قلمه مجموعة صغيرة أخرى من التراجم فى كتابه «إعتاب الكتاب» تشتمل على تراجم طائفة من كتاب الأندلس وبعض الكتاب المشارقة.

ولابن الأبَّار مؤلفات أخرى منها كتاب «دور السمط فى أخبار السبط» وهو مؤلف يشير إليه المقرى فى «نفح الطيب» ويقتبس منه، وكتاب «معدن اللجين فى مراثى الحسين»، وهو كتاب يشير ابن الأبار نفسه إلى أنه قام بتأليفه. ويوجد بمكتبة الإسكوريال كذلك مخطوط عنوانه «تحفة القادم» من تأليف ابن الأبَّار يوصف بأنه «مقتضب من كتاب تحفة القادم»، وهو حسبما يصفه ابن الأبَّار فى الديباجة «اقتضاب من بارع الأشعار»، وفيه يورد ابن الأبار تراجم بعض الشعراء الأندلسيين والغرباء ومختارات من أشعارهم، وذكر ابن الأبار فى الحلة أن له مؤلفاً آخر عنوانه «إيماض البرق فى أدباء الشرق».

هذه لمحة فى التعريف بابن الأبار وتراثه الفكرى: وقد خلدت لنا آثار ابن الأبار صوراً حية من محنة الأندلس وعوامل انهيارها، لم يستطع كاتب آخر، من معاصريه، أن يقدم

إلينا شيئاً يدانيها. وقدمت إلينا مرثياته عنها صوراً مفجعة تذيب القلب أسى، ومن ذلك قصيدته السينية الرائعة ورسالته المبكية فى رثاء بلنسية. هذا وما زالت آثار ابن الأبار حتى يومنا، أهم وأوثق مصادرنا عن تلك الفترة المشجية من التاريخ الأندلسى.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١- تراجم إسلامية للمؤرخ محمد عبد الله عنان ص ٣٤٢- ٣٥٣ بتصرف.
٢- الأعلام للزركلى ٦/٢٣٣.
٣- ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات. جـ ٢. بولاق : ١٢٩٩هـ.
٤- د. حسين مؤنس : مقدمة تحقيقه لكتاب «الحلة السيراء» لابن الأبار. القاهرة. دار المعارف : ١٩٨٥م.
٥- محمد عبد الله عنان : تراجم إسلامية. القاهرة. مكتبة الخانجى.
٦- مادة «ابن الأبَّار» فى دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية. القاهرة. دار الشعب.

إبراهيم بن أدهم «الصوفى»
(... - ١٦١ هـ = ... - ٧٧٨ م)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور.

ذكر ابن الملقن فى ترجمته له أنه وُلد بمكة، وطافت به أمه على الخَلْق، وسألتهم الدعاء له أن يكون صالحًا، وتوفى حوالى سنة ١٦١هـ الموافق ٧٧٨م.

وكان أهله من بلخ، وهى مدينة مشهورة بخراسان، وكان أبوه أميرًا من أمرائها أو ملكًا من ملوكها، فنشأ كما ينشأ أبناء الملوك والأمراء، الذين يرفلون فى النعيم، ويتمتعون بالطيبات، ويعيشون حياة الترف والسرف، والانشغال بصنوف اللهو والمتعة، والبعد عن حياة الجد والعمل، ومن شأن الانشغال بهذا اللون من الحياة أن يؤدى إلى صدأ النفس، وانطفاء الجانب الروحى فيها، وقد يؤدى لدى بعض الأشخاص إلى نوع من القلق الذى يدفع إلى التساؤل عن الغاية من مثل هذه الحياة اللاهية اللاعبة، وربما دفع صاحبه إلى التمرد عليها، ومحاولة التخلص من إسارها، وتظل النفس مترددة بين أثقال النعيم وأشواق الروح، حتى يحدث ما يؤدى إلى تغليب واحد من هذين النمطين المتضادين، فإن كان مثل هذا الشخص ملحوظا بعين العناية فإن الله يسوق إليه من أنوار الهداية ما يجذبه إلى حمى الطاعة، ويمنحه برد اليقين، وقد وقع شىء من هذا لإبراهيم بن أدهم، الذى سئل عن أسباب هدايته لسلوك طريق الله، فأجاب بأنه كان من أبناء الملوك، وكان يخرج للصيد، فخرج راكبًا فرسه، ومعه كلبه، فبينما هو على هذه الحال إذ رأى أرنبًا، أو ثعلبًا، فاتجه إليه ليصطاده، فسمع نداء من ورائه يقول: ليس لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فالتفت يمنة ويسرة؛ لينظر هذا الذى يناديه، فلم يجد أحدًا، فظن ذلك من تلعّب الشيطان به، ثم انطلق مرة أخرى إلى الصيد، فسمع الصوت يقول له مثلما قال له من قبل، وتكرر ذلك ثلاث مرات، وفى بعض الروايات أنه سمع قائلا يتلو قوله تعالى: ﴿ **أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون** ﴾ (المؤمنون: ١١٥) وعندئذ أدرك أن هذا ليس خاطرًا شيطانيا، وإنما هو خاطر رحمانى،

ونداء ربانى، يريد الله به أن ينقذه من تلك الحياة التى يعيشها، وأن يجذبه إلى ساحات الفضل، ومنازل القرب، ومدارج الكمال، فقال لنفسه: جاءنى نذير رب العالمين، والله لا عصيت الله بعد يومى هذا، ما عصمنى ربى، فرجع إلى أهله، وتخلَّى عن فرسه، وأخذ جبّة صوف من أحد رعاة أبيه، ثم اتجه إلى حياة الزهد والتقشف، وتنقل فى حياته الجديدة بين البلاد، فدخل مكة، وصحب بها عددًا من كبار العلماء والزهاد، ومنهم سفيان الثورى، والفضيل بن عياض، ثم ذهب إلى الشام وطرسوس، ولم يكن تصوفه عزلة وانقطاعًا عن الحياة، وهروبًا من المشاركة فى أعبائها، بدعوى التوكل والعبادة، بل إنه كان تصوفًا عمليا إيجابيا، وكان من مظاهر هذه الإيجابية أنه - وهو من أبناء الملوك - كان حريصًا على العمل، حصادًا أو حراسة أو طحنًا أو حملا أو سعيًا فى تحصيل حوائج الناس، أو ما شابه ذلك من الأعمال، فلم يرتض المسألة طريقًا كما قد يفعل بعض المنتسبين إلى الصوفية، ممن هانت عليهم أنفسهم، فلم يحفظوا كرامتها، وكان شديد الحرص على أكل الحلال الطيب، ينتقل وراءه من بلد إلى بلد، ومن شاهق إلى شاهق، ومن جبل إلى جبل، لأنه كان يرى أنه لم ينبُل فى هذا الطريق إلا من كان يعقل ما يدخل جوفه.

ومما يدل على طبيعة تصوفه أنه التقى بشقيق البلخى بمكة، فقال له إبراهيم: «ما بدء حالك الذى بلَّغك هذا؟ قال: سرت فى بعض الفلوات، فرأيت طيرًا مكسور الجناحين فى فلاة من الأرض، فقلت: أنظر من أين يرزق هذا، فإذا أنا بطير قد أقبل، وفى فِيهِ جرادة، فوضعها فى منقاره، فاعتبرت، وتركت الكسب، وأقبلت على العبادة. فقال إبراهيم: ولم لا تكون أنت الذى أطعم المكسور حتى تكون أفضل منه أما سمعت عن النبى ﷺ: «**اليد العليا خير من اليد السفلى**»، ومن علامة المؤمن أن يطلب أعلى الدرجتين فى أموره كلها حتى يبلغ منازل الأبرار».

وكان - كذلك - يشارك فى الغزو والجهاد، ثم كان يتعفف عن قسمه من الغزو والغنيمة، فلم يأخذ منها سهما ولا نفلا، وقد ظل يشارك فى الجهاد حتى مات شهيدا فى إحدى الصوائف، مريضًا بمرض البطن.

وقد أحلَّه الصوفية مقامًا عظيمًا، وأجلُّوه إجلالا كبيرًا، وبدأوا به تراجمهم لطبقات الصوفية، كما فعل القشيرى وابن الملقن، أو جعلوه من أوائل رجالهم وأعلامهم، كما فعل السُّلَمى، وعنى به الأصبهانى فى الحلية عناية بالغة، وأورد له ترجمة مطولة.

ذكر له الصوفية أقوالا كثيرة فى الزهد

والورع والإخلاص والتوكل، والثقة بالله ـ عز وجل ـ ونجتزئ من هذه الأقوال جميعا بقوله:

إنك لن تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات:

أولاها: تغلق باب النعمة، وتفتح باب الشدة.

والثانية: تغلق باب العز، وتفتح باب الذل.

والثالثة: تغلق باب الراحة، وتفتح باب الجهد.

والرابعة: تغلق باب النوم، وتفتح باب السهر.

الخامسة: تغلق باب الغنى، وتفتح باب الفقر

والسادسة: تغلق باب الأمل، وتفتح باب الاستعداد للموت.

هذا، وقد ذهب بعض الدارسين لحياة ابن أدهم، وخاصة من المستشرقين، إلى أن صورته قد صيغت على مثال قصة بوذا، والحق أنه قد يوجد تشابه ظاهرى، يتمثل فى تحوّل كل منهما من حياة الترف التى كان عليها إلى سلوك طريق الزهد والاستنارة الروحية، ولكن كل شخصية منهما تتجه بعد ذلك وجهة مختلفة، تختلف بحسب نوع الإيمان، والمصدر الدينى، وملامح الشخصية الفردية التى لا تكاد تتفق بين شخصين، وقد قال الصوفية: الطرق إلى الله بعدد نفوس بنى آدم، أو بعدد النجوم، وينبغى أن تدرس كل شخصية فى نطاق بيئتها وثقافتها، وفى ظل الدين الذى تؤمن به، كما ينبغى أن نقف بحذر تجاه دعاوى التأثير والتأثر التى أصبحت أشبه بالحُمَّى فى دراسات بعض المستشرقين.

أ.د. عبد الحميد مدكور

مراجع للاستزادة:

١ - طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى.

٢ - حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ٣٦٧/٧ - ٣٩٥، ٣/٨ - ٥٨.

٣ - الرسالة القشيرية لأبى القاسم عبد الكريم القشيرى ٥١/١ وما بعدها.

٤ - طبقات الأولياء لابن الملقن ٥ - ١٥.

إبراهيم أدهم الدمرداش
(١٩٠٦ - ١٩٨١م)

هو إبراهيم بن أدهم الدمرداش شيخ المهندسين المصريين فى العصر الحديث، ومن القلائل الذين جمعوا فى حياتهم بين عدد من المناصب الرفيعة، حيث عين عميدًا لهندسة القاهرة ثم نقيبًا للمهندسين، ثم رئيسًا لجميعة المهندسين المصرية بالإضافة إلى مشاركته فى مجمع اللغة العربية وأكاديمية البحث العلمى والمجلس الأعلى للجامعات.

ولد إبراهيم أدهم الدمرداش بالقاهرة عام ١٩٠٦م، وتوفى عام ١٩٨١م.

تلقى تعليمه الابتدائى بمدرسة حلوان، والثانوى بالمدرسة الخديوية، وبعد أن حصل على البكالوريا التحق بمدرسة الهندسة الملكية بالجيزة، وحصل على دبلومها عام ١٩٢٥م، وسافر فى بعثة إلى سويسرا، وحصل على دبلوم الهندسة المدنية من جامعة زيورخ عام ١٩٢٨م، وعين مساعدا للأستاذ الدكتور ليوبولد كارنر بهذه الجامعة.

ثم حصل على الدكتوراه فى العلوم الهندسية عام ١٩٣٠م، وقضى بعد ذلك ثلاث سنوات بالحقل الهندسى العملى بشركات GHH,MAN، وكروب بألمانيا، ثم فى دورمان لونج بإنجلترا.

عاد إلى القاهرة عام ١٩٣٥م، لكى يعين بمدرسة الهندسة الملكية (كلية الهندسة الآن) مدرسًا، ورقى أستاذًا مساعدًا عام ١٩٣٩م، وأستاذا فى عام ١٩٤٤م.

وعندما أصبحت المدرسة كلية فى جامعة القاهرة (فؤاد الأول) شغل منصب أستاذ كرسى حساب الإنشاءات، وكرسى الكبارى والإنشاءات المعدنية، وفى هذه الفترة كان الشغل الشاغل لأكثر مصممى الطائرات المدنية والحربية هو السرعة، وكيف تستطيع المحافظة على سرعتها العالية للمسافات الطويلة.

وقد عمل الدكتور إبراهيم الدمرداش فى البحوث المختلفة للوصول إلى هذه النتائج، وكان يعمل فى نقاط معينة هى حبل سطوح الطائرات ملساء وهياكلها انسيابية، وتوجيه رجال المعادن لصناعة سبائك جديدة يلزم أن

تكون خفيفة وقوية تعطى قوة حصان واحد لكل رطل من وزنها.

ولقد خطر لبعض المهندسين الذين زاملهم بعد الحرب العالمية الأولى، أن يشركوه فى تجارب معهم لدفع كميات أكبر من الهواء فى أسطوانات آلة الطائرة بدلا من الاعتماد على سحب الهواء من الجو، وسرعان ما ثبت إسكان ذلك، وظهر الشاحن الهوائى الجديد، وبدأ استعماله بداية من عام ١٩٤٢م، وتوسعت دائرة استخدام الشاحنات الهوائية، وكان الشاحن الهوائى هو واحد من البحوث الكثيرة التى عمل فيها مع مجموعات عمل أدت كلها إلى زيادة إتقان عمل الطائرات وزيادة استعمالها تجاريا وحربيا.

وقد شغل منصب عميد كلية الهندسة بجامعة القاهرة ثلاث مرات عام ١٩٥٢م وعام ١٩٥٤م وعام ١٩٦٢م، وانتخب عضوا باللجنة الدائمة للجمعية الدولية للكبارى والإنشاءات عام ١٩٥٢م، وانتخب نقيبا للمهندسين فى أعوام ١٩٥٥م، ١٩٥٦م، ورئيسا لجمعية المهندسين المصرية من ١٩٧٨م، حتى وفاته ١٩٨١م.

ونال جائزة الدولة التقديرية فى العلوم التطبيقية عام ١٩٦٨م. وعين عضوا فى مجلس إدارة معهد أبحاث البناء، ومجلس جامعة الأزهر، واللجنة العليا لأبحاث الفضاء الخارجى، وبالمجلس الأعلى للجامعات، ومجلس أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجى، ومستشارا فنيا لهيئة إنقاذ معابد فيلة، والهيئة العامة لتطوير المحالج والسقيفة القديمة للسعى بمكة المكرمة، وقبة الصخرة، وقبة جامع محمد على بالقلعة وغيرها. وانتخب لعضوية المجمع عام ١٩٧٣م فى الكرسى الذى خلا بوفاة المرحوم الدكتور عبدالرازق السنهورى.

وعلى مدى تاريخه العلمى أسهم الدكتور الدمرداش فى العديد من الاستشارات الفنية، وعلى الصعيد الدولى كان الدمرداش عضوًا باللجنة الدائمة للجمعية الدولية للكبارى والمنشآت منذ عام ١٩٥٢م، كما منح ميدالية هذه الجمعية عام ١٩٨٠م.

وله مؤلفات علمية فى مجال الهندسة. وقد ألقى عدة محاضرات عام ١٩٥٩م فى أكاديمية العلوم فى بودابست عاصمة المجر وفى جامعة فيينا بالنمسا واشترك فى أغلب المؤتمرات الدولية للكبارى والإنشاءات بزيورخ ١٩٢٨م، وباريس ١٩٣٢م، وبرلين ١٩٣٦م، وليبيج ١٩٤٨، وكمبردج ١٩٥٢م واستكهولم ١٩٦٠م، وأمستردام ١٩٧٢م، وفيينا ١٩٨٠م ورأس بعض جلساتها.

كما ساهم فى مؤتمرات الجمعية الدولية للمبانى العالية، وذلك بخلاف المؤتمرات

العربية الهندسية بالقاهرة والإسكندرية والرياض والمغرب.

وإلى جانب النواحى الهندسية التخصصية، فقد كان المرحوم الدكتور إبراهيم الدمرداش على معرفة وثيقة باللغة العربية وساهم فى نشاط مجمع اللغة العربية ولجانه. مثل لجنة الرياضة ولجنة الفيزيقا ولجنة العلوم الهندسية.

وقد قامت اللجنة بإعداد معجم عام للفيزيقا، شاملا جميع فروعها وتطبيقاتها، وتقبله مجلس المجمع ومؤتمره بقبول حسن، وأضفى عليه من التهذيب والتنقيح ما استكمل به مقومات الأصالة والدقة. ويقع المعجم فى جزءين يتناولان نحو خمسة آلاف مصطلح فيزيقى حديث معرف تعريفا معجميا مع مقابلاتها باللغة الإنجليزية ومرتبة ترتيبا أبجديا، ويشتمل فى نهايته على فهرس مرتب بالحروف الهجائية العربية. وتعتز هذه اللجنة.. بالمجمع بإهداء هذا الإنتاج إلى الزملاء المشتغلين بالعلوم الأساسية عامة والعلوم الفيزيقية خاصة، إسهاما منها فى حل قضية تعريب التعليم الجامعى فى الوطن العربى بتوفير لبنات بنائه على أساس راسخ.

أما بحوثه العلمية المنشورة فتزيد على الأربعين بحثا، كتب أكثرها باللغتين الإنجليزية والألمانية التى يجيدها وبالعربية، وترجم بعضها إلى الفرنسية والمجرية، وهى فى مجال ميكانيكا الإجهادات الناشئة عن العزوم وفى الأعتاب الشبكية وفى الأعتاب الإطارية وفى المصبعات، وفى حساب العقود المشدودة، والأعتاب المقواة، والإطارات المقفلة وحساب الإجهادات فى أركان الإطارات والهياكل الإنشائية، وحساب الكبارى المتحركة وانبعاج الأضلاع والألواح والهياكل الملحومة، وطرق الإرخاء المتتابع إلى آخره، وقد نشرت هذه البحوث بالمجلات العلمية المتخصصة فى الخارج والداخل. وكثيرا ما كانت مجالاً للتنويه والذكر فى المراجع الأجنبية.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١ - مجمع اللغة العربية : معجم الفيزيقا الحديثة، جـ١ ١٩٨٣م.

٢ - محمد مهدى علام : المجمعيون فى خمسين عاما. مجمع اللغة العربية، القاهرة ١٩٨٦م.

٣ - محمد الجوادى : مصريون معاصرون «إبراهيم الدمرداش» الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٩م.

إبراهيم حمـروش
(١٢٩٧ - ١٣٦٩هـ = ١٨٨٠-١٩٦٠م)

ولد الشيخ إبراهيم حمروش عام ١٢٩٧هـ الموافق ١٨٨٠م فى قرية الخوالد التابعة لمركز إيتاى البارود من أعمال محافظة البحيرة، ونشأ فيها والتحق بكُتّابها، فحفظ القرآن الكريم حين بلغ الثانية عشرة من عمره، فأرسله والده إلى الأزهر، وتوفى - رحمه الله - فى ١٣٦٩هـ الموافق ١٩٦٠م.

كان علمًا من أعلام الأزهر الكبار تبوأ فى الجامع الأزهر ثلاثة مناصب كبرى. المنصب الأول أنه كان أول عميد لكلية اللغة العربية عام (١٩٣١ - ١٩٤٤م).

المنصب الثانى أنه كان ثانى عميد لكلية الشريعة عام (١٩٤٤ - ١٩٤٥م). المنصب الثالث أنه كان شيخا للأزهر (١٩٥١ - ١٩٥٢م).

على أن الأطرف من هذا كله أنه كان فى أول حياته بالأزهر من الذين تولوا تدريس العلوم الرياضية حين سُمح بتدريسها فى هذا الجامع العريق، كما كان فى مرحلة مبكرة من حياته من رجال القضاء المبرزين. اجتمعت له القدرة على وظائف التدريس والقضاء، فقد بدأ حياته مدرسًا فى الأزهر بعد حصوله على شهادة العالمية القديمة، وهو فى السادسة والعشرين من عمره ((١٩٠٦م)، تقدم لامتحان شهادة العالمية، وكان صغير السن بين أقرانه في ذلك الحين. وكان امتحان العالمية فى أصول الفقه يكون فى مسألة من مسائل مقدمة «جمع الجوامع»، ورأى شيخ الأزهر الشيخ عبد الرحمن الشربينى تجاوز المقدمة والامتحان فى مسألة أخرى حتى لا يقصر الطلبة جهودهم على المقدمة، فعيَّن مسألة للامتحان فى القياس فتخلف عن الامتحان كثير ممن جاء موعد امتحانهم، فأتيح التقدم لمن بعدهم، وتقدم الشيخ حمروش وتعرض لامتحان دقيق عسير، وفاز فى هذا الامتحان، وكان الطالب يقضى فى الامتحان سحابة نهار، ولكن الشيخ لم يتجاوز ثلاث ساعات، وكان الامتحان فى أربعة عشر عِلْمًا.

أُختير مدرساً فى مدرسة القضاء الشرعى (سبتمبر ١٩٠٨م) فى أول عهدها، فى الوقت

الذى كان أغلب مدرسيها من خريجى دار العلوم، وبعد ثمان أعوام أُختير ليتولى القضاء (١٩١٦م) وبقى فى منصب القضاء الشرعى فترة من الزمن، وفى هذا السلك عرف الشيخ محمد مصطفى المراغى وعرفه، فلما تولى المراغى مشيخة الأزهر عمل على نقله للأزهر حيث كان من أبرز معاونيه فى إدارته للأزهر، ولما أخذ الجامع الأزهر بنظام الكليات وقع عليه الاختيار ليكون أول عميد لكلية اللغة العربية (١٢ يونيو ١٩٣١م) وكان شاغل هذا المنصب يسمى «شيخ الكلية» هكذا فإن هذا القاضى الشرعى أُختير شيخاً لكلية اللغة العربية وبفضل تمكن علماء الأزهر فى ذلك الوقت من كل العلوم الشرعية والعربية فإنه لم يخطر ببال أحد يومها أن يقول: إن الأولى به أن يكون عميداً لكلية الشريعة، أو أن الأولى بكلية اللغة العربية أن يكون عميدها من العاملين بالتدريس أو الأدب، ومن الجدير بالذكر أن هذا الشيخ الجليل أصبح أيضاً بعد سنوات (١٩٤٥م) شيخاً لكلية الشريعة فكأنه تنقل فى مجال التدريس بين معاهد عُليا ثلاث على مدى سنوات تبدو متباعدة كان أستاذاً فى مدرسة القضاء الشرعى (١٩٠٨م) وبعدها بثلاثة وعشرين عاما (١٩٣١م) أصبح شيخاً لكلية اللغة العربية وبعدها بأربعة عشر عاماً (١٩٤٥م) أصبح شيخاً لكلية الشريعة.

على الصعيد العلمى والأكاديمى نال الشيخ حمروش عضوية هيئة كبار العلماء فى (يونيو ١٩٣٤م) برسالته عن «عوامل نمو اللغة» وكان حين تقدم لعضوية هذه الجماعة عميداً لكلية اللغة العربية.

تتعدد المواقف الصلبة الشامخة فى حياة هذا الرجل، ومنها موقفه حين صممت حكومة النقراشى باشا على تعيين الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخاً للأزهر فما كان منه إلا أن استقال من منصبه كعميد لكلية الشريعة.

وفى سبتمبر ١٩٥١م أُختير شيخاً للأزهر فى عهد وزارة الوفد وقد أفتى بمشروعية الكفاح المسلح ضد الإنجليز فى منطقة قناة السويس، ولهذا تربص به الإنجليز ولم يكن من الممكن إقالته فى عهد وزارة الوفد ذات الأغلبية الشعبية، ولكنه ترك منصبه عقب خروج الوفد من الحكم مباشرة وبالتحديد فى ٩ فبراير ١٩٥٢م.

كان للشيخ حمروش موقف وطنى محدد المعالم تماماً فى كل قضايا السياسة، وبلغ إيمانه وتعبيره عن الذروة فى أثناء فترة الكفاح المسلح فى القناة التى سبقت قيام ثورة ١٩٥٢م.

قد لفتت الصحافة الإنجليزية النظر إلى

خطورة فتاويه التى أحل فيها دم جنود الاحتلال البريطانيين، ولهذا لم يكن من المتوقع أن يبقى فى هذا المنصب فى ظل الاحتلال.

وقد تلقى الفقه الحنفى عن الشيخ أحمد أبى خطوة واختص به، وكان يثنى عليه كثيراً، وأخذ عن الشيخ محمد بخيت المطيعى، وأخذ النحو عن الشيخ على الصالحى المالكى.

ولزم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فى دروسه وأخذ عنه «أسرار البلاغة» و «دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجانى و«البصائر النصيرية» فى المنطق.

وكان إلى جانب اشتغاله بعلوم الدين واللغة يشتغل بالعلوم الرياضية، وكان رياض باشا قد وعد بمكافآت مالية لمن يفوز فى امتحانات الرياضة ففاز الشيخ فى هذه الامتحانات غير مرة.

كان الشيخ حمروش واحداً من الأعضاء العشرين الأوائل الذين تأسس بهم مجمع اللغة العربية سنة ١٩٣٢م، وبالترتيب الأبجدى فإنه أولهم، وقد أُختير معه لعضوية هذا المجمع خلفه فى منصب شيخ الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين. أما سلفاه فى المشيخة محمد مصطفى المراغى، ومصطفى عبد الرازق فلما يدخلا مجمع اللغة إلا بعده، وبالتحديد فى ١٩٤٠م.

وعرض مجمع اللغة العربية فى بعض جلساته لرسم المصحف وطلب إلى الشيخ أن يكتب رأيه، فكان رأيه الوقوف عند الرسم المعهود له، وعدم تغيير كتابته إلى الرسم العادى، لأنه عرضة للتغيير والتبديل فى كل عصر، فلو أبيح هذا لتعدد رسم المصحف، وكان مظنة لأن يعزى إليه الاختلاف، فحفظ القرآن وصونه يقضى بإبقاء رسمه على الكتبة الأولى.

وله بحث قيم فى التضمين ونيابة بعض الحروف عن بعض. وبحث فى «الاشتقاق الكبير».

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ـ مشيخة الأزهر: على عبد العظيم.

٢ـ دراسة فى صناعة القرار السياسى : د. محمد الجوادى.

٣ـ محمد على النجار : تأبين الفقيد: مجلة مجمع اللغة العربية.

٤ـ المجمعيون فى خمسين عاما: محمد مهدى علام.

إبراهيم محمد عبد القادر المازنى
(١٣٠٨ - ١٣٦٨هـ = ١٨٩٠ - ١٩٤٩م)

هو إبراهيم بن محمد بن عبد القادر المازنى.

ولد فى التاسع عشر من أغسطس سنة ١٣٠٨ هـ = ١٨٩٠م، لأب يسمى محمد عبد القادر المازنى، ويذكر إبراهيم المازنى أن أباه من أصل عربى صميم، وأن كلمة مازنى نسبة إلى قبيلة مازن، وأن من أجداده مالك بن الريب التميمى، كما يذكر أن جدته لأمه مكيَّة، وأن نسبه بهذا يلتقى على عروبة صريحة وأصيلة من ناحية أبيه وأمه.

مات أبوه فى طفولته الباكرة، وبدد أخوه الأكبر الثروة التى كان منتظرًا أن ينعم بها، وبهذا واجه منذ مطلع حياته شظف العيش، وحاول أن يشق طريقه فيها معتمداً على نفسه، ولكن ذلك لم يكن يسيرًا عليه، حتى ذكر أنه لم يستطع أن يدخل مدرسة الحقوق لعجزه عن دفع الرسوم المقررة لها، وهكذا نشأ الطفل فى أسرة عربية لها ثقافتها الدينية.

تعلم المازنى فى المدارس الابتدائية فالثانوية، ثم هيئ له أن يدخل كلية الطب، ولكنه لم يلبث أن انصرف عنها، لأن حسه لم يقو على مشاهدة أول درس للتشريح، وولَّى المازنى وجهه شطر مدرسة المعلمين، وتخرج فيها معلِّمًا.

ثم رأى المازنى أن يترك الوظيفة التى تقيد حريته، فاستقال من الوظيفة سنة ١٩١٤م.

وانتقل إلى الصحافة لأنها تنقله من جو المدرسة الضيق إلى جو المجتمع الرحب، ومن قيود الوظيفة إلى حياة أكثر تحررًا،

كتب فى صحف كثيرة، منها: الدستور، والأخبار، والبلاغ، وأقبل على كتابة المقال، والنقد، والقصة، وكانت هذه أخصب فترة فى حياته، بما أنتج فيها من آثار أدبية متعددة الجوانب.

لم تقف حياة المازنى الثقافية عند ما تلقاه فى التعليم، بل كانت دراسته الحرة من أهم العوامل فى تكوينه، وقد صحبته على مدى حياته، وكان ملمًا بالفرنسية، وكان يجيد الإنجليزية إجادة القادر المتمكن، وكان له فيها ميل قوى إلى الاطلاع، فأقبل على كبار الكتاب والشعراء العرب يقرأ لهم، وساعدته

إجادته الإنجليزية على أن يقرأ عن سعة فى الأدب الغربى، وممن قرأ لهم (بيرون، وشيلى، وشكسبير)، كما دفعته بيئته الدينية ـ التى نشأ فيها ـ إلى دراسة الأديان المقارنة بعمق، وعن وعى عميق، وقد رشحه ذلك إلى أن ينتخب عضوًا فى المجمع اللغوى، وظل به حتى مات سنة ١٣٦٨هـ = ١٩٤٩م.

انصبت المحن على المازنى متتابعة قاسية، حيث مات أبوه وهو فى سن الطفولة، وبدَّد أخوه ثروته، ولم يشق طريقه التعليمى كما يهوى، وكافح ليعيش ويعول نفسه وأسرته، واضطر أن يستقيل من وظيفته، وأن يدخل فى غمار العمل بالمدارس الأهلية، وتزوج، ثم ماتت زوجته، فتزوج بأخرى أنجب منها ثلاثة أبناء وبنت، ولكن القدر اختطف البنت وهى فى سن الزهور، كل هذه المحن صحبها حس يجسم الآلام، ويزيد من وطأتها على مشاعره، كما صحبها تكوين جسمى يميل إلى الضآلة، وربما زاد هذا التكوين من تجسيمه لهذه الآلام.

وإلى ذلك كله أصيب بعرج، بسبب سقوطه من على سلم، كان يصعده ليأتى بالدواء لزوجته الثانية، التى ماتت هى الأخرى وتركت له صبية ثلاثة، كان عليه أن يرعاهم، كل هذه الهموم تجمعت عليه، وكان منها بين أمرين: إما أن يقتل نفسه، وإما أن يتغلب عليها باستهانته بها، وهو ما حدث، تحول إلى السخرية بالحياة وما فيها، وكانت هذه السخرية من أهم المعالم فى شخصيته، ولكنها لم تكن سخرية استخفاف بالحياة وما فيها، بل سخرية قائمة على مزيد من الحس بها، وقد مات المازنى فى ١٢ من أغسطس سنة ١٩٤٩م.

كانت لشخصية المازنى أثرها الواضح فى أدبه، جرب آلام الحياة فى نفسه، وفى أمته التى قتلها الاستعمار، وكانت تجربته فى نفسه وفى أمته مرتكزًا لأدبه.

انطلقت أكثر مقالاته وبعض قصصه من محور حياته الذاتية، وكان ذلك طبيعيًا من كاتب يعتز بذاته وبأدبه، ويدفعه هذا الاعتزاز إلى عدم تسخير قلمه للأغراض المادية التى سيطرت على كثير من الأقلام.

صور البيئة من حوله فى البيت والشارع وفى المدرسة والصحافة والريف والمدينة وغيرها، وكان وثيق الصلة بالبيئة المصرية المحلية، ولهذا وصفها بدقة، حتى إنه لم يدع شيئًا يدور فيها إلا وصوره، ولم يكن فى كتاباته بعيدًا عن ذاته.

دخل غمار المجتمع فعبر عما يعانيه من الاستعمار، وله مقالاته التى يهاجم فيها الاستعمار.

كان ناقدًا مرهف الحس عميقًا فى نقده،

يأتى به ملفوفًا حينا، حتى تحس أنه يريد أن يفلت بلباقة، وحينًا تراه صريحًا مجاهرًا يمدح إذا رأى ما يستحق المدح، ويذم إذا رأى ما يستحق الذم اللاذع، وممن تناولهم بالنقد: ابن الرومى، وحافظ، وشكرى، ومن الكتاب: المنفلوطى، وطه حسين.

من أهم مؤلفاته :

مقالاته التى جمعت فى كتبه (حصاد الهشيم) و (قبض الريح) و (صندوق الدنيا) و (خيوط العنكبوت) و (من النافذة) و (على الماشى).

قصصه ومنها (إبراهيم الكاتب) و (إبراهيم الثانى) و (عود على بدء) و (ثلاثة رجال وامرأة).

والنقاد يرون أنه فى أسلوبه قصصى بفطرته، ولكنه لا يستوفى فى قصصه العناصر والمقومات الفنية، وهم يتفقون على أن نتاجه فى هذا المجال زاخر بالقيم الإنسانية والجمالية.

ترجماته: وقد كان من أبرع المترجمين وأقدرهم على انتقاء أدق العبارات فيما يترجم، وله من ذلك ـ قصة (ابن الطبيعة)، و(مختارات من القصص الإنجليزى) ومسرحية (الشاردة).

كذلك كان المازنى شاعرًا، وكان يصدر فيه عن طبيعة مواتية.

أ. د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة :

١ ـ إبراهيم الثانى، المازنى، مطابع دار الشعب ١٩٧٠م القاهرة.

٢ ـ النقد والنقاد المعاصرون. د. محمد مندور، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ـ بدون تاريخ، طـ القاهرة.

٣ ـ فى الأدب الحديث، عمر الدسوقى، ط الخامسة، دار الفكر العربى، القاهرة سنة ١٩٦٤م.

٤ ـ عباس العقاد: كلمته فى حفل استقبال المازنى، وفى حفل تأبينه فى مجمع اللغة العربية.

٥ ـ الأعلام للزركلى جـ ٧٢/١.

ابن الأثير
(٥٥٥-٦٣٠هـ = ١١٦٠-١٢٣٣م)

عز الدين ابن الأثير هو أبو الحسن على ابن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عبد الواحد الشيبانى، ويعرف بابن الأثير الجزرى نسبة إلى مسقط رأسه جزيرة ابن عمر (من بلاد الجزيرة فى شمال العراق). كان مولده فى الرابع من جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة من الهجرة (١١٦٠م) وكانت وفاته فى شعبان سنة ثلاثين وستمائة (١٢٣٣م). وعز الدين ابن الأثير هو ثانى ثلاثة إخوة من العلماء يعرفون بابن الأثير. أما أكبرهم فهو النحوى المحدِّث مجد الدين أبو السعادات المبارك صاحب كتاب «النهاية فى غريب الحديث» وأما أصغرهم فهو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله البلاغى المشهور وصاحب كتاب «المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر». وأما وسطهم ـ وهو عز الدين ـ صاحب الترجمة ـ فقد اشتهر بالتاريخ وبرع فيه حتى أصبح أهم مؤرخ فى عصره دون منازع.

شهدت جزيرة ابن عمر النشأة الأولى لعز الدين ابن الأثير حيث تلقى بها دروسه الأولى، ثم رحل مع أسرته إلى الموصل فسمع من كبار شيوخها وعلى رأسهم الفقيه المحدث عبد الله ابن أحمد الخطيب الطوسى، كما زار بغداد مراراً وتلقى العلم فيها على يد الفقيه الشافعى أبى القاسم يعيش بن صدقة وأبى أحمد عبد الوهاب بن على الصوفى وغيرهما. ثم رحل إلى بلاد الشام فزار حلب ودمشق والقدس، وفى حلب أتيحت له فرصة اللقاء مع المؤرخ المشهور شمس الدين ابن خلكان صاحب «وفيات الأعيان». ويصف ابن خلكان لقاءه بعز الدين ابن الأثير فيقول: «اجتمعت به فوجدته رجلاً مكملاً فى الفضائل وكرم الأخلاق وكثرة التواضع فلازمت الترداد إليه. وكان بينه وبين الوالد، رحمه الله تعالى، مؤانسة أكيدة، فكان بسببها يبالغ فى الرعاية والإكرام. ثم إنه سافر إلى دمشق فى أثناء سنة سبع وعشرين (وستمائة)، ثم عاد إلى حلب فى أثناء سنة ثمان وعشرين، فجريت معه على عادة الترداد والملازمة».

وبعد انتهاء رحلة ابن لأثير إلى الشام ولقائه بكبار علمائها عاد إلى الموصل التى كان قد اتخذها موطنا، وبها كانت وفاته كما أشرنا فى صور الترجمة.

وقد ترك عز الدين ابن الأثير عدداً من التلاميذ الذين نهلوا من علمه واعترفوا بفضله، ويأتى على رأسهم شمس الدين ابن خلكان الذى. وقد كان ابن خلكان المولود سنة ٦٠٨هـ فى مطلع شبابه حين التقى بابن الأثير فى العقد الثالث من القرن السابع الهجرى، أى فى فترة تكوينه العلمى، ولاشك أن الأثر العلمى لهذه التلمذة كان عظيماً. والواضح أن ابن الأثير عندما ذاع صيته فى العلم أصبح بيته مقصد طلاب العلم من كل مكان.

ومما يؤكد المكانة العلمية لابن الأثير تلك المؤلفات الحافلة التى مازالت تمثل مراجع أساسية للباحثين فى التاريخ الإسلامى وعلومه حتى يومنا هذا.

ومن أهم مؤلفاته :

١ - الكامل فى التاريخ: يأتى هذا الكتاب على رأس مؤلفات ابن الأثير جميعا فى الأهمية. وهو سفر تاريخى ضخم يتألف من اثنى عشر مجلداً، ويحذو ابن الأثير فى كتابه هذا حذو ابن جرير الطبرى فى تاريخه المشهور، فهو تاريخ عام يبدأ ببدء الخليقة وينتهى بنهاية أحداث سنة ٦٢٨هـ (١٢٣١م)، أى قبل وفاة ابن الأثير بعامين. ويعتمد ابن الأثير فى الأجزاء السبعة الأولى من تاريخه وفى مطالع الجزء الثامن (حتى نهاية سنة ٣٠٢هـ على تاريخ الطبرى؛ ولكنه يحذف أسانيد الطبرى الطويلة ويختصر الكثير من رواياته. أما بقية الأجزاء التى تغطى الفترة من سنة ٣٠٣هـ حتى سنة ٦٢٨هـ (٩١٥ - ١٢٣١م) فهى تمثل الأهمية الحقيقية لتاريخ ابن الأثير، وقد اعتمد ابن الأثير فى هذه الأجزاء على عديد من المصادر بعضها لم يصل إلينا، كما سجل أحداث عصره والأحداث القريبة من عهده تسجيلاً دقيقاً، ومن ذلك ـ على سبيل المثال ـ أحداث الحروب الصليبية التى يُعَدُّ كتاب «الكامل» من أوفى مصادرها. وقد عاصر ابن الأثير البدايات الأولى لحملات المغول على العالم الإسلامى وسجلها تسجيلاً حيًا نابضًا بوصفه شاهد عيان. ومما يميز تاريخ ابن الأثير بصفة عامة أنه وازن بين تاريخ المشرق والمغرب الإسلاميين، فلم يطغ اهتمامه بهذا على اهتمامه بذاك، كما أنه تحلى بالروح النقدية، فكان لا يأخذ الأخبار على عواهنها، بل يمحصها ويرفض منها ما لا يصمد أمام النقد. ويضاف إلى ذلك ما اتسم به أسلوب ابن الأثير من سلاسة وعذوبة واختصار.

وهذا كله يُعطى لكتاب «الكامل» مكانة متميزة بين مصادر التاريخ الإسلامى. وقد تعددت طبعات «الكامل» فى ليدن وبيروت والقاهرة وغيرها.

٢ - الباهر فى الدولة الأتابكية: وهو تاريخ للدولة الزنكية فى الموصل منذ قيامها على يد عماد الدين زنكى سنة ٥٢١هـ (١١٢٧م) حتى وفاة الملك نور الدين أرسلان شاه بن مسعود ابن مودود بن زنكى سنة ٦٠٧هـ (١٢١١م). وابن الأثير يروى الكثير من أحداث هذه الفترة رواية شاهد عيان. والمسرح الأساسى لهذه الأحداث مدينة الموصل التى اتخذها موطنًا له. وهذا يعطى كتابه قيمة كبيرة. ولكن ما يأخذه عليه بعض الباحثين أنه لا يتحلى فى هذا الكتاب بكامل موضوعيته إذْ يحابى أمراء الدولة الزنكية وخاصة عندما يتحدث عن علاقتهم بصلاح الدين الأيوبى وهى علاقة كانت مشوبة بالتوتر. وقد طبع «الباهر» فى القاهرة سنة ١٩٦٣م بتحقيق الأستاذ عبد القادر أحمد طليمات.

٣ - أُسْدُ الغابة فى معرفة الصحابة: وهو موسوعة تراجم تضم حوالى سبعة آلاف وسبعمائة من أصحاب رسول الله ﷺ. وقد رتب المؤلف تراجمه ترتيباً هجائياً وخصص الجزء الأخير لتراجم النساء. ولم يكن ابن الأثير أول من كتب فى تراجم الصحابة فقد سبقه كثيرون فى هذا المضمار من بينهم محمد بن سعد - صاحب الطبقات الكبرى - وابن عبد البر - صاحب الاستيعاب فى معرفة الأصحاب وغيرهما. ولكن كانت لابن الأثير ميزة استفادة اللاحق من جهود السابق، فجاءت موسوعته أكثر إحكامًا وترتيباً، كما ذكر مصادره، وضبط الأسماء المتشابهة ضبطًا دقيقًا بالحروف وشرح الأسماء الغريبة التى اشتملت عليها بعض التراجم وصوب بعض الأخطاء التى وقع فيها من سبقه من المؤلفين. وقد طبع «أسد الغابة» غير مرة، ومن بين طبعاته طبعة محققة صدرت عن دار الشعب بالقاهرة.

٤ - اللباب فى تهذيب الأنساب: و«الأنساب» الذى قام ابن الأثير بتهذيبه فى «اللباب» هو الكتاب الذى يعرف بهذا الاسم للسمعانى. وقد تناول السمعانى فى كتابه: الأنساب إلى القبائل والبطون كالقرشى والهاشمى وإلى الآباء والأجداد كالسليمانى والعاصمى، وإلى المذاهب فى الفروع والأصول كالشافعى والحنفى والأشعرى والمعتزلى، وإلى الأمكنة كالبغدادى والموصلى، وإلى الصناعات كالخياط والقصاب وذكر أيضا الصفات والعيوب والألقاب. فلو زعم زاعم «أنه قد استقصى الأنساب لكان بالحق ناطقا» كما يقول ابن الأثير. ولكن ابن الأثير كانت له

مآخذ على هذا الكتاب، فقد لاحظ أنه «قد أطال واستقصى حتى خرج عن حد الأنساب. وصار بالتواريخ أشبه». ثم يقول ابن الأثير: «ومع ذلك ففيه أوهام قد نبهت على ما انتهت إليه معرفتي منها، وهي في مواضعها فشرعت حينئذ في اختصار الكتاب والتنبيه على ما فيه من غلط وسهو». ومن هنا فكتاب «اللباب» ليس مجرد اختصار لكتاب «الأنساب»، بل فيه مراجعات وتصويبات؛ ولهذا أصبح عمدة الباحثين في بابه.

وهناك لابن الأثير - غير ما ذكرنا - كتاب مفقود اسمه أدب السياسة. ولكن كتبه التي بين أيدينا - وخاصة كتاب «الكامل» - تجعله ينافس في مكانته كمؤرخ محمد بن جرير الطبري.

أ. د. عبد الرحمن سالم

مراجع للاستزادة:

١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٣. بيروت. دار صادر: ١٩٧٠م.
٢ - بروكلمان (كارل): تاريخ الأدب العربي، جـ٦. ترجمة السيد يعقوب بكر. القاهرة. دار المعارف: ١٩٨٣م.
٣ - دائرة المعارف الإسلامية: مادة ابن الأثير (الطبعة العربية)، جـ/١. القاهرة. دار الشعب.
٤ - شاكر مصطفى: التاريخ العربي والمؤرخون. جـ/٢. بيروت. دار العلم للملايين: ١٩٨٧م.
٥ - راجع مقدمة تحقيق «أسد الغابة»، طبعة دار الشعب، جـ١، ص ٦ - ٧.
٦ - ابن الأثير: مقدمة كتاب «اللباب في تهذيب الأنساب»، ص ٨.

أحمد البدوى
(٥٩٦ - ٦٧٥ هـ = ١٢٠٠ = ١٢٧٦م)

هو أحمد بن على بن إبراهيم.

ولد بمدينة فاس المغربية فى زقاق الحجر، عام ٥٩٦هـ الموافق ١٢٠٠م. وأدى مع أبيه وأهله شعائر الحج عام ٦٠٩هـ. وأقام بمكة إلى أن توفى أبوه ودفن بها عام ٦٢٧هـ، فرحل البدوى بصحبة أخيه حسن إلى العراق. ومما ورد من تاريخه، أن أمه كانت تدعى "فاطمة"، أما أبوه فلم تذكر الروايات عن أمره شيئًا. وتتصل سلسلة نسبه بالإمام «علىّ» رضي الله عنه، وتمتد إلى معد وعدنان.

وتوفى عام ٦٧٥هـ الموافق ١٢٧٦م.

وله جملة ألقاب منها :

- "البدوى" : لأنه كان يلبس اللثام على عادة بدو أفريقيا.
- "العطّاب" : لقب به فى مكة؛ وهو لفظ مغربى يعنى : الفارس المقدام.
- "أبو الفتيان" : وهو نفس معنى العطّاب.
- "الغضبان" : لقب به فى مكة أيضًا.

كما قيل له : "مهارش الحرب"، و"أبوالعباس".

ودعاه الناس لصوفيته بـ"القدسى"، و"القطب"، و"الصامت". كما دعى فى عصر متأخر بـ"أبى الفرج". ولما شب أحمد البدوى امتاز بالفروسية والفتوة. وقد قرأ القرآن الكريم بالأحرف السبعة عام ٦٢٧هـ = ١٢٣٠م. كما درس شيئًا من فقه الشافعى، وعكف على العبادة وأصبح شافعيًا، ثم اتجه بفكره إلى التصوف وامتنع عن الزواج حينذاك، كما هى عادة المريدين فى أول الطريق. واعتزل الناس وعاش فى صمت لا يفصح عما يجول فى نفسه إلا إشارة، كما أصبح فى "وَلَه" دائم.

ولما هاجر إلى العراق مع أخيه، أخذا فى زيارة قبور الأولياء المعروفة هناك من أمثال : الحلاج (المتوفى عام ٣٠٩هـ)، وعبد القادر الجيلانى (المتوفى عام ٥٦١هـ)، وأحمد الرفاعى (المتوفى عام ٥٧٨هـ)، وغيرهم. وقد

أثرت تلك الزيارات فى نفس أحمد البدوى، واتجه وجدانه اتجاهًا روحيا. ولما عزم للسفر إلى طنطا، عاد أخوه إلى مكة.

وفى طنطا اتخذت حياته لونًا خاصًا؛ حيث كان يصعد إلى سطح بيت معين، ويرفع عينيه صوب الشمس حتى يحدث بهما احمرارٌ يشبه الجمرة المتقدة، وكان تارة يطول صمته، وأخرى يتصل صراخه، وربما امتنع عن الطعام والشراب ما يقرب من أربعين يومًا، على عادة بعض النساك والزهاد.

ولقى فى طنطا وما جاورها أصدقاء، كما لقى خصومًا. لكن صلته توثقت بـ"عبد العال" الذى صار خليفته بعد وفاته. ويحكى أن تلاميذه ومريديه كانوا يسمون بـ "السطوحية"؛ لأنهم اعتادوا المكث فوق السطح معه.

وقد وصف البدوى بأنه كان ضخمًا قويًا، عريض العظام، قمحىّ اللون، أقنى الأنف، عليه شامتان. وكان يلبس بِشتًا من الصوف الأحمر، وكان يقوم الليل على تلاوة القرآن الكريم، وكان حضوره أكثر من غيابه.

مشروعه الحضارى :

صار البدوى من كبار فقهاء الشافعية، ثم اتجه إلى التصوف السنى يلتمس فيه السموّ الروحى، لكن بناء على علم وفقه وتطبيق للشريعة الإسلامية. وكان محبًا لمجالس العلم ومقابلة العلماء فى كل مكان حلّ فيه، فى مكة، والعراق، ومصر. ولذا كان منهجه هو التربية الروحية، التى تقوم على العقيدة الصحيحة، وعلى الأخذ بأحكام الشريعة، ومكارم الأخلاق.

وأصبح السيد أحمد البدوى عالمًا وإمامًا وحجة، وترك تراثًا لم يصل لنا منه إلا القليل، ولكن المهم أنه ترك مدرسة كبيرة فى الفكر الصوفى تقوم على ثلاثة أسس هى: القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، ومكارم الأخلاق.

وكانت الطريقة الأحمدية تسير على هذا المنهج من حيث التمسك بالكتاب والسنة والصدق والوفاء والصفاء وحفظ العهد وتحمل الأذى. وبذلك ينحو البدوى فى التصوف منحى أخلاقيًا، شأنه فى ذلك شأن كبار الزهاد والصوفية.

ومن منهج التربية عند البدوى: السعى إلى تحصيل العلم النافع؛ لأن الجاهل بالله تعالى

وبالشرع ليس له قيمة فى الدنيا ولا فى الآخرة. ومن لم يكن عنده "حلم" لم ينفعه علم، هذا بالإضافة إلى وجوب التحلى بالسخاء والرحمة والصبر والتقوى، فمن حرم هذه الخصال لم تكن له منزلة فى الجنة.

ولم يفت البدوى ﷺ أن يوصى كل تلميذ وكل مريد له : بأن يعمل، وألا يكذب، ولا يأتى بفاحشة، وأن يغض البصر عن المحارم، وأن يكون طاهر الذيل، عفيف النفس، خائفاً من الله، عاملاً بكتابه، ملازماً للذكر، دائم الفكر. يضاف إلى هذا الحذر من حب الدنيا، لأنه يفسد العمل الصالح. ووجوب الشفقة على اليتيم، وإطعام الطعام للمساكين والغرباء والضيفان، وعدم الشماتة بمصيبة أحد، والتجافى عن الإيذاء والغيبة والنميمة، والإحسان إلى المسىء، والعفو عن الظالم، وإعطاء من حُرِم. ويرى أن حسن الخلق من الإيمان، وأن الخلق السيىء يفسد العمل الصالح.

وتعتبر البدوية أو الأحمدية من أكبر الطرق الصوفية فى مصر؛ نظرًا لمنهجها القائم على الشريعة ومكارم الأخلاق كما رأينا.

مؤلفاته :

١ - حزب : (فهرس مكتبة برلين٣ : ٤١١، رقم ٣٨٨١).

٢ - صلوات : وقد شرحها أحد مشاهير الصوفية فى القرن الثانى عشر الهجرى، وهو عبد الرحمن بن مصطفى عيدروس، بعنوان "فتح الرحمن" (فهرس الكتبخانة الخديوية، ٧: ٧٨).

٣ - وصايا : موجهة إلى أول خلفائه "عبد العال". وهى جمل عامة ليس لها طابع شخصى؛ فهى تحث على التمسك بالكتاب والسنة، وقيام الليل، والذّكر، والطّهر، وحب الحق، والصدق، والصبر على المكروه، والوفاء بالعهد.

ويتمسك بوصاياه وتراثه كثيرٌ من أتباعه المنتشرين فى جميع أرجاء مصر ويعرفون بـ "الأحمدية"، وشارتهم العمامة الحمراء. وكذلك البيومية والشناوية، وقد أسمى "الشعرانى" نفسه "الأحمدى" لأنه كان من كبار مريديه. وله مولد يقيمه أتباعه فى موعد محدد كل عام، بمدينة طنطا.

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

مراجع للاستزادة :

١ - د. محمد عبد المنعم خفاجي : التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر. ص٩٧-٩٨، ط١، (دون تاريخ) دار العهد الجديد للطباعة بالقاهرة.

٢ - دائرة المعارف الإسلامية - مادة "أحمد البدوي" المجلد الأول، من ص ٤٦٥ إلى ٤٧٢-فولرز- ترجمة أحمد الشنتناوي وزميليه ، طبعة وزارة المعارف بمصر.

٣ - دائرة المعارف الإسلامية ١ : ٤٦٧.

٤ - د. أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي ص ٢٤٢-٢٤٣ طبع ١٩٨٣م دار الثقافة بالقاهرة.

٥ - الشيخ محمد محمود السطوحي : التصوف وأقطابه ص ٣٦-٤٢ طبعة دار الشعب ، يوليو ١٩٧٠م، العدد ١٠.

٦ - د. عامر النجار : الطرق الصوفية ص ١٥٨، طبعة ١٩٧٨م مكتبة الأنجلو المصرية.

٧ - إبراهيم أحمد نور الدين : حياة السيد البدوي - ط ٢، ١٣٦٩هـ المكتبة التجارية الإسلامية بطنطا.

٨ - أحمد محمد حجاب : العظة والاعتبار : آراء في حياة السيد البدوي الدنيوية وحياته البرزخية - طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ، ١٣٨٩هـ.

٩ - حسن رشيد المشهدي الخفاجي: النفحات الأحمدية والجواهر الحمدانية. طبع بالقاهرة عام ١٣٢١هـ.

١٠- السيوطي : حسن المحاضرة ١ : ٢٩٩ طبع عام ١٢٩٩هـ بالقاهرة.

١١- الشعراني : الطبقات الكبرى ١: ٢٤٥-٢٥١ طبع عام ١٢٩٩ هـ القاهرة.

١٢- د. عبد الحليم محمود: السيد أحمد البدوي رضي الله عنه. مطبعة دار الشعب بالقاهرة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩هـ.

١٣- عبد الصمد زين الدين: الجواهر السَّنية في الكرامات والنسبة الأحمدية. طبع القاهرة عام ١٣٠٥هـ.

١٤- عبدالقادر السندي : التصوف في ميزان البحث والتحقيق - ط ١، ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م مكتبة ابن القيم بالمدينة المنورة.

أحمد حسن الباقورى
(١٣٢٥ - ١٤٠٥هـ = ١٩٠٨ - ١٩٨٥م)

ولد أحمد حسن الباقورى عام ١٩٠٨م فى قرية باقور التابعة لأسيوط، وكان والده رجلا فقيرًا يعمل بالتجارة، التحق الصبى بمعهد أسيوط الدينى، وحصل منه على الشهادتين الابتدائية والثانوية، ثم التحق بالقسم العالى فى الأزهر، وحصل على الشهادة العالمية، انضم إلى جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٣١م، وحصل على شهادة التخصص فى البلاغة والأدب (المعادلة للدكتوراه) عام ١٩٣٦م. وكانت وفاته فى عام ١٩٨٥م فى إحدى مستشفيات لندن، ودفن بالقاهرة.

وكان الباقورى خطيبا يهز النفوس بطلاقته وبلاغته، شارك بحماس فى قضايا الوطن وقضايا الأزهر، ودخل السجن لأول مرة عام ١٩٣٤م، وفى ثورة طلاب الأزهر عام ١٩٣٥م كان الباقورى أحد أعضاء اللجنة التنفيذية العليا للطلاب، وقد كتب الأستاذ فكرى أباظة فى مجلة المصور فى ١٩٣٥/٧/١٢م يقول: «الباقورى هو مندوب الطلبة فى الخطابة، ورئيس اتحادهم أيام الإضراب، خطب الشاب فذهلت وطار لُبِّى، إلقاء متزن على أحدث طرق فى الإلقاء، ألفاظ مختارة بميزان الذهب الحر، معان كلها سمو وكلها ارتفاع، لم أصدق أن الذى يتكلم طالب أزهرى، وإنما خيل إلى أننى أسمع زعيما مسئولا من زعماء المنابر فى أوروبا».

عين الباقورى عام ١٩٣٦م مدرسا فى معهد القاهرة الدينى، ودخل السجن مرة ثانية عام ١٩٣٨م بتهمة تحريض الطلاب على الإضراب، ثم أفرج عنه واعتقل بعد ذلك عدة مرات، وتدرج فى وظائف التدريس، ثم عين وكيلا لمعهد أسيوط الدينى، فوكيلا لمعهد المنيا.

وفى عام ١٩٥٢م عين وزيرًا للأوقاف فى مصر، وكانت صلته باجتماعات الإخوان المسلمين قد قطعت منذ اختيار الأستاذ الهضيبى مرشدا عاما للجماعة، ولم تكن هذه القطيعة مفاجئة، فقد وهنت هذه الصلة قبل ذلك بالتدريج لعدم موافقته على أسلوب الجماعة فى التعامل مع خصومها.

وفى عام ١٩٥٨م أصبح وزيرا مركزيا للأوقاف بعد إعلان الوحدة بين مصر وسوريا، وفى فبراير ١٩٥٩م خرج من الوزارة وتعرض لمحنة قاسية من التشهير استمرت أكثر من خمس سنوات، ثم عين مديرًا لجامعة الأزهر عام ١٩٦٤م، وانتخب قبل ذلك عضوًا فى مجمع اللغة العربية، وفى مجمع البحوث الإسلامية، وقد شارك فى العديد من المؤتمرات الإسلامية فى كثير من بلدان آسيا وإفريقيا، وزار العديد من البلاد العربية والإسلامية، وكانت وفاته فى ١٩٨٥/٨/٢٦م فى إحدى مستشفيات لندن، ودفن بالقاهرة.

لعل أهم مؤلفات الباقورى هو كتابه عن «أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية»، وقد كان هذا الكتاب هو الرسالة العلمية التى تقدم بها لنيل شهادة التخصص فى البلاغة والأدب من الأزهر، وقد كتب الدكتور طه حسين مقدمة لهذا الكتاب.

ويبين الباقورى أن اللغة العربية تأثرت بالقرآن من طريقين:

أولهما: تأثير القرآن المباشر فى اللغة، من حيث تنقية ألفاظها من الوحشى الغريب، وتلطيف أساليبها، ولفت أنظار العرب إلى معان جديدة جعلتهم يضعون لها ألفاظا جديدة لم يكونوا يعرفونها من قبل.

وثانيهما: طريق غير مباشر، وذلك أن القرآن مكّن للعرب أن يختلطوا بغيرهم من الأمم ذات الحضارات المعروفة، والاستفادة مما لدى هذه الأمم من تجارب ومناهج للتفكير، وسائر مظاهر الحياة.

ويبين الباقورى أن هناك نوعين من التأثير للقرآن فى اللغة العربية: **أحدهما** عام **والآخر** خاص.

أما **الأثر العام** فيعنى به ما كانت اللغة بجملتها مظهرًا له، كحفظها من الزوال كما زال غيرها من اللغات.

أما **الأثر الخاص** فيعنى به ما كان لفظ اللغة أو معناها مظهرا له.

ويتمثل الأثر العام فى مظاهر أربعة:

١ - بقاء اللغة هذا الأمد الطويل يرجع إلى ارتباطها بالقرآن الكريم الذى نزلت به، فهى المرجع فى حفظه والسبيل إلى فهمه، وكل عدوان عليها يعد عدوانا عليه، والدفاع عن القرآن يستتبع الدفاع عنها لأنها السبيل إلى فهمه والإيمان به.

٢ - توحد لهجات اللغة العربية وزوال ما فيها من تناكر، وقد نزل بلغة قريش لأن «كلام قريش سهل واضح وكلام العرب وحشى غريب».

٣ - جعلها لغة رسمية فى جميع الممالك التى دخلها الإسلام، وكان هناك أمران

ساعدا على نشرها وتوسيع نفوذها: **أولهما:** محاولة الناس فهم القرآن ومعرفة أحكام الدين. **وثانيهما:** الحاجة إلى التفاهم مع الولاة والحكام.

٤ - جعلها لغة تعليمية.

أما الأثر الخاص للقرآن الكريم فى اللغة العربية، فإنه يظهر فى كل من ألفاظ اللغة ومعانيها وأغراضها وأسلوبها.

وقد تضمن كتاب الباقورى «خواطر وأحاديث» عددًا من الموضوعات الهامة التى توضح بجلاء وجهة نظره فى قضايا جوهرية: فقد عرض فى هذا الكتاب لقضية العقيدة، ووضح أساليب الفكر فى إثبات الوجود الإلهى، وردَّ على الذين يتجاهلون الفطرة الإنسانية فينكرون وجود الخالق. ثم تحدث عن ضرورة التقريب بين المذاهب الإسلامية المختلفة، وقال: «إننى أرى أن المسلمين ليسوا أقل حرصا على الوحدة، وتقريب الصفوف من المسيحيين فى دعوتهم إلى المجمع المسكونى، فى كل فترة من الزمن تحت رعاية قداسة البابا فى روما».

وقد ترجم الباقورى دعوته إلى التقريب عمليًا، بقبوله دعوة للمشاركة فى حفل تنصيب سلطان طائفة البهرة فى الهند، كما منحت جامعة الأزهر ـ عندما كان الباقورى مديرًا لها ـ درجة الدكتوراه الفخرية لسلطان البهرة، ويقول الباقورى فى ذلك: «كان قصدى من ذلك التقريب بين طائفة السنة فى مصر وطائفة الشيعة، سواء كانوا فى العراق أو إيران أو الهند، من الشيعة الإمامية أو كانوا من الشيعة الإسماعيلية».

وكما دعا إلى ضرورة التقريب بين المذاهب الإسلامية دعا أيضا إلى ضرورة تقريب مسافات الخلاف بين المسلمين والمسيحيين؛ لأن التعصب الدينى هو آفة المجتمع الإنسانى، وإذا ظل التعصب قائمًا على ما هو عليه من الحدة وسوء الانتهاز فإن المتدينين هم الخاسرون، سواء فى ذلك المسلمون والمسيحيون، وكان له نشاط بارز فى جمعية الإخاء الدينى التى تضم مسلمين ومسيحيين.

وفى كتابه «عروبة ودين» تطرَّق إلى قضية الموسيقى والغناء والتمثيل وغيرها من الفنون، فأشار إلى أن للفنون فى حياتنا آثارا عميقة الأغوار، لا ينبغى للناس أن يجهلوها، ولا يستطيعون أن يتجاهلوها؛ لأنها تتصل بعواطفنا وتلامس قلوبنا، والفن الجميل فى المجتمع الإنسانى وليد غرائز فطرية غالبة، لا مصلحة لأحد فى مقاومته والقضاء عليه، ومن هنا ينبغى العمل على جعل الفن أداة من أدوات الرحمة، ووسيلة من وسائل الأمن والطمأنينة، بعد أن ظل دهرًا طويلا وسيلة من أطوع الوسائل إلى القلق والإزعاج.

وعلى أهل الفن أن يُذكِّروا أنفسهم أن لأمتهم فى أعناقهم أمانة، لا تقل قداسة عن الأمانات التى وضعتها الأمة فى أعناق رجال الأمن ورجال الدين ورجال القانون، بل إن هذه الأمانات متوقف أداؤها إلى حد كبير على جهود أهل الفن وإخلاصهم فى بذل هذه الجهود، وإحسانهم فى تخيّر الأساليب التى يؤدون بها فنونهم، ويبثون من خلالها توجيهاتهم وإرشاداتهم، حتى يمكن بذلك القضاء على الجوانب السلبية التى تشوب الجوانب المختلفة للفنون.

وعن الدين وضرورته للإنسان يقول:

«إما أن يخضع الإنسان لله وهذا هو الدين الصحيح الذى لابد منه لسعادة البشرية، وإما أن يخضع لبشر مثله، وهذا هو ما تصير إليه الإنسانية حتما حينما تُعْرِض عن ديانات السماء؛ فالدين عند التحقيق هو تحقيق للكرامة التى كرَّم الإنسانَ بها ربُّ العالمين، فسخَّر له ما فى السموات وما فى الأرض، وسخَّره هو فى عبودية رب السموات والأرض، وهى العبودية التى يبلغ الإنسان بها أقصى ما تتطلع إليه حرية الأحرار».

ويرى الباقورى ضرورة ارتباط الأخلاق بالدين، «فالأخلاق هى العاصم الوحيد من تسخير القانون للهوى إذا شاء الحاكم ـ خضوعًا لهواه ـ أن يُسخِّر القانون، والأخلاق أيضا هى العاصم الوحيد من تسخير الدين للهوى إذا أراد الحاكم ـ خضوعًا لهواه ـ أن يُسخِّر الدين، وليس من شك فى أن الأخلاق النابعة من الدين، إذا مكَّنت لها الدولة فى الشعب، فإنه يحيا بها آمنا على ماضيه وحاضره وقابله جميعا».

من أهم مؤلفات الشيخ الباقورى:

١ - عروبة ودين ـ دار الهلال بالقاهرة ١٩٥٧م. ويشتمل هذا الكتاب على موضوعات شتى، تمثل خلاصة لمجموعة الخطب التى ألقاها فى مناسبات مختلفة، وفى حفلات عديدة.

٢ - أثر القرآن الكريم فى اللغة العربية ـ دار المعارف ١٩٦٩م.

٣ - خواطر وأحاديث ـ كتاب اليوم، ١٩٦٩م.

٤ - مع القرآن ـ مكتبة الآداب بالقاهرة ١٩٧٠م.

٥ - مع الصائمين ـ دار الشعب بالقاهرة ١٩٧١م.

٦ - القرآن آية ومنهاج ـ وفيه يتحدث عن معجزات الأنبياء، وعن وجه إعجاز القرآن الكريم، واختلاف وجهات النظر بين علماء المسلمين فى إعجاز القرآن، ثم يتناول مناهج الإصلاح للمجتمع الإسلامى، التى جاءت فى القرآن مبعوثا بها محمد رسول الله ﷺ رحمة للعالمين.

٧ - من أدب النبوة: وهو عبارة عن شرح من الناحيتين الشرعية واللغوية لحوالى مائتى حديث من الأحاديث النبوية.

وله غير ذلك مؤلفات أخرى منها: «فى الطريق إلى باندونج»؛ وهو عبارة عن مقدمة سياسية، ولكنه يدور حول تفسير الآية الكريمة: ﴿ **ويسألونك عن ذى القرنين** ﴾ [الكهف: ٨٣].

وله كتاب عن مصطفى كمال أتاتورك، يكشف فيه عن تحقق أحلام المستعمرين من هدم الدولة الإسلامية، وتفتيت وحدتها على يد أتاتورك، الذى كان معاديًا للدين ومتلهفًا على الحكم.

أما كتابه الذى نشر بعد وفاته فهو: «بقايا ذكريات». (مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٨٨م)، وفى هذا الكتاب يروى الباقورى أسرار وملابسات مشاركته فى حركة الإخوان المسلمين، التى أنشئت فى الإسماعيلية عام ١٩٢٧م، وفى حركة طلاب الأزهر التى بدأت عام ١٩٣٤م، وفى ثورة يوليو ١٩٥٢م.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ - مؤلفات الباقورى المذكورة فى المتن.

٢ - بقايا ذكريات للشيخ أحمد حسن الباقورى. مركز الأهرام للترجمة والنشر ١٩٨٨م.

٣ - إبراهيم البعثى: شخصيات إسلامية معاصرة ج٢ . دار الشعب ١٩٧٢م.

٤ - نعم الباز: الباقورى «ثائر تحت العمامة». الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.

وبالإضافة إلى ذلك قام أحد الباحثين بإعداد رسالة ماجستير فى جامعة الأزهر (كلية اللغة العربية بأسيوط) بعنوان: الباقورى شاعرًا.

٥ - المجمعيون : محمد مهدى علام.

الإمام أحمد بن حنبل
(١٦٤ - ٢٤١ هـ = ٧٨٠ - ٨٥٥ م)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل ابن هلال بن أسد الشيباني المروزي، ثم البغدادي، ينتهي نسبه إلى نزار بن معد بن عدنان، فهو عربي صريح النسب، وزاده شرفًا اجتماعه مع النبي ﷺ في جده الأعلى «نزار»، وأمه السيدة ميمونة بنت عبد الملك الشيباني، فهي شيبانية أيضًا، وكان أبوها عبد الملك من وجوه بني عامر، تنزل عليه قبائل العرب فيكرم وفادتهم، أما أبو الإمام فكان جنديًا من جنود الإسلام، المنافحين عنه، المجاهدين في سبيله، وأصله من البصرة، فاتفق له أن نزل ببني عامر فتزوج بأمه.

وقد اختلف في موضع ولادته، فقيل: خرجت أمه وهي حامل به من مرو إلى بغداد فولدته بها، وقيل: إنها ولدته بمرو ثم خرجت به إلى بغداد، وكانت ولادته في العشرين من ربيع الأول سنة ١٦٤هـ، = ٧٨٠م ولم يلبث أن ذاق مرارة اليتم، فقد توفي أبوه وهو طفل.

وبعد هذه الحياة الحافلة بالجلائل والمفاخر توفي الإمام ضحوة يوم الجمعة ١٢ من ربيع الأول سنة مائتين وواحد وأربعين = ٨٥٥م، ومشى في جنازته خلق لا يحصون، وهكذا شاء الله - سبحانه - للرجل الذي كان يفر من الشهرة أن يرفع له ذكره ويحضر جنازته ما يقرب من ألف ألف ودفن بمقبرة باب حرب، فرضي الله عنه وأرضاه.

وكان الإمام أحمد حسن الوجه أسمر طويلا، تعلوه سكينة ووقار وحشمة، وقد وصفه أحد معاصريه فقال: ما أعلم أني رأيت أحدًا أنظف ثوبًا ولا أشد تعاهدًا لنفسه في شاربه وشعر رأسه وبدنه ولا أنقى ثوبًا وشدة بياض من أحمد بن حنبل. ولا عجب فالإسلام نظيف يحب النظافة.

وأما أخلاقه، فقد اجتمعت فيه كثير من الفضائل الإنسانية العالية، حتى صار مثلا في الأولين والآخرين. ومن ذلك زهده في الدنيا مع الترفع وعزة النفس، وقد جاءته الدنيا صاغرة فأباها، إذ عرض عليه القضاء فأبى، وكاد يغضب من شيخه الشافعي لما

رشحه لولاية القضاء باليمن، وكان لا يقبل جوائز السلطان، بل بلغ من ورعه أنه امتنع من أكل خُبْز خُبِزَ فى تنور لابنه صالح لأنه كان يقبل جوائز السلطان، بل أمر بسد بابه إلى دار ابنه هذا، ومن أخلاقه حبه للعفو والتسامح، فقد جعل كل من آذاه فى الفتنة فى حل إلا المبتدعة، وتواضعه الجم، وبغضه للشهرة، وحبه أن يكون فى غمار الناس، ومن كلامه فى هذا: «طوبى لمن أخمل الله عز وجل ذكره».

وقد نشأ ببغداد وهى بلد الخلافة والعلم والحضارة حينئذ، فلقى بها من لا يحصون من أجلة العلماء، ولكنه لم يكتف بعلماء بلده، وتاقت نفسه إلى لقاء علماء الأمصار، فرحل فى سبيل تحمل الحديث المراحل البعيدة، فرحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة، وحج خمس حجج، منها ثلاث راجلا، وقد مكنت له هذه الرحلات أكبر قدر ممكن من رواية الأحاديث ولقاء الشيوخ.

وإليه ينسب أحد المذاهب الأربعة الإسلامية، وتعرف أتباعه بالحنابلة.

وقد ترك الإمام نجلين عالمين هما صالح قاضى أصبهان (٢٠٣ -٢٢٦هـ)، وعبد الله الذى يكنى به والذى حمل علم والده (٢١٣ - ٢٩٠هـ).

كان للإمام شيوخ لا يحصون كثرة، منهم هشيم، وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد القطان، وإسماعيل بن علية، وزياد البكائى، وبشر بن الفضل، والقاضى أبو يوسف صاحب الإمام أبى حنيفة، ووكيع، وعبد الرزاق، والشافعى وآخرون. لو استقصيناهم لملئت صحف.

وقد روى عنه الكثيرون، منهم البخارى ومسلم، وأبو داود، بلا واسطة، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، بواسطة، وابناه صالح وعبد الله. ومما يدل على جلالته فى الحديث رواية شيوخه عنه كعبد الرزاق، والشافعى، لكنه قال عنه الثقة ولم يسمه، وروى عنه من أقرانه على بن المدينى، ويحيى ابن معين إمام أهل الجرح والتعديل. ومن تلاميذه محمد بن يحيى الذهلى، وأبو زرعة الرازى، والدمشقى، وحرب الكرمانى، وآخرون آخرهم أبو القاسم البغوى.

كان الإمام أحمد من حجج الله البالغة فى الحفظ والرواية وصدق الحديث والتثبت، وقد جمع إلى الحفظ الفهم والفقه فى الحديث، شهد له بذلك الأئمة المبرزون الجامعون بين الفقه والرواية، وعلى رأس هؤلاء الإمام الشافعى الذى لازمه مدة ببغداد، فقد قال فيه: (خرجت من بغداد وما تركت بها أفقه ولا أزهد ولا أروع ولا أعلم من أحمد بن حنبل).

وقال المزنى: رأيت ببغداد رجلا إذا قال: حدثنا، قال الناس كلهم: صدق قلت: من هو؟ قال: «أحمد بن حنبل».

وقد وصفه إبراهيم الحربى فقال: «رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين».

والإمام أحمد فقيه ومحدث، فهو من فقهاء المحدثين كسلفه الإمام مالك ولا معول على ما قيل: إنه محدث لا فقيه، وبحسبنا دلالة على فقهه هذه الثروة الفقهية الطائلة التى حملها عنه تلامذته وأصوله التى ساروا عليها فى اجتهادهم.

كان الإمام أحمد يشدد فى قبول أحاديث الأحكام، ويتساهل فى أحاديث الفضائل. روى عنه أنه قال: «نحن إذا روينا فى الحلال والحرام شددنا، وإذا روينا فى الفضائل تساهلنا».

وقد هيأ للإمام ارتحاله إلى الأقطار ولا سيما الحجاز ثروة ضخمة من الأحاديث، وبحسبك أن تعلم أن كتابه «المسند» يضم أربعين ألف حديث، منها عشرة آلاف حديث مكررة، وهو من أكثر الفقهاء الأربعة المشهورين رواية وحديثًا.

كان الإمام أحمد أحد الأئمة المشهورين الذين ضربوا بسهم راجح فى باب الفقه والاجتهاد. وقد هيأت له معرفته الواسعة بالأحاديث النبوية، وما روى عن الصحابة والتابعين، سبيل استنباط الأحكام من الأدلة كما كانت هذه المعرفة سببًا فى قرب مذهبه من السنة واعتماده فى الأعم الأغلب على الحديث فإذا وجد حديثًا صحيحًا أخذ به ولم يلتفت إلى غيره ولا إلى من يخالفه كائنًا من كان، وإذا وجد فتوى من الصحابة عمل بها، وإذا وجد فتاوى لهم تخير أقربها إلى الكتاب والسنة، وأحيانًا يختلف الصحابة فى المسألة على قولين فيروى عن الإمام فى المسألة روايتان، «وإذا وجد حديثًا مرسلاً أو ضعيفًا رجحه على القياس، ولا يستعمل القياس إلا عند الضرورة القصوى، ويكره الفتوى فى مسألة ليس فيها أثر»[1].

وليس المراد بالحديث الضعيف الذى يقدمه على القياس الباطل، أو المنكر، أو الذى فى روايته متهم بالكذب، مما لا يجوز العمل به، وإنما المراد به قسم من أقسام الحسن وهو الحسن لغيره، فكان من أصوله إذا لم يجد أثرًا يدفعه ولا قول صحابى ولا إجماعًا على خلافه أن يقدمه على القياس، وليس هذا ببدع من الإمام، فقد عمل به جمهور الفقهاء. ولم يدون الإمام مذهبه فى كتاب لأنه كان يكره ذلك، وإنما أصحابه هم الذين جمعوا مسائله ودونوها وساروا على أصوله

فى البحث والاجتهاد، حتى غدا من ذلك ثروة فقهية ضخمة مبثوثة فى عشرات الكتب القيمة من كتب الحنابلة.

وقد تعرض الإمام لمحنة قاسية بسبب ثباته على أن القرآن الكريم كلام الله غير مخلوق.

وقد استمرت هذه المحنة من عهد الخليفة المأمون إلى عهد المتوكل، فلما ولى الخلافة استبشر الناس به، فقد كان محبًا للسنة وأهلها، وقد كان عند حسن ظن الناس به، فقد رفع المحنة وكتب إلى الآفاق أن لا يتكلم أحد فى القول بخلق القرآن. وبذلك أزال الله الكربة، وفرج عن الأمة، وأصبح الإمام محبوبا للمتوكل، أثيرا عنده، معظما فى نفسه، وقد تحمل الإمام صنوف البلاء من ضرب وسجن وتعذيب وتنكيل وتشريد، ولم يزده كل ذلك إلا إيمانا وثباتا على ما يعتقد، وقد كان الإمام أحمد على حق فى هذا الموقف، فهو إمام يقتدى به، فلو انزلق إلى هذه المقالة ولو تقية لتبعه فى مقالته الألوف الذين لا يحصون، ولضل بسببه خلق كثير، وقد عرف الأئمة للإمام هذا الموقف المشرف، فهذا على بن المدينى يقول : «إن الله أعز الدين بأبى بكر يوم الردة، وبأحمد بن حنبل يوم المحنة». ولما سئل بشر بن الحارث عن أحمد بن حنبل قال: «أنا أسأل عن أحمد؟ إن أحمد أدخل الكير فخرج ذهبا أحمر».

ولعل الإمام ورث هذه الصلابة فى الحق والشجاعة فى الرأى من والده الذى كان جنديًا من دعاة الإسلام، ثم نمى فيه هذه الوراثة ما امتلأ به القرآن والسنة، وسير السلف الصالح من بطولات وجهاد واستشهاد فى سبيل الحق.

كان الإمام أحمد شديد العناية بكتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ ، وقد أفنى عمره فيها حفظًا وفهمًا وفقهًا وتفسيرًا. ومن مؤلفاته: التفسير، والناسخ والمنسوخ، والمقدم والمؤخر، وجوابات القرآن والتاريخ، والمناسك الكبير والصغير، ورسالة فى الصلاة كتبها إلى إمام صلى وراءه فأساء فى صلاته وهى مطبوعة، وأجل مؤلفاته وأبقاها على الزمان هو كتابه «المسند» فى الحديث.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة :

١ - تهذيب الكمال، للمزى.

٢ - تهذيب التهذيب، لابن حجر.

٣ - سير أعلام النبلاء، للذهبى.

أحمد بن أبى دُؤاد
(١٦٠ - ٢٤٠هـ = ٧٧٦ - ٨٥٤م)

هو أبو عبد الله أحمد بن أبى دؤاد فرج ابن جرير بن مالك الإيادى، عربى صميم من عرب الشمال العدنانيين، ينتهى نسبه إلى إياد ابن نزار بن معد بن عدنان.

ولد بالبصرة حوالى سنة ١٦٠هـ = ٧٧٦م وتلقى بها دراساته الأولى. وكانت البصرة حينذاك من أهم مراكز الثقافة فى العالم الإسلامى، وخاصة فى مجالات اللغة الأدب وعلم الكلام. وقد شهدت مولد فرقة المعتزلة فى أوائل القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) على يد واصل بن عطاء المتوفى سنة ١٣١هـ ورفيقه عمرو بن عبيد المتوفى سنة ١٤٤هـ. وقد أكثر أصحاب واصل بن عطاء وعمرو بالبصرة وازدهر مذهب المعتزلة على أيديهم. وصحب أحمد بن أبى دؤاد واحدًا من هؤلاء المعتزلة، وهو هيَّاج بن العلاء السلمى، وكان من أصحاب واصل بن عطاء، فصار أحمد إلى الاعتزال.

اتصل أحمد بن أبى دؤاد بالخليفة المأمون فى مطالع القرن الثالث الهجرى (بعد عودة الأخير من خرسان إلى بغداد). وكان حلقة الوصل بين المأمون وابن أبى دؤاد الفقيهُ السنى يحيى بن أكثم الذى كان يشغل فى ذلك الوقت منصب قاضى البصرة. وقد طلب منه المأمون أن يرشح له جماعة من أهل العلم يجالسونه ويكثرون الدخول إليه، فاختار له يحيى جماعة على رأسهم أحمد بن أبى دؤاد. وهكذا بدأت صلة ابن أبى دؤاد بالخليفة المأمون وتوثقت، واستمرت الصلة وثيقة قوية بالخليفة المعتصم ثم الواثق. ومارس ابن أبى دؤاد خلال تلك الفترة دورا سياسيا قويا. ثم ابتلى بمرض الفالج (الشلل النصفى) فى أوائل خلافة المتوكل الذى توفى سنة ٢٣٢هـ (٨٤٧م)، واستمر ابن أبى دؤاد يعانى وطأة المرض حتى وفاته ببغداد سنة ٢٤٠هـ (٨٥٤م).

كان أحمد بن أبى دؤاد يتحلى بصفات شخصية نادرة جعلته موضع تقدير معاصريه حتى من لم يكن منهم على وفاق معه. ومن أبرز صفاته روح الإنصاف التى كان يتحلى بها والكرم وطبيعة التسامح، والرغبة فى تقديم يد العون لذوى الحاجة، والبعد عما

يؤذى شعور الآخرين. وقد احتفل شعراء عصره بهذه الصفات وسجلوها فى قصائدهم، وعلى رأس هؤلاء جميعاً إمامهم أبو تمام الذى صاغ فى ابن أبى دؤاد عددا من فرائد شعره، وهو القائل:

لقد أنْسَتْ مساوئَ كل دهر
محاسنُ أحمد بن أبى دواد

ومما قاله دفاعا عنه ضد من حسدوه لفضله:

وإذا أراد الله نَشْرَ فضيلة
طويتْ أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت
ما كان يُعْرف طيبُ عَرْف العود

ومما قاله دفاعا عنه ضد من حسدوه لفضله:

والرويات التى تروى فى سياق الحديث عن فضائل أحمد بن أبى دؤاد كثيرة .

وقد لخص ابن خلكان الجانب الخلقى عند ابن أبى دؤاد بقوله: «كان منه المكارم والمحامد ما يستغرق الوصف».

وقد كانت المكانة العلمية لأحمد بن أبى دؤاد هى السبب وراء صلته بالخليفة المأمون. فقد كان المأمون عالما واسع الأفق يحب الجلوس إلى العلماء والاستماع إليهم، وهو القائل: «لا نزهة ألذ من النظر فى عقول الرجال».

وقد بهر علمه المأمون، ومما يروى فى ذلك أن سؤالا أثير فى مجلس المأمون حول من بايع من الأنصار ليلة العقبة، فاختلف الحاضرون فى ذلك، دخل ابن أبى دواد فعدَّهم واحدا واحدا بأسمائهم وكُنَاهم وأنسابِهم، فقال المأمون: إذا استجلس الناسُ فاضلا فمثل أحمد، فقال أحمد: بل إذا جالس العالم خليفة فمثل أمير المومنين الذى يفهم عنه ويكون أعلم بما يقوله منه. وعندما كان اللقاء الأول بين المأمون وابن أبى دؤاد فى مجلس ضم نخبة من العلماء وتكلم ابن أبى دؤاد فى هذا المجلس أقبل عليه المأمون يتفهم ما يقوله ويستحسنه، ثم قال له: لا أعلمن ما كان لنا من مجلس إلا حضرته. ثم اتصل الأمر. وقد اعترف بعلم أحمد وغزارة أدبه كثيرون ممن كانوا يختلفون معه فكريًا من أهل السنة. ومما يؤكد اهتمام ابن أبى دؤاد بالعلم حرصُه الشديد على رعاية العلماء وتشجيعهم واحتضان أهل الأدب.

ومن أبرز من شملهم أحمد بن أبى دؤاد برعايته وتشجيعه العالم الأديب المتكلم عمرو ابن بحر الجاحظ، وكان الجاحظ بدوره يكن له تقديرا خاصا.

ولقد أثار الدور السياسى الذى مارسه أحمد بن أبى دؤاد فى خلافة المأمون والمعتصم والواثق كثيرا من الجدل حول شخصيته. فقد أشرنا إلى أن ابن أبى دؤاد

كان معتزليا وانضم إلى مجلس المأمون الذى عبر عن إعجابه بفكره وتقديره له، وقد أصبح المأمون أيضا معتزليا.

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد بل تعداه إلى محاولة فرض مذهب الاعتزال على الرعية خلال حكم الخلفاء الثلاثة سالفى الذكر. وقد اتضح ذلك بصفة خاصة فى قضية خلق القرآن التى أثارها المأمون والمعتزلة واستمرت فى عصر المعتصم والواثق، وحاولت الدولة خلال هذه الفترة حمل العلماء على القبول بأن القرآن مخلوق لأن القول بأن القرآن غير مخلوق قد يفضى إلى الاعتقاد بقدمه مما يعنى تعدد القدماء الذى يؤدى بدوره إلى الشرك كما ذكر المعتزلة. وقد تشدد المأمون وخليفاه المعتصم والواثق فى التمسك بعقيدة خلق القرآن وامتحنوا العلماء فيها وجلدوا بعضهم ممن أحجم عن الاستجابة لهم؛ ومن بين هؤلاء أحمد بن حنبل.

وقد أطلق المؤرخون على هذا الصراع الفكرى مصطلح «محنة خلق القرآن»، وأضاف الواثق إلى الامتحان فى خلق القرآن الامتحان فى رؤية الله يوم القيامة حيث ينكر المعتزلة إمكانية ذلك لأنها تستلزم التجسيم، والله سبحانه منزه عن ذلك. والذى يعنينا من كل ذلك هو أن ابن أبى دؤاد ينسب إليه أنه قام بالدور الأساسى فى التسلط الاعتزالى الرسمى خلال تلك الفترة؛ فقد كان مستشار الخليفة المأمون، كما تقلد منصب قاضى القضاة فى خلافة المعتصم والواثق وأشرف على محاكمات من كانوا يمتحنون فى خلق القرآن وفى رؤية الله فى الدار الآخرة.

ومن هنا حمل عليه الكثير من مؤرخى أهل السنة وحمَّلوه وزر هذه المحنة. فمما يُروى عن الصُّولى أنه قال: «كان يقال: أكرم من كان فى دولة بنى العباس البرامكة ثم ابن أبى دواد، لولا ما وضع به نفسه من المحنة، ولولاها لاجتمعت الألسن عليه». ويذكر ابن كثير أن ابن أبى دؤاد «كان موصوفا بالجود والسخاء وحسن الخلق ووفور الأدب غير أنه أعلن بمذهب الجهمية وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن وأن الله لا يرى فى الآخرة». ويتردد مثل هذا الرأى فى مصادر أخرى.

والحق أنه من الصعب على المرء أن يعتقد أن ابن أبى دؤاد كان هو المحرك الرئيسى فى هذه المحنة؛ فقد كان المأمون مستقل الرأى عميق الفكر. وهو الذى أوصى المعتصم أن يسير على نهجه فى «المحنة»، أما الواثق فقد كان يشبه عمه المأمون فى استقلاله الفكرى واتساع معارفه ولم يكن أسير توجيهات ابن أبى دؤاد. ولكن الذى ينبغى الاعتراف به هنا أن ابن أبى دؤاد كان يستطيع - على الأقل -

إبداء اعتراضه على تلك الأساليب غير المقبولة التى اتبعها الخلفاء الثلاثة فى فرض آرائهم الدينية على العلماء بالقوة، ولكنه لم يعترض ولم يصمت بل كان مشاركا فى إجراءات المحنة بوصفه مستشار المأمون ثم قاضى قضاة المعتصم والواثق، وهذا موقف ينبغى أن يكون موضع إدانة الباحثين لأن الآراء لا تفرض على الناس بسيف السلطان.

أ.د. عبد الرحمن سالم

مراجع للاستزادة:

١ - ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ١. بيروت. دار صادر: ١٩٧٠م.
٢- ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٠. بيروت. دار الكتب العلمية: ١٩٨٥م.
٣- أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، جـ٢ القاهرة: وزارة الثقافة والإرشاد القومى: ١٩٦٣م.
٤- تسترشتين - بلا: مادة أحمد بن أبى دواد فى دائرة المعارف الإسلامية: الطبعة العربية. القاهرة: دار الشعب.
٥- عبد الرحمن سالم: التاريخ السياسى للمعتزلة، القاهرة. دار الثقافة للنشر والتوزيع: ١٩٨٩م
٦ - السيوطى: تاريخ الخلفاء (طبعة دار الفكر العربى)، ص٣٧٨.
٧ - انظر مثلا: ابن العماد الحنبلى، شذرات الذهب. بيروت: دار الكتب العلمية. جـ٢، ص٩٣.

أحمد الدردير
(١١٢٧ - ١٢٠١هـ - ١٧١٥ - ١٧٨٦م)

هو أحمد بن محمد بن أحمد العدوى، أبو البركات الشهير بالدردير.

ولد أحمد الدردير سنة ١١٢٧هـ = ١٧١٥م، قبل وفاة والده بعشر سنين، فى وسط جو قرآنى وفى وسط جو من الصلاح والتقوى، وفى وسط جو من العلم والمعرفة.

وقد توفى عام ١٢٠١هـ الموافق ١٧٨٦م فى مصر ودفن بها.

كان «الكُتَّاب» هو مركز اتجاهاته منذ بدأ يخطو، وأخذ فى بواكير حياته يسمع القرآن ويتعمله كتابة وحفظًا، وكانت عناية والده به شديدة، وكان يرى فيه بداية عالم جليل، بدأ بنيانه على أسس قوية من القرآن الكريم.

لقد غرس والده فيه مكارم الأخلاق، وسار به فى طريق الله عقيدة وسلوكا، ولما انتقل إلى الرفيق الأعلى، انتقل إليه وهو مطمئن، على أن بشارته لابنه بأن يكون عالما قد وضع أسسها قوية متينة.

وأخذ أحمد يتابع الدراسة بعد وفاة أبيه، إلى أن أهلته «بنى عدى» ليبدأ دراسته بالأزهر الشريف. وذلك أنه أكمل حفظ القرآن، وأتقن تجويده، ولعله تعلم فى بنى عدى أيضًا أوليات بعض العلوم.

جاء الفتى إلى القاهرة، ولعل أضواء القاهرة بهرته أول الأمر، ولعل شيئًا من الحيرة قد ألم به فى أول عهده بالقاهرة، ولكن النبراس الذى كان يضىء فى صدره دائمًا، هو بشارة والده له بأنه سيكون من العلماء.

ودخل رحاب الأزهر بعزيمة سبقتها بشارة، دخل رحاب الأزهر وفى نفسه إجلال له، وفى نفسه حب له.

وكان مثله الكريم، هو الشيخ شمس الدين الحفنى شيخ الأزهر، وعلم الإسلام الخفاق.

ولقد كان الشيخ الحفنى له كلمته هنا وهناك، وهى كلمة مسموعة، وهذه المكانة لا تتوافر إذا كانت العلوم الشكلية الرسمية -

علوم الكتب الدراسية - هى الأساس والهدف. وإنما توافرت فى الشيخ الحفنى لأنه كان صوفيًا، مربيا، صاحب طريقة، له أتباع ومريدون.

وأخذ الفتى - أحمد الدردير - يدرس الحديث على يد الشيخ شمس الدين الحفنى، يقول الجبرتى :

«وبه تخرج فى طريق القوم».

أى أن الشيخ الحفنى لم يكن مدرسا للشيخ الدردير فحسب، وإنما كان شيخا له فى الطريق الخلوتى الذى يتخذ من القطب الكبير السيد أحمد البدوى شيخ الطريق.

ويقول الجبرتى أيضًا:

«وتلقن الذكر، وطريق الخلوتية من الشيخ الحفنى، وصار من أكبر خلفائه».

أما الفقه فقد لازم فيه الشيخ الصعيدى، يقول الجبرتى فى ذلك:

«وتفقه على الشيخ علىٍّ الصعيدى، ولازمه فى جل دروسه، حتى أنجب وأفتى فى حياة شيوخه، مع كمال الصيانة والزهد، والعفة والديانة».

وحضر بعض دروس الشيخ الملوى والشيخ الجوهرى وغيرهما ولكن جل اعتماده وانتسابه على الشيخين: الحفنى والصعيدى.

واستمر الشيخ فى الدراسة إلى أن أصبح من العلماء المعدودين، ولقد ألف فى أكثر العلوم التى كانت تدرس آنذاك.

لقد ألف فى الفقه، والتفسير، والتوحيد، والسيرة، والقراءات، وآداب البحث، والبلاغة، وجملة من الكتب فى التصوف.

وكتبه فى الفقه تدرس الآن فى الأزهر، وكتابه المسمى بالشرح الصغير، فى أربعة أجزاء كبار، يدرس فى الفقه المالكى.

وكتابه الجميل الصغير الحجم، السهل المأخذ، وهو الخريدة، يدرس فى علم الكلام.

لقد أصبح فتانا شيخا يشار إليه فى العلم، وشيخا يشار إليه فى السلوك، وكان لابد أن يحتل المكان الذى يليق به.

وحينما توفى الشيخ على الصعيدى، نظر الناس هنا وهناك، ليجدوا من ينصبوه مكانه، فما وجدوا غير تلميذه النابه الشيخ أحمد الدردير.

وعين السيد أحمد الدردير شيخا على المالكية، ومفتيا على المذهب المالكى، وناظراً على وقف الصعايدة، وشيخا على طائفة الرواق.

ويقول الجبرتى عندما ذكر مشيخته على طائفة الرواق:

«... بل شيخا على أهل مصر بأسرها فى وقته حسا ومعنى».

ويعلل الجبرتى رأيه فيقول:

«فإنه كان رحمه الله يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويصدع بالحق، ولا يأخذه فى الله لومة لائم، وله فى السعى على الخير يد بيضاء».

وللشيخ مؤلفات منها :

١- شرح مختصر خليل :أورد فيه خلاصة ما ذكره الأجهورى والزرقانى، واقتصر فيه على الراجح من الأقوال.

٢- متن فى فقه المذهب، سماه أقرب المسالك لمذهب مالك.

٣- رسالة فى متشابهات القرآن.

٤- نظم الخريدة السنية فى التوحيد وشرحها.

٥- تحفة الإخوان فى آداب أهل العرفان فى التصوف.

٦- رسالة على وارد الشيخ كريم الدين الخلوتى.

٧- شرح مقدمة نظم التوحيد للسيد محمد كمال الدين البكرى.

٨- رسالة فى المعانى والبيان.

٩- رسالة أورد فيها طريق حفص.

١٠- ورسالة فى المولد الشريف.

١١- رسالة فى شرح قول الوفائية: يامولاى ياواحد، يامولاى يادائم، يا على ياحكين.

١٢- شرح على مسائل كل صلاحة بطلت على الإمام (الأصل للشيخ البيلى).

١٣- شرح على رسالة فى التوحيد من كلام دمرداش.

١٤- رسالة فى الاستعارات الثلاث.

١٥- شرح على آداب البحث.

١٦- رسالة وشرح صلاة السيد أحمد البدوى.

١٧- شرح على الشمائل لم يكمل.

١٨- رسالة فى صلوات شريفة اسمها الورد البارق فى الصلاة على أفضل الخلائق.

١٩- التوجيه الأسنى بنظم الأسماء الحسنى.

٢٠- مجموع ذكر فيه أسانيد الشيوخ.

٢١- رسالة جعلها شرحًا على رسالة قاضى مصر عبد الله أفندى المعروف بطظرزادة فى قوله تعالى : ﴿ **يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً** ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

أ.د. عبد الحليم محمود «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - أبو البركات أحمد الدردير . د. عبد الحليم محمود بتصرف.

٢- الأعلام للزركلى، جـ١/٢٤٤.

أحمد رضا العاملى
(١٢٨٩ ـ ١٣٧٢هـ = ١٨٧٢ ـ ١٩٥٣ م)

ولد أحمد رضا بن إبراهيم بن حسين بن يوسف بن رضا العاملى فى مدينة النبطية الواقعة فى الجنوب من لبنان سنة ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م. وتعلم فيها مبادئ العلوم على علماء قريته وقرية الأنصار. ثم انقطع عن طلب العلم فترة من الزمن ثم عاد إليه فترة، وعلم نفسه بنفسه تعليما حرا.

توفى عام ١٣٧٢هـ الموافق ١٩٥٣م.

فى سنة ١٨٩١م قدم العلامة السيد حسن يوسف مكى إلى النبطية وافتتح فيها مدرسة الحميدية، وفد التحق بها أحمد رضا، طالبا ومعلما، فكان يلقى دروسًا فى النحو والصرف والمنطق والبيان على طلاب الصفوف الأولية، ويتلقى بدوره من رئيس المدرسة، دروسا فى الفقه وأصوله وعلم الكلام والفقه الاستدلالى، واشترك فى بعض الحملات التحريرية ضد الأتراك. وقد قرر المجمع العلمى بدمشق فى الثامن عشر من أكتوبر سنة ١٩٢٠م انتخابه عضوا فيه، وكانت له فى هذا المجمع مشاركات فعالة وقد كلفه سنة ١٩٣٠م بوضع معجم لغوى، فقام بذلك خير قيام وهو «متن اللغة» وسنشير إليه.

كانت له مؤلفات كثيرة بعضها طبع فى حياته وبعضها تركه مخطوطا، هذا غير المقالات اللغوية والأدبية والسياسية والتاريخية، وقصائده الشعرية التى نشرها فى مجلات متنوعة فى أماكن مختلفة مثل مجلة «المقتطف» بمصر، ومجلة المجمع العلمى العربى بدمشق ومجلة «المقتبس»، ومجلة العرفان بصبرا، وجريدة «جيل عامل» بالنبطية، ولعل أهمها: نقده لمعجم «أقرب الموارد» فى مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق فى ٣٠٠ صفحة.

من مؤلفاته المطبوعة:

١ ـ رسالة الخط.

٢ ـ هداية المتعلمين إلى ما يجب فى الدين.

٣ ـ الدروس الفقهية، فى مذهب الشيعة.

٤ ـ رد العامى إلى الفصيح.

٥ ـ معجم متن اللغة.

وقد بدأ المؤلف فى إعداد معجمه هذا عام ١٩٣٠م بتكليف من المجمع العلمى العربى بدمشق، وانتهى من إعداده سنة ١٩٣١م، ثم أخذ فى مراجعته وتنقيحه إلى عام ١٩٤٧م وقرر المجمع البدء فى طبعه بعد ذلك بعام، أى سنة ١٩٤٨م، لكن ظروف مرض المؤلف حالت دون ذلك. ثم تكونت لجنة من العلماء بعد وفاة المؤلف سنة ١٩٥٣م للإشراف على طباعته وتولت الطباعة دار مكتبة الحياة ببيروت، وظهر الجزء الأول منه سنة ١٩٥٨م والخامس وهو الأخير سنة ١٩٦١م.

ومن كتبه التى لم تطبع:

١ ـ روضة اللطائف.

٢ ـ الوافى بالكفاية والعمدة، شرح به كفاية المتحفظ لابن الأجدابى.

أ.د. ضاحى عبد الباقى

مراجع للاستزادة:

١ ـ مقدمة كتابه : متن اللغة.

٢ ـ مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق .

٣ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلى ١/١٢٥.

٤ ـ المصطلحات العلمية والفنية وكيف واجهها العرب المحدثون، للدكتور ضاحى عبد الباقى.

أحمد زكى
(١٨٩٤ - ١٩٧٥م)

ولد فى مدينة السويس ١٨٩٤م وانتقل مع أسرته إلى القاهرة، فدرس فى مدارسها الابتدائية والثانوية، وتخرج فى مدرسة المعلمين العليا (١٩١٤م)، واشتغل بالتدريس، كما عمل ناظراً لمدرسة وادى النيل الثانوية.

وكانت وفاته فى عام ١٩٧٥م.

فى ١٩١٨م بدأ بعثته العلمية إلى بريطانيا حيث درس فى جامعات ليفربول ومانشستر ولندن، كما قام بزيارات علمية إلى النمسا وألمانيا، وقد دامت دراسته عشر سنوات توَّجها بحصوله على دكتوراه العلوم D.S.c بعد دكتوراه الفلسفة.

بعد عودته عُيِّن أستاذًا مساعدًا للكيمياء فى كلية العلوم جامعة القاهرة فأستاذًا، وانتخب بأعلى الأصوات عميدًا للكلية أكثر من مرة. لكن الحكومة آثرت تعيين الدكتور على مشرفة عميداً. واختيار الدكتور أحمد زكى ليكون أول مدير مصرى لمصلحة الكيمياء (١٩٣٦)، وفى منتصف الأربعينات وقع عليه الاختيار ليكون أول مدير لمجلس فؤاد الأول للبحوث العلمية (١٩٤٥م)؛ حيث تولى إنشاء مؤسسة البحث العلمى فى مصر ونظم معاملها ومبانيها التى تعرف الآن باسم المركز القومى للبحوث.

وقد عمل وزيراً للشئون الاجتماعية مدة ثلاثة أسابيع هى مدة وزارة حسين سرى باشا الرابعة (يوليو ١٩٥٢م) وعاد بعدها إلى منصبه كمدير لمجلس البحوث، ثم اختير مديراً لجامعة القاهرة عقب قيام الثورة، وظل فى هذا المنصب إلى أن أحيل فى العام التالى (١٩٥٤م) إلى التقاعد لبلوغه الستين. وفى أثناء هذه المسيرة العلمية الحافلة كان أحمد زكى دائم الكتابة والتأليف، واختير رئيسا لتحرير مجلة الهلال الشهرية (١٩٤٧م) فطوَّرها شكلاً وموضوعًا وخاض بها مجالات علمية جديدة على الصحافة فى ذلك الوقت، وكان قبل هذا من الكُتَّاب البارزين فى مجلتى الرسالة والثقافة على حد سواء، وقد كان أحد العشرة المعينين كأعضاء فى مجمع اللغة العربية (١٩٤٦م).

وبعد تقاعده تولَّى أحمد زكى رئاسة تحرير «الهلال» دون ظهور اسمه على المجلة كرئيس للتحرير، ثم قبل أحمد زكى عرض حكومة الكويت أن يتولى إصدار مجلة شهرية مصورة عربية أدبية ثقافية جامعة، وقد أصدر العدد الأول من مجلة العربى فى ديسمبر ١٩٥٨م احتلت هذه المجلة منذ صدورها مكانة أفضل المجلات العربية على الإطلاق، وقد صدر من المجلة فى حياته مائتى عدد وخمسة كان كل عدد منها بمثابة كتاب شهرى قام على حد تعبيره هو «بتأليفه وتدقيق كل كلمة فيه».

ولا تزال المجلة حتى يومنا هذا تمثل زاداً ورصيداً وذخيرة لكل ما تناولته أو عالجته من موضوعات واستطلاعات ودراسات، وفى هذه المجلة نشر على مدى ١٧ عامًا سلسلة من المقالات المهمة.

تميزت كتاباته فى العلم بتعبير واع عن إيمان دينى عميق، دون خلط للعلم بالدروشة أو الأهداف السياسية أو الإيدولوجية، كما تميز عرضه بصفاء العبارة، ونضوج الفكرة، وذكاء التناول، والقدرة على التصوير والتقريب والتبسيط.

كان أحمد زكى واحداً من أبرز رواد الثقافة العلمية الحديثة فى جيله، وكان واحداً من أبرز أعضاء لجنة التأليف والترجمة والنشر التى تولت ترجمة عيون الأدب والحضارة الأوروبية، ونشرها فى لغة عربية جميلة.

وقد تنوعت مقالات أحمد زكى لتغطى مجالات متعددة، ومن أعماله الأدبية:

ترجمة قصة ألكسندر دوماس الشهيرة «غادة الكاميليا»، وقد نشرها عام ١٩٢٠م باسم «ذات الكاميليا» ثم نشرها باسم «غادة الكاميليا» (١٩٢٩م ، ١٩٣٨م)، كما ترجم «جان دارك» (١٩٣٨م) وطبعتها مطبعة «الرسالة».

وترجم فى الثقافة العلمية كتاب «قصة الميكروب كيف كشفه رجاله» من تأليف كريف، وكان قد نشره على فصول فى مجلة الرسالة قبل أن تنشره مطبعة المجلة (١٩٣٨م)، كما ترجم «فى أعماق المحيطات» ونشرته دار الهلال، «وبواتق وأنابيب» (١٩٦٠م) و«حيوانات نعرفها» (١٩٦١م) "ومواقف حاسمة فى تاريخ العلم" (١٩٦٣م).

وألَّف بالاشتراك مع زميله د. أحمد عبد السلام الكردانى كتاباً علمياً فى مبادئ الكيمياء طبع طبعات عديدة ومتعاقبة على مدى عقود متوالية، وكانت طبعته الأولى فى لجنة التأليف والترجمة والنشر (سبتمبر ١٩١٥م).

أما مجموعة كتبه المؤلفة فتشمل: «سلطة علمية»، وقد صدرت طبعته الأولى ١٩٤٨م و«مع الله فى السماء» وقد صدرت طبعته الأولى «١٩٤٨» وطبع طبعات عديدة بعد هذا و«مع الله فى الأرض» ١٩٧٩م و«فى سبيل موسوعة علمية» ١٩٧٧م.

وقد جمعت بعض مقالاته فى مجموعة أخرى من الكتب منها:

«ساعات السحر» (١٩٥٠م). «بين المسموع والمقروء» (١٩٥١م). «مع الناس» (١٩٥٤م) «حديث الزمان» (٢٠٠١م).

ومن آثاره العلمية تقريره الضافى عن مجلس فؤاد الأول الأهلى للبحوث، ماضيه وحاضره ومستقبله (١٩٥٣م)، ولا تزال كثير من آثاره ومقالاته ودراساته متفرقة فى الدوريات بحاجة إلى الطبع والإصدار، وقد نشر الدكتور الجوادى ببليوجرافيا كاملة لهذه المقالات فى الطبعة الثانية من كتابه عن الدكتور أحمد زكى (٢٠٠٣م)

أ. د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - تاريخ العلم. دار المعارف، ١٩٩١م، جورج سارتون.

٢ - د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه.

أحمد شاكر

(١٣٠٩-١٣٧٧ هـ = ١٨٩٢-١٩٥٨ م)

هو الشيخ أحمد بن محمد شاكر بن أحمد ابن أحمد بن عبد القادر من آل أبى علياء ينتهى نسبه إلى الحسين بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهم - لقبه أبوه: أحمد شمس الأئمة أبو الأشبال.

ولد الشيخ يوم الجمعة ٢٩ من جمادى الآخرة سنة ١٣٠٩هـ الموافق ٢٩ من يناير سنة ١٨٩٢م فى القاهرة.

وكان والده الشيخ محمد شاكر أمينًا للفتوى، مع أستاذه الشيخ العباس المهدى مفتى الديار المصرية وقتئذٍ.

ولما شب الغلام أحمد عن الطوق وبلغ من عمره ثمانى سنوات، صدرت أوامر الدولة إلى والده بالتوجه إلى السودان، ذلك أنه أسند إليه منصب قاضى القضاة هناك، بتاريخ ١١ من شهر مارس سنة ١٩٠٠م عقب خمود الثورة المهدية، وفى الخرطوم عاصمة السودان التحق أحمد شاكر بكلية غوردون، واستمر بها حتى عاد به والده إلى مصر إثر نقله لتولى مشيخة علماء الإسكندرية، فى ٢٦ من إبريل سنة ١٩٠٤م، فالتحق أحمد بمعهد الإسكندرية الدينى الذى كان والده شيخا له.

وعندما عين الشيخ محمد شاكر وكيلاً للأزهر، فى ٢٩ من إبريل سنة ١٩٠٩م عاد بابنه أحمد إلى القاهرة حيث انتظم فى الدراسة بالأزهر، حتى حصل على العالمية سنة ١٩١٧م.

ولقد لقى الشيخ أحمد شاكر ربه راضيًا مرضيًا، فى فجر يوم السبت ٢٦ من ذى القعدة سنة ١٣٧٧هـ، الموافق ١٤ من يونيه سنة ١٩٥٨م.

قرأ الشيخ على أبيه فى الإسكندرية تفسير البغوى، وتفسير النسفى، وصحيح مسلم، وسنن الترمذى، والشمائل المحمدية للترمذى، وجزءًا من صحيح البخارى. وقرأ عليه «جمع الجوامع» فى أصول الفقه، وشرح الأسنوى على المنهاج، وكذا قرأ كتاب «الهداية» فى فقه الحنفية، إلا أن والد الشيخ كان حر التفكير مجانبًا للتعصب المذهبى، عنه ورث الشيخ ذلك.

ومن الذين درس عليهم الشيخ أحمد شاكر، الشيخ محمود أبو دقيقة وخاصة فى الفقه وأصوله، وكان له على الشيخ أثر طيب.

والتقى بالشيخ أحمد بن الشمس الشنقيطى فأجازه بجميع علمه. وأخذ عن الشيخ عبد الله بن إدريس السنوسى عالم المغرب ومحدثها، جلَّ صحيح البخارى، وأجازه برواية البخارى وبقية الكتب الستة.

والتقى بالشيخ محمد جمال الدين القاسمى الدمشقى عندما زار مصر ولزمه، وأخذ منه توجهه السلفى ونبذ التعصب، وعلق الشيخ على رسالة القاسمى عن المسح على الجوربين.

ولقى بالقاهرة الشيخ طاهر الجزائرى عالم الشام الرحالة، والتقى بالشيخ الإمام محمد رشيد رضا.

وبعد حصول الشيخ أحمد محمد شاكر على العالمية من الأزهر الشريف سنة ١٩١٧م، تم تعيينه مدرسا بمدرسة ماهر، ولكنه لم يبق غير أربعة أشهر ثم عين موظفًا قضائيًا، ثم تدرج فى وظائف القضاء حتى أحيل إلى المعاش فى ١٩٥٢/١/٢٩م حينما كان عضوا بالمحكمة العليا الشرعية، وكانت له أحكام مشهورة فى القضاء الشرعى قضى فيها باجتهاده غير مقلد ولا متبع. ولكنه لم ينقطع خلال ذلك عن دراساته وتحقيقاته العلمية فى التراث الإسلامى قليل.

كان الشيخ أحمد محمد شاكر أحد العلماء البارزين فى القرن العشرين، وما من محدث جاء بعده إلا وأثنى عليه، كالشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، وعلماء الهند، والشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ ابن عثيمين، والشيخ محمد حامد الفقى، وهم مجمعون على فضله فى علم الحديث وأصول الفقه ونبذ التعصب. وكما أثنى عليه علماء الشريعة أثنى عليه علماء اللغة وأدباؤها، ومعاهد المخطوطات العربية والإسلامية تَعْرِف للشيخ فضله فى نشر المخطوطات، وتحقيقها تحقيقا متقنًا، ووضع الفهارس، وتنظيمها، والعناية بها وإخراجها فى الصورة التى ينبغى أن تخرج بها كنوز التراث الإسلامى.

لقد كان أحمد شاكر علمًا من أعلام العصر، وذلك بشهادة كل من عرفه أو عاصره، أو قرأ له سواء فى مصر، أو فى العالم العربى والإسلامى، وكل المتصلين بالتراث الإسلامى من مسلمين وغير مسلمين مشرقيين ومستشرقين.

وللشيخ أحمد شاكر مؤلفات وتحقيقات كثيرة منها:

١ - إصلاح المنطق لابن السكيت (ت

٢٤٤هـ). (تحقيق) بالاشتراك مع عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٩م.

٢ - الأصمعيات للأصمعى (تحقيق) بالاشتراك مع عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٥م.

٣ - الشرع واللغة. (تأليف)، نشرته مطبعة المعارف ومكتبتها، القاهرة ١٩٤٤م.

٤ - الشعر والشعراء لابن قتيبة (ت٢٧٦هـ). (تحقيق) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: ١٩٥٠م.

٥ - الكامل فى الأدب للمبرد (ت ٢٨٥هـ). (تحقيق)، الجزءان الثانى والثالث فقط، مكتبة مصطفى الحلبى، القاهرة ١٩٣٧-١٩٣٨م. أما الجزء الأول فقد حققه الدكتور زكى مبارك.

٦ - الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين. (تأليف) وهى المطبوعة سابقًا بعنوان (الشرع واللغة). مكتبة السنة، القاهرة ١٤٠٨هـ.

٧ - لباب الآداب للأمير أسامة بن منقذ. (تحقيق) مكتبة سركيس، القاهرة ١٩٥٣م.

٨ - المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم، لأبى منصور الجواليقى (ت ٥٤٠هـ). (تحقيق وشرح)، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٩٤٢م.

٩ - المفضليات للضبى. (تحقيق) بالاشتراك مع عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢.

١٠ - تفسير الجلالين (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

١١ - تفسير الطبرى (ت ٣١٠هـ). (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ابتداء من سنة ١٩٥٥م وقد ظهر منه حتى وفاته سنة ١٩٥٨م عشرة مجلدات.

١٢ - جامع البيان فى تفسير القرآن لمعين الدين محمد الإيجى الصفونى، تصحيح محمد حامد الفقى، و (مراجعة) أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٩٣٦م.

١٣ - عمدة التفسير اختصار تفسير ابن كثير (ت ٧٧٤هـ). (تحقيق)، صدر منه خمسة أجزاء فقط، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٥٨.

١٤ - منجد المقرئين ومرشد الطالبين لابن الجزرى (ت ٨٣٣هـ). (تحقيق)، مكتبة القدسى، القاهرة ١٩٣١م.

١٥ - هداية المستفيد فى أحكام التجويد للشيخ أبى ريمة. (تحقيق)، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

١٦ - الأصول الثلاثة للشيخ محمد بن

عبد الوهاب (ت ١٢٠٦هـ). (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

١٧ - الرسالة التدمرية لابن تيمية (ت٧٢٨هـ). (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

١٨ - عقيدة أهل السنة والجماعة لابن الجوزى (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

١٩ - العقيدة الواسطية لمحمد بن عبد الوهاب. (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٢٠ - الفتوى الحموية الكبرى لابن تيمية. (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٢١ - القواعد الأربع لمحمد بن عبدالوهاب. (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٢٢ - كتاب التوحيد لمحمد بن عبدالوهاب. (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٢٣ - لمعة الاعتقاد لابن قدامة المقدسى. (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٢٤ - المناظرة فى العقيدة الواسطية لمحمد بن عبد الوهاب. (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٢٥ - إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد (ت ٧٠٢هـ).(تحقيق). مكتبة السنة/ القاهرة.

٢٦ - الأربعون النووية للإمام النووى (تحقيق) دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٢٧ - ألفية السيوطى فى علم الحديث. (تحقيق) دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٣٤.

٢٨ - ألفية العراقى فى مصطلح الحديث للعراقى (ت ٨٠٦هـ). (تحقيق) بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٢٩ - الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) (تحقيق) مكتبة محمود توفيق، القاهرة ١٩٣٧م.

٣٠ - خصائص مسند الإمام أحمد لأبى يوسف المدينى (ت٥٨١). (تحقيق) نشر فى الجزء الأول من مسند الإمام أحمد، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٦م.

٣١ - سنن الترمذى (ت ٢٧٩هـ).(تحقيق)، طبع منه جزءان ولم يكمله، وأكمله الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٩٣٧م.

٣٢ - صحيح ابن حبان بترتيب الفاسى (ت٢٧٩هـ). (تحقيق)، طبع منه الجزء الأول فقط، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٢م.

٣٣ - مختصر سنن أبى دواد للمنذرى، ومع معالم السنن للخطابى، مع تهذيب ابن قيم الجوزية. (تحقيق)، بالاشتراك مع الشيخ محمد حامد الفقى، مطبعة أنصار السنة المحمدية، القاهرة ١٩٥٠م.

٣٤ - مسند الإمام أحمد (ت٢٤١هـ). (تحقيق)، نشر منه خمسة عشر جزءًا، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٦ - ١٩٥٨م.

٣٥ - المصعد الأحمد فى ختم مسند الإمام أحمد لابن الجزرى (ت٨٣٣هـ). (تحقيق)، طبع فى الجزء الأول من مسند الإمام أحمد، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٦م.

٣٦ - مفتاح كنوز السنة لفنسك. ترجمة محمد فؤاد عبد الباقى. (تقديم)، أحمد محمد شاكر، مطبعة مصر، القاهرة ١٩٣٤م.

٣٧ - نخبة الفكر فى مصطلح أهل الأثر لابن حجر العسقلانى (ت٨٥٢هـ). (تحقيق وشرح) دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٣٨ - أبحاث فى أحكام (فقه وقضاء وقانون). (تأليف)، وهى مجموعة أحكام أصدرها الشيخ أحمد شاكر حينما كان يتولى مناصب القضاء، دار المعارف، القاهرة ١٩٤١م.

٣٩ - الإحكام فى أصول الأحكام لابن حزم (تحقيق)، مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٢٧ - ١٩٣٠م.

٤٠ - أخصر المختصرات فى فقه الإمام أحمد بن حنبل. (تحقيق)، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٤١ - الخراج ليحيى ابن آدم القرشى (ت٢٠٣هـ).(تحقيق)، المكتبة السلفية، القاهرة ١٩٣٠م.

٤٢ - الرسالة للشافعى (ت ٢٠٤هـ). (تحقيق)، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة ١٩٤٠م.

٤٣ - رسالة فى شروط الصلاة لمحمد بن عبد الوهاب.(تحقيق)، بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٤٤ - الروض المربع (فى فقه الإمام أحمد ابن حنبل) لابن صلاح الدين (ت١٠٥١هـ). (تحقيق)، بالاشتراك مع أخيه على، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٤٥ - الروضة الندية شرح الدرر البهية لصديق حسن خان (ت ١٣٠٧هـ). (تحقيق)، مكتبة التراث، القاهرة.

٤٦ - صفة نهى النبى ﷺ. (تحقيق)، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٠م.

٤٧ - العمدة فى الأحكام (فى أحاديث الأحكام) لعبد الغنى المقدسى (ت ٦٠٠هـ). (تحقيق)، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٤٨ - فتوى فى إبطال وقف الجنف والإثم لمحمد بن عبد الوهاب. (تحقيق)، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣م.

٤٩ - قواعد الأصول ومعاقد الفصول. وهو مختصر تحقيق الأمل فى علمى الأصول والجدل، لصفى الدين أبى الفضائل البغدادى الحنبلى (ت ٧٣٩هـ)، دار المعارف، القاهرة.

٥٠ - كلية الفصل فى قتل مدمنى الخمر. (تأليف)، دار المعارف، القاهرة ١٩٥١م.

٥١ - المحلى لابن حزم. (تحقيق)، للأجزاء الستة الأولى، المطبعة المنيرية، القاهرة ١٩٢٩م.

٥٢ - مختصر المقنع فى فقه الإمام أحمد ابن حنبل.(تحقيق)، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٥٣ - مذكرة فى قضية المحرومين وإبطال شروط الواقفين. (تأليف) مذكرة نشرت مع فتواه فى إبطال وقف الجنف والإثم، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣م.

٥٤ - المسح على الجوربين للقاسمى (ت١٣٣٢هـ). (مراجعة وتقديم)، المكتب الإسلامى؛ بيروت ١٩٧٩م.

٥٥ - نظام الطلاق فى الإسلام. (تأليف)، مطبعة النهضة، القاهرة ١٩٣٦م.

٥٦ - ترجمة الإمام أحمد بن حنبل - للذهبى (ت ٧٤٨هـ). (تحقيق)، نشرت فى الجزء الأول من مسند الإمام أحمد، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٤م.

٥٧ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تحقيق: ليفى بروفنسال، (تصليح وتحقيق لكثير من أعلامه وأنسابه)، الشيخ أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٤٨م.

٥٨ - جوامع السيرة لابن حزم، تحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، (مراجعة) أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٦م.

٥٩ - محمد شاكر من أعلام العصر. (تأليف)، نشرت أولاً مع المقتطف، أغسطس ١٩٤٩م، ثم طبعت دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣م.

٦٠ - نسب قريش للمصعب الزبيرى. تحقيق: ليفى بروفنسال، (تصحيح وتحقيق الكثير من أعلامه وأنسابه وكتابة تعليقات مفيدة)، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٣م.

أ.د. محمد إبراهيم عبد الرحمن

أحمد شوقى «أمير الشعراء»
(١٢٨٥ - ١٣٥١ هـ = ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢م)

ولد أحمد شوقى بن على بن أحمد شوقى بالقاهرة عام ١٢٨٥هـ الموافق ١٨٦٨م ونشأ بها، أما أصله فقد سمع أباه يرد أصله إلى الأكراد، ويقول: إن والده قدم هذه الديار يافعًا، يحمل وصاية من أحمد باشا الجزار، إلى والى مصر «محمد على باشا»، فأدخله فى معيته، وظل يتقلب فى المناصب السامية حتى أقامه سعيد باشا أمينًا للجمارك المصرية.

ولقد كان أبوه متلافًا، فأهلك ما ورثه عن أبيه، فكفلته فى المهد جدته لأمه، وكانت إحدى وصائف القصر فى عهد «إسماعيل»، ولما بلغ الرابعة من عمره، أدخل فى مكتب الشيخ «صالح» فى حى الحنفى بالسيدة زينب، ثم تلقى بعد ذلك دراسته الابتدائية والثانوية، وتقدم إلى مدرسة الحقوق فى سن باكرة، فقضى بها عامين، ثم عدل إلى قسم الترجمة، الذى أنشئ فيها، فقضى به عامين آخرين، نال بعدهما شهادتها النهائية. ثم ضمه الخديوى توفيق إلى معيته وأشخصه إلى فرنسا على نفقته ليدرس الحقوق والآداب، فدرس عامين فى (منبلييه) وعامين فى باريس، ثم عاد إلى منصبه فى المعية الخديوية، وظل يتدرج فى المناصب حتى تولى رئاسة القلم «الأفرنجى» فى عهد الخديو «عباس الثانى»، وتقرّب إلى هذا الأمير حتى كانت شفاعته عند ذوى الحكم لا ترد وإشارته لا تخالف.

ولما شبّت الحرب العالمية الأولى خلعت إنجلترا بقوة الاحتلال الخديو عن عرش مصر، ورأى أولو الأمر يومئذ أن يغادر شوقى البلاد، فاختار برشلونة من أعمال أسبانيا مقرًا له ولأسرته، ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عاد السلام إلى العالم، ولكن صلته الوثيقة بالنظام القديم، ومدائحه المروية فى الخديوى فى المنفى، ما زالت تقوى بينه وبين القصر أسباب الثقة والتقريب، وقامت ثورة ١٩١٩ ومعها نهضة مصر الحديثة فانصرف الشاعر بإلهامه وأنغامه إلى الشعب، يذود عن حوضه، ويهتف بمجده، ويعرب عن شعوره، وينقل عن طبعه، ويتغنّى بجهاده، حتى حمدت له مصر والعرب هذه اليد، فأقاموا له فى دار الأوبرا الملكية مهرجانًا عامًا لتكريمه، اشترك فيه رجالات مصر وأقطاب الدول العربية، وبويع

فيه بإمارة الشعر، ولم يزل شوقى موضع الإكبار والإكرام، حتى انتقل إلى جوار الله فى مساء الخميس سنة ١٣٥١هـ الموافق ١٣ من أكتوبر سنة ١٩٣٢م بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، فأقامت له وزارة المعارف وطائفة من أعيان الفضل والأدب، حفل تأبين بدار الأوبرا دعت إليه أقطاب العلم والأدب فى الأقطار العربية.

ويكاد النقاد يجمعون على أن شوقى كان تعويضًا عادلاً عن عشرة قرون خلت من تاريخ العرب بعد «المتنبى» لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحى الشعر، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب.

كان شوقى ينظم شعره عن طبع دقيق، وحس صادق، وذوق سليم، وروح قوى، فيأتى به محكم السبك لا يشوبه ضعف ولا لغو ولا تَجَوُّز ولا قلق، وهو كالمتنبى فى أنه تصرف بين الناس وخالط دهماءهم وأولياءهم، حتى عرف كيف يصف طبائعهم، ويصور منازعهم. وهو مثله فى إرسال البيت النادر، والمثل السائر، والحكمة العالية، مستخلصا ذلك فيما يسوق من المعانى فى المدح أو الوصف أو الرثاء.

وكان شوقى ينظم الشعر بين أصحابه فيكون معهم وليس معهم، وينظم فى المركبة وفى السكة الحديدية وفى المجتمع الرسمى، وحين يريد وحيث يريد، ولا يعرف جليسه أنه ينظم إلا إذا سمع منه بادئ بدء غمغمة تشبه النغم الصادر من غور بعيد، ثم رأى ناظريه وقد برقا وتواترت فيهما حركة المحجرين، ثم بصر به وقد رفع يده إلى جبينه وأمرها عليه إمرارا خفيفا هنية بعد هنية، فإذا قوطع فى خلال النظم انتقل إلى أى بحث يباحث فيه، ثم إذا استأنف ذلك المنظوم، ولو بعد أيام طوال عاد إليه وكأنه لم ينقطع عنه.

وقد وقعت جفوة عابرة بين «شوقى» وبين الشيخ «على يوسف»، وقد أراد الشيخ على يوسف أن يكيد لشوقى كيدًا صحفيًا، وكان شوقى فى ذلك الحين يلقب بشاعر الأمير، ويدل بهذا اللقب، وما كان من الشيخ «على يوسف» إلا أن كتب مقالا أدبيًا بجريدة المؤيد لقب فيه «حافظ إبراهيم» بشاعر النيل، وطبيعى أن النيل يشمل مصر والسودان ويشمل الأمير وغير الأمير من أهالى الوادى، فكأن شوقى قد أصبح من رعية حافظ إبراهيم بعد هذا اللقب الجديد، فغضب شوقى لذلك وغضب أصدقاؤه من الصحفيين.

وإذا باللواء، وجريدة الأهرام، وغيرهما، تصدران فى اليوم التالى ملقبة شوقى بأمير الشعراء، وإذا به ينتهز مناسبة قصيدته فى الحرب العثمانية اليونانية فى ذلك الحين، ويرد قائلا مخاطبًا الخليفة:

وإنى لطير النيل لا طير غيره
وما النيل إلا من رياضك يحسب

إذا قلت قولاً فالقوافى حواضر

وبغداد بغداد ويثرب يثرب

ومن نماذج شعره قوله فى الحكمة:

فإنما الأمم الأخلاق مابقيت

فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقوله:

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه

فَقَوِّم النفس بالأخلاق تستقم

ومن شعره أيضا، يصف رحلته إلى الأندلس، من قصيدة طويلة:

اختلاف النهار والليل ينسى

اذكرا لى الصبا وأيام أنسى

وسلا مصر: هل سلا القلب عنها

أو أسا جرحه الزمان المؤسى

كلما مرت الليالى عليه

رق والعهد فى الليالى تقسى

مستطار إلى البواخر رنت

أول الليل أو عوت بعد جرس

أحرام على بلابلة الدوح

حلال للطير من كل جنس

وطنى لو شغلت بالخلد عنه

نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

شهد الله لم يغب عن جفونى

شخصه ساعة ولم يخل حسى

وقد اشتهر شوقى من ذلك الوقت بلقب أمير الشعراء، وقبل أن يبايع بالإمارة بنحو عشرين عامًا.

ولقد ترك شوقى ديوانًا شعريا من أربعة أجزاء، كتب مقدمته الدكتور محمد حسين هيكل، وترك عدة روايات منها: مصرع كليوباترا، ومجنون ليلى، وقمبيز، وعلى الكبير، وعنترة، والست هدى.

فكان بهذا التجديد رائد الشعر العربى الكامل، وله غير الديوان فى الشعر كتاب عظماء الإسلام، وعدد كبير من القصائد الخاصة بالأطفال والأغانى.

ولشوقى نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا فى الوزن، فقد جمع طائفة كبيرة منه فى كتاب سماه (أسواق الذهب)، وله من النثر المرسل قصص منها، لا باس وورقة الآس، ومذكرات بتناءور، وأميرة الأندلس.

أ.د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة:

١ ـ تاريخ الأدب العربى أحمد حسن الزيات، الطبعة الرابعة والعشرون، نهضة مصر ـ القاهرة.

٢ ـ مقدمة الطبعة الأولى لديوان شوقى، مطبعة الآداب والمؤيد، سنة ١٨٨٨ ـ ١٨٨٩م القاهرة.

٣ ـ شوقى وحافظ، طاهر الطناحى، دار الهلال ١٩٦٧م.

٤ ـ الأعلام للزركلى ١ / ١٣٦.

أحمد عيسى «طبيب»
(١٢٩٣ - ١٣٦٥ هـ = ١٨٧٦ - ١٩٤٦م)

ولد فى مدينة رشيد (البحيرة)، عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م، وتلقى تعليمه فى المدرسة الخديوية، ثم فى مدرسة الطب بالقاهرة، وعمل طبيباً حيث مارس الطب الباطنى وأمراض النساء والتوليد، وشغف وهو طبيب ممارس بالدراسة فى الجامعة المصرية القديمة، فحضر بعض دروسها، وتعلم بعض اللغات السامية واليونانية واللاتينية.

وهو أسبق بفترة قصيرة فى مولده ودراسته من الجيل الذى تولى شأن مدرسة الطب المصرية فى عهدها الحديث، لم ينل شهرتهم ومناصبهم، ولم يمتد وجوده مثلهم من خلال التلاميذ، ومع هذا فإنه يتفوق عليهم جميعاً بخلوده بمؤلفاته المتميزة، كما أنه احتفظ على الدوام بمكانة متميزة فى المجتمع العلمى والفكرى المصرى، وكان من أعضاء المجلس الأعلى لدار الكتب المصرية وجمعية الهلال الأحمر. كما اختير عضواً فى المجمع العلمى العربى بدمشق وفى الأكاديمية الدولية لتاريخ العلوم بباريس.

وقد مارس العمل السياسى بتحفظ واختير عضواً فى مجلس الشيوخ المصرى لفترة قصيرة (١٩٢٣ - ١٩٢٥م). كذلك كان له نشاط اجتماعى وثقافى بارز على الرغم من أنه كان أقرب إلى الانعزال.

توفى عام ١٣٦٥هـ الموافق ١٩٤٦م.

وهو أبرز رواد الكتابة الطبية المتخصصة فى بداية العصر الحديث، خاتمة جيل أطباء القرن التاسع عشر المصريين المؤلفين والمعربين فى علوم الطب باللغة الأدبية الراقية، وقد ساعدته ثقافته الموسوعية على الارتقاء بالتأليف والتعريب فى فنه وتخصصه (أمراض النساء) والتخصصات الطبية الأخرى.

كانت المراجع التى وضعها أو عربها كافية تماماً للاختصاصيين فى أمراض النساء والتوليد فى زمنه، ترجم الطبعة الرابعة من كتاب «أمراض النساء» لصمويل بوتسى الأستاذ بمدرسة الطب بباريس (ونشرته

مطبعة المؤيد عام ١٩٠٨م) وهو مرجع طبى ضخم متخصص، كما عنى بتقديم كتاب للثقافة العامة عن صحة المرأة طبع بعنوان «صحة المرأة فى أدوار حياتها»، وألف أيضاً: «التفسرة: أى الاستدلال بأحوال البول على المرض».

بلغ فى اهتمامه بتاريخ الأطباء العرب شأناً بعيداً لم يبلغه أحد بعده من أساتذة الطب المصريين، وهو الذى تولى تكملة كتاب «طبقات الأطباء» لابن أبى أصيبعة، ووضع ما أسماه «ذيل على طبقات ابن أبى أصيبعة».

نشر كتابين مهمين فى تاريخ الطب الإسلامى هما: «آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب»، و «تاريخ البيمارستانات فى الإسلام».

غطت اهتماماته معظم جوانب الطب الإسلامى وإن لم يعن بدراسة التفوق الإكلينكى للأطباء العرب وهو ما تفوق عليه فيه بعض اللاحقين.

وضع كتابين عن جوانب تربية الأطفال فى الحضارة الإسلامية وهما «الترقيص أو الغناء للأطفال عند العرب»، «ألعاب الصبيان عند العرب».

تميز أيضاً بتفوقه البارز فى الترجمة العلمية، وتدلنا المقدمة التى كتبها لكتاب أمراض النساء على مدى ما عاناه فى وضع المصطلحات الطبية، وما اكتشفه بالممارسة من اتساع اللغة العربية وغزارة مادتها على حد تعبيره، وقد ضمن هذه المقدمة مجموعة من المصطلحات والتى تولى تعريبها فاقت المائة .. أما ترجمته الطبية فتتميز بالدقة البالغة مع السلاسة والقدرة على الإبانة.

ويبدو أن خبرته الخصبة بالترجمة العلمية قد دفعته إلى التفوق فى ثلاث مجالات أخرى، الأول هو وضع الأصول النظرية لفن الترجمة العلمية نفسه، وقد نشر فى هذا كتابه «التهذيب فى أصول التعريب».

أما المجال الثانى فاهتمامه بالأسماء العربية للنباتات الطبية وقد وضع فيه معجمه المشهور «معجم أسماء النبات»، وقد كان هذا الكتاب من المراجع الكبرى قبل وضع الدكتور شرف لمعجمه الطبى.

وقد عنى الدكتور شرف نفسه بأن يحصر مستدركاته على هذا المعجم، وأن ينشرها بهذا العنوان. أما المجال الثالث فكان للطرافة، محاولة الارتقاء باللغة العامية المصرية، وقد بدأ اهتمامه به فيما يبدو حين كان يلجأ إلى استخدام بعض ألفاظها فى

ترجمة المصطلحات العلمية كما أشار إلى ذلك، وقد شجعه هذا على نشر كتاب «المحكم فى أصول الكلمات العامية بمصر».

يتميز أسلوبه فى الكتابة بنصاعة العبارة، وجودة الصياغة مع حماسة ظاهرة لقضايا وطنه وأمته، وتنم آراؤه عن غيرة وإخلاص، وآمال عريضة فى الإصلاح والتطوير، مع رغبة مخلصة فى الارتقاء بمواطنيه وإتاحة فرصة الحضارة والتقدم لهم فى أسرع فرصة. كان واعياً للفجوة الحضارية الكبيرة بين بلاده والغرب وداعياً إلى محاولة اللحاق بالحضارة الحديثة بأقصى ما يمكن من جهد وسرعة.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى ١/١٩١.
٢ - معجم المطبوعات العربية لسركيس ٣٩٤.
٣ - ذيل على طبقات ابن أبى أصيبعة للدكتور أحمد عيسى.

أحمد فارس الشدياق
(١٢١٩ - ١٣٠٥ هـ = ١٨٠٤ - ١٨٨٧م)

ولد بعشقوت عام ١٢١٩هـ الموافق ١٨٠٤م لأسرة مارونية عريقة شاركت فى الحكم فى بعض الأجيال وتعرضت لاستبداد الشهابيين، وانتقلت أسرته إلى بيروت فتعلم فى مدرسة مارونية، وظهر ميله إلى التراث العربى، وإلى نظم الشعر، وقد توفى والده وهو صغير، واضطر إلى التكسب بنسخ الكتب، وزاد هذا العمل فى إطلاعه على التراث وقد دفعته الظروف السياسية إلى التنقل من مكان إلى آخر حتى حل فى القاهرة وشارك فى تحرير الوقائع المصرية ثم انتقل إلى مالطة (١٨٣٤م) حيث عمل مع المبشرين الأمريكان فى إدارة مطبعتهم وتصحيح مطبوعاتهم وظل فى مالطة ١٤ عاماً يعمل بالتأليف والنشر حتى إن جرجى زيدان يؤرخ لنشاطه فيقول إنه لا يكاد يوجد كتاب مطبوع فى مطبعة مالطة إلا كان هو مؤلفه أو مترجمه أو مصححه وانتقل إلى لندن لمساعدة جمعية الكتب المقدسة فى ترجمة التوراة إلى العربية، وانتقل بعد هذا إلى باريس حيث تعرف على أحمد باشا باى تونسى الذى استقدمه إلى تونس حيث أقام وأصدر جريدة الرائد التونسى، وفى تونس أشهر إسلامه وسمى نفسه أحمد فارس الشدياق، وكان أبواه قد سماه فارس، وأبوه يوسف بن منصور بن الشدياق وهكذا كان اسمه الأصلى من الأسماء المشتركة، واتصلت أواصر الود بينه وبين الخلافة العثمانية ونظم قصيدة فى مدح السلطان العثمانى عبدالمجيد، ودعاه هذا إلى الإقامة فى الآستانة وألحقه بديوان الترجمة وتولى الإشراف على التصحيح فى دار الطباعة، وفى الآستانة أنشأ الشدياق جريدة «الجوائب» الشهيرة (١٨٦٠م)، وقد نالت الصحيفة أكثر من دعم مالى حيث نالت دعم السلطان عبد المجيد كما نالت دعم الخديوى إسماعيل إضافة إلى باى تونسى. وظل الشدياق يطبع «الجوائب» فى المطبعة السلطانية عشر سنوات ثم أسس مطبعة خاصة بها، وقد كان لمطبعته هذه أثر كبير فى نشر الثقافة وإحياء التراث العربى المخطوط، وكانت جريدته ومطبوعاته واسعة الانتشار فى تركيا ومصر والشام وتونس

والجزائر والمغرب وزنجبار وجاوا والهند .. إلخ). وقد احتفى السلطان عبد العزيز بالجوائب التى ساعدته فى نشر فكرة الخلافة الإسلامية فى أوساط المسلمين المنتشرين خارج دولة الخلافة.

كان الشدياق ذا نزعة وطنية واضحة، وكان موقفه من الغربيين نموذجاً لموقف المفكرين الوطنيين القادرين على كشف حقائق الأطماع ووسائل تحقيق النفوذ والاستغلال وقد أبلى بلاء حسناً فى تبصير مواطنيه بحقيقة الأطماع الغربية مستغلاً فى هذا جريدته ومطبعته ونفوذه الفكرى والصحفى. وقد ظلت جريدته تصدر حتى ١٨٨٤م حيث أوقفها قبيل وفاته، وقد زار الشدياق فى نهاية حياته مصر حيث حظى بأكبر قدر من التكريم والاحتفال به وبشخصه وجهوده، ثم عاد إلى الآستانة وأقام بها حتى توفى ١٨٨٧م. وقد توفى فى الآستانة ونقل جثمانه إلى لبنان حيث دفن.

للشدياق جهد رائد فى الصحافة العربية وتوسيع نفوذها ومجالها وآدابها وفنونها وله أيضاً جهد رائع غير مسبوق فى التعريب والدراسات اللغوية، وهو أحد الرواد البارزين فى فن المقالة كما أنه شاعر وإن كان النقاد يرون أن أفضل وصف له أنه شاعر مقلد على حين أنه ناثر مجدد.

ويرى بعض النقاد أن ترجمته للتوراة هى أدق الترجمات وكانت له آراء بارزة فى الإصلاح الاجتماعى وتحرير المرأة، كما كان من دعاة العربية والإصلاح اللغوى، وهو رائد لغوى فى وضع المصطلحات العربية الحديثة وفى فن المعجم العربى، وقد بنى أفكار كتابه الشهير الساق على الساق على مطلبين جوهريين هما تحرير اللغة والمرأة، ويرى بعض النقاد أن كتابه هذا هو أول رواية عربية فى العصر الحديث، وكان الشدياق داعية إلى بعث المجد العربى والإسلامى كالأفغانى. وإلى الأخذ بالتمدن الغربى كمحمد عبده، وقد حظى الشدياق وجهوده بكثير من التقدير حتى إن المجمع اللغوى فى مصر جعله موضوعاً لإحدى مسابقاته «أحمد فارس الشدياق وأثره فى اللغة والأدب» وقد نشر الدكتور محمد أحمد خلف عنه كتابًا بعنوان «أحمد فارس الشدياق وآراؤه اللغوية والعربية» كما قدر الدكتور أحمد مختار عمر جهده فى دراسات قيمة، وكتب عنه الأديب اللبنانى فاروق عبود كتاباً بعنوان «صقر لبنان» لأنه فى نظره شيد دولة عربية غربية.

نشر ابنه سليم كتاباً له بعنوان «كنز الرغائب فى منتخبات الجوائب» وهو مطبوع فى سبعة مجلدات. ومن مؤلفاته فى أدب الرحلات : «الواسطة فى أحوال مالطة»،

«كشف المخبا عن فنون أوروبا»، ومن مؤلفاته فى تبسيط قواعد اللغات الأوروبية: «الباكورة الشهية فى نحو اللغة الإنجليزية»، «سند الراوى فى الصرف الفرنساوى».

وفى علوم اللغة العربية : «سر الليال فى القلب والأبدال»، وقد طبع الجزء الأول منه، و«الجاسوس على القاموس»، و«اللفيف فى كل معنى طريف»، و«غنية الطالب».

ومن كتبه المخطوطة التى لم تنشر: «التقنيع فى علم البديع»، و«ديوان شعره الذى لم يطبع منه إلا نحو ربعه فى الجزء الثالث من كنز الرغائب».

أ. د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة :

١ - الأعلام للزركلى.

٢ - مجلات مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٣ - مؤلفات جورجى زيدان.

٤ - أحمد فارس الشدياق : محمد أحمد خلف الله.

أحمد بن ماجد الملاح
(٨٣٨ - ٩٠٤هـ = ١٤٣٤ - ١٤٩٨م)

هو شهاب الدين : أحمد بن ماجد بن محمد بن معلق السعدى النجدى، من أهل نجد، ولد عام ٨٣٨هـ = ١٤٣٤م، حصل على قسط نافع من علوم الحساب العربى والهندى والزنجى وحساب أهل جاوة والصين منذ كان حدثا يافعا، مكنه من مقارنة قياسات وتقاويم الآخرين. قضى أغلب حياته فى البحر. يعيش فى بساطة، متفرغا لعمله وكان عفيف النفس، ورعا، تقيا، مخلصا لربه ومهنته، زاهدا فى المال، يبدأ رحلاته دائما بالصلاة.

توفى عام ٩٠٤هـ الموافق ١٤٩٨م.

كان ملاحًا يلقب بأسد البحر، كما كانت له مؤلفاته فى علوم فنون البحر، نثرا ونظما، وهذه المؤلفات تتمثل فى الكتب والقصص التى تعكس بشكل واضح عمق التجربة العربية للملاحين والتجار العرب، وسواء كان ذلك فى المحيط الهندى وجزره وخلجانه أم فى البحار المترامية التى دفعتهم مغامراتهم إليها كأرخبيل الملايو وبحر الصين، وهذه القصص والحكايات فى أغلبها ذات طابع علمى وعملى تدل على الخبرة الملاحية العلمية للملاحين العرب فى ذلك الوقت، والتى كانت ولا شك على درجة كبيرة من التقدم.

ويؤكد الدكتور أنور عبد العليم أن ابن ماجد كان ملما بلغات كثيرة مثل السنسكريتية ولغة جاوة والزنج وفارس، فقد اطلع وخالط ما دفعه أعلام هذه البلاد بلغاتهم.

كان البرتغاليون يسمون أحمد بن ماجد «الملاندى» (أو الميرانتى) ومعناها أمير البحر. وفى سفينة فاسكو دى جاما، جانب من قصة هذا البحار العالمى العربى، الذى استعان به فاسكو دى جاما فى رحلته الشهيرة حول رأس الرجاء الصالح إلى الهند، وفى محفوظات معهد الدراسات الشرقية بلينتجراد مخطوطة عربية، كتبها ابن ماجد بالشعر فى ثلاثة فصول، وصف فيها طرق الملاحة المختلفة عبر البحر الأحمر والمحيط الهندى، فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى، وبداية القرن السادس عشر. وتعد هذه المخطوطة بمثابة مرشد الملاح فى تلك البحار.

والحق أنه لولا ابن ماجد، ما استطاع البرتغاليون عبور المحيط الهندى لعظم أمواجه، وشدة رياحه، خصوصا فى موسم هبوب الرياح الجنوبية الغربية الممطرة.

بيّن ابن ماجد ما يهم الملاح معرفته فى البحر، بما يناظر الإرشادات الملاحية التى تنشرها الأمم الحديثة لغرض الاهتداء إلى الموانئ، ومعرفة صفات السواحل، والمسافات بين الأماكن، والرياح السائدة، والتسهيلات التى يمكن توفيرها.

قصة الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح :

كان المعتقد لدى الأوروبيين، أن السفن التى تصل إلى هناك لا تعود، ولكن بدأ البرتغاليون القيام بعمل رحلات متوالية، ابتداء من عام ١٤٦١م. وفى عام ١٤٨٦م، أرسلت البرتغال بعثة إلى الهند، عن طريق مصر، وفى طريق العودة، توقف قائد البعثة وهو البحار «كوفيلهام»، فى جزيرة سوقطرة جنوبى شبه جزيرة العرب، وهناك التقى بالبحار العربى ابن ماجد، وسمع عن جزيرة القمر، وهى جزيرة مدغشقر كما نعرفها اليوم. وعندما وصل إلى القاهرة سارع بإرسال خطاب إلى ملك البرتغال، يحثه فيه على إرسال بعثة للطواف من حول أفريقيا، والوصول إلى جزيرة القمر، وعرض معاونة ابن ماجد. وفى عام ١٤٩٨م، أتم فاسكو دى جاما تلك الرحلة بنجاح، بمعاونة ابن ماجد.

ومن مؤلفاته:

١- رسالة قلادة الشموس واستخراج قواعد الأسوس، للمعلم سليمان المهرى.

٢- كتاب تحفة الفحول فى تمهيد الأصول.

٣- العمدة المهرية فى ضبط العلوم البحرية.

٤- المنهاج الفاخر فى علم البحر الزاخر.

٥- الأرجوزة المسماة بالسبعية، للمعلم شهاب الدين أحمد بن ماجد.

٦- القصيدة، لابن ماجد.

٧- القصيدة المسماة بالمهرية.

٨- كتاب شرح تحفة الفحول فى تمهيد الأصول، لسليمان المهرى.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١- محمد ياسين الحموى : الملاح العربى، مقال ١٩٤٧ دمشق.

٢- أنور عبد العليم : ابن ماجد الملاح. أعلام العرب الكتاب ٦٣/١٩٦٧م.

٣- الأعلام للزركلى/ ٢٠٠.

أبو إسحاق الإسفراييني
(٠٠٠ ـ ٤١٨ هـ = ٠٠٠ ـ ١٠٢٧م)

هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفراييني، الفقيه الشافعي، الأصولي، المكنى : بأبي إسحاق، الملقب : بركن الدين.

ولد بإسفرايين، ونشأ بها. ثم رحل في طلب العلم إلى خراسان، ومكث بالعراق إلى أن تم نضجه العلمي وصار علما من أعلام الأصوليين والمتكلمين والمحدثين، وعد من المجتهدين في المذهب . ونقل ابن عساكر عن عبد الغافر بن إسماعيل الفارسي، أن أبا إسحاق أحد من بلغ حد الاجتهاد من العلماء، لتبحره في العلوم واستجماعه شرائط الإمامة من العربية، والفقه، والكلام، والأصول، ومعرفة الكتاب والسنة. ثم انتقل من العراق إلى بلدته . وقام بالتدريس فيها حتى ذاع صيته واشتهر بين العلماء، روى عنه أنه اشتهى أن يموت بنيسابور ليصلي عليه أهلها. فأدركته الوفاة بعد طلبه ذلك بخمسة شهور. وكان قد نيف على الثمانين.

وقد توفي يوم عاشوراء سنة ثمان عشرة وأربعمائة = ١٠٢٧م، ثم نقل إلى إسفرايين ودفن بها.

ومن شيوخه وتلاميذه: تتلمذ على أبي بكر إسماعيل، وسمع عنه ، ثم ذهب إلى العراق، وتتلمذ على أبي بكر محمد بن عبد الله الشافعي وأبي محمد دعلج ابن أحمد السجزي، وأقرانهما.

أخذ عنه الأصول في إسفرايين : القاضي أبو الطيب الطبري ، وغيره، ثم اجتمع رأي المستنيرين في العلوم من أهل نيسابور على اتخاذ الوسائل لحمل الشيخ على النقلة إلى بلدهم، فبنوا له مدرسة لم يبن قبلها مثلها، ثم فاوضوا الشيخ في الانتقال والتدريس بها فقبل بعد جهد جهيد، وانتقل إلى نيسابور، وظل يدرس في مدرستها ويؤلف.

وأخذ عنه علم الكلام والأصول : عامة أهل نيسابور. وتتلمذ له أبو القاسم القشيري، وأبو السائب هبة الله بن أبي الصهباء، ومحمد بن أبي الحسن البالوي، وكان ثقة ثبتا في الحديث، انتخب عنه أبو عبد الله الحاكم

النيسابورى عشرة أجزاء وذكره فى تاريخه، وأكثَرَ الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى الرواية عنه فى تصانيفه.

- ألف فى علم الكلام كتابه الكبير، الذى سماه «الجامع فى أصول الدين والرد على الملحدين».

قال ابن خلكان : رأيته فى خمسة مجلدات.

- وله رسالة فى أصول الفقه.

- وله مناظرات مع المعتزلة.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة :

١ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٤.
٢ ـ شذرات الذهب لابن العماد ٣/٢٠٩.
٣ ـ طبقات الشافعية للسبكى ٣/١١١.
٤ ـ الأعلام للزركلى ١/٦١.

ابن إسحاق
(نحو ٧٥ - ١٥١ هـ)

هو أبو عبد الله، أو أبو بكر، محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار، المطلبى بالولاء، المدينى من أهل المدينة، ومن أقدم مؤرخى العرب.

ولد نحو سنة ٧٥ هـ وتوفى سنة ١٥١هـ - على الأرجح - وقيل ١٥٣هـ، وقد زار الإسكندرية سنة ١١٥هـ أو ١١٩هـ، وسمع من يزيد بن أبى حبيب المتوفى سنة ١٢٨هـ - وهو أول مدرس للحديث فى مصر - ثم رجع ابن إسحاق إلى المدينة المنورة، ومنها إلى العراق، وسكن بغداد، ومات فيها ودفن بمقبرة «الخيزران» أم «الرشيد» بالجانب الشرقى، وإنما نسبت إليها لأنها مدفونة فيها، وهى أقدم المقابر بالجانب الشرقى.

وجدُّ ابن إسحاق «يسار» مولى قيس بن مخرمة بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشى، سباه خالد بن الوليد فى موقعة «عين التمر» سنة ١٢هـ = ٦٣٣م، فهو من أول سبى بالعراق، ثم جلب إلى المدينة حيث شبّ محمد.

انصرف ابن إسحاق منذ حداثة سنه إلى جمع الأخبار والروايات المتعلقة بسيرة النبى ﷺ، ورأى أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وسمع القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وأبان بن عثمان بن عفان، ومحمد بن على ابن الحسن بن على بن أبى طالب، وأبا سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، ونافعًا مولى ابن عمر، والزهرى، وغيرهم.

وحدّث عنه أئمة العلماء، منهم: يحيى بن سعيد الأنصارى، وسفيان الثورى، وابن جريج، وشعبة، والحمادان، وإبراهيم بن سعيد، وشريك بن عبد الله النخعى، وسفيان ابن عيينة، ومن بعدهم.

وقد بدأت بابن إسحاق الكتابة التاريخية. وهو ثالث ثلاثة من تلاميذ «الزهرى» المصنفين فى المغازى، ولكنه سرعان ما اصطدم بأئمة الحديث - أصحاب الرأى السائد فى المدينة - وعلى الأخص، مالك بن أنس الذى اتهمه بالتشيّع، وانتحال الكثير من القصص والأشعار التى أذاعها، لهذا ترك ابن إسحاق وطنه وذهب إلى مصر أولاً، ثم إلى

العراق، وقد أغراه الخليفة «المنصور» بالقدوم إلى بغداد حيث توفى.

وقد تقصّى محمد بن إسحاق الأخبار فى المدينة من أهلها، ويذكر له أكثر من مائة راوٍ من أهل المدينة وحدها، كما روى عن أهل الكتاب والموالى والأعاجم، وعن الآيات والأحاديث والوثائق، ومن القصص الشعبى، وروى عن «وهب بن منبه» ما يتعلق باليمن.

فمصادر معلوماته متنوعة جدًا حتى إنها تبلغ ١١٤ شيخًا، لكن هذا التقصّى خلق له بعض الصعاب؛ لهذا قصد العراق وأهدى للخليفة العباسى المنصور مغازيه التى كتبها فى المدينة، والتى يتبين من الرواة الذين ذكرهم أنه ألف مادته على أساس الأحاديث التى سمعها فى المدينة، خاصة، وفى مصر، وقد سمع منه أهل الجزيرة والرى، حيث ظهر الكثير من رواته، ولم يرو عنه أهل المدينة إلا القليل، لأن عداء مالك بن أنس له واتهامه بالدجل جعلهم يتحرجون فى أمر توثيقه.

ومحمد بن إسحاق ثبت فى الحديث عند أكثر العلماء، يقول ابن حبان: «لم يكن أحد فى المدينة يقارب ابن إسحاق على علمه، أو يوازيه فى جمعه، وهو من أحسن الناس سياقًا للأخبار».

وقد ذكر ابن سيد الناس فى كتابه «عيون الأثر»، أقوال كثير من العلماء يشهدون لابن إسحاق، وجمع أقوال المعادين له وفندها ورد عليها.

أما المغازى والسير فلا تجهل إمامة «ابن إسحاق» فيها، يقول ابن شهاب الزهرى: «من أراد المغازى فعليه بابن إسحاق»، وذكره البخارى فى تاريخه، ورُوى عن الشافعى - رحمه الله - أنه قال: «من أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على ابن إسحاق»، وقال سفيان بن عيينة: «ما أدركت أحدًا يتهم ابن إسحاق فى حديثه»، وقال شعبة بن الحجاج: «محمد بن إسحاق أمير المؤمنين» يعنى فى الحديث، ويحكى عن الزهرى أنه خرج إلى قرية له، فاتبعه طلاب الحديث، فقال لهم: أين أنتم من الغلام الأحول، أو قد خلفت فيكم الغلام الأحول، يعنى ابن إسحاق. وذكر الساجى أن أصحاب «الزهرى» كانوا يلجؤون إلى محمد بن إسحاق فيما شكُّوا فيه من حديث «الزهرى» ثقة منهم بحفظه، وحكى عن يحيى بن معين وأحمد بن حنبل ويحيى ابن سعيد القطان أنهم وثَّقوا محمد بن إسحاق واحتجوا بحديثه، ولم يخرِّج البخارى عنه وإن وثقه، كذلك مسلم بن الحجاج لم يخرج عنه إلا حديثًا واحدًا فى الرجم؛ من أجل طعن مالك بن أنس فيه.

هكذا انقسم الناس حول ابن إسحاق ما بين مُجَرِّحٍ ومعدِّل، ويأتى على رأس المجرحين مالك بن أنس وهشام بن عروة بن الزبير، لكن إمامته فى المغازى موضع إجماع بين العلماء،

وقد سئل الزهرى عن مغازى ابن إسحاق، فقال: أعلم الناس بها. وقال المؤرخ عاصم بن قتادة المدنى: لا يزال الناس فى علم ما بقى ابن إسحاق. وقال الطبرى عنه: من أهل العلم بالمغازى: مغازى رسول الله ﷺ وأيام العرب وأخبارهم وأنسابهم، وراوية لأشعارهم، كثير الحديث، غزير العلم، طلابة له، مقدم فى العلم بكل ذلك، ثقة.

وقد أحصى المستشرق «فوك» خمسة عشر تلميذاً لابن إسحاق، رووا عنه المغازى، منهم: إبراهيم بن سعيد تلميذه فى المدينة المنورة، كما أشرنا آنفًا، وأشهر من روى عنه من تلاميذه البكائى، أما معظم فقرات «الطبرى» فترجع إلى سلمة بن الفضل المتوفى ١٩١هـ. وقد روى الحاكم النيسابورى معظم الفصل الخاص بالمغازى عن ابن إسحاق، اعتمادًا على نسخة «يونس بن بكير» المتوفى سنة ١٩٩هـ، وفعل الشىء نفسه «ابن الأثير» فى «أسد الغابة»، و«ابن حجر» فى «الإصابة»، أما اليعقوبى المتوفى سنة ٣٠٠هـ فقد اعتمد على ابن هشام لشهرته.

وأكبر أساتذة ابن إسحاق هو «الزهرى»، وقد عبر عن العلاقة بينهما بأساليب مختلفة، وقد بعث ابن إسحاق بوثيقة رواها له يزيد بن حبيب إلى الزهرى ليتأكد من صحتها، وتدور حول سفارات النبى ﷺ إلى الأمراء والملوك المختلفين، كذلك يجرى ذكر «الزبيريين» كثيرًا بين شيوخ ابن إسحاق، منهم: يزيد بن رومان مولى عروة بن الزبير، وغيره من مواليه، وكذلك أقارب تلك الأسرة، بالإضافة إلى عاصم وعبد الله بن أبى بكر.

وفى الحديث النبوى والتفسير رجع ابن إسحاق إلى أساتذته، وأبرزهم محمد بن أبى محمد من الموالى، كما رجع إلى غير المسلمين فى الأخبار عن الحوادث اليهودية والمسيحية والفارسية، فيذكر من رواته «بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول»، أو «أهل التوراة»، أو «من يسوق الأحاديث عن العجم». ويبدو أنه الوحيد بين علماء المدينة الذى قبل مثل هذه الأقوال، وقد عيب عليه ذلك فيما بعد، على حين أخذ «وهب بن منبه» مثل هذه الأخبار عن جنوب بلاد العرب دون أى تحرّج، وقد ذكره ابن إسحاق عدة مرات بين رواته فى قصص أهل الكتاب، والمغيرة بن أبى زبيد هو الذى نقل أخبار وهب لابن إسحاق، ثم إن ابن إسحاق هو أول مؤلف عربى يقدم لنا فقرات من العهدين: القديم والجديد، مترجمة حرفيًا، وتكشف بعض قوائم النسب عن اتفاق شديد مع نص الكتاب المقدس (قائمة أبناء إسماعيل تتفق مع ما جاء فى سفر التكوين ٢٥:١٢- ١٦ كلمة كلمة).

كذلك كان ابن إسحاق يذكر وثائق بغير إسناد، معظمها عن أستاذه محمد بن أبى بكر، ويروى مجموعة أخرى عن أستاذه

المصرى «يزيد بن أبى حبيب» كما كان حريصًا جدًا على تلقى الوثائق المكتوبة والمحفوظة عن أساتذته ومعاصريه، وكان طلابة لهذا الفن كثير السؤال عنه، حتى إنه اشتهر بذلك، فكان يأتيه الناس وأصحاب الأسر ليحدثوه عن أمجاد آبائهم، ويحملون له فى ذلك أشعارًا قيلت فى المناسبة، فيرويها فى كتابه. وقد بالغ فى رواية الأشعار حتى إنها كانت تصنع له، ويُسْأل أن يدخلها فى كتاب السيرة فيفعل، وكانت تلك فضيحة عند رواة الشعر، ورماه محمد بن سلام الجمحى المتوفى سنة ٢٣١هـ بذلك العيب، ودافع ابن إسحاق عن نفسه بأنه ليس عالمًا بالشعر، وإنما يرضى بما يحمل إليه من قصائده، لكن هذا لا يمكن أن يكون اعتذارًا عن قصائد وضعت على أفواه رجال لم يعرفوا نظم الشعر، بل وعلى أفواه النساء أكثر من الرجال، وبعيد جدًا أن يذكر قصائد عن عاد وثمود دون أن يسأل نفسه عمن حفظها على مدار آلاف السنين، وقد نقل الطبرى بعض القصائد المتعلقة بعاد وثمود عنه. ولم يذكر ابن إسحاق - إلا نادرًا - مَن أمدَّه بهذه القصائد، وبعض القصائد المتعلقة بالفترة المدنية، أخذها عن أستاذه عبد الله بن أبى بكر، ويقول ابن هشام عن الشعر: إنه غير معروف عند أهل العلم بالشعر.

ومع ذلك فإن كثيرًا من القصائد التى ذكرها ابن إسحاق، وخاصة ما يتعلق منها بالفترة المدنية، كان معروفًا لدى علماء الشعر فى عهد ابن هشام، وقد استشهد بها ابن إسحاق، لأنها تنفع فى تزيين القصة؛ ولأن إدخال القصائد فى الأخبار النثرية كان من الأمور المتبعة فى الفن القديم المأثور عن القصاص العرب، ومثل هذا موجود فى أخبار أيام العرب، وفى أخبار الغزوات الإسلامية، وفى أخبار النقائض، بل إن ابن إسحاق كان يسمح حتى لخصوم النبى ﷺ بإدخال الأشعار التى نظموها دون تحرج، وهذه القصائد ليست لها طبيعة قصصية، ولكنها فى الغالب تتضمن إشارات للحوادث المروية فى الأخبار النثرية، أى لها طبيعة غنائية أكثر منها قصصية عند ابن إسحاق وعند المؤرخين والقصاص الآخرين.

لقد جمع ابن إسحاق المادة التى رواها أساتذته، وزاد عليها الأقوال الكثيرة التى جمعها بنفسه، وقدمها فى عرض حسن التنظيم لحياة أو سيرة النبى ﷺ، وأدخل فى هذا العرض قوائم ووثائق وأشعارًا، أخذ جزءًا منها من أساتذته، وجمع الباقى بنفسه.

جاء فى «عيون الأثر» لابن سيد الناس: «لم يكن أحد بالحجاز أعلم بأنساب الناس وأيامهم من ابن إسحاق، وكان يزعم أن مالك من موالى ذى أصبح، وكان مالك يزعم أنه من أنفسها، فوقع بينهما لذلك مفاوضة. فلما

صنف مالك «الموطأ» قال ابن إسحاق: ائتونى به فأنا بيطاره، فنقل ذلك لمالك، فقال: هذا دجال من الدجاجلة يروى عن اليهود، وكان بينهما ما يكون بين الناس، حتى عزم محمد على الخروج إلى العراق فتصالحا حينئذ، وأعطاه عند الوداع خمسين دينارًا ونصف ثمرته تلك السنة».

وإذا كان البعض قد توقف فيما يرويه ابن إسحاق متعلقًا ببدء الخلق، كما يأخذون عليه تتبعه غزوات رسول الله ﷺ من أولاد اليهود الذين أسلموا، فإنه لم يرو كذلك عنهم ليحتج به، وإنما فقط لمجرد العلم وإثبات ما سمع من روايات.

ويستخدم ابن إسحاق منهجًا محددًا لعرض الغزوات، فيقدم ملخصًا يضم المحتويات، ويتبعه بخبر جماعى مؤلف من أقوال أوثق أسانيده كالزهرى.. إلخ، ثم يكمل بذكر الأخبار الفردية التى يرويها أو يجمعها من المراجع الأخرى، ثم هو يدون قائمة بأولئك الذين حاربوا فى الغزوات: بدر، وما بعدها، وقائمة بالقتلى والأسرى فى بدر، وثالثة بقتلى أحد والخندق وخيبر ومؤتة والطائف، وقائمة بالمهاجرين الذين رجعوا من الحبشة.

وجمع هذه المادة وترتيبها استغرق منه جهدًا كبيرًا، وإن كان قد سبقه فى ذلك أناس، إلا أنه ربما كان أول من عرض حياة النبى ﷺ فى صورة متسقة، ووسع عمله، فجعله تاريخًا للرسالة عامة، تضمَّن حياة الأنبياء المتقدمين أيضًا.

أما ترتيب المادة، فقد بذل ابن إسحاق جهدًا خاصًا فى ربط الروايات الفردية الواحدة بالأخرى، وكان يستخدم لذلك عبارات موجزة تلخص محتويات الرواية، وفى كثير من الأحيان كان يكوِّن خبرًا عامًا موحدًا، مستقى من عدة أخبار عن رواته المختلفين، يصدِّره بأسمائهم، خاصة فى المغازى بمعناها الخاص، وكما فعل أستاذه «الزهرى» من قبل فى أحايين كثيرة. لقد كان يعبر عن شكِّه فى الغالب بعبارات مثل: «فيما يزعمون، والله أعلم».

بعد ذلك كله يرى بعض علمائنا المعاصرين أن الموقف من ابن إسحاق ينبغى أن يكون كما يلى:

ما يتعلق بالأمم السابقة على الإسلام، إن أصاب فيه أو أخطأ، فلن يضير سيرة سيدنا محمد ﷺ فى شىء، وهو وغيره من المعاصرين له أو السابقين أو التالين، كلهم فى هذا الباب سواء.

وما جاء فى المبعث والمغازى ويستعمل فيه الإسناد، غالبًا تكون العمدة على الأسانيد، مع النظر إليه بالثقة فى ذاته، وما أرسله أو ساقه بدون إسناد وخالف فيه حديثا نقل إلينا بإسناد صحيح، فإننا نستأنس به، ونعتمد

الإسناد الصحيح، إلا إذا جاء ما يرجحه من المرجحات الأخرى، وإن لم يكن له معارض، فإن ابن إسحاق مقدم فى هذا الباب على كل من سواه، وقوله فى هذا الباب حجة، وهذا هو منهج علماء المسلمين الذين سبروا الطرق والروايات، ومن هؤلاء: الحافظ ابن حجر العسقلانى، الذى يقدم الحديث الصحيح على ما رواه أصحاب السير، بما فى ذلك ابن إسحاق.

ومن مؤلفاته :

١ - «المغازى»، أى السيرة النبوية، وهى مجد الرجل الحقيقى، وهى أقدم سيرة تاريخية محفوظة الآن برمتها، وهى تجمع بين الآى القرآنية والحديث النبوى، يضاف إليها الإسرائيليات والقصص الشعبى والشعر من صحيح وموضوع، وهو بهذا التقصى حفظ لنا الكثير من المعلومات.

٢ - كتاب «المبدأ»، وهو لا يعدو أن يكون القسم الأول من كتابه «المغازى»، أفرده بعنوان خاص به؛ لأنه يتناول مبدأ الخلق حتى ظهور الإسلام، والتأثر فيه واضح بوهب بن منبه، والإسرائيليات، وقصص اليمن.

٣ - كتاب «الخلفاء الراشدين والأمويين» - على الأرجح - وتوجد من هذا الكتاب مقتطفات مبعثرة فى الكتب عند الطبرى خاصة، وعند غيره.

أ. د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة :

١ - يوسف هوروفتش: المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمة حسين نصار، القاهرة ١٩٤٩م.
٢ - ابن سيد الناس: عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، مجلدان، بيروت، لبنان، بدون تاريخ.
٣ - فاروق حمادة: مصادر السيرة النبوية وتقويمها، الدار البيضاء ١٩٨٩م.
٤ - عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح: معالم الثقافة الإسلامية فى القرنين الأولين من الهجرة ٢٠٠٢م.
٥ - طه عبد الرءوف سعد وبدوى طه بدوى: مقدمة نشرتهما لسيرة ابن إسحاق، القاهرة ١٩٩٨م.
٦ - يوحنا فوك: رسالة بعنون: محمد بن إسحاق، وطبعت باللغة الألمانية فى فرانكفورت سنة ١٩٢٥م، وقدم لها يوسف هوروفتش ملخصاً فى كتابه المذكور آنفًا.
٧ - أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢، القاهرة ١٩٩٨م.
٨ - دائرة المعارف الإسلامية: مادة ابن إسحاق.
٩ - الطبقات الكبرى لابن سعد، القسم الثانى من المجلد السابق ٦٧ (٧/٣٢١).
١٠ - المعارف لابن قتيبة ٢٤٧ (٤٩١).
١١ - الفهرست لابن النديم ٩٢.
١٢ - معجم الأدباء لياقوت ١٨/٥-٨، طبعة القاهرة.
١٣ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١/٢١٤- ٢٣٤.
١٤ - وفيات الأعيان لابن خلكان رقم ٦١٢ من نشرة إحسان عباس.
١٥ - الوافى بالوفيات للصفدى ٢/١٨٨- ١٨٩.
١٦ - ميزان الاعتدال للذهبى ٣/٢١- ٢٤.
١٧ - التهذيب لابن حجر ٩/٣٨- ٤٦.
١٨ - طبقات ابن سلام ٨/١١، ٢٠٦.
١٩ - معجم الأدباء ١٨/٥.
٢٠ - تذكرة الحفاظ ١٩٢ (١/٢٦٣).
٢١ - طبقات المدلسين ١٨.
٢٢ - الأعلام لخير الدين الزركلى ٦/٢٥٢.
٢٣ - معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٩/٤٤.

إسحاق الموصلى
(١٥٥ - ٢٣٥ هـ = ٧٧٢ - ٨٥٠ م)

هو إسحاق بن إبراهيم بن ميمون التميمى الموصلى، أبو محمد ابن النديم، من أشهر قدماء الخلفاء، وكان الرشيد يكنيه «أبا صفوان» «وأبا محمد».

كان عالما باللغة والموسيقى والتاريخ وعلوم الشريعة، وعلم الكلام، راويًا للشعر، حافظا للأخبار، شاعرًا.

ولد ببغداد فى مدينة الرى سنة ١١٥هـ مائة وخمس وخمسون للهجرة = سنة ٧٧٢م، وذكر ابن النديم فى «الفهرست»: أنه ولد سنة ١٥٠ هـ وعاش خمسا وثمانين سنة.

وكانت وفاته فى بغداد فى شهر رمضان سنة ٢٣٥هـ خمس وثلاثين ومائتين للهجرة الموافقة سنة ٨٥٠م.

وينتمى إسحاق لأسرة النديم الموصلى وهو الاسم الذى اشتهر به والده إبراهيم بن ماهان «ميمون» بن بهمن. وأصلهم من فارس، من بيت شريف فى العجم.

انتقل والد إبراهيم وهو ميمون جد إسحاق إلى الكوفة، ونزل بها فى بنى عبد الله بن دارم.

وأم إبراهيم امرأة من بنات الدهاقين - جمع دهقان وهو رئيس الإقليم - الذين هربوا من فارس ونزلوا بالكوفة، فاقترن بها ميمون، فولدت له إبراهيم سنة ١٢٥هـ، ومات أبوه ولم يتجاوز الطفل الثالثة من عمره، فكفله بنو تميم وربُّوه فنسب إليهم.

ونشأ إسحاق الموصلى فى رعاية أبيه، وفى بيته الذى يُعد البيت الأول للغناء فى بغداد.

فلا عجب أن يتربى إسحاق منذ نعومة أظفاره، وفى طفولته المبكرة، على الذوق الغنائى، وأن ينشأ دقيق الحاشية، لطيف الشمائل، حلو الحديث، بالإضافة إلى نشأته فى بيت الخلافة الذى انبعثت من رحابه أضواء العلوم والمعارف وما فيه من العظمة والأبهة والجلال.

ومن هنا جمع إسحاق أسباب الرفاهية والنعمة والظرف، وشب وله قدم راسخ فى سائر العلوم والآداب.

وقد قيل : إن الوصف يعجز عن تحديد مكانته فى النبوغ الذى سما به إلى هذه الثقافات والعلوم.

فقد كان عالما فقيها، وشاعرا مجيدا، وأديبا أريبا، ونديما حلو الشمائل، وجليسا لطيف المعاشرة، رقيق الحاشية، لا يستغنى عنه الخلفاء، وراوية يروى أخبار القدامى والمحدثين، بل وكثيرًا ما كان يصحح خطأ من ينسب الأشياء إلى غير قائليها.

كما كان مغنيا عارفا بفن الغناء تمام المعرفة، وعازفا ماهرا، وملحنا بارعا، وعلى الرغم من كل ذلك فقد قيل : إن الغناء أصغر علومه، وأدنى ما يوسم به، وقد كان له فى سائر مذاهب العلم نظراء إلا فى الغناء فقد سبق فيه من مضى، وقلما لحقه أحد ممن بقى. ومما يؤكد نبوغه وتفوقه فى جميع العلوم ما ذكره محمد بن عطية الشاعر حين قال : «كنت عند يحيى بن أكثم قاضى القضاة، فى مجلس له، يجتمع إليه أهل العلم، وحضر إسحاق الموصلى، فجعل يناظر أهل الكلام حتى انتصف منهم، ثم تكلم فى الفقه فأحسن واحتج، ثم تكلم فى الشعر واللغة ففاق من حضر، فأقبل على يحيى بن أكثم وقال : أعز الله القاضى، أفى شىء مما ناظرت فيه تقصير؟ قال : لا والله.

قال : فما بالى أقوم بسائر العلوم، وأنسب إلى فن واحد، قد اقتصر الناس عليه؟

فالتفت بعض أهل الجدل إلى إسحاق وقال : يا أبا محمد أخبرنى إذا قيل : من أعلم الناس بالشعر واللغة؟ أيقولون : إسحاق أم الأصمعى وأبو عبيدة؟ قال : الأصمعى وأبو عبيدة. قال : إن قيل: من أعلم الناس بالنحو؟ أيقولون : إسحاق أم الخليل وسيبويه؟ قال : بل الخليل وسيبويه. قال : فإن قيل من أعلم الناس بالأنساب؟

أيقولون : إسحاق أم ابن الكلبى؟ قال : بل ابن الكلبى. قال : فإن قيل : من أعلم الناس بالكلام؟

أيقولون : إسحاق أم أبو الهذيل والنَّظام؟

قال : بل أبو الهذيل والنَّظام. قال : فإن قيل : من أعلم الناس بالفقه؟. أيقولون : إسحاق أم أبو حنيفة وأبو يوسف؟ قال : بل أبو حنيفة وأبو يوسف.

قال : فإن قيل : من أعلم الناس بالحديث؟ أيقولون : إسحاق أم على بن المدينى ويحيى ابن معين؟ قال : بل على بن المدينى ويحيى ابن معين.

قال : فإذا قيل : من أعلم الناس بالغناء؟ أيجوز أن يقول قائل فلان أعلم من إسحاق؟ قال : لا. قال : فمن هنا نسبت إلى ما نسبت إليه، لأنه لا نظير لك فيه، وأنت فى غيره لك نظراء، فضحك وقام وانصرف».

وقد ذكر أبو على القالى فى كتابه «الأمالى» ما يؤكد هذا المعنى أيضا حين قال: «قال حميد الطوسى، كنت حاضرًا دهليز المأمون، فدعا الناس لقبض أرزاقهم. فكان

أول من دخل إسحاق الموصلى مع الوزراء. ثم دعا بالقادة، فكان أول من دخل إسحاق الموصلى. ثم دعا بالفقهاء والمحدثين، فكان أول من دخل هو. ثم دعا بالمغنيين، فكان أول من دخل هو، ثم دعا بالرماة فى الهدف، فكان أول من دخل هو. فعجبت من كثرة علمه وفنونه».

ومن هنا نقول : كان إسحاق الموصلى شخصية متعددة المواهب، كما كان مثالاً نادرًا للشباب الطموح الذى لم يقف عند وسيلة ولم يقنع بغاية، ولم يقتصر على فن، ومع تفرده بالمكانة الأولى فى الموسيقى والغناء فإن احترافه لهذا الفن لم يحل بينه وبين تحصيله مختلف العلوم والفنون.

وقد زادت مكانته لدى الخلفاء فى عصر الدولة العباسية فكان نديما للخليفة هارون الرشيد، ثم من بعده للخلفاء : الأمين، والمأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل.

وقد ألف كتبا كثيرة وصنف مؤلفات عديدة ومعظمها فى الموسيقى والغناء والأدب ومنها :

١ - كتاب أغانيه. التى غنى بها.

٢ - كتاب أخبار حماد عجرد.

٣ - كتاب أخبار عزة الميلاء.

٤ - كتاب أغانى معبد.

٥ - كتاب أخبار ذى الرمة.

٦ - كتاب الاختيار من الأغانى. ألفه للواثق.

٧ - كتاب مواريث الحكماء.

٨ - كتاب جواهر الكلام.

٩ - كتاب النوادر المتميزة.

١٠ - كتاب الأخبار والنوادر.

١١ - كتاب جواهر الكلام.

١٢ - كتاب أخبار الهذليين.

وغير ذلك من الكتب والمؤلفات. ومما يؤسف له أن جميع هذه المؤلفات مفقودة ولم يصل إلينا منها شىء.

أ.د. محمود أحمد الحفنى

مراجع للاستزادة:

١- إسحاق الموصلى. الموسيقار النديم. د. محمود أحمد الحفنى. سلسلة أعلام العرب ١١٢.

٢- الأعلام للزركلى جـ ٢٩٢/١.

٣- الأمالى لأبى على القالى.

٤- الفهرست لابن النديم ص ١٩٣.

٥ - وفيات الأعيان جـ ١ / ٦٥.

٦ - تاريخ بغداد جـ ٦ / ٣٣٨.

٧ - لسان الميزان جـ ١ / ٣٥٠.

٨ - الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى جـ ٥ / ٢٦٨.

أسماء بنت أبى بكر الصديق
(٢٧ ق هـ - ٧٣هـ = ٥٩٧ - ٦٩٢م)

ذات النطاقين أسماء بنت أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - من زوجته قُتَيْلة بنت عبد العزى.

ولدت بمكة فى الجاهلية، فى ٢٧ قبل الهجرة الموافق ٥٩٧م، وتوفيت عام ٧٣هـ الموافق ٦٩٢م، ولما بعث النبى ﷺ، كان أبوها أبو بكر رضي الله عنه أول الرجال الذين آمنوا بالدين الجديد، وكان ترتيب «أسماء» الثامنة عشرة بين الذين سبقوا إلى الإسلام.. أما زوجها، الزبير بن العوام، فكان رابع الرجال الذين دخلوا فى الإسلام.. وكان أيضًا، أحد الذين هاجروا بدينهم إلى الحبشة فى السنة الخامسة لظهور الإسلام، لكنه عاد لمكة بعد عدة أشهر.

هكذا كانت؛ ابنة لأول السابقين إلى الإسلام، وزوجة لرابع المؤمنين، وأول من سل سيفه فى الإسلام عندما شاع فى المدينة أن المشركين قد اختطفوا النبى ﷺ ليحبسوه أو يقتلوه.

وعندما أخذ المسلمون فى الهجرة إلى المدينة، كانت أسماء - رضى الله عنها - من القلة المؤمنة الذين بقوا حول الرسول ﷺ بمكة، فلما كان حدث هجرة الرسول ﷺ مع أبى بكر رضي الله عنه وهو التحول الأعظم الذى انتقل بالإسلام إلى طور «الدولة» و«الانتصاف» من الشرك، كانت «أسماء» فى مقدمة الذين ائتمنوا على هذا السر العظيم، بل وشاركوا فى تنفيذ مخططه. فعلى امتداد الأيام الثلاثة التى مكثها الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه فى «غار ثور»، كان أخوها عبد الله يتسمع أخبار المشركين ليبلغها بالمساء إلى النبى ﷺ وصاحبه فى الغار رضي الله عنه. وكانت أسماء تذهب إلى الغار، متخفية، بالطعام والماء. وكان عامر بن فهيرة، راعى غنم أبى بكر يسوق غنمه إلى الغار ليحلب منها ما يشربه الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه، ولتمحو أقدام الغنم، وهى عائدة، آثار أقدام أسماء وعبد الله.

وفى مساء اليوم الثالث للهجرة، ذهبت أسماء بطعام وماء لأيام الرحلة، وعندما نهض الرسول ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه للخروج من الغار متوجهين إلى المدينة، اكتشفت أسماء

أنها لم تحضر رباطا لصرة الزاد وقربة الماء، فنزعت نطاقها، وشقته قسمين فربطت بهما الزاد والماء. وكان رسول الله ﷺ ينظر إليها فقال: «**أما إن لك به. يا أسماء. نطاقين فى الجنة**» - فسميت - لذلك - «ذات النطاقين».

وفى مكة أمضت أسماء عدة أشهر فى محيط من الشرك الهائج لإفلات الرسول ﷺ مهاجرا. وكانت تنتظر مولودها الأول، فلما هاجرت إلى المدينة كان مولودها - عبد الله ابن الزبير - أول مولود للمهاجرين فى وطن الإسلام الجديد، ولحظتها كبَّر المسلمون جميعا تكبيرة اهتزت لها أرجاء المدينة.

عاشت أسماء نموذجا راقيا للمرأة العربية المسلمة، تنهض بالعمل فى منزل زوجها، وفى زراعة أرضه، وترعى فرس الزوج الفارس، وتراعى مقتضيات الغيرة الشديدة التى كان زوجها يغارها عليها، وتلتزم كمال الحشمة الإسلامية فلا تلبس ما يصف ولا ما يشف!، وتصحب زوجها فى معارك جهاده، بل وتقاتل عندما تقتضى الضرورة - كما حدث فى موقعة «اليرموك» (١٥هـ - ٦٣٦م) عندما «قاتل النساء بالسيوف قتالا شديدا، حتى سابقن الرجال فى القتال» كما قال المؤرخون!

وقد برعت ـ رضى الله عنها ـ فى صناعة الرجال، فهى التى ربت ابنها عبد الله على روح الفداء والاستشهاد، حتى لقد حدثته، وهو على وشك المعركة الفاصلة بينه وبين جيش الحجاج بن يوسف - إبان ثورة عبد الله فى مكة ضد بنى أمية - وكان قد طعن بها السن، وكف بصرها - حدثت ابنها الواقف على أبواب الشهادة، بأن أمنيتها أن تراه فى حال من اثنتين: إما أن يموت شهيدا، وإما أن ينتصر فتقر بنصره عيناها!.

وعندما أحست منه بعض التردد، قالت له:

- يا بنى، لا تقبل خطة تخاف على نفسك منها، خوفًا من القتل! عش كريما أو مت كريما. وإياك أن تُؤْسر فيلعب بك صبيان بنى أمية! إنك، يا بنى، أعلم بنفسك، فإن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو، فامض له، فقد قتل عليه أصحابك! وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك وأهلكت من قتل معك! ولا تقل: إنى كنت على الحق، فلما ضعف أصحابى ضعفت. فإن هذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين. فكم خلودك فى الدنيا؟!، القتل أحسن، يا بنى!

فلما قال لها:

- يا أمّه! إنى أخاف أن يمثلوا بى! كان جوابها، الذى خلده الدهر:

- يا بنى!، وهل تتألم الشاة من ألم السلخ بعد ذبحها؟!، انهض، وانزع درعك، والبس ثيابك مشمرة، فإن من آبائك: أبا بكر،

والزبيـر.. ومن أمهاتك: صـفيـة بنت عـبـد المطلب!.

فنهض عـبـد الله ، فـقـاتل، واسـتـشـهـد، واحتز الحجاج رأسه وبعث به إلى عبد الملك ابن مـروان، فـدخلت أسـمـاء وقـد بلغت المائة عام - على الحجاج الطاغية وقالت له: «إن رأس يحيى بن زكريا قد أهديت إلى بغىّ من بغايا بنى إسرائيل»؟!

وبعد شهر من استشهاد ابنها، سمح لها بإنزال جثمانه من على الصليب، فكفنته ودفنته.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير جـ ٧. طبعة دار الشعب. القاهرة.

٢ - تهذيب التهذيب لابن حجر. الجزء الثانى عشر.

٣ - مسلمون ثوار للدكتور محمد عمارة. طبعة دار الشروق. القاهرة ١٩٨٨م.

أبو الأسود الدُّؤلى
(١ ق هـ - ٦٩ هـ = ٦٠٥ - ٦٨٨ م)

هو ظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل بن سليمان بن حِلْس الدؤلى الكنانى، من الدئل، والدئل بطن من كنانة، والنسبة إليه دُؤلى، ولد بمكة قبل الهجرة بعام ورحل إلى المدينة، وكان من سادات التابعين، وقد نزل البصرة فى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، صَحِب على بن أبى طالب رضي الله عنه وشهد معه صفين، وقدم على معاوية رضي الله عنه فأكرمه وولى قضاء البصرة وتوفى بها سنة ٦٧هـ، وقيل ٦٩هـ وعمره ٨٣ سنة.

وكان أبو الأسود أعلم الناس فى عصره بكلام العرب، وكان من القراء الذين يحرصون أشد الحرص على سلامة النَّص القرآنى ويألمْ كما يألم القُراء جميعا عند سماع اللحن فى القراءة.

وقد كان لأبى الأسود مجموعة من التلاميذ، الذين أخذوا عنه، وأكملوا مسيرته، وفى مقدمتهم: نصر بن عاصم (٨٩ هـ)، ويحيى بن يعمر (١٢٩هـ)، وعبد الرحمن بن هرمز (١٧٧هـ)، وميمون الأقرن، وعنبة الفيل.

دور أبى الأسود الدُّؤلى :

لا يوجد خلاف بين المؤرخين للنحو العربى فى أن أبا الأسود هو أول من وضع نقط الإعراب فى القرآن الكريم، وهو تحديد حركات أواخر الكلام. وقد اتخذ لذلك كاتبا فَطِنًا مِنْ بنى عبد القيس، وقال له: «إذا رأيتنى قد فتحتُ شفتىَّ بالحرف، فانقط نقطة فوقه على أعلاه، وإنْ ضمَمْتُ شَفَتىَّ؟ فانقط نقطة بين يدى الحرف، وإنْ كسرت شفتىَّ، فاجعل النقطة من تحت الحرف، فإن أتبعتُ شيئا من ذلك غُنَّةً (تنوينا)، فاجعل مكان النقطة نقطتين». وابتدأ أبو الأسود المصحف حتى أتى على آخره.

ويختلف المؤرخون حول الدافع الذى دفع أبا الأسود إلى هذا الصنيع، فمنهم من ذهب إلى أنه كان تكليفًا من الإمام على رضي الله عنه، أو منْ زياد ابن أبيه، ومنهم من ذهب إلى أنه كان دافعًا شخصيا من تلقاء نفسه، أوجده عنده وَعْيُه بأبعاد قضية اللحن، أو سماع هذا اللحن على لسان ابنته، كما تذكر بعض الروايات.

أمَّا موضعه مِن نشأة النحو العربى فقد نسب كثيرٌ من المؤرخين نشأة النحو العربى إلى أبى الأسود الدُّؤلى، ولعل أقدم نصّ يتناول نشأة النحو العربى ما ذكره ابن سلام (ت ٢٣١هـ) فى «طبقات فحول الشعراء»، وفيه ينسب الأمر لأبى الأسود حينما اضطرب الأمر، وفشا اللحن والخطأ، بعد التوسع فى الفتوحات الإسلامية، ودخول الموالى فى الإسلام، واختلاطهم بالعرب.

وقد أكد هذه النسبة أعلام مثل ابن قتيبة، وأبى الطيب اللغوى، وابن النديم، والسيوطى وغيرهم.

ووضع كتابا فى النحو، وكذلك نجد الأمر عند أبى الطيب اللغوى، وابن النديم، وغيرهم.

ويتفق على ذلك كل الدارسين - تقريبا - فى القرون التالية، حتى نصل إلى السيوطى فى القرن العاشر.

أمّا فى العصر الحديث، فنجد اتجاهين:

الأول: يسير فى ركاب القديم معترفا بدور أبى الأسود والإمام على رضي الله عنه.

الثانى: يرفض هذا، ويثبته إلى ابن أبى إسحاق، أو الخليل، أو سيبويه، إذ لا يعقل فى هذا العصر المتقدم أن يكون هناك تقسيم، أو تحديد لأبواب النحو، ويمثل هذا الرأى الأستاذ إبراهيم مصطفى، وأحمد أمين، وبعض المستشرقين، وقد قالوا: إنّ للتشيع أثر فى إسناده نشأة العلم إليه، أى أن هيبته كان لها دور فى إثبات ذلك.

والرأى الثانى فيما يبدو هو الراجح، وخاصة أن أصحاب الرأى الأول قد ذكروا أن أبا الأسود وضع أبوابا كاملة من النحو، كباب الفاعل والمفعول، والمضاف، وحروف الجر، والرفع، والنصب.

ونسبة وضع مثل هذه الأبواب وغيرها من مصطلحات نحوية يتنافى مع طبيعة نشأة العلوم؟ حيث إنّ العلوم تنشأ عادة فى صورة بسيطة ساذجة غير مركبة أو مرتبة.

وخلاصة الأمر أن الشىء المحقق الذى لا جدال فيه أنّ أبا الأسود وضع أول نقط للإعراب فى القرآن الكريم، ولعل هذا الوضع ينبئ عن قدر من الوعى الأول فى هذا الزمان بحدود إعراب الكلمات.

أ.د. أحمد كشك

مراجع للاستزادة:

١ - إنباه الرواة.
٢ - الفهرست لابن النديم.
٣ - أخبار النحويين البصريين.
٤ - مراتب النحويين.
٥ - طبقات فحول الشعراء.
٦ - طبقات ابن سعد.
٧ - طبقات القراء.
٨ - الخط العربى لسهيلة جابورى.
٩ - المدارس النحوية لشوقى ضيف.

الأشعـــرى
(٢٦٠ - ٣٢٤هـ = ٨٧٤ - ٩٣٦ م)

هو الإمام على بن إسماعيل بن إسحاق المعروف بأبى الحسن الأشعرى، ينتهى نسبه إلى أبى موسى الأشعرى.

ولد بالبصرة سنة ٢٦٠هـ الموافق ٨٧٤م، كان والده إسماعيل بن إسحاق من أهل السنة والجماعة، وكان من المعروفين بين أهل الحديث، توفى وابنه صغير، وأوصى به إلى زكريا الساجى الذى كان إماما فى الفقه والحديث، وقد تلقى عن والده العلم، كما أخذ علم الكلام عن إمام المعتزلة فى عصره أبى على الجُبَّائى (ت٣٠٣هـ) الذى تزوج بأمه بعد وفاة أبيه، وكانت إقامة أبى الحسن ببغداد. وظل بها إلى أن توفى عام ٣٢٤هـ الموافق ٩٣٦ م.

درس الفقه الشافعى على كبار علماء عصره، ومن أبرزهم الشيخ أبو إسحاق المروزى، وكان يجلس إليه أيام الجمع فى جامع المنصور، يتلقى عنه الفقه حتى برع فيه.

وتشير كتب التراجم إلى أن الأشعرى ظل على مذهب الاعتزال أربعين عاما من عمره، ثم تحول عن المذهب ورجع عن القول بخلق القرآن بسبب رؤيا رآها فى المنام، أن رسول الله ﷺ قد أمره فيها أن يترك مذهب المعتزلة وينتصر لمذهب أهل الحديث، وسلف الأمة، لأنه أعدل المذاهب وأولاها بالحق، وقيل: إنه ناظر الجبائى فى قضية الصلاح والأصلح، وأن تلك المناظرة كانت سببا فى تحول الأشعرى عن مذهب المعتزلة ليؤسس مذهبه الجديد فى الرد على المعتزلة وبيان فساد قولهم بوجوب الصلاح والأصلح على الله، والقول بخلق القرآن، ونفى القدر، ونفى الصفات الإلهية، والقول بحرية الإنسان فى أفعاله وأنه يخلق أفعاله مستقلا عن قدرة الله تعالى.

وتدور المناظرة المشهورة بينه وبين الجبائى حول سؤال وجهه الأشعرى إلى الجبائى عن ثلاثة: مؤمن، وكافر، وصبى لم يبلغ الحلم بعد، فقال الجبائى: المؤمن من أهل الجنة، والكافر من أهل النار، والصبى من أهل النجاة.

فقال الأشعرى: إن أراد الصبى أن يرقى إلى الدرجات العليا فى الجنة هل يمكن له ذلك؟

فقال الجبائى: لا؛ لأن المؤمن نال درجته بالطاعة، والصبى لا طاعة له.

فقال الأشعرى: فإذا قال الصبى: التقصير ليس منى فلو أحييتنى لأطعتك؟ فقال الجبائى: يقول الله له: أعلم أنك لو كبرت لكفرت فتدخل النار، فكان الأصلح لك أن تموت صغيرا.

فقال الأشعرى: لو قال الكافر: يا رب ولم لم تمتنى صغيرا حتى لا أعصيك، وهلا راعيت مصلحتى كما راعيت مصلحة الصبى؟ فانقطع الجبائى عن الجواب.

وعندها ترك الأشعرى مذهب الاعتزال وتحول إلى مذهبه الجديد. وبدأ يصنف مؤلفاته الكثيرة فى إبطال آراء المعتزلة، وتعتبر هذه المناظرة أشهر مناظرات الأشعرى مع المعتزلة على الإطلاق لارتباطها بالتحول الذى طرأ على حياة الأشعرى.

مذهبه الجديد :

بدأ الأشعرى يصنف فى الإبانة عن أصول أهل السنة والجماعة فى مسائل علم الكلام التى خالف فيها المعتزلة، وركز بصفة أساسية على مخالفة المعتزلة لما كان عليه السلف فى المسائل الكبار، مثل: قضية خلق القرآن، أفعال العباد، القدر، الصفات الإلهية، وكان من أهم ما صنفه فى بيان مذهب السلف فى هذه المسائل ثلاثة كتب مختصرة هى:

١ - الإبانة عن أصول الديانة، وقد قمت بنشرها محققة تحقيقا علميا والأستاذة الدكتورة فوقية حسين - رحمها الله - أستاذة الفلسفة الإسلامية بكلية البنات جامعة عين شمس.

٢ - اللمع، وقام بتحقيقه أ. د/ حمودة غرابه.

٣ - رسالة أهل الثغر، وقد طبعت محققة بعنوان: أصول أهل السنة والجماعة، حيث قام بنشرها محققة أ. د/ محمد السيد الجليند أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

وتعتبر هذه المؤلفات الثلاثة أهم المصنفات التى ضمنها الأشعرى مذهبه الجديد الذى انتصر فيه لمذهب السلف.

ومن أهم معالم مذهبه الجديد :

١ - القول بأن القرآن الكريم كلام الله غير مخلوق.

٢ - القول بأن أفعال الإنسان مخلوقة لله مكسوبة للعبد.

٣ - القول بأن أفعال الله تعالى لا تعلل؛ لأنه تعالى لا يُسأل عما يفعل.

٤ - القول بإثبات الصفات الإلهية كما وردت فى القرآن دون تأويل، وقد تأولها أتباعه من بعده، ومالوا بها إلى رأى المعتزلة.

٥ - لا يجب على الله فعل الصلاح والأصلح.

٦ - حسن الأفعال وقبحها مصدره الشرع وليس العقل.

٧ - إثبات الشفاعة العظمى للرسول محمد ﷺ.

٨ - الإمامة تكون بالوصف وليست بالنص كما تزعم الشيعة.

٩ - مرتكب الكبيرة ليس بكافر كما تزعم الخوارج، وإنما هو مؤمن عاص، إن تاب تاب الله عليه.

١٠ - الإمامة والخلافة ثبتت لأبى بكر بعد الرسول ﷺ، وترتيب الخلفاء الراشدين فى الأفضلية يكون حسب ترتيبهم فى الخلافة: أبو بكر، فعمر، فعثمان، فعلى رضى الله عنهم أجمعين.

أهم معالم منهجه :

من أهم معالم منهج الأشعرى أنه يميل إلى اعتبار النص الشرعى وتقديمه على العقل فى الشرعيات؛ لأنه يرى أن الاعتماد على العقل وحده فى مسائل الإيمان قد يؤدى إلى الزلل والضلال، ومن هنا فإنه يقول بتقديم الشرع على العقل.

كما أنه يقول بأن الإيمان بالله وصفاته، وبالملائكة، وبالغيبيات عموما، ومنها: مسائل البعث والحساب، والجنة والنار، ومسألة الشفاعة، وغيرها مما يسمى فى علم الكلام بالسمعيات، هى كلها أمور توقيفية لا مجال فيها للرأى أو الاجتهاد.

ومن أهم ما ينبغى أن نشير إليه أن الأشعرى يفرق بين دور العقل فى مسائل الاعتقاد، حيث يرى أنه قليل إذا قورن بدور العقل فى المحسوسات والمعارف الكونية؛ حيث يكون العقل هو الأصل والأساس لكل حكم ورأى، يقول أبو الحسن الأشعرى فى رسالته «استحسان الخوض فى علم الكلام»: «وحكم مسائل الشرع التى طريقها السمع أن تكون مردودة إلى أصول الشرع التى طريقها السمع، وحكم مسائل العقليات والمحسوسات أن يرد كل شىء من ذلك إلى بابه ولا تخلط العقليات بالسمعيات.

من مؤلفاته :

١ - مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين.

٢ - الإبانة عن أصول الديانة.

٣ - اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع.

٤ - رسالة أهل الثغر المسماة بأصول أهل السنة والجماعة.

٥ - رسالة فى استحسان الخوض فى علم الكلام.

كما تذكر كتب التراجم والطبقات مؤلفات كثيرة للأشعرى فى الرد على الفلاسفة والدهريين والزنادقة والبراهمة، ولكن لم يصلنا شىء من هذه الكتب ولا يعرف لها مكان حتى الآن.

أ.د. محمد السيد الجليند

مراجع للاستزادة:

١ - تبيين كذب المفترى على أبى الحسن الأشعرى، لابن عساكر. ص ٣٥.

٢ - تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى ٣٤٧/١١.

٣ - الفهرست، لابن النديم، ط فلوجل ص ١٨١.

٤ - طبقات الشافعية، للسبكى ٢٥٠/٣.

٥ - مقدمة المحقق لرسالة أصول أهل السنة والجماعة ص ٧ ـ ١١ ـ ط دار اللواء بالرياض بالسعودية. تحقيق د / محمد السيد الجليند.

٦ - وفيات الأعيان، لابن خلكان ٣٩٨/٣ ط القاهرة.

٧ - معجم البلدان، لياقوت الحموى ١٣/٢ ط مصر.

٨ - مقدمة كتاب الإبانة عن أصول الديانة، للدكتورة فوقية حسين، ط دار الأنصار بالقاهرة.

٩ - مذاهب الإسلاميين، للدكتور/ عبد الرحمن بدوى، ط بيروت سنة ١٩٧١م.

الأصمعي
(١٢٢ - ٢١٦ هـ = ٧٤٠ - ٨٣١ م)

هو عبد الملك بن قريب بن على بن أصمع الباهلى البصرى. وكنيته : أبو سعيد الأصمعى.

راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة، والشعر، والبلدان، وأحد أعلام القرن الثانى الهجرى، ويُنسب إلى جده : أصمع.

ولد فى البصرة سنة ١٢٢ هـ الموافق سنة ٧٤٠م.

وتوفى بها سنة ٢١٦هـ الموافق ٨٣١م.

وعمره أربع وتسعون سنة.

نشأ فى بيت عربى، قديم العهد بالكتابة فى البصرة.

فأخذ العربية والحديث والقراءات عن أئمة البصرة، أمثال : أبى عمرو بن العلاء، والخليل بن أحمد.

وأخذ عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يفدون إلى البصرة، وكان كثير التطواف فى البوادي، وشافه الأعراب وساكنهم، وربما استغرقت بعض رحلاته سنوات، يحج فى أثنائها، ويلتقى بالفصحاء فى المواسم، حتى اجتمع له من الأخبار، والنوادر، والغريب، ما لم يجتمع لغيره. وكان يتحف الخلفاء والأمراء بهذه الأخبار والنوادر، فيكافأ على ذلك بالعطايا الوافرة، وتعلَّم نقد الشعر ومعانيه، من خلف الأحمر.

وكان أحفظ أهل زمانه، حتى قال مرة عن نفسه : «إنى أحفظ اثنى عشر ألف أرجوزة، فقال له رجل : منها البيت والبيتان، فقال : ومنها المائة والمائتان».

وكان الخليفة هارون الرشيد يسميه : «شيطان الشعر». وراجت بضاعته عند الرشيد، وأخذ جوائزه الكثيرة ورزق السعادة فى رواية الأخبار والمُلَح دون غيره من أهل زمانه من الشعر والأدباء، فتهافت الناس على نقلها فى كتبهم لرضاهم عن مذهبه وتمسكه بالسُنَّة المطهرة.

وكان يحجم عن تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف خشية الزلل والوقوع فى الحرج والخطأ.

قال عنه الأخفش : «ما رأينا أحدًا أعلم بالشعر من الأصمعى».

وقال عنه أبو الطيب اللغوى : «كان أتقن القوم للغة، وأعلمهم بالشعر، وأحضرهم حِفْظًا».

وله من الكتب المؤلفة والتصانيف والرسائل والأمالى الشىء الكثير ومنها :

١ - كتاب الأضداد.

٢ - كتاب الإبل.

٣ - كتاب خلق الإنسان.

٤ - كتاب المترادف.

٥ - كتاب الفرق بن أسماء الأعضاء من الإنسان والحيوان.

٦ - كتاب الخيل.

٧ - كتاب الشاء.

٨ - كتاب شرح ديوان ذى الرمة.

٩ - كتاب الدارات.

١٠ - كتاب النبات والشجر.

١١ - كتاب الوحوش وصفاتها.

أما كتاب الأصمعيات، فليس من تأليفه، وإنما هو من جمع المستشرق الألمانى وليم أهلورد وهو عبارة مجموعة من القصائد التى تفرد بروايتها الأصمعى. وقد أعاد طبعها فى القاهرة شيخا المحققين : الأستاذ أحمد محمد شاكر، والأستاذ عبد السلام هارون. محققة مشروحة وسمياها : «اختيار الأصمعى».

أ. د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة :

١- الأصمعى حياته وآثاره لعبد الجبار الجومرد.

٢- المنتقى من أخبار الأصمعى لعبد الله بن أحمد الربعى.

٣ - وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ / ٢٨٨.

٤ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ ٤١٠/١٠.

٥ - الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه. للإسكندرى ص ٢٨٧.

٦ - الأعلام للزركلى جـ ١٦٢/٤.

ابن أبى أصيبعة «رشيد الدين»
(٥٧٩ - ٦١٦هـ = ١١٨٣ - ١٢١٩م)

هو أبو الحسن على بن خليفة بن يونس الخزرجى الأنصارى، من أحفاد الصحابى الجليل سعد بن عبادة رضي الله عنه، ويلقب برشد الدين ابن أبى أصيبعة ولد فى حلب سنة ٥٧٩هـ = ١١٨٣م، ثم انتقل مع أبيه إلى القاهرة، حيث نشأ بها، وفيها حفظ القرآن الكريم، وتعلم الحساب على يد الشيخ أبى التقى صالح بن أحمد العرشى المقدسى. بدأ دراسة الطب على يد أبيه خليفة بن يونس طبيب العيون الشهير، ثم عهد به إلى العالم الطبيب جمال الدين بن أبى الحوافر، رئيس الأطباء بالديار المصرية آنذاك، فقرأ عليه بعض كتب جالينوس فى الطب، وفى أثناء ذلك مزج الدراسة النظرية بالتدريب العملى فى البيمارستان (المستشفى).

وتوفى عام ٦١٦هـ الموافق ١٢١٩م.

وقد اهتم رشيد الدين إلى جانب الطب بدراسة بعض العلوم الأخرى، مثل: الفلسفة، والنجوم، والموسيقى.

وبعد فترة من الزمن عاد رشيد الدين إلى الشام مع والده، حيث واصل دراسة الطب ومارسه فى البيمارستان النورى بدمشق. وذاعت شهرة رشيد الدين فى الشام، وحسن موقعه عند الملوك، فولاَّه الملك العادل «أبو بكر ابن أيوب» رئاسة البيمارستانين بدمشق سنة ٦١٥هـ = ١٢١٨م، وخصص له راتبًا مجزيًا، وأقام رشيد الدين مجلسًا عاما لتدريس الطب، وتخرج على يديه أطباء ماهرون.

ترك رشيد الدين مؤلفات عديدة فى الطب والهندسة، منها:

- كتاب «الموجز المفيد» فى علم الحساب، وقد ألّفه خصيصًا للملك «مجد الدين بهرام شاه».
- كتاب «المساحة» فى الهندسة.
- كتاب «طب السوق» ألفه لبعض تلاميذه، وهو يشتمل على ذكر الأمراض التى تَحْدُث كثيرًا، ومداواتها بأشياء يسهل الحصول عليها، مما اشتهر التداوى بها.

أ. د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة:

١ - حاجى خليفة، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٢م.
٢ - ابن أبى أصيبعة، كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. تحقيق ودراسة: د. عامر النجار، الجزء الأول، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٦م.
٣ - براون، الطب العربى، ترجمة د. داود سليمان، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد بدون تاريخ.
٤ - ألدوميلى، العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى، ترجمة الدكتورين عبد الحليم النجار ومحمد يوسف موسى، دار القلم بمصر، ١٩٦٢م.

ابن أبى أصيبعة «موفق الدين»
(٦٠٠ - ٦٦٨ هـ = ١٢٠٠ - ١٢٧٠م)

هو أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجى، وكان ملقبا باسم جده «ابن أبى أصيبعة».

ولد بدمشق سنة ٦٠٠ هـ الموافق ١٢٠٠م فى بيت علم وأدب، إذ كان أبوه من أشهر أطباء العيون بدمشق، وكذلك كان عمه رشيد الدين على بن خليفة من مشاهير الأطباء.

وتوفى سنة ٦٦٨ هـ الموافق ١٢٧٠م.

هو صاحب الفضل الأوفى على تاريخ الطب فى العصر الإسلام، وذلك بما سجله فى موسوعته الكبرى «عيون الأنباء فى طبقات الأطباء»، التى لاتزال إلى يومنا هذا بمثابة المرجع الأول والأوفى لمعلوماتنا عن أعلام الطب العربى الإسلامى، وقد رتبت هذه الموسوعة الفريدة والرائدة ترتيبا زمنيا بادئا بالأطباء النوابغ فى عهود الإغريق والرومان والهنود، وذلك قبل أن يترجم لأطباء العصور الإسلامية المتعاقبة، وقد تميز فى كتابته الموسوعية بالإحاطة والإنصاف، ويتجلى هذا حين نجد تراجمه لمعاصريه وقد أعطتهم حقهم فى مقابل ما نراه فى آثار غيره من صدى الأخلاق والطباع التى يفرضها التنافس وكراهية أصحاب المهنة الواحدة. وبالإضافة إلى هذا فقد تميزت موسوعة ابن ابى أصيبعة بحس أدبى ونقدى متميز، فلم تقف عند حدود العلم وإنما أوردت تعريفات جيدة بالآثار الأدبية والفكرية للأطباء مع تقييم نقدى لقدراتهم الأدبية والبيانية ولأفكارهم الفلسفية ومعتقداتهم، وهكذا نجح ابن أبى أصيبعة فى أن يقدم موسوعة علمية فكرية أرقى وأشمل بكثير من أن تكون سجلا للطب والأطباء، وقد استأنف بعض الأطباء والمؤرخين جهود أبن أبى أصيبعة ولم يمكنهم تجاوز ماحققه فاعترفوا حتى فى بعض عناوين كتبهم بأنهم يكملون عمله الذى توقف بوفاته مترجمين للأطباء فى العصور التالية له، ومن أبرز هؤلاء الدكتور أحمد عيسى.

أما على المستوى المهنى فقد كان ابن أبى أصيبعة كحالا أى طبيب عيون، وقد ورث

هذه المهنة عن والده الذى وصل إلى مـرتبـة شـيخ الكحـالين فـى دمـشق، وقـد درس فى الشـام ثم انتـقل للقـاهـرة التى كـانت فى ذلك الوقت بمثـابة أبرز مـراكـز العلم فى العـالم الإسـلامى، وعـمـل ابن أبى أصـيـبـعـة فى المستشفى الناصرى الذى ينسب إلى صـلاح الدين الأيوبى (الملك الناصـر) وحـقق شـهـرة طيـبـة ومكانة علمـيـة مـتـقـدمـة، وأصـبـح من أطباء السلطان ثم انتقل إلى صرخد السورية حيث عمل فى خدمة الملك عز الدين.

ومن أهم مؤلفاته :

١ - عيون الأنباء فى طبقات الأطباء الذى صنَّفه للوزير أبى الحسن بن غزال السامرى.

٢ - حكايات الأطباء فى علاجات الأدواء.

٣ - إصابات المنجمين.

٤ - معالم الأمم.

٥ - التجارب والفوائد.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة :

١ - ابن أبى أصيبعة. كتاب عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. دار المعارف القاهرة ١٩٩٦م.

٢ - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة دار الفكر بيروت ١٩٨٢م.

أبو الأعلى المـــودودى
(١٣٢١ـ ١٣٩٩ هـ = ١٩٠٣ - ١٩٧٩م)

وُلد أبو الأعلى المودودى فى مـدينة أُورنج آباد فى جنوبى الهند، فى سنة ١٣٢١هـ = ١٩٠٣م واتجه تلقائيا بعد وفاة والده الذى أشرَبَ روحه تعاليم الإسلام إلى الصحافة لتكون لسانه المعبر، إذ التحق فى سن السابعة عشرة بجريدة «المدينة» الأسبوعية، فبرز اسمه بين المحررين إذ كان صاحب رأى حاسم على طَراوة سنه، واجتذبته صحف أخرى أوسع انتشارا من جريدة المدينة، فواصل تألقه بها حتى أصبح رئيس تحرير مجلة «المسلم» التى كانت تصدر من العاصمة، وذاع صيته كاتبا إسلاميا. ولم يقتصر على مقالات الصحف، بل أصدر كُتبا مستقلة كان أولها كتاب (مبادئ الإسلام) وعنوانه يدل عليه، ثم بدا له أن يستقلّ بصحيفة خاصة، فأصدر مجلة «ترجمان القرآن» فكانت أدسم غذاءٍ فكرىّ يوجه للمسلمين بالهند، لقى ربه فى سنة ١٣٩٩هـ الموافق ١٩٧٩م.

كان إلغاء الخلافة الإسلامية على يد مصطفى كمال أتاتورك مبعث ألم صارخ لدى المسلمين فى الهند، وقد شَذَّ منهم نفر قليل دعا إلى احتذاء تركيا فى تشريعاتها العلمانية، ولكن الأكثرية رأت فى الالتزام بشريعة الإسلام باب النجاة، وكان أبو الأعلى المودودى صاحب الرأى الجهير فى هذا المجال حين جعل ينشر مبادئ الحرية والمساواة والإخاء كما جاء بها القرآن وروتها كتب الحديث؛ ليؤكد أصالة الإسلام فى الدعوة إلى الحرية والاستقلال، وقد جعل همه فى كتابته، التى أفرد لها جريدة علمية سمّاها «ترجمان القرآن» أن يحيى الروح الإسلامى فى النفوس، وأن يفضح دعاة القومية الهندية منفصلة عن الإسلام، كما ينقد صراحة نفرًا من المسلمين رأوا فى العلمانية أملا فى التقدم الحضارى، ولم يكن الرجل حماسيا يخضع للانفعال، بل جعل المنطق المؤيد بالنص دليله الملزم، فكسب أنصارا كثيرين تكونت منهم الجماعة الإسلامية فى سنة ١٩٤١م فكانت مبدأ الطريق لعزة الإسلام فى الباكستان.

وحين اتخذ حزب الرابطة الإسلامية قرارا بإقامة دولة الباكستان (سنة ١٩٤٧م)

ألفت لجنة لإعداد خطة للحكم الإسلامى كان أبو الأعلى أحد أعضائها البارزين، وهنا اتسع المجال لكى يدعو على صفحات جريدته إلى تحقيق المبادئ التى أنشأ من أجلها الجماعة الإسلامية من قبل فى مدينة لاهور، تلك الجماعة التى فرضت الحكم الإسلامى على البلاد بعد أن أظهرت محاسنه، وجمعت قوانينه فى مواد واضحة مستمدة من كتب التشريع.

ولكن إنشاء الباكستان الإسلامية لم يتح له أن ينفذ كل ما ارتآه من تطبيق النظام الإسلامى بكافة مواده، فأعلن فى الصحف وفى محطات الإذاعة دعوته الملحة إلى سرعة التطبيق العملى، واضطرت الحكومة إلى القبض عليه مع نفرٍ من أعضاء الجماعة الإسلامية فى أكتوبر سنة ١٩٤٨م، ولكن مظاهرات الشعب استمرت تطالب بالإفراج عنه، فأطلق سراحه بعد عشرين شهرا (يونيو سنة ١٩٥٠م) وقد خرج من السجن أكثر نشاطا، فقدم مذكرة خاصة بتنفيذ المشروع الإسلامى، ورأت الحكومة شدة سطوته فى تأليب الجمهور، واستغلت عداءه للقاديانية ليكون ركيزة لاتهامه بإثارة الشقاق، وفصم الوحدة فى الباكستان، وصدر الحكم بإعدامه (١٩٥٣م) ولكن العالم الإسلامى جميعه استنكر الحكم، فخفف إلى السجن مدى الحياة، ثم اضطرت الحكومة إلى إطلاق سراحه سنة ١٩٥٤م، واستمر المد والجزر بين الحكومة والجماعة الإسلامية حتى فرضت الحظر على الجماعة، وأمرت بسجن رئيسها مع زملائه، ولكن المحكمة العليا أصدرت حكما بإطلاق المودودى ورفع الحظر عن الجماعة، فكان ذلك انتصارا لمبادئه.

ورأى المودودى أن يسافر إلى العواصم الإسلامية، ليدعو إلى مبادئ الجماعة، ويعلن قضية كشمير المسلمة، فبذل جهدا كبيرا ضاعفه ما عكف عليه من التأليف العلمى المتواصل حتى اضطر تحت وطأة المرض إلى الاستقالة من رياسة الجماعة متفرغا لإنهاء ما بقى من كتاب «التفسير القرآنى»، ولكلّ أجل كتاب.

كان السابقون من دعاة الإسلام مثل جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، ومحمد فريد وجدى، يقفون موقف الدفاع أمام هجوم المستشرقين وأذنابهم، ولكن تطور الزمن جعل أبا الأعلى المودودى لا يقف موقف الدفاع فقط، بل تعداه إلى الهجوم على الحضارة الأوروبية التى يهيم بها هؤلاء الأغرار، وقد نظر فوجد أن البهارج الخادعة التى يتغنى بها هؤلاء تنحصر فى ثلاث هى: العلمانية، والقومية، والديمقراطية، فأفرد لكل صنم من هذه الأصنام (على حد تعبيره) بحثا يظهر عواره، ونستطيع أن نلخص آراءه فيما يلى:

١ - العلمانية: تعنى فى مفهومها الغربى عزل الدين عن الحياة الاجتماعية، إذ تراه مجرد علاقة بين العبد وربه، أما أثر الدين فى تقويم الحياة وتسييرها إلى الخير فلا وجود له عند العلمانيين، وقد ردَّ المودودى بأن الفصل بين علاقة الفرد فى مجتمعه وما يفرضه عليه دينه مستحيل، لأن خالق الكون إما أن يكون السيد الحاكم أو لا يكون، فإذا كان السيد الحاكم فليس بمعقول أن يفرض أحكاما فى كتابه المنزل ثم نتنحى عنها، وليس بمعقول أن يكون الفرد فيما بينه وبين نفسه بحدسه ينشئ علاقة تصله بالله، حتى إذا اتصل بالمجتمع أنكر هذه العلاقة، وقال إنها تقف عند حد شخصى لا تتعداه، والحاجة ماسة إلى تنظيم العلاقة بين الفرد ومجتمعه الصغير، ثم بين المجتمع الصغير والمجتمع الدولى العام، فعلى أى شىء تقوم هذه العلاقة حين نجعل الدين مجرد أدعية وتراتيل ولا ينظم شئون الناس، إن الناس لو تركوا لأنفسهم لأعمتهم الأنانية، وبها يحدث الشقاق، ولا يحسمه إلا الرجوع إلى دين فرضه فاطر السموات والأرض، ثم إن الإنسان طفلاً فى المدرسة، وعاملاً فى المجتمع يرتبط بغيره ارتباطًا لا فكاك منه، فعلى أى أساس تقوم هذه العلاقة إن ترك أمر الدين وذهب كلٌّ مذهبا يتفق مع هواه الخاص.

٢ - أما القومية: فقد انتشرت فى أوروبا فرارًا من تعسف البابوات، إذ هبّ رجال الإقطاع وأرباب الحكم إلى المناداة بها، للخلاص من حكم الكنيسة، فنادوا بأن الولاء يكون للوطن وحده، وترتب على ذلك أن تربصت كل أمة بجارتها، وأخذت تعدّ العدة لاكتساحها، فقامت حربان عالميتان فى أقل من ثلاثين عاما تحت نداء القومية، وحاولت الأمم التى تستعز بقوميتها أن تستذل الدول الضعيفة لتنهب خيراتها باستعمارها، فيكون منها قوة لبنائها الاقتصادى، وثارت الدول المستضعفة على الاحتلال فى معارك ضاعت فيها آلاف الأرواح، ثم أخذت دول القومية تتربص بمثيلاتها، فالاتفاق مفقود، وقد كانت خيبة عصبة الأمم ثم هيئة الأمم المتحدة دليلاً على فساد هذه الدول التى ترى الحرية لنفسها، ولا تراه لغيرها باسم القوميات. وقد قطعت أحداث التاريخ فى القرن العشرين بأن معنى القومية فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا كان مناقضا لمعنى الإنسانية، فما جدواها إذن؟

٣ - أما التشدق بالديمقراطية، وتأكيد أن معناها أن يحكم الشعب نفسه بنفسه، فهو أمرٌ باطل لم يتحقق، لأن الحزب السياسى الذى يؤلف الوزارة، ويحوز ثقة البرلمان، يكون زعيمه مسيطرًا على أعضاء المجلس فهم يأتمرون بأمره، وإذا عرض أمرٌ ما جاءت

الأوامر إلى الأعضاء ملزمة لهم بالانحياز إلى رأى الزعيم الحكيم، فهم إذن لا يُعبرون عن رأى الأمة، ولكنهم يخضعون لرئيس الحزب، ومن شذّ عن رأيه فُصل من الحزب، فما الفرق إذن بين الديكتاتورية والديمقراطية، هناك فرق واحد هو أن الديكتاتور يقول أنا أحكم دون معقب، والرئيس الديمقراطى لا يقول ذلك ولكنه يصدر أمره كما يشاء.

وآراء المودرى الأخرى فى الحكم والجهاد والاستغلال المادىّ والمعنوى مبثوثة فى كتبه الكثيرة التى أشرنا إلى أهمها.

ومن مؤلفاته لقد كان الرجل قوة عاملة لا فى بلده فحسب، بل فى العالم الإسلامى جميعه، لأن كتبه المتميزة حازت رواجا هائلا إذ ترجمت إلى شتى اللغات، وعادت بخيرٍ عميم، ومن مؤلفاته :

١ – تفسير سورة النور.

٢ – الحجاب.

٣ – الربا.

٤ – الإسلام والجاهلية.

٥ – مبادئ الإسلام.

٦ – الدين القيم.

٧ – نظرية الإسلام السياسية.

٨ – معضلات الاقتصاد وحلّها.

٩ – نحو دستور إسلامى.

١٠ – المسألة القاديانية.

١١ – دور الطلبة فى المستقبل.

١٢ – منهج الانقلاب الإسلامى.

١٣ ـ المصطلحات الأربعة فى القرآن.

١٤ – نظرية الإسلام الخلقية.

١٥ – نظام الحياة فى الإسلام.

١٦ – الأسس الخلقية للحركة الإسلام

١٧ – واقع المسلمين وسبيل النهوض بـ

١٨ – مسألة ملكية الأرض فى الإسلا

١٩ – المسلمون ومعضلات السيـ الحاضرة.

٢٠ – التفهيمات.

٢١ – القانون الإسلامى.

٢٢ – تحديد النسل.

٢٣ – الحضارة الإسلامية ومبادؤها.

٢٤ – شهادة حق.

أ.د. محمد رجب البيـ

مراجع للاستزادة :

١ – النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين – للدكتور محمد رجب البيومى، جـ١.

٢ – مجلة الأزهر ، عدد نوفمبر سنة ١٩٧٩م ملف خاص به.

٣ – مجلة الاعتصام ، ذو الحجة سنة ١٣٩٩ هـ.

٤ – مجلة المختار الإسلامى (ربيع الأول سنة ١٤٠٠ هـ).

٥ – مجلة الدعوة (مصر) ذو القعدة سنة ١٣٩٧هـ.

٦ – مؤلفات الداعية الكبير فهى المصدر الأول لتاريخه.

٧ ـ تتمة الأعلام للزركلى. لمحمد خير رمضان يوسف جـ١/٧٢.

إلكيا الهراسى
(٤٥٠-٥٠٤هـ = ١٠٥٨ - ١١١٠م)

هو عماد الدين أبو الحسن: على بن محمد ابن على الطبرى. ويعرف بإلكيا الهراسى - وإلكيا بهمزة مكسورة ولام ساكنة ثم كاف مكسورة بعدها ياء مثناة من تحت، ومعناه: الكبير بلغة الفرس.

والهراسى: براء مشددة، وسين مهملة لا تعلم نسبته لأى شىء.

وهو شيخ الشافعية ببغداد، تفقه على إمام الحرمين وكان فصيحًا مليحًا مهيبًا نبيلاً. قدم بغداد ودَرّس بالنظامية، وتخرج به الأصحاب وعاش أربعاً وخمسين سنة.

قال ابن خلكان: ذكره الحافظ عبد الكافى فى تاريخ نيسابور فقال: كان من رؤوس معيدى إمام الحرمين فى الدرس، وكان ثانى أبى حامد الغزالى، تولى القضاء، وكان محدثا يستعمل الأحاديث فى مناظراته ومجالساته، ومن كلامه: إذا جالت فرسان الأحاديث فى ميادين الكفاح طارت رؤوس المقاييس فى مهاب الرياح.

وحدّث أبو طاهر السلفى: استفتيت شيخنا إلكيا الهراسى ما يقول الإمام وفقه الله تعالى فى رجل أوصى بثلث ماله للعلماء والفقهاء: أتدخل كتبة الحديث تحت هذه الوصية أم لا؟

فكتب الشيخ تحت السؤال: نعم .. كيف لا وقد قال النبى - صلى الله عليه وسلم - من حفظ على أمتى أربعين حديثا من أمر دينها بعثه الله يوم القيامة فقيهًا عالما.

أصله من خراسان، ثم رحل عنها إلى نيسابور، وتفقّه على إمام الحرمين مدة حتى برع، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة، ثم خرج إلى العراق، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد، وكان فصيح العبارة، حلو الكلام، محدثا، وكان يكرر لعن إبليس على كل مرقاة من مراقى النظامية بنيسابور سبع مرات، وكانت المراقى سبعين، وقد سمع الحديث وناظر به وأفتى ودرس، وكان من أكابر الفضلاء، وسادات الفقهاء وسئل إلكيا عن يزيد بن معاوية، فقال: إنه لم يكن صحابيا لأنه ولد فى أيام عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

كانت ولادته فى ذى القعدة سنة خمسين وأربعمائة من الهجرة الموافق ١٠٥٨ م.

توفى يوم الخميس وقت العصر مستهل المحرم سنة أربع وخمسمائة من الهجرة ببغداد الموافق ١١١٠ م..

ودفن فى تربة الشيخ أبى إسحاق الشيرازى - رحمه الله تعالى - وحضر دفنه الشيخ أبو طالب الزينبى، وقاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانى ـ وكان بينه وبينهما ـ فى حال الحياة ـ منافسة فوقف أحدهما عند رأسه والآخر عند رجليه، فقال ابن الدامغانى:

وما تغنى النوادب والبواكى

وقد أصبحت مثل حديث أمس

وأنشد الزينبى متمثلاً:

عقم النساء فلم يلدن شبيهه

إن النساء بمثله عُقُم

يعتبر أحكام القرآن من أهم المؤلفات فى التفسير الفقهى عند الشافعية، وذلك لأن مؤلفه شافعى لا يقل فى تعصبه لمذهبه عن الجصاص بالنسبة لمذهب الحنفية، مما جعله يفسر آيات الأحكام على وفق قواعد مذهبه الشافعى، ويحاول أن يجعلها غير صالحة لأن تكون فى جانب مخالفيه.

وليس أدل على روح التعصب عند المؤلف من مقدمة تفسيره التى يقرر فيها أن مذهب الشافعى - رضى الله عنه - أسَدّ المذاهب وأقومها، وأرشدها وأحكمها، وأن نظر الشافعى فى أكثر آرائه ومعظم أبحاثه، يترقى عن حد الظن والتخمين، إلى درجة الحق واليقين، والسبب فى ذلك أنه - يعنى الشافعى - بنى مذهبه على كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وأنه أتيح له درك غوامض معانيه، والغوص على تيار بحره لاستخراج ما فيه، وأن الله تعالى فتح له من أبوابه، ويسر عليه من أسبابه، ورفع له من حجابه ما لم يسهل لمن سواه، ولم يتأت لمن عداه.

فتقديم الكتاب بمثل هذا الكلام ناطق بأنه متعصب لمذهبه، وشاهد عليه بأنه سوف يسلك فى تفسيره مسلك الدفاع عن قواعد الشافعى، وفروع مذهبه.

كان الهراسى - رحمه الله - عف اللسان والقلم مع أئمة المذاهب الأخرى، ومع كل من يتعرض للرد عليه من المخالفين، فلم يخض فيهم كما خاض الجصاص فى الشافعى وغيره، وكل ما لاحظناه عليه من ذلك هو أنه وقف من الجصاص موقفاً كان فيه شديد المراس، قوى الجدال، قاسى العبارة، إذ إنه

عرض لأهم مواضع الخلاف التى ذكرها الجصاص فى تفسيره، وعاب فيها مذهب الشافعى، فعند كل شبهة أوردها دفع كل ما وجه إلى مذهب الشافعى بحجج قوية، يسلم له الكثير منها، كما أنه اقتص للشافعى من الجصاص.

فمثلاً: عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النساء ﴿حرمت عليكم أمهاتكم...﴾ الآية ٢٣.

نجده يرد على الجصاص ما استدل به لمذهبه القائل : بأن الزنى بامرأة يحرم على الزانى أصول المرأة وفروعها، ويفند ما رد به الجصاص على الشافعى فى هذه المسألة، ثم يقول فى شأن الجصاص : إنه لم يفهم معنى كلام الشافعى - رحمه الله تعالى - ولم يميز بين محل ومحل، ولكل مقام مقال.

كان من المبرزين فى علم الكلام والقوانين وله :

١ - تأويل الأحاديث المشكلات الواردة فى الصفات.

٢ - كتاب يرد فيه ما انفرد به الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - فى مجلد.

٣ - كتاب شفاء المسترشدين.

٤ - كما مكتب فى أصول الفقه.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة :

١ - التفسير والمفسرون د. الذهبى جـ ٣/١١٠، شذرات الذهب جـ ٤ /ص ٨ .
٢ - وفيات الأعيان ٣/٢٨٨.
٣ - مقدمة فى اصول التفسير ص ٥١، والتفسير والمفسرون ٣/١١٠ - ١١١.
٤ - مقدمة فى أصول التفسير ص ٥١، التفسير والمفسرون ٣/١١١ - ١١٢.
٥ - طبقات المفسرين للحافظ شمس الدين محمد بن على بن أحمد ت ٩٤٥هـ، جـ ١/٤٣٢، وكتاب شذرات الذهب لابن عماد الحنبلى جـ ٤/١٠، وكتاب البداية والنهاية لابن كثير ت ٧٧٤هـ م٦، جـ ١٢ص ١٧٤ ط دار المنار الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م
٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان ٣/٢٨٧ ، ٢٨٨ وشذرات الذهب ٤/٩.
٧ - المصدر السابق جـ ٣/٢٨٩ وشذرات الذهب جـ ٤/ ص ١٠، والعبر فى خبر من غبر جـ ٢/ ٢٨٦ ، ط دار الكتب العلمية ببيروت - لبنان ط أولى ت/ أبو هاجر محمد السعيد.

أمـــين الخـــولى
(١٣١٣ - ١٣٨٥هـ = ١٨٩٥ - ١٩٦٦م)

رُزق الأستــاذ أمين الخـولى قُـدرة على الجدال والنظر، وصبـرًا طويلا فى مُـراجعـة المقرّرات من مسائل العلم؛ كى يصل منها إلى جديد مُستحدث، كما رُزق تلاميذَ من أبنائه النجباء ينهجون نهجه، ويقترنون باسمه إذ سَمّاهم الأمناء.

وُلد فـى سنـة ١٣١٣هـ الموافق ١٨٩٥م، وتعلّم بالأزهر الشريف، ثم التحق بمدرسة القضاء الشرعى، وتخرّج فيها سنة ١٩٢٠م ليكون عضـوًا بهيئة التدريس، وفى سنة ١٩٢٣م عُين إماما للمفوضية المصرية بروما، ثم بالمفوضية المصرية ببرلين، فتعلم اللغة الإيطالية وذَرْدًا من اللغة الألمانية، وعاد سنة ١٩٢٧م ليكون مدرسا بكلية الآداب بالقاهرة ثم أستاذًا مساعداً، ثم أستاذًا، فرئيسا لقسم اللغة العربية، فوكيلاً لكلية الآداب، وانتقل سنة ١٩٥٣م مستشارًا فنيًا لدار الكتب، ثم مديرا عاما لإدارة الثقافة العامة بوزارة التربية والتعليم، حتى بلغ سن التقاعد سنة ١٩٥٥م، وعين عضوا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٦١م، وأصدر مجلة «الأدب» شهرية واستمرت سبع سنوات، وكان فى كل مكان شغله مصدر نشاط علمى موفور، وموضع مناقشات جادة تنم عن عقلٍ وعلم معا. ثم انتقل إلى رحمة الله فى سنة ١٣٨٥هـ الموافق سنة ١٩٦٦م.

وقد تعددت ميادين اجتهاده، فكتب فى التفسير والتشريع والأدب والنحو والبلاغة كتابةً تدعو إلى التجديد، وتحاول بناء أسس علمية طريفة، وقد جمع خلاصة آثاره النقدية فى كتاب سماه (مناهج تجديد) وحقا صدق التسمية، لأنها تتحدث عن مناهج جديدة فى دراسة هذه العلوم، وشَغَلَه تعدد هذه المناهج عن التطبيق العلمى، لما يَوّد أن يُسنه من القواعد الجديدة إلا فى مادة البلاغة فقد أفرغ لها كتابًا تجديديا خاصا سماه (فن القول)، ولعلّ هذا قد أتى من توزع نشاطه على عدة فنون أو علوم، فكان يغرس فى كل حقل بعض البذور، ويتجاوزه إلى حقل آخر، ولو اقتصر على بعض دون بعض لأتى

بالرائع المعجب، وهو بعدُ إنسان.

وقد بدت عليه ملامح الابتكار منذ كان طالبا، لأنه كتب فى عهد الطلب أجزاءً عن السياحة الإسلامية، وعن الجندية فى الإسلام، ثم وضع رسالة عن آداب البحث والمناظرة بعد تخرجه مباشرة، وأشرف على تحرير مجلة (القضاء)، فنهض بها نهوضا كريما، وكانت مهمة صعبة لأنه يعلق كثيرا على ما ينشر بها من البحوث، فيخالفُ وجهة نظر الكاتب، وقد يكون أستاذه، وحين رجع من أوروبا أصدر بحثا تحت عنوان (تاريخ العقيدة الإسلامية) قال فى مقدمته: «إنه بحثٌ مستحدث يُراد به تاريخ العقيدة الإسلامية ومكانتها بين الأديان السماوية، وما كان حال الناس حين دعوا إليها، وكيف تدرج بها التنزيل، وإلى أين امتد بها التأويل» والبحث جديد حين صدر فى أيامه، وقد تبعته بحوث مماثلة تعتبر امتدادا له، ثم اختير لتدريس الفلسفة فى كلية أصول الدين، فكتب للطلاب فصولا عن نشأة الفلسفة وتطورها، كما كتب بحثا مستفيضا عن «الملل والنحل» والبحثان لم يصدرا فى كتابين مستقلين بل وزعا فى هيئة ملازم على الطلاب، وكأن الكاتب رأى أن الموضوعين فى حاجة إلى زيادة لم تستكمل، فآثر الانتظار، وهى تؤدةٌ علمية حميدة.

وقد أحسن المشرفون على طبع «دائرة المعارف الإسلامية» إذ انتدبوا الأستاذ الخولى للتعقيب على ما يشذ من آراء تورط فيها بعض كاتبى الدائرة من أعلام المستشرقين، وقد ذكر الأستاذ بهذا الصدد أن أهم ما يقتبس من علماء الغرب فى الدراسات الإسلامية هو أساليب البحث، وطرائق النقد الحر المنظم، أما الأحكام التى تنتهى بها البحوث فليست فى الكثير منها موضع اتفاق. وأنا لا أدرى كيف يقول الأستاذ الخولى إنهم يتبعون طريقة النقد الحر المنظم ثم لا ينتهون إلى الرأى المنصف الصريح!

وكتاب (فن القول) هو أظهر الكتب التى ألفها الأستاذ أمين، لأنه خطا بالبلاغة خطوة تالية لخطوات السابقين، فقد درس أولا الصلة بين البلاغة والفنون الجمالية الأخرى، كما دعا إلى تنسيق العناصر الأدبية تنسيقا يؤلف منها مجموعة متحدة متماسكة، وأهم ما ركز عليه هو إقامة الدرس على أساس وجدانى ذوقى، لا يعتمد على التحديد المنطقى، بل يهدف إلى التنبيه الوجدانى الداعى إلى تذوّق الأثر الأدبى بعيدا عن التلقين والالتزام، وإذا كان القدماء لم يهتموا بالربط العام للمقال الأدبى، إذ اتجهوا إلى الكلمة فالجملة، ولم يلحظوا الترابط بين الجمل المتعاقبة، فإن فن القول يدعو إلى

النظر البلاغى للأثر الأدبى باعتباره كلا متصلا، لا جملا تتوالى.

واهتمامه بالدراسات الأدبية أحدث الجديد فى طريقة التناول، إذ ربط دراسة الأدب بعلمى الاجتماع والنفس، وحتّم أن يتجه البحث إلى أثر البيئة فى الأدب والأديب، ودعا إلى دراسة الأدب القومى المصرى، دراسة تبين أثر الجو العام والطبيعة المصرية والشخصية القائلة فى نتاج متميز تظهر فيه ملامح الإقليم وسماته الخاصة، كما أصدر كتابا عن أبى العلاء انتهى فيه إلى أن الشاعر لم يكن فيلسوفا، لأن الفلسفة يقينٌ، وقد كان المعرى ذا شك ينتقل به من الرأى إلى نقيضه، كما أن له فى مجال الترجمة كتابا كبيرا عن الإمام مالك صدر فى ثلاثة أجزاء، وبه من التحقيق التاريخى ما يضيف الجديد، لولا مبالغة مفرطة فى الحدس والتخمين.

ومن أنفس ما كتبه الأستاذ الخولى رسالته التى عنون لها بـ «صلة الإسلام: إصلاح المسيحية» وهى رسالة ذات أهمية كبرى، وقد ألقاها فى مؤتمر المستشرقين المنعقد فى بروكسل سنة ١٩٣٥م، فكانت صيحة لافتة قوية، وقد قال الأستاذ: «إن منهجه فى البحث عن هذه الصلة المؤكدة للإسلام فى إصلاح المسيحية قائم على دراسة الاتصال المادى بين المسيحية والإسلام، إذ أن الإسلام واجه أوروبا منذ توطن فى الأندلس وجنوبى فرنسا وإيطاليا وجزر البحر الأبيض المتوسط، منذ فتح المسلمون نابولى وجنوة، وتغلبوا على رومية فى القرن التاسع حتى استنقذها البابا يوحنا مستعينا بملكى فرنسا وإيطاليا، وهى حقائق تاريخية سجلها المستشرق «رينومى» فى كتابه (غارات العرب على فرنسا)، وهذه هى المواجهة الأولى للمسيحية فى أوروبا، أما المواجهة الثانية فكانت عند الحروب الصليبية التى تقدمت فيها جيوش أوروبا لاحتلال مدن الشرق، وأقاموا أربع إمارات أحدثت اختلاطا شديدا بين المسيحيين والمسلمين، وعرف أولئك ألوانا من الفكر الإسلامى لدى هؤلاء». وقد تنزل الأستاذ الخولى تنزلا مُتغاضيا حين قال: «إذا كنتم تستكثرون أستاذية العرب التامة فى كل شىء، فلا مناص من الاعتراف بأن علماء هذه القرون من ١٣-١٥م كان عملهم تقليد العرب والانتفاع بثقافتهم الإسلامية»، ثم تحدث عن ترجمات القرآن إلى اللغات الأوروبية، وأن ما جاء بها كان عونا لأمثال: مارتن لوثر فى مذهبه الإصلاحى.

فالإسلام سبب مباشر من أسباب الإصلاح، ولا يغنى هذا التلخيص عن قراءة البحث الذى ألقى فى مؤتمر الاستشراق،

فلفت الأذهان إلى حقائق كانت معروفة لدى المستمعين الكبار من باحثى أوروبا، ولكنهم لم يصلوا بها إلى النتيجة الطبيعية التى يجب الاعتراف بها.

كان الأستاذ الخولى ذا جرأة وهمَّة، أما الجرأة ففى جهره بكل ما رآه من وجوه الإصلاح أدبيا ودينيا، وأما الهمة ففى هذا التنوع المتعدد فى شتى فروع المعرفة الإنسانية.

من مؤلفاته كتابين :

١ - فى الفلسفة.

٢ - تاريخ الملل والنحل.

٣ - صلة الإسلام بإصلاح المسيحية.

٤ - فن القول.

٥ - مشكلات لغوية.

٦ - مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب.

٧ - فن الأدب المصرى.

٨ - رأى فى أبى العلاء.

٩ - الجندية والسلم.

١٠ - من هدى القرآن، وهو فى ثلاثة أجزاء.

١١ - صلات بين النيل والفولجا.

١٢ - مالك بن أنس - فى ثلاثة أجزاء.

١٣ - مالك تجارب حياة.

١٤ - المجددون فى الإسلام.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة :

١ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين جـ ٤ - للدكتور محمد رجب البيومى.

٢ - المجمعيون فى خمسين عاما - للدكتور محمد مهدى علام.

٣ - أمين الخولى (كتاب) للدكتور كامل سعفان.

٤ - مجلة الرسالة (السنة الرابعة عشرة) مقالات تحت عنوان (علوم البلاغة فى الجامعة).

٥ - مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٢ ص ٢٣٢.

٦ - على الجسر - للدكتورة بنت الشاطئ.

ابن إيـــاس
(٨٥٢ - ٩٣٠هـ = ١٤٤٨ - ١٥٢٤م)

هو المؤرخ المصرى، أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس الحنفى، من المماليك، سليل أسرة شركسية، وكان أبوه أحمد متصلا بالأمراء ورجال الدولة وتوفى فى شعبان سنة ٩٠٨هـ . وجده الأمير إياس الفخرى الظاهرى، من مماليك الظاهر برقوق فى مصر والشام.

ولد محمد بن إياس بالقاهرة سنة ٨٥٢ هـ الموافق ١٤٤٨م، ونشأ بها، وتوفى عام ٩٣٠ هـ الموافق ١٥٢٤م.

درس العلم على جماعة من أعلام عصره منهم الحافظ جلال الدين السيوطى، وسار فى أثر هذه المدرسة التاريخية الزاهرة، التى جنحت من التعميم إلى التخصيص، ورأت أن تعنى قبل كل شىء بتاريخ مصر، والإفاضة فيه، والتى افتتحها المقريزى أعظم أساتذتها بخططه وآثاه الخالدة، وبرز فيها أمثال ابن تغرى بردى والسخاوى. نشأت وازدهرت ثم تضاءلت فى القرن التاسع غير أنها وهبت تاريخ مصر الإسلامية أكبر وأنفس مجموعة من الموسوعات والوثائق، وامتازت بالأخص بتدوين حوادث عصرها بطريق المشاهدة؛ وقد نشأ ابن إياس فى أواخر عهدها، فسار على تقاليدها من تدوين تاريخ مصر، ولكنه لم يوهب كثيرا من كفاياتها الباهرة، سواء من حيث الطرافة، أو الإفاضة أو البيان. ولو لم يقدر لابن إياس أن يشهد حوادث الفتح العثمانى، وأن يدونها لنا بإسهاب وإفاضة، لما كان لأثره عن تاريخ مصر كبير قيمة أو أهمية، لأنه ليس إلا صورة مصغرة من جهود أسلافه، مجردة من كل ما يميز هذه الجهود من الدقة والمتانة وعميق البحث.

نشأ ابن إياس فى النصف الأخير من القرن التاسع فى مدينة القاهرة، غير أنه لم يظهر فى مجتمعها الفكرى كما ظهر أسلافه وأساتذته، ولم يبد براعة خاصة فى فرع بعينه من العلوم والآداب. وقد يرجع ذلك إلى أن الدرس العام كان ظاهرة التفكير فى عصره. فقد كان أستاذه السيوطى يأخذ بقسط وافر من جميع نواحى العلوم والآداب فى عصره، ولكن شتان ما بين الذهنين. ومال

ابن إياس بالأخص إلى درس التاريخ والجغرافية، وعالج نظم الشعر. ولكنه لم يكن مؤرخاً عظيماً، ولا جغرافيا محققاً، ولا شاعراً مجيداً.

فهو يكتب تاريخه بأسلوب ضعيف مفكك، ويلوذ بتكرار النعوت والألفاظ، كلما أعوزته حاجة التعبير، ويلجأ إلى العامية فى كثير من الأحيان. وهو ما يرجع بلا ريب إلى ضعف أصيل فى بيانه، أكثر مما يرجع إلى انحطاط البيان فى عصره.

أما عن منهجه: فإن ابن إياس يقتبس من المتقدمين من مؤرخى مصر.

أما الجديد فى تاريخه عن مصر فليس إلا ما كتبه عن عصره، وبالأخص عن حوادث الفتح العثمانى وما تقدمه وما تلاه. وقد لبثت هذه الرواية التى يتركها ابن إياس عن حوادث عصره، فيما انتهى إلينا من مخطوطات مؤلفه، عصراً، ناقصة تتخللها ثغرة كبيرة، هى حوادث خمس عشرة سنة من أول شوال سنة ٩٠٦ إلى آخر سنة ٩٢١ هـ، (١٥٠٠ - ١٥١٥م) وهى مدة سلطنة السلطان قانصوه الغورى آخر ملوك مصر المستقلة.

وفيما يتناول ابن إياس عصر السلطان الغورى منذ بدايته، بإسهاب وإفاضة، ويدوّن حوادثه شهراً فشهراً، ويوماً فيوماً تقريباً؛ ويتحدث عن كل ما يتعلق بالسياسة والحرب، والبلاط، والحكومة، والأمن والقضاء، والوظائف، والشئون المالية والاقتصادية. ويتتبع بالأخص علائق البلاط القاهرى بالبلاط العثمانى.

ويبدو جلياً من روايته أن بلاط القاهرة، كان يشعر بأن خطر الفتح التركى لمصر غدا قريب الانقضاض، ويصانع بلاط قسطنطينية ما استطاع سبيلا إلى ذلك. وكان سلطان الترك سليم الأول من جانبه يخادع سلطان مصر ويهاديه ويراسله. على أن بلاط القاهرة لم يخدع ولم يطمئن. بل كان الغورى دائب الأهبة والاستعداد. ولكن الانحلال كان يسود شؤون مصر يومئذ، وكانت الثورات الداخلية تفت فى نظمها وأهبتها. وكان الفساد يقضم أسس نظمها العامة سواء فى الإدارة أو القضاء مما يدلى بأن المجتمع القاهرى كان يشعر بدنو النكبة وانقضاضها.

وفى تدوين حوادث عصره، يبدى ابن إياس نوعاً من الطرافة والبراعة، ويبدى بالأخص دقة فى الملاحظة، ومقدرة لا بأس بها فى تحليل الأنفس والعواطف. وقد يرجع ذلك من بعض الوجوه إلى سير الحوادث نفسها، وإلى المفاجآت والوقائع الغريبة التى قدر للمؤرخ أن يشهدها فى خاتمة حياته، فهى التى تغذيه خلال روايته بما يلاحظ وما يعلق. ونستطيع

بالأخص أن نستخرج من رواية ابن إياس خلال المجتمع المصرى فى هذا العصر. يعنى فى كثير من الأحيان بتدوين بعض أحوال الحياة الخاصة، وتتبع آثار الحوادث فى نفس الشعب وطبقاته الاجتماعية المختلفة؛ فنرى فى روايته، طبقة الأمراء والأرستقراطية تتحكم فى سائر الطبقات، اجتماعياً واقتصادياً، ولا تبحث إلا عن تحقيق أهوائها ورفاهيتها، عاش الناس أو هلكوا؛ ونشعر بوحى القضاة وغيرهم من رجال الدين واضحاً فى سياسة السلاطين، كما نراهم سند السلاطين فى إباحة المصادرة، ونهب الأرزاق والأموال، وإصدار ما يحقق أهواءهم من الفتاوى والأحكام؛ ونرى الطبقة الوسطى منكمشة لا تكاد تأخذ بقسط فى مجرى الحوادث. أما الطبقة الدنيا أو العامة فتراها صاخبة فائرة، تظهر فى طليعة كل اضطراب، ولكنها كعادتها تهدأ وتختفى أمام القوة. ويتتبع ابن إياس حركات العامة بصفة خاصة، فيصف سلوكهم ونزعاتهم وعواطفهم، من غضب ورضى ومرح واكتئاب، فى نبذة ممتعة كثيراً ما تثير الابتسام.

أما نظم السياسة والحكم والتشريع والإدارة، فيعرضها ابن إياس فى سياق روايته خير عرض، فيشرح لنا كيف كان يلى السلطان العرش، ويباشر الحكم بنفسه أو على يد خاصته وأمرائه. وكان نظام البلاط والحكومة يومئذ من أغرب النظم الملوكية التى عرفت، يمتزج فيه التشريع والتنفيذ والقضاء، وسلطات الحرب والمالية، كلها فى صعيد واحد؛ وكانت مناصب القضاء الأعلى، وهى أربعة، لكل مذهب من المذاهب الأربعة منصب يملؤه قاض القضاة، تعتبر من الوجهة النظرية أرفع مناصب الدولة، ويلحق بها منصب المحتسب العام. ولم تكن ثمة وزارة وإنما كانت الهيئة التنفيذية مزيجاً من عدة مناصب كبرى، يملؤها الأمير الكبير، وأمير المجلس، والأمير اخور، والأمير الداوادار الكبير، والإستادار، وكاشف الكشاف، وأمير السلاح. وكان اختصاص هذه الوظائف يتقلب ويختلف باختلاف السلاطين. ويتتبع ابن إياس هذه التقلبات بعناية، ويذكر أسماء القضاة والوزراء والأمراء والنواب وغيرهم من كبراء الدولة فى كل حكم. ونرى مما يذكر إلى أى حد كانت دول المماليك الشراكسة، تمعن فى المركزية والاستئثار بالسلطات، فلم يكن بيد المصريين من مناصب الدولة سوى القضاء فى الغالب، ونرى كيف كانت المناصب سلعة تباع وتشترى، ويتجر فيها السلطان والأمراء والقضاة؛ وكيف كانت الحقوق والأموال، بل الأرواح فى كثير من الأحيان، معلقة على نزعات العسف والتحكم والهوى.

ويستعمل ابن إياس فى رواية الحوادث والأوامر العامة لغة الدواوين أو اللغة الرسمية، كما أنه يستعمل العبارات والأساليب التى كانت سائدة فى ذلك العصر، فى التعبير عن كثير من شئون الحياة الاجتماعية، وفى تصوير كثير من العادات والأحوال. وهذا وجه طريف فى روايته، فهو لا يلجأ فى أسلوبه وعباراته الخاصة حيثما كانت هنالك لغة رسمية أو عبارات ذائعة متداولة. فنراه مثلا يتحدث دائماً عما «يرسمه» السلطان من الأوامر، وعمن «يرسم» بشنقهم أو توسيطهم من الكبراء أو العامة، وعمن يقضى بإقامتهم فى الترسيم (الاعتقال أو الحجز) لدين أو جرائم؛ ويذكر فى مواقع كثيرة كيف كان السلطان أو الوالى أو المحتسب يشهر فى القاهرة «والمناداة بالأمان والاطمئنان، والبيع والشراء» كلما حدثت فتنة أو سرى إلى الناس جزع أو انزعاج، ويورد الأمر والنداءات فى ذلك وغيره بألفاظها الرسمية؛ وكيف كان ينذر المخالفون دائماً، «بالشنق بلا معاودة». كذلك يصف لنا حياة البلاط والمواكب السلطانية وغيرها من المواكب العامة، وكيف كان السلطان يشق القاهرة، «فتفرش له الشقق الحرير فى الطريق، وترتفع له الأصوات بالدعاء والنصر، وتنطلق له النساء بالزغاريت من الطيقان»؛

ويشير دائماً إلى شئون العصر وعاداته الاجتماعية، فيصف الحفلات والأعراس والجنائز الشهيرة، فى عبارات واحدة دائماً كقوله عن حفلة زواج شهيرة: فكان هذا العرس من الأعراس الحافلة، قيل اجتمع فيه من المغنيات خمس وعشرون رئيسة، ومدوا فيه أسمطة حافلة، من الأطعمة الفاخرة، وصنعوا فيه مزهرة بين وشامات، وكان من المهمات المشهورة». وهكذا. وهى لغة العصر الاجتماعية يوردها ابن إياس دائماً فى مواطنها إلى جانب اللغة الرسمية. ويصف ابن إياس أيضاً الخلع الملوكية، وثياب الأمراء، والقضاة والجند، والخاصة والعامة، وما يعتورها من تحوير وتغيير، كذلك يصف التقلبات الاقتصادية من غلاء ورخاء، وتغييرات النقد وآثارها فى المعاملات. وعلى الجملة فإنه يصور لنا فى سياق روايته مجتمع عصره سواء فى الحياة العامة أو الخاصة، أو فى الخلال والعادات، والميول والأهواء، تصويراً قويا شائقاً.

ترك لنا ابن إياس، إلى جانب مؤلفه عن تاريخ مصر وهو بدائع الزهور فى وقائع الدهور، مؤلفاً آخر، هو مزيج من التاريخ والجغرافية وعنوانه: «نشق الأزهار فى عجائب الأقطار». وفيه يتحدث حسبما يقول فى مقدمته عن «عجائب مصر وأعمالها، وما

صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة، وطرف يسير من سير ملوكها القدماء، وما صنعوا من الأبنية المحكمة فى مصر وغيرها من البلاد ... وأخبار النيل والأهرام، وعجائب البلاد التى من أعمال مصر، وخططها وأقطارها». ويسمى الكتاب فى نسخة دار الكتب الخطية «خريدة العجائب، وبغية الطالب». وذكرت محتوياته على صفحة العنوان بما يلى: «فيه ذكر عجائب مصر وأعمالها، وما صنعت الحكماء فيها من الطلسمات المحكمة، وأخبار الملوك السابقة، وأخبار النيل وعجائبه، وأخبار البلدان والبحار، والأشجار، والجزائر، والجبال، والعيون والأبيار، والدور والكنائس والقصور». ويتناول ابن إياس فيه طرفاً من أخبار اليمن والحجاز والهند والأندلس ورومة، وأخبار بعض آثارها وصروحها.

وعن اتجاهاته :

فمن الغريب أن ابن إياس يبدى فى عواطفه نحو الفاتحين تردداً واضطراباً، فبينما يحمل على سليم الأول، ويعدد جرائمه ومثالبه فى حق وطنه، إذا به يلقبه بالملك المظفر، ويترحم عليه حين يذكر نبأ وفاته، ويدعو بالنصر لولده وخلفه السلطان سليمان. ومن الصعب أن نضبط عواطف المؤرخ فى هذا الموقف، وفى كثير غيره؛ ومن الصعب أيضاً أن نتعرف حقيقة المؤثرات التى ربما دفعت قلم المؤرخ بما قد يخالف حقيقة عواطفه؛ فلعله وهو كما رأينا ينحدر من أصل شركسى أو تركى، يتأثر هنا بنوع من عصبية الجنس. ومن جهة أخرى، فقد كان ابن إياس يدون روايته فى عهد اضطراب وفتنة، وربما كان هذا التردد بين المديح والذم، نوعاً من حرية التقدير عند ابن إياس، فهو مثلا لا يحجم عن الحملة على مواطنيه. ووصفهم بأنهم «ليس لهم عقول، يصدقون بالمحاولات الباطلة».

ورواية ابن إياس عن حوادث الفتح العثمانى وثيقة تستمد نفاستها، رغم ضعف بيانها، من المعاصرة والمشاهدة. بيد أنه يجب ألا نبالغ فى مدى هذه المشاهدة، فإن ابن إياس لم يكن جندياً يخترق الصفوف، ولم يكن من رجال الدولة أو القادة. والظاهر أيضاً أنه كان قليل الطواف والتنقل فى تلك الأيام العصبية التى دون حوادثها، فهو مثلا لم يحاول أن يرى سليما الأول رغم إقامته فى القاهرة عدة شهور؛ وهو لذلك يعتمد فى وصف شخصه على صديق له رآه. ولا غرو فقد كان ابن إياس فى ذلك الحين شيخاً يجاوز السبعين، وربما لحقته أوصاب المرض. غير أن ابن إياس كان أديبًا ومفكراً كبيراً، يتصل بأكابر عصره؛ وكان فى وسعه أن

يتحرى من المصادر والجهات المطلعة، وكان يشهد بعينه كثيراً من المناظر والآثار المادية لما يدون من الحوادث، ومن ثم كانت أهمية روايته ونفاستها. بل إن المؤرخ لا يملك نفسه أن يهتف لنفسه فى خاتمة مؤلفه، وأن يملق نفسه بأنه «وقع له فيه من المحاسن ما لم يقع لغيره من المؤرخين» وأن:

«تاريخنا بهجة المجالس

يطرب من لفظه المجالس

سماه للورَى سرور

يشرح صدراً لكل عابس»

أما نحن فنرى فى رواية ابن إياس، وما يسرده من حوادث هذا الفتح الوندلىّ، وفى ذلك الاستشهاد الطويل المروغ الذى عانته مصر تحت النير التركى الغاشم، درساً قومياً خالداً عميق الأثر؛ ومثلا حياً ساطعاً لسياسة السفك والتخريب الآثمة، التى وصمت إلى الأبد ذكرى الوندال والهون والتتار، ومن إليهم من الشعوب البربرية الغازية، ونبراساً مستنيراً لفهم نفسية هذه الشعوب الهدامة، وتقدير مجدها الذى لم يقم إلا على اجتياح الشعوب والمدنيات الزاهرة.

ومن أهم مؤلفاته : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، وهو كتاب مطبوع فى عدة أجزاء ومتداول. ونشق الأزهار فى عجائب الأقطار. وعقود الجمان فى وقائع الأزمان. ومرج الزهور ونزهة الأمم فى العجائب والحكم.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة :

١ ـ مؤرخو مصر الإسلامية. للمؤرخ محمد عبد الله عنان ص ١٥٢ إلى ص ١٦٨ بتصرف.

٢ ـ بدائع الزهور فى وقائع الدهور لابن إياس جـ ٤ / ٢٨٩.

٣ ـ الأعلام للزركلى جـ ٦/ ٥.

ابن بابويه
(٣٠٦ - ٣٨١ هـ = ٩١٨ - ٩٩١م)

هو محمد بن على بن الحسين بن موسى ابن بابويه، القمى، نسبة إلى (قم) إحدى مدن إيران، يكنى بأبى جعفر، ويلقب بـ «الصدوق» و بـ «شيخ المحدثين». ولد بعد سنة ٣٠٦هـ فى أسرة اشتهرت بعلم الحديث وتحمله، وكان والده من علماء عصره، تلقى علومه الأولى على أبيه الذى كان شيخ القميين فى عصره وفقيههم المشار إليه، واشتهر بعلمه وتمسكه بدينه، وعرف بورعه وتقواه، وكانت الشيعة تأتى إليه من كافة الأقطار وتأخذ عنه الأحكام.

وتلقى الشيخ الصدوق العلوم على أبيه أكثر من عشرين سنة، فتلقى منه أخلاقه وآدابه ومعارفه وعلومه، وروى عن أبيه جميع مصنفاته التى بلغت مائتين كتابًا، وانتقل الصدوق إلى كثير من البلاد لتلقى العلم عن شيوخها، فرحل فى طلب الحديث إلى بلدان كثيرة، منها: الرى، وخراسان، واستراباد، وجرجان، ونيسابور، ومرو الروذ، وسرخس، وسمرقند، وبلخ، وإيلاق، وفرغانة، وحمدان، وبغداد، والكوفة، ومكة، وغيرها من حواضر العالم الإسلامى، وبلغ أساتذته أكثر من مائتى شيخ.

وبعد أن استكمل علمه انتصب للتدريس، وذاع صيته، وجاء إليه العديد من طلاب العلم الذين اشتهروا بعده، ومنهم: الشيخ المفيد، وعلى بن أحمد النجاشى، والخراج، والنعالى، وغيرهم.

فقيه ومحدث شيعى، ويعد من أعلام الشيعة الاثنى عشرية بصيرًا بالأخبار وناقدًا للآثار وعالمًا بالرجال، ويمثل الاتجاه المحافظ عند الإمامية الذى مثله الإخباريون من حفظة الأحاديث المروية عن الأئمة وادخارها للأجيال اللاحقة، متابعًا روح المحافظة.

وقد توفى الشيخ الصدوق سنة ٣٨١هـ.

آراؤه واتجاهاته الفكرية:

١ - مصادر التشريع: يحدد الشيخ الصدوق مصادر التشريع عند جماعته بأنها مصدران: القرآن والسنة المروية من خلال

أئمتهم. ولم يكن العقل أو الاجتهاد مطروحًا حـــتى هذا الوقت. وكـــان ابن بابويه يروى الأحاديث عن الإمام جعفر الصادق، ولا يجيز الجدل إلا فى حدود نقل أو توضيح كلمات الله ورسوله ﷺ، وهو ما نقده عليه بعد ذلك تلميذه الشيخ المفيد رائد الاتجاه العقلى عند الاثنى عـــشــرية، ورأى أن النهى عن النظر سيؤدى إلى التقليد المذموم.

وقد رأى ابن بابويه أن العقل لا يستطيع أن يتوصل إلى معرفة الله دون مساعدة الوحى، ولا يخوض فى مسألة قدرة العقل وحده، وهو لا يعتمد على العقل أيضا فى كتابيه (علل الشرائع) و (معانى الأخبار) المخصصين للحديث عن علل الأشياء وأدلتها، ويتكون جميع ما فيهما تقريبا من الأحاديث. وهو وإن كان لا ينكر حق العقل فى البحث والمعرفة إلا أنه لم يمارس هذا الاستخدام.

ويقف ابن بابويه موقفًا حذرًا حيال علم الكلام العقلى، ويقصره على شرح معانى الأحاديث وتوضيحها، ويبدو متشددًا فى التمسك بالمعنى الحرفى للحديث آخذًا بمذهب أصحاب الحديث فى العمل بظواهر الألفاظ والعدول عن طريق العقل.

٢ - التوحيد: حرص ابن بابويه على حل المشكلات التى تثيرها أحاديث الإمامية من تضارب حول عقيدة التوحيد. وقد خصص كتابه (التوحيد) لهذا الأمر، ووجد أن بعض الأحاديث يجب أن تؤول وتفسر بنفس التوجه السليم فى تأويل القرائن الواردة حول تفسير الآيات القرآنية.

٣ - العـــدل: تناول ابن بابويه فى أصل العدل مسألة علاقة التقدير الإلهى بأفعال الإنسان، ورأى أن الله لم يفوض الأمر إلى العباد، ولم يجبرهم على المعاصى، وأنه لم يكلف عباده إلا ما يطيقون، وردد قول أبى جعفر الصادق: «لاجبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين»، وبهذا وقف موقفًا وسطًا بين المعتزلة والجبرية.

ويصرح فى كتابه (التوحيد) بأن المعصية ليست بأمر الله ولكن بقضاء الله وبقدره ومشيئته وعلمه، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وابن بابويه على الرغم من تناوله لموضوع القضاء والقدر إلا أنه أحيانًا وفى مواضع أخرى من كتبه يحذر من الخوض فيه مرددًا قول الإمام على - كرم الله وجهه - الذى نصح بترك هذا الأمر لصعوبته، عندما سئل عن القدر، فقال: إنه «بحر عميق فلا تلجه.. طريق مظلم فلا تسلكه.. سر الله فلا تكلفه».

وقد تناول ابن بابويه موضوع الاستطاعة أثناء عرضه لحديث للإمام موسى الكاظم، الذى حدد فيه الاستطاعة بأنها تتم بأربع خصال، هى: تخلية السرب، صحة الجسم، سلامة الجوارح، وسبب وارد من الله.

كما تناول مسألة العدل واللطف، فقال: إن الله يأمر الإنسان بالعدل، ولكنه يعامله بشىء أفضل من العدل وهو اللطف والتفضل، وينقل فى هذا الشأن حديثًا عن النبى ﷺ يقول فيه: «**لا يدخل الجنة أحد بعمله إلا برحمة الله**».

٤ - الوحى: يعرف ابن بابويه القرآن بأنه كلام الله ووحى الله، ولم يجئ فيه أنه مخلوق. وقد حاول أن يوفق بين الرواية المنسوبة إلى الإمام على - كرم الله وجهه - والروايات الأخرى التى تذكر أن سائر الأئمة يرفضون القول بأن القرآن مخلوق أو غير مخلوق، ويطلقون عليه كلام الله، يوفق بين هذا الاتجاه والاتجاه الآخر الذى نسب إلى الإمام جعفر الصادق أنه يقول: إن القرآن محدث أى مخلوق، ويميل ابن بابويه فى مواضع كثيرة إلى رأى الإمام جعفر الصادق.

ينسب إلى الشيخ الصدوق أكثر من ثلاثمائة مصنف فى علوم التفسير والحديث والفقه والرجال والتاريخ والنقد، وأجاب عن مسائل مختلفة كانت تطرح عليه، ومن أشهر مؤلفاته:

- كتاب (التوحيد)، ألفه للدفاع عن عقيدة الإمامية التى اتهمت بأنها تقول بالتشبيه والجبر، فخصص هذا الكتاب لتوضيح مفهوم الشيعة عن التوحيد.
- كتاب (اعتقاد الإمامية)، وهو يمثل اتجاه الإخباريين فى عرض العقيدة، وهو لا يقدم فكره من نفسه أو من عقله، بل يلجأ إلى رواية الحديث، حتى إن كتابه هذا هو عبارة عن أحاديث تتصل بعضها ببعض، وإذا وجد من الأحاديث ما يخالف اعتقاداته فى التوحيد أو العدل يصوغ بنفسه تفسيرًا يلائم بين الحديث والحكم الاعتقادى.
- كتاب (عيون أخبار الرضا)، عرض فيه تفصيلات عن الإمام الرضا، مقدمًا أدلة إمامته والنص عليه، كما يذكر أخبار الرضا مع المتكلمين وأهل الملل، واختلاف آرائهم حول الإمامة والعصمة.
- كتاب (كمال الدين وتمام النعمة)، وقد خصه بالحديث عن الغيبة، وبدأه بذكر الإمامة عند الشيعة ثم اختلافهم، وذكر الفرق المختلفة، حتى انتهى إلى الإمام الثانى عشر.
- كتاب (من لا يحضره الفقيه)، وهو واحد

من أربعة كتب للحديث معتمدة لدى الشيعة الاثنى عشرية، وهو الكتاب الثانى فى الترتيب من حيث القدم، وتبلغ أحاديث هذا الكتاب أكثر من تسعة آلاف حديث فى الأحكام والعبادات.

بالإضافة إلى كتبه الأخرى مثل (الهداية)، و (علل الشرائع)، و (الأمالى) الذى تناول فيه أمورًا شتى من بينها مسائل كلامية.

أ. د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١ - ابن بابويه: من لا يحضره الفقيه، تحقيق على حسن الموسوى، دار الكتب الإسلامية النجف، سنة ١٩٥٧م.
٢ - ابن بابويه: الاعتقادات، تحقيق عصام عبد الحميد، نشر دار المفيد، بيروت، سنة ١٩٩٣م.
٣ - ابن بابويه: التوحيد، تحقيق هاشم الحسينى الطهرانى دار المعرفة بيروت (د.ت).
٤ - ابن بابويه: علل الشرائع، تحقيق محمد صادق بحر العلوم، دار البلاغة النجف، سنة ١٩٦٦م.
٥ - ابن بابويه: عيون أخبار الرضا، تحقيق محمد مهد السيد حسن الخرسان، سنة ١٩٧٠م.
٦ - ابن بابويه: الهداية، تحقيق مؤسسة الإمام الهادى، قم، سنة ١٤١٧هـ.
٧ - أبو زهرة (الشيخ محمد): تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربى، مصر ط١ (د. ت).
٨ - أبو زيد (د. منى أحمد) الحرية الإنسانية عند الشيعة الاثنى عشرية (عصر التأسيس) منشأة المعارف، الإسكندرية، سنة ٢٠٠٠م.
٩ - الجابرى (على حسين): الفكر السلفى عند الشيعة الاثنى عشرية. مكتبة الفكر الجامعى، منشورات عويدات، بيروت، سنة ١٩٧٧م.
١٠ - فكدرموت (مارتن): نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد، ترجمة على هاشم، طهران، سنة ١٩٩٢م.
١١ - المناعى (د. عائشة): أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، دار الثقافة. قطر، سنة ١٩٩٢م.

ابن باديس
(١٣٠٥ - ١٣٥٩هـ = ١٨٨٧ - ١٩٤٠م)

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكى بن باديس.. رئيس «جمعية العلماء المسلمين بالجزائر».. والأب الشرعى للنهضة الإسلامية والحركة الوطنية الجزائرية الحديثة والمعاصرة..

ولد بمدينة «قسنطينة» سنة ١٣٠٥ هـ = ١٨٨٧م، وبها درس علوم العربية والإسلام.. ثم رحل إلى تونس فالتحق بجامعة «الزيتونة» (١٣٢٦هـ = ١٩٠٨م) وطلب العلم فيها على يدى عدد من أكابر العلماء، منهم الشيخ محمد النخلى، والشيخ الطاهر بن عاشور.. فارتبط بفكر مدرسة التجديد والإحياء الإسلامى، مدرسة الأفغانى ومحمد عبده.

وتوفى - رحمه الله - عام ١٣٥٩هـ الموافق ١٩٤٠م.

ومنذ مرحلة مبكرة من حياته توجه إلى رفض الواقع الاستعمارى الفرنسى فى الجزائر، والذى بلغ فى مسخه لهوية الجزائر «العربية - الإسلامية» حدًا جعلها «ولاية فرنسية»، وامتدادًا لاتينيًا لفرنسا عبر البحر المتوسط، وليس فقط مجرد مستعمرة فرنسية.. وكان شيخه «حمدان الونيسى» قد عاهده على أن لا يخدم الحكم الاستعمارى فى الجزائر، فأصبح هذا «العهد» تقليدًا يعاهد به ابن باديس تلامذته ومريديه!.

سافر إلى الحجاز حاجا (١٣٣٠هـ = ١٩١٢م).. وهناك عرض عليه بعض العلماء الجزائريين المقيمين بمكة والمدينة أن يجاور، مثلهم، الحرمين الشريفين.. لكنه رفض، وعبر عن مشروعه لاسترداد الجزائر للعروبة والإسلام، فقال: «نحن لا نهاجر. نحن حراس الإسلام والعربية والقومية فى هذا الوطن»!.

وعلى امتداد ما يقرب من العشرين عاما من عودته إلى الجزائر (١٣٣١هـ = ١٩١٣م) وحتى إعلانه تكوين «جمعية العلماء المسلمين فى الجزائر» (١٣٤٩هـ = ١٩٣١م) استبسل ابن باديس فى ملحمة لصناعة الرجال، الذين يمتلكون - حسب قوله - «فكرة صحيحة ولو مع علم قليل»!.. وكان التعليم فى المساجد والكتاتيب.. وكان الوعظ، وتفسير القرآن

الكريم، كما كانت الصحافة هى سبيله إلى هذا الإنجاز، الذى جمع حول ابن باديس نحواً من ألف رجل عزموا على استرجاع الجزائر إلى العروبة والإسلام.

آراؤه واتجاهاته الفكرية:

ومنذ (١٣٤٣هـ = ١٩٢٥م) أطل ابن باديس على الرأى العام الجزائرى من خلال الصحافة.. فشارك فى جريدة (النجاح)، وأصدر (المنتقد)، فلما ألغتها الإدارة الفرنسية أصدر (الشهاب)، و(الشريعة)، و(السنة المحمدية)، و(الصراط).

وعندما احتفل الفرنسيون بمرور قرن على احتلالهم للجزائر، وخطب الكاردينال «لافيجرى»، فقال: «لقد ولّى عهد الهلال وأقبل عهد الصليب» فى الجزائر.. جاء الرد على هذا التحدى بإعلان ابن باديس تكوين «جمعية العلماء المسلمين فى الجزائر» (١٣٤٩هـ = ١٩٣١م).. وهى الجمعية التى قادت صناعة الجيل الذى أحيا الانتماء «العربى الإسلامى» للجزائر، ومهَّد للجيل الذى ثار بالسلاح، لتحقيق هذا الهدف (١٣٧٤هـ = ١٩٥٤م).

مؤلفاته :

ولقد بلغت مقالات ابن باديس وخطبه - عندما جمعت - أربعة مجلدات.. وكانت، مع تفسيره للقرآن الكريم (مجالس التذكير) وكتبه الأخرى: كتائب الفكر المجاهد، التى انتزعت الجزائر من «الفرنسة» إلى الاستقلال والعربية والإسلام.

وعندما انتصرت الثورة الجزائرية، واستقلت الجزائر عام (١٣٨٢هـ = ١٩٦٢م) لم يكن هناك خلاف على أن هذه الثمرة الطيبة هى من جنى غرس الشيخ عبد الحميد بن باديس.

أ.د. محمد عمارة

الباقلانـــى
(٣٣٨ - ٤٠٣هـ = ٩٥٠ - ١٠١٣م)

هو القاضى أبو بكر محمد الطيب بن محمد بن جعفر.

ولد بالبصرة عام ٣٣٨هـ الموافق ٩٥٠م، وعاش فى بغداد، وبلغ من العلم أن كان رأس علماء الأشعرية فى عصره، والمبرِّز فى علم الكلام، وأحد أعلام الفقه المالكى.

توفى عام ٤٠٣هـ الموافق ١٠١٣م.

والباقلانى - مع الجوينى (٤١٩ - ٤٧٨هـ = ١٠٢٨ - ١٠٨٥م) والغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ - ١١١١م)، هم أبرز من طور ونشر المذهب الأشعرى - وقد أخذ الباقلانى المذهب عن تلاميذ مؤسسه أبو الحسن الأشعرى (٢٦٠ - ٣٢٤هـ = ٨٧٤ - ٩٣٦م)، ولقد قال عنه ابن تيمية (٦٦١ - ٧٢٨هـ =١٢٦٣ - ١٣٢٨م): «إنه خير متكلمى الأشاعرة، لا يدانيه سابق ولا لاحق».

ومن بين آثاره الفكرية التى بلغت اثنين وخمسين كتابا - بقيت ستة كتب، منها (التمهيد فى الرد على الملحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة) و (إعجاز القرآن) و (الانتصار للقرآن).

آراؤه وتأثيراته :

وفى انتصار الباقلانى للمذهب الأشعرى يتجلى الاحتكام إلى المنطق، والجدل النظرى، والأدلة والبراهين العقلية، أكثر مما نجد الوقوف عند النصوص وحدها. كما نجد عنده جديداً فى مذهب الأشعرى فى «الكسب» فهو يجعل «لقدرة الإنسان الحادثة تأثيرا فى وجود الفعل الإنسانى وفى وقوعه على هيئة مخصوصة دون سواها من الهيئات».

ولقد سَفَر الباقلانى لسلطان الدولة البويهية عضد الدولة، إلى بلاط الملك الروم، وهناك - فى القسطنطينية - كانت له مناظرات مع علماء النصرانية شهدها الملك.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١ - التمهيد للباقلانى - دراسة وتحقيق: محمود محمد الخضيرى، د. محمد عبد الهادى أبو ريدة. طبعة القاهرة ١٩٤٧م.

٢ - تيارات الفكر الإسلامى للدكتور محمد عمارة. طبعة دار الشروق. القاهرة ١٩٩١م.

البخـــارى
(١٩٤ - ٢٥٦ هـ = ٨١٠ - ٨٧٠ م)

هو أميـر المؤمنين فى الحديث، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ابن المغيرة بن بردزبة الجعفى ولاء؛ حيث أسلم جده المغيرة على يد اليمان الجعفى والى بخارى فانتمى إليه بالولاء، البخارى مولدا.

ولد أبو عبد الله بمدينة بخارى، إحدى مدن ما وراء نهر جيحون، على بعد ثمانية أيام من سمرقند من بلاد فارس، وهذه المدينة الآن تتبع ما كان يسمى بالاتحاد السوفيتى.

وكانت ولادة البخارى بها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة من الهجرة. الموافق ٨١٠م وكان والده ورعا تقيا ومحدثا فاضلا، كما كان ثقة، ترجم له ابن حبان فى كتاب «الثقات»، وقد خرج إسماعيل - والد البخارى - حاجا قبل سنة ١٧٩هـ وتقابل مع إمام المدينة مالك بن أنس، وحدث عن أبى معاوية بن صالح وجماعة، وروى عنه أحمد بن حفص وغيره من العراقيين، وبلغ إسماعيل فى ورعه درجة عالية، فكان يبتعد عن الشبهات، وثروته الطائلة التى جمعها نقية خالصة استثمرها فى الخيرات، روى عنه أحمد بن حفص قال: دخلت عليه عند موته فقال: لا أعلم فى جميع مالى درهما من شبهة، فتصاغرت إلىّ نفسى.

توفى البخارى - رحمه الله - ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين للهجرة الموافق ٨٧٠م عن عمر يناهز ٦٢ سنة.

وفى بيئة الطهر والورع والدين والدنيا، استقبل بيت الحديث والنعمة محمد بن إسماعيل، وقد لبث الوالد قرير العين بابنه إلى أن عاجلته المنية فترك ابنه طفلا صغيرا، فكفلته أمه وقامت بتربيته ورعايته وعقدت عليه أسمى الآمال، ثم وجهته إلى التعليم لينسج على منوال أبيه ويستفيد مما خلفه من ثروة العلم، فاتجهت به إلى الكتَّاب ليحفظ القرآن الكريم والحديث الشريف، وما أن بلغ البخارى العاشرة من عمره إلا وألهمه الله حفظ الحديث الشريف فى هذه السن المبكرة، مما يدل على ما وهبه الله من قدرة فائقة

فى الحفظ وقريحة وقّادة فيه، يقول محمد ابن أبى حاتم ورّاق البخارى: سمعت البخارى يقول: «ألهمت حفظ الحديث وأنا فى الكتّاب، فقلت: كم أتى عليك إذ ذاك؟ فقال: عشر سنين أو أقل».

ولهذا النبوغ الهائل انطلق البخارى فى سن الحادية عشرة قاصدا أئمة الحديث؛ لينهل من مواردهم، يساعده على ذلك عقلية واعية وحافظة قوية، ومما يدل على نبوغه العلمى ما تحدث به عن نفسه فى هذه المرحلة: (ثم خرجت من الكتّاب فجعلت أختلف إلى الداخلى وغيره، فقال يوما فيما كان يقرأ الناس: سفيان عن أبى الزبير عن إبراهيم، فقلت: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهرنى، فقلت له: ارجع إلى الأصل إن كان عندك. فدخل فنظر فيه، ثم رجع فقال: كيف هو يا غلام؟ فقلت: هو الزبير وهو ابن عدى ابن إبراهيم، فأخذ القلم وأصلح كتابه، وقال لى: صدقت، قال: فقال له إنسان: ابن كم حين رددت عليه؟ فقال: ابن إحدى عشرة سنة).

ينحصر منهج البخارى فى طلب الحديث فى أمور ثلاثة؛ الأول: العناية بالسند والمتن، والثانى: رحلاته العلمية، والثالث: حفظه ومعرفته بعلوم الحديث.

١ - العناية بالسند والمتن: أما بالنسبة للأول فمنذ اتجه البخارى إلى طلب الحديث وهو يعنى بالإسناد، فعرف الرجال وتواريخهم وأحوالهم، وعنى بالمتن وأصوله، وكان لا يروى الموقوف الذى روى عن الصحابى، أو المقطوع الذى وقف على التابعى، إلا إذا كان له أصل من القرآن الكريم أو السنة الصحيحة المسندة، يقول سليم بن مجاهد: «كنت عند محمد بن سلام البيكندى، فقال: لو جئت قبل لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث، فخرجت حتى لحقته، فقلت له: أنت تحفظ سبعين ألف حديث؟ قال: نعم وأكثر، ولا أجيئك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم، ولست أروى حديثا عن الصحابة والتابعين إلا ولى من ذلك أصل أحفظه من الكتاب أو السنة».

وهكذا هيَّأته عناية الله وتوفيقه لسلوك طريق العلم منذ صغره على أساس متين، مع الاستعداد الفطرى والعقلية الحادة، مما جعل لمروياته الثقة المتوفرة، كما أعانه على تحصيل العلم واستيعابه ما تركه والده من التراث العلمى النافع، فظل يحفظ ويناقش ويطلب العلم حتى ذاع صيته وأصبح موضع الإعجاب من شيوخه، وما أن بلغ من عمره ست عشرة سنة إلا وحفظ كتب ابن المبارك ووكيع، وعرف مذاهب أهل الرأى وكلامهم.

٢ - رحلاته العلمية: أما عن رحلات البخارى فى طلب العلم فقد كابد الأخطار فى رحلاته، وبذل كثيرا من الجهود المضنية فى طلب العلم، وتحرِّى الأحاديث الصحيحة، ولم يكتف البخارى فيما يرويه على ما جمعه من أحاديث بلده الذى يعيش فيه، وإنما هاجر ورحل إلى كثير من البلاد يجالس المحدثين والحفاظ ليأخذ عنهم ويسمع منهم، ولم يأل جهدا فى استيعاب ما عند المحدثين حتى جمع الكثير من الحديث، وقد حفزه إلى الرحلة ما وفقه الله تعالى إليه من إلهامه الصواب وتذليل طرق البحث والتعليم، وما كان يستشعره فى نفسه من نهم علمى وطموح مبكر وتوجيه سديد.

وقد ابتدأ البخارى رحلته بمكة المكرمة مهبط الرسالة ليؤدى فريضة الحج، فخرج هو وأمه وأخوه أحمد سنة عشرة ومائتين ٢١٠هـ، وأقام البخارى بمكة يطلب العلم، ورجع أخوه أحمد إلى بخارى، وفى مكة سمع من أبى الوليد أحمد بن محمد الأزرقى، وإسماعيل بن سالم الصائغ، ثم اتجه بعد ذلك إلى المدينة المنورة دار الهجرة، وفى رحاب المسجد النبوى وبجوار صاحب الرسالة ﷺ بدأ البخارى تأليف ما وفقه الله إليه، فصنف «قضايا الصحابة والتابعين»، ثم صنف «التاريخ الكبير»، قال البخارى: (فلما طعنت فى ثمانى عشرة صنفت كتاب «قضايا الصحابة والتابعين»، ثم صنفت «التاريخ» فى المدينة عند قبر النبى ﷺ وكنت أكتبه فى الليالى المقمرة، وقل اسم فى التاريخ إلا وله عندى قصة إلا أنى كرهت أن يطول الكتاب).

ومكث البخارى فى المدينة سنة، ثم رحل بعدها إلى البصرة وأقام بها خمس سنين، وكان يتردد منها على مكة أيام الحج، يقول البخارى: (دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين، وإلى البصرة أربع مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصى كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدثين).

وهكذا طوّف البخارى فى سبيل العلم فى أقطار شتى، فمن مكة إلى المدينة والشام وبغداد والبصرة والكوفة ومصر وبخارى ومرو ونيسابور وقيسارية وعسقلان وحمص وخراسان، وكان لهذه الجهود التى بذلها من الأهمية ما يعطينا الثقة الكاملة بمروياته، يقول البخارى: (كتبت عن ألف شيخ أو أكثر، ما عندى حديث لا أذكر إسناده).

٣ - حفظه ومعرفته بعلوم الحديث: تميز البخارى منذ صغره بمواهب عظيمة منحه الله إياها، فكان لديه الاستعداد الفطرى الذى فطره الله عليه: حافظة قوية، وعقلية صافية، وعمل دائب، فلا غرو أن كان فى

حفظه ومعرفته بعلوم الحديث آية بهرت العقول، وقد سلك فى دراسته أدق الطرق وأسماها، فكان ينمى ما عنده من القدرات بالجد والاجتهاد والمداومة على المذاكرة، يقول البخارى موضحا المنهج السليم للحفظ: (لا أعلم شيئا أنفع للحفظ من نهمة الرجل ومداومة النظر). كما كان يستعين على تثبيت المعلومات بربطها بما يحيط بها، كما كان يربط بين أقوال الصحابة والتابعين وبين الكتاب والسنة؛ حتى يتضح القول فى ذهنه من جميع الجوانب، فسبق علماء النفس بهذا المنهج التربوى فى الدراسة.

ومما يشهد للبخارى بسعة حفظه ومعرفته بعلوم الحديث ما رواه أحمد بن الحسين الرازى، قال: «سمعت أبا أحمد بن عدى الحافظ يقول: سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون: إن محمد بن إسماعيل البخارى قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا به وأرادوا امتحان حفظه، فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس لكل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخارى، وأخذوا عليه الموعد للمجلس، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخارى: لا أعرفه، فما زال يلقى عليه واحدا بعد واحد حتى فرغ، والبخارى يقول: لا أعرفه، وكان العلماء ممن حضروا المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون: فهم الرجل، ومن كان لم يدر القصة يقضى على البخارى بالعجز والتقصير وقلة الحفظ، ثم انتدب رجل من العشرة أيضا فسأله عن حديث من الأحاديث المقلوبة، فقال: لا أعرفه، فسأل عن آخر، فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقى عليه واحدا واحدا حتى فرغ، والبخارى يقول: لا أعرفه، ثم الثالث والرابع إلى تمام العشرة، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة والبخارى لا يزيدهم على (لا أعرفه)، فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا: وصوابه كذا، وحديثك الثانى كذا وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة، فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك؛ فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل».

يقول ابن حجر: «هنا يُخضع للبخارى؛ فما العجب من رد الخطأ إلى الصواب، فإنه كان حافظا، بل العجب من حفظه للخطأ على

ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة». وفى هذا الامتحان الصعب الذى اجتازه البخارى بنجاح باهر ما يدل على قوة ذاكرته، وبلوغه فى الإحاطة بالحديث حدا لم يصله سواه، حتى أقر له الجميع بالإمامة والفضل.

وكان البخارى حجة فى معرفة علوم الحديث، ولم يتصدر للتحديث إلا بعد إحاطته بالصحيح من السقيم، كما قال: (ما جلست للتحديث حتى عرفت الصحيح من السقيم، وحتى نظرت فى كتب أهل الرأى).

وهكذا تتضح شخصيته العلمية متكاملة الجوانب فى مجال السنة المطهرة، يجمع بين حفظ الأسانيد والمتون والإحاطة الدقيقة بعلل الحديث، مما جعله مرجعا لكبار العلماء، قال أحمد بن حمدون الحافظ: (رأيت البخارى فى جنازة، ومحمد بن يحيى الذهلى يسأله عن الأسماء والعلل، والبخارى يمر فيه مثل السهم كأنه يقرأ قل هو الله أحد).

وقد شهد الإمام مسلم للبخارى بالسبق والإمامة معترفا له بالفضل، قال أحمد بن حمدون: (جاء مسلم بن الحجاج إلى البخارى فقبل بين عينيه، وقال: دعنى أقبل رجليك يا أستاذ الأساتذة ويا سيد المحدثين وطبيب الحديث فى علله).

كما شهد له أيضا أبو عيسى الترمذى، قال: (لم أر بالعراق ولا بخراسان فى معنى العلل والتاريخ ومعرفة الأسانيد أعلم من محمد بن إسماعيل).

كما شهد له أقرانه وشيوخه وأثنوا عليه عاطر الثناء، فلا غرابة أن يلقب بأمير المؤمنين فى الحديث، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن مؤلفاته : كان للإمام البخارى مجال فسيح فى التأليف يدل على أفقه العلمى الواسع، ومعرفته الفائقة بأحوال الرواة، فكتب فى كل ما يتصل بالسنة النبوية الشريفة، ومن هذه المؤلفات:

١ - الجامع الصحيح.

٢ - الأدب المفرد.

٣ - رفع اليدين فى الصلاة.

٤ - بر الوالدين.

٥ - التاريخ الكبير.

٦ - التاريخ الأوسط.

٧ - التاريخ الصغير.

٨ - كتاب الضعفاء.

٩ - كتاب التفسير الكبير.

١٠ - القراءة خلف الإمام.

١١ - الكنى.

١٢ - العلل.

١٣ - أسامى الصحابة.

١٤ - كتاب الأشربة.

١٥ - كتاب الوحدان وهو من ليس له إلا حديث واحد.

١٦ - كتاب الهبة.

١٧ - كتاب المسند الكبير.

١٨ - كتاب المبسوط.

١٩ - كتاب الفوائد.

أ.د. أحمد عمر هاشم

مراجع للاستزادة:

١ - وفيات الأعيان ١/ ٥٧٦، ومقدمة فتح البارى ص ٤٧١.
٢ - الطبقات الكبرى لابن السبكى ٢/٢١٣.
٣ - النكت لابن حجر ص ٧ مخطوط بمكتبة الأزهر.
٤ - مقدمة فتح البارى ص ٤٧٩، الطبقات الكبرى لابن السبكى ٢/٢١٦.
٥ - الطبقات الكبرى لابن السبكى ٢/٢١٨.
٦ - هدى السارى ص ٤٧٩.
٧ - المرجع السابق.
٨ - تاريخ بغداد ٢/١٠.
٩ - هدى السارى ص ٤٨٨.
١٠ - هدى السارى ص ٤٨٧، ووفيات الأعيان ١/٥٧٦.
١١ - هدى السارى ص ٤٨٩.
١٢ - البداية والنهاية ١١/٩٦.
١٣ - تاريخ بغداد ٢/٢٧.
١٤ - مقدمة فتح البارى ص ٤٩٣.

أبو البركات البغدادى
(نحو ٤٨٠ - نحو ٥٦٠ هـ)

هو هبة الله بن على بن ملكى، الملقب بأبى البركات البغدادى، كما يسمى بفيلسوف العراقيين، وفى مواضع أخرى يسمى هبة الله ابن ملكا البغدادى البلدى؛ يطلق عليه (البغدادى) لأنه أقام فى بغداد، ويطلق عليه (البلدى) لأنه ولد فى ضيعة اسمها (بلد) ناحية الموصل المعروف بأوحد الزمان لمكانته وشهرته.

حدث خلاف بين المؤرخين حول تاريخ ميلاده، فتذكر بعض المصادر أنه ولد فى نحو سنة ٤٧٠هـ = ١٠٧٧م، وتذكر مصادر أخرى أنه ولد سنة ٤٨٠هـ، كما حدث اختلاف فى تحديد سنة وفاته بين أعوام ٥٥٠هـ و٥٦٠هـ.

وهو فيلسوف عربى من أصل يهودى، اعتنق الإسلام على مذهب أهل السنة فى وقت متأخر من حياته.

كان نموذجا للفيلسوف الشخصى الذى يؤثر الابتعاد عن شئون السياسة والمجتمع، لأن فى مخالطتهما نقضًا لفكرة الفيلسوف بالذات.

كان أبو البركات البغدادى يهودى الأصل، تتلمذ على أبى الحسن سعيد بن هبة الله، وأصبح طبيبًا مشهورًا، مارس الطب أيام خلافة العباسيين، وخدم السلاطين السلاجقة، فى فترة متأخرة من الخلافة العباسية، واعتنق الإسلام فى نهاية حياته، واختلفت الآراء حول سبب إسلامه، وحقيقته، البعض يُرجعه إلى عدم اقتناعه التام باليهودية، والبعض الآخر يرى أن إسلامه لم يكن حقيقيا بل كان تقربًا من السلطة الإسلامية، إما طمعا فى مال أو جاه، وإما خوفًا على حياته.

وقد أُصيب أبو البركات فى نهاية حياته بالعمى؛ فكان يُمْلى كتاباته على تلاميذه، وأشهرهم جمال الدين بن فضلان، وعلى بن الدهان، وعلى يوسف والد الشيخ موفق الدين عبد اللطيف، وعلى المهذب بن النقاش.

ومن آرائه واتجاهاته الفكرية:

١ - **المنطق**: قدَّم أبو البركات البغدادى تصوره للمنطق فى الجزء الأول من كتابه

«المعتبر»، وعرضه عرضًا كاملا متضمنا كل أبوابه المعروفة عند أرسطو، وكان البغدادى نموذجًا للتقليد الطبى المنطقى الذى تبنته مدرسة بغداد، واستطاع أن يحافظ على المنطق الأرسطى، ونجح فى تنقيته مما علق به من شوائب وتحريفات عبر العصور من تأويل الشرَّاح، واجتهد فى إصلاح هذا التراث وعودته إلى صورته الحقيقية.

وقد حدد أبو البركات هدف المنطق بأنه: علم يقدم معرفة المجهولات، من المعارف والعلوم المطلوبة، بالمعارف والعلوم التى سبقت إلى الذهن، وقد تناول فى هذا العلم مبحث الألفاظ والقضايا والأقيسة وغيرها من موضوعات المنطق، ويشير إلى أن مبحث الألفاظ ليس من مباحث علم المنطق، وإنما هو يدخل ضمن علم اللغات، وأن دخوله إلى المنطق ليس بالذات بل بالعرض، لأن اللغة مهمة للمنطق لكن لا بوصفها موضوعًا له، وإنما بوصفها أداة تعبير يستخدمها مثل سائر العلوم.

والقياس عنده مؤلَّف من قضايا تسمى مقدمات، والإنسان يمكنه معرفة القضايا إما بالقياس أو بطرق أخرى غير قياسية، ويتوقف شكل القياس على وضع الحد الأوسط، وتختلف ضروبه نتيجة اختلاف الكم والكيف، الإيجاب والسلب، الكلية والجزئية.

ورغم إقرار البغدادى أن أرسطو لم يعالج الأقيسة الشرطية، فقد عالجها هو بشىء من التفصيل كما فعل معظم مناطقة العرب، وحدد أشكال القياس، وفصَّل القول فى الشكلين الأول والثانى.

٢ - **إحصاء العلوم** : قدم أبو البركات البغدادى إحصاء العلوم، كما فعل غيره من فلاسفة الإسلام، أمثال جابر بن حيان والفارابى وأبى الحسن العامرى وغيرهم، لكنه اختلف فى تصنيفه للعلوم عنهم، إذ حرص السابقون عليه واللاحقون له أن يضعوا منظومة للعلوم الفلسفية والعلوم الدينية داخل هذا الإحصاء، أما أبو البركات فقد اقتصر إحصاؤه على العلوم الفلسفية.

وأصول العلوم النظرية عنده ثلاثة: العلم الطبيعى، والعلم الرياضى، والعلم الإلهى. أما المنطق فهو علم العلوم؛ لأنه يشتمل على القوانين العقلية الواجبة فى العلم والتعلم، ويشتمل العلم الطبيعى على أصناف المحسوسات، والعلم الرياضى يشتمل على فروع العلوم الذهنية، أما العلم الإلهى فهو أشرف العلوم كلها، ويسمى بالعلم الكلى لأنه يتضمن المبادئ والكليات، ويقدم هذا العلم على سائر العلوم الأخرى.

٣ - **مشكلة النفس** : وقف أبو البركات البغدادى من الفلسفة المشائية، فيما يتعلق

بمشكلة النفس الإنسانية ومسألة الحشر، نفس موقف الغزالى، واتبع منهجه الذى يبدأ بالعرض والتوضيح، ثم يتلوه بالنقد والتفنيد، وأخيرًا بيان موقفه ورأيه الخاص، واستخدم أبو البركات نفس الحجج والبراهين التى قدمها قبله الغزالى.

والنفس عنده محل لما تعقله وتعرفه، والأشياء كالصور الحالَّة فيها، ولا يختلف العقل عنها فى ذلك، ولكن هناك فرقا واضحا بين العقل والنفس وبين الهيولى الجسمانية، وأن النفس يجوز أن تخرج إلى كمالها بذاتها، من غير أن يكون لها شىء هو كذلك بالفعل يخرجها إلى الفعل، ويجوز القول بالعقل الفعَّال على تقدير العلة أو حدسا فحسب، ولا يكون ذلك ضروريا أو لازمًا، بل هو من طريق الأَوْلَى والأشبه. ويعترض أبو البركات على قصر المشائيين صدور العلم والمعرفة على واهب الصور، أى العقل الفعال، فيذكر أن التعليم لا يقتصر على العقل الفعَّال وحده، كما اعترض على قول الفلاسفة بأن النفس الإنسانية واحدة بالشخص فى جميع أشخاص الناس، يشتركون فيها، مثلها مثل شعاع الشمس الواحد الذى يشرق على موضوعات مختلفة متكثرة.

٤ - **مشكلة السعادة والشقاء** : يتناول أبو البركات موضوع سعادة الإنسان وشقائه فى الآخرة، ويتناول المذاهب المختلفة فى مسألة الثواب والعقاب وحشر الأجساد، فيقول: إن النفوس جواهر غير جسمانية، لها قوى فعالة بذواتها، مستغنية فى الوجود عن البدن، وهى باقية لا تموت بموت الأبدان ومفارقتها، ويبنى رأيه فى خلود النفس على أساس عقلى فلسفى، والنفس إذا فارقت البدن وفيها ملكات ومحبة وعشق لأشياء، كان لها شوق شديد بحسب ما عشقت، والنفوس يمكن أن تعود إلى أبدانها، والنفوس الشريفة الفاضلة تسعى بكمالها الاكتسابى فى تلقى ما يناسبها فى عالم الألوهية وعالم الروح، أما النفوس الخسيسة فتلقى ما يؤذيها، فتسعد النفوس الكاملة بالوصول إلى المطلوب المحبوب، وتشقى النفوس الناقصة بسبب بُعدها عن الكمال.

٥ - **الإلهيات** : قدم أبو البركات عددًا من الأدلة لإثبات وجود الله، ابتعد فيها عن دليل الحركة الذى اعتمده أرسطو والفلاسفة المشائيون، وعرض لماهية الله وصفاته، والله عنده نور الأنوار ويعرفه بالإثبات والسلب، فالله تعالى لا شريك له فى جنس ولا فصل ولا نوع، وهو واحد بالذات، مبدأ أول، وعلة العلل.

ويحلِّل أبو البركات أسماء الله التى وردت فى القرآن تحليلاً فلسفيا، فالله واحد الذات

والحقيقة والماهية، فهو واحد أحد، فرد صمد، الواحد من حيث لا كثرة فيه ولا غيرية، والفرد من حيث لا ند له ولا ضد، والصمد من حيث لا تركيب فى ذاته، أى بسيط، فهو واحد من كل وجه لا كثرة فيه، وهو خالق الخلق، الواجب بذاته وحده لا شريك له، ويستخدم المقارنة بين صفات الله وصفات الإنسان دون تشبيه أو تجسيم، وصفاته ترجع إلى ذاته لا إلى علة خارجة عن ذاته، وعلمه محيط بكل شىء.

ولم يكن البغدادى حريصًا على وضع التأليف، مشيرًا إلى أن هذا هو اتجاه الفلاسفة القدماء الذين يلقنون معارفهم شفاهة، دون اللجوء إلى كتابتها، وكان يحتفظ بآرائه من خلال بعض الأوراق، وعندما خشى على ضياعها رصدها فى خلال مؤلفه الذى تركه، وهو كتاب (المعتبر فى الحكمة)، التزم فيه بالفلسفة مع التوفيق بينها وبين اتجاه أهل السنة.

يتكون الكتاب من ثلاثة أجزاء، يشتمل الجزء الأول على دراسة لمنطق أرسطو كما عرفه العرب، أما الجزء الثانى فهو يلخص فيه مواقف المشائيين فى العلم الطبيعى وفى النفس، أما الجزء الثالث، فهو عن الإلهيات.

ويتضمن هذا الكتاب نقدًا واضحًا للفلسفة المشائية، ولفلسفة ابن سينا على وجه الخصوص، على الرغم من استفادته الشديدة منه، وقد مثَّل أبو البركات البغدادى بكتابه هذا موقفًا وسطًا بين ظهور أرسطو الحقيقى عند ابن رشد، وظهور الأفلاطونية الإسلامية عند شهاب الدين السهروردى.

أ. د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة :

١- ابن أبى أصيبعة: عيون الأنباء فى طبقات الأطباء. ط مصر سنة ١٣٠٠هـ.
٢- ابن النديم: الفهرست، تحقيق د. يوسف على الطويل. بيروت. دار الكتب العلمية ١٩٩٦م.
٣- أبو ريان (د. محمد على): تاريخ الفكر الفلسفى فى الإسلام، دار الجامعات المصرية الإسكندرية سنة ١٩٧٣م.
٤- أبو ريان (د. محمد على): مادة (أبو البركات البغدادى) ضمن الجزء الأول من أعلام الفكر الإنسانى، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٤م.
٥- أبو ريان (د. محمد على): نقد أبى البركات البغدادى لفلسفة ابن سينا ـ مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية مجلد ١٢ سنة ١٩٥٨م.
٦- شرف (د. محمد جلال): المذهب الإشراقى بين الفلسفة والدين فى الفكر الإسلامى، دار المعارف ـ مصر، سنة ١٩٧٢م.
٧- الأعلام للزركلى من ٨/٧٤.

بالإضافة إلى عدد من الرسائل الجامعية حول جوانب فكرية لأبى البركات البغدادى، منها:
(أ) (موقف أبى البركات البغدادى من الفلسفة المشائية)، لأحمد الطيب.
(ب) (مشكلة النفس الإنسانية فى فلسفة أبى البركات البغدادى)، لإيزيس أيوب رزق الله.
(جـ) (أبو البركات البغدادى وفلسفته الإلهية)، لجمال رجب سيدبى.
(د) (الفلسفة الطبيعة والإلهية عند أبى البركات البغدادى)، لصبرى عثمان محمد.
(هـ) (القياس والبرهان دراسة فى منطق أبى البركات البغدادى)، لصلاح عثمان صالح مال الله.

ابن بسام الشنتيرينى
(٠٠٠ - ٥٤٢هـ = ٠٠٠ - ١١٤٧م)

هو أبو الحسن: على بن بسام الشنتيرينى، الأندلسى مؤرخ الأندلس، وأحد أعلام القرن السادس الهجرى.

ولد بمدينة شنترين، فهو أندلسى برتغالى من أهل ولاية الغرب الأندلسية، وهو الاسم الذى كان يطلق يومئذ على المنطقة الشاسعة التى تمتد من غربى نهر الوادى الكبير حتى المحيط، وتشمل النصف الجنوبى من البرتغال الحديثة. ولا نعرف بالتحقيق تاريخ مولد ابن بسام، كما أننا لا نعرف ظروف نشأته وحياته الأولى. وكل ما نعرفه من ذلك، أنه غادر موطنه شنترين فتى حدثًا. خوفًا من سقوطها فى أيدى البرتغاليين، وقصد إلى مدينة إشبيلية. وهنالك قضى بضعة أعوام فى بؤس ومشقة، يدرس على شيوخها، ويتعيش بقلمه وأدبه. وفى سنة ٤٩٤هـ قصد إلى مدينة قرطبة، ودرس على شيوخها، واستقر بها بقية حياته. وكانت قرطبة قد فقدت يومئذ كثيرًا من أهميتها القديمة، وبهائها السالف، ولكنها احتفظت بكثير من سمعتها وتقاليدها العلمية القديمة.

وقد نشأ ابن بسام وعاش فى عصر مؤلم من عصور التاريخ الأندلسى، وهو أواخر عصر الطوائف، وأوائل الفتح المرابطى إلى أن توفى عام ٥٤٢هـ ـ الموافق ١١٤٧م.

حيث أصبحت الأندلس ولاية مغربية تخضع لحكومة مراكش.

وجاء ابن بسام فى أواخر العصر الذى زهت فيه الآداب بالأندلس، فبهرته هذه النهضة الأدبية التى عاصر جمهرة من أعلامها، وتذوق الكثير من روائعها من المنثور والمنظوم، وجالت بخاطره فى نفس الوقت فكرة لم تخطر لأحد من قبله، هى أن الأدب الأندلسى لم ينصف من مواطنيه ولم يقدر قدره، واعتزم أن يقدم لمواطنيه أروع صورة من أدب الأندلس، وأدب الطوائف بنوع خاص، فكتب مؤلفه الضخم «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» بمدينة قرطبة، وانتهى من كتابته فى سنة ٥٠٣هـ.

وللعنوان الذى اتخذه ابن بسام لكتابه مغزى واضح، ويصارحنا ابن بسام فى

مقدمته بالدافع النفسى الذى دفعه إلى تصنيف كتابه «الذخيرة»، وهو أنه رأى انصراف أهل عصره وقطره، إلى أدب المشرق والتزود منه، والإعجاب به، وإهمال أدب بلدهم، فأراد بوضع الذخيرة وجميع ما تضمنه من رائق المنثور والمنظوم، أن يبصر أهل الأندلس بتفوق أدبائهم، وروعة إنتاجهم، وأنه من حقهم أن يزهوا بأدبهم، وأن يتذوقوه، وأن الإحسان ليس مقصوراً على أهل المشرق. ومن الواضح أيضًا أن ابن بسام أراد أن يعارض بكتابه فى محاسن أهل الجزيرة، أى جزيرة الأندلس، أديب المشرق الكبير أبى منصور الثعالبى صاحب «يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر»، فالذخيرة واليتيمة بذلك صنوان، يدعو كل منهما إلى تذوق محاسن قطره. وفضلاً عن هذه الظاهرة التى حرص ابن بسام على أن يؤكدها لكتابه، فإن كتاب «الذخيرة» يعتبر بمحتوياته من التراجم القوية العديدة، لعشرات من رجالات الأندلس ومفكريها وأدبائها، والمختارات النثرية والشعرية المنوعة، والنبذ التاريخية الكثيرة الموضوعة والمقتبسة، من مصادر عديدة سابقة ومعاصرة - يعتبر من أنفس مصادرنا التاريخية والأدبية والاجتماعية، ولاسيما عن عصر الطوائف وأمرائه وأدبائه وشعرائه.

منهجه فى كتابه الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة:

ويتبع ابن بسام فى تأليف كتابه منهجًا خاصًا. فأما من الناحية التاريخية، فهو يصارحنا فى مقدمة كتابه، بأنه يعتمد فى التعريف بأخبار ملوك الجزيرة، وسرد قصصهم المأثورة، ووقائعهم المشهورة على ابن حيان، وينقل عنه ما سطر، وأنه عول على تاريخه الكبير فى أكثر ما يكتبه فى هذا الباب، وذلك إعفاء لنفسه من المسئولية، ومعارضة من أحرز فى وقته قصب السبق. وهذا الموقف فى الاعتماد على ابن حيان، يشهد لابن بسام بالروية، وسعة الأفق.

وفيما عدا المسائل التاريخية البحتة، فإن ابن بسام يتولى بأن يقدم إلينا مختلف الشذور الأخرى، ثم هو فى أحيان كثيرة يعرض لنا بعض الحوادث التاريخية بقلمه وبأسلوبه.

ويتبع ابن بسام فى معظم ما يكتبه طريقة السجع، ولكنه مع ذلك يكتب بأسلوب مشرق فى مجموعه، وإن كان السجع يطغى على بعض المعانى، ويذهب به إلى ضروب من المبالغة.

ويعتبر كتاب «الذخيرة» مثل كتاب «العقد الفريد» من الكتب الأندلسية المميزة لعصر

بعينه، بيد أنه على النقيض من «العقد الفريد» الذى يغلب على محتوياته أدب المشرق، يعتبر أروع نموذج للأدب الأندلسى الرفيع. وإنك لتكاد تشعر من تلاوة محتوياته أنك تعيش مع شخصياته فى عصرهم، وفى ظروف مجتمعهم، وتتذوق مع مؤلفه تلك المختارات العديدة الرائقة التى يوردها من منثورهم ومنظومهم.

وكتب ابن بسام غير «الذخيرة» عدة مصنفات أخرى، منها:

- كتاب فى شعر المعتمد بن عباد.
- وكتاب فى شعر ابن وهبون.
- ورسالة عنوانها «سلك الجواهر فى ترسيل ابن طاهر».
- ومجموعة مختارة من شعر أبى بكر بن عمار.

ويمتاز ابن بسام، فى سائر كتاباته، بأسلوبه المسجع المشرق، كما يمتاز بملاحظاته النقدية القوية: التاريخية والاجتماعية. وهو فى أحيان كثيرة لا يحجم عن مهاجمة معاصريه من الأمراء، والكتاب والشعراء، ذلك أن ابن بسام كاتب مستقل، بعيد عن الملق، وهو لم يعرف عنه أنه خدم أحدًا من أمراء عصره أو تطفل على موائدهم، أو تقلب فى صلاتهم، أسوة بمعظم زملائه من كتاب عصره وشعرائه، وقد كانوا يحتشدون جميعًا فى قصور الطوائف، ويتقلبون فى نعمة أمرائهم.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١- تراجم إسلامية للمؤرخ محمد عبد الله عنان، بتصرف.

٢- الأعلام للزركلى ٤/٢٦٦.

٣- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام.

ابن بطوطة
(٧٠٣ - ٧٧٩هـ = ١٣٠٤ - ١٣٧٧م)

هو محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتى الطنجى، أبو عبد الله الشهير بـ «ابن بطوطة».

ولد فى طنجة (بالمغرب) سنة ٧٠٣هـ = ١٣٠٤م. فى بيت مشرف على البحر، وتربى على الأخلاق الدينية، وتولى مساعدة والده فى تجارته، ومكَّنته البيئة التى عاشها من مجالسة البحارة الذين يمرون بطنجة، وكذلك من لقاء التجار القادمين من بلاد أخرى، وهكذا نمت فى مخيلته المعرفة الواسعة باختلاف الأوطان الأخرى من حيث المناخ والعادات والمعالم. وكان يستخدم الحيوانات والسفن الشراعية فى تنقله من بلد إلى آخر.

وتوفى فى عام ٧٧٩هـ الموافق ١٣٧٧م فى مدينة طنجة بعد أن أمضى أكثر من ثلاثين عامًا من عمره فى الرحلات ثم فى تسجيلها حيث أخذ يملى ما يراه من أحداث ومشاهد عن بلاد العالم.

شخصية عربية فذة، رزق العزم وحب الاستطلاع والدأب، كما رُزق الأمانة والصدق والخلق، فتكونت له من خصاله هذه ومن نشاطه صورة الرحالة النموذجى فى التاريخ العربى والتاريخ الإنسانى على وجه العموم، وقد عاش حياته الطويلة (٧٤ عاما) دون أن يدعى أنه مؤرخ أو جغرافى أو مكتشف، ولكنه كان يعود من رحلاته فيمليها على مَنْ كتبها وصاغها ورتبها وربطها فى سلسلة واحدة؛ وهو ابن جزى الغرناطى الذى تولى تحرير كتاب ابن بطوطة الأشهر: «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، وكان ابن جزى أديبا غرناطيا وكاتبا للسلطان ابن عنان فارس المرينى وهو الذى أمره بأن يسجل رحلات ابن بطوطة على النحو الذى حُفظت به، وقد اكتسبت هذه الرحلات وصاحبها مكانتها بفضل صدق ابن بطوطة فيما رواه فيها، وحرصه على إثبات الواقع عى نحو ما رواه دون أن يطوعه لمعتقداته أو أفكاره أو معلوماته المسبقة، وكأنه كان يتمتع بما يسمى اليوم فى علوم الدراما بالقدرة على الدهشة والاندهاش، وتسجيل انفعالاته النفسية دون تهوين أو تهويل، وقد أعطى هذا لكتابه

الشهير قيمة الخلود فى التراث الإنسانى، كما هيأ لهذه الرحلات أن تترجم إلى لغات أجنبية كثيرة.

وفضلا عن شهرته كرحالة وعمله الأصلى كتاجر فقد أتاحت الرحلات لابن بطوطة أن يعمل قاضيًا فى بلاد الهند فى مرحلة من مراحل رحلته.

قام ابن بطوطة برحلته الأولى عام ١٣٢٥م عندما كان عمره اثنين وعشرين عامًا، وكان من الممكن أن تكون مجرد رحلة تقليدية لتاجر مسلم ملتزم لأداء فريضة الحج. ولكنها بفضل شغفه المعرفى تحولت إلى رحلة ذات مسارات ودلالات وخبرات. وفى طريقه إلى مكة المكرمة مر ابن بطوطة ببلاد عديدة مثل الجزائر وتونس وليبيا ومصر والشام، وبعد الحج اتجه إلى العراق وإيران وبلاد الأناضول، ثم عاد إلى مكة، وبقى فيها سنتين. ثم غادر الحجاز عام ١٣٢٩م متجها نحو اليمن وبلاد الخليج العربى كالبحرين والإحساء، وعاد إلى مكة لأداء فريضة الحج، ثم اتجه شمالاً نحو مصر والشام وآسيا الصغرى، واستقر لبعض الوقت فى عاصمتها القسطنطينية، ثم عن طريق مكة عاد ابن بطوطة إلى مدينة فاس عاصمة المغرب، عام ١٣٤٩م.

وفى أثناء هذه الرحلة اكتسب ابن بطوطة محبة سلطان الهند فعينه قاضيًا فى بلاده، ثم أرسله مرافقًا لبعثة هندية إلى ملك الصين.

وبدأ ابن بطوطة رحلته الثانية عام ١٣٥٠م، حيث توجه إلى أوروبا، وعند زيارته الأندلس استقر بعض الوقت فى مدينة رندة وبلدة مربلة وسهيل ومالقة وغرناطة، وقد لاحظ وجود جالية كبيرة من غير المسلمين فى غرناطة وعاد إلى فاس عام ١٣٥١م.

أما رحلته الثالثة فقد قام بها عام ١٣٥٣م، إلى أفريقيا حيث زار بلاد السودان واستغرقت ثلاث سنوات عاد بعدها إلى وطنه.

وفى عهود لاحقة أثبت المؤرخون والرحالة الأوروبيون صدق رواية ابن بطوطة فيما شاهده فى رحلاته الثلاث، واعتبروا ما رواه مرجعًا لدراسة الشعوب التى زارها فى القرن الرابع عشر الميلادى. وقد ترجمت رحلاته «تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» إلى بعض لغات العالم.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - الدرر الكامنة ١/٤٨٠.
٢ - دائرة المعارف الإسلامية ١/٩٩.
٣ - الأعلام للزركلى ٦/٢٣٥.

أبو بكر الصديق
(٥١ق هـ - ١٣ هـ = ٥٧٣ - ٦٣٤م)

ولد أبو بكر بعد سنتين من مولد رسول الله ﷺ فى مكة المكرمة ٥١ ق هـ الموافق سنة ٥٧٣م، ونشأ تاجراً أميناً اشتهر بالصدق والأمانة والربح القليل، وكان له صحبة برسول الله قبل البعثة الشريفة إذا أنس به واصطفاه، وذهب معه إلى الشام فى رحلة تجارية، فزاد تعلقه به، ونسج على منواله فلم يشرب خمرا، ولم يسجد لصنم، وكان قبل البعثة النبوية يتصل بالحنفاء الذين يتعبدون على دين إبراهيم، ويسمع منهم ما يقولون، ومنهم زيد بن عمرو بن نوفل، وقد كثرت رحلاته إلى الشام، وكثر بحثه عن الصواب فى دين الله، ولاشك أن صلته الحميمة بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد قوّت رأيه فى احتقار الأصنام، وجعلته يتهيأ لدين جديد، يحس فى خاطره تشوقا إليه دون أن يدرك هداه، فلما أعلن رسول الله دعوته الكريمة صادفت أعظم الارتياح من نفسه الطاهرة، فلم يتردد فى قبولها، وسارع إلى اعتناقها لذلك قال ﷺ، ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له وقفة غير أبى بكر.

تعرض رسول الله للإيذاء من سفهاء قريش فكان أبو بكر يقف دونه محاميا، قالت أسماء بنت أبى بكر حين سئلت : ما أشد ما رأيتِ من المشركين فى عنتهم مع رسول الله. فقالت: كان المشركون قعوداً فى المسجد الحرام فتذكروا الرسول وما يقول فى آلهتهم، فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ. فقاموا إليه، وكانوا إذا سألوه صَدَقَهم، فصاحوا : أأنت تقول فى آلهتنا كذا وكذا؟ فقال: بلى : فتشبثوا به جميعا وأتى الصريخ أبا بكر فى داره: أدرك صاحبك. فخرج أبو بكر ليجد الناس مجتمعين عليه يؤذونه، فقال ويلكم: أتقتلون رجلا يقول ربى الله. وقد جاءكم بالبينات من ربكم، فَبعَدوا عن رسول الله، وأقبلوا على أبى بكر يضربونه، فرجع إلينا وهو يقول: تباركت ياذا الجلال والإكرام، وزاد عمرو بن العاص فقال : إنهم ضربوه، وشجوا رأسه وجَبَذوه بلحيته وكان رجلا كثيرا الشعر!

كان أبو بكر رقيق القلب فجعل يتألم لما يصيب العبيد من أذى حين يُسلمون. فكان

يشتريهم ويعتقهم ابتغاء مرضاة الله، ومنهم بلال بن رباح، وعامر بن فهيره، وزنيره، وأم عيسى وغيرهم، وحديثه مع بلال مشهور متداول: فقد مر به، وقد أخرجه سيده أمية بن خلف فى حر الظهيرة فطرحه على الأرض، وجاء بالصخرة الثقيلة فوضعها على صدره ساخنة محماة وقال له : لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد اللات والعزى فيرد عليه ، أحد أحد، فقال أبو بكر لأمية : اتق الله فى هذا المسكين، حتى متى، فقال أمية : أنت أفسدته فأنقذه مما ترى، قال : أفعلُ عندى غلام أجلد منه وأقوى فأعطيكه به : قال قبلت. فأعطاه أبو بكر غلامه وأخذه، ولم يلبث أن أعتقه، وأعتق ست رقاب مثله!

كان أبو بكر شديد الثقة برسول الله فلا يشك فى شىء مما يقوله، ويعلن تصديقه فسمى الصديق، ولما أسرى برسول الله من مكة إلى المسجد الأقصى، ورفعه الله إلى السماوات العلى، أصبح فأخبر الناس برحلة الإسراء، فدهشوا وجعل المشركون يهزءون ويسخرون بما تخيلوه افتراء لا حقيقة له. وكانوا يعرفون أن أبا بكر يصدق الرسول فيما يقول، فقالوا فى نفوسهم. لا يجرؤ أبو بكر على تصديقه هذه المرة، وانتظروا حتى مر بهم، فصاحوا به ماذا تقول فى صاحبك الذى زعم أنه أسرى به من مكة إلى القدس فى ليلة واحدة، فقال لهم: إن يك قال فقد صدق، وما يعسر على نبى ذلك وهو صاحب معجزة، فنظر بعضهم إلى بعض حائرين.

وكان أبو بكر قد همَّ بالرحلة إلى الحبشة مع المهاجرين إليها، حتى إذا بلغ موضعا يقال له «برك الغماد» لقيه ابن الدغنة وهو سيد القبيلة، فقال له إلى أين يا أبا بكر؟ وعلام تترك مكة؟ فقال: أخرجنى قومى لأنى أعبد الله، فأردت أن أسيح فى الأرض، فقال ابن الدغنة: مهلا مهلا فإن رحيلك عن مكة خسارة كبرى للفقراء والمساكين. وسأخبر القوم أنك فى جوارى فلا يعترضك أحد، فرجع معه إلى مكة لما يعرف من مكانته فى قريش، ونهض ابن الدغنة فقال للناس أبو بكر فى جوارى ولن يؤذيه أحد بعد اليوم، فقال قائلهم: ولكنه يصلى بالمسجد بصوت يفتن الناس، فقال ابن الدغنة سيصلى فى منزله، وقد امتنع فعلا وجعل يصلى بمنزله بصوت مرتفع يتلو كتاب الله ، ويتهافت الشبان على سماعه، فاشتكى المشركون إلى ابن الدغنة، فجاء إلى مكة. وحاور أبا بكر، فقال له فى صراحة: لقد رددت عليك جوارك وسأرضى بجوار الله، فنفض ابن الدغنة يده، واستمر أبو بكر على تقواه، ووقاه الله كل مكروه.

أما صحبته لرسول الله يوم الهجرة، فهى

من الشهرة بمكان. وقد أعد أبو بكر راحلتين تأهباً لها، وحين فسدت مؤامرة المشركين على اغتياله طاش صوابهم وخفوا إلى منزل أبى بكر، بقيادة أبى جهل. فلم يجدوا شيئا، وتقدم أبو جهل من أسماء يسألها عن أبيها، فقالت: لا أعلم شيئا، فرفع يده ولطمها لطمة أطارت قرطها ورجع خائبا، وحديث الهجرة ذائع مشتهر فلا نفيض فيه، ولكننا نذكر منه حرص أبى بكر على سلامة رسول الله إذ تقدم إلى الغار قبله حتى لا يكون به حيوان مفترس، ووجد به شقاً، فجعل يمزق من ثيابه ويسد الفتوق فى الجدران، وأكرم الله الصاحبين فخرجا بسلام بعد أن مكثا بالغار ثلاثة أيام.

وفى المدينة كان أبو بكر من أقرب الناس إلى صاحبه، واشتهر بشجاعته الفائقة فى الغزوات فكان فى غزوة بدر يقوم حارساً لعريش رسول الله يقف بسلاحه ومعه السيف والسهام، ويرى المعركة عن كثب ويدخل على الرسول مشجعا، ولم يكن يبذل قوته فحسب، بل كان يبذل ماله حين يدعو الداعى إلى التبرع، وفى بعض الغزوات تبرع عمر بن الخطاب بمال كثير، فقال له الرسول: ماذا أبقيت لأهلك، فقال أبقيت لهم النصف، ثم جاء أبو بكر بما تبرع به فسأله الرسول: ماذا أبقيت لأهلك فقال : أبقيت لهم الله ورسوله ! فتبسم عمر - رضى الله عنه، - وقال: أبو بكر السابق فى كل شئ.

وفى يوم الحديبية لم يكن عمر على رأى رسول الله فى اتجاهه إذ تقدم إليه قائلاً يا رسول الله ألسنا على الحق وهم على الباطل فعلام نعطى الدنية فى ديننا فقال له إنى رسول الله ولن يضيعنى، فمضى عمر إلى أبى بكر، فأعاد ما قاله لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال له أبو بكر: إنه رسول الله يا عمر فاستمسك برأيه ولا تخالفه، وأقنعه بما رآه فى حديث يطول، ومازال المستشار الأول لرسول الله فى معاركه الحربية وآرائه السلمية، فبلغ مبلغ التقدير من العامة والخاصة عن يقين!

وحين مرض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مرضه الأخير جاء بلال فأذَّن للصلاة، فقال رسول الله: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس فقالت عائشة: إن أبا بكر رجل أسيف شديد البكاء، وإنه إذا قام مقامك سيغلبه البكاء ولا يسمع الناس، فأصر الرسول على رأيه، ولما نهض أبو بكر للصلاة وجد الرسول فى نفسه خفة فجاء يمشى معتمداً على رجلين، وحين رآه أبو بكر ذهب يتأخر عن موضعه كى يؤم الرسول صحابته فأشار إليه أن أقم مكانك، وأد الصلاة. ورسول الله يصلى جواره جالسا.

ثم حانت الوفاة ولكل أجل كتاب، فكان الخبر موضع فزع للمسلمين جميعا، حتى إن

عمر بن الخطاب تحيَّر فى الأمر، وصاح بالناس، لم يمت رسول الله، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، وكان أبو بكر غائبا خارج المدينة، فعجل بالحضور وسمع حديث عمر فقال له: على رسلك ثم أتجه إلى المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم، قال: أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، ثم تلا قول الله ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا** ﴾ (آل عمران: ١٤٤) فكأن الناس لم يسمعوا هذه الآية من قبل، قال عمر والله ما سمعت أبا بكر ينطق بهذه الآية حتى سقطت على الأرض، ما تحملنى قدماى.

ثم تلا هذا الموقف موقف "المبايعة" حيث أراد الأنصار تولية سعد بن عبادة، وأراد المهاجرون أن يكون خليفة رسول الله منهم، وطال الجدل حتى انتهى الأمر باختيار أبى بكر، وقد بايعه عمر أولا فتتابع المسلمون وقام الخليفة فألقى كلمة جامعة لاتزال دستورا لكل خليفة إسلامى. إذ قال: «أيها الناس إنى وليت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى حتى أخذ له حقه، والقوى فيكم ضعيف حتى أسترد منه الحق، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيتهما فلا طاعة لى عليكم».

وأول أعماله الحاسمة إنفاذه جيش أسامة الذى هيَّأه رسول الله لغزو الروم بقيادة أسامة ابن زيد، وبينما الناس يبدءون الرحيل وفيهم عمر بن الخطاب إذ جاء الخبر بمرض رسول الله، فانتظر أسامة بالجيش حتى تمت البيعة لأبى بكر، وكانت بوادر الردة قد ظهرت بين بعض العرب فانقلبوا كفاراً بعد إيمان، فرجع عمر بأمر أسامة إلى أبى بكر يقول له: إن بعض العرب قد أظهروا الردة، وذهاب الجيش بصفوة المسلمين قد يبعد الخليفة عمن يحتاج إليهم فى قمع المرتدين. فقال أبو بكر لو علمت أن السباع ستنهشنى ما حللت لواء عقده الرسول، فقال عمر: إن الأنصار أمرونى أن أبلغك، وهم يطلبون أن تولى رجلاً أقدم سنا من أسامة فوثب أبو بكر، وكان جالسا، وأخذ بلحية عمر، وقال: ثكلتك أمك يابن الخطاب أتريد لى أن أخالف ما قام به رسول الله، لقد استعمل أسامة أأرُده، ثم نادى المنادى لا يبقين أحدٌ من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره، ونهض الخليفة مشيعا الجيش ماشيا فقال أسامة : يا خليفة رسول الله والله لتركبن. فقال أبو بكر والله لا أركب، وما علىَّ أن أغبر قدمى ساعة فى سبيل الله، وما قفل الجيش حتى

جاءت الأنباء بارتداد العرب إلا قريشا وثقيفا.

لقد ارتدت العرب لأمور مختلفة منها: تطلع شيوخ القبائل إلى مكانة عالية مثل مكانة الخليفة فى المدينة ومنها: ضيقهم الشديد بما فرضه الإسلام من قيود تمنع عبث الجاهلية، فتحرم السلب والنهب، وتنهى عن الزنا والربا والخمر، وتحفظ الحقوق والحرمات، وكان هذا التذمر خافياً لدى بعض القبائل فى حياة الرسول؛ بل إن بعض القبائل قد أظهرته علناً قبل وفاته، فادعى النبوة أمثال مسيلمة، وطلحة بن خويلد الأسدى ولفق كل منهما على قومه أكاذيب مفتراه.

ولم تقتصر الفتنة على الشمال بل شملت الجنوب حين ادعى الأسود العنسى الساحر نبوته وأتى بشعوذات موَّه بها على اليمنيين وانتشر له ذكر فى عهد رسول الله. ثم استفحل أمره بعد وفاته وانتهى مصيره على يد زوجته التى كانت تعلم كذبه وخيانته

هذه التيارات العاصفة احتدم خطرها بمجرد خلافة أبى بكر مع خطر أخر هو تحفز الروم لقتال المسلمين، وكان موقف أبى بكر والمسلمين فى غاية الحرج، وفيهم قلة رأت الاستسلام للواقع لأن المسلمين لا يقدرون على مواجهة هذه الأخطار المتلاحقة من كل صوب فى وقت واحد، ودار حوار جاد بين القوم، ولكن عزيمة أبى بكر قد قضت على الخلاف حتى صاح بعمر حين طالبه بالتأنى وعدم المبادرة بالقتال: لقد رجوت نصرتك يا عمر، أجبار فى الجاهلية، وخوَّار فى الإسلام؟ والله لو منعونى عقال بعير كان يؤدى لرسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه. وقد اشترك فى الحروب الطاحنة أبطال مغاوير، وبلغت الفرق الحربية التى توجهت إلى المرتدين إحدى عشرة فرقة بقيادة الشجعان من شباب الإسلام وكهوله مثل خالد بن الوليد وعكرمة ابن عمرو بن هشام، والمهاجرين أمية، وحذيفة ابن محصن، وعرفجة بن هرثمة، وسويد بن مقرن، وعمرو بن العاص، وخالد ابن سعيد وغيرهم والحق أن هؤلاء المجاهدين قد صدقوا الله وعده فتم لهم النصر وخمدت روح البغى وسلم الإسلام من شر خطير.

ثم، رأى أبو بكر أن يتجه إلى الفتوح الإسلامية بعد نجاح الأبطال فى معركة الردة، وأول ما بدأ به هو فتح العراق حيث تهيأت الأسباب الداعية إليه بما قام به المثنى ابن حارثة من غارات عربية على الفرس تم فيها النصر على يده، وطلب العون من الخليفة فاقتنع باتجاهه، وأستدعى خالد بن الوليد من اليمامة وأمره بالمسير إلى المثنى، وكذلك استدعى عياض بن غنم وهو فارس

مغوار فتوجه إلى فارس، وبدأت المعارك بالنصر كما انتهت، مما سجلته صحف التاريخ.

وكان التقدم فى حرب فارس داعياً للتفكير فى غزو الشام، وللمسلمين خبرة ببلادها فى عهد الرسول فوجه الكتائب لذلك بقيادة يزيد ابن أبى سفيان، وسهيل بن عمرو، وخالد بن الوليد وغيرهم، وليس المجال هنا تفصيل وقائعهم الباهرة فلها مكانتها من صحف الخالدين.

وحين استشهد كثير من القراء يوم اليمامة خاف أبو بكر أن يضييع الكتاب بوفاة حفاظه فاستشار المسلمين حيث انتهى الرأى إلى جمع الآيات الكريمة، وندب لذلك كاتب الوحى زيد بن ثابت فنهض بالعمل، وجمع من الصدور والرقاع ما تم به الكتاب الكريم على نحو جامع، ثم عرض ما جمع على الحفاظ من صحابة رسول الله. فكلهم أجمع على صحته وَدُوِّن الكتاب فى مصحف جامع ظل عند الخليفة فكان هذا هو العمل الأول السابق لعمل عثمان المجيد.

وحين لاحت نذر الموت، وأيقن أن أجله قريب، خاف على المسلمين أن تتفرق كلمتهم بعده حين يختلفون على ولى الأمر، فاستشار الصحابة فأجمعوا على عمر إلا عبد الرحمن ابن عوف، فقد قال هو والله الأفضل ولكن فيه شدة ووافقه طلحة، فقال أبو بكر: لقد كان يتشدد لأنه يعلم أنى سألين، فوافقا، وكتب العهد بذلك، وحين انتقل إلى رحمة الله بايع المسلمون عمر دون أن يتخلف أحد.

أما أخلاقه فقد تجلت فى مطالعة أخباره إذ منها : الرفق والحزم، والانصياع إلى الحق حين وضوحه، والجود الغامر بالمال عند العسرة، والإيمان الصادق الجازم بكل ما يقوله الرسول ويفعله . مع تجاوز عن المسيء فى غير حد الله، وقد كتب بذلك صحيفة للقدوة المثالية فى الإسلام، وقد اشتد عليه المرض فلقى ربه ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخر فى السنة الثالثة عشرة من الهجرة، الموافق ٦٣٤م، ومدة ولايته سنتان وثلاثة أشهر وبضعة أيام، رحمه الله وأجزل له المثوبة والغفران .

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ ـ كتب التراث من أمثال تواريخ الطبرى وابن الأثير وابن كثير وطبقات الصحابة

٢ ـ الصديق أبو بكر للدكتور محمد حسين هيكل .

٣ ـ أبو بكر الصديق لعلى الطنطاوى.

٤ ـ عبقرية الصديق لعباس محمود العقاد.

٥ ـ أشهر مشاهير رجال الإسلام لرفيق العظم.

٦ ـ الخلفاء الراشدون لعبد الوهاب النجار.

٧ ـ المحاضرات الإسلامية للشيخ محمد الخضرى.

٨ ـ الأعلام للزركلى ج٤ / ١٠٢

البلاذرى
ت ٢٧٩ هـ = ٨٩٢م

البلاذرى هو اللقب الذى اشتهر به الجغرافى والمؤرخ وعالم الأنساب المشهور أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر بن داود. وهو منسوب إلى ثمرٍ يعرف بالبلاذر، تناول منه البلاذرى فى آخر عمره على غير معرفة بحقيقته فلحقه أذى بسبب ذلك.

لا تحدد مصادرنا التاريخ الدقيق لمولده، ولكن بعض الباحثين يرى أنه ولد فى أواخر القرن الثانى الهجرى. وقد ارتبطت نشأته ببغداد فعرف بالبغدادى واتصل بعدد من خلفاء بنى العباس من بينهم المأمون الذى مدحه بمدائح، كما كان مقربا لدى الخليفة المتوكل، وعهد إليه الخليفة المعتز بتربية ولده عبد الله، وتوفى سنة ٢٧٩ هـ الموافق ٨٩٢م، فى أواخر خلافة المعتمد على الله.

كانت بغداد فى عصر البلاذرى أهم مركز ثقافى فى العالم الإسلامى، وقد أتاحت له نشأته فى هذه المدينة الزاهرة أن ينهل ما شاء من معارفها. وكان له اهتمام خاص بالتاريخ والأنساب والحديث، هذا فضلا عن حبه للأدب وممارسته لكتابة الشعر. ولم يكتف البلاذرى بما حصَّله من العلم فى بغداد فتطلع إلى الرحلة رغبة فى الاستزادة. وكانت الشام من أهم البلاد التى رحل إليها حيث تنقل بين مدنها المختلفة كدمشق وحلب وحمص وغيرها، يلقى العلماء ويسمع منهم، كما رحل إلى بلاد الجزيرة فى شمال العراق (بلاد ما بين النهرين)، وزار الحجاز وبلاد فارس وعاين مواقع الأحداث التاريخية بنفسه وكان البلاذرى يجيد اللغة الفارسية وكان أحد من أسهموا فى حركة الترجمة من الفارسية إلى العربية.

ومن أهم شيوخ البلاذرى أبو عبيد القاسم بن سلام المؤرخ والفقيه المشهور، صاحب كتاب «الأموال» الذى يعد حجة فى موضوعه. ومن شيوخه البارزين أيضا محمد بن سعد كاتب الواقدى صاحب كتاب «الطبقات الكبرى» الذى تناول فيه سيرة الرسول ﷺ وتراجم الصحابة، ومن بينهم كذلك ابن أبى شيبة (عبد الله بن إبراهيم العبسى الكوفى)،

وقد استوطن بغداد، وله عدد من المصنفات التاريخية من بينها كتاب صفين، وكتاب الجمل، وكتاب الفتوح.

ومن كبار المؤرخين الذين تتلمذ عليهم البلاذرى على بن محمد المدائنى صاحب الإنتاج الغزير فى التاريخ الإسلامى والفتوحات. والمصعب الزبيرى، المؤرخ النسابة الحجة، وهو صاحب كتاب «نسب قريش».

أما تلاميذه فهم كثيرون، ولعل من أشهرهم عبد الله المعتز صاحب كتاب «طبقات الشعراوى»، وابن النديم صاحب كتاب «الفهرست»، وجعفر بن قدامة صاحب كتاب «الخراج»، ووكيع: القاضى والفقيه المعروف.

كتب البلاذرى عددا من المصنفات من بينها كتاب البلدان الصغير، وكتاب البلدان الكبير، ولكنه لم يتمكن من إتمامه. كما ترجم «عهد أردشير» من الفارسية إلى العربية شعرا. على أن شهرته التاريخية قامت على أساس كتابين مازالا يمثلان أهمية قصوى للمشتغلين بالدراسات التاريخية، وهما: كتاب «فتوح البلدان»، وكتاب «أنساب الأشراف».

أما كتاب «فتوح البلدان» فقد يمكننا إدراجه فى إطار كتب الجغرافيا التاريخية، وإن كان الجانب التاريخى عليه أغلب. ويُعَدُّ كتاب فتوح البلدان أهم مصدر أمام الباحثين فى تاريخ الفتوح الإسلامية منذ بدايتها فى عصر النبوة حتى عصر المؤلف وهو النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ويقدم الكتاب عرضا مُركَّزا موثَّقا بالغ القيمة للفتوح الإسلامية فى أهم فترات اتساعها فى العصرين الراشدى والأموى. ثم إنه يقدم عددا كبيرا من نصوص المعاهدات وعقود الصلح التى أبرمها المسلمون مع غيرهم. وفى ثنايا الكتاب نجد معلومات مفيدة عن بعض الشئون الاقتصادية والاجتماعية والإدارية فى الدولة الإسلامية؛ فهو يتحدث عن نشأة النقود الإسلامية، وعن أرض الخراج، وعن الأحوال الاجتماعية لأهل الثغور، وعن ديوان الخاتم وغير ذلك مما يتصل بالجوانب الحضارية لدولة الإسلام. ورغم أن البلاذرى يستخدم الإسناد فى الكثير من رواياته فى هذا الكتاب فإنه يتحاشى التطويل فيه ويقدم خلاصة الخبر بأسلوب واضح. وقد أدرك المستشرقون أهمية هذا الكتاب، فقام دى ويه de Goeje بنشره فى ليدن سنة ١٨٦٦م، كما طبع فى القاهرة وبيروت وغيرهما عدة مرات.

وأما كتاب «أنساب الأشراف» فهو يُضَاهى فى الأهمية كتاب «فتوح البلدان». وهو ليس كتابا فى الأنساب بالمعنى الضيق للكلمة ولكنه

كتاب فى التاريخ يقوم على الأنساب. والكتاب موسوعة تتألف من عدة أجزاء.وقد طبع الجزء الأول فى القاهرة منذ عدة عقود بتحقيق الباحث الهندى محمد حميد الله. والجدير بالملاحظة أن «الأشراف» فى هذا العنوان: «أنساب الأشراف» لا يقصد بهم هؤلاء الذين ينتمون إلى أهل بيت رسول الله ﷺ بل السادة النبلاء الأماجد. وقد تحدث البلاذرى عن أنسابهم، وذكر ما يتصل بهم من أخبار تاريخية.

والجزء الأول من كتاب «أنساب الأشراف» يكاد يكون مقصورا على السيرة النبوية، فهو يتحدث عن نسب رسول الله ﷺ وعن حياته فى مكة قبل البعثة وبعدها، وعن الهجرة إلى المدينة وحياته فى المرحلة المدنية وكل ما يتصل بتطور الدعوة الإسلامية خلال تلك المرحلة، وينتهى الجزء الأول باجتماع السقيفة، وبيعة أبو بكر، وبعض ما قيل عن شعر فى رثاء رسول الله ﷺ. ثم يمضى فى بقية الأجزاء بعد ذلك فيتقصى نسب بطون قريش، ثم يشرع فى الحديث عن قبائل قيس ومن بينها ثقيف التى يترجم لبعض رجالها كعروة بن مسعود، والمغيرة بن شعبة، والحجاج ابن يوسف. ولكنه ينتهى من كتابه قبل أن ينتهى من الحديث عن ثقيف. ولم يترجم البلاذرى فى كتابه لقبائل ربيعة أو القبائل اليمنية والراجح أن خطة الكتاب الأصلية كانت أوسع مدى مما هى عليه الآن.

والبلاذرى فى رواياته التى أوردها فى أنساب الأشراف لا يميل مع الهوى رغم اتصاله المباشر بالبلاط العباسى، فهو يلتزم الموضوعية والحياد العلمى، وهذا أمر يذكر له بما يستحقه من التقدير.

أ. د. عبد الرحمن سالم

مراجع الاستزادة :

١ ـ ابن كثير (أبو الفداء عماد الدين إسماعيل) : البداية والنهاية، ج١١. بيروت، دار الكتب العلمية: ١٩٨٥م.

٢ ـ ابن النديم (محمد): الفهرست. بيروت، دار المعرفة (دون تاريخ).

٣ ـ بيكر C.H. Becker : مادة «البلاذرى» فى دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية. القاهرة، دار الشعب، جـ٧ (دون تاريخ).

٤ ـ رضوان محمد رضوان: حياة البلاذرى. مقالة منشورة فى مقدمة كتاب فتوح البلدان للبلاذرى: بيروت، دار الكتب العلمية: ١٩٩١م

٥ ـ شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمورخون، جـ١. بيروت، دار العلم للملايين ١٩٨٣م

٦ – للمزيد حول شيوخ البلاذرى وتلاميذه راجع: رضوان محمد رضوان: المرجع السابق، ص ٨ ـ٩.

بهاء الدين العاملى
(٩٥٣ - ١٠٣١هـ = ١٥٤٧ - ١٦٢٢م)

ولد بهاء الدين العاملى بجبل عامل بلبنان عام ٩٥٣هـ = ١٥٤٧م، نبغ فى الفلسفة والتاريخ والتنجيم والمنطق والفقه، وتفوق فى الرياضيات خاصة الجبر والمتواليات، ترك الكثير من المؤلفات فى الآداب والفلك والرياضيات والبيئة، ساعده على ذلك كثرة ترحاله وزيادة أقطار العالم الإسلامى آنذاك.

زار مصر وسوريا والحجاز، واستقر بأصفهان نظرًا لحفاوة وتكريم وسخاء الشاه عباس حاكم الدولة الصفوية له، ولم يقبل منصب رئاسة العلماء الذى عرضه عليه حبا ورغبة فى التفرغ للعلم والمعرفة.

وتوفى العاملى سنة ١٠٣١هـ = ١٦٢٢م.

وقد استطاع بهاء الدين العاملى أن يحقق الاتصال والوصال بين من سبقوه ومن لحقوا به، ومن أهم مؤلفاته كتاب «خلاصة الحساب»، يتكون من مقدمة وعشرة أبواب، وقد استعمل العاملى الأرقام الهندية التى تستعملها أغلب الأقطار العربية.

الباب الأول من ستة فصول، هى: الجمع والتصنيف والتفريق (الطرح) وفى الضرب والقسمة وفى استخراج الجذور.

الباب الثانى فى الكسور أصولها ومعناها، وكيفية إيجادها، وجعل الصحيح كسورا من جنس معين. وتناول أيضا جمع الكسور وتضعيفها وتفريقها وضربها وقسمتها.

وفى الأبواب الثالث والرابع والخامس يتناول العاملى بحوثا فى استخراج المجهولات بطرق مختلفة فى الجبر والحساب.

ويحتوى البابان السادس والسابع على مقدمة فى المساحة، وتعريفات السطوح والأجسام.

كما إنه توسع فى معالجة بحوث النسبة العددية والهندسية والتأليفية، وأظهر براعة فى موضوعات التناسب وكيفية استخراج المجهول، وهناك الكثير من التطبيقات فى عمليات تتعلق بحاجة العصر الذى عاشه بهاء الدين العاملى، لا سيما المعاملات التجارية، والصدقات، وتوزيع الميراث، وإجراء الغنائم ورواتب الجيوش.

اما الأبواب الأخيرة فتتناول مساحات المثلث والمربع والمستطيل والمعين والأشكال الهندسية متعددة الأضلاع. كما يتناول مساحة الدائرة والأسطوانة والمخروط التام والناقص والكرة، ووسائل معرفة ارتفاع الجبال، وعرض الأنهار وأعماقها، ووزن الأرض.

ووضع تعاريف لكلمتى الجبر والمقابلة، ويتسم كتاب العاملى بالسهولة والجذب والسلاسة، وقد طبع هذا الكتاب فى كلكتا بالهند عام ١٨١٢م، وفى برلين عام ١٨٤٣م، وترجم إلى الفرنسية عام ١٨٦٤م.

وكان بهاء الدين العاملى يرى أن البلاغة فن ملازم للأدب العربى منذ مولده قبل البعثة النبوية بنحو قرنين من الزمان، فهى فى شعر العرب، وخطبهم، ووصاياهم، وحكمهم، وأمثالهم، وأن البلاغة من العلوم التى لم يطرد عليها تطور يذكر منذ استقرت بشكل نهائى على يد يعقوب السكاكى فى أوائل القرن السابع الهجرى، فعلوم البلاغة الثلاثة: المعانى، والبيان، والبديع ظلت على نفس الصورة التى تركها السكاكى ومدرسته، والفنون التى تندرج تحت كل علم من هذه العلوم لا تزال فى مجملها على النحو الذى حدده السكاكى وتلامذته، ولقد ساهمت فى نشأة العلوم البلاغية ثلاثة علوم، هى: العلوم القرآنية، والعلوم الأدبية، والعلوم اللغوية.

واهتم العاملى بقوانين المساحات والحجوم وكثير من المبادئ الحسابية، كما اكتشف قانونًا لجمع الأعداد المفردة حسب تسلسلها الطبيعى، وقانونًا آخر لجمع الأعداد الزوجية، كما ابتدع أسلوبًا سماه الميزان الرياضى، الذى استخدمه نيوتن فى القرن السابع عشر، ومنه ابتكر أسلوب التفاضل والتكامل، وقد علق ذلك المؤرخ الرياضى الإنجليزى «بول» Ball، بقوله: إن العقل يدهش عندما يرى ما صنفه العاملى.

ومن مؤلفاته العديدة :

الكشكول. مطبوع.

المخلاة. مطبوع.

جبر الحساب، بدأ فى كتابته ولم يتمه، وبه الكثير من البراهين للنظريات الهندسية وقوانين المساحات والحجوم والمبادئ الحسابية، وطرق حل المشاكل الصعبة والمعقدة.

خلاصة الحساب.

رسالة فى وحدة الوجود.

كتاب تشريح الأفلاك.

كتاب عن الحياة (يتحدث فيه عن البيئة وارتباطها بحياة الكائنات على وجه الأرض).

رسالة فى تحقيق جهة القبلة.

رسالة عن الكرة.

الرسالة الأسطوانية.

الملخص فى الهيئة.

رسالة فى الجبر وعلاقته بالحساب.

كتاب ملخص الحساب والجبر والمساحة.

كتاب حاشية على أنوار التنزيل.

مفتاح الفلاح.

تهذيب النحو.

أسرار البلاغة.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١ - حاجى خليفة: كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون.

٢ - الزركلى: الأعلام ١ / ١٠٢.

٣ - قدرى طوقان: تراث العرب العلمى.

٤ - عبد الفتاح غنيمة: تاريخ العلوم عند العرب.

البوصيـــرى
(٦٠٨ - ٦٩٦هـ = ١٢١٢ - ١٢٩٦م)

هو أبو عبد الله: محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصرى، وكنيته: شرف الدين، أبو عبد الله. صاحب «البردة والهمزية» فى مدح خاتم الأنبياء ﷺ وأحد أعلام القرن السابع الهجرى.

ونسبته إلى «صنهاجة» إحدى قبائل البربر المقيمة فى صحراء جنوبى المغرب.

ونسبته إلى «بوصير» إحدى قرى محافظة بنى سويف التى نشأ بها، وحفظ القرآن الكريم فى صغره.

ولد رحمه الله فى أول شوال سنة ٦٠٨هـ = ١٢١٢م فى قرية «دلاص» إحدى قرى محافظة بنى سويف، حيث كان أحد أبويه من «بوصير» والآخر من «دلاص».

ثم انتقل إلى القاهرة لطلب العلم، وتعلم العلوم الشرعية والعربية، وأتقن الأدب والشعر، فقال الشعر البليغ فى جدّه وهزله، ونظم من جزله ومرذوله، وفصيحه وعامّه، وكتب الرسائل البليغة، واتخذ الدواوين صناعة له، وتقلد عدة وظائف فى القاهرة والأقاليم بالشرقية والإسكندرية إلى أن توفى بها سنة ٦٩٦هـ = ١٢٩٦م ودفن فيها وقبره مشهور يزار حتى الآن وبه مسجد تقام فيه الشعائر والصلوات.

ويمتاز شعره بالرصانة والجزالة وحسن استعمال البديع فى مدائحه النبوية إلاَّ أنهُ لم يحفل بهذه المزايا فى غيرها فجارى شعراء زمانه فى أسلوبهم حتى فى استعمال بعض الألفاظ المولدة والأهاجى المقذعة، ثم تنسك وتصوف.

ومن شعره قصيدة البردة الشهيرة التى وقع الإجماع على أنها أفضل مدائح الرسول ﷺ بعد بانَتْ سُعادُ ونحوها من مدائح الصحابة؛ قيل: إنهُ فلِج فنظمها فى مرضه وتوسَّل بها إلى رسول الله ﷺ فشُفِىَ من مرضه.

وأوَّلها:

أمِنْ تَذَكُّرِ جيرانٍ بذى سَلَمِ
مَزَجْتَ دَمْعاً جرَى من مُقْلَة بدَمِ

ومن حكمها البديعة المشوبة بمحاسن البديع قوله:

والنفس كالطفل إن تُهْمِلْهُ شبَّ على

حُب الرَّضاع وإن تفْطِمْه ينفطم

فاصرفْ[1] هواها وحاذرْ أن تُولّيه

إن الهوى ما تولّى يُصْمِ[2] أو يَصِمِ

وراعِها وهى فى الأعمال سائمة[3]

وإن هى استحلتِ المرعى فلا تسمِ

كم حسّنَتْ لذةً للمرء قاتلة

من حيث لم يدر أن السُّم فى الدَسَمِ

واخش الدسائس من جُوع ومن شبعِ

فرُبَّ مَخْمَصَةٍ شرٌّ من التخمِ

واستفرغِ الدمعَ من عيْن قد امتلأتْ

من المحارمِ والزمْ حِمْيةَ الندمِ

وقد اتخذ شعراء المدائح النبوية هذه القصيدة نموذجاً ينسِجون على مِنْواله فكانت من أقوى الأسباب التى حملت شعراء هذا العصر وما يليه على الإكثار من المدائح النبوية، وكذلك اتخذها أصحابُ البديعيات مثالاً يحتذونه فعارضوها بقصائدهم وزنا وقافية فلم يَلْحقوا لصاحبها غبارا.

وقصيدة البوصيرى الهمزية فى مدح النبى ﷺ لا تقلُّ عن البردة فى فصاحتها، وأوَّلها :

كيف تَرقَى رُقِيّك الأنبياءُ

يا سماءً ما طاولَتها سماءُ

لم يساووك فى عُلاك وقد حال

سنىً منك دونَهم وسناءُ

وله قصيدة أُخرى على وزن بانت سعاد، وأولها:

إلى متَى أنت باللذات مشغولُ

وأنت عن كل ما قدّمت مسئول

إلى غير ذلك من القصائد التى تعبر عن حبه للنبى ﷺ وبلاغته وقوة بيانه، رحمه الله رحمة واسعة.

أ.د. ضاحى عبد الباقى

الهوامش:

١ - الصرف فى عرف زمانهم العزل عن الحكم ضد التولية.

٢ - جواب (ما) الشرطية، أى ما تولى منه من أصبت الصيد إذا قتلته وأنت تراه أو (يصم) من وصم العدد إذا صدعه أو من الوخم بمعنى العيب.

٣ - يلمح إلى ما يستعمل فى رعلى الإبل.

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى جـ ٦/١٣٩.

٢ - الوافى بالوفيات جـ ٣/ ١٠٢.

٣ - مفتاح السعادة جـ ١/ ٢١١.

٤ - طبقات الشاذلية الكبرى للحسن بن محمد الكوهن ص ٨١.

٥ - الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه للأستاذ أحمد الإسكندرى، ومصطفى عنان.

البيضـــاوى
(٠٠٠ - ٦٩١هـ = ٠٠٠ - ١٢٩٠م)

هو الشيخ الإمام قاضى القضاة ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد ابن على، البيضاوى الشافعى.

ولد فى مدينة البيضاء بفارس قرب شيراز فى جنوب إيران، وبها كانت نشأته العلمية الأولى وبها تخرج فى الفقه والأصول والمنطق والحكمة والكلام والأدب، وبرع فى الأصولين، وضم علوم العربية والأدب إلى علوم الشريعة والحكمة، ولى قضاء شيراز مدة. وهو صاحب المصنفات، وعالم أذربيجان وشيخ تلك الناحية. وقال السبكى: كان إماما مبرزًا، نظارا، خيرا صالحا متعبدا وتوفى بشيراز سنة إحدى وتسعين وستمائة.

قال الداودى: دخل تبريز وناظر بها وصادف دخوله إليها مجلس درس قد عقد بها لبعض الفضلاء فجلس فى أخريات القوم بحيث لم يعلم به أحد، فذكر المدرس نكتة زعم أن أحدا من الحاضرين لا يقدر على جوابها، وطلب من القوم حلها والجواب عنها، فشرع البيضاوى فى الجواب، فقال له: لا أسمع حتى أعلم أنك فهمتها، فخيره بين إعادتها بلفظها أو معناها، فبهت المدرس، وقال: أعدها بلفظها. فأعادها ثم حلها، وبين أن فى تركيبه إياها خللاً، ثم أجاب عنها، وقابلها فى الحال بمثلها، ودعا المدرس إلى حلها فتعذرت عليه، فأقامه الوزير من مجلسه، وأدناه إليه، وسأله من أين ؟ فأخبر بأنه البيضاوى، وأنه جاء فى طلب القضاء فأكرمه وخلع عليه فى يومه، ورده وقضيت حاجته.

وتوفى سنة ٦٩١هـ الموافق ١٢٩م.

وقد اشتهر البيضاوى بتفسيره المسمّى :

«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» «مختصر الكشاف».

وهو تفسير متوسط الحجم، جمع فيه بين التفسير والتأويل، على مقتضى قواعد اللغة العربية، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.

وقد اختصر البيضاوى تفسيره من الكشاف للزمخشرى، ولكن ترك ما فيه من

اعتزالات، وإن كان أحيانا يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف.

كما أنه وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره فى نهاية كل سورة حديثا فى فضلها، وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله - عز وجل - وقد عرفنا أنها موضوعة باتفاق أهل الحديث، ولست أعرف كيف اغتر بها البيضاوى فرواها، وتابع الزمخشرى فى ذكرها عند كل سورة فى آخرها، مع ما له من مكانة علمية وقد اعتذر بعض الناس، وإن كان اعتذارا ضعيفا لا يكفى لتبرير هذا العمل الذى لا يليق بعالم كالبيضاوى له قيمته ومكانته.

وكذلك استمد تفسيره من التفسير الكبير للفخر الرازى وتفسير الراغب الأصفهانى، وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين، كما أنه أعمل فيه عقله. فضمنه نكتاً بارعة ولطائف رائعة، واستنباطات دقيقة، كل هذا فى أسلوب رائع موجز، وعبارة تدق أحياناً وتخفى إلا على ذى بصيرة ثاقبة، وبصيرة نيرة.

وهو يهتم أحيانا بذكر القراءات، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها، فيذكر الشاذ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية، ولكن بدون توسع واستفاضة - كما يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع واستفاضة. وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالبا إلى تأييد مذهبه وترويجه ممثلا عند تفسير قوله تعالى ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾ يقول ما نصه: «وقروء جمع قرء وهو يطلق على الحيض كقوله - صلى الله عليه وسلم: «دعى الصلاة أيام أقرائك». وللطهر الفاصل بين الحيضتين كقول الأعشى:

مورثة مالاً وفى الحى رفعة

لما ضاع فيها من قروء نسائكا

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض عما قاله الحنفية لقوله تعالى: ﴿ **فطلقوهن لعدتهن** ﴾ أى وقت عدتهن، الطلاق المشروع لا يكون فى الحيض.

وكذلك نجده كثيراً ما يقرر مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع فيهم ممثلاً عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ **ومما رزقناهم ينفقون** ﴾ سورة البقرة، نراه يتعرض لبيان الخلاف الذى بين أهل السنة والمعتزلة فيما يطلق عليه اسم الرزق. ويذكر وجهة نظر كل فريق مع ترجيحه لمذهب أهل السنة.

وأيضاً: مقل جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية، ويصدرها بروى أو قيل إشعاراً منه بضعفها.

١ - إنه تفسير جامع بين التفسير والتأويل على مقتضى القواعد الشرعية وقانون اللغة العربية.

٢ - يمتاز بالنكات البلاغية والألفاظ والتراكيب القوية.

٣ - قرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة.

٤ - صياغته صياغة محكمة دقيقة فى وضع الكلمة بميزان.

٥ - لقد نحى فيه منحى الإيجاز والتركيز.

٦ - مازال مشغلة الدارسين فى الجامعات أحقاباً من الزمان.

٧ - خلوه من النزعات الاعتزالية التى نفرت الكثيرين من الكشاف.

٨ - إنه من أمهات الكتب التى لا يستغنى عنها من يريد أن يفهم كلام الله ـ عز وجل ـ ويقف على أسراره ومعانيه.

٩ - كثرة الحواشى التى وضعت على هذا التفسير.

١٠ - اشتمل على خلاصة أقوال الأئمة وصفوة أقلام الأمة.

١١ - أنه كشف القناع عن وجوه محاسن الإشارة وملح الاستعارة.

هذا الكتاب رزق من عند الله - سبحانه وتعالى - حسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول فعكفوا عليه بالدرس والتحشية، فمنهم من علق على سورة منه، ومنهم من حشى تحشية تامة ، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه.

ثم عد من هذه الحواشى ما يزيد عدده على الأربعين وأشهرها:

١ - حاشية قاضى زادة.

٢ - حاشية الشهاب الخفاجى وهى ديوان علم وأدب.

٣ - حاشية القونوى.

٤ - حاشية سعد أفندى.

٥ - حاشية الروشنى.

٦ - حاشية الششترى.

٧ - حاشية الشيروانى.

٨ - حاشية السمرقندى على تفسير الفاتحة.

٩ - حاشية الإسفراايينى على جزء عم.

١٠ - حاشية ابن أمير خان على سورة الملك.

وقد قام الشيخ عبدالرؤوف المناوى بتأليف «الفتح السماوى فى تخريج أحاديث البيضاوى.

مؤلفاته:

وقد تكلم الأئمة بالثناء على مصنفاته ومنها:

١ - مختصر الكشاف.

٢ - المنهاج فى الأصول، وشرحه أيضا «منهاج الوصول فى علم الأصول».

٣ - مختصر ابن الحاجب فى الأصول.

٤ - شرح المنتخب فى الأصول.

٥ - شرح المطالع فى المنطق.

٦ - نظام التواريخ.

٧ - الإيضاح فى أصول الدين.

٨ - الغاية القصوى فى الفقه

٩ - رسالة فى موضوعات العلوم وتعاريفها.

١٠ - الطوالع فى الكلام. «طوالع الأنوار».

١١ - شرح الكافية لابن الحاجب.

١٢ - شرح المصابيح.

١٣ - لب اللباب فى علم الإعراب.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة :

١ - الأعلام للزركلى ٢٤٨/٤. ط المطبعة العربية ـ دار العلم للملايين ١٣٧٤هـ/١٩٢٨م ط ٢- بيروت.
٢ - الإسرائيليات والموضوعات لأبى شهبة ص ١٣٥.
٣ - التفسير والمفسرون للذهبى جـ ٢٩٧/١.
٤ - طبقات المفسرين للداودى ت جـ ٢٤٢/١ - ٢٤٣ ـ ط مطبعة الاستقلال الكبرى ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
٥ - ومقدمة فى أصول التفسير ص ٣١.
٦ - مناهل العرفان للنسخ الزرقانى جـ ٢ ص: ٦٧.
٧ - المقدمة لابن تيمية ص ٣١.

ابن البَيْطار
(٥٧٥ - ٦٤٦هـ = ١١٧٩ - ١٢٤٨م)

هو ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقى الأندلسى العشّاب، المعروف بابن البيطار، من كبار علماء النبات والطب، ولد فى مدينة «مالقة» الأندلسية سنة ٥٧٥هـ = ١١٧٩م، وكان والده بيطريًا، وتوفِّى ابن البيطار فى «دمشق» بسورية سنة ٦٤٦هـ = ١٢٤٨م.

درس فى «إشبيلية» أنواع النباتات والأعشاب على بعض العلماء، مثل: أبى العباس بن الرومية، وأبى الحجاج، وعبد الله بن صالح. قام برحلة علمية إلى المشرق مارا بالمغرب وتونس والجزائر وطرابلس وبرقة ومصر والحجاز وغزة والقدس وبيروت وأنطاكية والموصل، ثم ذهب إلى اليونان وإيطاليا وتركيا، والتقى خلال هذه الرحلة بمجموعة كبيرة من الأطباء وعلماء النبات، وقام بحصر أنواع الأعشاب والنباتات الطبية فى البلاد التى زارها. وقد استغرقت هذه الرحلة من حياة ابن البيطار أكثر من ثلاثين عاما، حقق خلالها شهرة عالية، ومكانة مرموقة أهّلته لأن يقربه الملك الكامل محمد ابن أبى بكر بن أيوب (ت ٦٣٥هـ = ١٢٣٨م) والملك الصالح نجم الدين أيوب (ت٦٤٧هـ = ١٢٤٩م) ويجعلاه رئيسا للأطباء والعشابين فى مصر عندما نزل بها.

وقد اتصف ابن البيطار بكل صفات الباحث الجيد لما تمتع به من ذكاء وخبرة واتساع معرفة، واتبع منهجًا تجريبيا فى الدراسة والبحث.

ومن أهم ما خلّفه ابن البيطار من مؤلفات علمية قيمة: كتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية»، وهو المعروف باسم «مفردات ابن البيطار» وهو أهم مؤلفاته، وقد سمّاه ابن أبى أصيبعة: «الجامع فى الأدوية المفردة». ويقع هذا الكتاب فى أربعة أجزاء. يقول المؤلف إنه وضعه تنفيذًا لرغبة الملك الصالح نجم الدين أيوب، يذكر فيه ماهيات الأدوية، وقوامها، ومنافعها، ومضارها، وإصلاح ضررها، والمقدار المستعمل من جرعها أو عصارتها أو طبيخها، والبدل منها عند عدمها.

وقد طبع هذا الكتاب عدة طبعات، منها: طبعة «بولاق» بالقاهرة سنة ١٢٩١هـ = ١٨٧٤م فى أربعة أجزاء فى مجلدين، ثم أعادت طبعه «بالأوفست» مكتبة «المثنى» ببغداد سنة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م. وقد ترجمه «لوكليرك» إلى الفرنسية وطبع بباريس سنة ١٢٩٤هـ = ١٨٧٧م. وأثنى «ول ديورانت» فى كتابه «قصة الحضارة» على ابن البيطار، وعدّ كتاباته من أعظم ما كتب فى علم النبات، وقال: «.. ويدل كتاب الجامع لمفردات الأدوية والأغذية على سعة العلم وقوة الملاحظة، وهو أعظم كتاب فى علم النبات».

- كتاب «الدرة البهية فى منافع الأبدان الإنسانية»، وهو اختصار للكتاب «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» السابق، وقد طبعته مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٣٤٨هـ = ١٩٢٩م، ومطبعة «خليل إبراهيم» بالإسكندرية سنة ١٣٥٨هـ = ١٩٣٩م.
- كتاب «المُغْنى فى الأدوية المفردة»، وقد تناول فيه أعضاء جسم الإنسان عضوا عضوا، مرتبة على حروف المعجم، ذاكرًا طريقة علاجها بالعقاقير فى حالة المرض.
- كتاب «ميزان الطبيب».
- كتاب «الإبانة والإعلام بما فى المنهاج من الخلل والأوهام»، وقد نقد فيه كتاب «منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان» لابن جزلة (ت٤٩٣هـ = ١١٠٠م)، وهو يظهر رؤيته النقدية المميزة لمنهجه العلمى فى البحث والتأليف العلمى.
- كتاب «الأفعال الغريبة والخواص العجيبة».

وقد استخدمت كتب ابن البيطار فى تكوين أول معشبة نباتية، وأول صيدلية إنجليزية أعدتها كلية الطب فى عهد «جيمس الأول»، ويُعدّ كتابه «الأدوية المفردة» أحد أسس علم العقاقير الحديث.

أ. د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة:

١ - أ. د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة، القاهرة، سنة ١٩٨٣م.
٢ - رياض رمضان العلمى، الدواء من فجر التاريخ إلى اليوم. سلسلة عالم المعرفة (١٢١) المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سنة ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
٣ - د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، دار المعارف، سنة ١٩٨٠م.
٤ - دائرة سفير للمعارف الإسلامية، شركة سفير، القاهرة، العددان (٣٩، ٤٠)، سنة ١٩٩٠م.

البيهقى
(٣٨٤ - ٤٥٨ هـ)

هو الإمام الحافظ الفقيه أبو بكر أحمد ابن الحسين بن على بن موسى الخُسْرَوجِردى البيهقى(١).

ولد سنة أربع وثمانين وثلاثمائة. وتوفى سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، بنيسابور.

طوف فى البلاد والأمصار، ولقى الشيوخ الكبار منهم: الحاكم أبو عبد الله وأبو بكر بن فورك، وأبو عبد الرحمن السلمى، وقد أخذ الفقه عن أبى الفتح ناصر بن محمد العمرى المروزى وغيره.

وحدث عنه شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصارى بالإجازة، وأبو الحسن عبد الله بن محمد، وابنه القاضى إسماعيل وأبو المعالى محمد بن إسماعيل الفارسى وغيرهم.

وكان البيهقى من كبار أئمة الحديث، وحفاظه العارفين بعلله، الجامعين بين مختلفه، كما كان فقيه الشافعية غير مدافع، وبحسبه فضلا مقالة إمام الحرمين فى حقه: ما من شافعى إلا وللشافعى عليه منة إلا البيهقى، فإن له المنة على الشافعى لتصانيفه فى نصرة مذهبه وتخريج الأحاديث التى استدل الشافعى لها. وقد طلب منه العلماء الانتقال إلى «نيسابور» فأتاها سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وكان له فيها مجلس علم يحضره الأئمة، وكان على سيرة العلماء قانعا باليسير، متجملا فى زهده وورعه، كثير الصيام.

وقد أثنى عليه العلماء فقال أبو الحسن عبد الغفار الفارسى فى «ذيل تاريخ نيسابور»: أبو بكر البيهقى الفقيه الحافظ الأصولى الديِّن الورع، واحد زمانه، وفرد أقرانه، فى الإتقان والضبط، من كبار أصحاب الحاكم أبى عبد الله، ثم الزائد عليه فى أنواع العلوم...، كما أثنى عليه الذهبى فى «تذكرته» وقال: عنده عوال، وبورك فى عمله لحسن مقصده، وقوة فهمه وحفظه.

وللبيهقى مؤلفات كثيرة جدًا حتى قيل : إنها تقارب ألف جزء(٢)، ومنها ما لم يسبقه أحد إليه - منها : -

١ - السنن الكبرى وهو مطبوع.

٢ - الأسماء والصفات وهو مطبوع.

٣ - السنن الصغرى، في ٤ مجلدات مطبوع.

٤ - نصوص الشافعي في عشر مجلدات

٥ - شعب الإيمان مطبوع في عشرين مجلدًا

٦ - السنن والآثار مطبوع في ١٦ مجلدًا

٧ - دلائل النبوة مطبو ع في ٧ مجلدات.

٨ - المدخل مطبوع في مجلد.

٩ - الدعوات مطبوع في مجلدين.

١٠ - الزهد مطبوع في مجلد.

١١ - البعث.

١٢ - المعتقد مطبوع في مجلد

١٣ - الترغيب والترهيب.

١٤ - الأسرى.

١٥ - الآداب مطبوع في مجلد.

١٦ - مناقب الشافعي مطبوع في مجلدين.

١٧ - مناقب أحمد.

١٨ - فضائل الأوقات مطبوع في مجلد.

وقد قال ابن الصلاح: ما ثَمَّ كتاب في السنة أجمع للأدلة من كتاب السنن الكبرى للبيهقي، وكأنه لم يترك في سائر الأقطار حديثا إلا قد وضعه في كتابه، وقد علق على السنن العلامة علاء الدين ابن علي الماردينى الشهير بالتركماني المتوفى سنة (٧٤٥هـ) وقد طبعت السنن وشرحها في عشرة مجلدات كبار بالهند عام ١٣٤٤هـ.

أ.د. أحمد عمر هاشم

الهوامش:

١ - بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهاء قرى مجتمعة بنواحي نيسابور، وخسروجرد بضم الخاء وسكون السين وفتح الراء وسكون الواو وكسر الجيم ثم راء ودال قرية منها «وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٥».

٢ - أي جزء حديثي كالكراسة أو نحوها.

مراجع للاستزادة:

١- وفيات الأعيان ٣٥/١.

٢- تذكرة الحفاظ ٣٠٩/٣.

تاج الدين السبكى
(٧٢٧ - ٧٧١هـ = ١٣٢٧ - ١٣٧٠م)

هو عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى بن على بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام السبكى الشافعى، الملقب بقاضى القضاة،تاج الدين المكنى بأبى نصر الفقيه، الشافعى، الأصولى، المؤرخ.

ولد بالقاهرة سنة ٧٢٧هـ الموافق ١٣٢٧م، وسمع من علمائها، ثم رحل إلى دمشق مع والده على بن عبد الكافى، والحافظ المزى، والذهبى. وأجازه شمس الدين بن النقيب بالإفتاء والتدريس، وقد أفتى ولم يتجاوز عمره ثمان عشرة سنة، واشتغل بالقضاء سنة ٧٥٦هـ بمشورة والده، وولى الخطابة، وامتحن فى دنياه وسجن فصبر ولم يجزع، وكان من نتيجة ذلك أن عاد إلى القضاء مكرما معززا.

قال ابن كثير: (لقد جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله، وحصل له من المتاعب ما لم يحصل لأحد قبله).

قال الحافظ شهاب الدين ابن حجر: حصَّل تاج الدين فنونا من العلم من فقه، وأصول، وكان ماهرا فيه وفى الحديث، والأدب، وبرع وشارك فى العربية، وكانت له يد طولى فى النظم والنثر، جيد البديهة، ذا بلاغة وطلاقة لسان، وجراءة جنان، وذكاء مفرط، وذهن وقاد. صنف تصانيف عدة فى فنون كثيرة على صغر سنه، قرئت عليه، وانتشرت فى حياته وبعد موته، وإليه انتهت رياسة القضاء والمناصب بالشام، والعادلية الكبرى، والغزالية، والعذراوية، والشاميتين، والناصرية، والأمينية، ومشيخة دار الحديث الأشرفية. توفى رحمه الله سنة ٧٧١هـ الموافق ١٣٧٠م، ودفن بسفح قاسيون بدمشق.

من أهم مؤلفاته:

١ - شرح مختصر ابن الحاجب فى مجلدين، سماه رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب. مطبوع.

٢ - شرح منهاج البيضاوى فى الأصول والقواعد المشتملة على الأشباه والنظائر. مطبوع.

٣ - طبقات الفقهاء الكبرى فى ستة أجزاء. مطبوع.

٤ – طبقات الفقهاء الوسطى فى مجلد ضخم. مخطوط.

٥ – طبقات الفقهاء الصغرى فى مجلد صغير. مخطوط.

٦ – توشيح التصحيح فى أصول الفقه. مخطوط.

٧ – جمع الجوامع فى أصول الفقه، وشرحه بشرح سماه منع الموانع.

٨ – معيد النعم ومبيد النقم. مطبوع.

٩ – ترشيح التوشيح وترجيح التصحيح. فى فقه الشافعية. مخطوط.

أ.د. على جمعة محمد

الترمــذى
(٢٠٩ - ٢٧٩ هـ)

هو الإمام الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمى الترمذى[1] أحد الأئمة الأعلام الذين يقتدى بهم ويرحل إليهم فى طلب الحديث، وصاحب التصانيف المشهورة والآثار الباقية، ولد سنة تسع ومائتين للهجرة.

كان جد أبى عيسى مروزيا، ثم انتقل إلى ترمذ فأقام بها، وبها ولد حفيده أبو عيسى، وقد حبب إليه العلم والحديث من صغره، ورحل فى سبيله المراحل الطويلة، فارتحل إلى الحجاز والعراق، وخراسان وغيرها، وفى هذه الرحلات قابل كبار الأئمة وأشياخ الحديث وأخذ عنهم، وكان يكتب كل ما يسمعه ويقيده فى الحل وفى السفر، وكان لا يدع فرصة دون أن يهتبلها كما تدل على ذلك قصته مع الشيخ الذى لقيه بطريق مكة، وبعد أن رحل وسمع وكتب وذاكر وناظر وألف وصنف أضر فى آخر عمره وبقى ضريرا سنين، ثم توفى وكانت وفاته بترمذ ليلة الاثنين الثالث عشر من شهر رجب سنة تسع وسبعين ومائتين للهجرة.

وكان له شيوخ كثيرون سمع منهم وروى عنهم، من أعيانهم الإمام البخارى وبه تخرج ومسلم، وأبو داود، وشاركهم فى بعض شيوخهم.

كما أخبر عن قتيبة بن سعيد، وإسحاق ابن موسى، ومحمود بن غيلان، وسعيد بن عبد الرحمن، ومحمد بن بشار، وعلى بن حجر، وأحمد بن منيع، ومحمد بن المثنى، وسليمان بن وكيع وغير هؤلاء كثيرون.

وأخذ عنه الحديث والعلم خلائق كثيرون منهم: أبو حامد أحمد بن عبد الله بن داود المروزى، ومكحول بن الفضل، ومحمد بن محمود بن عنبر، وحماد بن شاكر، وعبد بن محمد النسفيون، والهيثم بن كليب الشاشى، وأحمد بن على بن حسنويه، ومحمد بن المنذر ابن سعيد الهروى، وأحمد بن يوسف النسفى، وأبو العباس محمد بن محبوب المحبوبى راوية كتابه الجامع وغيرهم، ومما يدل على جلالته ما قيل: إن إمام الأئمة البخارى روى عنه حديثا خارج الصحيح وهو حديث عطية عن أبى سعيد أن رسول الله ﷺ قال لعلى : «**لا يحل لأحد يجنب فى هذا المسجد غيرى وغيرك**»[2].

كان مشهودا له بالحفظ والصلاح والتقوى مع الثقة والأمانة والضبط، ومما يدل على

قوة حفظه وسيلان ذهنه ما ذكره الحافظ ابن حجر فى «تهذيب التهذيب» عن أحمد بن عبد الله بن أبى داود قال : سمعت أبا عيسى الترمذى يقول: كنت فى طريق مكة، وكنت كتبت جزءين من أحاديث شيخ فمر بنا ذلك الشيخ فسألت عنه فقالوا : فلان، فرحت إليه وأنا أظن أن الجزءين معى وإنما حملت معى فى محملى جزءين غيرهما شبههما، فلما ظفرت به سألته السماع، فأجاب، وأخذ يقرأ من حفظه، ثم لمح فرأى البياض فى يدى فقال: أما تستحى منى، فقصصت عليه القصة، وقلت له: إنى أحفظه كله فقال: اقرأ فقرأته عليه على الولاء، قال: هل استظهرت قبل أن تجىء إلىّ؟ قلت: لا، ثم قلت له: حدثنى بغيره فقرأ علىّ أربعين حديثا من غرائب حديثه، ثم قال : هات، فقرأت عليه من أوله إلى آخره فقال: ما رأيت مثلك. وقد أثنى عليه كبار الأئمة.

قال الإمام الحاكم: سمعت عمر بن علك يقول: مات البخارى ولم يخلف بخراسان مثل أبى عيسى فى العلم والحفظ والورع والزهد.

وذكره الحافظ أبو حاتم ابن حبان فى الثقات وقال: كان ممن جمع وصنف وحفظ وذاكر.

وقال أبو يعلى الخليلى فى كتابه «علوم الحديث»: محمد بن عيسى بن سورة بن شداد الحافظ متفق عليه، له كتاب فى السنن وكتاب فى الجرح والتعديل، روى عنه أبو محبوب، والأجلاء، وهو مشهور بالأمانة والإمامة والعلم. وكتابه الجامع الصحيح يدل على عظيم قدره واتساع حفظه وكثرة اطلاعه، وغاية تبحره فى فن الحديث، وقد جمع إلى الحفظ الفقاهة ومعرفة المذاهب الفقهية والترجيح بينها، ولا يضير الترمذى تجهيل ابن حزم له ودعواه أنه مجهول، قال العلامة ابن كثير فى البداية والنهاية: «وجهالة ابن حزم لأبى عيسى لا تضره حيث قال فى محلاه: ومن محمد بن عيسى بن سورة؟ فإن جهالته لا تضع من قدره عند أهل العلم، بل وضعت منزلة ابن حزم عند الحفاظ:

وكيف يصح فى الأذهان شىء

إذا احتاج النهار إلى دليل

وقال الحافظ ابن حجر فى «تهذيب التهذيب»: «وأما أبو محمد بن حزم فإنه نادى على نفسه بعدم الاطلاع فقال فى كتاب الفرائض: محمد بن عيسى بن سورة مجهول ولا يقولن قائل: لعله ما عرف الترمذى ولا اطلع على حفظه ولا على تصانيفه؛ فإن هذا الرجل قد أطلق هذه العبارة فى خلق من المشهورين من الثقات الحفاظ كأبى القاسم البغوى، وإسماعيل بن محمد الصفار، وأبى العباس الأصم، والعجب أن الحافظ ابن الفرضى ذكره فى كتابه «المؤتلف والمختلف» ونبه على قدره، فكيف فات ابن حزم الوقوف عليه».

وأثنى عليه الإدريسى فقال: كان الترمذى أحد الأئمة الذين يقتدى بهم فى علم الحديث، صنف الجامع والتاريخ والعلل تصنيف رجل عالم متقن، كان يضرب به المثل فى الحفظ.

وقد جمع الترمذى إلى حفظ الحديث ومعرفة علله ورجاله الفقه، وكان له فيه باع طويل، ومن يطلع على جامعه يرى مبلغ علمه بالمذاهب الفقهية وإحاطته بها وتصرفه فى عرض المسائل الفقهية تصرف رجل عالم خبير بها.

ومن مؤلفاته:

١ - كتاب «الجامع».

٢ - كتاب «العلل» فى آخر جامعه، وهو قيم فى الجرح والتعديل.

٣ - كتاب «التاريخ».

٤ - كتاب «الشمائل النبوية» وهو أحسن الكتب فى هذا الباب وأشملها.

٥ - كتاب «الزهد».

٦ - كتاب «الأسماء والكنى».

والجامع من أجل كتب الترمذى وأنفعها، وهو يعتبر أحد الكتب الستة، وأحد دواوين الإسلام المشهورة، وقد اشتهر هذا الكتاب بنسبته إلى مؤلفه فيقال: «**جامع الترمذى**» ويقال له أيضا: «**سنن الترمذى**» والأول هو الأكثر، ولم يتحاش بعض العلماء من إطلاق لفظ الصحيح عليه فيقولون «صحيح الترمذى[٣]».

ولما ألفه الترمذى عرضه على علماء عصره فحاز رضاهم. روى عنه أنه قال: «صنفت هذا الكتاب فعرضته على علماء الحجاز والعراق وخراسان فرضوا به، ومن كان فى بيته فكأنما فى بيته نبىّ يتكلم».

وقد انتقد بعض الحفاظ على الترمذى أحاديث ذكرها فى جامعه وعدوها من الموضوعات، كالحافظ ابن الجوزى فى موضوعاته، والإمامين ابن تيمية والذهبى، وجملة ما انتقده ابن الجوزى عليه ثلاثون حديثا، وقد نازعه فى الحكم عليها بالوضع الحافظ جلال الدين السيوطى فى كتابه «التعقبات على الموضوعات».

وفى الحق أن كثيرا منها فى الفضائل، وأن هذه الأحاديث المنتقدة منها ما يسلم الحكم عليها بالوضع لابن الجوزى، ومنها ما لا يسلم له.

ومهما يكن من شىء فهى أحاديث قليلة لا تغض من قيمة الكتاب العلمية، واعتباره من دواوين الحديث وكتبه المعتمدة.

أ.د. أحمد عمر هاشم

الهوامش:

١ - السلمى نسبة إلى بنى سليم بالتصغير اسم قبيلة من غيلان، والترمذى نسبة إلى ترمذ مدينة قديمة على طرف نهر بلخ الذى يقال له: جيحون و«ترمذ» بفتح التاء والميم وبكسرهما وضمهما.

٢ - يعنى يمر به جنبا للضرورة، قال الترمذى عقب هذا الحديث: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وسمع منى محمد بن إسماعيل هذا الحديث فاستغرب به (جامع الترمذى - مناقب على رضي الله عنه).

٣ - قال ابن كثير فى «الباعث الحثيث» ص ١٨: وكان الحاكم أبو عبد الله والخطيب البغدادى يسميان كتاب الترمذى «الجامع الصحيح» وهذا تساهل منهما فإن فيه أحاديث كثيرة منكرة.

مراجع للاستزادة:

١ - شروط الأئمة الخمسة.
٢- مقدمة ابن الصلاح.
٣- الباعث الحثيث لابن كثير.
٤- تذكرة الحفاظ.
٥- تهذيب الكمال للمزى.
٦- تهذيب التهذيب لابن حجر.
٧- تاريخ بغداد للخطيب.
٨- سنن الترمذى.

التستـــرى
(٢٠٠ - ٢٨٣ هـ = ٨١٥ - ٨٩٦ م)

هو سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى ابن عبد الله بن رفيع التسترى. يكنى بأبى محمد، وهو أحد أئمة الصوفية وعلمائهم وهو من المتكلمين فى علوم الرياضيات والإخلاص وعيوب الأفعال.

ولد عام ٢٠٠هـ الموافق ٨١٥م، وتوفى عام ٢٨٣هـ الموافق ٨٩٦م.

تحدثنا كتب التراجم أنه نشأ فى بيت خاله محمد بن سَوَّار، وهو أحد الزهاد العُبَّاد، وكان إذا قام إلى الصلاة من الليل استيقظ معه سهل، وكان ما يزال طفلاً صغيرا لم يبلغ بعدُ خمسَ سنوات.

وقد كان التسترى حريصا على أن يكون التصوف طريقا صحيحا إلى طاعة الله تعالى، وأن يغلق الطريق على أدعياء التصوف، ممن ينسبون أنفسهم إليه كذبا وافتراء، وتكسبا وادعاءً، ولذلك قال: أصولنا سبعة أشياء: التمسك بكتاب الله تعالى، والاقتداء بسنة رسوله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، والتوبة، وأداء الحقوق.

وكان يرى أن ذكر الله - عز وجل - هو قوت الأبدان، وغذاء الأرواح، وأن الانشغال به يقلِّل من حاجة الجسم إلى الطعام، حتى يكفيه أقل القليل. وقد جاء إليه أحد مريديه ليسأله عن القوت فقال: «هو الحى الذى لا يموت ... فقيل له: سألناك عن الغذاء، فقال: الغذاء هو الذكر. قيل: سألناك عن طعمة الجسد، فقال: ما لك وللجسد. دَعْ من تولاه أولا يَتَولَّهُ آخرا، وإذا دخل عليه علة فردَّه إلى صانعه، أما رأيت الصنعة إذا عابت ردُّوها إلى صانعها حتى يصلحها».

وكان يرى أن التصوف الحق يوصِّل صاحبه إلى مقام الولاية، ولكن الولاية تقتضى أن تتوالى أفعال الولى فى موافقة الله - عز وجل - وأن يعلم أن الكرامات التى يمنحها الله لأهل ولايته هى الاستقامة على الطاعة، والمسارعة إلى الخيرات، والالتزام بحدود الله تعالى. وقد جاء إليه أحد تلاميذه ذات مرة، فقال له: ربما يتوضأ للصلاة، فيسيل الماء بين يديه قضبان ذهب وفضة؟

فقال له سهل: أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطون خشخاشة ليشتغلوا بها.

وعنما احتدمت معارك الخلاف بين علماء الكلام حول أسماء الله وصفاته وافترقت فيها إلى آراء متصارعة، قال سهل كلمة موجزة حكيمة: لا يدفعنكم التنزيه إلى التلاشى، ولا يدفعنكم الإثبات إلى الجسد، الله يتجلى كيف يشاء.

ومن أهم مؤلفاته:

«تفسير القرآن العظيم»، وهو مطبوع.

و«المعارضة» و«الرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى فى الأحوال»، ثم مجموعة من أقواله التى جمعت تحت عنوان: تراث التسترى الصوفى. وقد قام بتحقيقها د/محمد كمال جعفر.

أ.د. عبد الحميد مدكور

مراجع للاستزادة:

١ - طبقات السلمى، تحقيق الأستاذ نور الدين شريبة ٢٠٦ - ٢١٢.

٢ - حلية الأولياء لأبى نعيم الأصبهانى ١٠/١٨٩ - ٢١٢.

٣ - الرسالة القشيرية تحقيق د/ عبد الحليم محمود، د/محمود بن الشريف ١/٨٣ - ٨٥.

٤ - الفتوحات المكية، لابن عربى، دار صادر - بيروت ٢/١٠٢، ٣/٨٦.

٥ - العارف بالله، سهل بن عبد الله التسترى، د/عبد الحليم محمود، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية العدد ٢٠٨ - ١٩٧٨م.

٦ - من التراث الصوفى: (١) سهل بن عبد الله التسترى، د/محمد كمال جعفر - دار المعارف - مصر ١٩٧٤. وهو أكثر دارسيه تخصصا، وقد عمل على نشر تراثه وتقديمه للدارسين. (٢) قوت القلوب لأبى طالب المكى ٢/٣٦.

ابن تَغْرِى بَرْدِى
(٨١٢-٨٧٤هـ = ١٤٠٩-١٤٧٠م)

هو جمال الدين، أبو المحاسن يوسف بن سيف الدين تغرى بردى من أعلام مؤرخى مصر فى القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى).

ولد بالقاهرة سنة ٨١٢هـ = ١٤٠٩م. وتوفى بها فى ذى الحجة سنة ٨٧٤هـ (١٤٧٠م). كان أبوه مملوكا روميا اشتراه السلطان الظاهر برقوق (٧٨٤-٧٩١هـ=١٣٨٢-١٣٨٩م) وأخذ يترقى فى المناصب حتى أصبح القائد الأعلى للجيش المصرى (أتابك) فى سنة ٨١٠هـ (١٤٠٧م) وذلك فى عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ = ١٣٩٩-١٤١٢م)، ثم أصبح نائب السلطنة فى دمشق سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م). وقد توفى سيف الدين تغرى بردى بدمشق سنة ٨١٥هـ (١٤١٢م) وابنه يوسف فى حدود الثالثة من العمر.

وقام برعاية يوسف بعد وفاة أبيه زوج أخته ناصر الدين محمد بن العديم قاضى قضاة الحنفية، فلما مات ابن العديم سنة ٨١٩هـ تزوجت أخت يوسف من القاضى الشافعى جمال الدين عبد الرحمن البلقينى الذى اضطلع بمهمة الإشراف على تربية الصبى والقيام على تعليمه حتى وفاة البلقينى سنة ٨٢٤هـ (١٤٢١م).

وفضلا عن النشأة العلمية التى حظى بها جمال الدين يوسف بن تغرى بردى فى كنف زوجى أخته الأول والثانى ـ وهما عالمان جليلان ـ فقد أتيح له أن يتثقف ثقافة عسكرية عالية على يد مماليك أبيه، فجمع بين ثقافة السيف، وثقافة القلم، ثم إنه تمتع بالكثير من أسباب الرزق الوفير مما هيأ له الظروف المناسبة للتفرغ لطلب العلم.

ومن أهم شيوخه وتلاميذه:

«عبد الرحمن البلقينى» والذى يُعدّ من أهم من تلقى عليهم ابن تغرى بردى العلم فى المراحل المبكرة من حياته بوصفه زوج أخته. فلما اشتد عوده، واتسعت مداركه تهيأ له أن يتتلمذ على كوكبة من علماء عصره فى فروع مختلفة من العلم. فقد أخذ الفقه عن شيوخ

المذهب الحنفى فى زمنه مثل «شمس الدين محمد الرومى»، وقاضى القضاة «بدر الدين محمود العينى»، كما أخذ النحو عن العلامة «تقى الدين الشُّمُنِّى»، وأخذ علم الصرف عن «علاء الدين الرومى»، وأخذ الأدب والبلاغة عن «شهاب الدين أحمد بن عَرَبْشاه»، وأخذ الحديث عن شيوخ محدِّثى عصره وعلى رأسهم «أحمد ابن حجر العسقلانى».

ولكن التاريخ كان هو العلم الذى استولى على الاهتمام الأكبر لأبى المحاسن، وقد كان من حسن طالعه أن تنعم مصر فى عصره بعدد من أفذاذ المؤرخين مثل ابن حجر العسقلانى، وبدر الدين العينى، اللذين أشرنا إليهما الآن. ولم يكتف أبو المحاسن بالتلمذة عليهما فى الحديث أو الفقه بل حرص على الأخذ عنهما فى المجال الذى حُبِّبَ إليه أكثر من سواه وهو علم التاريخ. على أن أعظم مؤرخى مصر فى هذا العصر بلا منازع، إن لم يكن فى عصور مصر الإسلامية كلها، هو «تقى الدين المقريزى» صاحب الموسوعات الباهرة فى التاريخ المصرى، وقد لازمه أبو المحاسن وعظمت استفادته منه. فجاءت أعماله التاريخية انعكاسا صادقا لجهد الباحث المحقق الدءوب.

والواضح أن هذه المكانة العلمية المتميزة التى تمتع بها أبو المحاسن كان لها تأثيرها على تلاميذه الذين نهلوا من معارفه وأقروا بفضله. ورغم أن مصادرنا المتاحة لاتقدم لنا بيانا وافيا عن هؤلاء التلاميذ فإن واحدا منهم، وهو «أحمد بن حسين التركمانى» (المعروف بالمرجى)، يعبر عن موقف هؤلاء جميعا نحو أستاذهم فى الترجمة الوافية التى ذيَّل بها كتاب أبى المحاسن المعروف باسم «المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى»، وقد كتب المرجى هذا الكتاب بخطه، ومما جاء فى مقدمة هذه الترجمة:

«قال كاتب هذه النسخة تلميذ المؤلف وغرس نعمته، وأكبر محبيه، وأصغر خدمه أحمد الحسين التركمانى الحنفى الشهير بالمرجى، لطف الله به : لما اتصلت بخدمة مؤلف هذا الكتاب ... نادرة الزمان، وعين الأعيان، وعمدة المؤرخين، ورأس الرؤساء المعتبرين وأهَّلنى لكتابة هذا التاريخ إحسانا منه وصدقة علىّ، استوعبته كتابة ومطالعة وتأملا، فلم أر فيه مثله فى زمانه ...». والحق أن الإنتاج العلمى الذى تركه لنا أبو المحاسن وما تمتع به من جودة وثراء يكشف لنا عن سر هذا التقدير الذى عبر عنه هنا واحد من تلاميذه.

ومن أهم مؤلفاته:

١- المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى:

وقد سجل أبو المحاسن فى هذا الكتاب تراجم أعيان عصره من الأمراء والسلاطين والقادة والعلماء وغيرهم من المشاهير فى مصر والشام من سنة ٦٥٠هـ (١٢٥٢م)، أى فى مطالع قيام الدولة المملوكية حتى عصره هو القرن التاسع الهجرى. وقد قصد المؤلف من هذا الكتاب أن يكون تكملة لمعجم الصفدى المعروف باسم «الوافى بالوفيات» ومن هنا جاءت عبارة «المستوفى بعد الوافى» فى عنوان الكتاب. ويحتوى كتاب المنهل الصافى على تراجم لحوالى ثلاثة آلاف شخصية تغطى قرنين من الزمان تقريبا، وهذه التراجم مرتبة ترتيبا معجميا. وهو فى تراجمه موضوعى النظرة، بعيد عن الهوى والغرض وقد قامت دار الكتب المصرية بتحقيق هذا الكتاب ونشره فى أجزاء.

٢- حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور وهو يتلو فى تأليفه كتاب «المنهل الصافى». وإذا كان كتاب «المنهل الصافى» تكملة لكتاب «الوافى بالوفيات» للصفدى فإن كتاب «حوادث الدهور» تكملة لكتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» للمقريزى. وكتاب السلوك تاريخ لدولة المماليك منذ قيامها حتى سنة ٨٤٤هـ (١٤٤١م). ويبدأ أبو المحاسن كتابة «حوادث الدهور» حيث انتهى المقريزى (أى سنة ٨٤٥هـ)، ويصل فى تاريخه إلى سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) حيث يتوقف عند نهاية عصر الملك الظاهر سيف الدين جقمق. ولكن أبا المحاسن يعالج تاريخ دولة المماليك فى هذه الفترة القصيرة بمزيد من التوسع، ويتولى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة تحقيق هذا الكتاب وطبعه.

٣- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. وهذا الكتاب يمثل درة مؤلفات أبى المحاسن التاريخية، وهو فى نفس الوقت من أهم المصادر لتاريخ مصر الإسلامية. وقد كتبه أبو المحاسن بعد كتابيْه المنهل الصافى وحوادث الدهور، أى بعد أن استوت أدواته العلمية ونضجت خبرته. وهذا الكتاب يبدأ بتاريخ مصر منذ الفتح الإسلامى لها سنة ٢٠هـ (٦٤١م) وينتهى سنة ٨٧٢هـ (١٤٦٨م)، ورغم أن محوره الأساسى هو تاريخ مصر فإنه لايهمل الإشارة إلى الأحداث المهمة فى العالم الإسلامى لأن تاريخ مصر الخاص لاينفصل عن التاريخ الإسلامى العام بل يتأثر به ويوثر فيه. ومما يعطى لهذا الكتاب أهمية خاصة أنه يؤرخ لنهر النيل زيادة ونقصانا منذ فتح المسلمين لمصر حتى عصر المؤلف، مما جعل بعض المؤرخين يصف أبا المحاسن بأنه «مؤرخ النيل». كما اهتمَّ الكتاب اهتماما ملحوظا بالتاريخ العمرانى لعواصم مصر الإسلامية ابتداء بالفسطاط وانتهاء

بالقاهرة. وقد تولت دار الكتب المصرية إخراج كتاب النجوم الزاهرة فى طبعة علمية محققة.

وهناك كتب أخرى لأبى المحاسن أقل أهمية مما ذكرنا، من بينها كتاب «مورد الطاقة فيمن ولى السلطنة والخلافة» يقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين حتى عصره، وكتاب «البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر». وهو فى التاريخ على السنين، وكتاب «نزهة الرأى فى التاريخ» إلى غير ذلك من الكتب التى مازال معظمها مخطوطا.

وهذا الإنتاج الضخم - ماطبع منه ومالم يطبع - يجعل من أبى المحاسن واحدا من أفذاذ المؤرخين لافى مصر وحدها بل فى ربوع العالم الإسلامى بأسره.

أ.د. عبد الرحمن سالم

مراجع للاستزادة:

١- أحمد زكى العدوى: مقدمة الجزء الأول من كتاب «النجوم الزاهرة»، طبعة دار الكتب المصرية وهى تحتوى على عدة تراجم لأبى المحاسن كتبها أحمد بن حسن التركمانى وشمس الدين السخاوى وابن العماد الحنبلى.

٢- شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون جـ٣: بيروت، دار العلم للملايين: ١٩٩٠م.

٣- محمد عبد الله عنان: مؤرخو مصر الإسلامية: القاهرة، مؤسسة مختار للنشر.

٤ - ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، حـ٧، ص ٣١٧-٣١٨.

٥ - پوپر w,popper: مادة مراجع للاستزادة.

التميمــــى

هو محمد بن أحمد بن سعيد التميمى المقدسى، اشتهر بنسبه التميمى أكثر من شهرته باسمه، كان مقامه أولا بالقدس ونواحيها، وبها قرأ علم الطب، حيث كان جده سعيد طبيبا فأخذه عنه، وانتقل إلى مصر سنة ٣٦٠هـ = ٩٧٠م. وأقام بها إلى أن توفى. لم تذكر المراجع سنة ولادته ولا وفاته على وجه التحديد، لكن أغلب المراجع تشير إلى أنه كان موجودًا فى مصر سنة ٣٧٠هـ = ٩٨٠م، وأنه ألف كتاب «مادة البقاء» بعد سنة ٣٦٨هـ، وألف كتابه الضخم «المرشد» بعد ذلك ببضع سنوات، فهو إذن من علماء القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى).

وكانت للتميمى معرفة جيدة بالنبات وصناعة الأدوية المفردة والمركبة، وله فى كل ذلك عدة تصانيف ما بين كبير ومتوسط وصغير، أفاد منها كثير من العلماء الذين جاءوا بعده أمثال: على بن رضوان الطبيب المصرى، وموفق الدين عبد اللطيف البغدادى، وابن البيطار ضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلسى، وابن قيم الجوزية، وغيرهم.

ومن مؤلفاته :

١ - رسالة إلى ابنه محمد فى صنعة «الترياق الفاروق»، والتنبيه على ما يلغط من أدويته ونعت أشجاره الصحيحة، وأوقات جمعها، وكيفية عجنه، وذكر منافعه وتجربته.

٢ - كتاب آخر فى الترياق. وقد استوعب فيه تكميل أدويته وتحرير منافعه، وزاد فيه من المفردات، وعمل عدة معاجين دافعة للأمراض والوباء.

٣ - كتاب مختصر فى الترياق.

٤ - مقالة فى ماهية الرمد وأنواعه وأسبابه وعلاجه.

٥ - كتاب الفحص والإخبار.

٦ - امتزاج الأرواح.

٧ - حبيب العروس وريحان النفوس. فى مجلدين.

٨ - منافع القرآن العزيز.

٩ - خواص القرآن. ذكر فيه ما أخذه من بعض الحكماء فى الهند.

١٠- كشف السر المصون والعلم المكنون فى شرح خواص القرآن العظيم ومنافعه.

١١- مادة البقاء فى إصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء. وهو كتاب كبير فى عدة مجلدات.

١٢- كتاب المرشد إلى جواهر الأغذية وقوى مفردات الأدوية. ليس له نسخ كاملة.

أ. د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة:

١ - طبقات الأطباء جـ ٢ / ٨٧.

٢ - كشف الظنون جـ ٤ / ١٥٧.

٣ - هدية العارفين جـ ٢ / ٤٩.

٤ - الأعلام للزركلى جـ ٥ / ٣١٣.

التهانـــوى
(٠٠٠ - بعد ١١٥٨هـ = ٠٠٠ - بعد ١٧٤٥م)

هو المولوى: محمد أعلى بن على التهانوى - كما هو مدون على كتابه المطبوع «كشاف اصطلاحات الفنون» - ولكنه يذكر نسبه فى مقدمة هذا الكتاب على النحو التالى: محمد على بن شيخ على بن القاضى محمد حامد ابن محمد صابر الفاروقى السنى الحنفى التهانوى.

عالم هندى معروف عاش فى القرن الثانى عشر الهجرى الموافق للقرن الثامن عشر الميلادى، ولم تشر المراجع إلى تاريخ دقيق لمولده أو وفاته، ولكنه قد أشار فى مقدمة كتابه المشار إليه، إلى أنه قد فرغ من تأليفه عام ١١٥٨هـ (الموافق ١٧٤٥م)؛ فتكون وفاته بعد هذا التاريخ.

وفى هذه المقدمة يشير إلى أنه قد تلقى العلوم العربية والشرعية على يد والده، ولم يكتف التهانوى بهذا القدر من العلوم والمعارف، فاتجه لدراسة العلوم الفلسفية والرياضيات وغيرها من العلوم والفنون التى كانت معروفة حينذاك، وقد أعطته هذه الدراسة الشاملة إحاطة واسعة بشتى العلوم والفنون، الأمر الذى مكَّنه من تأليف موسوعته الشاملة لاصطلاحات العلوم والفنون المختلفة.

أشهر مؤلفاته على الإطلاق الموسوعة الكبيرة لاصطلاحات العلوم والفنون المسماة «كشاف اصطلاحات الفنون»، وقد نُشِرَت هذه الموسوعة أول مرة فى كلكتا بالهند عام ١٢٧٨هـ (الموافق ١٨٦١م) بتحقيق كل من: مولوى محمد وجيه، ومولوى عبد الحق، ومولوى غلام قادر، وبإشراف المستشرق النمساوى الأصل البريطانى الجنسية ألويز اشبرنجر (A. Sprenger)، وقد أعادت نشر هذه الموسوعة عام ١٩٦٦م دار نشر خياط فى بيروت، فى ستة مجلدات من القطع الكبير تحت عنوان «موسوعة اصطلاحات العلوم الإسلامية المعروف بكشاف اصطلاحات الفنون للشيخ المولوى محمد أعلى بن على التهانوى».

وللتهانوى بالإضافة إلى ذلك كتاب بعنوان «سبق الغايات فى نسق الآيات».

ولقد كانت فكرة إخراج موسوعة تشتمل على اصطلاحات جميع العلوم تسيطر على ذهن التهانوى، منذ كان لا يزال فى مرحلة طلب العلم، ويعبر عن ذلك بقوله: «وقد كان يختلج فى صدرى أوان التحصيل أن أؤلف كتابا وافيا لاصطلاحات جميع العلوم»، ولعله قد شعر هو نفسه فى تلك الفترة من طلب العلم بهذه الصعوبة التى تواجه الدارسين فى الاهتداء إلى المصطلحات المختلفة لشتى العلوم والفنون، فدفعه ذلك إلى أن يوفر على غيره من الدارسين الوقت والجهد فى البحث والتنقيب، وقد جعل ذلك هدفًا أساسيًا نصب عينيه، ولم يهدأ له بال إلا بعد أن أصبح هذا الأمل حقيقة واقعة.

ويبين التهانوى وجه الحاجة إلى مثل هذه الموسوعة الشاملة قائلا: «إن أكثر ما يُحتاج فى تحصيل العلوم المدونة والفنون المروجة إلى الأساتذة هو اشتباه الاصطلاح، فإن لكلٍّ اصطلاحًا خاصًّا به، إذا لم يعلم بذلك لا يتيسر للشارع فيه الاهتداء إليه سبيلا... فطريق علمه إما الرجوع إليهم أو إلى الكتب التى جمع فيها اللغات المصطلحة».

ولما لم يجد التهانوى كتابا حاويا لاصطلاحات جميع العلوم المتداولة بين الناس، وغيرها من فنون غير متداولة، قرر أن ينهض هو للقيام بهذا العبء.

ويشير التهانوى فى مقدمة موسوعته «كشاف اصطلاحات الفنون» إلى أنه بعد أن انتهى من تحصيل العلوم العربية والشرعية جَدَّ فى طلب العلوم الفلسفية والرياضيات؛ كعلم الحساب، والهندسة، والهيئة، والإسطرلاب، وغيرها من علوم متداولة.

أما منهجه الذى سار عليه فى تأليف هذه الموسوعة فيتضح من قوله: «فاقتبست منه (من هذه العلوم المختلفة) المصطلحات أوان المطالعة، وسطرتها على حدة فى كل باب يليق بها، على ترتيب حروف التهجى؛ كى يسهل استخراجها لكل أحد، وهكذا اقتبست من سائر العلوم فحصلت فى بضع سنين كتابًا جامعًا، ولما حصل الفراغ من تسويدها سنة ألف ومائة وثمانية وخمسين (من الهجرة)، جعلته موسومًا وملقّبًا بكشاف اصطلاحات الفنون، ورتبته على فنين: فن فى الألفاظ العربية، وفن فى الألفاظ الأعجمية».

وقد صدّر التهانوى موسوعته بمقدمة طويلة تزيد على خمسين صفحة فى بيان العلوم المدونة وما يتعلق بها، وقد مهد لهذه المقدمة مبينا وجه الحاجة إليها بقوله: «ولما كان للعلوم المدونة نوع تقدم على غيرها - من حيث إنَّا إذا قلنا هذا اللفظ فى اصطلاح النحو موضوع لكذا - مثلا - وجب لنا أن نعلم النحو أولا، وكان ذكرها (أى ذكر العلم المعيَّن وما يتصل به) مجموعة موجبًا للإيجاز

والاختصار والتسهيل على النظار ـ ذكرتها فى المقدمة».

وقد أفاض التهانوى، فى هذا الصدد، فى تصنيف العلوم، مفصلا القول فى العلوم المدونة وما يتعلق بها، وتقسيماتها إلى نظرية وعملية، وآلية وغير آلية، وعربية وغير عربية، وشرعية وغير شرعية، وحقيقية وغير حقيقية، وعقلية ونقلية، وجزئية وغير جزئية، وأشار إلى أجزاء العلوم، وناقش ما قيل من أنه لابد فى كل علم من العلوم المدونة من أمور ثلاثة: الموضوع والمسائل والمبادئ، كما تحدث عما يسمى بالرؤوس الثمانية، وهى الأمور التى يجب على من يشرع فى شرح كتاب من الكتب أن يتعرض فى صدره لها، قبل الشروع فى المقصود، وهذه الرؤوس الثمانية هى:

١ – الغرض من تدوين العلم.

٢ – المنفعة.

٣ – السمة (عنوان الكتاب).

٤ – المؤلف أو المصنف.

٥ – نوع العلم، وعما إذا كان من اليقينيات أو الظنيات من النظريات، أو العمليات من الشرعيات.

٦ – مرتبة العلم المقصود بين العلوم.

٧ – القسمة: أى بيان أجزاء العلم وأبوابه.

٨ – الأنحاء التعليمية.

وبعد تفصيل القول فى تقسيمات العلوم العربية والشرعية، عرَّف العلوم الحقيقية بأنها تلك العلوم التى لا تتغير بتغير الملل والأديان، وجعل منها علم الكلام؛ لأن جميع الأنبياء كانوا متفقين فى الاعتقادات، ومنها أيضا علم المنطق وبعض أنواع الحكمة.

وفى نهاية المقدمة عقد التهانوى فصلا للحديث عن العلوم المحمودة والمذمومة، ونقل الكثير من الآراء فى ذلك.

وعن مكان الفلسفة بين هذه العلوم جاءت الإشارة فى هذا الصدد إلى أنها علم بعيد عن علم الآخرة، يشتغل به الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة، ولكنه نقل عن بعض العلماء تصريحهم «بجواز تعلم الفلسفة وفروعها من الإلهى والطبعى والرياضى؛ ليرد على أهلها، ويدفع شرهم عن الشريعة، فيكون من باب إعداد العدة».

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة :

١ – كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى، بيروت ١٩٦٦م.

٢ – الأعلام للزركلى، ٢٩٥/٦، بيروت ١٩٧٩م.

٣ – معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، ٤٧/١١، بيروت (بدون تاريخ).

توفيق الطويل
(١٩٠٩-١٩٩١م)

هو محمد توفيق الطويل، من أعلام مفكرى العرب والمسلمين فى عصرنا هذا. بل إنه يعد رائدًا للفلسفة الخلقية فى العالم العربى المعاصر.

ولم يكتب توفيق الطويل عن سيرته الذاتية لأنه كان يؤثر الصمت فى مثل تلك الأمور، وهذا مما يصعب أمر الكتابة عنه. هذا بالإضافة الى تنوع إنتاجه الفلسفى، وتحليلاته الفكرية المستفيضة فى معظم ميادين الفكر الإسلامى والغربى، وكذلك إسهاماته البارزة فى المؤسسات الثقافية والعلمية كمجمع اللغة العربية، والمجلس الأعلى للثقافة، والمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية. وعُيِّنَ أستاذًا للفلسفة فى جامعة القاهرة.

ولد الدكتور محمد توفيق الطويل، بحى بولاق بالقاهرة عام ١٩٠٩م، لكنه تبعا لعمل والده بدأ دراسته بكُتّاب القرية فى محافظة البحيرة عام ١٩١٨م، وكان شيخ الكتاب حريصا على وجوده معه، لأنه كان يقوم بواجبه المادى والدراسى دون تقصير.

ولكن والده ألحقه بالمدرسة الابتدائية، عام ١٩٢٠م، كى يشق طريقه نحو الجامعة. ثم واصل دراسته بنجاح وتفوق فى الابتدائى، ثم فى الثانوى بمدرسة الأمير فاروق الثانوية بروض الفرج، وظل بتلك المدرسة خمس سنوات بالقسم الأدبى، من عام ١٩٢٥م إلى عام ١٩٣٠م.

وفى أكتوبر عام ١٩٣٠م التحق توفيق الطويل بكلية الآداب، جامعة القاهرة، وظهر فيها نبوغه ونشاطه وميوله للفلسفة منذ صغره، بحيث أنشأ جمعية للبحث والمناظرة ضمت طلابًا من كليات عديدة، وتم بواسطتها عقد الكثير من المناظرات الفكرية فى جمعيات مختلفة، واستضافت كبار الأدباء والمفكرين، من بينهم: د. طه حسين، والعقاد، والرافعى، وغيرهم، الذين كانوا يرحبون بدعوة الجمعية لهم.

ثم واصل توفيق الطويل دراساته العليا، وكان موضوع رسالته للماجستير: "التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى" ، أما رسالته

للدكتوراه فكانت بعنوان: «الأحلام - دراسة مقارنة، مع ترجمة كتاب علم الغيب فى العالم القديم لشيشرون». ثم حصل على الدكتوراه ثانيًا من جامعة السربون بباريس عام ١٩٥٤م وقدم لها أطروحة بالفرنسية عنوانها: «ميتافيزيقا هوكنج». ثم قدم رسالة فرعية بالفرنسية أيضًا عام ١٩٥٤م نال بها درجة دكتوراه الدولة بالسربون، وكانت بعنوان «المشكلة الدينية عند وايتهد».

وبعد أن تخرج محمد توفيق الطويل فى كلية الآداب عام ١٩٣٤م عُيّن معيدًا، فمدرسًا، ثم شغل العديد من المناصب العلمية: حيث كان أستاذًا للفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة.

وقد انتخب لعضوية مجمع اللغة العربية عام ١٩٨١م صار مقررًا للجنة الفلسفة والاجتماع بهذا المجمع، كما كان عضوًا فى لجنة ألفاظ الحضارة بالمجمع نفسه.

كما كان عضوًا بشعبة الثقافة بالمجلس القومى للثقافة والفنون والآداب والإعلام بالمجالس القومية المتخصصة.

كما صار عضوًا بلجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة بمصر.

وقد كرمته الدولة فمنحته جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية بمصر عام ١٩٨٤م.

وخلال هذا كله قضى الدكتور محمد توفيق الطويل حوالى أربعين عامًا فى تدريس الفلسفة بكل فروعها وتاريخها القديم والوسيط والحديث، فى العديد من جامعات مصر: جامعة القاهرة، وجامعة الإسكندرية، وجامعة عين شمس، وبعض الجامعات العربية: كالجامعة الليبية ، وجامعة الكويت، وجامعة بغداد ، وجامعة البصرة ، وجامعة قطر.

وقد كان له جهد بارز فى المشاركة ببعض البحوث فى المحاضرات العامة والندوات والمؤتمرات وزيارة بعض الجامعات، وفى الدوريات والمعاجم والموسوعات.

هذا بالإضافة إلى ما أُثر عنه من احترام الوقت والالتزام بمواعيد المحاضرات والاجتماعات ، ومن الدقة فى اختيار الموضوعات والألفاظ والمصطلحات. سواء كان ذلك فى مجال التأليف أو الترجمة(١).

ذكر الدكتور إبراهيم مدكور ، بأن تلمذته له ولغيره كانت جادة وصادقة، وأنه كان أقرب التلاميذ إلى قلب الشيخ مصطفى عبد الرازق؛ ولذا جعله كاتم سره عندما وُكلت إلى الأستاذ أعباء الوزارة.

ويشير الدكتور مدكور إلى أن توفيق الطويل، مع شدة عنايته بتحصيل العلم، كان

يهتم بمبدأ: «قل خيرًا وإلا فاصمت»، وأنه لم يسمح بوقوع خلاف بينه وبين زميل، إن كان فى الناحية المادية أو الأدبية.

وأنه كان حريصًا على نقل الخبر السارٌ لأصدقائه، وإعفائهم من سماع الأمور المقلقة، ولذا أخفى حقيقة مرضه أخيرًا ، وأعلن أنه يعالج نفسه بالمشى وبالرياضة البدنية[٢].

وتوفى محمد توفيق الطويل عن عمر يناهز الثانية والثمانين فى يوم الثلاثاء، الموافق الثانى عشر من شهر فبراير عام ١٩٩١م، رحمه الله تعالى.

وكان توفيق الطويل أستاذًا شامخًا ومفكرًا عملاقًا، وكانت كتاباته تعبيرًا عن حياته ومثله.

ولهذا فإن مشروع النهضة لديه كان متعدد الزوايا:

فقد كان يقف فى وجه الذين يخلطون الكشوف العلمية المتغيرة بالدين، حيث نبه فى كتابه «التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام» ص٣٥، إلى أنه لا يجوز القول بأن القرآن الكريم قد تنبأ بجميع مخترعات العلم ومكتشفاته، كما حدث لدى الكواكبى وفريد وجدى وغيرهما؛ لما فى ذلك من إسراف ضار بالدين وبالقرآن؛ نظرًا لأن حقائق الدين ثابتة، بينما العلم فى تطور وتغير، كما قال الله تعالى: ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ [الإسراء : ٨٥].

كذلك كان محمد توفيق الطويل يدعو إلى الحب والتسامح ونبذ الصراعات والأحقاد بين أهل الملل والمذاهب، لما فى الصراع والتعصب من تخلف وفساد، ويتضح هذا من خلال كتابه «قصة الصراع بين الدين والفلسفة».

أما الجانب المضىء فى مشروعه الفكرى الحضارى، فهو غرس القيم العليا ومكارم الأخلاق فى نفوس الشباب والأمم، وهذا هو الأساس القويم لأى نهضة. وقد ظهر الأساس الأخلاقى فى معظم ما كتب، وفيما خصصه من بحوث ومؤلفات للقيم النبيلة السامية، مثل: الحرية الأخلاقية، وعلاقة الفكر بالإرادة، ومشكلة الحرية، ومشكلة الإنسان، وأخلاق الواجب، والأخلاق والمجتمع، ولاسيما كتابه «المشكلة الخلقية».

وأهم ما ينبه عليه توفيق الطويل فى مشروعه عن «القيم الأخلاقية» الحذر من طغيان الدراسات الاجتماعية والسياسية والوطنية والعلمية على الأخلاق. ويذكر أن بعض مفكرى الغرب نبهوا إلى خطورة ذلك، وحاولوا تصحيح تلك الأخطاء، لكن بعد فوات الأوان.

ويرى توفيق الطويل، أنه إذا كان ثمة شيء قد أصبح الإنسان المعاصر مفتقرًا إليه، فإنه «الوعى الأخـــلاقى» الذى يمكن أن يوقظ إحساسه بالقيم.

فالنظرة إلى حياة الإنسان الحديث توحى لأول وهلة بأنها: «حياة سطحية خاوية، يعوزها عمق الاستبصار، وينقصها كل إحساس بالمعنى أو القيمة، خصوصًا وأن الحياة الآلية الحديثة، قد جعلت من وجود المخلوق البشرى وجودًا مزعزعًا لا سكينة فيه ولا تأمل، بل مجرد حركة وسرعة وتعجل»[٣].

كذلك يؤكد على شيء هام للغاية وهو أن الوظيفة الأولى للمربى، إنما هى العمل على تفتيح ذهن الحدث أو الشاب، للقيم الخلقية.

ونقول من جانبنا، لقد نزلت آية ﴿ **وإنك لعلى خلق عظيم** ﴾ [القلم : ٤] فى مكة فى وقت مبكر من ظهور الإسلام، لتبين للناس أن هذه الرسالة خطيرة وعظيمة، ولا يحمل أمانتها إلا من كان على خلق عظيم، وهو محمد بن عبد الله ﷺ.

مؤلفاتـــــه :

- أسس الفلسفة.
- فلسفة الأخلاق.
- الشعرانى إمام التصوف فى عصره.
- الأخلاق فى الفكر الإسلامى.
- التنبؤ بالغيب عند مفكرى الإسلام.
- مشكلة الفن، مكتبة مصر، ١٩٦٧م.
- مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، ١٩٦٧م.
- مشكلة الفلسفة، مكتبة مصر، ١٩٦٧م.
- مشكلة الحب، مكتبة مصر، ١٩٧٠م.
- مشكلة الحياة، مكتبة مصر، ١٩٧١م.
- المشكلة الخلقية، مكتبة مصر، ١٩٦٩م.

أ.د. عبد اللطيف العبد

الهوامش :

١ - انظر: د.عاطف العراقى: التصدير والتقديم لكتاب «الدكتور توفيق الطويل: مفكرًا عربيًا ورائدًا للفلسفة الخلقية» : بحوث ودراسات مهداة. إشراف وتصدير أ.د. عاطف العراقى. نشر المجلس الأعلى للثقافة ، لجنة الفلسفة بالقاهرة، عام ١٩٩٥م.

٢ - د. ابراهيم مدكور: الكتاب السابق عن توفيق الطويل. ص٢٣-٢٤.

٣ - د. توفيق الطويل: المشكلة الخلقية ص١١، ط٢، ١٩٧٥م ، مكتبة مصر بالفجالة. (سلسلة: مشكلات فلسفية-٦).

مراجع للاستزادة:

١- أبو حيان التوحيدى: مجموعة أعلام الفكر العربى-مؤسسة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٤م.
٢- ابن حزم الأندلسىّ: مجموعة أعلام الفكر العربى-مؤسسة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
٣- دراسات فى الفلسفة المعاصرة، مكتبة مصر، عام ١٩٦٨م.
٤- برجسون (مجموعة نوابغ الفكر العربى)، دار المعارف، ط٢، ١٩٦٧م.
٥- كانط أو الفلسفة النقدية، مكتبة مصر، ١٩٦٣م.
٦- مبادئ الفلسفة والأخلاق، دار المعارف ١٩٧٢م.
٧- الزواج والاستقرار النفسى، مكتبة مصر، ١٩٥٧م.
٨- "الفن خبرة" لجون ديوى - ترجمة - مكتبة النهضة العربية بالقاهرة، ١٩٦٥م.

التيفاشى
(٥٨٠ - ٦٥١ هـ = ١١٨٤ - ١٢٥٣ م)

هو شهاب الدين أبو العباس: أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبى بكر بن حمدون التيفاشى، المولود فى عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٤م فى «تيفاش»، إحدى قرى مدينة «قفصة» التونسية آنذاك، وهى الآن من أعمال مدينة «قُسنطينة» بالجزائر.

نشأ التيفاشى فى أسرة ذات جاه وحسب، وشغل منصب القضاء، كما شغله أبوه من قبله، وكان أديبًا شاعرا، ملما بكثير من علوم عصره، مبرزا فى علم المعادن، محبا للسفر، فزار القاهرة، ودمشق، والعراق، وأرمينية، وفارس، وغيرها.

عاش التيفاشى فى عصر ذهبى لازدهار الثقافة واعتداد الدولة الإسلامية برجال العلوم والفنون، وكان هذا من ثمار استقرار الحكم وإحراز الانتصارات الباهرة فى المغرب العربى، وفى مصر والشام، إذ كان العصر فى مقتبل حياة التيفاشى عصر المنصور بن عبد المؤمن الموحّدى بطل معركة «الأرك» التى أحرز فيها المسلمون فى المغرب نصرا مؤزرا على «ألفونسو الثامن» ملك «قشتالة» سنة ٥٩١ هـ - ١١٩٤م. وعصر الناصر صلاح الدين الأيوبى بطل معركة «حطين» فى المشرق، وجاءت على أثر ذلك دولة الحفصيين فى تونس موطن التيفاشى الأول، ودولة المماليك فى القاهرة موطنه الثانى، فسارتا على نفس الدرب، وعاش التيفاشى فى شبابه وكهولته متصلا بهما، ينهل من بحار علومهما، ويجمع التجارب، ويتصل بالملوك وولاة الأمور ويوطد علاقاته وخدماته ببلاطهم.

وتوفى التيفاشى بالقاهرة سنة ٦٥١هـ - ١٢٥٣م عن عمر يناهز السبعين عاما، ودفن بها فى مقبرة باب النصر حيث دفن ابن خلدون وابن هشام النحوى وغيرهما من العلماء والأعلام.

ومن مؤلفاته :

خلّف التيفاشى تراثا ضخما يشهد على أنه كان واسع المعرفة محيطا بكثير من علوم عصره، قارئا لعلوم الأوائل، وأنه كان طيِّع القلم، رشيق الأسلوب، مدقق العبارة، ويدور

معظم اهتمامه فى علوم البلدان، والمعادن، والطب، والبديع، والتفسير، ومن مؤلفاته:

١ - «المنقذ من التهلكة فى دفع مضار السمائم المهلكة»، وهو كتاب طبى عن المعادن والأحجار.

٢ - «سجع الهديل فى أخبار النيل»، وهو موسوعة فى أخبار النيل وجغرافيته على وجه الخصوص، وقد عده السيوطى من مراجع كتابه «حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة».

٣ - «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس».

٤ - «الشفا فى الطب عن المصطفى».

٥ - «الديباج الخسروانى فى شعر ابن هانى».

٦ - «نزهة الألباب فيما لا يوجد فى كتاب».

٧ - «فصل الخطاب فى مدارك الحواس لأولى الألباب»، وهو موسوعة مجزأة فى أربعين مجلدا وتضم أكثر جوانب المعرفة فى عصره.

٨ - الدرة الفائقة فى محاسن الأفارقة.

٩ - متعة الإسماع فى علم السماع.

١٠- تاريخ الأمم.

١١- أما كتاب «أزهار الأفكار فى جواهر الأحجار» الذى اشتهر به التيفاشى، فقد انتهى من تأليفه حوالى سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م)، وتناول فيه علم المعادن والأحجار الكريمة بمختلف أنواعها، ويعرف أحيانًا باسم «كتاب الأحجار الملوكية».

أ.د. أحمد فؤاد باشا

ثابت بن قرة
(٢٢١ - ٢٨٨هـ = ٨٣٦ - ٩٠١م)

ولد ثابت بن قـــرة بن زهرون الحـــرانى أبو الحسن فى حران، وهى بلدة بالجزيرة بين نهرى دجلة والفرات، والغالب أن تاريخ ميلاده هو عـام٢٢١هـ الموافق ٨٣٦م، وتوفى ببـغداد عام ٢٨٨هـ الموافق ٩٠١هـ.

بدأ عمله كصراف حاز ثقة الناس، وكان من الصابئين الذين أغرتهم حرية الفكر لدى المسلمين، فـحـدثت بينه وبين أهل طائفتـه خلافات، فأنكروا عليه تصرفاته، واعتبروا آراءه خروجا على مذهبهم، فترك حران مسقط رأسه ورحل إلى بلدة كفر توما، حيث التقى بعلم من أعلام ذلك العصر هو محمد بن موسى الخوارزمى (توفى ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م)، وأعجب الخوارزمى بذكاء ثابت واستعداده العلمى الكبير، فاصطحبه معه إلى عاصمة العباسيين بغداد، حيث لفت نظره، وسحر لُبّه ما عليه الناس من علم، ولمس اهتمام الخليفة بترجمة تراث الأقدمين، فاشتغل بالعلم والترجمة وبرع فيهما.

ويقول المؤرخون إن ثابت درس العلم من أجل العلم، ساعده على ذلك إتقانه للسريانية واليونانية والعبرية، وقد ترجم كتبا كثيرة من علوم الأقدمين، وللمشاهير منهم، أمثال: جالينوس، وأبقراط، وأرشيمدس، وبطليموس، وغيرهم، وراجع كتبًا مترجمة، وصحّحها، واتجه إلى تأليف الكتب فى الفلك والرياضيات والطب.

عمل ثابت فى المرصد الفلكى الذى شيَّده الخليفة المأمون فى بغداد عام ٨٥١م، واستخرج حركة الشمس، وحسب طول السنة النجمية، فكانت أكثر من الحقيقة نصف ثانية، وحسب ميل دائرة البروج، وفى ذلك المرصد صاغ ثابت نظريته المطوَّلة، التى حاول فيها تفسير الظاهرة الفلكية المعروفة باسم (هزة الاعتدالين)، وقد لخَّص هذه الظاهرة فى أن محور دوران الأرض يهتز أو يترنح كما تترنح النحلة، وهى تلف وتدور حول محورها، فتروح متمايلة هنا وهناك، ولكن ترنح محور الأرض له دورة كاملة تستغرق نحو ٢٦ ألف سنة، بمعنى أن المحور لا يشير دائما إلى النجم القطبى، فمنذ نحو ٥٠٠٠ سنة، وجد

الكهنة المصريون أن أقرب النجوم التى تشير إلى القطب الشمالى، هو المعروف الآن باسم «ألفا التنين» وليس النجم القطبى (بولارس)، وفى الوقت الحاضر يعمل ببطء على أن يشير المحور إلى النجم القطبى، ولكن فى عام ٢١٠٠م سوف يبدأ القطب فى الانحراف بعيدا عن الدب الأصغر، حتى يصير نجم الشمال الجديد فى عام ١٤٠٠م، وهو النسر الواقع، ألمع نجوم السماء فى الشمال.

وترجم ثابت كتاب المجسطى لبطليموس، كما رأس لجنة لقياس قطر الأرض أيام الرشيد، وذلك بأن قاس طول الدرجة القوسية بدقة، واتجه فريق صوب الشمال، بينما اتجه فريق آخر صوب الجنوب، فى نفس خط الطول، وكان يقيس خطوط العرض بقياس ارتفاع النجم القطبى، وهى طريقة سليمة، ولقد وجد أن طول الدرجة القوسية يعادل نحو ٥٦ ميلاً. وجدير بالذكر أن هذه القياسات أعطت رقمًا سليمًا لطول محيط الأرض وطول نصف قطرها، مما دفع المستكشفين فى الغرب بعد ذلك من أمثال كولومبوس، إلى المغامرة بالإبحار غربًا فى عرض المحيط الأطلنطى وهم على يقين من أنهم سوف يعودون إلى نقطة الابتداء، وهكذا نجد أن الفضل الحقيقى الذى يكمن وراء تلك الأعمال التى قام بها المستكشفون فى الغرب بعد ذلك إنما يرجع إلى العلماء العرب من أمثال ثابت بن قرة، وقياسه محيط الأرض بدقة علمية يعتمد عليها.

ومن أوائل أعمال ثابت بن قرة تأليف كتاب عن المزولة الشمسية، التى كانت تستخدم فى قياس الزمن خصوصًا لتعيين مواقيت الصلاة، وهى فى أبسط صورها عبارة عن عمود رأسى أو شاخص يعرض لأشعة الشمس بحيث يبين طول الظل الممدود لهذا العمود ساعات النهار فى أى مكان، وبطبيعة الحال، تكون الشمس فى الزوال (منتصف النهار) عندما يصل طول الظل أقل قيمة له، ولا يكون طول الظل صفرا إلا فى حالات التعامد، أى عندما تكون الشمس فوق الرؤوس تماما، ولا تتوفر هذه الحالة إلا بين خطى عرض ٢٣,٥ درجة شمالا وجنوبا، وقد ترجم جيرار الكريمونى كتاب المزولة الشمسية مع بداية عصر النهضة فى أوروبا.

مات ثابت بن قرة عام ٢٨٨هـ/ ٩٠١م. فى بغداد، بعد أن بذل مجهودا علميا منقطع النظير، واستنتج من أرصاده الفلكية الفريدة التى أخذها فى مرصد بغداد مذهبه الخاص بصفة الشمس، وحرارتها ونظام دورتها، وذلك هو أساس علم الطبيعة الشمسية المعروف اليوم، كما حسب طول السنة النجمية بدقة مذهلة إلى أقرب نصف ثانية!

ومن أهم مؤلفاته :

١- كتاب فى الأنواء.

٢- مقالة فى حساب خسوف القمر والشمس.

٣- كتاب مختصر فى علم النجوم، أخرجته دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد/ سنة ١٣٥٩هـ.

٤- كتاب فى طبائع الكواكب وتأثيراتها.

٥- كتاب فى إبطاء الحركة فى فلك البروج.

٦- كتاب فى إيضاح الوجه الذى ذكره بطليموس.

٧- كتاب فى تركيب الأفلاك.

٨- كتاب فى رؤية الأهلَّة بالجنوب.

٩- كتاب فى حركة الفلك.

١٠- كتاب فى رؤية الأهلَّة من الجداول.

١١- كتاب فى أشكال المجسطى.

١٢- كتاب فيما يظهر من القمر من آثار الكسوف وعلاماته.

١٣- كتاب فى استواء الوزن واختلافه وشرائط ذلك.

١٤- كتاب فيما أغفله (ثاون) فى حساب كسوف الشمس والقمر.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ١.

٢- ابن النديم : الفهرست.

٣- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون جـ٢.

٤- زين العابدين متولى: الفلك عند العرب والمسلمين. جـ٢ سنة ١٩٩٧م.

٥- قدرى طوقان : تراث العرب العلمى فى الرياضيات والفلك.

٦- كريستى : تراث الإسلام.

٧- نللينو : علم الفلك، تاريخه عند العرب فى القرون الوسطى.

الجاحظ
(١٦٣ - ٢٥٥هـ = ٧٨٠ - ٧٦٩ م)

هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكنانى بالولاء، الليثى المولود سنة ١٦٣هـ = ٧٨٠م، والمتوفى سنة ٢٥٥هـ = ٧٦٩م.

لا يدانيه كاتب فى سعة ثقافته. وكان دائرة معارف عصره. يتميز أسلوبه برشاقة وخفة وسلاسة بيان. كتب فى السياسة والاجتماع والاقتصاد والحيوان والنبات ونحو ذلك. له رسائل وفصول من الآثار الخالدة للنماذج العليا للمقال فى الأدب العربى القديم. ولما كان الجاحظ رجل يتمتع بعقلية غاية فى النشاط وكان يميل إلى الفكاهة، لذا نرى مؤلفاته يشيع فيها الاستطراد والاسترسال بأسلوب شيق ممتع، مع خبرة بأهل عصره وتغلغل فى أسرار مجتمعه وإحاطة بكل ما يجرى حوله.

وقد عالج الجاحظ فى كتاباته ورسائله موضوعات الحياة كلها، وساعدت مقدرته الفنية على أن يتناول - فى بساطة ويسر - قضايا : الدين، ومشكلات المنطق والفلسفة، وقضايا الجدل والحوار، بأسلوب سهل ممتع، يتوجه به إلى الخاصة والعامة، دون أن يفقد صفاته الفنية فى أى مجال من مجالات القول. واستطاع - من خلال هذا التنوع فى موضوعاته، وهذه السهولة المنقطعة النظير فى صياغته وتناوله وعرضه لهذه الموضوعات - أن يكون بحق صحافة عصره ذيوعا وانتشارا بين الناس وتتبعا واهتماما منهم. وهو - فى هذا المجال - يتفوق كثيرا على كل من سبقه من كُتَّاب النثر العربى فى عصوره الأولى، والذين أتيح لهم أن ينهضوا بالنثر نهضات متتابعة، لكنها تظل بالنسبة للجاحظ - محدودة الأثر والقيمة، كابن المقفع، وسهل ابن هارون، وعبد الحميد الكاتب.

ونتيجة لهذه السهولة والغزارة، فقد كانت المعانى لديه «مبسوطة» إلى غير غاية، وممتدة إلى غير نهاية، من هنا أيضا، كانت هذه الواقعية المباشرة فى تناوله لعنصر موضوعاته. وكان هذا التصوير الحسى الذى يجسد من خلاله نموذجه البشرى - الذى يتناوله فى لوحاته القلمية - تجسيدا دقيقا مذهلا، يتجاوز كل خيال، ذلك أن دقته فى واقعيته، وجماله فى بساطته، وتفاصيله

الجزئية الصغيرة. وهو لون من أدب الصورة سبق إليه الجاحظ منذ قرون، وتفنن فيه وأبدع.

ومن مؤلفاته :

١- البيان والتبيين.

٢- المحاسن والأضداد.

٣- التاج المعروف بأخلاق الملوك.

٤- الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون.

٥- البرصان والعرجان والعميان.

٦- كتاب (البخلاء) وهو كتاب مشهور لأديب مشهور، قدم الجاحظ لكتابه هذا بمقدمة طويلة دافع بها عن الكتب الكثيرة التى يؤلفها فى موضوعات مختلفة، ثم تكلم عن البخل والبخلاء عامة، يذكر الجاحظ ضروب الطعام المألوفة فى ذلك العصر، وأنواع الدعوات إليه والمناسبات التى تتيحها، ويتكلم عن أطعمة العرب وما تسمى، وأورد الجاحظ بعض المأكولات الفاخرة، والعادات المتبعة على الموائد، واللياقة الاجتماعية، وكيفية تقديم الطعام للضيف صاحب المنزلة الخاصة عند العرب، وكيفية الضيافة والإكرام، والمبالغة فى تنسيق الموائد وألوان الطعام، وقد ذكر الجاحظ صورة غاية فى الدقة عن أدب المائدة والعادات السيئة عند الأكل، منها: التطفل، أو الإتيان بغير دعوة، والمجشع أى الحريص على الطعام والفضولى، وأحاديث الموائد، وزمزمة الأكل، وغير ذلك... ثم جاء بسطرين اثنين قبل أن يبدأ بسرد قصص البخلاء فقال: «نبدأ بأهل خراسان لإكثار الناس فى أهل خراسان، ونخص أهل مرو (عاصمة خراسان) بقدر ما خصوا به». فى هذين السطرين وضع الجاحظ قاعدة من قواعد نشر الكتب. إن أكثر الكتب رواجا هى الكتب المؤلفة فى الموضوعات التى يكثر الكلام فيها بين الناس سواء كانت تلك الموضوعات مهمة أو غير مهمة.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١ - الجاحظ : البيان والتبيين جـ ١ ص ٩٢.

٢ - معجم الأدباء جـ١٦ ص ٥٦ وما بعدها.

٣ - ابن الأنبارى، نزهة الأدباء ص ٢٥٤.

٤ - الجاحظ : كتاب الحيوان، مرجع ص ٢٤٣.

جاد الحق على جاد الحق
(١٣٣٥ - ١٤١٦هـ = ١٩١٧ - ١٩٩٦م)

ولد الشيخ جاد الحق على جاد الحق فى يوم الخميس ١٣٣٥/٦/١٣هـ الموافق ١٩١٧/٤/٥م، بقرية بطرة، مركز طلخا، محافظة الدقهلية. حفظ القرآن الكريم فى طفولته والتحق بالمعهد الأزهرى الأحمدى بمدينة طنطا. واستكمل المرحلة الثانوية بمعهد القاهرة الأزهرى بالدراسة. ثم التحق بكلية الشريعة جامعة الأزهر.

وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٤٣م.

ثم على الإجازة فى القضاء الشرعى عام ١٩٤٥م.

- عين فور تخرجه موظفا قضائيا بالمحاكم الشرعية، ثم أمينا للفتوى بدار الإفتاء عام ١٩٥٣م، ثم قاضيا عام ١٩٥٤م حتى ألغيت المحاكم الشرعية، حيث عين قاضيا بالمحاكم فى ١٩٥٦/١/١م.

ثم مستشارا بمحاكم الاستفتاء عام ١٩٧٦م.

وقد ظل الشيخ جاد الحق على جاد الحق فى السلك القضائى يؤدى وظيفته السامية، إلى أن وقع عليه الاختيار ليكون مفتيًا للجمهورية فى ١٩٧٨/٨/٢٦م، خلفًا لزميله الشيخ محمد خاطر.

ثم اختير عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف.

ثم عين وزيرا للأوقاف فى ٤ يناير ١٩٨٢م.

ثم صدر قرار جمهورى بتعيين فضيلته شيخا للأزهر الشريف.

ثم اختير فضيلته رئيسا للمجلس الإسلامى العالمى للدعوة والإغاثة فى سبتمبر عام ١٩٨٨م.

توفى يوم الجمعة ٢٥ شوال سنة ١٤١٦هـ الموافق ١٩٩٦/٣/١٥م، وتم تشييعه عقب صلاة الجمعة بالجامع الأزهر حيث أمَّ المصلين عليه فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى، وتم تشييعه إلى مثواه الأخير فى قرية بطرة مسقط رأسه.

كان الشيخ جاد الحق عف اللسان واللفظ والنفس، لم يتورط لحظة واحدة فى أن ينتقد مخالفيه أو أن يقلل من قيمة علمهم أو فكرهم، ولم يطلب لنفسه طيلة أربعة عشر عامًا سلطة، على الرغم من أنه كان يثقل على نفسه بكل المسئوليات.

ومن أبرز إنجازاته فى الأزهر أنه أخذ بيد هيئاته وإداراته خطوات واسعة نحو الروح المؤسسية بعد عقود من الارتجال والاجتهاد غير المنظم فى تيسير أمور الدراسات العليا والبعثات والمنح الدراسية، والإسكان الجامعى، والمستشفيات الجامعية والإدارات القانونية. فضلاً عن سياسات المبانى الجديدة والتشييد والإحلال والتجديد ورفع قيمة وكفاءة الموارد البشرية والتعليمية.

وقد استطاع الشيخ جاد الحق أن يضع الأزهر كمؤسسة وطنية وإسلامية معاً فى المكان اللائق به فى خضم الأحداث، ولم يلجأ

إلى السبيل الأيسر بتجاهل ما لم يدع إلى المشاركة فيه من القضايا التى اضطربت بها الحياة العامة سواء فى ذلك القضايا الدولية كسياسات السكان وتنظيم الأسرة وحقوق الإنسان ومحاولة إطفاء بعض الإنسانية على بعض الممارسات الشاذة. وفى هذا المجال كان صوته قويا بلا مزايدة، وكان رأيه ساطعاً دون اللجوء إلى الاحتكاك بالمؤسسات الرسمية.

وعلى الصعيد الوطنى كان تصديه للأفكار البراقة من قبيل الفريضة الغائبة مضرب الأمثال فى دأب العالم المتمكن من الفقه على فهم آليات وحركيات النظام السياسى للإسلام. والبعد عن المزالق الجذابة التى كانت كفيلة بالقفز بالمجتمعات الإسلامية إلى المجهول.

ويُعد كتابه بيان للناس الذى صدر فى أعقاب اغتيال الرئيس السادات بمثابة وثيقة ذات قدر رفيع فى الفقه الدستورى فى الإسلام.

وقد اصطفى لها من كتابات الفقهاء والأصوليين ما مكنه من أن يقدم رؤية متكاملة للنظام السياسى للإسلام فى الحكم والمعارضة على حد سواء.

آراؤه ومنهجه العلمى :

كان فى بحوثه حريصًا على ذكر الأقوال المختلفة لكبار الفقهاء مما قد يؤدى إلى الإطالة، مقارنة بالفتاوى الأخرى لبعض النظراء، ولكنها إطالة يتطلبها المقام، وتؤدى بالقارئ الدارس إلى الإلمام بما يحيط بالموضوع من وجهات شتى.

من أهم مؤلفاته :

١ - مع القرآن.

٢ - النبى ﷺ فى القرآن الكريم.

٣ - الفقه الإسلامى - مرونته وتطوره.

٤ - أحكام الشريعة الإسلامية فى مسائل طبية عن الأمراض النسائية.

٥ - بحوث وفتاوى إسلامية فى قضايا معاصرة، صدر فى خمسة مجلدات.

ومن هذه القضايا :

- نقض الفريضة الغائبة فتوى ومناقشة.
- رسالة فى صلاة الجمعة.
- التطرف الدينى وأبعاده أمنيا وسياسيا واجتماعيا.
- بحث تنمية القيم الدينية عند الشباب.
- بحث القنوت.
- بحث اجتهاد الرسول ﷺ.
- بحث قدسية الحرمين الشريفين.
- بحث جوانب الأمن فى الإسلام.
- رسالة فى الاجتهاد وشروطه ونطاقه والتقليد والتخريج.

٦ - بحث مكانة السنة النبوية فى التشريع الإسلامى.

٧ - ساهم فى إخراج ونشر الفتاوى الإسلامية من سجلات دار الإفتاء المصرية قرابة مائة عام (١٨٩٥ - ١٩٨٢م). وقد صدرت فى ٢٠ مجلداً بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة :

١ - الأزهر جامعا وجامعة. أو مصر فى ألف عام ص ٣٤٤.

٢ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين. د. محمد رجب البيومى.

٣ - الشيخ الراحل فى ذكراه .. لمجموعة من المفكرين. سلسلة دراسات إسلامية. العدد ٥٤ بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

٤ - مصريون معاصرون: د. محمد الجوادى.

جـــارودى
(١٩١٣م)

ولد روجيـه جـارودى ـ الذى أصـبح بعـد إسلامه رجاء جارودى ـ فى مرسيليا بفرنسا، فى ١٧ من يوليه سنة ١٩١٣م فى أسرة غير متدينة، تعلم بمدرسة مرسيليا، ثم مدرسة هنرى الرابع، واعتنق البروستانتية فى صدر شـبـابه، ثم انضم إلى صـفـوف الحـزب الشـيـوعى فى فـرنسـا، وفى سنة ١٩٣٦م، حصل على شهادة الفلسفة فى كلية الآداب فى ستراسبورج، ثم على الدكتوراه فى جامعة السوربون، برسالة عنوانها (النظرة المادية فى المعـرفـة) سنة ١٩٥٣م، وفى سنة ١٩٥٤م حصل على دكتوراه من معهد الفلسفة فى أكاديمية العلوم فى الاتحاد السوفيتى عن (الحـرية)، وكـان أول فـرنسى يحـصل على الدكتوراه من موسكو.

وفى سنة ١٩٣٩م تطوع جـــارودى فى الجيش الفرنسى، واعتقل من قبل الألمان أثناء احتلالهم لفرنسا، ثم انضم إلى الفرنسيين فى حـربهم ضـد الجـزائريين، واعـتقل سنة ١٩٤١م بالجـزائر وأطلق سـراحـه بعـدها بعامين، وفى الجزائر التقى بالشيخ بشير الإبراهيـمى، رئيس رابطة العلمـاء المسلمين بالجزائر، وكان له أكبر الأثر عليه.

انخـرط جـارودى فى العـمل السـيـاسى، وانتخب عضوًا فى المكتب الفيدرالى، ثم نائبا فى البرلمان، ثم عضـوا فى مـجلس الشيـوخ، وبعـدها اسـتـقـال ليتـفـرغ لوظيفـتـه كـأسـتـاذ للفلسـفـة فى جـامـعـة (كليـرمـون)، وجـامـعـة (بواتيه)، وتخصص فى تدريس علم الجمال.

أسس المعهد الدولى لحوار الحضـارات، ومـركـزًا للدراسـات والبـحـوث الإسـلامـيـة فى قرطبة، ووجهت إليه تهمة معاداة السامية بعد أن أشهر اسلامه وألَّف كتابًا عن الصهيونية، إلا أن المحكمـة فى فرنسـا قد برَّأته من هذه التهمة.

فـهـو مـفكر فـرنسى مـسلم عـالمى، له إسهامات فى مجال الإبداع الأدبى والفلسفى والسياسى، ويعد علامة بارزة فى تاريخ الفكر الإنسانى فى القرن العشرين، نقد الحضارة الغربية فى نظرتها الأحادية للتقدم، حيث

تتجاهل بناء الإنسان، وتركز على مفهوم غير إنسانى للنمو، ورأى فى الإسلام تفرّده فى تقديم الجواب عن كل آمال الإنسان فى القرن العشرين، والإنسان فى المستقبل أيضًا، ودافع عن الإسلام ضد التشويهات الغربية، وبَيَّنَ حقيقته أمام العقل الأوروبى، كما كان له موقفه الخاص من الصهيونية العالمية، وفضح ادعاءاتها وأساطيرها المزيفة.

آراؤه وأتجاهاته الفكرية :

١ - موقفه من الشيوعية : اختار جارودى فى مقتبل حياته الاتجاه الشيوعى، باعتباره بديلا للخروج من الأزمة الرأسمالية، وكان همه فى هذه المرحلة محاولة الربط بين الإيمان المسيحى والفكر الماركسى، ولكن وجد بالتجربة أن الواقع فى الحزب الشيوعى يختلف عن تصوره، فانفصل عنه، وكان أول ماركسى يوجه انتقادا صريحا إلى ممارسات الحزب الشيوعى السوفيتى، وإلى موقف الماركسيين من الدين.

٢ - موقفه من الصهيونية : يؤكد جارودى على أن الصهيونية قد خدعت العالم الغربى بقيامها بنشر ادعاءات أسطورية فى قالب الحقيقة والواقع، فهناك فرق بين الصهيونية الدينية والصهيونية السياسية، الأولى تنطلق من أقوال مجازية مأخوذة من التراث اليهودى، وبعيدة عن أى برنامج سياسى يهدف إلى تكوين دولة، فهى صهيونية روحانية يمثل الحج إلى بيت المقدس أقصى طموحاتها، دون السعى إلى أى سيطرة على فلسطين.

ويشير جارودى إلى أن الصهيونية السياسية تقدم شكلاً من أشكال التعسف القومى الاستعمارى، وتستخدم القراءة المغلوطة للتوراة أساسًا لتبرير مقاصدها السياسية، وأن لهم حقا فى فلسطين، كما كشف أكاذيبهم حول حرق ملايين اليهود فى أوروبا.

٣ - موقفه من الإسلام : اقترب جارودى من الإسلام أثناء تواجده فى الجزائر عندما وقع أسيرًا فى يد الثوار الجزائريين المسلمين، واعتقد أن مقتله سيكون على يد هؤلاء المحاربين، ولكنه فوجئ بالإبقاء على حياته، كما فوجئ بالمعاملة الإنسانية الكريمة من قِبَل الثوار، وهو يعلم فى قرارة نفسه أنه المعتدى عليهم، وعندما سأل عن سر المعاملة الطيبة، عرف أن الدين الإسلامى يمنع قتل الأسير، ويحرص على معاملته معاملة كريمة، كما تعرَّف على جوانب كثيرة عن الإسلام من خلال التقائه ببعض علماء الجزائر، فعرف فيه البعد الروحى والأخلاقى، ووجد أنه هو الأمل لإنقاذ البشرية كلها.

ويشير جارودى إلى أن انتماءه للإسلام لم يأت بمحض الصدفة، بل جاء بعد رحلة عناء طويلة تخللتها منعطفات كثيرة، حتى وصل إلى مرحلة اليقين الكامل، وخصص فكره منذ ذلك الحين لبيان حقيقة الإسلام أمام الغرب والرد على مزاعمهم، فالإسلام - عنده - دين عقيدة وعمل، وهو لا يدعو إلى الحرب، أما الجهاد فله مفهوم خاص، فهو لا يدعو للقتال إلا للذين نقضوا عهودهم أو الذين يمنعون المسلمين من ممارسة معتقداتهم، ولا تقام الحرب إلا للدفاع عن الإيمان أو النفس أو الوطن، فالإسلام حارب نشر الإيمان بقوة السلاح، وحرم على المسلمين أن يكونوا غزاة معتدين، كما ساهم الإسلام مساهمة أساسية فى الحضارة العملية قبل أن تصل أوروبا إلى العصر الحديث.

٤ - الإسلام والأنظمة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية : يؤكد جارودى على أن القرآن الكريم لم يحدد نظما اقتصادية وسياسية واجتماعية معينة، بل وضع مجموعة من المبادئ العامة التى يجب أن يستوحى منها كل نظام يدعى الإسلام.

(أ) **الاقتصاد:** يقدم جارودى تصوره للمبادئ العامة للاقتصاد فى الإسلام، فيرى أن الإسلام يصون حق الملكية الفردية، ولكنه يكره كنز الأموال، ويدفع بالأموال إلى ساحات العمل والإنتاج، ويحمى أفراده من الفقر والحاجة بالتأمين الاجتماعى، والملكية مصانة فى الإسلام، لا يجوز العدوان عليها، ولها حرمة تماثل حرمة النفس، إلا أنها ليست ملكية مطلقة، بل هى ملكية نسبية، والله لم يُعْطِ الناس الثروات لكى ينفردوا بها، أو يستغلوا الآخرين، بل للفقير حق فى مال الغنى من خلال نظامى الزكاة والوقف، والغنى قائم على ماله، وسوف يسأل عنه فى الآخرة: بماذا أفاد غيره منه أو كيف تصرف فيه.

والاقتصاد فى الإسلام لا يهدف إلى النمو، وإنما إلى التوازن وعدم استغلال الإنسان لأخيه الإنسان، وقد حرّم الإسلام الاحتكار والربا، ورفض كل شكل من أشكال الاستغلال.

(ب) **السياسة:** رفض جارودى أن يكون فى الإسلام ثنائية بين السياسة والدين، كما يوجد فى الغرب، ورفض أن يكون الإسلام يفضل تشريعًا سياسيا معينًا، بل يقع على الإنسان فى كل زمان ومكان مسؤولية تطبيق السياسة التى تناسبه، بشرط الالتزام بالمبادئ العامة فى الإسلام ومقاصده، وكما استبعد الإسلام فكرة الحق الإلهى الاستبدادى، كذلك استبعد وجود سلطة كهنوتية معينة أو وجود كهنوت سياسى، فهو يدعو إلى تحرر الإنسان من كل أشكال التسلط والعبودية.

(جـ) **النواحى الاجتماعية:** يؤكد جارودى على أن الإسلام هو المؤهل الوحيد حاليا لإنقاذ الأسرة التى حطمها المجتمع الغربى، وانتهت فيه أواصر المودة والرحمة، وبلغ الانهيار الاجتماعى والأخلاقى حدا ينذر بوقوع كارثة حقيقية؛ إذ أصيب الإنسان المعاصر فى أوروبا بالعديد من الأمراض الجسدية والنفسية نتيجة التحلل الأخلاقى والانفكاك الاجتماعى.

ويستعرض جارودى فى كتاباته عددًا من القضايا الاجتماعية فى الإسلام، والتى فهمت خطأ عند الغربيين، وعلى رأس هذه القضايا قضية الحرية الإنسانية؛ فقد عرف الغرب عن الإسلام أنه دين فيه جبر وتواكل، أما حقيقة الإسلام كما يوضحها جارودى على النقيض من هذا، فالإسلام يقوم على الحرية التى هى مناط التكليف فى الاعتقاد، وأن النبى محمدًا ﷺ حرر الإنسان من ربقة العبودية والطغيان والخرافة والسحر، وجاء بالمقولة المعروفة فى الإسلام ﴿ **لا إكراه فى الدين** ﴾، [البقرة، آية: ٢٥٦] وقد سار خلفاؤه على نفس المنوال.

وقد رفض الإسلام فكرة عبودية المرأة للرجل؛ وأعطاها الحق الكامل فى امتلاك الثروة، وحق التصرف فيها دون قيد أو شرط، كما منحها حق طلب الطلاق عند الضرورة، وهذا ما لم تنله المرأة فى الغرب إلا حديثًا، أما تعدد الزوجات فهو نظام لم ينشئه الإسلام، بل كان موجودًا ونظَّمه الإسلام، وحدَّد عدد الزيجات، ووضع لها شروطًا تستلزم العدالة التامة بين الزوجات مما يجعله أمرًا صعب التحقيق.

ويتميز جارودى بغزارة التأليف، ويمكن تقسيم مؤلفاته إلى مرحلتين، الأولى قبل إسلامه، والثانية بعد اعتناقه الإسلام.

قدم فى المرحلة الأولى: مسرحية بعنوان (ربيع الإنسان)، ودراسة حول الفاتيكان عنوانها (الكنيسة ـ الشيوعية والمسيحية)، ودراسة عن (الشخصية الإنسانية)، ودراسة عن (الإنسانية والماركسية)، وكتاب (آفاق الإنسان أو زوايا نظر إلى الإنسان)، وكتاب (المسيحية والوجودية)، وكتاب (أخلاق الماركسية)، ودراسة عن (ماركس)، وكتاب (الماركسية فى القرن العشرين)، ودراسة عن (لينين)، وكتاب (البديل)، وكتاب (نموذج وطنى للاشتراكية)، وكتاب (الحقيقة كلها)، وغيرها.

وفى المرحلة الثانية: قدم مؤلفات أخرى، مثل: (مبشرات الإسلام أو وعود الإسلام)، ولخصه فى كتاب (الإسلام يسكن حضارتنا)، وكتاب (الإسلام دين المستقبل)، وكتاب (ملف

إسرائيل: السلام وأزمة الغرب)، وكتاب (فلسطين أرض الرسالات السماوية)، وكتاب (المساجد مرآة الإسلام)، وكتاب (ملف إسرائيل: أحلام الصهيونية وأضاليلها)، وكتب أخرى فى مجالات متعددة من رؤية إسلامية

أ. د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة :

١- بيروتينو (سيرج): غارودى، ترجمة: منى النجار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ط١، سنة ١٩٨٦م.

٢- تيزنيى (د. طبيب): روجية غارودى بعد الصمت، حول فلسفة الردة عند غارودى وآفاقها فى الوطن العربى . دار ابن خلدون للنشر ، بيروت ط١، سنة ١٩٧٥م.

٣ - حرك (أبو المجد): الفيلسوف المسلم رجاء غارودى، رحلة الفكر والحياة، دار الفتح . القاهرة، سنة ١٩٨٥م.

٤- زهر الدين (د. صالح): الخلفية التاريخية لمحاكمة روجيه غارودى . المركز العربى للأبحاث والتوثيق، بيروت سنة ١٩٩٨م.

٥- سعد الدين (عدنان): حوار مع رجاء جارودى . مكتبة وهبه . القاهرة، سنة ١٩٨٨م.

٦- السقا (خيرية): الإسلام والعروبة فى فكر الصادق النيهوم وروجية غارودى . دار المنارة، دمشق، سنة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧- فوزى (محمود): جارودى والإسلام وغضب الصهيونية . المكتب العربى للنشر والتوزيع . مصر، سنة ١٩٩٦م.

٨- فيدو سييف (بيوتر): غارودى والتحريقية المعاصرة. ترجمة جورج طرابشى - دار الطليعة. بيروت، سنة ١٩٧٤م.

الجبرتـــى
(١١٦٧ - ١٢٣٧هـ = ١٧٥٤ - ١٨٢٢م)

هو عبد الرحمن بن حسن بن إبراهيم بن حسن بن على بن محمد بن عبد الرحمن الجبرتى، العقيلى المصرى الحنفى الزيلعى (وإقليم جبرت هو إقليم الزيلعة أحد أقاليم الدولة الإسلامية فى الحبشة، وأهل هذا الإقليم معروف عنهم التشدد فى أمور دينهم، كما ينزعون إلى الزهد والتقشف، وانطلق الكثيرون منهم إلى الحجاز سيرًا على الأقدام إما للحج أو مجاورين، ولهم ثلاثة أروقة خاصة بهم فى المدينة المنورة وفى مكة المكرمة وفى الأزهر الشريف) وقد وصل عبد الرحمن - الجد السابع للجبرتى إلى مصر فى مستهل القرن العاشر الهجرى - السادس عشر الميلادى - ثم اختير شيخا لرواق «جبرت» بالأزهر، وانتقل هذا المنصب من الأجداد إلى الأحفاد، فهى أسرة من العلماء أخرجت الكثيرين من شيوخ رواق الجبرتية.

وكان الشيخ حسن والد عبد الرحمن من علماء الأزهر هؤلاء، وله أملاك وأوقاف تدر عليه دخلا كبيرا وتجعله من كبار الأثرياء، وكان يحب الباحثين وطلاب العلم، ويفتح لهم دائمًا أبواب منزله ومكتبته، وكانت تلك المكتبة تضم كتبًا نادرة، بعضها بالتركية وبعضها بالفارسية، وفيها آلات فلكية وهندسية، وبها مكان خاص للكتب المتداولة بين علماء عصره فى التخصصات الفقهية واللغوية والفلسفية، وتجاوزت شهرة هذا الوالد الآفاق، وكان آخر من تولى تدريس علم الهيئة بالجامع الأزهر.

فى هذا الجو ولد عبد الرحمن. سنة ١١٦٧هـ الموافق ١٧٥٤م.

ونشأ فى القاهرة وسط أسرة لها كل هذه الاهتمامات العلمية، وتعلم على والده وشيوخ عصره، وذهب إلى الكُتّاب ثم إلى مدرسة السنانية بالصنادقية، ثم التحق برواق الشوام وهو دون العاشرة، ودرس المذهب الحنفى على يد صديق أبيه عبد الرحمن العريشى، وحفظ القرآن الكريم وهو دون الحادية عشرة.

وكان أبوه يقص عليه أحداث العصر وأخبار الولاة والعلماء، ولما مات ترك له أموالا

طائلة، وصـــداقـــات من بين هؤلاء الولاة والأمراء والعلماء.

ولمَّا تخــرج فـى الأزهـر، ونهل من ثقــافــة والده التـى تنوعت ومن مكتبتـه، بدأ يعلِّم فـى بيته وفى الأزهر وفى بعض المساجد، ووصل إلى منصب شيخ رواق الجبرت، واستفاد من الثـروة التى تركـهـا له والده: وهـى بيـوت فـى بولاق والصنادقـيـة ومـصـر القـديمـة، وأرض زراعية فى «أبيار» مركز كفر الزيات، وأوقاف أخـرى كـثـيـرة، وتزوج للمـرة الـثـانيـة سنة ١١٩٥هـ، ومن هذا الزواج ولد ابنه «خليل».

وتعـرف «الجـبـرتى» على عـالم كـبـيـر من أصل يمنى هو «مـرتضـى الزبيدى» الذى التف حــوله الطلاب، يدرِّس لهم الفــقــه والأدب ويدرّس لهم «الجبرتى» أصول الفقه، ثم مال لدراسـة الفلك والحـسـاب والهندسـة كـأبيـه، ومـال للطب وألَّف فـيـه، كـمـا مـال للتصـوف، وشغف بعلم التاريخ، وتولى تدوين تاريخ مصر ووقـائعـهـا فـى عـصـره، كـذلك تولى إفـتـاء الحنفية فى عهد «محمد على الكبير» وكان ابنه خليل مؤَقِّتًا للصلاة ولرؤية هـلال شهرى رمضان وشوال فى بلاط «محمد على».

وقد قتل ابنه فبكاه كثيرًا حتى كف بصره، ثم عــاجلتـه المنيـة، وتوفى مـخنوقًـا بطـريق «شبرا» فى شهر مضان.

جاء فى مقدمة الطبعة الفرنسية لكتابه «عـجـائب الآثار» أن «الجـبـرتى»: «بينمـا كـان آتيًا من قـصـر «مـحـمـد على» بشبـرا ليلة ٢٠ من رمضان سنة ١٢٣٧هـ الموافق ١٨ من يونيه سنة ١٨٢٢م قـتـل خنقًـا بشـارع شـبـرا، وربط بحبل فى إحدى رجلى حـماره، وفى الصـبـاح شـاهـد المارة جثته وعـرفوه، ووجد فى جيوبه إسطرلاب ومنقلة وبعض كراسـات مـخطوطة، وقيل فى سبب قتله أن «محمد بك الدفتردار» كان حاقدًا عليه؛ فدس له من قتله»، ويقال إن «محمد على» يتحمل نتيجة مقتله؛ لأنه عرف رأى «الجـبـرتى» فـيـه والذى دوَّنه فى كـتـابه «عجائب الآثار»، ولهذا منع نشـر هذا الكتاب طويلا ولم يسـمـح بذلك إلا عـام ١٢٩٧هـ، بل إن التـرجـمـة الـفـرنسـيـة نالهـا شـىء من ذلك بسبب الهجمات التى قام بها «الجبرتى» على «محمد على» ونظام حكمه.

وهكذا شـهـد «الجـبـرتى» أحداثًا هامـة فى القـرن الثـانى عشـر والثـالث عشـر الهـجـريين (الثامن عشـر والتاسع عشر الميلاديين) شهد الصـراع الذى انتهى بتولية مـحـمد على حكم مصـر، ثم شـهـد السنوات الأولى من حكم هذا الوالى، وشـهـد الحملة الفرنسـيـة على مصـر، واتصل بعلمائها وزارهم فى مقرهم - بعدما وجهوا نداء إلى أمثاله، فجاء من «أبيار» التى كـان قـد اعـتكف فـيـهـا - وشـاهـد مكتبـتـهم وتجـاربهم العلمـيــة، وعندمـا أعـاد «مـينو»

تشكيل الديوان، اختار «الجبرتى» عضوا فيه، وأرّخ الرجل لما شاهده من أحداث فى كتابيه «عجائب الآثار» و «مظهر التقديس».

مؤلفاته:

- عجائب الآثار فى التراجم والأخبار: ويعرف بتاريخ الجبرتى، يقع فى أربعة أجزاء، مطبوع ومترجم للفرنسية.

- مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس. ويقع فى جزأين.

- دستور تقويم الكواكب السبعة.

- مختصر تذكرة «داود الأنطاكى» ومنه نسخة خطية بدار الكتب فى القاهرة.

أ. د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة:

١- جمال الدين الشيال: التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر، ضمن مشروع المكتبة التاريخية ، الكتاب الثالث، القاهرة ١٩٥٨م.
٢- جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٤ / ٢٨٣ - ٢٨٤، القاهرة ١٩١٤م.
٣- على مبارك: الخطط التوفيقية، مواضع مختلفة.
٤- دائرة المعارف الإسلامية، مادة «الجبرتى».
٥- ب . ل شيخو: الآداب العربية فى القرن التاسع عشر، بيروت ١٩٢٤م.
٦- خليل شيبوب: عبد الرحمن «الجبرتى» العدد ٧٠ من سلسلة اقرأ، القاهرة ١٩٤٨م.
٧- محمود الشرقاوى: مصر فى القرن الثامن عشر، ثلاثة أجزاء، القاهرة ١٩٥٥ - ١٩٥٦م.
٨- محمد أنيس: الجبرتى فى مظهر التقديس وعجائب الآثار، مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة، العدد ١٨ سنة ١٩٥٦م.
٩- محمد أنيس: حقائق عن «عبد الرحمن الجبرتى» مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية المجلة التاريخية المصرية، العددان ٩، ١٠، القاهرة ١٩٦٠ - ١٩٦٢م.
١٠- ليلى عبد اللطيف أحمد: دراسات فى تاريخ ومؤرخى مصر والشام إبان العصر العثمانى، فصل عنوانه «أحمد البديرى وعبد الرحمن الجبرتى»، دراسة مقارنة بين المؤرخين، ص ١٩٠ - ٢١٣ القاهرة ١٩٧٩م.
١١- عبد الله محمود غرباوى: المؤرخون والعلماء فى مصر فى القرن الثامن عشر، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصرة، القاهرة ١٩٩٧م.
١٢- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ٥/١٣٣.
١٣- خير الدين الزركلى: الأعلام ٤/٧٥.
١٤- شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون.
١٥- البغدادى: هدية العارفين ١/٦٧.
١٦- كوركيس عواد: المخطوطات التاريخية ٦٣.
١٧- إدوارد وليم لين: المصريون المحدثون فى القرن التاسع عشر ص ١٤٩.

أسلوبه... وله رسالة بليغة مؤثرة فى وصف الحرم النبوى الكريم ومراسم زيارته، عنوانها «اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك» كتب بها إلى وليه وصديقه أبى الحسن بن مقصير من علماء فاس. ونظمه فائق، وقد جمعه فى ديوان، يقع فى مجلد متوسط، ومنه جزء سماه «نتيجة وجد الجوانح فى تأبين القرين الصالح» أودعه قطعاً وقصائد فى رثاء زوجته أم المجد، والتوجع لفقدها، يشتمل على أكثر من ثلاثمائة بيت، عدا موشحات خمس، وجزء آخر سماه «نظم الجمان فى التشكى من إخوان الزمان» يشتمل على أكثر من مائتى بيت، وله رسائل بديعة وطائفة من الحكم.

ومن أشهر مانظم، قصيدته التى نظمها يعرب فيها عن خشوعه وشوقه لزيارة الجناب النبوى الكريم. ومنها:

أقول وآنست بالليل ناراً
لعل سراج الهدى قد أنارا

وإلا فما بال أفق الدجى
كأن سنا البرق منه استنارا

ونحن من الليل فى حندس
فمابالة قد تجلى نهارا

وهذا النسيم شذا الملك قد
أعير أم المسك منه استعارا

ومنها:

ولما حللنا فناء الرسول
نزلنا بأكرم مجد جوارا

وحين دنونا لفرض السلام
قصرنا الخطى ولزمنا الوقارا

فما نرسل اللحظ إلا اختلاسا
ولانرفع الطرف إلا انكسارا

❖ ❖ ❖

إليك إليك نبى الهدى
ركبت البحارا وجبت القفارا

دعائى إليك هوى كامن
أثار من الشوق ماقد أثارا

فنادينك لبيك داعى الهدى
وماكنت عنك أطيق اصطبارا

ولو كنت لا أستطيع السبيل
لطرت ولو لم أصادف مطارا

عسى لحظة منك لى فى غد
تمهد لى فى الجنان القرارا

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - تراجم إسلامية - شرقية وأندلسية للمؤرخ محمد عبد الله عنان ص ٣٢٨ - ٣٣٧ بتصرف.

٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى جـ ٥١٥/٥.

٣- الإحاطة بأخبار غرناطة لابن الخطيب جـ ١٦٨/٢.

٤- الأعلام للزركلى جـ ٣١٩/٥.

٥- رحلة ابن جبير. ط . الهيئة العامة لقصور الثقافة. ص ٧ - ٣٢.

ابن الجزرى
(٧٥١ - ٨٣٣هـ = ١٣٥٠ - ١٤٢٩م)

هو أبو الخير شمس الدين: محمد بن محمد بن محمد بن على بن يوسف بن الجزرى الدمشقى ثم الشيرازى الشافعى، والجزرى نسبة إلى جزيرة ابن عمر قرب الموصل.

ولد ابن الجزرى ليلة السبت فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وخمسين وسبعمائة = ١٣٥٠م داخل خط القصاعين بين السورين بدمشق. وتوفى عام ٨٣٣هـ الموافق ١٤٢٩م.

ونشأ فى دمشق نشأة علمية فأتم حفظ القرآن وهو ابن ثلاث عشرة سنة. كما اعتنى بالفقه والحديث وبرز فى القراءات حيث تلقاها على عدد كبير من علماء دمشق.

رحل إلى الحجاز لأداء فريضة الحج سنة ٧٨٦هـ فقرأ بالمدينة المنورة على خطيبها وإمامها أبى عبد الله بن محمد بن صالح، ثم رحل إلى مصر ثلاث مرات وذلك فى سنة ٧٦٩، ٧٧١، ٧٧٨هـ، فالتقى بكبار علماء القراءات فى القاهرة وقرأ عليهم. كما سمع الحديث وأخذ الفقه عن بعض الشيوخ وقرأ الأصول والمعانى والبيان على الشيخ القزوينى، ورحل إلى الإسكندرية وسمع الحديث من علمائها. ثم عاد إلى الشام بعد أن حصل علمًا كثيرا وكان قد حصل على إذن بالإفتاء من ابن كثير الدمشقى الذى أذن له سنة ٧٧٤هـ والبلقينى سنة ٧٨٥هـ وغيرهم.

لم تنقطع رحلات ابن الجزرى عن مصر كما رحل إلى الروم ونشر بها علم القراءات والحديث وانتفع به أهلها وقرأ عليه القراءات العشر خلق كثير، وألف «كتابه النشر فى القراءات العشر» فى مدينة يرصد سنة ٧٩٩هـ ونظم «طيبة النشر فى القراءات العشر» فى السنة نفسها. ثم رحل إلى بلاد ما وراء النهر مع تيمورلنك ونزل بمدينة كش فبقى بها وبمدينة سمرقند إلى أن مات تيمورلنك وفى مدينة كش وسمرقند قرأ عليه جماعة، وألف فيها كثيرًا من الكتب. ولما مات تيمورلنك خرج ابن الجزرى إلى خراسان ودخل مدينة هراة فقرأ عليه العشرة جماعة،

ثم رجع إلى مدينة يزد فقرأ عليه فيها جماعة، ثم دخل أصبهان وأقرأ بها، ثم سار إلى شيراز فدخلها فى رمضان سنة ٨٠٨هـ فأقام بها مكرها فى بادئ الأمر حيث تمسك به سلطانها بير محمد، ثم ألزمه بالقضاء بها وبممالكها وما أضيف إليها. وقرأ عليه جمع كثير، وأنشأ داراً للقرآن على نمط مدرسته التى أنشأها بالشام، وانتهت إليه رئاسة الأكراد فظل يقرئ ويدرس ويؤلف.

تبوأ ابن الجزرى مكانة عالية ورفيعة فى علوم الحديث والفقه والقراءات، إلا أنه برع فى علم القراءات حتى فاق أقرانه ومشايخه وصار بحق إمام هذا الفن بلا منازع. إن ما ألفه ابن الجزرى فى علم القراءات ليجعله إماما لهذا العلم حتى تقوم الساعة.

لقد ألف ابن الجزرى ـ رحمه الله تعالى ـ كتبًا كثيرة فى علوم متنوعة إلا أن أغلبها أو أكثرها تتعلق بعلم القراءات وعلوم القرآن الكريم، وخوفا من الإطالة سأقتصر على ذكر بعض كتبه التى تزيد على سبعين مؤلفًا.

ولقد تقلد ابن الجزرى عددا من المناصب فى البلاد التى أقام بها وكان أكثرها مناصب علمية كالإقراء والتدريس والقضاء، من هذه المناصب أنه:

١- ولى مشيخة الإقراء الكبرى بتربة أم الصالح بعد وفاة شيخه ابن السلار.

٢- ولى قضاء الشام فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ولم يتم له ذلك لعارض.

٣- ولى قضاء شيراز وما يتصل بها مدة طويلة.

٤- تصدى للإقراء والتحديث بالقاهرة بعد أن اجتمع بالسلطان الأشرف سنة ٨٢٧هـ.

٥- ولى تدريس الصلاحية القدسية سنة ٧٩٥هـ عوضا عن المحب بن البرهان بن جماعة، فدام فيها إلى أول سنة ٧٩٧هـ.

٦- ولى خطابة جامع التوتة.

٧- جلس للإقراء تحت النَّسر من الجامع الأموى سنين.

ومن أهم مؤلفاته:

١- إتحاف المهرة فى تتمة العشرة.

٢- إعانة المهرة فى زيادة العشرة.

٣- تقريب النشر فى القراءات العشر.

٤- النشر فى القراءات العشر.

٥- التمهيد فى علم التجويد.

٦- التوجيهات فى أصول القراءات.

٧- جامع الأسانيد فى القراءات - ذكر فيه أسانيده فى قراءة القرآن.

٨- الدرة المضية فى قراءات الثلاثة المرضية.

٩- طيبة النشر فى القراءات العشر.

١٠- المقدمة الجزرية.

١١- هداية البررة فى تتمة العشرة.

١٢- هداية المهرة فى ذكر الأئمة العشرة المشتهرة.

١٣- نهاية البررة فيما زاد على العشرة.

١٤- منجد المقرئين ومرشد الطالبين.

أ. د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١- غاية النهاية٢/٢٤٧ وما بعدها.
٢- هدية العارفين ٢/١٨٧ وما بعدها.
٣- والنشر ٢/٤٦٩ وما بعدها.
٤- دائرة المعارف الإسلامية ١/١١٩.
٥- وكشف الظنون ٢/١٢٨.
٦- قضاة دمشق ٢٢.
٧- البدر الطالع ٢/٢٥٧.
٨- روضات الجنات ٨/١١٦.
٩- الأعلام للزركلى ٧/٤٥.

الجصـــــاص
(٣٠٥ - ٣٧٠هـ = ٩١٦ - ٩٨١م)

هو أبو بكر أحمد بن على الرازى الحنفى الإمام العلامة، المفتى المجتهد، عالم العراق، صاحب التصانيف، إمام أصحاب الرأى فى وقته المشهور بالجصاص.

ولد سنة ٣٠٥هـ الموافق ٩١٦م، وتوفى سنة ٣٧٠هـ الموافق ٩٨١م.

كان إمام الحنفية فى وقته، وإليه انتهت رئاسة الأصحاب، وكان مشهورًا بالزهد والورع.

ورد بغداد فى شبيبته، ودرس الفقه على أبى الحسن الكرخى، ولم يزل حتى انتهت إليه الرئاسة، ورحل إليه المتفقه، وأخذ عن أبى سهيل الزجاج وعن غيره من فقهاء عصره، واستقر التدريس له ببغداد، وانتهت الرحلة إليه، وكان على طريق الكرخى فى زهده، وبه انتفع، وعليه تخرج، وبلغ من زهده أنه خوطب فى أن يلى القضاء فامتنع، وأعيد عليه الخطاب فلم يقبل. وكان صاحب حديث ورحلة، ولقى أبا العباس الأصم وطبقته بنيسابور، وعبدالباقى بن قانع، ودعلج ابن أحمد وطبقتهما ببغداد، وإليه المنتهى فى معرفة المذهب، ويحتج فى كتبه بالأحاديث المتصلة الإسناد.

يعد أحكام القرآن للجصاص من أهم كتب التفسير الفقهى، خصوصًا عند الحنفية، لأنه يقوم على تركيز مذهبهم والترويج له، والدفاع عنه، وهو يعرض لسور القرآن كلها، ولكنه لا يتكلم إلا عن الآيات التى لها تعلق بالأحكام فقط، وهو وإن كان يسير على ترتيب سور القرآن تجده مبوباً كتبويب كتب الفقه، وكل باب من أبوابه معنون بعنوان تتدرج فيه المسائل التى يتعرض لها المؤلف.

وهو لا يقتصر فى تفسيره على ذكر الأحكام التى يمكن أن تستنبط من الآيات، بل نراه يستطرد إلى كثير من مسائل الفقه والخلافات بين الأئمة، مع ذكره للأدلة بتوسع كبير مما جعل كتابه أشبه ما يكون بكتب الفقه المقارن، وكثيرا ما يكون هذا الاستطراد إلى مسائل فقهية لا صلة لها بالآية إلا عن بُعْد.

فمثلا عندما عرض لقوله تعالى من سورة

البقرة: ﴿ **وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ يستطرد لمذهب الحنفية فى أن من قال لعبيده: مَنْ بشرنى بولادة فلانة فهو حر، فبشره جماعة واحداً بعد واحد. أن الأول يعتق دون غيره.

ثم إنه متعصب لمذهب الحنفية إلى حد كبير، مما جعله فى هذا الكتاب يتعسف فى تأويل بعض الآيات حتى يجعلها فى جانبه، أو يجعلها غير صالحة للاستشهاد من جانب مخالفيه والذى يقرأ كتابه - هذا - يلمس روح التعصب فيه فى كثير من المواقف.

فمثلاً: عندما عرض لقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ **ثم أتموا الصيام إلى الليل** ﴾. نجده يحاول التعسف بأن يجعل الآية دالة على أن مَنْ دخل فى صوم التطوع لزم إتمامه.

كذلك يتحدث الجصاص عن مخالفيه بلهجة لا تصح مع مثل هؤلاء الأئمة.

كذلك نجده يميل إلى عقيدة المعتزلة ويتأثر بها فى تفسيره. فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية ١٠٢ من سورة البقرة ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان** ﴾ نجده يذكر حقيقة السحر، ويقول: (إنه متى أطلق فهو اسم لكل أمر مموه باطل لاحقيقة له ولا ثبات).

كما أنه ينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقرر أنه من وضع الملاحدة.

نلاحظ كذلك حملته على سيدنا معاوية رضى الله عنه، وتبدو منه البغضاء له ويتأثر بذلك فى تفسيره. فمثلا عند قوله تعالى فى سورة الحجرات ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا..** ﴾ نجده يجعل علياً هو المحق فى قتاله، أما معاوية ومن معه فهم الفئة الباغية، وكذلك كل من خرج على علىّ - رضى الله عنه-.

وما كان أولى بصاحبنا أن يترك التحامل على معاوية الصحابى ويفوض أمره إلى الله، ولا يلوى مثل هذه الآيات إلى ميوله وهواه.

أما عن مؤلفاته، فهى كثيرة، منها :

١- أحكام القرآن. ٢ - شرح مختصر الطحاوى ٣ - شرح الجامع الكبير «المناسك» ٤ - شرح مختصر الكرخى ٥ - شرح الجامع الكبير للإمام الشيبانى ٦ - كتاب فى أصول الفقه ٧ - كتاب فى أدب القضاء.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة :

١ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ ٣١٤/٤، ٣١٥، ط المكتبة السلفية المدينة المنورة ١٠٨٤هـ ، سير الأعلام ٣٤/٦، وطبقات الداودى ٥٥/١ والتفسير والمفسرون للذهبى ١٠٤/٣.

٢ - مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٥٠، والتفسير والمفسرون ١٠٤/٣-١٠٥.

٣ - التفسير والمفسرون للذهبى جـ ١٠٦/٣ - ١٠٧.

٤ - مقدمة فى أصول التفسير ص ٥٠، والتفسير والمفسرون ١٠٧/٣

جعفر الصادق
(٨٠ - ١٤٨هـ = ٦٩٩ - ٧٦٥م)

هو الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر ابن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، الهاشمى، القرشى وكنيته : أبو عبدالله، وقيل: أبو إسماعيل رضي الله عنه.

وألقابه ثلاثة: الصادق، والفاضل، والطاهر، وأشهرها: الصادق. وأمه: أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم.

من أجلاء التابعين، وأحد أعلام القرن الثانى الهجرى، وسادس الأئمة الإثنى عشر عند الإمامية.

ولد بالمدينة المنورة سنة ثمانين للهجرة الموافق لسنة ٦٩٩م وقيل: ولد سنة ٨٣هـ. وقيل: غير ذلك والراجح الأول، حيث ولد فى السنة التى ولد فيها عمه زيد بن على - رضى الله عنهما -، وهى نفس السنة التى ولد فيها الإمام أبو حنيفة النعمان وتوفى رضي الله عنه فى شوال سنة ثمان وأربعين ومائة للهجرة الموافق سنة ٧٦٥م.

ويقال: إنه مات بالسم فى أيام المنصور ودفن فى البقيع مع أبيه وجده - رضى الله عنهم.

ونشأ رضي الله عنه بالمدينة المنورة حيث العلم المدنى، وحيث كانت آثار الصحابة - رضى الله عنهم - قائمة، وكبار التابعين أمثال: ابن شهاب الزهرى وغيره من الفقهاء وكان لا يجد غضاضة فى أن يأخذ عنهم علم جده ﷺ ومازال يشدو فى طلب العلم حتى بلغ فيه درجة العالم الذى تسير إليه الركبان، واستمر فى طلب العلم حتى مات أبوه وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره.

ونال علم السنة، وعلم الفقه، وكان معنيا كل العناية بمعرفة آراء الفقهاء على شتى مناهجهم.

وكان رضي الله عنه عالماً ثقة روى عنه جماعة من أعيان العلماء وأعلامهم أمثال:

يحيى بن سعيد، وابن جريج، ومالك بن أنس وسفيان الثورى، وابن عيينة، وأبى حنيفة وغيرهم، وبلغ من عبادته وتقواه أنه كان يقسم أوقاته على أنواع الطاعات ويحاسب

نفسه عليها، وكان يقول: «اللهم إنك بما أنت له أهل من العفو، أولى بما أنا له من العقوبة».

ومن كلامه رضي الله عنه:

«لا يتم المعروف إلا بثلاث: تعجيله وتصغيره، وستره».

علمه بالكونيات:

قال عنه ابن خلّكان فى ترجمته:

«أحد الأئمة الإثنى عشر على مذهب الإمامية، من سادات أهل البيت، ولقب بالصادق لصدقه فى مقالته، وفضله أشهر من أن يذكر».

وكان تلميذه جابر بن حيان الصوفى الطرطوسى، قد ألف كتابا يشتمل عى ألف ورقة تتضمن رسائل جعفر الصادق، وهى خمسمائة رسالة».

وهذا الكلام يدل على أمرين:

أحدهما: أنه تتلمذ له جابر بن حيان، وهو صاحب علوم الكيمياء، وله عدة رسائل فى الكون والعقائد والكيمياء.

الثانى: أنه نشر خمسمائة رسالة هى لجعفر الصادق، ومهما يكن من أمر فى نسبة الرسائل إليه، فإنه يبدو أن الإمام اشتغل بهذه العلوم، إذ أنه كان عنده من الذكاء والقوة النفسية ما يجعله يتجه إلى طلب المعرفة من أى نوع، ومن أى ناحية.

ونسبت إليه كتب عديدة ليس بينها كتاب صحيح، وهى تتناول بصفة خاصة العرافة والسحر والكيمياء، ومن أشهرها جميعا كتاب الجبر الذى تكتنفه الأسرار ويتنبأ بأحداث المستقبل.

ويعتبر الإمام جعفر الصادق عند معظم الشيعة إماما من أعظم الأئمة، والمعلم المثالى للفقه، ويشير الإثنا عشرية إلى أنفسهم باعتبار أنهم أصحاب مذهب الجعفرية.

ويعد كذلك من كبار الصوفية، وينسب إليه كذلك أدعية وعظات، وكثير من الأقوال التى كانت موضعا للجدل فى بعض المسائل الكلامية، وهو آخر إمام اعترف به كل من الإثنا عشرية، والشيعة، والإسماعيلية، وورث الإمامة من والده محمد الباقر.

وعاش فى السنوات الحرجة التى انتقلت فيها السلطة من الأمويين إلى العباسيين وظل محايداً أثناء الفتن التى نشبت أثناء الإمام زيد سنة ١٢٢هـ إلى وفاة الوليد سنة ١٢٦هـ.

وكان يعقد حلقات الدرس فى جمهرة من الناس ويفتى فيهم، وذكروا أن الأئمة أبا حنيفة النعمان، ومالك بن أنس، وواصل ابن عطاء قد رووا عنه الحديث.

وقد اتصف الإمام جعفر بنبل المقصد، وشرف الغاية، والتبحر فى طلب الحقيقة من كل هوى، كما كان ذا فراسة قوية أضفى الله عليه جلالا ونورا ومهابة، ومع هذه الهيبة كان متواضعا مع تلاميذه والمقبلين عليه، وهكذا العظماء دائما تفرض هيبتهم طاعتهم، وهم يتواضعون للضعفاء ليدنوا منهم.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - وفيات الأعيان لابى خلكان حـ١/١٠٥

٢- حلية الأولياء لأبى نعيم حـ٣/١٩٢.

٣- صفة الصفوة لابن الجوزى حـ٢/١١٤.

٤- تاريخ المذاهب الفقهية لأبى زهرة ص ٦٣٩.

٥- الأعلام للزركلى حـ٢/١٢٦.

٦- موجز دائرة المعارف الإسلامية حـ١٠/٣٠١٠.

٧- تاريخ اليعقوبى حـ٣/١١٥.

أبو جعفر المدنى
(٠٠٠ - ١٣٢هـ = ٠٠٠ - ٧٥٠م)

هو يزيد بن القعقاع المخزومى بالولاء، وقيل: فيروز بن القعقاع، وقيل: جندب بن فيروز، والأول أصح وعليه الاعتماد وكنيته أبو جعفر المدنى أحد القراء العشرة، ولم تذكر المصادر سنة مولده، ونصت على وفاته وأنه مات سنة ستة وثلاثين ومائة من الهجرة، وقيل اثنتين وثلاثين والأول أدق وهو الذى اكتفى به صاحب «غاية الاختصار».

عرض القرآن على مولاه عبد الله ابن عياش بن أبى ربيعة المخزومى وعلى أبى هريرة وابن عباس رضى الله عنهم. وقرأ هؤلاء الثلاثة على أبى بن كعب، وقرأ أبو هريرة وابن عباس أيضا على زيد بن ثابت، وقيل: إن أبا جعفر قرأ على زيد بن ثابت نفسه، فقد صح أنه أتى به إلى أم سلمة زوج النبى ﷺ فمسحت على رأسه، ودعت له بالخير، ولكن الذهبى قال: ذلك لا يصح. وقرأ زيد بن ثابت وأبى بن كعب على رسول الله ﷺ.

روى القراءة عنه: نافع بن أبى نعيم وعيسى بن وردان، وسليمان بن محمد بن مسلم بن جماز، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وأبو عمرو بن العلاء.

كان أبو جعفر إمام أهل المدينة فى القراءة مع كمال الثقة وتمام الضبط ولقد أفاض العلماء فى الثناء عليه لعظيم قدره.

قال أبو عبيد فى كتاب «القراءات»: كان يقرئ الناس قبل وقعة الحرة، وكانت الحرة سنة ثلاثة وستين.

ويروى الإمام الذهبى عن سليمان بن مسلم قال: شهدت أبا جعفر حين احتضر جاء أبو حازم ومشيخة فأكبوا عليه يصرخون به فلم يجبهم، قال شيبة وكان ختنه على ابنة أبى جعفر: ألا أريكم منه عجبا؟ قالوا: بلى فكشف عن صدره فإذا دواره بيضاء مثل اللبن، فقال أبو حازم وأصحابه: هذا والله نور القرآن، قال سليمان: فقالت لى أم ولده بعد ما مات صار ذلك البياض غرة بين عينيه. وروى عن الإمام نافع قال: لما غسل أبو جعفر القارئ نظروا ما بين نحره إلى

فؤاده مثل ورقة المصحف فما شك من حضره أنه نور القرآن.

إن الناظر فى مثل ما روى ليرى ما أكرم الله به هذا الإمام القارئ. وهذه الكرامة لا تعطى إلا لمن أحبه الله واصطفاه لإقراء الناس.

ورآه سليمان القمرى فى المنام على الكعبة فقال له: أقرئ إخوانى السلام وأخبرهم أن الله - عز وجل - جعلنى من الشهداء الأحياء المرزوقين، ورآه بعضهم فى المنام على صورة حسنة فقال له: بشر أصحابى وكل من قرأ بقراءتى أن الله قد غفر له وأجاب فيهم دعوتى، ومرهم أن يصلوا هذه الركعات فى جوف الليل كيف استطاعوا.

وكان منهج أبو جعفر فى القراءة يتسم بما يلى:

١- يقرأ بالبسملة بين كل سورتين إلا بين الأنفال وبراءة فله الأوجه الثلاثة المعروفة.

٢- يضم ميم الجمع ويصلها بواو إن كان بعدها حرف متحرك همزاً كان أو غيره.

٣- يقرأ بإسكان الهاء فى يؤده، قوله، نصله، نؤته فألقه.

٤- يقرأ بقصر المنفصل وتوسط المتصل بقدر أربع حركات.

٥- يسهل الهمزة الثانية من الهمزتين المتلاقيتين من كلمة مع إدخال ألف بينهما سواء أكانت الهمزة مفتوحة أو مكسورة أو مضمومة.

٦- يسهل الهمزة الثانية من الهمزتين المتلاقيتين فى الكلمتين المتفقتين فى الحركة، أما المختلفتان فيها فيغير ثانتهما كما يغيرها نافع وابن كثير وأبو عمرو.

٧- يبدل الهمز الساكن مطلقا سواء كان فاء للكلمة أو عينا أو لاماً لها.

٨- يدغم الذال فى التاء فى أخذتم ويابه، ويدغم التاء فى التاء فى لبثت ولبثتم، والذال فى التاء فى عذت.

٩- يقرأ بإخفاء النون الساكنة والتنوين عند الخاء والعين من الغُنَّة نحو: من خير، من غفور عليم خبير عزيز غفور.

١٠- يقف على كلمة أبت بالهاء حيث وردت.

١١- يفتح ما يفتحه قالون من ياءات الإضافة ويسكن ما يسكنه منها إلا ما استثنى.

١٢- يوافق قالون فى اثبات بعض الياءات الزائدة وصلا - ويوافق ورشاً فى إثبات بعضها - وينفرد باثبات البعض الآخر كما هو مفصل فى الكتب.

١٣٠ يقرأ بضم تاء للملائكة واسجدوا فى جميع المواضع.

١٤ يسكت على كل حرف من حروف الهجاء الواقعة فى أوائل السور مثل «الٓم» (كٓهيٓعٓصٓ) سكته لطيفة من غير تنفس.

١٥- يقرأ (ونخرج له يوم القيامة) بالسراء بالياء المضمومة فى مكان النون المفتوحة، ويفتح الراء.

١٦- يقرأ (ولا يأتل أولوا الفضل) بالفوربنا ومفتوحة بعد الياء وبعد التاء همزة مفتوحة مع فتح اللام وتشديدها.

١٧- يقرأ (نسقيكم مما فى بطونه بالمؤمنين والنحل بتاء مفتوحة مكان النون المضمومة.

١٨- يقرأ ولتصنع على عينى بسكون اللام وجزم العين فى طه.

١٩- يقرأ إصطفى البنات فى الصفات يوصل الهمز ويبتدئ بها مكسورة.

٢٠- يقرأ بنصب فى صٓ بضم النون والصاد.

أ.د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزاده :

١ - غاية الاختصار فى قراءات العشرة ١/٧.
٢- معرفة القراء الكبار ١/٧٢.
٣ - غاية النهاية ٢/٣٨٢.
٤ - سير أعلام النبلاء ٥/٢٨٧.
٥ - النشر فى القراءات العشر ١/١٧٨.
٦ - تحبير التفسير ص ١٩.
٧ - شرح طيبة النشر ١/٢٠٩.
٨ - تهذيب التهذيب ١٢/٥٨.
٩ - شذرات الذهب ١/١٧٦.
١٠ - الأعلام للزركلى ٥/١٨٦.

جمال الدين الأفغانى
(١٢٥٤ - ١٣١٥هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م)

هو جمال الدين بن صفتر بن على بن مير رضى الدين محمد الحسينى.

موقظ الشرق، وفيلسوف الإسلام، ورائد تيار الجامعة الإسلامية، وأبرز قادة الحركة الإصلاحية الإسلامية، ومن طلائع المجددين والمجتهدين فى الفكر الإسلامى، فى عصرنا الحديث.

عربى الأصل، هاشمى النسب، حسينى - يرتفع نسبه إلى الإمام الحسين بن على بن أبى طالب، رضى الله عنهما.

ولد (١٢٥٤هـ - ١٨٣٨م) ببلدة «أسعد آباد»، فى خطة «كنر»، من أعمال «كابل»، ببلاد الأفغان، فى أسرة ذات نفوذ سياسى وإدارى فى مقاطعتها.

وفى الثامنة من عمره انتقل - مع الأسرة - إلى العاصمة «كابل»، عندما خشى أمير الأفغان «دوست محمد خان» نفوذ أسرته فى منطقتها، وفى «كابل» أشرف والده على تعليمه، وقبل أن يبلغ العاشرة من عمره، كان قد تعلم - بالمنزل - القراءة والكتابة - ومبادئ اللغة العربية، وحفظ القرآن الكريم.

وفى العاشرة من عمره، رحل مع والده إلى إيران، حيث عمل والده مدرسا فى مدرسة «قزوين»، وأصبح هو تلميذا فى هذه المدرسة، التى أمضى فيها عامين، لفت أثناءها الأنظار بذكائه واجتهاده، وميوله المبكرة لدراسة العلوم، واهتمامه بالفلك، ورغبته فى قراءة كتب الطب، ومحاولته ممارسة التشريح!.

ومن «أسد آباد» - حيث كانت تقيم أسرته - سافر جمال الدين سنة ١٨٤٩م إلى «النجف» - بالعراق - فدرس بها خمس سنوات، تعلم فيها علوم القرآن، والحديث، والكلام، والفلسفة، والمنطق، وأصول الفقه، والرياضة، والفلك، والطب والتشريح.

ومن «النجف» عاد لزيارة الأسرة فى «أسد آباد» سنة ١٨٥٤م، عازما على زيارة الهند، ليتعلم فيها الرياضة الحديثة والعلوم الأوروبية، فسافر إلى «بومباى» ثم إلى «كلكتا» - حيث أقام بها أكثر من عام. ومن الهند سافر إلى «مكة» حاجا، سنة ١٨٥٧م، ثم عاد إلى العراق، فإيران. ولما طلبت منه أسرته

الإقامة معها، فى «أسد آباد»، اعتذر قائلاً: «إننى كصقر محلق، يرى فضاء هذا العالم الفسيح ضيقا لطيرانه! وإننى لأتعجب منكم إذ تريدون أن تحبسونى فى هذا القفص الضيق الصغير»!. وبعد زيارة لطهران وخراسان، توجه عائدًا إلى وطنه الأصلى أفغانستان.

وفى «كابل» بدأ جمال الدين الإسهام فى النشاط العام، فكتب كتابه الأول (تتمة البيان فى تاريخ الأفغان) - باللغة العربية - التى كان يجيدها هى والفارسية، والأفغانية - والتى سيضيف إليها - فيما بعد - إجادة التركية، والفرنسية، مع إلمام بالإنجليزية، والروسية!.

وكان الاستعمار الإنجليزى - الذى كان يحتل الهند - قد بدأ تدخله فى شئون أفغانستان، مناصرا الأمير «دوست محمد خان» ضد الأمير «محمد أعظم خان»، فألقى جمال الدين بثقله فى العمل السياسى والوطنى، مناصرا حكومة الأمير الوطنى محمد أعظم خان، ومشاركا فى القتال الذى دار ضد الإنجليز سنة ١٨٦٢م. وارتقى فى مناصب الحكومة الوطنية حتى أصبح الوزير الأول (رئيس الوزراء).

فلما دارت الدائرة على الأمير الوطنى «محمد أعظم خان» وهزم سنة ١٨٦٨م؛ عرف جمال الدين طريقه إلى الترحال من جديد، لكن ترحاله، منذ ذلك التاريخ وحتى وفاته، كان فى سبيل إيقاظ المسلمين، ومحاربة الاستعمار الأوروبى، والإنجليزى منه على وجه الخصوص، فلقد خرج من أفغانستان إلى الهند، ثم مصر، فالآستانة، فالحجاز، فالعراق، فإيران، فروسيا، فلندن، وباريس، داعيا إلى الإحياء والتجديد للفكر الإسلامى، وإلى إيقاظ الأمة الإسلامية من سباتها، وفك قيود الجمود والتقليد، والإقلاع من التخلف الموروث إلى النهوض الإسلامى، لمواجهة الاستعمار الزاحف على ديار الإسلام، وكان - فى سبيل ذلك - مزكيا لمنهاج الشورى والحرية فى إدارة شئون الأمة وتدبير سياسات حكوماتها، وموقدا للثورات فى وجه الاستبداد الداخلى.

ومع إيمانه بدور العامة والجماهير فى الثورة والإصلاح، فلقد كان أبرز صناع النخبة والصفوة، التى قادت حركة الجامعة الإسلامية على امتداد وطن العروبة وعالم الإسلام، مجددة للفكر، وقائدة لحركات التحرر الوطنى، وداعية إلى الإصلاح الاجتماعى، ومفجرة للعديد من الثورات. حتى لقد كانت صناعته الأولى هى تربية الرجال!.

ولقد كانت السنوات التى عاشها الأفغانى

فى مصر (١٢٨٨- ١٢٩٦هـ =١٨٧١- ١٨٧٩م) هى أخصب السنوات فى تاريخ إنجازاته الفكرية والسياسية، ففيها ربى نخبة من العقول التى جددت فكر الإسلام وحياة المسلمين - وفى مقدمتهم الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٥- ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩- ١٩٠٥م). وشرح من كتب الفلسفة والكلام والمنطق ما أعاد للحياة الفكرية قمة العقلانية الإسلامية، التى غابت عنها منذ عصر التراجع الحضارى للمسلمين، ونشأت على يديه مدرسة فى الصحافة الأهلية الحرة - غير الحكومية - صحف (مصر) و(التجارة) و(مرآة الشرق)، وتيار شعبى لمعارضة الاستبداد الداخلى، وللثورة على النفوذ الأجنبى - الاقتصادى - والسياسى والعسكرى - كما عرفت البلاد على يديه طلائع التنظيمات السياسية والإصلاحية (الحزب الوطنى الحر) فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ نشأة الأحزاب.

وبضغوط من الدول الاستعمارية - وخاصة إنجلترا، التى كانت تحضّر لاحتلال مصر - خضع الخديوى توفيق (١٢٦٨- ١٣٠٩هـ = ١٨٥٢ - ١٨٩٢م) فنفى جمال الدين من مصر (١٢٩٦هـ - ١٨٧٩م)، زاعما أن الأفغانى «يقود جماعة من ذوى الطيش، مجتمعة على فساد الدين والدنيا!!». فذهب جمال الدين، منفيا، إلى الهند - وهى مستعمرة إنجليزية - فمكث فيها شبه معتقل، حتى تمت هزيمة الثورة العرابية، واحتلال الإنجليز لمصر (١٢٩٩هـ - ١٨٨٢م). وعندئذٍ سمح له الإنجليز بمغادرة الهند، فسافر إلى باريس - العاصمة المنافسة لإنجلترا - وهناك لحق به الشيخ محمد عبده - وكان منفيا ببيروت، بعد هزيمة العرابيين ومحاكمتهم - ومن باريس أصدرا مجلة (العروة الوثقى) لتعبر عن فكر وسياسة التنظيم السرى الذى أقامه الأفغانى، لمواجهة الاستعمار الإنجليزى، وإنهاض المسلمين، وهو التنظيم الذى امتدت «عقوده - خلاياه» إلى أغلب بلاد المسلمين- وخاصة مصر والهند - والذى استقطب صفوة العلماء المجددين والأمراء والساسة المجاهدين - تنظيم (العروة الوثقى)، فكان هذا التنظيم ومجلته أهم مدارس الوطنية الإسلامية، والبعث الحضارى الإسلامى، التى تربى فيها وتعلم منها واستضاء بمنهاجها دعاة اليقظة والتجديد والإصلاح والثورة على امتداد عالم الإسلام.

ولقد انتهى المطاف بالأفغانى - بعد أن زرع التجديد والإحياء والثورة فى أرجاء العالم الإسلامى، وبعد أن صنع على عينه جيلا من القادة والعلماء والثوار والمجددين - انتهى به المطاف إلى «القفص الذهبى السلطانى» فى الآستانة، لكنه، وهو النسر المستعصى على

قيود السلاطين، وأسوار المدن، وجغرافية الأوطان، حاول تحرير إرادة السلطان عبدالحميد (١٢٥٨- ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م) من قبضة حاشيته الغارقة فى الرجعية والفساد، وسعى إلى بعث الروح فى حركة الجامعة الإسلامية لمناهضة الزحف الاستعمارى على ولايات الدولة العثمانية، وتطلع إلى سد ثغرة الشقاق المذهبى والسياسى بين إيران ودولة الخلافة الإسلامية، لقطع الطريق على الاستعمار، الذى يخترق الوجود الإسلامى من مثل هذه الثغرات!..

وظل الأفغانى قائما بفريضة الجهاد على هذه الجبهات - التجديد الفكرى - واليقظة الإسلامية، والتصدى للاستعمار، وكسر قيود الاستبداد - حتى وافاه الأجل، فلقى ربه - فى الساعة السابعة والدقيقة الثالثة عشرة، من صبيحة يوم الثلاثاء ٥ شوال سنة ١٣١٥هـ - ٩ مارس سنة ١٨٩٧م - ودفن فى الآستانة، ثم نقل جثمانه - بعد سنوات - فى موكب إسلامى مهيب - إلى بلاده الأفغان.

ولقد ترجم له، وتحدث عنه أعرف الناس به، وأقربهم إليه: الإمام محمد عبده، فقال - ضمن ما قال-:

«هو السيد محمد جمال الدين، ابن السيد صفتر. من بيت عظيم من بلاد الأفغان، حَنَفِىّ حَنِيفِىّ. وهو وإن لم يكن فى عقيدته مقلدا، لكنه لم يفارق السُّنّة الصحيحة، مع ميل إلى مذهب السادة الصوفية، يُمثّل لناظره عربيا محضا من أهالى الحرمين، فكأنما قد حفظت له صورة آبائه الأولين سكنة الحجاز.

وكان مقصده السياسى، مدة حياته: إنهاض دولة إسلامية من ضعفها، حتى تلحق الأمة بالأمم العزيزة، والدولة بالدول القوية، فيعود للإسلام شأنه وللدين الحنيفىّ مجده.

أما أخلاقه فسلامة فى القلب سائدة فى صفاته، وحلم عظيم يسع ما شاء الله أن يسع، إلى أن يدنو منه أحد ليمس شرفه أو دينه فينقلب الحلم إلى غضب تنقض منه الشهب، فبينما هو حليم أوّاب إذا هو أسد وثّاب، وهو كريم، يبذل ما بيده، قوى الاعتماد على الله، لا يبالى ما تأتى به صروف الدهر. عظيم الأمانة، سهل لمن لاينه، صعب على من خاشنه. طموح إلى مقصده السياسى. إذا لاحت له بارقة منه تعجّل السير للوصول إليه - وكثيرا ما كان التعجّل علة الحرمان.

وهو قليل الحرص على الدنيا، بعيد من الغرور بزخارفها، ولوع بعظائم الأمور، عزوف عن صغارها، شجاع مقدام، لا يهاب الموت، كأنه لا يعرفه.

إلا أنه حديد المزاج - وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة، إلا أنه صار فى رسوّ الأطواد وثبات الأوتاد.

فخور بنسبه إلى سيد المرسلين ﷺ لا يعد لنفسه مزية أرفع ولا عزًا أمنع من كونه سلالة ذلك البيت الطاهر.

ولو قلتُ: إن ما آتاه الله من قوة الذهن وسعة العقل ونفوذ البصيرة هو أقصى ما قُدِّر لغير الأنبياء، لكنتُ غير مبالغ. فكأنه حقيقة كلية، تجلّت فى كل ذهن بما يلائمه، أو قوة روحية، قامت لكل نظر بشكل يُشاكله.

لقد أُوتيتُ من لدنه حكمة أقلبُ بها القلوب وأعقل العقول، وأعطانى حياة أشارك بها محمدا وإبراهيم والأولياء والقديسين!!».

وإذا كانت هذه الكلمات - للإمام محمد عبده - عن جمال الدين الأفغانى - هى سطور من الصفحات التى كتبها أخبر الناس بالأفغانى، وأقربهم إليه، وأعرفهم به، وأنضج الثمرات لأطيب البذور التى غرسها هذا الفيلسوف العظيم، فلقد كانت رؤية الأفغانى لنفسه من البساطة بحيث تفتح البصائر على حقيقة الحياة التى عاشها والآثار التى تركها هذا الإنسان العظيم، لقد رأى نفسه «درويشا فقيرا، عابرا فى هذه الحياة». وكان يناجى نفسه فيقول: «أنت أيها الدرويش الفانى، مم تخشى؟! اذهب وشأنك، ولا تخف من السلطان، ولا تخش الشيطان. إنه سيان عندى طال العمر أو قصر، فإن هدفى أن أبلغ الغاية، وحينئذٍ أقول: فزتُ ورب الكعبة».

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١ - الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى، دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨م.. وطبعة بيروت سنة ١٩٧٩م.

٢ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده دراسة وتحقيق: د. محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

٣ - جمال الدين الأفغانى: موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، تأليف الدكتور محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

٤ - جمال الدين الأفغانى بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض، تأليف الدكتور محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م.

جمال الدين الشيال «المؤرخ»
(١٣٢٩ - ١٣٨٧هـ = ١٩١١ - ١٩٦٧م)

هو جمال الدين بن محمد شطا بن إبراهيم الشيال.

ولد بمدينة دمياط فى ١٣٢٩هـ الموافق ١٩١١م ونشأ فى أسرة طيبة متوسطة الحال، وتلقى تعليمه الأولى بمدرسة دمياط الابتدائية، ثم انتقل إلى القاهرة ليواصل تعليمه بالمرحلة الثانوية، وليشق طريقه فى الحياة. بعد حصوله على الثانوية توظف بمصلحة البريد والتحق أيضا بكلية الآداب جامعة القاهرة، وحصل على درجة الليسانس من قسم التاريخ عام ١٩٣٦م، ثم التحق بمعهد التربية العالى ونال دبلومه عام ١٩٣٨م، وعمل بالتدريس بمدرسة العريش الابتدائية، فعباس الابتدائية، فقنا الثانوية، فالحلمية الثانوية بالقاهرة، ولم ينقطع خلال تلك الفترة عن القراءة فى مجال التاريخ ونشر المقالات فى المجلات والصحف، واستهواه التنقيب عن المخطوطات العربية القديمة، وفى ١٣ نوفمبر عام ١٩٤٣م عين معيدا بقسم التاريخ بآداب الإسكندرية بعد أن رشحه وسانده أستاذه عبد الحميد العبادى، ولم يفت الشيال التنويه بهذا الفضل حين أهدى تحقيقه لكتاب المقريزى «اتعاظ الحنفا» عام ١٩٤٨م إلى أستاذه العبادى عميد آداب الإسكندرية وأستاذ التاريخ الإسلامى بها.

تقدم برسالة الماجستير عام ١٩٤٥م وكان موضوعها «تاريخ الترجمة بمصر فى الثلث الأول من القرن التاسع عشر الميلادى» وحصل على الدرجة، بالإضافة إلى جائزة البحث الأدبى لعام ١٩٤٦ من مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ثم تقدم برسالة الدكتوراه عام ١٩٤٨م وكان موضوعها مخطوطة «مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» لجمال بن واصل، وعين مدرسا للتاريخ الإسلامى بآداب الإسكندرية، ثم أستاذا مساعدا عام ١٩٥٢م فأستاذا عام ١٩٥٦م، فعميدا لهذه الكلية حتى وفاته فى الثانى بالإسكندرية عام ١٣٧٨هـ الموافق ١٩٦٧م.

ويمكن تفريع إنتاجه العلمى إلى ثلاثة فروع:

أولها: تحقيق المخطوطات العربية ونشرها والتعليق عليها.

وثانيها: الترجمة لأعلام العرب من القدماء والمحدثين ولبعض المدن العربية الشهيرة.

وثالثها: التأليف والتصنيف فى التاريخ الإسلامى عامة.

أما فى حقل تحقيق ونشر المخطوطات فقد قام الدكتور الشيال بإخراج وتحقيق ثمان مخطوطات، وهى.

١ - إغاثة الأمة بكشف الغمة للمؤرخ تقى الدين المقريزى وشاركه فى التحقيق د. مصطفى زيادة، وصدر عام ١٩٤٠م ثم أعيد طبعه عام ١٩٥٧م.

٢ - نحل عبر النحل ١٩٤٦م، للمؤرخ تقى الدين المقريزى.

٣ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ١٩٤٨م، للمؤرخ تقى الدين المقريزى.

٤ - الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك، للمؤرخ تقى الدين المقريزى.

٥ - مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، لجمال الدين بن واصل، ٣ أجزاء، ١٩٥٣ - ١٩٥٨م.

٦ - مجموعة الوثائق الفاطمية جزآن، ١٩٥٨م، وفاز عنها بجائزة الدولة التشجيعية.

٧ - حلية الزمن بمناقب خادم الوطن سيرة رفاعة الطهطاوى، لصالح مجدى.

٨ - النوادر السلطانية والمحاسن اليوسيفية، لبهاء الدين بن شداد، ١٩٦٤م.

٩ - أنيس الجليس فى تاريخ مدينة تنيس، لمحمد بن بسام التنيس، ١٩٦٧م، بغداد.

وفى ميدان الترجمة لأعلام العرب أصدر مؤلفا عن رفاعة الطهطاوى طبع مرتين ١٩٤٥م و ١٩٥٨م كتابا عن أبى بكر الطرطوشى ... أعلام العرب ١٩٦٨، وكتاب عن أعلام الإسكندرية فى العصر الإسلامى ١٩٦٥م ويتضمن سيرة حياة ١٣ علما عربيا سكندريا هم أبو الدرداء، عبد الرحمن بن هرمز والطرطوشى وسند بن عنان وابن عوف والحافظ السلفى وأبوالحسن الشاذلى وأبو العباس المرسى وابن عطاء السكندرى والقبارى، ومن المحدثين السيد محمد كريم، وعبد الله النديم، وعبد العزيز جاويش.

وفى باب الكتابة عن تاريخ المدن العربية وضع كتابًا عن تاريخ دمياط سياسيا واقتصاديا ١٩٤٩م مجمل تاريخ الإسكندرية ١٩٤٩م، والإسكندرية، طوبغرافية المدنية وتطورها من أقدم العصور حتى عام ١٩٥٢م، ومقالة عن الفسطاط، طبعت فى كتيب عام ١٩٥٨م.

وأما مؤلفاته فى التاريخ الإسلامى فهى:

١ - مصر والشام بين دولتين، ١٩٤٧م وهو يتضمن أحداث مصر والشام بين ٥٥٨ - ٥٦٩هـ.

٢ - تاريخ الترجمة بمصر فى عهد الحملة الفرنسية، ١٩٥١م.

٣ ـ تاريخ الترجمة والحركة الثقافية بمصر فى عهد محمد على، ١٩٥٢م.

٤ ـ قصة الاحتلال، ١٩٥٦م.

٥ ـ التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر، ١٩٥٨م.

٦ ـ رسالة عن تكوين الشعب المصرى بعد الفتح العربى، ١٩٦٠م.

٧ ـ تاريخ الدولة العباسية، ١٩٦٧م.

ومن المقالات التى نشرها بمجلات الثقافة والرسالة والمقتطف ومجلة كلية الآداب بالإسكندرية: الأدب المصرى القديم ١٩٣٧م، الإسلام فى غرب أفريقية ١٩٣٧م، الذكاء والوراثة ١٩٣٩م، الجاسوسية فى حروب بنى أيوب ١٩٤٢م، مظاهرة النساء فى القاهرة ١٩٥٠م، وحدة مصر وسورية فى العصر الإسلامى ١٩٥٨م، تاريخ البحث التاريخى المصرى فى القرن التاسع عشر ١٩٦٢م، وغير ذلك كثير.

وقد اتيحت للدكتور جمال الشيال فرص السفر والطواف بعدد من البلاد العربية والغربية كباكستان عام ١٩٥٤م، وسافر إلى مركز دراسات الشرق الأدنى بالجامعات الأمريكية والكندية ٥٥ ـ ١٩٥٦م، وألقى محاضرات بجامعات بيل وبرنستون ومتيشجان فى الولايات المتحدة الأمريكية وماكيجيل بكندا، وسافر مرتين إلى بغداد ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨م، ولإلقاء محاضرات بحلب وحماة ودمشق، وزار فاس بالمغرب العربى عام ١٩٥٩م، وندب مستشارا ثقافيا لأربع سنوات، وحضر مؤتمر الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن عام ١٩٦٥م، وندب أستاذا زائرا بجامعة بغداد خلال شهرى مارس وإبريل ١٩٦٦م.

وكان الدكتور الشيال يعقد فى منزله، جلسات أسبوعية يحضرها زملاؤه ومريدوه وواحد أو أكثر من جيل الرواد أو المستشرقين لتتحول الجلسة بعد فترة وجيزة من بدايتها إلى ندوة، ينتقل فيها الحديث من موضوع إلى آخر أخذا وردا وتعليقا فى تلقائية لا تحاصرها حدود جامدة بين التاريخ وبين غيره من أنواع المعرفة.

وكان الدكتور جمال الشيال عضواً بلجنة وضع تاريخ الأمة العربية وعضوا بلجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية.

أ. د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١ ـ أحمد عثمان: الكتاب السنوى الرابع تقديم الدكتور لطفى عبد الوهاب، ٢٠٠٠م، الجمعية المصرية للدراسات اليونانية الرومانية.

٢ ـ عبدالفتاح غنيمة وآخرون: الإسكندرية روعة وعطاء الزمان والمكان، ٢٠٠٢م.

٣ ـ د. محمد الجوادى: مجلة الثقافة (١٩٢٩ ـ ١٩٥٢م) تعريف وفهرسة وتوثيق.

٤ ـ نيقولا يوسف: أعلام من الإسكندرية، منشأة المعارف، ١٩٦٩م.

جمـال الديـن القاسمـى
(١٢٨٣ - ١٣٣٢ هـ = ١٨٦٦ - ١٩١٤م)

هو محـمـد جـمـال الدين أبو الفـرج بن محـمـد سعـيـد بن قـاسم الحـلاق، المعروف بالقـاسمى نسبـة إلى جده المذكور، وقـد ولد جـمـال الدين القـاسـمى فى سنة ١٢٨٣ هـ الموافق ١٨٦٦/٩/١٧م فى دمشق، ونشأ وتعلم فيهـا، وقـد أخذ العلم على طريقـة القدمـاء فحـفظ القـرآن الكريم ثم تعلم الكتابة، وبعد ذلك انتقل إلى مكتب فى المدرسـة الظاهرية، حيث تعلم مبادئ التوحيد والنحو والصرف والمنطق والبـيـان، وجـوَّد القـرآن، ثم درس أمهات الكتب فى النحو والتفسير والحديث، وأجازه كثير من علماء عصره.

وقد أظهر القـاسـمى نبـوغـا فـائقـا أهَّله لإقـراء الطلاب مـبـادئ العلوم وله من العمـر أربعـة عشـر عـامـا، وكان بجانب نبـوغـه فى علوم الدين متضلعا فى فنون الأدب، وعلى الرغم من أنه أخـذ مـعـارفـه الأولى على الطريقـة المألوفـة فى عـصـره فـإنه قـد راح يوسع من آفـاقـه، وينهل من مـعين المعـرفـة، ويتـابع تطور الحـركـة العلمـيـة فى جـمـيـع نواحيهـا، وقـد شـملت هـذه الآفـاق - بجـانب علوم الدين واللغة والأدب - التاريخ، والأصول، والفلسـفـة القـديمة والحـديثـة، والاجتمـاع، والرياضيات، والقانون، والفرق، والديانات.

انتـدبتـه الحكومـة للرحلة وإلقـاء الدروس العـامـة فى القرى والبلاد السورية مـدة أربع سنوات فى العقـد الأخيـر من القـرن التـاسع عـشـر، ثم رحل إلى مـصـر، والتقى بالشيخ محـمـد عـبـده، وزار المدينة المنورة، ولما عـاد أُلقى القبض عليه بتهمة الترويج لمذهب جديد فى الدين، ثم أُخلى سبيله، فانقطع فى منزله للتصنيف وإلقـاء الدروس العـامـة والخاصـة، ونشـر الكثـيـر من البـحـوث فى الصـحـف والمجـلات، إلى أن وافـاه أجله فى سنة ١٣٣٢هـ الموافـق ١٩١٤/٤/١٨م، ودفن فـى مقبرة الباب الصغير بدمشق.

لقـد نشأ القـاسمى فى ظل مفاهيم تحـرير الفكر العربى الإسلامى والكشف عن جوهره الأصيل، وقد تأثر القاسمى بقادة هذا الفكر، فشق طريقه على درب المجددين، وكان هدفه

الأساسى يتمثل فى «الكشف عن جوهر الإسلام وتجليته وإزالة غشاء الجمود والتقليد والخرافات والبدعة عنه»، وعلى الرغم من أن القاسمى كان سلفى العقيدة فإنه فى فكره كان أبعد الناس عن التقليد؛ فقد كان يؤمن بالحرية ويقدسها، ويحب رجالها، ويسعى إليهم، ويرى أن الإنسانية ملازمة للحرية، وقد عرف بين أقرانه منذ طفولته المبكرة بالتحرر من الأوهام، وتقديسه لسلطان العقل وحرية الفكر، وكان هذا سببا فى اضطهاده فيما بعد، حيث اتهمه حساده بالاجتهاد، وبإحداث مذهب جديد فى الدين أطلقوا عليه «المذهب الجمالى»، فأُلقى القبض عليه وتم التحقيق معه فى هذه التهمة، فردّها وفنّدَها، فأُخلى سبيله، واعتذر إليه والى دمشق.

وكان القاسمى يرى أن الدين مدرسة أخلاق، يدعو إلى الوحدة لا إلى الفرقة والتنازع، وأن العقل حجة الله البالغة، ومن أجل ذلك لا يمكن أن يأتى النقل بما يناقض العقل، والعلماء متفقون على أنه إذا تعارض العقل والنقل وجب تأويل النقل بالعقل، ومن هنا لا يجوز تعويق الفكر عن النظر والتأمل، فإن الحقيقة بنت البحث والتحقيق، ومعرفة وجه الحق فى أى أمر من الأمور تتطلب معرفة كل جوانبه، وتفصيل المتنازع فيه وتحليله، والتحرر من الأحكام السابقة المبنية على التقليد أو التحزب أو التقية أو الحمية، فالحق ليس منحصرا فى قول من الأقوال أو مذهب من المذاهب، وكثرة المجتهدين فى الأمة نعمة من الله، ودليل على حيوية الفكر فى الأمة، وليس الهدف من الإصلاح العلمى بالاجتهاد هو إضافة مذهب جديد إلى قائمة المذاهب القائمة، والدعوة له على انفراده، وإنما المراد هو إنهاض همم رواد العلم لمعرفة المسائل بأدلتها.

وكان القاسمى يقول: إنا فى الرأى مستقلون ولسنا بمقلدين ولا متحزبين، وقد دأب على مطالبة المسلمين بالاستقلال الفكرى طلبا للحق، وفى ذلك يقول حاثا المسلم على انتشال نفسه من وهدة التدنى الفكرى: «وفارق وهد التقليد إلى يفاع الاستبصار، وتسنم أوج التحقيق فى مطالع الأنظار.. واجعل طلب الحق لك نحلة والاعتراف به لأهله ملة».

وقد رفض القاسمى قول بعض الفقهاء عندما لا يفهمون أمرًا من أمور الشريعة: «إنه أمر تعبدى لا يعقل معناه»، واعتبر ذلك حجرا على العقول والأفهام التى ينبغى أن تنظر وتتأمل وتتدبر، فالفكر ينبغى أن يجتهد لاستنباط المعانى، فجميع الأحكام المشروعة «معقولة المعنى»، وينطبق ذلك على الأصول والفروع.

وكان القاسمى يحترم آراء الفرق المختلفة

وإن لم يتفق معها، لأن الخطأ من شأن غير المعصوم، ومن ناحية أخرى كان يرفض إظهار الحق بالسباب والشتائم، فهذا أسلوب لا يمكن أن يكون سبيلا صحيحا للانتصار للحق، ولم تتضمن كتبه على كثرتها - وبعضها إنما وضع للرد على مخالفيه - لفظًا نابيًا، فقد كان يعتصم دائما بالنقاش العلمى، ويلتزم بأدب الاختلاف.

ويطلب القاسمى من الإنسان أن يكون على وعى بواجبه فى هذه الحياة، فإذا كان الله قد حباه بالعقل والإدراك فينبغى عليه أن ينهض للقيام بأداء دوره كاملاً فى هذه الحياة، وألا يكون فى ذلك دون النبات، فإذا كان النبات يتطاول فلا يجوز أن يتقاصر البشر، وينبغى على المرء أن يبذل كل ما فى وسعه لخدمة وطنه، والارتقاء به، والتفانى فى سبيله، فإن حب الوطن من أمهات الفضائل.

وللقاسمى آراء رائعة فى الدولة وقوتها، والوطن، والسياسة، والجهاد فى سبيل الله، وقد دعا إلى تولية الأكفاء وإعطاء كل ذى حق حقه، ووضع الأشياء فى مواضعها الصحيحة، وتفويض الأعمال إلى القادرين عليها: «لأن من تتبع تواريخ الأمم علم أنه ما انقلب عرض مجدها إلا لتفويض الأعمال لمن لا يحسن القيام عليها، ويضع الأشياء فى غير موضعها».

وقد اهتم القاسمى بقضية التفرقة العنصرية، ورفض التمييز بين الناس بسبب العنصر أو العرق أو اللون، وأرجع منشأ الدعوة إلى هذا التمييز إلى الرغبة فى استعباد الزنوج، وقد ربط فى اجتهاداته بين الإسلام ومتطلبات العصر، فلم يحصر الإنفاق فى سبيل الله فى أمر الحرب فقط، بل رأى أن ذلك يشمل أيضا الإنفاق على المشروعات العامة التى تعود على الأمة بالنفع، مثل شراء الكتب لطلاب العلم، وإصلاح الطرق، وتعميم المدارس، وإجراء الماء، وإقامة المساجد، وفى مسألة تحريم التصوير يقول: «إن المنهى عنه هو التصوير بقصد العبادة، فإن انتفت فلا وجه للتحريم، لأن الأصل فى الإسلام أن لا تحريم حيث لا ضرر».

وقد كان القاسمى يقدر عامل الوقت تقديرا تاما جعله يستفيد من كل دقيقة من وقته، وكانت نفسه تمتلئ بالحسرة والأسى عندما يرى الجموع الغفيرة من الناس تكتظ بهم المقاهى، وتضيع منهم أوقاتهم فيما لا طائل من ورائه، ويعبر عن حسرته تلك بقوله: «كم أتمنى أن يكون الوقت مما يباع لأشترى من هؤلاء جميعا أوقاتهم».

لقد كان القاسمى مؤلفًا غزير الإنتاج رغم وفاته المبكرة، إذ توفى وعمره لا يتجاوز

الثامنة والأربعين، وقد ألف ما يقرب من مائة مؤلف فى مجالات عديدة، فبجانب مؤلفاته فى التفسير والحديث والأصول والتوحيد والآداب والأخلاق، له مؤلفات فى تاريخ دمشق، ورسالة فى الجن، ورسالة فى الشاى والقهوة والدخان، ومقالة عن القلب، وغير ذلك من مجالات متنوعة تدل على أخذه بأطراف المعرفة من كل سبب، لم يمنعه عن ذلك مخالفة فى الدين أو المذهب أو العقيدة أو الطريقة، وأتاحت له حريته الفكرية أن يجول فى آثار عقول الأمم على اختلاف مللهم ونحلهم، ومن أهم مؤلفاته:

١ - قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث.

٢ - موعظة المؤمنين (مختصر لإحياء علوم الدين للغزالى)، وكان الشيخ محمد عبده هو الذى أشار عليه باختصار هذا الكتاب عندما كان القاسمى فى ضيافته بمصر عام ١٣٢١هـ.

٣ - محاسن التأويل فى تفسير القرآن الكريم (فى سبعة عشر مجلدا).

٤ - الفتوى فى الإسلام.

٥ - تنبيه الطالب إلى معرفة الفرض والواجب.

٦ - جوامع الآداب فى أخلاق الإنجاب.

٧ - إصلاح المساجد من البدع والعوائد.

٨ - تعطير المشام فى مآثر دمشق الشام (فى أربعة مجلدات).

٩ - مذاهب الأعراب وفلاسفة الإسلام فى الجن.

١٠ - دلائل التوحيد.

١١ - إرشاد الخلق إلى العمل بخبر البرق.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

لقد كتب العديد من العلماء والمفكرين مقالات عن جمال الدين القاسمى أشادوا فيها بفضله وعلمه وكفاحه، ونخص منهم بالذكر الشيخ رشيد رضا، وشكيب أرسلان، ومحمد بهجة البيطار، وغيرهم (راجع على سبيل المثال تقديم هؤلاء العلماء لكتاب جمال الدين القاسمى: قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث. دار إحياء الكتب العربية. عيسى الحلبى. دون تاريخ).

وفضلا عن ذلك فقد كتب ابنه ظاهر القاسمى فصلا فى الكتاب المذكور للتعريف بوالده، وقد فصل بعد ذلك ما أجمله فى هذا الفصل فى كتاب بعنوان: «جمال الدين القاسمى». بيروت ١٩٦٦م. راجع أيضا، مقدمة محقق موعظة المؤمنين للقاسمى. دار النفائس ١٩٨٦م.

وراجع كذلك: الأعلام للزركلى جـ ٢/ ١٣٥. بيروت ١٩٧٩م.

وتراجم الأعلام المعاصرين فى العالم الإسلامى لأنور الجندى. مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م.

الجنيـــد
(٢١٥ - ٢٩٧ هـ = ٨٣٠ - ٩١٠ م)

هو : أبو القـاسم، الجنـيـد بن مـحـمـد بن الجنيد الخزاز القواريرى. وأصل أسـرته من نهاوند، لكن مولده ومنشأه كان بالعراق.

ولد على الأرجح حـــوالى سنة ٢١٥هـ = ٨٣٠م فى بغـداد وشب بهـا، وكـان أبوه يبيع الزجـاج؛ فلذلك يقـال له : «القواريـرى»، وكـان هو خزازًا، أى يبيع الحرير، كما أنه ابن أخت سرى السقطى الزاهد (المتوفى ٢٥٣هـ).

وكان فقيهـا على مذهب «أبى ثور» تلميذ الشـافـعى، بل إنه كـان يفـتى فى حلقـتـه بحـضـرته وهـو ابن عـشـرين سنة، وحـج إلى مكة ثلاثين حجة، وكان أيضا متكلما، يقول : بأن معرفة الله لا تأتى إلا بطريق العقل.

ولكونه من أعـلام التصـوف السنى عـرف بأنه «سـيـد الطائفـة» و «طاووس العلمـاء». وكـان قـد تتلمـذ فى التـصـوف على الحـارث المحاسبى، وأبى جعفر القصاب (ت٢٧٥هـ) وأبى يزيد البـسطامى، ومع هذا فـقـد كـان الجنيد يفضل صفاء النفس على الإغراق فى المذاهب الصوفية، لكن أثر عنه أيضا أنه كان يكتب بأسلوب معقد مغرق فى التجريد، وله أتبـاع ومـريدون يعـرفـون باسـم «الجنيـدية»، وكـــانت هـذه بمثـــابة المدارس التى يتلقى السالكون فيها آداب التصوف علما وعملا.

وتوفى فى بغـــداد عـــام ٢٩٧هـ = ٩١٠م، ودفن فى مقابر الشونيزية عند خاله.

ظهر الجنيد فى وقت ظهر فيه التصوف، كـمـا ظهـر فـيـه الأدعـيـاء والغـلاة فى هذا المجال، ولعله كان بتأثير التصوف الفلسفى الذى حاربه الجنيد بكل ما يستطيع، فكان كل همه أن يرد التصوف إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة؛ لأن الانحراف فى التصوف يؤدى إلى الانحــراف فى العـقـيـدة، ولذا قـال : «مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة».

وكـان ينعى على الصـوفـيـة الذين يدّعـون المعـرفـة بالله تعـالى، ثم يقـولون بإسـقـاط الأعـمـال الشـرعـيـة، وهو يرى أن ذلك من عظائم الذنوب، وأن الذى يســـرق ويزنى أحسن حالا من هؤلاء؛ لأن الأخير يقرّ بذنبه ويرجو التوبة منه، أما هؤلاء فإنهم يعتقدون

أنهم فى أرفع المقامات وأحسن الأحوال، فلا يتوبون إلى الله عز وجل.

كذلك يرى الجنيد أن العارف بالله تعالى هو من يحرص على صحة عقيدته ويتمسك بتعاليم الشريعة.

ويقول عن نفسه : إنه لو بقى ألف عام فى الدنيا لم ينقص من أعمال البرّ ذرّة، إلا أن يحال بينه وبينها، وكان يقول : «الطرق كلها مسدودة على الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ».

وبالإضافة إلى هذا فإن الجنيد كان حريصًا فى حياته الصوفية على الزهد، وكان يقول :

«ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع، وترك الدنيا، وقطع المألوفات، والمستحسنات».

وكان يقول : «إن أمكنك ألا تكون آلة بيتك إلا خزفًا فافعل». يقصد الاكتفاء بآلة الفخار عن آلة النحاس وغيره.

وسئل عن الشكر لله فقال: «ألا يستعان بنعمه على معاصيه». وهذا يدل على صلاحه وعظيم منزلته، رحمه الله تعالى.

ومن مؤلفاته :

١ - قصيدة صوفية : مخطوط برلين ٤ : ٧٥٤٣ (١٣٦ ب).

٢ - السر فى أنفاس الصوفية : مخطوط القاهرة ثان ١ : ٣١٦ تصوف ٢٨٧، وعليه شرح للديلمى.

٣ - دواء الأرواح : حققه آربرى وترجمه إلى الإنجليزية فى عام ١٩٤٧م.

٤ - رسالة إلى بعض إخوانه.

٥ - رسالة إلى يحيى بن معاذ الرازى.

٦ - رسالة إلى عمر بن عثمان المكى.

٧ - كتاب الفناء.

٨ - كتاب الميثاق.

٩ - كتاب فى الألوهية.

١٠ - كتاب فى الفرق بين الإخلاص والصدق.

١١ - مسائل فى التوحيد.

١٢ - أدب المفتقر إلى الله.

١٣ - رسالة إلى أبى بكر الكسائى الدينورى.

١٤ - رسالة لا عنوان لها.

١٥ - كتاب دواء التفريط. حقق هذه الكتب وترجمها إلى الإنجليزية : على حسن عبد القادر فى عام ١٩٤٧م.

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

مراجع للاستزادة :

١ - جامى : نفحات الأنس ج ١٢ .

٢ - الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد . ٧ : ٢٤١ . ١٩٣١م القاهرة .

٣ - ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ : ٢٣٨ رقم ١٤٣ . القاهرة .

٤ - الشعرانى : لواقح الأنوار ١ : ٩٨ .

٥ - فريد الدين العطار : تذكرة الأولياء ٢ : ٥ ط نيكلسون، ١٩٠٧م.

٦ - أبو نعيم : حلية الأولياء ١٠ : ٢٥٥ القاهرة ١٩٣٨م.

٧ - الهجويرى : كشف المحجوب، صفحات ١٨٥،١٢٨، ١٨٨ ترجمة : نيكلسون.

٨ - ابن الجوزى : المنتظم . ٧ : ١٠٥ حيدر آباد ١٣٦٢هـ .

٩ - ابن النديم : الفهرست ١٨٣، ١٨٥ ط فلوجل، ١٨٧٢م .

١٠ - فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربى-ص١٣١-المجلد الرابع من الجزء الأول.ترجمة : د. محمود فهمى حجازى ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

١١ - القشيرى: الرسالة القشيرية ص ٣١ . ط ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م مكتبة صبيح بالقاهرة.

١٢ - دائرة المعارف الإسلامية ١٥١:٧ هيوار، ترجمة : أحمد الشنتناوى وزميليه، طبعة وزارة المعارف بمصر.

١٣ - د. أبو الوفا التفتازانى: مدخل إلى التصوف الإسلامى ص١١٢، ط٣، ١٩٨٣م دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة.

١٤ - عبد القادر السندى : التصوف فى ميزان البحث والتحقيق ص ٥٥ -٧٧ ط ١، ١٤١٠ هـ /١٩٩٠م - مكتبة ابن القيم بالمدينة المنورة .

ابن الجــوزى
(٥٠٨هـ - ٥٩٧هـ = ١١١٤م - ١٢٠١م)

هو عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن عبد الله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزى. ويتصل نسبه بأبى بكر الصديق رضي الله عنه، وكنيته أبو الفرج، ولقبه الحافظ جمال الدين، وهو قرشى تميمى بكرى.

ولد ببغداد سنة ٥٠٨هـ الموافق ١١١٤م، وحفظ القرآن وقرأه بالروايات على جماعة من مشاهير القراء والمقرئين، نشأ يتيمًا؛ فقد مات والده سنة ٥١٤هـ، فلما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبى الفضل بن ناصر، وهو خاله، فاعتنى به وأسمعه الحديث، وهو أول مشايخه.

وكان - رحمه الله - محدثًا، مفسرًا، فقيهًا، أصوليًا، واعظًا، أديبًا، إمامًا، قدوة، زاهدًا فى الدنيا، متقللا منها، ما أكل من جهة لا يتيقن حِلَّها، وكان لطيف الصوت، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات، حاضر البديهة، ولذا كان يحضر مجلس وعظه عشرات الألوف من المستمعين، وقد ذاع صيته حتى دعى فى عصره أستاذ الأئمة، وحبر الأمة، وبحر العلوم، وسيد الحفاظ، وفارس المعانى والألفاظ، وشيخ الإسلام، وقدوة الأنام، وعظ فى جامع المنصور سنة ٥٢٧هـ، واشتهر أمره فى ذلك الوقت، وأخذ فى التصنيف والتأليف، وعظم شأنه فى ولاية الوزير ابن هبيرة، ولمّا ولى المستنجد بالله الخلافة خلع عليه خلعة عظيمة، وأذن له فى الجلوس بجامع القصر، فكان يحضر هذا المجلس على الدوام عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفًا.

وتوفى - رحمه الله - بداره بمحلة قَطُفْتا، على الشط، بالجانب الشرقى من دجلة، ببغداد، فى ليلة الجمعة ثانى شهر رمضان سنة ٥٩٧هـ الموافق ١٢٠١م، ودفن بمقبرة باب الحرب.

صحب فى الفقه ابن الزاغونى، ثم صحب كلا من أبى بكر الدينورى، وأبى ليلى الصغير وأبى حكيم النهروانى، وقرأ الأدب على أبى منصور الجواليقى، وتفقه على مذهب ابن

حنبل، وقد حدَّث عن مشايخه من أكابر هذا المذهب وأعيانه، فعدّ منهم سبعة وثمانين شيخًا، أما تلاميذه فأكثر من أن يحصوا.

قال الحافظ الذهبى: ما علمت أن أحدًا من العلماء صنَّف ما صنَّف هذا الرجل، فقد كان له فى كل علم مشاركة وتصنيف.

ومن هذه التصانيف:

- كتاب المغنى فى التفسير، وزاد المسير فى علم التفسير أيضاً (خ).
- وتلقيح فهوم أهل الأثر فى مختصر السير والأخبار (ط).
- الأذكياء وأخبارهم (ط).
- مناقب عمر بن عبد العزيز (ط).
- روح الأرواح (ط).
- الحمقى والمغفلين (ط).
- دفع شبهة التشبيه والرد على المجسمة (ط).
- شذور العقود فى تاريخ العهود (خ).
- المدهش فى التاريخ وغرائب الأخبار (خ).
- المقيم المقعد فى دقائق العربية (خ).
- صولة العقل على الهوى فى الأخلاق (خ).
- الناسخ والمنسوخ (خ).
- فنون الأفنان فى عجائب علوم القرآن(خ).
- لقط المنافع فى الطب والفراشة عند العرب (خ).
- الوفا فى فضائل المصطفى (خ).
- مناقب عمر بن الخطاب (ط).
- مناقب أحمد بن حنبل (ط).
- تقويم اللسان (خ).
- جامع المسانيد والألقاب (خ).
- الموضوعات، فى الحديث (خ).
- التحقيق فى أحاديث الخلاف (خ).
- شرح مشكل الحديث (خ).
- نتيجة الإحياء، اختصر به كتاب إحياء علوم الدين (خ).
- تلبيس إبليس (ط).
- منهاج الوصول إلى علم الأصول (ط).

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - وفيات الأعيان ١/٣٥٠.
٢ - تراجم الحنابلة ٤/٢٣٩.
٣ - شذرات الذهب ٢/٤٩٩.
٤ - النجوم الزاهرة.

الجوهـــرى
(... ـ ٣٩٣هـ = ٠٠٠ - ١٠٠٣م)

هو إسماعيل بن حماد الجوهرى وكنيته أبو نصر، وهو ابن أخت أبى إبراهيم إسحاق ابن إبراهيم الفارابى(١) لم يعرف تاريخ ميلاده وقيل : أنه توفى سنة ٣٩٨هـ (أو نحو ٤٠٠هـ) وهو أشهر من خاله، ولم يشتهر بنسبة «الفارابى» كما اشتهر بنسبته الأخرى «الجوهرى»، وهو صاحب المعجم الكبير المسمى «الصحاح» الذى جمع فيه ما صح عنده من ألفاظ اللغة، ومن أجل ذلك سمى كتابه «الصحاح». ألفه للبيشكى عبد الرحيم ابن أبى منصور الأديب الواعظ الأصولى الوجيه ذى المآثر والآثار، الذى كان معتمد الناس فى أيامه، وقد غطت شهرته فى اللغة على شهرة خاله، لأن كتابه «الصحاح» لقى أعظم رواج بين العلماء والمدرسين والطلاب، إلى أن ظهر «القاموس المحيط» للفيروزآبادى، وكان من أسباب اشتهار الجوهرى أيضا أن الفيروزآبادى فى «القاموس» لم يعن بنقد كتاب كما عنى بنقد «الصحاح» للجوهرى، ولهذا نجده يكثر من الهجوم عليه فى مئات المواضع فى «القاموس»، فيقول مثلا «ووهم الجوهرى»، ثم اختصر الفيومى كتاب «الصحاح» فى معجم صغير سمى «مختار الصحاح»، وهو معجم مشهور كثير التداول إلى اليوم، حتى بين ناشئة المدارس، لأنه طبع عدة طبعات بعد أن رتبت كلماته على الطريقة المعجمية الحديثة، ثم طبع الصحاح نفسه أخيرا بنفقة أحد وجهاء المملكة العربية السعودية.

ولعل كثيرًا مما أخذ على الكتاب مرده إلى أن الجوهرى مات، والكتاب مسودة لم يكمل تهذيبها بعد، قال التبريزى: «وكتاب الصحاح هذا كتاب حسن الترتيب، سهل المطلب لما يراد منه، وقد أتى بأشياء حسنة وتفاسير مشكلات اللغة، إلا أنه مع ذلك فيه تصحيف لا يشك فى أنه من المصنف لا من الناسخ، لأن الكتاب مبنى على الحروف ولا تخلو هذه الكتب الكبار من سهو يقع فيها أو غلط. غير أن القليل منه جنب الكثير الذى اجتهدوا فيه وأتعبوا أنفسهم فى تصحيحه وتنقيحه معفو عنه».

وقد حقق الجوهرى «بالصحاح» مقصدين كانا مطلب المجمعيين فى القرن الرابع الهجرى: التزام اللفظ الصحيح، وتيسير البحث عن هذا اللفظ. ويكاد ينعقد الإجماع على أن الجوهرى أصاب بمعجمه الشهير هذين الغرضين معا. قال فى خطبة كتابه: «وقد أودعت ما صح عندى من هذه اللغة التى شرف الله منزلتها وجعل علم الدين والدنيا منوطًا بمعرفتها على ترتيب لم أسبق إليه، وتهذيب لم أغلب عليه بعد تحصيلها بالعراق رواية، وإتقانها دراية، ومشافهتى بها العرب العاربة فى ديارهم بالبادية، ولم آل فى ذلك نصحا ولا ادخرت وسعا».

على أن التزام الصحيح وحده لم يكن وقفًا على الجوهرى. فقد سبقه إليه القالى والأزهرى ثم معاصره ابن فارس. بيد أن معاجم الآخرين لم تقتصر على إيراد الصحيح فحسب، ولكنها ساقت غير الصحيح أيضا ونقدته.

وجدير بأن نذكر - فى ختام هذا التعريف المقتضب «بالصحاح» - أن الذى حمل الجوهرى على اعتماد لام الكلمة «حرفها الأخير» أصلا لتأليفه؛ هو تأثره بالقافية الشعرية المستندة على الروى «الحرف الأخير اللازم فى كل بيت»، وبذلك خدم الشعراء خدمة لا تنكر. وكذلك الناثرون الذين ينشدون السجعة. وقد تابعه فى ذلك كبار معجميينا القدامى: كابن منظور والفيروزآبادى والزبيدى.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

الهوامش:

١ - «الفارابى» نسبة إلى فاراب، بلد وإقليم وراء نهر سيحون، على تخوم بلاد التركستان، بجانب طشقند (تاشكند). وقد نسب إليها الكثير. ومن أبنائها المشهورين الفيلسوف المعروف أبو نصر محمد بن محمد الفارابى أول فلاسفة الإسلام، وقد عرف بمؤلفاته الفلسفية والموسيقية، وله شعر قليل ولكنه جيد، وقد عاش آخر حياته فترة فى بلاط سيف الدولة الحمدانى فى حلب، وتوفى فى الشام سنة ٣٣٩هـ. وجاء بعده الفارابى اللغوى أبو إسحاق بن إبراهيم المتوفى سنة ٣٥٠ «أو سنة ٣٧٠م».

٢ - ياقوت: معجم الأدباء «إسماعيل بن حماد المعروف بالجوهرى».

حاتـــم الأصـــم
(٠٠٠٠ - ٢٣٧ هـ = ٠٠٠٠ - ٨٥١ م)

هو حـاتم بن عنوان، أبو عـبـد الرحـمن، المعروف بالأصم. صوفى زاهد، اشتهر بالتقى والورع، والتقشف، وهو أحد أعلام القرن الثالث الهجرى.

اختلف فى اسمه واسم أبيه، عند ترجمته من العلمـاء والمؤرخين؛ فـهـو عند الأئمـة: السلمى، والقشيرى، وابن الجوزى: عنوان، أو يوسف، أو عنوان بن يوسف.

ويلقب بالأصم، ويذكـر القـشـيـرى فى تسميته بهذا اللقب: أنه لم يكن أصم، وإنما ادعى الصـمم ذات مـرة حين جـاءت امـرأة لتسأله عن مسألة من المسائل، فاتفق أن خرج منها صوت أى: ريح، فخجلت، فادعى حاتم الصـمم، وطلب منها أن تعيد عليه السؤال، فـفـرحت المرأة، وأيقنت أنه لم يسمع شيئـا، فغلب عليه اسم الأصم.

ويقول فريد الدين العطار: إنه ظل يتظاهر بالصمم ثمانية عشر عاما، خشية أن يعلم أحـد، فيُـعْلِم المرأة بذلك، وظل كـذلك حـتى توفـيت، فـأعلن أنه لم يكن به صـمم، وتدل هذه القـصـة على مـا كـان يتمتع به من حس مرهف، وشعور مهذب رقيق.

ولد رحـمه الله ببلخ وإن كانت المصـادر لم تذكـر سنة مـولده، وكـان من كـبـار مـشـايخ خراسان، وعليه تتلمذ كثير منهم، كأحمد بن خضرويه، وأبو تراب النخشبى وغيرهم.

وكان له ابن يسمى خشنام بن حاتم.

ينتسب حـاتم فى التـصـوف إلى شـيـخـه شـقـيق البلخى، الذى كـان دائم التـعـهـد له والسؤال عنه ومتابعة أحواله.

ويذكر ابن الجوزى: أن حاتم صحب شيخه ثلاثين سنة، وقد سأله ذات مرة عما تعلمه؟ فقال حاتم:

«رأيت رزقى عند ربى، فلم أشغل إلا بربى، ورأيت أن الله تعـالى وكَّل بى ملكين يكتـبـان علىَّ كل مـا تكلمت به فلم أنطق إلا بالحق، ورأيت أن الخلق ينظرون إلى ظاهرى، والربُّ ينظر إلى باطنى، فـرأيت مـراقـبـتـه أولى وأوجب، فسقطت منى رؤية الخلق، ورأيت أن الله مستحثا يدعو الخلق إليه، فاستعددت له. فقال: يا حاتم: ما خاب سعيك».

والتصوف لدى حاتم الأصم يتطلب مجاهدة شديدة، ولذلك كان يوصى من يريد الدخول فى التصوف، بأنه يقتضى منه أن يستحضر فى نفسه أربعة أنواع من الموت:

- موت أبيض، وهو الجوع.

- وموت أسود، وهو احتمال الأذى من الناس.

- وموت أحمر، وهو مخالفة النفس.

- وموت أخضر، وهو طرح الرقاع بعضها على بعض.

ويمكن اعتبار حاتم الأصم نموذجا تتمثل فيه بعض خصائص التصوف الإسلامى التى يفترق بها عن بعض أنواع التصوف الأخرى.

فلقد كان متزوجا من أربع نسوة، وكان له تسعة أولاد. وكان يرى أن الجهاد على ثلاثة أضرب:

- جهاد فى السر مع الشيطان، حتى يقهره ويغلبه.

- وجهاد فى العلانية فى أداء الفرائض على الوجه الذى أمر الله تعالى به.

- وجهاد لأعداء الله تعالى، قياما بواجب الجهاد الذى شرعه الله تعالى لإعلاء كلمة الإسلام.

لم يكن حاتم إذن ممن يركنون إلى العزلة، والانقطاع، والرهبنة، بل كان مسلكه يتسم بالإيجابية والمشاركة والفداء.

وذكر كتاب «الطبقات» بعض أحواله فيما خاضه من معارك الجهاد، وهذا يفسر لنا ما قيل: إنه مات عند رباط، يقال له رأس سروند ببلدة تسمى بواشجرد، قريبة من ترمذ، حيث وافته المنية سنة ٢٣٧هـ = ٨٥١م.

أ.د. عبد الحميد مدكور

مراجع للاستزادة:

١ - طبقات الصوفية للسلمى. تحقيق نور الدين شريبة ص ٩١ - ٩٧.
٢ - حلية الأولياء لأبى نعيم ٨ / ٧٣ - ٨١.
٣ - الرسالة القشيرية. تحقيق: د. عبد الحليم محمود، د. محمود بن الشريف ١ / ٨٩، ٩٠.
٤ - تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار. الترجمة الفرنسية.
٥ - الطبقات الكبرى للشعرانى. ط. صبيح ١ / ٦٩.
٦ - فى التصوف الإسلامى وتاريخه لنيكلسون. ترجمة أبو العلا عفيفى ص ٥٦.
٧ - تاريخ التصوف فى الإسلام. لقاسم غنى. ترجمة د. صادق نشأت ص ٤١٨، سنة ١٩٧٠م.
٨ - الأعلام للزركلى ١٥٢/٢.

الحارث المحاسبى
(١٦٥ - ٢٤٣هـ = ٧٨١ - ٨٥٧م)

هو الحارث بن أسد المحاسبى، أبو عبد الله. من أكابر الصوفية وأحد أعلام القرن الثالث الهجرى.

ولد المحاسبى فى البصرة بالعراق عام ١٦٥ للهجرة تقريبا (٧٨١م)، وتوفى عام ٢٤٣هـ الموافق ٨٥٧م، ولكنه قضى جل حياته فى بغداد.

كان مولد المحاسبى فى خلافة المهدى، وهو من أوائل الخلفاء العباسيين، وكان قد بلغ من العمر خمس سنوات عندما تولى الخلافة: هارون الرشيد، وكانت الأمة الإسلامية حينئذ غنية بالمفكرين البارعين، وخاصة فى رحاب العاصمة بغداد.

نذكر منهم على سبيل المثال فى الشريعة:

مالك: المتوفى سنة ١٧٩هـ.

وأبو يوسف: المتوفى سنة ١٨٢هـ.

وابن الحسن: المتوفى سنة ٢٠٤هـ.

والشافعى: المتوفى سنة ٢٠٤هـ.

ونذكر منهم فى الإلهيات والأدب :

العلاف : المتوفى سنة ٢٦هـ.

والنظام: المتوفى ٢٣١هـ.

والجاحظ: المتوفى سنة ٢٢٥هـ.

وأبو نواس: فى الشعر.

والكرخى، والحافى، وذو النون: فى التصوف.

ومجرد ذكر هذه الأسماء يكفى للدلالة على عمق الحياة الفكرية فى هذه الفترة.

أما عن حياته الخارجية، فلا نعرف عنها - للأسف - شيئاً كثيراً، وطفولته وشبابه فترتان مجهولتان.

وأما عن الرجل فى نضجه شيخاً وكهلاً، فلم تصلنا سوى نوادر قليلة، ولكن شخصيته رغم النقص الظاهر فى الوثائق بشأنها، تبرز لنا من خلال هذه النوادر، وتشف من ثنايا تعاليمه إن أمعنا فيها النظر، وشخصية الرجل ساطعة مسيطرة: فهو صاحب عبقرية خلاقة، وهو رجل أصول، وهو إنسان صريح بالغ الصراحة، ومخلص عميق الإخلاص.

كان الجنيد مثال الصوفى النقى المحافظ المتحرز، وكان يميل إلى حياة العزلة بعيداً عن ضوضاء المجتمع، فزاره المحاسبى يوما ودعاه

إلى السير معه وبعض الرفاق فى الصحراء، فكره الجنيد الدعوة خشية الاتصال بالناس والسير معهم، ولكن المحاسبى انطلق به غصبا وقال له: كم تقول لى: أنسى فى عزلتى، لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أنسا، ولو أن النصف الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم.

وكان المحاسبى شديد الحاجة فاجتاز بالجنيد يوما وهو جالس على بابه، قال الجنيد: فرأيت فى وجهه زيادة الضر من الجوع، فقلت له: يا عم، لو دخلت إلينا نلت من شىء عندنا. فقال: أو تفعل؟. قلت: نعم، وتسرنى بذلك وتبرنى، فدخلت بين يديه ودخل معى، وعمدت إلى بيت عمى، وكان أوسع من بيتنا، لا يخلو من أطعمة فاخرة لا يكون مثلها فى بيتنا سريعا، فجئت بأنواع كثيرة من الطعام، فوضعته بين يديه، فمد يده وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه، فرأيته يلوكها ولا يزدردها، فخرج وما كلمنى، فلما كان الغد لقيته، فقلت: يا عم سررتنى ثم نغصت على، فقال: يا بنى، أما الفاقة فكانت شديدة، وقد اجتهدت أن أنال من الطعام الذى قدمته إلى، ولكن بينى وبين الله علامة، إذا لم يكن عند الله مرضيا ارتفع إلى أنفى منه فورة، فلم تقبله نفسى، فقد رميت بتلك اللقمة فى دهليزكم وخرجت.

وكان المحاسبى لا يهتم بالعلوم المادية أو العلوم البحتة التى ليس من ورائها تهذيب أو إصلاح للنفس، ولم تدخل هذه العلوم فى مجال تفكيره وتأملاته، وإنما انشغل قلبه بكل ما كان من الأمور التى تتعلق بالبيئة الدينية.

لقد كان هدفه أن يعيد المسلمين إلى حظيرة الإيمان الصحيح، إن محمداً ﷺ هدى الوثنيين وجعل منهم أهل دين، ورفع إلى أسمى الدرجات قيمهم الأخلاقية، وبعث فيهم الإيمان بمثل التقوى الخالصة. وكان مجتمع المسلمين فى عهده المثل الأعلى، ولكن هذا المثل الأعلى شابته الشوائب من بعده، ووجب إنقاذه وإعادة بهائه إليه بمثل ما كان له فى سابق الزمان... وهذا ما أراده أهل التصوف: إعادة المسلمين التائهين إلى الإيمان، وإلى أصول دينهم القويم.

تلك هى الأمانة التى ابتغوها لأنفسهم، وتلك هى الغاية التى جاهد من أجلها المحاسبى.

ولقد حضر ابن حنبل نفسه إحدى الندوات التى كان يتحدث فيها هذا الصوفى، حضرها متخفياً، ويروى أنه انفعل لحديثه بالبكاء، واهتزت له مشاعره حتى إنه فقد الوعى.

وكان المنهج الذى اتبعه المحاسبى فى تآليفه لتحقيق غايته منهجاً مزدوجاً امتثالا بالقرآن: «الترهيب» و «الترغيب»، ومؤلفه «كتاب التوهم» مشبع بمذهبه هذا، يصور فيه

فى قوة، العقاب الشديد الذى ينتظر أهل الشر فى هذه الدنيا، ولكنه فى مقابل ذلك يبدع فى ذكر ما خصص فى الجنة من نعيم للخيرين، وهذا المنهج القرآنى الخصب أتى أيضاً بثماره الوافرة عند لجوء المحاسبى إليه، فكانت كتبه - على حد تعبير معاصريه - «كتب عبرة». ولكنه فى منهجه لم يقتصر على الترهيب والترغيب، بل إنه ليبدع فى إنشاء أساليب الشفاء والوقاية للنفس الإنسانية فى سعيه إلى تطهير القلوب من كل أنماط النفاق والرذيلة، ومن كل ما هو شر لا يرضاه الله - وإلى تحصين المؤمن ضد خبائث النفس وسبلها الملتوية، وإلى الكشف عن منابع الشر، وكيف يتردى فيه الإنسان، وإلى البحث عن الوسيلة لاتقائه إن أمكن، أو للخلاص منه والنجاة.

ولن يدرك القارئ مدى نفاذ بصيرته اللماحة، ومدى معرفته بخبايا النفوس، إلا بالاطلاع على مؤلفيه: «كتاب الرعاية لحقوق الله والقيام بها» و «كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى».

ومذهب الحلول هو المذهب الذى يثير لدى المحاسبى رد فعل فورى بالغ العنف فيما يسمع أو يشهد بكل ما من شأنه أن يجرح معتقداته الدينية المتأصلة، كما كان يسارع إلى الرد العملى الحاسم وكان المحاسبى أيضا صاحب عبقرية نابهة :

إنه أول من أنشأ ونظم ما يمكن أن نطلق عليه: «علاج النفس» أو «العلاج النفسانى للشر»، وإنه لأستاذ فى هذا المجال... ومعرفته العميقة لأسباب وآثار ووسائل علاج الرذائل التى تنتهى إلى ارتكاب الذنوب قد تدعونا إلى الظن بأن المحاسبى فى شبابه صارع مثلها، وتغلب عليها.. ولما بلغ ما بلغ فى العمر والتقوى تحدث عنها عن تجربة وإدراك شخصى للعوامل النفسية كيف تثور وكيف يمكن للإنسان أن يتغلب عليها بعون الله دون أن يقع فيها.

وإنا لنضطر إلى القول بأن بصيرة المحاسبى النفاذة - فيما يتعلق بخبايا النفوس البشرية - هى السبب الحقيقى لكل هذه الألمعية فى تناول موضوعاتها.

وكما يقول الأستاذ ريتر، وهو على حق:

«إن المحاسبى فى الواقع هو منشئ مبادئ التحكم الأخلاقى المنظم فى الذات فى إطار التقوى الإسلامية».

وتنسب أيضا إلى المحاسبى صفة أخرى: إنه كان: «رجل الأصول» يقول ذلك ابن خلكان ويحدد البغدادى تلك الأصول بأنها: «أصول الديانات» ومن المعروف أنه إذا أطلقت كلمة الأصول فإنها تدل على البحث فى علم الكلام، بيد أن المحاسبى بسبب علاجه للأصول وتأليفه فى علم الكلام قد اكتسب عقلية تنظم وتستوعب، وتخرجنا من فوضى

التفاصيل المشتتة إلى الأحكام العامة، وهذه الأحكام قد تظهر عرضاً فى مناسبة ما عند بعض المفكرين، ولا يكون لها من مغزى خاص. ولكنها لدى المحاسبى وفيرة مواتية، وتدل على عمق وشمول إدراكه للموضوع الذى يتناوله بالبحث، وعلى معرفته التامة الدقيقة به، وعلى أن النتائج التى يخلص إليها صادرة عن تفكير ناضج متروٍّ، نافذ ألمعى، لذلك أصبحت هذ النتائج من بعده أحكاما أساسية.

إنها أحكام عبقرية مبتكرة لا نجدها - على حد علمنا - عند أحد سواه. ولنضرب بعض الأمثلة تدعيما وتوضيحا لما نقوله :

«الفرض» أمور معلومة فى الإسلام. وواجبات المسلم قد حددت فى غير ما غموض.

فالفرض ليس فيه من متشابهات. أما «النفل» فهو شىء عام. وليس هناك إجماع تام فيما يتعلق بما كان يقوم به النبى ﷺ نفلاً، أو بمدى حثه المسلمين على هذا.

بيد أن المحاسبى يحسم المسألة بطريقة قاطعة جذرية فيقول:

كل فرض مقرون بنفل، والنفل أنشئ أساسا لكمال الفرض.

وإن إثبات مثل هذا الحكم يقتضى دراسة شاملة للديانة الإسلامية ومعرفة بها فى كل تفاصيلها، تدعو إلى الإعجاب. وقد أثبته المحاسبى فى قضية طال فيها الجدل حول الجوع.

وإلى القارئ مثال آخر بشأن تفكير المحاسبى المشبع بإرادة التقنين.

ثار الجدل حول مسألة ما يؤذن للمؤمن بسماعه فى غير إثم، فحسم المحاسبى الجدل: إذ رجع بالقضية إلى قضية أخرى أكثر وضوحا، فقال:

«ما لا يؤذن لك بقوله فلا يؤذن لك أيضا بسماعه»

وهكذا، وفى غير ما إسهاب أو إملال، قضى على النميمة والغيبة وغيرهما من المحرمات صراحة فى القول.

وختاما لحديثنا فى هذا الشأن نسوق حكما أخيراً للمحاسبى، إذ يقول: «واجعل لنفسك غاية من كل عمل تحب فيه أن تلاقى الله».

ومن أهم مؤلفاته:

١- كتاب الرعاية لحقوق الله والقيام بها.

٢- كتاب بدء من أناب إلى الله تعالى.

أ.د. أحمد الطيب

مراجع للاستزادة :

١ - الأعلام للزركلى حـ ٢/ ١٥٣.
٢- طبقات الصوفية للسلمى.
٣- تهذيب التهذيب حـ٢/ ١٣٤.
٤- صفة الصفوة حـ٢/ ٢٠٧.
٥- وفيات الأعيان حـ١/ ١٢٦.
٦- حلية الأولياء حـ١٠/ ٧.
٧- تاريخ بغداد حـ٨/ ٢١١.

الحاسب الكرخى
(... ـ نحو ٤١٠ هـ = ... ـ نحو ١٠٢٠م)

هو أبو بكر محمد بن الحسن الحاسب الكرخى، عاش فى بغداد فى المدة من منتصف القرن العاشر إلى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، ومن أعظم نوابغ الرياضيين الذين ظهروا فى بداية القرن الخامس الهجرى، لولا تأليفاته التى وصلت إلى أوروبا لما علمنا شيئًا عن شخصيته الفذة التى لم تنل حظها من البحث والتحليل، يقول عنه (سميث) مؤرخ الرياضيات : «إن الكرخى من أعظم الرياضيين الذين كان لهم إسهام حقيقى فى تقدم العلوم».

وقد اتبع الكرخى الطريقة التحليلية لعلمى الجبر والمقابلة مقتديًا بأستاذيه : الخوارزمى، وأبى كامل، وبعلماء المسلمين الأفاضل حتى أبدع وبرز فى هذا المجال.

ويقول المؤرخ العلمى (هوارد إيفز) فى كتاب «تاريخ الرياضيات» : «إن كتاب الفخرى للكرخى فى الحساب أحسن كتاب كتب فى علم الجبر فى العصور الوسطى، مستندًا على كتاب (الجبر والمقابلة) لمحمد بن موسى الخوارزمى، وامتاز كتاب الفخرى للكرخى فى الحساب بطابعه الأصيل لما فيه من ابتكارات جديدة، ومسائل لا يزال لها دور فى الرياضيات الحديثة».

وكان الكرخى قد أهداه إلى الوزير أبى غالب محمد بن خلف الذى اشتهر بلقب فخر الملك، ويقال إن تسمية الكتاب بالفخرى نسبة إلى الوزير المذكور، وقد ألفه بين سنة ٤٠١هـ إلى سنة ٤٠٧هـ وورد اسم هذا الكتاب فى كتاب (كشف الظنون) لحاجى خليفة.

وفى الواقع إن الكرخى لم يترك موضوعًا فى علمى الحساب والجبر إلا عالجه بأسلوب سهل واضح، وقد شرح الكثير من النقط الغامضة فى كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمى. ويقول الأستاذ (روس بدل) فى كتابه (تاريخ الرياضيات) : «إن الكرخى طور قانون مجموع مربعات الأعداد الطبيعية بدرجة لم يسبقه إليها أحد، ولا تزال تستعمل فى القرن العشرين دون تغيير».

ويقول (كاجور Cajori) : «يجب أن يعتبر

الكرخى مبتكرًا لنظرية مجموع الأعداد الطبيعية». ومن أسف أن ينسب بعض علماء الغرب بعض إنتاج الكرخى لأنفسهم، مع أن هذه النظريات موجودة فى مؤلفات الكرخى.

أما عن مؤلفاته : فقد كان واسع الإنتاج فى علمى الحساب والجبر، ويقول عنه (جورج سارتون) : «إن أوروبا مدينة للكرخى، الذى قدم للرياضيات أهم وأكمل نظرية فى علم الجبر». وبقيت مؤلفاته مراجع معتمدة فى علمى الحساب والجبر حتى القرن التاسع عشر الميلادى، وترجم كتابه: «الكافى فى الحساب»، من اللغة العربية إلى الألمانية سنة ١٨٧٨م. وكان له كتاب «الفخرى فى الحساب».

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١ - جورج سارتون : تاريخ العلم.

٢ - حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، جـ٢.

٣ - عبدالحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العرب فى تقدمه، ١٩٩٢م.

٤ - قدرى طوقان : تراث العرب العلمى : تراث العرب فى الرياضيات والفلك، دار الشروق.

٥ - Smith;History of mathematic.1949

حافــظ إبراهيــم
(١٢٨٧ - ١٣٥١هـ = ١٨٧١ - ١٩٣٢م)

هو محـمـد حـافظ بن إبراهيم فـهـمى، الشهير بحافظ ابراهيم.

ولد محـمـد حـافظ إبراهيم فى «ديروط» ومن أعـمـال مديرية أسيوط، حـوالى سنة ١٢٨٧هـ = ١٨٧١م وكانت وفاته سنة ١٣٥١هـ = ١٩٣٢م، وكـان أبوه «إبراهيم فـهـمى» من المهندسين المشـرفين على بناء قناطرها. وتوفى أبوه فـقـيـراً فى ديروط وهو طفل لم يتجاوز عـمره العامين فانتقلت به أمه إلى القـاهرة، فكفله خـاله وأدخله (المدرسـة الخـيـرية) فـمـدرسـة المبـتـديان فـالمدرسـة الخـديوية. ثم انتـقل خـاله إلى طنطا فنقله معه؛ فقضى فيها بضع سنين متبطلاً، يزجى فراغه بالقراءة، ويدفع ملاله بالقريض.

ولم يستطع خـاله لسبب مـا أن يجلو عنه غمة اليأس وذلة اليتم، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش، متأففاً بالناس، شاكيا القدر، لاينشئ الشعـر إلا فى ذلك. ثم دفعـتـه الحـاجـة إلى مكاتب المحـامين، فـتبلغ بالعمل فـيـهـا حـيناً، حـتى أسـعـفـتـه الفـرصـة فـدخل المدرسـة الحـربيـة، وتخرج فيـهـا ضابطاً بالجيش. ثم نقل إلى الشـرطة، ثم أعـيـد إلى الجـيش، وذهب إلى السـودان فى الحـملة المصـرية بقيادة «كتشنر» فبقى هناك زمناً كان لا ينفك فيه متبرما متمرداً، يلح فى العودة إلى مصر، فلما أخـفق مسعـاه ثار مع فئة من الضباط سنة ١٨٩٩ م، فحوكم وأحيل إلى الاستيداع، ومنه إلى المعاش.

عاد حافظ إبراهيم كما كان يضطرب فى الحياة، لا يستريح لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية، وإنما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، ويفئ إلى ظل الإمـام «مـحـمـد عبـده» فينتـفع بجاهه ويعـيش على رفـده، ويغشى مع ذلك وجهاء النعمة، يسامر أهلها بعذب حديثه، وينادمهم برقيق شعـره. وفى سنة ١٩١١م عينه أحـمـد حشمت باشا وزير المعـارف يومـئـذ رئيـسـاً للقسم الأدبى بدار الكتب المصـرية، ثم وكيـلاً لهـا، وظل فى هذا المنصب حـتـى خـرج إلى التـقـاعـد فى سنة ١٣٥١هـ الموافق ١٩٣٢م.

اتصل بالإمام، «محمد عبده» وشيعته من سراة البلاد وشيوخ الأمة، ولهم يومئذ فى الإنجليز رجاء موصول وظن حسن، فصدرت عنه فى هذه الفترة قصائد فى رثاء الملكة «فكتوريا»، وتتويج الملك «إدوارد السابع»، ووداع «اللورد كرومر»، عبر بها عن الرأى الأرستقراطى فى ذلك الحين، ثم خلص حافظ إبراهيم بعد هذه الفترة للشعب فعايش دهماءه، وخالط زعماءه، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء «مصطفى كامل» فمزج شكواه بشكوى البلاد، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد، ونظم أمانى الشباب من حبات قلبه، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره.

وكانت صياغة حافظ هى موهبته الأولى ومزيته الظاهرة. وهو فى ذلك من الرواد الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد. ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق فى تعبيره عن هموم قلبه، وتفسيره لأمانة شعبه، وتصويره لمساوئ عصره. أما الروح والموضوع فأصداء منبعثة من الماضى فى فردياته، وآراء مقتبسة من الحاضر فى اجتماعياته، كان إذا تهيأ للشعر عمد إلى الآراء التى تختلج حينئذ فى النفوس، وتستفيض فى المجامع، وتتردد فى الصحف، فيجمعها فى باله، ويديرها فى خاطره، ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ، ويسبكها فيجيد السبك، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نسق مطرد وأسلوب سائغ، وشىء كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ورسمه.

وعلى الرغم من هذه النفس اليائسة المضطربة، فقد بدت فى بعض أشعار «حافظ» وقصائده روح قصصية فذة لو أنه عنى بها عناية جدية لأنتجت إنتاجا بليغا للقصة، والرواية التمثيلية، ومن ذلك «عمرياته الخالدة» التى نظمها سنة ١٩١٨م عن حياة «عمر بن الخطاب» وألقاها بمدرج «وزارة المعارف بدرب الجماميز» فى الثامن من فبراير من ذلك العام، ومطلعها:

فقد جمع فيها أهم أحداث هذه الحياة العظيمة لهذا الخليفة العظيم فى شعر قصصى، بديع... ومن عناوينها:

«إسلام عمر» و«عمر وخالد بن الوليد» و«عمر وعمرو بن العاص» و«عمر وولده عبد الله» و«عمر ونصر بن الحجاج» و«عمر ورسول كسرى» و«عمر والشورى» إلى آخر ما جاء فى هذا القصص البليغ فلو أنه حولها إلى حوار لأصبحت من أبلغ المسرحيات.

وكان له دور كبير لمبايعة شوقى بإمارة الشعر فكان أول المبايعين، وقد ألقى قصيدة

رائعة فى هذا المهرجان الشعرى بدأها بقوله:

بلابل وادى النيل بالمشرق اسجعى

بشعر أمير الدولتين ورجعى

وعندما وصل إلى قوله:

أمير القوافى قد أتيت مبايعا

وهذه وفود الشرق قد بايعت معى

قام شوقى واحتضنه وبكى كل منهما.

وظل كل من الشاعرين وفياً لصاحبه حتى أخذ القدر «حافظاً» فى ٢١ يوليه ١٩٣٢م، فرثاه شوقى بقصيدة كبيرة قال فى مطلعها:

قد كنت أوثر أن تقول رثائى

يا منصف الموتى من الأحياء

أ.د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة:

١ - تاريخ الأدب العربى للزيات، ط ٢٤ القاهرة.

٢ - شوقى وحافظ، طاهر الطناحى، دار الهلال بالقاهرة سنة ١٩٦٧م.

٣- «حافظ»، عبد اللطيف شرارة، بيروت ١٩٧٩م.

٤ - مقدمة ديوان حافظ إبراهيم، ط السابعة، المطبعة الأميرية القاهرة ١٩٥٠م.

٥ - الأعلام للزركلى جـ ٦/ ٧٦.

الحجاج بن مطر

هو الحجاج بن يوسف بن مطر. أحد كبار المترجمين إلى اللغة العربية فى العصر الذهبى، الذى شهدته الترجمة برعاية خلفاء الدولة العباسية، وبخاصة الرشيد والمأمون. وردت عنه فى الفهرست لابن النديم إشارات يستخلص منها:

أن الحجاج كان أحد أعضاء «البعثة» التى أرسلها المأمون إلى بلاد الروم لاختيار الكتب التى يمكن ترجمتها من كتب الفلسفة. وكان من رفقائه فى تلك الرحلة العلمية التى تشهد بمكانته ابن البطريق وتسلم صاحب بيت الحكمة. وقد ذهب هؤلاء إلى ملك الروم واطلعوا على الكتب المخزونة لديه «فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا. فلما حملوه إليه أى: المأمون أمرهم بنقله فنقل (الفهرست: ٢٤٣).

وقد قام الحجاج بترجمة كتابين من أهم الكتب التى ترجمت إلى اللغة العربية وهما: كتاب إقليدس الصورى فى الهندسة. ويوصف إقليدس بأنه كان أعلم أهل زمانه بالهندسة وبأن كتابه «الأصول» الذى قام الحجاج بترجمته، هو المرجع المعتبر فى الهندسة الأولية، وبأنه الرائد البعيد لعلماء الهندسة. ويقول ابن النديم عن هذا الكتاب: «كتاب اسمه «الاسطروشيا» ومعناه أصول الهندسة، نقله الحجاج بن يوسف بن مطر نقلين: أحدهما يعرف بالهارونى، نسبة إلى هارون الرشيد وهو الأول، ونقلا ثانيا وهو المأمونى ويعرف بالمأمونى وعليه المعوَّل. (الفهرست: ٢٦٥) - وعلى أساس هذه الترجمة كتب أبو العباس الفضل بن حاتم النيريزى شرحا لكتاب إقليدس وهو شرح يحتوى كما يقول الدومييلى على أجزاء ستة من أصول إقليدس (العلم عند العرب: ١٦٢).

أما الكتاب الآخر الذى لا يقل عن سابقة أهمية فهو كتاب المجسطى لبطليموس وهو من أهم الكتب فى علم الفلك وقد أشاد به صاعد الأندلسى فى «طبقات الأمم» إشادة بالغة فهو يصفه بأنه: «إليه انتهى الكلام على حركات النجوم ومعرفة أسرار الفلك، وعنده اجتمع ما كان متفرقا من هذه الصناعة بأيدى اليونانيين والروم وغيرهم... ولا أعرف

كتابا أُلِّف فى علم من العلوم قديمها وحديثها فاشتمل على جميع ذلك العلم.. غير ثلاثة كتب، أحدها كتاب المجسطى هذا».

(طبقات الأمم ٣١ وقد نقل ذلك عنه بنصه القفطى فى تاريخ الحكماء ٦٨، ٦٩). وقد تُرْجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية مرات متعددة تنسب واحدة منها إلى الحجاج ابن مطر (الفهرست ٢٦٨، ٢٦٩ وتاريخ الحكماء ٦٩). ويذكر الدوميلى أن هذه الترجمة تمت ٨٢٧/٨٢٨م وإنها كانت تشتمل على نص سريانى ربما كان من ترجمة سرجيس الراسعينى (العلم عند العرب ١٦٢). وإلى جانب هاتين الترجمتين ينسب إليه أنه قام بترجمة كتاب لأرسطو يسمى «كتاب المرآة» وقد ذكر ذلك ابن النديم وتابعه عليه القفطى (الفهرست: ٢٥٣ وتاريخ الحكماء: ٣١).

ويبدو أن الحجاج كان كوفى الأصل، ويستفاد ذلك من إشارة وردت لدى القفطى (٤٦) ورجح الدوميلى دون أن يحدد مرجعا - أنه نبغ ببغداد فيما بين سنتى ٧٨٦ - ٨٣٣م.

أ.د. عبد الحميد مدكور

مراجع للاستزادة:

١ - الفهرست لابن النديم تحقيق جوستاف فلوجل طبع ليبزج ١٨٧١م.

٢- طبقات الأمم لصاعد الأندلسى تحقيق لويس شيخو. المطبعة الكاثوليكية - بيروت ١٩١٢م.

٣- تاريخ الحكماء للوزير على بن يوسف القفطى طبعة القاهرة (الجمال والخانجى): ١٣٢٦هـ.

٤- العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى: الدوميلى ترجمة د. عبد الحليم النجار، ود. محمد يوسف موسى. نشر دار العلم ط ١ / ١٣٨١هـ = ١٩٦٢م.

ابن حجر العسقلانى
(٧٧٣ - ٨٥٢ هـ = ١٣٧٢ - ١٤٤٩م)

هو الإمام أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن أحمد، العسقلانى الأصل، المصرى المولد والمنشأ، نزيل القاهرة.

ولد بمصر فى شعبان سنة ٧٧٣هـ الموافق ١٣٧٢م، وتوفى سنة ٨٥٢هـ = ١٤٤٩م. ومات أبوه فى رجب سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وماتت أمه قبل ذلك وهو طفل؛ فنشأ يتيمًا، ولم يدخل الكُتَّاب حتى أكمل خمس سنين، فأكمل حفظ القرآن وله تسع سنين، ثم لم يتهيأ له أن يصلى بالناس التراويح إلا فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة، وقد أكمل اثنتى عشرة سنة، وكان وصيّه الرئيس الشهير أبو بكر نور الدين على الخروبى، كبير التجار بمصر، قد جاوره فى تلك السنة واستصحبه معه، إذ لم يكن له من يكفله.

وسمع فى تلك السنة صحيح البخارى وحفظ بعد ذلك كتبًا من مختصرات العلوم، ولازم أحد أوصيائه أيضًا، وهو الشيخ شمس الدين محمد بن على بن محمد بن عيسى بن أبى بكر بن القطان المصرى، فحضر دروسه.

ثم حُبِّب إليه النظر فى التواريخ، وهو بعد فى المكتب، فعلق بذهنه شىء كثير من أحوال الرواة.

وفى غضون ذلك سمع من نجم الدين بن رزين، وصلاح الدين الزفتاوى، وزين الدين بن الشحنة، ونظر فى فنون الأدب من سنة اثنتين وتسعين، فقال الشعر، ونظم مدائح نبوية ومقاطيع.

ثم اجتمع بحافظ العصر زين الدين العراقى، وذلك فى شهر رمضان سنة ست وتسعين، فلازمه عشرة أعوام، وحُبِّب إليه فن الحديث، فما انسلخت تلك السنة حتى خرَّج لشيخه مُسْنِد القاهرة أبى إسحق التنوخى، المائة العشارية، وكان أول من قرأها فى جمع حافل الحافظ أبو زرعة ابن الحافظ العراقى.

ثم رحل إلى الإسكندرية فسمع من مسنديها إذ ذاك، ثم حج ودخل اليمن، فسمع بمكة، والمدينة، وينبع، وزَبِيد، وتعز، وعدن، وغيرها من البلاد والقرى.

ولقى باليمن إمام اللغة غير منازع مجد الدين ابن الشيرازى، فتناول منه بعض تصنيفه المشهور المسمى «القاموس فى اللغة»، ولقى جمعًا من فضلاء تلك البلاد، ثم رجع إلى القاهرة، ثم رحل إلى الشام، وغزة، والرملة، والقدس، ودمشق، والصالحية، وغيرها من القرى والبلاد.

وكانت إقامته بدمشق مائة يوم، ومسموعه فى تلك المدة نحو ألف جزء حديثية: منها من الكتب الكبار المعجم الأوسط للطبرانى، ومعرفة الصحابة لأبى عبدالله بن منده، وأكثر مسند أبى يعلى، وغير ذلك. ثم رجع وأكمل كتابه «تغليق التعليق» فى حياة كبار مشايخه، فكتبوا عليه، ولازم الشيخ سراج الدين البلقينى إلى أن أذن له، وأذن له بعد إذنه شيخه الحافظ زين الدين العراقى.

ثم أخذ فى التصنيف، وأملى الأربعين المتباينة بالشيخونية، من سنة ثمان وثمانمائة، ثم أملى من عشاريات الصحابة نحو مائة مجلس عدة سنين، ثم وَلِىَ درس الحديث بالمدرسة الجمالية الجديدة، فأملى بها، ثم قطعه لما تركها فى سنة أربع عشرة وثمانمائة، وتشاغل بالتصنيف، ثم ولى مشيخة البيبرسية، ثم تدريس الشافعية بالمدرسة المؤيدية الجديدة.

ثم ولى القضاء فى السابعة والعشرين من المحرم سنة سبع وعشرين وثمانمائة، فباشر القضاء بالديار المصرية مدة كبيرة.

تولى ابن حجر الخطابة فى عدة مساجد من أكبر المساجد بالقاهرة، مثل الجامع الأزهر، وجامع عمرو، وغيرهما، فقد كان متبحرًا فى العديد من العلوم، وكان يفد إليه طلاب العلم وأهل الفضل من سائر الأنحاء، وكان يتسم بالحلم والتواضع والصبر، كثير الصيام والقيام.

وكان مرجعًا فى الحديث النبوى، حتى لقب بلقب «أمير المؤمنين» فى الحديث، وهذا اللقب لا يظفر به إلا أكبر المحدثين الأفذاذ، وقد حبِّب إلى ابن حجر الحديث، وأقبل عليه بكليته، وطلبه من سنة ثلاث وتسعين، ولكنه لم يلزم الطلب إلا من سنة ست وتسعين، فعكف على الزين العراقى وتخرج به، وانتفع بملازمته، وتحول إلى القاهرة فسكنها قبيل القرن، وارتحل إلى البلاد الشامية والمصرية والحجازية، وأخذ عن الشيوخ والأقران، وأذن له جل هؤلاء فى الإفتاء والتدريس.

وتصدَّر لنشر الحديث، وقصر نفسه عليه مطالعة وقراءة وإقراء وتصنيفًا وإفتاء، وزادت تصانيفه، التى معظمها فى فنون الحديث، وفيها من فنون الأدب والفقه، على مائة وخمسين تصنيفا.

وقد عرف ابن حجر بالحفظ وكثرة الاطلاع والسماع، وبرع فى الحديث، وتقدم فى جميع فنونه، وأثنى عليه شيوخه فى هذا الشأن، وقد سبق أنه ولى تدريس الفقه بالمدرسة الشيخونية، وتدريس الحديث بالمدرسة الجمالية الجديدة، ثم تدريس الشافعية بالمؤيدية الجديدة، ومشيخة البيبرسية فى دولة المؤيد، وتدريس الفقه بالمدرسة الصلاحية المجاورة للإمام الشافعى، كما تولى الخطابة بالجامع الأزهر، وجمع بين التدريس والإفتاء وولى منصب القضاء، وكانت أول ولايته القضاء فى السابع والعشرين من المحرم، سنة سبع وعشرين وثمانمائة، بعد أن امتنع أولا، لأنه كان لا يؤثر على الاشتغال بالتأليف والتصنيف شيئًا، غير أن ابن حجر، كما يقول السخاوى، قد ندم على قبوله وظيفة القضاء، ويقول ابن حجر: إن من آفة التلبس بالقضاء أن بعضهم ارتحل إلى لقائى، وأنه بلغه تلبسى بوظيفة القضاء فرجع. وعزل عن القضاء وأعيد إليه مرات، وكان آخر ولايته القضاء إذ عزل نفسه فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وثمانمائة.

وتوفى فى ليلة السبت الثامن والعشرين من ذى الحجة، سنة ٨٥٢هـ الموافق ١٤٤٩م، وحضر الصلاة عليه السلطان، وصلى عليه العلم البلقينى بإذن، ونقل نعشه إلى القرافة الصغرى، فدفن بالقرب من الإمام الليث بن سعد.

تقدير العلماء وثناؤهم عليه :

برع فى الحديث، وتقدم فى جميع فنونه، ووصل إلى مرتبة الذهبى، وأثنى عليه شيوخه فى هذا الشأن.

أما عن مؤلفاته فقد سردها السخاوى فى الباب الخامس من كتاب «الجواهر والدرر» فى نحو عشر ورقات، وقال: كان ابتداؤه فى التصنيف فى حدود سنة ست وتسعين وسبعمائة، ومن تصانيفه ما كمل قبل الممات، ومنها ما بقى فى المسوّدات، ومنها ما شرع فيه فكاد، ومنها ما سطر، ومنها ما صلح أن يدخل تحت الإعداد، وهذا إيرادها على ترتيب اخترته، وتقريب ابتكرته، ثم ذكرها. وقد جمع هو أسماء معظمها فى كراسة افتتحها على سبيل التواضع، والهضم لنفسه، بقوله : وأكثر ذلك - يعنى تصانيفه - مما لا يساوى نسخة لغيرى، لكن جرى القلم بذلك. وقد سمعته يقول: لست راضيًا عن شىء من تصانيفى لأنى عملتها فى ابتداء الأمر، ثم لم يتهيأ لى من يحررها معى، سوى شرح البخارى، والمشتبه، والتهذيب، ولسان الميزان، بل كان يقول فيه: لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لم أتقيد بالذهبى، ولجعلته كتابا

مبتكرا. ثم قال: وأما سائر المجموعات فهى كثيرة العَدد، واهية العُدد، ضعيفة القوى، وقد تصفحت أنا هذه الورقات فوجدته يقول أحيانا، عقيب الكتاب وموضوعه: استوفيت تبييضه، أو قد بيَّضته. أو بيض اليسير من أوائله أو مسوده.

ومن أهم مؤلفاته :

١ - فتح البارى بشرح البخارى.

٢ - تهذيب التهذيب.

٣ - لسان الميزان.

٤ - تعجيل المنفعة.

٥ - تقريب التهذيب.

٦ - الإصابة فى تمييز الصحابة.

٧ - الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة.

٨ - نزهة الألباب فى الألقاب.

٩ - رفع الإصر.

١٠ - تبصير المنتبه بتحرير المشتبه.

وغيرها كثير، ويمكن لمن يشاء أن يرجع إليها فى «الجواهر والدرر» للسخاوى؛ ففيه الغنية عن غيره.

أ. د. أحمد عمر هاشم

ابن حزم الأندلسى
(٣٨٤ - ٤٥٦ هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤م)

هو على بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معدان بن سفيان ابن يزيد، مولى يزيد بن أبى سفيان بن صخر ابن حرب بن أمية بن عبد شمس، الأموى. وكنيته: أبو محمد.

ولد ابن حزم بقرطبة من بلاد الأندلس ٣٨٤هـ الموافق ٩٩٤م، وبها نشأ فحفظ القرآن، وتلقى العلوم على أكابر العلماء بقرطبة. وقد توفى فى بلاد الأندلس ٤٥٦هـ الموافق ١٠٦٤م.

أخذ الحديث : عن يحيى بن مسعود، وأخذ الفقه الشافعى عن شيوخ قرطبة، وأخذ المنطق عن محمد بن الحسن المذحجى القرطبى، وغيرهم من شيوخ الأندلس.

تتلمذ له زمرة صغيرة من الطلبة الذين لم يخشوا فيه ملامة الفقهاء، من بينهم: المؤرخ محمد بن فتوح بن حميد، أبو عبد الله الحميدى. الأندلسى الميورقى، وهو الذى كان مختصًا بابن حزم ومذيع كتبه، وهو صاحب الجمع بين الصحيحين.

وقد أنجب أولادًا عدة، منهم العالم المصنف أبو رافع الفضل، وأبو أسامة يعقوب، وأبو سليمان المصعب، وقد أخذوا العلم عن والدهم ونشروه فى الآفاق.

مذهبه واتجاهاته :

درس المذهب المالكى نظرًا لانتشار هذا المذهب فى بلاد الأندلس، ثم مال إلى تعديلات الشافعى واتجاهاته، ثم انتقل إلى مذهب أهل الظاهر. وكان متفنناً فى علوم جمة. فكان فقيهاً، مفسراً، محدثاً، أصولياً، متكلماً، منطقياً طبيباً، أديباً، مؤرخاً، عاملاً بعلمه، زاهداً فى الدنيا، بعد الرياسة التى كانت له، ولأبيه من قبله فى الوزارة، وتدبير الملك.

وكان بعض علماء العصر قد حقروا من شأنه ونالوا منه. فحفزه ذلك إلى الانقطاع للعلم، والتبحر فيه، ودراسة المذاهب، ثم خرج من ذلك شديد النقد للعلماء والأئمة. وكان لسانه فى نقدهم قويا ذربا. حتى قيل «إن لسان ابن حزم وسيف الحجاج بن يوسف شقيقان».

مؤلفاتـــــه :

روى ابنه أبو رافع: أن مصنفات والده بلغت الأربعمائة، وأن صفحاتها بلغت الثمانين ألفا، ومن أشهرها:

فى الأصـول: مـسـائل أصـول الفـقـه، والإحكام لأصول الأحكام، والمحلى بالآثار فى شرح المجلى بالانتصار، جرى فيه على مذهب أهل الظاهر.

وألَّف فى التفسير الناسخ والمنسوخ. وفى المنطق: كتاب التقريب فى حدود المنطق. وفى الأخلاق: كتاب مداواة النفوس فى تهذيب الأخلاق، والزهد فى الرذائل. وفى العقائد: كتاب الفصل فى الملل والنحل، وكتاب إظهار تبديل اليهود والنصارى للتوارة والإنجيل. وفى الأدب: طوق الحمامة فى الألفة والآلاف. وكل هذه المصنفات قد طبعت. وهى بأسلوبها القوى، وجودة ترتيبها وتدعيمها بالأدلة: تدل على رسوخ قدمه فى هذه الفنون. وعلى وصوله إلى الغاية القصوى من دقة البحث والتحليل لجميع النظريات، التى تعرض لها من علم الكلام، والأصول، وعلى سعة فكره فى البحث لدرجة لم يألفها علماء عصره، مما كان سبباً فى نقدهم له، وتحذير الأمراء والعامة منه. وكانت نتيجة ذلك: إخراجه من قرطبة. وظل بعيداً عنها إلى وفاته.

أ. د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة :

١ - ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ج أول.

٢ - ابن خلكان ج١ ص٤٢٨.

٣ - معجم سركيس ج١ ص٨٥.

٤ - البداية والنهاية ابن كثير ج١٢ ص ٩١.

٥ - النجوم الزاهرة ج٥ ص٧٥.

حسان بن ثابت

(٠٠٠ - ٥٤ هـ = ٠٠٠ - ٦٧٤ م)

هو أبو الوليد: حسان بن ثابت بن المنذر الخزرجى الأنصارى الصحابى، شاعر النبى ﷺ وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة فى الجاهلية ومثلها فى الإسلام. ولد بالمدينة ونشأ فى الجاهلية، وعاش على الشعر، فكان يمدح المناذرة والغساسنة ويقبل صِلاتهم، ولكنه بالغ فى مدح آل جفنة من ملوك غسان، فأغدقوا عليه العطايا، وملأوا يديه بالنعم، ولم ينكروه بعد إسلامه وتنصرهم، فجاءته رسلهم تترى بالهدايا من القسطنطينية، ولما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة أسلم «حسان» مع الأنصار، وانقطع إلى مدحه والزود عنه، وأصبح بمثابة الشاعر المنافح عن دين الإسلام، فاشتهر بذلك ذكره، وارتفع قدره، وعاش ما عاش موفور الكرامة، مكفى الحاجة، من بيت المال، حتى توفى سنة ٥٤ للهجرة بالغًا من العمر مائة وعشرين سنة، وقد كف بصره فى آخر أيامه.

لم يزل حسان يتغنى بالشعر، وربة الشعر تطاوعه فى جاهليته وإسلامه حتى ملأ به القلوب والأسماع، وأجمعت العرب على أنه أشعر أهل المدر.

وشعره كشعر غيره من المخضرمين يجمع بين صورتين فنيتين صادقتين للشعر، إحداهما جاهلية، والأخرى إسلامية، تعد مظهرًا قويًا لتأثر الأدب الإسلامى بالقرآن والحديث، وأحداث الإسلام وعقائده.

دعا حسان إلى التغنى بالشعر.

وأجود الشعر عنده ما جادت به القريحة، مطابقا للواقع والصدق، وسلامة المنطق.

وشاعريته محلقة تستلهم السماء، فتوحى إليه بالعذب المعجز.

وهو أمير نفسه فى شعره.

فلم يلتزم مذاهب غيره من شعراء عصره، كزهير، والنابغة، والأعشى، والحطيئة وغيرهم، ولم يعمد إلى التكلف فى شعره، ولم يحفل بتنقيحه، بل كان يرسله كما أوحت به القريحة وحدثت به النفس، ودعت إليه الحال، وكثيرًا ما اضطرته بعض المواقف الإسلامية إلى الارتجال، فلا غرابة أن تتنوع

أساليبه ومعانيه، وتتباين ألفاظه ومبانيه، وأن تجتمع فى قصائده الفخامة واللين والغريب والمألوف.

لم تسلم أساليبه فى الجاهلية من الحوشية، والأخيلة البدوية، وقد غلبت عليها جزالة اللفظ، وفخامة التعبير، وفخامة المعنى، وكثرة ما يتصل ببيئته من صور، وقليلا ما يميل إلى اللين، وعذوبة اللفظ، وسهولة العرض، وأقوى جاهلياته ما عارض به شعراء الأوس وما مدح به بنى غسان.

أما أساليبه فى الإسلام، فقد سلمت من الحوشية، وخالطها لين الحضارة، ولم تخل فى بعض الأغراض من جزالة اللفظ وفخامة المعنى، وفخامة العبارة، كما فى الفخر والحماسة، والدفاع عن النبى ﷺ ورسالته، ومعارضة المشركين وهجوهم.

وقد غلبت عليها الصبغة الإسلامية، كتوليد المعانى من عقائد الدين الجديد وأحداثه والاستعانة بصيغ القرآن وتشبيهاته، ولطيف كناياته، وضرب أمثاله، واقتباس الألفاظ الإسلامية من الكتاب والسنة وشعائر الدين. كما غلبت عليها الرقة واللين والدماثة واللطف، وسهولة المأخذ، وواقعية الصورة وقرب الخيال، وأكثر ما نرى ذلك فى شعر الدعوة إلى توحيد الله وتنزيهه، وتهجين عبادة الأوثان، ووصف الشعائر الإسلامية، وذكر مآثرها، وبيان ثواب المؤمنين وعقاب المشركين، وبعض ما مدح به الرسول ﷺ وأصحابه، أو رثاهم به.

اعتز حسان بقومه، ووقف بجانب الرسول وصحابته وبعض خلفائه مؤيدًا ومنافحًا وداعيًا، فكان شاعرًا سياسيًا مؤرخًا، وهو الذى فتح باب النقائض الشعرية لمن أتى بعده من الشعراء، ومن الأغراض التى أعرض عنها فى إسلامه أو كاد: الغزل المتهتك، ونعت الخمر، وفاحش الهجاء إلا ما أوجبته شناعة الأعداء، وأكثر شعره جمعًا لأغراضه شعر السياسة والتاريخ.

ولقد كان حسان أشعر شعراء المدينة، وأشعر فحول الحضر، ولكنه لم يكن فى الصف الأول من شعراء العرب على العموم، بل يعد فى الطبقة الثانية من الفحول، وهو من أصحاب المذهبات، وقد اتفقت العرب على أن أشعر أهل يثرب حسان بن ثابت، وقال أبو عبيدة: فضُل حسان الشعراء بثلاث: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى ﷺ فى النبوة، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام. وفى كلام للأصمعى: أن قومًا يرون تقدمه فى شعر اليمن فى الجاهلية، بامرئ القيس، وفى الإسلام بحسان بن ثابت. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن، وأمرت كعب بن مالك،**

فـقــال وأحــسـن، وأمــرت حــســان بن ثـابت فشفى واشتفى».

وقيل لـحسان: لأنَ شعـرك فـى الإسلام، يا أبا الحسام: فقال للقائل: «يا ابن أخى: إن الإســلام يمنـع الكذب، وإن الشــعــر يـزينـه الكذب». يعنى أن شأن التجـويد فى الشعـر الإفـراط فى الوصف، والتـزيين بغـيـر الحق وأدرك النابغة الذبيانى، وأنشده من شعـره، وأنشد الأعشى، وكلاهما قال له: إنك شاعر.

أ.د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة :

١ - سلسلة أعلام العرب، حسان بن ثابت، دكتور سيد حنفى، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة بدون تاريخ.

٢ - نوابغ الفكر، حسان بن ثابت، محمد إبراهيم جمعة، دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١م.

٣ - أحمد حسن الزيات تاريخ الأدب العربى، ط ٢٤، نهضة مصر للطبع والنشر.

٤ - تهذيب التهذيب جـ ٢٤٧/٢.

٥ - الإصابة فى تمييز الصحابة جـ ٣٢٦/١.

٦ - الأعلام للزركلى جـ ١٧٥/٢.

الحسن البصرى
(٢١هـ - ١١٠هـ = ٦٤٢ - ٧٢٨ م)

هو الحسن بن أبى الحسن يسار، البصرى أبو سعيد.

وُلد فى عام ٢١هـ = ٦٤٢م، وتوفى عام ١١٠هـ = ٧٢٨م، أى فى سنين حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان والده من أسرى فارس واسمه يسار، وأمه من السبايا، آلت ملكيتها إلى السيدة أم سلمة أم المؤمنين، وقد ولد الحسن فى أحضان أم سلمة، فتربى فى أحضان النبوة، وفاضت عليه أم المؤمنين بعطفها، وقد التقى بالصحابة فى عهد عثمان، وتلقى عليهم وأخذ عنهم، واختص بسير الآخرين، حتى إذا جاء عهد على بن أبى طالب كان قد بلغ الرابعة عشرة من عمره. تلقى علمه من أكثر من ثلاثمائة من الصحابة، وكان مهتما بمعرفة سير السابقين من الرسل وأخبارهم، وقد تضافرت الأسباب لكى تجعل من الحسن البصرى عالما مخلصا تقى القلب.

والتقى فى عصره بنوعين من العلماء، أحدهما: علم النبوة الذى حمله الصحابة عبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وثانيتهما: علوم العقل العربى بعد الاختلاط بالأمم وتراث الحضارات والديانات القديمة، وقد أخذ من هذه العلوم ما يتفق مع الهوى الإسلامى.

وفى عهده ظهرت الفرق والتشيع والخوارج، وكانت المناهج الفقهية قد بدأت تتميز. وكان الحسن ذا ذكاء مدرك عميق، حتى إن بعض شيوخه من الصحابة كان يحيل عليه ما يجيئه من الأمثلة فى الدين، واتصف بشجاعة الرأى، وكان ذلك فى العصر الأموى، وكان زاهدا مقبلا على الحلال من الطيبات، ويستحسن الغناء الذى لا يختلط بإثم، ولم يكن متعصبا، يفتح صدره لكل أصحاب الديانات الأخرى، ولذا كان يحضر دروسه اليهود والنصارى، ويواسيهم ويعزيهم إن كان ما يوجب العزاء.

وكان الحسن فصيحا فى العربية، نشأ نشأة عربية، وإن كان من أصل فارسى، قالوا:

إنه تجول بوادى القرى، وقد مارس المواعظ، وعمل على الدعوة إلى الحق، حتى أتاه الله القول المبين.

وهو فى خطبه ومواعظه ذو لفظ سهل متخير عذب، قد جملته معانى الدين والورع والتقى، وقد سمعته أم المؤمنين عائشة يتكلم، فقالت: «ومن هذا الذى يتكلم بكلام الصديقين».

بهذه الصفات يعد الحسن البصرى من أقوى رجال الفكر الإسلامى شخصية، وأشدهم نفوذا، أجلَّته العامة، ورفعته الخاصة، وهابه الحكام، واستحيا من سمته القساة الطغاة.

وكان ذا سمت حسن، فى مظهره الجسمى قوة وجمالا، ومع ذلك كان سيدا فى ذات نفسه، قد استولى على أهوائه فجعلها أمة ذلولا، فكان ذا خلق قوى، لا يطلب من الناس أمرًا إلا إذا كان هو أسبق إلى الأخذ به، قيل لبعض أصحابه الملازمين له: بأى شىء بلغ الحسن فيكم ما بلغ وكان فيكم علماء وفقهاء؟ فقالوا: كان إذا أمر بشىء أعمل الناس له، وإذا نهى عن شىء أترك الناس له، ولم أر أحدا قط سريرته أشبه بعلانيته منه. وبهذه الشخصية القوية كان له أثر فى كل الفرق الإسلامية التى ظهرت فى عصره، وكل فرقة تدعى أنه منها، فالمعتزلة يدعون أنه كبيرهم، وأهل السنة يدعون أنه منهم، وهو بين الفقهاء والمحدثين والوعاظ فى الرعيل الأول.

وكان الحسن من أعلم السلف بسيرة النبى ﷺ، وسيرة الصحابة، وأخبار السابقين، وكان من المحدثين الذين نقلوا علم الرسول ﷺ عن طريق الصحابة، وكان من الفقهاء المدركين، وكان سيد الوعاظ، وكان من الذين خاضوا بعض الخوض فى علم العقائد الذى كان يبتعد عن القول فيه الفقهاء والمحدثون، وهو بمجموع هذه العلوم كان فريدا، ولكنه فى الحديث لم يبلغ مبلغ كباره كسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير، ونافع مولى عبد الله بن عمر، وعكرمة مولى عبد الله بن عباس، والأعمش.، ولم يبلغ فى الفقه مبلغ إبراهيم النخعى، ولا علقمة، ولا ابن شهاب الزهرى، وبلغ فى الوعظ والتأثير فى الناس ما لم يبلغ أحد منهم ذلك.

ولذلك لم تؤثر عنه مجموعة فقهية كالتى أثرت عن غيره، كما لم تؤثر مجموعات روايات من الأحاديث كالتى أثرت عن غيره من التابعين، ولكن أثرت عنه مع مواعظه آراء فى أصول الدين، وهى إن لم تجمع فى مكان واحد، تجدها قائمة فى كلامه، وإن كانت منثورة فيه.

وهو يرى أن الإيمان الصادق يدفع إلى العمل، والمعرفة الصحيحة تدفع إلى الأخلاق المستقيمة، حتى اعتبر مقياس الأخلاق الفاضلة هو المعرفة، وأن ذلك الرأى منبث فى كلام الحسن، ومن ذلك قوله فى إجابة من سأله عن الرجل يذنب، ثم يتوب، ثم يذنب، ثم يتوب، فهو يقول : «ما أعرف هذا من أخلاق المؤمنين»، ومن ذلك قوله أيضا : «يُرَى ذلك فى خشوعه، وزهده، وحكمه وتواضعه».

وإذا كان الإيمان يستلزم العمل حتما، فإن مرتكب الكبيرة من الذنوب، المصر عليها لا يمكن أن يكون عند الحسن مؤمنا، إلا إذا تاب توبة نصوحا، وأخلص من بعدها فى العمل لله تعالى.

ومسألة مرتكب الكبيرة شغلت العصر الذى عاش فيه الحسن، فمن وقت أن خرج الخوارج على الإمام على بن أبى طالب، وكفَّروه، لأنه قبل التحكيم بينه وبين معاوية، واعتبروا ذلك كبيرة - فى زعمهم - توجب الكفر، تكلمت فى مرتكب الكبيرة كل الفرق الإسلامية، فالخوارج كما ترى كفَّروه، والمعتزلة قالوا : إنه ليس بمؤمن ولا بكافر، بل هو فى منزلة بين الإيمان والكفر، ويصح أن يقال عنه : إنه مسلم، وهو مخلد فى النار إن لم يتب توبة نصوحا.

والمرجئة قالوا : إنه مؤمن مقصر، ولكن كان منهم أهل البدع الذين قالوا : إنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا يضر مع الكفر طاعة، فهو إن كان مقصرا فهو غير مؤاخذ، ورحمة الله وسعت كل شىء، ومن أولئك المرجئة من لم يقعوا فى بدعة، فإنهم قالوا : إن تاب توبة نصوحا فإن الله يقبل توبته، كما وعد سبحانه بذلك، وإن لم يتب فهو فى أمر الله ومشيئته، إن شاء عذبه بما ارتكب، وإن شاء غفر له، وإن الله يغفر الذنوب جميعا إن شاء الله، وينسب ذلك القول إلى أبى حنيفة النعمان، بل إنه لا يوجد فى المأثور من أقوال أئمة الفقه ما يعارضه.

وكان رأى الحسن غير هذه الآراء جميعا، فهو يرى أن المذنب الذى لا يتوب توبة نصوحا لا يوجد عنده أصل الإيمان، بل يعده منافقا فى إعلانه الإيمان، وهو غير مؤمن، وهو يقول فى ذلك: «الناس ثلاثة : مؤمن وكافر ومنافق، فأما المؤمن فقد ألجمه الخوف، وقوَّمه ذكر يوم القيامة، وأما الكافر فقد قمعه السيف وشرَّده الخوف، وأما المنافق ففى الحجرات والطرقات يسرون غير ما يعلنون، ويضمرون غير ما يظهرون، فاعتبروا إنكارهم ربهم بأعمالهم الخبيثة».

وهناك مسألة أخرى شغلت عصر الحسن أيضا؛ وهى مسألة الجبر والاختيار، فالجهم ابن صفوان ومن معه، ادعوا أن الإنسان

مجبر غير مخير، ولا إرادة له فيما يفعل، بل ينسب الفعل له، وهو من الله، والمعتزلة قالوا : إن العبد يخلق أفعال نفسه، وهو محاسب بها، وذلك بقوة أودعها الله إياه، وبها كان الحساب والثواب والعقاب، والحسن قال : إن الحسنات بتوفيق الله، والمعاصى بعمل العبد، وهو يقول فى ذلك: «كل شىء بقضائه وقدره إلا المعاصى»، ويريد من ذلك أن المعاصى لا يريدها الله تعالى.

والحسن كان يرى أن الخلافة انتهت بالراشدين، وأن معاوية اغتصبها، وأنه ليس فى بنى أمية عادل إلا عمر بن عبد العزيز، ومع ذلك كان لا يدعو إلى الخروج عليهم، ويمنع معاونة الخارجين، لأنه يرى أن وجود حكومة أولى بالاتباع من الفوضى، لأنه كان يرى أن الفتن يقع فيها من المظالم ما لا يقع من حاكم مستبد فى سنين، وكان يرى فى هذا أن الحكام لون من ألوان الشعب، فإن استقام استقاموا، ووجد قوما يدعون على الحجاج، فقال : أخشى إن عزل الحجاج أو مات تولى عليكم القردة والحنازير «كما تكونون يولى عليكم».

وكانت فيه محبة لآل على، فإنه عندما بلغه مقتل الحسين رضي الله عنه بكى وانتحب، وقال : واحسرتاه ماذا لقيت هذه الأمة؟، قتل ابن دعيها ابن نبيها، اللهم كن له بالمرصاد ﴿ وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ﴾ [الشعراء : ٢٢٧].

وللحسن البصرى رسائل عظيمة جليلة، لعبت دورا هاما فى حياة الناس الاجتماعية، اعتمدت فيها على الأسلوب السهل الذى يخاطب الوجدان، وينادى القلب، ويغوص إلى أعماق النفس فيهزها بما يسرد من أمثلة، ويقدم من صور، مثل : رسالته التى كتبها للخليفة عمر بن عبد العزيز فى صفة الإمام العادل، ومما جاء فيها: «اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، وإنصاف كل مظلوم، ومفرغ كل ملهوف.. والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالراعى الشفيق على إبله الذى يرتاد لها أطيب المراعى، ويذودها عن مراتع المهلكة، ويحميها من السباع، ويكتفيها من أذى الحرِّ والقر.

والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالقلب بين الجوانح، تصلح الجوانح بصلاحه، وتفسد بفساده... فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملَّكَكَ الله كعبد ائتمنه سيده واستحفظه ماله وعياله، فبدد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرق ماله...

لا تحكم يا أمير المؤمنين فى عباد الله

بحكم الجاهلين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالا مع أثقالك».

والرسالة طويلة تتميز بالأسلوب الوعظى الذى يقوم على تبصير الناس بأحوال دينهم وآخرتهم، وتعد نوعا من المقالات الاجتماعية التى تهدف إلى بث المثل الأخلاقية الجيدة.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١- ابن عبد ربه : العقد الفريد. تحقيق أحمد أمين وآخرين، القاهرة، ١٩٥٣ م، ٢ / ٢٦٠، وأيضا الجاحظ: البيان والتبيين، ١ /١١٤.

٢- ابن عبد ربه : العقد الفريد، ٢ / ٢١٦.

٣- المرجع السابق ٤ /٤٤٩، وأيضا الجاحظ : البيان والتبيين، ١ / ١١٢.

٤- ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٢ /١٦٣.

٥- الجاحظ: البيان والتبيين ، ١/ ١١٤.

٦- المرجع السابق ١/ ١١٥.

أبو الحسن الندوى
(١٣٣٢ - ١٤١٩ هـ = ١٩١٤ - ١٩٩٩ م)

لم تعرف الهند كاتبًا إسلاميا أوتى بلاغة القلم فى اللغة العربية كما عرفت أبا الحسن الندوى، لأنه أتقن الفصحى إتقانا جعله يتحدث عن الأدب العربى فى عصوره موازنا مقررا - كما كانت قوة عاطفته الدقيقة وحماسته الإيمانية تمدّه بوقود حار يرتفع بأحاسيس سامعيه إلى أعلى درجات التأثر، وقد ضمن لصحفه الخلود بما أبدع من بيان.

ولد أبو الحسن بقرية (تكيّة) من قُرى الهند فى المحرم سنة ١٣٣٢هـ = ١٩١٤م، فنشأ فى أسرة عربية كريمة، ترجع بأصولها العريقة إلى الحسن بن على رضي الله عنه.

وتوفى أبو الحسن عام ١٤١٩هـ الموافق ١٩٩٩م.

كان والدُ أبى الحسن أحد العلماء الأفاضل الذين كتبوا تاريخ الشهيد، وهو لم يكتب تاريخ الشهيد وحده، ولكنه سجل تاريخ الأفذاذ من المسلمين على مرّ العصور فى كتابه الرائع (نزهة الخواطر) ذى الأجزاء الثمانية، وقد اشتمل على نحو خمسة آلاف ترجمة لأعيان المسلمين فى الهند. وأبو الحسن وإن لم يتمتع برعاية والده العلمية غير أمدٍ قصير إذ ترك والده الدنيا إلى لقاء ربه وهو فى التاسعة من عمره، فإنه وجد فى هذه الموسوعة الثمينة خير زاد لروحه، لقد قرأ عن أفذاذ المصلحين قراءةً جعلته يتهيأ لدور كبير يضيف به ترجمة حافلة إلى هذه التراجم.

ولم تكن (نزهة الخواطر)، هى سلواه المختارة وحدها فى عهد اليفاعة، بل دفعته إلى مثيلاتها فى التراث الإسلامى، وفى كتب التراجم والطبقات.

وأبو الحسن وإن كان قد حرم من رعاية والده العالم العاملِ البحّاثة، لم يحرم من رعاية اثنين عزيزين أثيرين؛ هما أمه وأخوه؛ أما أمه فكانت قارئة كاتبة شاعرة، جمعت هذه المزايا فى عصر كان أكثر المسلمات شرقًا وغربًا لا يلتفتن إلى تعليم، ومن تتعلم منهن تقف عند حدٍ محدود لا يتجاوز معرفة القراءة والكتابة إلا من نشأن فى أسر الفضل والفضيلة مثل والدة أبى الحسن. كانت الوالدة الفاضلة تحفظ القرآن الكريم، وتقرأ

تفسيره فى كتب التراث، كما كانت تكتب المقالة، وتُنشئُ القصيدة.

أما الأخ الشقيق فهو الدكتور السيد عبد العلى عبد الحى، وقد جمع بين الثقافة الدينية، والثقافة العصرية، فكان إلى تعمقه فى بحوث الدين مثقفًا عارفًا بالتيارات الفكرية المعاصرة فى العالم، وكانت مكتبته ملأى بالأسفار فى الاتجاهين، وكان هذا من حظ أبى الحسن الدارس الناشئ، لأنه وجد من وجَّهه إلى القديم والجديد معًا، وقد ظهر أثر ذلك فى نتاجه العلمى الحافل.

وفى الثانية عشرة من عمره بعد رحيل والده الكريم بثلاثة أعوام، وجه الأخ الأكبر أخاه إلى تعلم الإنجليزية والعربية معًا - فوق تعلمه للأردية - وهو توجيه منتظر من أستاذ يعرف فائدة الاطلاع المستوعب للتيارات المتضاربة فى الشرق والغرب، حتى إذا بلغ من اللغتين حد الإجادة على يد أساتذة من الفضلاء، دفعته نوازعه الإسلامية إلى التضلع من الأدب العربى. وكان فضل الله عليه عظيما حين لم يتجه إلى نفر من كتاب الخلابة اللفظية فى عصور الصنعة البديعية، بل اتجه إلى كتب أربعة هى: «كليلة ودمنة» لابن المقفع، و«نهج البلاغة» للإمام على، و«دلائل الإعجاز» لعبد القاهر الجرجانى، و«حماسة أبى تمام». وهى كتب تُنَشِّئُ أديبًا فى مثل سنه، لأن «كليلة ودمنة» و«نهج البلاغة» مثالان للأدب الإبداعى، و«دلائل الإعجاز» مثال رائع للنقد البيانى المستنير، أما «حماسة أبى تمام» فهى - فى رأيى - من أبدع المختارات الممتازة فى الشعر العربى القديم.

وبعد هذا التضلع من التراث، التحق أبو الحسن بجامعة لكهنؤ، وهى جامعة تدرس العلوم المدنية باللغة الإنجليزية، وفيها قسم لآداب اللغة العربية اختاره أبو الحسن عن شوق، ووجد من أستاذه الدكتور تقى الدين الهلالى المراكشى رائدًا بصيرًا يهدى للتى هى أقوم فى استيعاب التراث الأدبى للغة العرب، ومن بعد الجامعة التحق بالندوة ليلاقى كبار العلماء فى الهند من أساتذتها، وليحضر دروس الشريعة عليهم؛ ولم يرو ظمأه من ذلك كله، بل دفعه هيامه بالمعرفة إلى الالتحاق بدار العلوم بديوبند مدة شهور، وكأنه رأى أنه سلفًا بمقرراتها، فاقتصر الأمد. ثم سافر إلى (لاهور) وقرأ التفسير القرآنى على كبار علمائها، وتحققت أمنيته السعيدة بلقاء شاعر الإسلام محمد إقبال، فحرص على مجالسته والإفادة من توجيهه، وهى صحبة عادت عليه بأجزل النفع علمًا وسلوكًا. وسأخصها قريبا ببعض التفصيل.

أما بذرة الأديب المتطلع إلى السبق فقد

برزت فى هذا الأمد - أمد الطلب العلمى والتحصيل الثقافى - إذ دفعته همته الوافية إلى كتابة مقال تاريخى، وهو فى سن الثامنة عشرة، يتحدث عن جده المجاهد أحمد بن عرفان شهيد الإسلام، وإمام أهل التوحيد.

وكان أول مقال كتبه الأديب الناشئ، ولا شك أن نشر المقال فى مجلة «المنار» الممتازة، قد بعث فى نفس أبى الحسن ثقة تمده بالعزم الطامح، والجد المثابر، إذ وجد «المنار» تضعه فى صفوف كتابها، وإذا كانت أعداد «المنار» التى تصل إلى الهند ذات قدر محدود، فقد عرض أبو الحسن على أن ينشره مستقلاً فى رسالة طبعها تحت عنوان (ترجمة السيد الإمام أحمد بن عرفان الشهيد) وقد ظهرت فى سنة ١٣٥٠هـ، فأحدث صدى قويًا بين العلماء والباحثين، وكانت بمثابة فجر صادق يبشر ضوؤه المشع بقدوم صبح مبين.

اهتدى أبو الحسن بعد نشر مقاله بالمنار إلى صميم رسالته التى يجب أن يحملها إلى العالم جميعه لا إلى العالم الإسلامى وحده، هذه الرسالة هى : الدعوة إلى الله كاتبًا ومتحدثًا، أما كاتبًا فقد ظهرت بشائر توفيقه فيما كتب بالمنار، وفيما نشر بصحف الندوة؛ وأمّا متحدثًا فقد ألِفَ - على حداثة سنّه - أن يصعد إلى المنبر خطيبًا؛ وأن يُحادث المستمعين فى الندوة محاضرًا، فيحظى بالقبول إن لم يكن يحظى بأكثر من القبول. وذلك وحده زادٌ يُعين المدلجين على السرى فى ظلمات الطريق.

إن أبا الحسن ألِفَ أن يصعد المنبر خطيبًا، وذلك توفيقٌ من الله ساقه إليه على يد أحد أساتذته، فقد سافر إلى (دلهى) فى رحلة علمية فشاءت المصادفات السارة أن يلتقى بداعيتها المجدد الكبير الشيخ محمد إلياس، وأبو الحسن يسمع معجبًا مسرورا، ويرى انفعال السامعين بما يسمعون، فيعلم أن اللقاء المبشر يفوق تأثيره الحماسى ما يكتب فى صحيفة أو يرصد فى كتاب.

ومن ثم عزم أبو الحسن على أن يكون داعية فى المجتمع بلسانه، كما هو كاتب للقارئ فى مؤلفاته، وكان أستاذه الشيخ إلياس صادق النية مخلص السريرة، أسلم وجهه إلى الله وهو مؤمن، فعظم تأثيره النفاذ، وأصبحت لكلمته التى ينطق بها أشعةٌ من الضياء، تنتقل إلى الوجوه فتملؤها نورًا، وإلى القلوب فتصقلها صقلاً يطرد عنها نوازع السوء، وهوابط الوساوس؛ وهنا كان الرجل قدوة فى خلقه كما هو قدوة فى وعظه، واعتزم أبو الحسن أن ينحو منحاه، وقد كان منه بمكان قريب، فالمبادئ هى المبادئ والسرائر هى السرائر، ولم يترك

الشيخ حتى صمم على أن يدعو بلسانه كما يدعو بقلمه، ووفقه الله فى إرشاده اللفظى، إذ كان يملك أسلحته الماضية، بل كان يملك أكثر مما يملك أستاذه، لأن الشيخ الكبير خطيب منبر، يُحدث العامة بما يجذبهم، وليس له سبحات أبى الحسن فى مطاوى الأسفار، وحواشى المجلدات، فإذا دُهشت الجموع إعجابًا به خطيبًا داعية، فلنحمد الله أن اجتاب هذا السبيل.

على أن أستاذًا ملهما آخر أذكى جمرة الشوق فى قلب أبى الحسن، وهو الشاعر الكبير محمد إقبال ولأبى الحسن كتاب عنه يصور تأثيره البالغ فى روحه أصدق تصوير.

ومن أعظم آثاره ما كتبه عن رجال الفكر والدعوة فى الإسلام فى أجزاء أربعة تعتبر موسوعة أدبية حافلة، ومن إلهاماته المشرقة أن يفطن إلى مضمون كلمات قد يمر بها القارئ مرا عابرًا، ولكنها تحمل من المعانى ما يفتح الله به عليه، فيمد قارئه بفيض من الخواطر يعجب كيف أدركه هذا الباحث الحساس.

وقد قرأت ترجمات لبعض من خصهم أبو الحسن بالحديث عند من كتبوا عنهم سواه، فوجدت الفرق ملموسا بين ترجمة وترجمة، فمن التراجم ما يكون (ملفًا فى إدارة حكومة) يقدم المعلومات وكأنها إحصاءٌ حسابى يعتمد على التواريخ والأرقام فحسب؛ ولكن تراجم أبى الحسن ذات نبض حىّ جذاب حتى ليصلح بعضها أن يكون شعرًا منثورًا، ويرجع ذلك لاعتماده على إحساسه الحى، واختياره من يتفقون مع مشاعره الدينية، وأهوائه الإسلامية ممن صدقوا الله فاجتباهم بفضله، وأذكر أن أبا الحسن جعل الصدق أساسا للتعبير الجيد، فهو باعث الحرارة والنشاط، كما التفت إلى مقاييس أخرى ليس من طبيعة هذا البحث أن يستقصيها. ولكنى أنتهى من هذه النقطة البارزة فى اتجاه الباحث الكبير لأقول: إنه فتح الأبصار على كنوز مطمورة تراكم عليها الصخر بثقله الضاغط، ونسيها الوارثون من أهلها، بل ربما عدوا كنوزها مزيفة مزورة لا تصلح للتداول فى أسواق الأدب والعلم، فانبرى الأستاذ الكبير ليحفظ لهذه الكنوز حرمتها، وليفسح لها الطريق كى تطمئن فى مستقرها المريح.

ومن مناصبه التى اكتسبت قيمة أدبية بفضله انتخابه أمينًا عامًا لندوة العلماء بعد وفاة أخيه الأكبر الدكتور عبد العلى الحسنى سنة ١٣٨٠هـ ، كما أنه اختير عضوًا مراسلاً فى المجمع العربى بدمشق سنة ١٣٧٥هـ ، وأنه دُعى لإلقاء محاضرات كأستاذ زائر فى جامعة دمشق سنة ١٣٧٥هـ ، واختير عضوًا

فى المجلس التـأسـيـسـى لرابطة العـالم الإسـلامى فى مكة المكرمـة سنة ١٣٨٠هـ ، وعـضـوًا فى المجلس الاسـتـشـارى الأعلى للجامعـة الإسـلامية بالمدينة المنورة، وانتخب رئيسًا لهـيـئـة التـعليم الدينى فى الولاية الشـمـاليـة فى الهند سنة ١٣٧٧هـ ، وهو بعد ذلك إمـام العـصـر، ورائد الإصـلاح الدينى والأدبى فى وطنه الإسلامى الكبير، ولا أقول ذلك دون دليل، فـمؤلفـاته سـاطعـة، ومواقـفـه ناصعـة، وألسنة القلوب تهتف بذكـره فى كل مكان ترفرف عليه رايةُ الإسلام، ولما عند الله أوفى وأجزل، وسيرى القارئ من عناوين كتبه مـا يدل بعض الدلالة على جـوهرها الثـمين ولقد توفى عام ١٤١٩ هـ = ١٩٩٩م.

ولأبى الحسن مؤلفات عديدة منها :-

١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.

٢ - قصص النبيين للأطفال.

٣ - القراءة الراشدة ٣ أجزاء.

٤ - الصراع بين الفكرة الإسـلامية والفكرة الغربية.

٥ - نحو التربية الإسلامية الحرة.

٦ - رجـال الفكر والدعـوة فى الإسـلام ٤ أجزاء.

٧ - الأركـان الأربعـة فى ضـوء الكتـاب والسنة.

٨ - السيرة النبوية.

٩ - روائع إقبال.

١٠- الطريق إلى المدينة.

١١- إذا هبت ريح الإيمان.

١٢- العقيدة والعبادة والسلوك.

١٣- رحلات ومذكرات ٣ أجزاء.

١٤- المسلمون وقضية فلسطين.

١٥- إلى الإسلام من جديد.

١٦- الصراع بين الإسلام والمادية.

١٧- المسلمون فى الهند.

١٨- العرب والإسلام.

١٩- نفحات الإيمان.

٢٠- أحاديث صـريحة بين إخواننا العرب والمسلمين.

٢١ - شخصيات وكتب.

أ.د. محمد رجب البيومى

حسن العطار
(١١٩٠ - ١٢٥٠ هـ = ١٧٧٦ - ١٨٣٥م)

ولد حسن العطار فى القاهرة عام ١١٩٠هـ = ١٧٧٦م، وبعض المراجع ترجِّح أن ولادته كانت بعد هذا التاريخ بعامين، وكانت وفاته عام ١٢٥٠هـ = ١٨٣٥م، وهو ينحدر من أصل مغربى، وكان والده الشيخ محمد محمود عطارًا فقيرًا يرغب فى أن يعمل ابنه معه فى حانوته، ولكن الصبى كان حاد الذكاء شغوفًا بالعلم؛ فحفظ القرآن الكريم والتحق بالجامع الأزهر.

وقد درس بجانب العلوم الأزهرية العلوم الهندسية والرياضية والفلكية، وتعمَّق فى دراستها، واشتغل بالتطبيق العملى للمعارف التى تعلَّمها نظريا، فقد «كان يرسم بيده المزَاوِل النهارية والليلية»، كما كان يتقن الرصد الفلكى بالإسطرلاب، وقد سجل هذا فى مؤلفاته، كما كان له اهتمام بالطب، والتشريح، والموسيقى التى كان يجيد فنونها.

وعندما ابتليت البلاد بالحملة الفرنسية غادر القاهرة إلى أسيوط، ثم عاد إلى القاهرة إبان الاحتلال، واتصل بعلماء الحملة الفرنسية، وشاهد التجارب العلمية التى قاموا بها، ثم سافر إلى مكة للحج، ومنها إلى فلسطين، ثم رحل إلى الشام وأقام بدمشق، ثم سافر إلى إستانبول وألبانيا، وكان يجيد التركية، وله إلمام بالفرنسية، وكان يطّلع دائما على الكتب المعرَّبة، وكان له ولع شديد بسائر المعارف البشرية كما يقول عنه صديقه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى.

وبعد أن تخلَّصت البلاد من الاحتلال الفرنسى عاد إلى القاهرة، وقد عهد إليه محمد على باشا بإنشاء جريدة الوقائع العربية (المصرية) والإشراف على تحريرها، وكان أديبا وشاعرًا معدودًا فى طليعة الأدباء والشعراء فى عصره، وكان يحضر دروسه فى الأزهر الكثير من العلماء والطلاب «فكان إذا بدأ درسه ترك كبار العلماء حلقاتهم وأقبلوا عليه مستزيدين من علمه الفيّاض»، ومن بين من كان يحضر مجالسه من المستشرقين المستشرق الإنجليزى المعروف إدوارد وليم لين (E.W.Lane).

وقد تولى الشيخ حسن العطار مشيخة الأزهر عام ١٢٤٦هـ = ١٨٣٠م، وظل فى هذا المنصب حتى وفاته، وقد قال عنه الجبرتى: إنه «قطب الفضلاء وتاج النبلاء، ذو الذكاء

المتوقد، والفهم المسترشد، الناظم الناثر، الآخذ من العلوم العقلية والأدبية بحظ وافر».

وللشيخ العطار مؤلَّفات عديدة تدل على سعة معارفه وعميق ثقافته، وقد شملت مؤلفاته علوم المنطق والفلك والطب والكيمياء والهندسة والتاريخ والجغرافيا، كما شملت الأدب شعرًا ونثرًا، بالإضافة إلى أصول الفقه وعلم الكلام والنحو والبيان.

ومن أهم مؤلفاته فى المنطق: حاشية العطار على التهذيب للخبيصى، وحاشيته على شرح إيساغوجى فى المنطق لأثير الدين بن عمر الأبهرى، وحاشيته على كتاب نيل السعادات فى علم المقولات للشريف البليدى، وحاشيته على الجواهر المنتظمات فى عقود المقولات للشيخ أحمد السجاعى.

ومن مؤلفاته فى علم الكلام: رسالتان فى علم الكلام، وحاشية العطار على شرح العصام على الرسالة العضدية للإيجى.

وفى أصول الفقه له: حاشية العطار على جمع الجوامع فى أصول الفقه لأبى نصر عبد الوهاب بن تقى الدين السبكى.

وله فى النحو: حاشية العطار على شرح الشيخ خالد الأزهرى لكتاب قواعد الإعراب لابن هشام النحوى، وحاشية أخرى على شرح الأزهرى على متن الأجرومية، وله منظومة العطار فى علم النحو.

وفى علم البيان له: شرح السمرقندية فى علم البيان لمؤلفها ابن القاسم بن بكر الليثى السمرقندى، وفى المراسلات له إنشاء العطار فى المراسلات والمخاطبات وكتابة الصكوك والشروط مما يحتاج إليه الخاص والعام.

وله فى الأدب: شرح كتاب الكامل للمبرد، كما قام بجمع وترتيب ديوان ابن سهل الأندلسى، وله ديوان العطار الذى يشتمل على الكثير من شعره.

وفى الطب والفلك وغيرهما من العلوم المتصلة بهما له رسائل، منها: رسالة فى كيفية العمل بالإسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والبسائط (وهى آلات رصد فلكية)، ورسائل فى الرمل والزايرجه (وهما طريقتان لاستطلاع معرفة الغيب) والطب والتشريح وغير ذلك، وثلاثة مقالات طبية فى الكى والفصد، ونبذة فى علم الجراحة.

وكان للشيخ العطار مشاركة فى علم التاريخ والجغرافيا، وقد اقتبس منه الجبرتى فى كتابه المعروف باسم «مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس»، وقد أشار فى مقدمة كتابه إلى ذلك بقوله عن أحداث الحملة الفرنسية: «وكان ممن اعتنى أيضًا بجمع تلك الأخبار قطب الفضلاء وتاج النبلاء... صاحبنا العلامة حسن بن محمد الشهير بالعطار... فضممت قائمة من بعض منظومه ومنثوره بحسب المناسبة إلى هذا

السفر؛ لينتظم معنا فى سلك حسن الذكر».

وكثير من هذه الآثار التى تركها الشيخ العطار لا تزال مخطوطة فى دار الكتب المصرية.

أما عن اتجاهاته فقد كان مما يؤرق بال الشيخ حسن العطار ما كان يراه من تخلف فكرى وركود عقلى فى أوساط العلماء الذين وقفوا مقلِّدين لما تركه لهم أصحاب المتون والحواشى من المتأخرين، ومن أجل ذلك نجده يدعو إلى تغيير هذه العقلية؛ حتى تكون قادرة على النهوض من حضيض التخلف الذى تعانى منه الأمة فى شتى الميادين، وهذا التغيير لن يتم إلا بالعلوم والمعارف، والأخذ بأسباب التقدم والحضارة، وقد كان شعاره فى ذلك يتمثل فى قوله: «إن بلادنا لابد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها».

وكانت جملة إصلاحاته تتجه نحو إصلاح الفكر، وذلك لاقتناعه بأنه بدون إصلاح الفكر لن يكون هناك أمل فى التقدم، وقد كان الشيخ معجبًا بما وصلت إليه فرنسا فى العلوم والمعارف رغم كراهيته الشديدة للاحتلال الفرنسى.

ويُعَدّ الشيخ حسن العطار من الروّاد الأوائل الذين اتجهوا نحو إصلاح التعليم فى الأزهر، وقد وضع بذرة الإصلاح الثقافى فى عهده لتتعهدها الأجيال بالرعاية من بعده حتى تؤتى ثمارها، ووجَّه تلاميذه إلى التجديد فيما يقومون به من دراسات وأبحاث حتى وإن كانت تتناول موضوعات قديمة، وهو الذى أشار بإرسال تلميذه النجيب رفاعة الطهطاوى إلى فرنسا، وهو الذى وجهه وأرشده إلى استيعاب كل ما يمكن استيعابه من آثار الحضارة الفرنسية، وأشار عليه بتدوين كل ما يشاهده أو يعرفه أو يسمع عنه، فكانت نتيجة هذه التوجيهات أن قام الطهطاوى بتأليف كتابه «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز».

وقد دعا الشيخ حسن العطار إلى التجديد فى مناهج التربية والتعليم، ونادى بإدخال العلوم الحديثة والعلوم المهجورة بالأزهر إلى مناهج الدراسة الأزهرية، فطالب بدراسة الفلسفة، والجغرافيا، والتاريخ، والأدب، والعلوم الطبيعية، كما طالب بالرجوع إلى أمهات الكتب العلمية وعدم الاقتصار على المتون والحواشى المتأخرة، وكان يتناول الموضوعات القديمة بأسلوب جديد وعرض جذّاب، وقد ظهر ذلك واضحًا فى دروسه وتعليقاته على تفسير البيضاوى الذى كاد أن يكون مهجورًا فى الأزهر، كما دفع تلميذه الأديب محمد عيَّاد الطنطاوى إلى شرح مقامات الحريرى بأسلوبه الأدبى البليغ، ودفع تلميذه الطهطاوى لتدريس الحديث

والسنة بطريقة المحاضرات، دون التقيّد بكتاب خاص يقرأ منه، أو نص معروف يعتمد عليه، فكان هذا مثار إعجاب العلماء.

وقد برع الشيخ فى فنون النثر والشعر، كما برع فى غيرهما من علوم وفنون، وكان يميل فى الكتابة فى الأمور العلمية والشئون المألوفة إلى سهولة الأسلوب، والتخلّص من السجع، والبعد عن التكلّف، ولكنه كان فى الكتابة الأدبية يتأنَّق فى الصياغة، ويلتزم السجع، ويراعى المحسنات البديعية.

أما شعره فقد تناول فيه شتى فنون الشعر المعروفة فى زمانه، وبخاصة مجالات الوصف والتهنئة والمدح، ونرى فى شعره الوصفى بعض اللمسات الوجدانية الرقيقة، ويتجلّى ذلك فى وصفه لجمال الطبيعة، فنراه يضرب صفحًا عن أساليب القدماء، فيتغزَّل فى جمال الطبيعة بدلاً من التغنّى بالأطلال البالية والدمن العافية، ويُعد شعره إرهاصا ببزوغ فجر جديد للنهضة الشعرية التى شهدتها الساحة الأدبية بعد ذلك على أيدى شعراء طلائع النهضة فى العصر الحديث، وعلى رأسهم محمود سامى البارودى.

ويمكن القول، كما جاء فى أعلام الفكر الإسلامى لأحمد تيمور باشا، بأن الشيخ «كان له موقف متكامل من مشكلات مجتمعه الثقافية والتعليمية والأدبية والسياسية، وقد حاول أن يُشَخّص هذا الواقع ويحدد جوانب الضعف فيه، كما نادى بضرورة تغييره، ورسم برنامج هذا التغيير، ثم أسهم بدوره فى هذا التغيير. وأخيرًا عهد بأمانة هذا التغيير ومستقبله إلى تلاميذه الذين يعتبر رفاعة الطهطاوى نموذجهم الفذ الذى بلغت حركة العطار على يديه أوجها».

وقد وصفته دائرة المعارف الإسلامية - فى مادة الأزهر - بأنه «كان رجلا مستنيرا اشتهر بعلمه، وكان أيضا شاعرًا ناثرًا من أصحاب الأساليب».

أ. د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة :

١ - أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث لأحمد تيمور باشا، القاهرة، سنة ١٩٦٧م.
٢ - مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن لعلى عبد العظيم ج١، القاهرة، سنة ١٩٧٨م.
٣ - تاريخ الجامع الأزهر لمحمد عبد الله عنان، القاهرة، سنة ١٩٥٨م.
٤ - الأزهر من ألف عام للدكتور أحمد محمد عوف، سلسلة البحوث الإسلامية بالأزهر، سنة ١٩٧٠م.
٥ - دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الثالث، طبعة دار الشعب.

أبو الحسن الهجويرى
(٤٧٠هـ)

هو أبو الحسن : على بن عثمان بن أبى على الجلابى الهجويرى الغزنوى، عالما من علماء الصوفية فى القرن الخامس الهجرى ، ومعاصرًا للدولة الغزنوية (٣٨٧-٥٨٢هـ)، وتوفى فى عهد السلطان إبراهيم الغزنوى (٤٥١-٤٩٢هـ) .

والهجويرى ولد فى مدينة «غزنة» بالهضبة الأفغانية، ومنها استمد لقبه «الغزنوى»، كما يلقب بالجلابى والهجويرى نسبة الى «جلاب» و «هجوير» وهما محلتان من توابع غزنة. وتاريخ ميلاد الهجويرى غير معروف، وإن كان من المرجح أنه ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى.

أما عن وفاته فقد اختلف فيها أيضا وإن كانت بعض المصادر ترجح أنه توفى عام ٤٧٠هـ.

ويبدو أن الهجويرى تلقى علومه الأولى فى موطنه غزنة، ولما بلغ مبلغ الشباب سلك مسلك علماء عصره فى السفر والتجول، وقام برحلات واسعة النطاق، تنقل خلالها فى أرجاء العالم الإسلامى: من سوريا إلى التركستان، ومن بحر قزوين إلى الهند، فزار: العراق وخراسان وما وراء النهر وخوزستان وفارس وآذربيجان وجرجان والهند، وأمضى فى هذه المناطق فترات كانت تقصر حينًا وتطول أحيانا، واختلف خلالها إلى عدد من شيوخ الصوفية المعروفين، فكان يلازم بعضهم وينخرط فى سلك مريديهم، ويتردد على البعض الآخر، ويتلقى منهم تعاليمهم.

وقد امتدت رحلات الهجويرى حتى سنة ٤٣١هـ، وهى السنة التى زار فيها مدينة لاهور بالهند للمرة الأولى، وكان لا يزال فى هذه المدينة عندما وقعت بها الفتنة سنة ٤٣٥هـ فى عهد السلطان مودود الغزنوى (٤٣٢-٤٤١هـ) وأسر بين الأسرى. ومن المرجح أن الهجويرى ترك لاهور عائدا إلى غزنة وخراسان فى الفترة ما بين (٤٣٥، ٤٤١هـ)، غير أنه رجع إلى الهند مرة أخرى، واستقر نهائيا فى مدينة لاهور، وظل بها إلى أن توفى.

ولا نعرف عن حياة الهجويرى الخاصة إلا

القليل مما يشير إليه فى كتابه «كشف المحجوب»، ونتبين منه أنه تتلمذ على أبى العباس الشقانى، وسلك طريق الصوفية بإرشاد أبى الفضل محمد بن الحسن الختلى، وتلقى بعض التعاليم الصوفية على أبى القاسم الجرجانى (٤٥٠هـ) و (خواجه) المظفر أحمد بن حمدان، والتقى بمعاصره أبى القاسم القشيرى (٤٦٥هـ).

وكان الهجويرى من أوائل الدعاة إلى الإسلام فى شبه القارة الهندية، وقد أسهم فى تحول عدد كبير من سكان لاهور إلى الإسلام، وكان فى مقدمتهم «راى راجو» نائب لاهور فى عهد السلطان مودود . وظل الهجويرى يعمل على نشر الدين الإسلامى والتعاليم الروحية فى مدينة لاهور حتى أدركته الوفاة بها حوالى سنة ٤٧٠هـ، ودفن بهذه المدينة، ولا يزال قبره بها داخل مزاره المعروف بمزار «داتا كنج بخش» وهو الاسم الذى يعرف به الهجويرى فى الهند وباكستان.

وقد هيأت الرحلات الطويلة للهجويرى سبل الاتصال بعدد كبير من شيوخ الصوفية، وأئمة المذاهب الدينية، ورؤساء الفرق الإسلامية المختلفة، ومكنته من الوقوف على التيارات الدينية التى كانت تسود العالم الاسلامى فى القرن الخامس الهجرى. ويسرت له فرص الاطلاع على العديد من المؤلفات الدينية والصوفية ، فاكتسب عن طريق هذا وذاك خبرات عملية واسعة، ومارس التجربة الصوفية علما وعملا. كما أمدته هذه الرحلات بحصيلة وفيرة من المعلومات القيمة التى ضمنها كتابه واستخدمها فى مناقشته للموضوعات التى تناولها.

ألف الهجويرى كتبا كثيرة أشار إلى أسمائها فى كتابه «كشف المحجوب»، وبعض هذه الكتب فقد فى حياة المؤلف، وبعضها فقد بعد وفاته. ولم يبق من مؤلفات الهجويرى سوى كتابه «كشف المحجوب» الذى يرتبط اسمه دائما باسم مؤلفه.

وكتاب كشف المحجوب يعتبر أقدم مؤلف فى التصوف باللغة الفارسية، وأول كتاب منظم فى الأصول النظرية والعملية للتصوف. وقد نوه بقيمة هذا الكتاب الشرقيون والمستشرقون ممن عنوا بدراسة التصوف الإسلامى، سواء منهم من بحثوا فى هذا الموضوع، أو من قصروا جهودهم على نشر كتب التصوف وترجمتها.

ويشتمل كشف المحجوب على خمسة وعشرين قسما تكلم فيها المؤلف فى الأصول النظرية والعملية للتصوف، وتراجم لأئمة وشيوخ الصوفية، وأقوال الصوفية ورموزهم،

والفرق الصوفية، والعقائد الدينية والعبادات، والمعاملات، ورسوم الصوفية وتقاليدهم.

وقد أفاد مؤلفو الصوفية الفرس من «كشف المحجوب»، وعلى الأخص «فريد الدين العطار» فى كتابه «تذكرة الأولياء»، و «عبد الرحمن الجامى» فى كتابه «نفحات الأنس». كما أفاد من كشف المحجوب، على نطاق واسع، اثنان ممن كتبوا فى التصوف فى العصر الحديث وهما : قاسم غنى، وأبو العلا عفيفى، وأولهما كتب باللغة الفارسية ونقل عن النص الفارسى لكشف المحجوب، والثانى كتب باللغة العربية ونقل عن الترجمة الإنجليزية للكتاب.

أ.د. إسعاد قنديل «بتصرف»

مراجع للاستزادة :

١- كشف المحجوب للهجويرى.

٢- طبقات الصوفية للسلمى.

٣- الرسالة القشيرية، لأبى القاسم القشيرى.

٤- بستان العارفين، لأبى الليث السمرقندى.

حسنين محمد مخلوف
(١٣٠٨ - ١٤١٠ هـ = ١٨٩٠ - ١٩٩٠ هـ)

عـالم من علمـاء الدين الإسـلامى الذين رزقوا طول العمر واستمرار التوفيق، كان من أوائل الذين التحقوا بمدرسة القضاء الشرعى فى أثناء تبعيتها للأزهر، وهو واحد من أبرز خريجى هذا المدرسة إن لم يكن أبرزهم، وهو أول من وصل إلى منصب الافتاء من خريجى هذه المدرسة.

ولد بباب الفتوح بالقاهرة سنة ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م، وتوفى سنة ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م. وكان والده العلامة محمد حسنين مخلوف عضوا فى مجلس إدارة الأزهر، وقد تلقى العلم على والده وعلى غيره من الأساتذة الكبار، ودرس الحساب والجبر فى مسجد المؤيد.

حصل على الشهادة العالمية من مدرسة القضاء الشرعى (١٩١٤)، وتبرع بإلقاء الدروس فى الأزهر حيث درس المنطق وآداب البحث وعلم الفلسفة وعلم الأخلاق طيلة عامين حيث عين قاضيا بالمحاكم الشرعية (يونيو ١٩١٦) وقد تدرج فى وظائف القضاء الشرعى، ورأس محكمة طنطا الابتدائية الشرعية، ومنح أثناء شغله ذلك المنصب كسوة التشريفة العلمية من الدرجة الثانية، وتولى (١٩٤١) رئاسة محكمة الإسكندرية الشرعية، كما عين نائبًا لرئيس المحكمة الشرعية العليا (١٩٤٤) ثم اختير مفتيا للدار المصرية (١٩٥٠) وخلف فى هذا المنصب الشيخ عبد المجيد سليم وبعد تقاعده اختير ليرأس لجنة الفتوى بالأزهر الشريف.

وقد توثقت العلاقة بينه وبين وزير الحقانية على ماهر باشا (١٩٢٨) وكان فى ذلك الوقت يشغل منصب مفتش المحاكم الشرعية واشترك فى ذلك الوقت فى إعداد مشروع إصلاح قانون المحاكم الشرعية، وقانون المجالس الحسبية.

تمتع الشيخ حسنين مخلوف بنزعة طبيعية إلى التدريس، وكان يمارس الأستاذية كلما وجد الفرصة لها وقد تولى تدريس الشريعة الإسلامية فى قسم التخصص بمدرسة القضاء الشرعى، كما واظب بعد تقاعده وحتى وفاته على إلقاء دروس علمية بالمشهد الحسينى.

كذلك تمتع الشيخ مخلوف بنزعة إلى التأليف العلمى، وأبرز آثاره فى هذا المجال تفسيره للقرآن العظيم، وقد طبع طبعات كثيرة فى السعودية وأبو ظبى والكويت، وله مختصر فى تفسير آيات القرآن الكريم، وله من المؤلفات الأخرى: المواريث فى الشريعة الإسلامية، كما كان أول مفتٍ فى العصر الحديث يحرص على تجميع فتاويه ونشرها فى كتاب مطبوع صدر فى أكثر من جزء.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - الفتاوى الإسلامية الصادرة عن دار الإفتاء المصرية.

٢ - مؤلفات الشيخ حسنين مخلوف.

٣ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه. د. عبد الحليم منتصر. دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٩٠م.

٤ - أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية. د. محمد كامل حسين - مركز مطبوعات اليونسكو القاهرة.

حسونة النواوى
(١٢٥٥ - ١٣٤٣ هـ = ١٨٣٩ - ١٩٢٤م)

ولد الشيخ حسونة بن عبد الله النواوى عام ١٢٥٥هـ (١٨٣٩م) فى بلدة نواى التى نسب إليها، وهى بلدة تابعة لمركز ملوى بمحافظة أسيوط وتوفى سنة ١٣٤٣هـ = ١٩٢٤م.

التحق بالأزهر وتلقى العلم على يد مشايخ الأزهر الكبار، وبجانب دراسته للعلوم الأزهرية التقليدية درس المنطق والفلسفة على يد الإمام الإنبابى، وكان يمتاز بالذكاء والنبوغ، وعندما أتم دراسته جلس لتدريس أمهات الكتب العلمية، فلفت إليه الأنظار، فاختاره الأزهر لتدريس الفقه فى جامع محمد على باشا بالقلعة، وعينته نظارة المعارف - بجانب عمله فى مسجد القلعة - أستاذا للفقه بدار العلوم ومدرسة الحقوق، وبذلك «امتاز على غيره من مشايخ الأزهر الذين اعتزلوا الحياة خارج الأزهر، ولم يعرفوا ما جَدّ فيها من أحوال جديدة، وقد جعله هذا خير من يصلح للقيام بما تريده الحكومة من إصلاح الأزهر».

ومن أجل القيام بهذه المهمة انتدبه الخديوى وكيلا للأزهر عام ١٣١١هـ (١٨٩٤م)، ثم صدر قرار بتعيين لجنة لمعاونته فى إصلاح شئون الأزهر عام ١٣١٢هـ مكونة من كبار علماء الأزهر، كان أبرزهم الشيخ محمد عبده، ثم عين شيخا للأزهر عام ١٣١٣هـ (١٨٩٦م)، كما أسند إليه منصب الإفتاء عام ١٣١٥هـ، وانتخب بجانب ذلك عضوا دائما غير قابل للعزل فى مجلس شورى القوانين، ولكن الخديوى أصدر عام ١٣١٧هـ قرارا بتنحيته من مشيخة الأزهر ومن الإفتاء لمعارضته بعض مقترحات الحكومة، ثم أعيد إلى مشيخة الأزهر مرة ثانية عام ١٣٢٤هـ، ولكنه آثر ترك المنصب عام ١٣٢٧هـ؛ لما رآه من اختلال الأحوال فى الأزهر، وتخبط الرؤساء، ويأسه من الإصلاح، ولزم داره حيث كان يتردد عليه محبوه وعارفو فضله وعلمه، حتى لقى ربه.

لقد كان الشيخ حسونة النواوى مُقِلا فى مجال التأليف، وأهم مؤلفاته كتاب «سلم المسترشدين فى أحكام الفقه والدين» فى جزئين كبيرين، وقد عرض فى هذا الكتاب

بأسلوب واضح القضايا الفقهية فى مذهب أبى حنيفة، وقد لقى الكتاب شهرة واسعة جعلت نظارة المعارف تقرر دراسته فى المدارس الأميرية. وقد قال عنه إلياس زخورة صاحب «مرآة العصر»: «وهو كتاب فى جزئين جمع فيه الأصول الشرعية مع الدقائق الفقهية ببيان شافٍ وإيضاح وافٍ مما لا يجمعه غيره، وقد اقتنت المدارس الأميرية هذا الكتاب وعلَّمته تلامذتها».

وتذكر بعض المراجع أن للشيخ - عدا هذا الكتاب - كتبا عديدة، ورسائل كثيرة، وكلها جيدة الصنع، كما أن بصمات الشيخ واضحة وملموسة فى صياغة قانون تنظيم الأزهر الذى صدر حينذاك.

أما عن اتجاهاته فقد كان الشيخ حسونة النواوى مَعْنِيا بقضية إصلاح نظام التعليم فى الأزهر، واستطاع بمعاونة اللجنة التى شكلت لمساعدته - والتى كان أبرز أعضائها الشيخ محمد عبده - أن يعد قانونًا جديدًا لتنظيم الأزهر، صدر عام ١٣١٤هـ، وقد تشكل بمقتضى هذا القانون مجلس إدارة للأزهر، مهمته وضع القواعد التى يسير عليها التدريس فى الأزهر، وضبط الأمور المتعلقة بالطلاب والإدارة وكل ما له تعلق بالأزهر، وقد اشتمل هذا القانون على منع تدريس الحواشى والتقارير للطلبة المبتدئين فى السنوات الأربع الأولى، وبعدها يُخيَّر الطلاب والأساتذة فى النظر فى الحواشى، أما التقارير فلا تدرس إلا بقرار من مجلس الإدارة.

وقد كان علماء الأزهر ينفرون من إصلاحات الشيخ النواوى، ويبدون ضيقهم بخططه؛ لأنه جاء مؤيدا لتدريس العلوم الحديثة، مثل: الحساب والهندسة والجبر وتقويم البلدان وما إليها فى الأزهر، وكان هؤلاء العلماء يرون أن إدخال هذه العلوم المستحدثة فى برامج الأزهر يقصد منه القضاء على العلوم الشرعية، أو تقليل الرغبة فيها، مع أن هذه علوم قديمة كانت تدرس فى الأزهر قبل انحطاطه.

وقد أشاعوا أن الشيخ حسونة ممالئ للإنجليز على هدم مكانة الأزهر بإدخال العلوم الحديثة فيه، ولكن نظرة الناس إلى الشيخ حسونة قد تغيَّرت، وتحققوا من بطلان ما اتهموه به بعد أن أصدر الخديوى قرارًا بتنحيته من مشيخة الأزهر والإفتاء؛ لمعارضته الحكومة فى الاقتراح الذى عرض على مجلس شورى القوانين بتعيين قاضيين أهليين من مستشارى محكمة الاستئناف الأهلية عضوين فى المحكمة الشرعية العليا، وكان للإنجليز رغبة فى تعيينهما، وقد وقف الشيخ ضد هذا الاقتراح، ولم تفلح محاولات

الخديوى فى إقناعه بقبول الاقتراح بعد تعديله، وقال: «إن المحكمة الشرعية العليا قائمة مقام المفتى فى أكثر أحكامها، ومهما يكن من التغيير فى الاقتراح فإنه لا يخرجه عن مخالفته للشرع، لأن شرط تولية المفتى مفقود فى قضاة الاستئناف».

وفى عام ١٨٩٧م أنشأ الشيخ حسونة مكتبة الجامع الأزهر بناء على اقتراح من الشيخ محمد عبده، وقد تألفت نواتها الأولى من مجموعات الكتب التى كانت تضمها أروقة الجامع الأزهر ومكتبات بعض المساجد الأخرى، وبلغ ما كانت تضمه المكتبة وقت إنشائها زهاء ثمانية آلاف مجلد.

وقد قالت عنه «دائرة المعارف الإسلامية»: «كان على خلق، أُعجِب به المصريون، وكان له فى مدرسة الحقوق نفوذ على الطلبة الذين أصبح لهم من بعد شأن فى ميدان السياسة المصرية».

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ - سجلات دار الإفتاء المصرية.
٢ - مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، تأليف على عبد العظيم ج ١، القاهرة ١٩٧٨م.
٣ - تاريخ الإصلاح فى الأزهر للشيخ عبد المتعال الصعيدى (جزآن)، مطبعة الاعتماد بمصر (د.ت.).
٤ - تاريخ الجامع الأزهر لمحمد عبد الله عنان، القاهرة ١٩٥٨م.
٥ - أعلام الفكر الإسلامى فى العصر الحديث لأحمد تيمور باشا، القاهرة ١٩٦٧م.
٦ - دائرة المعارف الإسلامية - مادة الأزهر، المجلد الثالث، طبعة دار الشعب.

حسين والى
(١٢٨٦ - ١٣٥٤هـ = ١٨٦٩ - ١٩٣٦م)

هو حسين بن حسين بن إبرهيم بن إسماعيل بن وهدان والى، من سلالة عامر ابن مروان الحسينى، أزهرى، أديب، ولغوى كبير، وعالم فاضل، وأحد أعلام القرن الرابع عشر الهجرى.

ولد فى قرية «ميت أبو على»، مركز الزقازيق، بمحافظة الشرقية، سنة ١٢٨٦هـ = ١٨٦٩م وتوفى سنة ١٣٥٤هـ = ١٩٣٦م.

وكان والده من علماء الأزهر الشريف، وأشرف على تنشئة ولده حسين ورعايته وتربيته تربية إسلامية، حتى حفظ القرآن الكريم فى صغره. ثم انتقل إلى القاهرة، وأقام مع عمه، وأتم الدراسة الابتدائية، ثم التحق بالأزهر الشريف وهو فى الثالثة عشرة من عمره، فدرس التجويد والقراءات، ثم العلوم الشرعية والعقلية.

ومن شيوخه الذين أخذ عنهم، وتلقى عليهم: الشيخ الشربينى، والشيخ الأشمونى، والشيخ الإنبابى وغيرهم.

وعقب تخرجه من الأزهر عين مدرسًا بالأزهر، فدرَّس كثيرًا من العلوم العقلية والشرعية وفى مقدمتها: كتاب الأم فى مذهب الإمام الشافعى ثم درس فى مدرسة القضاء الشرعى، ثم عين مفتشًا عاما للأزهر والمعاهد الدينية، فوكيلاً لمعهد طنطا، فكاتبًا للسر العام فى الأزهر الشريف، ثم كان من أعضاء هيئة كبار العلماء، ومن أعضاء مجلس الشيوخ.

كان من الرعيل الأول لأعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٣٣).

وكان من الثقات الذين يعول عليهم فى الفتوى، كما كان الشيخ محمد عبده يحيل عليه بعض الاستفتاءات المشكلة التى ترد إليه من البلاد الإسلامية، فكان يقوم بهذه المهمة على الوجه الأكمل.

كما كان مشهورًا بمحافظته الشديدة على سلامة الفصحى، وكان يكتب الأخطاء الشائعة وتصويبها، ويعلقها على لوحة؛ لتكون تحت عيون طلابه، وكان يقول الشعر، وله براعة فى فن التأريخ بالشعر، القائم على حساب حروف الجمل.

وله من المؤلفات المطبوعة:

- أدب البحث والمناظرة.
- الاشتقاق.
- رسالة التوحيد.
- كتاب الإملاء.
- تمرين الإملاء.

بالإضافة إلى مؤلفات أخرى مازالت مخطوطة لم تطبع بعد.

أ.د. ضاحى عبد الباقى

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى، حـ٢/٢٣٦.

٢ - المجمعيون فى خمسين عامًا د. محمد مهدى علام، ص ١١٥.

٣ - الأعلام الشرقية لزكى مجاهد، حـ٢/١٠٨.

الحضرمـــى
(١١٧ ـ ٢٠٥هـ = ٧٣٥ ـ ٨٢١م)

هو يعقوب بن إسحاق بن يزيد بن عبد الله ابن أبى إسحاق الحضرمى البصرى، وكنيته أبو محمد، أحد القراء العشرة.

ولد سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة = ٧٣٥م.

وتوفى فى ذى الحجة سنة خمس ومائتين = ٨٢١ م (عن ثمان وثمانين سنة).

أخذ القراءة عرضا على أبى المنذر سلام ابن سليمان الطويل المزنى، وعن شهاب شُرُنْفة، وأبى يحيى، ومهدى بن ميمون، وأبى الأشهب جعفر بن حيان العطاردى، وقيل: إنه قرأ على أبى عمرو البصرى نفسه، وسمع الحروف من حمزة بن حبيب الزيات، والكسائى، وشعبة، وهارون بن موسى، وسعيد بن الحجاج، وسليم بن حيان، وهمام ابن يحيى، وزائدة، وأبى عقيل الدورقى، والأسود بن شيبان.

وروى عن يعقوب القراءة خلق كثير، منهم: روح بن عبد المؤمن، ومحمد بن المتوكل رويس، وأحمد بن عبد الخالق المكفوف، وأبو حاتم السجستانى، وأبو عمر الدورى، وابن أخيه زيد بن أحمد، وعمر السراج، وأبو بشر القطان، وأيوب بن المتوكل، وأحمد بن محمد الزجاج، كما روى عنه حرف أبى عمرو ابن العلاء حمدان بن محمد الساجى، ومن أشهر من روى عنه القراءة هما:

١ ـ محمد بن المتوكل اللؤلؤى البصرى الملقب برويس، وهو من أحذق أصحابه.

٢ ـ روح بن عبد المؤمن الهذلى البصرى النحوى وهو من أجل أصحابه وأوثقهم.

ولقد أجمع كل من أدركوا يعقوب على عظم قدره وعلو شأنه، فقد كان أعلم الناس فى زمانه بالقراءات، والعربية، والرواية، وكلام العرب، والفقه، وانتهت إليه رئاسة الإقراء فى البصرة بعد شيخه أبى عمرو، وكان إمام جامع البصرة سنين.

قال أبو حاتم السجستانى: هو أعلم من رأيت بالحروف واختلاف القراءات ومذاهبها، وعللها ومذاهب النحاة، وهو أروى الناس لحروف القرآن، وحديث الفقهاء.

قال الحافظ أبو عمرو الدانى: وائتم بيعقوب فى اختياره عامة البصريين بعد أبى عمرو، فهم أو أكثرهم على مذهبه، قال الدانى: وسمعت طاهر بن غلبون يقول: إمام الجامع بالبصرة لا يقرأ إلا بقراءة يعقوب. ثم روى الدانى عن شيخه الخاقانى عن محمد ابن محمد بن عبد الله الأصبهانى أنه قال: وعلى قراءة يعقوب إلى هذا الوقت أئمة المسجد الجامع بالبصرة، وكذلك أدركناهم.

وكان ـ رحمه الله ـ إماما، فاضلا، ورعا، زاهداً، بلغ من زهده أنه سُرِق رداؤه من كتفه وهو فى الصلاة ولم يشعر، ورد إليه ولم يشعر لشغله بالصلاة.

قال الأهوازى: أنشدنى فيه أبو عبد الله محمد بن أحمد اللالكائى لنفسه :

أبوه من القراء كان وجده

ويعقوب فى القراء كالكوب الدرى

تَفَرّدُه محض الصواب ووجهه

فمن مثلهُ فى وقته وإلى الحشر

أما عن مؤلفاته، فقد ذكرت بعض المصادر أن له كتابا أسماه «الجامع» جمع فيه عامة اختلاف وجوه القراءات، ونسب كل حرف إلى من قرأ به، وكتاب «وقف التمام»، وكان يأخذ أصحابه بعد آى القرآن العزيز، فإن أخطأ أحدهم فى العد أقامه.

أ. د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١ - النشر فى القراءات العشر، لابن الجزرى ١٨٦/١.
٢ - تهذيب التهذيب لابن حجر ٣٨٢/١١.
٣ - شذرات الذهب، لابن العماد ١٤/٢.
٤ - الأعلام للزركلى ١٩٥/٨.
٥ - معرفة القراء الكبار ١٥٦/١.
٦ - غاية النهاية ٣٨٦/٢.
٧ - وفيات الأعيان ٣٩٠/٦.
٨ - التاريخ الكبير ٣٩٩/٨.
٩ - طبقات ابن سعد ٥٥١٢/٧ ط التحرير.

حفنى ناصف
(١٢٧٢ - ١٣٣٨ هـ = ١٨٥٦ - ١٩١٩م)

هو حـفنى بن إسـمـاعـيل بن خليل بن ناصف.

ولد فى إحدى قرى مدينة القليوبية فى سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٦ من سبتمبر ١٨٥٥م، فى أسرة ذات مجد سالف، وفقر حاضر وكانت وفاته سنة ١٣٣٨هـ = ١٩١٩م، وتوفى والده وهو جنين فى بطن أمه، فكفله خاله، كما كفل حافظ إبراهيم خاله أيضا، والخال إذا كان رب أسرة كبيرة فإنه مضطر لأن يجود ببعض ما يحوز على ابن أخته، وكانت ظروف حفنى أفضل من ظروف حافظ، لأن والد شاعر النيل لم يترك له شيئا ما، أما والد حفنى فقد ترك بعض ما يقوم به الأود، فنشأ كما ينشأ أبناء القرى متوجها إلى فقيه القرية ليحفظ كتاب الله، وقد لاقى التلميذ من شيخه عناء، لأن رجال التحفيظ بالأمس، كانوا يرون العقاب البدنى طريق الحفظ والتسميع، وقد صبر التلميذ ما صبر حتى حفظ القرآن الكريم، وتعلم مع زملائه الذين كانوا معه، ثم رحلوا إلى القاهرة لتلقى العلم بالأزهر، وجاءوا فى شهور العطلة، علم أن هناك علما أكثر من علم الشيخ، ومعهدا للعلم يخرج منه الطالب أستاذا جليلا، فدفعته نفسه إلى السفر إلى القاهرة ليكون أحد هؤلاء الأزهريين، لم يستشر أمه أو خاله، بل سافر على قدميه فى سن الرابعة عشرة حتى بلغ مراده، وطار النبأ إلى والدته، فاستعطفت أخاها كى يمد له معها العون، وعكف الشيخ الصغير على علوم الأزهر مدى عشرة أعوام، وعلى الاتصال بالصحف الأدبية والعلمية قراءة واستيعابا، حتى عرف بالنبوغ فى محيطه، وقال الشعر المناسب لسنه، وسعد بنشره فى بعض الجرائد، وقد افتتحت مدرسة دار العلوم فى هذا الأمد، واختارت طلابها من نابغى الأزهريين، وفى طليعتهم حفنى ناصف، وكان نظامها التعليمى مضبوطا منسقا على غير ما عهده فى حلقات الأزهر بالمسجد الجامع، فسعد بما تهيأ له من مورد.

وقد تخرج من دار العلوم، فعين مدرسا بمدرسة الخرس والعميان، وهو تعيين غير مناسب لمؤهله العلمى، ولكن صلة حفنى بالشيخ محمد عبده وبعض المشجعين للثورة العرابية جعلت التعيين عقابا لا وظيفة، وحفنى واسع الصدر، أخذ كل شىء مأخذ

الجد، ففكر وتأمل وجرب، حتى وفق فى عمله، ولكن أحد رجال القانون المرموقين فى الدولة احتاج إلى سكرتير يتقن اللغة العربية، ليكون ساعده فى ترجمة ما يريد من القوانين الأوروبية، وقد اختبر بعض المتقدمين للسكرتارية، فاختار من بينهم حفنى ناصف، وحفنى نشيط غير خامل، إذ عكف على فهم ما يشاور فى شأنه من القوانين حتى ألم إلماما كافيا سرعان ما أكسبه بذلك دربة رشحته للتدريس بكلية الحقوق، وهى موطن القوانين ومجال دراستها، فأكب على دراسة مواد الكلية، ليكون فى مستوى أساتذتها، وتضلع فيما عكف عليه حتى أقيم امتحان لاختيار القضاة بالمحاكم الأهلية، فتقدم للامتحان وأدرك الفوز، فصار رجل اللغة العربية قاضيا رسميا يزامل من تخصصوا فى القانون فى كلياته المتخصصة، ولكن القاضى لم يترك مجال التفكير فى ما يشغل الأمة أثناء قيامة بالقضاء، إذ كان يسهم بنتاجه الفكرى شعرا ونثرا فى كل مناسبة تدعو إلى القول، وصار اسمه يتألق جوار شوقى ومطران وحافظ وصبرى من الشعراء، وجوار المويلحى وعلى يوسف والبكرى من الكتاب.

أما عن اتجاهاته فإننا نرى بعض الذين يتحدثون عن النهضة النثرية فى أوائل هذا القرن، يجعلون حفنى ناصف من مدرسة عبد الله فكرى التى تميل إلى النثر الفنى المسجوع، وقد يعدون ذلك مدعاة تأخر لا تقدم، وهو خلط نعرفه لدى من يتصدون للتاريخ الأدبى المعاصر، فيهرفون بما لا يعرفون، لأن حفنى ناصف أولا لم يلزم النثر الفنى فى كل ما كتب، بل كان يرسل المقالات الصحفية على النهج الصحافى، الذى يميل إلى الاسترسال دون قيد، وله فى هذا المجال مقالات عديدة فى اللواء والمؤيد والجريدة، بل إنه دعى لرئاسة تحرير المؤيد بعد اعتزال صاحبه الشيخ على يوسف، فاعتذر مؤثرا عمله الحكومى على موضع قد يكون غيره أولى منه فى القيام عليه، هذا شىء. والشىء الآخر، أن الأسلوب الفنى المسجوع لا يعد موضع انتقاص، إذا جاء النص وفق الطبع، ومتمشيا مع المعنى المراد دون تكلف، بل يعد مصدر نبوغ وتفوق لصاحبه، وهل كان بديع الزمان الهمذانى إلا سابقا مجليا فى مقاماته، لأنه انفرد بلون من السجع المصور الذى يرسم المواقف والعواطف ويتغلغل إلى النفوس فى قوة وابتكار.

هكذا كان نثر حفنى ناصف، يقرؤه الدارسون فيعجبون بدقة تصويره، وسلامة تعبيره، فكيف يكون الأسلوب المسجوع موضع مذمة على الإطلاق.

أما شعره فقد سار أكثره على الأفواه، لأن الشاعر الكبير، وإن زامل الفحول من أنصار الجزالة كان يميل فى أكثر شعره إلى

السهولة، وقد قرنه الأستاذ محمود غنيم فى كتابه الخاص به بالبهاء زهير الشاعر المصرى الناشئ فى العصر الأيوبى! وهو شبه قريب غير بعيد. فالشاعران يتمتعان بصفاء الروح، وعذوبة التعبير، مع عدم الغوص فى أفكار تثقل الشعر فتعجزه عن الطيران، وإذا كان شعر حفنى من هذا الطراز، فهو أقرب مسلكا للنفوس، وأسرع سيرا على الألسنة.

لقد كان قاضيا فى محكمة طنطا، وأصدر حكما صادقا مخلصا لم يرتح له أولو الأمر ممن كانوا يتوقعون ثبوت الاتهام على برىء مظلوم إرضاء لبعض الرؤساء من ذوى الغرض، ولكن الحق لا يعدم النصير، فقد عصف القاضى الفاضل بكل ما جاء من الشفاعات المغرضة، وهتف بالحكم جهيرا ساطعا لا يحتمل اللبس، وضاق ذوو الأمر به، وهم لا يستطيعون عزله بحكم استقلال القضاء، فأرهقوه بنقله إلى الصعيد قاضيا فى محكمة قنا، ولا شك أن هذا النقل كان ظلما جائرا لا مبرر له، وكان فوق احتمال قاض ذى أسرة كبيرة يرعاها بالقاهرة، ولكنه أراد أن يفوت فرصة الشماتة على من نقلوه، فنظم قصيدة مشتهرة ذاعت وصلصلت فى الآذان، حتى قرحت الأسماع، لأنه فى قصيدته لم يلجأ إلى التبرم، بل جعل النقل مكافأة طيبة، وكمدا للحساد، وغيظا للأعداء، هكذا قرر الشاعر المتهكم حين قال مخاطبا وزير الحقانية الذى أمضى قرار النقل:

رقيتنى حسا ومعنى
فلصنعك الشكر المثنى
وجعلت رأس الحاسد
ين بمصر من قدمى أدنى
أسكنتنى فى بقعة
فيها غدوت أعز شأنا
بلد إذا حلت به
قدماك قلت: حللت حصنا
قالوا شخصت إلى قنا
يا مرحبا بقنا وإسنا
هاقد أمنت البرد والبر
داء، والقلب اطمأنا
فالشمس تكفل راحتى
فكأنها أمى وأحنى
عش فى القرى رأسا ولا
تسكن مع الأذناب مدنا
واربأ بنفسك أن ترى
مستمرئا فى العيش جبنا

وقد صارت القصيدة مسير الشمس منذ نشرها فى الصحف، وعارضها الكثير من الشعراء مما يفتح مجالا لموازنة نقدية مثمرة، وممن عارضوها هذا الذى خاطب الشاعر الكبير قائلا.

حفنى قبلت الحق مجترئا
فدعنا منك دعنا

قـــد ناح قلبك مـــعـــولا

لكن شـــعـــرك قـــد تغنى

ونحن نعرف أن القاضى بالمحاكم مرهق بعمله المضنى، لأنه يضطر إلى قراءة مذكرات قانونية، واستماع مرافعات الاتهام والدفاع، ومناقشة الشهود، ثم يخلو لنفسه ليوازن بين مـا رأى وسـمع وقـرأ، هذا فى القـضـيـة الواحدة، مع أن عشرات القضايا، تعرض فى الأسبوع الواحد، وهذا الجهد المتصل قد شغل كثيرا من القضاة عن ممارسة هواياتهم الذاتية فى الأدب والعلم والفن، لكن حفنى ناصف لم ينس أنه رجل اللغة العربية، وأن لها أمانة فى عنقه مهما بذل فى سبيلها من مشاق.

وقد كانت قواعد اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة تدرس فى كتب ألفت للكبار لا للصغار، لذلك قام الأستاذ حفنى ناصف برئاسة لجنة علمية من زملائه مهمتها تأليف كتب مدرسية فى النحو والصرف والبلاغة على نحو يفيد الطالب المبتدئ، فألفت سلسلة الدروس النحوية فى أربعة كتب، الأول والثانى والثالث للمدارس الابتدائية، والرابع للمدارس الثانوية، ثم اتجهت لتأليف كتاب خاص بالبلاغة وفروعها، من معان وبيان وبديع، فظهر التأليف المدرسى لقواعد اللغة العربية لأول مرة على نحو تربوى يفيد التلميذ والمدرس معا، وتقوم الفكرة العامة لهذه السلسلة الدراسية على التدرج المتصاعد، بحيث يكون درس باب كالمبتدأ والخبر سهلا فى الجزء الأول ثم يضاف إليه فيما تلاه ما يكمله من التقسيمات اللازمة، وقد ظلت هذه السلسلة تدرس فى المدارس المصرية قرابة نصف قرن، فآتت أكلها على قدر ما يتيسر، ثم أتبعت بسلسلة النحو الواضح للأستاذين على الجارم ومصطفى أمين، فاكتمل التأليف المدرسى به على وجه مفيد.

حين تنقل الأستاذ حفنى ناصف فى عواصم المديريات بالمملكة المصرية، رأى من سعادته الأدبية أن ينشئ مواسم للمحاضرات الأدبية لأول مرة فى الأقاليم، إذ كانت المحاضرات مقصورة على الوعظ الدينى، ومكانها المساجد الكبيرة، وصادفت الفكرة هوى فى النفوس، فكان الإقبال شديدا على هذه المحاضرات، وقد حاضر حفنى عن حسان بن ثابت، وشجع غيره على مواصلة البحث. فرأت طنطا وقنا وبعض الحواضر الأخرى نشاطا فكريا، كان الأساس للمحاضرات العامة التى نراها اليوم.

وحين انتقل إلى القاهرة قاضيا بمحكمة الأزبكية، رأى أن يتسع بالمحاضرات إلى مسائل هامة تشغل الأذهان وتتطلب الحل السريع، فعمل على إنشاء نادٍ لدار العلوم يقوم أعضاؤه بالنشاط الفكرى فى العاصمة، وأسندت إليه رياسته عن سرور وارتياح، وهنا

وجه الأنظار إلى ضرورة بحث موضوعين هامين يمثلان أزمة فكرية معاصرة، أحدهما: موضوع الألفاظ الأعجمية التى بدأت تغزو اللغة العربية، وثانيهما: موضوع الربا، والحديث عن دور البنوك الاقتصادية التى أنشأت فى البلاد، ومدى موافقة أعمالها لما تقرره الشريعة الإسلامية.

أما عن مؤلفاته: فإن من أطرف بحوث حفنى ناصف العلمية هى ما كتبه عن قرية السيدة مارية القبطية زوج رسول الله ﷺ، فقد كان يبحث مبدئيا عن كلمة حفنى التى سمى بها، إذ رأى أناسا فى مديريات مختلفة ينطقون الحاء بالكسر والفتح والضم، لكل إقليم لهجته فى النطق، فلجأ إلى المعاجم اللغوية فلم يظفر بطائل، فاهتدى إلى كتاب (معجم البلدان) لياقوت الحموى، فقرأ فيه أن (حفن) بفتح الحاء ناحية من نواحى مصر، وفى الحديث: «أهدى المقوقس إلى النبى ﷺ مارية من حفن من رستاق أنصنا»، فكان هذا النص الكريم باعثا لنفسه على البحث عن تلك الناحية التى سعدت إحدى بناتها بالانتساب إلى رسول الله ﷺ زوجا ذات ولد، فأخذ يوالى البحث حتى اهتدى إلى حديث عن (أنصنا) فعرف أن ابن دقماق قال فى كتاب «الانتصار»: «أنصنا بلدة قديمة بها آثار عظيمة، وهى على ضفة النيل قبالة الأشمونين». وحفنى يعرف بلدة (الأشمونين) فاتجه إليها كباحث فى علم الآثار، وأخذ يجوس بين أطلالها، ويحاول قراءة ما تحمله تماثيلها من إشارات، ثم واصل القراءة، فعرف أن الناحية تضم قرية (حفن) وكانت معفاة من الضرائب فى عهد الصحابة، وقد بنى بها عبادة بن الصامت رضي الله عنه مسجدا تجدد بعد موته، وصارت القرية تسمى باسمه! وإذن فحفن بلدة مارية قد حظيت باهتمام الصحابة تكريما لنبى الإسلام ﷺ، وأصبحت ذات مسجد حافل، وسميت باسم صحابى كبير تكريما لأعماله بها، وشاء الأستاذ أن يختلط بأبناء القرية، فوجد عندهم جميعا خبرا يتوارثونه، وهو أن مارية من بلدتهم، فاطمأن إلى ما انتهى إليه، وكتب بحثا مستفيضا عن تحقيقه الأثرى، ونشره أولاده بعد ثلاثين عاما بمجلة الهلال (نوفمبر سنة ١٩٣٢م).

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - حفنى ناصف: للأستاذ محمود غنيم «سلسلة أعلام العرب».
٢ - حفنى ناصف: للأستاذ محمد خلف الله أحمد.
٣ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين. للدكتور محمد رجب البيومى.
٤ - ديوان «حنين الليالى» للدكتور محمد رجب البيومى.

الحكيم الترمذى « الزاهد »
(٢٠٥ - ٣٢٠هـ = ٨٣٥ - ٩٣٢م)

هو أبو عبد الله: محمد بن على بن الحسن بن بشر الملقب «بالحكيم الترمذى» ولقب بألقاب كثيرة، بعضها يرى ذاكرها أنه متصف بها، إما بحسب رأيه هو، أو بحسب اعتقاد جمهور العلماء، كلقب الشيخ، والعالم العلاّمة، والمحدّث، والزاهد، والحافظ، والإمام، والترمذى، والحكيم، وغير ذلك.

ولد فى مدينة ترمذ على نهر جيحون بإقليم ما وراء النهر سنة ٢٠٥هـ تقريبا الموافق ٨٣٥م وتوفى سنة ٣٢٠هـ = ٩٣٢م.

وكان أبوه مشتغلا بطلب الحديث وروايته، مما كان له أكبر الأثر فى تربيته وتعليمه، فلم تكن طفولة الحكيم الترمذى طفولة عادية، مليئة بلهو الأطفال وعبثهم ولعبهم .. إذ وُفِّق منذ صباه فى الجمع بين علم الآثار وعلم الرأى، وإن كان هذان العلْمان لم يشغلانه عن تحصيل علم الحديث، وعلم الفقه، وبعدما قارب سبعة وعشرين عاما بدأ يتجه اتجاها مختلفا، فولى وجهه وقلبه وعقله إلى حفظ القرآن الكريم، وانصرف إليه كلية، وكان هذا بداية لهجر الاتجاه العقلى الجاف بعد ما حَصَّل منه ما حصَّل، ووعى منه ما وعى إلى الاتجاه الروحى الخالص.

ويمكن أن تُسمى هذه الفترة بفترة التحول فى حياة الحكيم، فقد كان تحوله عميقا وشاملا لم يترك له شيئا مما كان منغمسا فيه من قبل إلا وَغَيَّرَ نظرته إليه، واستغرق فى جميع أنواع العبادة من صوم، وصلاة، وقرآن، وحفظ للحديث، دون أن يتخذ فى ذلك منهجا مُعيَّنا، أو طريقة خاصة، إلى أن وقع فى مسامعه كل أهل المعرفة.عند ذلك بدأت الفترة الثانية من هذه المرحلة الطويلة الشاقة، وقد أخذ نفسه فيها بالرياضة ودقائقها دون هوادة أو تهاون، واستمر على ما هو عليه من رياضة ومُحاسبة إلى أن وُفِّق لبعض الإخوان، فكانوا يجتمعون بالليالى يتناظرون، ويتذاكرون، ويدعون، ويتضرعون.

ويبدو أنه خلال هذه المناظرات، والمذاكرات لم يكن يتحرَّج من الحديث عن تجاربه الصوفية العميقة، ويتطرق منها إلى نقد قاس لعلماء زمانه فى شتى النواحى الدينية، سواء فى علم الرأى، أو علم الآثار،

أو حتى فى العلوم الصوفية، وعلوم الحديث والفقه مما أحفظ عليه صدور الكثيرين منهم، فتعرَّض لحملة قاسية من علماء الحديث، وعلماء الفقه، ورجال التصوف، وجعلوا يرمونه بالهوى والبدعة.

وقد وصل بهم الأمر أن سعوا به إلى والى بلخ، فبعث إليهم مَنْ يبحث فى هذا الأمر ويحققه، وخصوصا بعدما اتهموه بأنه يفسد الناس، ويبتدع، ويدَّعى النبوة.

إلا أن الأمور لم تستمر على ما كانت عليه فى هذه الأثناء، إذ هاجت بتلك البلاد فتنة عامة اضطرت جميع مَنْ كانوا يؤذونه ويتقوَّلون عليه إلى الهرب من هذه البلاد، لذلك لم يلبث أن اجتمع الناس ومعهم مشيخة البلد ببابه يكلمونه فى القعود لهم، وألحوا عليه فى ذلك حتى أجابهم.

من هنا تبدأ مرحلة الخروج من خلوته وعزلته، والبروز إلى الناس، فظهر فضله، وانتشر ذكره، واجتمع الناس عليه وتزايدوا حتى فاضوا عن داره، وامتلأت بهم السكك والمسجد، وما زالو به حتى قعد لهم فى المسجد، عند ذلك تحقق الناس أن ما كان قد شاع عنه لم يكن إلا أكاذيب وأقاويل باطلة، وتهم ألصقت به بالباطل، فأقبلوا عليه بالتعظيم والتبجيل. وبعد هذه الحياة الحافلة بالعلم فى شتى فروعه.

وبعد أن ملأ السطور بكتابات تُوفى الحكيم الترمذى بمدينة ترمذ عام ٣٢٠هـ على أرجح الآراء تاركا تلك الثروة العلمية والفكرية الكبيرة، إلا أنه لم يحقق منها إلا اليسير، والباقى ما زال مخطوطا.

وقد قام الحكيم الترمذى بالعديد من الرحلات والتنقلات فى كل من العراق، والشام، والمدينة المنورة، ومكة المكرمة، ونيسابور، وغير ذلك من البلدان، مما أتاح له تلقى علوم الرأى، وتحصيل الآثار، والحديث، والفقه، والتصوف، وغير ذلك على الكثير من الشيوخ، منهم: على بن حسن الترمذى «والده»، وقتيبة بن سعيد الثقفى البلخى، وصالح بن عبدالله الترمذى، وصالح بن محمد الترمذى، وسُفيان بن وكيع، والحسن ابن عمر بن شقيق البلخى، وأحمد بن خضرويه، وأبو تراب النخشبى، ويحيى بن معاذ الرازى، ويعقوب بن شيبة بن الصلت.

أما عن تلاميذه ومن سمع منه، فهم كثيرون، لم يحفظ التاريخ منهم إلا عددا قليلا، منهم: أبو محمد يحيى بن منصور القاضى، وأبو يعلى منصور بن عبد الله بن خالد الذهلى الهروى، وأبو على الحسن بن على الجرجانى، وأحمد بن محمد بن عيسى، وأبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق، ومحمد بن جعفر بن محمد بن الهيثم بن عمران بن بديدة.

وكان الحكيم الترمذى يرى بالنسبة لعلم الحديث: أن المحدث الكامل، هو الذى يتلقى الحديث بقلب واع، بحيث يكشف وجوه المعانى والتأويل، ويقوم بتفهم الحديث وتفسيره، واستنباط ما يمكن استنباطه منه، بعد معرفة الخاص والعام، والناسخ والمنسوخ وما شاكل ذلك.

أما بالنسبة لعلم الفقه: فالحكيم الترمذى لا يقبل قياس أهل الرأى، ويراه غير ملزم له، ولا يتعرض إطلاقا لأسلوب القياس الأرسطى، ولكنه فى نفس الوقت لا يوافق الذين ينكرون القياس بالكلية. على اعتبار أنه لا علة لأحكام الله، بل يرى أن فى كل مسألة علة تقتضى حكما خاصا بها، قد تكون هذه العلة ظاهرة بينة، فلا تحتاج إلى بحث كثير، ويستطيع إدراكها أهل العلم الظاهر، وقد تكون دقيقة خفية فتحتاج إلى قلب صاف مستنير، قد أُعطى نور الحكمة ليقفو به الأثر فى الفروع النازلة.

ولما كان هذا نقدا أساسيا ينقد به الحكيم الترمذى كتب الفقهاء عامة، وأهل الرأى خاصة، فإنه لا ينهج منهجهم، ولا يسلك طريقهم في كتابة كتبه، بل يتناول أحكام الدين من ناحية علاقاتها الباطنية، وآثارها الداخلية.

وبالنسبة لموقفه من المسائل الكلامية: فهو ينحصر فى السكوت عنها، والتسليم للشرع فيها، والاستسلام للرب، والخروج عن التشبيه، والتعطيل، والجبرية، والقدرية، وما شاكل ذلك من الأقاويل. فموقفه أقرب ما يكون إلى السلف وروحه، وخصوصا فى التوقف، والتفويض، والاشتغال بما ينبغى الاشتغال به من الأوامر والنواهى مما فيه النجاة.

أما بالنسبة للمتصوفين: فهم فى نظره الذين أدوا حقوق التصوف، فوصلوا إلى مقام الولاية، بعد ما سلكوا الطريق الصحيح، وخطوا فيه خطوات جادة حتى مكنتهم من الوصول إلى المقام العالى، بعدما عكفوا على عبادة الله، وانقطعوا إلى طاعته، وأعرضوا عن الدنيا وزينتها، وزهدوا فى كل ما يقبل الناس عليه من لذة، ومال، وجاه.

ولقد ترك الحكيم الترمذى ثروة كبيرة من مؤلفاته لم يُحَقَّق منها إلا القليل، ومعظمها ما زال مخطوطا.

فمن مؤلفاته:-

- أدب النفس.
- الحج وأسراره.
- ختم الأولياء.
- نوادر الأصول.
- الصلاة ومقاصدها.

- إثبات العلل.
- الأكياس والمغترون.
- الأمثال من الكتاب والسنة.
- أنواع العلوم.
- شفاء العلل.
- عرس الموحدين.
- العقل والهوى.
- أبواب فى صفة العلم.
- منازل العباد من العبادة.

أ.د. عبد الفتاح بركة «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - طبقات الصوفية للسلمى.
٢ - تاريخ بغداد.
٣ - مراصد الاطلاع.
٤ - الأعلام للزركلى جـ٦/٢٧٢.
٥ - لسان الميزان لابن حجر جـ٥/٣٠٨.
٦ - طبقات الشافعية للسبكى جـ٢/٢٠.
٧ - التعرف لمذهب أهل التصوف.
٨ - المسائل المكنونة.
٩ - المسالك والممالك.

الحـــلاج
(٢٤٤ -٣٠٩هـ = ٨٥٨ - ٩٢٢م)

هو الحسين بن منصور الحلاج، أبو مغيث، ويقال: أبو عبد الله، أصله من بلدة يقال لها: البيضاء من أهل فارس، ونشأ بواسط، ويقال بتستر.

وهو فيلسوف صوفى زاهد، من كبار المتعبدين والزهاد، وأحد أعلام القرن الثالث الهجرى.

ولد - رحمه الله - فى مطلع سنة ٢٤٤هـ = ٨٥٨م بقرية «تور» من مدينة البيضاء من بقاع فارس وتوفى سنة ٣٠٩هـ = ٩٢٢م.

والحلاج عند شعراء ما وراء النهر، بطل ملحمة الخلود الكبرى، ورائد الحب الإلهى، الذى صعد على معارج الشوق والوجد إلى سدرة النور السنى.

وقد ذكر ابن كثير أن أهل الأهواز أطلقوا عليه «حلاج الأسرار»؛ لأنه كان يكاشفهم بما فى قلوبهم.

وبعد مولد الحلاج بقليل، اضطربت أحوال والده المالية، فرحل من بلدة «تور» إلى مدينة «واسط» ينشد العمل فى ميادينها الاقتصادية الكبيرة.

وكانت واسط، مركزا من مراكز الإشعاع الفكرى والروحى فى فارس، أسس بها الأشاعرة مدرستهم الكبرى، وأوجد فيها العلامة أبو على الجبائى، نشاطا ثقافيًا، وتيارًا علميا حرًا، يخضع كل شىء لمنطقه وطرائفه.

كما أقام بها الحنابلة مدرسة للقراء، ومعهدًا للحديث، واتخذوا من مساجدها مقاعد للبحث والدرس، والجدل والحوار.

وفى هذا الجو العلمى الحر الحى، نشأ الحلاج، ولفت إليه الأنظار منذ طفولته، بذكائه المتوثب اللماح، وشفافية روحه، وتفتح قلبه، وحبه وإقباله على ينابيع العلم والمعرفة، حتى ليحدثنا تاريخه: أنه قرأ القرآن الكريم على أعلام القراء فى عصره، وحفظه وجوده، وهو فى العاشرة من عمره، وتعمق فى فهم معانيه. كما اشتهر بالإرادة القوية الموجهة، والرياضات، والمجاهدات الروحية الشاقة،

والزهد فى شئون الحياة، والاستغراق الكامل فى الصلاة، والتأمل والتعلق بالدراسات التى تتناول المعرفة الروحية، وأقبل الحلاج بكل ما فى قلبه من أشواق، وما فى روحه من إشراق، على علوم عصره من فقه وتوحيد وتفسير وحديث وحكمة وتصوف.

كان الحلاج يحس فى أعماقه دائما، تلهفًا واشتياقًا إلى معرفة أرق وأدق مما يقرأه فى صفحات الكتب، ومما يستمع إليه فى دروس العلم والعلماء.

معرفة تدنيه وتقربه من الله، وتمنحه المعراج الذى تصعد عليه روحه إلى هداه.

كان يحس أن لروحه عند الصفاء والنقاء، سبحات ملهمات، تترقرق فيها معانٍ مشرقات.

وأن قلبه عندما يأخذه الوجد الإلهى، والحب الربانى، تتفتح فيه منافذ يطل منها على ملكوت رائع الجلال والبهاء، تلتمع فى آفاقه حقائق أعلى وأسمى مما يتجادل فيه الناس ويتخاصمون.

وانقطع الحلاج عن دروسه، وأقبل على ملكوت السماء والأرض، يقلب وجهه فى آفاقهما، ويتأمل أسرارهما، ويقرأ بين سطورهما الخفية أسرارًا وأسرارًا.

وأخذ الحلاج نفسه بهذا المنهج أخذًا عنيفًا قاسيًا. وألزم نفسه به طوال حياته، حتى غدا طابعه الذى تشكل به وجوده المادى والروحى.

ولقد سئل عن المريد الصادق. فقال: «هو الرامى بقصده إلى الله عز وجل، فلا يعرج حتى يصل».

وهى كلمة تصور لنا منهج الحلاج وهدفه الذى عاش له وبه، لقد رمى بقصده إلى الله سبحانه، وسخر كل ملكاته العقلية والروحية لتحقيق هذا الهدف، بل اتجه بكل أذواقه ومعارفه إلى آفاق هذا المعنى.

فكلمة التوحيد، وهى السطر الأول فى كتاب الإسلام، لا تكون صدقا وحقا كما يقول الحلاج، إلا إذا عشنا وتذوقناها، وفنينا فى معناها، حتى كأننا حين ننطقها نسمعها من الله جل جلاله، وحينئذ تنبثق فى شغاف القلب، وعين الوجدان، ويموج كل شىء بالجلال والنور والمعرفة.

والقرآن الكريم كلام الله، فيجب على المؤمن أن يتذوق حقائقه تذوقا روحيا، وأن تتمثل فيه هذه الحقائق تمثلا عمليا إيجابيًا.

ومن كلمات شبابه التى تصور لنا منهجه قوله: «حقيقة المحبة، قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك والاتصاف بأوصافه».

إنها البذرة التى ستخرج منها فلسفة

الحلاج فى مقام الفناء!!؟ يقول الحلاج: «من لاحظ الأعمال حجب من المعمول له - الله - ومن لاحظ المعمول له حجب عن رؤية الأعمال».

تلك بعض خواطر الحلاج القلبية والروحية، وهو فى مطلع شبابه قبل أن يسلك المنهج الصوفى على شيوخه، فى مدرسة التصوف، التى كانت تهيمن على العراق وفارس خلال القرن الثالث الهجرى.

وعن وفاته، قال إبراهيم بن شيبان دخلت على ابن سريح القاضى، يوم أفتوا فى قتل الحلاج، فقلت: يا أبا العباس، ما تقول فى فتوى هؤلاء، فى قتل هذا الرجل؟ قال: لعلهم نسوا قول الله تعالى: ﴿ **أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله** ﴾ (غافر: ٢٨).

ويقول الواسطى: قلت لابن سريح، ما تقول فى الحلاج قال: «أما أنا أراه حافظًا للقرآن، عالمًا به، ماهرًا فى الفقه، عالمًا بالحديث والأخبار والسنة، صائما الدهر، قائما الليل يعظ ويبكى».

وهكذا كان الحلاج، حتى فى ليلة الهول، ليلة المصرع، لقد أعرض عن الدوى الذى أحدثه النبأ العظيم، وأقبل على ربه يناجيه بمواجيد قلبه، وألحان حبه.

يقول ابنه أحمد: فلما كانت الليلة التى أخرج فى صبيحتها والدى من الحبس - للقتل - قام فصلى ركعتين، فلما فرغ من صلاته، لم يزل يقول: مكرٌ، مكرٌ، إلى أن مضى من الليل أكثره، ثم سكت طويلا ثم قال:

حقٌ، حقٌ، ثم قام قائما وتغطى بإزار، وائتزر بمئزر، ومد يديه نحو القبلة، وأخذ فى المناجاة.

وكان خادمه أحمد بن فاتك حاضرًا، فحفظنا بعضها، فكان من مناجاته:

نحن بشواهدك نلوذ، وبسنا عزتك نستضىء، لتبدى ما شئت من شأنك ومشيئتك، وأنت الذى فى السماء إله، وفى الأرض إله.

يامدهر الدهور، ومصور الصور، يا من ذلت لك الجواهر، وسجدت لك الأعراض، وانعقدت بأمره الأجسام، وتصورت عنده الأحكام.

يا من تجلى لما شاء، كيف شاء، مثل التجلى فى المشيئة، لأحسن صورة والصورة هى الروح الناطقة، التى أفردته بالعلم والبيان والقدرة.

وعن إبراهيم بن فاتك قال: «دخلت على الحلاج فى الليلة الأخيرة وهو فى الصلاة،

مبتدئًا بقراءة سورة البقرة، فصلى ركعات حتى غلبنى النوم.

فلما انتبهت سمعته يقرأ سورة - حم عسق - فعلمت أنه يريد الختم، فختم القرآن فى ركعة واحدة، ثم قرأ فى الثانية ما قرأ، ثم ضحك إلى وقال: ألا ترى أنى أصلى لرضائه، من ظن أنه يرضيه بالخدمة، فقد جعل لرضاه ثنأ!؟».

وجاء يوم الثلاثاء لسبع بقين من ذى القعدة، سنة تسع وثلاثمائة، فشهدت بغداد أكبر حشد عرفه تاريخها!!

اجتمع هذا الحشد العظيم، على ضفاف دجلة، راجف القلب، دامع العين، كظيم الغيظ، وتركزت نظراته على الحلاج، الذى وقف فى أغلاله وقيوده، مشرق الوجه، عالى الرأس، شامخا جليلا وقد أحاطت به صفوف الجند، وطوقته زبانية العذاب، وارتفعت إلى السماء قوائم خشبية غليظة جللت بالسواد، هى الآلة التى أعدت، لجلده وعذابه وصلبه.

ويقول القاضى أبو العلاء الواسطى: «لما جىء بالحسين بن منصور الحلاج ليقتل، أخذ يتبختر فى قيده، وهو ينشد:

طلبت المستقر بكل أرض

فلم أر لى بأرض مستقرا

فنلتُ من الزمان ونال منى

وكان منَالُه حُلْوًا ومُرا

وعن إبراهيم بن فاتك قال: لما أتى بالحسين بن منصور ليصلب، رأى الخشبة والمسامير، فضحك كثيرًا حتى دمعت عيناه، ثم التفت إلى القوم، فرأى الشبلى بينهم، فقال له:

يا أبا بكر، هل معك سجادتك؟ فقال: بلى يا شيخ، قال. أفرشها لى، ففرشها، فصلى الحسين بن منصور عليها ركعتين، وكنت قريباً منه، فقرأ فى الأولى، فاتحة الكتاب، ثم قوله تعالى: ﴿ **لنبلونكم بشىء من الخوف والجوع** ﴾ (البقرة: ١٥٥). وقرأ فى الثانية، فاتحة الكتاب، ثم قوله تعالى: ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾ (آل عمران: ١٨٥). فلما سلم ذكر أشياء لم أحفظها، وكان مما حفظته قوله:

اللهم إنك المتجلى عن كل جهة، المتخلى عن كل جهة، بحق قدمك على حدثى، وحق حدثى تحت ملابس قدمك، أن ترزقنى شكر هذه النعمة، التى أنعمت بها على، حيث غيبت أغيارى عما كشفت لى من مطالع وجهك، وحرمت بها غيرى ما أبحت لى من النظر فى مكنونات سرك.

هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى!؟ تعصباً لدينك، وتقرباً إليك، فاغفر لهم فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى، لما فعلوا ما فعلوا ولو سترت عنى ما سترت عنهم، لما ابتليت بما

ابتليت، فلك الحمد فيما تفعل، ولك الحمد فيما تريد!!

ثم سكت وناجى سراً، فتقدم أبو الحارث السياف، فلطمه لطمة هشمت أنفه، وسال الدم على شيبه!!

فصاح الشبلى ومزق ثوبه، وغشى على أبى الحسن الواسطى، وعلى جماعة من الصوفية المشهورين، وكادت الفتنة تهيج، ففعل أصحاب الحرس ما فعلوا!!.

ثم تقدم صاحب الشرطة، فشده إلى آلة الصلب، ثم أمر الجلاد بأن يضربه ألف سوط فأخذ يضربه به وهو صامت لا يتأوه، ولا يضطرب ولا يستعفى، وإنما يقول: أحد أحد؛ حتى بلغ ستمائة سوط.

فلما أتم الجلاد ما كلف به، أخذ الحلاج يتواجد ويتبختر فى مشيته، وفى قدميه ثلاثة عشر قيداً، ثم راح وهو فى ثمل روحى عميق ينشد:

نديمى غير منسوب
إلى شىء من الحيف
دعانى ثم حيانى
فعل الصيف بالضيف
فلما دارت الكأس
دعا بالنطع والسيف
كذا من يشرب الراح
من النثرين فى الصيف

ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ **يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد** ﴾ (الشورى: ١٨).

أ. د. عبد الحليم محمود «بتصرف»

مراجع للاستزادة :

١ - طبقات الصوفية للسلمى، ص ٣٠٧.
٢- البداية والنهاية لابن كثير، حـ١١/١٣٢ وما بعدها.
٣- وفيات الأعيان لابن خلكان، حـ١/١٥٠.
٤- لسان الميزان، حـ٢/٣١٤.
٥- معجم البلدان لياقوت الحموى، حـ٤/٨٨١.
٦- الفهرست لابن النديم، ص١٩٠.
٧- الحلاج شهيد الحب الإلهى، لطه عبد الباقى سرور.
٨- ديوان الحلاج.
٩- الأعلام للزركلى، حـ٢/٢٦٠

حمد الجاسر
(١٣٢٨ - ١٤٢٢هـ = ١٩١٢ - ٢٠٠٢م)

هو حَمَد بن محمد الجاسر، مؤرخ جغرافى رحالة ، وباحث محقق للتراث ، وصحفى وصاحب دار نشر.

ولد فى سنة (١٣٢٨هـ =١٩١٢م) فى قرية البرود بإقليم السِّرِّ فى نجد، بشرقى المملكة العربية السعودية، وانتقل إلى مدينة الرياض فى سنة ١٩٢٣م حيث حفظ القرآن وتلقى مبادئ تعليمه فى الفقه والحديث والتوحيد والنحو، وفى سنة ١٩٣٠م التحق بالمعهد السعودى فى مكة، فتخرج منه فى قسم القضاء الشرعى سنة ١٩٣٤م، وتولى التدريس فى ينبع على مدى أربع سنوات ، وتنقل بعد ذلك بين مدن مختلفة، متدرجًا فى وظائف التدريس ، وكان آخرها إدارة كليتى الشريعة، واللغة العربية فى الرياض. ونبهت رحلاته الكثيرة فى داخل المملكة حسه الجغرافى والتاريخى، كما اجتذبته الصحافة منذ أن كان طالبًا فى مكة. ففى سنة ١٩٥٣م أصدر أول صحيفة فى الرياض هى «اليمامة»، وكانت تطبع أولا فى مصر ثم فى لبنان، إلا أنه عزم على إصدارها فى الرياض، فأنشأ لذلك مطابع لها سنة ١٩٥٥م، وهى أول مطابع تنشأ فى عاصمة المملكة، وأسس بعدها «دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر» عام ١٩٦٦م.

وكان من أول إصدارات هذه الدار «المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية» من تأليفه، ثم مجلة «العرب» فى نفس التاريخ، وهى مازالت تصدر حتى اليوم، وكان يشرف بنفسه على إصدارها، ويرأس تحريرها، ويكتب كثيرًا من موادها، وقد احتل بفضل أعماله العلمية مكانة رفيعة فى الأوساط العلمية والثقافية العريقة، فانتخبه المجمع العلمى العربى بدمشق عضوًا فيه سنة ١٩٥١م، والمجمع العراقى سنة ١٩٥٥م، ومجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٥٨م فكان أول عضو منتخب من الجزيرة العربية كلها فى هذا المجمع، ومنحته «مؤسسة العويس» بالإمارات العربية المتحدة جائزتها، وكذلك منحته الدولة السعودية جائزة الملك فيصل العالمية سنة ١٩٩٦م، وقد توفى سنة ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.

لحمد الجاسر من الأعمال ما يقرب من ألف ومائتى عمل بين كتب ومقالات قام بتأليفها، أو نصوص تراثية اضطلع بتحقيقها.

أما أعماله العلمية فتتوزع بين تحقيق للتراث وتأليف متعدد الجوانب. فمن الكتب التراثية : كتاب «الأماكن» لمحمد بن موسى الحازمى، فى مجلدين، الرياض سنة ١٩٩٤م، و«الإيناس فى علم الأنساب» لأبى القاسم الحسين بن على المغربى الوزير، سنة ١٩٨٠م، و«أدب الخواص» للمؤلف نفسه، و«مختلف القبائل ومؤتلفها» لمحمد بن حبيب البغدادى ، نشر النادى الأدبى بالرياض، سنة ١٩٨٠م، «بلاد العرب» للحسن بن عبد الله الأصفهانى (بالاشتراك مع صالح العلى) سنة ١٩٦٨م.

وأما الكتب المؤلفة فنورد فيما يلى بيانا بأهمها :

المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية، المنطقة الشرقية، سنة ١٩٨١م، وقد سبقته عدة معاجم جغرافية، منها معجم لشمال المملكة، ومعجم شامل مختصر، ومقدمة تحتوى على أسماء المدن والقرى وأهم موارد البادية، ومعجم لقبائل المملكة العربية السعودية (١٩٨٠م) ، وجمهرة أنساب الأسر المتحضرة فى نجد (١٩٨١م)، وباهلة: القبيلة المفترى عليها، سنة ١٩٩٠م.

ومن دراساته التاريخية «مكة اليمنية» التى نشرها نادى أبها الأدبى سنة ١٩٩٥م، و«مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ».

وكان حمد الجاسر منذ شبابه المبكر كثير التنقل فى أرجاء المملكة العربية السعودية بحكم عمله فى مجال القضاء والتدريس، هذا إلى جانب ولعه الفطرى بالرحلة. وأدى به ذلك إلى تأليف عدد كبير من الكتب سجل فيها مشاهداته فى أثناء جولاته فى أنحاء المملكة، مما يدخل فى مجال «أدب الرحلة». على أن عمله لم يقتصر على هذا التسجيل، بل كان يقابل وصفه للمواضع التى يحل بها على المصادر التراثية القديمة، ابتداءً من الشعر الجاهلى إلى كتب السيرة والتاريخ فى العصور التالية، بحيث تصبح كتاباته سياحة عبر التاريخ فى الماضى والحاضر.

ونذكر من هذه الكتابات مؤلفه الشامل بعنوان «رحلات» (١٩٨٠م)، ثم مجموعة من الكتب موزعة على مناطق المملكة : «فى سراة غامد وزهران : نصوص، مشاهدات ، انطباعات» (١٩٧٧م)، وفيه يسجل رحلة له فى هذه المنطقة من الحجاز القريبة من إقليم الطائف، وطريقته فى العرض - وهى التى يلتزمها فى كل رحلاته - هى الوصف المفصل لكل ما يشاهده فى قرى المنطقة ومدنها من تقدير المسافات بين كل موضع وآخر، ثم الحديث عن نظامها الإدارى والنشاط الاقتصادى لأهل تلك المواضع ونظام التعليم،

كل ذلك معتمدًا على بيانات وإحصائيات يتوخى فيها الدقة بقدر المستطاع، ثم الكلام عن نبات الموضع وحيوانه وكل ما يستحق الوصف من ظواهر طبيعية أو مناخية، وما قد يوجد من آثار قديمة. وهو يسجل انتقالاته من موضوع لآخر باليوم والساعة منذ بداية الرحلة فى فبراير ١٩٧٠م. وبعد ذلك يقابل كل ما وافانا به من بيانات وأوصاف على كتب التراث القديمة الجغرافية والتاريخية والأدبية وكتب الأنساب. وقد طبق حمد الجاسر هذا المنهج فى رحلته الأخرى بعنوان «فى شمال غرب الجزيرة» (١٩٨١م) وهى التى بدأها فى أبريل سنة ١٩٧٠م، وكانت مسيرته فيها من دمشق إلى تبوك.

ولحمد الجاسر كتب أخرى تلقى الضوء على معالم شبه الجزيرة العربية، منها : «كتب المنازل من روافد الدراسات عن جغرافية جزيرة العرب» (١٩٧٩م)، و«المناسك وأماكن طرق الحج» (١٩٨١م)، وكتاب طريف بعنوان «أصول الخيل العربية الحديثة» (١٩٩٤م).

ومن آخر ما اشتغل به وكان ختامًا طيبًا لجهوده العلمية اهتمامه بتراث أبى على الهجرى هارون بن زكريا، وهو لغوى عاش فى أواخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع، وكتابه «التعليقات والنوادر» يعد وثيقة نادرة حول الجزيرة العربية : جغرافيتها وتاريخها وقبائلها وشعرائها وعلمائها باللغة. وكانت بداية اهتمامه بهذا العالم وكتابه فى سنة ١٩٦٨م حينما أصدر كتابًا عن «أبحاثه فى تحديد المواضع»، وما زال يواصل العمل فيه على أساس مخطوطتين غير كاملتين من كتابه حتى سنة ١٩٩٢م حينما أصدر عنه كتابًا فى أربعة مجلدات تبلغ صفحاتها ألفين ومائة صفحة وزعها على النحو الآتى : الأول عن حياة الهجرى وعصره وثقافته، والثانى عن الشعر والرجز واللغة فى كتابه، والثالث عن تحديد المواضع، والرابع عن أنساب القبائل فيه، وهو يبدأ كل قسم من هذه الأقسام الأربعة بدراسة لمادته، ثم يتبعها بنصوص مختارة من الكتاب. كما كان من آخر منجزاته إشرافه على طبع كتاب «جمهرة نسب قريش وأخبارها» للأديب النسابة الزبير بن بكار (توفى سنة ٢٥٦ هـ = ٨٧٠م)، فى مجلدين، والكتاب بتحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر الذى أنجز القسم الأول منه، ولكنه انتقل إلى رحمة ربه فى سنة ١٩٩٧م قبل أن يتم تحقيق قسمه الثانى، فاضطلع حمد الجاسر بإكمال هذا القسم، ومراجعة الكتاب كله (الرياض ١٩٩٩م).

أ. د. محمود على مكى

مراجع للاستزادة :

١- مؤلفات حمد الجاسر المثبتة فى هذه المادة، وفيها معلومات كثيرة عن سيرته الذاتية.

٢- محاضر دورات المؤتمر السنوى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ سنة ١٩٥٨م.

٣- أعداد مجلة «العرب» الصادرة فى الرياض منذ سنة ١٣٨٦هـ =١٩٦٦م.

حمزة بن حبيب الزيات
(٨٠- ١٥٦هـ = ٧٠٠ - ٧٧٣ م)

هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل، الإمام القدوة، شيخ القراء، أبو عمارة الدؤلى مولاهم القارئ العلامة، مولى آل عكرمة بن ربعى التيمى الزيات، وسمى بالزيات لأنه كان يجلب الزيت من العراق، وهوأحد القراء السبعة.

ولد سنة ثمانين للهجرة = ٧٠٠م، وتوفى سنة ١٥٦هـ = ٧٧٣م، وأدرك الصحابة بالسن لا بالأخذ، فلعله رأى ابن أبى أوفى وأنسًا رضى الله عنهما.

كان إمامًا حجة، قيما بكتاب الله تعالى، حافظا للحديث، بصيرًا بالفرائض والعربية، عابدًا خاشعًا قانتا لله ورعًا، عديم النظير.

عن يحيى بن عقيل قال: كان الأعمش إذا رأى حمزة قد أقبل قال: ﴿ وبشر المخبتين ﴾ هذا حبر القرآن.

ونقل الذهبى: أنه كان متبعًا للأثر، فكان يقول: ما قرأت حرفًا إلا بأثر، وكان لا يأخذ على الإقراء أجرًا، عرض عليه تلميذ له ماءً فى يوم حر فأبى، وختم عليه رجل من أهل حلوان (بالعراق) من مشاهيرهم، فبعث إليه بألف درهم. فقال لابنه: قد كنت أظن لك عقلا، أفآخذ على القرآن أجرًا. أرجو على هذا الفردوس.

ومع ذلك مات حمزة وترك عليه من الدين ألف درهم التيمى، فقضاها عنه يعقوب بن داود.

قال أبو حنيفة لحمزة: شيئان غلبتنا عليهما، لسنا ننازعك فيهما: القرآن والفرائض.

وقال عبد الله بن موسى: كان حمزة يقرأ القرآن حتى يتفرق الناس، ثم ينهض فيصلى أربع ركعات، ثم يصلى ما بين الظهر والعصر، وما بين المغرب والعشاء، وكان لا ينام من الليل إلا قليلا، يرتل القرآن حتى يسمعه الآخرون.

قال عنه الإمام الشاطبى فى منظومته:

وحمزة ما أزكاه من متورع
إمامًا صبورًا للقرآن مرتلا

قرأ القرآن عرضًا على سليمان الأعمش،

وحمران ابن أعين، وابن أبى ليلى، ومنصور، وأبى إسحاق السبيعى، وطلحة بن مُصَرِّف، وجعفر بن محمد وغيرهم كثير.

وأخذ عنه القراءة عدد كثير منهم: إبراهيم بن أدهم، وإبراهيم بن إسحاق بن راشد، وإسحاق بن يوسف الأزرق، والحسن بن عطية، والحسن بن على الجعفى، وحمزة بن القاسم الأحول، وخالد بن يزيد الطيب، وسليم بن عيسى، وسفيان الثورى، وشريك بن عبد الله، وعلى بن حمزة الكسائى وغيرهم كثير.

نُقلت روايات عن بعض الأئمة كعبد الله ابن إدريس، وسفيان بن عيينة، والإمام أحمد ابن حنبل. تطعن فى مجملها فى قراءة حمزة، وحكى الشيخ ابن قتيبة وغيره أقوالا فى الطعن على قراءة حمزة، والذى حكى عن ابن قتيبة وغيره هو الإمام ابن القيم تعريضا، ومن ذلك ما رُوى عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى أنه كره قراءة حمزة، واختلف عليه فى إعادة الصلاة لمن قرأ بها.

قال ابن قدامة: ولم يكره الإمام أحمد قراءة أحد من العشرة، إلا قراءة حمزة والكسائى؛ لما فيهما من الكسر والإدغام والتكلف وزيادة المد.

وقال الأثرم: قلت لأبى عبد الله: إمام كان يصلى بقراءة حمزة، أصلى خلفه؟ قال: لا يبلغ به هذا كله، ولكنها لا تعجبنى قراءة حمزة.

وقال ابن الجزرى: وأما ما ذكر عن عبد الله بن إدريس وأحمد بن حنبل، من كراهة قراءة حمزة فإن ذلك محمول على قراءة من سمع منه ناقلا عن حمزة، وما آفة الأخبار إلا رواتها.

وقال ابن مجاهد: قال محمد بن الهيثم: والسبب فى ذلك أن رجلا ممن قرأ على سليم، حضر مجلس ابن إدريس، فقرأ، فسمع ابن إدريس ألفاظا فيها إفراط فى المد والهمز وغير ذلك من التكلف، فكره ذلك ابن إدريس وطعن فيه، قال محمد بن الهيثم: وقد كان حمزة يكره هذا وينهى عنه.

وكلام ابن الجزرى على الطاعنين بعد نقل طعونهم يدل، على أن من كره قراءة حمزة كابن إدريس، وابن حنبل، له العذر فى ذلك، لأنه سمع من بعض أصحاب حمزة الإفراط فظنه لحمزة، وقد ثبت عن حمزة رحمه الله أنه كان ينهى عن الإفراط، وكان متمسكًا أشد التمسك بالآثار، وحسبنا شاهدًا على ذلك قول سفيان الثورى: ما قرأ حمزة حرفا من كتاب الله إلا بأثر.

ومما يدل على نهيه عن الإفراط، ما

أخرجه الإمام ابن الجزرى من طريقه، أنه كان يقول لمن يفرط عليه فى المد والهمز: لا تفعل، أما علمت أن ما كان فوق البياض فهو برص، وما كان فوق الجعودة فهو قطط، وما كان فوق القراءة فليس بقراءة.

وقال الأسود بن سالم: سألت الكسائى عن الهمز والإدغام، ألكم فيه إمام؟ قال: نعم حمزة كان يهمز ويكسر، وهو إمام لو رأيته لقرت عينك من نسكه.

أ.د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١ – معرفة القراء الكبار ١/٢٥٠ وما بعدها .

٢ – غاية الاختصار ١/٥٦. وشرح النويرى على طيبة النشر ١/٢٠٤.

٣ – لطائف الإشارات ١/٩٦.

٤ – سير أعلام النبلاء ٧/٩٢.

٥ – إغاثة اللهفان ١/١٨٠، ١٨١.

٦ – المغنى لابن قدامة ١/٤٩٢.

٧ – الأعلام للزركلى ٢/ ٢٧٧.

حمزة فتح الله
(١٢٦٦ - ١٣٣٦ هـ = ١٨٤٩ - ١٩١٨ م)

هو حمزة فتح الله المصرى بن السيد حسين بن محمد شريف التونسى. أديب ومفكر لغوى.

ولد - رحمه الله - بثغر الإسكندرية سنة ١٢٦٦هـ = ١٨٤٩م ونشأ بها، وتوفى سنة ١٣٣٦هـ = ١٩١٨م، وبعد أن حفظ القرآن الكريم انتظم فى سلك طلبة العلم بجامع إبراهيم باشا ثم أكمل دراسته بالأزهر الشريف وأمعن فى قراءة الأدب واللغة، وقَرَض الشعر وتحرير الرسائل وحفظ الغريب، ثم عاد إلى الإسكندرية واختير (فى منتصف العقد الثالث من عمره) محرراً فى إحدى الصحف التونسية فمكث هناك حوالى ثمانى سنوات اكتسب فيها الدربة على كتابة الصحف السياسية، ثم عاد إلى مصر فوجد نار الفتنة العرابية مستعرة فانضم إلى حزب الخديو توفيق، وكتب وخطب فى تأييده، وعهد إليه بعد ضرب الإسكندرية فى إصدار صحيفة تكون لسان حال الخديوى وتهدئ الخواطر، وبعد أن انتهت الثورة العرابية استخدم فى وزارة المعارف ومكث بها زُهاء ثلاثين سنة متنقلاً بين التفتيش والتدريس حتى كان فى سنة ١٩١٠م مفتشها الأول للُّغة العربية وفى غضون تلك المدة ندبته الحكومة مرتين لحضور مؤتمر المتعربين ممثلاً لها لما لها فيه من الثقة. ولما له من غزارة المادة، وسعة الاطلاع، ثم أحيل إلى المعاش واستمر مشتغلاً بمدارسة العلم حتى بعد أن كف بصره.

كان الشيخ أكرم الله مثواه كثير القراءة فى كتب اللغة والأدب والحديث شديد الحفظ والذكر قلما تحدث أمامه حادثة أو تذكر إلا روى فيها شعراً أو مثلاً أو قصة. وكان فكه المحاضرة صحيح العبارة يحوكها على سنن العربية الفصيحة.

عهد إليه بالتدريس فى دار العلوم فأحيا بتدريسه وتأليفه ما دثر من آثار السالفين كالجاحظ والمبرد والقالى والمرتضى، وأظهر ما كان ذلك فى مواهبه الفتحية.

أسند إليه تفتيش اللغة العربية فى مدارس

الحكومة على اختلاف أنواعها فرأى المجال فسيحا لتخليصها من أدران العامية، وأوضار الدخيل، وفساد التراكيب، وعجمة الأساليب، فأخذ يرشد المعلمين إلى ما يعثر عليه من ذلك فى كتابة التلاميذ، ويتحفهم بمرادفه تارة. ويرشدهم إلى المظان أخرى، فتنبه بذلك الغافل، ودقق المتساهل.

كان الشيخ حليما رحيما، تقيا ورعا، لاتأخذه فى الله لومة لائم، صالحاً مهذباً، يميل إلى الصالحين من المعلمين؛ ويحارب من يشاع عنهم التهاون بشعائر الدين، وربما سعى فى فصلهم من عملهم؛ يعمل ذلك ولا غاية له إلاّ إحاطة النشء بسياج من الفضيلة، حتى لا يتسرب إليهم الزيغ فى زمن قد كثر فيه أنصار الرذيلة، وقل طلاب الفضيلة وكان جزاه الله خيرا يحب العرب والعربية ويرى أن الله قد خصهما بكل مزية، وأن جميع ما يتجدد من أنواع المدنية الحديثة قد سبق إلى نوعه العرب، وأن لاسمه مرادفًا فى لغتهم، يعرف ذلك من خالطه أو قرأ مواهبه.

خلف الشيخ حمزة طائفة من المؤلفات ما بين كتب ورسائل منها :

١ ـ باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام.

٢ ـ المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية.

٣ ـ مجموعة تشتمل على :

(أ) قصيدة دالية اختتم فيها الحفلة الأخيرة من المؤتمر العلمى الشرقى فى «فيينا» سنة ١٨٨٦م).

(ب) قصيدة رائية ودع فيها «فيينا» وأهلها.

(جـ) بحث عما للعرب جاهلية وإسلاماً من الفضائل والمعارف.

٤ ـ التحفة السنية فى التواريخ العربية.

٥ ـ الكلمات غير العربية فى القرآن الكريم.

٦ ـ العقود الدرية فى العقائد التوحيدية، وقد قررتها نظارة المعارف على تلاميذ المدارس الابتدائية.

٧ ـ تصحيح المصباح المنير للفيومى.

٨ ـ مراجعة وتحقيق «مختار الصحاح» فى طبعته التى أعدتها وزارة المعارف.

كان بدوى الشعر من حيث ألفاظه ومعانيه، وتراكيبه وأساليبه وتشبيهاته واستعاراته على طريقة شعر العلماء، ولم نر له شعراً مدونا إلا قصيدته البائية التى اختتم بها مؤتمر العلوم الشرقية، المنعقد باستكهلم أواخر سنة ١٣٠٦هـ = سنة ١٨٨٩م.

أما كتابته فيؤخذ مما عثرنا عليه منها أنه

كان لا يلتزم فيها طريقة واحدة بل تارة تكون سهلة يكثر فيها السجع وإن لم يلتزم به غالبا وآونة تكون ضخمة الألفاظ غريبتها، عليها مسحة التعمل والتكلف، وأكثر ما كان ذلك فى توقيعاته.

أ.د. ضاحى عبد الباقى

مراجع للاستزادة:

١ ـ الشيخ حمزة فتح الله وجهوده اللغوية، للدكتور ضاحى عبد الباقى ـ بحث نشر فى مجلة الدارة بالعدد الرابع من السنة السابعة عشرة (رجب، شعبان، رمضان) سنة ١٤١٢هـ.

٢ ـ الكنز الثمين لعظماء المصريين، تأليف سليمان فؤاد ط القاهرة ١٩١٧م.

٣ ـ معجم المطبوعات العربية لسركيس.

٤ ـ الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه للشيخين أحمد الإسكندرى، ومصطفى عنانى.

٥ ـ حفنى ناصف كاتبا وباحثا. محاضرات لمحمد خلف الله أحمد ـ معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة.

٦ ـ الأعلام للزركلى.

٧ ـ معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة.

٨ ـ المواهب الفتحية ج١، جـ ٢ لحمزة فتح الله.

٩ ـ المفصَّل فى الأدب العربى وتاريخه.

١٠ ـ إرشاد الألباب إلى مجالس أوربا، محمد أمين فكرى.

١١ ـ هداية الفهم إلى بعض أنواع الوسم، لحمزة فتح الله

أبو حنيفة النعمان
(٨٠-١٥٠هـ = ٦٩٩-٧٦٧م)

هو الإمام أبو حنيفة: النعمان بن ثابت التيمى بالولاء الكوفى. أول من حفظ الشريعة بالتلقين، وكان على يده انتشار السنة، وأحد الأئمة الأربعة، وأشهر أعلام الإسلام فى القرن الثانى الهجرى.

وكنيته: أبو حنيفة (مؤنث حنيف) وهو الناسك أو المسلم، لأن الحنيف هو المائل إلى الدين الحق.

وقيل: كنى بذلك لأنه كان ملازماً تصحبه الدواة، وحنيفة بلغة العراق الدواة فكنى بها.

ولد بالأنبار بالكوفة سنة ثمانين للهجرة = ٦٩٩م.

قال ابن عبد البر: لا اختلاف فى مولده وأنه ولد سنة ثمانين من الهجرة، ومات ليلة النصف من شعبان سنة خمسين ومائة للهجرة = ٧٦٧م. وعمره سبعون سنة.

فهو عربى المولد، والنشأة، وأجداده من فارس.

قال الإمام السيوطى: ذكر العلماء، أن النبى ﷺ بشر بالإمام أبى حنيفة فى الحديث الذى أخرجه البخارى: «**لو كان العلم معلقاً عند الثريا، لتناوله رجال من أبناء فارس**».

قال: وهذا الحديث أصل صحيح يعتمد عليه فى البشارة بأبى حنيفة، وفى الفضيلة التامة له، لأنه لم يبلغ أحد فى زمن أبى حنيفة من أبناء فارس فى العلم، مبلغه ولا مبلغ أصحابه.

وقد نشأ الإمام أبو حنيفة بالكوفة، وعاش أكثر حياته فيها. ولقد اتجه فى أول حياته إلى حفظ القرآن الكريم، وكان بعد حفظه حريصاً على ألا ينساه، حتى كان يختم القرآن مرات كثيرة فى رمضان.

وقد جاء من عدة طرق بروايات مختلفة أنه أخذ وتلقى القراءة عن الإمام عاصم، أحد القراء السبعة.

وبعد أن حفظ القرآن الكريم، اطلع على السنن التى يصحح بها دينه.

وأخذ من العلوم بحظ وافر، وبلغ فيها مبلغاً يشار إليه بالبنان، كما تفوق فى علوم النظر والقياس، وإصابة الرأى.

أما العلوم الشرعية والعربية، فكان فى كل هذا بحراً لا يجارى، وإماماً لا يمارى.

وأما الفقه فقد ذكر الإمام الشافعى: أن الناس عيال على أبى حنيفة فى الفقه.

وأما الحديث فقد قال الإمام أبو يوسف: ما رأيت أحداً أعلم بتفسير الحديث من أبى حنيفة، كان بصيراً بعلل الحديث، وبالتعديل والتجريح.

وقد كانت نشأة أبى حنيفة فى بيت من بيوت التجارة بالكوفة، إذ كانت أسرته تتاجر فى الخز «الحرير» ولهذا كانت تجذبه نحو التجارة، ومع ما كانت عليه حال أسرته، كانت فيه نزعة عقلية تتجه إلى الدراسات العقلية.

وأبو حنيفة لم يؤلف كتبا، إلا ما ينسب إليه من بعض الرسائل، ولكنه ناقش تلاميذه آراءه وأملاها عليهم. وبعض مصنفات تلاميذه هى من الأصول المعتمدة للمذهب الحنفى، وخاصة كتاب: «اختلاف أبى حنيفة وابن أبى ليلى»، و«الرد على سير الأوزاعى» لأبى يوسف. و«الحجج»، وشرح «موطأ» مالك لمحمد بن الحسن الشيبانى.

والإسناد المعول عليه، للشيبانى، عن أبى يوسف. عن أبى حنيفة الذى تردد فى كثير من أعمال الشيبانى دالا على أنه يمثل وحدة الصلة العامة بين التلميذ وشيخه، ليس يعنى شيئاً فى هذا الخصوص، إذ أن القول بأن أبا حنيفة تلقى عن حماد يرجع أساسا إلى آثار أبى يوسف وآثار الشيبانى، وإن الموازنة بين خلف أبى حنيفة وبين سلفه تمكننا من أن نقدر ما حققه فى تطوير الفكر الإسلامى فقها وعقيدة.

والفكر الفقهى لأبى حنيفة أرقى كثيراً من هذا الذى كان لمعاصره ابن أبى ليلى (المتوفى سنة ١٤٨هـ) الذى كان يلى قضاء الكوفة فى زمانه.

أما عنه وعن التفكير الفقهى المعاصر فى الكوفة بصفة عامة فإن أبا حنيفة كان له فيما يظهر شأن الواضع لأسس النظرية التى حققت تقدما كبيراً فى الفكر الفقهى الاصطلاحى وبعده عن القضاء جعله أقل تقيداً من ابن أبى ليلى بمقتضيات التطبيق، كما كان فى الوقت نفسه أقل تثبتاً لبعده عن الاسترشاد بما يفيده من يمارس القضاء.

ومذهب أبى حنيفة بصفة عامة مذهب متكامل متسق من حيث منهجه، وفيه الكثير من الأفكار الفقهية الجديدة الصريحة، ولا يتميز فكره الفقهى بأنه كان أوسع أفقاً فى أساسه من فكر معاصريه الأكبر منه سناً، وأكثر أخذاً به من فكرهم فحسب، بل كان أيضا أرقى اصطلاحا فى أحكامه وتحوطه ولطف نظرته.

والطابع الغالب على الفكر الفقهى بصفة عامة عند أبى حنيفة هو الإنعام فى التعقل. مما يجعل هذا التفكير يشوبه فى كثير من الأحيان شىء من الأناة والتأرجح مع قلة عناية بالتطبيق. وقد اعتمد أبو حنيفة على

الرأى والقياس، ولم يجاوز فى ذلك الحد المألوف عند مدارس الفقه الأخرى فى زمانه. وقد جرى على نهج ممثلى المذاهب الأخرى، كآراء أهل المدينة. فكان مثلهم قليل الميل إلى العدول عن مذهب السلف بالنسبة لأحاديث الآحاد، وهى الأحاديث التى بدأت تشيع فى الفقه الإسلامى فى حياة أبى حنيفة فى النصف الأول من القرن الثانى للهجرة. ولما أصبحت هذه الأحاديث من المسلمات لدى المعنيين بالتحديث بفضل ما جاء به الشافعى بعد ذلك بجيلين، اتخذ أبو حنيفة لأسباب وقعت اتفاقا كبشاً للفداء على اعتبار أنه يعارض الأحاديث النبوية. كما اتخذ كذلك كبشاً للفداء لقوله بالرأى فى المذاهب الفقهية القديمة، ولكثير من الأقوال التى نسبت إليه وصادقت هوى من نفوس الناس الذين جاءوا من بعده.

وكان الخطيب البغدادى هو لسان تلك النزعة المعادية لأبى حنيفة. وكان مما نقد أيضا الحيل الفقهية التى نماها أبو حنيفة فى المسلك المألوف حين تدليله الفقهى الاصطلاحى. ولكن هذه الحيل أصبحت بعد من خصائص شهرته.

وقد كان لأبى حنيفة من حيث هو متكلم أيضا أثر كبير، فهو أصل مأثور عام من الفقه العقائدى. يعنى عناية خاصة بأفكار جماعة المسلمين والمبدأ الذى يوحدها وهو السنة. وبجمهور المؤمنين الذين يتبعون طريقاً وسطاً ويتجنبون التطرف. ويعتمد على الكتاب أكثر من اعتماده على البراهين العقلية، وهذا المأثور يمثله كتاب «العالم والمتعلم» الذى ينسب خطأ إلى أبى حنيفة. و«الفقه الأبسط» الذى نشأ بين تلامذة أبى حنيفة ثم فى أعمال المتكلمين الحنفيين بعد ذلك.

وهذا المأثور العقائدى نما من أصل عام أساسه الحركة الكلامية للمرجئة التى كان أبو حنيفة نفسه ينتمى إليها. والوثيقة الوحيدة الموثوق بها التى نملكها لأبى حنيفة هى فى الحق رسالته إلى عثمان البتى التى ينافح فيها عن آرائه الإرجائية بأسلوب مهذب.

ومن أسماء الكتب الأخرى التى نسبت إلى أبى حنيفة «الفقه الأكبر».

ويحتوى المتن نفسه على عشر مواد فى العقيدة تلم بموقف أهل السنة من الخوارج، والقدرية، والشيعة، والجهمية، ولم ترد فيها آراء ضد المرجئة ولا ضد المعتزلة.

وجميع نظريات «الفقه الأكبر» قد وردت أيضا فى «الفقه الأبسط» إلا واحدة. و«الفقه الأبسط» يحتوى على أقوال لأبى حنيفة فى مسائل الكلام رداً على أسئلة وجهها إليه تلميذه أبو مطيع البلخى، ومن ثم فإن محتويات «الفقه الأكبر» هى آراء موثوق فى نسبتها إلى أبى حنيفة، على أنه ليس ثمة ما

يصح دليلاً على أنه قد ألف حقا المتن المختصر. غير أن الكتاب المعروف «بالفقه الأكبر» و «وصية أبى حنيفة» ليسا لأبى حنيفة، ولم يستوثق بعد من صحة نسبة عدد من الرسائل الأخرى المنسوبة إلى أبى حنيفة، ومن ثم فهى على الأقل مشكوك فيها.

وقد رسم الإمام أبو حنيفة منهاجا للاستنباط، جامعاً لأنواع الاجتهاد فقد روى عنه أنه قال:

«آخذ بكتاب الله، فإن لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم أجد فى كتاب الله، ولا فى سنة رسول الله ﷺ، أخذت بقول أصحابه... ولا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم».

وهذا يؤكد على أنه لا يخرج فى مذهبه عن الكتاب والسنة وأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

وعلى هذا يكون المنهج الذى رسمه أبو حنيفة لنفسه يقوم على أصول سبعة هى:

١ - الكتاب وهو القرآن الكريم وهو أساس الشريعة ومصدر التشريع.

٢ - السنة وهى المفسرة لكتاب الله، المفصلة لمجمله.

٣ - أقوال الصحابة رضى الله عنهم، لأنهم الذين بلغوا الرسالة وهم الذين عايشوا التنزيل والوحى، ويعرفون المناسبات المختلفة للآيات والأحاديث.

٤ - القياس فهو يأخذ به إذا لم يكن نص من قرآن، ولا سنة ولا قول صحابى.

٥ - الاستحسان. وهو أن يخرج عن مقتضى القياس الظاهر، إلى حكم آخر يخالفه.

٦ - الإجماع. وهو فى حد ذاته حجة كما اتفق عليه العلماء ومعناه: إجماع المجتهدين فى عصر من العصور، على حكم من الأحكام.

٧ - العرف: وهو أن يكون عمل المسلمين على أمر لم يرد فيه نصٌ من القرآن، أو السنة، أو عمل الصحابة رضى الله عنهم. فإنه يكون حجة.

والعرف قسمان:

- عرف صحيح، وهو الذى لا يخالف نصاً. وهو حجة فيما وراء النص.

- وعرف فاسد، وهو الذى يخالف نصا. ولا يلتفت إليه لكونه مخالف للنص والأصل.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ١٢/٣٢٣.
٢ - وفيات الأعيان لابن خلكان حـ٢/١٦٣.
٣ - البداية والنهاية لابن كثير جـ١٠/١٠٧.
٤ - الانتقاء لابن عبد البر ص ١٢٢.
٥ - تاريخ المذاهب الإسلامية لأبى زهرة ص ٣٥٥.
٦ - حماة الإسلام لمصطفى نجيب حـ٢/٨٢.
٧ - الأعلام للزركلى جـ٨/٣٦.
٨ - موجز دائرة المعارف الإسلامية حـ٢/٣١٨.
٩ - النجوم الزاهرة جـ٢/١٢.
١٠ - الجواهر المضيئة جـ١/٢٦.

حنين بن إسحاق
(١٩٤ - ٢٦٥هـ)

هو أبو زيد حنين بن إسحق العبادى، ينتمى إلى قبيلة عربية استوطنت الحيرة، وهو أحد أبرز رواد النهضة العلمية الإسلامية فى مطلع عهدها، إليه بمفرده يرجع جزء كبير من تأسيس العلم فى المجتمع الإسلامى بفضل جهده المكثف فى ترجمة الأعمال العلمية، وإعادة ترجمة درامية ومراجعة ما سُبق إلى ترجمته، ومراجعة ترجمات تلاميذه، تمكن من اللغات اليونانية والسريانية والفارسية إضافة إلى العربية، وبفضل هذا التمكن مع عقلية علمية واعية وممارسة طبية متصلة نجح حنين بن إسحق فى أن يؤدى للطب العربى ولغيره من العلوم أجل الخدمات العلمية، وقد ترجم ما تمكن من الحصول عليه من المخطوطات فى عهد المأمون كما رحل إلى كثير من البلاد للحصول على نوادر المخطوطات وقد ذكرت بعض المصادر أن ما تولى ترجمته من اليونانية إلى السريانية بلغ خمسة وستين كتاباً ، وإلى العربية خمسة وثلاثين وأنه راجع ترجمة ستة كتب إلى السريانية، وسبعين إلى العربية، وأعاد ترجمة معظم الكتب التى ترجمها عن اليونانية أسلافه من الأطباء ولم يقف فى ترجمته عند الكتب الطبية فحسب، ولكنه ترجم الكتب الفلسفية الكبيرة لأرسطو وأفلاطون.

وبالإضافة إلى هذا كله كان حنين بن اسحق من أطباء العيون الممتازين، وله فى هذا الفن كتابه الأعظم «العشر مقالات فى العين»، وهو يذكر فى المقالات الستة الأولى منها طبيعة العين وتركيبها، وطبيعة الدماغ ومنافعه والعصب الباصر، والروح الباصر، وجملة الأشياء التى لابد منها لحفظ الصحة واختلافها، وأسباب الأمراض الكائنة فى العين. على حين يذكر فى الأربع مقالات الأخيرة، قوى جميع الأدوية عامة (السابعة)، وأجناس الأدوية للعين خاصة وأنوعها (الثامنة) ثم مداواة أمراض العين (التاسعة) وفى المقالة العاشرة، الأدوية المركبة المرافقة لأمراض العين، كما يذكر القوى ذات التأثيرات المختلفة للأدوية والمصطلحات الدالة على ذلك. كما يذكر فى هذه المقالة

طرق تحضير الأدوية المركبة لعلاج أمراض العين، فيتكلم عن تحضير مراهم العين (الشيافات)، وقد أورد قائمة بأربعين مركباً منها وأربعة أكحال نقلها عن الأطباء اليونانيين.

وقد كتب هذه الكتب على مدى عشرين عاماً لم يكن حنين بن إسحق نفسه فيها على نفس الحال من التفرغ للتأليف ولذا فإن بعض مؤلفاته موجزة، على حين أن البعض الآخر مطول، وبه نال صاحبها منصب رئيس الأطباء فى بغداد، وقد اهتم المستشرق ما يرهوف بدراسة تأثيره على كتب الطب فى أوروبا.

ولحنين أيضا كتاب ثان فى أمراض العيون «المسائل فى العين» وقد ألفه على هيئة أسئلة وأجوبة حتى يستفيد منه ابناه دواد واسحق، ويقال إن هذا الكتاب حوى ٢٠٩ مسائل.

وله أيضاً: «اختبار أدوية العين»، و«كتاب فى الرمد» و«كتاب فى تركيب العين وعللها وعلاجها». وإلى حنين بن اسحق يرجع الفضل فى وضع كثير من المصطلحات الطبية العربية، بلغة ذكية معبرة وفى مقدمة هذه المصطلحات تسمياته لطبقات العين: الشبكية، الصلبة، الملتحمة، القرنية، المشيمية.

بالإضافة إلى هذا كان لحنين بن إسحق ما يقرب من مائة كتاب آخر فى العلوم الطبية لعله ألفها بتصرف مما ترجمه إضافة إلى بلورة خبرته العريضة، وقد أورد ابن أبى أصيبعة قائمة لمؤلفاته العربية وفى مقدمتها كتاب «المسائل فى الطب»، وقد وضعه (على نحو ما وضع كتابه المسائل فى العين) على هيئة أسئلة وأجوبة مما يدلنا على أنه مارس التعليم الطبى المتقدم وتمرس به، وقد ساعده فى تأليفه ابن اخته حبيش بن الأعسم، وقد شرح هذا كثير من الأطباء اللاحقين ومنهم ابن النفيس، والرحبى، واللبودى، وابن المنفاخ، والنيلى، والدخوار، وابن دقيق، وابن أبى صادق.

وله: «تحفة الألباء وذخيرة الأطباء». و«امتحان الأطباء». و«النكح». و«فيمن يولد لثمانية أشهر». و«كتاب فى أن الطبيب الفاضل لابد أن يكون فليسوفاً». و«فى حفظ الأسنان واللثة واستصلاحها». وكتاب «المدخل إلى الطب». ورسائل: «فى الدغدغة». و«فى أوجاع المعدة». و«فى البقول وحواشيها». ومقالة «فى ماء البقول». و«فى الفواكه ومنافعها». و«الأغذية». و«آلات الأغذية وتدبيرها وأمر الدواء المسهل». و«الفرق بين الغذاء والدواء المسهل» ومقالة «فى تولد الحياة».

وله موسوعة عن أعلام الأطباء: «تاريخ الأطباء».

وبفضل العلم الصيدلى الوافر فى كتاب العشر مقالات؛ يعد حنين بن اسحق من الرواد الأوائل للعلوم الصيدلية أيضاً.

وله كتب فى الصيدلة هى «فى أسماء الأدوية المفردة على حروف المعجم». و«فى أسرار الأدوية المركبة». و«فى الأدوية المحرقة». و«خواص الأدوية المفردة». و«أقرباذين».

ولحنين مؤلفات فى علوم أخرى منها «مختصر فى تاريخ الكيميائيين». و«مقالات».و«فى السبب الذى من أجله صارت مياه البحر مالحة». و«فى المد والجزر». و«فى توليد النار بين الحجرين». ورسائل «فى الضوء وحقيقته». و«فى الأوزان والأكيال». و«مقتطفات من رسالة المذنباتش. و«فى ذوات الذنب». و«ألفاظ الفلاسفة فى الموسيقى ونوادر فلسفية». و«القول فيما يستجيب ولا يستجيب من شهور السنة». و«مجالس الحكماء». و«اجتماعات الفلاسفة فى بيت الحكمة فى الأعياد وتفاوض الحكمة بينهم». و«آداب الفلاسفة». و«كتاب فى المنطق». و«كتاب فى النحو». و«كتاب فى أفعال الشمس والقمر».

ومن الكتب الفريدة التى ترجمها حنين: «الرسالة الشافية فى أدوية النسيان»، وهى خاصة بثمر البلاذر المخصص لتنشيط الذاكرة.

ولد حنين بن اسحق بالحيرة وكان والده من المشتغلين بالصيدلة، وقد درس على والده كما درس فى مدرسة جند يسابور الطبية الشهيرة، كما زار بلاد الشام والروم وفارس، ودرس الطب على يد حنا بن ماسويه ولقى تشجيع جبريل بن بختشيوع طبيب المأمون الخاص، كما خدم ابنه المعتصم. كان المأمون بن أحمد الفراهيدى فى بلاد فارس وهو الذى جلب معه كتاب «العين» للخليل بن أحمد، أول معاجم العربية.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب د. محمد كامل حسين.

٢ - تاريخ العلم، ودور العلماء العرب فى تقدمه د. عبد الحليم منتصر.

٣ - تاريخ العلم دار المعارف ١٩٩١م جورج سارتون.

٤ - قطوف من تاريخ الطب د. بول غليونجى.

أبو حيان الأندلسى
(٦٥٤ - ٧٤٥هـ = ١٢٥٦ - ١٣٤٤م)

هو محمد بن يوسف بن على بن يوسف ابن حيان، الإمام أثير الدين أبو حيان الأندلسى الغرناطى النفرى، نسبة الى نفرة، قبيلة من البربر.

ولد بمطخشارش، وهى مدينة قريبة من غرناطة، وكان ذلك فى آخر شوال سنة ٦٥٤ للهجرة النبوية المباركة الموافق ١٢٥٦م، وتوفى فى عام ٧٤٥هـ الموافق ١٣٤٤م.

ويعد أبو حيان نحوى عصره، ولغويه، ومفسره، ومحدثه، ومؤرخه، وأديبه .

وكان سبب رحلته عن غرناطة: أنه حملته حدة الشبيبة على التعرض للأستاذ أبى جعفر ابن الطباع، وقد وقعت بينه و بين أستاذه أبى جعفر بن الزبير واقعة، فنال منه، وتصدى لتأليف فى الرد عليه و تكذيب روايته، فرفع أمره إلى السلطان، فأمر بإحضاره وتنكيله، فاختفى، ثم ركب البحر، ولحق بالمشرق .

كان أبو حيان - رحمه الله تعالى - ثبتا صدوقا حجة، سالم العقيدة من البدع الفلسفية والاعتزال والتجسيم، ومال إلى مذهب أهل الظاهر، وإلى محبة الإمام على ابن أبى طالب رضي الله عنه كما كان كثير الخشوع والبكاء عند قراءة القرآن، وكان شيخا طوالا حسن النغمة، مليح الوجه، ظاهر اللون، مشربا بحمرة، منور الشيبة، كبير اللحية، مسترسل الشعر .

وكان يعظم الشيخ تقى الدين ابن تيمية، ثم وقع بينه و بينه خلاف فى مسأله نقل فيها أبو حيان شيئا عن سيبويه، فقال ابن تيمية: (وسيبويه كان نبى النحو ! لقد أخطأ سيبويه فى ثلاثين موضعا من كتابه)، فأعرض عنه أبو حيان ورماه فى تفسيره (النهر) بكل سوء.

من شيوخه وتلاميذه :

كان أبو حيان - رحمه الله تعالى - ملما بالقراءات صحيحها و شاذها، وقد قرأ القرآن على الخطيب ابن عبد الحق إفرادا وجمعا، و أخذ القراءات عن أبى جعفر بن الطباع، والعربية عن أبى الحسن الأبذى، وأبى جعفر بن الزبير، وابن أبى الأحوص، وابن الصائغ، وأخذ بمصر عن البهاء بن

النحاس، الذى لازمه و سمع عليه كثيرا من كتب الأدب، و سمع الحديث بالأندلس وإفريقية و الإسكندرية التى قرأ فيها القراءات على عبد النصير بن على المريوطى، قال أبو حيان عن شيوخه : (وعدة من أخذت عنهم أربعمائة وخمسون شخصا، وأما من أجازنى فكثير جدا).

ولقد أكب العلامة أبو حيان على طلب الحديث فأتقنه وبرع فيه، كما برع فى التفسير والعربية، و هو الذى رغب الناس فى كتب ابن مالك، و شرح لهم غامضها، كما برع فى الأدب والتاريخ، واشتهر اسمه، وطار صيته، وأخذ عنه أكابر عصره: كالشيخ تقى الدين السبكى، وولديه، والجمال الإسنوى، وابن قاسم، وابن عقيل، والسمين الحلبى، وناظر الجيش، والسفاقسى، وابن مكتوم وآخرين.

منهجه فى التفسير:

وعلى الرغم من كثرة مؤلفات أبى حيان فى فنون كثيرة، مجال أكثرها فى العربية، إلا أن مشروعه العلمى الكبير الذى عرف به هو تفسيره القيم (البحر المحيط)، ويقع فى ثمانية مجلدات كبار، و هو مطبوع ومتداول بين أهل العلم.

ولا نجد وسيلة لإبراز منهجه الذى سلكه فى تفسيره خيرا من عبارته نفسه، فقد أبرز معالم هذا المنهج فى مقدمته لهذا التفسير، قال : (وترتيبى فى هذا الكتاب أنى ابتدئ أولا بالكلام على مفردات الآية التى أفسرها لفظة لفظة، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التى لتلك اللفظة قبل التركيب، و إذا كان للكلمة معنيان، أو معان، ذكرت ذلك فى أول موضع فيه تلك الكلمة، لينظر ما يناسب لها من تلك المعان فى كل موضع تقع فيه فيحمل عليه، ثم أشرع فى تفسير الآية : ذاكرا سبب نزولها إذا كان لها سبب، ونسخها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها، حاشدا فيها القراءات شاذها ومستعملها، ذاكرا توجيه ذلك فى علم العربية، ناقلا أقاويل السلف والخلف فى فهم معانيها، متكلما على جليها وخفيها، بحيث إنى لا أغادر منها كلمة و إن اشتهرت حتى أتكلم عليها، مبديا ما فيها من غوامض الإعراب، و دقائق الآداب من بديع و بيان، مجتهدا أنى لا أكرر الكلام فى لفظ سبق، ولا فى جملة تقدم الكلام عليها، ولا فى آية فسرت، بل أذكر فى كثير منها الحوالة على الموضع الذى تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة، أو الآية، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة ..).

لقد عنى أبو حيان - رحمه الله - فى

تفسيره - كما نوه فى المقدمة - بالتفسير بالمأثور، واللغة، والقراءات، والإعراب، و غير ذلك.

وللإمام أبى حيان مصنفات كثيرة منها: البحر المحيط فى التفسير، و(النهر) مختصره وتحفة الأريب بما فى القرآن من الغريب، والتذييل والتكميل فى شرح التسهيل، والتجريد لأحكام سيبويه، والتذكرة فى العربية، والمبدع فى التصريف، وغاية الإحسان فى النحو، و(عقد اللآلئ) فى القراءات على وزن الشاطبية و قافيتها، والحلل الحالية فى أسانيد القرآن العالية، ونحاة الأندلس، والأبيات الوافية فى علم القافية، والإدراك للسان الأتراك.

ومما لم يكمل من مؤلفاته: شرح الألفية، ونهاية الإغراب فى التصريف والإعراب، وأرجوزة "نور الغبش فى لسان الحبش"، و له ديوان شعر سبق أن ذكرنا نموذجا منه.

أ. د. محمد السيد جبريل

مراجع للاستزادة:

١ - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب: للإمام عبد الحى ابن العماد الحنبلى (ت ١٠٨٩ هـ)، دار الكتب العلمية ، بيروت ، دون تاريخ .

٢ - فهرس الفهارس : للإمام عبد الحى بن عبد الكبير الكتانى - ط. دار الغرب الإسلامى، بيروت ، دون تاريخ .

٣ - فوات الوفيات: للإمام محمد بن شاكر الكتبى (ت ٧٦٤ هـ)، تحقيق د. إحسان عباس ، ط. دار صادر بيروت ، دون تاريخ .

٤ - غاية النهاية فى طبقات القراء : للإمام محمد بن محمد الجزرى (ت ٨٣٣ هـ)، ط. دار الكتب العلمية بيروت - الثالثة (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م).

٥ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة : للإمام يوسف بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ) ط. المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة ، دون تاريخ.

٦ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر و القاهرة : لجلال الدين السيوطى (ت : ٩١١ هـ).(١ / ٤٣٨) دار الكتب العلمية ، بيروت ، الأولى (١٤١٨هـ - ١٩٩٧م).

٧ - التفسير و المفسرون : أ. د./محمد حسين الذهبى (٣١٧/١)، ط. دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٣هـ .

الخازن «المفسر»
(٦٧٨ - ٧٤١هـ = ١٢٨٠م - ١٣٤٠م)

هو الإمام: على بن محمد إبراهيم بن عمر ابن خليل الشيمى ـ البغدادى الصوفى، خازن كتب الخانقاه بالمدرسة السميساطية، واشتهر بالخازن بسبب ذلك.

ولد بحلب عام ٦٧٨هـ الموافق ١٢٨٠م، وتوفى عام ٧٤١هـ الموافق ١٣٤٠م.

قال الداودى: قال ابن قاضى شهبة: كان من أهل العلم، جمع وألف وحدث.

تفسير «لباب التأويل فى معانى التنزيل»

هذا التفسير ـ كما يقول الدكتور الذهبى فى «التفسير والمفسرون»: اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبغوى، وضم إلى ذلك ما نقله ولخصه، من تفسير من تقدم عليه وهو مكثر من رواية التفسير المأثور إلى حد ما. معنى بتقرير الأحكام وأدلتها. مملوء بالأخبار التاريخية، والقصص الإسرائيلى، الذى لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان العلم الصحيح والعقل السليم.

بل نجده يتوسع فى ذكر تلك الإسرائيليات».

عنايته بالأخبار التاريخية :

نلاحظ على هذا التفسير: أنه يفيض فى ذكر الغزوات التى كانت على عهد النبى ﷺ، وأشار إليها القرآن.

فمثلاً: عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٩]

نراه بعد أن يفرغ من التفسير، يقول: "ذكر غزوة الخندق، وهى الأحزاب" ثم يذكر وقائع الغزوة وما جرى فيها باستفاضة وتوسع.

عنايته بالناحية الفقهية :

كذلك نجد هذا التفسير : يعنى جد العناية بالناحية الفقهية. فإذا تكلم عن آية من آيات الأحكام استطرد إلى مذاهب الفقهاء وأدلتهم، وأقحم فى التفسير فروعًا فقهية كثيرة.

فمثلاً: عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ **للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاؤا فإن الله غفور رحيم** ﴾ [البقرة: ٢٦٦]

نراه بعد أن ينتهى من التفسير، يقول: "فروع تتعلق بحكم الآية". ثم يذكر خمسة فروع:

الفرع الأول: فى حكم ما إذا حلف أنه لا يقرب زوجته، أبداً، أو مدة هى أكثر من أربعة أشهر.

والثانى: فى حكم ما لو حلف ألا يطأها أقل من أربعة أشهر.

والثالث: فى حكم ما لو حلف ألا يطأها أربعة أشهر.

والرابع: فى مدة الإيلاء فى حق الحر والعبد، واختلاف المذاهب فى ذلك.

والخامس: فيما إذا خرج من الإيلاء بالوطء ... فهل تجب عليه كفارة، أو لا تجب ...؟

عنايته بالمواعظ :

ثم إن هذا التفسير : كثيراً ما يتعرض للمواعظ والرقاق، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب، ولعل نزعة الخازن الصوفية هى التى أثرت فيه، فجعلته يعنى بهذه الناحية ويستطرد إليها عند المناسبات.

فمثلاً: عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ﴾ [السجدة: ١٦].

نراه يقول بعد الانتهاء من التفسير: "فصل فى قيام الليل، والحث عليه".

ثم يسوق فى ذلك: أحاديث كثيرة عن النبى ﷺ كلها تدور على البخارى ومسلم والترمذى.

أما عن مؤلفاته فمن أهمها : كتاب تفسير القرآن، وقد اختلفت أصحاب التراجم فى تسميته "الكتاب" وهو أشهر مؤلفاته.

فمنهم من سماه: "التأويل فى معانى التنزيل "(تاريخ علماء بغداد ص ١٥١ لابن رافع ط الأهالى - بغداد ١٩٧٨م)

ومنهم من سماه: «التأويل لمعالم التنزيل» (طبقات المفسرين للداودى ٤٢٢/١)

ومنهم من سماه: (لباب التأويل فى معانى التنزيل)

والتسمية الأخيرة: هى الصحيحة، لأن الخازن ذكرها فى مقدمة تفسيره، فقال : "وسميته لباب التأويل فى معانى التنزيل "(لباب التأويل ٣/١ط الحلبى)

وهكذا نجد هذا التفسير: يطرق موضوعات كثيرة، فى نواح من العلم مختلفة، ولكن شهرته القصصية، وسمعته الإسرائيلية أساءت إليه كثيراً، وكادت تصد الناس عن الرجوع إليه والتعويل عليه.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة:

١ - التفسير والمفسرون.

٢ - لباب التأويل.

٣ - الدرر الكافية.

٤ - شذرات الذهب.

٥ - طبقات المفسرين للداودى.

الخازنـــى
(٠٠٠ - نحو ٥٥٠هـ = ٠٠٠ - نحو ١١٥٥م)

هو أبو منصور وأبو الفتح عبد الرحمن الخازنى المولود فى مدينة مرو بخراسان (توجد الآن فى جمهورية التركمانستان). ولم تذكر المراجع شيئا عن تاريخ ميلاده، ولكنه توفى نحو عام ٥٥٠هـ = ١١٥٥م.

ويخلط كثير من المؤرخين بينه وبين كل من أبى جعفر الخازن الخراسانى وأبى على الحسن بن الهيثم، بسبب التشابه الكبير فى كتابة الأسماء الثلاثة. بالإنجليزية:

AL-HAZEN - AL-KHAZEN - AL-KHAZENI.

وكان الخازنى غلامًا لأبى الحسن على بن محمد الخازن المروزى الذى نسبه إليه وأولاه عنايته واهتمامه، فعلمه الفلسفة والعلوم وهو فى سن مبكرة، ودرس على أيدى أكابر العلماء فى مرو حتى نبغ فى علوم الرياضيات والفيزياء والفلك.

وقد نال الخازنى الحظوة عند معز الدين أبى الحارث سنجر والى خراسان وبطانته من الأشراف، ولهذا نجده يثنى كثيرا على هذا السلطان الذى هيأ له ما لم يتح لغيره.

يحتوى كتابه : «ميزان الحكمة» على دراسات فى علوم الميكانيكا والهيدروستاتيكا والفيزياء.

وقد أفاد علماء الغرب من كتاب «ميزان الحكمة» للخازنى، حيث ترجم من اللغة العربية إلى لغات أخرى نظرا لأهمية الموضوعات التى عرض لدراستها وفق منهج علمى تجريبى يعتمد على القياسات الكمية، فقد وصف فيه أشكالا متعددة للموازين بشكل دقيق ومفصل، كما تضمن مجموعة من الجداول التى تبين الأوزان النوعية لعدد من الأجسام الصلبة والمواد السائلة، بدقة كبيرة تكاد تتطابق مع القيم المقدرة حديثا لهذه المواد، رغم اختلاف المستوى التقنى لأجهزة القياس فى عصر الخازنى والعصر الحديث.

ويعكس كتاب «ميزان الحكمة» بوضوح المنهج العلمى الذى اتبعه الخازنى فى البحث والتأليف على حد سواء. ولعل أهم ما يميز هذا المنهج هو الاعتقاد بخاصية التراكم

المعرفى كأساس لنمو المعارف العلمية. ومن هنا نشأت الرؤية النقدية عند الخازنى فى تحليل أعمال السابقين عليه؛ للاستفادة من صحيحها والإضافة إليه، كذلك قام منهج الخازنى على الاستقراء والاستنباط بإعمال العقل بعيدا عن الهوى والتعصب، مستخدما التحليل والتركيب فى آن واحد معا، حيث يبدأ من المقدمات والمسلمات الأولية، وصولا إلى نتائج عامة، ثم يقوم بتحليل هذه النتائج واختبار صحتها مبينا أوجه القصور فيها.

ولقد تجلت عقلية الخازنى العلمية فى تأليف كتاب «ميزان الحكمة»، حيث اتبع منهجا لا يختلف عما يتبع اليوم فى عملية الترتيب والتبويب، محددا نقطة البداية مع تحديد الموضوع، ومرتبا الأبواب والفصول التى تندرج تحت كل موضوع على حدة، وكم كان حريصا على أن يعرض فى مقدمته أهداف كتابه ورءوس موضوعاته وما سار عليه من منهج، ثم يفهرس للكتاب على النحو الذى نراه الآن فى المراجع الحديثة.

مؤلفاته :

١ - جامع التواريخ.

٢ - الآلات المخروطية.

٣ - الفجر والشفق.

٤ - التفهيم.

٥ - رسالة فى الآلات العجيبة.

٦ - ميزان الحكمة.

أ. د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة :

١- كتاب ميزان الحكمة لعبد الرحمن الخازني، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن.

٢- منهج البحث العلمي عند الخازني وأثره فى تطور علم الطبيعة، رسالة دكتوراه لم تنشر بعد وأجيزت من جامعة جنوب الوادى ١٩٩٨م.

٣ - د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة، القاهرة ١٩٨٣م.

الخضـــرى

(١٢٨٩ - ١٣٤٥هـ = ١٨٧٢ - ١٩٢٧م)

هو محمد بن الشيخ عفيفى الباجورى، المعروف بالشيخ الخضرى، لقب بذلك نسبة إلى شيخ أبيه الروحى الذى كان يُجلّه.

ولد بالقـــاهرة سنة ١٢٨٩هـ = ١٨٧٢م، وكانت إقامته فى حى الزيتون إحدى ضواحى القاهرة، وذهب إلى المكتب فى سن السابعة، ولما بلغ الثانية عشرة غادر إلى الأزهر فأقام فيه سبع سنوات، تلقى فيها النحو والفقه والتفسير والحديث والبلاغة والمنطق والتوحيد على أجلاء الشيوخ.

ثم دخل «دار العلوم» فى القسم الأول الذى ألغى قبل نهاية السنة المكتبية، غير أنه عاد فالتحق بالقسم العالى من المدرسة فى أكتوبر سنة ١٨٩١م.

وفى سنة ١٨٩٥م طلب من المدرسة اختيار طالب من الفرقة الرابعة للتدريس بمدرسة الصناعات بالمنصورة، فاختير هو وسافر فى ١٩ من مارس ١٩٨٥م، ثم عاد فأدى الامتحان واجتازه بنجاح، وبعد الإجازة الصيفية استقر بالمنصـــورة، وقـــضى فى التـــدريس ثلاثة وعشرين عامًا تخللتها سنتان فى القضاء بالسودان، وعمل أيضًا أستاذًا بكلية «غوردون» فى السودان، ثم أستاذًا بمدرسة القضاء الشرعى لمدة ١٣ عامًا، وأستاذًا للتاريخ الإسلامى فى الجامعة المصرية، فوكيلا لمدرسة القضاء الشرعى، فمفتشًا بوزارة المعارف المصرية، وتوفى ودفن فى ٨ من شوال سنة ١٣٤٥هـ = ١٩٢٧م.

وهو باحث وخطيب وعالم فى الشريعة والأدب والتاريخ الإسلامى، وهو أيضا فقيه وأصولى وأديب، وكان رحمه الله كتلة من النشاط الفكرى والعقلى، وله اتصال بكثير من الجمعيات والجماعات.

ومن مؤلفاته:

- أصول الفقه، مطبوع.
- تاريخ التشريع الإسلامى، مطبوع.
- محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية، كتاب فى مجلدين كبيرين، يعالج تاريخ العرب قبل الإسلام والسيرة النبوية وتاريخ

الراشدين، ويعرض لبعض المباحث المهمة فى التاريخ، كما يعالج تاريخ الدولة الأموية والدولة العباسية بأسلوب عصرى يخلو من الإسناد، وهو مطبوع.

- نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، يعالج السيرة النبوية بأسلوب عصرى، وهو مطبوع.

- إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء، يعرض تاريخ الخلفاء الراشدين بأسلوب عصرى، وهو مطبوع.

- محاضرات فى بيان الأخطاء العلمية التاريخية التى اشتمل عليها كتاب «فى الشعر الجاهلى» لطه حسين. مطبوع.

- تهذيب الأغانى: هذب سبعة أجزاء من هذا الكتاب، وهو مطبوع.

- الغزالى: تعاليمه وآراؤه، مطبوع، ونشر تباعًا فى المجلد ٣٤ من مجلة «المقتطف».

- دروس تاريخية: مطبوع.

أ.د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة:

١- محمد سليمان: الأدب المصرى فى مصر.

٢- عبد الحميد عيسى: صفحات من الأدب المصرى.

٣- سركيس: جامع التصانيف.

٤- بروكلمان: ملحق ٣ / ٣١٠.

٥-خير الدين الزركلى: الأعلام ٦/٢٦٩.

٦- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١٠/٢٩٥.

٧- تقويم دار العلوم ص ٢٧٩ من المجلد الأول. إعداد الأستاذ محمد عبد الجواد.

الخطيب الشربينى
(٠٠٠ - ٩٧٧ هـ = ٠٠٠ - ١٥٧٠م)

هو الإمام العلامة شمس الدين، محمد بن محمد الشربينى، القاهرى الشافعى .

لم يعرف تاريخ ميلاده، لكنه توفى عصر يوم الخميس الثانى من شعبان سنة ٩٧٧ هـ الموافق ١٥٧٠م) .

كان خطيبا مجيدًا ولذا لقب بالخطيب.

تلقى العلم عن كثير من مشايخ عصره. كالشيخ أحمد البرلسى، والنور المحلى، والبدر المشهدى، والشهاب الرملى، وغيرهم.

وكان ـ رحمه الله ـ على جانب عظيم من الصلاح والورع، وقد أجمع أهل مصر على ذلك، ووصفوه بالعلم والعمل، والزهد والورع، وكثرة النسك والعبادة.

ومن أشهر أعماله: تفسيره المسمى «السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير».

لم يذكر الخطيب الشربينى فى تفسيره من القراءات إلا ما تواتر منها، ولم يقحم نفسه فيما لا يعنى المفسر من ذكر الأعاريب التى لا تمت إلى التفسير بسبب.

وذكر مؤلف هذا الكتاب فى مقدمته: أنه اقتصر على أرجح الأقوال، وأعرب ما يحتاج إليه عند السؤال، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية، وذكر أن ما يذكره فيه القراءات، فهو من السبع المشهورات.

قال: وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها، أو لورودها ولكن بصيغة "قيل"، ليعلم أن المرضى أولها.

كما أنه لم يذكر من الأحاديث إلا الصحيح منها والحسن، ولهذا نراه يتعقب الزمخشرى والبيضاوى فيما ذكرا من الأحاديث الموضوعة فى فضائل القرآن، سورة سورة.

كما ينبه على الأحاديث الضعيفة إن عرض لشئ منها فى تفسيره.

وهو يورد بعض النكت التفسيرية، وبعض الإشكاليات والإجابة عنها. تارة بقوله : تنبيه. وتارة بقوله: فإن قيل كذا .. أجيب بكذا.

ويهتم الإمام الخطيب الشربينى فى

تفسيره: بذكر المناسبات بين آيات القرآن، وتقرير الأدلة وتوجيهها.

ويعنى السراج المنير بذكر الأحكام الفقهية، ومذاهب العلماء وأدلتهم فى غير توسع، ولا ذكر للفروع. فمثلا فى تفسيره قوله تعالى ﴿ **لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم...** ﴾ الآية "البقرة ٢٢٥".

نراه - رحمه الله - يعرض لبعض أقوال العلماء فى بيان معنى اليمين اللغو، ثم بعد الفراغ من تفسير الآية، يقول: "تنبيه" ثم يذكر ما ينعقد به اليمين، وما يترتب على الحنث فى اليمين المنعقدة، وهل تجب الكفارة بالحنث فى اليمين الغموس..؟ أو لا تجب..؟ فيذكر عن الشافعية : أنهم يقولون بوجوبها. وعن بعض العلماء : أنه لا كفارة فيها، كأكثر الكبائر. ويعرض لحكم الحلف بغير الله : كالكعبة والنبى والأب وغير ذلك.

على أن تفسير الخطيب لم يخل من ذكر بعض القصص الإسرائيلى الغريب، وذلك بدون أن يتعقبه بالتصحيح أو التضعيف.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى من سورة النمل على لسان ملكة سبأ «بلقيس» ﴿ **وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون** ﴾ «النمل ٣٥» نراه : يقص لنا عن وهب بن منبه، وغيره.. قصة غريبة، فيها بيان نوع هدية بلقيس لسليمان، وما كان من اختبارها له، وما كان من سليمان عليه السلام من إجابته على ما اختبرته به، وإظهاره لعظمة ملكه وقوة سلطانه.

وهذا مما يبعث الدهشة ويثير العجب، ومع ذلك: لا يعقب على ما رواه بكلمة واحدة.

وهكذا نلاحظ أنه يغلب على تفسير الخطيب الشربينى الجانب القصصى بالنسبة لغيره من بقية جوانب التفسير.

ونرى الخطيب: كثيرًا ما يعتمد على التفسير الكبير للفخر الرازى، والذى يقرأ فى تفسيره هذا، يجد أنه يكثر من القول عنه.

له بالإضافة إلى تفسيره مؤلفات عديدة أهمها: شرحه لكتاب «المنهج»، وكتاب «التنبيه»، وهما شرحان عظيمان.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة :
١- التفسير والمفسرون.
٢- معجم المؤلفين.
٣- شذرات الذهب.

الخـــلال
(٠٠٠- ٣١١هـ = ٠٠٠ - ٩٢٣م)

هو الفقيه العلامة المحدّث أبو بكر أحمد ابن محمد بن هارون البغدادى الحنبلى، المعروف بالخلال، جامع علم الإمام أحمد ومرتبه. من كبار علماء الحنابلة، وأحد أعلام القرن الثالث الهجرى.

وقد ارتحل كثيرا، وتغرب زمانًا طويلا، ولقى الكثيرين من الشيوخ، كالحسن بن عرفة، وسعدان بن نصر، وحرب بن إسماعيل، ومحمد بن عوض الحمصى، وأبو بكر المروزى، وإبراهيم الحربى، وحنبل ابن إسحاق، وصالح وعبد الله ابنى الإمام أحمد، والميمونى، والبرقى، وغيرهم.

وحدث عنه تلميذه أبو بكر عبد العزيز بن جعفر الفقيه الملقب بغلام الخلال، ومحمد بن المظفر، والحسن بن يوسف الصيرفى وغيرهما.

كان إمامًا من أئمة من الحديث العارفين بعلله. ومن فضائله جمعه مذهب الإمام أحمد وتنظيمه وكتابته. قال عنه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد : «جمع علوم أحمد بن حنبل. وتطلبها وسافر لأجلها. وكتبها وصنفها كتبا. ولم يكن فيمن ينتحل مذهب أحمد بن حنبل أحد أجمع لذلك منه»، ومن يدرى؟ فلعل المذهب لو لم يقيض الله له الخلال لما كان له هذا البقاء. ولا سيما وأن الإمام ما كان يحب تدوين الكتب.

لا يعرف تاريخ مولده، وتوفى سنة ٣١١هـ الموافق ٩٢٣م، وله سبع وسبعون سنة، وقيل نيف على الثمانين.

وقد كان للخلال رأى فى العلم ودراسته، فهو يقول: «من لم يعارض لم يدر كيف يضع رجله» وكان له حلقة لتدريس العلم بجامع المهدى

وقال أيضا : «ينبغى لأهل العلم أن يتخذوا للعلم المعرفة له، والمذاكرة به، ومع ذلك كثرة السماع، وتعاهده بالنظر فيه. فقد كان أول من عنى بهذا الشأن شعبة بن الحجاج، ثم كان بعده يحيى القطان، وتعاهد الناس العلم

بعدهما بتعاهدهما. ثم كان بعد هذين ثلاثة ليس لهم رابع: أحـمـد بن حنبل، ويحـيى بن مـعين، وعلى بن المدينى» وقـال عنه الإمـام أبو يعلى: له التفاسير الدائرة والكتب السائرة.

له مؤلفات عديدة منها:

١ - كتاب السنة فى ثلاثة مجلدات، وطبع فى خمسة أجزاء.

٢ - كتاب «العلل» فى عدة مجلدات وطبع منه قطعة فى مجلد.

٣ - كتاب «الجامع لعلوم الإمام أحمد» وهو كبير جداً. قال فيه ابن كثير: «ولم يصنف فى مذهب الإمام أحمد مثل هذا الكتاب» وقد طبع منه عدة أجزاء.

٤ - كتاب طبقات أصحاب الإمام أحمد ابن حنبل.

٥ - كتاب العلم.

٦ - كتاب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مطبوع.

٧ - كتاب تفسير الغريب.

٨ - كتاب أخلاق أحمد بن حنبل

٩ - الحث على التجارة والصناعة والعمل، طبع.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ ـ تاريخ بغداد ١١٢/٥.

٢ ـ طبقات الحنابلة ١٢/٢.

٣ ـ مناقب أحمد لابن الجوزى ص ٦٨١، ٦٨٢.

٤- مختصر طبقات الحنابلة ص٢٩٥.

٥- الأعلام للزركلى جـ١/ ٣٠٦.

ابن خلدون
(٧٣٢ - ٨٠٨هـ = ١٣٣٢ - ١٤٠٦م)

هو عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن محمد بن الحسين بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبدالرحمن بن خلدون الحضرمى الكندى، ويلقّب بولىّ الدين.

وهو عربى الأصل يتصل نسبه بقبيلة كندة العربية، ومن أجداده وائل بن حجر الصحابى، الذى وفد على النبى ﷺ، فبسط له رداءه وأجلسه عليه ودعا له.

كان والده هذا معدودًا ضمن كبار العلماء.

وُلد عبد الرحمن بن خلدون بمدينة "تونس" فى عام ٧٣٢ هـ الموافق ١٣٣٢م وتوفى عام ٨٠٨هـ الموافق ١٤٠٦م، وتأثر ببيئته، فصار من العلماء المرموقين وهو لم يتجاوز العشرين عامًا من عمره؛ فقد نشأ وهو ذكى بفطرته فى بيت أضاء بالعلم والأدب، وفى مدينة كانت تموج بأعلام العلماء والأدباء، وقد تلقى العلم عن أبيه أولاً، فحفظ القرآن الكريم، وتأثر به كثيرًا، كما أقبل على مجالس العلماء الأعلام فى عصره، من أمثال الآبلى.

ولمّا ظهرت عبقريته فى العشرين من عمره، طلبه السلطان "أبو إسحاق" أن يكون أحد أفراد بلاطه ، وهنا دخل ابن خلدون إلى عالم السياسة.

وبعد ذلك غادر تونس إلى "فاس" فاختاره السلطان هناك ـ واسمه "أبو عنان" ـ للكتابة والتوقيع بين يديه عام ٧٥٥هـ، فقبل ابن خلدون، لكنه تحمّل هذا على كره منه، ثم وشى به الواشون، فزجّ به فى السجن، ولم يخرج منه إلا بعد وفاة السلطان.

ثم سافر إلى بلاد أفريقية، وانتقل بعد ذلك إلى الأندلس وافدًا على السلطان "ابن الأحمر" بغرناطة، ولما كان على مقربة منها أتته رسالة من وزيرها السابق "لسان الدين ابن الخطيب" وفيها تهنئة بمقدمه وسرور بلقياه، وقد أكرمه السلطان ابن الأحمر، فأحسن لقياه، وأكرم وفادته، واختاره سفيرًا بينه وبين ملك الأسبان، لما يتمتع به ابن خلدون من عذب الحديث وأصالة الرأى، مما حببه أيضًا لدى ملك أسبانيا، لكنه ترك

أسبانيا حين ساءت العلاقة بينه وبين الوزير هناك.

وسافر ابن خلدون إلى ولاية "بجاية" ونزل بها سنة ٧٦٦ هـ، وقد قلّده السلطان منصب "الحجابة"، وكان من أكبر مناصب بلاد المغرب، وهو بمثابة منصب رئيس الوزراء الآن.

لكن كثر حُسّاده والواشون به، فتنكّر له السلطان، فترك المنصب، وأقبل على الاشتغال بالعلم عائدًا إلى الأندلس مرة أخرى، فأنزله سلطانها ابن الأحمر منزلاً كريمًا وأحسن إليه وشمله بعطفه، لكنه قفل عائدًا إلى تلمسان، وهجر السياسة تمامًا، لما جرّته عليه من الوبال.

وسافر بعد ذلك إلى "مصر"، وعمل بالتدريس بالجامع الأزهر، فاتصل به السلطان وولاه قضاء المالكية فى مصر، وكان المعروف ـ وقتها ـ أن يلقّب قاضى كل مذهب بـ "قاضى القضاة".

ولما أعرض عن توسلات الأعيان وواسطة أصحاب الجاه على حساب الحق والعدل، سخط عليه الحسّاد والمغرضون، ورموه بالفظاظة والكبر، وكادوا له عند السلطان، فنالوا منه، وتمّ عزله من القضاء، لكنه أسند إليه مرّة أخرى.

وظل ابن خلدون بمصر يعمل بالقضاء حوالى ثلاثة وعشرين عامًا حتى وافاه أجله!.

ويعد ابن خلدون من العلماء الأجلاّء الذين اتسعت دائرة معارفهم، وكانوا المثل الأعلى فى كل علم وفن، وكان عالمًا شرعيا، بعيد الغور فى العلوم العربية، محيطًا بالعلوم النظرية، ضليعًا فى الفنون الأدبية، بل إن الشدائد التى مرَّت به أخرجت منه مفكرًا إسلاميًا عبقريًا، وفيلسوفًا اجتماعيا مبتكرًا، وعالمًا تاريخيا.

ولذا يعدّ ابن خلدون، بحق، مؤسس "علم فلسفة التاريخ"، فهو يكتب فى التاريخ لا باعتباره عَرْضًا لمسائل سياسية متعاقبة، وإنما باعتباره بيانًا للتطور العقلى والمادى للشعوب.

وكان ابن خلدون يفضّل دراسة هذا العالَم الذى نعيش فيه، على الاشتغال بالفلسفة والمنطق الصورى، لأن دراسة العالَم قد توصل الإنسان إلى اليقين أو ما يقرب منه. ويرى أن ما نجده فى هذا العالم من وقائع وأحداث يمكن البحث عن برهانها،والكشف عن عللها وأسبابها، وبقدر ما نستطيع من كشف علل الأحداث وربط الأحداث بها وردها إليها، يكون التاريخ أهلا لأن نسميه "علما وجزءا من الفلسفة".

ذلك أن "التاريخ" باعتباره علمًا أو فلسفة

تاريخية لا يكفى فيه سرد الحوادث فقط، بل لابد من أن يعنى المؤرخ باستطلاع علل الوقائع وأسبابها، وكشف ما اقترنت به من أسباب وعلل، على أساس بعيد عن التشيع والهوى.

وإن أكبر قواعد "البحث التاريخى" هى أن الحوادث يرتبط بعضها ببعض ارتباط العلة بالمعلول، بمعنى أن الوقائع المتشابهة لابد أن تنشأ عن ظروف متشابهة، أو أنه فى الظروف المتشابهة تحدث وقائع متشابهة.

ويشير ابن خلدون فى مقدمته، إلى أنه إذا سلَّمنا بصحة الرأى القائل بأن طبيعة الناس والجماعات لا تتغير بمرور الزمن، فإن معرفة الحاضر معرفة صحيحة هى خير ما يعين فى الحكم على الماضى، ومن هنا وجب أن نقيس ما يصل إلينا من أخبار الماضى بمقياس الحاضر، فإذا روى لنا التاريخ شيئًا مما يستحيل وقوعه فى الحاضر، فلنا أن نشك فى صحته؛ لأن الماضى أشبه بالحاضر من الماء بالماء.

ويقرر ابن خلدون أن "**موضوع علم التاريخ**" هو الحياة الاجتماعية، وكل ما يعرض لها من ثقافة مادية أو عقلية؛ ذلك أن التاريخ يكشف أعمال الناس، ويبين كيفية تحصيلهم للعيش، ومثار تنازعهم فيما بينهم، وكيف تكونت الجماعات وأصبحت خاضعة لحاكم واحد، وكيف يجد الناس فى حياة التحضر والمدنية مجالا لممارسة الصناعة والعلوم العقلية، وكذلك كيف تنتقل المدنية وتكون أول أمرها وليدة، ثم تزدهر شيئا فشيئا، ثم لا تلبث إلا أن تصير إلى الزوال.

وقدَّم ابن خلدون الحديث عن العمران البدوى لأنه أسبق من الدولة والمُلْك، وأن العمران البدوى انتقل بعد ذلك إلى العمران الحضرى، وهذا بدوره يستتبع التقدم الضرورى لكسب العيش، من صنائع مختلفة، وضروب متعددة، كما يستتبع التقدم الكمالى من علوم وثقافات.

ويمكن القول بأن ابن خلدون، فى منهجه التاريخى قد أتى بعمل لم يسبقه غيره إليه، ويستحق به أن يسمى فيلسوفًا تاريخيا، وباحثًا اجتماعيا مبتكرًا.

ولم يفت ابن خلدون فى تاريخه أن يركز على أن "الإنسان مدنى بطبعه"؛ لأن الله عز وجل خلق الإنسان وفطره على صورة لا تصح حياتها وبقاؤها إلا بالغذاء، ولا يمكن للفرد أن يحقق لنفسه ما هو ضرورى لحياته وبقائه، بل لابد من استعانته ببنى نوعه فى تحصيل قوته؛ إذ لا يصل إليه المطعوم إلا بعد زرع وحصد ودرس وعجن وخبز، وكل هذه الأعمال لا يمكن أن يستقل بها وحده.

كذلك لا يمكنه أن يدفع الأذى عن نفسه، إلا بالاستعانة ببنى نوعه، وأيضًا لا يمكنه أن يحقق لنفسه كمال الحياة، إلا بمعاونة من سبقوه فيه.

وفى مشروعه الفكرى الحضارى يؤكد ابن خلدون على أن الجماعة الإنسانية فى حاجة إلى وازع (أى حاكم) يمنع بعضهم عن بعض، لما فى طبائعهم الحيوانية من العدوان والظلم، وهذا هو معنى "الحكم"، بشرط أن يكون ذلك الوازع أو الحاكم، واحدًا منهم، له الغلبة والسلطان عليهم، فالحكم فى الإنسان طبيعى أيضًا.

ويرى ابن خلدون أن أى دولة فى الدنيا لها عمر طبيعى كالأفراد، وأنه لا يزيد غالبًا على مائة وعشرين سنة، وفى تلك المدة يمر على الدولة ثلاثة أجيال:

جيل البناء والتأسيس، ثم جيل المحافظة على ما بناه الجيل الأول، ثم جيل الترف والنعيم والغفلة عن الحماية والعمل للدفاع عن الدولة إذا اعتدى عليها المعتدون.

وذلك الجيل الأخير يستكثر من الموالى، ويطلب النجدة من الغير عند وقوع العدوان، ويكون هذا إيذانًا بهرم الدولة وشيخوختها وزوالها.

ويقرر ابن خلدون هنا قاعدة مستمدة من وقائع التاريخ، وهى أن الأمم إذا ضعفت استولى عليها غيرها وملكها شعب آخر، وأن هذا المغلوب مولع أبدًا بالاقتداء بالغالب والتشبه به فى شعاره وزيه وسائر أحواله؛ لأن النفس تعتقد الكمال فيمن غلبها فتنقاد له.

لكن يجب أن يُعلم أن هذا لا يظهر إلا فى الأمم الجاهلة والشعوب المتأخرة، أما الأمم المتعلمة فإنها فى مثل تلك الحال لا تنسى مجدها القديم وحضارتها الراسخة.

وكل ما ذكره ابن خلدون بشأن الأمم المغلوبة، إنما هو فلسفة اجتماعية مستقاة من وقائع الأمم وأحداث الزمن، وهو بهذا ينبّه الأمم المغلوبة إلى مصيرها، ويدعوها إلى اليقظة واطّراح الكسل وتجديد الأمل بتذكر الماضى المجيد.

وهكذا جاءت مقدمة كتاب ابن خلدون فى التاريخ تعرض علم الاجتماع فى صورة مبتكرة؛ مما دعا بعضهم إلى ترجمتها إلى كثير من اللغات الأوروبية، وكانت ولاتزال مرجع الباحثين فى علم الاجتماع.

وقد ألّف "ميكافللى" العالم الإيطالى كتابه "الأمير" فى علم الاجتماع ، وهو لا يخرج عما ذكره ابن خلدون فى هذا المجال ، لكنه لم يعتمد فى بحثه على الوحى والنبوات كما فعل ابن خلدون.

ومن مؤلفاتـــه :

١ - **كـتـاب "التـاريخ الكبـيـر" المسـمّى: العبـر، وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العرب والعـجم والبـربـر، ومن عـاصـرهـم من ذوى السلطان الأكبر.** ط بولاق ١٢٧٤هـ.

٢ - **تلخيص كتاب المحصّل** للإمام فخر الدين الرازى.

وقد طُبع بعنوان: **لباب المحصّل فى أصول الدين**، عـام ١٩٥٢م، بتحقيق الأب لوسيانو روبيو، دار الطباعة المغربية، تطوان.

٣ - شروح وتلخيصات **لبعض كتب ابن رشد** الفيلسوف.

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

مراجع للاستزادة:

١ - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مصر.

٢ - د. محمد عابد الجابري: فكر ابن خلدون (العصبية والدولة)، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٥، سنة ١٩٩٢م، بيروت.

٣ - المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: ط بولاق.

٤ - محمد عبد الله عنان: ابن خلدون وتراثه الفكري: ص١٢ مطبعة دار الكتب المصرية، سنة ١٣٥٢هـ = ١٩٣٣م.

٥ - ابن خلدون: لباب المحصّل في أصول الدين١ :٣،٢، تحقيق: الأب لوسيانو روبيو. دار الطباعة المغربية، تطوان، سنة ١٩٥٢م.

٦ - ابن خلدون: كتاب العبر ٧ : ٤٢٤-٤٣٦ بولاق، مصر، سنة ١٢٧٤هـ.

٧ - كتاب العبر ٧ : ٤٥٣-٤٥٤.

٨ - السخاوي: الضوء اللامع .. المجلد الثاني من القسم الثاني ص ٣٧٠هـ.

٩ - عنان: ابن خلدون.. ص ١٠٩ ومابعدها.

١٠ - مقدمة ابن خلدون ١٢٥ - ١٢٨ ، مصر، سنة ١٢٧٤هـ.

١١ - طاهر عبد المجيد: الفلسفة الإسلامية - ٢: ٩٧-١٠٥، مطبعة دار التأليف بمصر، طبعة ١٣٨٩هـ = ١٩٦٩م.

خلف بن هشام البزار الأسدى
(١٥٠ - ٢٢٩هـ = ٧٦٧ - ٨٤٤م)

هو خلف بن هشام بن ثعلب بن خلف بن ثعلب بن هشيم بن ثعلب بن داود بن مقسم ابن غالب، وكنيته أبو محمد، وهو أحد الرواة عن سليم عن حمزة، واختار لنفسه قراءة فكان أحد القراء العشرة.

ولد سنة خمسين ومائة من الهجرة.

مات فى جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين ومائتين من الهجرة.

أخذ القراءة عَرْضًا عن سليم بن عيسى وعبدالرحمن عن حماد بن حمزة، وعن أبى زيد سعيد بن أوس الأنصارى عن المفضل الضبى وأبى يوسف الأعشى، وأبى عمرو عبيد بن عقيل الهلالى، وأبى نصر عبدالوهاب بن عطاء العجلى وأخذ حروف نافع عن أبى إسحاق المسيبى، وحروف عاصم، عن يحيى بن آدم عن أبى بكر، وسمع من الكسائى الحروف ولم يقرأ عليه القرآن بل سمعه يقرأ القرآن إلى خاتمته فضبط ذلك عنه.

وروى القراءة عنه عرضًا وسماعًا أحمد ابن إبراهيم وراقه، وأخوه إسحاق بن إبراهيم، وإدريس بن عبدالكريم الحداد، وأحمد بن زهير، وابراهيم بن على القصار، وأحمد بن يزيد الحلوانى، وسلمة بن عاصم، وعلى بن الحسين بن مسلم ومحمد بن يحيى الكسائى الصغير، ومحمد بن إسحاق شيخ ابن شنبود وغيرهم كثير.

ومن أشهر رواته: إسحاق بن إبراهيم بن عثمان بن عبدالله المروزى البغدادى الوراق.

إدريس بن عبدالكريم الحداد البغدادى وكنيته أبو الحسن. حدَّث عنه مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه، وأحمد بن حنبل، وأبو زرعة الرازى، ومحمد بن ابراهيم ابن أبان السراج، وأبو يعلى الموصلى، وأبو القاسم البغوى، وعدد كثير.

وقد حاز خلف درجة عالية من الشهرة بين القراء فقد أنعم الله عليه بحفظ القرآن وهو ابن عشر سنين، وطلب العلم وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وكان ثقة كبيرًا زاهداً، عابداً وثَّقه أهل الحديث. فقال ابن معين والنسائى ثقة، وقال الدارقطنى كان عابداً فاضلا، وقد

امـتـاز الإمـام خلف بأن جـمـع بين القـراءات ورواية الحديث فكان قارئا محدثاً.

قـال ابن الجـزرى: روينا عنه أنه قـال: أشكل على باب من النحـو فـأنفـقت ثمـانين ألف درهم حتى حفظته، أو قال عرفته.

وقـال الحـسـن بن نهم: مـارأيت أنبل من خلف بن هشـام: كـان عـابداً فـاضـلاً كـان يبـدأ بأهل القـرآن، ثم يأذن للمـحـدثين، وورد أنه كان يصوم الدهر.

أ.د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١ - الجرح والتعديل ٣/٢٣٧٢.

٢ - تاريخ بغداد ٨/٣٢٢.

٣ - وفيات الأعيان ٢/٢٤١.

٤ - تهذيب الكمال ٨/٢٩٩.

٥ - إبراز المعانى ص ٣١، النشر ١/١٦٦.

٦ - تهذيب التهذيب ٣/١٥٦.

٧ - شذرات الذهب ٢/٦٧.

٨ - الأعلام للزركلى جـ ٢/٣١١.

٩ - غاية الاختصار ١/٦٦.

١٠ - معرفة القراء الكبار ١/٢١٠.

١١- غاية النهاية ١/٢٧٢ وغاية الاختصار ١/٦٦.

١٢ - معرفة القراء الكبار ١/٢٠٩، ٢١١.

الخليل بن أحمد الفراهيدى
(١٠٠ - ١٧٠ هـ = ٧١٨ - ٧٨٦ م)

هو الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدى الززدى اليحمدى، أبو عبد الرحمن من أئمة اللغة والأدب.

ولد بالبصرة سنة ١٠٠هـ = ٧١٨م وتوفى سنة ١٧٠هـ = ٧٨٦م. وشب على حب العلم، وتخرج من البصرة، درس الفقه واللغة على أبى أيوب السجستانى، كما تلقى العلم عن عاصم الأحول والعوام بن حوشب، وعن أبى عمرو ابن العلاء وعيسى ابن محمد الثقفى وغيرهم. ثم ساح فى بوادى الجزيرة العربية وشافه الأعراب فى الحجاز ونجد وتهامة إلى أن ملأ جعبته، ثم رجع إلى مسقط رأسه البصرة. واعتكف فى داره دائبا على العلم ليله ونهاره، هائما بلذاته الروحية، فنبغ فى العربية، وبلغ الغاية فى تصحيح القياس واستخراج مسائل النحو.

وقد توفى بعد أن عاش حياة خصبة عريضة، هكذا نبغ هذا الموسوعى العربى الأول فى علوم العربية، وإذ كان أول من وضع الشكل الآن فى ضبط الحروف، وكان سيد أهل الأدب فى تصحيح القياس واستخراج النحو وتعليله، فكان هو المؤسس الحقيقى لعلم النحو المعروف باسم سيبويه الذى اعترف فى أكثر فصول كتابه بأنه تلقاه عنه وتعلمه عليه.

وقد ذهب فى شبابه إلى بلاد الروم مجاهدا للدفاع عن ثغور الإسلام، وأحب علماء العربية والنحو، وأمضى ثلاث سنوات يجلس إليهم فيسمع منهم، ولا يشترك فى الجدل والمناظرة، وعاصر شيخ العربية أبا عمرو بن العلاء وحضر مجلسه. وكان قد مضى على أبى عمرو أكثر من خمسين سنة يدرس اللغة، وقد أغراه بعض أصحابه أن يجادله، وينتصر عليه، فيتحدث عنه الناس ويرتفع اسمه، ولكنه رفض ذلك وآثر أن يظل منه بمنزلة التلميذ مهما بلغ به العلم.

ومن أبرز الأمور التى تحسب للفراهيدى تفتق ذهنه واستنباطه علم العروض الذى استخرج منه خمسة عشر بحرا وزاد عليها الأخفش بحرا سماه الخبب، وعلى إثر ذلك

استطاع ضبط أوزان هذه البحور ووزنها على المقاطع والحركات، مستعينا بالموسيقى التى ألف كتابا فيها على غير معرفة بلغة أجنبية. ومن أطرف ما روى عنه أنه كان يقضى الساعات الطوال ذاهلاً عن نفسه، يرفع أصابعه ويحركها لضبط هذه الأوزان وتنسيقها، وكان له ابن متخلف عقليا، فدخل عليه وهو فى هذه الحال فظنه جن، فخاطبه الخليل بقوله:

«لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى

أو كنت تعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتى فعذلتنى

وعلمت أنك جاهل فعذرتكا»

تدوين معجم العين:

إن الخليل بن أحمد بذهنه المتأهب والمبدع ابتكر طريقة تدوين أول قاموس عربى لضبط اللغة وحصرها، فجمع ما كان معروفا فى أيامه من ألفاظ اللغة وأحكامها وقواعدها، ورتب حروف الهجاء حسب مخارجها على النسق التالى: الأحرف الحلقية وهى: ع ح خ غ، وحرفا اللهاة (وهى اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم) وهما: ق،ك والأحرف الشجرية وهى: ج، ش، ض وسميت بشجرية لخروجها من الشجر أى مخرج الفم. وأحرف الصفير وهى: ز، س، ص، والصفير صوت يخرج من الشفتين. والأحرف النطعية: ت، د، ط لخروجها من النطع (أى موقع اللسان من الحنك) وذلك من بين طرف اللسان وبين أصول الثنايا العليا مصعدا إلى الحنك، والأحرف اللثوية (الصادرة من اللثة) وهى ظ، ذ، ث، والأحرف الذولقية وهى : ر، ل، ن وسميت كذلك لخروجها من ذلق اللسان أى طرفه، والأحرف الشفهية وهى : ف، ب، م، وأخيرا أحرف العلة الثلاثة مضيفا إليها الهمزة، فاستقام له الترتيب التالى : ع، ح، هـ، خ، غ، ق، ك، ج، ش، ض، ز، س، ص، ت، د، ط، ظ، ذ، ث، ر، ل، ن، ف، ب، م، أ، و، ى.

أما ترتيب الحروف على المخارج فلم يعرف فى اليونانية ولا السريانية ولا اللغات التى عرفها الشرق الأدنى قبل الإسلام، إلا أن دائرة المعارف الإسلامية اكتشفت له أصلا فى اللغة السنسكريتية، فهذه اللغة الهندية القديمة كان ترتيب حروفها على هذا النظام، ابتداء من أقصى الحروف مخرجا إلى أدناها وقد اتصل المسلمون بالهنود فى الفتوح، بل اتصل بهم عرب الجاهلية منذ زمن بعيد، لما جاء الكثيرون منهم إلى العراق وعاشوا فيه، فقيل إن الخليل الذى كان مقيما بالبصرة عرف منهم النظام، أى الابتداء بأحرف الحلق والانتهاء بالأحرف الشفوية، فاتبعه فى معجم «العين» واتخذه أساسا له فى ترتيب معجمه

الجديد، وسمى كل حرف من هذه الحروف كتابا، فبدأ المعجم بكتاب العين، فكتاب الهاء إلخ، ونظرا لاشتهاره باسم كتاب "العين" شمل هذا الاسم القاموس كله بأجزائه المختلفة، وفى رواية للأزهرى فى معجمه "التهذيب" نقلا عن الليث بن المظفر ويقال إنه متمم كتاب "العين" بعد الخليل: "لما أراد الخليل الابتداء فى كتاب "العين" أعمل فكره فيه، فلم يمكنه أن يبتدئ من أول أ ب ت ث إلخ لأن الألف حرف معتل، فلما فاته أول الحروف كره أن يجعل الثانى أولا وهو الباء، فتدبر ونظر إلى الحروف كلها وذاقها، فوجد مخرج الكلام كله من الحلق، وكان إذا أراد أن يذوق الحرف فتح فاه بألف أى الحرف الطبيعى فى النطق، ثم أظهر الحرف الذى يريد ذوقه نحو أ ت، أ ح، أ ع، فوجد العين أقصاها فى الحلق وأدخلها، فجعل أول الكتاب "العين" ويقع "معجم العين" فى نحو ٢٥٠٠ صفحة ولم يصل إلينا كله.

وقد تناول عدد من العرب القدامى والمحدثين وبعض المستشرقين معجم "العين" بالدراسة، ووصف جلال الدين السيوطى (١٤٤٥ـ ١٥٠٥ م) القواميس منذ صدور "العين" حتى "القاموس المحيط" وأشار إشارة مختصرة إلى كل قاموس إلا قاموس "العين" فإنه عنى بوصفه وشرحه عناية كبيرة، وعدد الأخطاء التى ارتكبها مؤلفه وخاصة الأخطاء المتعلقة بالتصحيف، وقد نشر المستشرق الألمانى براونلنج (١٨٩٢ـ١٩٤٢م) عام ١٩٢٦م مقالا مستفيضا فى المجلد الثانى من مجلة "إسلاميكا" عن كتاب "العين" تناول فيه حياة الخليل وثقافته وقضية النحو والعروض والموسيقى، مبديا تقديره لما اشتملت عليه مقدمة القاموس من آراء لغوية ونحوية، وكذلك تناول المستشرق الإنجليزى كونكوف (١٨٧٢ـ١٩٥٣م) المعاجم العربية بالبحث، وخاصة معجم "العين" وقد نشر أبحاثه فى المجلة الشرقية النمسوية عام ١٩٣٢م وقد حظى هذا المعجم باهتمام العلامة أنستاس الكرملى، فنشر عام ١٩١٤م جزءا منه بلغ عدد صفحاته ١٤٤ صفحة.

وإذا تناولنا الوجه الآخر لشخصية الخليل نجد أن حياته لم تكن صفوا، كان رقيق الحال يملأ نفسه ورع عجيب، فهو لا يقبل العطاء، ولا يريد أن يكون خادما للملوك والأمراء حتى قالوا: "إنه أقام فى خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال"، وآية خلقه أنه كان يستمع فى حلقات العلم دون أن يشارك فى الجدل. كان الخليل بن أحمد شديد الورع، وعاش زاهدا فقيرا، وكان سليمان بن حبيب والى فارس والأهواز فى

ذلك الحين يدفع له راتبا معينا، فبعث إليه برسول يستدعيه إليه لتعليم ابنه، فرفض ذلك، ثم قدم إليه خبزا يابسا وقال له : «كل فما عندى سواه، وما دمت أجده فلا حاجة إلى سليمان». فقال الرسول: فما أبلغه؟ فقال:

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة
وفى غنى غير أنى لست ذا مال
شحا بنفسى أنى لا أرى أحدا
يموت هزلا ولا يبقى على حال
الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال

فقطع عنه سليمان الراتب، فقال الخليل:

إن الذى شق فمى ضامن
للرزق حتى يتوفانى
حرمتنى خيرا قليلا فما
زادك فى مالك حرمانى

فبلغ ذلك سليمان، فاضطربت نفسه، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه، فأنشد الخليل:

وزلة يكثر الشيطان إن ذكرت
منها التعجب جاءت من سليمانا
لا تعجبن لخير زل عن يده
فالكوكب النحس يسقى الأرض أحيانا

وذكر ابن خلكان فى كتابة "وفيات الأعيان": أن الخليل اجتمع وعبد الله بن المقفع ليلة يتحدثان حتى الفجر، فلما افترقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ فقال : رأيت رجلا علمه أكثر من عقله. وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل ؟ قال رأيت رجلا عقله أكثر من علمه.

ومن دلائل توقد ذهن الخليل وفنون ابتكاره أنه زاد فى الشطرنج قطعة سماها جملا استعملها الناس زمنا، واخترع نوعا من الحساب تمضى به الجارية إلى البائع، فلا يمكنه أن يظلمها، ويقال: إن الخليل كثيرا ما كان ينشد بيتا للأخطل وهو:

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخرا يكون كصالح الأعمال

ثم لم يلبث الخليل أن هتف به هاتف الحج، فسافر إلى مكة، وقصد منها إلى البصرة التى استقبلته مكرمة إياه حيث أقام بقية حياته.

وفى هذه الفترة التقى بتلميذه "سيبويه" الذى كان يكتب كل ما يقال، والذى كثر تردده على مجالس الخليل حتى أحبه، قال له عبارته الخالدة : "مرحبا بزائر لا يمل".

ثم جاء ختام حياته متسقا مع طبيعته العامة الحاذقة المندفعة إلى البحث وإلى تجميع الأصول، ذلك أنه رأى الجارية تخاصم البائع وهى تطالبه بدراهم أخذها منها بمغالطته إياها، فاستخدم الحساب الذى ابتدعه لكى تمضى به الجارية إلى البائع فلا

يمكنه ظلمها، ودخل المسجد وهو يعمل فكره فى ذلك، فاصطدم رأسه بالسارية الضخمة فوقع وأحدث صوتا شديدا وانقلب على ظهره وتدحرج إلى الأرض مضرجا بالدماء.

وكانت هذه نهاية الرأس المفكر الذى أخرج للناس علما وفكرا سيظل أثره باقيا ما بقيت العربية. فلما اجتمع الناس حوله قال لهم عبارته الأخيرة:

"لا تبكوا، فوالله ما فعلت فعلا أخاف على نفسى منه، وما علمت أنى كذبت متعمدا قط، وأرجو أن يغفر لى التأول".

مؤلفاته :

١- معجم العين.
٢- معانى الحروف.
٣- جملة آلات العرب.
٤- تفسير حروف اللغة.
٥- كتاب العروض.
٦- النقط والشكل.
٧- كتاب النغم فى الموسيقى

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١- الفهرست لابن النديم، طبعة فلوجل. ص ٤٤.
٢- المدارس النحوية، للدكتور شوقى ضيف، دار المعارف، مصر. ص ٤٦.
٣- فى أصول النحو، للدكتور سعيد الأفغانى، دمشق. ص ٨٤.
٤- ضحى الإسلام، لأحمد أمين. جـ ٢ ص ٢٧٨.
٥- المعجم العربى نشأته وتطوره، للدكتور حسين نصار، مصر. جـ ١ ص ٢٣٣.
٦- النحو المعقول، للدكتور محمد كامل حسين، مصر. ص ٢٢.
٧- نشوء اللغة العربية ونموها واكتمالها، لأنستاس الكرملى، لبنان. ص ١١٢.
٨- وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. مصر.

خير الدين التونسى
(١٢٢٥ - ١٣٠٨هـ = ١٨١٠ - ١٨٩٠م)

هو خـــيـــر الدين التـــونسى : المفكر.. والسياسى.. ورجل الدولة.

ولد سنة ١٢٢٥ هـ = ١٨١٠م، فى إحـــدى القرى الصغيرة بجبال القوقاز، بقبيلة «أباظة» الشــركســيــة وتوفى سنة ١٣٠٨هـ = ١٨٩٠م، واختطفه تجار الرقيق صغيرا، وجاءت به قافلتهم إلى الأستانة، عاصمة السلطنة العثمانية، حيث بيع كما يباع الرقيق فى سوق النخاسة!.. ثم تناقلته الأيدى، بالبيع والشراء، رقيقا، إلى أن وصل إلى قصر حاكم تونس، الباى، أحمد باشا (١٢٥٢ - ١٢٧٢هـ = ١٨٣٦ - ١٨٥٦م)، فتعلم هناك القراءة والكتابة، وفرائض الدين الإسلامى، وفنون العسكرية، والسياسة، والتاريخ، وأجاد اللغة الفرنسية، إلى جانب العربية والتركية.. وتدرج مترقيًا - لألمعيته ونجابته ومثابرته وذكائه - فى المناصب حتى أصبح «الوزير الأكبر» فى البلاد!

وبفضل إصلاحاته فى تونس أعلن دستور المملكة التونسية سنة ١٢٨٤هـ - ١٨٦٧م.. فلما أبعد عن الوزارة سنة ١٢٩٤هـ - ١٨٧٧م ذهب إلى عاصمة السلطنة، الأستانة، وتولى الصدارة العظمى للسلطان عبد الحميد (١٢٥٨- ١٣٣٦هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م).. فلما أعياه الإصلاح استقال فى العام التالى.. وأصبح عضوا فى مجلس الأعيان، حتى وافته المنية هناك، سنة ١٣٠٨ هـ ـ ١٨٩٠م.

وفى تونس، وأثناء أزمة من أزماته مع الباى محمد الصادق (١٢٧٥- ١٢٩٩هـ = ١٨٥٩ -١٨٨٢م) اعتزل خير الدين جميع مناصبه الحكومية لعدة سنوات (١٢٧٨- ١٢٨٦هـ = ١٨٦٢- ١٨٦٩م) واعتكف فى بستان له ـ كما اعتزل ابن خلدون من قبل فى إحدى قلاع تونس، فكتب المقدمة والتاريخ - اعتزل خير الدين، واعتكف فى بستانه فكتب على غرار ابن خلدون كتابه (أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك) ـ الذى طبع، بتونس للمرة الأولى (١٢٨٤ هـ ١٨٦٨م) .. والذى أودع مقدمته خلاصة آرائه فى التمدن والإصلاح ـ تماما مثلما فعل ابن خلدون فى المقدمة؟!.

ولقد كان خير الدين، بحكم عصره،

وموقعه - بعد رفاعة الطهطاوى (١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م) - أبرز من أطل على الحضارة الغربية، وجاء مشروعه للإصلاح فى ضوء علاقة العالم الإسلامى، يومئذ بها، فلقد كان تجاهل التأثير الأوروبى فى ذلك التاريخ وتلك الملابسات ضرباً من المحال، ففرنسا كانت قد شرعت فى احتلال الجزائر ١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م. وشرعت فى مد نفوذها الاقتصادى إلى تونس، بتقديم القروض، وأخذت تتدخل فى شئونها المالية، تمهيدا للسيطرة، فالاحتلال.

وكان الباى أحمد صاحب محاولات فى الإصلاح، يترسم فيها خطى محمد على باشا الكبير (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) بمصر، فأنشأ فى «باردوا» بفرنسا، سنة ١٢٥٦هـ - ١٨٤٠م «مكتب العلوم الحربية»، ليتعلم فيه الجنود التونسيون علوم الهندسة والمساحة والحساب، وغيرها، وعهد إلى خير الدين بالإشراف على هذا المكتب - (المدرسة) - الذى رأسه المستشرق الإيطالى «كاليفاريس»، وهناك عايش خير الدين الحضارة الأوروبية ولمس تأثيراتها، ولقد اكتملت معرفته بها فى سفارته للباى لدى عديد من ممالك أوروبا، مثل فرنسا والسويد وبروسيا وبلجيكا والدنمارك وهولندا.

ولقد تبلورت دعوة خير الدين إلى إصلاح أحوال المسلمين فى ضرورة الأخذ عن الحضارة الغربية التنظيمات والتجارب والتراتيب الإدارية، وضرورة التجديد والاجتهاد فى الشريعة الإسلامية كى تواكب المصالح المتجددة للمسلمين. فتحدث عن العلاقة بأوروبا قائلاً: «إنه لن يتهيأ لنا أن نميز ما يليق بنا إلا بمعرفة أحوال من ليس من حزبنا!.. فالدنيا بصورة بلدة متحدة، تسكنها أمم متعددة، حاجة بعضهم لبعض متأكدة!..». أما هذا الرأى الذى رآه لائقا بالمسلمين، لينهضوا به، من ثمرات الحضارة الغربية.. فإن فى مقدمته:

١ - التنظيمات السياسية : التى هى، فى الحقيقة، السبب فى تقدم الأوروبيين فى المعارف. وهذه التنظيمات لابد أن تكون مؤسسة على العدل والحرية، ولذلك، أدان التونسى الاستبداد بالسلطة، وحكم الفرد، ودعا إلى إحياء هيئة «أهل الحل والعقد» الإسلامية، وزكى - فى مذكراته - تكوين المجالس النيابية بالانتخاب العام، وألح على ضرورة تقييد جهاز الدولة بالقوانين، سواء منها تلك التى تنظم علاقة الرعية بالدولة، أو العلاقة بين المواطنين. وطالب بأن تكون مباشرة الحكم التنفيذى من اختصاص الوزراء، لا الحاكم الأعلى، وأن يكون الوزراء مسئولين أمام وكلاء الأمة ونوابها المنتخبين -

وقال: «إن أوروبا إذا كانت قد صنعت وأقامت هذه التنظيمات السياسية انطلاقا من القوانين العقلية الطبيعية، غير الإلهية، فإن المسلمين أولى من الأوربيين بذلك، لأن هذه التنظيمات مما يحقق غاية الشريعة الإسلامية ومقاصدها».

٢ - الحرية السياسية : والغاية من التنظيمات السياسية ، عند خير الدين التونسى، هى تحقيق العمران للبلاد، وأساس هذا العمران هو العدل، أى الحرية السياسية للمواطنين. كما أن اتساع نطاق المعارف فى المجتمع إنما يرجع كذلك إلى اتساع نطاق الحرية، وإذا كانت الحرية الشخصية ضرورية، ليتصرف الإنسان فى ذاته وكسبه وهو آمن على نفسه وعرضه وماله، مطمئن إلى تساويه مع أبناء جنسه؛ فإن الحرية السياسية أدخل فى الضرورة واللزوم، لأنها هى التى تحقق اشتراك الرعية فى توجيه سياسة الدولة، كى تأتى على وفق المصلحة العامة للمجموع. ويدخل فى الحرية السياسية: حرية نشر الأفكار، التى يسميها التونسى: «حرية المطبعة!»، حيث لا يمنع الإنسان من أن يكتب ويذيع ما يعتقده صوابا ومصلحة، أو يعرض ذلك على أجهزة الدولة ومجالسها حتى ولو تضمن ذلك الاعتراض على مناهجها.

٣ - الحرية الاقتصادية : فلقد ارتبطت فى فكر خير الدين الحرية السياسية بالحرية الاقتصادية، كما ارتبط نمو المعارف بنمو الصنائع، الأمر الذى يثمر زيادة الأنشطة الحرة فى الميادين الاقتصادية، فالرخاء لا يتحقق بالخصوبة وتوافر الإمكانات المادية وحدها، وإنما بالحرية الاقتصادية التى تجعل أرباب النشاط الاقتصادى والاستثمار المالى آمنين على ثرواتهم وأموالهم.

٤ - التقدم فى المعارف والعلوم : فلقد أراد خير الدين التونسى لدعوة الحرية التى بشر بها أن تكون متكاملة، فأكد على أن نمو المعارف والعلوم إنما هو ثمرة طبيعية للحرية السياسية، التى تنمى حرية الفكر، وللحرية الاقتصادية، التى تفتق طاقات الإبداع بإبرازها الضرورات والاحتياجات. وأن جميع ألوان الحرية هذه مؤسسة على وجود التنظيمات..

وإذا كان هذا هو موقفه من الثمرات الحضارية لأوروبا الناهضة، فلقد اختلف موقفه من «أوروبا الاستعمار»، فكان داعية إلى اليقظة لأطماع الدول الأوروبية فى أقاليم البلاد الإسلامية، وإلى الحذر من الشراك التى ينصبونها كى نقع فيها، فدعا إلى رفض الاقتراض من الأجانب، وإلى أن تتجه الحكومة إلى الاقتراض الداخلى، حتى ولو

زاد سعر «الفائدة»، لأن الممولين الوطنيين لن يمثلوا خطرا استعماريا خارجيا، كما أن أرباحهم لن تغادر السوق الوطنى الداخلى. ومن كلماته فى هذا الموضوع: «إن من الأفضل أن ندفع غاليا ثمن اقتراض نقترضه فى بلدنا، ونحافظ بذلك على حريتنا، من أن نربح بعض الفوائد المادية على حساب استقلالنا».

٥ - التصدى للجمود : وكان طموح خير الدين التونسى أن ينهض فقهاء الإسلام بالاجتهاد والتجديد، حتى تستطيع الشريعة الإسلامية أن تقدم الحلول للمشكلات الجديدة، فلا يضطر المصلحون إلى الأخذ عن أوروبا غير التنظيمات. كان يريد «المحتوى الإسلامى» لهذه الأوعية الأوروبية، ولذلك كان له جهاد على هذه الجبهة كبير.

لقد ساءه أن يكون على الأمة جهلاء بأمراضها، وبأدوية هذه الأمراض، وأن يضيق الكثيرون منهم نطاق السياسة الشرعية، فلا يرونها شرعية إلا إذا كانت لها نصوص فى الكتاب والسنة، فكتب ليذكرهم بمناهج العلماء السابقين الذين وسعوا هذا النطاق، لتصبح السياسة الشرعية هى كل ما لا يخالف الكتاب والسنة وليس، فقط، ما له نص فى الكتاب والسنة.

لقد كانت عينه، فى النهضة الأوروبية، على الأوعية والأدوات، وفى مقدمتها التنظيمات السياسية، وعينه على التراث الإسلامى، ليستجيب، بالاجتهاد والتجديد إلى احتياجات العصر ومتطلبات مشكلاته، فيقدم المضامين والحلول، التى تتخذ من التنظيمات أدوات للحركة والنهضة والإحياء، وفى ذلك يقول: «إن الأمة الإسلامية تقتدر أن تكتسب، بما بقى لها من تمدنها الأصلى، وبعاداتها التى لم تزل مأثورة عن أسلافها، ما يستقيم به حالها، ويتسع به فى التمدن مجالها، ويكون سيرها فى ذلك المجال أسرع من غيرها كائنا من كان، إذا أزكيت حريتها الكامنة بتنظيمات مضبوطة تسهل لها التدخل فى أمور السياسة».

فالعناصر الأصيلة فى التمدن الأصلى، والحرية الكامنة التى أقرتها وقررتها الشريعة الإسلامية، مع التنظيمات التى لابد من أخذها عن أوروبا كفيلة بجعل هذه الأمة تخطو على درب النهضة بأسرع مما صنع ويصنع الآخرون.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١- أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك، لخير الدين التونسى، المقدمة، دراسة وتحقيق دكتور منصف الشنوفى، طبعة تونس سنة ١٩٧٢م.

٢- مسلمون ثوار، للدكتور محمد عمارة، طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

الدارقطني
(٣٠٦ - ٣٨٥ هـ = ٩١٩ - ٩٩٥م)

هو الإمام الحافظ الكبير على بن عمر ابن أحمد بن مهدى بن مسعود البندارى الدارقطنى.

ولد ببغداد سنة ٣٠٦هـ = ٩١٩م، وتوفى فى ذى القعدة سنة ٣٨٥هـ = ٩٩٥، ودفن من الغد بمقبرة معروف الكرخى ببغداد.

نشأ الدارقطنى ببغداد، بلد الخلافة والعلم والحضارة، ومحط ارتحال العلماء من كل قطر ومصر، فشرب من معينهم عَلَلاً بعد نَهَل حتى ارتوى وكرع، ولكنه لم يكتف بهذا فارتحل إلى البصرة، والكوفة وواسط، كما ارتحل فى كهولته إلى الشام ومصر، فأكرمه الوزير أبو الفضل جعفر بن الفضل المعروف بابن حِنْزَابه وزير كافور الأخشيدى، وكان أبو الفضل عازما على تأليف مسند؛ لأنه كان من علماء الحديث بمصر، فساعده هو والحافظ عبد الغنى بن سعيد على إكمال مسنده، وقد أقام عنده مدة بالغ فى إكرامه فيها، وحصل للدارقطنى منه مال جزيل.

وللدارقطنى شيوخ كثيرون من أعيانهم المحاملى وابن أبى داود، وابن صاعد، والحضرمى، وابن دريد، ومحمد بن القاسم المحاربى، وأبو عمر القاضى، وابن زياد النيسابورى، وأحمد بن القاسم الفرائضى.

وقد روى عنه كثيرون من أشهرهم الحاكم أبو عبد الله، وأبو حامد الإسفراينى، وتمام الرازى، والحافظ عبد الغنى الأزدى، وأبو ذر الهروى، وأبو نعيم الأصبهانى، وأبو محمد الخلال، والقاضى أبو الطيب الطبرى، وكلهم كما ترى أئمة أجلاء.

كان الدارقطنى من أئمة الحديث وجهابذته الكبار، وكان فريد عصره، ونسيج وحده، وإمام دهره، فى أسماء الرجال، وصناعة التعليل، والجرح والتعديل، وحسن التصنيف والتأليف، واتساع الرواية، والاطلاع التام فى الدراية.

وكان من صغره موصوفًا بالحفظ الباهر، والفهم الثاقب، جلس مرة فى درس الحافظ إسماعيل الصفار، وهو يملى على الناس الأحاديث، والدارقطنى ينسخ فى جزء حديث، فقال بعض الحاضرين: لا يصح سماعك وأنت تكتب، فقال الدارقطنى: فهمى للإملاء أحسن من فهمى، وأحضر، فقال له هذا الرجل: أتحفظ كم أملى الشيخ؟

فقال: إنه أملى ثمانية عشر حديثًا إلى الآن، ثم ساقها كلها بأسانيدها وألفاظها، لم يسقط منها شيئًا، فتعجب الحاضرون منه.

وكان إلى علمه بالحديث وعلله عالمًا بالفقه، ومذاهب العلماء، وقد درس الفقه على أبى سعيد الإصطخرى، وعليه تخرج، كما كان عالمًا بالقراءات، وقد أخذها عن ابن مجاهد شيخ القراء، وقرأ القرآن على النقاش، وأحمد ابن محمد الديباجى، وعلى بن داويه القزاز، فلا عجب أن صار إمامًا فى القراءات، وتصدر فى آخر أيامه للإقراء.

كما كان عالمًا بالنحو والشعر والأدب، فقد قيل إنه كان كان يحفظ دواوين جماعة من الشعراء، ومنها ديوان السيد الحميرى، ولهذا نسب إلى التشيع، وما أبعده - كما قال الذهبى - من التشيع. وليس أدل على نفى التشيع عنه من أنه لما سئل عن التفضيل بين على وعثمان - رضى الله عنهما - أمسك عن الكلام، وقال: الإمساك خير، ثم لم يرض لنفسه السكوت وقال: عثمان أفضل لاتفاق جماعة أصحاب النبى ﷺ على هذا.

وهكذا نجد أن هذا الإمام قد برز فى علوم كثيرة، وقد كان يعلم ذلك من نفسه فقد سئل: هل رأيت مثل نفسك؟ فقال: أما فى فن واحد فربما رأيت من هو أفضل منى، وأما فيما اجتمع لى من الفنون فلا.

وقد أثنى عليه كثير من العلماء، قال الحاكم: «صار الدارقطنى أوحد عصره فى الحفظ والفهم، والورع، وإماما فى القرّاء والنحويين، وأقمت فى بغداد أربعة أشهر، وكثر اجتماعنا، فصادفته فوق ما وصف لى، وسألته عن العلل والشيوخ، وله مصنفات يطول ذكرها، فأشهد أنه لم يخلف على أديم الأرض مثله».

وقال أبو الطيب الطبرى: «الدارقطنى أمير المؤمنين فى الحديث».

وقال الخطيب البغدادى: «كان فريد عصره، وإمام وقته، وانتهى إليه علم الأثر والمعرفة بالعلل وأسماء الرجال مع الصدق والثقة، وصحة الاعتقاد، والأخذ من العلوم كالقراءات، فإن له فيه مصنفًا سبق فيه إلى عقد الأبواب قبل فهرس الحروف، وتأسى القراء به بعده».

وللدارقطنى مؤلفات كثيرة، منها:

١ - كتاب العلل، وهو كتاب جليل قال فيه الذهبى: «إذا شئت أن تتبين براعة هذا الإمام فطالع العلل له، فإنك تندهش ويطول تعجبك».

٢ - الاستدراكات ذكر فيه ما رأى أنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وهو مطبوع.

٣ - التتبع، ذكر فيه الأحاديث المنتقدة على الصحيحين، وقد طبع أكثره فى أحد عشر مجلداً.

٤ - كتاب الأفراد.



٥ – كتاب «القراءات».

٦ – كتاب «السنن» ، وسنخصه بالكلام.

٧ – المختلف والمؤتلف وهو مطبوع محققا فى خمسة مجلدات.

وكتاب السنن للدارقطنى، هو كتاب ألفه على الأبواب الفقهية، فهو يعتبر نموذجًا للكتب التى ألفت على الأبواب فى القرن الرابع ، جمع فيه بين الصحيح والحسن والضعيف ، بل والموضوع على ندرة، ومن هذه الموضوعات ما نبه عليه الدارقطنى، ومنها ما لم ينبه عليها، فمن أمثلة الأول: ما رواه بسنده عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «**من اشترى شيئا لم يره فهو بالخيار إذا رآه**». قال الدارقطنى : عمر بن إبراهيم - يعنى أحد رواته - يضع الأحاديث ، وهذا باطل لم يروه غيره، وإنما يصح عن ابن سيرين من قوله.

وأما ما لم ينبه على وضعه فمن أمثلته: حديث علىّ وعمار فى الجهر بالتسمية وهو : «أن النبى ﷺ كان يجهر فى المكتوبات ببسم الله الرحمن الرحيم» وحديث علىّ قال : قال النبى ﷺ : «**كيف تقرأ إذا قمت إلى الصلاة؟**». قال: قلت: الحمد لله رب العالمين فقال - قل: «**بسم الله...**» وفى السندين عمرو ابن شمر، وجابر الجعفى لا يحل الاحتجاج بهما، ومثل حديث: «تعاد الصلاة من قدر الدرهم من الدم»، فهو موضوع، وقد ذكره ابن الجوزى فى موضوعاته.

والإمام الدارقطنى كان أعلم أهل زمانه بالعلل، ونقد الأحاديث، ومعرفة الرجال، وإن الباحث ليعجب كيف يروى فى سننه مثل هذا ولا ينبه عليه كالحديث الأخير؟! ويمكن أن يعتذر عن الدارقطنى، بأن أكثر المحدثين فى الأعصار الماضية من سنة مائتين وما بعدها ولا سيما الطبرانى، وأبا نعيم ، وابن منده، كانوا إذا ساقوا الحديث بإسناده، اعتقدوا أنهم برئوا من عهدته ، ويرون إبراز السند من البيان، فمن ثم لم ينبهوا على وضعها.

وقد شرح السنن، العلامة الشيخ شمس الحق أبو الطيب محمد بن أحمد الآبادى، وقد طبعت مع الشرح فى الهند.

أ.د. أحمد عمر هاشم

مراجع للاستزادة :

١- مقدمة سنن الدارقطنى.
٢- تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى.
٣- سير أعلام النبلاء، للذهبى.
٤ – ألفية العراقى بشرح السخاوى، ص ١٠٦.
٥ – سنن الدارقطنى وشرحها، ص ١١٤.

الدارمي
(١٨١ - ٢٥٥ هـ = ٧٩٧ - ٨٦٩ م)

هو الإمام عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد التميمى، أبو محمد السمرقندى الحافظ الدارمى.

ولد سنة ١٨١هـ الموافق ٧٩٧م، وقد عاش أربعا وسبعين سنة، حفلت بعظائم الأمور، وبالأعمال العلمية المباركة، وتوفى بعد عصر يوم التروية الثامن من ذى الحجة سنة خمس وخمسين ومائتين (٢٥٥هـ)، ودفن فى اليوم الثانى يوم عرفة فى بلدة «مرو».

عرف منذ نشأته بالثقة والصدق والورع والذكاء، كما كان يضرب به المثل فى الديانة والعلم والاجتهاد والعبادة، قال فيه أبو حاتم: «ثقة صدوق وعرف بالزهد»، قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: «عرضت عليه الدنيا فلم يقبل».

ذكره الحافظ الذهبى فى «تذكرة الحفاظ» من الطبقة التاسعة التى ذكر فيها الأئمة، وهم: الذهلى، ومحمد بن مسلم، وعبد الرحمن بن حميد، والبخارى، وأبو زرعة، وأبو حاتم، ويعقوب بن شيبة، ومسلم، وأبو داود، وغيرهم. وقد برع الإمام الدارمى فى علم الحديث حتى بزَّ أقرانه، وألَّف «التفسير» و«الجامع» و«المسند» وهو المسمى بالسنن. وكان أحد الحفاظ الرحَّالين الذين شهد لهم العلماء بالحفظ والإتقان والدفاع عن السنة النبوية. قال فيه محمد بن إبراهيم ابن منصور الشيرازى: «كان على غاية من العقل والديانة، ممن يضرب به المثل فى الحكم والدراية والحفظ والعبادة والزهد، أظهر علم الحديث والآثار بسمرقند، وذب عنها الكذب، وكان مفسرًا كاملاً وفقيهًا عالمًا».

سمع الدارمى: النضر بن شميل، ويزيد بن هارون، وسعيد بن عامر الضبعى، وجعفر بن عون، ويحيى بن حسان، وأبا نعيم، ووهب بن جرير وطبقتهم بالحرمين وخراسان والشام والعراق ومصر.

ومن تلاميذه الذين رووا عنه: مسلم، وأبو

داود، والترمذى، والبخارى فى غير الجامع، ومطين، وجعفر الفريابى، وعبد الله بن أحمد ابن حنبل، وعيسى بن عمر العباس السمرقندى وآخرون.

وقال أبو حاتم الرازى : «محمد بن إسماعيل أعلم من دخل العراق، ومحمد بن يحيى أعلم من بخراسان اليوم، ومحمد بن أسلم أورعهم، وعبد الله بن عبد الرحمن أثبتهم». فهو إمام حافظ متثبت بشهادة كبار الأئمة.

ومن أعمال الدارمى العلمية ومصنفاته النفيسة كتابه «السنن».

سنن الدارمى :

وكتاب «السنن» للدارمى كتاب جليل القدر، وله وزنه العلمى بين كتب الحديث المدونة فى القرن الثالث الهجرى. وقد عده ابن الصلاح فى المسانيد، وانتُقد فى ذلك لأنه مرتب على الأبواب لا على المسانيد، وإنما أطلق عليه بعض العلماء اسم (المسند) لكون أحاديثه مسندة كما سمى الإمام البخارى كتابه: (المسند الجامع) فتسميتها بالمسند فيه تجوز، ويرى ابن حجر أن سنن الدارمى ليس دون السنن فى المرتبة، بل لو ضم إلى الخمسة لكان أولى من سنن ابن ماجه، فإنه أمثل منه بكثير. بل إن بعض المحدثين سماه (الصحيح) وهى تسمية فيها تجوُّز أيضا.

وفى سنن الدارمى كثير من الصحيح اتفق عليه الشيخان، أو البخارى، أو مسلم أو على شرطهما أو شرط أحدهما.

وفيه كثير من الأحاديث الحسنة، وتوجد فيه بعض الأحاديث المنكرة أو الشاذة، وهى نادرة جدا، وكذا الأحاديث المرسلة والموقوفة، ولكنها تقوى أحيانًا أيضا لمجيئها من طرق أخرى تعضدها.

وكتاب السنن للدارمى يعتبر من كتب السنة القيمة، اشتمل على الأحاديث الصحيحة الكثيرة، وهو مرتب على الأبواب وهذا الكتاب يعتبر من أهم أعمال الدارمى فى مجال السنة النبوية مما يشهد له بالفضل.

قال أبو حامد الشرقى: «إنما خرجت خراسان من أئمة الحديث خمسة رجال: محمد بن يحيى، ومحمد بن إسماعيل، وعبد الله بن عبد الرحمن، ومسلم بن الحجاج، وإبراهيم بن أبى طالب».

أ.د.أحمد عمر هاشم

مراجع للاستزادة:

١ - تهذيب التهذيب ٥/٢٩٥.
٢ - مقدمة ابن الصلاح ص ١٥.
٣ - الكمال في أسماء الرجال. مخطوط.
٤ - تذكرة الحفاظ للذهبي ٢/٥٣٥.
٥ - مقدمة تحفة الأحوذي ١/٤٥٩، ٤٦٠.
٦ - سنن الدارمي ٢ / ٣٠٨ بتحقيق السيد عبد الله هاشم يماني.

داود الأصبهانى «الظاهرى»
(٢٠١ - ٢٧٠ هـ = ٨١٦ - ٨٨٤ م)

هو داود بن على بن داود بن خلف الأصبهانى، المكنى بأبى سليمان، ونسبته إلى أصبهان - بفتح الهمزة أو كسرها - بلدة عظيمة من بلاد فارس. وأصله من قاشان المجاورة لها.

ولد بالكوفة سنة ٢٠١هـ الموافق ٨١٦م، توفى ببغداد سنة ٢٧٠هـ الموافق ٨٨٤م. ودفن بمنزله. وقيل بمقبرة الشونيزية - بالضم ثم السكون، ثم نون مكسورة، وياء مثناة من تحت ساكنة. وزاى، وآخره ياء النسبة، ثم تاء مربوطة - وهى بالجانب الغربى من بغداد. وبها دفن كثير من الصالحين، منهم الجنيد، وجعفر الخُلْدى، وَرُوَيْم.

ورحل إلى نيسابور فى طلب العلم، فأخذه عن إسحاق ابن راهويه، وأبى ثور. وأخذ أيضا عن سليمان بن حرب، وعمرو بن مرزوق، وعبد الله بن سلمة القعنبى، ومحمد ابن كثير العبدى، ومسدد بن مسرهد.

سكن بغداد وانتهت إليه رياسة العلم فيها. وكان يحضر دروسه أربعمائة صاحب طيلسان أخضر. وكان متعصبا للشافعى فى أول أمره، وألف فى مناقبه كتابين، وكان ورعا زاهدا دينا صالحا متقشفا.

قال المحاملى: صليت عيد الفطر فى جامع المدينة. ثم دخلت على داود أهنئه بالعيد، فوجدته يأكل أكلا متواضعاً جدا. فخرجت من عنده، وعزمت على تقديم معونة له، فذهبت إلى الجرجانى، لعلمى أنه من محبى الصنيعة. فخرج إلىَّ وسألنى عن مطلبى، فقلت له: إن فى جوارك داود بن على، ومكانه من العلم ما تعلمه. وأنت كثير الصلة والرغبة فى الخير، تغفل عنه؟ وحدثته بما رأيت. فأعلمنى بأنه قدم لداود المعونة المالية. فلم يقبلها. وأعطانى ألفى درهم لأقدمها له، فذهبت إليه فرفضها بإباء وشمم، وأنكر علىَّ ما فعلت.

أما عن مذهبه واتجاهاته فقد كان داود زعيم أهل الظاهر؛ وخلاصة مذهبهم: الأخذ بظاهر نصوص الكتاب والسنة، ورفض التأويل والقياس والرأى، وكان مذهبه مخالفا لمذاهب الأئمة الأربعة فى بعض الأحكام.

وكان ذلك الخلاف نتيجة للقواعد الأصولية التى يستند إليها فى استنباطه للأحكام.

فمن ذلك قوله بتحريم الشرب فى آنية الذهب والفضة مع إباحة استعمالها فى الأكل والوضوء وغير ذلك، متمسكا بظاهر قوله عليه الصلاة والسلام: «**الذى يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم**».

ومنها: أنه لو بال فى إناء، ثم طرحه فى ماء دائم، ثم اغتسل فيه فلا بأس عليه. متمسكا بظاهر قوله ﷺ: «**لا يبولن أحدكم فى الماء الدائم ثم يغتسل فيه**».

وأمثال ذلك كثير.

أخذ عنه ابنه: أبو بكر محمد، وزكريا بن يحيى الساجى، ويوسف بن يعقوب بن مهران الداودى، والعباس بن أحمد المذكر، وغيرهم.

أما عن مؤلفاته فقد ألف فى الأصول كتاب إبطال القياس، وكتاب خبر الواحد، وكتاب الخبر الموجب للعلم، وكتاب الحجة، وكتاب الخصوص، والعموم، وكتاب المفسر والمجمل.

وله كتب كثيرة فى أبواب الفقه، وفتاوى فى مسائل كثيرة، كانت ترد عليه. وألف كتاب الكافى فى مقالة المطلبى، يعنى به محمد بن إدريس الشافعى.

وقد ظل مذهب داود منتشرا قويا إلى القرن الخامس تقريبا، وألفت كتب فى الفقه والأصول لمناصرة هذا المذهب، ثم قل أتباعه وترك مذهبه أو كاد، لأنه لم يكن له حزب سياسى ينتصر له كما كان لغيره.

وقد قام ابن حزم بنصر مذهب داود فى الأندلس قيامًا عظيمًا، وألَّف فيه كتاب «المحلى»، وهو من أعظم ما أُلف فى الأصول الإسلامية.

أ. د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة :

١- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ج ٨ ص ٢٦٩ وما بعدها .
٢- وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢١٩ ج ١ .
٣- الفهرست لابن النديم ص ٣٠٢ .
٤- معجم الأدباء ياقوت الحموى ٢/٥٣ .
٥- الأعلام للزركلى جـ ٢/٣٣٣ .

داود الأنطاكى
(٠٠٠ - ١٠٠٨هـ = ٠٠٠ - ١٦٠٠م)

هو داود بن عمر الأنطاكى، عالم بالطب والأدب.

ولد فى «أنطاكية» شمال غربى سوريا، وإليها نُسب، قرأ كثيرًا من العلوم كالمنطق والطبيعيات والرياضيات المعروفة فى زمانه، لكنه نبغ فى الطب والصيدلة، ورحل إلى بلاد الروم فى الأناضول وبيزنطة، وأتقن خلال سنوات اغترابه اللغات اليونانية واللاتينية فى البيمارستان المنصورى على كتب الطب العربية، ودرس فى علم الدواء (الصيدلة) عن الأدوية المفردة والمركبة والنباتية والحيوانية والمعدنية، وعرف أسماءها التى يتعامل بها أطباء مصر ومصادرها وقواها وأهميتها فى علاج الأمراض، وأضاف الكثير إلى ما عرفه وهو بالشام وتركيا، وذاعت شهرته فى البيمارستان المنصورى بالقاهرة وضواحيها كطبيب معالج للفقراء والأغنياء فى حىّ الأزهر، فعُين رئيسا للعشابين (الصيادلة) فى البيمارستان، ومن بعده رئيسا عامًا له.

توفى داود الأنطاكى عام ١٠٠٨هـ الموافق ١٦٠٠م.

أشهر التصانيف التى تركها داود الأنطاكى كتاب «تذكرة أولى الألباب والجامع للعجب العجاب»، نسخه الوراقون وتخاطفته أيدى العامة والخاصة، وسرعان ما نسى الجميع اسم الكتاب الأصلى، وصار معروفا بينهم باسم «تذكرة داود»، كما نسوا كتابا آخر له هو «البهجة والدرر المنتخبة فى تشحيذ الأذهان وتعديل الأمزجة»، ورسائل (كتيبات) عن حجر الفلاسفة وعن إدخال أحكام النجوم فى علم الطب.

وتم ترجمة «تذكرة داود» إلى عديد من لغات العالم، وظلت مرجعًا فى التداوى من الأمراض عددا من القرون فى مدارس ومعاهد وكليات الطب فى أوروبا والعالم الإسلامى.

والتذكرة كتاب علمى قيم يقع فى نحو سبعمائة صفحة من القطع الكبير، حوى الكثير من المعارف عن العديد من النباتات الطبية والعقاقير، جمع فيه صاحبه خلاصة ما وصلت إليه المعارف الطبية حتى سنة

٩٧٦هـ، كما ذكر فى مقدمة كتابه، ورتب مادته العلمية ترتيبا منهجيا موزعًا على مقدمة وأبواب أربعة وخاتمة. خص المقدمة بتعداد العلوم المذكورة فى الكتاب وحال الطب معها، ومكانته وما ينبغى له ولمتعاطيه، وما يتعلق بذلك من الفوائد. وتكلم فى الباب الأول عن كليات هذا العلم والمدخل إليه، وأفرد الباب الثانى لقوانين الإفراد والتركيب وأعمال السحق والقلى والغسل والجمع والإفراد والمراتب، وأوصاف المقطع والمليّن والمفتح، إلى غير ذلك. وتكلم فى الباب الثالث عن المفردات والمركبات وما يتعلق بها من اسم وماهية ومرتبة ونفع وضرر وقدْر وبدل وإصلاح، مرتبا على حروف المعجم. وتكلم فى الباب الرابع عن الأمراض وما يخصها من العلاج. والخاتمة جعلها فى سرد بعض الغرائب واللطائف والعجائب.

والتتابع المنطقى فى تبويب الكتاب يعكس منهجية المؤلف وقدرته وصفاء ذهنه، وهو يقرر فى أمانة علمية ما لجأ إليه من مصادر لتذكرته، مستعرضا تاريخ الكتابة فى الأدوية المفردة والمركبة، وموجها النقد لبعض المؤلفين موضحا بعض المثالب، فهو يقول: «وكل من هؤلاء - يقصد من ألف فى المفردات والمركبات الدوائية - لم يخل كتابه، مع ما فيه من الفوائد، عن إخلال بالجليل من المقاصد، إما ببدل أو إصلاح أو تقدير، أو إطلاق للمنفعة وشرطها التقييد..». ووضع الأنطاكى قوانين لوصف العقاقير والأدوية تمثل الدقة المتناهية فى المعرفة بهذه العقاقير، وتفهُّم أصول العمل بها والاستفادة منها. فهو يقول - موضحا منهجه - عن المفردات الطبية: «اعلمْ أن كل واحد من هذه المفردات يفتقر إلى قوانين عشرة هى ما ينبغى من بيانات تُذكر مع كل مفرد من المفردات الطبية، وهى كما يلى:

١ - ذكر أسمائه بالألسن المختلفة ليعم نفعه.

٢ - ذكر ماهيته من لون وطعم ورائحة وتلزج وخشونة وملاسة وطول وقصر.

٣ - ذكر جيده ورديئه ليؤخذ أو يجتنب.

٤ - ذكر درجته فى الكيفيات الأربعة، ليتبين الدخول به فى التراكيب.

٥ - ذكر منافعه فى سائر أعضاء البدن.

٦ - كيفية التصرف به متفرّدًا أو مع غيره، مغسولاً أو لا، مسحوقا فى الغاية أو لا، إلى غير ذلك.

٧ - ذكر مضاره.

٨ - ذكر ما يصلحه.

٩ - ذكر المقدار المأخوذ منه متفرِّدًا أو مركبا، مطبوخا أو منشفاً، بجرمه أو بعصارته، أوراقاً أو أصولاً، إلى غير ذلك.

١٠. ذكر ما يقوم مقامه إذا فقد. وأضاف الأنطاكى أن بعضهم زاد أمرين آخرين: الأول الزمان الذى يقطع فيه الدواء ويدخر، والثانى من أين يجلب الدواء.

ومما لا شك فيه أن أى كتاب عن النباتات الطبية يلتزم مؤلفه فيه بهذه القواعد سيكون موسوعة علمية قيمة.

أ. د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة :

١ . د. صبرى الدمرداش، قطوف من سير العلماء، مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، سلسلة الثقافة العلمية، الكويت ١٩٩٧م.

٢ . د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه، دار المعارف القاهرة ١٩٨٠م.

أبو داود السجستانى
(٢٠٢ - ٢٧٥هـ = ٨١٧ - ٨٨٩م)

هو الإمام أبو داود: سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو بن عمران الأزدى السجستانى، والأزدى نسبة إلى الأزد قبيلة باليمن، والسجستانى نسبة إلى سجستان، وهى مدينة بخراسان.

ولد سنة ٢٠٢هـ = ٨١٧م، ونشأ على محبة العلم وملازمة أهله، وتوفى عام ٢٧٥هـ - ٨٨٩م.

أخذ نفسه بالورع والعبادة حتى كان فى الدرجة العالية من النسك والصلاح وحظى تاريخ هذا الإمام بالثناء العاطر من العلماء والتقدير الكامل لما كان عليه من الورع والتقوى والحفظ التام والفهم الثاقب فى الحديث وغيره.

عاش أبو داود حياة خصبة، لازم فيها مجالس العلم فى بلده، وشمَّر عن ساعد الجد فى تدوين الكثير، ولكن نفسه التواقة للعلم المحبة للمعرفة تجعله يشد رحاله فى سبيل العلم، فطوَّف بكثير من البلاد، وأخذ عن علماء الحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان، وقد مكنته رحلاته العلمية من لقاء كثير من شيوخ الأمصار التى كانت تموج بالعلم والعلماء.

أما شيوخ أبى داود الذين روى عنهم ونهل من منبعهم فهم كثيرون، منهم من شارك البخارى ومسلما فيهما كأحمد بن حنبل وعثمان بن أبى شيبة وقتيبة بن سعيد، ومنهم كذلك عبد الله بن مسلمة القعنبى، وموسى بن إسماعيل ومسلم، بن إبراهيم، وأبو الوليد الطيالسى، وأحمد بن يونس، وقتيبة بن سعيد وعثمان بن أبى شيبة، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن أبى شعيب، ويزيد بن عبد ربه وغيرهم.

وأما تلاميذه: فكثيرون منهم الترمذى، والنسائى، وأبو عوانة، وابنه أبو بكر بن أبى داود، وأبو على اللؤلؤى، وأبو بكر بن داسة وهما اللذان يرويان عنه كتاب «السنن».

وقد اتسمت حياة أبى داود العلمية بالعزة، والنظرة إلى مساواة الناس أمام العلم لا تمييز بينهم ولا طبقية فيهم، قال أبو سليمان:

حدثنى عبد الله بن محمد السبكى قال: حدثنى أبو بكر بن جابر خادم أبى داود قال: (كنت معه فى بغداد فصلينا المغرب، إذ قرع الباب ففتحته، فإذا خادم يقول: هذا الأمير أبو أحمد الموفق يستأذن. فدخلت إلى أبى داود فأخبرته بمكانه، فأذن له فدخل وقعد، ثم أقبل عليه أبو داود وقال: ما جاء بالأمير فى مثل هذا الوقت؟ قال: خلال ثلاث، قال: وما هى؟ قال: الأرض، قال: هذه واحدة، هات الثانية، قال: تروى لأولادى كتاب السنن، قال: نعم، هات الثالثة، فقال: تفرد لهم للراوية، فإن أولاد الخلفاء لا يقعدون مع العامة. فقال: أما هذه فلا سبيل إليها، فإن الناس شريفهم ووضيعهم فى العلم سواء. قال ابن جابر: فكانوا يحضرون بعد ذلك ويقعدون ويضرب بينهم وبين الناس ستر فيسمعون مع العامة) ا. هـ.

وفى هذا ما يدل على اعتزازه بكرامة العلم والعلماء، التى لا يفرق فيها بين الناس فى طلب العلم.

وبعد هذه الجولة الطيبة فى حياة أبى داود الناضرة الخصبة نلتقى مع أهم مصنفاته فى الحديث ألا وهو كتاب (السنن).

ولأبى داود مؤلفات كثيرة تدل على غزارة علمه وعلى دقة بحثه ألفها فى مجالات مختلفة منها: كتاب «السنن»، وكتاب «المراسيل»، وكتاب «القدر»، وكتاب «دلائل النبوة»، وكتاب «ابتداء الوحى»، وكتاب «فضائل الأعمال»، وكتاب «الزهد»، وكتاب «الدعاء»، وكتاب «المسائل». وأعظم هذه المصنفات هو كتاب «السنن» الذى قال فيه الخطابى: «إن كتاب «السنن» لأبى داود كتاب شريف لم يصنف فى حكم الدين كتاب مثله، وقد رزق القبول من الناس كافة، فصار حكما بين فرق العلماء وطبقات الفقهاء على اختلاف مذاهبهم، وعليه معول أهل العراق ومصر والمغرب وكثير من أقطار الأرض».

وقد عد بعض العلماء ما فى كتاب «السنن» من الأحاديث، فقال: إنها أربعة آلاف وثمانمائة حديث.

وقد قسم أبو داود كتابه إلى كتب، والكتب إلى أبواب، وقد عد البعض الآخر أحاديث «السنن» فقال: إنها خمسة آلاف ومائتين وأربعة وسبعين حديثا. وهذا الاختلاف راجع لأمرين:

الأول: أن بعض النسخ المحققة اختلفت بالزيادة والنقصان والتقديم والتأخير فى بعض الأحاديث.

الثانى: أن النسخة التى زاد تعداد الأحاديث فيها اعتبر محققها الأحاديث المكررة أحاديث مستقلة، وعد جميع المتون

حتى ولو كانت بلفظ واحد أو متقارب مادامت الأسانيد مختلفة، وعلى ذلك فيمكن التوفيق بين رأى الإمام أبى داود فى عدد الأحاديث وبين رأى بعض المحققين، وذلك بأن أبا داود أراد بما ذكره الأحاديث الأصلية دون المكرر.

وقد عنى العلماء بكتاب «السنن» فقام كثير منهم بشرحها، واتجهت عناية البعض إلى اختصارها وتهذيبها، وهذه العناية وإن لم تبلغ درجة الصحيحين إلا أنها تدل على جهود مشكورة لعلماء السنة تجاه هذا المصنف الجليل.

وممن قام باختصار كتاب «السنن» الحافظ عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦هـ فى كتاب سماه «المجتبى من سنن أبى داود» وكان المنذرى دقيقا فى مختصره، إذ كان يذكر عقب كل حديث من اتفق مع أبى داود على تخريج الحديث من الأئمة الخمسة، كما وضح علل بعض الأحاديث، وألف السيوطى على هذا المختصر كتابا سماه (زهر الربا على المجتبى)، وله عليه حاشية أيضا، وهذبه محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية الحنبلى المتوفى سنة ٧٥١هـ، وزاد فى الكلام عن بعض العلل التى سكت عنها المنذرى، أو لم يكملها، وتصحيح بعض الأحاديث التى لم يضمها، وبسط العديد فى كثير من الجوانب الهامة.

أ.د. أحمد عمر هاشم

مراجع للاستزادة :

١- تهذيب الكمال فى أسماء الرجال، للمزى.
٢- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانى.
٣- تاريخ بغداد، للخطيب.
٤- سير أعلام النبلاء، للذهبى.
٥- تذكرة الحفاظ، للذهبى.

ابن دريد الأزدى
(٢٢٣ - ٣٢١ هـ = ٨٣٧ - ٩٣٣ م)

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدى البصرى.

ولد بالبصرة فى خلافة المعتصم سنة ٢٢٣هـ = ٨٣٧ م. وتوفى ابن دريد ٣٢١هـ = ٩٣٣م.

وأخذ العلم عن جماعة من كبار البصريين فى زمانه كأبى حاتم السجستانى، وأبى الفضل الرياشى، وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخى الأصمعى، وغيرهم، وكان ممن أكسبوا مدرسة البصرة شهرة وازدهارًا بتميزه بالعلم والشعر. ولزم البصرة حتى سنة ٢٥٧هـ = ٨٧١ م، حين هاجمها الزنوج ونكلوا بكثير من أهلها، فرحل عنها مع عمه الحسين وقصد إلى عمان - وطن قومه الأزد - فأقام بها اثنتى عشرة سنة، ثم عاد إلى البصرة، وبعد ذلك خرج إلى فارس ووفد على عبد الله بن محمد بن ميكال، وكان والى نيسابور، عاصمة خراسان، فنال حظوة فى عينيه وعينى ابنه إسماعيل، فمدحهما بقصيدته المشهورة، وهناك ألَّف معجمه «الجمهرة»، ولما عزل إسماعيل سنة ٢٨٠هـ = ٩٢٠م قدم ابن دريد إلى بغداد، وعين له الخليفة المقتدر راتبًا شهريًا ليتوفر على العلم والتعليم.

وقد ظهر معجم «الجمهرة» فى القرن الثالث للهجرة، وقال صاحبه فى مقدمته: «وإنما أعرناه هذا الاسم لأننا اخترنا له الجمهور من كلام العرب وأرجأنا الوحشى والمستنكر».

وقد نسج ابن دريد فى تأليف معجمه على منوال «العين» للخليل، إلا أن هناك اختلافًا بينهما من ناحية الترتيب والتنظيم، فالخليل كان يجمع كل الصيغ التى تشتق من مادة تحت مادتها، فإذا كانت اسمًا ذكر مفرده وجمعه، وإن كانت فعلاً ذكر ماضيه فمضارعه فمصدره ثم الصفة منه، فهو من هذه الناحية يميل إلى نوع من التنظيم والتنسيق فى معالجة هذه الصيغ، بينما نرى صاحب «الجمهرة» يوزع صيغ المادة الواحدة على أبواب متباعدة، ويحاول أن يربط بين الصيغ الفرعية والأصلية، ولكنه فى آخر

الأمر يغلب عليه التشويش والفوضى، إذ كثيرًا ما كان يبدأ بالفعل اللازم والمتعدى والمجرد، ويهمل إهمالا تامًا قضية الفعل، فلا يتطرق إلى ذكر مصدره والصفة منه. وفى الوقت نفسه، لا نجد عند ابن دريد الدقة والوضوح فى تفسيره للقواعد الصرفية والنحوية كما نجدها عند الخليل الذى - وإن سبقه فى الزمن - فاقه فى بعض المزايا.

على أن لابن دريد حسنات ومميزات، فقد تجنب النظام الذى اتبعه الخليل، فأهمل ترتيب معجمه على المخارج، وسار على الترتيب السهل الشائع للألف باء، وابتكر تبويبًا جديدًا فى المواد نفسها، وزاد الأبواب اللغوية فى المعجم وصيغا كثيرة أهملها صاحب «العين»، وكانت هذه الزيادة من الكثرة بحيث اعتمد عليها الموسوعى الكبير ابن التيانى القرطبى فى معجمه «الموعب» الذى ظهر فى صدر القرن الخامس الهجرى، وكان هذا المعجم من أضبط المعاجم وأصدقها رواية.

لقد اقتبس ابن دريد الشىء الكثير فى اللغة والأدب والتاريخ، واستمد الكثير من الشواهد القرآنية، وعنى بالمعرّب والدخيل من الحبشية أو الرومية أو السريانية أو العبرانية أو النبطية أو الفارسية، وأورد أشياء فى اللغة لم توجد فى كتب المتقدمين على حد قول المسعودى صاحب «مروج الذهب»، وأورد كذلك كثيرًا من الألفاظ من لغات اليمن فاق بها الخليل، ومع ذلك فقد رماه أبو منصور الأزهرى صاحب معجم «تهذيب اللغة»، وأحمد بن فارس صاحب معجم «مقاييس اللغة»؛ بافتعال العربية وتوليد الألفاظ، وإدخال ما ليس من كلام العرب فى كلامهم، وهذه التهمة التى رمياه بها لم تكن صحيحة، لأنه لم يكن جامدًا متزمتًا فى تفكيره كغيره من اللغويين، إنما كان ذا عقلية جبارة يزينها التجدد والابتكار.

لقد كان ابن دريد أكبر علماء عصره فى اللغة وأقدر النقاد، لذلك كان يطلق عليه «أعلم الشعراء وأشعر العلماء»، وكان ابن الطيب اللغوى يقول عنه فى كتابه «مراتب النحويين»: «هو الذى انتهت إليه لغة البصريين، وكان أحفظ الناس، وأوسعهم علمًا، وأقدرهم على الشعر، وما ازدحم العلم والشعر فى صدر أحد ازدحامهما فى صدر ابن دريد». وكان رجال اللغة يحتجون بأقواله ويستندون إليها، منهم أكبر الموسوعيين وأوسعهم شهرة ابن منظور، الذى ضم معجم «الجمهرة» من جملة ما ضم من معاجم فى معجمه الضخم «لسان العرب»، ونظرًا لقيمته اللغوية اختصره الصاحب بن عباد فى كتاب سماه «الجوهرة».

ولو وقفنا على أخباره وسيرته لوجدناها مملوءة بكل ما يبهج القلوب ويسر النفوس... لا يخلو مجلسه من آلات الطرب والمطربين والمغنين، فهو يعطى العقل حقه والنفس حقها، وحياته مزاج من العلم والنعيم.

الطعن فى معجم الجمهرة :

لم يسلم هذا المعجم من مآخذ اللغويين ولذعات النقاد، فقد طعن فيه نفطويه أحد أئمة النحو والأدب مدعيًا أن كتاب «الجمهرة» مسروق من كتاب «العين»؛ إلا أن السيوطى أنكر عليه ذلك بقوله: «ولا يقبل فيه طعن؛ لأنه كان بينهما منافرة عظيمة»، والحقيقة أن نفطويه (٨٥٩ = ٩٣٥م) كان متحيزًا تحيزًا شخصيًا، إذ كان يكن كراهية خاصة لابن دريد بسبب معاقرته الخمر.

ومن مؤلفاته أيضًا :

١- القصيدة المقصورة:

وقد اشتهر صاحب «الجمهرة» بقصيدته المقصورة التى مدح بها آل ميكال، وهى تشتمل على مائتين وثلاثة وخمسين بيتًا، ينتهى كل بيت منها بألف مقصورة، ويقال: إنه أحاط فى هذه القصيدة بأكثر المقصور. وقلَّده فى هذا النوع مِن الشعر من جاء بعده من الشعراء، وعنى بشرحها والتعليق عليها عدد من كبار الشراح، منهم: محمد بن أحمد ابن هشام اللخمى (٥٧٠هـ = ١١٧م)، وأبو زكريا التبريزى (٥٠٢هـ = ١١٠٨م)، والزمخشرى (ت٥٣٨هـ = ١١٤٣م)، والإمام أبو عبد الله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز صاحب كتاب «الجامع» فى اللغة (ت ٩٥٣هـ = ١٠٢١م)، وغيرهم كثيرون، ونظرًا لشهرة هذه القصيدة وتداولها بين الناس، نشرها أحمد جودت المقدسى المعروف بالعكارى الطرابلسى فى طرابلس سنة ١٣١٩هـ، وترجمها المستشرقون فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كما ترجمها بعضهم إلى اللاتينية.

وقد خمس القصيدة المقصورة سعد بن على الأربلى، وعبد الله بن عمر الأنصارى الوزير (ت ٧٧٧هـ = ١٣٧٥م)، وشرف الدين الحسن بن الحسين بن على، وغيرهم. وأورد هنا كنموذج لهذه القصيدة المشهورة، ثلاثة أبيات مخاطبًا فيها امرأة يذكر لها مشيبه وذهاب أيام لهوه:

إمَّا ترى رأسى حاكى لونُه
طرةَ صبح تحت أذيال الدجى

واشتعل المبيضُّ فى مسوده
مثل اشتعال النار فى جمر الغضى

فكان كالليل البهيم حل فى
أرجائه ضياء صبح فانجلى

أما مطلعها فهو:

يا ظـبيـة أشبـه شــىء بـالـمهـا

تـرعى الخزامى بين أشجار النقا

٢ - المقصور والممدود:

نظمها فى خمسة وعشرين بيتًا، يحتوى كل منها على كلمتين متماثلتين، إحداهما مقصورة والأخرى ممدودة، مع شرح فروق المعانى بينها فى بعض الأحيان.

٣- وله قصيدة فى ثلاثة عشر بيتا عن أعضاء الإنسان المذكرة والمؤنثة.

٤ - وله أيضا قصيدة على حرف الظاء نظمها سنة ٣١٦هـ، وموجودة فى المتحف البريطانى.

٥ - وله مرثيتان، الأولى فى الإمام الشافعى، والثانية فى ابن جرير الطبرى (ت٣١٠هـ = ٩٢٣م)، وذكرهما الخطيب البغدادى (ت٤٦٣هـ = ١٠٧٢م) فى كتابه «تاريخ بغداد».

٦- وله قصيدة يهجو فيها أبا نصر أحمد ابن حاتم الباهلى (ت٢٣٥هـ = ٨٤٨ م).

٧- وله أيضا قصيدة يمدح فيها يحيى بن عبد الوهاب الكاتب.

٨- ونشر معجم «الجمهرة» فى حيدر آباد بالهند فى ثلاثة أجزاء سنة ١٣٤٤هـ، وطبع لها فهارس فى جزء رابع، بعناية كل من الشيخ محمد السورتى، والمستشرق البريطانى كرنكوف (١٨٧٢ - ١٩٥٣م)، ومنه مختصر لا يعرف مؤلفه فى المتحف البريطانى، فى قسم «براون للدراسات الشرقية».

٩- «اشتقاق أسماء القبائل»:

يبحث فى أسماء القبائل والعمائر، وأفخاذها وبطونها، وساداتها وشعرائها، على شكل معجم، ويتضمن فوائد لغوية جمّة، ونشره المستشرق الألمانى فردينال وستفلد (١٨٠٨ - ١٨٩٩م) فى جونتجين بروسيا فى جزءين سنة (١٨٥٣ - ١٨٥٥م)، وقد نفدت نسخه، فأعاد نشره محققًا الأستاذ عبد السلام هارون بالقاهرة عام ١٩٥٨م.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١ - مروج الذهب، للمسعودى ص ٨١، مصر.
٢ - تهذيب اللغة، للأزهرى ص ٢٩١، مصر.
٣ - مقاييس اللغة، لابن فارس ص ٢١٢، مصر.
٤ - مراتب النحويين، لابن الطيب، مصر.
٥ - لسان العرب، لابن منظور.
٦ - فصول فى فقه العربية، رمضان عبد التواب ص ٢٩٢، مصر.
٧ - تاريخ بغداد، للخطيب البغدادى، مصر.

ابن دقيق العيد
(٦٢٥ - ٧٠٢هـ = ١٢٢٨ - ١٣٠٢م)

هو الشيخ تقى الدين أبو الفتح محمد بن الشيخ مجد الدين على بن وهب بن مطيع القشيرى المنفلوطى المصرى، القوصى المنشأ، المالكى ثم الشافعى، المعروف بابن دقيق العيد. ولد فى شعبان سنة ٦٢٥هـ الموافق ١٢٢٨م بينبع، وكان والده عالمًا فاضلا تقيا شيخًا للسادة المالكية فى وقته، وكان والده قد قصد الأقطار الحجازية للحج، وقد طاف به حول الكعبة داعيا له، فاستجاب الله دعاءه، وقد نشأ ابن دقيق العيد نشأة صالحة مباركة، فما كاد يبلغ الحلم حتى تفقه على والده، ثم سمع كثيرًا من شيوخ الحجاز ودمشق والشام ومصر وغيرها، وأحاط بمذهب المالكية، ثم انتقل إلى مذهب الشافعية فأحاط به كذلك. وتوفى فى عام ٧٠٢هـ الموافق ١٣٠٢م.

اشتهر اسمه فى حياة مشايخه، وشاع ذكره، واشتهر بالتقوى، حتى لقب بتقى الدين.

قال قطب الدين الحلى: كان ابن دقيق العيد ممن عرف بالعلم والزهد، عارفًا بالمذهبين، إمامًا فى الأصلين، حافظًا فى الحديث وعلومه، يضرب به المثل فى الليل، إلا قليلاً، يقطعه مطالعة وذكرًا وتهجدًا، وكانت أوقاته كلها معمورة، وكان شفوقًا على المشتغلين بالعلم، كثير البر بهم.

وقال البرزالى: إنه مُجْمَعٌ على غزارة علمه، وجودة ذهنه، وتفننه فى العلوم، واشتغاله بنفسه، وقلة مخالطته، مع الدين المتين، والعقل الرصين.

وقال الشيخ تاج الدين السبكى: ولم أر أحدا من أشياخنا يختلف فى أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على رأس المائة السابعة المشار إليه فى الحديث، فإنه أستاذ زمانه علمًا ودينًا.

وقال ابن الزملكانى: إنه إمام الأئمة فى وقته، وعلاَّمة العلماء فى عصره، بل ولم يكن من قبله منذ سنين مثله علمًا ودينًا وزهدًا وورعًا، وكان متبحرًا فى التفسير والحديث محققًا فى المذهبين، متقنًا للأصلين والنحو واللغة، وإليه النهاية فى التحقيق والتدقيق والغوص على المعانى، أقرَّ له الموافق

والمخـالف، وعظَّمـه الملـوك، وكـان السلطان «لاجين» ينزل له عن سريره ويقبل يده.

سمع من الكثيرين، منهم الشيخ عز الدين ابن عـبـد السـلام فى مـصـر، وأحـمـد بن عـبد الدايم، والزين خـالد، وأبو الحسن بن المغيـرة، وابن رواج والرشـيـد العطار، والزكى المنذرى.

وقد تخرج عليه كثير من العلماء والأئمة، فـقـد تولَّى التـدريس بمصـر والشـام، وكـان درسـه حـافـلا بالأكـابر، درس بالمسـجـد الشـافعى وبالكاملية والفاضلية، وكان الطلبة يرحلون إليه.

كما تولى القضاء بالديار المصرية.

أما عن مؤلفاته :

فقد صنَّف تصانيف كثيرة، منها:

الإمام، والإلمام فى أحاديث الأحكام.

وشـرع فـى شـرحـه ولم يكمله، وقـد أتى فيهما بالعجائب الدالّة على سعة اطّلاعه فى العلوم، خصوصًا علوم الاستنباط.

وله مقدمة المطرزى فى أصول الفقه.

وشـرح بعض مـخـتـصـر ابن الحـاجب فى الفقه المالكى.

وشرح كتاب العمدة فى الأحكام.

وله ديوان خطب. وله أربعون حديثا.

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

مراجع للاستزادة:

١- طبقات الشافعية للسبكى.

الدينـــورى
(٠٠٠ - ٢٨٢هـ = ٠٠٠ - ٨٩٥م)

هو أبو حنيفة أحمد بن داود بن وَنَنْد (وهو لفظ فارسى معناه الحاسب)، عالم موسوعى ينتمى إلى مدينة الدينور القريبة من همذان (فى إيران الحالية)، لم توافنا المصادر بتاريخ مولده ونشأته الأولى، ويبدو أنه ولد فى إحدى السنوات العشر الأولى من القرن الثالث الهجرى. أخذ علم اللغة والنحو عن ابن السكيت (ت٢٤٤هـ = ٨٥٨م) من أعلام المدرسة الكوفية فى النحو، وهو الوحيد الذى نعرفه من شيوخه. غير أن معارفه تجاوزت علوم اللغة إلى كل فروع الثقافة فى عصره، إذ يذكر عنه: أنه كان نحويًا لغويًا، راوية ثقة ، جغرافيًا ، مؤرخًا ، مهندسًا، حاسبًا (أى عالمًا بالرياضيات)، فلكيًا. وقد اشتغل فى شبابه المبكر برصد النجوم فى أصفهان ووضع نتائج رصده فى سنة ٢٣٥هـ = ٨٤٩م. وتدل قائمة كتبه على سعة معارفه فى جميع علوم العصر. ومن هنا كان يُقرن بعدد من معاصريه انتهت إليهم موسوعية المعارف مثل الجاحظ (ت ٢٥٥هـ = ٨٦٩م) وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ = ٨٨٩م) وأبى زيد البلخى (ت٣٢٢هـ = ٩٣٤م)، ويقول عنه أبوحيان التوحيدى: إنه أحد ثلاثة من نوادر الرجال، والآخران هما الجاحظ والبلخى. ويتميز أبو حنيفة على أقرانه المذكورين بأنه أوسع منهم معرفة بالثقافتين الهندية واليونانية، مع اشتراكه معهم فى سعة العلم بالتراث العربى، وقد توفى فى القرن الثالث الهجرى سنة ٢٨٢هـ = ٨٩٥م.

تسجل قائمة كتبه - التى سجلها ابن النديم وياقوت الحموى - تلك الثقافة الموسوعية، غير أنه لم يبق من مؤلفاته الكثيرة إلا نسبة ضئيلة هى قطع متفرقة من كتبه أو نقولٍ واردة فى مصادر متأخرة. ويأتى فى مقدمة آثاره كتابه التاريخى «الأخبار الطوال» الذى نشره لأول مرة المستشرق جرجاس Girgas فى ليِْدن (هولندا) سنة ١٨٨٨م، ثم أعاد نشره المستشرق الروسى إغناطيوس كراتشكوفسكى Ignat krachkoosky فى نفس المدينة سنة ١٩١٢م مع مقدمة جامعة ومقابلة لنصوصه على المصادر التاريخية الأخرى. ثم توالت

طبعاته فى القاهرة بعد ذلك. ويبدأ الكتاب بنبذة فى التاريخ القديم، وبصفة خاصة تاريخ اليونانيين مع عناية بسيرة الإسكندر، كما يعرض تاريخ الفرس الساسانيين، ثم ينتقل إلى فتح العرب للعراق، مقدمًا لنا وصفًا مفصلاً لمعركة القادسية، ويهتم بوقائع الحرب بين على بن أبى طالب رضي الله عنه ومعاوية رضي الله عنه، وبينه وبين الخوارج، ويتوسع فى خبر مقتل الحسين بن على رضي الله عنه، وثورات الأزارقة على بنى أمية، وسيرة المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى نهض للأخذ بثأر الحسين. ويختم الكتاب بعرض موجز لسير الخلفاء الأمويين والعباسيين من عبد الملك بن مروان إلى المعتصم. مع التوسع فى أخبار سقوط دولة بنى أمية وثورات العلويين فى خراسان.

والكتاب الثانى الذى وصلت إلينا قطع ومقتطفات منه هو «**النبات**» الذى يعد من أول المؤلفات العربية الشاملة فى موضوعه، إذ كل ما ألف فيه قبله، لا يتجاوز رسائل محدودة . وقد عنى بهذا الكتاب عدد من المستشرقين كتبوا عنه دراسات قيمة، منهم ب. سلبربرج B.silberberg وفان فلوتن Van Floten وقام الباحث الباكستانى محمد حميد الله بنشر المجلد الثالث منه ونصف المجلد الخامس. وفى المعاجم وكتب اللغة نقولٌ كثيرة منه، إذ أورد كثيرًا من نصوصه الزجاجى (ت٣٣٧هـ = ٩٤٩م) فى أماليه، وابن منظور (ت٧١١هـ = ١٣١١م) فى «لسان العرب» وقد اعتمد عليه النباتى الأندلسى المعروف ابن البيطار المالقى (ت٦٤٦هـ = ١٢٤٨م) فى معجمه النباتى الكبير «الجامع فى الأدوية المفردة». وقام بنقد أبى حنيفة، على بن حمزة البصرى (ت ٣٧٥هـ = ٩٨٥م) فى كتابه «التنبيهات على أغلاط الرواة» ، وإن كان فى نقده كثير من التجنى، وسجل عبدالقادر البغدادى فى كتابه «خزانة الأدب» كثيرًا من مآخذ على بن حمزة. ومما يصور عناية القدماء بهذا الكتاب أنه كان موضوع شرح مطول فى ستة مجلدات اضطلع به اللغوى الأندلسى محمد بن معمر المالقى المشهور بابن أخت غانم (ت بعد ٥٢٤هـ = ١١٣٢م) . وطريقة أبى حنيفة فى كتابه هذا هى وصف النباتات وبيان خصائصها وفصائلها ومواطنها مع الاستكثار من الشواهد على ورودها فى الشعر العربى القديم. فاهتمامه كان فى المقام الأول بالمادة اللغوية، وذلك لأن النباتات التى تضمنها الكتاب كانت هى تلك الموجودة فى شبه الجزيرة العربية.

ومن كتب أبى حنيفة الأخرى: كتاب «الأنواء» فى مجال علم الفلك، ويقول عنه عبدالرحمن الصوفى الفلكى (ت ٣٧٥هـ = ٩٨٥م): «وجدنا فى الأنواء كتبًا كثيرة أتمها

وأكملها فى فنه كتاب أبى حنيفة، فإنه يدل على معرفة تامة بالأخبار الواردة عن العرب فى ذلك وأشعارها وأسجاعها فوق معرفة غيره ممن ألفوا الكتب فى هذا المعنى». وقد نقل ابن سيده المرسى الأندلسى فى معجمه «المخصص» كثيرًا من مادة هذا الكتاب، وذكر المسعودى فى «مروج الذهب» أن ابن قتيبة سطا عليه فى كتابه الذى يحمل نفس العنوان.

ولأبى حنيفة كتب أخرى منها «تفسير» للقرآن فى ثلاثة عشر مجلدًا، وكتاب «ما تلحن فيه العامة»، وفى الجغرافية «البلدان» ، وله فى الرياضيات كتب عديدة فى «حساب الذر» و«الجبر والمقابلة» وكتب أخرى فلكية فى القبلة والزوال والكسوف، غير أن كل هذا النتاج العلمى لم يصل إلينا منه شىء.

أ. د. محمود على مكى

مراجع للاستزادة :

١ - الفهرست لابن النديم، ط. لايبك ١٨٧١م ، ص ٧٨.

٢ - ياقوت الحموى : معجم الأدباء ، القاهرة بعناية أحمد فريد الرفاعى ٣/٢٦-٣٢.

٣ - جلال الدين السيوطى : بغية الوعاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٤م، ١/٣٠٦.

٤ - عبد القادر البغدادى : خزانة الأدب، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٧م، ١/٥٤ - ٥٥.

٥ - أحمد بن محمد المقرى : نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨م، ٣/٣٩٧.

٦ - أحمد أمين : ضحى الإسلام، القاهرة ١٩٣٣م، ١/٤٠٦ - ٤٠٨.

٧ - كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى ، ترجمة عبد الحليم النجار ، ٢/٢٣٠-٢٣٣.

٨ - كارلو نلينو : علم الفلك عند العرب، روما ١٩١١م، ص ١٣١.

٩ - إغناطيوس كراتشكوفسكى : تاريخ الأدب الجغرافى العربى ، ترجمة صلاح الدين هاشم، القاهرة ١٩٦١م، ص ١٢٥، ومقدمة تحقيقه للأخبار الطوال، ليدن ١٩١٢م.

الذهبى
(٦٧٣ - ٧٤٨هـ = ١٢٧٤ - ١٣٤٨م)

هو شمس الدين، أبو عبد الله: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله التركمانى الفارقى الدمشقى الشافعى الذهبى، والنسبة الأخيرة هى الغالبة عليه.

تركمانى الأصل من أهل «ميافارقين» حيث استوطنت أسرته فى هذه المدينة الشهيرة فى «ديار بكر»، وقد انتقل أحد أفراد الأسرة إلى دمشق واستوطنها، وولد فيها عثمان - جد المؤلف - ثم ولد لعثمان ولده أحمد - والد المؤلف - وكان يشتغل بصناعة الذهب، كما كان له بعض اشتغال بالعلم.

وقد ولد مؤرخنا بدمشق فى أوائل شهر ربيع الأول سنة ٦٧٣هـ الموافق ١٢٧٤م، وتوفى بها فى الثالث من ذى القعدة سنة ٧٤٨هـ - على الراجح - بعد أن طاف كثيرًا من البلدان ووصل إلى القاهرة، وكف بصره سنة ٧٤١هـ الموافق ١٣٤٨م، ووصفه الصفدى بأنه «ذهن يتوقد ذكاؤه ويصح إلى الذهب نسبته وانتماؤه».

وهو حافظ مؤرخ علامة بدأ يدرُس الحديث عام ٦٩٠هـ - فى دمشق - على عمر ابن قواس، وأحمد بن هبة الله بن عساكر، وغيرهما، وفى بعلبك على عبد الخالق بن علوان، وزينب بنت عمر بن كندى، وفى حلب على سوقر الزينى، وفى نابلس على العماد ابن بدران، وفى مكة على التوزرى، وفى الإسكندرية على أبى الحسن على بن أحمد العراقى، وأبى الحسن يحيى بن أحمد الصواف، ثم فى القاهرة على «ابن منظور» صاحب «لسان العرب»، وعلى شيخ الإسلام ابن دقيق العيد بخاصة، وكان لابن دقيق العيد فراسة فى اختيار تلاميذه الذين يأخذون الحديث عنه، وقد تلقى الذهبى كذلك إجازة من أبى زكريا بن الصيرفى، ومن ابن أبى الخير، ومن القاسم الإربلى، وغير هؤلاء.

لقد كان له من همته ما يجعله يعدل عن صنعة الذهب - صنعة أبيه - ويطلب العلم مترددًا على المشايخ مرتحلاً إليهم فى مواطنهم، متخرجًا عليهم فى تخصصاتهم،

إلى أن تمكن من علوم مختلفة، ثم سلك طريق الوظائف وهو فى سن مبكرة؛ فتصدى للإقراء فى جامع دمشق سنة ٦٩٩هـ، ووصل إلى مشيخة دار الحديث بالظاهرية سنة ٧٢٩هـ ثم مشيخة دار الحديث النفيسية سنة ٧٣٩هـ.

ومن تلاميذه نخص بالذكر السبكى صاحب كتاب «طبقات الشافعية»، وكان صديق أبيه تقى الدين السبكى الذى كان أعلم منه فى الفقه الشافعى، وقد أخذ الذهبى يدرِّس الحديث فى مدرسة أم الصالح بدمشق، ولم يخلف شيخه «المزى» فى تدريس الحديث بالمدرسة الأشرفية؛ لأن مؤسس مشيخة الحديث فى هذه المدرسة اشترط شروطًا خاصة بمذهب من يتولى تدريس الحديث فى هذه المدرسة لم يوافق الذهبى عليها.

وقد اشتهر الذهبى بأنه من أبرز العلماء فى التاريخ والحديث، ومع هذا فإن معاصريه - أبا الفدا وابن الوردى - مع اعترافهما بتميزه، قالا: إن بصره قد كف، ولما اقتربت منيته كتب تراجم لبعض معاصريه وهم على قيد الحياة، واستقى معلوماته من فتيان متحمسين ممن التفوا حوله، وكان عاجزًا عن التحقق من صدق رواياتهم، فلوَّث بذلك سمعة بعض الأعلام، وإن كان من غير عمد.

ومن مؤلفاته : تذكرة الحفاظ (وهو غير الطبقات) طبع بمدينة حيدر آباد فى أربعة أجزاء.

- المشتبه فى أسماء الرجال والمشتبه فى الأسماء والأنساب والكنى والألقاب، وهو معجم للأعلام والكنى مرتب على حروف المعجم مما يرد فى الحديث بخاصة ويشتبه فيه، وقد نشره دى يونكك Dejong ليدن سنة ١٨٨١م.

- ميزان الاعتدال فى نقد الرجال.

- تجريد أسماء الصحابة.

- الطب النبوى أو طب النبى ﷺ، وينسب هذا الكتاب للسيوطى أيضًا.

- سير أعلام النبلاء، نشر فى أكثر من ٢٧ مجلدًا بتحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسى ببيروت ١٤١٣هـ.

- دول الإسلام جزآن فى مجلد واحد، القاهرة ١٩٧٤م تحقيق محمد فهيم شلتوت وزميله.

- تاريخ الإسلام الكبير فى ٣٦ مجلدًا. طبع .

- المختصر المحتاج إليه من تاريخ «ابن الدبيثى» وهو مختصر فى تاريخ بغداد، طبع منه الجزء الأول فقط.

- الرواة الثقاة، رسالة مطبوعة.

- العباب فى التاريخ.
- الكاشف فى تراجم رجال الحديث.
- العبر فى خبر من غبر.
- طبقات القراء أو كتاب معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار.
- الكبائر وبيان المحارم.
- تذهيب تذهيب الكمال فى أسماء الرجال.
- الكاشف فى معرفة أسماء الرجال.
- معجم الشيوخ وهو معجم تراجم لشيوخه، وفيه من ١٣٠٠ ترجمة

أ. د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة:

١- محمد بن أحمد بن إياس الحنفى: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، المعروف بتاريخ ابن إياس ١ /١٩٩، طبعة بولاق سنة ١٣١١هـ.

٢- السيوطى: طبقات الحفاظ ٢١ /٩ طبعة «وستنفلد» كونتكن ١٨٣٣م.

٣- عبد الوهاب السبكى: طبقات الشافعية ٥ / ٢١٦ القاهرة ١٣٤٢هـ.

٤- عمر بن الوردى: التاريخ ٢/ ٣٤٨ القاهرة ١٢٨٥هـ.

٥- أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر بن ناصر الدين الشافعى، كتاب الرد الوافر على من زعم أن من سمى ابن تيمية «شيخ الإسلام» كافر ص ١٩ القاهرة ١٣٢٩هـ.

٦- Bons Boygues: Ensayo labio Bibliograafico ص ٤١٦ مدريد ١٨٩٨م.

٧- دائرة المعارف الإسلامية مادة «الذهبى» كتبها محمد أبو شنب ١٦ /٢٠٣٤ - ٥٠٣٨ من الترجمة العربية.

٨- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ١٧٨/٦ - ١٧٩.

٩- مقدمة فهيم محمد شلتوت ومحمد مصطفى إبراهيم لنشرتهما لكتاب «دول الإسلام» للذهبى، جزءان فى مجلد واحد، القاهرة ١٩٧٤م، ضمن سلسلة «التراث للجميع» التى كانت تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب.

١٠- مقدمة أ. د. محمد عبد الهادى شعيرة لكتاب الذهبى «تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام» الذى صدر عن مركز تحقيق التراث، القاهرة.

١١- ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات ١٨٣/٢ بولاق ١٢٩٩هـ.

١٢- نكت الهميان ٢٤١.

١٣- ذيل تذكرة الحفاظ ٣٤، ٣٤٧.

١٤- النعيمى ٧٨/١.

١٥- الشذرات ١٥٣/٦.

١٦- الدرر الكامنة ٣٦٦/٣.

١٧- النجوم الزاهرة ١٨٢/١٠.

١٨- الإعلان بالتوبيخ ٨٤

١٩- مفتاح السعادة ٢١٢/١، ثم ٢١٦/٢.

٢٠- تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان: ١٨٩/٣.

٢١- بروكلمان ٥٧/٢ (٦٤) والملحق ٤٥/٢.

رابعة العدوية
(٩٥ - ١٨٥هـ)

هى : رابعة بنت إسماعيل، العدوية العتكية القَيْسية البصرية. وكنيتها : أم الخير.

وعدوية : نسبة إلى بنى عدوة، وعدوة فخذ من آل عتيك، وآل عتيك بطن من بطون قبيلة قيس.

ولدت رابعة فى عام ٩٥هـ فى البصرة فى كوخ فقير بين قصور البصرة الكثيرة. وكانت البصرة حينذاك تعج بالعلماء والفقهاء والزهاد وعلماء الكلام. وسميت "رابعة"؛ لأنها كان لها ثلاث أخوات أكبر منها، فأطلق عليها والدها اسم رابعة. وكان والدها رجلاً فقيراً، وكذلك أمها، لكنهما كانا على خلق طيب.

ويروى أن رابعة العدوية كانت شديدة الذكاء، وأنها حفظت القرآن الكريم فى سن صغيرة، وأن والدها مات وهى على عتبة الشباب، فى وقت اجتاح البصرة فيه قحط شديد؛ مما دفع رابعة وأخواتها إلى التفرق بحثًا عن لقمة العيش، وقد وقعت رابعة فريسة الرّق، بعد أن أخذها أحد التجار الجشعين، ثم باعها فى سوق الرقيق بستة دراهم، لرجل أثقل عليها العمل.[٢]

كذلك يحكى أنها كانت جميلة الصوت، وتجيد العزف على الناى، مما جعل سيدها الذى اشتراها يغريها بالغناء لأصدقاء سمره، لكنها كانت تضيق ذرعاً بذلك، لأنها نشأت فى أسرة تدين بأحكام الله تعالى وبمكارم أخلاق الشريعة الإسلامية، كما كان لهذه الأسرة الكريمة ميول روحية تقوم على أساس من المحبة الإلهية.

وعمومًا فقد كانت السيرة الذاتية لرابعة العدوية فى كل مراحل حياتها، نسيجًا من الحقيقة تارة، ومن الأساطير والخرافات تارة أخرى. لكن رابعة وسط تلك الأنواء والعواصف التى كانت تزمجر من حولها، آثرت الإعراض عن حياة القصور والترف، وكرّست حبها لله خالقها، بحيث لا ترى من الأنوار إلا نوره، ولا تعرف من الجمال إلا جماله سبحانه وتعالى. لقد تربعت رابعة فى قلوب الناس، عندما حررت نفسها من عبودية المادة وطغيانها، وانطلقت بعد ذلك فى حب سيدها الوحيد، ربها العظيم عز وجل.

وكان لرابعة شوق إلى المساجد، تتردد عليها لسماع الوعظ من أئمتها ومن زهاد البصرة الصالحين الذين أضاءوا أمامها الطريق بعلمهم وسلوكهم، من أمثال: رياح بن عمرو القيسى، وهو أحد أقربائها والذى عرفها أيضاًعلى سيدة زاهدة اسمها "حيونة". ولذلك كانت تحب الخلوة لعبادة الله تعالى، وقراءة القرآن وترديد الأذكار.

وقد تضاربت الروايات فى شأن زواج رابعة، لكن الأرجح أنها تزوجت من رياح، ذلك الزاهد التقى الذى كان واحدا من أعظم المرشدين لها إلى طريق الله عز وجل، والفوز بمحبة الله ورسوله.

وتوفيت رابعة العدوية سنة ١٨٥هـ، عن عمر يناهز التسعين عامًا.

لم تترك رابعة كتبا من تأليفها، ولا رسائل من إعدادها. وكل ما تركته إنما هو أقوال وآراء وسيرة غير مدونة تفوح شذا وعطرا؛ وجميع ذلك مدون فى بطون الكتب الصوفية المشهورة مثل : الرسالة القشيرية، والطبقات الكبرى، وكشف المحجوب وغيرها. وكل ذلك واضح فى المصادر التى استخدمناها فى صلب البحث، وفى مراجع الاستزادة التى ذكرناها.

كما أن هناك دراسات متخصصة حديثة، وهى التى تعرضت لسيرتها الذاتية، بالعرض والتحليل والنقد، وهى كثيرة نذكر منها :

١ - دراسة الشيخ مصطفى عبد الرازق فى دائرة المعارف الإسلامية تحت مادة "تصوف". الترجمة العربية.

٢ - د. عبد الرحمن بدوى: رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى. ط٤، ١٩٧٨م وكالة المطبوعات بالكويت.

إن المشروع الفكرى أو الحضارى لدى رابعة يقوم على "الزهد فى الدنيا" فقد روى أن رجلاً من أهل الدنيا قال لرابعة: سلينى حاجتك. فقالت : "إنى لأستحى أن أسأل الدنيا من يملكها، فكيف أسألها ممّن لا يملكها؟"

وكان لهذا الزهد عند رابعة أسس هامة، منها:

محبة الله عز وجل :

ولعل رابعة كانت أول من تغنى فى رياض الصوفية بنغمات الحب الإلهى شعراً ونثراً، ولم يكن طريق المحبة معبّداً قبلها بهذه الصورة. ويروى أنها كانت تقول فى مناجاتها: "إلهى أتحرق بالنار قلباً يحبك!". فهتف بها هاتف: "ما كنا نفعل هذا، فلا تظنى بنا ظن السَّوء".

وسألها يوماً سفيان الثورى عن حقيقة

إيمانها، فقالت: "ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حباً فى جنته، فأكون كالأجير السوء، إن خاف عمل، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه".

وقد سيطر حب الله تعالى على كيانها، إلى الحد الذى جعلها تغيب عن ذاتها أحياناً لحضورها مع الله تعالى، كما تقول هى شعراً:

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى

وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس

وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

ونود أن ننبه إلى أن رابعة لم يفتها محبة النبى ﷺ، فهى لا تنفصل عن محبة الله تعالى فى العقيدة الإسلامية، ولا يفصل بين المحبتين مؤمن صحيح الإيمان. وحقيقة فإن الحب الإلهى، لم يصبح موضوعاً رئيسياً للشعر إلا من عصر رابعة العدوية، فقد تغنّى به بعدها العديد من الصوفية، واعتبروه مقاماً أو حالاً للسلوك، من أمثال يحيى بن معاذ الرازى (ت ٢٥٨هـ) والحلاج (ت ٣٠٩هـ).

كانت رابعة ترى أن التوبة عموماً واجبة بأمر من الله تعالى فى مواضع عديدة فى القرآن الكريم، ومنها: ﴿**ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم**﴾ (سورة التوبة ١١٩).

كذلك كانت ترى أن توبة العاصى خاضعة أولاً وأخيراً لإرادة الله تعالى وللفضل الإلهى، وليست بإرادة الإنسان، فلو شاء الله لتاب على العاصى. وقد قال رجل لرابعة : إنى أكثرت من الذنوب والمعاصى، فهل يتوب علىّ إن أنا تبت؟ قالت: لا بل لو تاب عليك لتبت".

قيام الليل :

فقد كانت رابعة تصلى الليل كله، فإذا طلع الفجر نامت فى مصلاّها نومة خفيفة حتى يسفر الفجر. وكانت إذا هبّت من مرقدها تقول: "يا نفس كم تنامين، وإلى كم تنامين! يوشك أن تنامى نومة لا تقومين منها إلا لصرخة يوم النشور".

وكان هذا دأبها حتى ماتت.

الرضا :

وكانت رابعة تراه شيئاً فى منتهى الأهمية؛ حيث إنه يربط بين العبد وربه. وقال سفيان الثورى عند رابعة: "اللهم ارض عنى"، فقالت له : "أما تستحى أن تطلب رضا من لست عنه براض". وفيه إشارة منها إلى أن الرضا متبادل بين العبد وربه؛ لقوله تعالى: ﴿**رضى الله عنهم ورضوا عنه**﴾ (المائدة ١١٩).

الإكثار من البكاء والحزن :

فقد كانت رابعة - شأنها شأن الزهاد والصوفية بحق - كثيرة البكاء والحزن، وكانت إذا سمعت ذكر النار غشى عليها زماناً، وكان موضع سجودها كهيئة الماء من كثرة دموعها، كما ذكر الشعرانى فى طبقاته. وقال سفيان الثورى يوماً أمامها: "واحزناه"!، فقالت : لا تكذب، بل قل: واقلة حزناه، لو كنت محزوناً ما تهيأ لك أن تتنفس"

التواضـــع :

ومعناه ألا يستكثر العبد أى عمل أو عبادة قام بها، فهو لا يدرى مدى قبولها أو رفضها. وكانت رابعة تقول: "ما ظهر من أعمالى فلا أعدّه شيئًا" أى ما عرفه الناس من عبادتها فهو مشكوك فى قبوله.

وقيل لها: هل عملت عملاً قط ترين أنه يقبل منك؟ فقالت إن كان شئٌ فخوفى من أن يرد علىّ". ولذا كانت رابعة تحذر الناس من الرياء إذ تقول: "اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم".

البعد عن تتبع عيوب الناس :

لأن السالك إلى الله تعالى، لابد أن يكون مشتغلاً بالتعرف على عيوب نفسه، فكانت رابعة تقول: "إذا نصح الإنسان لله، أطلعه الله تعالى على مساوئ عمله، فتشاغل بها عن ذكر مساوئ خَلقه".

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

مراجع للاستزادة:

١ - الحريفيش: الروض الفائق، القاهرة ١٣٠٤هـ.

٢ - مصطفى عبدالرازق: مادة "تصوف" بدائرة المعارف الإسلامية.

٣ - نيكلسون (رينولد): الصوفية فى الإسلام. ترجمة نور الدين شريبة، القاهرة ١٩٥١م.

٤ - الإمام الغزالى: إحياء علوم الدين - الجزء الرابع. طبعة البابي الحلبي بالقاهرة، ١٣٣٤هـ.

٥ - ابن عباد الرندى: شرح الحكم العطائية - الجزء الأول، بولاق ١٢٧٨هـ.

٦ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ١ : ٢٢٧ بولاق ١٢٩٩هـ.

٧ - مأمون غريب: رابعة العدوية فى محراب الحب الإلهى ص ٢٥ وما بعدها. طبع ٢٠٠٠م نشر دار غريب بالقاهرة.

٨ - د. عبد الرحمن بدوى: رابعة العدوية شهيدة العشق الإلهى ص ١٦ ومواضع أخرى، ط ٤، ١٩٧٨م، وكالة المطبوعات بالكويت.

٩ - د. أبو الوفا التفتازانى: مدخل إلى التصوف الإسلامى ص١٧، ٨٥، ٢١٢. ط ٣، ١٩٨٣م، دار الثقافة بالقاهرة.

١٠ - الهجويرى: كشف المحجوب، ص ٣٨ ترجمة نيكلسون، لندن ١٩١١م.

١١ - القشيرى: الرسالة القشيرية، ص ١٤٧-١٤٨، القاهرة ١٣٣٠هـ.

١٢ - الزبيدى: إتحاف السادة المتقين، ٥٧٦-٩.

١٣ - د. مصطفى حلمى: الحياة الروحية فى الإسلام ص ١٨، القاهرة ١٩٤٥م.

١٤ - اليافعى: روح الرياحين ص ١٠١، القاهرة ١٣٢٤هـ.

١٥ - الكلاباذى: التعرف لمذهب أهل التصوف ص ١٠٢، القاهرة ١٩٦٠م.

١٦ - ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ١ : ٣١٩، القاهرة ١٩٣١م.

١٧ - العاملى: الكشكول ص ١٣٤، بولاق ١٢٨٨هـ.

الـــرازى
(٨٦٤ - ٩٢٥م)

هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى، أحد أعلام الحضارة الإسلامية فى المنطق والفلسفة والطب والعلوم الطبيعية.

ولد بمدينة «الرَّى» جنوبى طهران عاصمة بلاد الفرس عام ٢٥٠هـ/٨٦٤م، وتوفى ببغداد - بعد أن كُفَّ بصره - سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م على الأرجح. وعندما وفد لأول مرة على بغداد عام ٨٨٠م كانت المراجع الطبية تقريبا قد نقلت منقحة ومشروحة إلى العربية من مختلف اللغات اليونانية والهندية والفارسية والسريانية، فظل يطالع غوامض الطب والكيمياء، ولخص كتب الطب اليونانية، وأفاد من أبقراط وجالينوس، ودرس الفلسفة، وكان ناقداً بصيرا لكل ما يقرأ، فصنف فى نقد «جالينوس» كتابه المعروف «الشكوك على جالينوس».

وينتمى أبو بكر الرازى إلى مجموعة الأطباء الفلاسفة أو الممارسين الذين اهتموا فى المقام الأول بالمرض والتشخيص والعلاج معتمداً على المشاهدات والملاحظات، والفلسفة عندهم وسيلة لبلوغ الغاية، والتقدم نحو إدراك الحقيقة أو الاقتراب منها لا يتحقق إلا بالتجربة العملية. ويرى الرازى أن التجربة علم له أصول وفروع، ويجب على الطبيب أن يلمَّ بها قبل أن يشرع فى تشخيص المرض وعلاجه. وكان لهذا الاتجاه التجريبى أثره البالغ فى محاربة الشعوذة وتجار الطب.

وأسلوب الرازى فى ممارسة الطب لا يختلف عن أسلوب الطب الحديث الذى يتبعه الأطباء المعاصرون.

ولقد رفض الرازى نفسه أن تجرى له عملية جراحية فى عينيه عندما فقد بصره فى أواخر أيامه، وذلك لأنه سأل الجراح قبل أن يسرع فى عمليته عن عدد طبقات أنسجة العين، فلما اضطرب الطبيب وصمت قال له الرازى: «إن من يجهل جواب هذا السؤال عليه ألا يمسك بأية آلة يعبث بها فى عينى».

وكان الرازى أول من جرب تأثير العقاقير الجديدة على الحيوان (وخصوصا على القردة)، وذلك لاستخلاص النتائج التى

يستصوبها قبل أن يصف العلاج للإنسان، ولايزال الطب الحديث يدرك أهمية إجراء التجارب والبحوث على الحيوان قبل إجرائها على الإنسان. كما ابتكر الرازى ما نسميه اليوم «بالتجربة الضابطة»، وفيها يجرب العلاج على نصف المرضى ويترك النصف الآخر عامداً دون علاج، ويقارن بين أثر العلاج فى الفريقين.

وقد حذر الرازى من سوء فهم جهال الأطباء لفلسفة المنهج التجريبى، وخلطهم بينه وبين الاستفادة من تجارب السابقين، فقال عنهم فى رسالة إلى أحد تلاميذه: «إنهم ينظرون فى الكتب فيستعملون منها العلاجات، وليسوا يعلمون أن الأشياء الموجودة فيها ليست هى أشياء تستعمل بأعيانها، بل هى مثالات جعلت لتحتذى عليها وتعلم الصناعة منها».

واستطاع الرازى بفضل منهجه العلمى أن يتوصل إلى كشف العديد من المركبات الكيميائية مثل حمض الكبريتيك، وسماه زيت الزاج الأخضر. كما استخدم الفحم الحيوانى لأول مرة فى قصر الألوان، ولاتزال هذه الطريقة تستعمل فى إزالة الألوان والروائح من المواد العضوية. على أن أهم ما ينسب إلى الرازى فى مجال الكيمياء هو ربطها بالطب والصيدلة واعتبار التفاعلات الكيميائية والفيزيائية الناتجة عن تأثير الدواء فى الجسم. وحضَّر الرازى الكحول من مواد سكرية ونشوية متخمرة، وكان يستعمله فى الصيدليات لاستخراج الأدوية والعلاج، كما درس خصائص الزئبق ومركباته، واستحضرها، واستعملها كعقار ضد بعض الأمراض.

وقد ترك الرازى مؤلفات عديدة بالغة الفائدة، عظيمة القيمة، لكن أكثرها فقد وقد أحصى له الباحثون حوالى ١٤٨ مؤلفا بين كتاب ورسالة، نذكر منها على سبيل المثال:

١ ـ الحاوى فى الطب، وهو أكبر مؤلفات الرازى وأعظمها شأنا، ويقع فى عشرة أجزاء أمضى فى تأليفها خمسة عشر عاما، يختص كل جزء بطب عضو أو أكثر، وقد ضمنه الرازى آراء جميع من سبقوه من الأطباء والمؤلفين عن الأمراض وطرق علاجها، بالإضافة إلى تجاربه وملاحظاته، ونسب كل شىء نقله إلى قائله. ويعتبر «إدوارد براون» هذا الكتاب أكبر الكتب العربية فى الطب بل وأهمها. وفى عام ١٢٧٩م ترجمه فى البندقية «فرج بن سالم» الطبيب اليهودى إلى اللغة اللاتينية، وأعيد طبعه بعد ذلك مرات عديدة لأهميته كمرجع معتمد فى دراسة الطب بجامعات أوروبا حتى بعد عصر النهضة. وفائدة هذا الكتاب للطب جعلت «لويس

الحادى عشر» يضطر إلى دفع مبلغ كبير من الذهب والفضة مقابل استعارته له لاستنساخه والرجوع إليه إذا ما هدَّد مرض صحته وصحة عائلته.

٢ ـ كتاب المنصورى، وهو عشر مقالات فى تشريح أعضاء الجسم كلها، أهداها الرازى إلى «المنصور بن إسحاق» أمير خراسان حوالى عام ٢٩٣هـ/٩٠٥م وقد نشرت لهذا الكتاب عدة ترجمات فى العصور الوسطى، ونشرت طبعات ترجمته اللاتينية فى عصر النهضة عام ١٤٨٩م، كما نشر ثلاث طبعات قديمة للترجمة الإيطالية عام ١٩٠٠م.

٣ ـ رسالة الجدرى والحصبة، وهى أول بحث فى تاريخ الأمراض الوبائية يتعرض لتفاصيل أعراض المرضين والتفرقة بينهما، واعتبره مؤرخ الطب المعروف «نيوبرجر» حلية فى جيد الطب العربى. وظهرت ترجمة هذه الرسالة باللاتينية لأول مرة عام ١٤٩٨م وباليونانية عام ١٥٤٨م وبالفرنسية عام ١٧٦٣م وبالإنجليزية عام ١٨٤٨م وبالألمانية عام ١٩١١م.

٤ ـ كتاب «الأسرار»، قال فى مقدمته إنه: «شرح فيه ما ستره القدماء من الفلاسفة... بل وفيه أبواب لم ير مثلها». وبحث فيه ثلاثة معان لمعرفة العقاقير بأنواعها الثلاثة: الترابية والنباتية والحيوانية، ومعرفة الآلات، ومعرفة التدابير (أى التجارب). وفى هذا الكتاب عرف علم الكيمياء لأول مرة الأسس العلمية لعمليات التنقية من تقطير وتصعيد وتكليس وطبخ وتملغم، وعمليات التحليل والعقد. وتضمن الكتاب وصفا تفصيليا للأدوات والأجهزة المستخدمة لتحضير المركبات.

٥ ـ كتاب الحصى فى الكلى والمثانة الذى نشره المستشرق «دى كوننج» بنصه العربى مصحوبا بالترجمة الفرنسية عن نسخة مخطوطة فى ليدن عام ١٨٩٦م.

وباقى كتب ورسائل الرازى لا تقل أهمية عن كتبه المذكورة، ففى كتاب «برء ساعة» ذكر الرازى طرق علاج جميع الأمراض التى يمكن شفاؤها فى ساعة واحدة مثل الصداع والزكام والرمد ووجع الأسنان وعرق النسا وغيرها، وفى كتاب «إلى من لا يحضره الطبيب» المعروف بطب الفقراء والمساكين، شرح للإسعافات الأولية التى ينبغى اتباعها إلى أن يحضر الطبيب، وفى كتاب «الطب الملوكى» الذى أهدى إلى أمير أصبهان (حوالى عام ٣٠٢هـ/٩١٥م) آراء قيمة فى معالجة الأمراض التى تعترى جسم الإنسان بالأغذية المتنوعة أو دسّ الأدوية فى الأغذية إن كان لابد منها بحيث لا يكره المريض مذاقها، وفى

كتاب «قصص وحكايات المرضى» يروى الرازى خلاصة تجاربه ومشاهداته الإكلينيكية، وفى كتب الرازى الأخرى أبحاث فى الطب الروحانى وطب العيون وطب الأطفال ومنافع الأغذية وأمراض النساء والولادة وأمراض الخريف والربيع وغيرها من الموضوعات التى تشهد على عبقريته وإجادته وأمانته وأصالة منهجه العلمى فى التأليف والبحث، فكانت كتبه ونظرياته نافعة للشرق والغرب على حد سواء.

أ. د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة :

١ - د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة، القاهرة ١٩٨٣م.

٢ - د. أحمد فؤاد باشا، أساسيات العلوم المعاصرة فى التراث الإسلامى. دراسات تأصيلية، دار الهداية، القاهرة ١٩٩٧م.

٣ - روحى الخالدى، الكيمياء عند العرب، دار المعارف ١٩٥٣م.

٤ - بول غليونجى، قطوف من تاريخ الطب، القاهرة ١٩٧٩م.

٥ - محمد كامل حسين، فى الطب والأقربازين، أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية، القاهرة ١٩٧٠م.

٦ - الأب جورج شحاته قنواتى، تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعهد الوسيط، دار المعارف، القاهرة ١٩٥٩.

ابن ربن الطبرى
(١٩٣ - ٢٤٧ هـ = ٨٠٨ - ٨٦١ م)

رائد المؤلفين العرب فى علوم الطب، به يبتدأ التأليف الطبى العربى، وعليه اعتمد الرواد الأوائل، وتأثروا بمنهجه وأسلوبه فى التأليف، وهو صاحب الفضل فى تعريف هؤلاء الرواد (كالرازى وعلى بن عباس المجوسى وابن سينا) بما احتوته المكتبة الطبية الهندية فى عصره والعصور السابقة عليه، وهو أيضاً صاحب كتاب «الدين والدولة» الذى يعد ثانى كتاب عربى فى الفكر السياسى بعد كتاب ابن المقفع «رسالة الصحابة» وقد تصدى فيه لبحث تاريخ المعتقدات السياسية والفلسفية من العصور القديمة وحتى عصره، وهو مطبوع.

اسمه على بن ربن الطبرى ويرد فى كثير من المراجع باسم على بن ربن الطبرى.

ولد بمدينة مرو من أعمال طبرستان عام ١٩٣هـ الموافق ٨٠٨م، وتوفى عام ٢٤٧هـ الموافق ٨٦١م، وكان والده من المبرزين فى وطنه علماء خلفًا، وكان الوالد يعمل شأن أبائه بالطب، وقد تولى هذا الوالد تثقيفه وتعليمه، وتعلم ابن ربن الطبرى العربية والعبرية والسريانية وقليلاً من اليونانية، وسافر إلى العراق من أجل العلم، وفيها راجع الكتب الهندية، ورأى أن يؤلف من معلوماتها كتابًا طبيًا مرجعيًا فى الطب، وهكذا بدأ تصنيف كتابه الشهير «فردوس الحكمة»، وهو الكتاب الذى حذا حذوه فيه كبار الأطباء العرب اللاحقين به، وعاد على بن ربن الطبرى إلى بلاده، وخدم أمير طبرستان، ثم انتقل مضطرًا بعد فترة سياسية إلى الرى ومارس فيها التطبيب، وفيها قرأ عليه أبو بكر الرازى الطب، وهو أستاذ الرازى المباشر، ثم اختاره المعتصم ليتولى أمر الكتابة فى ديوانه، وبقى فى عاصمة الخلافة العباسية حتى عصر المتوكل ابن المعتصم وقد دعاه هذا إلى الإسلام فاستجاب وأشهر إسلامه، وقيل إنه أسلم منذ عهد المعتصم، وهو أول من بحث فى الطب النفسى والأمراض النفسية، وبالإضافة إلى هذا السبق وإلى سبقه فى مجال التأليف الطبى العربى فقد حقق على بن ربن الطبرى إنجازات علمية

طبية متميزة، فقد أجاد وصف تشكل الفطريات على سطح الجلد، كما أجاد وصف آفات الجلد المختلفة.. كما أنه اقتحم مجال الكتابة عن تكوين الجنين، وامتد بالكتابة الطبية إلى العطور والزينة. ومن الطريف أن كتابه «فردوس الحكمة» يعد كتابًا فى الطب والفلك والجغرافيا الطبيعية معًا ذلك أنه ضمن النوع (القسم) السادس من كتابه معلومات قيمة عن الأشياء المتجلية من الأرض والأصداف والأشياء المعدنية والدخان والرماد والزاج.

ذكر ابن النديم فى «الفهرست» عددًا من تآليفه الأخرى هى :

١ - تحفة الملوك.

٢ - كناش الحضرة.

٤ - منافع الأدوية والأطعمة والعقاقير.

٥ - كتاب فى الأمثال والأدب على مذهب الروم والعرب.

وأضاف إليها ابن أبى أصيبعة فى كتابه «طبقاء الأطباء».

٦ - عرفان الحياة.

٧ - حفظ الصحة.

٨ - كتاب فى الرق.

٩ - كتاب فى ترتيب الأغذية.

١٠ - كتاب فى الحجامة.

وهو أقدم كتاب جامع لفنون الطب والصيدلة وصل إلينا من كتاب العلماء العرب.

ولقد أورد فى مقالة منه كليات الطب الهندى ومعالجته من كتب شركا Charaka وسسرتا Susruta وندانا Nidana واشتا تقرير دى Ashtangahradaya، وقد طبع الكتاب العالم الهندى الدكتور محمد زبير الصديقى سنة ١٩٢٨ فى حجم متوسط بلغ أكثر من ٦٠٠ صفحة.

وقد رتب ابن رين الطبرى كتابه على سبعة أنواع (أى أقسام) من العلم الطبى والصيدلى فى ثلاثين مقالة جمعها فى ٣٦٠ بابًا.

الأول ـ مقالة واحدة فى بعض المعانى الفلسفية والمقالات والطبائع والكون والفساد.

الثانى ـ خمس مقالات تعرض لعلم الجنين والولادة ووظائف الأعضاء فى النفس والبدن ومزاجات الأبدان وتربية الأطفال وتدبير الفصول والأسفار والعساكر.

الثالث ـ مقالة واحدة فى الاغتذاء وأنواع الأغذية.

الرابع ـ اثنتا عشرة مقالة (وهو أكبر قسم فى الكتاب) يتناول فيها الأمراض بصفة

عامة ثم الأعراض الخاصة فيدرس أسبابها وعلاجها مبتدئًا من الرأس حتى القدم، وينتهى بمقالة فى القصد والحجامة وفحص البول.

الخامس - مقالة واحدة فى المذاقات والروائح والألوان.

السادس - ست مقالات خاصة بالمادة الطبية والسموم.

وهو يدرس فى المقالة الأولى الحبوب وقوى البقول والثمار واللحمان والألبان والأجبان والأسماك والأدهان والأشربة والأقشرجات (العصارات) والمربيات والخل والحلاوات والأملاح والأبازير والرياحين وأفاوية الطب والثيبا والغراء.

أما المقالة الثانية من فقد خصصها للمادة الطبية وهى خمسة أبواب : الأول - فى الأدوية المقررة والعقاقير. والثانى - فى الصموغ والأشياء المتجلبة من الأرض. والثالث - فى الأصداف والأشياء المعدنية والدخان والرماد والزاج. والرابع - فى قوى الأرض والطين المختوم. والخامس - فى إصلاح الأدوية وحفظها :

أما المقالة الثالثة فتحتوى على باب واحد فى قوى الأدوية المسهلة وإصلاحها، أما المقالة الرابعة فتضم اثنان وأربعين بابًا مخصصة لمنافع أعضاء الحيوانات.

وتضم المقالة الخامسة : بابين فى السموم وعلاماتها وعلاجها.

وتحتوى المقالة السادسة على ثمانية أبواب فى الأدوية المركبة والترياقات والأقراص والجوارشتات والربوب والأشربة والأدهان والمرهمات.

السابع - أربع مقالات فى البلدان والمياه والرياح والأفلاك والكواكب وينتهى بذكر ملخص من كتب الهند الطبية.

أ. د. محمد الجوادى

ابن رشد «الحفيد»
(٥٢٠ - ٥٩٥ هـ = ١١٢٦ - ١١٩٨م)

هو محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، المعروف «بالحفيد»، ولد سنة ٥٢٠هـ الموافق ١٢٢٦م، ينتمى إلى أسرة معروفة بالعلم والفقه والإفتاء؛ فوالده كان قاضيًا، وجده كان قاضيًا، وابن رشد «الحفيد» عمل أيضًا قاضيًا؛ ولذلك لقَّبوه بالحفيد تمييزًا له عن بقية القضاة من أفراد أسرته التى كانت تنتمى إلى المذهب المالكى.

وتوفى رحمه الله فى عام ٥٩٥هـ الموافق ١١٩٨م وحمل جثمانه إلى قرطبة ودفن بها.

تميَّز عصره بمجموعة من كبار العلماء الذين تتلمذ عليهم وأخذ عنهم، أمثال : ابن مسرة، وابن بشكوال، وابن سمحون، وابن طفيل، والزهرى.

وكان من أهم هذه الشخصيات أثرا فى حياته العلمية (ابن طفيل) الذى صاحبه فترة طويلة، وأثنى عليه أمام الخليفة «أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن»، وعرَّفه إلى الخليفة بأنه محب لعلوم الحكمة، فكلَّفه الأمير بشرح كتب أرسطو، وتوضيح الغامض فيها؛ نظرًا لما يجده الخليفة فيها من قلق فى العبارة، وغموض فى المعنى، فبدأ ابن رشد بشرح كتب أرسطو الفلسفية والمنطقية بعبارة سهلة ميسورة على الفهم، استجابة لرغبة الأمير، وعُرِف بالشارح الأكبر لأرسطو.

وتوثَّقت عُرَى ابن رشد بالأمير، وأصبح من أصفيائه، فطلب إليه الأمير أن يتولى قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥ هـ، فتقلده ابن رشد، واشتغل خلال ذلك بشرح كتب أرسطو.

كان كثير الترحل من قرطبة إلى إشبيلية إلى مراكش، اشتغل بالطب وألَّف كتابه «الكليات فى الطب» بمعونة صاحبه «ابن زهر»، ودعاه الأمير أبو يعقوب إلى مراكش ليكون طبيبه الخاص سنة ٥٧٨ هـ مكان ابن طفيل، ثم ولاَّه القضاء بقرطبة، وحين تولَّى الخلافة الأمير أبو يوسف يعقوب الملقب بالمنصور بعد وفاة أبيه ازدادت مكانة ابن رشد، وعلا نجمه، وطبقت شهرته الآفاق، فحقد عليه علماء عصره الذين نقموا عليه مكانته عند الخليفة، فدبَّروا له المكائد

واتهموه بالإلحاد والسخرية من الأديان ومهاجمة رجال الدين، ووجدت هذه المكائد قبولا لها عند الأمير، خاصة أنه كان فى نفسه شىء من ابن رشد، الذى كان قد رفع الكلفة بينه وبين الأمير، فكان يخاطبه بقوله : يا أخى، بدلا من ألفاظ الفخامة والتعظيم؛ فأوغر ذلك صدر الخليفة عليه، فأمر باعتقاله ونفاه إلى قرية كان يسكنها اليهود، وأحرق كتبه، وأصدر منشورًا إلى عامة المسلمين ينهاهم عن قراءة كتبه، وظل فى منفاه فترة طويلة إلى أن استدعاه المنصور من منفاه إلى مراكش، وشهد جماعة لابن رشد على أنه على نقيض ما ينسب إليه، فرضى عنه الخليفة وعفا عنه وعن أتباعه سنة ٥٩٥ هـ، وقرَّبه إليه وأحسن وفادته.

آراؤه وتأثيره :

لقد لعبت فلسفة ابن رشد دورًا بارزًا فى نهضة أوروبا ويقظتها خاصة بعد أن تعرَّف مفكروها على منهج ابن رشد فى التوفيق بين الحكمة والشريعة أو بين الفلسفة والدين، وكذلك بعد تعرفهم على فلسفة أرسطو وشروح ابن رشد عليها، فإن منهجه فى التوفيق بين العقل والدين قد أودعه فى كتابه «فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال»؛ حيث بيّن فيه أن العقل والشريعة توأم لأم واحدة هى الحقيقة، فالشريعة أخت للعقل، والعقل أخ للشريعة، لا يتعارضان بل يتعاونان.

كما كان نقده لمناهج المتكلمين فى كتابه «مناهج الأدلة فى عقائد الملة» ذا أثر كبير فى فلسفة «توماس الأكوينى» و «موسى بن ميمون»، فاقتفى كلّ منهما أثر ابن رشد فى نقد علماء اللاهوت اليهودى والمسيحى، وظهرت فى أوروبا ما يسمى بالرشدية، أو المذهب الرشدى، تعبيرًا عن أثر آراء ابن رشد فى فلاسفة عصره بأوروبا، كما ظهر حديثًا ما يسمى بالرشدية الحديثة على يد الفيلسوف الفرنسى «رينان» إحياء لفلسفة ابن رشد الذى امتد أثره الفلسفى فى أوروبا منذ عصر النهضة إلى التاريخ الحديث والمعاصر، وقد أكد هذه الحقيقة الفيلسوف الأسبانى المعروف «أسين بلاسيوس» فى كتابه المعروف «المذهب الرشدى الدينى عند «توماس الأكوينى» حيث فصل القول فى اشتهار آراء ابن رشد فى أوروبا عن طريق هذين الفيلسوفين «توماس الأكوينى» و«موسى بن ميمون».

نَقَدَ ابن رشد المتكلمين وخاصة الأشاعرة، وبيَّن أن المنهج الجدلى الذى سلكه المتكلمون فى الحوار بينهم وبين خصومهم ليس مؤسسًا على البرهان اليقينى، وأن مناهج القرآن فى البرهنة أكثر يقينًا ونفعًا من أدلة المتكلمين،

ولذلك فقد رفض ابن رشد منهجهم فى إثبات وجود الله، ورفض منهجهم فى الصفات الإلهية، وبيَّن أن المنهج القرآنى المؤسس على البرهان يغنى عن جدل المتكلمين الذين لم ينصروا بذلك دينهم ولا كسروا عدوهم، واختار أن يقدم البديل القرآنى، وهو الاستدلال على وجود الله:

١ - بدليل العناية الإلهية، المشهودة فى مفردات هذا الكون من سمائه إلى أرضه.

٢ - وبدليل الاختراع من العدم، الذى تقر به العقول وتشهد به البداهة.

ونقد فلسفة أرسطو فى النفس، وهى القول بأنها تفنى بفناء البدن، ورفض القول بنظرية الفيض التى قال بها فلاسفة المشرق، مثل: الفارابى وابن سينا، ولم يصرِّح بالقول بقدم العالم، وربما يفهم من رسائله فى علم الكلام عكس ذلك تمامًا.

وقد بلغ اهتمام فلاسفة اليهود بابن رشد درجة كبيرة، فتناولوا كتبه بالشروح والتلخيص والنقل إلى اللغة العبرية، ولما أمر الخليفة بإحراق كتب ابن رشد كان بعضها قد اختفى عند بعض تلامذته، ولم يجدوا لها أصلا مكتوبًا باللغة العربية، بل كان مكتوبًا باللغة العبرية أو اللاتينية، وبعضها كان مكتوبًا باللغة العربية لكن بحروف عبرية، وبفضل هذه الترجمات العبرية تعرَّف اليهود على فلسفة ابن رشد، وقلَّدوها فى مناهجهم، فلقد قامت طائفة «الربِّيون» بنقل كتبه إلى العبرية وتناولوها بالشرح والتعليق، وكان من أشهرهم يعقوب الأنطولى بنابولى (ت سنة ١٢٣٢م) وموسى بن ميمون (ت سنة ١٢٦٠م)، وشموئيل بن تيبون، وهو الذى ترجم كتاب «دلالة الحائرين» لموسى بن ميمون إلى اللغة العبرية، وبيَّن فيه اعتماده على منهج ابن رشد فى نقد المتكلمين، وظهر أثر هذا الكتاب واضحا فى مؤلفات «أسبينوزا» الفيلسوف المعروف، وخاصة كتابه «رسالة فى اللاهوت والسياسة» وأشهر من ترجم ابن رشد إلى العبرية «يهوذا بن عود سليمان كوهين (ت سنة ١٢٤٧م) وليفى جرشون الذى قام بشرح مؤلفات ابن رشد فى القرن الرابع عشر، وخاصة شروحه على أرسطو، حتى قيل: إن ابن رشد عند اليهود كأرسطو عند العرب، يقول يوسف بن يهوذا فى رسالته إلى ابن ميمون متغنيا بفلسفة ابن رشد : «وجدت ابنتك الفاتنة أمامى فخطبتها وفق الشريعة التى أنعم بها فى سينا، وقد تزوجتها بثلاثة أشياء؛ هى أننى أعطيتها صداقتى صداقًا لها، وكتبت حبى لها عقدًا، وعانقتها معانقة شاب لعذراء، ولم أستعمل العنف؛ فمنحتنى حبها، وربط روحى بروحها، وشهد على ذلك شاهدان معروفان هما أنت وابن رشد».

لقد عرفت فلسفة ابن رشد فى أوروبا المسيحية اليهودية قبل أن تعرف عند العرب، وحين حاول العرب حاليًا التعرف على فلسفة ابن رشد كانوا متأثرين بالرشدية الحديثة التى تبناها الفيلسوف الفرنسى «رينان»؛ حيث أظهر ابن رشد ملحدًا رافضًا للأديان، متهكمًا ساخرًا من الدين، وحاولوا أن يجعلوه رائدًا للتنوير بهذا المعنى الإلحادى الرافض للدين.

وهذا خطأ كبير يدل على جهلهم بتراث ابن رشد، وانتصاره للمنهج القرآنى البرهانى فى مواجهة المنهج الجدلى الذى أخذ به المتكلمون، فلقد أخطأ الرشديون اللاتين قديمًا حين فهموا أن ابن رشد حين هاجم المتكلمين فإنه بذلك قد هاجم الدين، وأنه حين رفض منهج المتكلمين قد رفض الدين. لا، إن ابن رشد هاجم المتكلمين ورفض منهجهم انتصارًا للدين ومنهجه البرهانى، وبيَّن أن خطأ المتكلمين لا ينسحب على الدين ولا على المنهج القرآنى.

وابن رشد فى مؤلفاته ينتصر للبرهان فى مواجهة الجدل والسفسطة، وينتصر لمنهج القرآن فى مواجهة الجدل بالباطل، فكيف يقال إنه رفض الدين وسخر منه.

من أهم مؤلفاته :

١ - تهافت التهافت.

٢ - مناهج الأدلة فى بيان عقائد الملة.

٣ - فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال.

٤ - الكليات فى الطب.

٥ - بداية المجتهد ونهاية المقتصد فى الفقه المالكى.

٦ - تفسير ما بعد الطبيعة (شروح على أرسطو).

٧ - منطق أرسطو (شروح على أرسطو).

أ.د. محمد السيد الجليند

مراجع للاستزادة :

١ - طبقات الأطباء، لابن أبى أصيبعة ٢/٧٥.

٢ - شذرات الذهب، لابن العماد الحنبلى ٤/٣٢٠.

٣ - التكملة، لابن الأنبارى ١/٢٦٩.

٤ - سير أعلام النبلاء، للذهبى ١٣/٧٠.

٥ - كتاب مهرجان ابن رشد بالجزائر، سنة ١٩٧٨م.

٦ - مقدمة الدكتور محمود قاسم لكتاب «مناهج الأدلة» لابن رشد.

٧ - أصالة ابن رشد وأثره فى الفكر اليهودى والمسيحى - د/ محمد السيد الجليند، ضمن بحوث الكتاب التذكارى محمود قاسم رحمه الله، ط ١ القاهرة، سنة ١٩٩٢م.

رفاعة الطهطـــاوى
(١٢١٦ - ١٢٩٠هـ = ١٨٠١ - ١٨٧٣م)

هو رفاعة بن بدوى بن على بن محمد بن على بن رافع - الشهير بالطهطاوى - نسبة إلى مسقط رأسه، مدينة «طهطا»، فى محافظة سوهاج، بصعيد مصر.

بعد حفظه للقرآن الكريم، غادر الصعيد إلى القاهرة، فالتحق بالأزهر الشريف (١٢٣٢هـ - ١٨١٧م) ليتخرج منه بعد ست سنوات، وليصبح أحد المدرسين فيه.

كان الشيخ حسن العطار (١١٨٠ - ١٢٥١هـ = ١٧٦٦ - ١٨٣٥م) أبرز شيوخ رفاعة الطهطاوى، فوجهه إلى طريق التجديد والاجتهاد فى طلب ودراسة العلوم غير التقليدية، وغير المألوفة لدى الأزهريين فى ذلك التاريخ..

وبعد عامين من التدريس بالأزهر، انتقل الطهطاوى إلى وظيفة الوعظ والإمامة فى الجيش - رشحه لذلك الشيخ العطار- فلما طلب الوالى محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥هـ = ١٧٧٠ - ١٨٤٩م) من شيخ الأزهر - حسن العطار - ترشيح أحد العلماء ليكون الإمام الدينى للبعثة الدراسية المسافرة إلى باريس، رشح العطار، الشيخ رفاعة، فسافر إلى باريس (١٢٤١هـ - ١٨٢٦م).. ولقد أوصاه شيخه العطار بتدوين مشاهداته فى بلاد الفرنسيس، على النحو الذى صنعه الرحالة المسلمون القدماء من أمثال ابن جبير، وابن بطوطة؛ لينتفع المسلمون بمطالعة هذه المشاهدات.

لكن الطهطاوى كان طموحا لما هو أكبر من الوظيفة التى اختير لها.. كان طموحا لإمامة فى العلم والمعارف تضاف إلى إمامته فى الصلاة والوعظ للمبعوثين، فبدأ تعلم الفرنسية منذ أن وطئت قدماه الباخرة التى سافر عليها من ميناء الإسكندرية.. وفى باريس طلب أن ينضم رسميا إلى سلك المبعوثين الدارسين.. فكان هناك إماما فى الدين، وطالب بعثة تفوق على أقرانه من طلاب العلم الحديث!..

ولقد أهلته إجادته للغة العربية - مع الفرنسية - للنهوض بترجمة مختارات من

فكر وعلوم الحضارة الفرنسية، التى كان الشرق العربى والإسلامى غريبا عنها، ومتطلعا إليها فى ذلك التاريخ.. وكان كتاب الطهطاوى (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) - الذى كتبه بباريس كأطروحة للتخرج - هو أول عين شرقية تطل على الحضارة الغربية الناهضة فى عصرنا الحديث.. كتبه الطهطاوى لا ليسلى ويمتع قومه بغرائب وعجائب الرحلات، وإنما «ليوقظ أمة الإسلام» من رقادها الحضارى الطويل!..

ولقد أعان التكوين الإسلامى للطهطاوى - كشيخ أزهرى - على أن لاينبهر ولا يندهش بكل ما رآه، فرأينا ملكته النقدية وقدرته فى مقارنة الفلسفات والأنساق الفكرية، تميز - فى فكر «الفرنجة» - بين العلوم الطبيعية وفنون التمدن والصناعات - والتى هى مشترك إنسانى عام بين كل الحضارات والثقافات والديانات - من ناحية، وبين العلوم الإنسانية والدينية - علوم تثقيف وتهذيب النفس الإنسانية - والتى تتمايز فيها الحضارات والديانات من ناحية أخرى ..

فأدرك - فى دراسته لفكر «الفرنجة» - الفروق بين ما سماه «علوم التمدن المدنى.. العلوم الحِكْمِيَّة.. اللازمة لتقدم الوطن» - وهى التى نحن أحوج ما نكون إليها.. والتى سبق وأخذها الغرب عن الحضارة الإسلامية، أدرك الفروق بين هذه العلوم الطبيعية والبحتة والمحايدة من ناحية، وبين «الفلسفة الوضعية المادية»، التى كفرت حتى بالنصرانية من ناحية أخرى ، والتى اعتمدت فقط على العقل المجرد والنواميس الطبيعية فى تحصيل المعارف والعلوم وقد ثم فقد، منكرة على عالم الغيب والوحى الإلهى أن يكونا مصادر المعارف والعلوم.

ومن ثم فقد دعا الطهطاوى إلى التتلمذ على أوروبا فى علوم التمدن المدنى، لتطوير وتحضّر واقع أمتنا، ورفض الفلسفات الوضعية والمادية الأوروبية، قائلا عنها: «.. ولهم فى الفلسفة حشوات ضلالية مخالفة لكل الكتب السماوية».. فهو لم يرفضها لأنها نصرانية - وهو شيخ مسلم - وإنما رفضها لإدراكه مخالفتها لمطلق الدين، أىّ دين، وكل دين!.. ولم يكن فى هذا الرفض للفلسفة الوضعية رفض للعقل أو غض من شأن النواميس والقوانين الطبيعية، وإنما كان بسبب إهمالها للشرع والدين، فنبه الطهطاوى على تميز فلسفة الإسلام عن تلك الفلسفة المادية، بجعل الشرع مع العقل هما المعيار لحُسْن الأشياء أو قُبحها، على حين اعتمدت تلك الفلسفة الوضعية العقل دون الدين..

وانطلاقا من هذا الوعى الإسلامى بتمايز

الحضارات، والإدراك لميادين الاشتراك والتفاعل، وميادين الخصوصية والتمايز، دعا الطهطاوى إلى الانفتاح على أوروبا فى علوم التمدن المدنى، فكتب يقول: «إن مخالطة الأغراب، لاسيما إذا كانوا من أولى الألباب، تجلب للأوطان المنافع العمومية. والبلاد الإفرنجية مشحونة بأنواع المعارف والآداب التى لا ينكر إنسان أنها تجلب الأُنس وتزين العمران، فهم يعرفون التوفير وتدبر المصاريف، حتى أنهم دونوه وجعلوه علما»!..

وأبصر الطهطاوى تقدم فرنسا فى الحرية.. ومؤسساتها الدستورية والنيابية والقانونية.. فنبه أمته إلى مكانة الحرية فى التمدن والعمران، وإلى مميزات النظم الدستورية المقيدة سلطات حكوماتها بالقانون.. لأن «الحرية - (كما قال) - هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك.. فإذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى، وإسعادهم فى بلادهم، وكانت سببا فى حبهم لأوطانهم. ولقد تأسست الممالك: لحفظ حقوق الرعايا، والحرية، وصيانة النفس، والمال، والعرض، على موجب أحكام شرعية، وأصول مضبوطة مرعية. فالملك يتقلد الحكومة لسياسة رعاياه على موجب القوانين..».

وفى ذات الوقت - الذى دعا فيه الطهطاوى الأمة للانفتاح على أوروبا فى هذه الميادين - انتقد ورفض الفلسفة الوضعية المادية، التى أخرجت غالب الفرنجة من نصرانيتهم.. فكتب يقول:

«أيوجد مثل باريس ديار

شموس العلم فيها لا تغيب

وليل الكفر ليس له صباح

أما هذا وحقكم عجيب!

فبلاد الإفرنج مشحونة بكثير من الفواحش والبدع والضلالات، وإن كانت من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية.. إن أكثر أهل هذه البلاد إنما له من دين النصرانية الاسم فقط، حيث لايتبع دينه، ولا غيرة له عليه، بل هو من الفرق المُحَسِّنَة والمُقَبِّحَة بالعقل.. أو فرقة من الإباحيين الذين يقولون: إن كل عمل يأذن فيه العقل صواب.. ولذلك، فهو لا يصدّق بشىء مما فى كتب أهل الكتاب، لخروجه عن الأمور الطبيعية».

وفى مواجهة هذه الفلسفة الوضعية، التى رآها الطهطاوى كافرة بمطلق الدين، وليس فقط بالإسلام، قدم - فى نظرة مقارنة عميقة - فلسفة الإسلام المتميزة بالجمع ما بين العقل والشرع، فقال: «إن تحسين

النواميس الطبيعية لا يعتد به إلا إذا قرره الشارع.. ولاعبرة بالنفوس القاصرة، الذين حكّموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التى ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود، بتعدى الحدود.. وليس لنا أن نعتمد على مايُحسّنه العقل أو يُقبّحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه.. فينبغى تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة..».

وكما رفض الطهطاوى وضعية الغرب فى الفلسفة - تلك التى فصلت الشرع عن العقل - رفض هذه الوضعية كذلك فى القانون - عندما استبعدت القيم والأخلاق والضوابط الدينية من القانون.. فأقامته على المنفعة الدنيوية وحدها.. ولذلك دعا الطهطاوى إلى تقنين الشريعة الإسلامية، وفقه معاملاتها، لتكون لها الحاكمية فى بلاد الإسلام، بدلا من «قانون نابليون» - الذى كان قد بدأ يتسرب إلى الشرق فى ركاب التجار والاستعمار - فكتب يقول: «إن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلّت بالحقوق، بتوفيقها على الوقت والحالة.. ومن أمعن النظر فى كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية.. إن بحر الشريعة الغراء، على تفرع مشارعه، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقى والرى، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية.. لأنها أصل، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع..».

هكذا نظر الطهطاوى إلى الحضارة الأوروبية، نظرة العالم المسلم، المدرك لمناطق الاشتراك ومناطق التمايز فى علاقات الحضارات وتفاعل الثقافات..

وفى المشروع الإصلاحى الذى بشر به الطهطاوى، كان الرجل فى طليعة الدعاة إلى إحياء الروح الوطنية، وتوظيف عاطفتها الفطرية فى التقدم والتمدن للوطن وأهله.. «فما أسعد الإنسان الذى يميل، بطبعه، لإبعاد الشر عن وطنه، ولو بإضرار نفسه!.. فصفة الوطنية لاتستدعى فقط أن يطلب الإنسان حقوقه الواجبة له على الوطن، بل يجب عليه، أيضا، أن يؤدى الحقوق التى للوطن عليه.. فإذا لم يوف أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التى يستحقها على وطنه!.. والتقدم لايتم بدون انجذاب قلوب الأهالى إلى الوفاء بحقوق هذا الوطن العظيم!..».

بل لقد كان الطهطاوى أول شاعر نظم العديد من الأناشيد الوطنية فى عصرنا الحديث.. وفى أحدها يقول:

مـن أصـل الـفـطـرة لـلـفَـطِـن

بـعــد الـمـولى حــب الـوطـن

هـبــةٌ مَـنَّ الـوهـــابُ بـهـــا

فـــالحــــمــد لـوهـّـاب المِنَن

وكــانت الوطنيــة - عند الطهطاوى - منطلقــا إلى دائرة أوسع منهــا، هى دائرة العروبة، القائمة على عروبة اللغة واللسان، وذلك «لأن العرب هم خيار الناس، ولسانهم أفصح الألسن.. ولقد اشتهرت أمة العرب، جاهلية وإسلاما، بالفضائل...»

بل لقد رأى كلا من الوطنية والعروبة فى دائرة الانتماء لحضارة الإسلام.. حتى لقد نظر إلى حروب محمد على باشا ضد الدولة العثمانية، باعتبارها حركة إحياء وتجديد لشباب الدولة الإسلامية الجامعة.. «فهى - (برأيه) - لم تكن من محض العبث، ولا من ذميم تعدى الحدود، وإنما جل القصد منها: تنبيه أعضاء ملة وجنسية عظيمة، تحسبهم أيقاظا وهم رقود»!..

وفى الفلسفة الاجتماعية الخاصة بالثــروات والأمــوال، رفض الطهطاوى الاشتراكية الخيالية (الطوباوية) الفرنسية - ذات النزعة الوضعية الإلحادية - كما بشر بها الفليسوف الفرنسى «سان سيمون» (١٦٧٥هـ - ١٧٥٥م).. كما رفض مشاعية وشيوعية المزدكية الفارسية والقرامطة القدماء..وفى ذات الوقت لم يحبذ الفردية الرأسمالية فى صورتها الليبرالية الأوروبية.. وإنما دعا إلى نظام اجتماعى متوازن، لايهمل معيار ملكية رأس المال أو الأرض الزراعية، مع تغليب نصيب «العمل» على نصيب «الملكية» فى عائد الأرض والصناعات والتجارات.. ذلك «أن منبع السعادة الأولى هو العمل والكد.. وإن أعظم حرية فى المملكة المتمدنة هى: حرية الفلاحة، والتجارة، والصناعة، والعدل أساس الجمعية التأنسية- (المجتمع الإنسانى) - والعمران والتمدن، فهو أصل عمــارة الممــالك، التى لايتم حسن تدبيرها إلا به، وجميع ما عدا العدل من الفضائل متفرع عنه، وكالصفة من صفاته.. وحب النفس خصلة جامعة لجميع العيوب والذنوب، مخلة بالجنس البشــرى، إلا إذا صحبهــا حب مثل ذلك للإخوان وأهل الأوطان.. ومذهب المزدكية يدعو إلى تساوى الناس فى الأموال، وأن يشتركوا فى النساء.. وهو قريب من مذهب القرامطة، فى أيام الخلفاء، ومن مذهب سان سيمون الجديد بفرنسا.. فكل زمان عرضة لخروج أرباب الضلالات من شياطين الإنس، على اختلاف الجنس!..».

وفى الموقف من المرأة.. كــان الطهطاوى

طليعة الدعاة إلى تحريرها، بالعلم والعمل، وإلى مساواتها بالرجل، مع مراعاة مقتضيات التمايز الفطرى بين الأنوثة والذكورة.. ذلك «أن العاقل إذا أمعن النظر الدقيق فى هيئة المرأة والرجل، فى أى وجه من الوجوه، وفى أى نسبة من النِّسب، لم يجد إلا فرقا يسيرا يظهر فى الذكورة والأنوثة ومايتعلق بهما، فالذكورة والأنوثة هى موضع التباين والتضاد.. وكلما كثر احترام النساء عند قوم كثر أدبهم وظرافتهم، فعدم توفية النساء حقوقهن، فيما لهن الحرية فيه، دليل على الطبيعة المتبربرة!.. والعمل يصون المرأة عما لا يليق، ويقربها من الفضيلة، وإذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال، فهى مذمة عظيمة فى حق النساء»!..

وكان الطهطاوى داعية إلى تعميم التعليم، باعتباره ضرورة إنسانية، كالخبز والماء!.. وإلى تأسيس التمدن والتقدم على التربية، التى تنمى الجسد والروح والأخلاق على السواء.. «فالأمة التى تتقدم فيها التربية بحسب مقتضيات أحوالها، يتقدم فيها أيضا التقدم والتمدن.. بخلاف الأمة القاصرة التربية، فإن تمدنها يتأخر بقدر تأخر تربيتها.. فالتربية هى أساس الانتفاع بأبناء الوطن.. والتعليم الأوّلى ضرورى لسائر الناس، يحتاج إليه كل إنسان كاحتياجه إلى الخبز والماء.. والتعليم العالى فيه تمدين جمهور الأمة، وترقيها فى الحضارة والعمران..».

وإذا كان الطهطاوى قد صاغ لأمته ملامح مشروعًا نهضويًا- للتقدم والتمدن - فى مؤلفاته ومترجماته التى قاربت الخمسين كتابا ورسالة - والتى كان من أهمها (تخليص الإبريز فى تلخيص باريز) و(مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية) و(المرشد الأمين فى تربية البنات والبنين) و(نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز) و(أنوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى إسماعيل) و(القول السديد فى الاجتهاد والتقليد) و(التحفة المكتبية لتقريب اللغة العربية) و(مجموع فى المذاهب الأربعة) و(أرجوزة فى التوحيد)... إلخ . فإن الطهطاوى لم يكن مجرد رائد فى الفكر، اجتهد فى صياغة معالم المشروع النهضوى لأمته.. وإنما كان - مع ذلك - «رجل دولة»، جسد مشروعه الفكرى من خلال ممارساته التطبيقية، وبواسطة المؤسسات الجديدة التى أقامها أو عمل بها، وأيضا من خلال الرجال الذين صنعهم على عينه لنشر وتطبيق هذا المشروع.. فلقد عمل الطهطاوى - منذ عودته من باريس (١٢٤٧هـ - ١٨٣١م) فى وظائف الترجمة.. والتعليم.. وأقام وأدار المدرسة

الجامعة «مدرسة الألسن».. وعمل بالصحافة - فى «الوقائع المصرية».. و«روضة المدارس».. واختار للطباعة والنشر عيون التراث الإسلامى، كما انتقى للترجمة والنشر عيون الفكر الغربى.. ولم ينس أن يقيم للتعليم العالى قاعدة للتعليم الأولى والعام، من خلال شبكة «الكتاتيب الحديثة» التى طاف أنحاء البلاد لإنشائها، والإشراف عليها، والتى كان ينتقى نجباء طلابها للتعليم المتوسط - التجهيزى - والعالى.. وإذا كنا نريد أن نستحضر طرفا من عظمة الجهد الذى بذله الطهطاوى فى هذا الميدان، فيكفى أن نعلم أن الرجل قد كان يطوف أنحاء الوطن، لا بالقطار أو السيارة، فضلا عن الطائرة، وإنما على ظهر المراكب الشراعية فى النيل وفروعه.. وهى مراكب لم تكن مخصصة للنزهة أو حتى الأسفار، وإنما كانت تحمل المحاصيل الزراعية، وجذوع الأشجار، بل و«بلاليص» الجبن والعسل من الريف المنتج إلى مدن الاستهلاك!.. على هذه السفن طاف الطهطاوى أنحاء الوطن - الذى أحبه - لينشر فيه، وليصنع على أرضه وليقيم فى قراه معالم المشروع الحضارى الذى بلوره من العلم الذى اكتسبه من الأزهر الشريف - منارة الإسلام - ومن «باريز» «إيوان وتَخْت دولة الفرنسيس»!.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١ - الخطط التوفيقية لعلى مبارك جـ١٣/٥٣.

٢ - الثغر الباسم لأحمد رافع الطهطاوى، ص٤٦.

٣- أعيان البيان للسندوبى، ص٩٠.

٤- الأعلام للزركلى، جـ٣/٢٩.

الرفاعـــى
(٥١٢ - ٥٧٨ هـ = ١١١٨ - ١١٨٣م)

هو أبو العباس: أحمد بن على. ولد فى رجب عام ٥١٢ هـ (أكتوبر - نوفمبر ١١١٨ م)، فى قرية "حسن" إحدى قرى ناحية البصرة، فى إقليم البطائح، ومن هنا نسبته "البطائحى".

أما كلمة "رفاعى" فإنها تفسر عادة بأنها إشارة إلى سلف من أسلافه يدعى "رفاعة" الذى هاجر من مكة إلى أشبيلية بالأندلس عام ٣١٧هـ، ومنها وَفَدَ جدّ أحمد إلى البصرة عام ٤٥٠ هـ، ومن هنا لقب بالمغربى. وتشير معظم الروايات إلى أن والده توفى فى بغداد، عام ٥١٩ هـ عندما كان ابنه أحمد فى السابعة من عمره. ثم كفله خاله منصور البطائحى، وكان مقيماً عند نهر دجلة بالبصرة، وشيخاً لطائفة الرفاعية. وقد أرسله منصور هذا إلى واسط ليتفقه على أبى الفضل على الواسطى من شيوخ الشافعية، وعلى خاله أبى بكر الواسطى.

وظل أحمد الرفاعى يتلقى العلم حتى السابعة والعشرين من عمره، ثم نال إجازته على أبى الفضل، كما أجازه خاله منصور الذى طلب إليه أن يستقر فى أم عبيدة وكان فيها مال لأسرة والدته. وفى العام التالى٥٤٠هـ توفى خاله منصور تاركاً مشيخة الطائفة إلى أحمد، ومؤثراً له على ولده.

وكان يكسب قوت يومه بنفسه وهو يطلب العلم، فقد عمل راعيا وسقّاء وحطّاباً. وكان يذهب إلى حلقات العلم فى أى مكان مهما كلفه ذلك من جهد. وكان ﵁ يكره أن يتشبه بالعظماء، أو أن يقوم له الناس كلما حضر أو انصرف، بل إنه رفض أن يتخذ خادماً يعينه فى حاجاته؛ لأن دخله كان محدوداً، بل كان يرفض المعونات التى ترد إليه من تلاميذه ومريديه، لأن من يستغل تلاميذه ومحبيه يخسر الدنيا والآخرة.

وقد روى أن الرفاعى تزوج أول ما تزوج من خديجة ابنة خاله منصور، ثم تزوج بعد وفاتها نفيسة ابنة محمد بن القاسمية. وقد أنجب الرفاعى الكثير من البنات، كما كان له ثلاثة أبناء توفوا جميعاً فى حياة الرفاعى.

وخلفه على مشيخة الطريقة : على بن عثمان، أحد أبناء أخته.

وتوفى رحمه الله تعالى فى ٢٢ جمادى الأولى عام ٥٧٨ هـ (٢٣ سبتمبر ١١٨٣م) فى أم عبيدة من ناحية واسط بالعراق، عن عمر يناهز خمسة وستين عاماً.

كان الإمام أحمد الرفاعى رضى الله تعالى عنه، أحد أعلام التصوف الإسلامى السنى. وقد كان هذا اللون من التصوف الروحى المعتدل هو منطلق الإصلاح لدى الرفاعى سواء على مستوى الفرد أم مستوى الجماعة. وقد ساعده على ذلك أنه تولى مشيخة "الطريقة الرفاعية" بعد خاله؛ بحيث أصبح له مريدون لا يحصون، كما أصبحت "أم عبيدة" مركزاً كبيراً للطريقة الرفاعية، تلك التى تقع بين البصرة وواسط.

ويؤثر عن الرفاعى أنه كان متبعاً للكتاب والسنة، وكان يحث أتباعه على ذلك قائلاً لهم: "أى سادة : كونوا مع الشرع فى آدابكم كلها ظاهراً وباطناً".

وبعد أن يطالبهم بصدق النية والمجاهدة يقول لهم أيضاً : "لم أجد أقرب وأوضح وأحب من العمل بالسنة المحمدية، والتخلق بخلق أهل الذل والانكسار والحيرة والافتقار".

كان يطالب بتعظيم شأن الأولياء والعرفاء؛ فإن الطريق واحد. ذلك أن العلماء والفقهاء هم وارثو ظاهر الشريعة، وهم حملة أحكامها الذين يعلمونها للناس، وبها يصل الواصلون إلى الله؛ إذ لا قيمة لعمل مغاير لطريق الشرع. ولو أن عابداً عبد الله - تعالى - خمسمائة عام بطريقة غير شرعية، فلا يقيم الله له وزنا يوم القيامة، وعبادته مردودة عليه. ورب ركعتين من فقيه فى دينه أفضل عند الله من ألفى ركعة من جاهل فى دينه.

وكل ذلك يشير إلى أن الرفاعى كان متصوفاً سنيا بعيدا عن الغلو والابتداع، بل كان ينص على أن كل الآداب منحصرة فى متابعة النبى ﷺ قولاً وفعلاً وحالاً وخلقاً. ولذا وجب وزن أخلاق الصوفى وأقواله وأفعاله بميزان الشرع.

وكان رضي الله عنه ينهى بشدة عن الطرق الصوفية التى ينتج عنها الدجالة والشيطانية؛ لبعدها عن أحكام الله وعن العلم النافع، بل كان يتبرأ ممن يتكسب من لعب الأفاعى.

وكان هو لشدة أدبه مع الله شديد التحكم فى نفسه، فلم يؤثر عنه أى شطح فى كلامه بل كان ينتقد الشاطحين أشد الانتقاد، وأنكر على الحلاج قوله : "أنا الحق" و "ما فى الجبّة إلا الله". ونفى عنه الوصول.

وإن منهج الرفاعى فى التمسك بشريعة

الله - تعالى - وفى حث أتباعه على ذلك ليدل على خطأ الرأى الذى يذهب إلى أن اتباع أى من الطرق الصوفية، إنما هو خروج عن الأصول الشرعية للإسلام، فها هى الطريقة الرفاعية تبطل ذلك التعميم.

وكما كان الرفاعى حريصاً على اتباع أحكام الشريعة الغراء مع حث مريديه على ذلك، فقد كان أيضاً متمسكاً بمكارم الأخلاق الإسلامية. ولذلك أثر عنه التواضع الجم والبساطة والزهد فى متاع الدنيا، دون تقصير فى أداء أى واجب، وكان يقول : "ما دخل ساحة القرب من استصغر الناس واستعظم نفسه". كما كان يقول : "كل الفقراء ورجال هذه الطائفة خير منى".

وكان سلوكه العملى ينفى عن طريقته أى اتهام بالكسل والسلبية، فقد كان يعمل بالاحتطاب والرعى وغيرهما، حتى يضمن لقمة العيش التى تغنيه عن الناس. بل كان يشترط على كل من يستمع إلى دروسه أن يكون له عمل، فلا يجوز أن ينضم إلى صفوفه عاطل؛ ولذا أعلن شعار طريقه قائلاً:

"طريقى : دين بلا بدعة، وهمة بلا كسل، وعمل بلا رياء، وقلب بلا شغل، ونفس بلا شهوة ".

ومن سمات منهج الرفاعى فى الإصلاح شئ هام جدا، ألا وهو "الحب" الذى يملأ قلبه وروحه ووجدانه وآفاق حياته وكان مبدأ ذلك "محبته لله" ومنه انبثق حبه للناس جميعاً، بل لكل الكائنات.

وكان يخص بالمحبة والرعاية الأرامل واليتامى، بل كان إذا رأى يتيماً يبكى تهتز مفاصله، وترتعد أعضاؤه حناناً وشفقة عليه. يضاف إلى هذا رعايته للمرضى والعميان وكبار السن، والفقراء والمساكين.

فلم يذكر مريدو أحمد الرفاعى أنه ألف أيّة رسالة، إلا ما تفرد أبو الهدى الصيادى بذكره كما يلى :

١ - البرهان المؤيد (منشور) و (محقق).

٢ - حالة أهل الحقيقة مع الله.

٣ - مجلسان ألقاهما عام ٥٧٧هـ، وفى عام ٥٧٨ هـ.

٤ - ديوان من القصائد الطوال.

٥ - مجموعة من الأدعية والأوراد والأحزاب.

٦ - عدد كبير من أقوال شتى تطول أحياناً حتى تبلغ مبلغ المواعظ، ولا تخلو من الترديدات والإعادات.

هذا وقد كان الإمام الرفاعى رضى الله عنه : عالماً وإماماً وأديباً وفيلسوفاً وداعياً

إلى الخير والحب والفضيلة، وكان نموذجاً فريدا فى عالم التصوف.

وقد عاش فى ظل العصر العباسى الثانى، فى وقت ازدهر فيه التصوف علماً وعملاً، لكنه صار إماماً فيه، وكان له مريدون لا يحصون شرقاً وغرباً قديماً وحديثاً.

أ. د. عبد اللطيف محمد العبد

مراجع للاستزادة :

١ - ابن خلكان : وفيات الأعيان.
٢ - الذهبى : تاريخ الإسلام.
٣ - أبو الهدى الصيّادى : تنوير الأبصار - ط ١٣٠٦هـ القاهرة .
٤ - أبو الهدى الصيّادى : قلادة الجواهر - ط ١٣٠١هـ بيروت.
٥ - ابن الجوزى: مرآة الزمان. ص ٢٣٦ ط ١٩٠٧م شيكاغو.
٦ - الشيخ محمد محمود السطوحى : التصوف وأقطابه. ص ٢٠-٢٥، ط ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م كتاب الجمهورية الدينى أول يوليو - العدد ١٠.
٧ - دائرة المعارف الإسلامية - مادة "الرفاعى" ١٠ : ١٤٧-١٤٩، مرجليوث. ترجمة الشنتناوى. طبعة وزارة المعارف بمصر.
٨ - د. كامل مصطفى الشيبى : الفكر الصوفى والنزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثانى عشر الهجرى. ص ٢٢٢، مكتبة النهضة بمصر ١٩٦٦م.
٩ - ابن كثير : البداية والنهاية ١٢ : ٣١٢، طبعة مصر ١٣٥١هـ.
١٠ - أحمد الرفاعى : البرهان المؤيد. ص ٢٤، ٥٤ وانظر إلى ٦١ تحقيق : صفوت السقا - طبعة ١٣٨٢هـ مكتبة ربيع بحلب.
١١ - د. عامر النجار : الطرق الصوفية. ص ٨٩-١٠٥. ط ١٩٧٨م. مكتبة الأنجلو المصرية.
١٢ - صلاح عزام : أقطاب التصوف الثلاثة ص ٣٢، ط ٣، ١٣٨٨هـ. دار الشعب بالقاهرة.

روزبهـــــان البقـلى
(٠٠٠هـ - ٦٠٦هـ)

من كبار صوفية الفرس وُلد بشيراز فى أواخر القرن السادس الهجرى وأوائل القرن السابع، بدأت رحلته الروحية الصوفية فى وقت مبكر جدا فيقول: إنه عندما كان طفلا صغيرا خطر على قلبه هذا السؤال: أين ربك ورب المخلوقات؟ ولم يستطع - بالطبع - أن يصل إلى جواب لتساؤله، وكان بيت أسرته يقع بجوار أحد المساجد فذهب إليه فوجد عنده بعض الشباب فسألهم: هل تعرفون ربكم؟ فأجابوه بما يفيد أن الله تعالى مُبَرَّأ من الأعضاء والجوارح. ويقول: إنه عندما سألهم هذا السؤال أحس باضطراب مشاعره ثم انطلق يعدو، وقد أحس بما يشبه الوميض المفاجئ الذى أعقبه نوع من التأمل والتفكير ولكنه عجز عن الفهم الحقيقى لما حدث له، وكان عليه أن ينتظر إلى سن السابعة وعندئذ وجد أن قلبه قد صار مغرمًا بمداومة الذكر والاستغراق فى العبادة والتقوى، وبدأ يبحث عن الحقيقة، ويقوم بأداء بعض التدريبات والمجاهدات الروحية، وقد شعر حينئذ بأن قلبه بدأ يذوب حبا لله ووجْدًا.

وقد وصفه ابن عربى (٦٣٨هـ) الذى كان معاصرًا له بأنه: «كان كثير الزعقات فى حال وجده فى الله بحيث إنه كان يشوش على الطائفين بالبيت». ولكن حبه لله تعالى لم يحل بينه وبين أن يحس بالحب البشرى العنيف الذى تعلق فيه قلبه بحب امرأة مغنية وكان ذلك أثناء مقامه بمكة، وكان روزبهان كما يصفه ابن عربى «صادق الحال، ولما ابتلى بحب هذه المغنية لم يشعر به أحد، وانتقل حكم ذلك الذى كان عنده بالله بها، وعلم أن الناس يتخيلون فيه أن ذلك الوجد لله على أصله، فجاء إلى الصوفية وخلع الخرقة ورمى بها إليهم، وذكر للناس قصته وقال: لا أُريدُ أكذبُ فى حالى «ولما علمت المرأة مكانته بين الصوفية تابت إلى الله ببركة صدقه، ولزمت خدمته، وأزال الله ذلك التعلق بها من قلبه، فرجع إلى الصوفية ولبس خرقته، ولم ير أن يكذب مع الله فى حاله».

وقد كان من معاصرى روزبهان كذلك الشيخ نجم الدين الكبرى (٦١٨هـ) والشيخ

شهاب الدين عمر السهروردى صاحب «عوارف المعارف» (٦٣٢هـ) وكان البقلى ينتسب إلى الطريقة السهروردية، التى وضع أصولها أبو النجيب السهروردى ثم أسهم صاحب «العوارف» فى تحديد قواعدها ويقول موليه Molé: «إن البقلى الصوفى الأكبر لشيراز يرتبط بالسهروردية، وقد ألف كثيرًا من الأعمال عن الحب الإلهى والحب البشرى، وهى أعمال تؤدى دراستها إلى فهم أعمال واحد من كبار الشعراء الغنائيين الفارسيين وهو حافظ الشيرازى».

ويعد كتابه «عرائس البيان» الذى خصصه لتفسير القرآن الكريم واحدًا من أهم الكتب الصوفية فى مجال التفسير، وقد نَحَا فيه مَنْحىً رمزيا، أغْربَ فيه فى كثير من الأحيان، وحمَّل بعض الآيات أنواعا من التأويلات البعيدة المغرقة فى الغموض والإبهام وقد شرح منهجه فى أول كتابه قائلاً «ولما وجدت أن كلامه الأزلى لا نهاية له فى الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد إلى كماله وغاية معانيه؛ لأن تحت كل حرف من حروفه بحرًا من بحار الأسرار، ونهرًا من أنهار الأنوار... فتعرضت أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات والأبديات التى تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء،...».

ومن أهم كتبه كذلك كتاب «مشرب الأرواح»، وقد خصصه لشرح طريق السلوك إلى الله تعالى وتحدث فيه عن مقامات الطريق الصوفى وأوصلها إلى ألف مقام فى كتابه هذا. وقد شرح منهجه فى صدر كتابه هذا فقال: «... وبعد فإنى لما جذبنى جاذب الحق إلى باب عبوديته، وأقامنى على بساط ربوبيته، وأرانى تيسير السر، وجولان القلب، ودور العقل، وذو [ق] الروح [من] لطائف ملكوته، وخلال غرائب جبروته، وأدارنى فى مقامات الولاية، وسقانى شراب المحبة، وكحَّل عينى بكحل المعرفة... أردت أن أخبر المريدين عن بعض مقامات العارفين... فاخترت من جملتها على قدر مفهومهم ألف مقام، ليعرفوا مذاهب الأولياء، ومسالك الأصفياء... فإن بين العباد والرب سبحانه منازل إذا لم يسلكوها لم يعرفوا حقائق العبودية والربوبية، ولم يذوقوا حلاوة الوصال، ولم يطعموا طعم المحبة فى المشاهدات... فرسمت بعون الله وحسن تأييده ألف مقام على عشرين بابًا».

وقد جعل فى كل باب خمسين مقامًا، وسماها بأسماء أحوال أهل الطريقة «أولها باب فى مقامات المجذوبين، والثانى للسالكين، والثالث للسابقين، والرابع للصدِّيقين، والخامس للمحبين، والسادس للمشتاقين، والسابع للعاشقين، والثامن للعارفين، والتاسع

للشاهدين، والعاشر للمقربين، والحادى عشر للموحدين، والثانى عشر للواصلين، والثالث عشر للنقباء، والرابع عشر للأصفياء، والخامس عشر للأولياء، والسادس عشر للخلفاء، والتاسع عشر للبدلاء، والعشرون للأقطاب، وبنهايته يتم المقامات».

وله كذلك «رسالة الأنس فى روح القدس» وقد تسمى «رسالة القدس».

كما كتب كتابا بالفارسية، شرح فيه شطحات الحلاج (٣٠٩هـ)، وأورد فيه بعض نصوص كتاب «الطواسين».

ويعد كتابه «عهد العاشقين» من أشهر كتبه وهو يتغنى فيه بالحب الإلهى الذى تمتلئ به قلوب العارفين المحبين.

وتصل مؤلفاته إلى نحو سبعة وعشرين كتابًا بالعربية والفارسية، فى علوم مختلفة تدل على سعة معارفه، فألَّف فى التفسير، والحديث، والفقه، وعلم الكلام. ومما يؤسف له أن كثيرًا من هذه المؤلفات قد تعرض للفقد والضياع، كما حدث للكثير من كتب التراث العربى الإسلامى.

وقد أسس روزبهان حلقة صوفية خاصة به فى شيراز، سميت بالروزبهانية، نسبة إليه، وقد انتشرت هذه الطريقة مع الأيام وامتدت من فارس إلى مراكش، وفى أواخر القرن الثامن عشر كانت هذه الطريقة لا تزال مزدهرة.

وقد اتخذ روزبهان مكانة رفيعة بين كبار الصوفية، ووصفه فخر الدين العراقى (١٢٨٩م) بأنه لم يعرف له مثيل فى الطهر والحقيقة، وأنه كان جوهرة، وسيدًا للعارفين والعاشقين جميعهم، وكان إمامًا للواصلين، وقد توفى سنة ٦٠٦هـ، ودفن بشيراز فى المسجد الجامع الذى كان يخطب فيه.

أ.د. عبد الحميد مدكور

مراجع للاستزادة:

١ ـ التفسير والمفسرون. د/ محمد حسين الذهبى، مكتبة وهبة، الجزء الثانى ط ٣/١٩٨٥م.

٢ ـ شيراز مدينة الأولياء والشعراء. آرثر أربرى، ترجمة د/ سامى مكارم. مكتبة لبنان، بيروت ١٩٦٧م.

٣ ـ عهد العاشقين لروزبهان البقلى تحقيق الأستاذ محمد معين، مع مقدمة باللغة الفرنسية للأستاذ هنرى كوربان. طبع باريس ١٩٥٨م.

٤ ـ الفتوحات المكية لمحيى الدين ابن عربى. دار صادر. بيروت، الجزء الثانى.

٥ ـ كتاب مشرب الأرواح لروزبهان البقلى، تصحيح وتقديم: أ/ نظيف محرم خواجه، نشريات كلية الآداب بجامعة إستانبول ١٩٧٣م.

الزبيــدى
(١١٤٥ - ١٢٠٥هـ = ١٧٣٢ - ١٧٩٠ م)

هو أبو الفيض: محمد بن محمد بن محمد بن عبدالرزاق الحسينى الزَّبِيدى الملقب بمرتضى، ينتهى نسبه إلى زيد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب، عالم باللغة والحديث والأنساب ومن كبار المصنفين، أصله من مدينة واسط بالعراق، ومولده فى بلجرام (فى الهند)، ١١٤٥هـ = ١٧٩٠م، ونشأ فى مدينة زَبِيد باليمن، ورحل إلى الحجاز، ثم إلى مصر، إذ دخلها سنة ١١٦٧هـ = (١٧٥٥م) وهو فى الحادية والعشرين من عمره، وبها استقر حتى وفاته، ولقى حظوة من أهلها سواء من الكبراء والعلماء أو من العامة، وكاتبه ملوك الحجاز والهند واليمن والشام والعراق والمغرب والسودان ومن دار الخلافة فى الآستانة.

وتوزع نشاطه فى مصر بين التدريس (فى جامع شيخون بصفة خاصة) والتأليف، وقد قرأ عليه عدد كبير من التلاميذ لا من مصر وحدها، بل كذلك من سائر أنحاء العالم الإسلامى، ومن أبرز تلاميذه عبدالرحمن الجبرتى الذى ترجم له ترجمة طويلة فى تاريخه، وقد تزوج الزبيدى فى مصر، وحينما توفيت زوجته بغير أن ينجب منها فى سنة (١١٩٦ هـ -١٧٨٢م) حزن عليها حزنًا شديدًا، فانقطع عن التدريس واعتزل الناس، واتجه إلى التصوف، وظل فى عزلته حتى وفاته فى الطاعون الذى اجتاح مصر سنة ١٢٠٥هـ = ١٧٩٠م.

أما عن مؤلفاته :

وعلى الرغم من أن الزبيدى لم يكن من المعمرين إذ توفى وهو دون الستين، فإنه ترك تراثًا هائلاً من الكتب يمكن تصنيفها فى أربعة مجالات : الفقه والحديث وما يتصل به من مصطلح ورجال، والتاريخ، والتصوف، واللغة، وهذا المجال الأخير هو الذى استحوذ على الشطر الأعظم من جهوده، وقد بلغت مؤلفاته أكثر من مائة بين كتاب ورسالة، أورد أكثرها الجبرتى فى ترجمته، وفيما يلى بيان بأهمها :

أما فى الفقه والحديث، فمنها «الجواهر المنيفة فى أصول أدلة مذهب الإمام أبى حنيفة» و«رسالة فى أصول الحديث»، وفى التاريخ «ترويح القلوب بذكر ملوك بنى أيوب»

و«جذوة الاقتباس فى نسب بنى العباس»، وفى التصوف كتابه «إتحاف السادة المتقين، فى شرح إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى، وهو يعد مع «تاج العروس» أضخم كتبه، قضى فى تأليفه أحد عشر عامًا، ونشر فى عشرة أجزاء كبار ، هذا إلى بعض الرسائل مثل شرحه لحزب البر لأبى الحسن الشاذلى.

وأما جهوده فى اللغة فعلى قمتها معجمه «تاج العروس من جواهر القاموس» وهو شرح «للقاموس المحيط» لمجد الدين محمد ابن يعقوب الفيروزآبادى (٧٢٩ - ٨١٧هـ ١٣٢٩ - ١٤١٤م)، وكان الذى حمله على هذا الشرح هو أنه لاحظ أن القاموس المحيط على الرغم من شموله وكثرة استعماله شديد الإيجاز غامض العبارة، فأراد تقريبه للقارئ، مضيفًا إليه حصيلة اطلاعه على المواد اللغوية فى المعاجم السابقة، وعدد كبير من المصادر فى مختلف المعارف يبلغ أكثر من مائة وعشرين مصدرًا، ومع انتفاعه من هذه المصادر فإنه يذكر أنه تحرّى الاختصار، وسلك سبيل التنقية من الفضلات التى يمكن الاستغناء عنها، وأنه جمع من الشواهد وأقوال السابقين ما لم يجمع مثله، مع المحافظة على النصوص الأصلية للمؤلفين، مصرحًا بأنه ليس له من فضيلة إلا الجمع.

وطريقة الزبيدى فى شرحه هى إثباته نص عبارة الفيروزآبادى فى «القاموس» واضعًا إياها بين أقواس، ومكملاً عباراته بشرحه محاولاً الملاءمة بين نص الفيروزآبادى وشرحه هو بحيث يتصل السياق، وهو فى شرحه يورد إضافات أخذها من المعاجم السابقة وشواهد شعرية كثيرة، وعددًا هائلاً من المعارف غير اللغوية، ويختم كل مادة بذكر ما يشتق منها من مواضع جغرافية، ثم من أعلام يترجم لهم تراجم مختصرة، وقد وضع الزبيدى هذه المواد المضافة تحت عنوان «المستدرك»، وبهذا لم يعد «تاج العروس» مجرد معجم لغوى، وإنما موسوعة للمعارف العامة لم نر لها مثيلاً فى كتب المعجميين السابقين، وأصبح جديرًا بأن يدعى «معجم العربية الأكبر»؛ فهو يكثر من الفوائد الخاصة بالنبات والحيوان والطب ومصطلحات العلوم، مع الدقة فى الضبط، والالتفات إلى الغريب والمولد والدخيل والأعجمى، ومما يلفت النظر اهتمامه بأسماء الأماكن المصرية سواء أكانت لمدن كبيرة أم لقرى صغيرة ينص أحيانًا على زيارته لها، ومعرفته الشخصية بها.

ومن الظواهر الجديدة فى «تاج العروس» اهتمامه بالمعانى المجازية معتمدًا فى ذلك على «أساس البلاغة» للزمخشرى، ويبدو أن اهتمامه بهذا الجانب يرجع الفضل فيه إلى أستاذه ابن الطيب الفاسى المتوفى سنة

(١١٧٠هـ - ١٧٥٧م) الذى كان من بين مآخذه على الفيروزآبادى عدم تمييزه بين المعانى الحقيقية والمجازية، كذلك مما يذكر للزبيدى عنايته باللهجات العامية، وكان أكثر ما سجله من العامية المصرية، وإن كان للعاميات الأخرى مكان فى معجمه، وكثير من تلك الاستعمالات والألفاظ العامية كان مما نص على أنه سمعه بنفسه فى هذا أو ذاك من مواضع مصر، ومما استدركه الزبيدى أيضا على معجم الفيروزآبادى تسجيله لأصول المداخل اللغوية ودلالاتها المشتركة، وهو مما استفاده من «مقاييس اللغة» لابن فارس، وكان الفيروزآبادى قد أهمل هذا الجانب بسبب توخيه الاختصار.

وعلى الرغم من بعض الاضطراب الذى وقع فى «تاج العروس» بسبب محافظته على عبارة الفيروزآبادى بنصها وتكراره أخطاء وقع فيها صاحب القاموس المحيط فإن معجم الزبيدى يعد أكمل معاجم العربية وأصحها وأضخمها حجمًا، وقد طبع «تاج العروس» فى مصر سنة (١٣٠٦هـ = ١٨٨٩م) فى عشرة مجلدات كبيرة، ثم أعيد طبعه بتحقيق جديد وفى صورة أنيقة فى الكويت فى أربعين مجلدًا، واستغرق إعداد هذه الطبعة سبعة وثلاثين عاما (١٩٦٥- ٢٠٠٢م)، وأقامت وزارة الإعلام الكويتية احتفالاً كبيرًا فى يومى ٩، ١٠ من فبراير ٢٠٠٢م بمناسبة الانتهاء من طباعته.

ويلى معجم تاج العروس فى القيمة وثراء المادة اللغوية معجم آخر هو «التكملة والذيل والصلة لما فات صاحب القاموس من اللغة»، وهو مستخرج من «تاج العروس»، فقد جرده الزبيدى منه مستخلِصًا فيه ما استدركه على الفيروزآبادى، ومفردًا تلك المستدركات فى تأليف مستقل، وكان هدف الزبيدى من تأليفه إبطال ما يعتقده الكثيرون من أن الفيروزآبادى قد أحاط اللغة حتى لم يبق لأحد أن يضيف إلى معجمه شيئًا.

وإذا كان «تاج العروس» هو أصل هذا المعجم فإن المقارنة بين الكتابين تكشف عن بعض وجوه الاختلاف، وتدل على أن الزبيدى قد أعاد فى «التكملة» صياغة كثير مما أورده فى «التاج»، كما تصرف فى مادته بالزيادة والحذف، كما أضاف مادة غير قليلة فى تراجم أعلام الأشخاص والقبائل والمواضع، وخص قرى مصر ومحالها بمزيد من عنايته، وبأنساب القبائل والبطون العربية التى نزلت بمصر، وهذا الاختلاف بين الكتابين يدفعنا للقول بأن أحدهما لا يغنى عن الآخر.

أ.د. محمود على مكى

مراجع للاستزادة :

١ - تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدى، فى عشرة أجزاء، المطبعة الخيرية، القاهرة ١٣٠٦ - ١٣١١ هـ = ١٨٨٨ - ١٩٩٣م، والطبعة الجديدة فى أربعين جزءًا، الكويت ١٩٦٥ - ٢٠٠٢م.

٢ - التكملة والذيل والصلة لما فات صاحب القاموس من اللغة، للزبيدى، فى ثمانية أجزاء، من مطبوعات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١٩٨٦ - ١٩٩٠م.

٣ - إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين، للزبيدى، المطبعة الميمنية بالقاهرة، فى عشرة أجزاء ، ١٣١١هـ = ١٨٩٣م.

٤ - الجواهر المنيفة فى أصول أدلة مذهب الإمام أبى حنيفة للزبيدى، فى جزأين، القاهرة.

٥ - الأعلام، خير الدين الزركلى : بيروت ١٩٧٩م، ٧/٧٠.

٦ - تاريخ الأدب العربى (الأصل الألمانى) كارل بروكلمان : ٢/٣٧١، الملحق ٢/٣٩٨، ٦٢٠، ٦٩٦.

٧ - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، عبدالرحمن الجبرتى : القاهرة ١٣٢٢هـ = ١٩٠٥م، ٢/١٩٦ - ٢١٠.

٨ - فهرس الفهارس والأثبات، محمد عبدالحى الكتانى، فاس ١٣٤٦هـ = ١٩٢٧م، ١/٣٩٨ - ٤١٣.

٩ - المعجم العربى نشأته وتطوره، حسين نصار، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٦٢٩-٦٧٩.

الزجَّــاج
(٢٤١ - ٣١١هـ = ٨٥٥ - ٩٢٣م)

هو أبو إسـحـاق إبراهيم بن السـرى بن سهل، الزجاج، كان مولده سنة ٢٤١هـ الموافق ٨٥٥م، وتوفى سنة ٣١١هـ الموافق ٩٢٣م.

اضطر إلى العـمل بمهنة الزجـاج منذ حداثة سنه، فلقب بالزجاج، واشتهر بهذا اللقب وظل ملازما له حتى حين أصبح عالما لغويا نحويا شهيرا، ومؤدبا للوزراء، ونديما للخلفاء.

وقد لزم أول أمره أبا العباس أحمد بن زيد بن سيار المشهور بثعلب المتوفى عام ٢٩١هـ، وأخذ عنه الشىء الكثير. وقد كان ثعلب هذا عالم بغداد وإمامها. وكان الزجاج أبرز تلاميذه وألمعهم، فجعل هذا أستاذه يفخر به ويعده ويدخره لساعة الضيق، وخير مثال لاعتماد ثعلب عليه حين طلب منه أن يناقش المبرد ليسكته ويفض الحلقة التى أحاطت به[1].

وهنا تنتهى مرحلة من حياة الزجاج لتبدأ مرحلة أخرى يتلقى العلم فيها على المبرد، فيصبح أشد المتحمسين للمذهب البصرى فى النحو واللغة، وبدأ يدرس النحو البصرى الذى أعجبه منطقه، وحججه، ونظريته العقلية على يد المبـرد، لا ذلك النحـو الكافى الذى يميل إلى الفطرة اللغوية، ولا يعبأ بالمنطق فى قليل أو كثير.

بلغ الزجاج أعلى مراتب العلم، واستطاع أن يستقل بنفسه، وأصبح ذا درجة مكنته أن يكون أستاذا، وقد شهد له ذلك أستاذه المبرد وغيره من علماء عصره.

لم يقنع الزجـاج بما وصل إليـه؛ بل ظل يصبو إلى المراكز العلمية، وتهفو نفسه إلى الغنى والثراء، والمجد والشهرة... ولم تمض مدة على ذلك حتى طلب الوزير العباسى عبيد الله بن سلمان بن وهب من المبرد أن يدله على مؤدب لولده القاسم، فلم ينس الأستاذ تلميذه الوفى، فقال للوزير: «أعرف لك رجلا زجَّاجًا يمكنه تعليم ابن الوزير، وحضر الزجاج إلى بغداد، وبدأ تعليم القاسم ابن عبد الله، وكان ذلك سببًا فى غناه وشهرته.

أما عن تلاميذ الزجاج: فقد تلقى العلم على يديه الكثيرون، وتأثروا به وبفضله، وحفظوا له العهد، وأطالوا الود، حتى أن أحدهم نسب إليه، فقيل الزجّاجى، وهو أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق، توفى سنة ٣٩٩هـ. ومنهم أبو العباس أحمد بن محمد توفى ٣٣٢هـ. ومنهم: أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس، توفى ٣٣٨هـ. وأبو على الفارسى الذى كان أستاذا لكثيرٍ من العلماء كابن جنى وغيره[٢].

وللزجاج مؤلفات كثيرة منها:

١- سر النحو.

٢- الإبانة عن معنى بسم الله الرحمن الرحيم.

٣- خلق الإنسان.

٤- خلق الفرس.

٥- معانى القرآن الكريم.

٦- الأمالى.

٧- ما ينصرف وما لا ينصرف.

٨- النوادر.

٩- ما فسر من جامع المنطق.

١٠- الاشتقاق.

١١- العروض.

١٢- القوافى.

١٣- الفرق.

١٤- مختصر فى النحو.

١٥- الأنواء.

١٦- شرح أبيات سيبويه.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١- طبقات النحويين واللغويين للزبيدى.

٢- وفيات الأعيان لابن خلكان. مصر.

٣- مجالس العلماء للزجاج. مصر.

٤- الفهرست لابن النديم. مصر.

٥- السيرافى: أخبار النحويين البصريين ص١١٤.

الزِّركلـــى

(١٣١٠ - ١٣٩٦هـ = ١٨٩٣ - ١٩٧٦م)

هو خيـر الدين بن محـمود بن محـمد بن على بن فارس الزركلى، ولد فى ٩ ذى الحجة سنة ١٣١٠هـ (٢٥ يوليـــو سنة ١٨٩٣م) فى بيـروت من أبوين دمـشـقـيين، ونشـأ وتعلم بدمشق، وتطوع للتدريس بالمدرسة الهاشمية بدمشق، وقد أحرز شهادة القسم العلمى بها، وأصدر مجلة الأصمعى، فعطلتها الحكومة العثمانية بسبب صورة رمزية كتب تحتها (الخليفة العربى المأمون) وذهب إلى بيروت تلميـذا فى مـدرسـة اللاييك العلمـانيـة الفرنسية، ثم أستاذا للتاريخ والأدب العربى بها، وأصدر بعد الحرب العالمية الأولى (لسان العرب) يومية بدمشق، ثم (المفيد) يومية بالاشتراك مع أحد أصدقائه.

وقد كتب الأسـتـاذ كـرم زعيـتـر بالمجلة العـربيـة[1] مـقـالا يقـول فيـه: إنه فى أصله البعيد ينتمى إلى الخوارج من الأزارقة، كذلك كـان يوقع كلمـات له بجـريدة الحيـاة بلفظ الأزرقى، وأثـر الخـوارج ظاهر فى اشـتـعـال حماسته، وإصراره على موقفه الجاد، ونفوره من النفاق الكاذب، وإذا كان أبوه كرديا، وكانت أمه عربية، فإن ذلك نسب طارئ، لأن أرومته العربية - كما قال الأستاذ أكرم - لا شك فيها، إذ أن أجداده قد نزحوا إلى كردستان واختلطوا بها بعد أن حارب المهلب ابن أبى صفرة جماعة الأزارقة من الخوارج، وألجأهم إلى الفرار تحت وطأة سيفه الصارم، ومهما يكن من أمر هذه النسبة فإن اعتزاز خير الدين بها، وإصراره على توقيع كلماته باسم الأزرقى: خـبـر يجب أن يذكـر عند تحليل نصاعته الشعرية، وبلاغته الأسلوبية، يذكر دون جزم أكيد، لأننا لا نملك الترجيح.

وتوفى رحـمـه الله فى سنة ١٣٩٦هـ = ١٩٧٦م.

آراؤه ومنهجه العلمى:

عرف خير الدين منذ نشأته الأولى بالغيرة الوطنية الملتهبة، فكان اعتزازه بالوطن العربى مبعث إحياء شعرى جرى به لسانه وهو تلميذ لم يتقن علوم اللغة، لأن قوة اندفاعه قد بعثت فيـه قـدرة على النظم التلقـائى مـا دامت الموهبة الصغيرة ترفده بما يعبر عن إحساسه الحار، وقد تعجب أستاذه من قدرته الشعرية وهو غلام ناشئ لم تكتمل أداته اللغوية، وهى ظاهرة جعلتنا نصدق ما يقال عن شعراء

قدامى نظموا الشعر فى العاشرة، بل إن تصديقنا لهم أكثر وأولى، إذ أن عهودهم القريبة من عهد الفصاحة مدعاة إلى جودة ما يقولون.

يستطيع من يؤرخ للسياسة العربية فى سوريا ولبنان وفلسطين والحجاز فى الربع الأول من القرن العشرين، أن يجعل ديوان الزركلى أحد مصادره الهامة، لأن الشاعر كان ينفعل بالأحداث انفعالا لا يقف عند القول الشعرى فقط، بل يصل إلى المشاركة الحقيقية فى اتجاهها، وقد تكون المشاركة تأييدا لاتجاه يميل إليه، كما تكون معارضة صارخة لما يخالفه من الاتجاه، وقد ذكر الأستاذ حبيب الزحلاوى فى مقال جيد نشره بمجلة الزهراء أن الزركلى حين جمع الديوان فى طبعته الأولى قد أحرق كثيرا مما نشره من قبل، لأن الأحداث السياسية لم تصدق صحة اتجاهه، أو لأن بعضه كان اضطرارا محتوما لتأييد مذهب لا يراه، لكنه خشى من الحكام أن يفاجئوه بعقوبات تصل إلى الإعدام. قال الأستاذ الزحلاوى ذلك فى مقال قرأه الزركلى، ولم يعقب عليه بشىء، فهو إذن حقيقة واقعة.

وقد بدأ بنشر قصائده داعيا إلى الحرية فى مجلة المقتبس وغيرها، وكان يظن بالقائمين على الأمر فى تركيا أنهم سيحفظون للعرب مكانتهم، إذ هم إخوانهم فى الشقاء والنعماء، ولكن علم على وجه اليقين ما لمسه لمس التجربة، وأن القوم يسعون إلى تتريك الأمة العربية، ويحاربون كل من يعتز بعروبته ساعيا إلى الإصلاح السياسى، فأرسل أناشيده الصارخة محذرا مهددا، والزركلى شاهر الأناشيد الحماسية الأول فى دنيا العروبة، فقد لمس تأثير الأناشيد فى الشبيبة، وعلم أنها نفس يتردد فى الرئة، قبل أن تكون كلمات تتردد فى الحناجر، مثل نشيد (هيا بنا)، هذا النشيد الذى ابتدأ به صرخاته الشعرية موقظا منبها، ومنه:

أين الظبا أين القنا
المـوت أو نيل المنى
نبئ ذوى السمر اللدان
عن آلنا يوم الطعان
أنا وإن نام الزمان
حينا، فقد يصحو بنا
نحن بنى العرب الكرام
من شأننا حفظ الزمام
وضيفنا ما إن يضام
ومن يضيم ضيفنا؟
سل النهى فهى الشهود
تعزو لنا صدق الوعود
سل الوفاء بالعهود
هل ينتمى إلا لنا!

ظن العرب فى ديار الشام خيرا بإعلان

الدستور العثمانى، فأخذوا يعملون على النهضة الواثبة، وألفوا الجمعيات السرية، وأصدروا الصحف، ونظموا القصائد والأناشيد، وجرت فى البلاد حركة إصلاحية ترقب الغد بأمل باسم، ولم يطل الأمد بهم، إذ جاء جمال باشا السفاح، ليعوق كل تقدم نحو الاستقلال العربى، بل جاء ليدحر أبطال النهضة، وقد أمر فور مجيئه بإلغاء كتيبة الضباط العرب من الشباب، وهم صفوة من خريجى المدارس العليا، ثم بسطت الأحكام العسكرية، وأقيمت المحاكم، وعطلت الصحافة، وانطلقت أيدى الاتحاديين - كما يقول الأستاذ نسيب سعيد - فى البلاد العربية يسجنون ويعذبون كل من ينادى بالحرية، وقد قتل كثير من هؤلاء الشهداء ظلما واغتيالا، حين ظن الترك أن محاولة تتريك الأمة العربية، وانضمامها إلى إمبراطورية طورانية أمر مفروغ منه، إذا قضوا على زهرة الشباب المتعلم، وأغلقوا النوادى، وصادروا الصحف.

وفى هذا الجو المظلم، رأى الزركلى أن الرقابة تحاصره، وتحاسبه على قصائد قالها فى تمجيد الحرية، والدعوة إلى عزة العرب، وقد جاءه من أنذره أن الأمر قد صدر باعتقاله فاغتياله، وعليه أن يمدح السفاح جمال باشا لينجو برأسه، ووازن الشاعر بين إعدام محقق لا يستطيع بعده نفع أمته فى شىء، ومهادنة - تصل إلى المداجاة - يستطيع بسببها أن ينقذ نفسه، ويتشفع للمغضوب عليهم ممن تمتلئ بهم السجون، وقد عانى الشاعر حربا مضطرمة السعير فى نفسه، حين رآه مجبرا على مدح الطاغية الظالم، وتمنى لو يستطيع الهروب دون أن يقع فى أيدى الجواسيس، فيستنشق الحرية فى مصر أو فى سواها من البلدان التى لاتخضع لكابوس السفاح، وكان يتصل بإخوانه ليسمعهم أمثال قوله:

مدحتكمْ وبودى لو هجوتكمُ
لو أطلق الحكم لى فى منطقى ويدى
حُكِّمْتُمُ فظلمتمْ، فاتخذت فمى
والشعر درعا يقى من شركم جسدى
ضرورة أحوجتنى لامتداحكم
وللضرورة حكم غير مطرد!

ظل الزركلى يجاهد فى دمشق، يجاهد طغيان الأتراك ويتوجس بالشر من الحلفاء، وقد أصدر جريدتين تعبران عن رأيه، وتجمع الرأى العام حول ما يراه من التوثب للنهوض الانتقالى، حتى انكشف الزيف الخادع، واحتل الفرنسيون دمشق بعد موقعة ميسلون الشهيرة، ثم تتبعوا من يعرفون عنه المعارضة لاحتلالهم البغيض، وكان الشاعر أول من اتجهت إليه الأنظار، فخرج إلى فلسطين فمصر فالحجاز، وقد صدر حكم غيابى عليه بالإعدام ومصادرة أملاكه، فحمد الله أن نجت رقبته ، يقول الزركلى :

«وفى سنة ١٩٢١م تجنست بالجنسية العربية فى الحجاز، وانتدبنى الملك حسين ابن على لمساعدة ابنه الأمير (عبد الله) وهو فى طريقه إلى الأردن، وكان الظن به حسنا فعدت إلى مصر فالقدس، واصطحبت منها إلى الصلت فعمان جماعة مهدت معهم السبيل لدخول عبد الله، وإنشاء الحكومة الأولى فى عمان، وسميت فى تلك الحكومة مفتشا عاما للمعارف، فرئيسا لديوان رياسة الحكومة (١٩٢١/١٩٢٣م) وفى خلال ذلك أبلغت حكومة الجمهورية الفرنسية بيتى فى دمشق أنها قررت وقف تنفيذ حكمها على، فكانت فرصة لزيارة دمشق، والعودة منها بعائلتى إلى العاصمة الأردنية».

الزركلى وكتابه الأعلام:

وقد حان الآن أن نتحدث عن موسوعة الأعلام، وهى موسوعة قال عنها، الزركلى، أنها سلبت من عمره خمسين عاما، فقد ظهر الأعلام أول ما ظهر فى العشرينيات، فى ثلاثة أجزاء فحسب، ورأى الزركلى إقبال الباحثين عليه، ورجوعهم إليه مطمئنين، فعرف أن من واجبه أن يكمل ما فاته، وقد فاته الكثير، فعكف فى مدى خمسين عاما على هذا الإكمال، وللقارئ أن يعلم أن (الأعلام) يشمل تاريخ ستة عشر قرنا وأكثر من تاريخ العربية، لأنه اهتم بالجاهلين قبل مشرق الإسلام، فلم يغادر تاريخا لأديب عربى أو شاعر أو مؤلف أو سياسى قرأ عنه فى العالم كله دون أن يتحدث عنه فى سطور كاشفة، وأقول: فى العالم كله لأنه اهتم بمن كتبوا بالعربية فى كل مكان مستشرقين وغير مستشرقين، ومعنى ذلك أنه قرأ كل كتب التاريخ الخاصة بالتراجم فى المكتبة العربية، ليأخذ منها مادته، وقد يقرأ عشرين صفحة ليختار منها عشرة سطور يراها تفى بالمقام، لقد قرأ الزركلى كتب الطبقات من تاريخية وأدبية وصوفية وعلمية وكتب الأخبار كالأغانى، ومعجم الأدباء، ووفيات الأعيان، ويتيمة الدهر وسلافة العصر، ودوائر المعارف، ما لا أستطيع حصره، لكنى أوجزه فى أنه قرأ المكتبة العربية فى القديم، أما فى الحديث فقد كان العبء أكبر وأشق وأضخم، لأنه أخذ يترصد كل جريدة أو مجلة فى شتى ربوع العالم الإسلامى، ليقف على أخبار الراحلين منذ ظهرت الصحف والمجلات، كما أخذ يراسل أقارب من رحلوا دون أن تكتب عنهم الصحف، ولهم مؤلفات باقية، فلابد من الحديث عنهم.

وحين عين سفيرا للمملكة العربية فى المغرب هاله أن يجد فى التراث المغربى الحافل قديما وحديثا ما لم يخطر له على بال، فعكف فى البحث والتصنيف حتى أضاف عدة مجلات، ثم رتب المتحدث عنهم من هؤلاء فى أماكنهم من الموسوعة وفق التسلسل الأبجدى، وهو عمل شاق لا يدركه غير من يكابده، كما حرص على أن يذكر

المراجع التى استقى منها فى هوامش الصفحات، وهو عمل آخر يضاف إلى مجهوده فيها فوق الهوامش مما ينوء به الجمع دون الفرد، يقول خير الدين فى حديثه مع الدكتور بكرى أمين المشار إليه من قبل:

«حدث مرة أن كنت فى استانبول أفتش عن كتاب خاص، فلم أعثر عليه، وفجأة رأيت صديقا، وسألته عن الكتاب فقال: إنه فى بلدة تسمى (مغنيسا) فركبت السيارة إلى (مغنيسا) وقضيت إحدى عشر ساعة فى الطريق إليها، ولما زرت مكتبتها وجدتها من أغنى المكتبات، لكنها دون فهارس حديثة، وإنما هى جذاذات فى الأدراج، وهى تملأ اثنى عشر درجا، فرحت أستعرض الدرج الأول خلال صيف كامل، وعدت فى الصيف الثانى لأقرأ مخطوطاته، وهكذا ظللت أكرر الزيارة سنة بعد سنة حتى اطلعت عليها جميعا».

ولعل هذا الخبر يصور لك معاناة الباحث الكبير مدى خمسين عاما، حتى تهيأ له أن يظهر الأعلام فى ثوبه الجديد.

اشتغل الرجل مع اهتمامه العلمى بمناصب كثيرة فى السلك السياسى بوزارة الخارجية السعودية، كان خاتمتها أن عين سفيرا للمملكة فى المملكة المغربية، وظل به عميدا للسلك السياسى حتى اعتلت صحته سنة ١٩٦٥م، فتقاعد حاملا رتبة السفير حتى لقى ربه فى ٢٥ تشرين الثانى سنة ١٩٧٦م.

وقد ذهب الزركلى وبقيت آثاره تتحدث عنه حديثا لا ينقطع ما دام الأعلام قد صار فى مقدمة المراجع التاريخية لدى الباحثين.

مؤلفاته:

١ - الأعلام.

٢ - ديوان الشعر.

٣ - مجلة لسان العرب.

٤ - مجلة المفيد.

٥ - ما رأيت وما سمعت.

٦ - عامان فى عمان.

أ. د. محمد رجب البيومى

الهوامش:

١- المجلة العربية، عدد جمادى الأولى، سنة ١٣٩٧هـ، ص٥٠.

مراجع للاستزادة:

١- المجلة العربية، جمادى الآخرة، سنة ١٢٩٧هـ.

٢- مجلة الزهراء، المحرم، سنة ١٣٤٤هـ.

٣ - الأعلام، ط سادسة.

زكريا الأنصارى
(٨٢٣ - ٩٢٦هـ = ١٤٢٠ - ١٥٢٠م)

هو شيخ الإسلام أبو يحيى : زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصارى، السنيكى، المصرى، الشافعى، قاضٍ، مفسر، ومن حفاظ الحديث، أحد أعلام القرن العاشر الهجرى.

ولد فى قرية سنيكة إحدى قرى محافظة الشرقية سنة ٨٢٣هـ = ١٤٢٠م، ونشأ بها، ثم ارتحل فى طلب العلم إلى القاهرة، وعاش فيها بقية عمره، وقد كان فى بداية حياته فقيراً معدماً.

وذكر الزركلى فى الأعلام : أنه كان يجوع فى الجامع، فيخرج بالليل يلتقط قشور البطيخ، فيغسلها ويأكلها. ولما ظهر فضله تتابعت إليه الهدايا والعطايا، بحيث كان له قبل دخوله منصب القضاء، كل يوم نحو ثلاثة آلافِ درهم، فجمع نفائس الكتب، وأفاد القارئين عليه علما ومالا.

وولاه السلطان قايتباى قضاء القضاء، فقبله بعد مراجعة وإلحاح.

وقال عنه الإمام الشعرانى : انتهت إليه رئاسة العلماء فى عصره حتى لم يبق فى مصر فى أواخر عمره إلا طلبته أو طلبة طلبته (أى بتلاميذه وتلاميذ تلاميذه).

وقرئ عليه «شرح البهجة» فى فقه الإمام الشافعى، سبعة وخمسين مرة، حتى أتم تحريره.

وكان - رحمه الله - مهيب المنظر، إذا رآه إنسان امتلأ قلبه أنسا.

وكان يدرس علم الفقه والتصوف، وكان مقبلا على الله، لا يغفل عن عبادة ربه لحظة واحدة. ورغم كبر سنه حيث عاش أكثر من مائة سنة، كان يصلى النوافل حال مرضه قائما.

وكان إذا طول عليه أحد فى الكلام يقول : عجل فقد ضيعت علينا الزمان.

توفى - رحمه الله - بمصر فى شهر ذى الحجة سنة ست وعشرين وتسعمائة هجرية = ١٥٢٠م.

وكان يقول : إن الفقيه إذا لم يكن له معرفة بمصطلح ألفاظ القوم فهو كالخبز الجاف من غير إدام.

ولما وقعت فتنة برهان الدين البقاعى فى إنكاره على الشيخ عمر بن الفارض - رحمه الله - أرسل السلطان إلى العلماء فكتبوا له بحسب ما ظهر لهم، وامتنع الشيخ زكريا - رحمه الله، ثم اجتمع بالشيخ محمد الإصطمبولى فقال : اكتب وانصر القوم وبين فى الجواب، إنه لا يجوز لمن لا يعرف مصطلح القوم أن يتكلم فى حقهم بشر، لأن دائرة الولاية تبدأ من وراء طور العقل لبنائها على الكشف.

تمتع بثقة السلطان قايتباى وحكى عنه أنه قال : ولم يكن أحد يتحمل نصحى بالكلام الجافى الخالى من المداهنة مثل السلطان قايتباى، ولو قلته لأحد من العلماء فى هذا الزمان لعادانى طول عمرى.

قال : وكنت إذا تعذر علىّ مشافهته بالنصح أتعرض له فى الخطبة بذلك الأمر خطابًا عامًا للحاضرين، فيلحق هو بذلك، فإذا سلمت من صلاة الجمعة قام إلىّ وسلم علىّ وقال : جزاك الله خيرًا عنا فى هذا النصح.

ثم لم تزل الحسدة يزجون إلى السلطان، ويظهرون له المحبة والتأثر من وعظى هذا له، وأنه يرسل إلىّ يمنعنى من التعرض له فى الخطبة حتى قال لهم : وماذا أقول لشخص يبصرنى بعيوبى وينصحنى. ثم إنى أغلظت عليه يومًا فى النصيحة بحضرة بعض الأمراء والأكابر، فتغير منى، فتقدمت إليه ثم أمسكت يده وقلت : يا مولانا السلطان، إنما أعظلك بأمور لأنها تقضى عليك، وأخاف على جسمك هذا أن يصير فحمًا من فحم جهنم. فصار السلطان ينتفض ويبكى.

قال: وكنت كثير الاعتكاف فى خلوتى فوق سطح الجامع الأزهر فدق علىّ رجل الباب، ففتحت له فقلت: ما حاجتك ؟ فقال : قد كُفَّ بصرى فدلنى الناس عليك وعلى فضلك، تدعو لى بالشفاء فيرد الله علىّ بصرى. قال : وكان لى علامة فى الدعاء المجاب وغير المجاب، فرأيت علامة الإجابة حين توجهت إلى الله تعالى، ثم خفت الشهرة، فقلت : خذ هذا الدرهم وامض إلى العجمى الذى تحت البرقوقية، فقل له : بعثنى زكريا إليك لتعطينى بهذا الدرهم توتيا جافة. قال : فمضى الرجل وأخذ التوتيا ورجع إلىَّ. فقلت له : لا يرد الله عليك بصرك فى مصر، وإنما يرده عليك فى «قطية» فسافر، وإذا رجع إليك بصرك فلا ترجع إلى مصر فى هذه السنة.

وكان - رضى الله عنه - كثير الصدقة سرًا وجهرًا، ولكن كانت صدقته سراً أكثر، وما رأيت فى العلماء والصالحين أكثر صدقة

منه، وكان له جماعة يتصدق عليهم كفايتهم من يوم أو جمعة أو شهر، وكان كثيرًا ما يعطى كل وارد عليه يوم تهنئته بالشهر، ولكل واحد مقام عنده فى العطاء من القضاة والعلماء وطلبة العلم والمساكين.

وكان غالب الناس يعتقد فى الشيخ قلة الصدقة من كثرة إخفائها.

وله مؤلفات عديدة وتصانيف كثيرة منها :

١ - فتح الرحمن فى التفسير.

٢ - تحفة البارى على صحيح البخارى.

٣ - فتح الجليل فى التعليق على تفسير البيضاوى.

٤ - الغرر البهية فى شرح البهجة الوردية. خمسة أجزاء فى الفقه.

٥ - شرح ألفية العراقى فى مصطلح الحديث.

٦ - شرح شذور الذهب فى النحو.

٧ - الدقائق المحكمة فى التجويد والقراءات.

٨ - فتح العلام بشرح الإعلام بأحاديث الأحكام.

٩ - غاية الوصول فى أصول الفقه.

١٠ - تنقيح تحرير اللباب فى الفقه.

١١ - أسنى المطالب فى شرح روض الطالب فى الفقه.

١٢ - منهج الطلاب فى الفقه.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة :

١ - الطبقات الصغرى للشعرانى.

٢ - الأعلام للزركلى ٤٦/٣.

٣ - الخطط التوفيقية لعلى مبارك ٤٢/١٢.

٤ - الكواكب السائرة ١٩٦/١.

٥ - حسن المحاضرة للسيوطى ١٥١/٢.

زكى نجيب محمود
(١٩٠٥-١٩٩٣م)

ولد زكى نجيب محمود فى الأول من فبراير سنة ١٩٠٥م فى قرية (ميت الخولى عبدالله) بدلتا مصر، وتلقى تعليمه الأولى بالقاهرة، ثم انتقل مع أسرته إلى السودان، وهناك أكمل تعليمه الابتدائى والثانوى، ثم عاد إلى القاهرة والتحق بمدرسة المعلمين العليا، وتخرج فيها سنة ١٩٣٠م.

عمل بالتدريس فى التعليم العام، ثم نال منحة دراسية إلى إنجلترا لنيل الدكتوراه فى الفلسفة، وكان موضوع رسالته (الجبر الذاتى)، وعاد إلى مصر سنة ١٩٤٧م، فعمل بالتدريس بقسم الفلسفة بكلية الآداب - جامعة القاهرة.

اشترك فى الحياة الثقافية منذ عام ١٩٣٠م، وانضم إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر، وقدم سلسلة من الكتب عن تاريخ الفلاسفة وتاريخ الأدب، وأشرف على تحرير مجلة (الثقافة) منذ عام ١٩٤٩ - ١٩٥٣م، سافر إلى أمريكا للتدريس فى جامعاتها سنة ١٩٥٣م، وعمل بعدها مستشارا ثقافيا بسفارة مصر بواشنطن، وسافر إلى الكويت سنة ١٩٦٨م للعمل بجامعتها، وبعد عودته تابع مشواره العلمى والثقافى الذى تراوح بين التدريس بالجامعة وكتابة المقالات بجريدة الأهرام.

نال جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٩٦٠م فى الفلسفة عن كتابه (نحو فلسفة علمية)، ونال جائزة الدولة التقديرية فى الآداب سنة ١٩٧٥م، وشارك فى العديد من المؤتمرات العربية والأجنبية، ومنحته جامعة الدول العربية أولى جوائزها سنة ١٩٨٤م، ثم منحته الجامعة الأمريكية الدكتوراه الفخرية سنة ١٩٨٥م، كما منحته دولة الإمارات جائزة (سلطان بن عويس) فى الفلسفة سنة ١٩٩١م. ويعتبر زكى نجيب أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء فى القرن العشرين، وأحد رواد الفكر العربى المعاصر، وصاحب مشروع تجديد الفكر العربى، حاول بناء فلسفة عربية جديدة، جمع بين جانبى العَالِم والفنان، وتراوحت كتاباته بين الفلسفة والعلم، وبين

الفن والأدب، وقامت فلسفته على ثنائية الأرض والسماء، الطبيعة والفن، العقل والوجدان.

وقد توفى بالقاهرة فى التاسع من سبتمبر من عام ألف وتسعمائة وثلاثة وتسعين.

آراؤه واتجاهاته الفكرية:

مرَّ د. زكى نجيب محمود بثلاث مراحل فى حياته الفكرية.

الأولى: مرحلة الشباب، قبل سفره إلى أوروبا، انشغل فى هذه المرحلة بنقد الحياة الاجتماعية فى مصر، وتقديم نماذج من الفلسفة القديمة والحديثة والآداب تعبر عن الجانب التنويرى، وكان من أهم الأفكار التى اعتنقها فى هذا الوقت فكرة التقدم.

المرحلة الثانية: مرحلة النضج، بعد عودته من بعثته، وتمثلت هذه المرحلة فى نقد الحياة، ومحاولة تغيير سلم القيم على النمط الأوروبى، حيث اعتبر - فى هذه المرحلة - أن حضارة الغرب هى حضارة العصر التى يجب أن نتمثلها بكل ما فيها، فلها جوانب إيجابية تتمثل فى مجال العلوم التجريبية والرياضية، ولها عادات وسلوك وتقدير لقيمة العلم، وجدية فى العمل، واحترام إنسانية الإنسان، وهى قيم تفتقدها الحياة الفكرية والاجتماعية فى الوطن العربى.

كما تمثلت هذه المرحلة فى اعتناقه الفلسفة الوضعية المنطقية، والالتزام بمبادئها، ورفض التراث رفضا باتا.

المرحلة الثالثة: بدأت منذ ستينيات القرن العشرين، وتسمى مرحلة الأصالة والمعاصرة، وقد بدأ يبحث فيها عن سمات الهوية العربية التى جمعت بين الشرق والغرب، بين الحدس والعقل، بين الروح والمادة، بين القيم والعلم، وفى هذه المرحلة أخذ فى بناء مشروعه لإقامة فلسفة جديدة برؤية عربية، تبدأ من الجذور ولا تكتفى بها، بل تضيف إليها التقدم العلمى الغربى.

وأهم معالم فلسفته الجديدة:

١- تجديد الفكر العربى

نظر د. زكى، فى مرحلتيه الأولى والثانية، إلى التراث العربى نظرة اللامبالاة، ودعا إلى اهماله إهمالا تاما.. وفى المرحلة الثالثة وجد أن ترك التراث كله هو انتحار حضارى، لأن التراث به لغتنا وآدابنا وقيمنا وجهود علمائنا وأدبائنا وفلاسفتنا، فدعا إلى الاستفادة من هذا التراث بعد معالجة أوجه القصور فى الفكر العربى.

فقد رأى د. زكى أن هذا التراث فيه جوانب عقلية وجوانب لا عقلية تؤدى إلى إفساده، فطالب بتحرير التراث والفكر من

لامعقوليته التى تؤدى إلى إفساده، وحدد هذه العوامل فى ثلاثة:

(أ) احتكار الحاكم لحرية الرأى، أى استبداده برأيه، وتنكيله بصاحب الرأى المخالف، وهذا معناه القضاء على الكرامة الإنسانية.. والصحيح فى الفكر إذا جرى مجراه الطبيعى أن يكون حواراً بين لا ونعم.

(ب) سلطان الماضى على الحاضر، وهو بمثابة السيطرة التى يفرضها الموتى على الأحياء، أى سيطرة أفكار القدماء على عقول المعاصرين، وتصور أن هؤلاء القدماء معصومون من الوقوع فى الزلل، أو أن الخير كله فيما قدمه السابقون، على الرغم أن القانون الذى يسيطر على الوجود والعلم والفكر هو أن التقدم دائما يسير إلى الأمام، وأن الأفضل هو ما يأتى به المستقبل.

(جـ) تعطيل القوانين الطبيعية بالكرامات حيث رأى د. زكى أن الفكر العربى يقع تحت سيطرة أن هناك أمورا تسيطر على الطبيعة لا تقع تحت قانون، فتأخذ الخرافة مكان الصدارة، ويظن أنه فى إمكان أى شخص أن يعطل هذا القانون، سواء كان طبيعيا أو وضعيا.

وبهذه العوامل تبتعد الحياة الثقافية العربية عن العقل والعلم، ولذا دعا د. زكى إلى أخذ جوانب العقل من هذا التراث وإهمال لامعقوله.

٢- الفلسفة الثنائية :

قدَّم د. زكى منذ كتابه (الشرق الفنان) أول ملامح هذه الثنائية التى تعبر عن فلسفة عربية جديدة تجمع بين الخالق والمخلوق، الروح والمادة، العقل والجسد، المطلق والمتغير، السماء والأرض، كما أن هناك ثنائية العقل والوجدان، وثنائية حضارة وثقافة تجمع بين ثقافة الأجداد القديمة، وثقافة الغرب المعاصرة.

٣- النظرة العلمية :

يرى د. زكى أن النظرة العلمية فى أساسها موقف عقلى، وقد التزم به - فى المرحلة الثانية من تطوره الفكرى - وحده، ثم أضاف إليه الوجدان فى المرحلة الثالثة، بحيث يكون لكل منهما مجاله وتتميز النظرة العلمية بخصائص منها: أنها تحدد الأشياء بنسبتها الصحيحة بعضها إلى بعض، أنها ترد الظواهر إلى أسبابها الطبيعية، أنها تنظر إلى الواقع كما هو لتطوره إلى واقع جديد، أنها تحاول أن تكتسب المنهج العلمى فى طريقة النظر، ولا تكتفى بجمع المعلومات وحفظها، بل أن يصبح المنهج العلمى طريقا للحياة والعلم.

٤- الفكر الدينى :

تناول د. زكى هذا الجانب فى فترة النضج من حياته، نتيجة تغير مفهومه للحضارة التى تصلح لوطنه، ووجد أن جانب الوجدان يشكل ركيزة اساسية للشخصية العربية، وأن الدين هو ما يحد هذا الوجدان بتصورات عن الخالق والسماء والقيم، فعرض لدور المفكر الدينى مع المخالفين لدينه، وشرح مفهوم الإسلام الصحيح، والإعلام والدعوة له، وقام بتحديد دور هذا الفكر مع معتنقيه، وفرّق بين الدين بنصوصه المقدسة، وعلوم الدين التى هى فاعلية عقلية إنسانية تستخرج من هذا الدين أحكامه، وقدم بعض القضايا التى يستطيع المفكر الدينى أن يساهم فيها فى مجال تطوير الأحكام الفقهية، ومجال الاقتصاد، ومجال حقوق المرأة.

٥- الفن :

يمثل الفن جانبا هاما من حياة وفكر د. زكى نجيب محمود، فقد تراوحت كتاباته بين الفلسفة والفن، وقد عرَّف الفن بأنه وسيلة وغاية، وهو لون من الخلق المبتكر والإبداع المستمر، وهو ليس إبداعا حرًّا، بل إبداعاً ملتزماً فى صورة وشكل ومضمون، ويعد المضمون ضرورة إلى جانب الصورة، وموضوع الفن الأساسى: هو الإنسان، أو ما يدور حوله.

ويعد الفن عنصراً من عناصر الثقافة، وهو المعبر عن إحدى القيم الإنسانية العليا، ألا وهى قيمة الجمال، ويستطيع الفن أن يصل إلى ما يصل إليه الداعية الأخلاقى أو المصلح الاجتماعى، وإن اختلفت أدواتهم، ويقع على الفنان عبء تغيير المجتمع نحو الأفضل والمساهمة فى نشر التنوير، وتوحيد المجتمع فى وحدة ذوقية واحدة، وتوحيد جانبى الإنسان: الروح والجسد، وبالفن يتم التواصل بين أفراد البشر.

مؤلفاته:

له فى الفلسفة: المنطق الوضعى، خرافة الميتافيزيقا، حياة الفكر فى العالم الجديد، برتراند رسل، ديفيد هيوم، الشرق الفنان، جابر بن حيان، نحو فلسفة علمية، الجبر الذاتى، قصة الفلسفة اليونانية، قصة الفلسفة الحديثة.

وبالإضافة إلى هذا له مؤلفاته فى الفكر والثقافة، مثل: قشور ولباب، تجديد الفكر العربى، المعقول واللامعقول، ثقافتنا فى مواجهة العصر، مجتمع جديد أو الكارثة، من زاوية فلسفية، فى حياتنا العقلية، هذا العصر وثقافته، هموم المثقفين، مع الشعراء، فى فلسفة النقد، أفكار ومواقف، قيم من التراث، رؤية إسلامية، عربى بين ثقافتين.

أما مؤلفاته الأدبية: جنة العبيط، شروق

من الغرب، الكوميديا الإلهية، أرض الأحلام، أيام فى أمريكا، قصة الأدب فى العالم.

هذا بالإضافة إلى ترجماته لبعض محاورات أفلاطون، تاريخ الفلسفة لبرتراندرسل، تراث العصور الوسطى.

وقد عبر د. زكى نجيب محمود عن حياته الفكرية والنفسية من خلال ترجمة ذاتية رصدها فى ثلاثة مؤلفات، هى: قصة نفس، وقصة عقل، وحصاد السنين.

أ. د. منى أبوزيد

مراجع للاستزادة:

١- أبوزيد (د. منى) : الفكر الدينى عند زكى نجيب محمود، تصدير د. عاطف العراقى، دار الهداية القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

٢- أحمد (د. عاطف) نقد العقل الوضعى، دار الطليعة بيروت، سنة ١٩٨٠م.

٣- الجزيرى (نوران) : أثر الاتجاه التحليلى فى فكر زكى نجيب محمود - رسالة دكتوراه آداب القاهرة، سنة ١٩٩٥م.

٤- حمادة (نجوى) : تأثير الوضعية المنطقية على الفكر العربى من خلال الفيلسوف المصرى زكى نجيب محمود. رسالة دكتوراه - جامعة السوربون باريس، سنة ١٩٨٩م.

٥- سيدا (عبدالباسط) الوضعية المنطقية والتراث العربى - دار الفارابى بيروت، سنة ١٩٩٠م.

٦- عمر (نجوى) : الجوانب الأدبية فى كتابات زكى نجيب محمود - رسالة ماجستير كلية الألسن، جامعة عين شمس، سنة ١٩٩١م.

٧- محمود (د. عبدالقادر) : زكى نجيب محمود فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، دار المعارف، مصر.

٨- مراد (د. سعيد) : زكى نجيب محمود آراء وأفكار - الأنجلو المصرية سنة ١٩٩٤م.

٩- مرجى (فوزية): العقل ووظيفته فى فكر زكى نجيب محمود - رسالة ماجستير - جامعة القديس يوسف، كلية الآداب والعلوم - بيروت، سنة ١٩٩١م.

١٠- محمد الجوادى : مصريون معاصرون، مجلة الثقافة تعريف وفهرسة وتوثيق.

١١- د. منيرة حلمى : الدكتور زكى نجيب محمود.

الزمخشري
(٤٦٧ ـ ٥٣٨ هـ = ١٠٧٤ ـ ١١٤٣م)

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد ابن عمر الخوارزمى الزمخشرى، ويلقب الإمام الكبير فى التفسير، والحديث، والنحو، واللغة، وعلم البيان، ويلقب: بجار الله الزمخشرى، وسمى بذلك لأنه سافر إلى مكة وجاور بها زماناً، فصار يقال له: جار الله لذلك، وكان هذا الاسم علماً عليه.

كانت ولادته يوم الأربعاء من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة فى مخشر الموافق ١٠٧٤م، وتوفى سنة ٥٣٨هـ الموافق ١١٤٣م.

وهو صاحب الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل.

قال ابن خلكان: كان إمام عصره من غير مدافع. تُشَدُّ إليه الرحال فى فنونه ... وكان معتزلى الاعتقاد، متظاهراً به، ومن شعره السائر يرثى شيخه أبا مضر .

وقائلة ما هذه الدرر التى

تساقط من عينيك سمطين سمطين

فقلت: هو الدر الذى كان قد حشا

أبو مضر أذنى تساقط من عينى

وقال الذهبى: قدم بغداد ولقى الكبار وأخذ عنهم، ودخل خراسان مراراً عديدة، وما دخل بلداً إلا واجتمع عليه أهلها وتتلمذوا له، وما ناظر أحداً إلا وسلم له، واعترف به، ولقد عظم صيته، وسار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعة.

وليس عجيبا أن يحظى الزمخشرى بكل هذا وهو الإمام الكبير فى التفسير والحديث، وصاحب التصانيف البديعة فى شتى العلوم. ونقل عنه: أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه فى الدخول، يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له، أبو القاسم المعتزلى بالباب.

ولقد كشف هو عن السبب الذى دعاه إلى تأليف كتاب فى التفسير فقال: «ولقد رأيت إخواننا فى الدين من الأفاضل الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إلى تفسير آية، فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحجب أفاضوا فى الاستحسان والتعجب، واستطيروا شوقاً إلى مصنف يضم أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا إلى مقترحين: أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل وعيون

الأقاويل فى وجوه التأويل، فاستعفيت. فأبوا إلا المراجعة ... فوفق الله وسدد، ففرغت منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق - رضى الله عنه.

يقول ابن تيميه - رحمه الله - بصرف النظر عما فيه من الاعتزال فهو تفسير لم يسبق مؤلفه إليه، لما أبان فيه من وجوه الإعجاز من القرآن، ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآنى وبلاغته. فقد برع فى كثير من العلوم. فالكشاف: قالب أدبى رائع ، وصوغ إنشائى بديع . لكنه تأثر فى تفسيره بعقيدته الاعتزالية فمال بالألفاظ القرآنية إلى المعانى التى تشهد لمذهبه ، أو تأولها بحيث لا تتنافى معه على الأقل ، فإنه فى محا ولاته هذه قد بَرْهَنَ بحق على براعته وقوة ذهنه.

وكما اعتبرنا تفسير الطبرى ممثلاً للقمة العالية فى التفسير بالمأثور .. فهنا كذلك سنعتبر الكشاف للزمخشرى القمة العالية للتفسير الاعتزالى، ولقد وصل إلينا كتاب لشرف الدين الطيبى شرح فيه كتاب الزمخشرى وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة، لاعلى ما يراه المعتزلة. فأحسن فى ذلك ما شاء مع إمتاعه فى سائر فنون البلاغة وفوق كل ذى علم عليم.

ويعد تفسير الكشاف من خير كتب التفسير وأجلها ولولا نزعته الاعتزالية فى بعض الآيات القرآنية لما تناوله المعترضون بالنقد، ولما شنأه بعض الناس، وبحسب هذا الكتاب فضلاً ومنزلة: أن كل مَنْ جاء بعد الزمخشرى عالة عليه. فيما يذكره فيه من أسرار الإعجاز، والغوص على المعانى البلاغية الدقيقة. ولبراعته فى الكلام، وتمكنه من فنون القول، وَبُعْد غَوْرِه يدس بعض آرائه فى أثناء تفسيره، وتروج على خلق كثير من أهل السنة.

وقال ابن حجر: فكن حذراً من كشافه.

وكان غاية فى المعرفة بفنون البلاغة وتصرف الكلام.

وقال ابن تيمية: فلنغتنم مطالعته لغرابة متونه فى اللسان.

ولما علم الزمخشرى أن كتابه قد تحلى بهذه الأوصاف قال متحدثاً :

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد

وليس فيها لعمرى مثل كشافى

إن كنت تبتغى الهدى فالزم قراءته

فالجهل كالداء والكشاف كالشافى.

ومن مميزات هذا التفسير:

١ - خلوه من الحشو والتطويل.

٢ - سلامته من القصص الإسرائيلى غالباً، وقد يفند بعضه كما فى قصة سليمان وداود عليهما السلام - ولكن به بعض الموضوعات مثل الحديث الطويل المروى فى فضائل السور سورة سورة. قد يذكر بعض الإسرائيليات ولا يفندها . مثل ما ذكره فى قصة يأجوج ومأجوج .

٣ - اعتماده فى بيان المعانى على لغة العرب وأساليبهم فى الخطاب.

٤ - عنايته الفائقة بالإبانة عن أسرار الإعجاز فى القرآن بطريقة فنية قائمة على الذوق الأدبى.

٥ - إثبات طريقة السؤال: (إن قلت) ويقول فى الجواب : (قلت) وهى طريقة من طرق التشويق فى التعليم وترسيخ المعانى فى النفس.

وقد قيض الله لهذا الكتاب من نبَّه إلى ما فيه من اعتزال، وبيَّن ما فيه من انحراف وميل باللفظ القرآنى إلى مذهبه وهو الإمام أحمد بن محمد المعروف بابن المنير عالم الإسكندرية وقاضيها فألف كتابه "الانتصاف"

وقد نَبَّه إلى ما فى تفسير الكشاف من الروايات الضعيفة ، والموضوعة بعض المحدثين، فقام بإكمال هذا النقص خير قيام. فقد ألف الإمام الحافظ النقية.

١ - عبد الله بن يوسف الزيلعى ت ٧٧٢هـ رسالة فى تخريج أحاديث الكشاف وما فيه من قصص وآثار بيَّن فيها الصحيح من الحسن من الضعيف من الموضوع.

٢ - الإمام ابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢هـ وقام بتلخيص الكتاب السابق فى رسالة فى تخريج أحاديث الكشاف فجزاهما الله خير الجزاء.

وكانت وفاة الزمخشرى . رحمه الله . ليلة عرفة ، سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة، ورثاه بعضهم بأبيات ومن جملتها .

فأرض مكة تذرى الدمع مقلتها

حزنا لفرقة جاد الله محمود

وقد صنف الإمام الزمخشرى التصانيف البديعة منها :

١. الكشاف فى تفسير القرآن العزيز.

٢. المحاجاة بالمسائل النحوية

٣. المفرد والمركب فى العربية.

٤. الفائق فى تفسير الحديث.

٥. أساس البلاغة فى اللغة.

٦. ربيع الأبرار وفصوص الأخبار.

٧. متشابه أسامى الرواة.

٨. النصائح الكبار والصغار.

٩. ضالة الناشد.

١٠. الرائض فى علم الفرائض.

١١. المفصل فى النحو.

١٢. الأنموذج فى النحو.

١٣. المفرد والمؤلف فى النحو .

١٤. رءوس المسائل فى الفقه.

١٥. شرح أبيات كتاب سيبويه.

١٦. المستقصى فى أمثال العرب.

١٧. صحيح العربية.

١٨. سوائر الأمثال.

١٩. ديوان التمثيل.

٢٠. شقائق النعمان فى حقائق النعمان.

٢١. شافى العى من كلام الشافعى.

٢٢. القسطاس فى العروض.

٢٣. معجم الحدود .

٢٤. المنهاج فى الأصول.

٢٥. مقدمة الآداب.

٢٦. ديوان الرسائل.

٢٧. ديوان الشعر.

٢٨. الرسالة الناصحة والأمالى فى كل فن.

أ. د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة :

١. وفيات الأعيان لابن خلكان ت٦٨١هـ ج٥ ص: ١٦٨ ١٦٩. ط دار صادر بيروت سنة ١٩٨٦ ت/ إحسان عباس.

٢. الإسرائيليات والموضوعات لأبى شهبة ص ١٣٠ مكتبة السنة ط٤ ١٤٠٨هـ. والمصدر السابق.

٣. شزرات الذهب الذهب ج٤/١٢١ لابن العماد الحنبلى ن ١٠٨٩ المكتبة التجارية للطباعة والنشر. بيروت لبنان.

٤. التفسير والمفسرون لـ د/ الذهبى جـ١/٤٣٠ .ط دار الكتب الحديثة القاهرة. ١٣٨١هـ = ١٩٦١م .ط الاولى .

٥. لسان الميزان لابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢ هـ جـ ٤/٦ ط مؤسسه الأعلى للمطبوعات بيروت . لبنان . ١٣٩٠هـ ط الثانية.

٦. مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية مع عرض موجز لاتجاهات أشهر المفسرين لإبراهيم بن محمد ص٤٤، دار الصحابة للتراث، سنة ١٩٨٨م.

ابن زهر
(٤٦٤ - ٥٥٧ هـ = ١٠٧٢-١١٦٢ م)

عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن محمد ابن مروان بن زهر الإيادى، أبو مروان.

ولد عام ٤٦٤هـ بالأندلس الموافق ١٠٧٢م، وتوفى بإشبيلية عام ٥٥٧هـ الموافق ١١٦٢م.

ويعرف ابن زهر عند الغربيين باسم Avenzoar.

طبيب عبقرى ورائد من رواد طب الأورام على مستوى تاريخ الطب كله، طبيب اكلينكى بارز بلغ الذروة فى عمله وفنه وممارسته وتأليفه. هو الثالث فى سلسلة من الأطباء من عائلة واحدة، ولكنه أعظمهم وأشهرهم وهكذا اصطلح على أنه المقصود بالاسم إذا أطلق الاسم دون تحديد، ومن الظريف أن كنيته واسمه هو واسم أبيه تتفق مع رأس هذه العائلة الطبية، ولكن التاريخ الطبى حفظ التمييز بين هؤلاء جميعاً وهم:

١ - أبو مروان عبد الملك بن أبى بكر ابن زهر.

٢ - أبو العلاء زهر بن أبى مروان بن زهر.

٣ - أبو مروان عبد الملك بن أبى العلاء ابن زهر.

٤ - أبو بكر محمد بن أبى مروان بن زهر.

٥ - أبو محمد عبد الله بن الحفيد أبى بكر بن زهر.

٦ - أبو العلاء محمد بن أبى محمد ابن زهر.

وإذا أردنا تمييز هؤلاء بطريقة كتابنا المعاصر للأسماء فإن أسماءهم تكون على النحو التالى :

١ - عبد الملك أبو بكر زهر (وكنيته أبو مروان).

٢ - زهر عبد الملك زهر (وكنيته أبو العلاء).

٣ - عبد الملك أبو العلاء زهر (وكنيته أبو مروان).

٤ - محمد أبو مروان زهر (وكنيته أبو بكر).

٥ - عبد الله أبو بكر زهر (وكنيته

أبو محمد).

٦ - محمد أبو محمد زهر (وكنيته أبو العلاء).

وبالإضافة إلى هؤلاء الستة ظهرت فى هذه العائلة طبيبتان ماهرتان هما أم عمرو ابنة عبد الملك وابنتها.

توارثت هذه العائلة الطب والاشتغال به والتفرغ له دون غيره من العلوم، ويُعد أفراد هذه العائلة من أوائل المتفرغين للطب الذين لم يمارسوا غيره من العلوم أو يؤلفوا فيها، ولم يشذ منهم عن هذه القاعدة إلا رابعهم (أبو بكر الحفيد) الذى نال شهرة واسعة فى نظم الموشحات الأندلسية.

شهد عبد الملك بن زهر انتقال الحكم من دولة المرابطين الذين دامت دولتهم حتى عام ٥٤٢هـ (١١٤٧ ميلادية) إلى دولة الموحدين ومن الطريف أنه أصبح وزيرًا مقربًا من أول الخلفاء فى دولة الموحدين وهو أبو محمد عبد المؤمن بن على.

ولد عبد الملك بن زهر فى إشبيلية وتوفى فيها، وكان معاصرًا لابن رشد وسابقًا عليه ويروى أن ابن رشد كان يعتبره أعظم الأطباء بعد جالينوس، ويذكر أن ابن رشد هو الذى طلب إليه أن يؤلف كتابه «التيسير فى المداوة والتدبير» ويدلنا الاسم نفسه على الفهم المبكر لما نسميه الآن العلاج غير الدوائى وكيف أنه لابد أن يُمارس تبعًا لأصول علمية وفنية، وقد بلغ ابن زهر القمة فى هذا المجال، فإليه يرجع الفضل فى تأصيل كثير من الطرق والأساليب العلاجية التى لاتزال تُمارس فهو الذى قنن التغذية عن طريق القسطرة فى حالات عسر البلع كما قنن التغذية عبر المرئ وعبر الجلد وعن طريق المستقيم.

كان ابن زهر سباقًا إلى الكتابة عن تشخيص أمراض وأورام كثيرة، ونحن لا نملك إلا أن ندهش لوصول مثله فى هذا الوقت المبكر إلى اكتشاف حقيقتها وطريقة تشخيصها، وهو على سبيل المثال أول من وصف أورام الحيزوم، وأورام النخاع الشوكى ولهذا يعتبر فى نظر الكثيرين بمثابة الأب لعلم طب الأورام، كما درس أمراض المخ ووصف الصداع النصفى، والرجفان، والصرع، والاختلاجات، والسبات، والسكتة المخية، واستسقاء الرأس وبهذا يعد من الرواد الأوائل لعلوم الأمراض العصبية.

وفى مجال أمراض القلب كان ابن زهر أول من وصف خراجات الغشاء التامورى المحيط بالقلب كما أنه أول من وصف التهاب غشاء القلب الرطب والجاف وفرق بين التهاب التامور وأمراض الرئة.

وفى مجال الأمراض الصدرية أضاف ابن زهر إلى معرفة الأطباء بأمراض السل.

ولابن زهر سبق بارز فى مجال الأمراض المعدية، فهو صاحب الفضل فى تصنيف الجرب على أنه مرض معد وقد تمكن من وصف الطفيل المسئول عن إحداث هذا المرض وقد وصف الطفيل بأنه قمل، وأنه حيوان صغير جداً يكاد يفوت الحس، وكتب كتابة مشابهة عن علاج البرص.

ولابن زهر سبق كبير فى مجال الطب الوقائى وقد قدم قواعد الطب الوقائى باعتبارها وسائل لحفظ الصحة، وضَمَّن مقدمة كتابه الأشهر أكثر من عشرين نصيحة لحفظ الصحة.

وفى طب الأنف والأذن والحنجرة، تفوق ابن زهر فى تشخيص أمراض الأذن وعلاج التهاباتها وكتب عن فقد الصوت وشلل الحنجرة، وعسر البلع كما وصف عملية شق الحنجرة وشخص التهاب الأذن الوسطى وشلل البلعوم. وفى طب العيون عالج التراكوما جراحيا بشق شريان الخثر، وفى الجراحة وصف استخراج الحصى من الكلى. وفى علم التغذية كان ابن زهر رائداً وقد كان من أوائل من ألفوا فى علم التغذية على أنه علم مستقل بذاته وفى كتابة «الأغذية» يفرد أبوابًا للأغذية المصنوعة من الحبوب ومن طحين البقوليات ثم الأغذية من اللحوم ثم أنواع الألبان ومنتجاتها وأسماك المياه العذبة والمالحة، وأنواع الفواكه والخضروات والتوابل والعسل والسكر، وله رسالة فى «تفضيل عمل النحل على السكر» انتقد فيها أطباء عصره الذين كانوا يفضلون السكر على العسل فى تركيب الأدوية والأشربة، ونادى بالرأى المخالف.

وفى علوم الصيدلة كان ابن زهر من أوائل الذين انتبهوا إلى أساليب علمية لتقسيم العقاقير وما إليها وله بعض رسائل فى أدوية بعينها كرسالته «التذكرة» وموضوعها الأدوية المسهلة.

وعلى المستوى الفكرى حارب ابن زهر الدجالين والمنجمين وكان حريصًا على الانتصار للمنطق كما كان يصدر فى أعماله العلمية عن أساليب التجربة والقياس وكان يعول كثيرًا على دقة الدراسة السريرية فى تشخيص الأمراض ومداواتها.

ارتحل ابن زهر فى شبابه من أجل العلم فزار القيروان ومصر، وقيل إنه زار العراق أيضًا.

رتب ابن زهر كتاب التيسير فى بابين جعل الأول لما نسميه الآن الأمراض الخاصة بكل

عـضـو على حـدة على حين جـعل الثـانى للأمـراض العـامـة أو العلل العـامـة، وعُنى فى كل من البابين بأسـبـاب حفظ الصـحـة وطرق عـلاج المرض بالعـقـاقـيـر والأشـربة والدهان والمعـاجين وغـيـرها من وسـائل العـلاج، وقـد جـعل لكتـابه ملحـقًا بعنوان الجـامع. ويتـمـيـز كتاب التيسير بأسلوب علمى تعليمى مدرسى وهو ما أهله لأن تعتمد عليه أوروبا اعتمادًا كليًا بعد ترجمته إلى اللاتينية، ويعرف ابن زهـر عند الغـربيين باسم (Avenzoar) وقـد نقل الكثيرون عن هذا الكتاب، كما لخصه آخرون، ولخص بعض فصوله فريق ثالث.

وقد ترجم كتاب التيسير إلى العبرية، فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى (١٢٦٠) أى بعد وفاة ابن زهر بمائة عام، كما ترجم فى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى (١٣٠٦) على يد صموئيل هاميعاتى وقد أسماه بالعبرية اسمًا معناه: «مصباح الشفاء»، ومع انتشار الطباعة طبعت بعض الترجمات اللاتينية لكتاب التيسير بدءًا من ١٤٩٠، ثم جاء عصر كانت فصول هذا الكتاب تطبع فى كتب مستقلة (فى أواخر القرن الخامس عشر، والقرن السادس عشر الميلادى) وقد طبع الكتاب فى اللغة العربية (١٩٨٣) بتحقيق الدكتور مشيل خورى لأربعة مخطوطات فى الرباط وباريس ولندن والسنورد، وقد عُرف الكتاب فى أوروبا بأسماء مختلفة تبعًا لاختلاف طرق رسم العربية بحروف لاتينية، ومنها Tajassir, Teiesir, Taysir.

ولابن زهر مؤلفات طبية أخرى منها «الاقتصاد فى إصلاح الأنفس والأجساد» و «الزنية» وهو مفقود و «الأغذية والأطعمة» و «الجامع فى الأشرة والمسجونات» و «القانون» وهو غير كتاب ابن سينا بالطبع وله رسائل فى «الحميات» و «علل الكلى» و «البرص والبهق».

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء.
٢ - جورج سارتون : مقدمة فى تاريخ العلم.
٣ - ول ديورانت : قصة الحضارة، ص ٣٣٠.
٤ - عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب فيه.
٥ - عبد الفتاح مصطفى غنيمة : تاريخ العلوم عند العرب.

ابـــن زولاق
(٣٠٦ - ٣٨٧هـ = ٩١٩ - ٩٩٧م)

هو أبو محـمـد الحسن بن إبراهيم بن الحسين بن الحسن بن على زولاق الليثى المصرى. ولد بفسطاط مصر فى شعبان سنة ٣٠٦هـ = ٩١٩م. وشب ونشأ فى مهد العلم والدرس، فكان جده الحسن بن على من مشاهير العلماء، وتوفى عام ٣٨٧هـ الموافق ٩٩٧م.

ومن أسرته أيضًا محمد بن زولاق أحد أقطاب العربية فى عصره.

درس الفقه على أبى بكر بن الحداد، وهو من أعظم أئمة عصره، وتخصص فيه حتى نعت بـ «الفقيه»، ودرس الرواية التاريخية على أبى عمر الكندى، ثم خص كأستاذه تاريخ مصر بدرسه وبحثه.

وقد نشأ ابن زولاق فى عهد الدولة الإخشيدية؛ وشهد فى فتوته ما تعاقب يومئذ على مصر وعلى حكومتها من حوادث وقلاقل، ثم شهد من بعد ذلك فى كهولته ذهاب ملك بنى الإخشيد؛ وافتتاح الفاطميين لمصر؛ وقيام الدولة الفاطمية، ونشأة القاهرة، عاصمة الإسلام الجديدة فى مصر. فاختار أن يكون مؤرخ هذه المرحلة من تاريخ مصر الإسلامية، وأن الانقلاب العظيم الذى شهده فى مصائر مصر، كان له أثر فى إذكاء خياله وخصوبة بيانه، وقد يرجع أيضًا إلى أنه شهد الحوادث عن قرب، واتصل بممثليها صلة متينة، واستطاع بما أتيح له من حسن المشاهدة والاطلاع، أن يقدم لنا عنها صورًا قوية دقيقة. فقد اتصل ابن زولاق مثلا ببلاط بنى الإخشيد، وكتب تاريخ الإخشيد بطلب من ابنه أبى الحسن على بن الإخشيد، ثم اتصل من بعد ذلك بالقائد جوهر الصقلى فاتح مصر، وبالخليفة المعز لدين الله؛ وانتفع بهذه الصلة فى وضع كتابه عن سيرة المعز، فكان اتصاله برجال الدولة، ومشاهدته لأعمالهم وتصرفاتهم عن كثب، وما اجتمع إليه من متانة فى البيان وبراعة فى العرض؛ أساس هذه الدقة التى تطبع مجهوده التاريخى.

ومن مؤلفاته:

ثلاثة كـــتب تنسب إلى ابن زولاق هى: «خطط مصر»، وكتاب «تاريخ مصر»، وكتاب «فضائل مصر»؛ فتردد هذه الأسماء الثلاثة فى كتب المؤرخين منسوبة إلى ابن زولاق.

فمثلاً يذكر ابن خلكان فى ترجمة ابن زولاق ما يأتى:

«كان فاضلا فى التاريخ، وله فيه مصنف جيد، وله كتاب فى خطط مصر استقصى فيه ...».

ويذكر السيوطى فى ديباجة كتابه «حسن المحاضرة» ضمن مصادره «تاريخ مصر لابن زولاق»، ثم يعود فى ترجمته فيقول إنه «صنف كتابًا فى فضائل مصر....».

وينقل السيوطى فى سياق كتابه عدة نبذ عن ابن زولاق دون أن يعين اسم الكتاب الذى ينقل منه، مع أنه يعين أسماء مصادره عادة؛ فهل يعنى ذلك أن «تاريخ مصر» الذى ذكره ضمن مصادره و«فضائل مصر» الذى ذكره فى ترجمة ابن زولاق؛ هما اسمان لكتاب واحد؟ هذا ما نميل إلى الأخذ به؛ لأن السيوطى، يقتبس من ابن زولاق فيما كتبه فقط عن فضائل مصر. أعنى فيما حباها الله به من الهبات والبركات، سواء بما جعلها مهبطًا لبعض الأنبياء، أو بما أسبغه عليها من الخصب والنعم، وفى هذا يقتبس منه أيضًا ابن تغرى بردى مكتفيًا بالإسناد إلى ابن زولاق دون كتابه.

وتوجد ثلاث رسائل مخطوطة فى مكتبة باريس تنسب إلى ابن زولاق؛ فى فضائل مصر. وتوجد رسالة مخطوطة رابعة فى جوتا تنسب إلى ابن زولاق أيضًا تتعلق بتاريخ مصر حتى سنة ٤٩هـ. أما الرسالتان الأخريان، فبينهما شبه فى المحتويات، وعنونت إحداهما، وصفحاتها ثلاث وأربعون: «كتاب مختصر فضائل مصر تصنيف الشيخ الأجل الإمام الحسن بن إبراهيم بن زولاق».

وخلاصة محتوياتها: ما ورد فى القرآن الكريم خاصًا بمصر، ومن ولد بها من الأنبياء، وعجائبها، ونيلها، ومحاصيلها، ونبذة فى تاريخها قبل الإسلام، وذكر منها مساجدها.

والرسالة الثانية نحو نصف الأولى فى الحجم، وتحتوى على مثل هذه الموضوعات مع نبذ أخرى عن خراج مصر، والموازنة بينها وبين بغداد، ورخاء العيش فيها، وقد ذيلت هذه الرسالة بقصيدة لجمال الدين المصرى المعروف بالجزار المتوفى سن ٦٧٦هـ فى أمراء مصر. مما يقطع بأنها ليست بخط ابن زولاق.

ويلحق بهذا القسم من مجهود ابن زولاق التاريخى كتاب «خطط مصر» الذى يذكره ابن خلكان دون لبس، ثم يقول: إن ابن زولاق «استقصى فيه» أى أطال البحث وأسهب فيه. وقد رأينا أن ذكر الخطط منذ قيام الفسطاط وتوزيع مناطقها بين القبائل، وإنشاء معاهدها الأولى، وذكر باقى المدن المصرية، موضوع تناوله المؤرخون المتقدمون أيضًا كابن عبد الحكم، والكندى، ولكن الظاهر أن ابن زولاق قد تناوله بنوع من الإفاضة والتوسع، ولعله استقصى فيه إلى جانب خطط الفسطاط، خطط العسكر، ثم خطط القطائع، وهى مدينة طولون الذين عاش ابن زولاق قريبًا من عصرهم، وأدرك آثار قصورهم ومعاهدهم الزاهرة، بل ليس بعيدًا أن يكون ابن زولاق قد تناول فى «خططه» إنشاء القاهرة التى شهد قيامها قبل وفاته بنحو ثلاثين عام.

ثم كتب أيضا «سيرة المعز لدين الله»، وكتب ذيلا أو تتمة لكتاب الكندى عن أمراء مصر، وذيلا آخر لكتاب الكندى عن القضاة، ورسالة فى أخبار الماردانيين وزراء مصر.

وهذه الكتب كلها حلقات متصلة فى أخبار العصر الذى عاش فيه المؤرخ. وأولها من حيث التاريخ «سيرة الإخشيد» التى وصلتنا برمتها تقريبًا بطريق النقل عن يد مؤرخ آخر هو ابن سعيد الأندلسى المتوفى سنة ٦٧٣هـ فى كتاب «المغرب فى حلى المغرب» الذى تعاقب فى وضعه عدة من أجداد هذا المؤرخ، وخصت مصر فيه بقسم فى منتهى الأهمية، يقوم معظمه على النقل من المؤرخين المصريين أنفسهم.

ويلحق بسيرة الإخشيد، رسالة كتبها ابن زولاق عن أخبار الماردانيين؛ وهم أسرة قوية تولت الوزارة أيام بنى الإخشيد، وناوأتهم ونافستهم حينًا، وأن المقريزى يلخص منها فصلاً فى أخبار أبى بكر الماردانى عميد هذه الأسرة وأخبار ولده.

على أن أهم آثار ابن زولاق؛ فيما يظهر، هو كتابه «سيرة المعز لدين الله». وقد شهد المؤرخ فتح الفاطميين لمصر؛ وانتقال مصر بذلك من الخلافة العباسية إلى خلافة الشيعة، وشهد عهد المعز لدين الله، ثم عهد ولده العزيز بالله، واتصل بالبلاط الفاطمى؛ وبجوهر فاتح مصر. فكان طبيعيًا أن يكتب تاريخ هذا العهد الفياض بغريب الحوادث، وأن يكتب بالأخص سيرة المعز لدين الله محور هذا الانقلاب العظيم فى مصير مصر. وقد وصلتنا منه على يد المقريزى شذور عديدة.

والظاهر من هذه الشذور أن «سيرة المعز»

كانت مؤلفًا كبيرًا ضافيًا، يلم بكل ما فى سيرة المعز الحافلة من الحوادث والتفاصيل، وبكل ما استحدثه البلاط الفاطمى فى مصر من النظم والرسوم والتقاليد.

ولابن زولاق إلى جانب «سيرة الإخشيد»، و«سيرة المعز لدين الله»، أثران آخران يتمان مجهود الكندى.

أولهما : ذيل لكتابه عن القضاء.

والثانى : ذيل لكتابه عن الولاة.

ويبدأ ابن زولاق فى كتابه عن «قضاة مصر» حيث وقف الكندى أعنى بولاية القاضى بكار بن قتيبة سنة ٢٤٦هـ (٨٦١م) وينتهى بذكر ولاية محمد بن النعمان سنة ٣٧٤هـ (٩٨٤م) فى أيام العزيز بالله، ويمضى ابن زولاق فى ذكر أخباره إلى رجب سنة ٣٨٦هـ (٩٩٦م) أى ما قبل وفاته بنحو عام ونصف، ويسمى ابن خلكان هذا الكتاب «أخبار قضاة مصر» ويسميه ابن حجر «بالذيل» أعنى ذيل كتاب الكندى وصلنا معظمه على ما يظهر، عن طريق ابن حجر؛ فى كتابه «رفع الإصر عن قضاة مصر»، حيث يعتمد على ابن زولاق وحده تقريبًا فى ذكر قضاة الفترة التى تناولها، وينوه بذلك فى مقدمة كتابه.

كذلك وضع ابن زولاق ذيلاً لكتاب الولاة، فبدأ حيث انتهى الكندى، أعنى منذ وفاة الإخشيد إلى دخول المعز لدين الله مصر (٣٣٥ - ٣٦٢هـ).

وهنالك أيضاً ذيل أو تتمة أخرى لابن زولاق فى أخبار الدولة الطولونية، أشار إليها فى ديباجة «سيرة الإخشيد».

بقى أن نتكلم عن أثر لابن زولاق، هو الوحيد الذى تلقيناه كاملا. ذلك هو «كتاب أخبار سيبويه المصرى». وهو أثر أدبى يحتوى أخبار أحد أعلام الأدب فى عصر ابن زولاق. ويلقى شيئًا من الضياء على بعض نواحى الحياة الأدبية فى هذا العصر. وسيبويه المصرى، هو أبو بكر محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندى المصرى، ولد بالفسطاط سنة ٢٨٤هـ وتوفى سنة ٣٥٨هـ؛ ولقب بسيبويه لبراعته فى النحو وخواص اللغة.

وكتاب «أخبار سيبويه» يلقى شيئًا من الضياء على بعض نواحى الحياة الأدبية المصرية فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى، وعلى أحوال الأدباء ومكانتهم من المجتمع، وعلائقهم برجال الدولة، وعلى حلقات الأدب فى مصر الفسطاط، وعلائق الأدباء بعضهم ببعض، وكذلك على بعض نواح من الحياة الاجتماعية المصرية فى هذا العصر.

وهكذا يجمع تراث ابن زولاق بين التاريخ وشىء من الأدب. ذلك أن ابن زولاق يتجه بمجهوده إلى نوع من التخصص، وأنه يتناول من تاريخ مصر، دول العصر الذى عاش فيه فى توسع وإفاضة. فهو بذلك أول مؤرخ مصرى آثر التخصيص على التعميم، وآثر حوادث عصره ورجال عصره بأكبر قسط من مجهوده، لأن مجهود ابن عبد الحكم والكندى، يتجه كلاهما إلى التعميم، وإن لم يخل من بعض نواح خاصة. بيد أن مجهود ابن زولاق يصل مع ذلك مجهود سلفيه ويتمه، بحيث نجد فى مجهود المؤرخين الثلاثة سلسلة متصلة فى تاريخ مصر الإسلامية منذ الفتح إلى قيام الدولة الفاطمية وعصر المعز لدين الله. ولكن مجهود ابن زولاق أولا بالتحرر من كثير من قيود الرواية والإسناد التى تطبع مجهود ابن عبد الحكم والكندى، وإذا كان يلجأ إليها فى كثير من المواطن، فأكثر ما يكون ذلك للنقل عن أساتذته وبعض معاصريه، ممن شهدوا حوادث أو تفاصيل تتعلق بموضوعه. والمشاهدة والتحقيقات الخاصة هى أعظم مصادر ابن زولاق. وقد رأيت أنه كان ذا صلة وعلائق، بالدول والأشخاص الذين كتب تاريخهم، وأنه كان مؤرخ دولة أو مؤرخًا رسميًا فى معنى من المعانى. ولكن هذه الصفة لم تجن على مجهوده فيما نعتقد، لأنه لم يبد فيه شيئًا من عوامل التشيع أو التحامل الواضحة، ولأنه فوق ذلك يعرض الحوادث والتفاصيل مجردة، ومعظمها من حروب وثورات وضروب بطش ونقمة، لم تكن تناقض روح عصره أو مبادئه. ولم تكن مما يتأذى منه المتغلب أو الفاتح الذى تسبغ القوة على تصرفاته لونًا من الحق والشرعية. فابن زولاق راوية ينقل ما سمع وشاهد وحقق، من طريق صلاته وعلائقه بأكابر عصره، وروايته لذلك جديرة بالاعتماد والثقة، بل هى أنفس ما انتهى إلينا من تواريخ هذا العصر ووثائقه، مما يدلل بوضوح على أن الرواية التاريخية قد بدأت فى عصره تنزع عنها كثيرًا من عوامل الجفاء والملل التى تطبعها فى القرنين الثانى والثالث الهجرى، وتدخل فى مرحلة جديدة من البسط والدقة، وحسن العرض.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - مؤرخو مصر الإسلامية للمؤرخ محمد عبد الله عنان ص ٣٤ - ٤٨.
٢ - وفيات الأعيان لابن خلكان ١٦٧/١.
٣ - حسن المحاضرة ١٤١/١.
٤ - المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد ٥/٤.
٥ - الأعلام للزركلى ١٧٨/١.

زيد بن علي
(٧٩ - ١٢٢هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠م)

مؤسس مذهب الزيدية أحد المذاهب الشيعية، له آراء انفرد بها عن شيعة زمانه، فخرج عليه بعضهم ورفضوا اتجاهه، وسموا بالرافضة، وكوَّنوا اتجاهًا آخر يخالفه، قدَّم أصول مذهب الزيدية فى علم الكلام والفقه، ويعد من أكثر الاتجاهات الشيعية اقترابًا من فكر أهل السنة.

ولقد ولد الإمام زيد سنة ٧٩ هـ، وأخذ علوم الدين عن أبيه على زين العابدين، ثم عن أخيه محمد الباقر. وسافر إلى البصرة واتصل بواصل بن عطاء، مؤسس فرقة المعتزلة، وأخذ عنه أصول الدين، ورأيه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وإن اختلف مفهوم زيد عن مفهوم واصل، ثم انتقل زيد فى أقاليم العراق والحجاز، والتقى بطلاب العلم، وكان من أعلم الناس بقراءات القرآن، وبلغ من العلم الذروة، حتى قال فيه الإمام أبو حنيفة: (شاهدت زيد بن على فما رأيت فى زمانه أفقه منه).

خالف زيد سيرة أبيه وأخيه فى التقية، وخرج على الأمويين لاتخاذهم الملك وراثة، ودعا إلى مبدئه القائم على الكتاب والسنة، وإماتة البدع، وخرج فى الجهاد ضد الأمويين حتى قتل شهيدًا سنة ١٢٢هـ.

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

فى مجال الفقه:

كان الإمام زيد فقيهًا ومحدِّثًا وعالمًا بقراءات القرآن، وكان ميَّالاً إلى فقه وحديث المدينة، والمأثور من آراء الإمام زيد، لا يخرج عن آراء فقهاء الأمصار فى الجملة.

ومنهجه فى الاستنباط لا يبعد عن منهج الذين عاصروه، كأبى حنيفة، فهو يأخذ بالكتاب والسنة، ويجتهد بالرأى، إن لم يجد نصا من كتاب أو سنة، ويعتمد فى السنة على أقوال الإمام على، وإن كان لم يلتزم منهجا معينا فى استنباط الآراء الفقهية.

ويعتبر الإمام زيد أول من دوَّن الفقه من بين جميع المذاهب الإسلامية، فى وقت لم يكن التدوين قد بدأ فيه. وكان فقه الإمام زيد مستنداً إلى ما وصل إليه من حديث، وهو منهج فقهى يعتمد على النقل والعقل، أو

الحديث والرأى. ثم أخذ أئمة الزيدية عنه هذا العلم، وانتشر مذهبه الفقهى بفضل تلاميذه، فى العراق وخراسان والمدينة واليمن والمغرب.

علم الكلام :

اختلفت آراء الإمام زيد عن آراء فرق الشيعة فى موقفه من الإمامة، وصحح الفكرة حول الشيخين أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - ولم يعتبر الخلافة وراثة خالصة، بمعنى أن الخليفة لا يكون علويا، أى ينتسب إلى الإمام على، وأن عليا ﷺ لم يوص بالخلافة بالشخص، بل بالوصف لأنه كان أفضل الصحابة، ولا يمنع ذلك أن يتولى غيره، إذا كان فى ولايته مصلحة للمسلمين. ولذا اعترف بإمامة أبى بكر وعمر، لأنهما أقاما الحق والعدل، وكانت المصلحة فى توليتهما.

ومن هنا صرح زيد بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل، كما أجاز وجود إمامين فى قطرين متباعدين يستجمعان شروط الإمام فى حالة اتساع مساحة البلاد، وعدم وصول دعوة الإمام الأول إلى القطر الثانى.

وقد أنكر الإمام زيد فكرة عصمة الأئمة عن الذنوب، كبائر وصغائر، ولكن الزيدية تنسب إليه أنه قد قرر العصمة لأربعة من آل البيت، هم على - كرم الله وجهه - والسيدة فاطمة - رضى الله عنها - والحسن والحسين رضى الله عنهما.

كما أنكر الإمام زيد فكرة العلم اللدنى، الذى هو علم من لدن، أو من عند الله، وهو نور إلهى، افترض الشيعة انتقاله من الأنبياء إلى خلفائهم، وهذا العلم ليس مكتسبا بل هو من عند الله، وهذا ما رفضه الإمام زيد قائلا: إن علم الإمام مكتسب، وهو درجات يرتقى فيه الإنسان حتى يصل إلى درجة الاجتهاد التى تؤهله لأن يكون إماما، كما رفض فكرة أن يكون الإمام مستورًا ومختفيًا، بل لابد أن يعلن عن نفسه ويخرج داعيا لنفسه.

وللإمام زيد رأى فى الفعل الإنسانى، ومذهب الجبر والاختيار، فقد نظر فى المذاهب المنتشرة فى ذلك الوقت، (الجبرية والقدرية)، فوجد أن الأول يؤدى إلى إسقاط التكاليف، إذ لا تكليف إلا مع الاختيار، ووجد الثانى ينفى علم الله الأزلى وتقديره الأزلى، ويخالف نصوص القرآن القاطعة، مثل قوله تعالى ﴿ **والله بكل شىء عليم** ﴾. [البقرة: ٢٨٢].

واتجه الإمام زيد فى مسألة الفعل الإنسانى إلى اتجاه وسط لا يهدم التكليف ولا يعطل الصفات، فقرر وجوب الإيمان

بالقضاء والقدر، واعتبر الإنسان حرًا مختارًا فى طاعته وعصيانه، وأن المعصية ليست قهراً من الله، فهو يريدها وإن كان لا يحبها ولا يرضاها. فهناك فرق بين علم الله وفعله، فالله علم أن الإنسان يفعل الظلم، ولكن فعل الظلم من الإنسان، وهو يفعل بقوة أودعها الله فيه.

وقد تبنى الإمام زيد مبدأ حرية الإنسان ردًا على ما كانت تبثه الدولة الأموية من نشر لعقيدة الجبر، وأن وصولهم للحكم كان بقضاء الله وقدره، ولا حيلة للناس فى دفعه، لكن الإمام زيد رفض الجبر كما رفض المغالاة فى القدرة والحرية.

المنزلة بين المنزلتين:

اتخذ الإمام زيد رأى المعتزلة الذى حاول التوسط بين الاتجاهات المتنازعة، وتوسط كذلك الإمام زيد بين تطرف الخوارج وتفريط المرجئة، فقد وقف هذان الاتجاهان أمام حكم مرتكب الكبيرة: وأخذا طرفًا ما من القضية. قالت الخوارج إن مرتكب الكبيرة كافر وخارج عن ملة الإسلام فى الدنيا، ويجب أن يقتل، ليخلد فى النار فى الآخرة. أما المرجئة فقالت: إنه مؤمن ويبقى فى داخل الملة فى الدنيا، ويترك للآخرة ليفعل به الله ما يشاء. أى أن الحكم عليه يُرْجَأ للآخرة.

أما زيد فرأى أن مرتكب الكبيرة لم تصل درجته إلى الإيمان، ولم تنحدر إلى الكفر؛ فهو فى منزلة بين المنزلتين، منزلة الفاسق.

فى مجال السياسة:

تميزت آراء الإمام زيد بصبغة سياسية معينة، اختلف فيها مع والده وأخيه والشيعة فى عصره، الذين آثروا التقية: ومعناها الخوف من إعلان الرأى صراحة وكتمانه بالقلب وإعلان خلافه باللسان؛ خشية أن يصيبهم السوء، ولذا فضلوا القعود وأنكروا الخروج للثورة والجهاد.

وهذا ما رفضه الإمام زيد، ورأى ضرورة الجهاد، وإعلان الإمام عن نفسه، لأن التقية تؤدى إلى عدم معرفة الإمام أو معرفة رأيه فى أصول الدين. وقد أشار عليه بعض المخلصين بعدم الخروج لقلة أصحابه وعدته وعتاده، فردَّ عليهم أنه لا عبرة بكثرة المخالفين ولا بقلة الأتباع، لأن الله تعالى لم يذكر الكثير إلا وذمه ولم يذكر القليل إلا ومدحه، والقليل فى الطاعة هم أهل الجماعة، والكثير فى المعصية هم أهل البدع.

ورأى الإمام زيد أن الخروج واجب على كل إمام فاطمى شجاع عالم زاهد سخى، عليه أن يكون ثائرًا على الظلم، وليس الإمام

من جلس فى بيته، وبعد عن الجهاد، بل الإمام من جاهد فى سبيل الله حق جهاده، ودافع عن رعيته، وإذا استشهد الإمام قام إمام آخر يتلوه يدعو إلى ما دعا إليه.

واشترط زيد فى الإمام أن يكون فاطميا، أى من أبناء السيدة فاطمة، حَسَنًا كان أم حُسَيْنيا، مخالفًا الإمامية فى اشتراطهم أن يكون حسينيًا فقط، ومن ثم فإن الأئمة من أولاد الحسن رضي الله عنه قد انضموا إلى المذهب الزيدى.

واشترط الإمام زيد أن يدعو الفاطمى إلى نفسه بعد أن يستوفى شروط الإمام من علم وخلق، وأقل مقدار للخروج أن يكون معه كعدة أهل بدر، يخرجون على سلطان البغى.

مؤلفاته :

تنسب للإمام زيد عدة مؤلفات، منها: كتاب تفسير الغريب، وكتاب الحقوق، وكتاب المجموع فى الحديث، وكتاب المجموع فى الفقه، ويعد الكتابان الأخيران هما عماد الحديث والفقه لدى الزيدية: كما يعد كتابه (المجموع) الذى أملاه على أبى خالد الواسطى أول مدونة فى الفقه والحديث.

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة :

١- الشيخ محمد أبو زهرة: الإمام زيد، دار المعارف القاهرة.
٢- د. فضيلة عبدالأمير الشامى: تاريخ الفرقة الزيدية بين القرنين الثانى والثالث، مطبعة الآداب، النجف، سنة ١٩٧٤م.
٣- د. أحمد محمود صبحى: الزيدية، دار منشأة المعارف، الإسكندرية، سنة ١٩٨٠م.
٤- محمد بن محمد زبارة: تاريخ الزيدية، تحقيق/ محمد زينهم - مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٩٩٨م.

ابن سبعين
(٦١٣ - ٦٦٩هـ = ١٢١٦ - ١٢٧٠م)

هو أبو محمد عبد الحق بن إبراهيم بن محمد بن نصر الأندلسى، ويلقب بقطب الدين، كما يعرف باسم (ابن دارة)، ولد سنة ثلاث عشرة وستمائة ٦١٣هـ = ١٢١٦م، فى بيت من بيوت الأندلس، فى أسرة لها نصيب من العلم والرئاسة والحسب.

وتوفى عام ٦٦٩هـ الموافق ١٢٧٠م.

وهو يعتبر فيلسوف صوفى أندلسى، أبرز من مثَّل مذهب الوحدة الوجودية المطلقة، أحاط بالثقافات القديمة، الغربية والشرقية، وحاول مزجها بالثقافة الإسلامية، شغل أذهان المسلمين من خصومه وأنصاره، عُرف عنه حسه النقدى البارز، كما كان له مناظرات مع (فردريك الثانى) عندما ردَّ عليه فى بعض المسائل الفلسفية، ووصفه البابا (أنوسنت الرابع) بأنه أعظم المسلمين فى عصره، كما عرفه وتأثر به بعض الفلاسفة المسيحيين.

عاش ابن سبعين فى (مرسية) ودرس الأدب والعلوم العقلية، ثم انتقل إلى المغرب العربى وسكن (بجاية)، ومثلت هذه الفترة أهم فترات حياته خصوبة من الناحية الفكرية والروحية، وألَّف فيها معظم رسائله، وأجرى مناظرات مع فقهاء المغرب من أعداء الفلسفة والتصوف.

ثم ارتحل إلى تونس وطالت إقامته فيها، وهناك ظهرت نزعته الصوفية بشكل بارز، وأعلن مذهبه فى الوحدة المطلقة، فأثار عليه حفيظة فقهاء المغرب وتونس، مما دعاه إلى الارتحال إلى المشرق، فمر بمصر وأقام بها فترة قصيرة، ثم غادرها إلى الحج، وتقرَّب إلى أمير مكة، وأقام بها، إلا أن آراءه أثارت عليه الخصوم؛ وفكر فى أن يهاجر إلى الهند.

وقد كانت له آراء اختلف الناس فى الحكم عليها فوصفه البعض بالكفر، فى حين وصفه الآخرون بالحكمة والقرب من الله، يصفه الفقهاء بالكفر بناء على آرائه فى الفلسفة والتصوف، بينما يراه تلاميذه عارفًا كبيرًا، ويعد مذهبه الفلسفى الصوفى أهم ابتكاراته على الإطلاق.

كان أغلب الهجوم الذى وُجِّهَ إلى ابن

سبعين من فقهاء عصره، أمثال ابن تيمية، وانصب هذا الهجوم على تصوره لمذهب وحدة الوجود، والفكرة الأساسية فى هذا المذهب تقوم على أن الوجود واحد، هو وجود الله، أما سائر الموجودات الأخرى فوجودها عين وجود الواحد.

ويسمى هذا المذهب فى تفسير الوجود بالوحدة المطلقة، وحدة منزهة عن كل المعارف الإنسانية التى يمكن أن تخلع عليها، فلا يوجد إلا (الله) فقط، فهو مبدع الأشياء، ومفيض الخيرات علينا.

ويشير ابن سبعين إلى أن إنِّيَّةَ الله - أى وجوده - هى أول الإنيات، وآخر الهويات، وظاهر الكائنات، وباطن الأبديات، لا إله إلا هو، والكل منسوب إليه، ولا حى على الحقيقة إلا الله، ولا واحد على الحقيقة إلا الله.

المعارج : يسلك الصوفى فى طريقه للوصول إلى الوحدة معارج، وبتدرج، يبدأ من الوحدة الأولى، ويمر عبر مراحل حتى يصل إلى الوحدة المطلقة.

فى الوحدة الأولى: يتأمل الصوفى السالك الذوات عارية عن المادة، فيرى الوجود يسيل ولا يقف.

وفى الثانية: يكثر من فرض الاتحاد بالقوة الوهمية، وهذا الاتحاد هو إحداث غيظة للنفس عسى أن تقل حركتها، فيتيح لها هذا الشعور بالوحدة المخطوفة.

ثم تأتى المرحلة الثالثة: ويطرح السالك البراهين العقلية، والأقيسة الصناعية، وكافة أنواع المقدمات التى يعتمدها الناس، ويترك المنطق الأرسطى، وهذا هو طريق النفوس القوية، المفطورة على التصوف، أما النفوس العادية، فلها طريق آخر.

النفوس العادية : لها طريق يبدأ بتصفح أحوال الملة، وأحوال من وضعها عن طريق العلم المنقول، أما الصوفى الحق فيجب عليه أن يحيا فى الحاضر باستمرار، وأن يترك الماضى وحياته ووجوده؛ ليحيا فى حاضر سرمدى.

وينتقل السالك فى عالم المخلوقات من إدراك الأفلاك، وموجودات ما تحت فلك القمر، إلى عالم أعلى، ويرى أن هذا العالم يشبه النفس، فالعالم محيط بالكل، وهذه الإحاطة وهذا الاتحاد بين الأضداد هو مذهب ابن سبعين.

نور النبوة : ينظر ابن سبعين إلى محمد ﷺ على أنه نور استنادًا إلى قوله ﷺ : «**اللهم اجعل لى نورًا فى قلبى، ونورًا فى جسمى، ونورًا فى شعرى**» ثم يتتبع جوارحه كلها حتى يقول : «**واجعلنى نورًا**».

وروح النبى ﷺ عند الموت كانت نورا ارتقى إلى الرفيق الأعلى محل الأنوار، فبقى هناك نورًا مع الأنوار، وقد بحث ابن سبعين هذه المسألة فى رسالته المعنونة باسم (أنوار النبى)، وقد أحصى هذه الأنوار بأنها ثلاثة وثلاثون نورًا، يبدأها بأنه نور العزة، وينهيها بأنه النور المحض.

نقد الفلاسفة: كان ابن سبعين يملك حسًا نقديًا واضحًا فى الفلسفة الإسلامية، وحلّل فكر كل من الفارابى، وابن سينا، والغزالى، وابن رشد، ونقدهم.

أخذ على الفارابى تناقضه، وقوله بآراء مختلفة بحسب الكتب المختلفة التى عرضها، وضرب مثالا على ذلك برأى الفارابى فى مسألة خلود النفس، وإن كان أحيانًا يبدى إعجابه به، ويرى أنه أفضل فلاسفة الإسلام معرفة بالعلوم القديمة، واصفًا إياه بأنه أفهم فلاسفة الإسلام.

أما ابن سينا فقد وجّه إليه نقدًا لاذعًا، فوصفه بالتمويه، وبأن فلسفته قليلة الفائدة، وزعم أنه أدرك الفلسفة المشرقية، وهو زعم خاطئ من ابن سينا، لأنه لو أدركها حقيقة لعبَّر عنها ونشرها.

ووجّه ابن سبعين نقدًا شديدًا للغزالى، واصفًا إياه بأنه (لسان دون بيان، وصوت دون كلام، وتخليط جمع الأضداد، وحيرة تقطع الأكباد، مرة صوفى، وأخرى فيلسوف، وثالثة أشعرى، ورابعة فقيه، وخامسة محيِّر، وإدراكه للعلوم القديمة أضعف من خيوط العنكبوت.

وقد عاب ابن سبعين على ابن رشد إعجابه الشديد بأرسطو، وتقليده الأعمى له، ووصفه بأنه (قليل الباع، قليل المعرفة، وأنه لا أصالة له)؛ لأنه قلد أرسطو، وقليل المعرفة؛ لأنه لم يلم بعلوم الحقيقة، التى هى علم المكاشفة الصوفية الذوقية.

كذلك وجّه ابن سبعين نقده للفقهاء، فأخذ عليهم طريقتهم الفاسدة من وجهة نظره؛ حيث إنهم يتعلقون بالظاهر من الأعمال الخارجية، المثلة فى العبادات، دون الاهتمام بإخلاص الباطن. وإنهم لا يدركون سر التجرد، ويتعلقون بأحاديث، ويحرصون على التمسك بظاهر الأقوال المرصودة فى الكتب، دون الاهتمام بحقائقها، ويتشبثون بالآراء المجردة، لا بالآراء الحقيقية.

وله العديد من المؤلفات من أهمها : الرسالة الفقيرية، الرسالة القوسية، كتاب الإحاطة، رسالة النصيحة، كتاب حكم ومواعظ، رسالة فى أنوار النبى ﷺ، رسالة خطاب الله بلسان نوره، رسالة الألواح المباركة، وصية ابن سبعين لأصحابه، الرسالة

الرضوانية، رسالة فى عرفة، وقد نشر د. عبدالرحمن بدوى رسائل ابن سبعين فى كتاب عنوانه (رسائل ابن سبعين).

أما أشهر رسائل ابن سبعين فهى رسالة بعنوان (المسائل الصقلية)، وهى رسالة وجهها ابن سبعين إلى الإمبراطور (فردريك الثانى)، وتشمل هذه الرسالة عرضًا لبعض المسائل الفلسفية مثل: حقيقة العالم، الغاية من علم الإلهيات، المقولات الأرسطية وعددها، خلود النفس، والفرق بين علم النفس الأرسطى ونظرية الإسكندر الأفروديسى، تفسير الحديث النبوى لمحمد ﷺ «**قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن**»، وله كتاب (يد العارف) الذى يعبر فيه عن اتجاهه الصوفى.

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١ - أمارى (ميشيل) : مسائل فلسفية موجهة للعلماء المسلمين من قبل الإمبراطور فردريك الثانى، المجلة الأسيوية - شباط آذار سنة ١٨٥٣م.

٢ - بدوى (د. عبد الرحمن): عهد ابن سبعين لتلاميذه، دراسة لرسالة ابن سبعين، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مج ٥٦ سنة ١٩٥٦م.

٣ - بدوى (د. عبد الرحمن) رسائل ابن سبعين - تحقيق د. بدوى، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٠م.

٤ - التفتازانى (د. أبو الوفا): ابن سبعين وفلسفته الصوفية، بيروت، سنة ١٩٨٨م.

٥ - سبالينو (باترسيا) إشكالية الأصالة فى المسائل الصقلية لابن سبعين، مجلة التراث العربى، دمشق، عدد ٦٣، يناير سنة ١٩٩٦م.

٦ - سبالينو (باترسيا) ملاحظات حول نسبة ابن سبعين، مجلة ألف باء، عدد ١٦، بالرمو، سنة ١٩٩٤م.

٧ - ماسينيون (لويس) ابن سبعين والنقد السيكولوجى، دراسات حديثة لشمال أفريقيا ودراسات شرقية، نشر معهد الدراسات العليا المغربية، مج ٨، باريس، سنة ١٩٢٨م.

٨ - محمود (د. عبدالقادر) الفلسفة الصوفية فى الإسلام، دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.

السخـــــاوى
(٨٣١ - ٩٠٢هـ = ١٤٢٧ - ١٤٩٧م)

هو الإمام الحافظ، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبى بكر ابن عثمان بن محمد السخاوى الأصل، القاهرىّ المولد، الشافعى المذهب، نزيل الحرمين الشريفين.

ولد الإمام السخاوى فى شهر ربيع الأول سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة، وحفظ القرآن الكريم فى صغره، وحفظ : عمدة الأحكام، والتنبيه، والمنهاج، وألفية ابن مالك، وألفية العراقى، وغالب الشاطبية، والنخبة لابن حجر إلى غير ذلك من الكتب، وكان - رحمه الله تعالى - كلما حفظ كتابا عرضه على مشايخه.

وبرع هذا الإمام فى الحديث والفقه والقراءات واللغة العربية والتاريخ، وشارك فى الفرائض والحساب والتفسير وأصول الفقه.

وأخذ العلم عن عدد كبير من الشيوخ لايُحصى عددهم يزيدون على أربعمائة، وأذن له كثير من شيوخه بالافتاء والتدريس والإملاء، كما سمع الكثير على شيخه الحافظ ابن حجر العسقلانى، وأخذ عنه أكثر تصانيفه وكان يروى صحيح البخارى عن أكثر من مائة وعشرين نفسا. وكانت له رحلاته العلمية إلى حلب ودمشق والحرمين الشريفين وبيت المقدس وغير ذلك من البلاد، وكانت له مرويات كثيرة بالسماع والقراءة، ما يفوق الوصف.

وأدى فريضة الحج بعد وفاة شيخه ابن حجر مع والديه ولقى جماعة من العلماء، وأخذ عنهم، كالبرهان الزمزمى وأبى السعادات بن ظهيرة، والتقى بابن فهد وغيرهم.

ورجع إلى القاهرة، ولازم الاشتغال بالعلم والتأليف، ثم حج سنة سبعين وجاور، وحدّث هناك بأشياء من تصانيفه وغيرها.

ثم حج فى سنة خمس وثمانين، وجاوَرَ هناك وأقام ثلاثة أشهر بالمدينة المنورة، ثم حج سنة اثنتين وتسعين، وجاور، ثم حج سنة ست وتسعين وجاور، وتوجه بعد ذلك إلى المدينة وأقام بها أشهرا وصام رمضان بها ثم

عاد فى شهر شوال إلى مكة وأقام بها مدة ثم رجع إلى المدينة المنورة وجاور بها إلى أن مات.

وأخذ عنه من لايحصى كثرة من أهل الحرمين ومن القادمين إلى هناك.

مؤلفاته :

ألف الإمام السخاوى كتبا قيمة تدل على رسوخ قدمه فى العلم، من هذه المؤلفات:

١ ـ الجواهر والدرر فى ترجمة الشيخ ابن حجر. (مطبوع).

٢ ـ فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، لايعلم أجمع منه ولا أكثر تحقيقا لمن تدبره. (مطبوع).

٣ ـ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، فى ستة مجلدات، وقد ذكر فيه ترجمة لنفسه على عادة المحدثين. (مطبوع).

٤ ـ المقاصد الحسنة فى الأحاديث الجارية على الألسنة، وهو من أجمع وأتقن ما كتب فى هذا الاتجاه. (مطبوع).

٥ ـ القول البديع فى الصلاة على الحبيب الشفيع. (مطبوع).

٦ ـ عمدة المحتج فى حكم الشطرنج.

٧ ـ الإعلان بالتوبيخ على من ذم علم التاريخ. (مطبوع).

٨ ـ التاريخ المحيط على حروف المعجم.

٩ ـ تحرير الميزان.

١٠ـ تلخيص تاريخ اليمن.

١١ـ الأصل الأصيل فى تحرير النقل من التوراة والإنجيل.

١٢ ـ عمدة القارئ والسامع فى ختم الصحيح الجامع. (مطبوع).

١٣ـ غنية المحتاج فى ختم صحيح مسلم ابن الحجاج. إلى غير ذلك من المؤلفات القيمة.

وانتهى إلى الإمام السخاوى علم الجرح والتعديل حتى قيل: لم يكن بعد الذهبى أحد سلك مسلكه، وكان بينه وبين البرهان البقاعى والجلال السيوطى ما بين الأقران حتى قال السيوطى فيه :

قل للسخاوىّ إن تعروك نائبة
علمى كبحر من الأمواج ملتطم
والحافظ الديمى غيث للسحاب فخذ
غَرفا من البحر أو رشفا من الديم

وتوفى سنة اثنتين وتسعمائة بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام وذلك يوم الأحد الثامن والعشرين من شعبان، وصلى عليه بعد صلاة الصبح يوم الاثنين ووقف بنعشه تجاه الحجرة الشريفة، ودفن بالبقيع بجوار مشهد الإمام مالك ولم يخلف بعده مثله.

أ.د. أحمد عمر هاشم

سعـاد ماهــر
(١٩١٧ - ١٩٩٦م)

ولدت فى أغسطس عام ١٩١٧م حصلت على الدكتوراه فى الآثار الإسلامية. شغلت منصب عميد كلية الآثار بجامعة القاهرة. تميزت بإمكانيات الشخصية القيادية. ومن أبعاد الريادة فيها: موسوعية التفكير، واتساع الأفق، وعمق التذوق للفنون والآداب، والبعد عن التعصب، والتحلى بموضوعية العلماء وحيادهم.

كانت نموذجاً راقياً للمرأة العربية الحديثة، وما قدمته لخدمة الفكر والآثار الإسلامية والتراث الإنسانى بعامة لم يقدمه عشرات الرجال، وقد حملت عبء إنشاء أول كلية للآثار بجامعة القاهرة.

وأسست بداخلها قسماً للترميم. وحصلت على جائزة الدولة من الدرجة الأولى من المملكة العربية السعودية تقديراً لمؤلفاتها الموسوعية عن مكة والمدينة، وحصلت على درع دولة الإمارات لإنتاجها فى مجال الآثار ببلادهم.

وقد كلفتها جمعية القديس مارتن بفيينا بإعداد المادة العلمية والأثرية لثلاثة أفلام عن الآثار اليهودية والمسيحية والإسلامية. فجاءت النتيجة مبهرة وأعظم مما توقع علماء الجمعية العريقة التى أنشئت فى القرن الرابع عشر الميلادى، ولذا استحقت وسام الاستحقاق.

وكلفتها هيئة اليونسكو بالكتابة عن الآثار فى شبه الجزيرة العربية ، وقضت تسع سنوات فى إنجاز هذه المهمة، وكانت الثمرة موسوعتى مكة والمدينة، ورغم تخصصها فى الآثار والحضارة الإسلامية إلا أنها كانت مغرمة بالشعر وتذوب بكل وجدانها فى قصائد رابعة العدوية على وجه التحديد وتطرب لكل الفنون الجميلة. وقد توفيت سنة ١٩٩٦م.

مؤلفاتها :

خلفت وراءها ثروة طيبة من المؤلفات فى مجال الحضارة والفنون الإسلامية والآثار القبطية والتاريخ منها : العمارة الإسلامية على مر العصور، ومساجد مصر وأولياؤها الصالحون، البحرية المصرية وآثارها، وموسوعتان كبيرتان تضم كل منهما ١٢ جزءاً، موسوعة مكة (٣ أجزاء) وموسوعة

المدنية، وموسوعة محافظات مصر تقع فى ٢٦ جزءاً.

وقد أسمت الدكتورة سعاد ماهر كتابها (مساجد مصر وأولياؤها الصالحون).

وقد رأت أن تجمع فى دراسة هذه العمائر بين ترجمة المنشئ أو صاحب الضريح والتاريخ السياسى للفترة التى أنشئ فيها الأثر.

درست تاريخ المشاهد والأضرحة والمزارات وتراجم أصحابها الذين كان لهم أثر يذكر فى تاريخ البلاد سواء أكان من الناحية السياسية أو العلمية أو الاجتماعية أو كان صاحبه من أولياء الله الصالحين.

ومن أهم الكتب التى راجت كثيرا عن المسلمين من الشيعة كتاب (مشهد الإمام على رضي الله عنه فى النجف وما به من الهدايا والتحف).

ومن مؤلفاتها أيضا كتاب «الفنون الإسلامية» نشرته الهيئة العامة للكتاب عام ١٩٨٦م تناولت فيه الراحلة - رحمها الله - موقف تشجيع الإسلام للفنون التطبيقية، وأن القول بحرمة التصوير، ليس له أساس من الصحة فعندما سطع نور الإسلام أقام للعلم دولة، وللفنون والصناعات نهضة، ولأسباب الحياة أمنا وتقدما وسعادة. ولذا فإن ما تركه المسلمون من تحف وآثار، أعان علماء تاريخ الحضارة لمعرفة حضارة الإسلام الفنية من أساليب تجويد الصناعة، والذوق السليم، والمهارة الجمالية.

وتناولت الدكتورة سعاد كيف أن الفن الإسلامى وقف من فنون الحضارات الأخرى موقف الفاحص الناقد وأن الفنان المسلم طالما أمضى فترات طويلة فى عملية استجماع واختيار ومزج، ثلاثة قرون تقريبا لكى يصبح للفن الإسلامى بعد ذلك مميزاته الخاصة. ومن أهم الميزات : الأشكال الهندسية توزيعها وتأليفها وتنسيقها بحيث تبدو وكأنها اخترعت لأول مرة. ورسم الفنان المسلم الأزهار والأوراق والأشجار والطيور والحيوانات بعد تحويرها تحويرا أفقدها شخصيتها، وكره الفنان الفراغ، فكرر الوحدات الزخرفية دون الوقوف عند حد معين.

وأطلق علماء التاريخ على هذا الفن «أرابسك»، وحظى الخط العربى بعناية المسلمين نظرا لاتصاله الوثيق بالقرآن الكريم. وقد أدى ذلك إلى إتقان ما أخرجته أيدى الصناع فى العمارة والتحف، حتى وصلت إلى درجة من الجمال الفنى يصعب أن نجدها فى الفنون الأخرى.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١- مؤلفات الأستاذة الدكتورة سعاد ماهر التى ذكرت فى متن السيرة.

ابن سعد
(١٦٨ - ٢٣٠هـ = ٧٨٤ - ٨٤٥م)

هو أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصرى الزهرى - فهو نفسه أو أبوه ينتمى إلى زهرة من قريش - مولاهم، وهو من موالى الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب - وهذا يعنى أن جده، وربما أبوه أيضًا كان مولى الحسين، فهو ابن مولى من المدينة، يلتحق ولاء بآل العباس، وهو كاتب الواقدى.

ولد فى البصرة سنة ١٦٨هـ الموافق ٧٨٤م.

وتوفى عام ٢٣٠هـ الموافق ٨٤٥م.

وهو محدِّث حافظ، ومؤرخ ثقة، كثير العلم، غزير الحديث والرواية، كثير الكتبة، حدَّث وروى كتب الحديث والغريب والفقه.

ولقد عاش حقبة من الزمن فى المدينة المنورة، ثم تركها، وتنقَّل بين مدن أخرى، وفى بغداد تعرَّف على «الواقدى» والتصق به، ورغم أنه درس على شيوخ آخرين كثيرين، إلا أنه ظل على الارتباط بهذا الشيخ حتى آخر حياته.

وصلته الكبيرة بالواقدى لم تعطه فقط لقب «كاتب الواقدى»، ولكنها سمحت لابن النديم صاحب «الفهرست» أن يقول: إنه - أى ابن سعد - ألَّف كتبه من تصنيفات الواقدى، وهذا غير صحيح؛ فهناك الكثير من الروايات والأسانيد التى لا نجدها عند الواقدى، ولكن ابن النديم لا يذكر له فى الآن نفسه إلا كتاب «أخبار النبى ﷺ»، والذى يظهر أن هذا الكتاب ليس إلا القسم الأول من كتاب ابن سعد «الطبقات الكبرى»، وقد كان «هشام بن محمد الكلبى» مصدر ابن سعد المباشر فيما يتعلق بتاريخ اليهود والنصارى، كما استفاد من سيرة ابن إسحاق، ومن كتاب «نسب الأنصار» لعبد الله بن محمد بن عمارة المتوفى سنة ٢٠٠هـ.

وقد روى تلاميذ ابن سعد كتاب أخبار النبى ﷺ وطبقات الصحابة على أنهما كتابان، وحُفِظَت لنا الطبقات على صورتها المعروفة على يد الحسين بن فهم (٢١١-٢٨٩هـ) ثم جمع ابن معروف الكتابين نحو

سنة ٣٠٠هـ مشكِّلاً منهما كتابًا واحدًا، تؤلف سيرة النبى ﷺ القسم الأول منه.

وابن سعد آخر جامعى السيرة من المتصلين بالمصادر الأولى، وثانى مؤلف بعد ابن إسحاق وصلنا كتابه عن السيرة كاملاً، ولن يأتى مؤلف بعده بجديد فيها، أما الطبقات فيتناول طبقات الصحابة والتابعين والخلفاء إلى وقته، وقد أجاد فيه وأحسن، وأسلوبه التاريخى - رغم أنه يحمل ملامح السابقين عليه - إلا أنه يتميز بملامح خاصة به، كما سيأتى.

ولقد كان القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، بما تتضمنه من روايات وأسانيد موثقة، مصدرين أساسيين عند ابن سعد، الشىء الذى جعل ابن حجر العسقلانى يشهد بأنه أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحرِّين، وجعل كتابه من الوثائق المهمة فى علم السنة والسيرة.

تميَّز منهج ابن سعد بعرض المادة فى صورة منظمة، وإبداء بعض الملاحظات الشخصية، وإسناد كل قول إلى مرجعه مستخدمًا طريقة الإسناد، أى طريقة المحدثين فى رواية الأخبار والأحداث، أى أنه اتبع المنهج العلمى الدقيق القائم على أسس «علم الجرح والتعديل»، مع ذكر الوثائق بنصوصها، والاستشهاد الكثير بالشعر، ولم يكن يتدخل فيحكم على الرواية والأسانيد، وإنما يضعها فى إطار واحد، وتحت عناوين فرعية، مع مزج الوقائع التاريخية بالنصوص الأدبية شعرًا ونثرًا.

ومفهوم السيرة عند ابن سعد لا يتسع فيشمل شيئًا كثيرًا مما وراءها، فالجاهلية عنده لا تحتل إلا أضيق حيز، ولا مكان هناك للرسالات الأخرى، وإنما عنايته بالصحابة والتابعين وأحوالهم، وهذا جرَّه إلى العناية بالصحابيات والتابعيات، وقد خصص الجزء الثانى من طبقاته لهن.

أما عن مؤلفاته فله :

كتاب الطبقات الكبير الذى حفظ لنا بصورته المعروفة للمرة الأولى على يد الحسين بن فهم (٢١١ - ٢٨٩هـ)، وقد اختصر السيوطى هذا الكتاب فى مؤلف له، عنوانه «إنجاز الوعد المنتقى من طبقات ابن سعد».

وكتاب الزخرف القصرى فى ترجمة أبى سعيد البصرى، أى الحسن بن يسار.

والطبقات الصغير، وهو منتخب من الكتاب الأول كما نص على ذلك صاحب كشف الظنون (١١٠٣/٤).

وكتاب الحيل.

كما ينسب لابن سعد: القصيدة الحلوانية فى افتخار القحطانية على العدنانية، وهو مخطوط بالقاهرة ثانى ٢٨٣/٣، ولهذه القصيدة شرح كتبه غازى بن يزيد، مخطوط فى القاهرة ثانى ٢٣٢/٥.

أما كتاب «أخبار النبى ﷺ» فليس سوى القسم الأول من كتاب الطبقات الكبير.

وجدير بالذكر أنه قد أعدت رسالة عن ابن سعد وطبقاته، قدمها مستشرق اسمه «أُتولُث Otto loth» باللغة الألمانية سنة ١٨٦٩م.

ويتناول كتاب الطبقات الكبير موضوعين أساسيين، الأول منهما سيرة النبى ﷺ، وقد شملت المجلد الأول والقسم الأكبر من الثانى، أما تراجم الصحابة والتابعين فقد شغلت المجلدات الباقية - إلا الأخير - وهو المجلد العاشر من نشرة د. على محمد عمر، فقد خصَّصه للنساء، وخصصت نفس الطبعة المجلد الحادى عشر للفهارس بمختلف أنواعها.

وفى السيرة النبوية قدم ابن سعد توطئة بذكر بعض الأنبياء السابقين على المصطفى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم تحدث عن مولده ﷺ ونسبه لأبيه وأمه، وبعض الأحداث الكبرى كحادثة الفيل، ثم يتناول بالتفصيل ولادته ﷺ ونشأته وتجارته وزواجه من «خديجة»، وأولاده، واختلاءه، وإرهاصات النبوة قبل الوحى، وعلاماتها بعده، وكيفية بدء الوحى، والدعوة، وما لاقاه الرسول ﷺ وأصحابه بدنيًا ونفسيًا، والهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة، وتأسيس الدولة الإسلامية الجديدة على مبادئ المؤاخاة، وبناء مسجد قباء، ودعوة الرؤساء والملوك إلى الإسلام، والوفود التى جاءت لرسول الله ﷺ وصفاته الخُلقية والخِلقية بصورة استقصت كل شىء حتى سواكه ومشطه ونعله ﷺ.

كذلك تحدث ابن سعد عن مرحلة الجهاد فى المدينة، وسراياه وغزواته ﷺ ضد المشركين واليهود، ثم حجة الوداع، وأخيرًا تحدث عن مرضه وتمريضه، وموته ودفنه ورثائه ﷺ.

يتبع ذلك كله بذكر من كان يفتى فى المدينة، ويقتدى به فى عهد النبى ﷺ وبعد ذلك العهد، وجمع القرآن الكريم على عهد النبى ﷺ، والمفتين فى المدينة المنورة بعد أصحاب رسول الله ﷺ من أبناء المهاجرين والأنصار وغيرهم.

من ذلك تعرف أن «ابن سعد» أول من جمع علامات النبوة، وكان هذا العمل هو ما اتبعته الكتب المتأخرة عن «دلائل النبوة»، كما كان الفصل الذى كتبه عن صفة أخلاق الرسول ﷺ سببًا فى وجود كتب الشمائل فيما بعد.

وأما تراجم الصحابة والتابعين فقد جعلها

فى طبقات، بادئًا بالطبقات الكبرى مراعيًا سبق الصحابى إلى الإسلام ونصرته له والهجرة من أجله، لذلك كان البدريون هم الطبقة الأولى عنده: البدريون من المهاجرين ثم من الأنصار، والطبقة الثانية: من المهاجرين والأنصار الذين لم يشهدوا بدرًا، ثم الصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة، وواضح أنه راعى العنصر الزمنى، لأنه بدأ الطبقة الأولى برسول الله ﷺ، ثم الأقرب فالأقرب إليه فى النسب - صلوات الله وسلامه عليه - والطبقة الثانية الذين لم يشهدوا بدرًا ولهم إسلام قديم، وقد هاجر عامتهم إلى أرض الحبشة، وشهدوا أحدًا وما بعدها، والطبقة الثالثة: من شهدوا الخندق وما بعدها، والطبقة الرابعة: من أسلم عند فتح مكة وما بعد ذلك، أما الطبقة الخامسة: فخاصة بمن قبض رسول الله ﷺ وهم حديثو السن، ولم يغزُ أحد منهم معه صلوات الله وسلامه عليه.

وفى قسم النساء يبدأ بالسيدة خديجة - رضى الله عنها - ثم بنات الرسول ﷺ، ثم عماته وبنات عمومته، وأزواجه، ثم النساء المسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم، ثم غرائب نساء العرب المسلمات المهاجرات المبايعات، ثم نساء الأنصار، ثم من لم ترو عن رسول الله ﷺ من النساء وروين عن أزواجهن وغيرهن، ولم تكن التراجم على مستوى واحد، وإنما كان ابن سعد يفيض فى تراجم الصحابة وكبار التابعين من المتقدمين، ويوجز كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى وتأخر الدخول فى الإسلام.

ويحرص ابن سعد على إيراد الأخبار التى تتسق مع صفات المترجم له، ويبدأ كل ترجمة بتحقيق نسب من يترجم له من حيث الأب والأم، ثم يتحدث عن الأولاد وأمهاتهم ونسب هؤلاء، ويبين هل بقيت ذرية الصحابى موضوع الترجمة بالمدينة أم رحلت إلى مكان آخر، ويبين وقت دخوله إلى الإسلام وترتيبه بين الداخلين فيه على يدى رسول الله ﷺ، ويبين هل اشترك فى الهجرة الأولى إلى الحبشة أم الثانية، وفى النهاية يصف كيفية وفاة الصحابى وزمن هذه الوفاة، وما يتعلق بالجثة ودفنها والصلاة عليها، ويحرص كذلك على وصف المظهر الخارجى للصحابى من حيث الثياب والعمائم والخاتم، ولا ينسى أن يتحدث عن وصية الصحابى والإشهاد عليها... إلخ.

ولا يقل الجزء الخاص بالنساء عن غيره من حيث بيان ما قامت به المرأة من إثراء للحياة الثقافية والفكرية، كما يعتبر مصدرًا خصبًا لمعرفة أنهن شاهدات على الحديث النبوى الشريف.

ملاحظات على طبقات ابن سعد :

١ - يلاحظ على ابن سعد أن شخصيته تتوارى أو تكاد وراء الروايات وكثرتها، فلا ترى له تعليقًا على سند أو رواية إلا نادرًا، وعندما يوجد فإنه يعبر عن مقدرة نقدية ممتازة، فقد كان كل همه جمع الروايات التى يطمئن إليها بين حشد كبير من الروايات.

٢ - ظهرت بعض الإسرائيليات فى كتاب الطبقات من بين الروايات التى أشاعها اليهود الذين أسلموا فى الصدر الأول، من أمثال: وهب بن منبه، وكعب الأحبار.

٣ - يلاحظ أن التزام «ابن سعد» بالطريقة الحولية، وإيثاره لعنصرى الزمان والمكان، كان سببًا فى تمزيق الحوادث وتفتيت الموضوعات، فلم تجمعها وحدة واحدة.

٤ - قطع الروايات قبل أن تكتمل، وإدخال بعضها فى بعض، وجمع أسانيد متعددة لمتن واحد، واقتصار الترجمة على سطر أو عدة أسطر خاصة إذا كان المترجم له قريبًا من عصره.

٥ - لا يذكر المصادر التى نقل عنها، كابن إسحاق والواقدى مثلاً، اعتمادًا على أنه يذكر السند الذى يصل بالخبر إلى قائله، ويصل بالوقائع إلى مؤلفى الكتب.

٦ - يذكر فى مصادر رواته ضعفاء، كهشام ابن السائب، وأبى معشر، والواقدى، وقد يكون هذا مقبولا من وجهة نظر علماء الحديث لشدة تدقيقهم فى الرواية، ولكن هؤلاء تقبل رواياتهم فى السيرة والمغازى، لأنها فى نظرهم - أقل درجة من علم الحديث - وإن كان بعض علماء الحديث قد وثّق الواقدى، وهو شيخ «ابن سعد»، وهذا يكفى لاعتماد الأخير على مروياته.

أ. د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة:

١ - المغازى الأولى ومؤلفوها، يوسف هوروفتش، ترجمة حسين نصار، القاهرة، سنة ١٩٤٩م.
٢ - مصادر السيرة النبوية وتقويمها، فاروق حمادة، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٩م.
٣ - منهج ابن سعد فى السيرة وتراجم الصحابة والتابعين، إسماعيل سالم عبد العال، مقال منشور فى مجلة مركز بحوث السنة والسيرة، جامعة قطر، العدد الخامس، سنة ١٩٩١م.
٤ - التاريخ العربى والمؤرخون، شاكر مصطفى، أربعة أجزاء في أربعة مجلدات، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٧٨م.
٥ - مقدمة تحقيق كتاب الطبقات الكبير لابن سعد، كتبها د. على محمد عمر، القاهرة، سنة ٢٠٠٢م.
٦ - السيرة النبوية من الطبقات الكبرى لابن سعد، مقدمة التحقيق، القاهرة، سنة ١٩٨٩م.
٧ - تاريخ التراث العربى، فؤاد سزكين، ترجمة محمود فهمى حجازى وفهمى أبو الفضل، القاهرة، سنة ١٩٧٧م.

أبــو السعــود
(٨٩٨ - ٩٨٢ هـ = ١٤٩٣ - ١٥٧٤م)

هو محمد بن محمد بن مصطفى العمادى المولى أبو السعود: مفسر شاعر من علماء الترك المستعربين.

ولد: بقرية قريبة من القسطنطينية سنة ٨٩٨هـ = ١٤٩٢م وقد توفى - رحمه الله- بالقسطنطينية فى ٥ جمادى الأولى سنة ٩٨٢هـ =١٥٧٤م ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى.

وهو: من بيت عرف أهله بالعلم والفضل، قرأ كثيرًا من كتب العلم على والده، وتتلمذ لكثير من جلة العلماء؛ فاستفاد منهم علماً جما، ثم طارت سمعته، وفاضت شهرته، وعظم صيته. تولى التدريس فى كثير من المدارس التركية، ثم قلد قضاء «بروسة»، ثم نقل إلى قضاء «القسطنطينية»، ثم إلى قضاء ولاية العسكر فى «ولاية روم إيلى»، ودام على قضائها مدة ثمان سنين.

ثم تولى الفتوى بعد ذلك، فقام بها خير قيام، بعد أن اضطرب أمرها بانتقالها من يد إلى يد، وكان ذلك سنة ٩٥٢ هـ .

ومكث فى منصب الإفتاء نحوا من ثلاثين سنة.. أظهر فيها الدقة العلمية التامة، والبراعة فى الفتوى، والتفنن فيها.

كان ــ رحمه الله، كما قيل عنه - من الذين قعدوا من الفضائل والمعارف على سنامها وغاربها، وسارت بذكره الركبان فى مشارق الأرض ومغاربها.

أقوال العلماء فيه :

قال الشوكانى: الإمام الكبير، عالم الروم،برع فى جميع الفنون، وفاق الأمراء، وأخذ عن أكابر علمائها، ودرس بمدارسها، وصار قاضياً بمدينة بروسا، ثم صار قاضيا للعسكر، ثم صار مفتياً بقسطنطينية وعين له السلطان كل يوم مائتين وخمسين درهماً.

وله تصانيف منها: التفسير، المشهور عند الناس بأبى السعود فى مجلدين ضخمين سماه «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم.

يعد تفسيره: غاية فى بابه، ونهاية فى حسن الصوغ وجمال التعبير، كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية ، بما لم يسبقه أحد إليه. ومن أجل ذلك: ذاعت شهرة

هذا التفسير بين أهل العلم، وشهد له كثير من العلماء، بأنه خير ما كتب فى التفسير.

فالإمام الشوكانى يقول عنه: (هو من أجل التفاسير، وأحسنها، وأكثرها تحقيقاً وتدقيقاً).

ويقول ابن العماد فى شذرات الذهب (أتى فيه بما لم تسمع به الأذهان، ولم تقرع بمثله الآذان).

وقال عنه صاحب العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم: «أتى فيه.. عالم تسمع به الأزمان، ولم تقرع بمثله الآذان، فصدق المثل السائر : كم ترك الأول للآخر».

وصاحب الفوائد البهية فى تراجم الحنفية، يقول عنه: «وقد طالعت تفسيره، وانتفعت به، وهو تفسير حسن، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، متضمن لطائف ونكات، ومشتمل على فوائد وإشارات».

ويعتمد أبو السعود فى تفسيره على: تفسير الكشاف للزمخشرى، وتفسير البيضاوى، وغيرهما ممن تقدم.

غير أنه لم يغتر بما جاء فى الكشاف من الاعتزالات - أى مذهب المعتزلة .

ولهذا لم يذكرها إلا على جهة التحذير منها، مع جريانه على مذهب أهل السنة فى تفسيره.

ولكن نجده قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف، وصاحب أنوار التنزيل وهو الإمام البيضاوى.. من أنه: ذكر فى آخر كل سورة حديثاً عن النبى ﷺ فى فضلها، وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله.

مع أن معظم هذه الأحاديث موضوعة، باتفاق أهل العلم جميعًا.

وعلى كل: فالكتاب دقيق غاية الدقة، بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به، غير مسرف فيما يضطر إليه من التكلم عن بعض النواحى العلمية.

وهو مرجع مهم، يعتمد عليه كثير ممن جاء بعده من المفسرين.

ولأبى السعود أيضًا : بضاعة القاضى فى الصكوك، تنقيح الوصول، حسن الخلاف فى المسح على الخفاف، رسالة فى الوقف، فتاوى أبى سعود، القصيدة الميمية، الكاشف عن حقائق التنزيل، منار الأنوار وشرح موقف العقول فى وقف المنقول، الهداية فى الفروع.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة:

١- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكانى.
٢- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، لابن العماد.
٣- معجم المؤلفين، لرضا كحالة.
٤- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، لحاجى خليفة.
٥- الأعلام، للزركلى.
٦- التفسير والمفسرون.

أبو سعيد الخَرَّاز
(٠٠٠ - ٢٧٩ هـ)

هو أحمد بن عيسى الخراز، وكنيته أبو سعيد بغدادى، من مشاهير الصوفية وأحد أعلام القرن الثالث الهجرى، ومن أقواله:.

«كل ما فاتك - من الله سوى الله -: يسير، وكل حظ لك، سوى الله قليل».

بهذه الحكمة البالغة التى نطق بها أبو سعيد: نبدأ الحديث عنه، ولا نبتدئ بهذه الحكمة اعتباطًا؛ ولكن لأنها محور تفكيره.

لم تخدعه زخارف الحياة الدنيا، ولم تلهه مفاتنها؛ فاختط لنفسه طريق الصديقين، وسار على نهج أولياء الله، رضى الله عنهم.

لقد ابتدأ - كما تبتدئ الصفوة المختارة - باحثًا منقبًا عن الله، فوجده ظاهرًا فى آثاره:

لقد وجده فى النسمة العليلة، وفى الزهرة الندية، وفى النجم المتألق، وفى شعاع الشمس الذهبى؛ لقد وجده فى الخير، وفى الجمال، وفى الجلال، فأحبه وهام به. وكانت حالته، كما يصف هو، فيقول:

«والمحب يتعلل إلى محبوبه بكل شىء ولا يتسلى عنه بشىء، ويتبع آثاره، ولا يدع استخباره».

وكثير من الناس من يُفيض الله عليه النعم، ويمنحهم من جوده، فينعمون بما أنعم لاهين عنه، ويتلذذون بما منحهم من أسباب الملاذ، غير متجهين إليه سبحانه..!!

أما أبو سعيد: فكان مسلكه، وكان شعاره شيئاً آخر... إنه يعبر عن منهجه حين يقول:

«ينبغى أن يكون فرحك فى العطاء: المعطى، ولذتك فى اللذات: بخالق اللذات، وتنعمك فى النعم: بالمنعم دون النعم، لأن ذكر النعمة، عند ذكر المنعم: حجاب، ورؤية النعمة، عند رؤية المنعم: حجاب». ويشرح حديث رسول الله ﷺ:

«**جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها...**» فيقول: «واعجبًا ممن لم ير محسنًا غير الله، كيف لا يميل بكليته إليه»!!

وفى الاتجاه إلى الله: نعيم لا يعدله نعيم، ولذة لا تعدلها لذة... وإذا نعم الناس بملبس يبلى، أو بمطعم لانلبث حلاوته أن تزول؛ فإن لأولياء الله نعيمهم المبرأ من الأوضار!!

إن لهم نعيمهم الروحى، ولكن لهم أيضاً نعيم أبدانهم الطيب الطاهر.

يقول أبو سعيد:

«إن الله تعالى عجل لأرواح أوليائه التلذذ بذكره، والوصول إلى قربه، وعجل لأبدانهم النعمة بما نالوه من مصالحهم، وأجزل نصيبهم من كل كائن، فعيش أبدانهم: عيش الجنانيين: «أهل الجنة»، وعيش أرواحهم: «عيش الربانيين».

ولا عجب، بعد ذلك، أنه إذا أنس الناس بالأخلاء والأخدان، أن يكون أنس أبى سعيد بالله؛ ولا عجب أن يكون حديثه عن الأنس بالله: يمتاز بالدقة والوضوح.

يقول أبو سعيد، وقد سئل عن الأنس بالله: ما هو؟:

«استبشار القلوب: بقرب الله تعالى، وسرورها به، وهدوُّها: فى سكونها إليه، وأمتها: معه، من حيث الروعات، وإعفاؤه لها من كل ما دونه: أن تشير إليه، حتى يكون هو المشير، لأنها ناعمة به ولا تحمل جفاء غيره».

وقد صحب ذا النون المصرى، وسريا السقطى، وبشر بن الحارث، ونظراءهم.

يذكره صاحب «طبقات الصوفية» فيقول:

«هو: من أئمة القوم، وجمله مشايخهم».

ويذكر أنه قيل:

«إنه أول من تكلم فى علم الفناء».

أما صاحب «الحلية»، فإنه يقول عنه:

«ومنهم: العارف المعروف الكامل، بالبيان موصوف، له الكتب المذكورة، والأجوبة المشهورة، صحب ذا النون ونظراءه، انتشرت بركاته على أصحابه ومتبعيه، سيد من تكلم فى علم الفناء والبقاء».

ويتحدث مؤرخوه، كلهم تقريبا: بأنه روى الحديث التالى بإسناده: «**سوء الخلق: شؤم، وشراركم: أسوؤكم أخلاقا**».

وقد اختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته:

فيذكر صاحب الرسالة القشيرية: سنة سبع وسبعين ومائتين.

ويذكر صاحب الطبقات: سنة تسع وسبعين ومائتين.

يهدف الصوفية دائما، إلى معرفة ما وراء الطبيعة معرفة يقينية، ولكن كيف تتأتى المعرفة؟.

إنها - حسبما يرى أبو سعيد -: «تأتى القلب من وجهين: من عين الجود، ومن بذل المجهود».

إنها فيض من الله، وإنها اكتساب وجهد، وفى الوصول إليها السعادة، بيد أن طريقها - وهو نفس الطريق إلى الله -: ليس سهلا هينا، وإذا كانت الغاية نفسية، فلا يتأتى أن يكون سبيلها تافها.

كيف نصل إلى الله؟ ما هو الطريق إليه؟ كيف نصل إلى خالص العلم؟ كيف نَرِد على حياض المعرفة؟

سئل أبو سعيد عن أوائل الطريق إلى الله، فبين أنه: التوبة، ثم ذكر شرائطها؛ ورسم الطريق الذى يرسمه الصوفية؛ وهو: طريق نفسائى سيكلوجى؛ من أدق ما يكون؛ ينتقل فيه الإنسان من مرحلة إلى مرحلة؛ مترقيا من مقام التوبة؛ حتى يصل إلى مقام المحبين، ويترقى إلى مقام المقربين.

فإذا وصل إلى هذه المرحلة؛ أدمنت روحه النظر فى النعمة؛ وفكرت فى الأيادى والإحسان؛ فانفردت بالذكر؛ وجالت فى ملكوت عز الله، بخالص العلم به، واردة على حياض المعرفة، إليه صادرة، ولبابه قارعة. فنعمت وسعدت.

ولنذكر ذلك بأسلوبه، نقلا عن كتاب: «حلية الأولياء»:

قال أبو سعيد:

«إن أوائل الطريق إلى الله: التوبة، ومن مقام التوبة يترقى، حتى يصل إلى مقام الأولياء».

وذكروا لكل مقام عشر شرائط، إذا عاناها وأحكمها، وحلت القلوبُ هذه المحلة: أدَمنت النظر فى النعمة، وفكرت فى الأيادى والإحسان.

فانفردت النفوس بالذكر، وجالت الأرواح فى ملكوت عزه بخالص العلم به، واردة على حياض المعرفة، إليه صادرة، ولبابه قارعة، وإليه فى محبته ناظرة.

أما سمعت قول الحكيم وهو يقول:

أراعى سوادَ الليل أُنسًا بذكره،

وشوقًا إليه، غيرَ مستكره الصبر

ولكن: سرورًا دائما وتعرضًا،

وقرعا لباب الرب: ذى العز والفخر

فحالهم: أنهم قربوا فلم يتباعدوا، ورفعت لهم منازل فلم يخفضوا، ونورت قلوبهم، لكى ينظروا إلى مُلك عدن؛ بها ينزلون، فتاهوا بمن يعبدون، وتعززوا بمن به يكتفون.

حلوا فلم يظعنوا؛ واستوطنوا محلته، فلم

يرحلوا، فهم الأولياء، وهم العاملون، وهم الأصفياء، وهم المقربون.

أين يذهبون عن مقام قرب، هم به: آمنون؟ وعزوا فى غرف، هم بها: ساكنون. جزاء بما كانوا يعملون، فلمثل هذا فليعمل العاملون.

فإذا ما ورد الإنسان حياض المعرفة، هل يتأتى له أن يعلم ما يخالف الشريعة؟ هل الباطن، وهو المعرفة التى وصل إليها، يخالف الظاهر؟

هل الحقيقة تخالف الشريعة؟

يقول أبو سعيد كلمته الحاسمة:

كل باطن يخالف ظاهرا: فهو باطل.

وكتاب الصدق - وهو الوحيد الذى بقى من آثاره - كان من الكتب التى يتوارثها الصوفية، ويحيطونها بالكتمان، ويضنون بها على غير أهلها؛ لأنها ذخيرة نفيسة، لا يصح أن تبتذل للعامة، وكأنها لؤلؤة مكنونة، لا يستساغ أن تقتحمها أعين الدهماء.

والواقع: أنه مختصر فى غاية النفاسة، يرسم - فى دقة وفى وضوح - الطريق إلى الله!!.

أ.د. عبد الحليم محمود «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - الطريق إلى الله: أو كتاب الصدق لأبى سعيد الخراز. تحقيق: د. عبد الحليم محمود.
٢- الأعلام للزركلى، حـ١/١٩١.
٣- طبقات الصوفية للسلمى.
٤- حلية الأولياء لأبى نعيم حـ١٠/٢٤٨.

سليم البشرى
(١٢٤٨ - ١٣٣٥ هـ = ١٨٦٧ - ١٩١٧م)

هو سليم بن أبى فراج بن سليم بن أبى فراج البشرى، شيخ الجامع الأزهر ولد بمحلة بشر من قرى شبراخيت بمحافظة البحيرة سنة ١٢٤٨هـ، وكانت وفاته ١٣٣٥هـ الموافق ١٩١٧م.

لما بلغ التاسعة من عمره كان قد حفظ القرآن الكريم وجوده، ثم قدم إلى القاهرة على خاله السيد : «بسيونى البشرى» من شيوخ ضريح السيدة زينب - رضى الله عنها. فتلقى عنه وظل فى رعايته مدة عامين، درس فيهما عليه وعلى غيره من العلماء القراءات ثم التحق بالأزهر الشريف حيث درس الفقه على مذهب الإمام مالك وظل يواصل الدراسة بالأزهر الشريف تسع سنوات كاملة، ومن شيوخه الأعلام : الشيخ «الخنانى»، والشيخ «عليش»، والإمام الشيخ «الباجورى»، وقد اختاره الشيخ الخنانى ليحل محله فى تدريس العلوم الدينية وقال: إنى مستخلف عليكم لإتمام درسى أجدر الناس به.

ظهر نبوغه واشتهر أمره وتهافت عليه الطلبة، وتخرج على يديه جماعة من كبار العلماء منهم : الشيخ «محمد راشد» إمام المعية السنية والحاشية الخديوية، والشيخ «بسيونى البيبانى»، والشيخ «محمد عرفه» (وهو غير الشيخ «محمد عرفة الدسوقى» المتوفى منذ سنوات) وغيرهم من أفاضل العلماء ونبغ فى علوم كثيرة، وبخاصة فى علم الحديث، نبوغاً كبيراً أبلغه درجة كبار المحدثين.

واتجهت إليه أنظار الباحثين من العلماء والطلبة فكلما جدت مشكلة عويصة أسرعوا إليه ليجدوا لديه حلا موفقا لها، ثم مرض ولزم فراشه حولين كاملين.

ولم ينقطع فيهما الطلبة عن الذهاب إليه فى بيته بحى البغالة فى السيدة زينب فكان يلقى عليهم دروسه فى صباح كل يوم، ولما أتم الله عليه العافية عين شيخا لمسجد السيدة زينب، والتف حوله الطلبة وتابعوا دروسه وكثرت أعدادهم، وبعد بضعة أعوام صدر الأمر بتعيينه شيخاً ونقيباً للسادة المالكية، وظل شيخاً للمالكية حتى لقى ربه.

ولما اتجهت النية إلى إصلاح الأزهر فى عهد الشيخ «حسونة النواوى» كان فى مقدمة العلماء الذين وقع عليهم الاختيار فى عضوية مجلس إدارة الأزهر مع الشيخ «محمد عبده»، والشيخ «عبدالكريم سلمان» وغيرهم ثم وقع عليه الاختيار ليكون شيخاً للأزهر، فاعتذر عن عدم قبوله لهذا المنصب وبالغ فى الاعتذار محتجاً بكبر سنه وضعف صحته. ولكنه أمام الإلحاح الشديد قبل المنصب وصدر الأمر بتعيينه شيخاً للأزهر فى ٢٨ صفر ١٣١٧هـ (١٩٠١م) ولبث فى هذا المنصب أربع سنوات تقريباً، أظهر فيها من سداد الرأى وقوة الحزم ومضاء العزيمة مالايتفق عادة ومن كان فى مثل سنه.

وحدث أنه اختار أحد العلماء - وهو الشيخ «أحمد المنصورى» - شيخاً لأحد الأروقة ولم يكن الحاكم راضيا عن هذا، فأوعز إلى الإمام بالعدول عن تعيينه، فأبى الشيخ الإمام الرجوع عن اختياره، وقال: «إن كان الأمر لكم فى الأزهر دونى فاعزلوه، وإن كان الأمر لى دونكم فهذا الذى اخترته ولن أحيد عنه» فانتهزها الدساسون وأوغروا صدر الخديو عليه فأرسل إليه من يقول له «إن تشبثك برأيك قد يضر بك فى منصبك» فقال الشيخ الإمام : «إن رأيى لى، ومنصبى لهم، ولن أضحى لهم بما يدوم فى سبيل مايزول» وقدم استقالته، فقبلت فى اليوم الثانى من ذى الحجة سنة ١٣٢٠ (١٩٠٤م) وعين بدلا منه الشيخ «على بن محمد الببلاوى». ثم عين بعده الشيخ «الشربينى» ثم أعيد الشيخ «حسونة النواوى»، ثم صدر الأمر بإعادة الإمام «البشرى» مرة ثانية سنة ١٣٢٧هـ إلى عمله حتى لقى ربه سنة ١٣٣٥هـ (سنة ١٩١٧م) وقد قارب التسعين.

كان حازما فى إدارته وعلى الرغم من الأعباء الكبيرة التى كان يتحملها فى مباشرته لمشيخة المالكية ومشيخة الأزهر، فإنه ظل يباشر إلقاء دروسه فى الأزهر كما ظل يباشر التدوين، والتصنيف، وقيادة الحركة الإصلاحية بعزم وحزم حتى ظهرت آثارها فى عهده وحتى أصبح معظم مدرسى الرياضة فى عصره من علماء الأزهر، بعد أن كادت صلات الأزهر بهذه العلوم تنقطع انقطاعا تاما.

ومن أمثلة شجاعته واعتزازه بنفسه أنه عقب استقالته وقبولها فى ذى الحجة سنة ١٣٢٠هـ ذهب فى اليوم الثانى لعزله إلى الجامع الأزهر، فقرأ درسى التفسير والحديث اللذين حضرهما يومئذ نحو خمسمائة عالم ومالم يحص من الطلبة لكثرتهم.

وكان حريصا على أن يلزم بيته إلا فى

موعد دروسه، فإنه كان يبادر إلى الذهاب إلى الأزهر لإلقاء هذه الدروس.

مؤلفاتـــــه :

١ - شرح نهج البردة، وهى قصيدة شوقى التى عارض بها قصيدة البوصيرى.

٢ - حاشية تحفة الطلاب على شرح رسالة الآداب.

٣ - حاشية على رسالة الشيخ عليش فى التوحيد.

٤ - المقامات السنية فى الرد على القادح فى البعثة النبوية.

٥ - عقود الجمان فى عقائد أهل الإيمان.

أ.د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة :

١ - مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن، على عبدالعظيم، جـ ١ المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٧٨.

٢ - ديوان الشاعر حافظ إبراهيم، الطبعة السابعة المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٥٥.

٣ - الأعلام للزركلى حـ٣/١١٩.

أبو سليمان الخطابى
(٣١٩ - ٣٨٨هـ)

هو الإمام العلامة المحدث الرحال أبو سليمان حَمْد[1] بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستى صاحب المؤلفات القيمة، والخطابى نسبة إلى جده المذكور، وقيل: نسبة إلى زيد بن الخطاب لأنه من ذريته.

ولد فى رجب سنة ٣١٩هـ فى بلدة بست. وكانت وفاته فى ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة بمدينة بست.

وقد ارتحل كثيرا حتى لقب بالرحال، وسمع أبا سعيد ابن الأعرابى بمكة، وإسماعيل بن محمد الصفار وطبقته ببغداد، وأبا بكر ابن داسة بالبصرة، وأبا العباس الأصم وطبقته بنيسابور، وغيرهم.

وروى عنه أئمة أجلاء منهم الحاكم، وأبو حامد الإسفرايينى، وأبو نصر محمد بن أحمد البلخى الغزنوى، وأبو مسعود الحسين ابن محمد الكرابيسى، وعبد الغفار بن محمد الفارسى.

وكان الخطابى من المحدثين الجامعين بين الرواية والدراية، كما كان فقيها مجتهداً، ولغويا أديبا، أخذ اللغة والأدب عن أبى عمر الزاهد وأبى اسماعيل الصفار وأبى جعفر الرزاز وغيرهم من علماء العراق، وقد تفقه على ابن أبى هريرة[2] والقفال الشافعيين، وله شعر جيد، يصطبغ بالحكمة كما هو شعر العلماء.

وقد أثنى عليه العلماء قال الذهبى فى تذكرته : كان ثقة متثبتا من أوعية العلم، وقال ابن خلكان: كان يشبه فى عصره بأبى عبيد القاسم بن سلام علما وأدبا، وزهداً وورعا، وتدريسا وتأليفا، وقال عنه ابن كثير فى بدايته: إنه أحد المشاهير الأعيان، والفقهاء المجتهد المكثيرين.

قال الحافظ السمعانى: «كان حجة صدوقاً وصل إلى العراق والحجاز وجال فى خراسان وخرج إلى ما وراء النهر».

وللخطابى مؤلفات قيمة تشهد له بطول الباع فى الحديث والفقه واللغة، منها:

١ - «معالم السنن» وهو شرح لسنن أبى داود. (وقد عرضنا له فى الكلام على السنن) وهو مطبوع.

٢ - «أعلام السنن» شرح صحيح البخارى.

وقد عرضنا له فى الكلام على شروح الجامع الصحيح. وهو مطبوع.

٣ - غريب الحديث وهو فى غاية الحسن والبلاغة وهو مطبوع.

٤ - شرح أسماء الله الحسنى

٥ - كتاب العزلة مطبوع.

٦ - كتاب «الدعاء» مطبوع.

٧ - إصلاح غلط المحدثين مطبوع.

٨ - الشجاج.

٩ - الغنية عن الكلام وأهله مطبوع.

أ. د. موسى شاهين لاشين

الهوامش:

١ - وقيل «حمد» بدون ألف كما قال أبو منصور الثعالبى فى «اليتيمة»، وقد حكم الذهبى عليه بالوهم فى هذا، وقال ابن خلكان: «إن الصحيح» «حمد» لا «أحمد» وأنه سمى بالأول واشتهر بالثانى (تذكرة الحفاظ ج ٣ / ٢٠٩ - وفيات الأعيان ج ١ / ٢٩٧).

٢ - هو أبو على الحسن بن الحسين بن أبى هريرة الفقيه الشافعى، توفى سنة خمس وأربعين وثلاثمائة.

مراجع للاستزادة

١ - وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٩٧/١.

٢ - تذكرة الحفاظ للذهبى ٢٠٩/٣.

٣ - البداية والنهاية لابن كثير.

سليمان دنيـــا
(١٩١٠ - ١٩٨٨م)

ولد سليمان سيد أحمد دنيا فى قرية (سدود) التابعة لمركز منُوف بمحافظة المنوفية بمصر فى ١٨/٢/١٩١٠م. تخرج فى كلية أصول الدين بالأزهر، وحصل على الشهادة العالية عام ١٩٣٨م، ثم واصل دراساته العليا وحصل على الشهادة العالمية من درجة أستاذ عام ١٩٤٥م. وفى عام ١٩٥٠م سافر إلى إنجلترا مبعوثا من الأزهر لدراسة الفلسفة. وبعد سنوات قليلة أمضاها هناك عاد إلى مصر وعمل مدرسا بكلية أصول الدين، وانتدب للعمل بالمؤتمر الإسلامى بالقاهرة، وتدرج فى سلك التدريس إلى أن صار أستاذا ورئيسا لقسم العقيدة والفلسفة عام ١٩٦٦م ووكيلا لكلية أصول الدين عام ١٩٦٧م.

وقد أعير فى الستينيات للتدريس فى جامعتى القرويين بالمغرب، وأم درمان بالسودان. وفى السبعينيات عمل مديرا للمركز الإسلامى فى نيويورك بضع سنوات، وبعد ذلك عمل أستاذا فى جامعة أم القرى بمكة المكرمة، ثم عاد إلى مصر. وتوفى فى القاهرة حوالى عام ١٩٨٨م دون أن يشعر بوفاته أحد، اللهم إلا من خلال بضعة أسطر كتبها أحد القراء فى بريد القراء بإحدى الصحف اليومية فى مصر.

ينقسم الإنتاج العلمى للدكتور سليمان دنيا إلى قسمين.

(ا) كتب قام بتحقيقها.

(ب) كتب قام بتأليفها.

وشهرته فى مجال التحقيق أكثر من شهرته فى مجال التأليف. فقد قام بتحقيق مجموعة من مؤلفات الغزالى هى : مقاصد الفلاسفة، معيار العلم، تهافت الفلاسفة، فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، ميزان العمل. كما حقق تهافت التهافت لابن رشد، والإشارات والتنبيهات لابن سينا، وحاشية الشيخ محمد عبده على العقائد العضدية، واشترك أيضا فى تحقيق الشفاء لابن سينا والمغنى للقاضى عبد الجبار.

أما الكتب التى ألفها فهى قليلة نسبيا وأهمها:

١ - الحقيقة فى نظر الغزالى.

٢ - التفكير الفلسفى الإسلامى. ولم ينجز من هذا الكتاب إلا الجزء الأول. أما الجزء الثانى - الذى كان من المفروض أن يتناول فيه بالبحث أهم قضايا الفلسفة الإسلامية - فلم يخرج إلى الوجود.

٣ - وبالإضافة إلى هذين الكتابين له بعض البحوث الأخرى حول موضوعات: الدين والعقل، مفهوم التصوف، الشيخ محمد عبده بين الفلاسفة والكلاميين. وهناك أيضا مقدماته المستفيضة للكتب التى حققها حيث تشتمل هذه المقدمات على دراسات لأفكار وشخصيات المؤلفين المعنيين.

لقد اتبع الدكتور سليمان دنيا فى تحقيقه للنصوص الفلسفية الكثيرة التى قام بتحقيقها طريقة غير معتادة. فبدلا من إثبات الفوارق بين النسخ فى الهوامش يلجأ فى كثير من تحقيقاته إلى ذكر الفروق الهامة فى داخل المتن مشيرا إلى ذلك بعبارة «وفى نسخة أخرى...» دون أى إشارة إلى طبيعة هذه النسخة الأخرى. وبعض تحقيقاته تخلو من ذكر أى فروق فى داخل المتن أو فى الهوامش. فالذى يهمه فى المقام الأول هو إخراج نص صحيح للقارىء، ولايهمه أن يكثر من الهوامش. وقد كان ذلك من المآخذ التى أخذت عليه حيث خالف الطريقة المعتادة فى التحقيق، وهى طريقة المستشرقين الذين يعمدون إلى إثبات كل الفروق بين النسخ المختلفة فى الهوامش.

ولكن سليمان دنيا كان يعيب طريقة المستشرقين، ويرى أن الدعوة إلى التأنق والتفنن فى حشد أخطاء النساخ وأضاليلهم فى كتب هى دعوة إلى التراخى والاستنامة. ويدافع عن طريقته فى التحقيق قائلا: لم أشأ أن أحتفظ فى الهامش بكل الفوارق وأدع القارىء يختار. فهذه الطريقة - فى نظره - لا تزيد على أن تكون جمعا للنسخ المتعددة فى مجلد واحد، وفيها إرهاق للقارئ. وفضلا عن ذلك فإنه ليس فيها كبير نفع للعلم سوى حفظ الأصول.

وفى هذا الصدد يعبر عن وجهة نظره فى الاستشراق بصفة عامة مشيرا إلى أن الأساس الذى قام عليه الاستشراق لم يكن أساسا علميا خالصًا، بل كان مرتبطا بالسياسة أو ما يشبه السياسة - وبالإضافة إلى ذلك فإن الاستشراق قد خالطه كبرياء لايليق بالعلم والعلماء.

ومن هنا يدعو سليمان دنيا علماء المسلمين إلى تطهير ساحتهم الفكرية من الاستعمار الغربى، كما طهر الساسة البلاد من الاستعمار المادى.

وفى مقدمته لحاشية الشيخ محمد عبده على العقائد العضدية ينتقد سليمان دنيا المنهج العقلى البحت للشيخ محمد عبده، ويرى أنه منهج يتسم بالخطورة، فالشرع يرشد إلى خلافه، والأحاديث النبوية الصحيحة صريحة ـ كما يقول ـ فى وجوب الأخذ بما كان عليه النبى ﷺ وأصحابه – رضى الله عنهم – لا فى وجوب أن يركب كل واحد رأسه ويؤمن بما يتأدى إليه بحثه دون مرشد أو معين، ويرى سليمان دنيا أن المنهج الدينى السليم هو منهج الاتباع وليس ترك الأمر للعقل يسير على حسب ما يتأدى إليه بحثه إنكارا أو إثباتا.

وفى دراسته للغزالى «الحقيقة فى نظر الغزالى» ـ التى تعد أهم مؤلفاته ـ يرى أن شك الغزالى قد مر بمرحلتين:

أولهما: مرحلة كان الشك فيها شكا خفيفا من النوع الذى يعترى الكثير من الباحثين.

وثانيهما: مرحلة كان الشك فيها عنيفا هداما، أى أنه فى هذه المرحلة الثانية كان شكا حقيقيا مطلقا وليس شكا منهجيا كما هو الحال لدى ديكارت.

فالشك فى المرحلة الأولى كان يتمثل فى: أى الفِرَق التى ـ وجدها ـ على حق؟

أما فى المرحلة الثانية فقد كان شكا فى ميزان الحقيقة. وقد خرج منه عن طريق النور الذى قذفه الله فى صدره وأعاد إليه الثقة فى الضروريات العقلية.

ويذهب سليمان دنيا فى هذه الدراسة أيضا إلى القول بأن من يريد دراسة الغزالى على أنه مصلح دينى يعنى بإرشاد الناس وتعليمهم فليدرسه فى كتبه التى قدمها للجمهور، ويدخل كتاب «التهافت» فى عداد هذه الكتب. أما من يريد دراسة الغزالى ليعرف الحقيقة فى نظره كما يعتقدها فليدرسه فى كتبه التى ضن بها على الجمهور مثل كتاب «المضنون به على غير أهله» وكتاب «معارج القدس».

وقد استنتج سليمان دنيا من آراء الغزالى فى هذين الكتابين أنه كان ـ مثل غيره من الفلاسفة المسلمين ـ يقول بقدم العالم وأبديته، وبعدم علم الله بالجزئيات وبالبعث الروحانى.. وهى تلك الآراء التى أخذها الغزالى على الفلاسفة فى كتابه «التهافت»، واعتبر القول بها خروجا على الإسلام. ولكن سليمان دنيا يرى أن لهذه القضايا تخريجات تبعد بها عن التخوفات التى أبداها علماء الكلام.

وقد كان سليمان دنيا يريد أن يشتمل

كتابه «التفكير الفلسفى الإسلامى» على إيضاح الحلول الإسلامية للمسائل الفلسفية المتمثلة فى قضية الألوهية، ومسألة قدم العالم أو حدوثه، ومسألة البعث، ومسألة تجرد النفس الإنسانية. ولكن الجزء الذى كان من المفروض أن يشتمل على بحث هذه القضايا لم يخرج إلى الوجود، واكتفى فى الجزء الأول بمناقشة الماديين وأصحاب المذهب الوضعى منتصرا للفلسفة الإلهية. ويعبر عن ذلك بقوله: «رأيت - قبل الشروع فى الفلسفة الإسلامية - أن أصفى الحساب مع الفلسفة المادية حتى إذا ما تبين زيفها وبطلانها رفعنا أنقاضها من طريق الفلسفة الإسلامية لتسير بخطى فسيحة نحو غايتها التى تحقق للإنسانية سعادتها».

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة :

١ - سجلات كلية أصول الدين بالقاهرة.

٢ - الأزهر: تاريخه وتطوره - إصدار وزارة الأوقاف وشئون الأزهر ١٩٦٤م.

٣ - من مؤلفات الدكتور سليمان دنيا :

(أ) الحقيقة فى نظر الغزالى - دار المعارف ١٩٨٠م.

(ب) التفكير الفلسفى الإسلامى - مكتبة الخانجى بمصر ١٩٦٧م.

(جـ) المقدمة التى كتبها لكتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا - القسم الأول - دار المعارف ١٩٧١م.

السمين الحلبى
(٠٠٠ - ٧٥٦هـ = ٠٠٠ - ١٣٥٥م)

هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن يوسف بن محمد بن عبد الدائم، المعروف بالسمين الحلبى[١].

كان من أفاضل العلماء.

اتفق المؤرخون على أنه ولد بمدينة حلب، ونسب إليها فى أكثر المراجع التى ترجمت له، أما عن زمن ولادته فلم تذكره كتب التراجم[٢].

توفى السمين الحلبى سنة ٧٥٦ هـ فى جمادى الآخرة، أو فى شعبان على خلاف بين المؤرخين فى ذلك، رحمه الله تعالى، ورفع منزلته بين العلماء العاملين، آمين.

قضى العلامة السمين حياته فى التنقل بين حلقات العلم والدرس، والتردد على أكابر شيوخ عصره، حتى صار فقيها بارعا فى النحو و التفسير وعلم القراءات، ويتكلم فى الأصول، خيرا دينا[٣].

وقد تلقى العلم عن عدد من الشيوخ منهم: التقى الصائغ (٦٣٦ - ٧٢٥ هـ)، وأبو حيان (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ)، والعشاب (٦٤٩ - ٧٣٦ هـ)، ويونس الدبوسى.

وقد أجمع المؤرخون على أن الإمام السمين الحلبى نشأ بحلب، وفيها اكتسب لقبه، ولما جاء إلى مصر و عاش بها حينا من الزمن، صار ذا وجاهة، وذاع اسمه فى الوسط العلمى، وقد ولى السمين تدريس القراءات والنحو بجامع ابن طولون، كما ولى نظر الأوقاف بالقاهرة، و ناب عن بعض القضاة فيها، كما تولى التدريس فى مسجد الشافعى[٤].

أما عن آثاره العلمية فقد ترك مؤلفات عديدة تنم عن علمه الغزير و اطلاعه الكبير، و ثقافته الواسعة، و من هذه المؤلفات :

١- عمدة الحفاظ فى شرح أشرف الألفاظ .

٢- شرح الشاطبية - وهو فى القراءات - سماه: "العقد النضيد فى شرح القصيد" .

٣- تفسير القرآن : و هو مطول يقع فى عشرين مجلداً، وقد بقى منه أوراق قلائل .

٤- شرح التسهيل ، وكثيرا ما كان السمين يشير بالرجوع إليه فى كتابه : "الدر المصون" فيقول مثلا : (وقد أتقنا هذا فى إيضاح السبيل إلى شرح التسهيل ، فعليك بالالتفات إليه).

٥- القول الوجيز فى أحكام الكتاب العزيز.

أما الكتاب الذى إذا ذكر السمين تبادر الى الذهن فهو ما يمثل مشروعه العلمى الكبير ، وهو كتاب : "الدر المصون" ويعد هذ الكتاب من أمهات الكتب ، فهو كتاب لغة وتصريف ، وإعراب و بيان ، وبعبارة أخرى كما قال عنه صاحب «كشف الظنون» : (فهو مع اشتماله على غيره أجلّ ما صنف فيه ، لأنه جمع العلوم الخمسة : الإعراب و التصريف و اللغة و المعانى و البيان). اهـ[٥].

يبدأ السمين أولا بذكر بعض ألفاظ ، أو لفظة من آية ، فيقول مثلا : (طه) ثم يمضى مع هذه اللفظة من جانب اللغة و الاشتقاق والمعنى ، و ما تحتمله من دلالات فى الآية وخارجها ، ويدعم عرضه بالشواهد المختلفة، ثم يبين قراءاتها على نحو مجمل ، وبعد ذلك يناقش كل قراءة ، و ما اختاره من تخريجات فيها ، ثم يعربها و يبين أقوال العلماء وآراءهم.

وإذا صادف فيما يقرره مناسبة للتفصيل فى باب من أبواب النحو ، نراه يستطرد فى ذلك كثيرا ، تاركا ما هو فيه من إعراب ليُقَعِّد البحث ، ويذكر أصوله وأشكاله ، ولو لم يكن لهذه الأصول والأشكال صلة بإعرابه المعين للآية .

وإذا فرغ من هذه اللفظة (طه) ينتقل إلى تاليها من الألفاظ على الطريقة نفسها .

أ.د. محمد السيد جبريل

الهوامش :

١ - ينظر : طبقات المفسرين: للحافظ شمس الدين محمد بن على بن أحمد الداودى : (١/١٠٠) ط. دار الكتب العلمية ، بيروت - الأولى (١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م).

٢ - ينظر : غاية النهاية فى طبقات القراء : للإمام محمد بن محمد بن الجزرى (ت ٨٣٣ هـ) (١/١٥٢) ط. دار الكتب العلمية ، بيروت - الثالثة (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م).

٣ - ينظر: طبقات المفسرين للداودى : (١/١٠٠) .

٤ - ينظر: طبقات المفسرين للداودى : (١/١٠٠) و الدرر الكامنة (١/٣٦٠) .

٥ - ينظر: كشف الظنون عن أسامى الكتب و الفنون : للإمام مصطفى بن عبد الله الشهير بحاجى خليفة (ت ١٠٦٧ هـ) (١/١٢٢) ط. مكتبة المثنى، بغداد، بدون تاريخ .

مراجع للاستزادة :

١ - بغية الوعاة للسيوطى .
٢ - معجم المؤلفين : عمر رضا كحالة .

سيبويـــه
(١٤٨ - ١٨٠هـ = ٧٦٥ - ٧٩٦م)

هو عمرو بن عثمان قُنْبر، مولى ابن الحارث بن كعب بن عمرو بن عُلة بن مالك ابن أُدَد، ويُكنى أبا بشرٍ، ولقبه سيبويه ، وكلمة (سيبويه) تعنى رائحة التفاح فى اللغة الفارسية، وُلد بالبيضاء سنة ١٤٨هـ = ٧٦٥م (بلد بفارس) مِنْ سُلالة فارسية، وهى بلدة من قرى شيراز، وقد تلقَّى دروسه الأولى فى هذه القرية أو فى شيراز، ثمَّ طمحت نفسهُ للاستزادة من الثقافة الدينية، فَقَدِم إلى البصرة، وهو لايزال غلامًا ناشئًا.

والتحق سيبويه بحلقات الفقهاء والمحدِّثين فى البصرة، ولزم حلقة حماد بن سلمة بن دينار المحدِّث المشهور، ثم حدث أنْ لَفَتَهُ حمادُ ابن سلمة إلى أنه يلحن فى نُطقِهِ ببعض الأحاديث النبوية، فأصرَّ على دراسة اللغة، وقال: «لأطلبنَّ علمًا لا يلحننى فيه أحد».

وقد أخذ النحو عن الخليل، وهو أستاذه، وعنْ يونس بن حبيب وعيسى بن عمر، وغيرهم، وأخذ اللغات عن أبى الخطاب الأخفش، وكان الخليل بن أحمد هو صاحب التأثير البالغ والأكبر فى سيبويه، ينم عن ذلك الإحالات الموجودة فى كتاب سيبويه المنسوبة إلى الخليل.

وقد أخذ عن الخليل جُلّ ما عنده من دراسات نحوية وصرفية، مُستَملِيًا، ومُدوِّنا، وبذلك احتفظ بجلّ آرائه النحوية والصرفية.

وسرعان ما أخذ نجم سيبويه يتألَّق، لا فى البصرة وحدها، بل أيضًا فى بغداد، فرحل إلى بغداد طامحًا فى الشهرة والمجد فى حاضرة الخلافة، وحَدَثَ أنْ التقى بالكسائى مُقْرِئ الكوفة، ومؤدِّب الأمين ابن هارون الرشيد، وقد تناظرا فيما يُعْرف بالمسألة الزُّنبورية، والتى هُزِم فيها سيبويه - عن غير حق - فرجع منكسرًا، بعد أنْ لم تطبْ له الإقامة فى بغداد، وولَّى وجهه نحو موطنه، إلا أنَّ الموت عاجله فى شيراز، وقيل فى همذان أو ساوة، واختلف فى تاريخ وفاته، والأرجح أنه تُوفِّى سنة (١٨٠هـ = ٧٩٦م).

ومما هو جدير بالذكر أن هناك غموض واضحٌ حول مسألة التراث النحوى قبل

سيبويه، فهل كانت هناك كتب أو آثار نحوية قبل كتاب سيبويه؟

كل ما يُعْرف عن التراث النحوى قبل سيبويه هو ما قيل عن صحيفة أبى الأسود الدُّؤلى، وأن هذه الصحيفة كانت أربعة أوراق، فيها بعض الأبواب النحوية، كالفاعل والمفعول وغيرها، وكذلك كتاب لعيسى بن عمر، وهذان لا نعرف عنهما غير اسميهما، فلم يَذكُرْ نحوى واحدٌ أنه رآهما أو رجع إليهما، حتى قال ابن النديم: «لم يقع خبرها إلى أحد علمناه؟ ولا خبَّر أحدٌ أنه رآهما». وما ذكره ابن النديم عن الصحيفة لا يُعدُّ دليلاً قاطعًا على وجودها؛ حيث ذكر أنه رآها بخط يحيى ابن يعمر.

ومن ثمَّ فإن سيبويه كان رائدًا بحقٍّ فى مجال التأليف النحوى، ويُعدُّ كتابه أول أثر نحوى وصل إلينا، يقول السيرافى: «وعمل سيبويه كتابه الذى لم يسبقه إلى مثله أحدٌ قبله، ولم يلحق به منْ بعده».

ومن المؤكَّد أنَّ سيبويه بدأ بتأليف الكتاب بعد وفاة الخليل بن أحمد، إذ نراه فى بعض المواضع يُعَقِّبُ على ذكره لاسمه بقوله (رحمه الله)، وقد حَمَلَهُ عنه تلميذه الأخفش الأوسط سعيد بن مسعدة، وأذاعه فى الناس باسم الكتاب، عَلَمًا اختصَّ به هذا المصنَّف وحده، دون بقية المصنفات فى عصره بحيث إذا قيل: (قرأ فلان الكتاب) عُلم أن المقصود كتاب سيبويه دون شكٍّ، وظل هذا الاسم خاصا به، دلالة على قيمته وشهرته وذيوعه، ولعل أول ما يلاحظ على الكتاب أنَّ سيبويه لم يضع له اسمًا ينفرد به، فربما أعجلته وفاتهُ عن تسميته، كما أعجلته عن وضع مقدمةٍ بين يديه، وخاتمة ينتهى بها.

وقد طبع كتاب سيبويه فى فرنسا والهند ومصر، وترجم إلى الألمانية ترجمة كاملة، وقام المحقق الكبير الأستاذ عبد السلام هارون بتحقيقه ونشره نشرة علمية، ظهرت فى خمسة أجزاء.

لم يكن كتاب سيبويه جمعًا لآراء السابقين فحسب، فالآراء متناثرة، مجزأة لا يحكمها سلك ولا نظام، بل كانت له شخصية قوية، ظهرت من خلال ترتيب الكتاب ترتيبًا حوى فيه عناصر هذا العلم كاملة، وتبويبه، مع وضع كل شىء وما يتصل به فى موضع واحد، ومن خلال ابتداع بعض القواعد، وجودة الترجيح عند الاختلاف، وحُسْن التعليل للقواعد، واستخراج الفروع من القياس الذى امتلأ به الكتاب، فكثيرًا ما يقال: والقياس كذا، أو والقياس يأباه.

ولقيمة هذا الكتاب وقف العلماء فى عصره ومن بعد عصره مَبْهُورين به، مقدّرين

إياه، فالمازنى يُصَرِّحُ قائلا: «من أراد أن يعمل كثيرًا فى النحو بعد كتاب سيبويه فليستحى»، وكان المبرد محمد بن يزيد إذا أراد مُريد أن يقرأ عليه كتاب سيبويه يقول له: هل ركبت البحر؟ تعظيمًا له واستصعابًا لما فيه.

ويعد سيبويه مهما طال المدى إمام النحو بلا منازع فى تراث العربية، وإذا كان للهنود باع كبير يتيهون به فى الدرس اللغوى وبخاصة النحوى فيما قدمه «بانينى» فى كتابه المسمى «الأقسام الثمانية»؛ ذلك الكتاب الذى احتفى به الدارسون المحدثون من أمثال «ماكس مولر»، و«بلومفيلد»، و«روبنس»، وإذا كان الفكر اللغوى قد وجد احتفاء به عند اليونان داخل البحث الفلسفى، فإن شموخ علم النحو، وكونه نظرية متكاملة الأركان والأصول يرتد إلى هذا المؤلَّف الشامخ العالى «كتاب سيبويه» الذى تعلو به همة الدرس اللغوى عند العرب، والذى صاغ فيه نظرية محبوكة وعى سيبويه من خلالها أمر اللغة العربية ظاهرها وباطنها، شعرها ونثرها، فُصْحَاهَا ولهجاتها، كلامها المرسل وحركة إبداعها. والذى كان رافدًا ومَعِينًا للدراسات اللغوية، صوتية، وصرفية، ونحوية، ودلالية، عبر قرون مديدة لم ينته أمرها بعد.

أ.د. أحمد كشك

مراجع للاستزادة:

١- أخبار النحويين البصريين.

٢- الفهرست لابن النديم.

٣- نشأة النحو للشيخ الطهطاوى.

٤- مقدمة «الكتاب»: تحقيق عبد السلام هارون.

٥- سيبويه إمام النحاة على النجدى.

ابن سـينا
(٣٧٠ - ٤٢٨ هـ = ٩٨٠ - ١٠٣٧م)

هو أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن سينا شرف الملك: الفيلسوف الرئيس صاحب التصانيف، ولا سيما فى الطب، وعلم النفس، فقد أبدع فى هذين الفرعين وبزّ مَنْ قَبله، وأضاف الكثير إلى ما عُرِفَ عنهما من قبله. وكتب فى الطبيعيات، والهندسة، والرياضيات، والكيمياء، وفى الفلسفة، واللغة العربية نحوا وصرفا وبلاغة وشعرا، وله من كتب اللغة والشعر ما يجعله بين المرتبة الأولى من المعنيين بهما.

وفى سنة مولد ابن سينا خلاف، فقد أجمعت مصادر ترجمته على أن ابن سينا ولد فى سنة سبعين وثلاثمائة للهجرة (٣٧٠) هـ أو عام خمسة وسبعين وثلاثمائة للهجرة.

وتوفى الشيخ الرئيس ابن سينا فى الجمعة الأولى من رمضان سنة ثمان وعشرين وأربعمائة ودفن فى همدان، فيكون الشيخ الرئيس قد عمر ثلاثاً وخمسين سنة.

وزار بلدانا كثيرة، وتقلد مناصب رفيعة، وذاع صيته فى المشرق أولا، ودوَّى صداه فى المغرب من القرن الثانى عشر للميلاد وإلى هذا الوقت، وسيبقى ذكره حيًا ما دام إنسان يفقه ما يقرأ، وحظى بألقاب علمية ـ على قصر عمره فيما لم يحظ العلماء المعمرون مثلها، فلقب: بالشيخ الرئيس، وبجالينوس العرب، وهو فى ريعان شبابه، حيث اعتلى المرتبة الأولى فى الطب قبل أن يتم الثانية والعشرين من عمره، واغترف من العلم واللغة واستوعب ما اغترف فى صباه، ما لم يتيسر لغيره قبل منتصف العمر أو قرب الشيخوخة. وكأن ابن سينا دوَّن سيرته بنفسه ثم أتمها تلميذه الذى لازمه طيلة حياته، وهو أبو عبيد الجوزجانى الذى توفى بعد وفاة أستاذه بخمسة وعشرين عاما.

قال الشيخ الرئيس عن نفسه: «إن أبى كان رجلا من أهل بلخ، وانتقل منها إلى بخارى، فى أيام نوح بن منصور، وتولى العمل فى أثناء أيامه بقرية يقال لها خرميثن من ضياع بخارى، وهى من أمهات القرى وبقربها قرية يقال لها أفشنة، وتزوج أبى فيها بوالدتى،

وقطن وسكن ـ ولدت منهـا بهـا، ثم ولدت أخى، ثم انتقلنا إلى بخارى وأحضرت معلم القرآن، ومعلم الأدب، ولما أكملت العشر من العمر أتيت على القرآن الكريم، وعلى كثير من الأدب، حتى كان يقضى منى العجب، وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين، ويعد أبوه من الإسماعيلية.

ورغب ابن سينا فى دراسة الطب، وصار يقرأ الكتب المُصنفة فيه، وبرز فى الطب فى مدة قصيرة، حتى بدأ فضلاء الأطباء يقرأون عليه علم الطب، ذلك لأن علم الطب سهل المنال، فهو يقول: «وعلم الطب ليس من العلوم الصعبة فلا جرم أنى برزت فيه فى أقل مدة». ويروى أنه درس الطب على أبى سهل المسيحى وأبى منصور الحسن بن نوح القمرى. كما درس الفقه وناظر فيه وهو فى السادسة عشرة من عمره، وأشارت بعض المصادر إلى أن ابن سينا أتقن الفقه وأخذ يفتى على مذهب أبى حنيفة وهو لما يزل فى الثانية عشرة من عمره، وأعاد دراسة المنطق والفلسفة.

وكانت حياة ابن سينا حياة قلقة، وفترة عمره فترة مليئة بالأحداث الحربية والتقلبات السياسية. الأمر الذى أثَّر فى نفسه تأثيراً بليغاً، فتراه حينا ناسكا متعبدا، وتراه غارقا فى الملذات حينا آخر، وقد أجمعت المصادر على هذا : بل وجاء هذا فى النص الذى ذكره تلميذه أبو عبيد الجوزجانى، فقد امتدت حياة ابن سينا إلي عهد الخلفاء الضعفاء: الطائع، والقادر، والقائم، أى عهد انحطاط الدولة العباسية.

ولما مات منصور بن نوح السامانى الملقب بأمير خراسان سنة ٣٦٥هـ خلفه نوح بن منصور الذى صار أول حام لابن سينا.

وقد كان لتولى ابن سينا الوزارة أكثر من مرة. ورفضه بعض الوزارات واتصاله بعدد من الأمراء، وتألب الجيش عليه، وأن نعته من بعض حساده بالزندقة والكفر. كما أن وفاة والده الذى غمره برعايته قد حز فى نفسه، كل هذه الأمور إضافة إلى ما كانت فيه البلاد من ضعف فى آخر الدولة العباسية جعلته عرضة للتيارات المختلفة؛ لذلك تلمس فى حياته فترات ينغمر خلالها فى الملذات.

شخصية ابن سينا: من الكتاب مَنْ اعتبر الفلسفة ميدان انتصار ابن سينا، وليس الطب كما ادعى البعض الآخر، وقد حلت كتب ابن سينا محل كتب أرسطو فى الفلسفة، وبالرغم من اختلاف الشيخ الرئيس مع المعلم الأول فى الإلهيات وما وراء الطبيعة فى الدراسات الفلسفية التى تلت ابن سينا.

لقد كانت حياة ابن سينا سوية، غير أن

عقله وذكاءه وفطنته لم تكن كذلك، فنراه قد أتم علوم الدين والقراءة والأدب وهو ما يزال فى العاشرة من عمره، ثم أصبح طبيبا بارزا فاق الأطباء جميعا فى عصره وهو فى السادسة عشرة من عمره. ولقب بالشيخ وهو فى مقتبل العمر، وعندما تحداه النحوى أبو منصور الجبائى نرى ابن سينا قد عكف على دراسة اللغة والنحو والبلاغة والبيان ثلاث سنوات وجاء بسفر فى اللغة قلما أتى به أحد من قبل وهو «لسان العرب»، ونظم قصائد ضمنها مفردات من اللغة العربية، وعندما قدمها إلى أبى منصور الجبائى، وطلب إليه تفسيرها عجز عن ذلك وأحس بخطأ ما عمل، واعتذر إلى ابن سينا.

كان ممن يفكر ويحدس. أى كان إلى جانب تفكيره ذا بصيرة نفسية.

فلقد كان عبقريا عالما حقا وكان يخشى الله تعالى ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ [فاطر: ٢٨].

أما عن مؤلفاته : فقد كانت له مؤلفات عديدة منها :

١- كتاب المجموع.

٢- الحاصل - والمحصول عشرون، مجلداً.

٣- البر والإثم، مجلدتان.

٤- الشفاء ثمانية عشرة، مجلداً.

٥- القانون أربعة عشر، مجلداً.

٦- الأرصاد الكلية، مجلداً.

٧- كتاب النجاة ثلاث، مجلدات.

٨- الهداية، مجلدة.

٩- لسان العرب عشر، مجلدات.

١٠- الأدوية القلبية، مجلدة.

١١- الموجز، مجلدة.

١٢- بعض الحكم المشرقية، مجلدة.

١٣- بيان ذوات الجهة، مجلدة.

١٤- كتاب المعاد، مجلدة

١٥- كتاب المبدأ والمعاد، مجلدة.

١٦- كتاب المباحات، مجلدة.

وقد نشرت جمعية التاريخ التركية كتابا ضخما فى استانبول عام ١٩٣٧م، بمناسبة مرور تسعمائة سنة على وفاة ابن سينا، وقد عالج القسم الأول من هذا الكتاب حياة ابن سينا ووطنه، وحلل آراءه الفلسفية، ونظر القسم الثانى فى ابن سينا الطبيب وقد اشترك عالمان أجنبيان فى هذا الكتاب هما جوميو من بخارست (Gomoiv) تريكو (Royer Tricoi). من الفرس، مع عدد كبير من العلماء الأتراك، حيث درسوا أثر طب ابن

سينا فى الغرب. واختص القسم الثالث من الكتاب ـ بالرياضيات، والرابع بالأساطير التى وضعت حول اسم ابن سينا فى تركيا وإيران، واقتصر القسم الرابع على ترجمات تركية لبعض كتب صغيرة لابن سينا، ومن بينها النص العربى لكتاب (الأدوية القلبية) نقلا عن مخطوط فى مكتبة الفاتح فى استانبول، مع مقابلته وتصحيحه بسبعة عشر مخطوطا موجودة فى استانبول أيضا. واشتمل القسم الأخير على قائمة بمائتين وثلاثة وعشرين كتابا لابن سينا، توجد فى ست وخمسين مكتبة فى استانبول، وقائمة طويلة لجميع الشروح والترجمات لكتب ابن سينا المكتوبة فى المشرق والمحفوظة فى المكتبات التى ذكرت آنفا.

أ. د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١ ـ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة مكتبة الحياة ـ بيروت. ١٩٦٥، ص ٤٣٧.

٢ ـ وفيات الأعيان لأحمد بن محمد، ابن خلكان ت ٦٨١ هـ) ج١، ص ٤١٩ ٤٢٤، القاهرة ١٩٤٨م.

٣ ـ ابن سينا للبارون كارادوفو ترجمة عادل زعيتر، دار بيروت للطباعة والنشر سنة ١٩٧٠ ص ١٢١.

٤ ـ دائرة المعارف الإسلامية: ص ٢٠٣ ـ ٢١١.

٥ ـ القفطى: حكماء الإسلام ليبزك سنة ١٣٢٠ هـ ص ٣١٧ ـ ٣٢٦.

٦ ـ البيهقى: تاريخ حكماء الإسلام. تحقيق٧ محمد كرد على، مطبعة الشرقى بدمشق ص ٥٢ – ٧٢، ١٤٩٦.

٧ ـ ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٢٥ ـ ٣٢٩، بيروت ١٨٩٠م.

٨ ـ الزركلى: الأعلام ٢٤١ ـ ٢٤٢. الطبعة الحادية عشرة

٩ ـ العسقلانى: لسان الميزان، الطبعة الأولى، حيدر آباد ١٢٣٠هـ.

١٠ ـ الخوانسارى: روضات الجنات، الطبعة الثانية ـ حجر ـ إيران ص ٢٤٠ ـ ٢٤٥.

١١ ـ حاجى خليفة: كشف الظنون، ج٣، ص ٢٧٦.

١٢ ـ ابن الأثير: الكامل ج٦. قسم الأخبار ص ٤٢٨.

١٣ ـ الموسوعة البريطانية، المجلد الثانى ص ٨١٢.

السيــوطى

(٨٤٩ - ٩١١هـ = ١٤٤٥ - ١٥٠٥م)

هو الإمام الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد، السيوطى، الشافعى، المسند، المحقق، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة.

ولد فى رجب سنة ٨٤٩ هـ الموافق ١٤٤٥م.

وتوفى والده وله من العمر : خمس سنوات وسبعة أشهر.

وتوفى الإمام السيوطى فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٩١١هـ الموافق ١٥٠٥م.

ختم القرآن وهو ابن ثمان سنين، وحفظ كثيراً من المتون، وأخذ عن شيوخ كثيرين، عدّهم تلميذه الداودى، فبلغ بهم واحداً وخمسين، كما عدّ مؤلفاته، فبلغ بها ما يزيد على الخمسمائة مؤلف، وشهرة مؤلفاته تغنى عن ذكرها.

وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه، رجالاً وغريباً ومتناً وسنداً واستنباطاً للأحكام.

ولما بلغ الأربعين سنة : تجرد للعبادة، وانقطع إلى الله تعالى، وأعرض عن الدنيا وأهلها، وترك الإفتاء والتدريس، واعتذر عن ذلك فى مؤلف سماه : بـ «التنفيس» وأقام فى روضة المقياس، ولم يتحول عنها إلى أن مات.

ومن أشهر مؤلفاته: الدر المنثور فى التفسير المأثور

عَرّف الجلال السيوطى نفسه هذا التفسير، وبين لنا الحامل له على تأليفه، وذلك بمجموع ما ذكره فى آخر كتاب الإتقان له، وما ذكر فى مقدمة الدر المنثور، فقال فى آخر الإتقان: «وقد جمعت كتابًا مسندًا فيه تفاسير النبى ﷺ، فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف ....».

وقال فى مقدمة الدر المنثور: «وبعد .. فلما أَلّفت كتاب ترجمان القرآن - وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ - وتم بحمد الله فى مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات» أى : طرقًا كثيرة، رأيت قصور أكثر

الهمم عن تحصيله، ورغبتهم فى الاقتصار على فنون الأحاديث، دون الإسناد وتطويله، فلخصت منه هذا المختصر، مقتصراً فيه على متن الأثر، مصدراً بالعزو والتخريج إلى كل كاتب معتبر.

وسميته بـ «الدُّر المنثور فى التفسير المأثور».

ومن هاتين العبارتين : يتبين لنا أن السيوطى اختصر كتابه «الدّر المنثور»، من كتابه «ترجمان القرآن»، وحذف الأسانيد مخافة الملل، مع عزوه كل رواية إلى الكتاب الذى أخذها منه.

وقد جمع السيوطى ـ رحمه الله ـ فى هذا التفسير: ما بين الصحيح والعليل من الأحاديث، ولذلك فهو يحتاج إلى تصفية حتى يتميز لنا غثه من سمينه.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة :

١- شذرات الذهب.

٢- معجم المؤلفين.

٣- الإتقان فى علوم القرآن.

٤- الدر المنثور.

٥- التفسير والمفسرون.

الشاطبـــى

(٥٣٨ - ٥٩٠هـ = ١١٤٤ - ١١٩٤م)

هو القـاسم بن فـيّره بن خلف بن أحـمـد أبو القـاسم، وأبو مـحـمـد الشـاطبى الرعينى الضـرير، وفيره بكسر الفـاء بعدها ياء سـاكنة ثم راء مشددة مضمومة بعدها هاء.

ولد الشـاطبى فى آخـر سنة ثمـان وثلاثين وخمسمائة هجرية بشـاطبة من الأندلس.

وكان عـالما بالحديث والتفسير واللغة، قال عنه ابن خلكان: «كان إذا قـرئ عليـه صـحيح البـخـارى ومـسلم والموطأ تصـحح النسخ من حفظه».

ولقـد تلقى الإمـام الشـاطبى علوم القـرآن والقـراءات واللغـة وغـيـرهـا على أئمـة هذه الفنون وأصحاب المهارات فيها خاصة علماء القراءات واللغة، ومن أشهرهم:

١- أبو عـبـد الله مـحـمـد بن أبى العـاص النفزى قرأ عليه القراءات وأتقنها.

٢- ابن هذيل - عـرض عليه التيسير من حفظه والقراءات، وسمع منه الحديث.

٣- أبو عبدالله محمد بن حميد. أخذ عنه كتاب سيبويه والكامل للمبـرد، وأدب الكاتب لابن قتيبة وغيره.

٤- أبو القاسم حبيش صاحب عبد الحق ابن عطيـة مؤلف التـفسيـر المشهـور (المحـرر الوجيز) وغير هؤلاء كثير.

كـمـا تتلمـذ على الإمـا الشـاطبى خلق لا يحصون عدداً واستفاد منه أقرانه ومعاصروه ومن أشهر تلاميذه.

١- أبو الحـسـن على بن مـحـمـد بن عـبـد الصـمـد السـخاوى وهو أجل أصـحـابه عـرض عليه القراءات.

٢- أبو عبدالله محمد بن القرطبى الفقيه المفسر قرأ القراءات على الامام الشاطبى.

٣- مـرتضى بن جـمـاعـة بن عـبـاد، ويعـرف بابن الخشاب أخذ القراءات عن الشاطبى.

٤- الكمـال على بن شـجـاع الضـرير، وكـان صـهـر الإمـام الشـاطبى وكـان شـيـخ الإقـراء بالديار المصرية.

٥- السـد عـيـسى بن مكى بن حـسـين بن يقظان.

٦- الزين محمد بن عمر الكردى قرأ القراءات والقصيدة على الشاطبى، ومن هؤلاء التلاميذ أبو القاسم عبد الرحمن بن سعيد الشافعى، وعيسى بن يوسف بن إسماعيل المقدسى، ويوسف بن أبى جعفر الأنصارى، وعلى بن محمد بن موسى السجيبى عرض على الشاطبى القراءات إفرادا وجمعاً. وهؤلاء جميعاً اكملوا عليه القراءات وقرءوا عليه القصيدة.

حاز الامام الشاطبى مكانة عالية مرموقة بين علماء عصره حتى ذاع صيته وانتشر، وخرج إلى الحج فقدم بعده إلى الاسكندرية سنة ٥٧٢هـ، ولما دخل مصر أكرمه القاضى الفاضل وعرف قدره، وأنزله بمدرسته التى بناها بدرب الملوخية داخل القاهرة، وجعله شيخها وعظمه تعظيما كثيرا.

وجلس الامام الشاطبى للإقراء فى المدرسة المذكورة وقصده الخلائق من الأقطار، وكان إماماً كبيراً أعجوبة فى الذكاء كثير الفنون، آية من آيات الله تعالى، غاية فى القراءات حافظا للحديث، بصيراً بالعربية رأساً فى الأدب مع الزهد والولاية والعبادة.

لقد عظمه أصحابه ووقروه ومما يدل على ذلك ما أنشده الإمام الحافظ أبو شامة إذ يقول:

رأيت جماعة فضلاء فازوا

برؤية شيخ مصر الشاطبى

وكلهم يعظمه ويثنى

كتعظيم الصحابة للنبى

ومما يؤكد فضله أيضا ما ذكره الإمام ابن الجزرى بقوله: أخبرنى بعض شيوخنا الثقات أن الشاطبى كان يصلى الصبح بغلس بالفاضلية، ثم يجلس للإقراء، فكان الناس يتسابقون السير إليه ليلا، وكان إذا قعد لا يزيد على قوله من جاء أولا فليقرأ، ثم يأخذ على الأسبق فالأسبق، فاتفق فى بعض الأيام أن بعض أصحابه سبق أولا فلما استوى الشيخ قال: من جاء ثانيا فليقرأ فشرع الثانى فى القراءة، وبقى الأول لا يدرى حاله وأخذ يتفكر ما وقع سنة بعد مفارقة الشيخ من ذنب، ففطن أنه اجتنب تلك الليلة، ولشدة حرصه على النوبة نسى ذلك عندما انتبه من نومه، فبادر إلى الشيخ فأطلع الشيخ على ذلك، فأشار للثانى بالقراءة، فبادر الرجل إلى الحمام بجوار المدرسة فاغتسل به، ثم رجع قبل فراغ الثانى، والشيخ قاعد على حاله، فلما فرغ الثانى قال الشيخ: من جاء أولا فليقرأ وهذا يدل على صدق الشاطبى مع ربه ومدى ولاية الله له والله يختص برحمته من يشاء، وتوفى بمصر سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م.

ألف الإمام الشاطبى: قصيدته المعروفة بحرز الأمانى ووجه التهانى والمسماة بالشاطبية.

وتسمى بالقصيدة اللامية لانتهاء حرف الروى فيها باللام. وهى نظم لما أورده أبوعمرو الدانى فى كتاب التيسير فى القراءات السبع وصلاً وفرشًا. يقول عنها الإمام الذهبى: وقد سارت الركبان بقصيدته (حرز الأمانى) و (عقيلة أتراب القصائد) اللتين فى القراءات والرسم. وحفظهما خلق لا يحصون، وخضع لها فحول الشعراء، وكبار البلغاء، وحذاق القراء، فلقد أبدع وأوجز وسهل الصعب.

وقد قيض الله لشرح هذه القصيدة علماء أفذاذا أبدعوا فى شرحها وتوضيحها من هؤلاء الإمام السخاوى فى شرحه فتح الوصيد فى شرح القصيد، وهو مخطوط بدار الكتب المصرية.

والإمام حسين الهمزانى فى كتابه المسمى، بالدرة الفريدة فى شرح القصيدة. وهو أيضا مخطوط.

شرح إبراز المعانى لأبى شامة.

شرح شعلة المسمى كنز المعانى شرح حرز الأمانى وهو كتاب مطبوع.

شرح الجعبرى المسمى بكنز المعانى وهو مخطوط بدار الكتب.

اللالئ الفريدة للفاسى وهو مخطوط.

سراج القارئ لابن الفاصح وهو كتاب مطبوع.

شرح ابن عبد الحق وهو مخطوط مختصر فى شرحه للقصيدة.

ومن مؤلفات الشاطبى.

عقيلة أتراب القصائد فى علم الرسم وكذا ناظمة الزهر فى علم فواصل الآيات.

أ.د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١ - معرفة القراء الكبار ٢/٥٧٣، والبداية والنهاية ١٣/١٠. وغاية النهاية ١/٥٧٣، ٢/١٠٨، ٢/٢٠/٢/٥٥٣. والذيل على الروضتين ص ٧. ومقدمة إبراز المعانى ص ٨. الأعلام للزركلى ٥/ ١٨٠.

ابـن الشاطــر
(٧٠٤ - ٧٧٧هـ = ١٣٠٤ - ١٣٧٥م)

هو عـــلاء الدين أبو الحـــسن: على بن إبراهيم بن محـمـد الأنصـارى الدمـشـقى، المعروف «بابن الشاطر».

وكما يتضح من اسمه، فهو من مواليد دمشق، عاش بين سنتى ٧٠٤ و ٧٧٧ هجرية، الموافقتين ١٣٠٤ و ١٣٧٥ ميلادية، لا يُعْرَف عن سيرة حياته إلا القليل، وخاصة أنه لم يلفت انتباه الباحثين إلا منذ حوالى خمسة وعشرين عامًا فقط، عند دراسة أحد مؤلفاته الفلكية، ومن القليل الذى عرف عنه أن والده توفى وتركه فى السادسة من عمره، فكفله جده وعلمه تطعيم العاج، ولذا سمى بالمطعم الفلكى، ثم سلمه جده إلى قريب له علمه الفلك والهندسة، وأعطاه لقبه «ابن الشاطر» الذى عُرف به، وتعلق ابن الشاطر بالعلم، وأخذ يتنقل من أجله بين القاهرة والإسكندرية وحلب، وعمل فى وظيفة التوقيت، ورياسة المؤذنين فى الجامع الأموى بدمشق.

والتوقيت فى الجوامع مهنة شاعت فى العصر الإسلامى، وبدأت تتلاشى منذ أن انتشرت الساعات الميكانيكية الدقاقة، وكان القائم بها (ويسمى «الموقت») يحدد مواعيد الصلاة اليومية، والمناسبات الشهرية، والموسمية، وذلك عن طريق متابعة الأرصاد باستعمال الأسطرلاب، ومراقبة المزولة (الساعة الشمسية) لتحديد ساعات الليل والنهار، ووضع جداول بصورة مستمرة تبين نتائج الرصد والمراقبة وتسمى «الأزياج»، ولهذا نجد ابن الشاطر قد اهتم بتأليف الكتب، والجداول الفلكية، إلى جانب عمله فى مهنة التوقيت، وقد توفى بدمشق سنة ٧٧٧هـ = ١٣٧٥م.

آراؤه واكتشافاته العلمية :

كانت نظرية بطليموس ترى خطأ أن الأرض هى مركز الكون، وأن الأجرام السماوية تدور حول الأرض دورة كل ٢٤ ساعة، ووضع بطليموس لهذه النظرية حسابًا فلكيًا قائمًا على هذا الأساس، وكان العالم كله فى عهد ابن الشاطر يعتقد بصحة هذه

النظرية، ولكن الأرصاد الفلكية التى قام بها العالم العربى المسلم ابن الشاطر برهنت على عدم صحة نظرية بطليموس، وأثبتت بدلاً منها أن الأرض والكواكب تدور حول الشمس بانتظام، والقمر يدور حول الأرض، وهذا هو الاكتشاف الذى نسب إلى «كوبرنيكوس» بعد ابن الشاطر بعدة قرون.

وفى مقال نشر حديثًا فى «قاموس الشخصيات العلمية» أوضح المستشرق الإنجليزى المعاصر «ديفيد كنج» D. King أن كثيرًا من النظريات الفلكية المنسوبة لكوبرنيكوس عن نظام المجموعة الشمسية قد أخذها هذا الأخير عن العالم المسلم ابن الشاطر، وذكرت بعض المصادر أنه فى سنة ١٣٩٣هـ (١٩٧٣م) عثر على مخطوطات عربية فى بولندا، مسقط رأس كوبرنيكوس، اتضح منها أنه كان ينقل تلك المخطوطات العربية، وينتحلها لنفسه، وكان ابن الشاطر قد أكد فى كتبه أنه لم يساير من سبقوه من علماء العرب والمسلمين فى مجرد إبداء الشكوك فى نظريات بطليموس الفلكية عن مركزية الأرض وسكونها، وأخذ عليهم أنهم لم يقدموا تعديلاً لها، ويبدو أنه وصف نظريته الخاصة عن المجموعة الشمسية فى كتابه المفقود «تعليق الأرصاد»، فهو يقول فى مقدمة كتابه «الزيج الجديد»: ومن أراد الوقوف على طرق الأرصاد، التى سلكتها والآلات التى ابتكرها والأعمال التى حررتها، فعليه بكتابى المسمى «بنهاية السول»، فإنه يظهر له الحق عيانا، ويعذرنى فى مخالفتى لمن تقدمنى فيما وقع فيه من الاختلاف، وذلك لضرورات رصدية ودقائق برهانية.

من ناحية أخرى يقول «تونى هاف» أن الإنجاز الفلكى فى الإسلام خلال العصور الوسطى كان عميقًا ومتقدما إلى حد أبعد من نظيره فى أوروبا، حيث كان الفلكيون العرب يعملون بجد لإصلاح النسق «البطلمى» القائم على مركزية الأرض، وذلك من خلال عملية معقدة متضمنة نماذج رياضية واستدلالات فلكية قائمة على المفاضلة بين النظرية والملاحظة.

ويقرر «هاف» أن شخصيات فى مدرسة مراغة غربى إيران، مثل الأزدى، والطوسى، وقطب الدين الشيرازى، وابن الشاطر، قد نجحوا فى الوصول إلى نماذج لهيئة الكون، غير نموذج بطليموس، تكررت بعد ذلك فى كتاب كوبرنيكوس.. وإن التماثل بين نماذج الإجرام فى مدرسة مراغة (كما عدلها ابن الشاطر)، والنماذج لدى كوبرنيكوس كبير إلى حد يمكن القول معه أن كوبرنيكوس قد يمكن أن يُعدّ أحد أتباع مدرسة مراغة.

وينقل «هاف» عن مجلة «إيزيس» Isis ٦٦ رقم ٢٣٢ لعام ١٩٧٣م، رسما يوضح نموذج حركة الأجرام، من الطبقة الأولى، لكتاب كوبرنيكوس عن «مدارات الأجرام السماوية عام ١٥٤٣م»، ويشير إلى أن مناقشة كوبرنيكوس فى رأى مؤرخى العلم تدل على أنه لابد أن يكون قد اطلع على مخطوطة عربية متضمنة رسماً مماثلاً، وقد لاحظ مؤرخ العلم «ويلى هاتينر». W.Hartner هذا التماثل فى كتاب للطوسى بعنوان «التذكرة» موجود فى مكتبة جامع السليمانية باسطنبول، وينقل «تونى هاف» نماذج مماثلة لابن الشاطر من كتابه «نهاية السول» عن نسخة موجودة فى مكتبة بودلين باكسفورد.

ونحن من جانبنا ندعو إلى إعادة تقييم إنجازات عالم الفلك المسلم ابن الشاطر، الدمشقى، كما ندعو إلى السعى الجاد فى البحث عن المفقود من مؤلفاته الفلكية والهندسية، وإذا ثبت ما يتوسمه عنه بعض الباحثين المعاصرين من أنه السابق إلى تفنيد الأخطاء التى وقع فيها بطليموس عن حركة الكواكب، وأنه الممهد بحساباته الفلكية لتصحيح النظرية الفلكية، التى صاغها كوبرنيكوس عن هيئة الكون، فسوف يعتبر من أعظم الفلكيين على مر العصور.

وتزيد مؤلفات ابن الشاطر على الثلاثين مؤلفًا فى علم الفلك وأجهزة الرصد والقياس الفلكية، لا يزال الكثير منها مفقوداً، ولم تقتصر بحوثه فى الفلك على الجوانب النظرية، بل إنها امتدت لتشمل أيضًا الجوانب العملية والتطبيقية، فنجده قد ابتكر كثيرًا من الآلات، التى وصفها وصفًا تفصيليًا دقيقًا، وبقيت رسائله المتخصصة فى الأجهزة الفلكية تتداول لعدة قرون فى كل من الشام ومصر، والدولة العثمانية، وبقية الدول الإسلامية، وكانت مرجعًا لضبط الوقت فى العالم الإسلامى، فعلى سبيل المثال، صنع آلة لضبط وقت الصلاة سمَّاها «البسيط» ووضعها فى إحدي مآذن الجامع الأموى فى دمشق، وبقيت حتى عام ١٢٩٠ هـ، حيث وُجِد أن وضعها قد اختل بمرور الزمن، وعوامل الرياح والأمطار، فقام من حاول تصحيح وضعها، ولكنه لم يفلح.

وفى كتاب لابن الشاطر بعنوان: «الربع التام لمواقيت الإسلام» ، يقول: «إنى أمعنت النظر فى الآلات الفلكية، الموصلة إلى معرفة الأوقات الشرعية، فوجدتها مع كثرتها ليس فيها ما يفى بجميع الأعمال الفلكية فى كل عرض، ويداخلها الخلل فى غالب الأعمال، إما لصعوبة تحقيق الوضع، أو لتحرك الآلات بعضها على بعض.. وكنت أود لو يسَّر لى الله تعالى وضع آلة تخرج بها جميع الأعمال بسهولة مقصد وقرب مأخذ ووضوح برهان،

فوفقنى الله - تعالى - لاستنباط هذه الآلة التى سميتها «الربع التام لمواقيت الإسلام»، فوافق منطوقها مفهومها، ورأيتها جامعة مؤدية لمنصف أمعن فيها وفى غيرها النظر...».

أ. د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة :

١ - د. على عبد الله الدفاع، أثر علماء العرب والمسلمين فى تطوير علم الفلك، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٢م.

٢ - راجع : د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية، ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة. القاهرة. ١٩٨٣م.

٣ - توبى أ. هاف. فجر العلم الحديث، الإسلام - الصين - الغرب، ترجمة د. أحمد صبحى، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٩٦م.

الشافعــى
(١٥٠ - ٢٠٤ هـ = ٧٦٧ - ٨٢٠م)

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب ابن عبد مناف.

فهو هاشمى مطلبى، ابن عم رسول الله ﷺ، وأما أمه فالمشهور أنها كانت من قبيلة الأزد، وكنيتها : أم حبيبة. وقيل: هى فاطمة بنت عبد الله بن الحسين بن الحسن بن على ابن أبى طالب.

ولد - رحمه الله - سنة خمسين ومائة، وهى السنة التى توفى فيها الإمام أبو حنيفة - رحمه الله تعالى - فى أواخر عهد أبى جعفر المنصور الخليفة العباسى، وقد ولد - رحمه الله - بعسقلان وهى من قرى غزة، فنشأ فى إحدى قبائل اليمن المقيمة بفلسطين، ثم سافرت به أمه إلى مكة. ذلك أن والدته خافت عليه فى اليمن أن يخمل ذكره، ويضيع نسبه، ولا ينشأ على ماينشأ عليه ضرباؤه من قبيلته قريش، فقالت له: الحق بأهلك فتكون مثلهم فإنى أخاف أن تغلب على نسبك. فقدم مكة وعنده قريبًا من عشر سنين، وكان منزله بمكة بقرب (شعب الخيف). نشأ يتيمًا فقيرًا فى حجر والدته، حتى أنها لم يكن معها ما تعطى المعلم، ومع هذا فقد كان الشافعى يرى فى الفقر أكبر دافع لتعلم العلم، ويرى أن الغنى من موانع النشاط فى تعلم العلم، ويقول: لا يصلح طلب العلم إلا لمفلس، فقيل: ولا الغنى المكفى؟ فقال: ولا الغنى المكفى.

ولما أخذ الشافعى فى دراسة الفقه على شيوخه بمكة وبرع فيه، سمع بشهرة موطأ مالك، فجد فى حفظه واستذكاره وأراد أن يتلقى عن الإمام مالك، فرحل - رحمه الله - إلى المدينة للأخذ عن علمائها، وقد استصغر الإمام مالك سنه فى أول الأمر، وطلب من الشافعى أن يحضر معه من يقرأ له، فلما سمع قراءة الشافعى أعجب مالك بها جدًا، لفصاحة الشافعى وجودة قراءته.

وقد حفظ الشافعى الموطأ وقرأه على الإمام مالك وعمره ثلاث عشرة سنة تقريبًا،

أى كان ذلك سنة ١٦٣هـ ولازمه حتى وفاته سنة ١٧٩هـ، أى أنه لازم الإمام مالك ست عشرة سنة.

وبعد أن توفى الإمام مالك لم يطب المقام للشافعى بالمدينة، لفقده أستاذه، ومن كان يعطف عليه، وينزله فى كنفه، وييسر له أسباب العيش، وصادف أن ذهب إلى المدينة فى تلك الأثناء والى اليمن، فطلب منه بعض القرشيين استصحاب الشافعى إلى اليمن، لتولى أحد الأعمال هناك، وقد أنس والى اليمن بهذه الرغبة بعد أن وقف على مواهب الشافعى، وما هو عليه من العلم والفقه. ولما ارتفع شأن الشافعى باليمن، وطار صيته فيها خشى حساده من ذهاب مجدهم وسلطانهم، وضعف مركزهم عند والى اليمن. فسعوا به إلى الرشيد، بواسطة أحد قواده المقيمين باليمن. فأرسل القائد إلى الخليفة يخوفه من مؤامرة علوية تدبر ضد الخلافة وأسند زعامة هذه المؤامرة إلى الشافعى. فبعث الرشيد إلى اليمن من حمل الشافعى مع العلويين إلى العراق فقتلهم الرشيد جميعا عدا الشافعى. فإنه نجا من القتل بعد مناقشة طويلة، وحوار مع الرشيد.

وقد كان الشافعى فى هذه الإقامة ضيفا على محمد بن الحسن الذى أحسن ضيافته ويسر له سبل العيش، ومكنه من استظهار كتبه، ونسخ ما شاء منها. فاتسع بذلك أفقه العلمى، وازداد إلماما بآراء الحنفية، كما سبق له أن تشبع بالفقه المالكى، مما كان له أثر قوى فى حياته العقلية بعد ذلك، حينما تم نضجه العلمى. وأخذ فى التأليف والتدريس فقد كانت آراؤه معتدلة متوسطة بين أهل الحديث وأهل الرأى.

وقد حاز الشافعى احترام الأمراء والعلماء، حتى نَفَس عليه بعض العلماء المقربين من الخليفة. فخرج من بغداد إلى مكة، وأقام بها مدة ينشر علمه على الحجاج القادمين إلى مكة من جميع البقاع الإسلامية.

وفى سنة خمسة وتسعين ومائة عاد إلى بغداد، وأقام فيها سنتين، يدرس فيها العلم، وعكف على الاستفادة منه الصغار والكبار من الأئمة، والأحبار من أهل الحديث والفقه وغيرهم. ورجع كثيرون منهم عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه. وتمسكوا بطريقته كأبى ثور، وخلائق لا يحصون، ثم خرج إلى مكة، ثم عاد إلى بغداد للمرة الثالثة فى سنة ١٩٨هـ، وأقام بها شهراً أو شهوراً. ثم خرج إلى مصر إذ إنه سمع شيئًا عن مصر وأهلها فحبب إليه الذهاب إليها. ليقوم بنشر علمه فيها، فخرج إلى مصر مع واليها: العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله ابن العباس. فوصل إليها سنة تسع وتسعين

ومائة، أو سنة مائتين - وكان الليث بن سعد قد مات من قبل - وفرح به المصريون، ورحبوا به ترحيبا عظيما واحتفوا بقدومه، وأنزلوه منزلا كريما، لما عرفوه عنه من علم وفضل فقد أخلف الله عليهم به ما فقدوا من علم الليث وفضله.

وقد اختار الشافعى النزول على أهله من الأزد.

وقد قدم له عبد الله بن عبد الحكم - من كبار العلماء والأعيان بمصر - أربعة آلاف درهم: ألف منها من ماله، وثلاثة آلاف من تجار مصر وأعيانها. فشكر الشافعى له ذلك الصنيع.

وقد تزوج الإمام الشافعى - رحمه الله تعالى - بالسيدة: حميدة بنت نافع بن عيينة ابن عمرو بن عثمان بن عفان، وذلك بعد وفاة الإمام مالك سنة ١٧٩هـ، وعمر الشافعى آنذاك تسع وعشرون سنة، كما أنه كانت له سرية من الإماء. ورزق من امرأته العثمانية: أبو عثمان محمد، وهو الأكبر، وكان قاضيًا بمدينة حلب. وابنتان: فاطمة وزينب. كما رزق من سريته بابن آخر يقال له الحسن، مات وهو طفل.

مرض الإمام الشافعى - رحمه الله تعالى - مرضًا شديدًا، وكانت علته بالبواسير، فاشتدت عليه علته. ويحكى تلميذه يونس بن عبد الأعلى: مارأينا أحدًا لقى من السقم ما لقى الشافعى، فدخلت عليه فقال لى: يا أبا موسى اقرأ علىَّ ما بعد العشرين والمائة من آل عمران، وأخف القراءة، ولا تثقل، فقرأت عليه، فلما أردت القيام. قال: لا تغفل عنى، فإنى مكروب.

وذكر الإمام الشافعى - رحمه الله تعالى - ماوضع من كتبه فى مرضه فقال: لوددت أن الخلق تعلمه ولم ينسب إلىَّ منه شىء أبدًا.

ويقول المزنى: دخلت على الشافعى فى مرضه الذى مات فيه. فقلت: كيف أصبحت يا أستاذ؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخوانى مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله وارداً، ولسوء عملى ملاقياً، فوالله مأدرى أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها، أو إلى النار، فأعزيها. ثم رمى بطرفه إلى السماء واستعبر وأنشد:

ولما قسى قلبى وضاقت مذاهبى

جعلت الرجا منى لعفوك سلما

تعاظمنى ذنبى ، فلما قرنته

بعفوك ربى ، كان عفوك أعظما

وقد أسلم الشافعى روحه فى ليلة الجمعة الأخيرة من شهر رجب سنة ٢٠٤هـ بعد العشاء الأخيرة، بين يدى تلميذه الربيع الجيزى.

وقد اغتم المصريون لموته غمًا عظيمًا، وجزعوا لوفاته جزعًا شديدًا، ودفن الشافعى بالقرافة الصغرى بتربة بنى زهرة. وهم أولاد عبد الله بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى، وعرفت بتربة أولاد ابن عبد الحكم. وقد عرفت بعد دفنه بتربة الشافعى إلى وقتنا هذا.

هذا وقد أخذ الشافعى القرآن على إسماعيل بن قسطنطين شيخ أهل مكة فى زمانه بقراءة ابن كثير.

وأخذ العلم عن شيوخ مكة منهم: سفيان ابن عيينه إمام أهل الحديث، ومسلم بن خالد الزنجى فقيه مكة، وسعيد بن سالم القداح، وداود بن عبد الرحمن العطار، وعبد المجيد ابن عبد العزيز بن أبى داود.

كما لازم الإمام مالك بالمدينة حتى توفى سنة ١٧٩هـ ، وأخذ بالمدينة أيضًا عن إبراهيم بن أبى يحيى الأسلمى، ومحمد بن سعيد بن أبى فديك، وعبد الله بن نافع الصائغ صاحب ابن أبى ذئب.

ولما سافر لبغداد فى المرة الأولى أخذ عن: محمد بن الحسن الفقيه صاحب أبى حنيفة، ووكيع بن الجراح، وعبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى، وأبو أسامة بن حماد بن أسامة الكوفى، وإسماعيل بن علية، وهؤلاء الأربعة من حفاظ الحديث النبوى.

لم يترك الشافعى الإفادة ونشر العلم بالتدريس والإفتاء منذ أن رسخت قدمه فيه، فقد درس فى المسجد النبوى والمسجد الحرام، ومسجد عمرو بن العاص بالفسطاط، ومساجد العراق، كما كان له مجلس علمى بالحرم المكى، وقد عقد هذا المجلس مبكراً فى حياة شيوخه، وفى الوقت الذى كان أقرانه ومن قاربه فى السن ما زالوا فى دور الطلب.

أما مجالسه فى مصر فيحكى لنا عنها صاحبه الربيع بن سليمان فيقول: كان الشافعى - رحمه الله تعالى - يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث فيسألونه فى تفسيره ومعانيه، فإذا ارتفعت الشمس قاموا، فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا، وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر، فلايزالون إلى قرب انتصاف النهار، ثم ينصرف - رحمه الله تعالى -.

وقد تخرج عليه خلق كثير لا يحصى عددهم. أشهرهم: أحمد بن خالد الخلال، والإمام أحمد بن حنبل، وأحمد بن محمد بن سعيد الصيرفى، ومحمد بن عبد الله بن عبد

الحكم، ومحمد بن الإمام الشافعى، وأبوثور إبراهيم بن خالد بن اليمان، وإسحاق ابن راهويه، وإسماعيل بن يحيى المزنى المكنى بأبى إبراهيم، والحسن بن محمد بن الصباح البغدادى الزعفرانى، والحسين بن على بن يزيد الكرابيسى، وحرملة بن يحيى بن عبد الله التجيبى، والربيع بن سليمان بن داود الجيزى، والربيع بن سليمان المرادى، وأبو بكر الحميدى، ويوسف بن يحيى البويطى، ويونس ابن عبد الأعلى.

كما تخرج عليه كثير من النساء منهن: أخت المزنى.

وقد صار كل واحد من هؤلاء التلاميذ علما من أعلام الهدى، ومناراً يهتدى به إذا أشكلت الأمور، وقد ترك كل منهم آثارًا علمية، هى ذخائر فى الفقه والعلوم الشرعية.

وبالنسبة لمنهجه فقد اعتمد الشافعى على القرآن الكريم فى قراءاته المتواترة، وعلى صحيح السنة المشرفة وعلى الالتزام بالإجماع، وكان يُعمل القياس ويقول به، ووضع أدوات الفهم من تمكنه من اللغة العربية وقدرته على التصور المبدع للفروع الفقهية، والجمع بين الروايات المختلفة وابتناء الفروع على الأصول، والتزم أيضا بعدم الخروج عن دلالات الألفاظ ولا عن المقاصد الشرعية وكان يجرى المناقشات العلمية إما عن طريق الحوار والمناظرة الحقيقية، أو عن طريق تخيل هذه المناظرات واستدعاء حجج الخصوم والرد عليها مع ترتيب الأدلة والبراهين، ولقد عُدّ الشافعى من أجل ذلك مجددًا للقرن الثانى الهجرى بلا نزاع فكان أول من ألف فى الأصول، وأول من جمع بين أهل الأثر وأهل الرأى.

ولمؤلفات الإمام الشافعى - رحمه الله تعالى - أهميتها البالغة وحتى يومنا هذا.

فقد كانت اعتماد الإمام أحمد فى الفقه، حتى قال: لم أنظر فى كتاب أحد ممن وضع كتب الفقه غير الشافعى؛ فقد كان الشافعى أول من كتب فى علم أصول الفقه.

وبلغ من أهمية كتب الشافعى أن الإمام إسحاق بن راهويه تزوج امرأة أرمل بمدينة مَرو، لم يتزوجها إلا لأن زوجها الأول كان عنده كتب الشافعى. وقد أثرت مصنفات الشافعى فى المؤلفين من عصره وإلى يومنا هذا، فهذا الإمام إسحاق بن راهويه يضع جامعه الكبير على كتاب الشافعى، ويتبع أثر الشافعى فيه.

ولكن مما ألفه الإمام الشافعى أو جمعه أصحابه له:

١ - الأم (مطبوع)

٢ - جامع المزنى الكبير

٣ - جامع المزنى الصغير

٤ - مختصر المزنى (مطبوع)

٥ - مختصر الربيع

٦ - مختصر البويطى

٧ - كتاب حرملة

٨ - كتاب الحجة، وهو المذهب القديم

٩ - الرسالة الجديدة (مطبوع)

١٠- الرسالة القديمة

١١- الأمالى

١٢- الإملاء

١٣- أحكام القرآن (مطبوع)

١٤- مسند الشافعى. (مطبوع).

١٥- السنن للشافعى. (مطبوع).

١٦- كتاب ما اختلف فيه أبو حنيفة وابن أبى ليلى، أو كتاب اختلاف العراقيين. (مطبوع).

١٧- كتاب اختلاف على وابن مسعود. (مطبوع).

١٨- كتاب اختلاف مالك والشافعى.

١٩- كتاب جماع العلم. (مطبوع).

٢٠- كتاب صفة نهى رسول الله. (مطبوع).

٢١- كتاب إبطال الاستحسان. (مطبوع).

٢٢- كتاب الرد على محمد بن الحسن. (مطبوع).

٢٣- كتاب القرعة. (مطبوع).

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - الخطيب البغدادى ٥٦/٢.

٢ - فهرست ابن النديم ص ٢٩٤.

٣ - طبقات السبكى ١٠٠/١ وما بعدها.

٤ - ابن خلكان ٥٦٥/١.

٥ - الفتح المبين فى طبقات الأصوليين، للشيخ عبد الله المراغى.

٦ - رحلة الإمام الشافعى إلى مصر، للأستاذ مصطفى منير أدهم.

٧ - محاضرات الشيخ مصطفى باشا عبد الرازق فى موضوع (الشافعى واضع علم أصول الفقه).

الشريف الإدريسى
(٤٩٣-٥٦٠هـ = ١٠٩٩-١١٦٦م)

هو أبو عبد الله: محمد بن أحمد بن عبد الله بن إدريس بن يحيى بن على بن محمود بن ميمون الحمودى، سليل أسرة بنى حمود الملوكية البربرية، التى حكمت جنوبى الأندلس وثغر سبتة، فى أوائل القرن الخامس الهجرى، وسمى بالشريف لأنه يتصل بنسبته إلى أسرة الأدارسة الحسنية، التى ينتمى إليها بنو حمود، والتى حكمت المغرب منذ أواخر القرن الثانى الهجرى، وهذه ترجع نسبتها إلى آل البيت، ومن ثم فإن نسبته تورد منذ جده الأعلى ميمون على النحو الآتى:

ميمون بن أحمد بن على بن عبيد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب. وإذاً فهو وفقاً لهذه النسبة كذلك سليلى آل البيت - رضى الله عنهم.

ولد الإدريسى بثغر سبتة فى سنة ٤٩٣هـ (١٠٩٩م). وقد كانت مدينة سبتة المغربية. وهى التى لعبت دوراً عظيماً فى تاريخ المغرب والأندلس، والتى تعتبر اليوم أرضاً إسبانية تتبع ولاية قادس الأندلسية، وتحتلها إسبانيا منذ أربعة قرون - كانت مسقط الرأس لجمهرة كبيرة من علماء المغرب والأندلس، وتشتهر بالأخص بمولد رجلين من أبنائها، يشغل كل منهما مكانة بارزة فى تاريخ العلوم العربية، وقد عاش كلاهما فى نفس العصر تقريباً، أى فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى، هما الشريف الإدريسى، أعظم الجغرافيين المسلمين، والقاضى عياض ابن موسى السبتى أعظم حفاظ المغرب بلا مراء.

ولسنا نعرف الكثير عن نشأة الإدريسى وحياته الأولى، بيد أننا نعرف من إشارات وردت فى مؤلفه، أنه درس فى معاهد الأندلس، ولا سيما فى قرطبة، وقد كانت الأندلس يومئذ تحت حكم المرابطين سادة المغرب. ونعرف كذلك أنه قام برحلات عديدة فى شبه الجزيرة الإسبانية، ووصل فى تجوله غرباً حتى ثغر أشبونة أو لشبونة عاصمة البرتغال الحديثة، وقد كانت يومئذ ثغر ولاية

الغرب الأندلسية. ثم زار شمالى إسبانيا وتجول فى جليقية، بل هنالك فى كتاباته ما يدل على أنه زار شواطىء فرنسا مما يلى خليج بسكونية، ووصل فى رحلاته البحرية حتى شواطىء انجلترا الجنوبية. ولما أتم تجواله فى شبه الجزيرة الإسبانية وما إليها، عبر البحر إلى المغرب، وتجول فى شماله وجنوبه، وهنالك ما يدل على أنه عاش حيناً فى مدينة مراكش، وحيناً آخر فى شمالى المغرب بمدينة قسنطينة. وكذلك رحل الإدريسى إلى المشرق، وتجول فى آسيا الصغرى وزار المغارة المنسوبة إلى أهل الكهف. ومن المحقق أن هذه الرحلات العديدة، كان لها أكبر أثر فى تكوين معلوماته الجغرافية، التى ظهر أثرها فيما بعد فى أبواب كثيرة من معجمه الجغرافى .

وهنا يلعب القدر دوره فى تطور حياة الإدريسى. ذلك أننا نراه بعد ذلك فى جزيرة صقلية، يمثل فى بلاطها، ويخوض حياة علمية باهرة. ونحن نعرف أن جزيرة صقلية، افتتحها المسلمون تباعاً ما بين سنتى ٢١٣ و٢٦٤هـ (٨٢٨-٨٧٨م)، وغدت فى ظلهم حديقة يانعة، تزهو بعلومها وتجارتها وصناعتها، حتى إذا أدرك الوهن تلك الدولة الإسلامية الصغيرة، توالت عليها حملات الفرنج، حتى غزاها النورمان بزعامة روبر جويسكار والدوق روجر فى سنة ٤٦٤هـ (١٠٧٢م)، وتم افتتاحها فى سنة ١٠٨٦م، وكان الدوق روجر أول حكامها من النورمان، فشمل سكان الجزيرة من المسلمين واليونان بتسامحه، وسمح للمسلمين بالاحتفاظ بمساجدهم، وقضاتهم، وأطلق لهم حرية التجارة. ولما توفى الدوق روجر فى سنة ١١٠١م، خلفه ولده الطفل روجر حدثاً، وبدأ حكمه للجزيرة حينما بلغ الثامنة عشرة فى سنة ١١١٢م. وكان الدوق روجر الثانى أو رُجّار كما تسميه الرواية الإسلامية، من أعظم ملوك عصره، وفى ظله غدت صقلية دولة عظيمة، وكان مثل أبيه من ذوى الأفق الواسع، وممن يقدرون تفوق المسلمين الحضارى، ويؤثرون الانتفاع بعلومهم ومعارفهم، ومن ثم فقد استطاعت الجالية الإسلامية أن تعيش فى ظله مدى حين، متمتعة بسائر شعائرها ونشاطها الاجتماعى والثقافى. وفى ظل هذا التسامح المحمود، دعا الدوق روجر للعمل فى بلاطه رهطاً من العلماء المسلمين، من الصقليين المحليين، ومن إفريقية والمغرب، وكان فى مقدمة هؤلاء الشريف الإدريسى.

وتوجد فى ذلك روايتان، تحظى كل منهما بشىء من التأييد. أما الأولى فيقدمها إلينا الصفدى، فيما كتبه فى معجمه عن

الإدريسى، وهو أن الدوق روجـــر، هو الذى استدعى الإدريسى إلى بلاطه فيمن استدعى من العلماء المسلمين، ويسوق الصفدى إلينا روايته على النحو الآتى:

«رجّار ملك الفرنج صاحب صقلية هلك بالخوانيق سنة ثمان وأربعين وخمسمائة هجرية. ويقال فيه أجار بهمزة بدل الراء، وجيم مشددة، وبعد الألف راء - كان فيه محبة لأهل العلوم الفلسفية، وهو الذى استقدم الشريف الإدريسى صاحب كتاب «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» من العدوة إليه، ليضع له شيئاً فى شكل صورة العالم، فلما وصل إليه أكرم نزله وبالغ فى تعظيمه».

وأما الرواية الثانية، فنستطيع أن نفهمها على ضوء ما يقدمه إلينا الرحالة الأندلسى ابن جبير. ويحدثنا ابن جبير فى رحلته عن مسلمى صقلية، وقد زار منها عدة مدن مثل مسينه وبلارمه (بلرم) وإطرابنش (ترابانى)، واجتمع فيها بالمسلمين، ووقف على أحوالهم. وهو يقول لنا بصفة عامة «إن المسلمين يعيشون مع النصارى على أملاكهم وضياعهم، وإن النصارى قد أحسنوا السيرة فى استبقائهم واصطناعهم، وضربوا عليهم إتاوة يؤدونها فى فصلين فى العام، وحالوا بينهم وبين سعة فى الأرض كانوا يجدونها. ثم يقول لنا: إنه لم يكن فى مسينه إلا نفر يسير من المسلمين من ذوى المهن، وأما بلرم وهى عاصمة الجزيرة، ففيها كثير من المسلمين، وفيها سكنى الحضريين منهم، ولهم فيها المساجد، والأسواق المختصة بهم فى الأرباض كثير، وسائر المسلمين بضياعها وجميع قراها، وسائر مدنها كسرقوسة وغيرها. وللمسلمين فى بلرم رسم باق من الإيمان يعمرون به أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض، قد انفردوا فيها بسكناهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم فيها بسبب الخطة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسى، ولهم بها قاض يرتفعون إليه فى أحكامهم، وجامع يجتمعون للصلاة فيه. وأما المساجد فكثيرة لا تحصى، وأكثرها محاضر لمعلمى القرآن. وبالجملة فهم غرباء عن إخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، ولا أمن لهم فى أموالهم ولا فى حريمهم، ولا فى أبنائهم.

ويزيد ابن جبير على ذلك، أن زعيم مسلمى صقلية وقت زيارته للجزيرة فى سنة ٥٨٠هـ، كان هو القاسم بن حمود المعروف بابن الحجر، «وهو من ورثة أهل السيادة»، ومعنى ذلك أن أسرة بنى حمود هذه، وهم فرع من أسرة بنى حمود الملوكية التى ينتمى إليها الإدريسى، كانت تحتل مركز الزعامة من

مسلمى صقلية منذ مدة طولية، ومن الممكن أن يكون الإدريسى، وهو قد وفد على الجزيرة قبل ابن جبير بنحو خمسين عاماً، قد وفد عليها إما تلبية لدعوة مباشرة من الدوق رجّار حسبما تقدم، وإما بتشجيع أقاربه بنى حمود. ولدينا من جهة أخرى قول ثالث بأن الإدريسى «نشأ فى أصحاب رجار الفرنجى صاحب صقلية»، وهو ما قد يعنى أن الإدريسى، وفد على الجزيرة من تلقاء نفسه. وامتزج فيها بأصحاب رجار من العلماء المسلمين، وانتهى إلى التمتع بعطف الدوق ورعايته. وكان وفود الإدريسى على الجزيرة، فيما يرجح بين سنتى ١١٣٠ و١٤٤٠م. وكان العلامة المسلم يومئذ، يسبقه صيته كرحالة وعالم جغرافى، فاستقبل فى بلاط صقلية بترحاب، وأغدق عليه الدوق رجار عطفه ورعايته، وعهد إليه بالمهمة العلمية العظيمة، التى حققها الإدريسى بكتابة معجمه الجغرافى الخالد.

وتوفى الشريف الإدريسى فى سنة ٥٦٠هـ (١١٦٦م) فى السابعة والستين من عمره. ولسنا نعرف أين توفى وأين دفن، ويغلب على الظن أنه استقر فى البلاط النورمانى، فى بلرم حتى توفى ودفن بالجزيرة.

عكف الإدريسى على تأدية مهمته العلمية فى جو يظلله التفكير الحر المستنير، والتعاون العلمى المثمر بين الشرق والغرب، والارتفاع بالقيم العلمية والأدبية فوق الاعتبارات والمبادىء الرجعية، التى كانت سائدة فى تلك العصور فى كثير من المجتمعات. ومن ثم فإنا نجد العلامة المسلم يحدثنا فى مقدمة كتابه عن الدوق روجر بمنتهى الإعجاب والإجلال على النحو الآتى: «وإن أفضل ما عنى به الناظر، واستعمل فيه الأفكار والخواطر، محاسن الملك العظيم رجار، المعتز بالله، المقتدر بقدرته، ملك صقلية وأنطاكية وأنكبردة وقلورية، إمام رومية، الناصر للملة النصرانية، إذ هو خير من ملك الروم بسطاً وقبضاً» ثم يشيد بقوته، وعدله، وعلمه، وسعة معارفه.

ويشرح لنا الإدريسى بعد ذلك، الظروف التى عهد فيها إليه الملك رجار (روجر) بمهمته الجغرافية الكبرى، فيقول، إن الملك لما اتسعت حدود مملكته «أحب أن يعرف كيفية بلاده حقيقة، ويقتلها يقينا وخبرة، ويعلم حدودها ومسالكها براً وبحراً، وفى أى إقليم هى، وما يحفها من البحار والخلجان الكائنة، مع معرفة غيرها من البلاد والأقطار فى الأقاليم السبعة، التى اتفق عليها المتكلمون، وأثبتها فى الدفاتر الناقلون والمؤلفون، وما لكل إقليم منها فى قسم بلاد تحتوى عليه، وترجع إليه. وتقدمته بطلب ما فى الكتب

المؤلفة فى علم ذلك كله، مثل كتاب العجائب للمسعودى، وكتاب أبى نصر سعيد الجيهانى، وكتاب أبى القاسم عبدالله بن خرداذبه، وكتاب أحمد بن عمر العذري، وكتاب أبى القاسم محمد الحوقلى البغدادى، وكتاب ابن خاقان الكيماكى، وكتاب موسى بن قاسم القروى، وكتاب أبى يعقوب المعروف باليعقوبى، وكتاب إسحاق بن الحسن المنجم، وكتاب قدامة البصرى، وكتاب بطليموس الأقلودى، وكتاب أرسيوس الأنطاكى، فلم نجد ذلك فيها مشروحاً مستوعباً مفصلا، بل وجده فيها مغفلا، فأحضر لديه العارفين بهذا الشأن، فباحثهم عليه، وأخذ معهم فيه، فلم يجد عندهم علماً أكثر مما فى الكتب المذكورة. فلما رآهم على مثل هذه الحال، بعث إلى سائر بلاده، فأحضر العارفين بها المتجولين فيها، فسألهم جمعاً وأفراداً، فما اتفق فيه قولهم وصح فى جمعه نقلهم أثبته وأبقاه. وما اختلفوا فيه ألغاه وأزجاه، وأقام فى ذلك نحوا من خمس عشرة سنة، لا يخلى نفسه فى كل وقت من النظر فى هذا الفن والكشف عنه، والبحث عن حقيقته إلى أن تم له فيه ما يريده».

ولما تمت دراسة المصادر القديمة أمر الدوق بعد ذلك، وحسبما يحدثنا الإدريسى «أن يفرغ له من الفضة الخالصة دائرة مفصلة عظيمة الجرم، ضخمة الجسم فى وزن أربعمائة رطل بالرومى، فى كل رطل منها مائة درهم واثنا عشر درهماً». وأن تنقش فيها صور الأقاليم السبعة، بأقطارها وبلادها وخلجانها وبحارها وأنهارها وعامرها وغامرها. والأقاليم السبعة هى أساس التقسيم الجغرافى للعالم فى العصور الوسطى، وقد سار عليه سائر الجغرافيين المسلمين. فقام العمال المهرة، تحت إشراف الإدريسى وتوجيهه، بإتمام تلك المهمة العظيمة على أكمل وجه، ونقش فوق الكرة الفضية، خريطته الشهيرة للعالم المعروف يومئذ. وقد اشتهرت هذه الخريطة الإدريسية يومئذ، وغدت منذ وضعها مستقى لكثير من الجغرافيين الأوربيين فى العصور الوسطى، ولاسيما العلامة البندقى مارينو سانوتو (١٢٦٠-١٣٣٨م)، الذى استرشد بها فى معظم خرائطه. ويقال إن الخريطة المنشودة لم تستغرق من الفضة التى نقشت عليها سوى الثلث، وإن رجار وهب الجغرافى المسلم بقية الكمية الفضية، وأعطاه فوق ذلك مبلغاً كبيراً من المال، وشحنة سفينة من نفيس المتاع.

وهذا ما يرويه لنا الصفدى فى كلامه عن الإدريسى حيث يقول لنا إن رجّار أعجب بالكرة الفضية «ودخل فى ذلك ثلث الفضة

وأرجح بقليل، وفضل له ما يقارب الثلثين، فتركها له إجازة، وأضاف لذلك مائة ألف درهم، ومركباً مساقاً. كان قد جاء إليه من برشلونة بأنواع الأجلاب الرومية التى تجلب للملوك. وسأله المقام عنده، وقال له أنت من بيت الخلافة، ومتى كنت بين المسلمين، عمل ملوكهم على قتلك، ومتى كنت عندى أمنت على نفسك. فأجابه إلى ذلك ورتب له كفاية لا تكون إلا للملوك».

فكر الإدريسى فى وضع مؤلف جغرافى عام، يرسم مطابقاً للكرة الفضية، وتستعرض فيه الأقاليم السبعة المحفورة عليها، وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين، وأماكنها، وصورها، وبحارها، وجبالها ومسافاتها ومزروعاتها وعللها وخواصها، وأجناس نباتها، وما بها من الصناعات والتجارات، وما يذكر عنها من العجائب، وحيث هى من الأقاليم السبعة، مع ذكر أحوال أهلها، وهيئاتهم ومذاهبهم، وأزيائهم، ولغاتهم.

هكذا يلخص لنا الإدريسى فى مقدمته محتويات الموسوعة الجغرافية الكبرى، التى عهد إليه الملك رجّار بوضعها. وقد اعتمد الإدريسى فى وضع هذه الموسوعة، فضلا عن مادته ومعلوماته الشخصية، التى جمعها من طوافه فى شبه الجزيرة الإسبانية وشواطئ فرنسا وغربى البحر المتوسط وجزائره، والمغرب وآسيا الصغرى، وما استقاه من بحوث الجغرافيين القدماء، ولاسيما بطليموس، ومن أسلافه الجغرافيين المسلمين العظام مثل اليعقوبى، وابن خرداذبة والمسعودى وابن حوقل - اعتمد فضلا عن ذلك إلى مختلف البلدان الأوربية، ومنها فرنسا، وإيطاليا وألمانيا وبلاد اسكندناوه، وجزائر بحر الأدرياتيك، وجزر الأطلنطى، وهى التى يتناولها الإدريسى جميعاً، ولأول مرة فى الجغرافية العربية، وجغرافية العصور الوسطى - بكثير من الدقة والبراعة، فى التحديد والوصف. واستغرقت بحوث الإدريسى، ثم وضع المؤلف كله خمسة عشر عاماً، وانتهى من وضعه، حسبما يحدثنا الإدريسى فى مقدمته فى العشر الأول من شهر يناير سنة ١١٥٤م، الموافق لشهر شوال سنة ٥٤٨هـ، وذلك قبيل وفاة الملك النرمانى بأشهر قلائل. وسمى المؤلف «بنزهة المشتاق فى اختراق الآفاق»، وهو اسم يقول لنا الإدريسى إنه من وحى الملك رجار وإشارته، ولما كان المؤلف كله، قد وضع بإشارة الملك رجار ورعايته، وأهدى إليه فى مقدمته، فقد سمى كذلك «كتاب رجّار» أو «الكتاب الرجّارى» تنويهاً من مؤلفه بفضل هذا الأمير العالم المستنير.

ويعتبر كتاب «نزهة المشتاق»، أعظم مؤلف

جغرافى فى العصور الوسطى. وبالرغم من أنه يجرى فى وصف البلدان على نظرية «الأقاليم السبعة» المتبعة فى سائر البحوث الجغرافية القديمة، فإنه يمتاز بنزعة العلمية. ويكفى أن تعلم أن الإدريسى يبدأ كتابه بالتحدث عن «كروية الأرض»، ويمتاز من جهة أخرى بخرائطه العديدة التى بلغت سبعين خريطة، لكل إقليم من الأقاليم السبعة، عشر خرائط بعدد أقسامه. وأبدع أقسام نزهة المشتاق هى الفصول التى تتعلق بوصف الأندلس وشبه الجزيرة الإسبانية والمغرب، وبحر الأدرياتيك وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط، وهى البلاد التى تجول فيها الإدريسى ودرسها عن كثب. ففى هذه الفصول يكشف الإدريسى عن رسوخ معلوماته ودقة مشاهداته. هذا إلى ما يبديه من معلومات وأوصاف دقيقة عن بلاد أوربا الشمالية مثل ألمانية وبلاد اسكندناوه، وهى معلومات تمثل لأول مرة فى الجغرافية العربية. ويعنى الإدريسى عناية خاصة بذكر المسافات الأمنية، بين مختلف الأقاليم والمدن، كما يعنى بوصف الأحوال الاجتماعية والاقتصادية للشعوب والأجناس التى يتحدث عنها. وفضلا عن ذلك فإن الإدريسى يبدى دقة واضحة فى تعريف المصطلحات والأعلام الجغرافية الأوربية، وهو ما يحملنا على الاعتقاد بأنه كان يعرف اللاتينية، وربما الإيطالية، التى كانت يومئذ لغة البلاط النورانى: والقشتالية التى وقف عليها خلال تجواله فى شبه الجزيرة الإسبانية. وفى القسم المتعلق بشبه الجزيرة الإسبانية يقدم إلينا الإدريسى أغرب قصة استكشافية بحرية قام بها مسلمو الأندلس، هى قصة «الإخوة المغررين» وهم ثمانية إخوة أو أبناء عم من أهل مدينة الحامة الأندلسية، خرجوا من ثغر أشبونة فى مركب كبير مشحون بالزاد والماء يكفى لأشهر، وساروا فى بحر الظلمات (أعنى المحيط الأطلنطى) فى اتجاه الغرب عدة أيام، ثم ساروا جنوباً نحو ثلاثة أسابيع أخرى فى بحر كدر، عالى الأمواج، حتى لاحت لهم جزيرة رأوا بها رجالا عمالقة، ونساء فائقات فى الحسن. فاعتقلهم ملك هذه الجزيرة أياماً حتى جرت الريح الشرقية، ثم وضعهم فى سفينتهم معصوبى الأعين، وسارت بهم السفينة أياماً حتى رست على مكان تبين أنه من شواطئ المغرب الجنوبى. ويبدو من تفاصيل هذه الرحلة أن أولئك المغامرين الأندلسيين، قد اكتشفوا بعض جزر الكنارى، أو جزر الرأس الأخضر الواقعة غربى السنغال. وقد كانت قصة هذه المغامرة البحرية التى ينفرد الإدريسى بروايتها، فيما بعد ضمن الحوافز التى شجّعت البحارة

البرتغاليين، وفى مقدمتهم الأمير هنرى الملاح، على القيام برحلاتهم البحرية العظيمة فى المحيط الأطلنطى، منذ أوائل القرن الخامس عشر.

وتشغل موسوعة الإدريسى الجغرافية «نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق» عدة مجلدات كبيرة.

وقد كتب الإدريسى، غير موسوعته الجغرافية، كتاباً آخر عنوانه «روض الأنس، ونزهة النفس» أو «كتاب المسالك والممالك» كتبه للملك وليم الأول (غليالم) ولد الدوق رجار، وهو الذى خلف أباه فى الملك.

وكان الإدريسى، فوق براعته فى العلوم الجغرافية، أديباً متمكناً وشاعراً محسناً، ومن نظمه قوله:

ليت شعرى أين قبرى ... ضاع فى الغربة عمرى

لم أدع للعين ما تشـ ... ـتاق فى بر وبحر

وخبرت الناس والأرض ... لدى خير وشر

لم أجد ناراً ولا داراً ... كأنى لحى صدرى

فكأنى لم أسر إلا ... بميت أو بقفر

أ. محمد عبدالله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١- تراجم إسلامية للمؤرخ محمد عبدالله عنان ص ٣٠٥-٣١٤ بتصرف.
٢- الأعلام للزركلى جـ٥.
٣- رحلة ابن جبير.
٤- نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق للإدريسى.

الشريف المرتضى
(٣٥٥ - ٤٣٦هـ = ٩٦٦ - ١٠٤٤م)

هو أبو طالب على بن الحسين بن موسى ابن محمد بن إبراهيم الحسينى الموسوى، ولد بمدينة بغداد، فى شهر رجب سنة ٣٥٥هـ = ٩٦٦م، فى أسرة تنتمى إلى آل البيت، تلقى العلم على يد الشيخ المفيد، وكان آنذاك من أشهر علماء الشيعة علمًا فى الكلام والفقه والجدل، وقد أثر هذا الشيخ تأثيرًا كبيرًا فى الشريف المرتضى الذى ظل ملازمًا له طيلة حياته، ثم خلفه فى رئاسة المدرسة الاثنى عشرية بعد وفاته.

انتهت إليه رئاسة المدرسة الإمامية فى عصره، وبرع فى الفقه، واشتهر بعلم الكلام، كما برز فى اللغة والأدب والشعر، يُعَدّ أكبر شخصية شيعية ظهرت فى القرن الخامس الهجرى، أسس مع الشيخ المفيد أصول علم الكلام على الطريقة الاثنى عشرية، وتعتبر آراؤه سجلا كاملا لآراء الشيعة الإمامية، وفى كتبه حُفظت أقوالهم وعقائدهم، ناظر المتكلمين وتأثر بالمعتزلة على وجه الخصوص.

تلقى علم الحديث عن أبى عبدالله الحسين القمى. وتعلم اللغة ومبادئ الأدب مع أخيه الشريف الرضى على أبى عبيدالله المرزبانى.

قضى الشريف المرتضى سنوات عمره فى الدرس والتأليف، وانقطع للدرس يحصّل العلم، وزهد فى منصب نقابة الطالبيين بعد وفاة والده، وآثر بها أخاه الشريف الرضى، وبعد موت أخيه آلت إليه نقابة الطالبيين، وهى منصب دينى رفيع.

وتتلمذ عليه كثير من أعلام الشيعة، على رأسهم الشيخ أبو جعفر الطوسى، وأبو الفتح الكراجكى، وغيرهما، وظل فى التدريس مفضلا مجالسة العلماء عن مخالطة الرؤساء، وترك مكتبة تحوى ثمانين ألف مجلد.

أما عن آرائه واتجاهاته فقد كان المرتضى أعلم الشيعة فى زمنه بالكتاب والسنة، ووجوه التأويل فى الآيات والروايات، وموارد الاستدلال بهما، واعتبر أن أخبار الآحاد من الأدلة الظنية التى لا توجب علما ولا عملا، فلجأ إلى استنباط الأحكام الشرعية من

الكتاب والأخبار المتواترة، وفتح باب التدقيق والتحقيق، واستعمل فى الأدلة النظر الدقيق، وأوضح طريقة الإجماع، واحتج بها فى أكثر المسائل، وكان فى مذهبه أصوليًا بحتا ومجتهدا صرفًا، قليل التعلق بالأخبار، كثير الاستدلال بالأدلة العقلية المتفقة مع الكتاب والسنة.

أما مذهبه فى اللغة فكان يجمع بين علوم متعددة، فيستعين بالأشعار القديمة والأخبار، ويستشهد بالآيات القرآنية والسنة النبوية، وكثيرًا ما كان يتخير غريب اللغة، مما يدل على اطلاع واسع على لغة العرب ودراسة علومها، ومعرفة لسانها، وكان المعاصرون يعتبرونه أعلم بالعربية من الغرب، واشتمل كتابه غرر الفوائد على محاسن فنون النحو واللغة والشعر والتفسير والكلام وغير ذلك.

وبالنسبة لمذهبه فى علم الكلام فقد مثَّل الشريف المرتضى مذهب الشيعة الاثنى عشرية فى مبادئهم وأصولهم، ولكنه كان متأثرًا بطريقة المعتزلة فى إيراد الحجج العقلية وإفحام الخصوم، وعرف عنه قوته فى الجدل، فكان يناظر كل المذاهب ويعرف الفروق بينها، ومواضع الخلاف بين مذهبه والمذاهب الأخرى.

وقد اتبع الشريف المرتضى الأصول الخمسة للمعتزلة، لكنه خالفهم فى قولهم بالإمامة لسبب مذهبه الشيعى، كما كانت له آراء فى النبوة، ومن أهم آرائه:

(أ) التوحيد :

اعتمد الشريف المرتضى طريقة الحدوث كوسيلة للتدليل على وجود الله، وأثبت الصفات لله تعالى بطريقة المعتزلة، ونفى وجود الصفات الزائدة، بل الصفة عنده - عين الذات، والقرآن حادث لأن به أدلة وآيات تثبت حدوثه فى الزمان.

ونفى الشريف المرتضى أن يفعل الله تعالى القبائح، وهو لا يفعلها ليس لأنه لا يقدر عليها، ولكن لحكمته يترفع عن القبائح.

(ب) العدل :

ذهب الشريف المرتضى إلى أن الإنسان مكلف محاسب على أعماله المكلف بها على قدر اختياره لها، وقدرته عليها. ﴿ **لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت** ﴾. (البقرة: ٢٨٦).

وذهب إلى أن الحسن والقبح عقليان، أى يدرك بالعقل، كعلمنا بحسن الصدق النافع، وقبح الكذب الضار، وغيرهما من الأمور البديهية، ومن الأمور البديهية أن عدل الله تعالى يتفق مع كون الإنسان مكلفًا ومجازى على فعله، إما بالثواب أو العقاب.

(جـ) الوعد والوعيد :

رأى الشريف المرتضى أن الوعد والوعيد هو حكم الله تعالى على ما جاء به العبد من أفعال اختارها بإرادته، وفعلها بقدرته، أطاع بها الله تعالى أو خالف بها أمره، فمن خالف فله عقابه ووعيده استحقاقا لما جاء به من معصية، ومن أطاع فله استحقاق الوعد وإيصال الثواب.

وعرض الشريف المرتضى لمسألة الشفاعة، وصرح برأى خالف فيه المعتزلة، فقال: إن من حضر يوم القيامة وكان عاصيا، فإما أن يعفو الله تعالى عنه، أو يشفع النبى ﷺ له، والشفاعة حقيقية، ولا تكون الشفاعة لزيادة درجات المؤمنين - كما صرح المعتزلة -.

(د) الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

أوجب الشريف المرتضى وجودهما، فهما ضروريان، وإذا لم يكن هناك أمر بمعروف ونهى عن المنكر لانتشر الفساد، فالأمر بالمعروف واجب، والنهى عن المنكر واجب.

(هـ) الإمامة :

تعد من أهم عقائد الشيعة، والشريف المرتضى يمثل الاتجاه الاثنى عشرى الذى يرى أن الإمامة واجبة بالنص الجلى، وأن الرسول ﷺ قد أوصى بها إلى الإمام على رضي الله عنه وأن الإمامة توجد بعده فى نسله بحسب السلسلة التى يضعها حتى يصل إلى الإمام الاثنى عشرى، وتتوقف سلسلة الأئمة باختفاء الإمام الأخير.

والمرتضى فى تصوره للإمامة يتفق مع مذهبه ويخالف المعتزلة، حيث يرى أنها تجب حيث يتحقق من وجودها صلاح للبشر، وهى دليل على اللطف الإلهى، ويضع صفات معينة للإمام على رأسها صفة العصمة، فإن لم يكن معصوما لما استفادت منه الأمة، والعصمة هامة، لأن الإمام عنده مُشَرِّع ومفسر للدين، فلابد أن يكون معصوما حتى لا يضل المؤمنين، ومن هنا تساوت عنده وظيفة النبى ووظيفة الإمام، وكل من حارب إمامًا عادلا معصوما كأنه حارب النبى ﷺ ووجب قتله وخلوده فى النار.

وعرض الشريف المرتضى مسألة غيبة الإمام، وبرر هذه الغيبة بأنها خوف من الظالمين وستر لنفسه عنهم، وهى تتم عندما يمنعونه من أداء مهمته، فإذا حالوا بينه وبين أداء مهامه سقط عنه فرض القيام بالإمامة، وإذا خشى على حياته وجبت غيبته، ويستدل الشريف المرتضى على ذلك بأن النبى ﷺ قد غاب واستتر مرة فى الشعب وأخرى فى الغار، وهى محاولة منه لإيجاد سند شرعى لفكرة الغيبة.

(و) النبوة :

يُفرق الشريف المرتضى بين معنى الرسول ومعنى النبى، فالرسول تعنى أن مرسلاً أرسله.. وإطلاقها بالتعارف يقتضى الاختصاص بالله تعالى، أما معنى النبى فهو مأخوذ من الإنباء والإخبار، ويعنى الرفعة وعلو المنزلة.

ويمكن أن يوصف الرسول بأنه نبى، فالرسول هو صاحب الرسالة، وهو الذى ينبئ عن الله تعالى، أما النبى فقد لا يكون صاحب رسالة، وإرسال الرسل واجب على الله تعالى، ويعد من الأمور الحسنة، وهى من ألطاف الله تعالى، وتأتى المعجزة كأحد أدلة صحة النبوة، لأن المعجزة هى فعل لأشياء خارقة على الطبيعة، ومع ذلك يجوّز الشريف المرتضى ظهور المعجزات على يد غير الأنبياء، إذ يرى جواز ظهورها على أيدى الأئمة، ويجوّز ظهورها كذلك على أيدى الصالحين وأفاضل المؤمنين.

ويؤكد الشريف المرتضى على عصمة الأنبياء قبل النبوة أو بعدها، والعصمة للأنبياء عنده عن كل الذنوب كبيرها وصغيرها؛ لأن الذنوب تستحق الذم والعقاب، وهذا لا يصح فى مقام النبوة.

(ز) السمعيات :

ذهب المرتضى إلى ضرورة الإيمان بما جاء فى القرآن من أمور أخروية، مثل عذاب القبر، وفناء العالم، وإعادة الأجساد، والميزان، والصراط، والجنة، والنار، فهى اعتقادات يجب الإيمان بوجوبها.

ويشير فى ضرورة البعث إلى أن كل من مات وله حق لم يستوفه فى الدنيا فلابد من إعادته ليوفى حقه، ومستحق الثواب يجب إعادته على كل حال؛ لأن الثواب لا يجوز تضييعه عليه فى الدنيا، أما مستحق العقاب فغير واجب إعادته، لأن العقاب يحسن عقلا إسقاطه، وإذا أسقط لم يحسن استيفاؤه، فلم يجب إعادته، ولكن الشرع أخبر بإعادته، فيكون المعاقب واجب بعثه فى الآخرة للعقاب بحكم الشرع. كما تبادل الشريف المرتضى مسألة إعادة أطفال المكلفين والمجانين وغير ذلك، ورأى أنها غير واجبة عقلاً، أما كيفية الإعادة، فالذى يجب إعادته الأجزاء التى هى أقل ما يكون معه الحى حيا.

كما تناول مسألة الثواب والعقاب، ورأى أنه لا دلالة فى العقل على دوام الثواب، وكذلك العقاب، وأن المرجع فى دوام الثواب أو العقاب، إلى الإجماع والسمع؛ لأنه لا دلالة فى العقل على دوام ذلك.

وقد أشار الشريف المرتضى إلى أن الثواب لا يزيله شىء بعد ثبوته، أما العقاب فإنما

يزيله العفو من الله تعالى، والعقاب يزول بالندم والتوبة أو بزيادة ثواب الطاعات على عقاب المعصية التى تنجم عن الصغائر.

وقد ألَّف الشريف المرتضى فى شتى العلوم من فقه وأصول وكلام وجدل وتفسير، وأخبار العرب وأشعارهم، وتعد مؤلفاته من أهم الكتب المعبرة عن آراء الشيعة واتجاهاتهم فى الأصول الدينية، واقترب عددها من تسعين مؤلفًا منها:

فى علم الكلام: كتاب الشافى فى الإمامة، وإنقاذ البشر من القضاء والقدر، وتنزيه الأنبياء، ومقالة يحيى بن عدى فيما لا يتناهى، وجواب الملحدة فى قدم العالم، والحدود والحقائق، ودليل الموحدين، ومسألة الإرادة، ومسألة كونه - تعالى - عالما، والوعيد، والذخيرة فى الكلام وفى أصول الدين، وفى أقوال المنجمين.

أما كتبه فى الفقه فله المسائل الناصرية، والانتصار فيما انفردت به الإمامية.

وفى الأصول: الذريعة إلى أصول الشريعة.

أما كتبه فى الأدب، فله كتاب الشهاب فى الشيب والشباب، وطيف الخيال، والمرموق فى أوصاف البروق، ويعتبر كتابه (غرر الفوائد ودرر القلائد) تعبيرًا على سعة علمه ومعرفته بمعارف متعددة، شملت الشعر والتفسير والفقة والأصول.

أ. د. منى أبوزيد

مراجع للاستزادة:

١- أبو زيد (د. منى) الحرية الإنسانية عند الشيعة الاثنى عشرية، منشأة المعارف الإسكندرية، سنة ٢٠٠٠م.

٢- الشاوش (الحبيب) مقالة الشريف الرضى والشريف المرتضى نقيبا الطالبيين، حوليات الجامعة التونسية ع ١٥، سنة ١٩٧٧م.

٣- ابن الجوزى : المنتظم جـ٧، جـ٨ - طبعة. حيدر آباد الدكن الهند.

٤- ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ - القاهرة سنة ١٩٤٧ - ١٩٦٧م.

٥- بروكلمان : مقالة الشريف المرتضى - دائرة المعارف الإسلامية جـ٣ - القاهرة، سنة ١٩٣٣م.

٦- الذهبى (الحافظ) كتاب العبر فى أخبار من غبر جـ٣ - تحقيق فؤاد السيد، الكويت، سنة ١٩٦١م.

الشعرانـــى
(٨٩٧ - ٩٧٣ هـ = ١٤٩٣ - ١٥٦٥م)

هو عـبـد الوهاب بن أحـمـد بن على بن أحمد بن محمد بن زَرْفَا.

وأصله عربى من قبيلة «بنى زغلة». وأسرة الشعرانى عريقة فى أصلها؛ حيث إنها تنتهى إلى الإمام على رضي الله عنه.

وهذه العراقة هى التى كفلت لها الاعتزاز بالدين اعتزازًا جعلها تتجه نحو التصوف، على اعـتـبـار أنه جـوهر الدين ولُبّـه، لأن التصوف كما يقول عنه العارفون: «علم انقدح فى القلوب بعد استنارتها بالعمل بالكتاب والسنة». على أن التصوف فى حقيقته عمل قبل أن يكون علمًا.

وللشيخ عبد الوهاب الشعرانى عدّة ألقاب وكنى:

- فقد لُقّب بـ «الأنصارى» نسبة إلى جده «على نور الدين الأنصارى».

- ولُقّب بـ «الشافعى» نسبة إلى مذهبه الذى درسه وتبحّر فيه وألّف فيه.

- ولُقّب بـ «الشعرانى» نسبة إلى قريته «ساقية أبى شعرة» وهى نسبة على غير قياس.

- وقد كُنّى بـ «أبى المواهب» وهى كنية مثالية.

- كما كُنّى بـ «أبى عبد الرحمن» بالنسبة إلى ابنه الذى بقى من عقبه.

ولد الشعرانى فى «قلقشندة» إحدى قرى محافظة القليوبية بمصر، فى بيت جده لأمه فى السابع والعشرين من رمضان عام ٨٩٧هـ. وقد توفى والداه فى وقت مبكّر بعد ولادته، فنشأ يتيم الأبوين، وكفله أخوه عبد القادر.

وفى حـيـاة والده بدأ يتلقى دروسًـا من العلم، ويحفظ القرآن، وقد أتمّ حفظه فى السابعة من عمره، وربما كان ذلك فى حياة والده. وقد سعى والده فأخذ له إجازة من الحافظ السيوطى بجميع مروياته ومؤلفاته، وهو لما يجاوز العاشرة من عمره[1].

والتحق الشعرانى عام ٩١١ هـ بالأزهر الشريف بالقاهرة، وقد ظهر جدّه فى التحصيل العلمى، كما ظهر نبوغه. وكان من أبرز مشايخه الشيخ «أمين الدين» الذى قرأ عليه العديد من الكتب والشروح، مع أن شيوخه بلغ عددهم خمسين شيخًا.

وكان الشعرانى حريصاً على طلب العلم فى كل أوقات حياته ، فلم يكن يُرى إلا قارئًا أو ناسخًا أو مصغيًا أو سائلاً[٢].

ولما صار مؤلفا كانت كتبه كلها نافعة ، تلك التى بلغت حوالى ٣٠٨ كتابًا، بل إن بعضها قد يقع فى ستة مجلدات، مما يدل على عقليته الفذة، واطّلاعه الغزير.

توفى الإمام الشعرانى بعد مرض جاوز الشهر، بعد عصر يوم الاثنين الثانى عشر من جمادى الأولى سنة (٩٧٣هـ) ثلاث وسبعين وتسعمائة من الهجرة، وحُمل فى اليوم التالى إلى مصلّى الجامع الأزهر فى مشهد حافل جمع معظم الشخصيات الهامة من الأمراء والعلماء والقضاة والأعيان، ودفن بزاويته التى بناها من قبل فى باب الشعرية بالقاهرة. رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه جنة الرضوان.

كان «التصوف» علمًا وسلوكًا هو أساس المشروع الفكرى والحضارى لدى الشعرانى. فقد أخذ بالتصوف مبكرًا فى بدء حياته؛ نظرًا لأن بيئته كانت تسير فى ذلك الاتجاه.

كان كثير العبادة والقيام بالليل، إلى حد أنه كان يفكر فى الانقطاع للعبادة. غير أنه وجد أن العبادة الصحيحة لا تقوم على جهل، ففضل الصبر على مشقة تحصيل العلم والمعرفة ؛ ليجمع بين علمى الشريعة والحقيقة.

ويروى أن الشعرانى خلال طلبه للعلم، قد قطع العلائق الدنيوية ، ومكث سنين فى التهجد بحيث لا ينام إلا الخطفة بعد الخطفة، وهو مضطجع، وأدام الصوم مع الإفطار على أوقية من الخبز[٣].

ولم يفت الشعرانى أن يتخذ له شيوخًا، سواء منهم من تقدم بحيث يعيش على آثاره، مثل: ابن الفارض، وابن عربى، وأحمد البدوى، أو من كان معاصرًا له مثل شيخه زكريا الأنصارى الذى ألبسه الخرقة ، وهى طاقية من قطن. لكن هؤلاء الشيوخ يتميزون بالجمع بين العلم والعمل[٤].

وأهم شىء هنا، أن أسرة الشعرانى وشيوخه كانوا عونًا له على الاجتهاد فى العلم والعبادة؛ مما أوصله إلى الفيوضات الروحية، نتيجة صفاء نفسه بالمجاهدات. وقد لاحظ الناس عليه هذا الصفاء، الذى كان مصحوبًا بالزهد التام.

فقد كان كثير من الناس يقدّمون إليه الأموال والهدايا، فيعرض عنها مرّة، ويقبلها مرات؛ ليبعثرها فى جامع «الغمرى»، فيلتقطها الصبيان والفقراء. وقد أدى هذا الزهد إلى رفعه فى أعين الناس؛ لدرجة أن السلطان سليم حين فتح مصر، ذهب إليه بنفسه كى يزوره، ولم يفعل السلطان ذلك مع أحد غير الشعرانى. لكن كانت هذه المواقف

وأمثالها سبباً فى إثارة غيرة وحسد بعض أبناء الدنيا، فأخذوا يكيدون له[٥].

وكان الشعرانى نصيرًا للشريعة الإسلامية، وظل طوال عمره معتصمًا بها مقيمًا لأركانها فى دقة شديدة . ولم يكن يفضل علم الباطن على علم الظاهر كما ادّعى خصومه من العلماء السطحيين الذين لا يستطيعون أولاً التفرقة بين الجانبين.

بل إن الشعرانى كان يحذّر الناس من دروس الفقه التى يعكف عليها الفقهاء ويشرحونها ويكتبون عليها الحواشى، دون أن يكون لهذا أى أثر فى المعاملات، أو الأخذ بمكارم الأخلاق.

ويفهم من هذا أن الشعرانى كان فى مشروعه الحضارى الروحانى، يركّز على تحصيل مكارم الأخلاق، وتطبيق القول على العمل، سواء كان من خلال الشريعة أم التصوف، مع سعى المرء إلى توثيق العلاقة بينه وبين الله عز وجل[٦].

وكان الشعرانى يؤمن بأن أى إصلاح لا يؤتى أكله، إلا عن طريق القدوة الطيبة والخلق الكامل. وكل هذا يدعونا إلى النظر فى كل ما تركه من آثار علمية وروحية؛ نتيجة جدّ وعمل واجتهاد بالليل والنهار، مع ترفع وسمو روحى واعتزاز بتعاليم الإسلام.

مؤلفاته :

- آداب العبودية.
- أسرار أركان الإسلام.
- البحر المورود.
- تنبيه المغترين.
- الجواهر والدرر.
- الطبقات الكبرى.
- لطائف المنن والأخلاق.
- لواقح الأنوار القدسية.
- الميزان الشعرانية.

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

الهوامش :

١ - دائرة المعارف الإسلامية - مادة «إجازة». القاهرة.
٢ - الشعرانى: لطائف المنن والأخلاق (١ : ٢٥). القاهرة.
٣ - ابن العماد: شذرات الذهب فى أخبار مَن ذهب (٨: ٣٧٢). القاهرة.
٤ - أبو صالح محمد المليجى: المناقب الكبرى ص ٦٢. القاهرة.
٥ - د. عبد الحفيظ فرغلى: عبد الوهاب الشعرانى إمام القرن العاشر ص ٥٢ وما بعدها. نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب بالقاهرة «سلسلة أعلام العرب - ١١٦».
٦ - الشعرانى: الجواهر والدرر - ص ١٨٥. القاهرة.

مراجع للاستزادة :

١ - د. زكى مبارك: التصوف الإسلامى فى الأدب والأخلاق (١:٥٠) القاهرة.
٢ - طه عبد الباقى سرور: التصوف الإسلامى والإمام الشعرانى. القاهرة.
٣ - على مبارك: الخطط التوفيقية.
٤ - نجم الدين الغزى: الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة (٢:١٧٦). القاهرة.

شكيب أرسلان
(١٢٨٦ـ١٣٦٦هـ = ١٨٦٩ - ١٩٤٦م)

حين يلتمس الدارس مفتاحًا صائبًا لشخصية الأمير شكيب أرسلان لن يبعد بعيدا عن إسلاميته الخالصة، فإسلاميته قد خطت فى الحياة طريقا يقنع ذوى الخبرة ممن يحرصون على كرامة الإسلام، وكل عمل قام به الرجل، وكل كلمة خطها بقلمه، إنما يسيران به فى محيط الإسلامية الطاهرة فعن قوسها ينزع وفى فلكها يدور فهو شكيب ابن حمود بن حسن بن يونس أرسلان من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة.

ولد شكيب أرسلان فى الشويفات بلبنان سنة ١٢٨٦هـ = ١٦٨٩م وتعلم بدار الحكمة ببيروت، ووصل إلى مناصب إدارية رغم حداثة سنه، فكان مديرا للشويفات ثم أقام فى الشوف ثلاث سنوات، ورحل إلى مصر فقابل كبار العلماء ونشر فى المؤيد والأهرام، وحظى بمودة الإمام محمد عبده وأهداه ديوان (الباكورة) متوجا باسم الإمام، ثم انتخب نائبا عن حوران فى مجلس المبعوثان العثمانى، وسكن دمشق أثناء الحرب العالمية الأولى، واتهمه أعداؤه بممالأة الأتراك ضد الوطنيين، ولكن ثبت للعيان أنه كان يتخذ من صداقة الأتراك شفيعا لمن يسيئون إليه من العرب، وبعد الحرب الأولى انتقل إلى برلين ثم إلى جنيف بعدها وظل بها خمسة وعشرين عاما ثم عاد إلى بيروت قبل وفاته بأشهر ودفن بها سنة ١٣٦٦هـ = ١٩٤٦م.

قبل انهيار الدولة العثمانية كان من أشد المخلصين لها، لأن الخلافة فى رأيه حصن واق للأمة الإسلامية، وهو يقول: أحب الترك والعرب معا، ولو تخاصما ما تمنيت لأحدهما الانتصار إذ باجتماعهما يلتئم شمل الإسلام. وحين اتجه إلى سويسرا منفيا من الفرنسيين كان قلمه سيفا باترا على المستعمرين، وشمل جهاده جميع الأقطار المسلمة لا سوريا وحدها، وأنشأ مجلة بالفرنسية للدعوة إلى تحرير المسلمين من ربقة الاستعمار، وقام بسياحات فى أوروبا وأمريكا وبلاد العرب منددا بالاستعمار إنجليزيًا وفرنسيًا، وهو فى كل موطن نجده يملأ صفحات الجرائد مقالات سياسية تدعو إلى التحرير، كان

يراسل كل زعماء الإسلام فى أفريقيا وآسيا حتى بلغت رسائله فى عام واحد وهو عام ١٩٣٥م (١٧٨١) رسالة، وبلغت مقالاته (١٧٦) مقالة فى شتى الصحف وعدد صفحات كتبه ١١٠٠صفحة، ويقول بعد ذلك هذا محصول قلمى فى عام واحد.

استمع إلى دروس الإمام محمد عبده بالمسجد الجامع حين كان منفيا بعد الثورة العراقية، وأعجب به إعجابًا شديدًا، دفعه إلى مدحه وإهدائه باكورة شعره، وكان أثر الإمام فيه شبيها بأثر جمال الدين الأفغانى حيث قرأ مقالاته فى العروة الوثقى وافتتن به افتتانًا شديدًا، وعلى هديه سار فى المطالبة بالوحدة الإسلامية، وكان من أعلام الكتاب فى أوائل شبابه فلم يعرف له أستاذ غير هذين، وعلى هديهما سار.

أما تلاميذه فقُرَّاء مقالاته وكتبه فى العالم العربى والإسلامى، حيث لم يكن مدرسًا فى جامعة، ولكن انتسب إلى كل من تأثر بفكره، وفيهم زعماء كبار بلغوا رئاسة الوزراء فى بلادهم، ومن أصدقائه الكبار محمد رشيد رضا، وأحمد شوقى، ومحمد على الطاهر، وهاشم الأتاسى، ومحب الدين الخطيب، ومحمد كرد على، وسليمان البارونى، ومحمد علال الفاسى وغيرهم من كبار المجاهدين.

أما عن جهاده السياسى فعندما وقع الاعتداء على طرابلس الغرب سنة ١٩١١م، وحصدت المدافع الإيطالية أرواح الأبرياء، كان الأمير شكيب أرسلان فى طليعة من دعوا إلى صد هذا العدوان، وقد اتصل بناظر الحربية بالآستانة، ونادى بفتح باب الجهاد مؤازرا الدعوة المصرية التى قام بها عزيز المصرى وعبد الرحمن عزام وعبدالحميد معبد، ثم سافر متخفيا إلى طرابلس ليكون مستشارا للقائد العثمانى هناك، وحين رأى إبطاء تركيا عن ردع العدوان كما ينبغى سافر من طرابلس إلى تركيا، ليشرف على بعثات الهلال الأحمر، ثم اتجه إلى المدينة المنورة، وتقدم باقتراحات للحكومة العثمانية كانت موضع تقدير الليبيين حتى قال الزعيم الطرابلسى سليمان البارونى: لو أخذت تركيا بتفاصيل الخطة التى رسمها الأمير شكيب لما ضاع الأمل فى إنقاذ طرابلس وبرقة، أو لاستطعنا على الأقل إطالة زمن الحرب سنوات عدة فنكسر من شوكة الطليان.

ظل الرجل يجاهد فى حله وارتحاله لا ينى عن العمل على تحرير البلاد الإسلامية، واتخذ له بيتًا خاصا من بحيرة ليمان كان ملجأ كل عربى يزور هذه البلاد، وفيه أظهر مواقفه فى الدفاع عن الوحدة العربية حين بدأت بشائر الجامعة العربية تلوح فى

الصحف إذ شن الشعوبيون حربا على الجامعة زاعمين أنها ستهدر حقوق غير المسلمين، لأن البلاد العربية ذات طابع إسلامى، فأخذ الأمير يكتب عن سماحة الإسلام فى تاريخه القديم والحديث، ويستشهد بالآيات القرآنية مثل قول الله عز وجل ﴿ **ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾[المائدة: ٨] وساعده اطلاعه على التاريخ الإسلامى فى الاستشهاد بمواقف الخلفاء الراشدين ومن تلاهم فى عهود الخلافة الزاهرة، وقد ترجمت مقالات الأمير إلى الفرنسية والإنجليزية والألمانية فصادفت اهتماما كبيرا، وحين اختلط الأمر فى عصبة الأمم بما زيّفه المندوب الفرنسى من أباطيل تؤيد حق فرنسا فى الاحتلال، قدم الأمير إلى عصبة الأمم من الوثائق والمذكرات ما يقرب من عشرين مجلدا، وقد صور نسخة منها وأهداها إلى وزارة الخارجية السورية، فأودعتها مكتبتها الخاصة، ويستطيع من يقرأ هذه المجلدات أن يقف على المعاناة الصعبة التى كابدها الأمير، ومن جيبه الخاص كانت تكاليف المذكرات.

أما شعر الأمير فكان أكثره صرخات تمثل النضال العربى ضد الاستعمار، وديوانه سجل لهذه الأشعار، ومنها على سبيل المثال ما ذكره فى العدوان الطليانى على طرابلس

سلا هل لديهم من حديث لقادم
من الغرب يروى منه غلة هائم

وهل نظروا من نحو برقة موهنا
فلاح لهم منها بريق الصوارم

مواطن إخوان تملوا من الردى
كؤوسا تساقوها بملء الحلاقم

تهيهم فيها العدو مهاجما
فجاء دبيب اللصّ فى ليل قاتم

ولين فى إقدامه من إهابه
وهل يخدع الإسلام لين الأراقم

وما طال نوم السيف إلا تنبهت
عيون الدواهى منه عن جفن ناعم

أما مؤلفاته فكثيرة منها:

- الحلل السندسية فى الرحلة الأندلسية طبع فى ثلاثة مجلدات ولا تزال بقية المجلدات مخطوطة.

- غزوات العرب فى فرنسا وشمال إيطاليا وسويسرا.

- لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم.

- الارتسامات اللطاف فى خاطر الحاج إلى أسمى مكان (رحلة الحجاز).

- شوقى، أو صداقة أربعين سنة.

- محمد السيد رشيد رضا، أو إخاء أربعين سنة.

- أناتول فرانس فى مبادئه.

- حاضر العالم الإسلامى فى أربعة أجزاء تعليق على ترجمة كتاب للوثروب ستودارد الباحث الأمريكى، وقد كانت حواشى الأمير أشبه بدائرة معارف عامة للعالم الإسلامى فى جميع أقطاره.

- ملحق الجزء الأول من تاريخ ابن خلدون وهو ذو تعليقات وافية.

- الشعر الجاهلى أمنحول أم صادق النسبة، رسالة نقدية تصدرت كتاب الأستاذ محمد أحمد الغمراوى فى نقد كتاب الأدب الجاهلى لطه حسين.

- ترجمة رواية لشاتوبريان، ومعها خلاصة وافية لتاريخ العرب فى الأندلس بدءًا ونهاية.

تحقيق كتاب محاسن المساعى فى ترجمة الأوزاعى، والتعليقات على المتن كثيرة جدا.

وله من الشعر

- ديوان الباكورة (شعر).

- ديوان الأمير شكيب طبع سنة ١٩٣٤م بدار المنار.

أ. د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - شكيب أرسلان داعية العروبة والإسلام للدكتور أحمد الشرباصى.
٢ - ذكرى الأمير شكيب أرسلان لمحمد على الطاهر.
٣ - شكيب أرسلان للدكتور سامى الدهان.
٤ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين للدكتور محمد رجب البيومى جـ ٢.
٥ - الأعلام للزركلى جـ٣/ ١٧٣.

شهاب الدين ابن الهائم
(٧٩٨ ـ ٨٨٧ هـ = ١٣٩٦ ـ ١٤٨٢م)

هو أحمد بن محمد بن عماد بن على بن شهاب الدين، أبو العباس، القرافى، المصرى، ثم المقدسى، الشافعى، المعروف بابن الهائم.

ولد سنة ٧٩٨هـ = ١٣٩٦م وقيل سنة ٧٥٦هـ، وذلك فى أحد أحياء القاهرة المسمى القرافة الصغرى.

وفى القاهرة تلقى تعليمه، فحفظ القرآن الكريم ودرس العلوم العربية والإسلامية. وانتظم من غير شك فى حلقات الدروس التى كانت تعقد وتقام فى الأزهر الشريف، وقضى بها مراحل عمره الأولى التى تلقى فيها تعليمه، وتكون علمًّيا فى العلوم العربية والإسلامية، وتفوق فى علم المورايث والحساب تفوقا كبيرا.

ويذكر مؤرخو حياته: أن ممن تلقى عنهم العلم، ودرّسوا له، طائفة ممن ذاع صيتهم وانتشرت أسماؤهم لبلوغهم درجةً من العلم عالية، وذلك مثل التقى بن حاتم، والجمال الأُميوطى، والزَّين العراقى، وشيخ الإسلام سراج الدين البُلقِينىّ، وقد صرح بذلك وهو يشرح غريب الآية ٢٢٨ من سورة البقرة فى كتاب التبيان فى تفسير غريب القرآن.

ثم ارتحل إلى القدس، واشتغل بالتدريس والإفتاء، وتولى التدريس بالمدرسة الصلاحية، نيابةً عن الزَّين القمنى.

فى سنة ٨١٥ هـ أحل نوروزُ (نائب الشام) شمس الدين الهروى الحنفى مذهبا مكان القمنى، وبالتالى الهروى مكان ابن الهائم، ثم أعاد نوروزُ ابن الهائم إلى الصلاحية ليشارك الهروى. وظل بها حتى توفى. وكانت عودة ابن الهائم إثر ضجة مطالبة برجوعه، وذلك فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وثمانمائة هجرية.

اقتضى قيام ابن الهائم بالتدريس فى المدرسة الصلاحية بالقدس وغيرها، وعقد الجلسات التى كان يخصصها للوعظ والفتوى أن يكون له تلاميذ كثيرون، نذكر منهم:

١- ابنه محب الدين محمد، الذى اختطفته المنية فى حياته فى شهر رمضان عام ٨٠٠ هـ هجرية، وقيل سنة ٧٩٨ هـ،

وحزن عليه والده حزنًا أليمًا، وقد وصفه صاحب «إنباء الغمر» فقال: «وهو أذكى من رأيت من البشر مع الدين والتواضع ولطف الذات وحسن الخلق والصيانة». وذكره أبوه فى كتاب التبيان ونقل عنه وهو يفسر الآيتين ۹۷، ۱۲٤ من سورة البقرة.

٢- ابن حجر، علامة عصره المتوفى سنة ٨٥٢هـ، وقد لقيه فى القدس وأخذ عنه. ونص على ذلك فى إنباء الغمر.

٣- العماد بن شرف، وكتب له إجازة.

٤- الزين ماهر.

٥- التقى القلقشندى وهو إسماعيل بن على بن حسن القلقشندى المصرى، ولد بمصر سنة اثنين وسبعمائة وبها تلقى تعليمه ثم بدمشق واستقر بعد ذلك بالقدس ودرّس بالمدرسة الصلاحية. كان عالما بالفقه والحديث وتوفى بالقدس سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وقيل: سنة سبع وسبعين.

ترك لنا ابن الهائم عشرات المصنفات التى دبجها قلمه، منها ما أنجزه فى حياته، ومنها ما لم يقدر الله له أن يكملها، وهى كالتالى:

أولا: فمن المؤلفات التى أكملها:

١- التبيان فى تفسير غريب القرآن.

٢- التحرير لدلالة نجاسة الخنزير.

٣ - ٥ - تحفة الطلاب فى نظم قواعد الإعراب لابن هشام (أرجوزة). وقد قام المؤلف بشرح نظمه مرتين: أحد الشرحين مطول والآخر مختصر.

٦- التحفة القدسية فى أخبار الرجبية (نظم فى الفرائض). واسمه فى الضوء اللامع، وطبقات المفسرين «النفحة القدسية»، وممن شرحها زكريا الأنصارى، وكذلك سبط المارديني وإبراهيم بن محمد المرى.

٧- تحقيق المعقول والمنقول فى نفى الحكم الشرعى عن الأفعال قبل بعثة الرسول.

٨- ترغيب الرائض فى علم الفرائض، وذكر أنه علق عليه سبط الماردينى، وزكريا الأنصارى.

٩- الجمل الوجيزة فى الفرائض.

١٠- الحاوى فى الحساب، ذكر أن أحمد ابن صدقة الصديقى نظمه، وفى طبقات المفسرين فى ترجمة أحمد بن صدقة، أنه شرحه «الطبقات ١/٤٥». وذكر إيضاح المكنون «١/٣٩٠» شرحا له قام به زين الدين عبد القادر بن على بن شعبان.

١١- خلاصة الخلاصة فى النحو.

١٢- ديوان شعر.

١٣- رفع الملام عن القائل باستحباب القيام وهو فى: طبقات المفسرين «دفع الملام..».

١٤- شرح الأربعين (ذكره المؤلف فى التبيان عند شرح قوله تعالى ﴿ **شعوبا وقبائل** ﴾ من الآية ١٣ من سورة الحجرات).

١٥- شرح قطعة من المنهاج.

١٦- شرح الياسمينة فى الجبر والمقابلة.

١٧- صيام ستة أيام من شوال.

١٨، ١٩- الضوابط الحسان فيما يتقوم بها اللسان، ويعرف بالسماط، وقد شرحها شرحا حسنا.

٢٠- غاية السول فى الإقرار بالدين المجهول، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، كتبت سنة ٨٥٨ هـ تقع فى ٦٢ ورقة.

٢١- الفصول المهمة فى علم ميراث الأمة.

٢٢- كفاية الحفاظ «ألفية فى الفرائض».

وعليه عدة شروح أحدها للمؤلف، وثانٍ لسبط المارديني، وثالث لزكريا الأنصارى، وغيرها.

٢٣- اللمع فى الحث على اجتناب البدع.

٢٤- اللمع فى الحساب.

٢٥- اللمع المرشدة فى صناعة الغبار.

٢٦- مختصر تلخيص ابن البناء والمسمى بالحاوى.

٢٧- مختصر كتاب اللمع لأبى إسحاق، فى الأصول.

٢٨- مرشدة الطالب إلى أسنى المطالب ويذكر له بروكلمان عدة شروح ومختصرات لطائفة من العلماء.

٢٩ - ٣١ - المعونة فى الحساب الهوائى.

وقد اختصره المؤلف مرتين:

الأولى باسم الوسيلة.

والأخرى باسم: المبدع.

٣٢- المغرب من استحباب ركعتين قبل المغرب.

٣٣ - ٣٥ - المقنع فى الجبر والمقابلة (قصيدة لامية من بحر الطويل)، وقد قام بشرحه باسم: الممتع.

وشرح آخر وهو: اختصار الممتع باسم: المشرع، وهو عند محقق «نزهة النفوس» الدكتور الطريقى ص١٣ «المسرع»، وهو المناسب لكونه شرحا مختصرا. ويذكر المحقق أن من الكتاب مصورتين فى جامعة الملك سعود، وممن قام بشرحه كذلك سبط المارديني، وذكريا الأنصارى.

٣٦- منظومة لامية فى الجبر «من بحر البسيط».

٣٧- نزهة النظار فى صناعة الغبار.

٣٨- نزهة النفوس فى بيان حكم التعامل بالفلوس.

ومنه أربع نسخ خطية بدار الكتب المصرية. وقام بتحقيقه الدكتور عبد الله بن محمد الطريقى.

ثانياً: ومن الكتب التى لم يكملها:

١- إبراز الخفايا فى فن الوصايا.

٢- البحر العجاج فى شرح المنهاج (منهاج الطالبين للنووى).

٣- تعاليق على مواضع من الحاوى. وذكر أنه قطعة وصل تفسيره إلى قوله تعالى ﴿ **فأزلهما الشيطان عنها** ﴾ الآية ٣٦ من سورة البقرة).

٤- شرح الجعبرية فى الفرائض.

٥- شرح الكفاية.

٦- العجالة فى حكم استحقاق الفقهاء أيام البطالة.

٧- العقد النضيد فى تحقيق كلمة التوحيد.

هذا وقد وردت أسماء بعض هذه الكتب غير متطابقة فى المراجع التى ذكرتها، وهى اختلافات طفيفة وسبق أن أشرت، إلى بعضها.

ومن عرضنا هذا لمؤلفاته نرى أنه كان عالما متعدد الجوانب، له مشاركة فى كثير من العلوم العربية والإسلامية، فهو فقيه ونحوى ورياضى. كان علاّمة فى الرياضيات ومبرزا فيها. ونلحظه مع بعض مصنفاته يؤلفها ثم يختصرها وقد يشرحها، بل وقد يشرح المصنَّف أكثر من مرة، يسهب فى إحداها ويوجز فى أخرى؛ ومرد ذلك اشتغاله بالتدريس فكان يوجز أو يطنب وفق نوعية التلاميذ ومستواهم العلمى.

ومجمل القول: إن ابن الهائم نذر حياته لخدمة دينه، تارة بالموعظة الحسنة يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وتارة بالتدريس، وتكوين جيل جديد من العلماء؛ يواصلون السير فى خدمة دينهم، ويتابعون نهج أسلافهم فى إعلاء شأنه، وكذلك بتصنيف المؤلفات العديدة، وهى تندرج تحت علوم أربعة: الفقه والتفسير والنحو والرياضيات بالمعنى المتعارف عليه اليوم. وقد كان فى الرياضيات بمكان عال، ذا قدم راسخة، وباعٍ طويل، فى وقت ندر فيه من كانوا يولونه أدنى اهتمام.

أ. د. ضاحى عبد الباقى

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى، جـ ٢٢١/١.

٢- الضوء اللامع للسخاوى، جـ ١٥٠/٢.

٣- نظم العقيان للفتح بن خاقان، ص ٧٧.

٤- البدر الطالع للشوكانى، جـ ١.

٥- طبقات المفسرين.

الشهرستانى
(٤٧٩ - ٥٤٨هـ = ١٠٨٦ - ١١٥٣م)

هو أبو الفتح : محمد بن أبى القاسم عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستانى

ولد فى «شهرستان» التى ينسب إليها - وهى من مدن فارس - بين نيسابور وخوارزم - ونشأ بها، وتعلم ونبغ فيها.. ثم انتقل إلى بغداد سنة ٥١٠هـ، فأقام بها ثلاث سنوات، عاد بعدها ليستقر فى شهرستان بقية حياته..

ولقد نبغ الشهرستانى فى الفلسفة، حتى عُدَّ من فلاسفة المسلمين.. وفى علم الكلام، حتى عد من أئمة هذا العلم.. وكان فيه واحدًا من متكلمى الأشاعرة، الذين يمثلون وسطية الأمة وجمهورها فى مذاهب الكلام.. وكذلك اشتهر بالفقه، على مذهب الشافعى، فكان واحدا من الفقهاء المبرزين.

ولأن الإسلام - ومن ثم فكره وحضارته - قد جعل من «التعددية» فى الشرائع سنة من سنن الله فى الاجتماع الدينى، الأمر الذى تجسد فى تعددية الملل والنحل فى الدولة الإسلامية، تميزت الحياه الفكرية الإسلامية بفن التأليف فى الملل والمذاهب والنحل.. وكان الشهرستانى أبرز علماء الإسلام الذين ألفوا فى هذا الفن ببلاد الشرق الإسلامى - على نحو ما كان ابن حزم الأندلسى (٣٨٤ - ٤٥٦هـ = ٩٩٤ - ١٠٦٤م) أبرز المؤلفين فيه ببلاد الغرب الإسلامى» ويعد كتاب الشهرستانى (الملل والنحل) من أهم وأدق وأوفى المصادر الفكرية فى هذا الميدان.. كما يعد كتابه (نهاية الإقدام فى علم الكلام) تجسيدا دقيقا لمعنى عنوانه! يشهد على علو كعبه بين المتكلمين المسلمين.

على الرغم من إمامة الشهرستانى فى الفلسفة وعلم الكلام، إلا أنه ككثير من علماء الإسلام، كان يوظف الفلسفة فى دعم اليقين الإيمانى.. فالمطلب والمقصد كان اليقين الذى رأوا نموذجه فى «إيمان العجائز» أو نبين حسب تعبير الغزالى (٤٥٠ - ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ - ١١١١م)، وعن هذه الحقيقة عَبَّر الشهرستانى فى مقدمته لكتابه (نهاية الإقدام فى علم الكلام) - بعد أن تمثل ببيتين

من الشعر لابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨هـ = ٩٨٠ - ١٠٣٧م) يقول فيهما:

لقد طفت فى تلك المعاهد كلها

وسيَّرت طرفى بين تلك المعالم

فلم أر إلا واضعا كف حائر

على ذقن أو قارعًا سِنَّ نادم!

بعد أن ذكر الشهرستانى بيتى ابن سينا، المعبدين عن حيرة الذين طلبوا اليقين فى الفلسفة، بدلا من توظيف الفلسفة لدعم اليقين بالإيمان الدينى .. قال: «.. فعليكم بدين العجائز، فهو من أسنى الجوائز، وإذا كان لا طريق إلى المطلوب من المعرفة إلا الاستشهاد بالأفعال، ولا شهادة للفعل إلا حيث احتياج الفطرة. واضطرار الخلقة، فحيثما كان العجز أشد كان اليقين أوفر وآكد..»؟!..

إنها منزلة «معرفة الإنسان» من «علم الديَّان»! والموقف الموضوعى المتواضع لأئمة فلاسفة الإسلام؟!

وتشهد العناوين الأخرى لمؤلفات الشهرستانى على رسوخ قدمه كفيلسوف... بل وعلى موسوعيته التى أحاطت بكثير من علوم عصره وفنون زمانه.. فمن هذه المؤلفات (الإرشاد إلى عقائد العباد) و(تلخيص الأقسام إلى مذاهب الأنام) و (مصارعات الفلاسفة) و(تاريخ الحكماء) و(المبدأ والمعاد) و(تفسير سورة يوسف) بأسلوب فلسفى - و(المناهج) و(البينات) و(كتاب المضارعة).

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١ - مفتاح السعادة ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده. طبعة القاهرة ١٩٦٨م.

٢ - نهاية الإقدام فى علم الكلام للشهرستانى. تحقيق: الفريد جيوم.

٣ - الأعلام لخير الدين الزركلى ج٦/ ٢١٥. طبعة بيروت.

الشـــوكـانى
(١١٧٣ - ١٢٥٠هـ = ١٧٦٠ ـ ١٨٣٤م)

مفسر ومحدث وفقيه أصولى، مؤرخ وأديب، أحد الأئمة الأعلام المبرزين فى القرن الثالث عشر الميلادى. عاصر فترة كانت البلاد الإسلامية تعانى فيها من التفكك والضعف. وكانت الصراعات المذهبية والطائفية تسود المجتمعات الإسلامية.

بذل حياته كلها لخدمة العلم، وتصدى للإفتاء وبزغ فيه، وكان واحدًا من علماء الزيدية.

هو القاضى الحافظ محمد بن على بن محمد بن عبدالله الشوكانى، نسبة إلى (هجرة الشوكانى) باليمن، ولد فى الثامن والعشرين من شهر ذى القعدة سنة ١١٧٣هـ وكان والده قاضيا عالما. حفظ القرآن فى صغره.

تولى القضاء سنة ١٢٩٠م وأراد أن يطبق اجتهاداته الفقهية، ولكنه وجد معارضة شديدة من متفقهى عصره. اشتغل فترة من حياته بالقضاء والوزارة، وحظى بمكانة عالية وتقدير من الحكام، وتوفى سنة ١٢٥٠م.

تفقه الشوكانى على مذهب الزيدية، إلا أنه لم يلبث أن تخلى عن التقليد، وأصبح لايتقيد بفرقة من الفرق، ولا مذهب من المذاهب، بل اعتمد اعتمادا مباشرا على الكتاب والسنة، وأصبح من المجتهدين فى البحث عن الحكم الشرعى من خلال الأدلة.

وقد وصل إلى مرتبة الاجتهاد وهو دون الثلاثين من عمره، وكانت دعوته إلى الاجتهاد ونبذ التقليد سببا فى تعرضه إلى اتهامات الخصوم، غير أنه نشد إقامة منهجه فى الفقه الداعى إلى الاجتهاد.

وقد حدد الشوكانى الأسباب التى تدفع الناس إلى ترك الاجتهاد والاكتفاء بالتقليد، وذكر أنها تعود إلى عدة أسباب:

السبب الأول: الجبن من المجاهرة بالحق.

السبب الثانى: مشايعة أهل العلم لأهل السلطان، وهؤلاء يخشون السلطان أكثر من خشيتهم لله.

السبب الثالث: التعصب لرأى مما يجعل البعض يتمسك بالباطل.

السبب الرابع: التعصب للقرابة.

السبب الخامس: الاكتفاء بالكتب القديمة واقتصار المقلد على مسائل مذهبه على الرغم من أنه لا يوجد مذهب من المذاهب يصرح صاحبه بجواز التقليد.

يشير الشوكانى إلى أن التصوف كان فى أول الأمـــر يطلق على من بلغ فى الزهد والعبــادة أعلى المراتب، ومشى على هدى الشريعة المطهرة أو أعرض عن الدنيا، وصد عن زينتها. ثم جعل البعض هذا الأمر طريقا إلى الدنيا، واتخذوها وسيلة إلى التلاعب بأحكام الشرع، ثم جعلوا لهم شيخا يعلمهم كيفية السلوك.

درس الإمام الشوكانى علم الكلام، ووافق أهل السنة فى جميع أركان الإيمان الستة، وهى: **الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقضاء والقدر**، ولم يخالفهم إلا فى مسائل قليلة.

ويضع الشوكانى منهجا معينا فى علم العقيدة، ينادى فيه بفائدة هذا العلم، وأنه يزيد المشتغل به بصيرة فى علوم أخرى، كعلم التفسير، وتفسير الأحاديث، وينصح طالب هذا العلم أن يتفقه فى علم أصول الفقه قبل اشتغاله بعلم العقيدة، وعلم الكلام.

ويوجب الشوكانى على طالب هذا العلم أن يلم بمؤلفات الفرق المختلفة فيه، وأن يقرأ هذه المؤلفات باعتدال وتساوٍ، وألا تقتصر معرفته على مذهب دون آخر، حتى لا يصاب بالتعصب.

وينقد الشوكانى أصحاب أى مذهب يرد فى مذاهبهم ما يخالف الشريعة. وينقدهم أيضا فى طريقتهم لنقد خصومهم، إذ إنهم يأتون بحجج ضعيفة عن الخصوم حتى يسهل عليهم نقدهم.

كذلك ينتقد الشوكانى طائفة من المتكلمين لعدم الوقوف عند بعض المسائل التى يجب السكوت عنها، والإفراط فى الحديث عن موضوعات الذات الإلهية والصفات أو الجنة والنار، أو المعاد، وهى مسائل - تعد فى نظره - مما يجب الوقوف عندها نادى به الرسل.. وهى مسائل لا طريق للعقل فيها.

ويشير الشوكانى إلى أنه لم يعمل بهذا العلم إلا بعد رسوخ معرفته لأدلة الكتاب والسنة. واتبع فى أفكاره مذهب الصحابة والتابعين، وتابعى التابعين، فى إيراد الصفات على ظاهرها، دون تحـــريف ولا تأويل، ولا تعطيل ولاتشبيه. وهذا تطبيق لبعض قواعد منهجة على العقائد.

يؤكد الإمام الشوكانى إلى أن الاعتقاد بوجود الله أمر فطرى، لا يحتاج إلى دليل، وأن الدليل يكون عند فساد العقيدة وتغيرها. ولذلك وجد أن عصره يحتاج إلى هذا الاستدلال لكى تقوم الحجة على الملحدين. ويردهم إلى الفطرة السليمة.

أما تصوره للصفات، فهو قائم على توحيد الأسماء والصفات، وهذا المنهج يُبنى عنده على أسس ثلاثة، من أتى بها كلها فقد وافق الصواب، ومن أخذ بواحدة فقط من تلك الأسس فقد ضل. والأسس الثلاثة هى:

الأول: تنزيه الله عز وجل عن مشابهة الخلق.

الثانى: الإيمان بالأسماء والصفات الواردة فى الكتاب والسنة.

الثالث: قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات، لأن الإدراك هنا مستحيل.

وقد حدد الشوكانى الصفات الإلهية فى صفات: العلم، القدرة، الإرادة، الحياة، السمع، البصر، الكلام، العلو، الوجه، العين، اليد، الساق، الاستواء، المجىء، الإتيان، النزول، المعية (معية الله لخلقه)، المحبة، والغضب. وهو أحيانا يؤول هذه الصفات وأحيانا أخرى يأتى ببعضها على ظاهرها دون تحريف ولا تعطيل ولا تمثيل.

يذهب الشوكانى إلى أن الله سبحانه وتعالى فاعل مختار، يتصرف فى ملكه كيفما شاء بمقتضى مشيئته وحكمته. وهو المالك للعبد، وأن جميع أفعال العبد خيرها وشرها مخلوقة لله عز وجل؛ لأن الله خالق كل شىء من الأشياء الموجودة فى الدنيا والآخرة.

رأى الشوكانى ضرورة الإيمان بالأنبياء، حيث أن وجودهم ضرورى لصلاح حياة البشر، والنبوة هى الواسطة فى وصول الكمالات العلمية والعملية من الله تعالى إلى عباده. والأنبياء ليسوا على مرتبة واحدة، بل يعتبر الشوكانى، أن الله قد فضل الأنبياء بعضهم على بعض فى مزايا الكمال، كما تناول موضوع العصمة، ورأى أنها ثابتة للأنبياء دون غيرهم، وهى من الصفات التى أكرمهم الله بها، وميزهم على سائر البشر.

تزيد مؤلفاته على مائتين وسبعين كتابا وبحثا ورسالة، معظمها لم يزل مخطوطاً وتضم علوم الفقه والحديث والتفسير والتاريخ، من هذه المؤلفات: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، أدب الطلب ومنتهى الأرب، وكل هذه المؤلفات مطبوعة وتزال هناك أخرى مخطوطة.

أ. د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١- سعيد إبراهيم سيدأحمد: الإمام الشوكانى وآراؤه الاعتقادية بين السلف والزيدية - رسالة ماجستير - كلية الشريعة جامعة أم القرى، سنة ١٤٠٦هـ.

٢- إبراهيم توفيق أبو بكر الديب: الشوكانى المفسر، رسالة دكتوراه - كلية أصول الدين - جامعة الأزهر، سنة ١٩٧٧م.

٣- عبد الغنى قاسم غالب الشرحى: الإمام الشوكانى، حياته وفكره، رسالة دكتوراه - جامعة صنعاء كلية التربية، سنة ١٤٠٨هـ- وطبعت بمؤسسة الرسالة، بيروت.

٤- د. أحمد محمود صبحى: الزيدية، منشأ المعارف، الإسكندرية، سنة ١٩٨٠م.

٥- عبد الله تومسوك: منهج الإمام الشوكانى فى العقيدة، دار القلم، والكتاب جزءان، السعودية ط ٢ سنة ١٩٩٤م.

الشيبانى
(١٣١- ١٨٩ هـ = ٧٤٨ - ٨٠٤م)

هو محمد بن الحسن فرقد الشيبانى، الفقيه، الأصولى. ويكنى بأبى عبد الله، ولد بواسط، بالعراق سنة ١٣١هـ، ونشأ بالكوفة، فحفظ القرآن الكريم، وكان يجيد تلاوته حتى قال بعض من سمعه: كأن القرآن نزل بلغته، ثم سمع الحديث على أئمته، ولقى جماعة من الأعلام، وحضر دروس الإمام أبى حنيفة، ولم يلبث أن مات الإمام، فلازم أبا يوسف، وتفقه عليه، وسمع من مالك، والشافعى، وعمر بن ذر، والأوزاعى، والثورى.

اشتهر بالتبحر فى الفقه والأصول.

ويقول السيوطى فى «بغية الوعاة»: أنه كان إمامًا فى اللغة العربية أيضا.

ويقول العراقيون: إن محمداً نبغ نبوغا عظيما فى الفقه، وكان مرجع أهل الرأى فى العراق، وعنه أخذ كثير من فقهائه؛ وقد لقيه الشافعى، وكانت بينهما مجالس ومسائل، رواها الشافعى بنفسه وأثنى عليها، فقال: «مارأيت أحدًا يسأل عن مسألة فيها نظر إلا تبينت الكراهة فى وجهه إلا محمد بن الحسن»، وقال فيه أيضا: «لقد حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير».

تولى محمد بن الحسن الشيبانى قضاء الرقة من قبل الخليفة هارون الرشيد، ثم أعفاه منه، فقدم بغداد ولازم الرشيد، وكان معه أينما ذهب، فلما خرج الرشيد إلى الرى بخراسان اصطحب محمدا، وقد مات رحمه الله فى هذه الرحلة سنة ١٨٩هـ بقرية من قرى الرى.

وفى فهرست ابن النديم: إن له من الكتب فى الأصول: كتاب الصلاة، وكتاب الزكاة، وكتاب المناسك، وكتاب نوادر الصلاة وكتاب المخارج فى الحيل فى الفقه وكتاب الحجة على أهل المدينة ثم كتاب الأمالى.

قال ابن خلكان: صنف محمد بن الحسن الشيباني الكتب الكثيرة النادرة منها: الجامع الكبير، والجامع الصغير وغيرهما.

ويقول الزركلي في «الأعلام»: إن له كتبا كثيرة في الفقه والأصول منها: المبسوط في فروع الفقه، والزيادات، والآثار، والسير، والموطأ.

أ.د. علي جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١- الأعلام للزركلي حـ٦/ ٠٨٠.
٢- الفهرست لابن النديم ص٢٨٧.
٣- وفيات الأعيان لابن خلكان حـ١/ ٥٧٤.
٤- القاموس المحيط للفيروزبادي.
٥- البداية والنهاية ج ١٠/ ٢٠٢.
٦- بلوغ الأماني في سيرة محمد بن الحسن الشيباني لمحمد زاهد الكوثري.

الشيخ المفيد
(٣٣٦-٤١٣هـ = ٩٤٧ـ ١٠٢٢م)

شيخ مشايخ طائفة الشيعة الإثنى عشرية، وهو المؤسس الحقيقى لمدرسة علم الكلام عندهم؛ إذ لم يكن لهم قبله مدرسة بهذا المعنى، وهو يمثل الاتجاه العقلى فى مقابل الاتجاه المحافظ.

هو محمد بن محمد بن النعمان، أبوعبدالله المعروف بابن المعلم، ولد الشيخ المفيد فى الحادى عشر من ذى القعدة سنة ٣٣٦هـ = ٩٤٧م فى مدينة (عكبرا) على الضفة الشرقية لنهر دجلة بين بغداد والموصل، درس علوم عصره على أبى عبدالله البصرى، ثم أبى ياسر، التقى مع أحد شيوخ المعتزلة وهو عيسى الرمانى وحضر مجلسه وأثيرت فى هذه الجلسة مسألة عن حديث الغدير وحديث الغار، الأول خاص بالإمام على والثانى خاص بأبى بكر الصديق، فكانت إجابة الرمانى: أما خبر الغار فدراية وأما خبر الغدير فرواية، والرواية لا توجب الدراية. فسأله المفيد حول رأيه فيمن قاتل الإمام العادل، ويقصد الإمام على، فأجاب الرمانى بقوله: يكون مرتكبًا للكبيرة، عندها سأله المفيد: ماتقول فى على بن أبى طالب؟ هل كان على الحق؟ فأجاب الرمانى: نعم. فسأله المفيد: فما تقول فى موقعة الجمل وطلحة، والزبير؟ فقال الرمانى: تابا. فقال المفيد: أما خبر الجمل فدراية، وأما خبر التوبة فرواية، فأطلق عليه الرمانى لقب المفيد لعقله وقوة حجته.

وكان الشيخ المفيد دائم التردد على مجالس المعتزلة، يستمع إليهم، فجمع إلى جانب مذهبه الشيعى مؤثرات اعتزالية. وكان يعقد مجالس علم بمنزله أو بمسجده، ومن أشهر من تتلمذ على يديه الشريف المرتضى، وأخيه الشريف الرضى. وكانت بينه وبين معاصريه من الأشاعرة والمعتزلة مناظرات، يقال إنه قد ناظر الباقلانى الأشعرى وناظر عبدالجبار المعتزلى، وبعد اشتداد الصراع بين أهل السنة والشيعة فى بغداد رحل عنها، وعاش الفترة الأخيرة من حياته فى اضطراب حتى توفى فى رمضان من سنة ثلاث عشرة وأربعمائة.

آراؤه واتجاهاته الفكرية:

مذهبه العقلى:

يمثل الشيخ المفيد التيار العقلى والنزعة التجديدية، ويأتى على رأس تيار شيعى جديد بعد أن كان الشيعة قبله يقفون عند حرفية النصوص القرآنية والأحاديث النبوية دون نقد، أو دون تأويل، فقد تجاوز هذا التيار المحافظ، ووضع أسس مذهب جديد يعتمد على نقد الأدلة، ويعتمد منطق الفكر والتعقل ونقد المؤلفات السابقة عليه، والتى كانت تمثل الاتجاه المحافظ، فنقد كتاب (عقائد الصدوق) للشيخ الصدوق ابن بابويه، أثناء شرحه له فى كتاب (شرح عقائد الصدوق) وأخذ على ابن بابويه الوقوف عند الأخبار المروية المتناقضة، وإيرادها دون نقد أو تمحيص.

كما نقد الشيخ المفيد أستاذه الصدوق ابن بابويه لاعتماده على أحاديث شواذ فى باب القضاء والقدر، وباب الإرادة والمشيئة، وباب النفوس والأرواح، وفسر ما أجمع عليه الشيعة قبله من أن المحتضر يرى الرسول ﷺ تفسيراً جديداً، يحدد فيه الرؤية أنها العلم بثمرة الولاية دون أن يعنى الرؤية بالنظر.

أما عن مذهبه الفقهى: فهو يفرق الشيخ المفيد فى موضوع الأسماء والأحكام بين الإيمان والإسلام، فالإسلام عنده أوسع من الإيمان. ولكل منهما نقيض يخصه، فنقيض الإسلام كفر الردة، ونقيض الإيمان كفر الملة، ويقع على المؤمنين أثناء فترة غيبة الإمام مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فهو واجب كفائى (فرض كفاية). وينهى عن المنكر باللسان فى حالتين: عندما لا يستطيع مرتكب المنكر أن يميز الطريق المستقيم من طريق آخر، أو عندما يكون هناك دليل كاف على أن فى الكلام مصلحة. هذا فى حالة إذا أمن على نفسه، أما إذا خشى فيسمح له الشيخ المفيد بأن يحافظ على نفسه من خلال كتمانه عقائده تحت مبدأ التقية.

وفى أصول الفقه يحدد الشيخ المفيد مصادر التشريع بأنها ثلاثة: القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأقوال الأئمة، ويأتى دور العقل وعلم اللغة لتوضيح محتويات المصادر أو الأصول الثلاثة. وينكر حجية القياس ويرفض كل إجماع لا يدخل الأئمة فى دائرته، كما ينكر الشيخ فى أصول الفقه احتمال أن يكون العام خاصا عن طريق القياس أو الرأى لأنه لا يخص العموم إلا بدليل العقل، والقرآن والسنة الثابتة، أما الإجماع فيرفضه إلا إذا كان إجماعا يضم فى داخله رأى جماعته بمن فيهم الإمام الغائب.

ويعتمد الشيخ المفيد على الاجتهاد لا بوصفه أسلوبا لاستقرار أصول الشريعة وفروعها بل بوصفه الوسيلة الوحيدة لإقناع المخالف بالخطأ الذى ارتكبه من خلال

تصوره هو ذاته، والاجتهاد فى الأحكام له عنده حد، ففى كل مسألة يجب أن يرجع إلى البحث عن قاعدة من القرآن أوالحديث تجيب عن مسألته، فإن لم يجد استوحى الحل من العقل. ولا يسمى هذه الطريقة اجتهاداً بشكل صريح.

مذهبه فى علم الحديث:

نظر الشيخ المفيد إلى خبر الواحد بعين الشك، فهو لا يعيره اهتمامه، والاستثناء الذى ذكر لصالح خبر الواحد هو أن يقترن به ما يدل على صدق راويه على البيان، ويرفض عددا من الروايات الإمامية لابن بابويه لكونها من أخبار الآحاد، ويتأيد خبر الواحد إما بالعقل أو الإجماع، ويأخذ بالأحاديث المتواترة، ولا ينبغى للعامى أن يحكم فيما وقع فيه الاختلاف اعتماداً على الأحاديث المتناقضة، بل عليه أن يرجع إلى شخص مطلع يعلم ذلك، ولم يعين الحد الأدنى لعدد الرواة حتى يكسب الحديث صفة التواتر.

مذهبه الكلامى:

١- التكليف العقلى:

رأى الشيخ المفيد أن أول تكليف على الإنسان هو معرفة الله، والعلم به، وينقسم إلى أربعة أقسام: أن تعرف ربك، وأن تعرف ما صنع بك، وأن تعرف ما أراد منك، أن تعرف ما يخرجك عن دينك. ومعرفة الله تتم عنده عن طريق الشرع، والأنبياء، ثم الأئمة، أما العقل فدوره لا يصح إلا بعد ورود الرسل، ومعرفة الله لا تتم دون مساعدة الوحى.

٢- الإلهيات:

يصف الشيخ المفيد الله بالواحد فى ألوهيته وأزليته، لا يشبهه شىء ولا يجوز أن يماثله شىء، وأنه فرد فى المعبودية لا ثانى له فيها على الوجوه والأسباب كلها، ويوصف بأنه حى قادر عالم، وهى معان عقلية ليست الذات ولا أشياء تقوم بها فهو حى لنفسه لا بحياة، قادر لنفسه وعالم لنفسه لا بمعنى. ويذكر ثلاث صفات تصدق على الله أزليا، ولا تحمل أضدادها عليه أبدا، وهذه الصفات متميزة عن صفات الأفعال، ويفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال، والصفات التى يتصف بها منذ الأزل حى، قادر عالم. ولا يجوز تسمية الله إلا بما سمَّى به نفسه فى القرآن أو على لسان نبيه.

٣- العدل :

يؤكد الشيخ المفيد على عدل الله، وأن الله قادر على الظلم ولكنه لا يفعله، وقد خلق الخلق لعبادته وأمرهم بطاعته ونهاهم عن معصيته، وعمهم بهدايته، بدأهم بالنعم والتفضل عليهم بالإحسان، لم يكلف أحدا إلا دون الطاعة، ولم يأمره إلا بما جعل له عليه الاستطاعة. جلّ عن مشاركة عباده فى الأفعال، وتعالى عن اضطرارهم إلى الاعمال.

٤- النبوة :

يرى الشيخ المفيد ضرورة النبوة لحاجة الإنسان إلى الوحى من أجل معرفة الله ومعرفة القواعد الأخلاقية، ورأى أن كل رسول هو نبى وليس كل نبى رسول، وتثبت أحقية الرسول من خلال معجزاته، ولم يحصر معجزات الرسول ﷺ .

ورأى أن أكبر معجزات الرسول ﷺ هى القرآن الكريم، ودليل إعجازه هو عجز العرب عن الإتيان بمثله فى بلاغته مع تحديه لهم، وينسب إلى الرسول ﷺ العصمة عن جميع الكبائر، وأما ما كان من صغير لا يستخف فاعله به فجائز وقوعه منهم قبل النبوة وعلى غير تعمد.

٥- الإمامة :

يعرف الشيخ المفيد الأئمة بأنهم القائمون مقام الأنبياء فى تنفيذ الأحكام وإقامة الحدود وحفظ الشرائع وتأديب الأنام، وبما أن الأئمة خلفاء الأنبياء يستنتج الشيخ المفيد أنهم يجب أن يكونوا معصومين كالأنبياء حتى ليتسنى لهم أداء مهمتهم بدون أن يوقعوا المجتمع فى الخطأ والزلل، ويضيف إليهم ظهور المعجزات على أيديهم.

ذكر النجاشى فى كتابه (الفهرس) سرداً لمؤلفات الشيخ المفيد، وبواسطته وصلت إلينا قائمة شبه كاملة من مصنفات الشيخ المفيد، وينسب له ما يقرب من مائتى مؤلف، منها ثلاثة كتب فى علم الحديث، وهى: الأمالى، مناسك المزار، والمزار الصغير. وله أربعة كتب فى التاريخ: الإرشاد والجمل، التواريخ الشرعية، والمعراج.

وخمسة كتب فى أصول الفقه، واثنى عشر كتابا فى علوم القرآن وواحداً وأربعين كتابا فى علوم القرآن، وواحداً وأربعين كتاباً فى الفقه. أما مصنفاته الكلامية فقد جاوز عددها التسعين كتابا، وهى تمثل ما يقترب من نصف مؤلفاته.

وقد ركّز الجزء الأكبر من مؤلفاته الكلامية لشرح عقيدة الشيعة الإمامية، والتدليل عليها والرد على المخالفين، أما الجزء الآخر فقد خصصه لعرض شتى الأغراض الأخرى.

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة :

١- أبو زيد (د. منى) الحرية الإنسانية عند الشيعة الإثنى عشرية، منشأة المعارف، الإسكندرية، سنة ٢٠٠٠م.

٢- جعفريات (د. رسول) : المسار الفكرى بين المعتزلة والشيعة منذ البداية وحتى عصر المفيد، ترجمة خالد توفيق، دار الصفوة، بيروت، سنة ١٩٩٣م.

٣- فلهوزن (يوليوس) : الخوارج والشيعة، المعارضة السياسية والدينية، ترجمة د. عبدالرحمن بدوى، دار الجليل، القاهرة، ط ٥، سنة ١٩٩٨م.

٤- فياض (د. عبدالله) : تاريخ الإمامية، بيروت، ط ٣، سنة ١٩٨٦م.

٥- كوربان (هنرى) : الشيعة الإثنى عشرية، ترجمة د. ذوقان قرموط، القاهرة، سنة ١٩٩٣م.

٦- مكدرموت (مارتن) : نظريات علم الكلام عند الشيخ المفيد - ترجمة على هاشم، طبعة إيران، سنة ١٩٩٢م.

٧- مجموعة أعمال المؤتمر العالمى لذكرى المفيد المنعقد بإيران سنة ١٤١٣هـ - وبه عشرات الدراسات. وطبعت مؤلفات المفيد كاملة.

الصاحب ابن عباد
(٣٢٦ - ٣٨٥ هـ = ٩٣٨ - ٩٩٥ م)

هو الصاحب ابن عَبَّاد أبو القاسم، الطالقانى، إسماعيل بن عباد بن العباس.. والطالقانى - نسبة إلى «الطالقان» - التى ولد فيها فى ذى القعدة سنة ٣٢٦هـ = سبتمبر ٩٣٨م.

كان والده وزيرًا للأمير ركن الدولة أمير الدولة البويهية (٣٢٠ - ٤٤٧هـ = ٩٣٢ - ١٠٥٥م) ذات المذهبية الشيعية .. المعتدلة فى تشيعها ... فلقد كانت قريبة من تشيع الزيدية.

وقد توفى الصاحب ابن عباد بالرقى فى صفر سنة ٣٨٥هـ الموافق ٩٩٥م. ونقل جثمانه إلى مدينة أصفهان، حيث دفن فى قبة بمكان يعرف بباب درية.

ولقد نشأ الصاحب فى صحبة الأمير البويهى مؤيد الدولة... ومن هذه الصحبة اشتهر بلقب «الصاحب» فغلب عليه.. حتى لقد لقب به الوزراء من بعده!..

- آراؤه وتأثيراته :

وكان الصاحب ابن عباد من نوابغ الأدباء والبلغاء فى عصره... كما كان له إلمام بعلم الكلام وخاصة على مذهب أهل العدل والتوحيد (المعتزلة).. أخذ علوم الأدب واللغة عن أبى الحسين أحمد بن فارس اللغوى - صاحب كتاب (المجمل فى اللغة) .. كما أخذ عن أبى الفضل ابن العميد... وغيرهما من أئمة الأدب واللغة.. وكانت له صحبة مع إمام المعتزلة فى عصره: قاضى القضاة عبد الجبار بن أحمد أحمد الهمدانى (٤١٥هـ = ١٠٢٤م) الذى تولى - فى عهده - منصب قاضى القضاة - الموازى لمنصب «وزير العدل» فى عصرنا .

وكما اشتهر الصاحب فى الأدب والعلم .. كذلك اشتهر كواحد من أبرز الذين تولوا منصب الوزارة.. فلقد تولى الوزارة للأمير البويهى مؤيد الدولة ابن بويه الديلمى (٣٦٦ - ٣٧٣هـ = ٩٧٦ - ٩٨٣م) فلما توفى، وخلفه أخوه فخر الدولة (٣٧٣ - ٣٧٨هـ = ٩٨٣ - ٩٨٨م) استعفى الصاحب من الوزارة.. لكن فخر الدولة أبى أن يعفيه، واستبقاه فى الوزارة قائلا له: إن لك فى هذه الدولة من

إرث الوزارة ما لنا فيها من إرث الإمارة فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه؟! ولقد كانت إدارته لشئون الدولة موضع إعجاب أمراء وملوك عصره حتى لقد كتب إليه ملك خراسان وما وراء النهر نوح بن منصور، يعرض عليه أن يلى الوزارة له.. فاعتذر - فى أدب - بتعذر انتقاله من مدينة «الرى» لأن مكتبته تحتاج إلى أربعمائة جمل ليحملوا ما بها من الكتب؟! وذلك فضلا عن كثرة حاجياته.. وتعداد حاشيته؟!.

وكان الصاحب مهابا لدى الأمراء الذين وزر لهم.. حتى لقد كان إذا استأذن فى الدخول على الأمير فخر الدولة، وهو فى «مجلس الأنس» غادره ليلقاه فى «مجلس الحشمة».. ولما مازحه فخر الدولة مرة، غضب الصاحب، وقال له: بنا من الجد ما لا نفرغ معه إلى الهزل! ونهض فغادر المجلس.. فمازال فخر الدولة يراسله ويسترضيه حتى عاد وصفا الجو بينهما!..

وفى سنة ٣٧٧هـ = ٩٨٧ - ٩٨٨م - قاد الصاحب ابن عباد حملة حربية على إقليم طبرستان، فاستولى عليها، وضمها إلى الدولة البويهية، وقام بتنظيم شئونها.

ولقد نافست شهرته فى الجود والكرم شهرته فى الأدب والوزارة .. فكان مجلس أدبه وعطائه النموذج الذى يحاكى - نموذج مجلس هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ = ٧٨٦ - ٨٠٩م).

ومن الآثار اللغوية والأدبية التى أبدعها الصاحب ابن عباد : كتاب (المحيط) فى اللغة ... الذى رتبه على حروف المعجم وهو فى سبع مجلدات - وله كتاب (الكافى) فى الرسائل - وكتاب (الأعياد وفضائل النيروز)... وكتاب (الكشف عن مساوئ شعر المتنبى)... وكتاب (الإقناع فى العروض وتخريج القوافى)... ورسالة فى (عنوان المعارف وذكر الخلائف)... وله رسائل جمعت فى كتاب (المختار من رسائل الوزير ابن عباد) ... كما كان له شعر رقيق جمع فى ديوان..

أما فى السياسة، فإن من كتاباته فيها: كتاب (الوزراء) .. وكتاب (الإمامة)..

وله فى علم الكلام كتاب (الإبانة عن مذهب أهل العدل) ... وكتاب (أسماء الله تعالى وصفاته).

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١- رسائل الصاحب ابن عباد - تحقيق: د. عبد الوهاب عزام، د. شوقى ضيف . طبعة القاهرة ١٣٣٦هـ.

٢- دائرة معارف البستانى - تحرير المعلم بطرس البستانى . طبعة مصورة - طهران.

صاعد الأندلسى
(٤٢٠ ـ ٤٦٢هـ)

هو صاعد بن أحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن صاعد التغلبى، يكنى أبا القاسم. وكانت ولادته سنة عشرين وأربعمائة للهجرة. ويصفه ابن بشكوال الذى ترجم له فى الصلة - بأنه كان من أهل المعرفة والذكاء والرواية والدراية. وقد ذكر عدداً من شيوخه كالفتح بن قاسم وأبى الوليد الوقشى وابن حزم، ولكن حديث صاعد عن ابن حزم لايدل على أن صاعداً كان من تلاميذه[١]. وقد كانت وفاة صاعد الأندلسى سنة ٤٦٢هـ بطليطلة التى كان يتولى القضاء فيها عند وفاته.

ويذكر صاعد أنه أخذ بعض معارفه فى علوم الهندسة والنجوم والأفلاك عن أبى جعفر أحمد بن خميس بن عامر، الذى جلس للتعليم مدة طويلة بقرطبة «وعنه أخذ كثيراً من ذلك»[٢].

وتدل هذه الإشارة على طرف من العلوم التى برز فيها صاعد الأندلسى.

وقد كانت له مؤلفات أشار إليها فى كتابه «طبقات الأمم» منها كتاب فى «مقالات أهل الملل والنحل»، وقد جاءت إشارته إليه عند حديثه عن علوم الهند وعقائدهم[٣]. ولعله جرى فيه على منهج قريب من منهج ابن حزم فى كتابه « الفصل فى الملل والأهواء والنحل».

ومن كتبه التى أشار إليها كذلك كتاب يدل على جانب من جوانب ثقافته المتعددة الشاملة لكثير من علوم عصره، وهو كتاب «فى علم الفلك وحركات الكواكب والنجوم» رد فيه على بعض من ألفوا قبله فى هذا العلم، ونبَّه على أخطائهم[٤].

كما يشير إلى كتاب ثالث فى التاريخ عند الحديث عن مدة مملكة الفرس، وتنازع المؤرخين فى مقدارها «وقد أتينا باختلافهم فى ذلك فى كتابنا فى جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم»[٥].

ولكن صاعداً قد جمع إلى هذه العلوم علم الفقه الذى بلغ فيه مكانة عالية، جعلته أهلا لتولى القضاء فى طليطلة، وكانت له اجتهادات انفرد بها يذكر منها ابن بشكوال أنه: اختار القضاء باليمين مع الشاهد الواحد

فى الحقوق، بدلا من اشتراط شاهدين، ومنها أنه: اختار القضاء بالشهادة على الخط، وقضى بذلك فى أيام نظره.

وإذا كانت تلك الكتب التى تحدث عنها صاعد قد طواها الزمن، فقد بقى لنا كتابه القيم «طبقات الأمم»، الذى يكشف عن دراية كبيرة بعلوم كثيرة، كما أنه يقدم لنا صورة من معارفه الواسعة بثقافات الأمم السابقة، وقد كتب هذا الكتاب قبل وفاته بعامين، إذ يشير إلى أنه كتبه سنة ٤٦٠هـ[٦]. وقد طبع هذا الكتاب طبعات متعددة، أهمها طبعة المحقق لويس شيخو اليسوعى، الذى أخرجه فى طبعة علمية محققة ببيروت سنة ١٩١٢م.

وقد بدأ صاعد كتابه بالتنبيه على أن الناس - وإن كانوا نوعًا واحدًا - يتميزون بثلاثة أشياء بالأخلاق والصور واللغات، ثم أضاف إلى ذلك أن من عنى من قبل بأخبار الأمم، وبحث عن سائر الأجيال، وفحص عن طبقات القرون، زعم أن الناس كانوا فى سالف الدهور وقبل تشعب القبائل وافتراق اللغات سبع أمم: هم الفرس والكلدانيون ومنهم العرب واليونانيون ومعهم الروم والقبط وهم أهل مصر والترك والهند والصين، فهذه الأمم السبعة كانت محيطة بجميع البشر. ثم عاد فقسم هذه الأمم إلى طبقتين: طبقة عنيت بالعلم فظهرت منها ضروب العلوم والفنون، وطبقة لم تعن بالعلم عناية تستحق بها اسمه، فلم ينقل عنها فائدة حكمة، ولا رؤيت بها نتيجة فكرة.

فأما الطبقة التى عنيت بالعلوم فثمانية أمم: الهند والفرس والكلدانيون والعبرانيون واليونانيون والروم وأهل مصر والعرب، وأما الطبقة التى لم تعن بالعلوم فبقية الأمم؛ وذكر الصين والترك ويأجوج ومأجوج والبربر والنوبة والزنج وغيرهم.

ولا شك أن تقسيم صاعد للأمم على هذا النحو يختلف عن تقسيمات أخرى ذكرها الشهرستانى فى مقدمة كتابه «الملل والنحل»، فهو يذكر أن من الناس من قسم العالم بحسب الأقاليم السبعة، ومنهم من قسمهم بحسب الأقطار الأربعة، ومنهم من قسمهم بحسب الأمم، ومنهم من قسمهم بحسب الآراء والمذاهب، وهذا هو التقسيم الذى جرى عليه الشهر ستانى وبمقتضاه قسم الأمم إلى أهل الديانات والملل، وإلى أهل الأهواء والنحل.

وبعد أن أوضح صاعد أساس التقسيم الذى بنى عليه كتابه بدأ حديثًا تفصيليا عن الأمم التى تندرج تحت الطائفة الأولى فبدأ بالهند ثم الفرس ثم الكلدانيين. ويهتم صاعد اهتمامًا واضحًا باليونانيين، ويسهب فى الحديث عنهم، وهو يجعل فلاسفة اليونانيين من أرفع الناس طبقة وأجل أهل العلم منزلة.

ثم لفت النظر إلى أن لدى اليونان من اهتم ببعض علوم الفلسفة كعلوم الطبيعة أو علوم الرياضة والفلك كبقراط وجالينوس وإقليدس الصورى أعلم أهل زمانه بالهندسة، وبطليموس صاحب المجسطى.

ويكشف حديث صاعد عن دراية واسعة بعلوم اليونان وأعلامهم، ولم يخل حديثه عن بعضهم من تتبع آثاره فى الفكر الإسلامى، ومن أهم ما نلفت النظر إليه هنا تلك العلاقة التى أقامها بين محمد بن عبدالله بن مسرة الجيلى (٣١٩هـ) وبين بندقليس.

ولم يطل وقوف صاعد عند علوم الروم، ولكن حديثه عنهم تضمن إشارات ثمينة عن علماء الروم الذين أسهموا فى حركة الترجمة إلى اللغة العربية أثناء حكم الدولة العباسية.

وأما أهل مصر فقد كانوا أهل ملك عظيم وعز قديم، والدليل على ذلك آثارهم فى عمائرهم وهياكلهم، وهى آثار أجمع أهل الأرض أنه لا مثل لها فى إقليم من الأقاليم، ثم ذكر أن قدماء أهل مصر كان لهم عناية بأنواع العلوم. ثم تحدث صاعد عن العرب، وهو يبدأ بذكر تاريخهم وأديانهم فى الجاهلية، ثم يشير إلى شىء من علومهم. ولما جاء الإسلام اقتصرت عناية العرب - فى بادئ الأمر - على علوم اللغة والشريعة وعلوم الطب التى كان الناس فى احتياج إليها، وظل الأمر كذلك حتى بدأت حركة الترجمة ثم ازدهرت فى أثناء حكم الدولة العباسية وبخاصة عهد المأمون.

وكتاب «طبقات الأمم»، له أهمية واضحة تبرز فيما قدمه من معلومات قيمة وإشارات ثمينة تقدم صورة وافية لمعارف العصر الذى عاش فيه، كما تبرز فى تأريخه لحركة الترجمة من اللغات الأخرى إلى اللغة العربية، وقد كان الكتاب مرجعا نهل منه مؤرخو الفلسفة والحكمة ومؤرخو العلوم؛ كابن أبى أصيبعة والقفطى وحاجى خليفة وغيرهم. وقد اهتم محقق الكتاب بإبراز مواطن هذا التأثر على نحو يدعو إلى التقدير.

أ. د. عبدالحميد مدكور

الهوامش:

١ - انظر: طبقات الأمم، لصاعد الأندلسى.

٢ - المرجع السابق، ص ٧٤.

٣ - المرجع السابق، ص ١٢، ١٣.

٤ - المرجع السابق، ص ٥٨، وكذا ص ٦٩.

٥ - المرجع السابق، ص ١٥، وكذا ص ٤٦.

٦ - المرجع السابق، ص ٦٣.

مراجع للاستزادة:

١ - طبقات الأمم لصاعد الأندلسى: تحقيق لويس شيخو اليسوعى. المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت ١٩١٢م.

٢ - الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، لأبى القاسم خلف المعروف بابن بشكوال، ٢٣٢/١، تحقيق السيد عزت العطار الحسينى، ١٣٧٤هـ = ١٩٥٥م.

٣ - الملل والنحل للشهرستانى بهامش الفصل لابن حزم ٣/١، المطبعة الأدبية، مصر، ١٣١٧ - ١٣٢٠هـ.

الصالحى الشامى
(... - ٩٤٢هـ = ... - ١٥٣٦م)

هو أبو عبد الله شمس الدين: محمد بن يوسف بن على بن يوسف الشامى الصالحى الدمشقى، المعروف بالشمس الشامى، ولد بصالحية دمشق وتوفى بالقاهرة، نزل فى الخانقاه البرقوقية بصحراء القاهرة، وبقى فيها إلى أن توفى فى شعبان ٩٤٢هـ، وبقى عزبًا، وكان زاهدًا يقوم الليل، وقد ألف العديد من الكتب.

ينقل صاحب «شذرات الذهب» عن «الشعرانى» فى «ذيل طبقاته قال:

كان عالمًا صالحًا مفتيًا فى العلوم، وألف السيرة النبوية التى جمعها من ألف كتاب، وأقبل الناس على كتابتها، ومشى فيها على نموذج لم يسبقه إليه أحد، وكان عزبًا لم يتزوج قط، وإذا قدم عليه الضيف يعلق القدر ويطبخ، وكان حلو المنطق، مهيب المنظر، كثير الصيام والقيام، بِتُّ عنده الليالى فما كنت أراه ينام إلا قليلاً، وكان إذا مات أحد من طلبة العلم وخلف أولادًا قاصرين وله وظائف، يذهب إلى القاضى ويتقرر فيها ويباشرها، ويعطى معلومها للأيتام حتى يصلحوا للمباشرة، وكان لا يقبل من مال الولاة وأعوانهم شيئا ولا يأكل من طعامهم).

فمن مؤلفاته :

١- السيرة النبوية المشهورة: جمعها من ألف كتاب أو من ثلاثمائة كتاب، وهى سيرة مطوَّلة تعرف بالسيرة الشامية، وعنوانها الحقيقى: «سبل الهدى والرشاد فى سيرة هَدْى خير العباد» فجاءت فى نحو ٧٠٠ باب، رتبها تلميذه محمد الفيشى من مسوداته، فجاءت فى أربعة مجلدات ضخمة تضم ألفى صفحة، وموجود منها نسخ مخطوطة فى القاهرة وتركيا، بعضها بخط المؤلف، وهى مطبوعة متداولة، وقد أخرجت لجنة التراث فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة هذه السيرة فى أكثر من أحد عشر مجلدًا من الحجم الكبير، بتحقيق مجموعة من العلماء، متضمنة تعليقات وتخريجات للآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية، وذلك فى الفترة من ١٩٩٠م إلى ١٩٩٥م.

٢- عقود الجمان فى مناقب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان، فرغ من تأليفه سنة ٩٣٩هـ وهى سيرة مطولة، ومنها مخطوطات عديدة فى الظاهرية بدمشق، رقم ١٩٨٨ فى ١١٢ ورقة، ونسخة فى

«طوبقابو» رقم R١٥٩١، ٦٤٨٧ فى ١٦٩ورقة ونسخة فى «آيا صوفيا فى ٤٦٠ صفحة، ونسخة فى مكتبة رئيس الكتاب رقم ١١٩٠، وأخرى فى «بكى جامع» رقم ٨٧٦ كتبت سنة ٩٥٧هـ ، وأخرى فى ديار بكر رقم ١٨٩٠ كتبت سنة٩٣٩هـ، وغيرها فى «فيينا»، ونسخة فى دار الكتب المصرية (فهرس التاريخ ٢٤٩/٥)، وفى بعض المكتبات الخاصة.

٣ ـ مطلع النور فى فضل الطور وقمع المعتدى الكفور، كتبها حين بلغه استيلاء بعض الرهبان على مسجد الطور، ومنها نسخة فى دار الكتب المصرية.

٤ ـ إتحاف الراغب الواعى فى ترجمة أبى عمرو الأوزاعى.

٥ ـ عين الإصابة فى معرفة الصحابة (وهو مختصر الإصابة).

٦ ـ الآيات الباهرة فى معراج سيد الدنيا والآخرة، وله مختصر.

٧ ـ الإتحاف بتمييز ما تبع فيه «البيضاوى» صاحب «الكشاف». مخطوط.

٨ ـ النكت المهمات فى الكلام على الأبناء والبنين والبنات.

٩ ـ الفضل المبين فى الصبر عند فقد البنات والبنين، رسالة مخطوطة.

١٠ ـ وجوب فتح همزة «إن» وكسرها، وجواز الأمرين.

١١ ـ تفصيل الاستفادة فى بيان كلمتى الشهادة.

١٢ ـ إتحاف الأريب بخلاصة الأعاريب.

١٣ ـ الفوائد النفائس فى تحبير كتاب العرائس.

١٤ ـ الجامع الوجيز الخادم للغات القرآن العزيز.

١٥ ـ مرشد السالك إلى ألفية ابن مالك.

١٦ ـ الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة.

١٧ ـ الفتح الربانى فى شرح أبيات الجرجانى (فى علم الكلام).

١٨ ـ رفع القدر ومجمع الغفوة فى شرح الصدر وخاتم النبوة.

١٩ ـ شرح الأجرومية.

أ.د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة:

١ - شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون، أربعة أجزاء.
٢ - محمد أبو الفضل إبراهيم: مقدمته المنشوره مع الجزء الأول من «سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد» نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٩٠م.
٣ - البغدادى فى إيضاح المكنون ٢/ ٥٠٠.
٤ - هدية العارفين ٢/ ٢٣٦.
٥ - خير الدين الزركلى: الأعلام ٧/ ١٥٥.
٦ - شذرات الذهب ٨/ ٢٥٠.
٧ - حاجى خليفة: كشف الظنون ٩٣.
٨ - جورجى زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية ٣/ ٢٩١.
٩ - عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١٢/ ١٣١.
١٠ - بروكلمان ٢/ ٣٠٤، ٣٠٥، والملحق ٢/ ٤١٠، ٤١٦.

ابن الصلاح
(٥٧٧ - ٦٤٣هـ = ١١٨١ - ١٢٤٥م)

هو أبو عمرو تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردى الشهرزورى، المعروف بابن الصلاح.

ولد سنة ٥٧٧ هـ الموافق ١٨٨١م فى شرخان وهى قرية قريبة من شهرزور التابعة لإربل شمالى العراق.

وتوفى عام ٦٤٣هـ الموافق ١٢٤٥م بدمشق فنسب إليها، لكن اشتهرت نسبته إلى شهرزور، وكان والده عبد الرحمن يلقب بصلاح الدين، فنسب إليه، وعرف بابن الصلاح.

نشأ فى بيت علم ورياسة، كان أبوه عالما جليلا فقيها، متبحرا فى فقه الإمام الشافعى، تولى الإفتاء، وعرف بالعلم والفضل، فقرأ عليه ابنه الفقه حتى رسخت قدمه فيه. ثم أرسله والده إلى الموصل يطلب العلم على شيوخها.

ثم رحل إلى بلاد إسلامية أخرى لطلب العلم، فرحل إلى بغداد، وخراسان، وبلاد الشام، وعنى فى رحلاته هذه بعلم الحديث وفنونه عناية خاصة. وقد سمع بالموصل من: عبيد الله بن السمين، ونصر بن سلامة، ومحمود بن على الموصلى. وببغداد من: أبى أحمد بن سكينة، وعمر بن طبرزد، وبهمذان من: أبى الفضل بن المعزم. وبمرو من: أبى المظفر ابن السمعانى. وبدمشق من: جمال الدين عبد الصمد، والشيخ موفق الدين المقدسى، وفخر الدين بن عساكر، وبحلب من: أبى محمد بن علوان. وغيرهم.

وتتلمذ عليه شمس الدين عبد الرحمن ابن نوح، وكمال الدين سلار، وتقى الدين بن رزين، وفخر الدين عمر الكرجى، ومجد الدين ابن المهتار، وزين الدين الفارقى، والقاضى شهاب الدين الجورى، والصدر محمد بن حسن الأرموى، والشهاب أحمد بن العفيف وغيرهم كثير.

أقام فى دمشق، وفيها بزغ نجمه وظهر للعيان فضله، فأكب على نشر العلم، وكتابة التصانيف النافعة فى مختلف العلوم، وألقت إليه الرئاسة العلمية مقاليدها وأسلست له

القياد، فكان إماما فى الفقه والأصول، وصار مفتى المسلمين، وشيخ الإسلام، كما تفوق فى التفسير، وكان فى الحديث أوحد زمانه، فأخذ عنه المحدثون والحفاظ ورحلوا إليه، وتولى التدريس بالمدرسة الناصرية، ثم تولى التدريس بالمدرسة الرواحية - قرب الجامع الأموى - ثم انتقل للتدريس بدار الحديث بدمشق، ثم التدريس فى مدرسة ست الشام زمرد خاتون بنت أيوب، وقد تميز أداؤه فى هذه المدارس جميعًا بالتجويد والانتظام.

وكان - رحمه الله - ورعا زاهدا فى الدنيا وحكامها، وكان كثير العناية بمظهره وأناقة ملبسه، تجملا وتكريما لمكان العلم الذى يحمله، وكان يسلك مسلك الصوفية أهل العلم، فكان متعبدا مجاهدا نفسه على الإخلاص والتجرد عن القصد لغير ذات الله تعالى.

وقد أثنى عليه كثير من العلماء:

قال ابن خلكان: «كان أحد فضلاء عصره فى التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال، وما يتعلق بعلم الحديث».

وقال ابن الحاجب: «إمام ورع، وافر العقل حسن السمات، متبحر فى الأصول والفروع، بارع فى الطلب حتى صار يضرب به المثل، واجتهد فى نفسه فى الطاعة والعبادة».

وله مؤلفات عديدة منها :

١ - علوم الحديث وهو من أحسن كتب هذا الفن، وعليه عول من جاء بعده من العلماء. وقد طبع مرارًا.

٢ - الفتاوى (مطبوع).

٣ - طبقات فقهاء الشافعية (مطبوع).

٤ - أدب المفتى والمستفتى (مطبوع).

٥ - شرح الوسيط فى فقه الشافعية.

٦ - الأمالى.

٧ - فوائد الرحلة.

٨ - صلة الناسك فى صفة المناسك.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١- وفيات الأعيان لابن خلكان ٣١٢/١.

٢- تذكرة الحفاظ للذهبى ص ١٤٣٠.

٣- العبر فى خبر من غبر للذهبى وفيات سنة ٦٤٣هـ.

٤- تراجم رجال القرنين السادس والسابع لأبى شامة المقدسى ص ١٧٥، ١٧٦.

٥- طبقات الشافعية للسبكى ١٣٧/٥.

٦- شذرات الذهب لابن العماد ٢٢١/٥.

٧- الأعلام للزركلى ٣٦٩/٤.

٨- معجم المؤلفين لكحالة ٢٥٧/٦.

٩- كشف الظنون ٢١٧/١ ومواضع أخرى.

صلاح الدين الأيوبى
(٥٣٢ ـ ٥٨٩هـ = ١١٣٧ ـ ١١٩٣ م)

هو يوسف بن أيوب بن شاذى، أبو المظفر، صلاح الدين، الملقب بالملك الناصر، من أشهر ملوك الإسلام وأشهر أعلام القرن السادس الهجرى، كان أبوه وأهله من قرية «دُوِين» شرقى أذربيجان، وهم أكراد روادية من قبيلة الهذيانية، نزلوا بتكريت من بلاد العراق.

ولد ـ رحمه الله ـ بقلعة تكريت - الواقعة على نهر دجلة، بين بغداد والموصل سنة ٥٣٢هـ = ١١٣٧م. ونشأ فى كنف أبيه أيوب، فى مهد الكفاح والفروسية، والعلم والتقى، وظهرت عليه منذ طفولته علامات النبوغ والهمة والذكاء، ولما بلغ أشدة، كان إلى جانب أبيه فى خدمة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى صاحب دمشق وحلب والموصل.

واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه فى حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر سنة ٥٥٩هـ. فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية، وتمَّ لشيركوه الظفر أخيرا، باسم السلطان نور الدين، فاستولى على زمام الأمور فى مصر، واستوزره الخليفة العاضد الفاطمى، وسرعان ما مات شيركوه، فأختار العاضد صلاح الدين للوزارة خلفا لعمه، بالاضافة إلى قيادة الجيش، ولقبه بـ «الملك الناصر».

وهاجم الفرنج دمياط، فصدَّهم صلاح الدين، ثم استقل بملك مصر، مع اعترافه بسيادة نور الدين.

ثم مرض الملك العاضد مرض الموت، فقطع صلاح الدين خطبته، وخطب للعباسيين وانتهى بذلك أمر الفاطميين. ومات نور الدين سنة ٥٦٩هـ فاضطربت بلاد الشام والجزيرة، ودُعىَ صلاح الدين لضبطها فأقبل على دمشق سنة ٥٧٠هـ واستقبل بحفاوة. وانصرف إلى ما وراءها فاستولى على بعلبك، وحمص وحماة وحلب، ثم ترك حلب للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وانصرف إلى عملين مهمين:

١ ـ الإصلاح الداخلى فى مصر والشام.

٢ ـ دفع غارات الصليبيين، ومهاجمة حصونهم وقلاعهم فى بلاد الشام.

فبدأ بإنشاء قلعته المشهورة فى مصر، وأنشأ المدارس والمستشفيات.

وهو أول من ينسب إليه فضل إنشاء المدارس بمصر، وكانت معاهد الدراسة قبل صلاح الدين تنحصر فى الجوامع، خاصة جامع عمرو بن العاص، والجامع الأزهر، وكان الحاكم بأمر الله قد أنشأ دار الحكمة، وهى الجامعة المدنية الحرة التى عاشت إلى جانب الأزهر قرابة قرن من الزمان، غير أنها كانت جامعة فلسفية مذهبية تهدف إلى نشر المذهب الشيعى والدعوة الفاطمية.

ثم غادر صلاح الدين مصر سنة ٥٧٨هـ إلى بلاد الشام لصد الاعتداءات والحملات الصليبية واستمر فى ذلك بقية حياته.

ودانت لصلاح الدين البلاد: من آخر حدود النوبة جنوبا، وبرقة غربا، إلى بلاد الأرمن شمالا، وبلاد الجزيرة والموصل شرقا.

وكان أعظم انتصار له على الفرنج فى فلسطين والساحل الشامى فى «معركة حطين» سنة ٥٨٣هـ ٢١٨٧) وقد تلاها استرداد طبرية، ويافا، إلى ما بعد بيروت، ثم القدس أولاً سنة ٥٨٤هـ ولكنه خرج منها بعد دفاع مرير، وبعدأن تجمع لحربه ملك فرنسا، وملك إنجلترا بجيشهما وأسطولهما.

وأخيرا عقد الصلح بينه وبين كبير الفرنج «ريتشارد قلب الأسد» ملك انجلترا، على أن يحتفظ الفرنج فى فلسطين بالساحل من صور إلى يافا، ويحتفظ المسلمون بما عدا ذلك بما فيه بيت المقدس وأن يسمح لحجاج الصليبيين بزيارة بيت المقدس.

وعاد «ريتشارد قلب الأسد» إلى بلاده.

وعلى أثر عقد الصلح، سار صلاح الدين إلى بيت المقدس، وأمر بإصلاح أسوارها، وإنشاء المدرسة، والبيمارستان، والرباط، وغيرها، من المنشآت العامة، وكان يعتزم أداء فريضة الحج، ولكنه شعر بالإعياء والضعف، فسار إلى دمشق فى أوائل شعبان سنة ٥٨٨هـ ليستريح بها بعض الوقت.

بيد أنه لم تمض ثلاثة أشهر أخرى، حتى مرض صلاح الدين، وتوفى فى السابع والعشرين من صفر سنة ٥٨٩ (٤ مارس سنة ١١٩٣م) فى السادسة والخمسين من عمره؛ وكانت مشاق السير والحروب المستمرة، التى استطالت منذ موقعة حطين زهاء خمسة أعوام، قد أثرت فى بنيته السقيمة، واستنفدت قواه. وكان المرض ينتابه خلال هذه الأعوام كرة بعد أخرى؛ ولكنه لم يقعد قط عن متابعة جهوده، فكان وقت المعركة يتنقل دائماً بين الصفوف، ويتقدم جنده إلى المعمعة، ويحثهم على القتال، ويُذكى هممهم وشجاعتهم بجرأته وإقدامه، ورقيق خلاله.

ملامح شخصيته :

وَهَبَ صلاح الدين حياته للجهاد فى

سبيل الله، وإنقاذ الإسلام والمشرق من عدوان الغَرب النصرانى، واستطاع قبل وفاته أن يحقق أعظم أمانيه باسترداد بيت المقدس، وسحق المملكة الفرنجية الصليبية، وكان سبيله إلى تحقيق الأمنية العظيمة هو أن يجمع كلمة الشرق الإسلامى، وأن يعيد إليه وحدته الإقليمية التى انصدعت بانحلال الدولة الفاطمية، وعدوان الصليبيين على الشام. وقد وُفِّق صلاح الدين فى تحقيق هذه الغاية أعظم توفيق، ولم تقف جهوده عند رد الإمبراطورية المصرية إلى سابق تماسكها الإقليمى، بل استطاع أن يجمع كلمة الكتلة الإسلامية من جبال كردستان ومشارف آسيا الصغرى حتى صحراء لوبية، وأن يعتمد على جهودها الموحدة فى محاربة الصليبيين ورد عدوان الغرب النصرانى، فكانت جيوش صلاح الدين تجمع فى صعيد واحد بين المصريين والشاميين والعرب والأكراد والتركمان والترك، وغيرهم، يشعرون جميعاً بشعور واحد، ويعملون جميعاً لغاية واحدة هى الذود عن الإسلام وأرضه وحضارته وتراثه.

كان صلاح الدين بطل الإسلام بلا مراء، بل هو من أعظم أبطال الإسلام قاطبة؛ وكانت الفكرة الإسلامية تملأ نفسه ومشاعره، ولا يؤمن بغيرها، ولم تكن تحدوه فى جهاده أية فكرة قومية أو عنصرية أو إقليمية؛ ومن ثم فإنه من الخطأ التاريخى أن يقال إن صلاح الدين كان يؤمن بفكرة العروبة أو القومية العربية، وإنه كان فى جهاده لضم أقطار الدولة الفاطمية القديمة، فى مصر والشام، وهى التى غدا هو وريثها وعاهلها - كان يعمل لوحدة عربية أو مايشبهها، فلم تكن تجول بخاطره أية فكرة من هذا النوع، وإنما كانت مُثُله، تتجه إلى آفاق أوسع وأبعد مدى: إلى آفاق الوحدة الإسلامية. ذلك أنه إذا كان عدوان الحملات الصليبية يتسم فى ظاهره بالصبغة الدينية، ويرمى إلى مهاجمة الإسلام والقضاء على سلطانه، وإعلاء كلمة النصرانية، فقد كان صلاح الدين يضطرم بفكرة الدفاع عن الإسلام، والذود عن قوته وتراثه، ولم يكن يخفى عليه أنه بسَحْقِ الحملات الصليبية، إنما يقضى فى نفس الوقت على مطامع الغرب الاستعمارية فى الشرق.

فإذا نحن أسبغنا على صلاح الدين، أو على مشاريعه وأهدافه، وجهاده فى سبيل الله، أية صفة أخرى غير الصفة الإسلامية، وإذا نحن نسبناها إلى بواعث قومية أو عنصرية أو إقليمية، فإنا بذلك نجنى على سيرة البطل الإسلامى العظيم، إذ نجرده من أروع حلل بطولته وأشرفها.

ولم يخف هذا المغزى الإسلامى العظيم الذى جعله صلاح الدين شعار حياته، وشعار جهاده، على مفكرى عصره، فنرى صاحب الروضتين يقول معلقاً على وفاته: «وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله، مذ فُقِدَ الخلفاء الراشدون، وغشى القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلا الله تعالى». ويقول آخر «وأُغْمِد سيف الله الذى كان على أعدائه دائم التجريد، وخفت الأرض من جبلها الذى كان يمنعها أن تميد، وأصبح الإسلام وقد فقد ناصره، ثاكلا لوحيد، فهو أعظم فاقد لأعظم فقيد».

وكان صلاح الدين، يتسم بطائفة من أجمل الصفات الملوكية والإنسانية، فقد كان وافر الحلم، جم التواضع والبساطة، متقشفاً فى ملبسه وطعامه، وافر الجود والبذل، ينفق كل ما تصل إليه يده فى أغراض الجهاد ومصالح المسلمين، ولايهتم بشىء من أعراض هذه الدنيا من مال أو قصور أو غيرها، حتى إنه لما توفى لم يخلف مالا ولا عقاراً، ولم يوجد فى خزائنه شىء من الذهب أو الفضة سوى دينار واحد وسبعة وأربعين درهماً، فكان ذلك دليلا مؤثراً على زهده، وعفة نفسه، وطهارة يده، وصونه لمال المسلمين.

وكان شديد التقى والورع، يشغف بمجالس القرآن والحديث، ويُؤْثِر مجالس العلم والتقى، ويشارك الفقهاء فى الكشف عن المظالم ورفعها وتصريف العدالة، وكانت مجالسه تتسم بالوقار، والجد وعفة اللسان، وكان يؤثر الشورى ويجمع فى بلاطه جمهرة من أكابر كتاب العصر ومفكريه، وفى مقدمتهم صديقه ومستشاره الوفى عبد الرحيم البيسانى المعروف بالقاضى الفاضل، وكاتبه العماد الأصفهانى الذى خلد فى كتابه «الفتح القسى فى الفتح القدسى» كثيراً من صور جهاد السلطان وفضائله وخلاله المشرقة.

ومما يؤثر عن تسامحه وتقديره لنوابغ العلم، أنه عين العلامة الطبيب والفيلسوف اليهودى القرطبى موسى بن ميمون طبيباً خاصا له، وكان قد وفد على مصر، بعد أن غادر الأندلس وطنه تحت ضغط الاضطهاد الموحدى، ونزل بالقاهرة سنة ٥٦١هـ. ولما توفى السلطان، استمر طبيباً خاصاً لولده الملك الأفضل.

وكانت الشهامة والفروسية من أبرز صفات هذا السلطان العظيم المظفر، فقد كان صلاح الدين فارس الإسلام بحق، بل كان مثلا أعلى للفروسية فى عصره، وكانت هذه الخلال الرائعة تحمله فى كثير من المواطن على العفو عن خصومه من الفرنج الصليبيين، وإطلاق سراحهم، والثقة فى شرفهم ووعودهم، ثم كانوا يقابلون تسامحه

وشهامته بالنكث، ويعودون إلى قتاله، وقد رأينا كيف عفا عن الفرنج المدافعين عن بيت المقدس وحقن دماءهم، وسمح لهم بافتداء أنفسهم، وكان هذا التصرف الذى تمليه الشهامة والتسامح، من أنبل تصرفات صلاح الدين؛ وكان يناقض كل المناقضة، ما ارتكبه الصليبيون حين دخولهم بيت المقدس من قتل الألوف من أهلها المسلمين العزل.

والخلاصة أننا كلما تأملنا جوانب هذه الشخصية الإسلامية العظيمة، ألفيناها تفيض بآيات البطولة والنبل والإنسانية المؤثرة.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة :

١ - محمد عبد الله عنان: تراجم إسلامية.
٢ ـ الزركلى: الأعلام، جـ ٨.
٣ ـ ابن شداد : سيرة صلاح الدين. تحقيق جمال الدين الشيال. سلسلة الذخائر.
٤ ـ العماد الأصفهانى: الفتح القسى فى الفتح القدسى.
٥ ـ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، جـ١٢.
٦ ـ ابن خلكان: وفيات الأعيان.
٧ ـ ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب.
٨ ـ أبو شامة: كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين.

الضياء المقدسى
(٥٦٩ - ٦٤٣ هـ = ١١٧٤ ـ ١٢٤٥م)

هو محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور، الشيخ الإمام الحافظ القدوة المحقق المجود الحجة، بقية السلف، محدث الشام، شيخ السنة، ضياء الدين أبو عبدالله السعدى المقدسى الجماعيلى ثم الدمشقى الصالحى الحنبلى صاحب التصانيف والرحلة الواسعة.

ولد سنة تسع وستين وخمس مئة بالدير المبارك بقاسيون وانتقل إلى رحمة الله تعالى فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

لزم الحافظ عبد الغنى المقدسى وتخرج عليه، وحفظ القرآن وتفقه، ورحل أولاً إلى مصر سنة خمس وتسعين وسمع ورحل إلى بغداد بعد موت ابن كليب ـ ومن هو أكبر منه ـ وسمع من ابن الجوزى الكثير وبهمذان، ورجع إلى دمشق بعد الست مائة، ثم رحل إلى أصبهان فأكثر بها وحصَّل شيئًا كثيرًا من المسانيد والأجزاء، ورحل إلى نيسابور فدخلها ليلة وفاة الفراوى، ورحل إلى هراة مرو مدة، وسمع بحلب وحران والموصل، وقدم دمشق بعد خمسة أعوام بعلم كثير وحصل أصولاً نفيسة فتح الله بها عليه هبةً وشراءً ونسخاً، وسمع بمكة.

وكتب عن أقرانه، ومن هو دونه، كخطيب مَرْدا، والزين ابن عبد الدائم، وحصّل الأصول الكثيرة، ونسخ وصنَّف، وَجَرَّحَ وَعَدَّلَ، وصحح وعلل، وقيد وأهمل، وكان المرجوع إليه فى هذا الشأن مع الديانة والأمانة، والتقوى والصيانة، والورع والتواضع، والصدق والإخلاص، وصحة النقل.

وجمع بين فقه الحديث ومعانيه، وشدا طرفاً من الأدب، وكثيراً من اللغة والتفسير، ونظر فى الفقه وناظر فيه.

ولم يزل ملازماً للعلم والرواية والتأليف إلى أن مات، وتصانيفه نافعة مهذبة. أنشأ مدرسة إلى جانب الجامع المظفرى، وكان يبنى فيها بيده، وأعانه عليها بعض أهل الخير، وجعلها دار حديث وأن يسمع فيها جماعة من الصبيان، وقف بها كتبه وأجزاءه، وفيها من وقف الشيخ الموفق والبهاء عبد الرحمن، والحافظ عبد الغنى، وابن الحاجب، وابن سلام، وابن هامل، والشيخ

على الموصلى، وقد نُهبت فى نكبة الصالحية نوبة غازان وراح منها شىء كثير ثم تماثلت وتراجعت.

وكان يتقنع باليسير، ويجتهد فى فعل الخير، ونشر السنة، وفيه تعبد وانجماع عن الناس، وكان كثير البر والمواساة، دائم التهجد، أمَّارا بالمعروف، بهيى المنظر، مليح الشيبة، محبباً إلى الموافق والمخالف، مشتغلاً بنفسه رضي الله عنه.

وأجاز له الحافظ السلفى، وشهدة الكاتبة، وعبد الحق اليوسفى، وخلق كثير.

وسمع فى سنة ست وسبعين وبعدها عن أبى المعالى بن صابر، والخضر بن طاووس، والفضل ابن البانياسى، وعمر بن حمويه، ويحيى الثقفى، وأحمد بن على بن حمزة بن الموازينى، ومحمد بن حمزة بن أبى الصقر، وابن صدقة الحرانى، وعبد الرحمن بن على الخرقى، وإسماعيل الجنزوى، وبركات الخشوعى، وخلق كثير، بدمشق، وأبى القاسم البوصيرى، وإسماعيل بن ياسين، وعدة بمصر، وأبى جعفر الصيدلانى، والقاسم بن أبى المطهر الصيدلانى، وعفيفة الفارفانية، وخلف بن أحمد الفراء، وأسعد بن سعيد بن روح، وزاهر بن أحمد الثقفى، والمؤيد بن الإخوة، وخلق بأصبهان، والمؤيد الطوسى، وزينب الشعرية، وعدة بنيسابور، وأبى روح عبد المعز بن محمد، وطائفة، بهراة، وأبى المظفر ابن السمعانى، وجماعة، بمرو، والافتخار الهاشمى بحلب، وعبد القادر الرهاوى وغيره بحران، وعلى بن هبل بالموصل، وبهمذان، وغير ذلك.

روى عنه خلق كثير، منهم: ابن نقطة، وابن النجار، وسيف الدين ابن المجد، وابن الأزهر الصريفينى، وزكى الدين البرزالى، ومجد الدين ابن الحلوانية، وشرف الدين ابن النابلسى، وابنا أخويه الشيخ فخر الدين على ابن البخارى والشيخ شمس الدين محمد ابن بن الكمال عبد الرحيم، والحافظ أبو العباس ابن الظاهرى، وأبو عبد الله محمد ابن حازم، والعز ابن الفراء، وأبو جعفر ابن الموازينى، ونجم الدين موسى الشقراوى، والقاضى تقى الدين سليمان بن حمزة، وأخواه محمد وداود، وإسماعيل بن إبراهيم بن الخباز، وعثمان بن إبراهيم الحمصى، وسالم بن أبى الهيجاء القاضى، ومحمد ابن خطيب بيت الأبار، وأبو على بن الخلال، وعلى بن بقاء الملقن، وأبو حفص عمر بن جعوان، وعيسى بن معالى السمسار، وعيسى ابن أبى محمد العطار، وعبد الله بن أبى الطاهر المقدسى، وزينب بنت عبد الله بن الرضى، وعدة.

قال الشيخ شمس الدين: سمعت الحافظ أبا الحجاج المزى وما رأيت مثله يقول: «الشيخ ضياء أعلم بالحديث والرجال من الحافظ عبد الغنى، ولم يكن فى وقته مثله».

وقال عنه الحافظ محب الدين ابن النجار فى تاريخه: «حافظ متقن ثبت صدوق نبيل، حجة عالم فى علم صحيح الحديث وسقيمه، ما رأيت عينى مثله».

وقال عمر بن الحاجب: «شيخنا الضياء شيخ وقته، ونسيج وحده، علماً وحفظاً وثقةً وديناً، من العلماء الربانيين، وهو أكبر من أن يدل عليه مثلى».

«كان شديد التحرى فى الرواية مجتهدا فى العبادة كثير الذكر منقطعا متواضعا سهل العارية».

وقال أيضا فيما قرأت بخطه: سألت زكى الدين البرازلى عن شيخنا الضياء، فقال: حافظٌ، ثقةٌ ، جَبَلٌ، دَيّنٌ، خَيّرٌ.

وقال عنه الشيخ عز الدين عبد الرحمن ابن العز: ما جاء بعد الدارقطنى مثل شيخنا الضياء».

وقال عنه الحافظ شرف الدين يوسف بن بدر «رحم الله شيخنا ابن عبد الواحد، كان عظيم الشأن فى الحفظ ومعرفة الرجال، هو كان المشار إليه بالحديث وأحوال الرجال، له مجموعات وتخريجات، وهو ورع تقى زاهد عابد محتاط فى أكل الحلال، مجاهد فى سبيل الله، ولعمرى ما رأت عيناى مثله فى نزاهته وعفته، وحسن طريقته فى طلب العلم».

ومن تصانيفه المشهورة:

١ - كتاب «فضائل الأعمال» مجلد مطبوع.

٢ - كتاب «الأحكام» فى ثلاث مجلدات.

٣ - «الأحاديث المختارة» وعمل نصفها فى ست مجلدات.

٤ - «الموافقات» فى نحو من ستين جزءا.

٥ - «مناقب المحدثين» ثلاثة أجزاء.

٦ - «فضائل الشام» جزآن.

٧ - «صفة الجنة» ثلاثة أجزاء.

٨ - «صفة النار» جزآن.

٩ - «سيرة المقادسة» مجلد كبير.

١٠ - «فضائل القرآن» جزء.

١١ - «ذكر الحوض» جزء.

١٢ - «النهى عن سب الأصحاب» جزء مطبوع.

١٣ - «سيرة شيخيه الحافظ عبد الغنى والشيخ الموفق» أربعة أجزاء.

١٤ - «قتال الترك» جزء.

١٥ - «فضل العلم» جزء.

عاش أربعا وسبعين سنة، وتوفى إلى رضوان الله فى جمادى الآخرة سنة ثلاث وأربعين وست مائة.

أ.د. أحمد عمر هاشم

مراجع للاستزادة :

١ - سير أعلام النبلاء ٢٣ - ١٢٦ - ١٣١.

٢ - تذكرة الحفاظ للذهبى ١٤٠٥/٤ - ١٤٠٦.

٣ - الوافى بالوفيات ٦٥/٤ - ٦٦.

٤ - ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢٣٦/٢ - ٢٤٠.

٥ - النجوم الزاهرة ٣٥٤/٦.

٦ - فوات الوفيات لابن شاكر ٤٢٦/٢ - ٤٢٧.

أبو طالب المكى

(٠٠٠ - ٣٨٦هـ = ٠٠٠ - ٩٩٦م)

هو أبو طالب : محمد بن على بن عطية الحارثى المكى العجمى، أغفلت المصادر الصوفية الحديث عنه، ولم تورد هذه المصادر عنه إلا معلومات قليلة، وكان الخطيب البغدادى هو أول من ترجم له، وكانت ترجمته أساسًا لما تلاها من ترجمات. وهو لا يحدد تاريخا لمولده، وقد كانت ولادته بعراق العجم، ونشأ بين بغداد وواسط، ثم هاجر إلى مكة، فعاش بها ونُسب إليها كما نُسب إليها غيره، وحضر مجالس العلم والوعظ التى كانت تعقد بالحرم المكى، وتوفى ببغداد عام ٣٨٦هـ

والتقى فى مكة بكثير من شيوخه وتلاميذه، ومنهم شيخه أبو سعيد ابن الأعرابى، وأبو بكر الآجرى صاحب كتاب الشريعة، وأبو على الكرمانى الذى يعدُّه المكى من الأبدال. ولم تكن حياته بها يسيرة فيما يبدو، ومما يدل على ذلك أنه كان يشكو مما حل بها من غلاء. ولم تسكن شكواه حتى رأى رؤيا يُقال له فيها: ان الموضع عزيز، وكل شىء به عزيز، فإن أردت أن ترخص الأشياء عليك فضمها إلى شرف الموضع حتى ترخص.

وذهب المكى إلى بغداد، وكان لرأيه فى السماع الصوفى - الذى قبله بشروط شديدة- أثر فى خلافه مع بعض شيوخها. ويحتمل أن يكون ذلك قد تم قبل ٣٤٦هـ.

ثم خرج المكى إلى البصرة فالتقى بأهم من عاصره من شيوخه. وهو أبو الحسن أحمد ابن محمد بن سالم الذى تنسب إليه أو إلى أبيه فرقة السالمية، وهى فرقة كلامية ما تزال تحتاج إلى جمع آرائها لتكوين فكرة دقيقة عنها. ثم عاد إلى بغداد مرة ثانية فعُقد له مجلس الوعظ بها، واجتمع الناس على مجلسه، وسمعوا منه كلاما كثيرا عن تطهير القلوب من كل ما يشغلها عن الله تعالى، وضرورة إخلاص النية والعبادة لله تعالى، ومراقبة الله فى السر والعلن، ومخالفة أهواء النفوس، ومجاهدة نوازعها، وضبط مشاعرها وخواطرها، كما سمعوه يتحدث عن مقامات الصالحين، وأحوال الموقنين، ومعارف أهل الولاية، وثمرات الطاعة، وكان يستعين فى ذلك كله بمحفوظه من القرآن

والسنة، ومعرفته بأحوال السلف، وأقوال أئمة التصوف وأهل طريق الله، ناثرا ذلك كله فى أسلوب رائق وعبارة طلية، وقد كان مما وصف به أنه كان له لسان حلو فى الوعظ والتصوف.

وينسب المكى نفسه إلى عدد من كبار أهل الزهد والتصوف ممن سبقوا عصره، لأنه رأى بينه وبينهم تقاربا فى المشرب والاتجاه والمنهج، ويأتى على رأس هؤلاء: الحسن البصرى الذى يصفه: بأنه.. أول من أنهج سبيل هذا العلم، وفتَّق الألسنة به، ونطق بمعانيه وأظهر أنواره»، وهو إمامه فى هذا العلم «أثره نقفو، وسبيله نتبع، ومن مشكاته نستضىء». وقد أورد كثيرا من أقواله وأحواله، مع عناية شديدة بتحديد ملامح شخصيته النفسية والخلقية، وما كان يغلب عليه من خوف وحزن.

ثم يأتى بعده فى سلسلة هؤلاء الذين لم يلتق بهم: إبراهيم بن أدهم، وهو يصفه بأنه: من أئمته فى هذا العلم، وبأنه: «كان أحد المشتاقين وكانت له - رحمه الله - أماكن من المحبة رفيعة ومكاشفات فى القرب عليَّة»، وهو يذكر أحواله فى الزهد والورع والعبادة، وتربية السالكين من المريدين على حب العمل والامتناع عن المسألة.

ويأتى بعد الحسن البصرى وابن أدهم، سهل التسترى الذى يصفه بأنه شيخ شيوخه، وهو يتابعه متابعة عارف بقدره، مقرّ بفضله ومكانته، وهو يعلق على بعض أقواله بقوله: «وهذا كما قال وقولنا بقوله تبع».

وقد التقى بعدد من كبار صوفية عصره وعلمائه، ومنهم: أبو بكر بن الجلاَّء، وأبو سعيد بن الأعرابى شيخ الحرم، وأحمد ابن سالم وآخرون، وهو يصف شيخه ابن سالم بأنه كان له من هذا الطريق مشاهدات ومطالعات وسياحات فى الغيوب وجريان فى الأخريات، وانقلبت له الأعيان، وظهر له العيان، وطوى له المكان، واجتمع حوله المريدون، الذين كانوا نواة لفرقة السالمية التى وصف المقدسى أهلها: برفعة المجالس وبُعْد الخلاف ورقة الكلام، وبأن أكثر المذكِّرين بالبصرة كانوا منهم.

و كتابه الذى عرف به، واشتهرت نسبته إليه «قوت القلوب فى معاملة المحبوب، ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد» من أهم كتب التصوف التى ظهرت فى القرن الرابع الهجرى، بل هو من أهم كتب التصوف على وجه العموم. من أسباب ذلك أنه احتفظ بكثير من أقوال أعلام الصوفية والزهاد، مما يعطى صورة دقيقة للتصوف فى عصره وقبل عصره، ولذلك يعد الكتاب مرجعا يقدم

تعريفا شاملا للطريق الصوفى، وما يلزم فيه من مجاهدات ومعاملات، وما يترقى فيه من منازل ومقامات، ولذلك كان موضع ثناء الصوفية؛ لأنه كما يقول ابن عباد الرندى: «فتح مغلق علم التصوف، وجمع فيه بين المعانى الصحيحة، والألفاظ الحسنة، وذكر فروع علومهم وأصولها، ورسم مسائلها وفصولها، فكان لذلك كالمدونة فى علم الفقه، يقوم مقام غيره، ولا يقوم غيره مقامه»، ووصفه عبد الرحمن الجامى بأنه: «مجمع أسرار الطريقة». وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى يقوم بتدريسه، ويوصى بقراءته، ويقول: عليكم بالقوت فإنه قوت». وكان يقارن بينه وبين كتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى فيقول : «كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتاب القوت يورثك النور».

ويتجلى ذلك فى حديثه عن أسرار العبادات، ومقامات اليقين، وأخلاق أهل الولاية، وأسرار مقام التوحيد والمحبة، وحاول الجمع بين طهارة الظاهر وأخلاق الباطن، وعلم الشريعة، ومواريثه، ووضع للحديث عن علوم الباطن معيارا دقيقا حازما يقطع الطريق على أدعياء التصوف، وفى ذلك يقول: «فمن تكلم فى علم الباطن على غير قواعد العلم الظاهر وأصوله فذلك من الإلحاد فى الشريعة، والوليجة بين الكتاب والسنة». ولم يكن هذا بغريب لأنه تحدث عن سلوك الطريق فقال : «وهذا طريق رأس ماله الصدق، وزاده الصبر، وقوته التقوى. فمن عدم الصدق لم يربح، ومن لم يتزود الصبر انقطع، ومن لم يَقْتَت التقوى هلك».

وقد أثر كتابه تأثيرا واضحا فى عدد من الكتب الصوفية الكبرى، ومن أهمها إحياء علوم الدين للغزالى، وعوارف المعارف للسهروردى، والغنية للشيخ عبد القادر الجيلانى.

ولم يسلم المكى مع كل تمسكه بأهداف الشريعة، والتزامه بآدابها، ونقده للمتهاونين بحدودها، فنسبوا إليه بعض العبارات الموهمة، فانصرف العامة عن مجلس وعظه، وينسب إلى المكى عدد من الكتب منها:

١ - كتاب مناسك الحج، وقد أشار إليه فى كتابه: قوت القلوب.

٢ - مسند فى الحديث، أشار إليه فى كتابه القوت.

٣ - كتاب مشكل إعراب القرآن، وقد نسبه إليه إسماعيل البغدادى فى كتابه: هدية العارفين.

٤ - نُسب إليه كتاب بعنوان: علم القلوب، وطُبع حاملا هذه النسبة، ولكن النقد الداخلى للكتاب ينفى هذه النسبة له، ومن أهم ما

يؤكد ذلك أن الكتاب به نصوص لجماعة من المتأخرين عن المكى؛ كأبى الفتح البستى الذى توفى ببخارى عام ٤٠٠ أو ٤٠١هـ، وأبى بكر الخوارزمى الذى توفى ٤٠٣هـ، وأبى سعيد النيسابورى المتوفى عام ٤٠٦ أو ٤٠٧ هـ، والذى لم يدخل إلى بغداد إلا بعد عام ٣٩٠هـ، أى بعد وفاة المكى. ثم إن الكتاب يختلف فى أسلوبه وصياغته ومعجمه، وطريقة التعبير فيه عما هو معروف عن المكى، بل إن فيه أفكارًا مضادة لما هو ثابت بالنسبة إلى المكى من آراء.

أ.د. عبد الحميد مدكور

مراجع للاستزادة

١ - قوت القلوب، مطبعة مصطفى البابى الحلبى فى جزءين ١٣٨٠هـ = ١٩٦٠م.

٢ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادى، مطبعة السعادة ١٣٤٩هـ جـ ٨٩/٢.

٣ - أبو طالب المكى ومنهجه الصوفى، رسالة ماجستير قدمها عبد الحميد عبد المنعم مدكور ١٩٧٢م إلى كلية دار العلوم.

طاهر الجزائرى
(١٨٥٢-١٩٢٠م)

ولد طاهر بن صالح، (أو محمد صالح) بن أحمد بن موهوب الجزائرى فى دمشق، وبها تلقى تعليمه، وهو من أصل جزائرى.

وقد أتقن عدة لغات شرقية، بعضها سامية كالعبرية والسريانية والحبشية، وبعضها إسلامية كالتركية والفارسية. وقد تنقل بين عدة بلاد فسافر إلى القاهرة، ثم عاد إلى دمشق.

وقد تولى عدة مناصب علمية : فكان مفتشا للمدارس، وساعد على خدمة العلم فى دمشق فقد عمل مع إنشاء دار الكتب الظاهرية، وحاول أن يزودها بطائفة من المخطوطات كانت مبعثرة فى خزائن عامة، وعُيِّن مديراً للمكتبة، كما ساعد على إنشاء المكتبة الخالدية بالقدس وقد اختير عضوا بالمجمع العلمى العربى بدمشق.

ولحب الجزائرى للكتب وحرصه على تجميعها نراه ألَّف طائفة من الكتب فى موضوعات متنوعة.

من مؤلفاته التى طبعت فى حياته :

١- الجواهر الكلامية فى العقائد الإسلامية.

٢- بديع التخليص وتلخيص البديع.

٣- تسهيل المجاز إلى فن المعمّى والألغاز.

٤- التباين لبعض المباحث المتعلقة بالقرآن.

٥- التقريب إلى أصول التعريب.

٦- جدول الحروف العربية القديمة والحديثة والهندية واليونانية.

٧- شرح خطب ابن نباته.

ومما تركه مخطوطا ولم يطبع بعد:

١- تفسير القرآن، فى أربعة مجلدات.

٢- فى السيرة النبوية.

٣- التذكرة الظاهرية.

أ.د. ضاحى عبدالباقى

مراجع للاستزادة :

١- تنوير البصائر بسيرة الشيخ طاهر، للشيخ محمد سعيد البانى.

٢- الشيخ طاهر رائد النهضة العلمية فى بلاد الشام، للدكتور عدنان الخطيب.

٣- الأعلام، لخير الدين الزركلى جـ ٣ / ٢٢١.

٤- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة.

٥- معجم المطبوعات العربية والمعربة، ليوسف إليان سَرْكيس.

ابن طباطبا

(٠٠٠ - ٣٢٢هـ = ٠٠٠ - ٩٣٤م)

هو محمد بن أحمد، وطباطبا لقب جده الثالث: إبراهيم، وينتهى نسبه بالحسين بن على بن أبى طالب.

ولد ابن طباطبا فى مدينة أصبهان ولايحفظ التاريخ عام ميلاده، وإن ذكر وفاته سنة ٣٢٢هـ الموافق ٩٢٤م، أى أنه عاش فى الشطر الثانى من القرن الثالث، وجزء من القرن الرابع للهجرة.

ألحَّ ابن طباطبا على ضرورة الصدق، والمقصود. صدق التجربة، ونكاد اليوم نعبر كما عبر ناقدنا العربى القديم عندما قال بعد حديثه عن أسباب تأثير الشعر فى النفس: (فإذا وافقت هذه المعانى هذه الحالات تضاعف حسن موقعها عند مستمعها، لا سيما إذا أيدت بما يجلب القلوب من الصدق عن ذات النفس، بكشف المعانى المختلجة فيها، والتصريح بما كان يكتم منها، والاعتراف بالحق فى جميعها).

وجعل ابن طباطبا مقياس قبول الشعر ورفضه أن يورد على الفهم الثاقب، فما قَبِلَه واصطفاه فهو واف، وما مجَّه ونفاه فهو ناقص.

فيحصل المعنى قبل اللفظ، وأن يعمل الأبيات مفرقة بحسب ما يجود بها الخاطر، ثم ينظمها بعدئذ.

ويظهر أن آراء ابن طباطبا كان لها صدى فى أوساط النقد الأدبى، وكان كثير من العلماء يحتجون بها، وكان بعض النقاد يعارض بعضها، ويخطئه، وقد رأينا صدى ذلك فى كتاب ألَّفه الآمدى فى (إصلاح ما فى عيار الشعر لابن طباطبا)، كما حدثنا بذلك ابن النديم فى كتابه الفهرست.

مؤلفاته :

١ - كتاب عيار الشعر.

٢ - كتاب تهذيب الطبع.

٣ - كتاب فى العروض.

٤ - كتاب سنام المعانى.

٥ - كتاب فى المدخل إلى معرفة المعمى من الشعر.

٦ - كتاب فى تقريظ الدفاتر.

٧ - كتاب الشعر والشعراء.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١- عيار الشعر، تحقيق حسن كامل الصيرفى، دار المعارف، مصر.

٢- البلاغة تطور وتاريخ، للدكتور شوقى ضيف، مصر.

٣- فصل فى النقد الأدبى، لعبد الحى دياب، مصر.

٤- النقد الأدبى الحديث، لغنيمى هلال، مصر.

الطبـــرانــى
(٢٦٠ - ٣٦٠هـ)

هو الإمام الحافظ العلامة أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الشامى اللخمى الطبرانى مسند الدنيا كما قال الذهبى.

ولد سنة ستين ومائتين، وسمع الحديث وهو صغير سنة ثلاث وسبعين، وارتحل إلى الحرمين واليمن ومصر وبغداد والكوفة والبصرة، وأصبهان والجزيرة، وغيرها، ولقى من الشيوخ عددا لا يحصون قيل ألف أو يزيدون، وقد انتهى به المطاف إلى أصبهان فأقام بها ستين سنة حتى مات سنة ستين وثلاثمائة فى ذى القعدة.

سمع أبا زرعة الثقفى، وإسحاق الدبرى، وإدريس العطار، وبشر بن موسى، وحفص بن عمر، وهاشم بن مرثد الطبرانى وغيرهم.

وحدث عنه أبو خليفة الجمى، وابن عقدة، وأحمد بن محمد الصحاف، وهم من شيوخه، وأبو بكر ابن مردويه، والفقيه أبو عمر محمد ابن الحسين البسطامى، والحافظ أبو نعيم، وعبد الرحمن بن أحمد الصفار، وأبو بكر ربذة خاتمة أصحابه.

كان الطبرانى من كبار أئمة الحديث الجامعين له، الحافظين لما لا يحصى منه، وكثرة مؤلفاته تدل على تبحره فى السنة، وإحاطته بعلومها، كما كان عالما بالتفسير والمناسك.

قال فيه ابن عقدة: ما أعرف له نظيرا.

وقال ابن منده: الطبرانى أحد الحفاظ المذكورين.

وقال الذهبى: كان من فرسان هذا الشأن مع الصدق والأمانة.

وقد أخذ عليه بعضهم أنه غلط فى اسم رجل وسماه باسم أخيه، والخطب فى ذلك يسير، ولم يعتبر النقاد ذلك مخلا بضبطه وحفظه. وما غلطته إلا قطرة بجانب بحر صوابه. وما نقل عن ابن مردويه من أنه كان يسئ الرأى فيه غير صحيح. فقد كتب عنه كثيرا من الحديث، وذكره فى تاريخه فما ضعفه. قال الذهبى: فدل على أنه تبين أنه صدوق. ولما قال أبو نعيم لابن مردويه: فمن رأيت مثله؟ لم يقل شيئًا.

وللطبرانى مؤلفات كثيرة جدا، عَدَّ منها الذهبى فى «تذكرته» ماينيف عن سبعين

مؤلفا منها ما وقع فى عدة مجلدات، وهاك بعضها:

١ - المعجم الكبير: رتب فيه الصحابة على حروف المعجم، وهو مشتمل على نحو خمسمائة وعشرين ألف حديث. وهو مطبوع.

٢ - المعجم الأوسط: رتب فيه شيوخه على حروف المعجم. قال الذهبى: يأتى فيه عن كل شيخ بما له من الغرائب والعجائب فهو نظير كتاب «الأفراد» للدارقطنى، وكان يقول: هذا الكتاب روحى. وهو مطبوع أيضًا.

٣ - المعجم الصغير: وهو مرتب على شيوخه مرتبين على حروف المعجم أيضًا، ويروى فيه عن كل شيخ له حديث واحد غالبا.

٤ - التفسير.

٥ - دلائل النبوة.

٦ - السنة.

٧ - المناسك.

٨ - عشرة النساء.

٩ - مسند الشاميين. وهو مطبوع فى ٤ مجلدات.

١٠ - الدعاء. وهو مطبوع.

١١ ـ مكارم الأخلاق. وهو مطبوع.

١٢ ـ الأوائل. وهو مطبوع.

أ.د. أحمد عمر هاشم

مراجع للاستزادة:

١ ـ ميزان الاعتدال للذهبى ١٩٥/٢.

٢ ـ معرفة علوم الحديث للحاكم ص ١٤٣.

٣ ـ لسان الميزان لابن حجر ٧٥/٣.

الطبرسـى
(٠٠٠ - ٨٣٥هـ) = (٠٠٠ - ١٤٣٢م)

أبو على، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى المشهدى، الفاضل، العالم المفسر، الفقيه. وهو من بيت عُرف أهله بالعلم.

ولم يعرف تاريخ ميلاده.

أما وفاته فكانت ليلة النحر سنة ٨٣٥هـ الموافق ١٤٣٢.

كان ـ رحمه الله - من أبرز علماء التفسير.

وتفسيره الكبيرمجمع البيان»: بيان كاف، ودليل واف لجمعه لفنون الفضل والكمال.

ثم لما وصل إليه بعد هذا التأليف «كتاب الكشاف» واستحسن طريقته: ألّف تفسيراً آخر مختصراً، شاملا لفوائد تفسيره الأول ولطائف الكشاف، وسماه الجوامع.

وصف الطبرسى تفسيره فقال:

«وابتدأت فى تأليف كتاب، هو فى غاية: التلخيص والتهذيب، وحسن النظم والترتيب، يجمع أنواع العلم وفنونه، ويحوى فصوصه وعيونه، من علم قراءاته وإعرابه ولغاته، وغوامضه ومشكلاته، ومعاينه وجهاته، ونزوله وأخباره، وقصصه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحلاله وحرامه، والكلام على مطاعن المبطلين فيه، وذكرنا ما يتفرد به أصحابنا - رضى الله عنهم - من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع، والمعقول المسموع، على وجه الاعتدال والاختصار، فوق الإيجاز دون الإكثار، فإن الخواطر فى هذا الزمان تحمل أعباء العلوم الكثيرة، وتضعف عن الإجراء فى الحلبات الخطيرة، إذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء، ومن العلوم إلا الذماء؛ ثم وضَّحَ الطبرسى منهجه فى تفسيره فقال: «وقَدَّمْت فى مطلع كل سورة: ذكر مكِّيها ومدنيها، ثم ذكر الاختلاف فى عدد آياتها، ثم تلاوتها، ثم أقدّم فى كل آية الاختلاف فى القراءات، ثم أذكر الإعراب والمشكلات، ثم أذكر الأسباب والنزولات، ثم أذكر المعانى والأحكام والتأويلات، والقصص والجهات، ثم أذكر انتظام الآيات.

على أنى قد جمعت:

فى عربيته : كل غُرّه لائحة، وفى إعرابه:

كل حجة واضحة، وفى معانية : كل قول متين.

وفى مشكلاته: كل برهان مبين.

فهو بحمد الله: للأديب عمدة، وللنحوى عدَّه، وللمقرىء بصيرة، وللناسك ذخيرة، وللمتكلم حجة، وللفقيه دلالة، وللواعظ آله.

وسميته: «مجمع البيان لعلوم القرآن»

يقول الشيخ محمد حسين الذهبى: «والحق أن تفسير الطبرسى - بصرف النظر عما فيه من نزعات شيعية وآراء اعتزالية - كتاب عظيم فى بابه، يدل على تبحر صاحبه فى فنون مختلفة من العلم والمعرفة، وهو يجيد فى كل ناحية من النواحى التى يتكلم عنها، وهو ينقل أقوال مَنْ تقدمه من المفسرين معزوة لأصحابها، ويرجح ويوجه ما يختار منها، وإذا كان لنا بعض المآخذ عليه فهو تشيعة لمذهبه، وانتصاره له، وحمله لكتاب الله على ما يتفق وعقيدته، وتنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التى خالف فيها هو وَمَنْ على شاكلته، وروايته لكثير من الأحاديث الموضوعة.

غير أنه - والحق يقال - ليس مغالياً فى تشيعة، ولا متطرفاً فى عقيدته، كما هو شأن كثير من العلماء الإمامية الإثناء عشرية.

وقد تأثر الطبرسى بمذهب المعتزلة فى تفسيره فنراه الطبرسى فى تفسيره يوافق المعتزلة فى بعض آرائهم الكلامية، ويرتضى مذهبهم ويدافع عنه، وقليلاً ما نراه يعارضهم.

والمعتزلة قد اشتهروا بأقوال منها:

رعاية الصلاح والأصلح، وأن العبد خالق لأفعاله الاختيارية، وعدم جواز رؤية الله تعالى ووقوعها فى الآخرة، وإنكار حقيقة السحر.

إلا أن الطبرسى: يخالفهم فيما ذهبوا إليه من إنكار الشفاعة، وهو ما أجاد فيه عندما رد على المعتزلة قولهم هذا، من خلال تفسير قوله تعالى: ﴿ **واتقوا يوماً لا تجزى نفس عن نفس شيئا ...** ﴾ الآية [البقرة ٤٨]

وبالجملة: فتفسيره قد حاز من العلم الكثير، وأما ما خالف فيه أهل السنة ووافق فيه أهل التشيع والاعتزال، فهو يسير لا يخفى على ذى بصيرة من العلم.

وله مؤلفات عديدة منها:

الوسيط فى التفسير (أربع مجلدات)

والوجيز.

وإعلام الورى بأعلام الهدى (مجلد)

وتاج المواليد.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى.

٢ - مجمع البيان فى تفسير القرآن.. للطبرسى.

٣ - التفسير والمفسرون.. للشيخ محمد حسين الذهبى.

الطبــرى
(٢٢٤ - ٣١٠ هـ = ٨٣٩ - ٩٢٣م)

هو محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب أبو جعفر الطبرى. الإمام الجليل، المجتهد المطلق، صاحب التصانيف المشهورة، من أهل طبرستان، ولد بها سنة ٢٢٤هـ (الموافق ٨٣٩م).

ورحل عن بلده فى طلب العلم، وهو ابن اثنتى عشرة سنة، وطوف فى الأقاليم فسمع بمصر والشام والعراق. ثم ألقى عصاه، واستقر ببغداد، وبقى بها إلى أن مات سنة ٣١٠هـ (الموافق ٩٢٣م)، ودُفن بها - عليه رحمة الله -[1].

وقد قال عنه الشيخ أبو بكر الخطيب: «استوطن الطبرى بغداد وأقام بها إلى حين وفاته، وكان أحد الأئمة العلماء، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه، لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظًا لكتاب الله، عارفًا بالقرآن، بصيرًا بالمعانى، فقيهًا فى أحكام القرآن عالمًا بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، عارفًا بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى الأحكام ومسائل الحلال والحرام، عارفًا بأيام الناس وأخبارهم»[2].

وقال الإمام الذهبى فى السير: «إمام العلم، عالم العصر، مجتهد».

قال أبو سعيد بن يونس: «صنف تصانيف حسنة تدل على سعة علمه».

قلت: كان ثقة صدوقًا حافظًا، رأسًا فى التفسير، إمامًا فى الفقه والإجماع والاختلاف، علامة فى التاريخ وأيام الناس، عارفاً بالقراءات وباللغة العربية وغير ذلك.

وقال الحاكم: «سمعت حُسينك بن على يقول، أول ما سألنى ابن خزيمة فقال لى: كتبت عن محمد بن جرير الطبرى؟ قلت: لا، قال: ولم؟ قلت: لأنه كان لا يظهر، وكانت الحنابلة تمنع الدخول عليه، قال: بئس ما

فعلت، ليتك لم تكتب عن كل من كتبت عنهم وسمعت من أبى جعفر»[٣].

وقال ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان: «المحدث الفقيه المقرئ المؤرخ المعروف المشهور».

وقال أبو على الحسن بن على الأهوازى فى كتاب الإقناع: «كان أبو جعفر الطبرى عالمًا بالفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة والعروض، له فى جميع ذلك تصانيف فاق بها سائر المصنفين، وله فى القراءات كتاب جليل كبير رأيته فى ثمان عشرة مجلدة،إلا أنه كان بخطوط كبار»[٤].

وقال ابن الجوزى: «كان أسمر إلى الأدمة، ملتف الجسم، قد جمع من العلوم ما رأس به أهل عصره، وكان حافظًا للقرآن، بصيرًا بالمعانى، عالماً بالسنة، فقيهاً فى الأحكام، عالماً باختلاف العلماء، خبيراً بأيام الناس وأخبارهم»[٥].

ونقل الإمام السبكى فى طبقات الشافعية الكبرى كلام الإمام الخطيب البغدادى كاملا وكذا الحاكم.

وقال السبكى: «طوف الأقاليم فى طلب العلم، وذكر أن أبا العباس بن سريح كان يقول عن ابن جرير الطبرى: فقيه عالم»[٦].

وقال ابن الجزرى فى طبقات القراء: «إمام رحل لطلب العلم وله عشرون سنة، وتفقه عليه خلق كثير، له فى أصول الفقه وفروعه كتب كثيرة، واختيار من أقاويل الفقهاء، وتفرد بمسائل حفظت عنه»[٧].

وقال الإمام النووى فى كتابه تهذيب الأسماء واللغات: «هو إمامٌ بارع فى أنواع العلوم، ثم نقل أقوال الخطيب البغدادى المتقدمة»[٨].

ومن مؤلفاته: أخبار الرسل والملوك - يعرف بتاريخ الطبرى فى ١١جزء، واختلاف الفقهاء، والمسترشد فى علوم الدين، والقراءات، والعدد والتنزيل، واختلاف العلماء، وتاريخ الرجال من الصحابة، وكتاب أحكام شرائع الإسلام، ألفه على ما أداه إليه اجتهاده، وكتاب الخفيف وهو مختصر فى الفقه، وكتاب التبصير فى أصول الدين.

وابتدأ تصنيف كتاب «تهذيب الآثار» وهو من عجائب كتبه ابتداءً بما رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه مما صح عنده بسنده وتكلم على كل حديث منه بعلله وطرقه وما فيه من

الفقه والسنة، واختلاف العلماء وحججهم وما فيه من المعانى والغريب، فتم منه مسند العشرة، وأهل البيت والموالى، ومن مسند ابن عباس قطعة كبيرة ومات قبل تمامه.

وكتاب البسيط، وجامع البيان فى تفسير القرآن، ويعرف بتفسير الطبرى.

ولكن هذه الكتب.. قد اختفى معظمها من زمن بعيد، ولم يحظ بالبقاء - إلى يومنا هذا، وبالشهرة الواسعة - سوى:

كتاب التفسير المسمى: بجامع البيان.

ويعتبر تفسير ابن جرير من أقوم التفاسير وأشهرها، كما يعتبر من المراجع الأولى عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلى، وإن كان فى نفس الوقت يعتبر مرجعاً غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلى؛ نظراً لما فيه من: الاستنباط، وتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، ترجيحاً يعتمد على النظر العقلى والبحث الدقيق.

وقد أجمع الباحثون فى الشرق والغرب الحكم على عظيم قيمته، واتفقوا على أنه مرجع لا غنى عنه لراغب التفسير.

ويقول الدكتور الذهبى فى «التفسير والمفسرون»: ونستطيع أن نقول: إن تفسير ابن جرير، هو التفسير الذى له الأولية بين كتب التفسير، أولية زمنية، وأولية فنية صناعية.

أما أوليته الزمنية: فلأنه أقدم كتاب فى التفسير، وصل إلينا، كاملا وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذهب بمرور الزمن، ولم يصل إلينا شىء منها، اللهم إلا ما وصل إلينا منها فى ثنايا ذلك الكتاب الذى نحن بصدده.

وأما أوليته من ناحية الفن والصناعة: فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به الكتاب من الطريقة البديعة التى سلكها مؤلفه، حتى أخرجه للناس كتاباً له قيمته ومكانته.

وقد وصل إلينا أيضًا كتاب التاريخ المسمى: بأخبار الرسل والملوك.

وقد اعتبر الطبرى: أبا للتفسير كما اعتبر أبا للتاريخ.

وذلك: بالنظر إلى كتابيه السابقين من الناحية العلمية العالية.

- وكتاب اختلاف الفقهاء. مطبوع.
- وكتاب تهذيب الآثار. مطبوع[٩].

أ.د. عبد الحى الفرماوى

الهوامش :

١ – التفسير والمفسرون ٢٠٥/١ وما بعدها.
٢ – تاريخ بغداد ١٦٢/٢ وما بعدها.
٣ – سير أعلام النبلاء للذهبى ٢٦٧/١٤ وما بعدها.
٤ – معجم الأدباء لياقوت ٤٠/١٨ وما بعدها.
٥ – المنتظم لابن الجوزى ١٧٠/٦ وما بعدها.
٦ – الطبقات الكبرى للسبكى ١٢٠/٣ وما بعدها.
٧ – طبقات القراء لابن الجزرى ١٠٦/٢ وما بعدها.
٨ – تهذيب الأسماء واللغات للنووى ٧٨/١ وما بعدها.
٩ – التفسير والمفسرون ٢٠٧/١.

مراجع للاستزادة :

١ – إنباه الرواة ٨٩/٣ .
٢ – وفيات الأعيان ١٩١/٤ .
٣ – تذكرة الحفاظ ٧١٠/٢ .
٤ – ميزان الاعتدال ٤٩٨/٣ .
٥ – دول الإسلام ١٨٧/١ .
٦ – البداية والنهاية ١٤٥/١١ .
٧ – طبقات المفسرين للسيوطى ص ٣٠٠ .
٨ – طبقات المفسرين للداودى ١٠٦/٢ .
٩ – شذرات الذهب ٢٦٠/٢ .

الطرطوشـــى
(٤٥١-٥٢٠هـ = ١٠٥٩-١١٢٧م)

هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القرشى الفهرى الطرطوشى الأندلسى، ويعـــرف بابن أبى رندقـة، أديب، زاهد، من فـقـهـاء المالكيـة، الحفاظ.

ولد بثغر طرطوشة فى ٢٦ جمادى الأولى سنة ٤٥١هـ = يوليـــه ١٠٥٩م، وقـد كـانت طرطوشـة يومـئـذ، ثغر مملكة سـرقـسطة الأندلسيـة الأول، وكـانت مملكة سـرقسطة تتمتع فى ظل أمرائها من بنى هود، بفترة من الازدهار والرخاء، وكانت فوق ذلك مركزاً من مراكز العلوم الأندلسية، وكان بلاط بنى هود منتدى للعلماء والأدباء. وكان أمير سرقسطة فى هذا الوقت الذى ظهـر فيـه الطرطوشى، وتلقى دراسـتـه الأولى هو المقـتـدر بن هود (٤٣٨-٤٧٤هـ)، وكان من أكابر علماء عصره يشغف بدراسة الفلسفة والفلك والرياضة، وكـان من أكابر العلمـاء المنتمين إلى بـلاطه، العلامة الكبير أبو الوليد الباجى، إمام عصره فى الفـقـه وفى مسـائل الخـلاف. فـقـصـد الطرطوشى إلى هذا المنهل الغزير، وتلقى عن الباجى كثيراً من علمـه ولاسيـمـا مسـائل الخـلاف، ولازمـه أعـوامـاً خـلال إقـامـتـه بسـرقـسطة. وتأثر الطرطوشى فى تفكيـره وفلسفته الكلامية بتفكير هذا المفكر العظيم، كـمـا تأثر كـذلك بتـفكيـر صنوه وقـرينـه فى غزارة الفقه ومسائل الخلاف والفرق، العلامة ابن حزم القرطبى. وشهد فى شبابه أحداث دول الطوائف، وشهد بالأخص أحداث مملكة سـرقـسطة - وطنه - عن كـثب، وهى التى أملت عليه فيما بعد، بعض نظرياته السياسية والاجتماعية.

ورحل الطرطوشى إلى المشـرق فى سنة ٤٧٦هـ، وهو فتى فى نحو السادسة والعشرين من عمـره، وحج، ثم قصد إلى بغداد، ودرس فيها على أبى بكر محمد بن أحمد الشاشى، وأبى أحمد الجرجانى، وأبى سعد بن المتولى، وهم يومـئـذ أئمة الفقـه الشافعى، وتلقى فى البصرة على أبى على التسترى. ثم رحل إلى الشام واستوطنها مدة، ودرس بها، واشتهر

يومئذ علمه وبعد صيته، كما اشتهر بورعه وزهده، وكان جم التواضع، يعيش فى شظف وتقشف، بعيداً عن متع الدنيا ومباهجها. ثم غادر الشام ونزل حينا ببيت المقدس، يقرئ بها، ثم غادرها إلى مصر، ونزل بالإسكندرية يسبقه صيته، فهرع إليه الطلاب من كل صوب.

وكان نزوله بالإسكندرية سنة ٤٨٨هـ، فى بداية عهد الوزير الأفضل شاهنشاه ابن بدر الجمالى، وهو فى نحو الثامنة والثلاثين من عمره. وكانت الإسكندرية دائما مهبط علماء المغرب والأندلس المفضل، فكان بها فى نفس الوقت الذى نزل بها الطرطوشى، مواطنه العلامة أمية بن أبى الصلت الأندلسى المتوفى سنة ٥٢٩ هـ.

وفى الإسكندرية، استقر الطرطوشى، وأقبل عليه الطلاب ينهلون من علمه فى الحديث والفقه ومسائل الخلاف. ولم يمض سوى قليل حتى تزوج الطرطوشى من سيدة مصرية وأنجب منها، وذلك حسبما يحدثنا فى كتابه «سراج الملوك»، وبدأ عندئذ يتذوق حياة الهدوء والدعة. ثم ذهب إلى القاهرة واستقبله وزيرها الحاكم بأمره الأفضل شاهنشاه. وهو يحدثنا فى كتابه المذكور عن هذه الزيارة، ويقص علينا كيف قام بوعظ هذا الوزير القوى، ونصحه بتقوى الله وطاعته، وبإقامة العدل، وقمع الظلم، والرفق بالرعية. ولم يلبث عقب عودته إلى الإسكندرية أن نشبت بينه وبين قاضيها مكين الدولة ابن حديد، خصومة شديدة بسبب ما كان يثيره الطرطوشى من نقد حاد، حول تصرفات هذا القاضى فى شئون الأموال والمكوس والمغارم الظالمة، وغيرها من التصرفات الإدارية والقضائية. هذا فضلا عما كان يصدره الطرطوشى من فتاوى تثير الرأى العام فى بعض الشئون، مثل قوله بتحريم الجبن الذى يأتى به الروم إلى المدينة، وهذا إلى حملاته المتكررة على كثير من العادات السائدة فى المجتمع السكندرى، وهو ما كان ينعته الطرطوشى بالبدع المحرمة.

ولما ضاق القاضى ابن حديد وأعوانه ذرعا بمسلك الطرطوشى، بعثوا فى حقه إلى الخليفة بالقاهرة، شكاوى وتقارير مرة، وصوروه فيها شخصاً خطراً على النظام، مثيراً للشغب فى المدينة. وبادر الأفضل شاهنشاه فأرسل إلى والى الثغر أن يرسل الطرطوشى إلى القاهرة، فأرسل إليها مع خادمه، وأدخل إلى الأفضل، فلم يسئ مقابلته، ولكنه أمره بالإقامة فى مسجد الرصد بالفسطاط، حتى يبت فى شأنه، وقدر له راتباً شهريًا ضئيلا.

وقد كان ذلك فيما يبدو فى بداية سنة ٥١٥هـ. فلبث الطرطوشى فى هذا المعتقل بضعة أشهر، حتى سئمت نفسه وغلب عليه اليأس، وأضرب عن تناول الطعام الذى يشترى بنفقة السلطان، وأمر خادمه أن يجمع له شيئاً من «المباح فى الأرض»، فجمع له شيئاً من النباتات تقوت به مدى ثلاثة أيام، فلما كان عند صلاة المغرب فى اليوم الثالث قال لخادمه: «رميته الساعة»، يقصد بذلك الأفضل. وتضيف الرواية إلى ذلك أن الأفضل قتل بالفعل فى الغد، وكان ذلك هو اليوم السابق لعيد الفطر فى سنة ٥١٥هـ (أواخر سنة ١١٢١م).

وكان ذلك نذير الخلاص، وبعدها عاد الطرطوشى إلى الإسكندرية واستأنف حياته السابقة من الدروس والإقراء.

وتوفى الطرطوشى بثغر الإسكندرية فى السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٢٠هـ = ٢٠ يونيه سنة ١١٢٧م فى التاسعة والستين من عمره «ودفن بمقبرة وعلة قريباً من البرج الجديد، قبلى الباب الأخضر»، وقد عرف قبره فيما بعد، وأقيم عليه مسجد يسمى بمسجد الطرطوشى، وهو ما يزال قائماً حتى يومنا.

بدأ الطرطوشى فى كتابة مؤلفه «سراج الملوك»، مهتدياً فى كتابته، بمختلف الأحداث والتطورات التى شهدها بالأندلس فى شبابه، وشهدها فى العراق والشام ومصر، فى كهولته ونضجه. وهو يخص بكتابه «الأجل المأمون تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام، نظام الدين، خالصة المؤمنين، أبا عبد الله محمد الأموى» يقصد بذلك الوزير المأمون البطائحى، الذى خلف الأفضل شاهنشاه فى الوزارة، وقد قصد الطرطوشى بالفعل إلى القاهرة، وقدم كتابه بنفسه إلى الوزير، واستقبله الوزير بمنتهى المودة والإكرام، وأغدق عليه عطفه ورعايته. وتحدث الطرطوشى بهذه المناسبة إلى الوزير فى بعض المسائل والشئون التى يراها مخالفة للشرع فى نظره، وقد حاول الوزير أن يرضى الفقيه ما استطاع، بتحقيق وجهات نظره فى بعض هذه الشئون، وعاد الطرطوشى بعد ذلك إلى الإسكندرية ليستأنف حياته العلمية الهادئة.

وللطرطوشى غير «سراج الملوك»، عدة مؤلفات ورسائل أخرى فى التفسير والفقه والوعظ تزيد على العشرين مؤلفًا.

ومن أهم مؤلفاته كتاب «سراج الملوك» والذى يتناول فيه من الموضوعات ما يعتقد أنه متفق مع العنوان الذى اختاره له، وهو محاولة نصح الملوك وإرشادهم وتوجيههم.

وهو يلخص لنا محتويات كتابه فى مقدمته، بأنه جمع فيه ما تنطوى عليه سير الأمم السابقة، وبالأخص ملوك الطوائف وحكماء الدول، وأنه وجد ذلك فى ست من الأمم وهم العرب والفرس والروم والهند والسند، والسند هند، وأنه عمد فى ذلك إلى استعراض ما ألفاه فى كتبهم من الحكم البالغة والسير المستحسنة، هذا إلى ما رواه وجمعه فى سير الأنبياء وآثار الأولياء، وبراعة العلماء وحكمة الحكماء، ونوادر الخلفاء، وما انطوى عليه القرآن العزيز.

تلك هى محتويات كتاب «سراج الملوك». وإنه ليبدو لأول وهلة أن الطرطوشى يعالج فى كتابه ما اصطلح المفكرون المسلمون على تسميته بسياسة الملك أو «السياسة الملكية». ويقول لنا الطرطوشى فى مقدمته: «إن كتابه لم يسبق إلى مثله أقلام العلماء»، ولكن الواقع أن هذا الموضوع قد عالجه قبل الطرطوشى أكثر من مفكر مسلم. ويكفى أن نذكر هنا أن ابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة ٢٣٦هـ قد عالجه فى كتابه «عيون الأخبار»، وعالجه «إخوان الصفا» فى أواسط القرن الرابع فى بحوثهم المتعلقة بالسياسة، ثم عالجه أبو الحسن الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ فى كتابه «الأحكام السلطانية»، وفى رسالته عن «الوزارة وسياسة الملك»، ولكن الطرطوشى يمتاز على أسلافه بالتوسع والإفاضة، وبأنه طرق بعض أبواب لم تطرق من قبل.

والحقيقة أن كتاب «سراج الملوك» هو أكبر مؤلف من نوعه من حيث ضخامة مادته وتنوع موضوعاته، ولكن الصفة الدينية تغلب على أسلوبه، ولا نقول الصفة الفقهية، وهى التى تغلب على بحوث الماوردى فى كتاب «الأحكام السلطانية» ثم هو يتخذ على الأغلب صورة الوعظ، ويتضمن كثيراً من الأحاديث والحكم والأقوال المأثورة، وهو يورد موضوعات مستقلة متباعدة، ينقصها الربط والتنظيم.

ومع ذلك فإن الطرطوشى يذهب فى بحوثه إلى آفاق جديدة، لم تخطر لأسلافه الذين عالجوا قبله موضوع السياسة الملكية. فهو يحاول فى بعض نظراته أن يستقرئ أحداث عصره وخواصه، وأن يستخرج منها بعض المبادئ الاجتماعية على نحو ما فعل ابن خلدون فيما بعد، حيث جعل من المجتمع كله ومن تاريخه مادة لتأملاته. ويصارحنا ابن خلدون نفسه فى مقدمته بأن الطرطوشى كاد أن يطرق نفس موضوعه، وأنه «قد حوم فى كتاب سراج الملوك، وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابه ومسائله»، ثم يضيف إلى ذلك قوله: «لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل، ولا أوضح الأدلة، إنما يبوب الباب للمسألة، ثم يستكثر

من الأحــاديث والآثار .. وكــأنه حــوم على الغرض، ولم يصادفه ولا تحقق قصده».

خيـر ما يدعم هذه العصبيـة «هم الجند أهل العطاء المفـروض مع الأهلة»، أى الجند المرتزقة الذين يتناولون أجورهم كل شهر.

وقـد بلغ الطرطوشى فى أواخـر حـياته، كـفـقـيـه من أقطاب الفـقـه المالكى، مـرتبـة الإمامـة، ومن ثم فـإنا نرى عـاهل المرابطين أميـر المسلمين يوسف بن تاشفين يطلب رأيه وفتواه، إلى جانب الإمام أبى حامد الغزالى، فى أخطر شئونه السياسية والعسكرية، ومن ذلك مــشــروعـــه فى خلع ملوك الطوائف وافـتـتاح ممالكهم، باعـتـبـارهم خـارجين على أحكام الشـريعـة والدين - وهو مـا أفـتـى به فقهاء المغرب والأندلس. وقد أيد الطرطوشى هذه الفـتوى، ونفـذ أميـر المسلمين مشـروعه بافـتـتـاح ممالك الطوائف والاسـتـيـلاء على الأندلس، وضمها إلى إمبراطوريته الكبرى.

أ. محمد عبدالله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة :

١ - تراجم إسلامية للمؤرخ محمد عبد الله عنان ص ٢٩٠-٢٩٧ بتصرف.

٢ - الأعلام للزركلى جـ ١٣٣/٧.

٣ - وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٤٧٩/١.

٤ - الديباج المذهب لابن فرحون ج ٢٧٦/٢.

٥ - حسن المحاضرة للسيوطى جـ ٢٥٦/١.

ابن طفيل
(٤٩٤ - ٥٨١ هـ = ١١٠٠ - ١١٨٥ م)

هو محمد بن عبد الملك، وكنيته أبو بكر ابن طفيل.

ولد فى العقد الأول من القرن الثانى عشر الميلادى حوالى (٤٩٤هـ = ١١٠٠م)، فى بلدة تسمى (آسن) على مقربة من مدينة (غرناطة) بالأندلس.

توفى عام ٥٨١هـ الموافق ١١٨٥م.

اشتهر بالطب والرياضيات والفلك والموسيقى والفلسفة، تنقل للعمل بين (غرناطة) و(طنجة)، واستقر لدى حاكم (مراكش) الخليفة (أبى يعقوب يوسف) وعمل لديه طبيبًا، وقَدِم إليه الفيلسوف (ابن رشد) الذى قدَّم شروحًا على كتب أرسطو، بناء على اقتراح من ابن طفيل، وكان بين ابن رشد وابن طفيل مناقشات حول كتاب (الكلّيات) فى الطب لابن رشد.

وهو أحد فلاسفة الإسلام الكبار، وواحد من أشهر ثلاثة فلاسفة ظهروا فى المغرب العربى، وهم: ابن باجه، وابن طفيل، وابن رشد، أطلق عليه الغربيون فى العصور الوسطى اسم أبى باكر Abu bacer، وهو تحريف لأبى بكر، لقيت قصته «حى بن يقظان» إعجاب الأوربيين، وترجمت إلى لغات عديدة، كما تأثر بها الفكر والأدب الغربيين تأثرًا كبيرًا.

آراؤه واتجاهاته الفكرية:

ويعرض ابن طفيل فى مقدمة قصته آراء الفلاسفة السابقين عليه، فى المشرق والمغرب، أمثال : الفارابى، وابن سينا، والغزالى، وابن باجة، ويشير إلى أن كل هؤلاء قد بحثوا عن أسرار الحكمة المشرقية، ولكنهم لم يستطيعوا الوصول إليها، وأنه قد كتب قصته تلك لشرح (أسرار الحكمة المشرقية)، وضمت هذه الرسالة ما نعرفه من أفكار فلسفية لابن طفيل، وأهمها:

١ - الحكمة والشريعة: فالغاية الرئيسية من قصة (حى بن يقظان) هى بحث العلاقة بين الحكمة والشريعة - العقل والنقل - فهما طريقان للوصول إلى معرفة الحقيقة.

٢ - وحدة الحقيقة واختلاف المنهج: يؤكد ابن طفيل أن الحقيقة واحدة، ولكن لكل من الحكمة والشريعة منهجها الخاص، منهج الحكمة هو العقل، يختلف عن منهج الشريعة وهو منهج الإيمان، العقل يبدأ من الإدراك

الحسى إلى التصور العقلى، أما منهج الإيمان فيلقى دفعة واحدة.

٣ - درجات الخطاب: يفرق ابن طفيل بين درجات الخطاب التى يخاطب بها البشر إلى أربعة مراتب :

المرتبة الأولى، وهى أعلاهم، مرتبة الفيلسوف، وهى درجة لا تتوفر إلا للقلة النادرة من البشر.

المرتبة الثانية، مرتبة عالم الدين البصير.

المرتبة الثالثة، مرتبة رجل الدين المتعلق بالظاهر.

وأخيرًا مرتبة العوام، وهى أدنى مراتب الخطاب.

٤ - للشريعة ظاهر وباطن: يشير ابن طفيل إلى أن الشريعة قد أصابت حين خاطبت كل فئة بما يناسب عقلها، فلكل طائفة من البشر منهج للخطاب، وكل ميسر لما خلق له، وأن الشريعة طالبت العامة بالتزام الظاهر والالتزام بحدود الشرع، وتركت التعمق لمن هو أهل له.

٥ - نظرية المعرفة: قدَّم ابن طفيل فى قصته (حى بن يقظان) نسقًا كاملاً لنظرية المعرفة، تتم عبر مراحل زمنية متدرجة، ومراحل معرفية متتالية، تبدأ من الخبرة الحسِّية، لترتفع إلى التجربة والممارسة العملية، ثم الاستدلال العقلى النظرى، لتنتهى إلى أعلى درجة من درجات المعرفة ألا وهى المعرفة الوجدانية القائمة على الذوق والحس.

٦ - المنهج التجريبى: وجَّه ابن طفيل الاهتمام بدور الملاحظة والاستقراء، وبَيَّن دور التجربة فى الوصول إلى المعرفة الحسية والعقلية، كما أشاد بالبراهين العلمية المبنية على الطبيعيات والرياضيات، وطبَّق هذا المنهج أثناء ملاحظته لعالم النبات والحيوان.

٧ - الأخلاق: جعل ابن طفيل الأخلاق من حيز العقل والطبيعة، لا من حيز الدين والمجتمع، ووضع مفهومًا جديدًا للأخلاق مؤداه أن الأخلاق الحسنة هى التى لا تعترض الطبيعة فى سيرها، ولا تحول دون تحقيق الغاية الخاصة بالموجودات، وأن الأخلاق الكريمة تقضى على الإنسان أن يزيل العوائق التى تعترض الحيوان والنبات فى سبيل تطوره.

٨ - وحدة الوجود: نظر ابن طفيل إلى الوجود بكامله على أن بينه ترابطًا، يتمثل فى صورة قوانين يحكمها قانون السببية، كما ترتبط الموجودات بسلسلة متدرجة من الدرجات والمراتب، وكأنه بهذه الفكرة يبشر بنظرية التطور التى سوف تتبلور بعد ذلك فى العلم الحديث، وكان لدى فلاسفة العرب، ابتداء من جماعة إخوان الصفا مرورًا بابن سينا ومسكويه، وابن طفيل، حتى ابن خلدون، تصورات أولية لتلك النظرية.

٩ - مكانة الفيلسوف: رأى ابن طفيل أن الحياة التى عاصرها فى المجتمع الأندلسى والمغربى لم تتح للفيلسوف أن يساهم بدور

فعال فى تطوير مجتمعه، ولذا دعاه إلى أن يعتزل الحياة العامة فى جزيرة منفصلة. مثل الجزيرة التى عاش فيها بطل قصته، وكان بهذه الفكرة يطور فكرة سابقة قدمها الفيلسوف (ابن باجه) فى كتابه (تدبير المتوحد).

ومن أهم مؤلفاته :

ينسب لابن طفيل كتابان فى الطب، الأول عنوانه (مراجعات ومباحثات بين أبى بكر بن طفيل وابن رشد فى رسمه للداء فى كتابه الموسوم بالكليات)، والثانى يسمى (الأرجوزة فى الطب) ولكن لم يبق لهما أثر.

وفى الفلك تنسب له مقالة واحدة عن تركيب الأجرام السماوية وحركاتها، يقال إنه خالف فيها النظام الفلكى الذى وضعه (بطليموس).

أما كتبه الفلسفية، فينسب له البعض كتابًا فى (النفس) وكتبًا أخرى فى أقسام الفلسفة، والعلم الطبيعى، والعلم الإلهى، ولكن لم يبق من هذه الكتب إلا قصته (حى بن يقظان) التى أوجز فيها موقفه من الفلسفة السابقة، ورصد فيها آراءه الفلسفية، مبينًا الفرق بينه وبين الآخرين،

وقد أشاد الأوروبيون بهذه القصة، ووصفها العالم الأسبانى (مندث ببلايو) فى كتابه (أصول الرواية) بأنها أعظم آثار الأدب العربى أصالة وتفردًا، أما (غرسيه غوميس) فيقول عنها وعن صاحبها: «إن ابن طفيل قد استطاع بأسلوبه العذب، الذى يفيض ابتكارًا ومنطقًا وقوة شاعرية، أن يخلق من قصته أثرًا من أعظم ما عرفت العصور الوسطى.

وقد أثرت هذه القصة على الأدب الأوروبى، خاصة على كتاب (الناقد) لـ «جراسيان» وقصة (روبنسون كروزو) لـ «دانيال ديفو»، كما كان لها تأثير كبير على الاتجاه الرومانسى فى أوروبا فى القرن الثامن عشر، وأيضا على الأدب الشعبى.

وأعجب بقصة (حى بن يقظان) كثير من الفلاسفة الغربيين.

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة :

١ ـ ابن طفيل: حى بن يقظان، تحقيق أحمد أمين، القاهرة.
٢ ـ أنخل جناليث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسى، ترجمة د. حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية ـ القاهرة (د.ت).
٣ ـ د. عبدالرحمن بدوى: قصة حى بن يقظان، مجلة تراث الإنسانية مج ١، القاهرة.
٤ ـ لؤى على خليل: فردية حى بن يقظان، رموزها ورؤاها. مجلة التراث العربى، دمشق، عدد ٦٢ يناير، سنة ١٩٩٦م.
٥ ـ د. محمد جلال شرف: المذهب الإشراقى بين الفلسفة والدين فى الفكر الإسلامى. دار المعارف، مصر، سنة ١٩٧٢م.
٦ ـ د. عاطف العراقى. الميتافيزيقا فى فلسفة ابن طفيل، دار المعارف، مصر، سنة ١٩٩٢م.
٧ ـ د. عمر فروخ. تاريخ الفكر العربى، بيروت.
٨ ـ د. العروسى القاسمى. التبرؤ التلفظى والرمزية عند ابن طفيل ـ مجلة دراسات عربية. عدد ١، ٢ ـ نوفمبر، سنة ١٩٩٨م.
٩ ـ كمال اليازجى وآخر.: أعلام الفلسفة العربية ـ مكتبة لبنان ـ بيروت، سنة ١٩٩٠م.
١٠ ـ د. عبدالكريم اليافى: ابن طفيل ورسالته الفلسفية «حى بن يقظان» والكتب الطوباوية. مجلة التراث العربى ـ دمشق ـ عدد ٥٧ أكتوبر، سنة ١٩٩٤م.

طنطاوى جوهرى
(١٢٨٧م-١٣٥٨هـ = ١٨٧٠م-١٩٤٠م)

ولد الشيخ طنطاوى جوهرى سنة ١٢٨٧هـ = ١٨٧٠م بكفر عوض الله حجازى بمحافظة الشرقية، ونشأ به وتلقى تعليمه الأولى فى بلدة «الغار»، وكان مشهورا بجودة الحفظ والذكاء، وتلقى تعليمه بعد ذلك بالأزهر الشريف، فدار العلوم التى تخرج فيها سنة ١٨٩٣م، وقد عين بعد تخرجه مدرسًا بدمنهور، فدار العلوم، ثم الخديوية، ودرس بالجامعة المصرية - جامعة القاهرة حاليا - وقد تعلم اللغة الإنجليزية وانتفع بها كثيرا فى تأليفه.

زار كثيرا من بلدان أوروبا وآسيا، وحصل على كثير من المعارف والعلوم حتى صار جامعة بمفرده، وقد سميت فى تركستان مدارس وجامعات باسمه فيقولون «جامعة طنطاوية» و «مدارس جوهرية» و «عقائد جوهرية»؛ لما يرون فيه من رمز لحجة الإسلام.

وتوفى بالقاهرة سنة ١٣٥٨هـ = ١٩٤٠م.

وقد جمع الشيخ طنطاوى بين الثقافتين الدينية والحديثة، ومزج المسائل الدينية بالآراء الاجتماعية والسياسية، وكان من أخلص الناس لقضية مصر واستقلالها.

كان صاحب لغة وذوق ورؤية ودور، وكان صاحب منهج علمى متماسك شمولى، أضاف إلى تراث العربية والإسلام الخير الكثير.

وقد ترك هذا الرجل ما يقرب من ثلاثين مؤلفًا منها :

١ - تفسيره الموسوم بالجواهر، وقد أتمه فى ٢٥ مجلدًا، ثم كتب المجلد السادس والعشرين لاستدراك ما فاته، وفى هذا التفسير حاول أن يطبق القرآن على النظريات الحديثة، أو استخراج النظريات العلمية من نصوص كتاب الله، فجاء مزيجًا من علوم الأمم، قديمها وحديثها، مع محاولة التوفيق بين الآراء الحديثة والأفكار الدينية، وقد تُرجم هذا التفسير إلى اللغة الأوردية، كما ترجم كثير من كتب الشيخ طنطاوى إلى اللغات الأوروبية واللغات الشرقية خاصة.

٢ - التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم، ينقسم إلى ٥٢ بابا أو جوهرة.

٣ - الزهرة فى نظام العالم والأمم.

٤ - النظام والإسلام.

٥ - مذكرات فى أدبيات اللغة العربية.

٦ - نهضة الأمم وحياتها.

٧ - ميزان الجواهر فى عجائب الكون.

٨ - الأواح.

٩ - أين الإنسان.

١٠ - الحكمة والحكماء.

أ. د. أحمد كشك

مراجع للاستزادة:

١ - مرآة العصر فى تراجم مشاهير مصر جـ٢/٢٢٥.

٢ - الأعلام الشرقية لزكى مجاهد جـ٢/١١٦.

٣ - تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان جـ ٤/ ٢٨٥.

٤ - الأعلام للزركلى جـ٣ / ٢٣٠.

الطوسى
(٣٨٥-٤٦٠هـ = ٩٩٥ـ ١٠٦٧م)

هو الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى.

ولد سنة ٣٨٥هـ = ٩٩٥م فى مدينة طوس بخراسان. وتوفى الطوسى بالنجف سنة ٤٦٠هـ = ١٠٦٧م، وقد أثنى عليه كثير من علماء السنة والشيعة القدامى والمحدثين.

تلقى بعض العلوم الأولية ببلده، ثم رحل إلى العراق، ونزل بغداد وتفقه أولا بالفقه الشافعى، ثم تعلم علم الكلام، وعلم الأصول، ولزم الشيخ المفيد رئيس طائفة الشيعة الاثنى عشرية فى ذاك الوقت، وبعد وفاة المفيد انضم إلى الشريف المرتضى، وعند وفاة الأخير تولى زعامة الطائفة سنة ٤٣٦هـ، وكانت داره ببغداد مقصدا لطلاب العلم، وتتلمذ عليه أكثر من ثلاثمائة من مجتهدى الشيعة وأهل السنة.

ثم حدثت فتنة فى بغداد فى أعقابها أُحرقت داره ومكتبته، فهاجر إلى النجف سنة ٤٤٨هـ، وبقى بها فترة جعلها مركزًا شيعيًا هامًا. ووضع نظامًا دراسيًا، وكثر ترحال طلاب العلم إلى النجف.

ويعد الطوسى ثالث مؤسسى علم الكلام عند الشيعة الاثنى عشرية، بعد أستاذيه الشيخ المفيد، والشريف المرتضى، كما كان مفسراً من أهم مفسريهم بكتابه (التبيان)، وأحد علماء الحديث، وثالث المحدثين الذين دوَّنوا كتب الشيعة الأربعة فى الحديث، وله فى هذه الكتب الأربعة كتابان هما (الاستبصار) و (التهذيب)، يعرف عندهم بلقب (شيخ الطائفة) برئاسته لطائفة الشيعة الاثنى عشرية بعد الشريف المرتضى.

شملت مؤلفات الشيخ الطوسى كافة العلوم:

فى الحديث: له التهذيب، والاستبصار، الأول فى جزئين، والآخر فى ثلاثة أجزاء.

فى الفقه: له رسالة فى المسائل الدمشقية، والمسائل الحائرية، ومسألة فى وجوب الجزية على اليهود، والإيجاز فى الميراث وغير ذلك.

فى أصول الفقة: له كتاب العدة.

وفى التفسير له كتاب (التبيان) فى عشرين مجلد، كما له عدة رسائل.

فى علم الكلام: له تلخيص الشافعى فى الإمامة، كتاب المفصح، كتاب ما يعلل وما لايعلل، كتاب حمل العلم والعمل المسمى تمهيد الأصول.

وقد سلك الطوسى فى الفقه مسلكين، مسلك أصحاب الحديث، ومسلك أهل الرأى والقياس، وكان علماء الشيعة حتى عصر الطوسى يختارون منهج أهل الحديث فى الفقه، وقد تناول الطوسى فى مذهبه الفقهى عدة مسائل، منها الاجتهاد، وقد عرف عن الطوسى أنه مجتهد لا يعتمد على أحد، ولا يعتمد إلا على ما يصل إليه بفهمه من الكتاب والسنة، ولايهتم إلا بما قام عليه الدليل واقتضاه البرهان.

وقد جمع فتاويه فى كتابه (تهذيب الأحكام)، اقترب فيه بفقه الإمامية من فقه الحنفية، وإن كان هناك فرق يسير فى بعض المسائل التى تتعلق بالمباحات والسنن فى الإسلام، والخلاف وقع فى بعض الفروع مثل: مسألة غسل الرجل ومسحهما فى الوضوء، وكذلك فى إباحة نكاح المتعة، وكذلك فى مسألة التقية، وتعنى الإظهار باللسان خلافا لما ينطوى عليه القلب، خوفا على النفس. وكان الطوسى مجتهداً إلى حد كبير، يستنبط الأحكام بقواعد الأصول التى ارتضاها من متن السنة التى رواها، وخالف بعض أصول الشيعة، لأنه أخذ اتجاه الرأى والقياس، ورفض التقليد.

ويُعَدّ كتاب (التبيان الجامع لعلوم القرآن) الذى ألفه الطوسى من أهم مؤلفات الشيعة فى مجال التفسير، ولم يوجد بين الاثنى عشرية قديمًا وحديثًا من قدّم كتابا يحتوى على تفسير جميع القرآن مثل كتاب الطوسى.

وقد غلبت على اتجاهه التفسيرى النزعة الفكرية، وتميز بميزتين هما: الوصف المتتابع للعبارات الممتلئة بالمعانى، حتى يخيل للقارئ أنه أمام كتاب أدبى، والميزة الثانية الحس النفسى المتدفق والشعور الباطنى العميق لأسرار آيات الكتاب الكريم.

وهو فى تناوله لشرح كل آية يعرض للألفاظ اللغوية بالتفسير والشرح، ويتعرض لفقه اللغة وأصل الكلمة، عربية أم غير عربية، ويكثر من الاستشهاد بأشعار الجاهليين والإسلاميين، ويعرض للناحية النحوية، ويتكلم عن نزول القرآن على سبعة أحرف، ويعرض لمسألة الناسخ والمنسوخ، والمحكم والمتشابه فى القرآن، وكان حريصا فى التفسير أن يبحث عن اسم السورة، ثم يأتى بأدلة عديدة رواية ولغة، ثم يأخذ منها قولا أو يأتى برأى جديد عن نفسه، ويبين أسباب ترجيحه لهذا الرأى دون غيره.

ويعد الطوسى عند الشيعة الإمامية أكثر

المحدثين الثلاثة (الكلينى، والصدوق، والطوسى) نفوذا فى نشر المذهب الشيعى بكتابيه (التهذيب) و (الاستبصار). وكان اهتمامه ينصب على تثبيت أحاديث الشيعة فى الأحكام لحماية أصل من أصول الاستدلال العقائدى، والدفاع عن الطائفة وآرائها ومعتقداتها.

كما ضرب الشيخ الطوسى أمثله كثيرة فى كتابيه (التهذيب) و (الاستبصار) على تحرى الصحيح من الأخبار، وترك ما سواه بقدر الإمكان، وقد اتضح هذا من خلال بيانه لوجوه فساد الخبر التى لا يمكن معها الاحتجاج به فى دين الله عز وجل، وبين وجوه فساد الخبر وموقفه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة وغيرها.

وتكلم عن الحديث المعلّل، ويعنى به ما فيه من أسباب خافية غامضة قادحة فى نفس الأمر. وعِلَلُ الحديث أنواع كثيرة، منها ما يقع فى الإسناد، كالإرسال والوقف، أو إدخال حديث فى حديث، وقد حصر الأخبار المروية فى الفقة الإمامى - الاثنى عشرى - بجميع أقسامها وفروعها فى ثلاثة أقسام، هى: الأخبار المتواترة، الأخبار المدعمة بالقرائن، أخبار الآحاد.

وقد تأثر الطوسى ببعض المؤثرات الاعتزالية، التى تظهر بوضوح فى آرائه الكلامية، إلا أن الخلاف واضح بينهما فى عدد من الأصول التى تميزت بها الشيعة، وخاصة فى أصل الإمامة، وقد حصر البعض هذه الخلافات بين الشيعة والمعتزلة فى خمس وعشرين مسألة.

كما يظهر الخلاف واضحًا بين مذهب المعتزلة القائم على التعليل العقلى، ومذهب الطوسى القائم على التسليم والطاعة لما يرد عن الإمام، الذى قام عليه التشيع. وتُبَين مؤلفات الطوسى الكلامية حرصه على تأكيد انتمائه للمذهب الشيعى الاثنى عشرى فى علم الكلام، ومع هذا فإن تأثره بالمعتزلة يظهر فى مبدأ الوعد والوعيد، ومخالفته لرأى الإمامية الصريح فى هذا الأصل.

وأهم فكرة تميز بها الشيعة واختلفوا فيها عن أغلب المذاهب الكلامية رأيهم فى الإمامة، ويعتبر الطوسى أن الإمامة أصل من أصول الدين، وليس من فروعه، وهذا يؤدى إلى أن من أنكر أصل الإمامة وضرورتها فقد خرج عن الدين، أما ترك الفرع فلا يُخْرج الإنسان عن الدين.

والطوسى - مثله مثل بقية طائفته - يرى فى الإمامة تصورًا خاصًا يختلف عن تصور أهل السنة، يرى أن الإمامة محصورة فى آل البيت وحدهم دون غيرهم، وأن الإمام على

ابن أبى طالب كان أحق الصحابة بالإمامة، وأنه هو الإمام الأفضل، وبعده الحسن والحسين - رضى الله عنهم جميعا - ثم يختلف بعد ذلك فى الإمام التالى، وتتقسم الشيعة بعد ذلك وفق ما يختارون من الأئمة.

أما الطوسى وطائفته من الشيعة الاثنى عشرية فترى أن الأئمة تأتى من سلسلة: على والحسن والحسين، ثم على زين العابدين ومحمد الباقر، وتتسلسل الأئمة حتى يصلوا إلى الإمام الثانى عشر. وهو محمد بن الحسن العسكرى. وهو المهدى المنتظر، والإمام الغائب.

وتعتبر الإمامة والاشتغال بأمرها أهم ما يجب على المكلَّف بعد معرفة الله وصفاته، لأنه لا يتم التكليف بدونها، ولا يحسن مع ارتفاعها، وأن معرفة الإمام ليست دائما لطفا بل تكون أحيانا واجبة، لأن الذى لا يعرف الإمام لا يعرف كثيراً من الشرعيات والإمامة عند الطوسى لا تكون إلا بالنص من الرسول ﷺ لا بالبيعة، ولا الاختيار من جانب الناس، وإن من واجب كل إمام أن ينص على من يخلفه، والإمام معصوم، والعصمة أمر خفى لا يعلمه إلا الله، فلابد أن يكون النص من جانب الله لأنه - تعالى - يعلم وحده بالعصمة.

والإمام - عنده - يرث العلم اللدنى، والحقيقة المحمدية، وهو الهادى الذى لا غنى عنه، وعلم الإمام فطرى غير مكتسب، ومن هنا كان قبولهم للإمام الأخير، وهو صغير السن عند وفاة والده الحسن العسكرى، وكان عمره لا يتجاوز عدداً قليلاً من السنوات، لأن علمه فطرى.

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة :

١- د. منى أبو زيد: الحرية الإنسانية عند الشيعة الاثنى عشرية، منشأة المعارف، الإسكندرية.
٢- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة جـ ٥- طبعة وزارة الثقافة، مصر.
٣- ابن حجر العسقلانى: لسان الميزان جـ ٥ - طبعة حيدر آباد.
٤- ابن شهراشوب: معالم العلماء - نشر عباس إقبال، طهران، سنة ١٩٣٤م.
٥- حاجى خليفة: كشف الظنون، الأستانة، سنة ١٩٤١م.
٦- محمد رضا الحكيمى: تاريخ العلماء عبر العصور - منشورات مؤسسة الأعلى - بيروت، سنة ١٩٨٣م.
٧- محمود محمد الخضيرى: الشيخ الطوسى مؤسس المركز العلمى بالنجف، مجلة رسالة الإسلام، ع١، سنة ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م ص ٤٠.
٨- نبيلة عبدالمنعم داود: نشأة الشيعة الإمامية - مطبعة الرشاد، بغداد، سنة ١٩٦٨م.
٩- العاملى: أعيان الشيعة، جـ ٤، مطبعة الأنصارى، بيروت، سنة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٩م.

الطوســـى
(٠٠٠ ـ ٣٧٨هـ) = ٠٠٠ ـ ٩٨٨م)

هو أبو نصر عبد الله بن على بن محمد السرَّاج أصله من طوس خراسان، لا يكاد يوجد له ذكر فى كتب طبقات الصوفية المكتوبة بالعربية، وقد تداركت المصادر الفارسية هذا النقص، وقدَّمت بعض المعلومات عنه.

وتذكر هذه المصادر أنه وُلد بطوس، وكانت نشأته بها، وقد تدرج فى مقامات الطريق الصوفى حتى أصبح شيخًا كبيرًا يجتمع حوله المريدون والسالكون للطريق، واتخذ هؤلاء مقرَّه الذى كان له فى طوس خانقاه، وكانوا ينزلون فيها من بعده.

وقد أثنى عليه فريد الدين العطار ثناء عظيما، ووصفه بأنه عالم عارف، وأنه شيخ الوقت، وأنه إمام بحق، ووحيد بالمعنى المطلق، وأنه متعين متمكن، وذكر بعض أحوال الوجد التى كانت تقع له فى سلوكه، وأثناء حديثه عن معارف الصوفية الذوقية الإلهامية.

وقد كان من شيوخه: أبو محمد المرتعش، وجعفر الخلدى، ممن التقى بهم من الصوفية: أبو الحسن أحمد بن محمد بن سالم، شيخ السالمية وشيخ أبى طالب المكى. وكانت وفاته بطوس عام ٣٧٨هـ.

وليس للسراج من مؤلفات بين أيدينا إلا كتابه الكبير: اللُّمَع، وهو يقدم بعض المعلومات عنه، ومن بين ما يقدمه أنه زار عددًا كبيرًا من بلاد ومدن العالم الإسلامى، كتبريز، وبغداد، والبصرة، ودمشق، والرملة، وطرابلس، وصور، ومصر. وكان من غاياته فى هذا الكتاب المهم أن يُقدم صورة شاملة للتصوف، بوصفه «علما من علوم الدين يستند إلى كتاب الله عز وجل، ويتأيد بالاقتداء برسول الله ﷺ والتخلق بأخلاق الصحابة والتابعين، والتأدب بآداب عباد الله الصالحين، وأن يدلل على ذلك كله بالكتاب والأثر، وأن يعتمد على الحجة والبرهان،

ليحق الحق، ويبطل الباطل...»[1]. وقد استند - فى تعريفه للتصوف ودفاعه عنه - إلى إيراد أقوال مشايخ الصوفية وعلمائهم مما ذكروه من معانى علومهم، وعمدة أصولهم، وأساس مذهبهم وأخبارهم وأشعارهم، ومسائلهم وأجوبتهم، ومقاماتهم وأحوالهم، وما انفردوا به من الإشارات اللطيفة، والعبارات الفصيحة ... وحقائقهم ومواجيدهم وفصولهم»[2].

وفى هذا الكتاب تعريف بالمقامات والأحوال، وشرح للمصطلحات المتداولة عند الصوفية، وبيان لآدابهم فى العبادات والسلوك، والحياة الصوفية فى الخلوة والصحبة والسفر والإقامة، وقد تضمن الكتاب - إلى ذلك - نصوصا وأقوالا ورسائل ومكاتبات لبعض الصوفية الكبار، ولهذا كان كتابه مصدرا لا غنى عنه فى معرفة أقوال هؤلاء الصوفية الكبار وأحوالهم، وقد أورد بعض ما نسب إلى بعض الصوفية الكبار، وحاول تفسيرها بما يدفع عنهم التهمة أو سوء الفهم الذى قد يقع فيه من لا دراية له بأذواق الصوفية ومواجيدهم، وعباراتهم المركزة التى لا يستطيع أن يفك رموزها، ويكشف غامضها، إلا من كان له تجربة مثل تجاربهم، وحُسْنُ ظنٍّ بهم، وتوجه إلى حمل كلامهم على أحسن محامله، بعد التأكد من نسبته إليهم، وحمايته مما قد يتطرق إليه من لبس أو غموض إذا ناله تحريف أو حذف أو ابتسار.

وقد وقف الطوسى موقفًا نقديًا من التصوف، وأشار إلى ما يقع فيه الصوفية من أخطاء أو أغلاط فى الأصول والفروع، ليكون ذلك مانعًا من الوقوع فيها، أو الانخداع بها. وكان لكتابه، الذى كان من أهم كتب التصوف فى القرن الرابع الهجرى، أثر فى بعض الكتب الصوفية المهمة التى جاءت بعده، ومنها : كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى، والرسالة القشيرية لأبى القاسم عبد الكريم القشيرى، وكشف المحجوب لعلى بن عثمان الهجويرى.

أ. د. عبد الحميد مدكور

الهوامش:

١ - اللمع ٢١.

٢ - السابق ١٨.

مراجع للاستزادة :

١ - اللمع لأبى نصر السراج الطوسى، تحقيق د/عبد الحليم محمود، وطه سرور ـ دار الكتب الحديثة، والمثنى ببغداد ١٩٨٠م.
٢ - أسرار التوحيد فى مقامات الشيخ أبى سعيد لمحمد بن النور ترجمة د/إسعاد قنديل.
٣ - كشف المحجوب لعلى بن عثمان الهجويرى، ترجمة د/إسعاد عبد الهادى قنديل. طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - مصر ط٢/١٩٩٤م.
٤ - تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار، جـ٢، بعناية نيكلسون، ليدن ١٩٠٧م.
٥ - تاريخ التصوف فى الإسلام لقاسم غنى، ترجمة صادق نشأت - القاهرة ١٩٧٠م.

الطوسى المتكلم
(٥٩٧ - ٦٧٢ هـ = ١٢٠١ - ١٢٧٤م)

هو محمد بن محمد بن الحسن، ويكنى بأبى جعفر، وشهرته الطوسى نسبة إلى مدينة (طوس).

ولد يوم السبت الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٥٩٧هـ = ١٢٠١م، ولا تذكر المصادر شيئًا كثيرًا عن نشأته الأولى، كان والده تلميذًا للأستاذ فضل الله الراوندى، وهو من مريدى الشريف المرتضى، والشيخ الطوسى زعيم المنهج المدرسى لعلم الكلام الشيعى الاثنى عشرى فى القرن الخامس الهجرى.

تتلمذ نصير الدين على والده فى مراحله الدراسية الأولى فتعلم العلوم الشيعية، ثم لازم خاله الحكيم الفاضل الكاشى الفيلسوف، ودرس عليه العلوم الفلسفية، ثم رحل إلى نيسابور لدراسة علوم عصره على علماء نيسابور، فعرف الحكمة والرياضة والفلك والعلوم الدينية والعربية وغيرها.

عاصر الطوسى فترة قلقة من تاريخ الدولة الإسلامية، وهى فترة اقتحام المغول لنيسابور، فرحل عنها إلى (طوس) ثم (قهستان).

يعد نصير الدين الطوسى من أهم فلاسفة الشيعة، بل هو الفيلسوف الشيعى الأول الذى يفخر به التراث الشيعى كله، كما يعد من أشهر علماء العرب فى الرياضة والفلك، أنشأ أول مجمع فلكى علمى فى الإسلام فى مدينة (مراغة) بإيران، إلى جانب تأسيس مكتبة كبيرة حَوَت ما يقرب من نصف مليون كتاب، شملت كافة العلوم، وقد أطلق عليه المؤرخون عدة ألقاب تدل على مكانته العلمية، منها لقب (فخر الحكماء ومؤيد الفضلاء)، ويدعوه البعض باسم (المحقق)، ويذهب آخرون إلى أنه (زين المحققين وأفضل المتأخرين) أو (سلطان المحققين وأستاذ الحكماء والمتكلمين)، وغيرها من الألقاب. وكانت وفاته فى بغداد سنة ٦٧٢هـ = ١٢٧٤م.

ومن آرائه واتجاهاته الفكرية :

(أ) فى المجال العلمى :

اشتهر الطوسى بنبوغه فى علمى الرياضيات والفلك.

١ - علم الرياضيات : قدم الطوسى إسهامات كبيرة فى علم المثلثات، فكان أول من وُفِّق فى وضعها بشكل مستقل عن الفلك، وتمكّن من إخراج كتاب فريد فى هذا العلم اسمه كتاب (الشكل القاطع)، ترجَمَه الأوروبيون إلى اللاتينية والفرنسية والإنجليزية، وبقى قرونًا عديدة مصدرًا لعلماء أوروبا، يستقون منه معلوماتهم فى المثلثات المستوية والكروية، ويُعَدّ الطوسى أول من استعمل الحالات الست للمثلث الكرى القائم الزاوية، ولكتابه هذا أثر كبير فى ارتقاء علم المثلثات، وأثّر بهذا الكتاب على كثير من العلوم الرياضية والبحوث الفلكية.

وللطوسى براعته الفائقة فى معالجة قضية المتوازيات فى الهندسة، وحاول أن يبرهن عليها، وبنى برهانه على فروض، وله كتب كثيرة فى الهندسة، وقد امتازت بحوثه فى هذا المجال بإحاطته الكلية بالمبادئ والقضايا الأساسية التى تقوم عليها الهندسة، ولا سيما فيما يتعلق بالمتوازيات.

٢ - علم الفلك : للطوسى إسهامات علمية وعملية عديدة فى مجال علم الفلك، فقام بنقد كتاب المجسطى الذى يعتبر من أهم الكتب الفلكية حتى عصره، ويشير جورج سارتون إلى أن نقد الطوسى لهذا الكتاب يدل على عبقريته وطول باعه فى الفلك، وأن انتقاده هذا كان خطوة تمهيدية للإصلاحات التى تقدم بها كوبرنيقوس، وجاليليو، وغيرهما من أعلام عصر النهضة.

وأقام الطوسى نظريته البديلة لنظرية بطليموس فى نظام الكون، واقترح نظامًا جديدًا للكون أبسط من النظام الذى وضعه بطليموس، وأدخل فيه حجوم الكواكب وأبعادها، واشتهر بعمله للإسطرلاب، وهى إحدى الآلات المستخدمة فى علم الفلك، يقاس بها ارتفاع الشمس والنجوم، ومعرفة مواقع الكواكب، ومعرفة ساعات الليل والنهار، وظواهر الفصول، والخسوف والكسوف، وقد ساهم فى تطوير هذه الآلة، وأعطاها قيمة علمية ممتازة فى أعماله الفلكية، واخترع أشكالاً جديدة للإسطرلاب، انتقل بعد ذلك إلى أوروبا واستفادت منه.

(ب) فى المجال الفلسفى :

١ - الطبيعيات : تأثر الطوسى بآراء الفيلسوف ابن سينا فى الفلسفة الطبيعية، وحذا حذوه فى مسألة خلق العالم فى الكتب التى شرح فيها مذهب ابن سينا، أما فى كتبه الأخرى فهو يميل إلى القول بحدوث العالم، وأنه لا يخلو من الحركة والسكون، وكل منهما حادث؛ فالعالم ليس بقديم كما ادعى ابن سينا، والزمان غير موجود قبل بدء العالم لأنه

مقياس حركة العالم أو الحركة الفلكية، والزمان إنما يبتدئ مع أول وجود العالم.

وقد رفض الطوسى فكرة الجوهر الفرد التى صرح بها غالبية المتكلمين لتفسير المادة، والجسم عنده مركبٌ من صورة وهيولى، والجسم جوهر واحد متصل وليس مؤلفًا من أجزاء لا تتجزأ هى جواهر فردة، ويوافق الطوسى ما ذهب إليه أفلاطون فى تعريفه للمكان على أنه البعد أو الأبعاد الثلاثة.. والخلاء عنده ممتنع الوجود، والمكان لا يصح عليه الخلو عن شاغل.

٢ - الإلهيات : تناول الطوسى مسألة الصفات الإلهية، ورأى أن انفكاك الماهية عن وجود الواجب محال، والوجود هو عين الماهية فيما يخص الواجب (أى الله) أما بقية الموجودات (المخلوقة) فالماهية أمر عارض، ومن هنا كانت الصفة الإلهية هى عين الذات الإلهية، أما فى باقى الموجودات فالصفة أمر زائد على الذات.

أما فيما يخص مسألة معرفة الله وإدراكه، فيرى الطوسى أن حقيقته ـ تعالى ـ غير معلومة للبشر، وما يعلمه البشر فقط هو الوجود، أى العالم، ويقدم ثلاثة طرق لإثبات وجود الله، **الطريقة الأولى:** يسميها طريقة المتكلمين، حيث يستدلون بحدوث الأجسام والأعراض على وجود الخالق وبالنظر فى أحوال الخليقة.

الطريقة الثانية: يسميها طريقة الحكماء الطبيعيين، حيث يستدلون بوجود الحركة على المحرك، وبامتناع تسلسل المحركات إلى ما لا النهاية، وبهذا يثبتون المحرك الأول.

الطريقة الثالثة: ويسميها طريقة الإلهيين، حيث يستدلون بالنظر إلى الوجود على إثبات واجب الوجود (الله).

ويرى أن هذه الطريقة الأخيرة هى الأوثق والأشرف لإثبات وجود الله تعالى.

٣ - الإنسان : تناول الطوسى موضوعات متعددة لدراسة الإنسان، منها النفس التى رأى أنها جوهر قائم بذاته مفارق للجسم والمادة، والنفوس تتفاوت فى تحصيل المعرفة، والعلم متوقف على الإحساس.

وكان له اهتمامات كبيرة بالمجال الأخلاقى، ورأى أن الأخلاق مكتسبة وليست فطرية، يستطيع الإنسان اكتسابها بالتأديب والتقويم، والأخلاق الفاضلة هى خطوة على طريق السعادة.

ويقدم الطوسى السعادة العقلية على السعادة الجسمانية، فهى الأرقى، لأن اللذة العقلية تفوق فى أهميتها اللذة الحيوانية، والإنسان لا يصل إلى السعادة العقلية إلا بعد

أن يلم بالعلوم الفلسفية ويصل إلى الحكمة. والسعادة عنده ثلاثة أنواع، هى : السعادة البدنية، والنفسية، والروحانية التى هى أعلى السعادات.

أما فيما يخص الفعل الإنسانى، فيرفض الطوسى الاتجاه الجبرى، كما يرفض نظرية الكسب التى قال بها الأشاعرة، ويأخذ بمذهب الاختيار الذى صرح به المعتزلة وكثير من الشيعة.

٤ - النبوة : يرى الطوسى أن النبوة ضرورة، لأنها الداعى إلى التصديق بوجود خالق قدير، وإلى الاعتراف بوعد ووعيد أخرويين، وإلى الالتزم بقوانين شرعية تحكم معاملات الناس حتى يستمر العدل.

ويؤكد الطوسى على عصمة الأنبياء عن الذنوب كلها، صغيرة كانت أو كبيرة، مع قدرتهم عليها، وقدم أدلة على إثبات نبوة محمد ﷺ منها ما ثبت بطريق التواتر والمعجزات، ولكن أهمها معجزة القرآن، وسر الإعجاز فى القرآن الفصاحة مع الأسلوب، بالإضافة إلى الصرفة، أى صرف الناس عن القدرة على الإتيان بمثله.

٥ - الإمامة : تناول الطوسى موضوع الإمامة، شأنه شأن الشيعة، باعتبار أن هذا الموضوع ضمن أصول العقيدة، والإمامة عنده لطف، واللطف واجب عليه تعالى، والإمامة واجبة، والإمام عنده يجب أن يكون معصومًا، والعصمة لا تنفى القدرة، وهى تأتى عن طريق النص.

ترك نصير الدين مؤلفات فى مختلف علوم المعرفة، فله فى العلوم الرياضية، كالهندسة والجبر والمثلثات والفيزياء، والعلوم الفلكية كالفلك والتنجيم والاختيارات والإسطرلاب، وله فى العلوم الفلسفية كالميتافيزيقا والطبيعة والأخلاق والمنطق، إضافة إلى السياسة وعلم الكلام.

بالإضافة إلى مؤلفات فى التاريخ والجغرافيا والشعر باللغة العربية والفارسية، وقد تفاوتت أعداد المؤلفات التى ذكرها له المؤرخون، البعض يرى أنها تقترب من خمسة وسبعين مؤلفا، ويذهب آخرون إلى أنها تزيد على مائة وأربعة وثمانين مؤلفًا، بين كتب ورسائل وأجوبة مسائل وفنون شتى، من أشهرها :

١ - كتاب أدب المتعلمين.

٢ - الابتداء والانتهاء.

٣ - إثبات الواجب.

٤ - كتاب الاثنى عشرية.

٥ - أجوبة الطوسى.

٦ - أساس الاقتباس.

٧ - أخلاق ناصرى.

٨ - تلخيص المحصل.

٩ - تجـريد الاعـتـقـاد. بالإضـافـة إلى شـروحـه على كـتـب ابن سـينا، وغـيـرهـا من المؤلفات.

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١ - الأعسم (د. عبد الأمير): الفيلسوف نصير الدين الطوسى، مؤسس المنهج الفلسفى فى علم الكلام الإسلامى، دار الأندلس، بيروت، ، ١٩٧٥م.

٢ - أغابزرك الطهرانى: الذريعة إلى تصانيف الشيعة، النجف، سنة ١٣٥٥: ١٣٨٤هـ = ١٩٣٦:١٩٦٥هـ.

٣ - الأمين (محسن): أعيان الشيعة، بيروت، سنة ١٣٧٩هـ = ١٩٥٩م.

٤ - الصدر (السيد حسن): تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، بغداد، سنة ١٣٧٠هـ = ١٩٥١م.

٥ - طوقان (قدرى حافظ): تراث العرب العلمى، القاهرة، سنة ١٩٦٣م.

٦ - فرحات (د. هانى نعمان): نصير الدين الطوسى وآراؤه الفلسفية والكلامية، دار إحياء التراث العربى، بيروت، سنة ١٩٨٦م.

٧ - معروف (د. ناجى): المراصد الفلكية ببغداد فى العصر العباسى، بغداد، سنة ١٩٦٧م.

٨ - نعمة (د. عبد الله): فلاسفة الشيعة، بيروت (د. ت).

٩ - نللينو (كارلو): علم الفلك وتاريخه عند العرب فى العصور الوسطى، روما، سنة ١٩١١م.

أبو الطيب المتنبى

(٣٠٣ - ٣٥٤هـ = ٩١٥ - ٩٦٥م)

هو أبو الطيب أحمد بن الحسين الجُعفى الكندى الكوفى المتنبى، الشاعر الحكيم صاحب الأمثال السائرة، والمعانى النادرة، وخاتم ثلاثة الشعراء، وآخر من شارف شعره غاية الارتقاء.

وهو من سلالة عربية من قبيلة جُعفى بن سعد العشيرة: إحدى قبائل اليمانية.

ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ الموافق ٩١٥م فى محلة كِندَة ونسبَ إليها، وليس بكندى. ونشأ بها وأولع بتعلم العربية من صباه. وتوفى فى عام ٣٥٤هـ الموافق ٩٦٥م. وكان نادرة فى الحفظ لا يسأل عن شىء إلا استشهد فيه بكلام العرب من النظم والنثر؛ وكان أبوه فيما يقال سقّاء، فخرج به إلى الشام، ورأى أبو الطيب أن استتمام علمه باللغة والشعر لا يكون إلا بالمعيشة فى البادية، فخرج إلى بادية بنى كلب، وهو بعدُ فتى لا يزيد عمره على عشرين سنة، فأقام بينهم مدة ينشدهم من شعره ويأخذ عنهم اللغة إذ كانت لا تزال صحيحة بالبادية حتى أحاط بغريبها وحوشيها؛ فعظم شأنه بينهم. وكانت الأعراب الضاربون بمشارف الشام شديدى الشغب على ولاتها، فوشى بعضهم إلى لؤلؤ أمير حمص من قبل الإخشيدية بأن أبا الطيب ادّعى النبوة فى بنى كلب وتبعه منهم خلق كثير ويخشى على ملك الشام منه. فخرج لؤلؤ إلى بنى كلب وحاربهم وقبض على المتنبى وسجنه طويلاً ثم استتابه وأطلقه.

فخرج من السجن وقد لصِق به اسم المتنبى مع كراهته له. ثم تكسَّب بالشعر مدة انتهت بلحاقه بسيف الدولة ابن حَمْدان فمدحه بما خلد اسمه أبد الدهر، وتعلم منه الفروسية، وحضر معه وقائعه العظيمة مع الروم حتى عدّ من أبطال القتال طمعاً منه أن يكون صاحب دولة. وبقى أثيراً عنده مقدماً على جميع حاشيته وبطانته مع صلَفه وتيهِه. فوشوا به إلى سيف الدولة. وكان أشدهم حسداً له ابن خالويه النحوى مؤدب سيف الدولة. فجرت مناظرة بينه وبين أبى الطيب فى مجلس سيف الدولة، فضربه ابن خالويه بمفتاح جديد فى وجهه فشجه ولم ينصفه

سيف الدولة منه. فقصد أبو الطيب كافوراً الإخشيدى أمير مصر رجاء أن ينال عنده ما لم ينل عند سيف الدولة، ومدحه بقصائد سنية. ووعده كافور أن يقلده إمارة أو ولاية. ولكنه لما رأى تغاليه فى شعره وفَخره بنفسه عدل أن يوليه، وعاتبه بعضهم فى ذلك فقال: ياقوم: من ادعى النبوة بعد محمد صلى الله عليه وسلم أما يدعى المملكة بعد كافور! فحسبكم. فعاتبه أبو الطيب عتاباً أمضّه وآلمه، واستأذن فى الخروج من مصر فأبى، فتغفله ليلة عيد النحر سنة ٣٥٠هـ وخرج منها يريد الكوفة، ومنها قصد عضد الدولة ابن بويه بفارس ماراًّ ببغداد، فمدحه ومدح وزيره ابن العميد فأجزل صلته وعاد إلى بغداد؛ فخرج عليه أعراب بنى ضبّة وفيهم فاتك ابن أبى جهل، وكان المتنبى قد هجاه هجاءً مقذعا، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى قتل هو وابنه وغلامه سنة ٣٥٤هـ.

ولا خلاف عند أهل الأدب فى أنه لم ينبغ بعد المتنبى فى الشعر من بلغ شأوه أو داناه، والمعرى على بعد غوْره وفرط ذكائه وتوقد خاطره وشدة تعمقه فى المعانى والتصورات الفلسفية يعترف بأبى الطيب ويقدمه على نفسه، على أنهم مجمعون أن البحترى من حيث رقة اللفظ وحسن التخيل يفضل أبا تمام والمتنبى، ويختلفون فى المفاضلة بين الأخيرين من حيث الحِكَمُ والمعنى، ولعل المتنبى أرجحهما . وقد قال المتنبى الشعر فى كل غرض من أغراضه، وأجاد فى وصف المعارك والعتاب والمراثى، أما مدائحه فهى أكثر بضاعته، وقلما ترك فيها معنى لم يطرقه. ولثقته بنفسه فى اللغة وعلوم العربية جعل غايته فى شعره إبراز معانيه الشريفة وأفكاره الدقيقة على أى لفظ كان وبأى أسلوب تهيأ له، ولو لم يجْرِ على مشهور القياس. أو ينطبق على وجوه البلاغة والأساليب الشعرية السهلة؛ ولذلك تجد فى كلامه كثيراً من الغرابة والتعقيد اللّفظى. وله من الحكم والأمثال ما يربو به على كل شاعر تقدّمه. وقد أصبح للغة العربية وآدابها من كلامه ثروة لم تكن لها لولاه، وما من كاتب أو خطيب أو متكلم أو مناظر أو مدرس إلا وله من حكم المتنبى مَدّد أيُّما مدد.

ومن قوله:

إذا رأيت نيوب اللّيث بارزةً
فلا تظنَّنّ أن الليث يبتسمُ

أعيذُها نظراتٍ منك صادقة
أن تحسب الشحْم فيمن شحمهُ ورم

وما انتفاع أخى الدنيا بناظِرِه
اذا استوت عنده الأنوار والظلم

يا من يعزُّ علينا أن نفارقهم
وجدانُنا كل شىء بعدكم عدم

إن كان سرَّكم ما قال حاسدُنا

فـمـا لجُـرحٍ اذا أرضـاكم ألم

وبيننا لو رعيتم ذاك معرفة

أن المعـارف فى أهل النهى ذِمم

كم تطلبون لنا عيبًا فيعجزكم

ويكره الله مـا تأتون والكرم

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا

ألا تفـارقـهم فـالراحلون هـمُ

ومن قـوله يمدح سـيف الدولة ويصف معركة:

أتوك يجرون الحديد كأنما

سـروًا بجـيـاد مـالهن قـوائم

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه

وفى أذُن الجـوزاء منه زمـازم

تجمّع فيه كل لِسن وأمة

فما يُفهم الحُدَّاث إلاّ التراجم

وقفت وما فى الموت شك لواقف

كـأنك فى جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كَلْمى هزيمةً

ووجـهك وضـاح وثغـرك باسم

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى

إلى قـول قـوم أنت بالغيب عالم

ضممت جناحيهم على القلب ضمةً

تموت الخوافى تحتها والقوادم

ومن قوله يرثى:

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى

أن الكواكب فى التـراب تمور

مـا كنت آمل قبل نعشك أن أرى

رَضْوى على أيدى الرجال يسير

خـرجـوا به ولكلّ باك حـوله

صـعـقـات موسى يوم دُكّ الطور

حـتى أتوا جـدثاً كـأن ضـريحـه

فى كل قلبٍ مُـوجـدٍ مـحـفـور

كـفلَ الثناءُ له بردّ حـيـاتهِ

لَمّا انطوى فكـأنه منشـور

وديوان شعره مشهور شرح وانتقد وكتب فيه أكثر من أربعين تأليفا، ومن شروحه المطبوعة: العُكبرى وشرح الواحدى.

أ.د. محمود على مكى

مراجع للاستزادة:

١ - وفيات الأعيان، لابن خلكان، ١/٣٦.

٢ - تاريخ بغداد، للبغدادى، ٤/١٠٢.

٣ - دائرة المعارف الإسلامية، ١/٣٧١.

٤ - الأعلام، للزركلى، ١/١١٥.

عائشة بنت أبى بكر
أم المؤمنين رضى الله عنهما
(٩ ق هـ - ٥٨ هـ = ٦١٣ - ٦٧٨م)

هى عائشة بنت عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى القرشى التميمى.

وهى ابنة أبى بكر الصديق بن أبى قحافة خليفة رسول الله ﷺ، وأمها أم رومان بنت عامر بن عويمر الكنانية. الصديقة بنت الصديق زوج رسول الله ﷺ أم المؤمنين، وكانت تكنى أم عبد الله. ولدت بعد البعثة بأربع سنين أو خمسة، ونشأت فى بيت الإيمان والصدق بيت أبى بكر الصديق رضى الله عنه. وتوفيت رضى الله عنها سنة سبع وخمسين وقيل ثمان وخمسين من الهجرة فى ليلة الثلاثاء لسبع عشرة خلت من رمضان عند الأكثر ودفنت بالبقيع، وقد أمرت أن تدفن ليلا فدفنت بعد الوتر وصلى عليها أبو هريرة، ونزل قبرها خمسة عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم بن محمد، وعبد الله بن محمد بن أبى بكر، وعبد الله بن عبدالرحمن ابن أبى بكر، رضى الله عنها وأرضاها روى أهل البصرة عن أبى عثمان النهدى عن عمرو ابن العاص سمعه يقول: قلت لرسول الله ﷺ: أى الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، قلت: فمن الرجال؟ قال : أبوها. أخرجه أحمد والترمذى.

ثبت فى الصحيح أن النبى ﷺ تزوجها وهى بنت ست وقيل سبع - والمراد بذلك العقد عليها - ودخل بها وهى بنت تسع، وكان دخوله بها فى شوال فى السنة الأولى من الهجرة بالمدينة المنورة. وقال الزبير بن بكار: تزوجها بعد موت خديجة، قيل: بثلاث سنين، وأخرج ابن سعد عن الواقدى عن أبى الرحال عن أبيه عن أمه عمرة عنها: قالت: أعرس بى على رأس ثمانية أشهر، وقيل: كان ذلك فى السنة الثانية من الهجرة. وفى الصحيح من رواية أبى معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: تزوجنى رسول الله ﷺ وأنا بنت ست سنين، وبنى بى وأنا بنت تسع، وقبض وأنا بنت ثمانى عشرة سنة.

مناقبها ومنزلتها: مناقبها وفضائلها كثيرة ومنزلتها بين الصحابة عامة، وبين أمهات

المؤمنين خاصة عالية سامية، ولها عند رسول الله ﷺ بصورة أخص حظوة ومكانة كبرى، فمن من ذلك ما ورد فى الصحيح أنه ﷺ لم ينكح بكرا غيرها وهو متفق عليه بين أهل النقل.

ومن أعظم مناقبها، وأنزل الله تعالى فى شأنها من القرآن الكريم الذى برأها وأثنى عليها وزكاها وفضح أعداءها الأفاكين المنافقين مما اتهموها به من الإفك والبهتان العظيم.

روت السيدة عائشة أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وعن أبيها أبى بكر رضى الله عنهما، كما روت عن عمر وفاطمة وسعد بن أبى وقاص وأسيد بن خضير، وجذامة بنت وهب وحمزة بنت عمرو رضى الله عنهم أجمعين وروى عنها من الصحابة: عمر وابنه عبد الله وأبو هريرة وأبو موسى وزيد بن خالد وابن عباس وربيعة بن عمرو الجرشى والسائب بن يزيد، وصفية بنت شيبة وعبد الله بن عامر بن ربيعة وعبد الله بن الحارث ابن نوفل وغيرهم، ومن آل بيتها: أختها أم كلثوم وأخوها من الرضاعة عوف بن الحارث وابن أخيها القاسم، وعبد الله بن محمد بن أبى بكر، وبنت أخيها الآخر حفصة وأسماء بنتا عبد الرحمن بن أبى بكر، وحفيده عبد الله بن أبى عتيق محمد بن عبد الرحمن، وأبنا أختها عبد الله وعروة ابنا الزبير بن العوام، وحفيدا أسماء عباد وحبيب ولدا عبد الله بن الزبير، وحفيد عبد الله عباد بن حمزة بن عبدالله بن الزبير، وبنت أختها عائشة بنت طلحة من أم كلثوم بنت أبى بكر، ومواليها أبو عمر وذكوان وأبو يونس وابن فروخ، ومن كبار التابعين سعيد بن المسيب وعمرو بن ميمون وعلقمة بن قيس ومسروق وعبد الله بن حكيم والأسود بن يزيد وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وأبو وائل، وآخرون كثيرون.

لقد كانت رحمها الله ورضى عنها مدرسة كبيرة من مدارس النبوة العظيمة حيث ورثت عن رسول الله ﷺ الكثير كما ورثت عن أبى بكر وآل بيته الكثير، كما أخذت عن أصحاب رسول الله ﷺ الكثير فاجتمع كل ذلك لها فكان منها العلم والخير الكثير، قال أبو الضحى عن مسروق: رأيت مشيخة أصحاب رسول الله ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض - أى المواريث - وقال عطاء بن أبى رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأعلم الناس، وأحسن الناس رأيا فى العامة، وقال هشام بن عروة عن أبيه: ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطب ولا بشعر من عائشة، وقال أبو بردة بن أبى موسى عن أبيه: ما أشكل علينا أمر فسألنا عنه عائشة إلا وجدنا عندها فيه

علما، وقال الزهرى: لو جمع علم عائشة إلى علم جميع أمهات المؤمنين، وعلم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل، وأسند الزبير بن بكار عن أبى الزناد قال: ما رأيت أحداً أروى بشعر من عروة، فقيل له: ما أرواك فقال: ما روايتى فى رواية عائشة ماكان ينزل بها شىء إلا أنشدت فيه شعرا، ومعنى ذلك أنها رضى الله عنها كانت موسوعة فى الحديث والفقه والطب والشعر بل فى كل شىء كما مر فى الأثر، وقد روت من الأحاديث (٢٢١٠).

أ.د. محمد نبيل غنايم

مراجع للاستزادة :

١ -الإصابة فى تميز الصحابة لابن حجر

٢- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر.

٣- الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبد البر.

٤- تهذيب التهذيب لابن حجر

٥- الطبقات الكبرى لابن سعد

٦- حلية الأولياء لأبى نعيم.

٧- سيرة ابن هشام

٨- الاصطفا فى سيرة المصطفى لمحمد نبهان الخباز.

عائشة التيمورية

(١٢٥٦ - ١٣٢٠هـ = ١٨٤٠ - ١٩٠٢م)

هى عائشة ابنة إسماعيل باشا بن محمد كاشف تيمور؛ كان والدها رئيسا للديوان الخديوى، وهى الشقيقة الكبرى للعلامة أحمد تيمور، وتولت تربية أخيها، كما أنها عمت الأديبين الشهيرين محمود وأحمد تيمور. أبرز شاعرة عربية فى جيلها، تصل مكانتها بين الشاعرات العربيات المحدثات إلى المكانة الموازية لمحمود سامى البارودى، نظمت الشعر بالعربية، وبالتركية لغتها الأصلية، وبالفارسية أيضا.

ولدت شاعرتنا بمدينة القاهرة فى قصر والدها فى (درب سعادة) القائم خلف مبنى مديرية أمن القاهرة الحالى. وكانت ولادتها فى ١٢٥٦هـ الموافق ١٨٤٠م فى العهد الأخير من حكم محمد على.

وكانت وفاتها فى عام ١٣٢٠هـ الموافق ١٩٠٢م فى حكم الخديو «عباس حلمى الثانى».

تزوجت فى سن مبكرة من محمد توفيق زادة الإسلامبولى، وعاشت حياتها كسيدة بيت مع اهتمام بالأدب الذى شَجَّعه عليها والدها وزوجها، وتلقت تعليما مميزا فى البيت، والتفتت إلى الشعر العربى القديم، فدرسته وحفظت منه الكثير، كما درست العروض والقافية، وتمكنت من الشعر، ثم تفجرت طاقتها الشعرية بوفاة والدها وزوجها، ثم ابنتها الوحيدة «توحيدة» التى كانت بمثابة الحدث الذى زلزل كيانها، وجعلها أسيرة للحزن حتى أوشكت أن تفقد بصرها، ومازال أولادها بها حتى تعافت من أزمتها. وعلى الرغم من أن شعرها كان تقليديا مَحْضاً إلا أنها أحيت اهتمام المرأة العربية بالشعر وتفوقها فى قوله، كما ضربت المثل فى القدرة على مجارات الأحداث والتعليق عليها بالقصائد، إلى جانب ريادة المجالات التى ارتادها القدماء من الشعراء.

لما رأى فيها والدها وَمْضَة من العبقرية أخذ يُشَجِّعها إلى ما تصبو إليه من صناعة الأدب. كما أحضر لها والدها الأساتذة والمعلمين، ليدرسوا لها القرآن الكريم، والفقه، والخط، والنحو، والصرف، واللغة الفارسية،

ولاحت مخايل براعتها فى نظم الشعر الذى أحسنته، مما هيَّأ لها إنشاء القصائد المطولة، والأزجال المنوعة، وظلت تنظم القصائد والموشحات والأزجال باللغات الثلاث: العربية، وهى لغة وطنها الجديد، وبالتركية لغة وطنها الأصلى، وبالفارسية.

وقد غطت أشعارها مجالات: «شعر المجاملة، والشعر العائلى، والشعر الغزلى».

«والشعر الأخلاقى، والشعر الدينى، أو الابتهال».

أما فى شعرها الأخلاقى فإنها تنادى بالإقلاع عن البخل، وعدم التعلق بالمال، وحفظ اللسان؛ على أن الراحة الكبرى عندها فى الصلاة، والالتجاء إلى الله، فهو الذى ـ وحده ـ يسعد ويشفى.

أما عن مؤلفاتها، فلم يبق فيها إلا :

١- ديوانها العربى المسمى «حيلة الطراز».

٢- ديوانها التركى الفارسى «شكوفة».

٣- «نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال» وفيه استقصاء لأحاديث السلف، وهى ملخص لمجموعة القصص التى سمعتها، وكانت بارقة أمل للفن القصصى الحديث.

٤- مرآة التأمل فى الأمور» وهى رسالة عالجت فيها الموضوعات الاجتماعية، وتسرب الفساد إلى الأسرة، وأكملتها بمقالتها فى جريدة «الآداب» وعنوانها: «لا تصلح العائلات إلا بتربية البنات» ولغة هذه الرسالة وسابقتها هى: «لغة المقامات والسجع».

وقد ألفت التيمورية رواية تمثيلية هى: «اللقا بعد الشتات»، وتركت رواية أخرى بخطها إلا أنها غير كاملة.

أ.د محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١- من أدباء الإسلام المعاصرين للأستاذ على الجمبلاطى ص٦٢ ـ ٦٧.

٢- الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور لزينب فواز ص ٣٠٣.

٣- الأعلام للزركلى ٣/ ٢٤٠.

عائشة عبد الرحمن
(بنت الشاطئ)
(١٩١٣ - ١٩٩٨م)

وُلدت عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ» بدمياط (١٩١٣م) (وتوفيت سنة ١٩٩٨م رحمها الله) فى بيت والد فاضل ينتسب للأزهر، فدفعها إلى حفظ القرآن فى سن مبكرة، وكان يصحبها إلى عمله بالمعهد الدينى بدمياط فترى طلاب الأزهر يتجمعون بجامع البحر فى حلقات لدرس العلم فتتمنى أن تكون مثل هؤلاء. وصادفت رغبتها استجابة والدها. فألحقها بمدرسة المعلمات بعد أن عارض فى ذلك أمداً غير قصير، ونالت شهادة الكفاءة وعينت مدّرسة بالمرحلة الأولى. ولكنَّ آمالها قد ارتفعت بها إلى مستوى عال، فذاكرت من تلقاء نفسها دون موجه. حتى نالت الشهادة الثانوية من المنازل، وعملت فى وظيفة إدارية بكلية البنات فضمنت الرزق الكريم؛ لأن والدها عارض ذهابها إلى القاهرة معارضة شديدة خيفة عليها من الفتنة - فى ظنه - ورأت الفتاة أن تلتحق بكلية الآداب، ولكنها قبل ذلك بعامين أخذت تنشر مقالات اجتماعية إسلامية فى أكبر جرائد مصر، فصار لها اسم رنان.

وفازت بالجائزة الأولى فى مسابقة أدبية كبرى تقدم لها كبار الكتاب فى مصر، فأصبحت - وهى الشابة المتطلعة - تكتب فى الصفحة الأولى من الأهرام. وعُرفت بدفاعها عن الريف المظلوم، والفتيات البائسات. وهجومها على الحضارة الزائفة. واختارت لها اسم (بنت الشاطئ) فكان له بريق لدى القراء، وقد توهموها كاتبة كبيرة تجاوزت عصر الشباب. لما أبدت من نضج مكتمل، وهكذا كانت فى نظر المنصفين من كتاب الصف الأول فى مصر.

وحين التحقت بالجامعة كانت نمطا جديدا لفتيات الكلية. فمنهن من آثرن السفور، ودعون إلى حفلات السمر اللاهية، ولكنها عارضت ذلك كله، وعكفت على دراستها الواعية حتى لفتت إليها كبار الأساتذة فى الكلية، ومنهم منصور فهمى وأحمد أمين ومصطفى عبد الرازق وعبد الوهاب عزام، بل منهم أستاذها الذى صار زوجها فيما بعد (أمين الخولى) فجنت من كل

ما قدم لها من صادق المعرفة. وكانت فتاة طلقة متيقظة، فامتلأت علما وزكت خلقا، وثابرت حتى نالت الليسانس بامتياز، فالماجستير، فالدكتوراة. وأصبحت عضوا فى هيئة التدريس، فمشاركة لزوجها الكبير فى أعماله الأدبية، إذ كانت على قرب عهدها بالبحث العلمى موضع استشارته، ومجال ثقته، وقد ترك لها أسلوبها المتفرد، فكانت ذات شخصية مستقلة فى البحث تخالف فى بعض مناحيها منهجه الأدبى، وإن لم تعترف بذلك، بل نصت على أنها تحتذيه، وقد كتبت سيرتها فى كتاب قيم عنوانه (على الجسر) ضمّ كل شائق طريف.

ومِن حسن توفيق الله لبنت الشاطئ (عائشة عبد الرحمن) أنها اهتدت بفطرتها الإسلامية النبيلة إلى طريق الحق فى سن المراهقة قبل أن تلتحق بالجامعة، إذ كانت فى هذا العمر الغضّ كاتبة فى مجلة (النهضة النسائية) فكتبت بالعدد (٧٢) الصادر فى مارس سنة ١٩٣١م وهى فى سن الثامنة عشرة من عمرها مقالاً قالت فيه حين زارت القاهرة لأول مرة: «لقد خيل إلىَّ وأنا أسير فى شوارع القاهرة أنى فى مخادع النساء، وكأنهن معرض عام لاستعراض الأجسام، أين الغيرة التى تحس بها المسلمات تمشى فى أجسادهن؟ أين النخوة التى تشعر بها المؤمنات؟ إن الحرية الزائفة، والإباحية المنكرة، هى كل ما يعرفن من شئون الحياة؟ لقد تركت الفتيات مخادعهن، واستبدلنها بالأسواق، حيث يمشين مشية يشمئز منها الرجل الحر، فالفتاة لا تستحى أن تمشى نصف عارية ولا تخجل من السير معطرة، كأنها بين محارمها، أين وقار الإسلام، وجمال الحياة؟! إنى لأشعر بالهدوء يغمرنى حين أذكر أن هناك رجلا ولو فى المائة تسمو شجاعته فيهزأ بأمثال هؤلاء الخليعات، ويكون سلوى لأمثالنا فى هذا الجو الموبوء». هذا بعض ما كتبته بنت الشاطئ قبل أن تلتحق بالجامعة، وهو نفسه ما دأبت على تكراره فى مقالاتها السيارة بجرائد (البلاغ) و(كوكب الشرق) و(الأهرام) من بعد، مما يدل على أن الروح الإسلامية كانت أصيلة فى كيانها، وأنها نشأت ملتزمة مصونة تدعو إلى الحسنى، حتى أتت أكلها الطيب بعد حين.

وقد تعددت اتجاهاتها الفكرية، ولا نستطيع أن نواكبها فى كل ما جاءت به من مؤلفات ممتازة ولكننا نكتفى بالمنحى الإسلامى، والنشر المتوانى لذخائر الأدب العربى، وأوضح ما ظهر من ذلك ما كتبته عن إعجاز القرآن، والتفسير البيانى، وما سمته بالتفسير العصرى، وقد ذكرت فى مقدمة الجزء الأول من التفسير البيانى أنها التزمت

بمنهج أستاذها أمين الخولى فيما كتبته من مواد الإعجاز والتفسير، وحددت هذا المنهج فى نقاط أهمها:

١ - التناول الموضوعى للآيات التى تتحدث عن غرض واحد.

٢ - ترتيب الآيات على حسب نزولها لمعرفة ظروف الزمان والمكان، مهتمة بأسباب النزول التى تختلف فى بعض الروايات، وموضحة بواعث هذا الخلاف.

٣ - فهم دلالات الألفاظ عن طريق الحس العربى الخالص، واستقراء كل ما فى القرآن من الصيغ اللغوية، وتدبر السياق الخاص بالكلمة والجملة والسورة الكريمة.

٤ - الاحتكام إلى سياق النص فى كل ما يعطيه من دلالات على الائتناس بأساليب البيان العربى فى عصره الزاهر.

وقد حاولت أن تطبق هذا المنهج جاهدة فيما كتبته عن التفسير فى جزءين جيدين، ولكنها اختارت قصار السور فحسب، وهذا الاختيار لا يظهر ما تعنيه بالتفسير الموضوعى على حقيقته، كما يظهر فى طوال السور، ولعلها كانت تمهد بذلك إلى تفسير للسور الطوال فضاق العمر عن التنفيذ، كما أنها وقفت عند الدراسة اللغوية مقارنة وموازنة بين آراء المفسرين من لدن الطبرى إلى محمد عبده، ولم تفسح المجال لما بعد الدراسة اللغوية من أفكار قرآنية، وهى ذات هدف أول، ولعل عنوان التفسير البيانى قد غلب على اتجاهها فى هذا المنحى، ولكل وجهته الخاصة.

أما الاتجاه الثانى فى المجال الإسلامى، فيتجلى فى كل ما أصدرته عن الأسرة النبوية الكريمة فى موسوعتها الحافلة عن سيدات البيت النبوى التى شملت آمنة - رضى اللّٰه عنها - وأمهات المؤمنين جميعهن، ومن يتصل بالبيت النبوى كفاطمة، وزينب الأولى، وزينب الثانية بطلة كربلاء، وسكينة، وغيرهن.

والحق أن الأسلوب الأدبى الرائع قد جلّى ما تهدف إليه من الحقائق الإيمانية أحسن تجلية، لذلك تعددت طبعات هذه الموسوعة الرائعة، ونُقلت إلى لغات شتى، وقد نُشرت أولا فى أجزاء صغيرة مسلسلة (كتاب الهلال) ثم جُمعت فى مجلد تجاوز الألف من الصفحات التى ترجمت إلى التركية والفارسية والأردية والأندونيسية، فذكرتنا بما كان يُترجم تلقائيا لهذه اللغات من مؤلفات محمد عبده، وطنطاوى جوهرى، وفريد وجدى، ورشيد رضا، فى مطلع القرن العشرين، ولابد أن نقول إن هذا الكتاب الرائع قد حمل من الاستطراد الكبير أحيانا ما كان ينبغى تجاوزه، وقد ظهر ذلك واضحا فى كتاب بنت

الشاطئ عن السيدة آمنة أم الرسول ﷺ؛ لأن المادة المتاحة فى كتب التاريخ لا يمكن أن تستقل بكتاب خاص. فاضطرت إلى الحديث عن أمهات سابقات للأنبياء مثل هاجر أم إسماعيل، وأم موسى، ومريم أم عيسى، ثم عن البيت الحرام بمكة، ورفع قواعده على يد إبراهيم وإسماعيل مما شمل أكثر من ثمانين صفحة من الكتاب. وهى إفادة جيدة للقارئ، ولكن فى غير مجال الحديث عن والدة رسول الله ﷺ.

أما جهد الكاتبة فى التراث الإسلامى فمشكور، إذ اهتمت أولاً بالحديث عن التراث بين الماضى والحاضر، وعن القيم الثمينة التى يحويها هذا التراث، ثم اتجهت إلى التطبيق العملى فيما نشرته من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى نصًا وتحقيقًا ودراسة نقدية ثم رسالة «الصاهل والشاحج» لأبى العلاء، وهى من أعقد مؤلفات أبى العلاء لغة ورمزا، وقد أوضحت فى الهوامش ما يفسر كثيرًا من الغوامض، أما عملها الرائع حقا فى هذا المجال فهو تحقيقها «لمقدمة ابن الصلاح» فى الحديث، وهذه المقدمة فى مجالها تشبه «مقدمة ابن خلدون» فى التاريخ، وقد بذلت الدكتورة فى تحقيق النصوص، والتعليق على الآراء ما جعل الكتاب يصل إلى تسعمائة صفحة، مع أنه فى طبعته الأخيرة لا يُجاوز المائتين، ليست المسألة مسألة كم فقط، ولكنه كم «كيفىٌّ» يبرز جهدا أصيلا فى مجال شاق لا يصمد له غير الثقات من الفحول، وقد استغرق عملها فى هذا الكتاب أكثر من عشر سنوات ما بين توثيق ومقارنة، وتحقيق لما اختلفت عباراته فى الطبعات السابقة، مع الفهارس المتعددة ذات النفع الأكيد.

ومن مؤلفاتها :

١ - التفسير البيانى للقرآن الكريم (جزءان).

٢ - الإعجاز البيانى ومسائل ابن الأزرق.

٣ - القرآن والتفسير العصرى.

٤ - نساء النبى رضى الله عنهن.

٥ - الحياة الإنسانية عند أبى العلاء.

٦ - قيم حديثة للأدب العربى - القديم والمعاصر.

٧ - لغتنا والحياة.

٨ - تراثنا بين ماض وحاضر.

٩ - الخنساء : الشاعرة العربية الأولى.

١٠ - أرض المعجزات - رحلة فى بلاد العرب.

١١ - سيد العزبة (رواية مصرية).

١٢ - رجعة فرعون (رواية مصرية).

١٣ - رسالة الغفران (تحقيق).

١٤ - الغفران (دراسة).

١٥ - الصـاهل والشـاجح - نص مـحـقق لأبى العلاء.

١٦ - أبو العلاء المعرى - ترجمة ذاتية.

١٧ - مـقـدمـة ابن الصـلاح (تحـقـيق) ودراسة شاملة.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة :

١ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين د/ محمد رجب البيومى - جـ ٦.

٢ - الصحف والمجلات التى كرمتها بعد وفاتها ومن أهمها مجلة الأزهر ومجلة منبر الإسلام والهلال.

٣ - كتاب (على الجسر) وقد تضمن سيرة ذاتية للمؤلفة.

٤ - مقدمة كتاب (صور من حياتهن) مع ما ذكرته من مواقفها مع من تحدثت عنهن.

٥ - رسالة ماجستير بكلية الدراسات الإسلامية بالقاهرة للبنات.

٦ - مذكرات المرأة المصرية الباب الأول: بنت الشاطىء. - د. محمد الجوادى.

عاصم بن أبى النجود
(٠٠٠ ـ ١٢٧ هـ = ٠٠٠ ـ ٧٤٥م)

هو أبو بكر: عاصم بن أبى النجود[1] بن مالك بن نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة وينتهى نسبه إلى عدنان.

أحد القراء السبعة تابعى جليل من أهل الكوفة، كان ثقة فى القراءات، صدوقا فى الحديث.

توفى عاصم ـ رحمه الله ـ آخر سنة سبع وعشرين ومائة للهجرة بالكوفة.

قرأ عاصم على أبى عبد الرحمن عبد الله ابن حبيب بن ربيعة السلمى الضرير، وأبى مريم زر بن حبيش بن حباشة الأسدى، وأبى عمرو سعد بن إلياس الشيبانى وقرأ هؤلاء الثلاثة على عبد الله بن مسعود، وقرأ زر والسلمى أيضًا على عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب ـ رضى الله عنهما ـ وقرأ السلمى أيضًا على أبىٍّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وقرأ ابن مسعود وعثمان وعلى وزيد على سيدنا رسول الله ﷺ.

قرأ على عاصم خلق كثير منهم: الأعمش، وأبان العطار، والحسن بن صالح، والمفضل بن محمد الضبى، وحماد بن شعيب الجمانى وهو حماد بن أبى زياد ـ وأبو بكر بن عياش، وحفص بن سليمان الأسدى، ونعيم بن ميسرة، وأبو عمرو بن العلاء، وحمزة بن حبيب الزيات، والخليل بن أحمد، ومن أشهر رواته:

١ ـ شعبة: أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدى الكوفى.

٢ ـ حفص بن سليمان أبو عمر الأسدى المقرئ.

يعد عاصم هو الإمام الذى انتهت إليه مشيخة الإقراء بالكوفة بعد شيخه أبى عبد الرحمن السلمى.

فهو أول الأئمة الكوفيين الذين لمع ذكرهم فى سماء القراءة والإقراء بالكوفة وهم: عاصم، وحمزة، والكسائى، وقد أثنى عليهم الإمام الشاطبى فى منظومته حرز الأمانى حيث يقول:

وَبِالْكُوفَةِ الْغرَّاءِ مِنْهُم ثَلاَثَةٌ
أَذَاعُوا فَقَدْ ضَاعَتْ شَذاً وَقرَنْفُلاَ

لقد عرف العلماء لعاصم قدره، وشهدوا له بعلو المنزلة. فقد روى حماد بن سلمة وغيره عن عاصم أن أبا وائل ما قدم عليه إلا قبَّل كفه.

قال أبو بكر بن عياش: لما هلك أبو عبد الرحمن السلمى جلس عاصم يقرئ الناس، فرحل إليه الكثير من شتى الآفاق وكان يتمتع بالفصاحة والتجويد والتحرير والإتقان، وكان أحسن الناس صوتا بالقرآن.

قال أبو بكر بن عياش ـ شعبة ـ: لا أحصى ما سمعت أبا إسحاق السبيعى يقول: ما رأيت أحدًا أقرأ للقرآن من عاصم بن أبى النجود، وكان عالما بالسنة لغويًا نحويًا فقيهًا.

وقال يحيى بن آدم: حدثنا حسن بن صالح قال: ما رأيت أحدًا قط أفصح من عاصم إذا تكلم كاد يدخله خيلاء.

وقال أبو بكر بن عياش: قال لى عاصم: مرضت سنتين فلما قمت قرأت القرآن فما أخطأت حرفا.

ولما سأل عبد الله بن أحمد بن حنبل أباه عن عاصم بن بهدلة. فقال: رجل صالح خير ثقة، قال عبد الله: فسألت أبى: أى القراءة أحب إليك؟ قال: قراءة أهل المدينة، فإن لم تكن فقراءة عاصم.

قال أحمد بن عبد الله العجلى: عاصم صاحب سنة وقراءة، كان رأسًا فى القرآن.

وقال سلمة بن عاصم: كان عاصم بن أبى النجود ذا نسك وأدب وفصاحة وصوت حسن.

وكان ـ رحمه الله ـ إذا صلى ينتصب كأنه عود، وكان يمكث يوم الجمعة فى المسجد إلى العصر، وكان عابدًا خيرًا دائما ما يصلى، فإذا أتى حاجة، فإن رأى مسجدًا قال: مِلْ بنا. فإن حاجتنا لا تفوت. ثم يدخل فيصلى، قال شعبة: دخلت على عاصم وقد احتضر فجعلت أسمعه يردد هذه الآية:

﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾ يحققها كأنه فى الصلاة لأن تجويد القراءة صار فيه سجية.

رحم الله الإمام عاصما وجزاه عن القرآن خير الجزاء.

أ.د. أحمد المعصراوى

الهوامش:

١ - أبو النجود اسمه بهدلة الأسدى، وقيل: إن بهدلة اسم أمه وقال الذهبى: ليس بشىء بل هو اسم أبيه ـ سير أعلام النبلاء ٥/٢٥٦.

مراجع للاستزادة:

- طبقات ابن سعد ٦/٢٢٤ ـ السبعة لابن مجاهد ص ٦٩، وفيات الأعيان ٣/٩، غاية النهاية ١/٣٤٦، النشر ١/١٥٥، تهذيب التهذيب ٥/٣٨، شذرات الذهب ١/١٧٥، الأعلام للزركلى ٣/٢٤٨.
- غاية الاختصار ١/٥٢ ـ معرفةالقراء الكبار ١/٨٩ وما بعدها ـ معرفة القراء الكبار ١/٨٩ وما بعدها وتاريخ القراء العشرة للقاضى ص ٣٧.

عباس بن فرناس
(١٩٠-٢٦٠هـ = ٨٠٥-٨٧٣م)

هو أبو القاسم: عباس بن فرناس بن ورداس، مخترع أندلسى، من أهل قرطبة، من موالى بنى أمية.

ولد سنة ١٩٠هـ = ٨٠٥م. وأصله من كورة تاكرُنّا (رُندة) بجنوب الأندلس فى شرق المثلث الإسبانى، وينتمى إلى أسرة من البربر، إلى ذلك الجنس الذكى النابه، الذى اعتنق الإسلام والعروبة فى عصر مبكر، واضطلع بأعظم قسط فى فتح الأندلس، وفى الغزوات الإسلامية الكبرى فيما وراء البرنيه، ثم بعد ذلك فى حماية الأندلس وامتداد حياتها عصورًا، وساهم أخيرًا بقسط بارز فى تراثها الحضارى العظيم.

وكان ابن فرناس القرطبى أعجب هذه العبقريات العلمية الإسلامية، ذلك أنه لم يقتصر على معالجة البحوث العلمية التى كانت سائدة فى عصره، ولكنه جنح إلى أنواع فريدة لم يفكر فيها إنسان من قبله، وامتاز بصفات عديدة، قلما تجتمع فى شخصية علمية أخرى. فهو فيلسوف، وعالم رياضى وطبيعى وكيميائى وفلكى من الطراز الأول، وهو موسيقى بارع، وهو أديب وشاعر فذ، وهو فوق كل ذلك أول عالم حاول أن يغزو الجو وأن يخترع أداة للطيران.

ونشأ ابن فرناس بقرطبة فى أواخر القرن الثانى من الهجرة (أواخر القرن الثامن الميلادى) ودرس بها، وبرع منذ شبابه فى الفلسفة والكيمياء والطبيعة والفلك، وبرع فى نفس الوقت فى الشعر والأدب والموسيقى، وظهر منذ أيام الحكم بن هشام أمير الأندلس المتوفى سنة ٢٠٦هـ (٨٢٢م). وعاصر من بعد ولده عبد الرحمن بن الحكم، ثم حفيده محمد بن عبد الرحمن، وحظى لدى هؤلاء الأمراء الثلاثة، وأتحفهم بمدائحه وأدهشهم بمخترعاته، وتوفى فى أواخر أيام الأمير محمد سنة ٢٦٠هـ = ٨٧٣م وقد أربى على الثمانين.

وعرف ابن فرناس أولا ببراعته فى الحكمة والشعر والأدب، وانتظم بين أعلام العلماء والشعراء الذين يضمهم بلاط الحكم

ابن هشام. بيد أنه ما لبث أن ظهر فى ميدان آخر، هو ميدان العلوم الطبيعية، وهو الميدان الحقيقى الذى تفتحت فيه مواهبه المدهشة، ولم يقتصر فى معالجته، مثل كثير من أسلافه، على النواحى النظرية والتجريبية، لكنه اندفع إلى ميدانها العملى، وانتهت تجاربه فى ميدان الكيمياء الصناعية إلى اختراع صنع الزجاج من الرمال والحجارة، فكان لظفره بهذا الاكتشاف دوى عظيم، وكانت له فيما بعد نتائج عملية باهرة، وطارت شهرته فى سائر أنحاء الأندلس.

مخترعاته :

عكف ابن فرناس على الدراسات والبحوث الرياضية والفلكية، وانتهى فيها إلى اختراع عدد من الآلات الفلكية الدقيقة، وقد ذكر لنا منها مؤرخ العصر آلتين، يصفهما لنا على النحو الآتى:

الأولى واسمها «ذات الحلَق»، وقد رفعها ابن فرناس إلى الأمير عبدالرحمن بن الحكم (٢٠٦-٢٣٨هـ) مرفقة بهذه الأبيات التى تعرب عن وظيفتها وفائدتها:

قد تم ما حملتنى من آلة

أعيا الفلاسفة الجهابذ دونى

لو كان بطليموس ألهم صنعة

لم ليشقل بجداول القانون

فإذا رأته الشمس فى آفاقها

ومنازل القمر التى حجبت معًا

دون العيون بكل طالع حين

يبدون فيها بالنهار كما بدت

بالليل فى ظلماتهن الجون

والثانية : هى آلة لمقياس الزمن، سماها ابن فرناس «بالميقاتة»، ورفعها إلى الأمير محمد ابن بن عبد الرحمن (٢٣٨-٢٧٣هـ)،

وتجلت معارفه الرياضية والهندسية فى كثير من الاختراعات والتحسينات الفنية بالقصر وحدائقه، على النحو الذى يوصف المؤرخ المعاصر فيما يلى: «كان عباس بن فرناس الحكيم الشاعر لا يزال من تفوه قريحته الحكيمة، يخترع الطرف الملوكية ونوادر الطرف العجيبة ذات الصور الجميلة والحركات البديعة، ببلولها وإفراغها المياه منها فى البرك وغيرها، ويستغنى فى إقامة أشخاصها ومعالجة هندمتها بالصيغ عريف النجارين بالقصر».

كما برع ابن فرناس فى الموسيقى وصياغة الألحان. وفى الغناء، وكان الأمير محمد بن عبدالرحمن يستدعيه إلى مجالس أنسه. فكان يقدم إليه أناشيد من رقيق نظمه ويغنيها بحضرته.

على أن أشهر ما اقترن باسم ابن فرناس،

هى محاولته اختراع آلة يستطيع الإنسان أن يطير بها فى الجو، وقد انتهى بالفعل إلى القيام بتجربته الخطيرة على مشهد من أهل قرطبة، «فكسى نفسه الريش على سرق الحرير، ومد لنفسه جناحين على وزن وتقدير قدره»، ثم صعد إلى ربوة عالية بناحية الرُّصافة، واندفع منها فى الهواء طائرًا «فحلق فيه حتى وقع فى مكان مطاره على مسافة بعيدة»؛ واشتهر ابن فرناس بهذه التجربة المدهشة التى ملأت مشاهديه من أهل قرطبة روعًا وإعجابًا، وكان ذكره فى كل مكان، حتى قال فيه مؤمن بن سعيد أكبر شعراء العصر:

يطم على العنقاء فى طيرانها

إذا ما كسى جثمانه ريش قشعم

ومن الغريب أن ابن فرناس على تفرده فى ميادين الاختراعات العلمية على هذا النحو المدهش، كان يحتل بين شعراء العصر مكانة ممتازة، وكان، إلى جانب معاصريه، الشاعرين الكبيرين مؤمن بن سعيد، وأبى عمر بن عبد ربه صاحب «العقد الفريد»، من خواص شعراء الأمير محمد، وله فى مديح الأمير، وفى الإشادة بحوادث العصر قصائد رنانة، ومنها قصيدته الشهيرة فى موقعة وادى سليط التى انتصر فيها الأمير محمد على ثوار طليطلة وحلفائهم النصارى الإسبان (٢٤٠هـ-٨٥٤م) وكان من شهودها إلى جانب الأمير وهذا مطلعها:

ومؤتلف الأصوات مختلف الزحف

لهوم الفلا عبل القبائل ملتف

إذا أومضت فيه الصوارم خلتها

بروقًا تراءى فى الغمام وتستخفى

على أن أعجب صفحة فى حياة ابن فرناس، وأكثرها إيلامًا هى محاكمته الشهيرة بتهمة الزندقة والكفر، فقد أثار هذا العلامة الفذ ببحوثه واختراعاته العلمية الفريدة، حسد الفقهاء وشكوكهم، كما أثارت بحوثه الكيمائية والفلكية بداره بالربض الغربى من قرطبة، ثم محاولته للطيران، ظنون الكافة ودهشتهم، واعتقادهم أن الرجل مارق، يتمتع بقوى شيطانية خارقة، وقد أثمرت سعاية خصومه من الفقهاء وغيرهم فى النهاية إلى اتهامه بالكفر والزندقة، وإتيان الخوارق الشيطانية، فاعتقل وقدم للمحاكمة، أمام قاضى قرطبة سليمان بن أسود الغافقى، وعقدت المحاكمة بالمسجد الجامع، وهرع الناس لشهودها، واجتمع حشد من العامة للشهادة عليه. فمنهم من قال: سمعت ابن فرناس يقول: «مفاعيل مفاعيل»، ومنهم من قال: «رأيت الدم تفور من قناة داره ليلة ينير» إلى غير ذلك مما يوصف «بأحموقات من غتراء شهود عليه ذوى جهل وقدامة».

وكان القاضى سليمان بن أسود بالرغم من صرامته، ذهنًا مستنيراً، فلم ترقه تلك الترهات، ولم يجد فيها طائلا، فشاور جماعة الفقهاء، فيما قيد منها، ولم يجد سبيلا إلى مؤاخذة بن فرناس، وقضى ببراءته وإطلاق سراحه.

وهكذا نجا ابن فرناس من محنة كانت تهدد حريته وحياته، ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة أن هذا العصر الذى بدت فيه طوالع الحركة العلمية الكبرى فى الأندلس، كانت تهب فيه ريح المطاردة الفكرية من آن لآخر، وقد اتهم فيه إلى جانب ابن فرناس، عدة آخرون من العلماء والفقهاء منهم صديقه وزميله يحيى الغزال الجيانى الشاعر والفيلسوف، ومنهم بقى بن مخلد عميد فقهاء العصر، وقد اتهمه زملاؤه بالزندقة، وحاولوا الإيقاع به، ولم يسعفه سوى الأمير محمد ذاته، حيث عقد له مجلسًا لمناظرة متهميه، وانتهى بدحض أقوالهم وإلزامهم الحجة. وكانت هذه الاتهامات من خواص العصر، ومن ورائها الأحقاد والمنافسات الشخصية، ومن ورائها أحيانًا بواعث السياسة.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١- تراجم إسلامية للمؤرخ محمد عبد الله عنان ، بتصرف.

٢- الأعلام الزركلى ٢٦٤/٢.

عباس محمود العقاد
(١٣٠٦ ـ ١٣٨٣ هـ = ١٨٨٩ ـ ١٩٦٤م)

ولد عباس العقاد عام ١٣٠٦هـ = ١٨٨٩م بمدينة أسوان، من أسرة عرفت بالتقوى وكريم الأخلاق، والتحق بالمدرسة الابتدائية وحصل على الشهادة الابتدائية، ولم يستطع أن يكمل دراسته لأن الظروف اضطرته للعمل بعد حصوله على الشهادة الابتدائية.

وقد التحق بعدد من الوظائف يأتى فى مقدمتها العمل بمصلحة الإيرادات بقنا، كما عمل بديوان الأوقاف فيما بين عامى ١٩١٣ - ١٩١٤م، وكان الديوان مجمعًا للأدباء والشعراء، مما كان له أبلغ الأثر فى حياته، غير أنه سرعان ما استقال منه ليشرف على صفحة الأدب فى جريدة المؤيد، وإن لم يطل عمله بها، كما عمل بالتدريس فى مدرسة وادى النيل الثانوية.

وقد انتهى به المطاف إلى الاشتغال بالصحافة والتأليف، ورفض الرجوع إلى الوظائف الحكومية مهما اشتد بريقها، أو علت وجاهتها، ويكفى فى التدليل على ذلك رفضه لوظيفة مدير إدارة الكتب التى عرضها عليه الزعيم الوطنى سعد زغلول، بل إنه رفض عمادة كلية الآداب من قِبَل زعيم آخر هو محمد محمود.

وكان صالونه الفكرى علامة مضيئة فى سماء القاهرة.

وقد اختير عضوًا فى مجامع اللغة العربية فى كل من دمشق، والقاهرة، وبغداد. وبعد حياة حافلة بالعطاء، كان العقاد خلالها ملء السمع والبصر، لبىَّ نداء ربه بالقاهرة سنة ١٣٨٣هـ = ١٩٦٤م ودفن بأسوان.

لقد كان العقاد غزير الإنتاج، وفى الوقت نفسه متنوع الاهتمامات، فقد بلغت تصانيفه فى مختلف الفنون ٨٣ كتابًا.

كان العقاد نموذجًا فريدًا وكوكبًا لامعًا فى سماء الحياة الفكرية فى مصر، لأكثر من نصف قرن، وقد استطاع أن يُكوِّن نفسه تكوينًا ذاتيًا عن طريق قراءاته المتنوعة منذ طفولته، وخاض فى مختلف الفنون والآداب والفلسفات والأديان.

ولكنه لم يكن فى يوم من الأيام أسيرًا لما يطالعه فى بطون الكتب قديمها وحديثها، بل كان محتفظًا باستقلاليته الفكرية التى لم تتأثر بالأسماء اللامعة، أو البريق الذى يخطف الأبصار، فقد كان يبحث دائمًا عن الجوهر، ويغوص فى أعماق الأفكار باحثًا ومنقِّبًا، معتمدًا على فطرته السليمة وبصيرته النافذة فى التمييز بين الخبيث والطيب من الأفكار.

وقد خاض العقاد معارك فكرية كثيرة متسلحًا بشجاعة منقطعة النظير، جعلته يسبح فى بحر متلاطم الأمواج، بعزيمة لا تعرف الضعف، وإرادة حديدية لا تلين، فقد كان يعرف طريقه جيدًا لا يصدّه عنه شىء، مهما كلَّفه ذلك من تضحيات، معتزًا بفكره وباستقلال شخصيته اعتزازًا فائقًا، حتى وهو لا يزال تلميذًا صغيرًا فى المدرسة الابتدائية.

ومن المعروف أن العقاد قد كتب فى كل مجالات الآداب والفنون، وكان فى كل مجال يكتب فيه، عميق الفكر، ثاقب النظر، كما لو أنه متخصص فى هذا المجال أو ذاك دون غيره، فقد كتب . من بين ما كتب . فى الفلسفات والأديان، فرأى الكثير مما لم يره غيره، وكشف عن أمور لم يكن يهتم بها الكثيرون.

والحديث عن العقاد، حديث متشعِّب الجوانب، ومتعدِّد المسالك؛ نظرًا لما للعقاد من ثقافة موسوعية شاملة.

ولا يمكن الحديث هنا عن كل ما كتب العقاد، ولكننا نود الإشارة فقط فى هذا المقام إلى جانب هام من جوانب فكره، نرى أنه ذو أهمية بالغة بالنسبة لحياتنا الفكرية المعاصرة، فقد خصَّص العقاد جانبًا كبيرًا من فكره وإنتاجه للإسلاميَّات، فكانت عبقرياته العديدة التى كتبها معبرةٌ عن عبقريته الفذة، وكانت تراجمه ودراساته الإسلامية إسهامًا حقيقيًا فى تنوير الأذهان وتثقيف العقول، بزاد فكرى يهدف إلى إزالة الغشاوات عن البصائر والأبصار، وتعبيد الطريق أمام العقل ليأخذ مكانه اللائق به فى مسيرة الحياة.

وكأن العقاد حين كتب إسلاميَّاته كان يدرك ما سوف يطرأ على المجتمع من ظواهر فكرية شاذة، تَنْحُو نحو التطرف فى الفكر وفى فهم الدين، وتميل إلى التعصب الأعمى، محاولة فرض الرأى بالعنف، لا بالإقناع بالحجة والبرهان، وكأنه قد أحس بأننا مقبلون على موجة تطرف تلغى عقل الإنسان باسم الدين، ومن هنا وضع فى اعتباره فى كل كتاباته الإسلامية أمرين هامين:

أولاً : تقديم الصورة الصحيحة للإسلام، المبنية على صحيح الدين وصريح العقل:

لينيـر بذلك الطريق أمـام أبناء الأمـة؛ كى ينطلقـوا دون عـوائق إلى آفـاق التـقـدم والازدهار.

ثانيًا : تصـحـيح الصـورة المشـوّهة عن الإسـلام فى الفكر الغربى، تلك الصـورة التى تكوَّنت نتيجة تراكمات كثيرة من سوء الفهم عبر قرون عديدة.

وكـلا الأمـريـن ـ كـمـا نعـرف جميعًـا ـ لا يزالان حتى اليوم من المطالب الملحة، فنحن فى أشد الحاجة إليهما؛ لنعيد الصواب إلى بعض شبـابنا الذين ضلُّوا الطريق، ونحـصّن الفريق الآخر ضد حملة الشعـارات البـراقة المتسـترة وراء الدين، والدين منهـا برىء، ومن ناحيـة أخرى لا زلنا فى أشد الحـاجـة أيضًا لتصـحـيح صـورة الإسـلام فى الخـارج، تلك الصورة التى ازدادت اليوم تشويهًا أكثر من أى وقت مضى بسبب عوامل كثيرة ومتعددة.

وقد كانت كتابات العقاد الإسلامية كتابات مستنيرة تتسم بالإقناع والموضوعية، تخاطب العقل وتقضى على الخرافة، وقد شدَّد العقاد على ذلك مبينًا: أن استخدام العقل وتحكيمه يعد فـريضـة إسـلاميـة لا تقل أهميـة عن أى فريضة أخرى فى الدين، وخصَّص لذلك كتابًا جعل عنوانه: «التفكير فريضة إسلاميـة»، ليـزيل غشـاوة التقليد الأعمى عن العقـول، ويشق للعـقل طريقـه لإثراء الحيـاة بالعلم، فالدين عقل فاعل يخدم الحياة، وليس مجرد شـعـائر تُؤدَّى دون فـهم وإدراك لمراميـهـا البعيدة.

لقد كتب العقاد فصول هذا الكتاب ـ كما يشير إلى ذلك: «عسى أن يكون فيها جواب هاد لأناس من الناشئين يتساءلون: هل يتفق الفكر والدين؟ وهل يستطيع الإنسان العصرى أن يقيم عقيدته الإسلامية على أساس من التفكير؟

ويجيب العقاد بالإيجاب على كل من هذين السؤالين.

ومما لا شك فيه أن تمكين العقل من أداء دوره كـامـلا كـفيل بوضع حـدٍّ لكل شكل من أشكال التطرف، وكفيل أيضًا بتجفيف منابع التطرف، وفى المقابل نجد أن إلغاء دور العقل من شأنه أن يفسح المجال واسعًا أمام هجمة التطرف الشرسة، وما يتبع هذا التطرف من تعصب وعنف وإرهاب.

ومن أهم مؤلفاته مايلى:

١ - الله.

٢- عبقرية محمد.

٣ - عبقرية خالد.

٤ - عبقرية على.

٥ - عبقرية الصديق.

٦ ـ عبقرية عمر.

٧ـ حياة المسيح.

٨ - رجعة أبى العلاء.

٩ - الفصول.

١٠ - مراجعات فى الأدب والفنون.

١١ - ساعات بين الكتب.

١٢ - ابن الرومى.

١٣ - أبو نواس.

١٤ - سارة.

١٥ - سعد زغلول.

١٦ - المرأة فى القرآن.

١٧ - الإنسان فى القرآن.

١٨ ـ هتلر.

١٩ - إبليس.

٢٠ - مجمع الأحياء.

٢١ - الصديقة بنت الصديق.

٢٢ - عرائس وشياطين.

٢٣ - ما يقال عن الإسلام.

٢٤ - التفكير فريضة إسلامية.

٢٥ - المطالعات.

٢٦ - ديوان العقاد.

٢٧ - حقائق الإسلام وأباطيل خصومه.

وغير ذلك من مؤلفات متنوعة.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة :

١ - راجع: المجلد الخامس من موسوعة العقاد الإسلامية، بيروت، ١٩٧١م.

٢ - قمم أدبية للدكتورة نعمات أحمد فؤاد ـ عالم الكتب ـ دون تاريخ.

٣ - الأعلام لخير الدين الزركلى ـ دار العلم للملايين.

أبو العباس المرسى
(٦١٦ - ٦٨٦ هـ = ١٢٢٠ - ١٢٨٧م)

هو الإمام شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن عمر بن محمد الأندلسى الأنصارى الصوفى.

وكانت نسبته إلى الأنصار، من أجل أن نسبه يتصل بسيد الخزرج "سعد بن عبادة" رضي الله عنه.

ولد أبو العباس المرسى سنة ٦١٦ هـ = ١٢٢٠م بمدينة "مرسية" إحدى مدن الأندلس، وإليها نُسب. وقد تربى هناك تربية إسلامية طيبة، وأرسله والده إلى أحد المؤدبين الزهاد، لحفظ القرآن الكريم والتفقه فى الدين.

وظهر عليه الصلاح والتقوى وهو لم يزل فى أول صباه. ولما شب قليلا أسند إليه والده عمر بعض أعماله التجارية فى مرسية وغيرها، فكان مثالاً فى الحق والصدق والإخلاص.

خرج مع الوالدين للحج عام ٦٤٠هـ فغرقت المركب، ومات الوالدان، ونجا هو وأخوه الأصغر محمد، فتولى محمد أمور التجارة، واتجه المرسى نحو تجارة لن تبور.

ثم التقى فى تونس مع الشيخ أبى الحسن الشاذلى رحمه الله، ولمّا لمس فيه الشاذلى نجابة عقل، وطهارة روح، ومكارم أخلاق، آثر أن يكون المرسى خليفة له فى الطريقة. ولما وشى ضعفاء النفوس بالشاذلى، ارتحل إلى الإسكندرية وأقام بها مع تلميذه المرسى. وقد حمل الأخير راية المدرسة الشاذلية.

وحدّث الشيخ العارف شرف الدين ولد الشيخ الشاذلى، أن والده مرض فى السفر إلى الحج فى حميثرة بالصعيد، فخلا بأبى العباس المرسى، وأوصاه بأشياء، واختصّه بما خصّه الله به من البركات، وقال الشاذلى للحاضرين: "إذا أنا مت فعليكم بأبى العباس المرسى؛ فإنه الخليفة من بعدى، وسيكون له مقام عظيم بينكم، وهو باب من أبواب الله تعالى".

وتوفى الشاذلى فى تلك الليلة وقت السحر رحمه الله تعالى. ثم استمر أبو العباس المرسى من بعده على منهجه الروحى.

وكانت وفاته بالإسكندرية عام ٦٨٦هـ =

١٢٨٧م.

المدرسة الشاذلية وأهم آثارها :

وظل أبو العباس المرسى قائمًا على الطريقة الشاذلية حتى توفى المرسى بالإسكندرية عام ٦٨٦هـ. فخلفه عليها أبرز من تلقى دعوته من تلاميذه المصريين، ونعنى به ابن عطاء الله السكندرى (ت ٧٠٩هـ).

والجدير بالذكر أن تصوف الشاذلى، والمرسى، وابن عطاء الله السكندرى، وهم الذين تقوم عليهم المدرسة الشاذلية - كان تصوفاً سنّيًا لم تشبه أى شوائب من وحدة الوجود لدى ابن عربى وغيره. بل كان تصوفهم أقرب إلى تصوف الغزالى المتقيد بالكتاب والسنة، وكانوا متأثرين به.

وكان أبرز تعاليم الطريقة الشاذلية، القول بـ "إسقاط التدبير"، وهو الأصل الذى يبنى عليه الطريق كله الذى تتلخص تعاليمه فى خمسة أمور هى: تقوى الله فى السر والعلانية، واتباع السنة فى الأقوال والأفعال، والإعراض عن الخلق فى السر والعلانية والإقبال والإدبار، والرضا عن الله فى القليل والكثير، والرجوع إلى الله - تعالى - فى السراء والضراء. ولذا كثر أتباع الطريقة الشاذلية فى كل أرجاء العالم الإسلامى، حتى وصلت إلى الأندلس والملايو.

ولم يترك الشاذلى ولا المرسى مصنفات فى التصوف، بل تركا جملة أقوال وبعض الأحزاب والأدعية. وقد قيّض الله - تعالى - ابن عطاء الله السكندرى لجمع هذه المأثورات، فحفظ بذلك تراث المدرسة الشاذلية.

كان منهج أبو العباس المرسى: يتميز بالتوفيق بين عقل المؤمن وقلبه، مع التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية عقيدة وفقهًا وسلوكًا.

وقد أوتى الرجل منذ صباه عقلاً واعيًا، وفؤادًا صافيًا. فقد رُوى أن رجلاً أطلّ على لوحه الذى يكتب فيه بالكُتّاب عند المؤدب، وقال له: "الصوفى لا يسوّد بياضًا". فقال له الصبى: "ليس كما زعمت، ولكن لا يُسَوَّد بياض الصحائف بسواد الذنوب". وكانت هذه الروح الصافية المبكرة أداة قوية لديه فى قيادة الجماهير بعد شيخه الشاذلى. ومما يذكر له وقت ملاطمة الأمواج للسفينة التى ركبوها للحج، أن أخاه الأصغر محمد قال له: ما هذه الشدّة يا مرسى؟ مستفظعًا إياها. فقال له: الشدة هى أن تسأل الناس ولا يعطوك.

ولما شب المرسى عن الطوق، لمس فيه الناس زهدًا وعبادة، وأسرارًا وأذكارًا وأورادًا ومقامات وأحوالاً. وقال متحدثًا عن صلته بالله عز وجلّ: "لى أربعون سنة ما حُجبت عن الله طرفة عين". ولم يتحدث بِلَغْوٍ، ولم يسمح به فى مجالسه. وكان أكثر ما يتحدث فيه هو اسم الله الأعظم، ومقامات الملائكة والمؤمنين، وما سيكون يوم القيامة.

وكان أبو العباس المرسى - رحمه الله - مهتمًا بالعلم اهتمامًا كبيرًا، ويرى أن الصوفية الحق شاركوا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركهم الفقهاء فيما هم فيه. وكان يقول: «اعلموا معشر المسلمين أنه من سلك طريقاً يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنة. وقال رسول الله ﷺ: **«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع»**.

وكان أبو العباس يرى أن طلب العلم فريضة على كل مسلم، وأن العلم - كما ورد فى الأثر- : «خزائن مفاتيحها السؤال، ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة» وهم: السائل والعالم والمستمع والمحب لهم. ومع غزارة علم المرسى لم يدوّن كتبًا، لأن هذه علوم تحقيق، وقال : كتبى أصحابى.

وكان يوصى مريديه بالحذر من شهوة البطن، مع السعى إلى جلاء مرآة القلوب. كما كان يحذرهم تحذيرًا شديدًا من الظلم ومجالسة أهله والشوق إليهم.

وأساس المنهج التربوى عند أبى العباس المرسى، هو سعى الإنسان بجدّ إلى التوفيق بين العقل والقلب، والتوازن بين المادة والروح، والتسامى عن الصغائر و المعاصى، والترفع عن شهوات الدنيا، والعناية بالعلم النافع. وكان رحمه الله قدوة فى ذلك؛ ولذا بشر أستاذه الشاذلى بأنه سيكون خير خلف له فى حمل رسالة التقوى، فى وقت غرقت فيه الأمة فى الفتن ومظاهر الدنيا، وكان الشاذلى يقول عنه: إنه "الرجل الكامل".

ولم يفتأ أبو العباس ينير الدروب أمام السالكين ويقول لهم: "طريقنا: المداومة على الذكر، وترك الغيبة وسوء الظن بعباد الله، فمن واظب على ذلك، رزقه الله من حيث لا يحتسب".

وكان أهم شىء لدى المرسى، أن يكون للعبد تعلق وصلة بالله وحده، فمن أفرد الله أفرده الله، ومن لزم بابه فتح له الأبواب، ومن خضع له خضعت له الرقاب، ومن كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما كفى أمر الدنيا والآخرة.

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

مراجع للاستزادة:

١- ابن الملقن: طبقات الأولياء : (ص ٤١٨-٤١٩). القاهرة.

٢- الشعراني : الطبقات الكبرى : ص ١٤/٢. القاهرة.

٣- ابن الصّباغ : درة الأسرار فى مناقب سيدى أبى الحسن الشاذلى وتلميذه أبى العباس المرسى. طبع القاهرة.

٤- عبد القادر بن حبيب الله السندي: التصوف في ميزان البحث والتحقيق ص١٧٢. ط١، ١٤١٠هـ=١٩٩٠م مكتبة ابن القيم بالمدينة المنورة.

٥- سعد القاضى : أبو العباس المرسى ص ٦ ومواضع أخرى، طبعة ٢٠٠١م دار غريب بالقاهرة.

٦- أحمد بن محمد بن عبّاد المحلى الشافعى (ت ١١٥٣ هـ): المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية. ص٤١-٤٢، طبعة ١٩٩٩م، مكتبة الحسين الإسلامية بالقاهرة.

٧- د. أبو الوفا التفتازانى : مدخل إلى التصوف الإسلامى ص ٢٣٩-٢٤٢هـ ط٣، ١٩٨٣م دار الثقافة بالقاهرة.

٨- ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن، فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن الشاذلى، ص ٦٣، تحقيق: د. حسن جبر شقير، دار الحسين بالقاهرة، ٢٠٠٢م.

عبد الله بن عامر
(٢١ـ ١١٨هـ = ٦٣٠ ـ ٧٣٦م)

هو: عبد الله بن عامر بن يزيد بن تميم ابن ربيعة بن عامر اليحصبى - بتثليث الصاد ـ نسبة إلى: يحصب بن دهمان، الشامى أحد القراء السبعة وأعلاهم سنداً.

اختلف فى كنيته فقيل: أبو عمران، وقيل: أبو عثمان، وقيل: أبو معبد، وقيل: أبو نعيم، وقيل: أبو محمد، وقيل: أبو موسى، وأصحها، أبو عمران قال الذهبى: وفى كنية ابن عامر أقوال، أقواها أبو عمران.

وهو ثابت النسب إلى يحصب بن دهمان بطن من حمير، فهو إذًا عربى صريح كأبى عمرو البصرى، وليس فى السبعة عربى صريح غيرهما والباقون من الموالى ولهذا يشير الشاطبى فى منظومته بقوله:

أَبُو عَجْرِهِمِ وَالْيَحْصُبِى ابنُ عَامِرٍ

صَرِيحٌ وَبَاقِيهمْ أَحَاطَ بِهِ الْوِلاَ

ولد ابن عامر سنة إحدى وعشرين من الهجرة، وقيل: سنة ثمان من الهجرة النبوية الشريفة. الموافق ٦٣٠ م.

وتوفى بدمشق يوم عاشوراء سنة ثمان عشرة ومائة للهجرة. الموافق ٧٣٦ م.

قرأ على أبى هاشم المغيرة بن أبى شهاب عبد الله بن عمرو بن المغيرة المخزومى بلا خلاف عند المحققين، وعلى أبى الدرداء عويمر بن زيد بن قيس كما قطع به الحافظ أبو عمرو الدانى وقرأ المغيرة على عثمان بن عفان، وقرأ أبو الدرداء وعثمان على رسول الله ﷺ، وقيل: إنه قرأ على عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقيل: قرأ على معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه، وقيل: على واثلة بن الأسقع، وقيل: على فضالة بن عبيد، ووافق على ذلك ابن الجزرى.

وقد ثبت سماعه القرآن والحديث عن جماعة من الصحابة منهم النعمان بن بشير، ومعاوية بن أبى سفيان، وفضالة بن عبيد فهو من كبار التابعين.

وقرأ على ابن عامر خلق كثير، فروى القراءة عنه عرضا يحيى بن الحارث الذمارى، وهو الذى خلفه فى القيام بها

والإقراء لها، وأخوه عبد الرحمن بن عامر، وربيعة بن يزيد، وجعفر بن ربيعة، وإسماعيل ابن عبد الله بن أبى المهاجر، وسعيد بن عبدالعزيز، وخلاد بن يزيد بن صبيح المرى، ويزيد بن أبى مالك ومن أشهر من روى القراءة عن ابن عامر:

هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة السلمى الدمشقى.

عبد الله بن أحمد بن بشر - ويقال : بشير ابن ذكوان بن عمرو وهو المعروف بابن ذكوان.

هو إمام أهل الشام فى القراءة والذى انتهت إليه مشيخة الإقراء بها بعد وفاة أبى الدرداء، وقد أمَّ المسلمين بالجامع الأموى سنين كثيرة فى عهد عمر بن عبدالعزيز، وقيل: وبعده، فكان عمر يأتم به وهو أمير المؤمنين، وناهيك بها من منقبة.

ولجلالته فى العلم والإتقان جمع له الخليفة بين القضاء والإمامة ومشيخة الإقراء بدمشق، ودمشق حينئذ دار الخلافة ومحط رحال العلماء والتابعين، فأجمع الناس على قراءته وعلى تلقيها بالقبول وهم الصدر الأول وأفاضل المسلمين.

أ.د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١- طبقات ابن سعد ٢٢٤/١.
٢- إبراز المعانى ص ٣٠.
٣- السبعة لابن مجاهد ص ٦٩.
٤- سير أعلام النبلاء ٥٦/٥
٥- وفيات الأعيان ٩/٣.
٦- النشر ١٥٥/١
٧- تهذيب التهذيب ٢٨/٥.
٨- سراج القارى ص ١٤
٩- شرح طيبة النشر للنويرى ١٩٩/١.
١٠- شذرات الذهب ١٧٥/١.
١١- الأعلام للزركلى ٩٥/٤.
١٢- تاريخ القراء العشر للشيخ القاضى.
١٣- معرفة القراء.
١٤- غاية الاختصار.
١٥- غاية النهاية.

عبد الله بن عباس

(٣ق هـ - ٦٨هـ = ٦١٩ - ٦٨٧م)

هو عبد الله بن العباس بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى ابن عم رسول الله ﷺ.

وأمه : أم الفضل لبابة بنت الحارث الهلالية.

ولد رضي الله عنه فى الشعب - شعب بنى هاشم - أثناء مقاطعة قريش للنبى ﷺ وآله من المسلمين، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات وقيل: بخمس، والأول أثبت وأرجح لأنه يقارب ما فى الصحيحين عنه «أقبلت وأنا راكب على حمار أتان، وأنا يومئذ قد ناهزت سن الاحتلام، والنبى ﷺ يصلى بمنى إلى غير جدار - أى فى حجة الوداع» قال الزبير وغيره من أهل العلم بالسير والخبر: ولد عبدالله بن العباس فى الشعب قبل خروج بنى هاشم منه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، وهذا هو الأصح لأنه كان ابن ثلاث عشرة سنة عند وفاة النبى ﷺ كما قال أهل السير والعلم بأيام الناس، ومن هذا وغيره نعلم أنه نشأ فى ظل الإسلام وأسلم منذ طفولته.

وكان أبيض طويلا مشربا صفرة، جسيما وسيما، صبيح الوجه، له وفرة، يخضب بالحناء، عن أبى إسحاق قال: رأيت ابن عباس رجلا جسيما قد شاب مقدم رأسه وله جمة، وقال أبوعوانة: كان ابن عباس إذا قعد أخذ مقعد رجلين، وقد كف بصره فى آخر عمره، وقد أخبره النبى ﷺ بذلك لما رأى جبريل.

وقد مات بالطائف وصلى عليه محمد بن الحنفية وهو ابن على بن أبى طالب، وكان ذلك سنة ثمان وستين، وعمره إحدى وسبعون سنة وقيل غير ذلك، وقد روى أنه لما مات قال عمرو بن دينار: مات ربانى هذه الأمة.

مناقبه وفضائله:

هو ابن عم رسول الله ﷺ، وكان عليه الصلاة والسلام يقربه ويمسح رأسه وتفل فى فيه وقال: «**اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل**» رواه ابن عمر وسعيد بن جبير عن ابن عباس، وفى رواية أخرى عن ابن عباس:

أنه سكب للنبى ﷺ وضوءا عند خالته ميمونة فلما فرغ قال: من وضع هذا؟ فقالت: ابن عباس، فقال: «**اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل**»، وكان ملازما للنبى ﷺ كما ورد فى أكثر من حديث منها الحديث المشهور حين كان راكبا خلف النبى ﷺ وقال له: «**يا غلام إنى أعلمك كلمات. احفظ الله يحفظك**»، الحديث.

ومنها أن ابن عباس قال: صليت خلف رسول الله ﷺ فأخذ بيدى فجرنى حتى جعلنى حذاءه، فلما أقبل على صلاته خنست، فلما انصرف قال لى: ما شأنك؟ فقلت: يارسول الله أو ينبغى لأحد أن يصلى حذاءك وأنت رسول الله؟ فدعا لى أن يزيدنى الله علما وفهما، وقال ابن سعد عن ابن عباس «دعانى رسول الله ﷺ فمسح على ناصيتى وقال: «**اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب**» وعن ابن عمر: دعا النبى ﷺ لابن عباس فقال: «**اللهم بارك فيه وانشر منه**» وروى ابن سعد عن أبىّ بن كعب أنه سمعه يقول - وكان عنده ابن عباس فقام - قال عليه الصلاة والسلام: «**هذا يكون حبر هذه الأمة أو فى عقلا وحشما**»، ودعا له رسول الله ﷺ أن يفقهه فى الدين» وقد رأى جبريل عليه السلام عند النبى ﷺ مرتين، فعن الشعبى قال: دخل العباس على النبى ﷺ فقال له ابنه عبدالله: لقد رأيت عنده رجلا فقال: ذاك جبرائيل.

وكان يقال له: حبر العرب، ويقال: ان الذى لقبه بذلك جرجير حين غزا ابن عباس مع عبدالله بن أبى سرح إفريقية وتكلم مع جرجير فقال له: ما ينبغى إلا أن تكون حبر العرب. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقربه فى مجلسه مع كبار الصحابة، قال الزهرى قال المهاجرون لعمر: ألا تدعو أبناءنا كما تدعو ابن عباس؟ قال: ذاكم فتى الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول» إلى غير ذلك من الفضائل والمناقب الكثيرة.

مما سبق يتبين أن ابن عباس - رضى الله عنهما - أخذ من صحبة رسول الله ﷺ الكثير، وحفظ من ملازمته الكثير، وأفاد من دعائه الكثير، وكذلك حفظ عن أصحاب رسول الله ﷺ الكثير، فاجتمع له من كل ذلك علم عظيم وفقه وفير واستحق بجدارة أن يكون حبر هذه الأمة وترجمان القرآن، وقد رويت فى ذلك روايات عديدة منها: عن أبى بكرة قال: قدم علينا ابن عباس البصرة وما فى العرب مثله، حشما وعلما وثيابا وجمالا وكمالا. وأخرج الطبرانى عن حسان بن ثابت قال: كانت لنا عند عثمان أو غيره من الأمراء حاجة فطلبناها إليه لجماعة من الصحابة فيهم ابن عباس، وكانت حاجة صعبة شديدة

فاعتل علينا فراجعوه إلى أن عذروه وقاموا إلا ابن عباس، فلم يزل يراجعه بكلام جامع حتى سد عليه كل حاجة، فلم يَرَ بُدا من أن يقضى حاجتنا، فخرجنا من عنده وأنا آخذ بيد ابن عباس، فمررنا على أولئك الذين كانوا عذروا وضعفوا، فقلت: كان عبدالله أولاكم به، قالوا: أجل، فقلت أمدحه:

إذا قال لم يترك مقالا لقائل

بمنتظمات لا ترى بينها فصلا

كفى وشفى ما فى الصدور ولم يدع

لذى إربة فى القول جدا ولا هزلا

سموت إلى العليا بغير شبيهة

فنلت ذراها لا دَنيا ولا وغلا

وكان حريصا على طلب العلم من أصحاب رسول الله ﷺ بعد موته فعن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قبض رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم فلنسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير، قال: واعجبا لك، أترى الناس يفتقرون إليك؟! فتركنى وأقبلت أسأل، فإن كان ليبلغنى الحديث عن رجل فآتى بابه وهو قائل - نوم الظهيرة - فأتوسد ردائى على بابه يسفى الريح علىّ من التراب، فيخرج فيرانى فيقول: يا ابن عم رسول الله؛ ما جاء بك، هلا أرسلت إلىّ فآتيك، فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، فأسأله عن الحديث، فعاش الرجل الأنصارى - الذى تركه عند السؤال - حتى رآنى وقد اجتمع الناس يسألونى، فقال : هذا الفتى كان أعقل منى.

وعن ابن أبى رافع قال: كان ابن عباس يأتى أبا رافع فيقول: ما صنع النبى ﷺ يوم كذا، ومع ابن عباس من يكتب ما يقول. وعن أبى سلمة عن ابن عباس قال: وجدت علم رسول الله ﷺ عند هذا الحى من الأنصار، إن كنت لأقبل بباب أحدهم، ولو شئت أن يؤذن لى عليه لأذن، لكن أبتغى بذلك طيب نفسه. وقال على - كرم الله وجهه - فى ابن عباس: إنا لننظر إلى الغيث من ستر رقيق لعقله وفطنته. وعن الشعبى قال: ركب زيد بن ثابت فأخذ ابن عباس بركابه فقال: لا تفعل يا ابن عم رسول الله، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بعلمائنا، فقبل زيد بن ثابت يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا.

وقال على بن أبى طالب رضي الله عنه : إنه لغواص. وقال ابن مسعود عنه: نعم ترجمان القرآن ابن عباس وسئل ابن عمر عن شىء فقال: سل ابن عباس فإنه أعلم من بقى بما أنزل الله على محمد، وفى رواية: أن رجلا سأل ابن عمر عن قوله تعالى: ﴿ **كانتا رتقا ففتقناهما** ﴾ فقال: اذهب إلى ذلك الشيخ

فسله ثم تعال وأخبرنى، فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال: كانت السماوات رتقاء لا تمطر، والأرض رتقاء لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع الرجل فأخبر ابن عمر، فقال: لقد أوتى ابن عباس علما صدقا هكذا، لقد كنت أقول: ما يعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمت أنه أوتى علما. وقالت عائشة رضى الله عنها: هو أعلم الناس بالحج، وكان عمر رضي الله عنه يأخذ بقوله فى الفضل. وعن عطاء: ما رأيت قط أكرم من مجلس ابن عباس، أكثر فقها وأعظم خشية، إن أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع. وعن طاووس قال: أدركت خمسين أو سبعين من الصحابة إذا سئلوا عن شىء فخالفوا ابن عباس لا يقومون حتى يقولوا: هو كما قلت، أو: صدقت، وعنه أيضا قال: رأيت سبعين من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارأوا فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس. وعن مجاهد قال: ابن عباس يسمى البحر لكثرة علمه. وعن مسروق قال: كنت إذا رأيت ابن عباس قلت: أجمل الناس، فإذا نطق قلت: أفصح الناس، فإذا تحدث قلت: أعلم الناس. وأخرج ابن سعد عن ميمون بن مهران قال: لو أتيت ابن عباس بصحيفة فيها ستون حديثا لرجعت ولم تسأله عنها وسمعتها يسأله الناس فيكفونك. وعن الأعمش: خطب ابن عباس وهو على الموسم - الحج - فجعل يقرأ ويفسر فجعلت أقول: لو سمعته فارس والروم لأسلمت. وقال أبو عمرو بن العلاء: نظر الحطيئة إلى ابن عباس فى مجلس عمر ابن الخطاب رضي الله عنه غالبا عليه فقال: من هذا الذى برع الناس بعلمه ونزل عنهم بسنه؟ قالوا: عبدالله بن عباس فقال فيه أبياتا.

وكان عمر - وهو من هو - يعده للمعضلات، وولاه عثمان إمارة الحج سنة خمس وثلاثين، وولاه علىّ ولاية البصرة، وكان على الميسرة يوم صفين فلم يزل على البصرة حتى قُتل علىّ فاستخلف على البصرة عبدالله بن الحارث، ومضى إلى الحجاز وظل بها يفقه الناس حتى أخرجه ابن الزبير إلى الطائف.

أ.د. محمد نبيل غنايم

مراجع للاستزاد:

١- الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر.
٢- الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبدالبر.
٣- أسد الغابة لابن الأثير.
٤- الطبقات لابن سعد.

عبدالله بن عمر
٣ بعد البعثة - ت ٧٣هـ

هو : عبد الله بن عمر بن الخطاب أو عبدالرحمن؛ أمه وأم أخته حفصة أم المؤمنين هى السيدة زينب بنت مظعون بن حبيب الجمحى.

ولد فى مكة بعد البعثة بثلاث سنوات لأنه كان يوم بدر لم يحتلم فردَّه النبى ﷺ وأجازه يوم أحد وقيل ردَّه أيضا فيها حيث كان عمره أربع عشرة سنة وأجازه يوم الخندق وكان ابن خمس عشرة سنة، أسلم مع أبيه وهو صغير، ونشأ فى الإسلام، وكان من أهل الورع والعلم.

وقد مات عبدالله بمكة سنة ثلاث وسبعين من الهجرة لا يختلفون فى ذلك بعد قتل ابن الزبير بثلاثة أشهر أو نحوها وقيل لستة أشهر، وقد أوصى أن يدفن فى الحل، فلم يقدر على ذلك من أجل الحجاج، ودفن بذى طوى فى مقبرة المهاجرين وعمره سبع وثمانون سنة، وقيل: أربعا وثمانين، والأول أظهر رحمه الله رحمة واسعة.

وأما عن مناقبه وفضائله فقد ثبت عن النبى ﷺ أنه شهد له بالصلاح ففى الصحيح عن سالم عن ابن عمر قال : كان من رأى رؤيا فى حياة النبى ﷺ قصها عليه فتمنيت أن أرى رؤيا، وكنت غلاما شابا عزبا أنام فى المسجد فرأيت فى المنام كأن ملكين أتيانى فذهبا بى .. فقصصتها على حفصة فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال : «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلى من الليل» فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلا. وفى الصحيح أيضا عن نافع عن ابن عمر: فرأيت فى يدى سرقة - قطعة - من حرير فما أهوى بها إلى مكان فى الجنة إلا طارت بى إليه، فقصصتها على حفصة فقصتها على النبى ﷺ فقال: «إن أخاك أو إن عبد الله رجل صالح». وقال عنه عبدالله بن مسعود : إن أملك شباب قريش لنفسه فى الدنيا عبدالله بن عمر، وعن جابر: ما منا من أحد أدرك الدنيا إلا مالت به ومال بها غير عبد الله بن عمر، وعن السدى: رأيت نفرًا من الصحابة كانوا يرون أنه ليس أحد فيهم على الحالة التى فارق عليها النبى ﷺ إلا ابن عمر، وعن أبى سلمة بن عبدالرحمن قال : مات ابن عمر وهو مثل عمر فى الفضل، ومن وجه آخر عنه قال : كان عمر فى زمان له فيه نظراء، وكان ابن عمر فى زمان ليس له فيه نظير. وعن سعيد بن المسيب : لو شهدت لأحد من أهل

الجنة لشهدت لابن عمر، ومن وجه صحيح : كأن ابن عمر حين مات خير من بقى، وعن طاوس: ما رأيت رجلا أورع من ابن عمر، إلى غير ذلك من المناقب والفضائل.

وأما عن روايته وعلمه فقد كان ابن عمر من المكثرين فى الرواية عن رسول الله ﷺ وروى أيضا عن أبى بكر وعمر وعثمان وأبى ذر ومعاذ وعائشة وغيرهم، وروى عنه من الصحابة جابر وابن عباس وغيرهما وبنوه سالم وعبدالله وحمزة وبلال وزيد وعبد الله، وابن أخيه حفص بن عامر، ومن كبار التابعين سعيد بن المسيب وأسلم مولى عمر وعلقمة بن وقاص، وأبو عبدالرحمن النهدى ومسروق وجبير، ونافع وزيد، وخالد بن أسلم، ومن غيرهم : مصعب بن سعد وموسى بن طلحة وعروة بن الزبير وبشر بن سعيد وعطاء وطارق ومجاهد وابن سيرين والحسن وصفوان بن محرز وآخرون.

وكان رحمه الله من أهل الورع والعلم وكان كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ شديد التحرى والاحتياط والتوقى فى فتواه وكل ما يأخذ به نفسه حتى اشتهر بالتشدد، مما جعل أبا جعفر المنصور لما كلف الإمام مالكا بجمع الموطأ أوصاه أن يتجنب فيه شدائد ابن عمر ورخص ابن عباس ويجعله وسطا بينهما. وكان لا يتخلف عن السرايا على عهد رسول الله ﷺ ثم بعد موته كان مولعا بالحج قبل الفتنة إلى أن مات، ويقولون: إنه كان من أعلم الصحابة بمناسك الحج.

وأخرج البغوى من طريق ابن القاسم عن مالك قال: أقام ابن عمر بعد النبى ﷺ ستين سنة يقدم عليه وفود الناس، وعن الزهرى: فلم يخف عليه شئ من أمر رسول الله ﷺ ولا أصحابه، وعن مالك أيضا : كان ابن عمر من أئمة الدين، وكان إمام الناس عندنا بعد عمر زيد بن ثابت، وكان إمام الناس بعد زيد ابن عمر، وكان المشايخ يقولون: من أخذ بقول ابن عمر لم يدع من الاستقصاء شيئا. وكان يحتاط حدا فى الفتوى فعن عقبة بن مسلم أن ابن عمر سئل عن شىء فقال: لا أدرى، ثم قال أتريديون أن تجعلوا ظهورنا جسورا إلى جهنم، تقولون: أفتانا بهذا ابن عمر. وكان يتحفظ ما سمع من رسول الله ﷺ ويسأل من حضر إذا غاب عن قوله وفعله، وكان يتبع آثاره فى كل مسجد صلى فيه، وكان يعترض براحلته فى طريق رأى رسول الله ﷺ عرض ناقته، وكان لا يترك الحج، وكان إذا وقف بعرفة يقف فى الموقف الذى وقف فيه رسول الله ﷺ.

أ.د. محمد نبيل غنايم

مراجع للاستزادة :

١ - الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر.
٢ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب لابن عبدالبر.
٣ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير.
٤ - الطبقات الكبرى لابن سعد.
٥ - حلية الأولياء لأبى نعيم.

عبد الله بن عمرو بن العاص
(٧ ق هـ - ٦٥ هـ = ٦١٦ - ٦٨٤ م)

هو عبد الله بن عمرو بن العاص بن وائل ابن هاشم بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤى القرشى السهمى، كنيته أبو محمد عند الأكثر، ويقال: أبو عبدالرحمن، وأبو نصر. وأمه: ريطة بنت منبه بن الحجاج السهمى، ويقال: كان اسمه العاص فغيره النبى ﷺ، قال أبو زرعة الدمشقى فى تاريخه: عن عبدالله بن الحرث ابن جزء أنهم حضروا مع رسول الله ﷺ جنازة فقال له ما اسمك؟ قال: العاص، وقال لابن عمر: ما اسمك؟ قال: العاص. فقال: أنتم عبيدالله، فخرجنا وقد غيرت أسماؤنا.

ولد قبل الهجرة بسبع سنوات فى مكة ونشأ بها، وكان بينه وبين أبيه اثنتا عشرة سنة، وكان طويلا أحمر عظيم الساقين أبيض الرأس واللحية، وقد أسلم وهو صغير قبل أبيه بسنتين، وكف بصره فى آخر عمره.

وقد اختلف فى وقت وفاته، فقال أحمد ابن حنبل: مات عبدالله بن عمرو بن العاص فى ولاية يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين، وقال غيره: مات بمكة سنة سبع وستين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة، وقال غيره: مات سنة ثلاث وسبعين، وقال يحيى بن عبدالله بن بكير: مات بأرضه بالسبع من فلسطين سنة خمس وستين، وقيل: توفى سنة خمس وخمسين بالطائف، وقيل: إنه مات بمصر سنة خمس وستين وهو ابن اثنتين وسبعين سنة. رحمه الله رحمة واسعة، ورضى عنه وأرضاه.

ومن مناقبه وفضله أن سماه رسول الله ﷺ، وأذن له فى كتابة الحديث فجمع من ذلك الكثير حتى تقدم على أبى هريرة، وكان بينه وبين النبى ﷺ مراجعات فى الاجتهاد فى التقرب إلى الله تعالى، وقرأ التوراة والإنجيل، وقد وردت فى ذلك كله روايات صحيحة، فمن ذلك: أن رسول الله ﷺ لما أذن له فى الكتابة عنه، سأله عبدالله: أأكتب كل ما أسمع منك فى الرضا والغضب؟ قال: «**نعم فإنى لا أقول إلا حقا**» وقال أبو هريرة: ما كان أحد أحفظ لحديث رسول الله ﷺ

منى إلا عبدالله بن عمرو، فإنه كان يعى بقلبه وأعى بقلبى، وكان يكتب وأنا لا أكتب استأذن رسول الله ﷺ فى ذلك فأذن له، وكان يسرد الصوم ولا ينام الليل، فشكاه أبوه إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: «**إن لعينك عليك حقا، وإن لأهلك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، قم ونم، وصم وأفطر، صم ثلاثة أيام من كل شهر فذلك صيام الدهر**»، فقال: إنى أطيق أكثر من ذلك، فلم يزل يراجعه فى الصيام حتى قال له: «**لا صوم أفضل من صوم داود وكان يصوم يوما ويفطر يوما**» فوقف عبدالله عند ذلك وتمادى عليه. ونازل رسول الله ﷺ أيضا فى ختم القرآن، فقال: «**اختمه فى شهر**» فقال: إنى أطيق أفضل من ذلك، فلم يزل يراجعه حتى قال: «**لا تقرأه فى أقل من سبع**»، وبعضهم يقول فى حديثه هذا: «**أقل من خمس أو ثلاث**»، والأكثر على أنه لم ينزل عن سبع، فوقف عند ذلك. وهذا فى الصحيحين، وفى بعض طرقه أنه لما كبر كان يقول: ياليتنى كنت قبلت رخصة رسول الله ﷺ وروى أحمد والبغوى من طريق واهب العافرى عن عبدالله بن عمرو قال: رأيت فيما يرى النائم كأن فى إحدى يدى عسلا وفى الأخرى سمنا وأنا ألعقهما، فذكرت ذلك للنبى ﷺ، فقال: «**تقرأ الكتابين التوراة والقرآن**»، وكان يقرأهما.

وأما عن روايته وعلمه فقد:

حفظ عن رسول الله ﷺ وروى عنه الكثير من الأحاديث، وكتب كثيرا من ذلك فى صحيفته المشهورة عند المحدثين بالصادقة والتى قال عنها: إنه سمعها مباشرة من فم رسول الله ﷺ بلا واسطة وكتبها عنه، كما روى عن أصحاب النبى ﷺ فروى عن عمر وأبى الدرداء ومعاذ وابن عوف ووالده عمرو، وحدث عنه من الصحابة: ابن عمر، وأبو أمامة، والمسور، والسائب بن يزيد، وأبو الطفيل، وعدد كثير من التابعين منهم سعيد ابن المسيب، وعروة، وطاوس، وعمرو بن العاص، وأبو العباس الشاعر، وعطاء بن يسار وعكرمة، ويوسف بن ماهك، ومسروق بن الأجدع، وعامر الشعبى، وأبو زرعة بن عمرو، وأبو عبدالرحمن البجلى، وأبو الخير اليزنى وآخرون. ومن هذه الأحاديث الكثيرة التى حفظها وكتبها، ومن حفظه للقرآن الكريم والحرص على ختمه فى فترات قصيرة ومن قراءته للكتب السابقة نقف على سعة علمه وفضله بين الصحابة والتابعين كما شهد بذلك أبو هريرة.

وكان قد حضر الفتنة الكبرى بين على ومعاوية، وأعلن عن رأيه بوضوح حيث اعتذر من شهود صفين وأقسم أنه لم يرم فيها برمح ولا سهم، وأنه إنما شهدها لعزمة أبيه عليه

فى ذلك، وأن رسـول الله ﷺ قـال له: «**أطع أباك**» وكان يقول: مالى ولصفين، مالى ولقتال المسلمين، والله لوددت أنى مت قـبل هذا بعشر سنين، ثم يقول: أما والله ما ضربت فيها بسيف، ولا طعنت برمح، ولا رميت بسهم، ولوددت أنى لم أحضر شيئا منها، وأستغفر الله - عز وجل - من ذلك وأتوب إليه، إلا أن ذكر أنه كانت بيده الراية يومئذ، فندم ندامة شديدة على قتاله مع معاوية وجعل يستغفر الله ويتوب إليه.

أ.د. محمد نبيل غنايم

مراجع للاستزادة:

١- الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر.
٢- الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبدالبر.
٣- حلية الأولياء لأبى نعيم.
٤- الطبقات لابن سعد.
٥- فتح البارى شرح صحيح البخارى لابن حجر.
٦- أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير.

عبد الله الشرقاوى
(١١٥٠ـ ١٢٢٧هـ = ١٧٣٧ ـ ١٨١٢م)

هو الإمام عبد الله بن حجازى بن إبراهيم الشافعى الأزهرى الشرقاوى.

ولد فى قرية الطويلة فى إقليم الشرقية سنة ١١٥٠هـ = ١٧٣٧م، وإليه ينسب، وتوفى سنة ١٢٢٧هـ = ١٨١٢م.

وهو أحد مشايخ الأزهر البارزين، تمتع بقدرات عقلية ونفسية متميزة، مكنته من أن يجتاز بالأزهر أحداثا جساما تعاقبت عليه فى فترة قصيرة، وقد عاش حياة مضطربة، وعانى معاناة شديدة فى كثير من فترات حياته. لكنه جمع بين العلم، والتصوف، والسياسية فى دهاء واعتدال، قاوم المماليك وانضم إلى الشعب فى الثورة عليهم، وشارك كذلك فى تنظيم المقاومة المسلحة ضد الحملة الإنجليزية على رشيد، لكنه أُخِذَ عليه مشاركته مكرها (فى عهد الحملة الفرنسية على مصر) فى التوقيع على بيان يحذر من معارضة الفرنسيين، لكنه فى جميع الأحوال وَصَّل لوطنه وللأزهر بالسياسة كثيرًا مما عجز معاصروه عنه.

حفظ القرآن الكريم فى طفولته، ثم درس فى الجامع الأزهر، حيث تتلمذ على الشهاب الملوى، والشهاب الجوهرى، والعلامة الشيخ على الصعيدى، والشيخ الإمام الحفنى، والشيخ الإمام الدمنهورى، ومال بفطرته الطبيعية إلى التصوف. فتلقى مبادئ الطريقة الخلوتية على الإمام الحفنى، ثم اتصل بالشيخ الكردى ولازمه.

تولى مشيخة الأزهر خلفا للشيخ أحمد العروسى، فزاد فى تكبير عمامته وتعظيمها، حتى كان يضرب بعظمها المثل، وحتى إنه يمكن التعرف على صورته بين شيوخ الأزهر من خلال هذه العمامة.

وفى حياته أَلَمَّتْ بمصر أحداث جسام تتعلق بالحملة الفرنسية على مصر، وقد حملته السياسة فى غمارها إلى القمة، وكادت تقذف به إلى الأعماق، لولا ما كان يتمتع به من مكانة علمية، وقيادة شعبية رفعته إلى مرتبة الزعامة الوطنية، فلم تجعله متأثراً بهذه الأحداث وإنما مكنته من أن يكون مؤثرا فيها إلى حد كبير.

وكان الشيخ الشرقاوى يدرك أن الأزهر أمانة فى عنقه، فكان يُهادن أحيانا حرصاً على صيانة الأزهر من الأحداث الجسام التى مرَّت بها البلاد، ولقد كاد دور الأزهر أن يتصدع لولا لباقة الشيخ وحسن تأنِّيه فى الأمور مع تمسكه بالدعوة إلى العدل، ووقوفه فى وجه الظلم.

ومن المواقف الكريمة التى رفعت الإمام الشرقاوى إلى مرتبة الزعامة الشعبية، موقفه فى مقاومة طغيان محمد بك الألفى الحاكم المملوكى الطاغية؛ حيث تزعم معارضة شعبية رشيدة أجبرت الحكام على الامتثال لإرادة الشعب؛ بل تطور الأمر إلى كتابة وثيقة بالتزامات الحكام تجاه الشعب رفعوا فيها المظالم والضرائب؛ وكان الفضل للشيخ الشرقاوى، ولعمر مكرم فى إعلان هذه الوثيقة.

هذه الوثيقةُ يشبِّهها بعض المؤرخين بوثيقة حقوق الإنسان، كما يراها البعض وثيقة دستورية تؤكد أن الأمة ممثلة فى علمائها مصدر السلطات، وإن كان الحكام بعد قليل قد عادوا إلى ممارسة الظلم والطغيان، فلم يمض على ذلك شهر حتى نزل مراد بك إلى دمياط وفرض عليها الضرائب الباهظة مما مَكَّن الفرنسيين من غزو البلاد، لأن الشعب كان لا يثق فى هؤلاء الأمراء.

وعندما هاجم الإنجليز رشيد بعد احتلالهم الإسكندرية فى مارس ١٨٠٧م اجتمع العلماء بزعامة السيد عمر مكرم، والشيخ عبد الله الشرقاوى، وكبار العلماء، ودعوا الشعب إلى مقاومة الإنجليز، ورتبوا شئون الدفاع عن البلد، وأرسلوا الإمداد والذخائر إلى رشيد حيث قاوم أهل رشيد الحملة الإنجليزية بقيادة الشيخ حسن كبريت كبير علماء رشيد ونقيب الأشراف بها، وألحق بالحملة الإنجليزية هزيمة منكرة.

أما عن أخلاق الشيخ الشرقاوى؛ فكان متسامحا متساهلا، وقد واجه فى حياته أحداثا جساما كان يلقاها بالمرونة والحكمة، وعندما حدثت فتنة بين المجاورين بالأزهر من الشرقاويين، وطائفة أخرى من المجاورين برواق معمر، تعصّب الشيخ إبراهيم السجينى للآخرين ضد الشرقاويين، وقد رجا الشيخ الشرقاوى إبراهيم بك فى بناء رواق خاص للشرقاويين والتوسعة عليهم، كما أنفق الشيخ أموالا طائلة فى إعداد هذا الرواق إكراما لأهالى الشرقية؛ وقد أعانته نزعته الصوفية على الرفق والتؤدة والتسامح على الرغم مما قاساه من خصومةٍ وعداء، وكان كثيرًا ما يتردد على أضرحة الأولياء للتبرك بهم، وبخاصة مسجد السيد البدوى بطنطا.

وقد ظل الشيخ الشرقاوى طيلة حياته يتمتع برأى مسموع فى الشئون السياسية، كما كان له رأى مسموع فى الشئون الدينية، وقد كان الوالى ينزل إلى رأيه فى كثير من المسائل المتعلقة بشئون الدين.

أما عن مؤلفاته: فله مؤلفات كثيرة - ولكن تلاميذه أكثر من مؤلفاته - ومن هذه المؤلفات:

١- التحفة البهية فى طبقات الشافعية. ضمنه تراجم الشافعية من سنة ٩٠٠ إلى ١١٢١هـ ورتَّبه على حروف المعجم، وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب المصرية.

٢- متن العقائد المشرقية فى علم التوحيد. مخطوط.

٣- الجواهر السنية فى شرح العقائد المشرقية مخطوط.

٤- حاشية الشرقاوى على كتاب التحرير للشيخ زكريا الأنصارى فى الفقه.

٥- حاشية على شرح الهدهدى مخطوط.

٦- شرح حكم ابن عطاء الله السكندرى فى التصوف مخطوط.

٧- ثبت الشرقاوى. ذكر فيه أسانيد شيوخه فى التفسيره، والحديث، والفقه، وفى الأحزاب والأوراد، توجد منه أربع نسخ خطية بدار الكتب.

٨- مختصر الشمائل، وشرح المختصر كلاهما من تأليفه.

٩- رسالة فى «لا إله إلا الله».

١٠- رسالة فى مسألة أصولية فى جمع الجوامع «أصول فقه».

١١- شرح رسالة عبد الفتاح العادلى فى العقائد.

١٢- شرح مختصر فى العقائد والفقه والتصوف، مشهور فى بلاد داغستان.

١٣- شرح الحكم والوصايا الكردية فى التصوف.

١٤- شرح ورد السحر للبكرى.

١٥- مختصر مغنى اللبيب لابن هشام فى النحو والإعراب.

١٦- فتح المبدى فى شرح مختصر الزبيدى فى الحديث، طبعت منتخبات منه على هامش كتاب التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح للبخارى.

١٧- تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين، مطبوع على هامش كتاب لطائف الأول فيمن تصرف فى مصر من الدول

هذا بالإضافة إلى أن الشيخ الشرقاوى قد كتب سيرة كثير من الرجال منهم: الفقيه النبيه الشيخ حسين بن الكاشف، والعلامة الشهير إبراهيم البحيرى، والعلامة العمدة الشيخ محمد الدواخلى.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١- الأزهر فى ألف عام.

٢- الأزهر تاريخه وتطوره.

٣- عجائب الآثار للجبرتى.

٤- مظهر التقديس للجبرتى.

٥- الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك.

٦- كنز الجوهر فى تاريخ الأزهر.

٧- الأعلام للزركلى.

٨- تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان.

٩- صور من دور الأزهر فى مقاومة الاحتلال الفرنسى لمصر، للدكتور عبد العزيز الشناوى.

١٠- عمر مكرم بطل المقاومة الشعبية.

١١- تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى.

عبد الله كنّون
(١٣٢٦ ـ ١٤٠٩ هـ = ١٩٠٨ ـ ١٩٨٩م)

ولد عبد الله بن عبدالصمد بن تهامى فى مدينة فاس فى آخر شعبان ١٣٢٦ هـ = أول ستبمر ١٩٠٨م، وكانت وفاته رحمه الله فى ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٩م.

وهو عالم مغربى، شارك بقلمه فى نضال المغرب من أجل استقلاله ونهضته ، وفى سبيل القضايا العربية والإسلامية. وهو ينتمى إلى أسرة حسنية من أشراف المغرب ذات تاريخ عريق، ولقب الأسرة كنون (بالكاف الفارسية التى تنطق مثل الجيم القاهرية) يعنى القمر باللغة البربرية.

رحل أبوه به إلى مدينة طنجة حينما فرضت فرنسا الحماية على المغرب فى سنة ١٩١٢م، وكانت نيته الهجرة من المغرب إلى المدينة المنورة، غير أن نشوب الحرب العالمية الأولى حالت بينه وبين السفر، فقرر الاستقرار بطنجة بصفة نهائية، وتلقى عبدالله دروسه على يد والده وبعض الشيوخ من أصحابه. وبدت موهبته فى الكتابة ونظم الشعر منذ شبابه المبكر، فكان يكتب فى الصحف، كما اشتغل بالتدريس.

وفى سنة ١٩٤٥م أنشأ «المعهد الإسلامى» وظل يتولى إدارته حتى سنة ١٩٥٣م حينما قامت فرنسا بخلع ملك المغرب محمد الخامس، فقدم استقالته من إدارة المعهد احتجاجاً على ذلك، ولكى يتجنب مبايعة الملك الذى فرضته السلطة الاستعمارية، رحل إلى مدينة تطوان عاصمة المنطقة الشمالية التى كانت تحت الحماية الأسبانية، وفى تطوان ولى وزارة العدل فى الحكومة المؤقتة لهذه المنطقة التى لم تعترف بشرعية الملك الذى نصبته السلطة الاستعمارية الفرنسية. وفى سنة ١٩٥٦م اضطرت فرنسا تحت ضغط الثورة الشعبية المغربية لإعادة الملك محمد الخامس إلى عرشه، وتلا ذلك الاعتراف باستقلال المغرب وبوحدة أراضيه. وعين عبد الله كنون عاملاً (أى حاكماً عاماً) على مدينة طنجة، فكانت مهمته الأساسية هى تصفية نظام الحكم الدولى الذى كانت المدينة خاضعة له. ولم ينقطع النشاط السياسى لعبد الله كنون بتركه منصب الحاكم العام لطنجة، فقد عين وكيلاً للجنة الدستور، واضطلع ببعض المهام الأخرى إلا أنه لم يرتبط بأى حزب من الأحزاب. على أن الشطر الأعظم من جهوده كان موجهًا

للإصلاح الاجتماعى والثقافى والتعليمى فى داخل البلاد، وفى المجال الخارجى لقضايا العالم العربى والإسلامى، فقد عمل عضواً فى المجلس الأعلى للتعليم بالرباط، ومديراً لمعهد مولاى الحسن للأبحاث فى تطوان، وفى سنة ١٩٦١م انتخب أميناً عاما لرابطة علماء المغرب، وفى سنة ١٩٧٤م انتخب عضواً مؤسساً فى رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة، وعضواً فى اللجنة الاستشارية لإحياء التراث الإسلامى سنة ١٩٦٨م وعضواً عاملاً بهيئة القدس العلمية، وعضواً بالمجلس التنفيذى لمكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافية والعلوم، وعضواً فى اللجنة الوطنية المغربية لليونسكو، إلى جانب عضويته لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف، وأكاديمية المملكة المغربية.

كما انتخب عبد الله كنون فى عدد من الهيئات العلمية العربية، منها المجمع العلمى العربى بدمشق (١٩٥٥م) ومجمع اللغة العربية بالقاهرة (١٩٦١م) ومجمع الأردن والمجمع العلمى العراقى (١٩٧٩م) ، ونال كثيراً من الأوسمة من الحكومة المغربية ومن عدد من الحكومات العربية، كما منح درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة مدريد المركزية.

لم يمنع عبد الله كنون هذا النشاط الدؤوب على المستوى الوطنى والعربى والإسلامى، أن يكون من أغزر علماء المغرب إنتاجًا فى مجال التأليف . ومن أجل كتبه فى هذا الميدان كتاب «النبوغ المغربى فى الأدب العربى» وهو تاريخ شامل للأدب المغربى منذ الفتح العربى حتى العصر الحاضر، وقد صدرت طبعته الأولى فى سنة ١٩٣٦م فى تطوان. وتزايدت مادته فى طبعتيه التاليتين، وآخرها فى سنة ١٩٧٤م فى ثلاثة أجزاء. والجزء الأول عرض عام لتاريخ الأدب فى المغرب على مدى العصور، والثانى للمختارات النثرية، والثالث للشعرية، وقد أصبح هذا الكتاب معتمد الباحثين فى مجاله، وترجم إلى اللغة الأسبانية، ويكمل هذا الكتاب مجموعة «ذكريات مشاهير رجال المغرب» الذى بدأ بإصداره فى حلقات منذ سنة ١٩٤٩م، فبلغت فى طبعتها الأخيرة ١٩٧٤م أربعين حلقة، ثم أتمها بعد ذلك خمسين أعدها للنشر فى القاهرة، ومن مؤلفاته «أحاديث عن الأدب المغربى الحديث» وهو مجموعة محاضراته التى ألقاها فى معهد الدراسات العربية العالية التابع للجامعة العربية فى القاهرة سنة ١٩٦٤م، وصدرت طبعته الثانية فى الدار البيضاء سنة ١٩٧٨م. ومن كتبه ذات الطابع العام «مدخل إلى تاريخ المغرب» فى طبعته الثالثة بتطوان سنة ١٩٥٨م.

وله فى مجال التاريخ الأدبى المغربى كتب ذات موضوعات خاصة، منها «أمراؤنا الشعراء» فيمن عرف بالشعر من ملوك المغرب وأمرائه (تطوان ١٩٤٢م)، «أدب الفقهاء» (الدار البيضاء ١٩٨٨م)، «القاضى عياض بين العلم والأدب» (الرياض ١٩٨٣م)،

و«الشيخ أحمد زروق». والدراستان الأخيرتان لعلمين من علماء المغرب الأول: الفقيه الأديب المؤرخ عياض بن موسى السبتى، والثانى: أحد كبار الصوفية.

وللشيخ عبد الله كنون باع فى تحقيق النصوص، وفى هذا المجال كان هدفه إحياء عدد من كنوز التراث المغربى والأندلسى. وكان من أبرز الكتب التى حققها «ديوان يوسف الثالث ملك غرناطة» وهو أحد ملوك بنى الأحمر خلال القرن التاسع الهجرى الذى كان فى أواخره نهاية دولة الإسلام فى الأندلس، ويعد ديوان هذا الملك الشاعر من أواخر نماذج الشعر الأندلسى الجيد قرب هذه النهاية. وقد نشر الديوان فى تطوان سنة ١٩٥٨م، ثم أعيد نشره فى القاهرة سنة ١٩٦٥م. ومن كتب التراث التى عنى بها الشيخ كنون «رسائل سعدية»، وهى مجموعة من الرسائل الديوانية الأدبية التى صدرت عن كتاب الدولة السعدية بالمغرب، و«قواعد الإسلام» للفقيه الأديب عياض السبتى (تطوان ١٩٥٣م) و«المنتخب من شعر ابن زاكور» (نشر دار المعارف بالقاهرة فى سلسلة الذخائر سنة ١٩٦٦م)، و«عجالة المبتدى وفضالة المنتهى» وهو كتاب فى الأنساب لأبى بكر الحازمى، نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة مرتين فى سنتى ١٩٦٥م و١٩٧٣م، وكتاب «التيسير فى صناعة التسفير (أى التجليد)» لأبى بكر الإشبيلى ، نشر المعهد المصرى بمدريد سنة ١٩٥٩م، «مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا» للشاعر الأديب عبد العزيز القشتالى، من منشورات جامعة محمد الخامس بالرباط سنة ١٩٦٤م.

وللشيخ عبد الله مجموعة تبلغ عشرين كتاباً فى مجال الدراسات الإسلامية وتفنيد حجج الطاعنين على الإسلام، نذكر منها «مفاهيم إسلامية» (بيروت ١٩٦٤م، والدار البيضاء ١٩٨٤م)، و«منطلقات إسلامية» (طنجة ١٩٨٠م)، و«الإسلام أهدى» (الدار البيضاء ١٩٨٤م)، وقد ترجم إلى الأسبانية (قَرْبِلَّة ١٩٨٨م)، و«معسكر الإيمان يتحدى» (طنجة ١٩٨٩م)، و«فضيحة المبشرين» (رابطة العالم الإسلامى بمكة، ١٩٨٢م).

وله كذلك ديوانان شعريان : «لوحات شعرية» (تطوان ١٩٦٦م)، و«إيقاعات الهموم» (طنجة ١٩٨١م) لم يضما كل شعره، وست كتب جمع فيها بعض ما نشره من مقالات فى مجالات العالم العربى، منها «أزهار برية» (تطوان ١٩٧٦م)، و«أشذاء وأنداء» (طنجة ١٩٨٦م).

أ.د. محمود على مكى

مراجع للاستزادة:

١- كتب عبدالله كنون ومقالاته مما ذكر فى أثناء هذه المادة.

٢- «عبدالله كنون : شخصه وفكره» من مطبوعات الجمعية المغربية للتضامن الإسلامى، الرباط ١٩٩٤م.

عبدالله بن المبارك
(١١٨ ـ ١٨١ هـ = ٧٣٦ ـ ٧٩٧م)

هو عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلى بالولاء، التميمى، المروزى، أبو عبد الرحمن الحافظ، شيخ الإسلام. أحد أعلام القرن الثانى الهجرى، وكانت أمه خوارزمية، وأبوه من تركيا، ويتحدث عمرو بن على عن سنة ميلاده فيقول.

ولد عبدالله بن المبارك سنة ثمان عشرة ومائة هجرية = ٧٣٦م. بمرو وتوفى سنة ١٨١هـ = ٧٩٧م، والمروزى نسبة إلى مرو، وتعلم بها العلوم الإسلامية.

حفظ القرآن وتعلم العربية: نحوها وصرفها وبلاغتها. وتثقف فى الفقه والحديث.

واستمر بمرو إلى أن بلغ الثالثة والعشرين من عمره المبارك. وأخذ من العلوم أساسًا قويًا. وربما كان له فى هذه السن المبكرة شىء من الشهرة، فقد كان ذا حافظة قوية لا يكاد يفلت منها شىء مما تسمع.

ولقد هدده أبوه يومًا بأن يحرق كتبه. فكانت إجابة ابن المبارك أن كتبه فى صدره: إنه يحفظها.

بيد أن هذه الذاكرة قد تحكم فيها ابن المبارك فجعلها تقبل ما يحب وترفض ما لا يحب.

لقد سأله أحد المحيطين به قائلا : هل اشتغلت بمزاولة حفظ الأحاديث؟

فكان جوابه: إنى أقرأ فما راقنى نُقش فى قلبى فكان محفوظا.

كان ابن المبارك ذكيا، وكان مجدا، كما جمع بين العلم والزهد.

وغادر ابن المبارك مرو لأول مرة فى سن الثالثة والعشرين إلى العراق، وكان ذلك سنة إحدى وأربعين ومائة. وكانت بغداد إذ ذاك مركز أنظار الطامحين سواء أكان طموحهم من أجل الدنيا أم من أجل الدين، وسافر ابن المبارك إلى العراق وإلى مختلف مدنها الشهيرة.

ولم يقف شغف ابن المبارك عند العراق بل سافر إلى أقطار أخرى وخصوصا الحجاز.

وحينما كان يصل إلى مكة يذهب إلى

الحرم ويشرب من ماء زمزم وينوى بالشرب من ماء زمزم أمرا يرجو الله أن يحققه.

وفى أثناء هذه السياحات افتتن ابن المبارك بشخصيات من خيار الأمة: لقد افتتن بالفضيل بن عياض، وبسفيان الثورى، وبالإمام مالك، وبأبى حنيفة رضى الله عنهم.

طلب ابن المبارك العلم، وروى رواية كثيرة، وصنف كتبا كثيرة فى أبواب العلم، وكان ثقة مأمونا حجة كثير الحديث، حيث دون العلم فى أبواب الفقه وفى الغزو والزهد والرقائق وغير ذلك. ويتبين الإنسان مكانته العلمية إذا نظر فى قائمة الكتب التى ألفها ابن المبارك. وإذا كان ابن المبارك قد اشتهر بالحديث، فإنه مع ذلك اشتغل بتفسير القرآن، ويذكر صاحب «الفهرست» أن له تفسيرا للقرآن.

كما اشتغل بالتاريخ، ويذكر ابن النديم أيضا أن له كتابًا فى التاريخ، وكتابًا فى «الفتاوى».

كما اشتغل ابن المبارك بالفقه، وألف فيه كتاب: (السنن فى الفقه).

يقول إبراهيم بن شماس: رأيت أفقه الناس، وأورع الناس، وأحفظ الناس، فأما أفقه الناس: فابن المبارك: وأما أورع الناس: ففضيل بن عياض، وأما أحفظ الناس: فوكيع ابن الجراح.

لقد كان ابن المبارك عالمًا على النسق الاتباعى، وهذا النسق الاتباعى هو سبيل كل العلماء المحبين لرسول الله ﷺ.

وكان ابن المبارك متبعًا لا مبتدعًا: وكان يحذر من المبتدعين. يقول إسماعيل الطوسى، قال ابن المبارك: اجلس مع المساكين، وإياك أن تجلس مع صاحب بدعة.

وعن عبدالله بن عمر السرخسى قال: إن الحارث قال: أكلت عند صاحب بدعة أكلة فبلغ ذلك ابن المبارك، فقال: «ما كلمتك ثلاثين يوما».

وكان يقول:

على العاقل أن لا يستخف بثلاثة: العلماء والسلطان والإخوان، فإن من استخف بالعلماء ذهبت آخرته. ومن استخف بالسلطان ذهبت دنياه. ومن استخف بالإخوان ذهبت مروءته.

وسئل عبدالله بن المبارك: ما ينبغى للعالم أن يتكرم عنه؟

قال: ينبغى أن يتكرم عما حرم الله تعالى عليه: ويرفع نفسه عن الدنيا فلا تكون منه على بال.

وورع ابن المبارك مشهور معروف عند الخاصة والعامة، ومن كلامه الحكيم فى الورع:

لو أن رجلاً اتقى مائة شىء ولم يتورع عن شىء واحد لم يكن ورعًا، ومن كان فيه خلة من الجهل كان من الجاهلين، أما سمعت الله تعالى قال لنوح عليه السلام:

﴿ قال ربِّ إن ابنى من أهلى ﴾.

فقال الله تعالى: ﴿ إنى أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾.

ولم يكن ورعًا فحسب، بل كان زاهدًا أيضًا، ومن كلماته فى الزهد، وتقدير الزاهدين أنه كان يقول:

سلطان الزهد أعظم من سلطان الرعية، لأن سلطان الرعية لا يجمع الناس إلا بالعصا، والزاهد ينفر من الناس فيتبعوه.

ويقول: دعواك الزهد لنفسك يخرجك عن الزهد.

ولقد سئل مرة: من الملوك؟ فقال الزهاد.

ويضاف إلى كل ذلك التواضع الجم، وفى ذلك يقول الحسن عنه: بينما هو بالكوفة يقرأ عليه كتاب المناسك انتهى إلى حيث هو فيه، قال عبدالله: وبه نأخذ، فقال: من كتب هذا من قولى؟، قلت: الكاتب الذى كتبه فلم يزل يحكه بيده حتى درس ثم قال ومن أنا حتى يكتب قولى.

ولكن ابن المبارك الذى كان ورعًا وكان زاهدا وكان يمتلئ خشية هو ابن المبارك التاجر الكبير الثرى الضخم الثراء، وهو فى ذلك يقول:

لا يخرج العبد عن الزهد إمساك الدنيا ليصون بها وجهه عن سؤال الناس.

إن ابن المبارك بهذا الثراء العريض يصحح فكرة التوكل وفكرة الزهد التى يسىء الناس - أحيانا - فهمها.

كان ابن المبارك يتاجر وكان التراب يتحول فى يده إلى ذهب كما يقولون - فى التاجر الناجح - وكانت تجارة ابن المبارك نقل البضائع من مكان إلى مكان، وكان ربحه يأتيه من فرق السعر، وهذا النوع من التجارة يشبه ما نسميه الآن: الاستيراد والتصدير.

وإذا كان بعض التجار يكنز المال ويتسم بالبخل فقد كان من خلق عبدالله بن المبارك: السخاء.

يقول العباس بن مصعب المروزى:

«جمع ابن المبارك: الحديث، والفقه، والعربية، وأيام الناس، والشجاعة، والسخاء».

جاء رجل إلى عبدالله بن المبارك فسأله أن يقضى دينا عليه، فكتب له إلى وكيل له، فلما ورد عليه الكتاب، قال له الوكيل:

كم الدين الذى سألت فيه عبدالله أن

يقضيه عنك؟ قال سبعمائة درهم، فكتب إلى عبدالله: إن هذا الرجل سألك أن تقضى عنه سبعمائة درهم، وكتبت له سبعة آلاف درهم وقد فنيت الغلات فكتب إليه عبدالله: إن كانت الغلات فنيت فإن العمر أيضًا قد فنى فأوجز له ما سبق به قلمى.

إن حياة ابن المبارك حياة جد فى جميع جوانبها، وعمل دائب مستمر، وقدره الناس وأحبوه حبا ملك عليهم أفئدتهم، ومن مظاهر هذا الحب ما رواه شعيب بن شعبة المصيصى قال:

قدم هارون الرشيد أمير المؤمنين الرقة، فانجفل الناس خلف عبدالله بن المبارك وتقطعت النعال، وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد أمير المؤمنين من برج من قصر الخشب، فلما رأت الناس قالت: ما هذا؟

قالوا: عالم من أهل خراسان قدم الرقة يقال له: عبد الله بن المبارك، فقالت:

هذا والله المُلْك؛ لاملك هارون الذى لا يجمع الناس إلا بالعصا والسياط، والشرط والأعوان».

وما من شك فى أن صفات ابن المبارك قد هيأته لحب الناس: كرم وشجاعة وعلم، وإخلاص، وما شئت فقل من صفات الخير.

قال الحسن بن الربيع: سمعت ابن المبارك حين حضرته الوفاة وأقبل نصير، يقول: يا أبا عبد الرحمن! قل: لا إله إلا الله، فقال له: يا نصير، قد ترى شدة الكلام على، فإذا سمعتنى قلتها فلا تردها علىَّ حتى تسمعنى قد أحدثت بعدها كلاما، فإنما كانوا يستحبون أن يكون آخر كلام العبد ذلك.

ولما بلغ هارون الرشيد موت ابن المبارك قال:

«مات سيد العلماء».

أ.د. عبد الحليم محمود «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - ابن خلكان، وفيات الأعيان.

٢- الذهبى، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٥٣.

٣- الأعلام للزركلى ٢/ ١١٥.

٤- حلية الأولياء لأبى نعيم ٨/ ١٦٢.

٥- الرسالة المستطرفة ٣٧.

عبد الله بن مسعود
(١٨ قبل البعثة - ٣٢ هـ)

هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب بن شخص بن قار بن مخزوم بن صاهلة بن كاهل بن الحرث بن تميم بن سعد ابن هذيل الهذلى، أبو عبدالرحمن حليف بنى زهرة، وكان أبوه حالف عبد الحرث بن زهرة، وأمه أم عبد الله بنت عبد ود بن سواء، أسلمت وصحبت وهو أحد السابقين الأولين.

ولد فى مكة قبل البعثة النبوية بحوالى ثمانى عشرة سنة ونشأ بين أبوين فقيرين يلوذان بالأقوياء والأغنياء، وكان نحيفا وقصيرا جدا وخفيف اللحم، وكان يرعى الغنم لعقبة بن أبى معيط قبل أن يلقى رسول الله ﷺ فلما التقاه أحبه وأعلن إسلامه فكان من السابقين إلى الإسلام فهو سادس رجل فى الإسلام.

وكان إسلامه حدثا خطيرا غير مجرى حياته كلها، إسلامه كان قديما وهو صغير حين أسلم سعيد بن زيد وزوجته فاطمة بنت الخطاب قبل إسلام عمر بزمان.

توفى بالمدينة المنورة سنة اثنين وثلاثين من الهجرة على الصحيح وصلى عليه عثمان رضي الله عنه وقيل الزبير ودفن ليلا بالبقيع تنفيذا لوصيته.

رحمه الله رحمة واسعة ورضي الله عنه وأرضاه.

لعبدالله بن مسعود رضي الله عنه مناقب كثيرة وفضائل عديدة منها أن النبى ﷺ مسح رأسه ودعا له بالعلم فهداه الله للإسلام وكان من السابقين إليه، وبعد إسلامه ضمه النبى ﷺ إليه وقربه منه ولازمه فكان يخدمه ويحرسه ويلبسه نعليه، ويمشى أمامه ومعه، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، وقال الرسول ﷺ: «**إذنك على ان ترفع الحجاب، وأن تسمع سوادى حتى أنهاك**» وكان يعرف بين الصحابة بصاحب السواد والسواك، شهد بدرا والحديبية وهاجر الهجرتين جميعا الأولى إلى أرض الحبشة، والثانية إلى المدينة، وصلى إلى القبلتين، وشهد له الرسول ﷺ بالجنة فيما ذكر فى حديث العشرة بإسناد جيد عن سعيد بن زيد قال: كنا مع رسول الله ﷺ على حراء فذكر عشرة فى الجنة:

أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن مالك وسعيد ابن زيد وعبدالله بن مسعود» وفى رواية أخرى: وسعد ابن أبى وقاص وأبوعبيدة بن الجراح. وفيه قال رسول الله ﷺ: «**لوكنت مؤمرا أحدا، أو مستخلفا أحدا من غير مشورة لأمرت أو استخلفت ابن أم عبد**». وقال: «**مارضيت لأمتى مارضى الله لها وابن أم عبد**»، **وسخطت لأمتى ما سخط الله لها وابن أم عبد**» وقال رسول الله ﷺ: «**اهدوا هدى عمار، وتمسكوا بعهد ابن أم عبد**» وقال عنه: «**رجل عند الله فى الميزان أثقل من أحد**» وعن على كرم الله وجهه أن رسول الله ﷺ أمر عبدالله بن مسعود أن يصعد شجرة فيأتيه بشىء منها، فنظر أصحابه إلى خرشق ساقيه فضحكوا، فقال النبى ﷺ: «**ما يضحككم؟ لرجلا عبدالله فى الميزان أثقل من أحد**» وقال ﷺ: «**استقرئوا القرآن من أربعة نفر، فبدأ بعبدالله مسعود**»، وعن عبدالله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**خذوا القرآن من أربعة من ابن أم عبد ومعاذ ابن جبل وأبى بن كعب وسالم مولى أبى حذيفة**» وقال رسول الله ﷺ: «**من أحب أن يسمع القرآن غضا كما أنزل فليسمعه من ابن أم عبد. أو فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**»، وعن عبدالله أن النبى ﷺ أتى بين أبى بكر وعمر، وعبدالله يصلى فافتتح بالنساء، فقال النبى ﷺ «**من أحب أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**». ثم قعد يسأل فجعل النبى ﷺ يقول: «**سل تعطه**»، وقال فيما سأل: اللهم إنى أسألك إيمانا لا يرتد، ونعيما لا ينفد ومرافقة نبيك سيدنا محمد فى أعلى جنة الخلد، فأتى عمر عبدالله بن مسعود يبشره، فوجد أبا بكر خارجا قد سبقه، فقال: إن فعلت لقد كنت سباقا للخير، ومن مناقبه أنه قتل عدو الله فرعون هذه الأمة أبا جهل فى غزوة بدر، فعنه رضي الله عنه قال: أتيت النبى ﷺ يوم بدر فقلت: يارسول الله إنى قد قتلت أبا جهل، قال ﷺ : «**الله الذى لا إله غيره لأنت قتلته؟**» قلت نعم، فاستخفه الفرح ثم قال: «**انطلق فأرنيه**»، قال فانطلقت معه حتى قمت به على رأسه، فقال: «**الحمد لله الذى أخزاك، هذا فرعون هذه الأمة، جروه إلى القليب**»، قال: وكنت ضربته بسيفى فلم يعمل فيه فأخذ بسيفه فضربته به حتى قتلته، ففضلنى رسول الله ﷺ أى أعطانى سلب أبى جهل - زيادة عن سهم الغنيمة. وعن شقيق قال سمعت حذيفة يقول: إن أشبه الناس هديا ودلاً وسمتا بسيدنا رسول الله ﷺ عبدالله بن مسعود من حين يخرج إلى أن

يرجع لا أدرى مايصنع فى بيته، ولقد علم المحفوظون من أصحاب سيدنا محمد ﷺ أن عبدالله من أقربهم عند الله وسيلة يوم القيامة، وهو أول من جهر بالقرآن بمكة، وآخى النبى ﷺ بينه وبين الزبير بن العوام، وبعد الهجرة آخى بينه وبين سعد بن معاذ، وعن أبى موسى قال: قدمت أنا وأخى من اليمن ومانرى ابن مسعود إلا أنه رجل من أهل بيت النبى ﷺ لما نرى من دخوله ودخول أمه على النبى ﷺ وشهد فتوح الشام، وأمره عثمان على الكوفة، وعن تميم بن حرام قال: جالست أصحاب رسول الله ﷺ، فما رأيت أحدا أزهد فى الدنيا ولا أرغب فى الآخرة ولا أحب إلى أن أكون فى صلاحه من ابن مسعود، وعن أبى وائل أن ابن مسعود رأى رجلا قد سبل إزاره فقال له: ارفع إزارك، فقال الرجل: وأنت يا ابن مسعود فارفع إزارك، فقال إنى لست مثلك، إن بساقى حموشة وأنا آدم الناس، فبلغ ذلك عمر فضرب الرجل وقال: أترد على ابن مسعود؟.

كان من كبار العلماء الربانيين، وقد كان ابن مسعود كذلك كما أخبر عنه النبى ﷺ وكما أخبر عنه كبار الصحابة وكما أخبر هو عن نفسه رضي الله عنه، وكما ظهرت آثاره فى المدينة والكوفة والشام وفى كل مكان، فهذا رسول الله ﷺ يمسح رأسه ويدعو له ويقول «**إنك لغلام معلم**» وقد كان، وها هو رسول الله ﷺ يستمع إلى قراءته ويقول لأصحابه: «**من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد**» وهذا رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «**خذوا القرآن من أربعة**» ويذكر فى مقدمتهم ابن مسعود رضي الله عنه، وها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرسل عمارا أميرا على الكوفة ويرسل معه عبدالله بن مسعود وزيرا ومعلما وكتب إلى أهل الكوفة: إنى قد بعثت إليكم بعمار بن ياسر أميرا وعبدالله بن مسعود معلما ووزيرا وهما من النجباء من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل بدر فاقتدوا بهما واسمعوا من قولهما، وقد آثرتكم بعبدالله بن مسعود على نفسى، وقال فيه عمر أيضا: كنيف ملىء علما «وسئل على رضي الله عنه عن قوم من الصحابة منهم عبدالله بن مسعود، فقال: أما عبدالله بن مسعود فقرأ القرآن وعلم السنة وكفى بذلك. وعن أبى ظبيان قال: قال لى عبدالله بن عباس أى القراءتين تقرأ؟ قلت القراءة الأولى قراءة ابن أم عبد، فقال: أجل هى الآخرة إن رسول الله ﷺ كان يعرض القرآن على جبرائيل فى كل عام مرة، فلما كان العام الذى قبض فيه رسول الله ﷺ عرضه عليه مرتين، فحضر ذلك عبدالله فعلم مانسخ من ذلك وما بدل» وعن علقمة قال: جاء رجل إلى عمر وهو

بعرفات فقال: جئتك من الكوفة وتركت بها رجلا يحكى المصحف عن ظهر قلب، فغضب عمر غضبا شديدا، وقال ويحك من هو؟ قال عبدالله بن مسعود، قال فذهب عنه ذلك الغضب وسكن وعاد إلى حاله وقال: والله ما أعلم من الناس أحدا هو أحق بذلك منه. ولما مات ابن مسعود قال أبو الدرداء: ما ترك بعده مثله، تلك شهادة رسول الله ﷺ وشهادة أصحابه رضوان الله عليهم أجمعين فى عبدالله بن مسعود رضى الله عنه، أما حديثه عن نفسه لا فخرا ولكن بيانا للحق والنعمة الربانية عليه، فعن شقيق بن وائل قال: سمعت ابن مسعود يقول: إنى لأعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم، وما فى كتاب الله سورة ولا آية إلا وأنا أعلم فيما أنزلت ومتى نزلت، قال أبو وائل: فما سمعت أحد أنكر عليه ذلك. وعنه أيضا قال: لما أمر عثمان فى المصاحف بما أمر قام عبدالله بن مسعود خطيبا فقال: أيامرونى أن أقرأ القرآن على قراءة زيد بن ثابت، والذى نفسى بيده لقد أخذت من فى - فم - رسول الله ﷺ سبعين سورة وإن زيد بن ثابت لذو ذؤابة - صغير - يلعب به الغلمان، والله ما نزل شىء من القرآن إلا وأنا أعلم فى أى شىء نزل، وما أحد أعلم بكتاب الله منى، ولو أعلم أحدا تبلغه الإبل أعلم بكتاب الله منى لأتيته، ثم استحيا مما قال فقال: وما أنا بخيركم، قال شقيق فقعدت فى الحلق، فيها أصحاب رسول الله ﷺ فما سمعت أحدا أنكر ذلك عليه ولارد ما قال. ولما بعث عثمان إلى عبدالله بن مسعود يأمره بالخروج من الكوفة إلى المدينة اجتمع إليه الناس وقالوا أقم ولا تخرج ونحن نمنعك أن يصل إليك شىء تكرهه منه، فقال لهم عبدالله: إن له على طاعة، وإنها ستكون أمور وفتن لا أحب أن أكون أول من فتحها، فرد الناس وخرج إلى عثمان، وروى عن ابن مسعود أنه قال حين نافر الناس عثمان رضي الله عنه: ما أحب أنى رميت عثمان بسهم وكان يقول: لئن قتلوه لا يستخلفون بعده مثله.

حدث عن رسول الله ﷺ كثيرا أكثر من ٨٤٠ حديثا كما حدث عن عمر وسعد بن معاذ، وروى عنه ابناه عبدالرحمن وأبو عبيدة وابن أخيه عبدالله بن عقبة وامرأته زينب الثقفية، ومن الصحابة: العبادلة، وأبو موسى وأبو رافع وأبو شريح وأبو سعيد وجابر وأنس وأبوجحيفة وأبو أمامة وأبو الطفيل، ومن التابعين علقمة وأبو الأسود ومسروق والربيع ابن خثيم وشريح القاضى، وأبو وائل وزيد بن وهب، وزر بن حبيش وأبوعمرو الشيبانى وعبيدة بن عمرو السلمانى وعمرو بن ميمون وعبدالرحمن بن أبى ليلى، وأبو عثمان

النهدى، والحرث بن سويد وربعى بن خراش وآخرون.

وهو إمام مدرسة الكوفة التى تتلمذ فيها وتخرج منها الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان.

أ.د. محمد نبيل غنايم

مراجع للاستزادة :

١ - الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر.

٢ - الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبدالبر.

٣ - الطبقات الكبرى لابن سعد.

٤ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير.

٥ - الاصطفا فى سيرة المصطفى لمحمد نبهان الخباز.

٦ - حلية الأولياء لأبى نعيم.

ابن عبد البر
(٣٦٨ ـ ٤٦٣ هـ = ٩٧٨ ـ ١٠٧١م)

هو أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر بن عاصم النمرى القرطبى المالكى، من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ أديب، بحاثة، يقال له: حافظ المغرب.

ولد بقرطبة فى ٢٥ من ربيع الأول سنة ٣٦٨هـ = ٩٧٨م، وتوفى رحمه الله بمدينة شاطبة، فى ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وأربعمائة للهجرة = ١٠٧١م.

وكان أبوه من فقهاء قرطبة ومحدثيها، لذلك فقد وجه ولده منذ صغره إلى الدراسات الدينية وطلب العلم، فدأب على الدرس والسماع من كبار العلماء.

ولم تمض سنوات قلائل حتى لمع اسمه، بين نابهى علماء قرطبة، ولظروف سياسية ارتحل عن قرطبة إلى بطليوس غربىّ الأندلس، وولى القضاء فى بلدتى أشبونة وشنترين، ثم تحول بعد ذلك إلى شرق الأندلس، ونزل بلنسيه ودانيه، ونظرًا لعلمه الغزير، وظّفه مجاهد فى دواوينه، وبعد موت مجاهد عينه ابنه رئيسًا لدواوينه وكتابه، وكان يميل فى باكورة حياته إلى مذهب الظاهرية، أتباع دواود بن على الأصبهانى، الذى كان ينكر الرأى فى الفقه والتشريع، ويبنى أحكامه على ظاهر الآيات القرآنية والسنة النبوية، على أنه لم يلبث أن انتظم فيما انتظم فيه جمهور أساتذته وأهل موطنه، من اعتناق مذهب مالك بن أنس. وكان فيه اعتدال جعله يميل إلى بعض آراء الشافعى الفقهية، وكأنه لم يعرف التعصب والتحيز، إنما يعرف الحق ويطلبه، فإذا ظهر له انقاد إليه راضيًا.

ويجمع مَنْ ترجموا له، على الإشادة بعلمه، وروايته الغزيرة للحديث النبوى الشريف.

ويكفينا هنا ما قاله تلميذه الحُميدى: «فقيه، حافظ، مكثر، عالم بالقراءات، وبالخلاف فى الفقه، وبعلوم الحديث والرجال قديم السماع، كثير الشيوخ».

تلقى العلم على كثير من العلماء الأفذاذ، منهم:

أبو عمر الطلمنكى، وابن الفرضىّ، وعبد الوارث بن سفيان، وخلف بن قاسم، وأبو محمد عبد الله بن محمد

ابن عبد المؤمن، وسعيد بن نصر، ومحمد بن إبراهيم بن سليمان، وأحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التَّاهزنى، وأحمد بن محمد بن أحمد ابن الجسور، وأبو عمر الباجى وغيرهم من أعلام الفقه، والحديث، والتاريخ، والمغازى، والأخبار والأنساب. وأما عن تلاميذه فهم كثيرون ومن أشهرهم: الإمام الحميدى، والإمام ابن حزم الأندلسى.

اعتمد ابن عبد البر فى مؤلفاته على ما صدر عن المحدِّثين، وأصحاب المسانيد الثقاة، فكان لا يضع فى مصنفاته إلا ما صح عنهم من أخبار، مبتعدا عن الضعيف والفاسد، والكذَّاب والوضاع.

لذلك يعتبر العلماء أن مؤلفاته من أحسن المؤلفات وأصدقها، وأبعثها على الطمأنينة، وأجنحها إلى الصحة وإتقان الأداء.

تنوعت مؤلفات ابن عبد البر ومصنفاته، فشملت العديد من أفرع العلوم، كالحديث والفقه والقراءات وعلوم القرآن والمغازى والسير وغير ذلك، ومنها:

١ - التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد. مطبوع.

٢ - الاستذكار فى شرح مذاهب علماء الأمصار.

٣ - ثم اختصره فى كتاب سماه: الكافى فى الفقه على مذهب أهل المدينة.

٤ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب.

٥ - الدرر فى اختصار المغازى والسير.

٦ - الانتقاء فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء.

٧ - جامع بيان العلم وفضله وما ينبغى فى روايته وحمله.

٨ - البيان عن تلاوة القرآن.

٩ - اختلاف أصحاب مالك بن أنس، واختلاف رواتهم عنه.

١٠ - التجويد والمدخل إلى العلم بالتحديد.

١١ - القصد الأمم فى التعريف بأصول أنساب العرب والعجم.

١٢ - الإنباه على قبائل الرواة.

١٣ - بهجة المجالس وأُنس المجالِس.

أ. د. شوقى ضيف

مراجع للاستزادة:

١ - وفيات الأعيان لابن خلكان، حـ٢/٣٤٨.
٢ - شذرات الذهب، لابن العماد.
٣ - جذوة المقتبس، للحميدى.
٤ - كتاب الصلة، لابن بشكوال.
٥ - بغية الملتمس، للضبى.
٦ - المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد، حـ٥/٤٠٧.
٧ - الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب لابن فرحون، حـ٢/٣٥٧.
٨ - تذكرة الحفاظ للذهبى.
٩ - الأعلام للزركلى، حـ٨/٢٤٠.
١٠ - معجم المؤلفين.

عبد الجبار الهمدانى
(٣٢٠ـ ٤١٥هـ = ٩٣١ـ ١٠٢٥م)

هو عبد الجبار بن أحمد بن خليل بن أحمد بن عبد الله الهمدانى الأسد آبادى، ولد سنة ٣٢٠هـ على الأرجح الموافق ٩٣١م، وامتد به العمر إلى ما فوق التسعين عامًا حيث توفى سنة ٤١٥هـ الموافق ١٠٢٥م. عرف بين أئمة المعتزلة بأنه قاضى القضاة، بدأ حياته العلمية فى أسد آباد حيث حفظ القرآن الكريم، ثم فى قزوين وهمدان وأصفهان، حيث درس على يد عدد كبير من رجال الفقه الشافعى والمحدثين، ثم استقر بالبصرة سنة ٣٤٦هـ وهى يومئذ كعبة العلم والعلماء من المتكلمين والفقهاء والمحدثين واللغويين والنحاة، لأنها كانت إحدى أكبر مدرستين معروفتين فى تاريخ الفكر الإسلامى، مع مدرسة الكوفة، وكان على مذهب أبى الحسن الأشعرى فى مسائل أصول الدين، وعلى مذهب الشافعى فى مسائل الفقه والفروع، وفى البصرة التقى بالعالم الكبير «ابن عياش» أحد كبار المعتزلة فى عهده، فأخذ عنه أصول المذهب الاعتزالى وتحوَّل بسببه عن المذهب الأشعرى إلى مذهب المعتزلة، ثم انتقل إلى بغداد حيث تتلمذ على الشيخ أبى عبد الله البصرى.

وكانت علاقته بابن عياش سببًا فى لقائه بالصاحب ابن عباد وزير مؤيد الدولة، الذى أعجب به وعينَّه قاضيًا لقضاة الرى، وظل شاغلا لهذا المنصب منذ عام ٣٦٧هـ إلى أن توفى الصاحب ابن عباد، وعزله فخر الدولة من منصبه سنة ٣٨٥هـ بعد أن صادر ممتلكاته هو وجميع من كانوا على علاقة بالصاحب ابن عباد.

تنقل فى بلاد كثيرة، وفى رامهرمز ألف كتابه العظيم «المغنى فى أبواب التوحيد والعدل» الذى يعتبر أكبر موسوعة كلامية عن مذهب المعتزلة، حيث جمع آراء أئمة المعتزلة المتقدمين من معتزلة البصرة وبغداد، وقد اكتشفت بعثة معهد المخطوطات العربية بمصر هذا السفر العظيم بمكتبات اليمن وصوَّرته، وقد تكفل مجمع اللغة العربية بتحقيقه، ونشر منه أربعة عشر جزءًا، وهى الأجزاء التى حصلت عليها من مكتبات اليمن.

ولما عُزل من منصبه تفرغ للتأليف والكتابة والتدريس.

ومن مؤلفاته :

١ - المغنى فى أبواب التوحيد والعدل (٢٠ جزءًا) طبع منه ١٤ جزءًا.

٢ - شرح الأصول الخمسة.

٣ - المحيط بالتكليف.

٤ - دلائل نبوة محمد ﷺ.

٥ - طبقات المعتزلة.

٦ - تنزيه القرآن عن المطاعن.

٧ - متشابه القرآن.

٨ - رسائل كثيرة فى فنون الجدل والرد على المخالفين من الثنوية والبراهمة والدهرية.

٩ - نظم الفوائد وتقريب المراد للرائد. (فى الحديث).

فضلا عن مؤلفاته فى الفقه والأصول وعلوم القرآن والحديث.

يعتبر القاضى عبد الجبار الحلقة الأخيرة فى تاريخ المعتزلة، ولذلك فقد اهتم بالتأريخ للمذهب ولرجاله ولأقوال الأئمة ابتداء من مؤسس المدرسة واصل بن عطاء حتى تاريخ القاضى، وكانت كتابات المؤرخين للمعتزلة مشوبة بالنقص وعدم الدقة إلى أن ظهرت مؤلفات القاضى عبد الجبار، خاصة كتابه العظيم «المغنى» وكتابه «شرح الأصول الخمسة» وبدأ الباحثون يعيدون قراءة المذهب من جديد، ويصحِّحون كثيراً من الأخطاء التى ألصقها بهم خصومهم، وتعتبر مؤلفات القاضى عبد الجبار هى السجل الأمين والوحيد لآراء المعتزلة، ولابد لكل من يكتب أو يريد أن يعرف شيئاً عن آراء وعقائد المعتزلة أن يقرأ مؤلفات القاضى.

بلغت شهرته العلمية الآفاق حتى كان يفد إلى مجلسه طلبة العلم من بغداد والبصرة، يأخذون عنه أصول المذهب ومنهج الحوار مع المخالفين، وصفه الصاحب ابن عبَّاد بأنه «أعلم أهل الأرض فى زمنه»، وقال عنه الحاكم (ت٥٤٥ هـ): « ... ليس تحضرنى عبارة تحيط بقدر فضله فى العلم.. فإنه الذى فتق علم الكلام ونشره ووضع فيه الكتب الجليلة التى بلغت المشرق والمغرب، وضمنها من دقيق الكلام وجليله ما لم يتفق لأحد من قبله..». وإليه انتهت الرياسة فى المعتزلة حتى صار شيخها بلا مدافع، وصار الاعتماد على كتبه ومسائله حتى نسخت كتب من تقدمه من المشايخ.

وفى زمانه امتزج فكر المعتزلة بشىء من التشيع ـ خاصة الزيدية، وزاد ذلك على يد

تلامـذته من بعـده، وأصـبـح فكر المعـتـزلة وأصـولهم باطنا فى المذهب الزيدى، حـتى قيل: زيود المعتزلة، أو معتزلة الزيدية، لشهرة هذه القضية وانتشارها.

ومن أهم آرائه :

١ - إن معـرفة الله ـ تعالى ـ متولدة عن النظر العقلى وليست ضرورية؛ لأنها لو كانت ضرورية لما وقع الخلاف بين العقلاء فيها.

٢ - القول بحدوث العالم، لأن القدم صفة ذات لله ـ تعالى ـ لا يشاركه فيها غيره.

٣ - القـول بأن الإنسـان يخلق أفـعـاله بقدرته وإرادته الحرة، ليصح مساءلته عنها تحقيقًا لمبدأ العدل الإلهى.

٣ - تأويل الصـفـات الإلهـيـة، خـاصـة الصفات الخبرية، مثل صفة اليد، القبضة، الاستواء على العرش.

٤ - لا يأخـذ بحديث الآحاد فى أصـول العقيدة.

٥ - الإمامة بالوصف وليست بالنص كما تزعم الشيـعـة، وهى عنده ليست أصـلا من أصـول الدين وإنما هى مـصلحـة دنيـوية من باب ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

٦ - تقديم العقل على النقل عند التعارض بينهما، ويتأول النص حسب مقتضى قانون اللغة العربية.

٧ - الشفـاعة لا تنفع العاصى إذا لم يتب عن الكبائر قبل موته.

٨ - القول بوجوب الصـلاح والأصلح على الله لعباده.

٩ - القول بأن مـرتكب الكبيـرة فى منزلة بين المنزلتين، فهو ليس مسلماً ولا كافراً.

أ. د. محمد السيد الجليند

مراجع للاستزادة:

١ - طبقات الزيدية لأحمد بن يحيى الصعدى.
٢ - الكامل فى التاريخ لابن الأثير.
٣ - تاريخ بغداد. للخطيب البغدادى.
٤ - هدية العارفين.
٥ - لسان الميزان لابن حجر ـ ط دار الكتب العلمية.
٦ - تاريخ الإسلام للذهبى. ط بيروت.
٧ - نظرية التكليف فى آراء القاضى عبد الجبار الكلامية، عبد الكريم عثمان ـ ط مؤسسة الرسالة، بيروت.
٨ - فى علم الكلام. دكتور / أحمد محمود صبحى ـ ط مؤسسة الثقافة، القاهرة، سنة ١٩٧٨م.
٩ - قضية الخير والشر بين المعتزلة والأشاعرة. د / محمد السيد الجليند ـ ط الحلبى بمصر.

ابن عبد الحكم
(١٨٧ ـ ٢٥٧ هـ = ٨٠٣ ـ ٨٧١م)

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم القرشى المصرى.

ولد بفسطاط مصر عام ١٨٧هـ = ٨٠٣ م وتوفى عام ٢٥٧هـ = ٨٧١ م وأسرته من الأسر المصرية العريقة فى الجاه والعلم، ووالده من زعماء المالكية وأعظم فقهائها، كان والده عبد الله بن عبد الحكم إلى جانب رياسته العلمية، من وجهاء مدينة الفسطاط وأكابر أعيانها، وكان واسع الثراء يمتلك كثيراً من الدور والرباع، ويتمتع فى مجتمع الفسطاط بجاه وقدر عظيم، وترجع شهرة الأسرة لاستقبالهم الكريم للإمام الشافعى حين مقدمه إلى مصر، ومعاونتهم له على الإقامة بها، وعلى إذاعة علمه ومذهبه بين علماء مصر.

وقد درس عبد الرحمن بن عبد الحكم الحديث والفقه، وبرع فى الرواية: وقد أوحت إليه بتدوين تاريخ مصر، وكانت الرواية حية فى صدور الرواة والمحدثين، فكان تدوينها أقرب إلى التحقيق والضبط. ورأى عبد الرحمن أن يستخرج من الرواية ما كان خاصاً بفتح مصر وأخبارها فى وحدة متناسقة متعاقبة، تكون تاريخاً لمصر.

وكانت الرواية الشفوية عمدة ابن عبد الحكم فى معظم تدوينه، فهو يروى عن أبيه ومعاصرى أبيه والمقربين من عصره، مثل الليث بن سعد، وعبد الله بن صالح، وابن لهيعة، ويزيد بن حبيب، وخالد بن حميد، ويحيى بن أيوب، وعبد الملك بن مسلمة. ويروى عن معاصريه، أمثال: عثمان بن صالح، وعبد الله بن بكير، ومن الذين شهدوا الفتح وما تلاه من الحوادث.

من مؤلفاته :

فتوح مصر وأخبارها، وابن قديد ت ٣١٢هـ، هو الذى نقل إلينا هذا المؤلف «فتوح مصر وأخبارها»، ويحتمل أنه تلقى نسخة من الكتاب بعد وفاة المؤلف بفترة أى فى أواخر القرن الثالث الهجرى، فنقلها إلى تلاميذه كما هى دون إجراء أى تصحيح أو تعديل.

وابن عبد الحكم هو أول من دوّن سير

الفتوحات الإسلامية لمصر والمغرب، بطريق التحقيق والرواية المسندة، وقد خص مصر بأكبر قسط من جهده، ولم يكن تدوينه لفتح أفريقية والمغرب والأندلس إلا كذيل يقتضيه سياق الرواية؛ لأن مصر قاعدة هذه الفتوحات، ولأن حكام مصر الأوائل كعمرو بن العاص، وعبد الله بن سعد، هم الذين نظموا أول غزوات لأفريقية.

وكتاب فتوح مصر وأخبارها يحتوى سبعة أجزاء، الأول: من فضائل مصر، وفيه رواية للأساطير التى قيلت فى تاريخ مصر قبل الفتح، ودخول يوسف إليها، ثم خروج بنى إسرائيل منها وبناء الإسكندرية، والثانى: عن فتح مصر ،والثالث: عن خطط مصر الأولى، والرابع: عن ولاية عمرو بن العاص وأعماله وخططه ومكاتباته مع عمرو بن الخطاب فى شئون مصر، والخامس: سيتعلق بفتح أفريقية والمغرب والأندلس حتى سنة ١٢٧هـ، والسادس: عن قضاة مصر الذين تولوا القضاء حتى سنة ٢٤٦هـ، والسابع: فى الأحاديث ومن روى عنه أهل مصر من أصحاب الرسول ﷺ ممن دخلها فعرف أهل مصر بالرواية عنهم، ويعتمد ابن الحكم على ابن لهيعة فى رواية معظمها.

وأنفس ما دوّن ابن عبد الحكم هو سيرة الفتح الإسلامى لمصر وما كانت عليه مصر وقت الفتح من أحوال العمران. وتبدأ هذه السيرة بكتاب النبى العربى ﷺ إلى المقوقس الحاكم الرومانى لمصر وقت الفتح (ورد المقوقس على النبى ﷺ، ثم يتتبع المؤرخ زحف العرب حتى فتح مصر والإسكندرية، وما تخلل ذلك كله من سفارات ومفاوضات بين العرب والقبط ومراسلات بين الفاتح والخليفة، ومنها وثائق فى منتهى الأهمية، تلقى الكثير من الضوء على سياسة العرب الدينية وطرقهم فى الإدارة، وعلى مبلغ ما كانت عليه مصر يومئذ من وفرة السكان والعمران. ثم يعرض المؤرخ نظرية فتح مصر من الوجهتين السياسية والشرعية، وهل فتحت مصر بالصلح، أم فتحت عنوة وبقوة السيف، ويشرح خطط مصر الأولى، ونزول القبائل والبطون بها، وقيام المساجد والمنازل الأولى، ثم خطط الإسكندرية وما وزع من أحيائها ومنازلها وضياعها قطائع للزعماء والجند، ويتتبع نموها وتقدمها فى عهد حكامها من العرب.

ومما يدهش القارئ فى كتاب ابن عبد الحكم فتوح مصر أنه عالج فيه موضوعات شتى إدارية واقتصادية واجتماعية ومن هنا جاءت قيمته التاريخية، واعتبره المؤرخون من أهم ركائن العلم والثقافة الإسلامية الواسعة. وقد انفرد فى عصره بما بذله فى علم

التاريخ حتى أصبح فى طليعة المؤرخين العرب ويكفى أن نعرف أن الطبرى روى عنه، وروى عنه الكندى، وابن زولاق، وابن دقماق، وابن خلكان، وغيرهم.

وقد ظهرت ترجمات لاتينية وإنجليزية وفرنسية لكثير من فصول كتاب (فتوح مصر وأخبارها) وتوِّج هذا الاهتمام بظهور الكتاب بعناية المستشرق تشارلز تورى، الذى تولى تصحيح الكتاب ومطابقته على المخطوطات المعروفة وقدَّم له مقدمة بالإنجليزية عن المؤرخ وأثره، طبعة ليدن ١٩٢٠م، وقد نشرت منه طبعات أخرى غير كاملة بتحقيق المستشرق هنرى ماسيه، وصدرت عن المعهد الفرنسى بالقاهرة ١٩١٤م.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١- مجموعة من الأساتذة : دراسات عن ابن عبد الحكم، مؤسسة النشر العامة للكتاب سنة ١٩٧٥م.

٢- محمد عبد الله عنان : مؤرخو مصر الإسلامية، مؤسسة مختار للنشر سنة ١٩٩١م.

عبد الحليم محمود
(١٣٢٨ ـ ١٣٩٨ هـ = ١٩١٠ ـ ١٩٧٨م)

ولد «عبد الحليم محمود على» فى سنة ١٣٢٨هـ الموافق شهر مايو عام ١٩١٠م فى قرية «أبو أحمد» بضواحى بلبيس بمحافظة الشرقية ـ وتُسمى القرية الآن باسم قرية «السلام». حفظ القرآن الكريم فى كُتَّاب القرية، ثم التحق بالأزهر عام ١٩٢٣م، وبعد إنشاء معهد الزقازيق الدينى انتقل إليه عام ١٩٢٥م، واختصر فترة الدراسة بأن تقدم للحصول على الشهادة الثانوية الأزهرية من الخارج وحصل عليها عام ١٩٢٨م.

ويقول عن نفسه فى عرضه لسيرته الذاتية : إنه لم يكن حاد الذكاء ولم يكن قوى الذاكرة، وأن ترتيبه فى الدراسة كان دائما فى أوائل المتوسطين.

وقد نال الشهادة العالمية عام ١٩٣٢م ثم سافر إلى فرنسا على نفقته الخاصة فى العام نفسه لاستكمال دراسته فى جامعة السوربون، وقد حول إلى البعثة الأزهرية عام ١٩٣٨م، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٤٠م وكانت رسالته للدكتوراه عن «الحارث بن أسد المحاسبى».

وبعد عودته من فرنسا عمل مدرسا لعلم النفس بكلية اللغة العربية، ثم نقل أستاذا للفلسفة بكلية أصول الدين عام ١٩٥١م، وعين عميدا للكلية عام ١٩٦٤م ثم اختير أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية فى أوائل عام ١٩٦٩م، وعين وكيلا للأزهر عام ١٩٧٠م، ثم وزيرا للأوقاف وشئون الأزهر عام ١٩٧٢م، ثم شيخا للأزهر ١٩٧٣م. وقد زار العديد من البلاد العربية والإسلامية فى آسيا وإفريقيا، وفضلا عن ذلك زار عددا من البلاد الأوروبية والولايات المتحدة الأميريكية. وتوفى فى صباح الثلاثاء ١٥ ذو القعدة سنة ١٣٩٨هـ الموافق١٧ أكتوبر عام ١٩٧٨م.

والمثل الأعلى لمن يطلب الحكمة ـ فى نظر الدكتور عبد الحليم محمود ـ يتمثل فى «الكشف عن الإله، ثم الاتصال به» كما عبر عن ذلك أفلوطين فى دقة وعمق بالغين. وبناء على ذلك يعرف الدكتور عبد الحليم محمود الفلسفة بأنها : «المحاولات التى يبذلها الإنسان عن طريق العقل وعن طريق التصفية

ليصل بها إلى معرفة الله». فهذه المحاولات هى الفلسفة والنتيجة هى الحكمة.

وعندما يطبق التعريف المشار إليه على محاولات الفلاسفة يرى أن الغزالى - باعتبار أنه استكمل شطرى الطريق - آصل فى الميدان الفلسفى من ابن سينا، ومن أرسطو، ومن ديكارت، نظرا لأن كلا من هؤلاء لم يقطع إلا نصف الطريق، أى المحاولات عن طريق العقل فقط. وكل الفلاسفة العقليين - فى رأى الدكتور عبد الحليم محمود - أنصاف فلاسفة، بينما يرى أن الفلسفة الهندية مثلا تعد فلسفة كاملة لأنها حققت الكشف عن الإله ثم الاتصال به - وقد صور ابن طفيل فى رسالته «حى بن يقظان» الطريق الكامل المشتمل على طريق العقل وطريق التصفية معا. وإذا كان الأمر كذلك فإن علما مثل علم أصول الفقه لا يُعد فلسفة لأنه ليس كشفا عن الإله ولا اتصالا به.

ويذهب الدكتور عبد الحليم محمود إلى حد القول الجازم بأن «الفلسفة لا رأى لها... فى أى من المسائل الجزئية، وهى لا رأى لها فى أى موضوع من الموضوعات الكلية... فمادام كل رأى فلسفى يعارضه رأى فلسفى آخر ويعارض الرأيين رأى ثالث فلسفى وهكذا، فتكون النتيجة أنه لا رأى للفلسفة».

والعقل - فى رأيه - عاجز تماما عن الوصول إلى يقين فى المسائل الميتافيزيقية والأخلاقية - فكل ما ينتهى إليه البحث العقلى فى هذا الصدد يُعد من قبيل الأمور الظنية التى تختلف فيها آراء الباحثين وتتعارض مع بعضها، وليس للعقل دور إلا فى مجال الحضارة المادية التى هى بأكملها من عمل العقل - والسبيل إلى الوصول إلى الحق فى الميتافيزيقا والأخلاق هو سبيل الدين - ويؤكد الدكتور عبد الحليم محمود أن هذا هو منهجه الخاص فى حياته الفكرية وهو «منهج الاتباع» يسير فيه تبعا لتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. وقد خصص لشرح وجهة نظره هذه كتابه «الإسلام والعقل» الذى يقول عنه : إنه لم يفرح فى يوم من الأيام لظهور كتاب له بمقدار ما فرح حين ظهر هذا الكتاب فى طبعته الأولى.

ويقول فى سيرته الذاتية: إن «كل ما كتبته عن التصوف وعن الشخصيات الصوفية ... يسير فى فلك هذا المنهج: منهج الاتباع. وهذا المنهج يفترض مقاومة الغزو الفكرى» الذى يتمثل فى العقائد وفى نظام المجتمع وفى مجال التشريع، فالغزو الفكرى فى العقائد يتمثل فى التراث الفلسفى اليونانى الذى نقل إلى العربية فى مجال ما بعد الطبيعة. فهذا التراث نتاج بشرى متناقض

يتسم بكل ما يتسم به النتاج البشرى من خطأ وضلال.

أما الغزو الفكرى فى نظام المجتمع فإنه يتمثل فى فرض نظام المجتمعات الأوروبية علينا. وهذا يعنى - إذا سرنا فى تياره - أن نفقد ذاتيتنا ونصبح بلا شخصية، وبالتالى نفقد رسالتنا التى هى رسالة الإسلام التى من أجلها كانت الأمة الإسلامية، وبدونها تفقد الأمة الإسلامية مبررات وجودها.

وأما الغزو الفكرى فى مجال التشريع فإنه يتمثل فى كليات الحقوق التى تعد دراستها كلها - كما يقول - من قبيل الغزو الفكرى والاستعمار الفكرى. فالقوانين الأوروبية يخصص لها عشرون ساعة فى الأسبوع فى حين يخصص للتشريع الإسلامى ساعتان فقط أسبوعيا. وهذا يعنى أن هذه الكليات تفرض على الطالب أن يستعمر الأوروبيون فكره فى مجال التشريع، وأن يلغى ذاتيته الإسلامية فى هذا المجال. ومنهج الاتباع يقتضينا أن ننظر فى جد فى أمر هذه الكليات حتى تكون تمثيلا حقيقيا للوطنية والإسلام والعروبة.

ويرفض الدكتور عبد الحليم محمود أن يكون هناك تعارض بين العلم والدين نظرا لاختلاف موضوع كل منهما. فموضوع العلم هو المادة وموضوع الدين هو العقائد والأخلاق والتشريع ونظام المجتمع والتقوى وصلاح الفرد وصلته بالله تعالى... الخ. فهذان مجالان مختلفان تماما، فليست هناك - إذن - مشكلة بالنسبة للإسلام. وهذه القضية - قضية النزاع بين الدين والعلم - قضية غريبة تماما عن الجو الإسلامى، وقد كان لها فى أوروبا ظروفها الخاصة التى أفرزتها هناك. ومن هنا لايجوز إثارتها فى الشرق دون فهم حقيقى لجذورها فى تلك البلاد.

ومن مؤلفاته : الإنتاج العلمى للدكتور عبد الحليم محمود إنتاج غزير ومتنوع. فقد ترجم أو اشترك فى ترجمة عدد من المؤلفات من الفرنسية إلى العربية، كما حقق أو اشترك فى تحقيق العديد من كتب التراث وبخاصة فى ميدان التصوف. وبالإضافة إلى ذلك قام بتأليف عدد كبير من الكتب فى الفلسفة والتصوف وغيرهما من مجالات إسلامية مختلفة.

ومن بين المؤلفات التى اشترك فى ترجمتها: الفلسفة اليونانية لألبير ريفو، المشكلة الأخلاقية والفلاسفة لأندريه كريسون، الأخلاق فى الفلسفة الحديثة لأندريه كريسون.

ومن بين الكتب التى حققها: تفسير التسترى (فى جزأين)، الطريق إلى الله أو كتاب الصدق للخراز، المنقذ من الضلال

للغـــزالـى، لطـائف المنن لابن عـطـاء الله السكندرى.

ومن أهم الكتب التى اشترك فى تحقيقها ونشرها: اللمع للطوسى، الرعاية لحقوق الله للمحاسبى، الرسالة القشيرية للقشيرى، عوارف المعارف للسهروردى، شرح حكم ابن عطاء الله للشيخ زروق، التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى.

ومن بين الكتب التى ألفـهـا: الإسـلام والعقل، فلسفة ابن طفيل ورسالته، التفكير الفلسفى فى الإسلام، التصوف عند ابن سينا، أوروبا والإسلام، كما ألف سلسلة كتب عن عدد كبير من أعلام التصوف الإسلامى.

وقد كتب سيرته الذاتية فى كتاب بعنوان: «الحمد لله هذه حياتى».

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ - مؤلفات الدكتور عبد الحليم محمود التالية:

(أ) الحمد لله هذه حياتى.

(ب) التفكير الفلسفى فى الإسلام.

(جـ) الحمد لله هذه حياتى.

(د) الإسلام والعقل.

(هـ) الحمد لله هذه حياتى.

(و) المصدر السابق.

٢ - مراجع أخرى:

١ - مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن. للأستاذ على عبد العظيم - ج٢ - القاهرة ١٩٧٩.

٢ - شيخ الإسلام الإمام عبد الحليم محمود. من تأليف رءوف شلبى - دار القلم بالكويت.

عبد الحميد العبادى
(١٣٠٩ ـ ١٣٧٥ هـ = ١٨٩٢ ـ ١٩٥٦م)

هو شيخ مؤرخى التاريخ الإسلامى فى الجامعات المصرية، والعميد المؤسس لآداب الإسكندرية.

ولد الأستاذ عبد الحميد عبد العزيز بن منصور العبادى فى الإسكندرية فى سنة ١٣٠٩هـ = ١٨٩٢/٣/٢١م، وأتم تعليمه الابتدائى والثانوى بمدارسها، ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا بالقاهرة (مدرسة المعلمين الخديوية)، وبعد تخرجه منها سنة ١٩١٤م، عمل مدرسًا فى المدارس الثانوية للجمعية الخيرية الإسلامية بطنطا (١٩١٤ ـ ١٩٢٠م)، كما كان يدرس فى الجامعة المصرية القديمة، ثم عين مدرسًا للتاريخ الإسلامى بمدرسة القضاء الشرعى (١٩١٠ ـ ١٩٢٥م) ثم أستاذًا للتاريخ الإسلامى فى دار العلوم، وعند إنشاء الجامعة المصرية الحكومية نقل للتدريس فيها (١٩٢٥ ـ ١٩٤٢م). وشغل كرسى الأستاذية لمادته، وقد انتدب لتدريس التاريخ الإسلامى بقسم التخصص بالأزهر حين إنشائه فى سنة ١٩٢٩م.

ومن مظاهر نشاط الأستاذ العبادى التحاقه بكلية الحقوق وحصوله على درجة الليسانس منها، وحين أنشئت كلية الآداب بالإسكندرية نقل الأستاذ العبادى إليها، واختير عميدًا لها، وكانت باكورة الدراسات العليا بقسم التاريخ قد منحت أول درجة ماجستير فى ١٩٤٥م، ومنحت أول درجة دكتوراه من القسم فى ١٩٤٨م، وكان هو المشرف على الرسالتين.

وفى سنة ١٩٥٢م عين أستاذًا بمعهد الدراسات العربية بالقاهرة (الملحق بجامعة الدول العربية)، وعرف عنه دماثة الخلق، وهدوء الحديث، والتزام الفصحى، وتواضع العلماء.

وكان عضوًا مراسلا للمجمع العلمى بدمشق، ومنح لقب البكوية ١٩٤٩م، وقد ضمه مجمع اللغة العربية إلى أسرته فانتخبه عضوًا عاملا سنة ١٩٥١م فى المكان الذى خلا بوفاة المرحوم الدكتور محمد شرف.

اشترك مع أحمد أمين وطه حسين فى التأريخ للحياة الفكرية والسياسية

والاجتماعية للإسلام، فى المشروع الكبير الذى صدرت منه كتب أحمد أمين، فجر الإسلام وضحاه وظهره ويومه.

وعقب إحالته إلى المعاش (١٩٥٢م) عُينَ أستاذًا للتاريخ فى معهد الدراسات العليا التابع لجامعة الدول العربية، وظل يشغل هذا المنصب إلى أن اشتد به المرض فى ذلك العام، فسافر إلى لندن وبقى بإحدى مستشفياتها ثلاثة أشهر، ثم عاد إلى مصر، ولكن العلة اشتدت به، فانتقل إلى رحمة الله تعالى فى الثالث من أغسطس سنة ١٩٥٦م.

وكان العبادى عضوًا مؤسسًا وعاملاً بلجنة التأليف والنشر منذ إنشائها عام ١٩١٤م وعنها صدرت بعض مؤلفاته، ومثَّل مصر والجامعات المصرية فى عدد من المؤتمرات الدولية، ومنها مؤتمر المستشرقين.

كانت له طريقته الخاصة فى تحويل المادة التاريخية إلى مواقف وقضايا يعرضها على طلابه، ويناقشها ويحاورها، ويقدم ما يمكن أن تحتمله، وما لا يمكن أن تحتمله من تفسيرات، وفى أثناء ذلك يتخذ من الأحداث والظروف والتفاصيل شواهد على التفسير الذى يستقر عليه، وخلاصة التاريخ عند الأستاذ الجليل هى قضية تطور مجتمع، وظروف، ولحظات تاريخية حاسمة، يكسب من يقتنصها، ويخسر من يتقاعس عنها.

وللأستاذ العبادى - عدا المقالات والبحوث التى نشرت له فى الصحف والمجلات - عدة كتب، بعضها ترجمة، وبعضها تأليف، وبعضها تحقيق، نذكر منها:

١ - تاريخ المسألة المصرية ١٨٧٥ - ١٩١٠م تأليف ثيودور روشتين (ترجمه بالاشتراك مع المرحوم محمد بدران سنة ١٩٢٣م) وكان المؤلف صديقا لمصطفى كامل ومحمد فريد، والكتاب دفاع عن مصر.

٢ - علم التاريخ: تأليف هرنشو (ترجمة، وأضاف إليه فصلا عن التاريخ عند العرب، سنة ١٩٧٣م) ويتناول الكتاب تطور كتابة التاريخ، وعلاقته ببعض العلوم الأخرى، علَّق عليه المترجم بما يفسر ما غمض من معانيه وأعلامه.

٣ - الدولة الإسلامية: تاريخها وحضارتها (بالاشتراك) سنة ١٩٥٤م.

٤ - صور من التاريخ الإسلامى (جزآن) ١٩٤٧ - ١٩٥٣م)، طبع بالإسكندرية، وشمل عدداً من الفصول عن العصر العربى، وألحقه بالجزء الثانى عن الدولة العباسية والأندلس.

٥ - المجمل فى تاريخ الأندلس ١٩٤٨م ويضم مجموعة من محاضراته، ونشر بعد وفاته.

٦ - نقد النثر المنسوب لقدامة بن جعفر

(حققه بالاشتراك مع الدكتور طه حسين) سنة ١٩٣٣م.

٧ ـ راجع كتاب «أدب الأندلس وتاريخها» تأليف ليفى بروفنسال، ترجمة الدكتور محمد عبدالهادى شعيرة سنة ١٩٥٠م.

٨ ـ راجع كتاب «الحضارة الإسلامية» تأليف جرونباوم، وترجمة الأستاذ عبدالعزيز جاويد.

ونشر الكثير من المقالات والأبحاث التاريخية والأدبية فى الصحف والمجلات فيما بين ١٩١٦ ـ ١٩٥٦م، وأكثرها لم يجمع فى كتب مستقلة.

وله محاضرات ومخطوطات لم تطبع، ألقى بعضها فى جامعات الإسكندرية والقاهرة وبغداد، وكانت من بواكير مقالاته فى الشباب ما نشره بجريدة السفور بالقاهرة عام ١٩١٨م عن الأدب العربى المصرى، تاريخه وإهمال دراسته، ومانشره بمجلة الثقافة منذ إنشائها عام ١٩٣٨م.

ومن بحوثه فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة (الحسبة وفائدتها، فى المعجمين الوسيط والكبير)، و (ثلاثة حوادث فى التاريخ الإسلامى ساعدت على نمو العربية وانتشارها)، و (الصلة بين الشعر والتاريخ السياسى فى القرن الأول الهجرى).

وقد نشرت مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية المجلد ١٤ عام ١٩٦٠م عددًا تذكاريًا مُهْدى إلى المرحوم الأستاذ عبدالحميد العبادى بإشراف الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال، رحمه الله.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١ ـ محمد مهدى علام: المجمعيون فى خمسين عاما، سنة ١٩٨٦م.

٢ ـ د. محمد الجوادى: أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى، سنة ١٩٨٨م.

عبدالحميد الكاتب
(..... ـ ١٣٢ هـ =..... ـ ٧٥٠م)

هو عبدالحميد بن يحيى بن سعد العامرى مولى فارس لبنى عامر نشأ بالشام فى أخريات الدولة الأموية، ونجمها إلى غروب، كان فى أول الأمر معلمًا يتنقل، ثم كتب بديوان الرسائل فى عهد هشام بن عبد الملك ورئيسه آنذاك سالم، فتخرج عليه. ثم عرفه مروان بن محمد - وكان واليًا على الجزيرة وأرمينية - فاتخذه كاتبًا له، فلما تولى الخلافة سنة ١٢٧هـ (٧٤٤ م) عيَّنه كاتبًا للدولة ثقة به، ورغَّبه فى الانتفاع بعلمه وذكائه وخبرته. ولقد توالت المحن على مروان فى السنوات الخمس التى قضاها خليفة إلى أن هرب إلى مصر وتبعه العباسيون إليها فقتلوه وانتهت الدولة الأموية بمقتله، وأثناء هذه المحنة لم يفارق عبدُ الحميد مروانَ بن محمد، وإن كانت الروايات تؤكد أنه قتل معه.

وأما عن ثقافته فقد تزود عبدالحميد من القرآن واللغة والشعر والأخبار وتتلمذ فى الديوان لزوج أخته سالم مولى هشام بن عبدالملك ورئيس ديوان الرسائل فى عهده. وأغلب الظن أن الصلة التى قامت بين عبدالحميد وسالم عَرَّفَتْهُ بعض ما يتبعه اليونان فى نثرهم ورسائلهم، إذ كان سالم متمكنا من اللغة اليونانية حيث يترجم فيها، وهو الذى ترجم بعض رسائل أرسطو إلى الإسكندر، كما أن صداقته لابن المقفع كشفت له عن النثر الفارسى واليونانى معًا، فمن المعروف أن ابن المقفع كان يجيد الفارسية، وقد ترجم منها كتاب كليلة ودمنة، والأدب الكبير، والأدب الصغير، ولعله أيضًا كان يعرف اليونانية، وذلك لأنه قام بترجمة بعض كتب أرسطو فى المنطق والجدل والقياس. إلى جانب أنه مارس الكتابة فى العصر الأموى؛ حيث كتب لداود بن عمر بن هبيرة، ثم كتب لعيسى بن على عم الخليفة المنصور. وبهذا استطاع عبدالحميد بن يحيى بامتلاكه ناصية اللغة العربية وحذقه لها، وإلمامه إلمام علم ومعرفة ببعض النظم المتبعة فى اللغة اليونانية والفارسية أن يجيد فى النثر الفنى

العربى حتى عدت القمة التى وصل إليها النثر الفنى فى عهده منسوبة إليه.

وقد تميزت كتابة عبدالحميد بعدة خواص، بعضها جديد أو فيه تجديد، حتى لقد خيل إلى بعض الدارسين منذ عهد بعيد أن عبد الحميد أول كاتب، فالأدب عرف كثيرًا من الكتاب أصدق عاطفة منه، وأرقى فكرا، وأجود أسلوبا، إلا أنهم لم ينالوا من الشهرة مثل ما نال عبد الحميد لأنه كان وزيرًا، وكانت له حاشية تدعو له وتذيع اسمه، وتبالغ فى وصفه.

والحق أن النثر الفنى كان معروفا قبل عبد الحميد فلم يخترعه أو يستدعيه... وإنما كان النثر الفنى قد بلغ طورا من النضج ومن التطور قبل عبد الحميد، ثم جاء عبد الحميد فظهر هذا التطور على قلمه فتوافرت براعته الأدبية ليس فى صنع رسالة فحسب، وإنما أيضا تحول بطائفة منها إلى رسائل أدبية بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، ولهذا حق للنثر الفنى أن يتطور تطورًا واسعًا عند عبدالحميد وأن يشتهر بصناعة الكتابة حيث جدد فى الشكل، وبرع فى الصياغة، وأجاد التعبير عن المعانى، وتأنق فى اختيار الألفاظ والمفردات الدالة، وأخذ نفسه فى تقسيم الجمل كى تتساوى فى طولها، كأنما قد وزنها. وعنى بالخيال وبالتضاد فى طباق أو مقابلة ليزيد الفكرة وضوحًا وتأييدًا.

ولا شك أن أبلغ كتاب العصر الأموى هو عبد الحميد بن يحيى الكاتب وقد سماه الجاحظ فى بيانه عبد الحميد الأكبر، ونصح الكتاب أن يتخذوا كتابته نموذجا لهم وظلت شهرته مدوية على القرون حتى قيل: فتحت كتابة الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد.

ولكم كان أبو العباس القلقشندى بارعًا وأمينًا حين أشار إلى الأستاذ الأول لفن الكتابة العربية، فذكر أنه وضع الأساس الأول لآداب هذه الكتابة فى رسالته التى عنوانها: «إلى الكُتَّاب» ويحدد عبد الحميد الكاتب فى رسالته للكُتَّاب ما ينبغى أن يكون عليه طعامهم وسكنهم، بالبعد عن التبذير، ويحذرهم من الانشغال بالتدبير عن العمل، ويحذرهم من الغرور. «ولا يجاوز الرجل منكم فى هيئة مجلسه، وملبسه، التقصير، وحفيظة لا تحتمل منكم أفعال التصنيع والتبذر، واستعينوا على عفافكم بالقصد فى كل ما ذكرت لكم، وقصصته عليكم، واحذروا متآلف الشرف، وسوء العقبة فى الترف، فإنهما

يعقبان الفقر، ويذلان الرقاب، ويفضحان أهلها، ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب.

واعلموا أن التدبير آفة متلفة، وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن نفاذ عمله ورؤيته، فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقه، وليود فى ابتدائه وجوابه، وليأخذ بمجامع حججه، فإن ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للشاغل عن إكثاره، وليضرع إلى الله فى صلة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافة وقوعه فى جميل صنعته، وقوة حركته، وإنما هو بفضل حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى أن يكله الله - عز وجل - إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف، وذلك على ما تأمله غير جاف».

ويمضى عبد الحميد مع الكتاب يوجههم بأسلوب التغيير الذى ينبغى أن يلجأ إليه الكاتب قائلا: «وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عرف حسنها وقبيحها، أعانه على ما يوافقه من الحسن، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح، بألف حيلة وأجمل وسيلة، والكاتب بفضل أدبه، شريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو جاف سطوته، أولى بالرفق بصاحبه، ومدارته وتقويم أوده، من سائس البهيمة التى لا تحير جوابا، ولا تعرف صوابا، ولا تفهم خطابا، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها، ألا فأمنعوا - رحمكم الله - فى النظر، واعملوا فيهما ما أمكنكم من الرؤية والفكر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجعفرة، ويصير منكم إلى الموافقة، ويصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة، إن شاء الله تعالى.

وقد يغضب القارئ المعاصر أو يضحك من تشبيه عبد الحميد لمهمة المؤلف بمهمة البهيمة ولكن التشبيه فى عصر عبد الحميد لم يكن يثير غضبا ولا ضحكا، بل كان متوافقا مع ظروف العصر والبيئة.

ورسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب معروفة وجميلة، وهى من عيون النثر العربى إلى يومنا هذا... ثم هى جماع الأخلاق والفضائل التى يجب أن يتحلى بها الكاتب قديما وحديثا.

هكذا كانت مدرسة عبد الحميد بن يحيى، التى تعتبر امتدادا طبيعيا لمدرسة الكتابة، التى بدأت بحيى بن يعمر، وأمثاله كالحجاج.. وقطرى بن الفجاءة. لقد جعل عبد الحميد بن يحيى من الكتابة مهنة لها مبادئ وأصول

وتقاليد ودستور، فصَّلها فى دراسته المشهورة إلى الكتَّاب، التى بيَّن فيها مكانة الكاتب وشرف مهنته. كما ركَّز على الصفات التى ينبغى أن يتصف بها الكاتب من خلق وعلم وأدب وفقه ودين، وحفظ لكتاب الله وتعلم اللغة ورواية للأشعار ومعرفة بأيام العرب والعجم، ثم هو يحضهم فيها على إحترام الناس، ويطلب منهم الكياسة والنظافة والأناقة. كل ذلك فى رسالته المطولة التى جعلت منه إماما لمدرسة الكتاب.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١ - وفيات الأعيان ١/ ٣٠٧.

٢ - الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ٧٢ ـ ٨٣.

٣ - ثمار القلوب للثعالبى ص ١٥٥.

٤ - الأعلام للزركلى ٣ / ٢٨٩.

عبد الرحمن بدوى
(١٣٣٥ ـ ١٤٢٣ هـ = ١٩١٧ ـ ٢٠٠٢م)

ولد فى سنة ١٣٣٥هـ الموافق الرابع من فبراير سنة ١٩١٧م فى قرية (شرباص) من قرى دلتا مصر، وقضى الفترة الأخيرة من حياته فى باريس، وتوفى بالقاهرة سنة ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م. درس فى بلدته وحصل على الابتدائية سنة ١٩٢٩م، ثم حصل على الكفاءة سنة ١٩٣٢م، ثم شهادة البكالوريا سنة ١٩٣٤م، التحق بكلية الآداب قسم الفلسفة، وحصل على الليسانس الممتازة سنة ١٩٣٨م. وكان من أساتذته: ألكسندر كواريه، أندريه لالاند، الشيخ مصطفى عبد الرازق وباول كراوس.

عمل معيدًا فى قسم الفلسفة سنة ١٩٣٨م، وقدم رسالته للماجستير وعنوانها (مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية) سنة ١٩٤١م. عمل بالتدريس وتولى تدريس مادتى المنطق وتاريخ الفلسفة اليونانية، ناقش رسالته للدكتوراه سنة ١٩٤٤م، وكان عنوانها (الزمان الوجودى).

عين مدرسًا بقسم الفلسفة سنة ١٩٤٥م، ثم أستاذًا مساعدًا سنة ١٩٤٩م، وبعدها بعام انتقل إلى جامعة عين شمس، وبقى بها حتى تركها سنة ١٩٧١م، وفى خلال هذا وصل إلى درجة الأستاذية سنة ١٩٥٩م، وسافر للتدريس فى كلية الآداب العليا ببيروت، وعمل مستشارًا ثقافيًا ومديرًا للبعثة التعليمية فى (برن) بسويسرا سنة ١٩٥٦م، وفى سنة ١٩٦٧م عمل أستاذًا فى معهد الدراسات الإسلامية التابع لجامعة السوربون بباريس.. ثم عمل بالجامعة الليبية ببنغازى ليبيا سنة ١٩٦٧م، والتحق بعدها للعمل أستاذًا فى كلية (الإلهيات والعلوم الإسلامية) بجامعة طهران، ثم انتقل إلى جامعة الكويت سنة ١٩٧٤م.

فهو فيلسوف مصرى، ومؤرخ للفلسفة، وكان من أبرز ممثلى الفلسفة الوجودية فى الوطن العربى، أسهم فى تكوين الوجودية بكتاب (الزمان الوجودى) ويعد من أكثر المفكرين غزارة فكرية، ترك العشرات من المؤلفات ما بين تأليف وترجمة وتحقيق، وقد شغله فى نهاية حياته الدفاع عن الإسلام ونبيه ﷺ فتصدى للدفاع بكتابين، الأول: دفاع عن الإسلام، والثانى: دفاع عن محمد، كتبهما بالفرنسية ونشرهما فى أوروبا.

ومن آرائه واتجاهاته الفكرية :

١ - الوجودية :

عبر د. عبد الرحمن عن الاتجاه الوجودى، ويُعَدّ بكتابه (الزمان الوجودى) أحد مؤسسى الفلسفة الوجودية، إذ ألفه فى فترة مبكرة عن كثير من الفلاسفة الوجوديين الذين سيظهرون بعده، فقد ألفه سنة ١٩٤٣م، وتمتاز وجوديته عن وجودية هيدجر وغيره من الوجوديين بالنزعة الدينامية التى تجعل للفعل الأولوية على الفكر، وتستند فى استخلاصها لمعانى الوجود إلى العقل والعاطفة والإرادة معا، وإلى التجربة الحية، وهذه بدورها تعتمد على ملكة الوجدان بوصفها أقدر ملكات الإدراك على فهم الوجود الحى.

ويشير د. بدوى إلى أن غاية الموجود أن يجد ذاته وسط الوجود، والوجود له معنيان عنده، مطلق ومعيَّن، والوجود الحقيقى هو وجود الفردية، والفردية هى الذاتية، والذاتية تقتضى الحرية، والحرية معناها وجود الإمكانية، ووجود ذاته ميزته الأولى أنه يعرف ذاته.

وفى الوجود وجودان : وجود الذات ووجود الموضوع. ووجود الذات لا يمكن أن يُفْهَم مستقلا عن عالم الموضوعات الذى فيه تُحقّق الذات إمكانياتها عن طريق الفعل، واستخدام الذوات الأخرى كأدوات فى سبيل هذا التحقيق.

وتعنى الذات عنده بالأنا المريدة، فالذات تنشد الإرادة والفكر، وتزداد قيمة الذات بمقدار ازدياد الشعور بالحرية، والذات الحقة هى الذات الحرة إلى أقصى درجات الحرية، الحاملة لمسؤوليتها بكل ما تتضمنه.

والحرية تتضمن الاختيار، والاختيار يتم بين ممكنات، فالذات تقوم إذن فى الإمكانية التى تختار منها، وهذه الإمكانية ليست مطلقة، بل تتم بين اختيارات محددة، وإذا تم الاختيار انتقلت الذات من حالة الحرية إلى حالة الضرورة.

ولا يفهم الوجود أو الذات بدون زمان، فالزمان شرط أساسى فى تكوين الآنية، وهو العامل الأصلى فى انتقال الوجود إلى حالة الآنية، والزمانية حالة جوهرية للوجود المتحقق، ولكى يفسر د. بدوى حقيقة الوجود يلجأ إلى الزمان؛ والصحيح عنده أن الوجود زمانى فى جوهره وطبيعته، والزمان هو المقوّم الجوهرى لماهية الوجود والعامل الفاعل فى تحديد معناه.

ويشير د. بدوى إلى أن هذا التصور الجديد لمعنى الزمان يُعَدّ ثورة لا تقل فى عنفها وخطرها ونتائجها عن تلك الثورة التى قام بها كوبر نيقوس فى علم الفلك، وهى ثورة تبدأ بهدم الأوضاع السابقة، ونقد مذاهب الفلاسفة السابقين فى الزمان، وتقديم تصوره الوجودى لمعنى الزمان.

٢ – مشكلة الموت :

تناول د. عبد الرحمن بدوى عرض هذه المشكلة من خلال رسالته للماجستير وعنوانها (مشكلة الموت فى الفلسفة الوجودية)، ورأى أن الموت من الناحية الوجودية فعلٌ فيه قضاء على كل فعل، كما أنه نهاية للحياة، والموت حادث كلىٌّ كليّة مطلقة من ناحية، وجزئى شخصى من ناحية أخرى، فالكل فانون، ولكن لكل منا فناء خاص.

ويعد الموت من الناحية الوجودية أو الناحية المعرفية إشكالاً، ويكون الموت مشكلة حينما يشعر الإنسان شعورًا قويًا واضحًا بهذا الإشكال، وهناك ارتباط بين الموت والحرية، من جهة، وبين الحرية والخطيئة من جهة أخرى، فهناك إذن ارتباط بين الخطيئة والموت، ويرى أن هذا التصور قد بلغ أول درجة عليا من درجات التعبير عنه فى المسيحية؛ كما تناول الصلة بين الموت وبين مسائل الإلهيات خاصَّةً فيما يتعلق بوجود الله، ومسألة الخلق من العدم.

٣ – موقفه من التراث :

كان للدكتور عبد الرحمن بدوى جهود عظيمة فى إحياء التراث العربى الإسلامى، سواء بدراسته، أو بنشره نشرًا علميًا محققًا طبقًا لأصول النقد التاريخى، حيث رأى أن أسلافنا السابقين قد بلغوا فى التحرر الفكرى فى أمور العقيدة مبلغًا عظيما صرنا نتمنى اليوم أن نصل إليه؛ وأن نتخذ منه وسيلة إلى تجديد الفكر الإسلامى: فمن هذه المناهل الأصيلة المتدفقة ينبغى أن يكون ورودنا واستلهامنا، ويجب على الفكر العربى المعاصر أن يجعل نقطة انطلاقة من آخر مرحلة وصل إليها هذا الفكر التراثى المتعمق المتحرر الواسع الآفاق، بعد أن ران علينا خلال سبعة قرون جمود شديد، فإن محاولة التواصل بين الحاضر والماضى هو إحدى الغايات الأساسية من دراسة التراث، ولكن ليس التراث كله بل تحديد مجال معين من مجالات التراث يكون هو محور اهتمام الباحث المتخصص، فعلى الباحث فى التراث الفلسفى الإسلامى أن يهتم بعلم الكلام، أو الفكر الدينى، وفلسفة فلاسفة الإسلام، والتصوف، وتاريخ العلوم عند العرب، وأن يكون على دراية على نحو ما بالعلوم الشرعية، واللغوية، والأدبية، والتاريخية، من العلوم التراثية، التى تساعد على تفهّم حقيقة هذا الجانب الفلسفى، وأن ندرس أساليب هؤلاء المفكرين فى طرح المشكلات، وكيفية علاجها، ومن هنا يمكن للمفكر العربى المعاصر أن يحصل على الدروس المستفادة التى بمقتضاها يستطيع مواجهة المشكلات المثارة فى هذه الأيام.

٤ – النزعة الإنسانية :

يشير د. عبد الرحمن بدوى إلى أن النزعة

الإنسانية فى الحضارة الواحدة لا توجد مرة واحدة على دفعة واحدة، بل توجد على صور متعددة فى فترات مختلفة، فلا يمكن رصد حضارة معينة على أنها تمتاز بالنزعة الإنسانية، ولا توجد مرحلة واحدة يمكن أن تحتكر مفهوم النزعة الإنسانية، كما لا يوجد حضارة يمكن أن تتوحد بالنزعة الإنسانية، بل وجدت صوراً للنزعة الإنسانية فى الحضارة اليونانية، مروراً بالحضارة العربية، ثم الحضارة المعاصرة، وتوجد صور متعددة من النزعة الإنسانية، ولذا كانت له كتابات متعددة فى الفلسفات المختلفة ترصد هذه النزعة الإنسانية.

والنزعة الإنسانية فى الحضارة اليونانية تجلّت فى تقسيم د. بدوى للفكر اليونانى فى مراحله المختلفة، حيث بدأها بربيع الفكر اليونانى انتهاء بشتاء ذلك الفكر، كما كان للحضارة العربية صور للنزعة الإنسانية، وخاصة عند المتصوفة أمثال ابن عربى، ومن ملامح النزعة الإنسانية فى الحضارة هى الجانب الحسى الجمالى المتمثل فى الشعور بالطبيعة، ويركّز د. بدوى هنا على المتصوفة باعتبارهم أكثر من شعروا وأحسوا بهذا الجانب الحسى الجمالى، كما أنه من أهم خصائص التصوف: الترقّى الأخلاقى وسمو النفس والروح، حيث ترتفع الروح إلى البحث عن وجودها الأصيل وتحققه من خلال اتصالها بالذات الإلهية، ويمتاز التصوف الإسلامى بنزعة إنسانية عالمية منفتحة على سائر الأديان والأجناس.

قدم د. عبد الرحمن بدوى كثيراً من المؤلفات، تراوحت بين التأليف والتحقيق والترجمة، من أهمها فى التأليف:

١ - نيتشـــه.

٢ - التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية.

٣ - اشبلنجــر.

٤ - شوبنهــور.

٥ - أفلاطــون.

٦ - أرسطـــو.

٧ - ربيع الفكر اليونانى.

٨ - خريف الفكر اليونانى.

٩ - الزمان الوجودى.

١٠ - من تاريخ الإلحاد فى الإسلام.

١١ - أرسطو عند العرب.

١٢ - الإنسانية والوجودية فى الفكر العربى.

١٣ - مخطوطات أرسطو فى العربية.

١٤ - دراسات فى الفلسفة الوجودية.

١٥ - المنطق الصورى والرياضى.

١٦ - فلسفة العصور الوسطى.

١٧ - مؤلفات الغزالى.

١٨ - مؤلفات ابن خلدون.

١٩ - مناهج البحث العلمى.

٢٠ - دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى.

٢١ – مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة فى فرنسا.

٢٢ – الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى.

٢٣ – مذاهب الإسلاميين.

٢٤ – رابعة العدوية.

٢٥ – مدخل جديد للفلسفة.

٢٦ – الأخلاق النظرية.

٢٧ – الأخلاق عند كانط.

٢٨ – فلسفة القانون عند كانط.

٢٩ – فلسفة الدين والتربية عند كانط.

هذا بعض ما قدمه فى التأليف.

أما فى التحقيق فله كتب كثيرة، منها:

١ – المُثُل العقلية الأفلاطونية.

٢ – منطق أرسطو.

٣ – الإشارات الإلهية لأبى حيان التوحيدى.

٤ – الحكمة الخالدة لمسكويه.

٥ – البرهان من الشفاء لابن سينا.

٦ – عيون الحكمة لابن سينا.

٧ – فى النفس لأرسطو.

٨ – الأصول اليونانية للنظريات السياسية فى الإسلام.

٩ – الأفلاطونية المحدثة.

١٠ – أفلوطين عند العرب.

١١ – مختار الحكم للمبشر ابن فاتك.

١٢ – تلخيص الخطابة لابن رشد.

ومن ترجماته :

١ – شخصيات قلقة فى الإسلام.

٢ – روح الحضارة العربية.

٣ – الإنسان الكامل فى الإسلام.

٤ – فن الشعر لأرسطو.

٥ – الخوارج والشيعة.

٦ – ابن عربى للاسين بلاسيوس.

وللدكتور بدوى إنتاج إبداعى متميز، وقد نشر ديوان شعر بعنوان «مرآة نفس» كما نشر قصة بعنوان «هموم الشباب» وترجم كثيراً من الأعمال الأدبية الأوروبية ومن ترجماته المسرحية «عرس العام» «ديرما» «الإسكافية العجيبه».

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١ – موسوعة أعلام مصر فى القرن العشرين ـ هيئة الاستعلامات، سنة ٢٠٠٠م.
٢ – تركى (د. إبراهيم محمد): قراءة نقدية فى فكر الدكتور عبد الرحمن بدوى، دار الحضارة للطباعة والنشر ـ طنطا (د. ت).
٣ – بدوى (د. عبد الرحمن): الزمان الوجودى، مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة، سنة ١٩٤٥م.
٤ – بدوى (د. عبد الرحمن): الموت والعبقرية، وكالة المطبوعات ـ الكويت، دار القلم، بيروت (د. ت).
٥ – بدوى (د. عبد الرحمن): موسوعة الفلسفة ـ جـ١ ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت ط١ ـ سنة ١٩٨٤م.
٦ – على (مديحة رفعت): النزعة الإنسانية عند عبد الرحمن بدوى، رسالة ماجستير كلية الآداب ـ جامعة المنيا ـ قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية، سنة ١٩٩٣م.
٧ – تكوين العقل العربى : مذكرات المفكرين والتربويين، الباب الثانى، د. محمد الجوادى، دار الخيال، ٢٠٠٣م.
٨ – مذكرات عبدالرحمن بدوى.
٩ – مجلة الثقافة: تعريف وفهرسة وتوثيق، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

عبد الرحمن الدَّاخل
(١١٣ ـ ١٧٢ هـ = ٧٣١ ـ ٧٨٨م)

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، الملقب بصقر قريش، ويعرف بالدَّاخل، لأنه أول من دخل الأندلس من أمراء بنى أمية، وهو مؤسس الدولة الأموية فى الأندلس، وأحد عظماء العالم، ومن أعلام القرن الثانى الهجرى.

ولد فى دمشق سنة ١١٣هـ - ٧٣١م، ونشأ يتيما حيث مات أبوه وهو صغير، فتربى فى بيت الخلافة، ولما انقرض ملك الأمويين فى الشام، وتعقب العباسيون رجالهم بالبطش والفتك والأسر، أفلت عبد الرحمن منهم وأقام فى قرية على الفرات، فتتبعته الخيل بفرسانها، فأوى إلى بعض الأدغال حتى أمن، فقصد المغرب.

وقد توفى عبدالرحمن فى العاشر من جماد الآخرة ١٧٢ هـ (١٦ من أكتوبر ٧٨٨م) بعد حياة حافلة بالأحداث والإنجازات التى جعلته واحدًا من أعظم شخصيات التاريخ الأندلسى.

إن قصة فرار عبد الرحمن ذاتها، من المشرق إلى المغرب، بما يتخللها من الحوادث المؤسية، والمغامرات المدهشة، تثير منا كل إعجاب وتعاطف، فقد كان يرى الموت أو الأسر ينذرانه فى كل خطوة، وقد استطاع أن يجوز من الشام إلى المغرب الأقصى مخترقًا فلسطين، ومصر وبرقة، والمغرب الأوسط، وأعين السلطات الخصيمة ساهرة تطارد فلول الأمويين، وتكاد تضع يدها عليه فى كل لحظة. ومما هو جدير بالذكر، أنه حينما وصل إلى برقة، استطاع أن يتنفس الصُّعَداء لأول مرة، وأن يجد ملاذاً آمنًا مؤقتًا عند أخواله بنى نفزة، وهم من برابرة طرابلس، وكانت أمه بربرية منهم تدعى راح، وقد أقام لديهم طويلا يرقب الفرص. وفى خلال ذلك، وصل إليه مولياه بدرٌ وسالم، أرسلتهما إليه أخته أم الأصبغ بشىء من المال والجوهر. وكان صاحب إفريقية يومئذ، عبدالرحمن بن حبيب، يخشى على سلطانه من ظهور فلول بنى أمية فى إفريقية، فجد فى مطاردة اللاجئين إليها منهم، وقتل بعضهم، واعتقل آخرين، وصادر أموالهم. ولما علم من عيونه بظهور عبد الرحمن حاول القبض عليه. ولكن

عبد الرحمن استطاع أن يتجنب المطاردة، وأن يصل مع صحبه القلائل إلى المغرب الأقصى، وأقام هنالك مختفيًا عند شيخ من شيوخ البربر يدعى وانسوس، كانت له فيما بعد لديه حظوة، ثم نزل عند قوم من زناتة، وتجول حينًا فى تلك الأنحاء، يدرس أحوال الأندلس، ويتلقى أخبارها، ويرقب فرص العبور إليها، وعلم أن الأندلس تعانى من اضطراب وثورات مستمرة، وأدرك أن الظروف تلوح قوية لتحقيق مطامحه.

وقد كانت الأندلس ما تزال من الناحية الشرعية، قطرًا من أقطار الخلافة الأموية، وكان عبد الرحمن سليل الخلافة الأموية.

وكانت الأمة الأندلسية الناشئة، تتطلع إلى رياسة شرعية، تلم شعثها، وتقضى على أسباب الفتنة فيها.

ومن ثم فقد قرر عبد الرحمن أمره، وفى أواخر سنة ١٣٦هـ (٧٥٣م) بعث بدرًا مولاه إلى الأندلس، ليسبر غور شئونها، وليحاول بث دعوته بين أنصار بنى أمية، وأهل الشام، فنزل بدر بساحل إلبيرة، وكانت منزل جند الشام، وفيها تجتمع عصبة بنى أمية، واستطاع بدر أن يمهد الأمور فى الأندلس لعبدالرحمن.

وعاد بدر إلى عبد الرحمن ومعه عدة من أنصاره الأمويين، وأفضى إليه بنتائج رحلته، فاستبشر عبد الرحمن، وعبر البحر معهم إلى الأندلس، ونزل بساحل إلبيرة فى ثغر المنكَّب الصغير، وذلك فى شهر ربيع الثانى سنة ١٣٨هـ (سبتمبر سنة ٧٥٥م) فاستقبله أحد كبار أنصار الأمويين هناك، واسمه أبو عثمان عبيدالله بن عثمان وأنزله بمقامه فى طرّش، وهى قرية حصينة تقع غربى المنكب، على مقربة من البحر، فاستقر بها ينظم دعوته، ويدبر خططه.

وكانت زعامة عرب الأندلس فى ذلك الوقت فى يد يوسف بن عبدالرحمن الفهرى أمير الأندلس، ويشاركه فى هذه الزعامة الصُميل بن حاتم. وقد وقع على كاهل هذين الزعيمين عبء التصدى لعبدالرحمن الداخل الذى كانت دعوته قد انتشرت فى جنوب الأندلس.

وقد أخذ كل جانب يعد عدته للمواجهة الحاسمة. وجاء اللقاء الحاسم فى المسارّة بظاهر قرطبة بين جيش يوسف والصميل من ناحية؛ وجيش عبدالرحمن الداخل من ناحية أخرى، وذلك فى التاسع من ذى الحجة سنة ١٣٨هـ. وأحرز عبدالرحمن نصراً حاسمًا على أعدائه فى معركة المسارة ودخل قرطبة وبويع بالإمارة فى العاشر من ذى الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٨ مايو ٧٥٦م) بذلك تأسست الدولة الأموية فى الأندلس على يد عبدالرحمن الداخل.

وكان على عبدالرحمن الداخل بعد هذا

النصـر أن يوطد دعـائم ملكه فى الأندلس، وكان تفرق خصومه أهم عامل فى ظفرة، فلم تكن ثمة زعامة شاملة بعد يوسف والصميل يلف حولها أعداؤه وقد آثر عبدالرحمن أن يواجه خصومه فرادى فى الميدان ومن ثم استطاع أن يحطم قواهم بالتعاقب.

ويجب ألا ننسى أن الأندلس كـانت ـ إلى جانب معاناتها من الفتن الداخلية ـ ستتعرض لخطر الغـزو الخارجى، من جـانب جـارتهـا القوية من الشمـال، ونعنى بها مملكة الفرنج. وكان عاهل الفرنج يومئذ الإمبراطور شارلمان أو كـارل الأكبـر، أعظم ملوك النصـرانيـة فى عصره. وقد وجد شارلمان بالفعل فى حوادث الأندلس، وما تواجهـه من الفتن الداخليـة، فرصة لغزو أسبانيا، وذلك حينما استدعاه الخوارج على عبد الرحمن فى الثغر الأعلى، للقدوم بجيشه إلى أسبانيا، بقصد الاستعانة به على توطيد رئاستهم المستقلة عن حكومة قرطبة ووعدوه بأن يسلموا إليه سرقُسطة عـاصـمـة الثـغـر، وبعض المواقع الحصـينة الأخرى.

وقـد سـار شارلمان بالفعل بجيشـه إلى أسبـانيا فى أواسط سنة ٧٧٨م (١٦١هـ)، فى الظاهـر استجابة لدعوة الخـوارج المسلمين، ولكن فى الحقيقة تنفيذا لمشروعه المبيت فى غـزو الأندلس، وكـانت مملكة الفـرنج تخشى تلك القـوة الجديدة، التى يمثلها الإسـلام فى الأندلس، من النـاحيتين الدينية والسـيـاسـيـة، وتخشى من انسياب تلك القوة إلى الشمـال، ومن جهة أخرى كان شارلمان يخشى من تدفق الدعـوة الإسـلاميـة إلى أراضيـه من الجنوب، إلى جانب الغـزو العسكرى، فيـتـجدد الخطر على النصرانية من صولة الإسلام.

وفى خـلال هذا الغـزو الفـرنجى لأراضى الأندلس الشمـاليـة، كـان عبدالرحمن الأموى مشغولاً بكفاحه المستمر للثورات المتوالية فى مختلف النواحى. على أن العناية الإلهيـة، قد شـاءت أن يبوء عاهل الفـرنج بالفشل، بعد أن اختلف معه الخوارج المسلمون، وانقلبوا إلى مقـاومته، وأن يُنكب جيشـه فى موقـعة باب الشـزرى الشهيرة، على يد المسلمين وحلفائهم البـشكُنس، وأن ينتـهى بذلك خطر الغـزو الفرنجى لربوع الأندلس.

أمـا عن شـخـصـيـتـه: كـان عـبـد الرحـمن الأموى، يتمتع بعبقرية ممتازة، وخـلال نادرة، وكـان قـرين جـدّه العظيم مـعـاوية بن أبى سـفيـان، ينشئ مثله دولة، ولكن فى ظروف أشق من ظروفه، وكـانت المحنة المروعة التى نزلت بأسـرته، وحـوادث حيـاته المشجيـة، والظروف العـصـيـبـة التى يواجـهـهـا، والخصومات والأحقادُ المستعرة التى تحيط به، تحـمل خـلاله القـوية إلى ذروة التطرف، فتراه يقـرن وافـر العـزم، بفيض من الجـرأة واحـتـقـار الخطر، ويقـرن وافـر الدهـاء بنزوع

إلى الخيانة والغدر والفتك، ويقرن وافر الحزم والصرامة، بنزوع إلى القمع الذريع، ويذهب فى الانتقام إلى حدود مروعة من القسوة.

وقد جمع ابن حيان مؤرخ الأندلس الكبير صفاته فى تلك العبارات القوية. قال: «كان عبد الرحمن راجح الحلم، فاسح العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة فى طلب الخارجين عليه، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعة، ولا يَكِل الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد فى إبرامها برأيه، شجاعًا مقدامًا، بعيد الغور، شديد الحذر، قليل الطمأنينة، بليغًا، مفوهًا، شاعرًا، محسنًا، سمحًا، سخيًا، طَلَق اللسان». وهذا التصوير الرائع الذى يقدمه لنا ابن حيان عن تلك الشخصية الممتازة، إنما هو صورة بارزة من صور العظمة والبطولة، توضحها فى جملتها وتفاصيلها حياة عبد الرحمن فى جميع أدوارها.

وقد أثارت شخصية عبدالرحمن الداخل إعجاب الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، فيروى أنه قال يومًا لبعض أصحابه: مَنْ «صقر قريش» من الملوك؟ قالوا: أمير المؤمنين الذى راض الملك، وسكّن الزلازل، وحسم الأدواء. قال ما صنعتم شيئًا. قالوا: فمعاوية. قال: ولا هذا. قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: لا. قالوا: فمن يا أمير المؤمنين؟ قال: «صقر قريش» عبد الرحمن بن معاوية، الذى تخلص بكيده من سنن الأسنة، وظُبات السيوف، يعبر القفر، ويركب البحر، حتى دخل بلدًا أعجميًا منفردًا بنفسه، فمصَّر الأمصار، وجَنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام مُلكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدة شكيمته. إن معاوية نهض بمركب حَمَلَه عليه عمر وعثمان، وذلَّل صعبه، وعبد الملك ببيعة أُبرم عقدها، وأمير المؤمنين بطلب عزته، واجتماع شيعته، وعبدالرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب لعزمه، وطَّد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذل الجبابرة الثائرين.

وقد عنى عبد الرحمن بالحاضرة الأموية الجديدة، ونعنى بها مدينة قرطبة، فحصنها، وزينها بالمنشآت الفخمة، والرياض اليانعة، وأنشأ إلى جانبها مُنية الرُّصافة وقصرها المنيف. وكان قصر الإمارة، بناءً قديمًا ساذجًا، يرجع إلى عهد القوط، فرأى عبد الرحمن أن ينشئ ضاحية ملوكية جديدة، تليق بحاضرة ملكه، وتعيد ذكرى بهاء بنى أمية بالمشرق، فأنشأ فى الشمال الغربى من قرطبة، قصرًا فخمًا تحيط به حدائق زاهرة، وجلب إليها مختلف الغروس من الشام وإفريقية، وسمى تلك الضاحية الجديدة بالرُّصافة تخليدًا لذكرى الرُّصافة التى أنشأها جده هشام بالشام، واتخذها مقامًا،

ومُـتنَزهـاً، ومـركـزًا للإمـارة. وكـانت حـدائق الرصافة أُما لحدائق الأندلس، ومنها انتشرت بالأندلس غـروس الشـام وإفـريقيـة. ومـا تزال تقوم حتى اليوم فى قرطبة، ضاحية الرصافة الجديدة، على موقعها القديم الذى اختاره عبد الرحمن.

ومن مـآثر عبـد الرحمن البـاقيـة إنشاؤه لجامع قرطبة العظيم، الذى غدا على يد بنيه المتعاقبين، أعظم مسجد جامع فى الغرب الإسلامى، وما يزال يقوم حتى اليوم، رمـزاً خالداً لعظمة فنون العمارة الأندلسية.

أما عن علاقته بالعباسيين:

كـانت الدعـوة العـبـاسـيـة قـد انتـهت إلى الأندلس حين مقدم عبد الرحمن وذاعت فى منابرها، ودعى لبنى العـبـاس فى كـثـيـر من النواحى، ثم دعى لهم فى قرطبة ذاتها، ودعا عـبـد الرحمن الداخل نفسـه لأبى جـعـفـر المنصور عدة أشهر. وكان ذلك رغم غرابته وتناقضه عملا من أعمال السياسة. ولكن جـمـاعـة من بنى أمـيـة الذين وفـدوا إلى الأندلس، اعـتـرضـوا على هذا التـصـرف، ونوهـوا بما أثم به بنو العـبـاس فى حق بنى أمية، وما زالوا بعبد الرحمن حتى قرر قطع ذكـر بنى العـبـاس من الخطبـة (١٣٩هـ)، وقطعت على أثر ذلك من سـائر منابر الأندلس. ولكن عـبـد الرحـمن لم يحـاول أن يتـخـذ سـمـة الخـلافـة قط، رغم كونه سليل الخلفـاء، ويرجع ذلك إلى بواعث سـيـاسـيـة عـمليـة، هـى التى حـملت عـبـد الرحـمن على سلوك هذا المسلك، والحـرص على عـدم التورط فى رسوم لم يحن الوقت لاتخاذها.

أمـا عن ألقـابه فـهـو : يلقب فى المصادر التـاريخيـة بالأمير، وأحيـاناً بالإمام، وأيضا بصـاحب الأندلس، ويعـرف بعـبـدالرحـمن الداخل لأنه أول من دخل الأندلس من أمـراء بنى أمية وحكمها، ويعرف أيضا بعبدالرحمن الأول لأنه أول ثلاثة من بنى أمية بهذا الاسم حكمـوا الأندلس، وهم عبدالرحمن الداخل، وحفيده عبدالرحمن الأوسط (ابن الحكم)، ثم عبدالرحمن الناصرى الذى كان أول من تلقب بالخليـفـة من حكام بنى أمـيـة فى الأندلس.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - محمد عبدالله عنان: تراجم إسلامية.
٢ - الزركلى: الأعلام، ٣/٣٣٨.
٣ - المقرى: نفح الطيب ١/١٥٥.
٤ - ابن سعيد: البيان المغرب فى حلى المغرب ٢/٤٩.
٥ - على أدهم: صقر قريش.
٦ - مصطفى نجيب: حماة الإسلام ٢/١٢٢.

عبد الرحمن الرافعى
(١٣٠٦-١٣٨٦هـ = ١٨٨٩-١٩٦٦م)

هو عبد الرحمن بن عبد اللطيف الرافعى، ولد بالزقازيق فى سنة ١٣٠٦هـ = ١٨٨٩م، فى أسرة ذات أصول شامية وكانت وفاته سنة ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م، كان والده قاضيًا شرعيًا ينتقل بحسب عمله، وأخوه هو الصحفى المصرى الوطنى الكبير أمين الرافعى. وعبد الرحمن مؤرخ متميز، تميز بكتابات تاريخية اتسمت بالبحث العلمى الدقيق، كتب تاريخ مصر الحديثة فى مجموعة أجزاء متوالية، واتخذ من مفهوم الحركة القومية مدخلاً لكتابة التاريخ، ووجد فى نفسه الشجاعة أن ينتقد بعض تصرفات الحكام من أسرة محمد على، فيما كتب من تاريخ لهذه الفترة، ونشره قبل قيام الثورة، كان من أعضاء الحزب الوطنى «القديم»، وقد وصل به هذا الانتماء إلى أن أصبح وزيرًا للتموين فى وزارة سرى باشا الائتلافية (يوليو ١٩٤٩م - سبتمبر ١٩٤٩م)، ضمن حصة هذا الحزب فى الأئتلاف الوزارى، وبسبب هذا الانتماء السياسى تميزت بعض كتاباته بمعاداته للوفد، وبعض الممارسات السياسية الوفدية، ومن هذه الزاوية أصبحت بعض كتاباته أثيرة لدى النظام السياسى فى بعض فترات عهد الثورة، وبخاصة فى نهاية عهد الرئيس السادات حين تأسس حزب الوفد الجديد.

بالإضافة إلى اهتماماته التاريخية كان الرافعى محاميًا متميزًا عمل بالمحاماة، وظل يعمل بها، وقد اختير نقيبًا للمحامين فى المجلس الذى عينته الثورة لإدارة شئون النقابة، وبالإضافة إلى هذا كان عبد الرحمن الرافعى من رواد الحركة التعاونية المبكرة فى مصر، وقد نادى بنشر التعاونيات، وعمل من أجل هذا بهمة ونشاط، وأسهم بجهد وافر فى استصدار القوانين المشجعة على التعاون.

تخرج فى كلية الحقوق (١٩٠٨م) واشتغل بالمحاماة، كما عمل فى جريدة «اللواء» جريدة الحزب الوطنى، بدأت ميوله السياسية تظهر مبكرًا، وقد ارتبط ببعض جماعات العمل السرى التى ضمت أحمد ماهر، واعتقل إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٥م) من باب

التحفظ، كان من المعارضين للوفد، الذين فازوا بعضوية البرلمان المصرى الأول (١٩٢٤م) وانتخب بعد ذلك أكثر من مرة للبرلمان، كما عين عضواً فى مجلس الشيوخ فى ١٩٣٩م.

برز نشاطه فى الحزب الوطنى واختير عضواً فى لجنته الإدارية (١٩٢١م)، ثم سكرتيراً للحزب (١٩٣٢م).

نشر كتابه الأول عن حقوق الشعب (١٩١٢م)، ونشر كتابه الثانى عن نقابات التعاون الزراعى (١٩١٤م) والجمعيات الوطنية (١٩٢٢م)، أما موسوعته الشهيرة فتقع فى ١٦ كتابا، وقد جعل عنوانها «تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر»، وقد عنى فيها بتتبع ميادين الحياة المختلفة من اقتصاد واجتماع وعمران، ولم يقتصر على التاريخ السياسى أو تاريخ الحكام فحسب، كما عنى بتدوين الوقائع على نحو ما حدثت، ذاكراً التفصيلات المهمة؛ التى يمكن دراسة التاريخ الحضارى بصوره المتعددة من خلال الإلمام بها، كما ذكر وقائع تاريخ الثورة المصرية ١٩١٩م بالتفصيل، وحرص على ذكر أسماء الشهداء والفدائيين، ووثق معلوماته بالأرقام.

نشر الرافعى أول مجلدات هذه المجموعة بعنوان «تاريخ الحركة القومية» فى جزءين، صدر الجزء الأول عام ١٩٢٩م، وكذلك الجزء الثانى، ويشمل هذا الكتاب ظهور الحركة القومية، وتصدى المصريين للحملة الفرنسية حتى ظهور محمد على، وأتبع هذا بكتابه «عصر محمد على»، ثم «عصر إسماعيل»، ثم «الثورة العرابية»، ثم «مصر والسودان فى أوائل عهد الاحتلال»، ثم «مصطفى كامل»، ثم «محمد فريد»، ثم كتابه عن ثورة ١٩١٩م فى جزءين، ثم كتابه فى «أعقاب الثورة» فى ثلاثة أجزاء ثم كتابه «مقدمات ثورة يوليو»، ثم كتابه «ثورة يوليو ١٩٥٢م»، واستجاب الرافعى لمشورة الكثيرين فكتب كتابا عن «تاريخ الحركة القومية فى مصر القديمة»، ثم كتاباً آخر عن «تاريخ مصر القومى من الفتح العربى حتى عصر المقاومة والحملة الفرنسية».

وبالإضافة إلى هذا نشر كتابه الأقل شهرة، عن شعراء الوطنية فى مصر، وكتابين آخرين عن نشاطه فى البرلمان هما، «مجموعة أقوالى وأعمالى فى البرلمان»، و«أربعة عشر عاماً فى البرلمان».

وانتبه الرافعى إلى كثير من الأفكار السياسية والمعانى، من قبل أن تنشأ مفاهيم هذه المعانى فى التراث الفكرى المعاصر، وذلك من قبل حديثه عن تنمية الريف، والأرتقاء

بأحوال الفلاح ،والتقدم الاجتماعى، وتصنيع الريف، وحماية الاستقلال العالمى.

كتب الرافعى أيضا تاريخ السنوات الأولى من عهد ثورة ١٩٥٢م، ولكنه لم يتمكن من تسجيله بنفس القدر من الحرية؛ ولهذا فإن أحدًا لا يعول عليه بنفس القدر الذى يعول به على مصادره الأولى؛ حيث تعرضت بعض نصوصه للحذف. كذلك كتب الرافعى مذكراته.

أ. د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - على مشارف الثورة. للدكتور محمد الجوادى.

٢ - مفكرون من مصر سامى خشبة.

٣ - مذكرات عبد الرحمن الرافعى.

٤ - الأعلام للزركلى ٣/٣١١.

عبد الرحمن الكواكبى
(١٢٦٥ - ١٣٢٠ هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٢ م)

هو عبدالرحمن بن أحمد بهائى بن محمد ابن مسعود الكواكبى، واحد من أبرز المجددين والمصلحين الإسلاميين فى عصرنا الحديث.

ولد فى حلب سنة ١٢٦٥هـ = ١٨٤٩، من أرض الشام، فى أسرة «شريفة» النسب، ذات نفوذ علمى وإدارى، كانت تتوارث «نقابة الأشراف» فى حلب الشهباء.

وفى تكوينه العلمى، درس علوم العربية ، الموروثة والحديثة، والعلوم الإسلامية، وأجاد - مع العربية - التركية والفارسية.

وكانت حلب، يومئذ، ولاية عثمانية، وكانت الدولة العثمانية تعيش عصر تراجعها الحضارى والعسكرى والسياسى، الأمر الذى ضيق فيها مساحة الحرية إلى حد كبير، فنشأ الكواكبى وقد نذر نفسه للجهاد ضد الحكم العثمانى، يعمل على تحرير العرب منه، ويبشر بإعادة الخلافة الإسلامية إلى الأمة العربية من جديد.

اشتغل بالصحافة وهو فى الثانية والعشرين من عمره، ثم أصدر بعد عامين صحيفة (الشهباء) ، أولى الصحف العربية بحلب، وبعد إغلاقها من قبل الأتراك العثمانيين أصدر صحيفة (الاعتدال)، فلاقت نفس المصير.

ولقد شغل الكواكبى عددا من المناصب الإدارية والاقتصادية الهامة فى ولاية حلب، واحترف التجارة فترة من الزمن، كما كان مرجعا للمحاماة فى القانون، وعمل «عرضحالجيا» ، يحرر ظلامات وشكايات المظلومين ضد الأتراك!؟.

ولقد تصاعد عداء السلطات العثمانية له ولنشاطه ، فأدخلوه السجن، متهما بمحاولة اغتيال الوالى التركى، وحكم عليه بالإعدام من القضاء التركى بحلب، ثم برَّأته محكمة «بيروت».

ولما ضاقت به دنيا حلب، وأغلقت أمامه سبل الإصلاح بها، هاجر سرا إلى مصر (١٣١٧هـ = ١٨٩٩م)، وفى القاهرة نشر فصول كتابه المتميز «طبائع الاستبداد

ومصارع الاستعباد»، نشرها فى صحيفة (المؤيد) دون توقيع، وفيها طبع كتابه «أم القرى» وهو مذكرات اجتماعات جمعية «أم القرى» السرية، التى ضمت ممثلين للولايات العربية العثمانية، وللمسلمين فى مختلف بلاد الإسلام، وخارج بلاد الإسلام، عندما اجتمعوا سرا، بمكة المكرمة، فتدارسوا أسباب تخلف المسلمين، والسبيل إلى نهضتهم، ونشر الكواكبى هذا الكتاب بمصر، ونشر كذلك كتابه «طبائع الاستبداد»، وبدلا من أن يضع اسمه على غلافيهما، ذكر أن المؤلف هو «الرحالة : ك»! وذلك مخافة انتقام السلطان العثمانى عبدالحميد (١٢٥٨ - ١٣٣٦ هـ = ١٨٤٢ - ١٩١٨م).

ومن مصر - حيث استقر الكواكبى، وأجرت عليه حكومة الخديوى عباس حلمى الثانى (١٢٩١ - ١٣٦٣هـ = ١٨٧٤ - ١٩٤٤م) راتبا منتظما - قام برحلات ساح فيها بعدد من البلاد الإسلامية الآسيوية والأفريقية، وعندما وافته المنية - فى ٧ من ربيع الأول سنة ١٣٢٠هـ = ١٤ من يونيو سنة ١٩٠٢م - صادر رجال السلطان عبدالحميد أوراقه الخاصة، وأصول كتب كان قد كتبها ولم تنشر، وراجت شائعات تقول : إنه قد مات مسموما.

ودفن بالقاهرة، وعلى قبره كتبت كلمة «الشهيد»! وأبيات شعر لحافظ إبراهيم (١٢٨٧ - ١٣٥١هـ = ١٨٧١- ١٩٣٢م) يقول فيها :

هنا رجل الدنيا، هنا مهبط التقى
هنا خير مظلوم، هنا خير كاتب
قفوا واقرءوا أم الكتاب وسلموا
عليه، فهذا القبر قبر الكواكبى

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

وكانت القضية الكبرى التى شغلت الكواكبى هى استقصاء أسباب تخلف المسلمين، وبلورة دليل العمل لنهضتهم، وفى هذا الإطار جاءت الأفكار والقضايا التى عرض لها، والتى أودعها كتابيه الفريدين : «أم القرى» و «طبائع الاستبداد».

ولقد احتلت الحرية - كنقيض للاستبداد - مكانا محوريا فى مشروعه الإصلاحى؛ لأنه رأى فى الاستبداد القيد الذى أعجز كل طاقات الأمة وملكاتها عن الحركة والنهوض؛ فالاستبداد مفسد للدين ، الذى هو الطاقة المحركة لجمهرة الأمة، وهو مفسد له فى جانب الأخلاق - الذى هو أخطر جوانبه - حتى ليكاد يحوله إلى مجرد عبادات وشعائر، لا تقلق بال المستبدين. والاستبداد مفسد للتربية باستبعاده السياسة وشئون الاجتماع

البشرى من نطاق العلوم التى يربى الناشئة عليها.

وهو مفسد للعلوم، عندما يستبعد علوم الحياة التى تفتق ملكات الإبداع والنقد والمقاومة من إطار العلوم التى تسمح النظم المستبدة بدراستها، ففرائص المستبد ترتعد من علوم الحياة، مثل: الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية، وحقوق الأمم، وسياسة المدنية، والتاريخ المفصل، والخطابة الأدبية، إنه يخاف من العلوم التى توسع العقول، وتعرف الإنسان ما هو الإنسان، وما هى حقوقه، وهل هو مغبون؟ وكيف الطلب؟ وكيف النوال؟ وكيف الحفظ؟.

والاستبداد مفسد للاقتصاد، لأنه يحوّل ثروة الأمة، التى هى عطاء الله وفيضه فى الطبيعة، من دائرة «اشتراك الأمة فيها» إلى حيث تصبح احتكارا لقلة من الأغنياء، يصبحون أعوانا للمستبد، إذ الأغنياء ربائط المستبد، يذلهم فيئنون، ويستدرهم فيحنون، ولهذا يرسخ الذل فى الأمم التى يكثر أغنياؤها؟.

ولذلك جاءت دراسة الكواكبى عن الاستبداد فريدة فى بابها، وأصبح كتابه «طبائع الاستبداد» وحيدا فى موضوعه، وشغلت هذه القضية مكان المحور فى مشروعه الإصلاحى، ومن كلماته الجامعة فى الحرية والاستبداد : «إن الهرب من الموت موت، وطلب الموت حياة.. وإن الخوف من التعب تعب، والإقدام على التعب راحة!.. والحرية هى شجرة الخلد، وسقياها قطرات من الدم المسفوح.. والأسارة (العبودية) هى شجرة الزقوم، وسقياها أنهر من دم المخاليق المخانيق!. .. والاستبداد، لو كان رجلا، وأراد أن ينتسب لقال : أنا الشر، وأبى الظلم، وأمى الإساءة، وأخى الغدر، وأختى المسكنة، وعمى الضر، وخالى الذل، وابنى الفقر، وبنتى البطالة، وعشيرتى الجهالة، ووطنى الخراب، أما دينى وشرفى وحياتى : فالمال، المال، المال؟!»، فالحرية أم الفضائل جميعا، والاستبداد رأس الرذائل بإطلاق.

وفى تشخيص الكواكبى لأسباب تخلف المسلمين - الذى سماه «الفتور» الذى يحول بين الأمة وبين الحركة والنهضة، رصد - وخاصة فى كتابه «أم القرى» - كل الأمراض التى أصابت الحضارة الإسلامية، الخطير منها والصغير، وسلط الضوء على الأسباب الأساسية للتخلف، مثل :

١ - عقيدة الجبر والزهد، المفضية إلى لون من التصوف المعطل لطاقات الناس؛ فالطرق الصوفية - وليس التصوف المهذب للنفس والمزكى لها - قد اجتذبت جماهير

غفيرة، أدارت ظهرها لأسباب التقدم وسننه وقوانينه، وأخلدت إلى التواكل واستنامت للبدع والخرافات.

٢ - انعدام التنظيمات والجمعيات، التى تؤلف بين طاقات الناس، وتضمن للأفكار، بالشورى، حصافة أكبر وحصانة تفوق الآراء المفردة، كما تضمن للمشاريع الكبرى الدوام الذى يتجاوز عمر الأفراد وهمَمَهم، وبعبارة الكواكبى: «فإن الجمعيات القانونية المنتظمة يتسنى لها الثبات على مشروعها عمرًا طويلا، يفى بما لا يفى به عمر الواحد الفرد، وتأتى بأعمالها كلها بعزائم صادقة لا يفسدها التردد، وهذا هو سر ما ورد فى الأثر من أن يد الله مع الجماعة!».

وهو بذلك قد نبَّه على أهمية وضرورة التنظيمات السياسية والأحزاب والجمعيات كأدوات للنهضة، وأوعية لتجميع وترشيد طاقات الأمة الإسلامية.

٣ - الإغراق فى الشهوات الحسية، على النحو الذى لا يميز بين رسالة الإنسان وغرائز الحيوان فى هذه الحياة!.

٤ - اختلال التوازن بين شئون الدنيا وشئون الآخرة فى حياة عامة المسلمين، على النحو الذى جعل «من دأب الشرقيين ألا يفكروا فى مستقبل قريب ، كأن أكبر همهم منصرف إلى ما بعد الموت فقط». على حين أن الإسلام قد جعل الدنيا عنوانا للآخرة، ونبه على أن اختلال التوازن بينهما لابد وأن يفضى إلى خسران الصفقتين معا .

لقد نبَّه الكواكبى إلى كثير من أمراض الفكر والسلوك المتوطنة فى حياة العامة والخاصة، وسلط كل الأضواء على أمراض الإدارة العثمانية، أمراض الظلم الاجتماعى، والاستبداد بالحكم، والتحلل الإدارى، والفقر الحضارى، وتقليد الأجنبى، والاحتقار للعرب. وجاهر بضرورة تحرير الأمة العربية من نير العثمانيين، وإعادة الخلافة العربية، وتجديد حياة المسلمين بتجديد الفكر الإسلامى الحديث الذى لابد وأن يستجيب لمشكلات العصر الذى يعيشون فيه.

ومن كلماته الجامعة فى أسباب فتور الأمة الإسلامية، تلك التى تقول : «من أسباب فتور المسلمين : تحول نوع السياسة الإسلامية، فلقد كانت نيابية اشتراكية، أى ديمقراطية تماما، فصارت، بعد الراشدين، ملكية مقيدة، ثم صارت أشبه بالمطلقة، ولقد أثبت الحكماء أن المنشأ الأصلى لشقاء الإنسان هو وجود السلطة القانونية منحلة، ولو قليلا، لفسادها، أو لغلبة سلطة شخصية أو أشخاصية عليها.. ومن أعظم أسباب فقر أمتنا أن شريعتنا مبنية على أن فى أموال الأغنياء حقا معلومًا

للبائس والمحروم، لكن حكوماتنا قد قلبت الموضوع، فصارت تجبى الأموال من الفقراء والمساكين وتبذلها للأغنياء، وتحابى بها المسرفين والسفهاء».

لقد دعا إلى حكومة شورية، خاضعة لرقابة الأمة، «فالحكومة من أى نوع كانت لا تخرج عن وصف الاستبداد ما لم تكن تحت المراقبة الشديدة والمحاسبة التى لا تسامح فيها..».

وحاول تأليف الجمعيات التى تعمل فى سبيل تطبيق المشروع الإصلاحى الذى بشر به؛ لأنه لم يكن من أنصار الثورات العفوية والتمردات غير المدروسة، وإنما أكد على: «أنه يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ما يستبدل به الاستبداد!..».

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١ - عبد الرحمن الكواكبى : شهيد الحرية ومجدد الإسلام، للدكتور محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

٢ - الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى، دراسة وتحقيق : دكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٥م.

عبد الرزاق السنهورى
(١٣١٢-١٣٩١هـ = ١٨٩٥-١٩٧١م)

وُلد الدكتور عبد الرزاق بن أحمد السنهورى بالإسكندرية سنة ١٣١٢هـ الموافق ١٨٩٥م، وتوفى سنة ١٣٩١هـ الموافق ١٩٧١م.

تعلم فى الإسكندرية بالمدرستين الابتدائية والثانوية حتى نال الثانوية سنة ١٩١٣م، وانتقل إلى القاهرة فنال درجة الليسانس فى الحقوق سنة ١٩١٧م، وعُيّن عضوا بالنيابة العامة، ثم وكيلا للنائب العام، فمدرسا للقانون بمدرسة القضاء الشرعى، فمبعوثا إلى فرنسا حيث حصل على درجتى دكتوراه، واحدة فى العلوم القانونية وأخرى فى العلوم الاقتصادية والسياسية، وعُيّن بعد عودته مدرسا بكلية الحقوق، ثم رقى أستاذا مساعدا، فأستاذا، فعميدا للكلية سنة ١٩٣٦م، وترك الجامعة إلى القضاء بالمحاكم المختلطة، وإلى وكالة وزارة المعارف، ثم اختير وزيرًا للمعارف سنة ١٩٤٥م، فرئيسًا لمجلس الدولة حتى سنة ١٩٥٤م، اختير عضوًا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٤٦م، ومشتركًا فى عدة لجان مهمة أدى دوره القيادى بها أحسن الأداء.

كما سعدت الدول العربية بمعونته القانونية، إذ إنه بعد أن وضع القانون المدنى المصرى الجديد، اختير لوضع القوانين المدنية فى العراق وسوريا وليبيا، أما الكويت فقد حظيت بنصيب وافر من جهوده حيث قام بوضع قوانين التجارة، والشركات، والقانون الجنائى، وقوانين أخرى فى شتى التشريعات الإدارية والمالية والدستورية، كما أسس معهد الدراسات العربية، بمصر، وأُوفد لمؤتمرات علمية كثيرة بأوروبا، فكان ذا صوت مسموع بين كبار العلماء.

والدكتور عبد الرزاق السنهورى علمٌ من أعلام الشريعة الإسلامية بما قدمه من جهود علمية وعملية فى نطاقها الواسع، فوق كونه علمًا من أعلام القانون الوضعى والتربية والسياسة والاجتماع.

وأركز القول على جهوده فى حقل الشريعة الإسلامية، إذ كانت آثاره العلمية فى هذا المجال متميزة مرموقة فى العالم الأوروبى المناهض للفكرة الإسلامية، وكان سقوط الخلافة العثمانية مدعاة انتقاصٍ هناك

للشريعة، وافتراء على قوانينها الإلهية، فصمَّم على أن تكون رسالةُ الدكتوراة عن الخلافة فى الإسلام، لتبين الحقائق المجهولة عن الخلافة، وليفضح هؤلاء الذين يلوكون الأكاذيب عنها، وقد أشفق الأستاذ لامبير على تلميذه الذى يواجه أوروبا جميعها بما يكشف عن خطئها فى تصور الحكم الإسلامى، فقال[1] : «لقد راودنى القلق عندما وجدت السنهورى ينقاد رغم مقاومتى واعتراضى نحو موضوع عميق الأثر، شديد التعقيد، هو موضوع الخلافة، وتاريخها كما يراه أنه المرآة الكبرى التى يتتبع من خلالها المراحل التاريخية لوحدة العالم الإسلامى، ثم تقويم الجهود المبذولة فى العصر الحاضر استعداداً لإعادة بنائها الذى يقترح أن يكون فى صورة أكثر مرونة لمتطلبات القوميات الناشئة، وللمرة الثانية بعد سبقه فى الدكتوراة الأولى كان عناء السنهورى وتمرده خصبا مثمرا، فإن كتابه الذى قدمه (يريد كتاب الخلافة) ليس أقل امتيازا من كتابه الأول».

أما تلخيص أهم النقاط التى سجلها الدكتور السنهورى فى رسالته ، فقد قام به الأستاذ توفيق الشاوى فى الكلمة الحافلة التى كتبها لمقدمة كتاب (فقه الخلافة وتطورها) كما ترجم مشكوراً رسالة الدكتوراة إلى اللغة العربية، فأدى خدمة كبرى لمن يجهلون الفرنسية، جزاه الله أحسن الجزاء، والتلخيص كما يلى بتصرف يقتضيه المقام:

١ - إن الخلافة معناها إقامة نظام يحقق وحدة الأمة الإسلامية فى صورة من التنظيم السياسى، ويضمن لها المكانة الدولية التى تتناسب مع رسالتها السامية، تضمن سيادة الشريعة الإسلامية.

٢ - يتعذر فى الظروف الحاضرة إقامة خلافة كاملة، فلابد من إقامة خلافة ناقصة ليتم الكمال تدريجيا .

٣ - إن تعطيل الشورى، وتوقف الاجتهاد نتج عن سيطرة حكام مستبدين، مع جمود اجتماعى، فلابد من علاج يضمن الشورى ويحمى استقلال الأمة الإسلامية بما يضمن وحدتها، ووقوفها أمام نزعات التجزئة والتفرق.

٤ - يجب بدء حركة علمية تجديدية للفقه الإسلامى، وتقنينه فى صورة عصرية، وتنظيم الإجماع، ليكون إلى جانب الاجتهاد تصورا حيا للفقه، وليكون تجمع المسلمين مبنيا على وحدة العقيدة والشريعة والتكامل الاقتصادى والتكافل الاجتماعى.

٥ - سعى الشعوب الإسلامية للتحرر والاستقلال يجب أن يستمر، بشرط ألا

يتعارض مع تطلعها إلى التقارب والوحدة، لأن الاستقلال الوطنى لا يمكن أن يكون الهدف النهائى للدول الصغيرة، لكونه لا يحقق أمنها ولا استقرارها، وإنما يكون قاعدة متينة لبناء وحدة شاملة على أساس التكامل، يحمى الدول الصغيرة لتصبح قوة لها مكانتها فى العالم.

٦ - يجب أن يكون فى كل قطر إسلامى حركات سياسية تدعو إلى إقامة منظمة دولية إسلامية، أو جامعة للدول الشرقية والإسلامية المستقلة لتنظيم التعاون بينها، ومساعدة الشعوب الأخرى على الحرية والاستقلال.

٧- عندما تنجح الحركة العلمية فى تطبيق الفكر الإسلامى، وتنجح الحركات فى إنشاء منظمة إسلامية للدول الإسلامية يمكن أن يختار المسلمون رئيسا للجامعة على أساس وحدة الأمة، والشورى الحرة وتطبيق الشريعة.

كما ألقى الدكتور السنهورى عدة محاضرات سياسية تظهر عوار النظم السياسية المعاصرة من نازية وفاشية وشيوعية ورأسمالية؛ لينتهى إلى أن شريعة الإسلام هى المنقذ الوحيد للمسلمين. وقد حمل حملات كبيرة على القوميات الضيقة التى ينادى بها من لا يعرف أن الإسلام دين عالمى ينشد السعادة للجميع، كما دعا إلى إنشاء معهد للفقه الإسلامى يكوّن جمهرة من الباحثين فى الشريعة، على الأسلوب العلمى، ويمهد لإنشاء معهد للبحوث الفقهية الحالية فيجمع أساتذة يضعون المؤلفات الحديثة، ويزودون المكتبة الفقهية بنمط عصرى من الدراسات النافعة مع الاهتمام الكبير بالمخطوطات الفقهية التى لم تنشر بعد، والعمل على تحقيقها وطبعها فى مظهر مناسب لتفيد جمهرة الباحثين.

وعلى رغم ما أصيب به السنهورى من المحنة السياسية، وتعرضه (١٩٥٤م) للاغتيال بعد مظاهرة غوغائية، فإنه لم يسلم القياد، إذ لجأ بعلمه إلى الدول العربية التى ألحت فى استقدامه ليضع لها قوانينها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فأجاب عن طوع، وقدم من المجلدات القانونية فى أكثر بلاد العرب ما كان موضع العجب لهذا الجهد الجبار الذى واصله بعد البدء به من قبل، حتى أصبح ذخيرة كبرى للأمة العربية، كما صارت رسالته عن الخلافة موضع إعزاز كامل لمن يعرفون وجه الحقيقة فيما أُذيع عن الشريعة الإسلامية بعامة وعن الحكم فى الإسلام بخاصة من أراجيف سطعت عليها شمس الحقيقة فبددت الضياء.

ومن مؤلفاته :

١ - القيود التعاقدية فى حرية العمل (رسالة الدكتوراة بالفرنسية) سنة ١٩٢٥م.

٢ - الخلافة الإسلامية وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية (رسالة الدكتوراة بالفرنسية سنة ١٩٢٦م).

٣ - عقد الإيجار.

٤ - نظرية العقد.

٥ - الموجز للنظرية العامة للالتزامات.

٦- أصول القانون.

٧ - الوسيط فى شرح القانون المدنى الجديد (سبعة أجزاء).

٨ - الوجيز فى شرح القانون المدنى الجديد (ثلاثة أجزاء).

٩ - نظرية العقد الإسلامى فى الفقه (ستة أجزاء).

مع بحوث قانونية شتى يرجع لها فى مجلدات كلية الحقوق بالجامعة.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة :

١- النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين د. محمد رجب البيومى. جـ ٣.

٢- المجمعيون فى خمسين عاما. د. محمد مهدى علام.

٣ - فقه الخلافة وتطورها. ترجمة د. توفيق الشناوى.

٤ - مجلة الرسالة سنة ١٩٣٤م. محاضرات عن المذاهب السياسية المعاصرة للدكتور السنهورى.

٥ - مجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٩/ ٢٧٠.

٦ - مصريون معاصرون د. محمد الجوادى.

عبد السلام هارون
(١٣٢٧ - ١٤٠٨هـ = ١٩٠٩ - ١٩٨٨م)

هو عبد السلام محمد هارون، شيخ المحققين فى العصر الحديث، الباحث، اللغوى، الأديب.

ولد فى مدينة الإسكندرية فى سنة ١٣٢٧هـ = ١٨/١/١٩٠٩م. وعاش بها ثلاث سنوات، ثم انتقل إلى مدينة طنطا مع والده وأسرته، حيث عُيِّن والده وكيلاً للمسجد الأحمدى، وظل بها ثلاث سنوات، نقل بعدها إلى القاهرة، حيث عُيِّن والده رئيسا للتفتيش القضائى الشرعى بوزارة العدل «الحقانية» سابقًا.

وقد حفظ الشيخ عبد السلام هارون القرآن الكريم وهو فى العاشرة من عمره.

كما التحق بالتعليم الابتدائى فى الفترة من: (١٩١٨ - ١٩٢١م)، وانتقل بعدها إلى التعليم الأزهرى ثلاث سنوات أخرى، تنقل خلالها بين طلب العلم وتحصيله، فى جامع إبراهيم أغا فى حى القلعة، وجامع المردانى بالدرب الأحمر، وجامع المؤيد قرب باب زويلة.

وفى سنة ١٩٢٤م أشار عليه عمه فضيلة الشيخ أحمد هارون، والذى كان يعمل وكيلا للجامع الأزهر، وتولى كفالته ورعايته بالالتحاق بدار العلوم، وتغيير مسار التعليم الأزهرى وفعلا التحق بالمدرسة التجهيزية، والتى تخرج منها بعد أربع سنوات، وحصل خلالها على شهادتى الكفاءة والبكالوريا، وأهله ذلك لدخول اختبارات القبول بمدرسة دار العلوم العليا، والتى اجتازها نحو مائتين من أقرانه، كانوا خلاصة المتقدمين الذين تجاوز عددهم الألفين.

وفى دار العلوم درس العلوم العربية والإسلامية، إلى جانب العلوم المدنية الحديثة، من الهندسة والجبر والطبيعة والتاريخ والجغرافيا.

وبدأت المرحلة العملية للأستاذ عبدالسلام هارون، عقب تخرجه سنة ١٩٣٢م حيث عُيِّن مدرسا فى مدرسة فارسكور الابتدائية مدة ثلاث سنوات (١٩٣٢ - ١٩٣٥م)، انتقل منها إلى مدرسة ميت غمر الابتدائية لمدة سنة

واحدة (١٩٣٦م)، ومنها إلى مدرسة العطارين بالإسكندرية والتى ظل فيها حتى سنة ١٩٤١م، انتقل بعدها إلى مدرسة الظاهر الابتدائية بالقاهرة وظل بها حتى سنة ١٩٤٥م.

وفى خلال هذه السنوات الوظيفية، حدثت طفرة عملية فى حياة المحقق العظيم أكسبته خبرة جيدة، كانت دافعةً له إلى التقدم والرقى والازدهار، حيث تم تعيينه مدرسًا بكلية الآداب جامعة الإسكندرية (فاروق الأول آنذاك)، وظل يشغل هذه الدرجة لمدة خمس سنوات، انتقل بعدها أستاذًا مساعدًا فى كلية دار العلوم عام ١٩٥٠م.

ورقى إلى درجة أستاذ سنة ١٩٥٧م، ثم شغل وظيفة رئيس قسم النحو الصرف والعروض بها ١٩٥٩م، وظل كذلك حتى تم إعارته لدولة الكويت لإنشاء قسم اللغة العربية بجامعتها سنة ١٩٦٦م.

وفى أثناء إعارته بالخارج، تم اختياره عضوًا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٦٩م، خلفا للأستاذ محمد فريد أبو حديد رحمه الله.

وظل رحمه الله فى عطائه العلمى، ونشاطه التراثى، من تحقيق وتأليف للتراث العربى والإسلامى والأدبى واللغوى، حتى انتقل إلى جوار الله تعالى فى التاسع والعشرين من شعبان سنة ١٤٠٨هـ = الموافق ١٦ من أبريل ١٩٨٨م.

وكان لنشأة الأستاذ عبد السلام هارون فى بيئة علمية، مع والده الذى اهتم بالبحث والدرس والتصنيف، حيث ألف والده «تلخيص الدروس الأولية فى السيرة المحمدية» فى كتابين، وكذا «دروس فى آداب اللغة العربية»، بالإضافة إلى مراجعته لكتاب «تيسير الوصول إلى جامع الأصول» لابن الديبع الشيبانى، والتعليق عليه وتصحيحه.

كما كان لأخيه الأكبر : محمد أبى الفضل، اهتمام بالعلم والتأليف، وقد اشتهر عنه الحرص فى جمع الكتب ومطالعتها.

وكذلك كان لعمه الشيخ أحمد هارون اهتمام بالعلم والمطالعة والمراجعة، بحكم موقعه وكيلا للأزهر الشريف ومديرا للمعاهد الدينية.

كان لهذه النبتة الطيبة، فى البيئة الصالحة، أعظم الأثر فى التفوق والنبوغ، خاصة فى مجال التأليف والتحقيق، بالإضافة إلى حسن التنشئة والتربية والرعاية والتوجيه من أساتذته وشيوخه، ومنهم الشيخ أحمد الإسكندرى، والشيخ هاشم عطية، والشاعر محمد عبد المطلب، والدكتور مهدى علام، والدكتور أبو العلا عفيفى وغيرهم.

ويعد الأستاذ عبد السلام هارون شيخ المحققين فى العصر الحديث، وقد بلغت مؤلفاته أكثر من مائة كتاب، ما بين مؤلف، ومحقق ومن أشهر هذه الكتب :

- الأساليب الإنشائية فى النحو العربى. تأليف
- الألف المختارة من صحيح البخارى. (اختيار وشرح).
- تحقيق النصوص ونشرها. (تأليف).
- التراث العربى. تأليف
- معجم شواهد العربية. (تأليف).
- تحقيقات وتنبيهات فى لسان العرب. (تأليف).
- تهذيب إحياء علوم الدين للغزالى. (جزآن)
- تهذيب سيرة ابن هشام. (جزآن).
- تهذيب الصحاح للزنجانى. (أربعة أجزاء).
- فهارس معجم تهذيب اللغة للأزهرى.
- تهذيب اللغة للأزهرى. تحقيق بالاشتراك مع آخرين.
- خزانة الأدب للبغدادى. (تحقيق ١٢ جزء).
- معجم مقايس اللغة لابن فارس. (تحقيق ٦ أجزاء).
- البيان والتبيين للجاحظ. (تحقيق ٤ أجزاء).
- رسائل الجاحظ. (تحقيق ٤ أجزاء).
- الحيوان للجاحظ. (تحقيق ٨ أجزاء).
- المفضليات للضبى. (شرح وتحقيق مجلد).

وغيرها الكثير من الكتب المؤلفة والمحققة.

أ. د. على أبو المكارم

عبدالعزيز البشرى

(١٣٠٣ - ١٣٦٢هـ = ١٨٨٦ ـ ١٩٤٣م)

فى أواخر القرن الماضى، وفى حى من أحياء القاهرة الشعبية، وفى بيت عريق من بيوت العلم والأدب، كان مولد الشيخ «عبدالعزيز البشرى» سنة ١٣٠٢هـ الموافق ١٨٨٦م، ابن الشيخ الجليل «سليم البشرى» الذى آلت إليه مشيخة الأزهر مرتين.

التحق بكُتَّاب الحى الذى تلقى فيه ونال شهادة العالمية سنة ١٩١١م دراسته الأولى، تلك التى أهلته للالتحاق بالأزهر، وألَمّ بألوان مختلفة من الثقافة الإسلامية والعربية، فضلا عن العلوم المدنية الحديثة التى تقرر أخيرًا دراستها بعد أن أجازها فضيلة الشيخ «الإنبابى»، وصدق على فتواه الشيخ محمد البنا.

وإذ كان «البشرى» من أوائل الخريجين، فقد عين سكرتيراً بوزارة الأوقاف خلفًا للأستاذ «مصطفى لطفى المنفلوطى»، الذى نقل إلى وزارة الحقانية، ثم انتقل إلى سكرتيرية وزارة المعارف، ولم يلبث بها إلا قليلاً حتى نقل إلى القضاء الشرعى، وظل يتنقل بين المحاكم الشرعية حتى عين وكيلاً للمطبوعات، ثم مراقبًا عامًا لمجمع اللغة العربية، وهو المنصب المرموق الذى طالما تاقت نفسه إليه، وما ظفر به إلا لشهرته الأدبية التى شرقت وغربت، وبقى فى منصبه حتى اختاره الله تعالى لجواره سنة ١٣٦٢هـ الموافق ١٩٤٣م.

اشتهر أسلوبه الفكاهى الساخر الذى تأصل على أسلوب أبى عثمان (الجاحظ) فى ملحه ونوادره وتهكمه المرير.

كان البشرى يقضى فى مكتبة أبيه الساعات الطوال، بين أمهات الكتب ودواوين الشعراء، اتجه بقراءاته إلى كتب النقد التى كانت لاتشوقه من قبل، فقرأ كتاب «الوساطة بين المتنبى وخصومه» للجرجانى، وكتاب «الموازنة» للآمدى، وكتاب «أخبار أبى تمام» للصولى، وغير ذلك من كتب النقد التى تناولت آثار الشعراء بالنقد والتحليل، والتجريح والتعديل، وبهذا صقل ذوقه الذواق، وتمت له ملكة النقد حتى استطاع أن يشارك

فى هذا المجال. وإذا كان البشرى ناقدًا أدبيًا، فهو كذلك ناقد اجتماعى، فقد كان يشهر قلمه فى محاربة سلبيات المجتمع المصرى محاربًا منددًا بما يرى أو يسمع.

وقد ترك لنا آثارًا أدبية من أهمها: المختار فى الأدب. جزآن.

وفى المرآة. قطوف فى الأدب واللغة.

أ. د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة:

١ ـ عبدالعزيز البشرى، الأديب الساخر، د. نبيه حجاب، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة سنة ١٩٩٨م.

٢ ـ عبدالعزيز البشرى، سلسلة أعلام العرب، ط القاهرة.

٣ ـ فلاسفة وصعاليك، محمد فهمى عبداللطيف، طـ القاهرة، بدون تاريخ.

٤ ـ عبدالعزيز البشرى، د/ جمال الدين الشرقاوى ـ طبعة القاهرة.

عبد العزيز جاويش
(١٢٩٣ ـ ١٣٤٧ هـ = ١٨٧٦ ـ ١٩٢٩م)

هو عبدالعزيز بن خليل جاويش، خطيب، من الكتّاب، له علم بالأدب والتفسير، من رجال الحركة الوطنية بمصر. «تونسى» الأصل، ولد بالإسكندرية سنة ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م، وتعلم بالأزهر ودار العلوم، واختير أستاذاً للأدب العربى فى جامعة (كمبردج)، وعاد إلى مصر فاشتغل مدرساً، فمفتشاً للغة العربية، فى مدارس الحكومة، واتصل «بمصطفى كامل» وكان من أبرز زعماء الحزب الوطنى مع مصطفى كامل ومحمد فريد، وتولى تحرير جريدة (اللواء) سنة ١٩٠٨م فحمل على الاحتلال والمحتلين وصنائعهم والمنتمين إليهم، فسيق إلى المحاكمة مرات، وسجن ستة أشهر لمقال كتبه عن حادثة دنشواى، وثلاثة أشهر لكلمة قدم بها ديوان (وطنيتى) من نظم الشاعر على الغاياتى، ورحل إلى الأستانة فأصدر جريدة (الهلال) فمجلة (الهداية) ثم مجلة (العالم الإسلامى)، وأرسلته الحكومة العثمانية فى خلال الحرب العالمية الأولى إلى برلين للدعاية.

ودخل مصر خلسة بعد الحرب، ثم أظهر نفسه فعين مراقبًا عامًا للتعليم الأوّلى، وشارك فى إنشاء جمعية الشبان المسلمين وتوفى بالقاهرة سنة ١٣٤٧هـ الموافق ١٩٢٩م.

وكان ـ رحمه الله ـ جميل السمت، حسن الشارة، متواضع النفس، حلو الحديث، لطيف الروح، شديد الحياء، جريئا فى الدفاع عن دينه، شجاعًا فى الذود عن وطنه، صريحًا فى الإبانة عن رأيه. سبّاقًا إلى كريم المساعى، فشارك فى كثير من الأعمال الخيرية كتأسيس جمعية المواساة الإسلامية بالإسكندرية، وإنشاء المدرسة الإعدادية الثانية بالقاهرة.

كانت فى طبعه حدّة تظهر على قلمه أو لسانه إذا أوذى فى كرامته أو وطنيته أو عقيدته، وكان أسلوبه خطابيًا يؤثر بالعاطفة أكثر ممايؤثر بالمنطق، وكان يجرى فيه مجرى الأسلوب المنسوب إلى الإمام «على» فى «نهج البلاغة»، وهو من الكتّاب الذين اطّلعوا على آداب الفرنجة وتأثروا بها. وكانوا وسطاً بين المذهبين القديم والحديث.

كما كان من علماء العربية وفقهاء الدين

وأعلام الصحافة، فعالج الموضوعات الدينية والسياسية بالأسلوب الجزل والصنعة المقبولة، إلا أنه كان كأكثر معاصريه قليل العناية باختيار اللفظة المناسبة والاقتصار على الجملة الدالة.

وقد رثاه أمير الشعراء بقصيدة طويلة منها:

أصاب المجاهد عقبى الشهيد
وألقى عصاه المضاف الشريد

لقد غيبوا فيك أمضى السيوف
فهل أنت يا قبر أوفى الغمود؟

طريد السياسة منذ الشباب
لقد آن أن يستريح الطريد

سلام (أبا ناصر) فى التراب
يعير التراب رفيف الورود

بعدت وعَزَّ إليك البريد
وهل بين حى وميت بريد؟

أجل، بيننا رسل الذكريات
وماضٍ يطيف، ودمع يجود

ومن مؤلفاته:

له كتب منها: «أثر القرآن الكريم فى تحرير الفكر البشرى» (ط)، و «خواطر فى التربية والسياسة»، و«أبحاث عن المرأة المصرية والشئون العامة» (ط)، و«غنية المؤدبين فى الطرق الحديثة للتربية والتعليم»، (ط)، و «الإسلام دين الفطرة» وكتاب «أسرار القرآن».

أ. د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة:

١ ـ عبدالعزيز جاويش، من رواد التربية والصحافة والاجتماع، أنور الجندى، ط القاهرة.
٢ ـ مذكرات المؤلف وفهارس من دار الكتب المصرية، جريدة منبر الشرق ١٣٦٣هـ.
٣ ـ تاريخ الأدب العربى، للزيات، طـ ٢٤، القاهرة.
٤ ـ ديوان أمير الشعراء، جـ ٣، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٧٠م.
٥ ـ مجموعة مؤلفات مصطفى أمين عن ثورة ١٩١٩م.

عبد الفتاح أبو غُـدَّة

(١٣٣٦ - ١٤١٧هـ)

عبدالفتاح أبو غدة، عالم حلبي جليل، ولد سنة ١٣٣٦هـ وتربى على شيوخ حلب، ونال الدراسة الثانوية بمدارسها مع اتصاله بعلماء دمشق، ثم سافر إلى القاهرة، والتحق بكلية الشريعة الإسلامية ونال شهادة العالمية، واتصل بكبار رجال الدعوة الإسلامية فى القاهرة مثل: الأستاذ محمد الخضر حسين، والشيخ أحمد شاكر، والأستاذ حسن البنا، ولكن صاحب الأثر الأكبر فى اتجاهه العلمى بالقاهرة هو الأستاذ محمد زاهد الكوثرى، وكان منه بمنزلة السيد محمد رشيد رضا من الإمام محمد عبده، إذ حفظ الكثير من علمه ونشر آثاره، ودافع عنه ضد من حاربوه، وحين أتم دراسته بالأزهر الشريف اشتغل بالتدريس بكلية الشريعة بدمشق، ثم اضطر إلى الرحلة للسعودية فعين فى هيئة التدريس بكلية الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض.

كان له تلاميذ كثيرون ومريدون يتبعون آراءه السديدة، وقد رحل إلى أكثر بلاد الإسلام وشافه العلماء بها، ومنهم شيوخ كبار، وقد أصدر الأستاذ محمد بن عبد الله آل رشيد عنه كتابا قيماً سماه (إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح)، فى قرابة ٦٩٠ من الصفحات، جمع فيه أسماء شيوخه بشتى ربوع الإسلام وعددهم ١٨٠ عالما، وهو جمع تقديرى إذ إن منهم من لم يجلس من الشيخ غير جلسة واحدة، ولكنها طريقة الأقدمين احتذاها الأستاذ محمد بن عبد الله آل رشيد.

وما زال مجدا مثابرا على التأليف والتحقيق حتى بلغت كتبه مائة كتاب.

ثم توفى بالرياض سنة ١٤١٧هـ ودفن بالمدينة المنورة، وقد كتبت عنه تراجم شتى نذكر منها بعض ما قاله العلامة الشيخ محمد الشاذلى التيفر عميد كلية الشريعة بتونس عن أبى غدة يقول:[١]

«رأيت له امتيازاً عن الكثير من العلماء الذين ملأوا الوطاب من ناحية واحدة من المعارف، حتى أصبحوا فيها أهل الاختصاص، لكنهم مع ذلك لا يعتنون بتصحيح إلقائهم، بل ينطقون بما يجرى على لسانهم بدون تصحيح للغتهم، وهذا مما برأ الله منه الشيخ أبا غدة فقد كان حريصا على لغته فى أدائها على الوجه الصحيح». ثم

استشهد الأستاذ الشاذلى بمناقشات صرفية ونحوية تعقب فيها الشيخ عبد الفتاح، شيخ علماء الشام الشيخ طاهر الجزائرى، وهو فى كل تحقيقاته يرجع إلى الأصول، ويذكرها أثناء التصويب.

وقد أتيح لى أن أسعد بلقاء الأستاذ فى فترات قصيرة حين كنت مبعوثا للأزهر فى كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود، وكانت تلاصق كلية الشريعة التى يعمل بها الأستاذ، فكنا نتلاقى تلاقيا عابرا فى ساحة الجامعة، وفى مكتبتها، وقد لمست من فضله وعلمه ما بهرنى حقا، وإذا كانت كتبه الشهيرة تنطق بعلمه، فإن سلوكه العلمى واتجاهه الخلقى فى حاجة إلى تسجيل، حيث استطاع الرجل العلامة أن يكون واسطة عقد لكوكبة من أولى الفضل أساتذة وطلابا، يردون مكتبه، ويسمعون توجيهاته، وينتسبون إليه فى مجال البحث والتنقيب، وهى مسؤولية كبرى تلقى على عاتقه خارج الميدان الجامعى، إذ لا ينتسب إليه فى هذا المجال إلا الباحث الحقيقى لا الطالب الرسمى.

ومع هذه الحفاوة البالغة بعلم الأستاذ وفضله، فأنا أعلم أنه لاقى صعوبات جمة من نفر لا يروقهم أن يتحدث تلميذ عن أستاذه، وإذن فحديث أبى غدة عن الكوثرى وسعيه فى نشر مؤلفاته جريمة يجب أن تكون موضع الملامة لدى هؤلاء، وكنت قد عارضت بعض آراء شيخنا الكوثرى فى مقال لى، فجاءنى من يمدح المقال، ويقول: إنه صدمة للشيخ أبى غدة، فصرخت فى وجهه، وقلت: يا أستاذ أنت لا تعرف الإمام الكوثرى ولا الأستاذ عبد الفتاح، فهما فى مستوى لا أرقى إليه، ولا أحسبك تدركه! قال: ولم خالفت الكوثرى! قلت: مخالفة التلميذ لأستاذه فى مجلس الدرس، وهو يعرف أنه ينهل من حياضه، ويقتبس من نوره. فخرج الناقد المتعجل غاضبا.

وهنا أدركت أن الشيخ أبا غدة يلاقى بلاء من أدعياء المعرفة، فحرصت على أن أشيد به فى كل مجلس، وهو لا يعلم هذا، لأنى أنشد الحق دون اهتمام بعمرو أو زيد، ولأن الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف، فقد أدرك الرجل بإلهامه البصير ما أكنه له من حب، فكنت أتلقى سلامه على البعد شاكرا، وأبادله مثله صامتا، وهو مذهب خاص بنفر من الناس تتعارف لديهم الأرواح، ولا تتلاقى الأشباح.

وقد كانت أنباؤه العلمية تفد إلى، فكان أعجب ما أعجب من أمره هو صبره الملح الدائب على الرحلة الطويلة المستمرة إلى شتى بلاد الإسلام شرقا وغربا، مع ما يتحمله المسافر من وعثاء الطريق، ووحشة العشير، ولكن حب المعرفة دفعه إلى تحمل الصعاب رائحا غاديا، وقد سهل الله له العسير، فصادق من ذوى الفضل فى هذه الربوع الشاسعة من لا يجتمعون لعالم واحد

إلا فى الندرة النادرة، وقرأ من نفائس المخطوطات عربية ودينية ما عز على غيره أن يسمع باسمه، فضلا عن أن يقرأ صحيفة منه.

وأذكر أنه روى عن علماء الهند من التحف العلمية ما كنت غير متصور لوجوده، كما تحدث عن أئمة هناك، لم تصل إلَيَّ أسماؤهم فضلا عن مؤلفاتهم، وبسبب ما كتب عن هؤلاء أخذت أحاول التعرف إليهم، وأجمع ما أستطيع جمعه من أخبارهم، وهيهات أن أصل إلى ما يعلمه الرجل الكبير عن هؤلاء الكرام.

وما زلت أذكر قول صديقى الأستاذ الدكتور عبد القدوس أبو صالح منذ ثلاثين عاما، عن الشيخ أبى غدة بأنه من كبار شيوخ الحديث فى هذا العصر، وقد كان هذا منذ زمن بعيد، فماذا يقول عنه الآن! وقد بلغت مؤلفاته فى الحديث وحده ثلاثين مؤلفا، وهى مؤلفات لا تجمع ولا تحشد كيفما اتفق، ولكنها تهدف إلى جلاء الغامض تارة وإلى تصويب الخطأ تارة، وإلى إضافة الجديد تارة ثالثة، بحيث يسد كل كتاب مسدا ضروريا لا مفر منه.

ولا أنسى فى هذا المجال النقدى حديثه عن سنن الدارقطنى، وما قاله كبار المحدثين بشأنها، إذ جمعت هذه السنن أحاديث شتى من ضعيفة وموضوعة، ومكانة مؤلفها لدى العامة تَسْتُر هذه الموضوعات، فاحتاج الأمر إلى جلجلة عالية تقرع الأسماع، وهذا ما قام به الأستاذ مستندا إلى أقوال صريحة لأمثال ابن تيمية، والحافظ ابن عبد الهادى، والحافظ الزيلعى، والبدر العينى، والحافظ الذهبى، ولسنا نقدح فى نية الدارقطنى، فهو من كبار الأئمة فى الإسلام، ولكننا نقول: إنه أخطأ حين روى الضعيف والمنكر، والموضوع والمعلول والغريب، وكان له من النظر البصير ما يحول دون الجموح.

مؤلفاته :

لا أستطيع أن أذكر جميع ما ألف وحقق، نذكر من هذه المؤلفات:

- كتاب تحقيق اسمى الصحيحين، واسم جامع الترمذى.
- لمحات من تاريخ السنة وعلوم الحديث.
- صفحات من صبر العلماء.
- الإسناد من الدين.
- قيمة الزمن عند العلماء.
- العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج.
- الرسول المعلم وأساليبه فى التعليم.

أ. د. محمد رجب البيومى

الهوامش:

١- إمداد الفتاح ص ٢٣.

مراجع للاستزادة:

١- إمداد الفتاح بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح لمحمد بن عبد الله آل رشيد.
٢- النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين، الدكتور محمد رجب البيومى.
٣- السيرة الزكية للأستاذ زكى مجاهد.

عبد القادر المغربى
(١٢٨٤ - ١٣٧٥هـ = ١٨٦٨ - ١٩٥٦م)

ولد عبد القادر بن مصطفى المغربى فى الرابع والعشرين من رمضان ١٢٨٤هـ، الموافق يناير لسنة ١٨٦٨م حيث كان فى مدينة «اللاذقية» بسوريا. حيث كان أبوه يتولى القضاء وانتقل إليها من مدينة طرابلس، الشام.

والمغربى من أسرة كان جدها الأعلى يعيش فى تركيا التى هاجر إليها من تونس فى المغرب العربى وهو بيت علم ينتهى نسبه إلى المجاهد الكبير أمير البحر طرغود باشا المدفون فى طرابلس الغرب.

ثم انتقل من اللاذقية إلى طرابلس الشام مرافقا لوالده الذى نقل إليها. وفى طرابلس تلقى العلم على أبيه وعلى كبار رجال بلدته ثم رحل إلى بيروت لمتابعة تلقى العلوم الدينية والأدبية ليعين بعدها فى إحدى وظائف القضاء الشرعى الكتابية.

وبعد بضع سنوات أى فى سنة (١٨٩٢م) سافر إلى الأستانة عاصمة الدولة العثمانية حينذاك لينهل من المعرفة وهناك تعرف على السيد جمال الدين الأفغانى وطائفة أخرى من الأعلام وتوطدت الصلة بينهما وكذلك تعرف على طائفة من الأعلام. ثم عاد إلى طرابلس الشام عام ١٢١١هـ (١٨٩٣م) وعين بمجلس معارفها واتصل بالأمام محمد عبده وأولع بدراسة آثاره ونشر أفكاره وأخذ يجهر بضرورة الإصلاح الدينى والاجتماعى والسياسى مما حمل أولى الأمر على اعتقاله.

ثم هاجر إلى مصر وكان قد استدعاه إليها الشيخ محمد عبده إلا أنه ما كاد يستقر به المقام فيها حتى انتقل الإمام إلى الرفيق الأعلى.

وفى مصر اشتغل محررا فى جريدتى «المؤيد» و«الظاهر» وفيها ألف كتاب «الاشتقاق والتقريب» ونشره سنة ١٩٠٨م، وكتبه ردا على تساهله فى استعمال المفردات العربية والدخيلة وبعض الكلمات المولدة فى المقالات التى كان ينشرها وكان لهذا الكتاب دوى فى الأوساط العلمية إثر المناقشات التى دارت فى نادى دار العلوم من الاشتقاق والغريب.

ثم أعادت لجنة التأليف والترجمة والنشر نشره سنة ١٩٤٧م بعد أن أضاف إليه مباحث جديدة.

ولما أعلن الدستور العثمانى فى أواخر سنة ١٩٠٨م عاد إلى طرابلس الشام وظل يعمل فى معظم الجرائد هناك، وكذلك يكاتب الجرائد المصرية وأنشأ فى طرابلس جريدة «البرهان» وظل يصدرها إلى ١٩١٤م حيث توقفت بسبب قيام الحرب العالمية الأولى.

ثم كان واحدا ممن كلفوا مع الشيخ عبد العزيز جاويش سنة ١٩١٥م بتأسيس كلية صلاح الدين فى مدينة «القدس» لتخريج دعاة للدين الإسلامى يجمع بين الثقافتين الدينية والعصرية وقام فيها بتدريس «السيرة النبوية» و«فنون البلاغة».

وفى سنة ١٩١٦م عندما قررت السلطة العسكرية إصدار جريدة عربية بدمشق باسم «الشرق» اختارته مديرا لهيئة تحريرها. ولما جلا الأتراك عن دمشق سنة ١٩١٨م اختارته الحكومة العربية للنهوض بلغة الدواوين ثم عضوا فى ديوان المعارف، ثم صار عضوا متفرغا فى المجمع العلمى العربى. وقد كلف سنة ١٩٢٣م بتدريس اللغة العربية وآدابها فى معهد الحقوق العربى بدمشق. وقد تولى رياسة المجمع العلمى العربى فى بعض دوراته وشغل منصب نائب الرئيس سنة ١٩٤١م وظل يشغل هذا المنصب حتى انتقل إلى رحمة الله يوم السابع والعشرين من شهر شوال سنة ١٣٧٥هـ الموافق للسابع من يونيو سنة ١٩٥٦م.

ولما أنشىء مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة ١٩٣٤م كان أحد مؤسسيه ثم بعد أن أنشىء المجمع العلمى العراقى اختير عضوا مراسلا به ولقد ظل المغربى يغذى مجمعى دمشق والقاهرة ببحوث عميقة فى اللغة والأدب، ولا تخلو دورة لجمعية من بحث له أو أكثر فى كل منهما.

ولقد خلف المغربى آثارا جليلة من مؤلفات ومحاضرات ومقالات وهى تتصل بالدين واللغة والأدب، ومن مؤلفاته ما طبع ومنها ما لم ينشر بعد.

ومن مؤلفاته المطبوعة هى:

١ - الاشتقاق والتعريب، وقد طبع فى القاهرة سنة ١٩٠٨م ثم أعيد طبعه فيها كذلك سنة ١٩٤٧م.

٢ - السفور والحجاب، آراء نشرت فى عامى ١٩١٠م، ١٩١١م وطبعت سنة ١٩٥٥م بدمشق.

٣ - كتاب «البينات»، فى جزأين، طبع فى القاهرة سنة ١٩٢٥م.

٤ - كتاب «الأخلاق الواجبات»، طبع فى القاهرة ١٩٢٦م.

٥ - محاضرات عن «محمد ﷺ والمرأة» مع محاضرات أخرى، طبعت سنة ١٩٢٩م.

٦ - مناظرة أدبية لغوية بين المغربى والبستانى والكرملى، طبعت فى القاهرة سنة ١٩٣٥م.

٧ - جمال الدين الأفغانى - ذكريات وأحاديث - طبع فى سلسلة اقرأ سنة ١٩٤٨م بالقاهرة.

٨ - شرح وتحقيق تائية عامر بن عامر البصرى، طبع فى بيروت سنة ١٩٤٨م.

٩ - تفسير جزء تبارك، طبع بالقاهرة سنة ١٩٤٩م أخذ فيه حذو الأمام محمد عبده فى تفسيره جزء عم.

١٠ - على هامش التفسير، طبع فى القاهرة سنة ١٩٤٩م.

١١ - عثرات اللسان من مطبوعات مجمع دمشق سنة ١٩٤٩م.

١٢ - التنبيه على غلط الجاهل والنبيه لابن كمال باشا، رسالة حققها ونشرها له المجمع العلمى العربى بدمشق فى المجلد السادس.

ومن مؤلفاته التى لم تنشر:

١ - المعجم اللغوى للألفاظ المعربة، وصل فيه إلى حرف الذال.

٢ - أحسن القصص فى التاريخ النبوى المقدس.

٣ - مقصورة ابن دريد.

٤ - الأسرة المغربية: أصلها وفروعها.

أ.د. ضاحى عبد الباقى

مراجع للاستزادة:

١ - مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما، نشره مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

٢ - كلمة الدكتور منصور فهمى فى حفل تأبينه بمجمع اللغة العربية (محاضر جلسات الدورة ٢٣ ص ١٦٦ وما بعدها) - القاهرة ١٩٨٢م استقى بعض المعلومات من أبيه مصطفى.

٣ - عبد القادر المغربى - محاضرات للدكتور محمد أسعد طلس - على طلبة معهد الدراسات العربية العالية - بالقاهرة.

٤ - عبد القادر المغربى بمناسبة انقضاء خمسين عاما على إنشاء مجمع اللغة العربية بدمشق (المجمع العلمى العربى) للدكتور عدنان الخطيب - المجلة ص ٢٢١ بالمجلد ٤٤.

٥ - المصطلحات العلمية والفنية للدكتور ضاحى عبد الباقى - القاهرة ١٩٩٢م كلمة الأستاذ محمد الفاسى فى حفل استقباله بمجمع اللغة العربية - مجلة المجمع حـ/١٤.

٦ - الأدب العربى المعاصر فى سورية، تأليف سامى الكيالى القاهرة ١٩٥٩م.

٧ - عالمنا العربى، تأليف نعمة زيدان - بيروت ١٩٥٦م.

٩ - أعلام الفن والأدب، لأدهم الجندى ٢/١٢٠ دمشق ١٩٥٨م.

١٠ - قدماء ومعاصرون للدكتور سامى الدهان - القاهرة ١٩٦١م

١١- عبد القادر المغربى للأستاذ محمد عبد الغنى حسن (مجلة الأديب نيسان (إبريل) سنة ١٩٦٧م.

١٢- الأعلام للزركلى.

١٣- معجم المؤلفين لمحمد رضا كحالة.

١٤- الموسوعة العربية الميسرة.

عبد المتعال الصعيدى
(١٣١٣ - بعد ١٣٧٧هـ = بعد ١٩٥٨م)

ولد فى كفر النجبا التابع لمركز أجا محافظة الدقهلية، فى أواسط عام ١٨٩٤م (١٣١٣هـ)، وبعد ولادته بشهر واحد مات والده فكفلته والدته، حفظ القرآن الكريم فى كتَّاب القرية، والتحق بالجامع الأحمدى بطنطا. وكان بجانب قراءته فى الكتب الأزهرية شديد الشغف بمطالعة كل ما تظهره المطبعة من كتب الأدب والفلسفة وغيرها، وكان أيضًا حريصًا على مطالعة المجلات العلمية والأدبية والجرائد اليومية[1].

حصل على الشهادة العالمية عام ١٩١٨م، وعين مدرسا بالجامع الأحمدى (المعهد الدينى بطنطا)، وقد ألّف كتابًا بعنوان «نقد نظام التعليم الحديث للأزهر الشريف» ينقد فيه ما يراه من قصور وجمود فى هذا النظام، ولكنه لم يشأ أن ينشر الكتاب إلا بعد مضى خمس سنوات على تعيينه فى التدريس؛ لعلمه بما سيثيره هذا الكتاب من سخط عليه فى بيئة «ألفت الجمود أقوى إلف» كما يقول[2]. وقد أثار الكتاب عند نشره سخط المدرسين بمعهد طنطا الدينى، وطالبوا شيخ المعهد بعقاب المؤلف بالفصل من الوظيفة، وقد عاقبه مجلس إدارة المعهد بخصم خمسة عشر يوما من مرتبه، مع أن ما دعا إليه قد تحقق الكثير منه فيما بعد، ومن جانب آخر لقى المؤلف تأييدا من بعض المشايخ المعدودين، مثل: الشيخ يوسف الدجوى، والشيخ على سرور الزنكلونى، والشيخ على محفوظ، والشيخ مصطفى الغاياتى.

وفى أوائل الثلاثينيات عين مدرسا بكلية اللغة العربية، وكان له باع طويل فى الدعوة إلى إصلاح الأزهر، وقد أثبت ذلك فى الكثير من المقالات التى نشرها فى العديد من الصحف المصرية، وهو يعد نفسه مؤرخ الإصلاح فى الأزهر[3].

وعند قرب إحالته إلى التقاعد كتب فى خاتمة الجزء الثانى من كتابه «تاريخ الإصلاح فى الأزهر»، تلخيصا لجهاده على مدى أربعين عاما فى سبيل إصلاح الأزهر، وما لاقاه فى سبيل ذلك من عنت واضطهاد.

وقد توفى قرب نهاية العقد السادس من القرن العشرين.

كان الشيخ الصعيدى يعد نفسه من المجاهدين فى سبيل الإصلاح والتجديد، مترسما فى ذلك خطى كل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، حيث رأى منذ كان شابا يافعا أن أقوم طريق لنهضة المسلمين هو الطريق الذى دعيا إليه، وقد صرح بذلك فى أكثر من موضع من مؤلفاته.

وقد كانت فكرة التجديد بالمعنى الشامل مسيطرة على تفكيره، فالإسلام نهضة دينية ومدنية معا، ولا يقتصر الأمر فيه على ما يصلح الآخرة وحدها، بل يدخل فيه ما يصلح الدنيا أيضا، بل إن العبادات أيضا يُقْصَد منها، فى الأكثر، أمورٌ تعود علينا بالمصلحة فى دنيانا قبل أن تعود علينا بشىء فى أُخرانا.

وهكذا نجد أن فهمه للتجديد يراد منه: النهوض الدينى والمدنى، وهو يتعدى من المسلمين إلى من يعاصروهم، كما حصل من قيام النهضة الأوروبية بتأثير النهضة الإسلامية.

ومن هذا المنطلق نجده فى بحثه عن تاريخ المجددين فى الإسلام، يدرسه على أنه تاريخ نهوض المسلمين فى أمور دنياهم قبل أن يكون نهوضهم فى أمور أُخراهم، ولهذا لا يهتم فيه بالمجددين إلا من يعمل لهذه الغاية.

ويختم هذا الكتاب بدعوة المسلمين إلى: «أن يزيلوا من نفوسهم فكرة المهدى المنتظر، وأن يضعوا بدلها فكرة المجدد المنتظر؛ لينهض بهم فى هذا الزمان، ويصير بالناس إلى عهد السلام والوئام».

والمجدد عنده ينبغى أن يكون بعيدا عن التعصب الممقوت «فلا محل للتعصب فى باب التجديد والمجددين... فلا يصح أن يكون لمذهب (المجدد) فى الدين أثر فى غايته من التجديد... بل يجب أن ينظر فى دعوته إلى المسلمين جميعًا، فلا يميز فريقا على فريق، ولايقصد بالتجديد فرقة دون فرقة، بل يسعى فى خير المسلمين جميعا»[٤].

وينتقد الصعيدى مفهوم التجديد لدى رشيد رضا، ويعيب عليه جنوحه كثيرا إلى مدرسة ابن تيمية، الأمر الذى جعله يكره التأويل ويطعن فى المشتغلين بالفلسفة من فلاسفة المسلمين. ويرى الصعيدى أن جنوح رشيد رضا إلى مدرسة ابن تيمية، وجعله إمام المجددين فيما بعده من القرون، يخالف مفهوم الإصلاح الذى كان يدعو إليه، ويقلد فيه جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، والذى يقوم على أساس الجمع بين علوم

الدين والدنيا على الطريقة الأوروبية. وهذه الطريقة تناصر الفلسفة وعلومها، لأن حضارة أوروبا لم تقم إلا على أساس هذه العلوم، «ومن يذهب فى الإصلاح الحديث ذلك المذهب، لا يصح أن يكون ابن تيمية إماما له فيه، لأنه كان رجعيا فى هذه الناحية، بل يكون الأجدر بالاقتداء فى هذا الإصلاح الحديث من السابقين ابن رشد الحفيد؛ لأنه هو الفيلسوف الفقيه الذى جمع بين علوم الدين وعلوم الدنيا، وآخى بين الدين والفلسفة، ولو قامت مدرسة بعده واستمرت كما استمرت مدرسة ابن تيمية، لكنا أسبق إلى النهضة الحديثة من أوروبا، ولم نقع فى الجمود الذى وقعت فيه مدرسة ابن تيمية»[٥].

وكان الشيخ الصعيدى يكره الجمود الدينى فى الأزهر، والذى يرجعه إلى أسباب:

أولها : التقيد فى العقائد بمذهب الأشعرية.

وثانيها : التقيد فى الفروع بالمذاهب الأربعة المشهورة.

وثالثها : أخذ العلماء بعقوبات على أمور غير محددة.

ورابعها : المبالغة فى تقديس أسلافنا وعلومهم. «فيجب أن يقضى على هذه الأسباب التى أدت بنا إلى ذلك الجمود العلمى والدينى؛ لتتسع عقول أهل الأزهر للبحث والنقد، ولا نقابل كل رأى جديد بالإنكار والاعتراض، ويكون هذا بأن يطلق لهم الحرية فى اختلاف الفرق الإسلامية فى العقائد، وفى اختلاف المذاهب الفقهية فى الفروع، وبألا يكون عليهم مثل تلك العقوبات التى تحد من حريتهم، وتجعل للرؤساء سلطة واسعة عليهم، وبأن نقتصد فى تقديس أسلافنا وعلومهم، ولا نهاب أخذهم بالنقد النزيه، ووضع علومهم موضع البحث والتمحيص»[٦].

وفى كتاب «الحرية الدينية فى الإسلام»، يشير إلى أنه قد أتى فيه باجتهاد خطير فى موضوع الحرية الدينية، إذ أثبت فيه أن الحرية الدينية فى الإسلام عامة فى دعوة غير المسلم الذى لم تبلغه دعوة الإسلام، وفى دعوة من بلغته واستجاب له ثم ارتد عنه[٧]. ويوضح وجهة نظره التى يحاول البرهنة عليها بالعقل والنقل، والتى يذهب فيها مذهبا يخالف فيه كل علماء المسلمين قائلا: «وهذا مذهب انفردت به فى حكم المرتد ولم يسبقنى إليه أحد أصلا».

ويتلخص مذهبه فى القول بأن «المرتد لا يكره على الإسلام بقتل ولا بسجن ولا بنحوهما من وسائل الإكراه، وإنما يدعى إلى

العـودة إلى الإسـلام بالحكمـة والموعظة الحسنة، كما يدعى غيره ممن لم يسبق له إسلام، بهذه الوسيلة أيضا، فإن أجاب فبها، وإلا لم يكن جزاؤه إلا العقاب على ردّته فى الآخرة. وقد نفى الإكراه على الدين نفيا عاما صريحا، فى قوله تعالى فى الآية (٢٥٦) من سورة البقرة: ﴿ **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى...** ﴾[٨]. وهذا نفى للإكراه مطلقا فيجب أن يدخل فيه من أسلم ثم ارتد، كما يدخل فيه من لم يسلم أصلا[٩]. وقد رد عليه الشيخ عيسى منون فى مقالات نشرها بمجلة الأزهر حينذاك (عدد شوال ١٣٧٤هـ، وعدد شعبان ١٣٧٥هـ).

وقد كان الشيخ عبد المتعال الصعيدى غزير الإنتاج، متعدد الاهتمامات، ومن أهم مؤلفاته ما يأتى :

١ - المجددون فى الإسلام من القرن الأول إلى الرابع عشر. وهو أكبر أعماله العلمية، ويقع فى أكثر من ستمائة صفحة، يؤرخ فيه لحركة التجديد فى الإسلام.

٢ - تاريخ الإصلاح فى الأزهر، وصفحات من الجهاد فى الإصلاح «جزآن».

٣ - الحرية الدينية فى الإسلام.

٤ - نقد كتاب «فى الشعر الجاهلى».

٥ - الوسيط فى تاريخ الفلسفة الإسلامية.

٦ - توجيهات نبوية.

٧ - القضايا الكبرى فى الإسلام.

٨ - تجديد علم المنطق فى شرح الخبيصى على التهذيب.

٩ - النظم الفنى فى القرآن.

١٠ - شباب قريش فى بدء الإسلام.

١١ - لماذا أنا مسلم ؟

أ.د. محمود حمدى زقزوق

الهوامش:

١ - نقد نظام التعليم الحديث فى الأزهر الشريف، عبد المتعال الصعيدى، ص ٩٤. ٢ - تاريخ الإصلاح فى الأزهر ٢ / ١٢.

٣ - المجددون فى الإسلام، عبد المتعال الصعيدى، ص ١٦.

٤ - المرجع السابق، ص ٥٤٣.

٥ - تاريخ الإصلاح فى الأزهر ١٧٦/١ وما بعدها.

٦ - الحرية الدينية فى الإسلام، عبد المتعال الصعيدى، ص ٣.

٧ - المرجع السابق، ص ٨٨.

٨ - سورة البقرة، آية ٢٥٦.

٩ - المرجع السابق، ص ٧٢، ٧٣.

مراجع للاستزادة :

- مؤلفات الشيخ عبد المتعال الصعيدى المذكورة فى الهوامش التالية.
- الأعلام للزركلى ٤ / ١٤٨.

عبد المجيد سليم
(١٢٩٩- ١٣٧٤هـ = ١٨٨٢- ١٩٥٤م)

بلغت مشيخة الأزهر ذروة كمالها الرائع فى التمسك بالحق، والجهد بما يرضى الله مهما خالف رأى الحاكم فى عهد الأستاذ الأكبر عبد المجيد سليم، إذ كان من بقية السلف الصالح الذى جعل الجهاد بالرأى وسيلة ليدفع الباطل.

وقد ولد فى قرية ميت شهالة بالقرب من مدينة الشهداء بالمنوفية فى ١٣/١٠/١٨٨٢م، وتجلت مظاهر نبوغه فى صغره حين حفظ القرآن الكريم فى سن غير معهوده للأطفال، مع إلمامه ببعض العلوم الدينية كالتجويد والفقه، ثم أتيح له أن ينتسب إلى الأزهر فى عصر الأستاذ الإمام محمد عبده، وأن يستمع إلى دروسه فى التفسير والبلاغة، وأن يراه مثلا يحتذى فى إصابة الفهم، وسعة الاطلاع، وبلاغة التعبير، فيبلغ من نفسه مبلغا كبيرا، وكذلك أتيح له أن يتتلمذ على الشيخ الفيلسوف الزاهد حسن الطويل فقد قرأ عليه كتب المنطق وبعض مؤلفات ابن سينا.

وقد أفاد من سلوكه ما أفاد من علمه، حيث كان الطويل مع سعة محيطه زاهدا متواضعا، لا تغره البوارق، ولا تتجاذبه الأضواء، بل ينشد الدرس الهادئ فى صحبة أفراد من تلاميذه يصطفيهم اصطفاء جيدا بعد أن يقف على استعدادهم الطيب، فإذا تم لهم ما أرادوه من حب الأستاذ والاهم بدروسه البعيدة عن النمط التقليدى فى الأزهر، وقد يؤخذ عليه أنه يعرض كثيرا، ويرجح قليلا، وذلك شأن بعض المفكرين حين تتكافأ الأدلة، وتتعادل البراهين فيصعب الميل إلى رأى خاص دون ترجيح أكيد.

أما صاحب الأثر فى التعمق الفقهى لدى الطالب الناشئ فهو شيخه الأستاذ أحمد أبو خطوة، حيث كان من كبار المتضلعين فى الفقه الحنفى، وقد قرأ من الشروح والحواشى فى الأصول والفروع ما يتعذر حصره، حيث كانت تعرض الجزئية الصغيرة من أحكام الفقه، فيفيض أبو خطوة فى إيضاح ما قيل بصددها من شتى الأقوال، وكأنها كانت موضع دراسة خاصة قد احتفل

لها من قبل، وكان الشيخ عبد المجيد سليم كثير الإشادة به فى أحاديثه، وقد عقد موازنة بينه وبين أستاذه الإمام محمد عبده فذكر أن الإمام يمتاز بسعة الأفق وقوة التعليل مع بلاغة الأداء، وأن الشيخ أبا خطوة يمتاز بتتبع المسائل فى كتب الفقه وأدلة الأحكام، وكلاهما رجع على الطالب المتطلع بما أمده من بصر سديد، وعلم غزير. إذ لم يكد ينال درجة العالمية حتى عين مدرسا للفقه والأصول بالأزهر، وتدريس الأصول من المعلم الناشئ همة وطموح.

وقد انتقل صيته العلمى إلى عاطف بركات باشا ناظر مدرسة القضاء الشرعى فاختاره لتدريس الفقه والأصول بهذه المدرسة العالية، وكان من زملائه المدرسين من كانوا أساتذته، وعلى يد الشيخ عبد المجيد تخرج فى الفقه والأصول نفر ممتاز من رجال القضاء الشرعى بمصر وقد لقى ربه فى صباح يوم الخميس ١٠ من صفر سنة ١٣٧٤هـ الموافق ٧ من أكتوبر سنة ١٩٥٤م.

لم يشأ الشيخ أن يضع مذكرات لطلابه، كما فعل زملاؤه، بل ارتضى أن يدرس لهم الأصول العريقة من كتب التراث الفقهى، وأن يعلق عليها بما يفصل المجمل، ويوضح الغامض، وكأنه بذلك يحذو حذو أستاذه حسن الطويل فى درس الفلسفة، إذ كان يقرأ كتب السلف شارحا موجها، فإذا سئل أن يخط مؤلفا مستقلا أعلن أنه لا يبلغ مبلغ سابقيه!.

وقد ألح الكثيرون على الشيخ أن يأذن بطبع رسالته الفقهية التى تقدم بها لعضوية هيئة كبار العلماء فلم يسترح إلى هذا الاقتراح، كما لم يشأ أن يجمع ما أصدره من الفتاوى الفقهية الدقيقة على مدى ربع قرن متصل، إذ لم ينقطع عن الإفتاء بعد أن تركه إلى مشيخة الأزهر فظل يسأل ويجيب. وقد ألهم الله ذوى الرأى فقاموا بجمع ما صدر عنه من الفتوى مع زملائه السابقين واللاحقين، فى مجموعات شافية تعتبر إحدى الذخائر الغالية فى دنيا التشريع، وبذلك تهيأ للدارسين أن يلموا بآراء الفقيه الكبير، وافية شافية.

كان فى طبع الرجل الكبير ميل عن السياسة الحزبية، ودعوة حارة لطلاب العلم أن ينصرفوا إلى رسالتهم الإسلامية الخاصة بالتعليم والإرشاد، ولكن صاحب المنصب الدينى المرموق لابد أن يسأل فيجيب. ومن هذه الأسئلة ما يمت إلى السياسة والسياسيين بالنسب القريب، وقد يكون السؤال من الخطورة بحيث يواجه صاحب الأمر مواجهة شجاعة تتطلب الرد الشجاع، هذا ما عهد من المفتى الأكبر.

تلقى الشيخ سؤالا عن حكم الشرع فى رجل يراقص النساء، ويشرب الخمر! وذلك بعد حفلة صاخبة أقامتها إحدى الأميرات وحضرها فاروق، ونشرت بعض الجرائد صورا لبعض ما كان! وقد أدرك عبد المجيد سليم من المقصود بالفتوى فما تراجع بل جابه المخطئ بانحرافه، واضطرب القصر لجرأة هذا الإنكار الصارخ كما قالت مجلة المصور، واتصل بالأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر حينئذ منبها على خطورة الفتوى بالنسبة لأثرها الجرئ، وكان الشيخ المراغى من الغيرة على الحق بحيث لم يخذل أخاه، بل دعى إلى تصحيح الخطأ عند المخطأ لا إلى تخطئة المصيب!

وقد جدت أمور صعبة بعد رحيل الإمام المراغى إذ شاء القصر أن يعين الأستاذ مصطفى عبد الرزاق شيخا للأزهر، وهو لم يكن عضوا فى جماعة كبار العلماء، التى هى شرط فى تعيين شيخ الأزهر فجاهد الشيخ مجاهدة شديدة ضد رغبة القصر وحذره النقراشى باشا فى حديث غاضب فلم يعبأ بقوله، وبادر بالاستقالة من منصب الإفتاء، وله موقف أشد روعة حين واجه الملك بترديه فى السفاسف وترك معالجة الشئون الهامة بحياة الفقير مما أدى إلى استقالته من منصب شيخ الأزهر معتزا بكرامته، ثم تكرر الموقف مرة ثالثة إذ رأت الثورة أن تعرض عليه رجالا فى المناصب العليا بالأزهر ليسوا أهلا للقيادة، فرفض واستقال كريما.

كان منصب الإفتاء فى مدى سبعة عشر عاما مجال الإبداع الفقهى للإمام، إذ رأى ألا يقتصر على المذهب الحنفى ودراسته دراسة شاملة فى كتب الفروع والأصول معا، وكان قد أصبح حجته الأول فى مصر بعد رحيل الشيخ محمد بخيت المطيعى رحمه الله، لكنه آثر أن يعود إلى نهج الإمام محمد عبده فى غير الفتاوى الرسمية التى تتطلبها الدولة، وفى عهده بالإفتاء تألفت لجان فقهية لتعديل قانون الأحوال الشخصية، فكان رأيه من رأى الإمام المراغى فى التوسع الشامل للمذاهب المتعددة جميعها، بل امتد هذا التوسع فى بعض قضايا الميراث والطلاق حتى ضم آراء أمثال ابن حزم، وزيد بن على، وطاوس، وشريح، وداود، كما يشهد بذلك ما يعرف بقانون ١٩٢٩م للأحوال الشخصية.

ونرى فى الإحصاء المدوَّن بالجزء الأول من الفتاوى الإسلامية (ص٣٤) ما يدل على أن الشيخ عبد المجيد سليم قد كتب (١٥٧٩٢) فتوى مدونة بالسجلات الخاصة فى مدى سبعة عشر عامًا، وقد ولى بعدها رئاسة لجنة الفتوى فأصدر عشرات أخرى، دوّن بعضها فى مجلة الأزهر وبقى بعض آخر

دون تدوين، فإذا علمنا أن الشيخ كان يرسل بعض الفتاوى الخاصة لمن يطلبها من أصدقائه ومريديه بعيدًا عن عمله الرسمى، فلنا أن نقول: إن الفقيه الكبير بما أعطى من جهد علمى كبير قد لمس مشاكل العصر المستحدثة، وأجاب عنها بما يرتئيه.

والذين كانوا يعملون معه فى دار الإفتاء يذكرون أنه كان يقضى أيامًا كثيرة فى مراجعة فتوى واحدة، إذ كان من ديدنه أن يقرأ كتب السابقين فى كل مذهب، وأن يطيل المراجعة المستأنية فى الآراء المتشابهة، وأن يحاول التوفيق بين ما يتعارض من النصوص ويشتبه من الأحكام، وله من نفسه جلسات صامتة للتفكير المتئد، ولم ينس أن يدرس آراء سابقيه من رجال الإفتاء، وأن يعارض وأن يحبذ وفق ما يرتئيه، وقد يضطر إلى مخالفة زميل كبير له مقامه الفقهى، فيكتفى بالإشارة إلى رأيه معقبًا عليه بما فتح الله به من النظر الجديد.

على أن نضوج الرجل الفقهى يتضح بجلاء فيما لم يسبق إليه من الآراء، حين تجد أمور مستحدثة فى عالم الاقتصاد أو الطب أو الاجتماع فتتطلب رأى الإسلام فى هذا المستحدث، ويضطر الفقيه إلى القياس الأصولى ليقرن النظير بالنظير، ونضرب المثل لذلك بفتوى الشيخ عبد المجيد سليم فى نقل الدم للمسلم المريض المحتاج إليه من شخص غير مسلم، وفى الانتفاع بجزء من عين شخص مات لرد بصر شخص حى، فينقل الرجل مسائل قياسية من كتب التراث منتهيًا إلى أنه إذا تحقق توقف حياة المريض أو الجريح على نقل الدم جاز ذلك، أما إذا توقف تعجيل الشفاء فحسب، فيجوز على أحد الوجهين عند الحنفية، ويجوز على مذهب الشافعية، وذلك إذا لم يترتب على النقل ضرر فاحش ممن نقل عنه حرصًا على صحته.

وقد اختار الشيخ جواز معالجة غير المسلم من الأطباء حتى مع وجود الطبيب المسلم، تيسيرًا وتسهيلاً ما دام أهلاً للثقة، ذاكرا من الأدلة ما يؤيد رأيه، وهذه الفتوى لم ينفرد بها الشيخ وحده؛ إذ كان رئيسًا للجنة الفتوى بالأزهر، وبها من الزملاء من يشاركونه الرأى بعد تداول واقتناع، وحين اشتدت أزمة التموين فى الحرب العالمية الثانية، واحتكر التجار وسائل العيش، واضطرت الحكومة إلى تسعير البضائع، وجد من يعارض فى التسعير، فأصدر الشيخ فتواه بضرورته فى مثل هذه الأزمات، وأبان نصوصًا كثيرة تحبذ رأيه من كتب السلف، فأسكت بعض من يتصدرون للفتوى بغير حق، وصارت فتواه عملاً ملزمًا للجميع.

وإذا كانت الفتوى الدينية أبرز آثار الشيخ،

فإنها ليست وحدها آية فضله، فقد أتيح له أن يقوم على رعاية الدراسات العليا بكليات الأزهر الشريف، فيشرف على مناهجها، ويناقش رسائلها، ويحضر بعض دروسها، والدراسات العليا لعهده تتشعب فى كليات الشريعة الإسلامية، واللغة العربية، وأصول الدين، ومعنى ذلك أن إلمام الشيخ الكبير بعلوم الأزهر جميعها يؤهله للمناقشة الجادة فى مواد هذه الكليات جميعها، فهو يناقش فى أصول الفقه كما يناقش فى مسائل المنطق كما يناقش فى فنون البلاغة ودقائق النحو والتصريف، ولا تكاد اليوم تجد عالما من هذا الطراز المستوعب بعد أن شاع التخصص بمعناه الهش، لا بمدلوله الدقيق.

كما كان الرجل الكبير على رأس جماعة صمَّمت على ضرورة الإصلاح الأزهرى للتعليم منهجًا وكتابًا وأستاذًا فى الفترة الثانية لعهد الإمام المراغى؛ لأن الأحداث العاصفة قد حالت دون تمام الإصلاح كما عناه الأستاذ المراغى فى مذكرته الشهيرة التى تقدم بها فى مشيخته الأولى، والتى أحدثت من الدوى ما اهتزت له جنبات الأزهر، وأدت إلى استقالته بعد أن قامت عقبات شديدة أمام تحقيق ما جاء بالمذكرة الخالدة، ثم رجع الشيخ إلى عمله، ولكن ظروفًا ما قد وقفت دون استكمال وجوه الإصلاح، فرأى جماعة من خُلاصة رجال الأزهر، كالشيخ محمود شلتوت، والدكتور محمد البهى، والأستاذ محمد محمد المدنى، والأستاذ عبد العزيز عيسى، أن يلتفوا حول الشيخ عبد المجيد سليم كى يجدوا منه عونًا على أداء رسالة الأزهر كما حددتها مذكرة الأستاذ الأكبر.

وقام الشيخ عبد المجيد سليم بواجبه الإصلاحى، وأقيمت الندوات الهادفة فى كليات الأزهر الثلاث، وكان اسم الشيخ شلتوت من أنشط الأسماء الداعية لسرعة العمل، وقد ساعده على ذلك انتماؤه إلى جماعة كبار العلماء، فجدَّد من نشاطها، ودفع بها إلى تقدم مأمول، وأخالُ الأستاذ المراغى كان سعيدًا بهذه الحركة، لأنها ثمرة توجيهه، وشعاع مصباحه، ولئن تأخر فى تنفيذ بعض دون بعض، فذلك لأن القائم بالعمل المباشر يرى ما لا يراه من لا يزال على الشاطئ يراقب الموج الهادر دون أن يسبح فى الماء، ولن يتم الإصلاح المنشود دون أمد محدود، فالغاية بعيدة، والمطلب شاق مرهق، والمطايا لم تتعود السير السريع، وعلى الله قصد السبيل، هذا ومن أكبر جهاده فى جمع الكلمة الإسلامية ودعوته إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية المعتبرة وتوجهه لجماعة التقريب باذلا جهده الحميد حتى أصبح التقريب الآن هدفا يسعى الجميع إلى تحقيقه مخلصين.

ولعل من الأوفق أن نختم حديثنا عن الشيخ عبد المجيد ببعض ما قال الأستاذ محمد محمود - رئيس محكمة الاستئناف العليا - فى تأبينه إذ أشار إلى أنه رضى الله عنه كان النجم اللامع فى لجنة الأحوال الشخصية بوزارة العدل، إذ كانت تعرض الموضوعات والمسائل على اللجنة بعد سبق فحصها، وعندئذ يأخذ الشيخ عبد المجيد الكلمة، فيتولى شرح المسائل، الواحدة تلو الأخرى، مستعرضا شتى الآراء فى كل مذهب من المذاهب، ومقررا الحكم الدقيق، ذاكرا رأى الأئمة والمجتهدين من الفقهاء، مسايرا روح العصر، منتقلا من فن إلى فن، وهو فى ذلك كالبحر الدافق حتى إذا انتهى من عرضه المستوعب الجامع قامت اللجنة بالبحث والتمحيص لإعطاء الصيغة النهائية للمادة القانونية.

وهكذا يكون الفقيه الأكبر، سعة اطلاع، وسلامة منهج، ودقة استنباط.

وتضم مجموعة الفتاوى الإسلامية التى أصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف جل ما أصدره الشيخ من فتاوى كما تضم مجلدات مجلة الأزهر ما أصدره الشيخ من فتاوى حين كان رئيسا للجنة الإفتاء.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - علماء فى وجه الطغيان للدكتور/ رجب البيومى.
٢ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين جـ (٢) للدكتور/ محمد رجب البيومى.
٣ - مشيخة الأزهر جـ (٢) للأستاذ/ على عبد العظيم.
٤ - الأزهر فى ألف عام جـ (١) للدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجى.
٥ - المصور، بتاريخ ١٤/١٠/١٩٥٤م
٦ - الشيخ المراغى بأقلام الكتاب، ص٦٧.
٧ - مجلة رسالة الإسلام، العدد الأول، ربيع الأول ١٣٦٨هـ، ص١١.
٨ - مجلة الأزهر، المجلد العشرون، ص٧٤٢.

عثمان بن عفان
(٤٧ ق هـ - ٣٥ هـ = ٥٧٧ - ٦٥٦م)

هو عثمان بن عفان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ويجتمع مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف.

ولد فى السنة السادسة بعد عام الفيل.

وشب عثمان على كريم الشيم وحسن السيرة عفيفا حييا محببا فى قومه مأمونا عندهم أثيرا لديهم، حتى إن المرأة من العرب كانت ترقص ولدها قائلة:

أحبك والرحمن   حب قريش عثمان

وقد ورث عثمان عن أبيه ثروة واسعة نماها بعد ذلك بالتجارة

أجاب عثمان دعوة أبى بكر عندما عرض عليه الإسلام فكان بين السابقين الأولين وقد أصهر إليه رسول الله ﷺ بابنته رقية ولما أوذى المسلمون الأوائل على يد قريش هاجر عثمان وزوجه إلى الحبشة ثم هاجرا الهجرة الثانية إلى المدينة المنورة وقد توفيت زوجه غداة انتصار المسلمين فى بدر ثم زوجه الرسول أختها أم كلثوم؛ ومن هنا لقب بذى النورين وكان من كتاب الوحى لرسول الله ﷺ.

وكان عثمان سخى النفس جوادًا بماله فى طاعة الله عز وجل وإعلاء دينه، حتى إنه بذل فى تجهيز جيش العسرة فى غزوة تبوك ألف بعير وخمسين فرسا وجاء بألف دينار نثرها فى حجر المصطفى - ﷺ - فجعل رسول الله يقبلها ويقول: (ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم) مرتين، ويطول بنا المقام لو رمنا بيان بذله وإنفاقه فى سبيل الله، وبجوار سخاء عثمان كان الحياء صفة عرف بها واشتهر حتى قال فيه الرسول ﷺ «ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة».

وعندما ولى عثمان الخلافة كان أحب الناس إلى قريش وذلك لسياسة اللين التى انتهجها بعد عمر - رضي الله عنه - حتى إذا مضى شطر خلافته انحاز رضي الله عنه إلى أقربائه، ولما عوتب فى ذلك قال: «إنى أخذت ما هو لى فقسمته بين أقربائى»[1] غير أن ما طبع عليه من سياسة اللين وخلق الحياء دعا بعض الموتورين وشذاذ الأعراب إلى الشغب عليه حتى أراقوا دمه ظلما وعدوانا وفتحوا باب فتنة لم يغلق، وقد تصدى القاضى عبد

الجبار فى موسوعته المغنى وبالتحديد فى الجزء العشرين لتفنيد ما ادعى عليه من اتهامات باطلة.

وقد ورد فى فضل عثمان - رضي الله عنه - عددٌ من الأحاديث التى تنبىء عن فضله منها.

١ - ما رواه طلحة بن عبيد الله قال : قال النبى - ﷺ - لكل نبى رفيق ورفيقى - يعنى فى الجنة - عثمان(٢).

٢ - عندما حدثت بيعة الرضوان فى عام الحديبية كان عثمان بن عفان رسول رسول الله - ﷺ - إلى أهل مكة فبايع الناس فقال رسول الله: إن عثمان فى حاجه الله وحاجة رسوله فضرب بإحدى يديه على الأخرى فكانت يد رسول الله لعثمان خيرا من أيديهم لأنفسهم(٣).

٣ - كما بشره الرسول ﷺ بالجنة على بلوى تصيبه.

وكان استشهاده عثمان نتيجة لمؤامرة أعد خيوطها أعداء الإسلام الذين ساءهم انتشاره وفتوحاته، وإذا كانوا قد اكتفوا بقتل الفاروق بعمل فردى فإن شأنهم مع عثمان رضي الله عنه قد اختلف، واستطاعوا إثارة الفتنة وحالفهم الحظ بوجود بعض الخلاف فى وجهات النظر بين عثمان وبعض كبار الصحابة الذين رأوا فى بعض تصرفاته مخالفة للخط المثالى فى رأيهم فلم يقدروا خطورة تجمع هؤلاء الناقمين وظنوا أن الأمر مجرد زوبعة سرعان ما تزول.

غير أن الأمر جاء على غير ما يشتهون فانفلت الزمام وقتل الإمام شهيداً لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين بعد خلافة استمرت اثنتى عشرة سنة.

مآثــره :

كان نسخ المصحف وإرساله إلى الأمصار أعظم أعمال عثمان قاطبة، فقد جمع المسلمين على مصحف واحد حينما اختلفت ألسنتهم فى قراءته ووقع بينهم خلاف بسبب ذلك، فأمر بكتابة نسخ منه وتوزيعها على الأمصار، وبذلك أوقف العمل بالرخصة القائمة على جواز القراءة بالأحرف السبعة التى نزل بها القرآن الكريم فى حين بقيت القراءات السبعة التى هى عبارة عن «كيفيات مختلفة وطرق متعددة فى قراءة هذا الحرف الواحد الذى جمع عثمان الناس عليه»(٤).

وقد أقره الصحابة - رضوان الله عليهم - على فعله هذا، يقول الإمام على عندما أخذ عليه فى ذلك: «لاتقولوا فيه إلا خيرا فوالله ما فعل الذى فعله فى المصاحف إلا على ملازمته وموافقتنا ولو لم يضعه هو وكان لى الأمر لصنعته»(٥).

وكان عثمان من المقلين من الفقهاء، وربما كان ذلك بسبب أعباء الخلافة، ومع ذلك فإن

هناك العديد من الآراء الفقهية التى أثرت عنه رضي الله عنه.

١ – موقفه من ضوال الإبل :

فقد كانت الإبل تترك سائبة لايمسها أحد حتى يلقاها صاحبها، فلما خشى امتداد الأيدى إليها أمر بتعريفها ثم بيعها فإذا جاء صاحبها أعطى ثمنها[٦].

٢ – توريث المرأة فى مرض الموت:

فقد رأى توريث المرأة من زوجها الذى طلقها ثلاثا فى مرض موته فرارا من إرثها وذلك معاملة له بنقيض قصده حتى لايتخذ الناس ذلك ذريعة للفرار من إرث الزوجة فهو من قبيل سد الذريعة[٧].

٣ – نهيه عن متعة الحج:

فكان ينهى عن الجمع بين الحج والعمرة وقد اختلف معه (على) إذ قال له: «ياعثمان لقد علمت أننا تمتعنا مع رسول الله»، فقال رجل ولكنا كنا خائفين ويعلق الدكتور محمد سلام مدكور على وجهة نظر عثمان هذه بأن عثمان كان يرى أن الإفراد بالحج أفضل من قرن العمرة بالحج فى عمل واحد فالتمتع فى أيام الرسول كان على سبيل الاستثناء بسبب الخوف، فهو رخصة تقتصر على أوقات الخوف وظروفه من وجهة نظر عثمان، وإن كان المرجع عند جمهور الفقهاء من الصحابة أن الجمع بين الحج والعمرة أفضل لما فيه من زيادة العبادة، ولما روى عن النبى ﷺ فى أفضلية ذلك[٨].

وقد وصف هذه المنقبة الشيخ محمد الصادق عرجون فقال : إذا كان أبو بكر الصديق أول مجدد لأمر الإسلام بأعماله الفذة ومواقفه الخالدة فى أحداث الردة فإن عثمان أول مصلح فى الإسلام قام بأعظم عمل قلد به الأمة الإسلامية أجل المنن التى لا تزال فى عنق كل مسلم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها بجمعه القرآن الكريم وتوحيد المصاحف واجتماع كلمة الأمة فى أقطار الأرض على نص موحد لدستورها المهيمن[٩].

أ.د. عبد الرحمن سالم

الهوامش:

١ – مناهج الاجتهاد فى الإسلام د. محمد سلام مدكور ٥٤٦.
٢، ٣ – رواه الترمذى فى صحيحه جـ١.
٥ – نفس المصدر السابق.
٦ – انظر الموطأ.
٧ – مناهج الاجتهاد ٥٤٨.
٨ – نفس المصدر السابق.
٩ – الخليفة المفترى عليه محمد الصادق عرجون ص ١١٨.

مراجع الاستزادة:

١ – المغنى للقاضى عبد الجبار جـ٢٠.
٢ – الخلفاء الراشدون لعبد الوهاب النجار.
٣ – عصر الخلفاء لعبد الحميد بخيت.
٤ – عثمان بن عفان محمد حسين هيكل.
٥– الخليفة المفترى عليه محمد الصادق عرجون.
٦ – مناهج الاجتهاد فى الإسلام لمحمد سلام مدكور.
٧ – الموطأ للإمام مالك.
٨ – الأعلام للزركلى جـ٤/٤١٠.

العِـراقى
(٧٢٥ - ٨٠٦ هـ = ١٣٢٥ - ١٤٠٤م)

هو الحـافظ الإمـام الكبيـر زين الدين أبو الفـضل عـبـد الرحيم بن الحـسين بن عـبـد الرحمن، العراقى، الكردي.

ولد بمنشـأة المهـرانى بمصـر، فى جمـادى الأولى سنة ٧٢٥هـ.

قـدم أبوه من بلده رازيان من أعـمـال إربل إلى القاهـرة صغيرًا فنشأ بهـا، وخدم عدة من الشيوخ الصالحين، منهم: تقى الدين القنائى، الذى بشره بولادة ابنه عبد الرحيم.

توفى أبوه تقى الدين وهو فى الثـالثـة من عـمـره، فلزم الشـيخ القنائى، وحـفظ القـرآن العظيم وله من العمر ثمانى سنين.

وتوفى الحـافظ العـراقى سنة ٨٠٦ هـ، رحمه الله رحمة واسعة.

أما عن حياته العلميـة فـقـد قـرأ صـحيح مسلم على محـمـد بن إسمـاعيل ابن الخبـاز فى سـتـة مـجـالس مـتـواليـة، وذلك بحضـور الحافظ زين الدين ابن رجب.

كـان إمـامًـا حـافظًا ناقـدًا، قـرأ بـالروايات السبع، وبرع بالحديث متنًا وإسنادًا، وشـارك فى الفـضـائل، وصـار المشـار إليـه فى الديار المصرية بالحفظ والإتقان والمعرفة، وكـان له ذكـاء مـفـرط، وسـرعـة حـافظة، وحـفظ من كتاب «الإلمام» أربعمائة سطر فى يوم واحد.

قـال عنـه القاضى عـز الدين ابن جمـاعـة: «كل من يدعى الحـديث فى الديار المصـرية سواه فهو مدع».

وكـان الشـيخ جـمـال الدين الإسنائى يحث النـاس على الاشـتـغـال عليـه، وعلى كـتـابة مؤلفاته، وينقل عنه فى مصنفاته.

وكـان ـ رحمـه الله ـ وافر الحرمة والمهابة، نقى العـرض، مـاشـيًـا على طريقـة السلف الصالح من المواظبة على قيام الليل.

انتـهت إليـه ريـاسـة الحـديث، ودرّس بعـدة أماكن، وأفتى، وحدّث كثيرًا بالحرمين ومصر والشـام، وأفـاد، وتكلم على العلل والإسناد، ومعانى المتون وفقهها؛ فأجاد.

وقُصِدَ من مشارق الأرض ومغاربها فرُحل إليه للأخذ عنه والسماع الجم الغفير، الكبير منهم والصغير، فلازموه، وانتفعوا به، وكتب

عنه جميع الأئمة من العلماء الأعلام والحفاظ ذوى الفضل والانتقاد.

ويكفى به شرفا أن شيخ الإسلام السبكى ترجمه فى طبقاته حيا، ولم يترجم أحدا فى حياته سواه.

وعدّه بعض العلماء أنه مجدد المائة الثامنة.

ومن شيوخه :

١- عبد الرحيم بن شاهد الجيش.

٢- ابن عبد الهادى.

٣- علاء الدين التركمانى.

٤- شهاب الدين ابن البابا.

٥- أبو الفتح الميدومى.

٦- محمد بن إسماعيل ابن الخباز.

٧- أبو العباس المرداوى.

٨- قاضى القضاه تقى الدين الإخنائى المالكى.

أما عن تلاميذه فمنهم :

١- القاضى عز الدين ابن جماعة.

٢- الحافظ تقى الدين بن رافع.

٣- الشيخ جمال الدين الإسنائى.

٤- ابنه الحافظ ولى الدين أبو زرعة.

٥- الحافظ نور الدين الهيتمى.

ومن أهم مؤلفاته:

١- ألفية مصطلح الحديث.

٢- ألفية فى غريب القرآن.

٣- فتح المغيث بشرح ألفية الحديث.

٤- القرب من محبة العرب.

٥- المغنى عن حمل الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار.

٦- نظم كتاب الاقتراح لابن دقيق العيد.

٧- تكملة شرح الترمذى لابن سيد الناس.

٨- طرح التثريب فى شرح التقريب.

أ.د. أحمد عمر هاشم

مراجع للاستزادة :

١- حسن المحاضرة فى نجوم مصر والقاهرة، للسيوطى.

٢- إنباء الغمر بأبناء العمر، لابن حجر.

٣- طبقات الشافعية، للسبكى.

٤- طبقات الشافعية، للإسنوى.

٥- لحظ الألحاظ بذيل تذكرة الحفاظ، لابن فهد.

٦- ذيل طبقات الحفاظ، للسيوطى.

٧- شذرات الذهب، للعماد.

٨- كشف الظنون، لحاجى خليفة.

٩- معجم المطبوعات العربية والمصرية، لسركيس.

ابن العربى
(٤٦٨ - ٥٤٣هـ = ١٠٧٥ - ١١٤٨م)

هو الإمام العلامة الحافظ القاضى أبو بكر محمد عبدالله بن محمد بن عبدالله المعروف بابن العربى المعافرى الأندلسى الأشبيلى المالكى الحافظ المشهور المستبحر. من أبرز علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها. كان أبوه من فقهاء إشبيلية ورؤسائها.

ولد سنة ٤٦٨هـ الموافق ١٠٧٥م بإشبيلية، وتأدب ببلده، وقرأ القرآءات، ثم رحل إلى مصر، والشام وبغداد ومكة وكان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه والأصول واتسع فى الحديث والرواية وأتقن مسائل الخلاف الكلام. وتبحر فى التفسير وبرع فى الأدب والشعر.

وتوفى سنة ٥٤٣هـ الموافق ١١٤٨م بفارس.

صنف وجمع وأبدع فى فنون العلم، وكان فصيحاً بليغاً خطيباً. متقدما فى المعارف كلها، متكلما فى أنواعها حريصا على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن فى تمييز الصواب منها. وجلس للوعظ والتفسير.

قال القاضى عياض: وهو ممن أخذوا عنه (استقضى ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه، وكانت له فى الظالمين صورة مرهوبة وتؤثر عنه فى قضائه أحكام غريبة ثم صرف عن القضاء وأقبل على نشر العلم - واشتهر اسمه وكان رئيساً محتشماً وافر الأموال بحيث أنشأ على إشبيلية سوراً من ماله - وبلغ رتبة الاجتهاد.

تعرَّض تفسيره لسور القرآن كلها، ولكنه لايتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فيذكر السورة ثم يذكر عدد مافيها من آيات الأحكام. ثم يأخذ فى شرحها آية آية.. وهكذا...

هذا وتفسيره يعتبر مرجعًا مهماً للتفسير الفقهى عند المالكية، وذلك لأن مؤلفه مالكى تأثر بمذهبه، فظهرت عليه فى تفسيره روح التعصب له، والدفاع عنه، غير أنه لم يشط فى تعصبه إلى الدرجة التى يتغاضى فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكى، ولم يبلغ به التعسف إلى الحد الذى يجعله يعتبر كلامهم مخالفة إذا كان وجيهًا ومقبولا. والذى

يتصفح تفسيره يلمس فيه روح الإنصاف لمخالفيه أحيانًا، كما يلمس فيه روح التعصب المذهبى التى تستولى على صاحبها فتجعله يرمى مخالفه بالكلمات المقذعة اللاذعة، تارة بالتصريح، وتارة بالتلويح، ويظهر لنا أن الرجل كان يستعمل عقله الحر، مع تسلط روح التعصب عليه، فأحياناً يتغلب العقل على التعصب فيصدر حكمه عادلاً لا تكدره شائبة التعصب، وأحيانا - وهو الغالب - تتغلب العصبية المذهبية على العقل فيصدر حكمه مشوبًا بالتعسف بعيدًا عن الإنصاف.

وكتاب ابن العربى : يعد مرجعًا أساسيًا عند المالكية وهو كذلك يتعصب لمذهبه وينتصر له.

وإن أردت أن تقف على مبلغ قسوته على أئمة المذاهب الأخرى فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ **الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيمتموهن شيئا ..** ﴾ الآية ٢٢٩. حيث يقول: المسألة الرابعة عشرة: هذا يدل على أن الخلع طلاق، خلافًا لقول الشافعى فى القديم إنه فسخ. وفائدة الخلاف: أنه إن كان فسخًا لم يعد طلقة، قال الشافعى: لأن الله ذكر الطلاق مرتين، وذكر الخلع بعده، وذكر الثالث بقوله تعالى ﴿ **فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره** ﴾.. وهذا غير صحيح لأنه لو كان كل مذكور فى معرض هذه الآيات لايعد طلاقا لوقوع الزيادة على الثلاث لما كان قوله تعالى «أو تسريح بإحسان» طلاقًا: لأنه يزيد به على الثلاث أولا يفهم هذا إلا غبى أومتغاب..».

كان - رحمه الله - شديد النفرة من الخوض فى الإسرائيليات ولذلك عندما تعرض لقوله تعالى فى سورة البقرة ﴿ **إن الله يأمركم** ﴾ فى الحديث عن بنى إسرائيل: كثر استرسال العلماء فى الحديث عنهم فى كل طريق، وقد ثبت عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال - (حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج» ومعنى هذا الخبر الحديث عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم وقصصهم، لا بما يخبرون به عن غيرهم" لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرة إلى العدالة، وللثبوت إلى منتهى الخبر، وما يخبرون به عن أنفسهم، فيكون من باب إقرار المرء على نفسه أو قومه، فهو أعلم بذلك، وإذا أخبروا عن شرع لم يلزم قبوله، وكان كذلك شديد النفرة من الأحاديث الضعيفة، بل ويحذر منها فى تفسيره هذا، فيقول لأصحابه بعد أن يبين ضعف الحديث القائل بأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توضأ مرة وقال: هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به، وتوضأ

مـرتين مـرتين، وقـال: من توضـأ مـرتين مـرتين آتاه الله أجـره مـرتين ثم توضـأ ثلاثا ثلاثا وقال: هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى، ووضـوء أبى إبراهيم، يقـول لهم بعـدمـا يبين ضـعف هـذا الحـديث! وقـد ألقـيت إليكم وصيتى فى كل ورقة ومجلس، أن لا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده....».

له - رحمه الله - مصنفات أخرى منها:

١ - عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى.

٢ - أحكام القرآن.

٣ - المسالك فى شرح موطأ مالك.

٤ - القـبس على شـرح مـوطأ مـالك بن أنس.

٥ - العواصم من القواصم.

٦ - المحصول فى أصول الفقه.

٧ - الناسخ والمنسوخ.

٨ - تخليص التلخيص.

٩ - القانون فى تفسير القرآن العزيز.

١٠ - أنوار الفجر فى تفسير القرآن.

١١ - كوكب الحديث والمسلسلات.

١٢ - الأصناف فى الفقه.

١٣ - أمهات المسائل.

١٤ - نزهة الناظر.

١٥ - ستر العورة.

١٦ - حسم الداء فى الكلام على حديث السوداء.

١٧ - كتاب ترتيب الرحلة للترغيب فى الملة.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة:

١ - وفيات الأعيان ٤/٢٩٦.

٢ - التفسير والمفسرون ٢/١٤.

٣ - سير أعلام النبلاء للذهبى ٢٠/١٩٩/٢٠٢.

٤ - مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ص ٥١.

٥ - طبقات الحفاظ للسيوطى ص ٤٦٧. ط. الاستقلال الكبرى - القاهرة.

ابن عـــربى
(٥٦٠ - ٦٣٨هـ = ١١٦٥ - ١٢٤٠م)

هو محيى الدين بن العربى - الذى اشتهر فى الشـــرق بـ «ابن عـــربى» - أبو بكر، الحاتمى، الطائى، الأندلسى: محمد بن على ابن محمد بن عربى (٥٦٠ - ٦٣٨هـ = ١١٦٥ - ١٢٤٠م)..

أشهر أقطاب التصوف الفلسفى فى تاريخ الحـضـارة الإسـلامـيـة، بل ربما فى تاريخ التصوف الإنسانى على الإطلاق، ولذلك كان لقب «الشيخ الأكبر» علمًا عليه لدى العلماء والدارسين من كل الاتجاهات..

ولد ابن عربى فى «مرسية» ببلاد الأندلس - أسبـانيا حاليًا - فى ١٨ من رمضـان سنة ٥٦٠هـ = ٢٨ من يوليو سنة ١١٦٥م، ثم انتقل منها إلى مدينة أشبيلية الأندلسية فى سنة ٥٦٨هـ = ١١٧٢م، أى وهو فى الثـــامنة من عمره، وفى أشبيلية استقر حوالى الثلاثين عامًا، درس فيها علوم الفقه والحديث، ودرس كذلك فى مدينة سبتة المغربية.

ومن الأندلس والمغـرب شـدَّ ابن عــربى رحــاله إلى بلد المشـرق، فنزل بتـونس سنة ٥٩٥هـ = ١١٩٤م، وبعـد أن أقـام بهـا ثمـانى سنوات غـادرها إلى المشـرق سنة ٥٩٨هـ = ١٢٠٢م، فـتنقل بين عـواصـمـه وحـواضـره ومدنه: مصـر، ثم مكة، وبغـداد - التى زارها أكـثـر من مـرة - سنة ٦٠١هـ = ١٢٠٥م وسنة ٦٠٨هـ = ١٢١١م، ثم عـــاد إلى مكة سنة ٦١١هـ = ١٢١٤م، ثم زار حـلـب، والموصـل، وآسيا الصغرى، إلى أن استقر به المقام فى دمـشق، التى توفى بهـا فى ربيع الثـانى سنة ٦٣٨هـ = أكـتـوبر سنة ١٢٤٠م، حـيث دفن بسفح جبل قيسون.

برز ابن عـربى فى العديد من العلوم، حتى قيل إنه من أئمة المتكلمين فى كل علم، وقيل عنه إنه فى أصـول الفـقـه يميل إلى المذهب الظاهرى، مع إبطاله للتـقليـد، لكن شـهـرته العظمى وأغلب مؤلفاته كانت فى التـصوف، وفى التـصـوف الفلسفى خاصـة، وفيـه نحـا المنحـى البـاطنى والعــرفــانى علـى وجـــه الخصوص.

وبسبب من غموض مضامين مصطلحاته

على كثير من سامعيه وقارئيه ودارسيه، وبسبب من صعوبة مباحثه على غير الخاصة، بل خاصة الخاصة، اختلف دارسوه فى مراده من نظرية «وحدة الوجود». فالذين فسَّروها بـ«الوحدة المادية» كفَّروه، لأن معنى ذلك هو اتحاد الذات الإلهية أو حلولها فى المخلوقات، والذين نفوا أن يكون مراده «الوحدة المادية» - ومنهم جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) - شبهوا هذه الوحدة بظهور الشمس، مثلا، فى المرآة، فهى تتجلى فيها، دون أن يكون هناك اتحاد بينها أو حلول فيها؟!.

لقد بلغت مؤلفات ابن عربى الأربعمائة، وبقى منها مائة وخمسون، أهمها وأجمعها لنظرياته (الفتوحات المكية) و (فصوص الحكم)، وهو فى أسلوبه «فنان» يبلغ الذروة فى عوالم الخيال!..

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١- الفتوحات المكية لابن عربى - طبعة القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢- فصوص الحكم لابن عربى - تحقيق ودراسة: الدكتور / أبو العلا عفيفى - طبعة القاهرة.

العز بن عبد السلام
(٥٧٧ - ٦٦٠هـ = ١١٨١ - ١٢٦٢م)

هو أبو محمد، عز الدين بن عبدالعزيز بن عبد السلام، الشهير بـ «سلطان العلماء»، و«شيخ الإسلام»، ولد بدمشق سنة ٥٧٧هـ = ١١٨١م وتوفى سنة ٦٦٠هـ = ١٢٦٢م، وامتدت حياته من عصر صلاح الدين الأيوبى إلى عصر الظاهر بيبرس - فى الدولتين الأيوبية والمملوكية - وكان شافعى المذهب الفقهى، وأشعرى المذهب الكلامى، ولقد أخذ الفقه والأصول والحديث وغيرها من علوم الشريعة والعربية عن أعلام عصره، وأصبح فيها أبرز مجتهدى عصره، وتتلمذ عليه من بلغ مرتبة «شيخ الإسلام» ابن دقيق العيد.

وكان العصر عصر الاحتلال الصليبى لإمارات عربية فى الشام، وصراعات بين الأمراء الأيوبيين، انحاز فيها والى دمشق «الصالح إسماعيل» إلى الصليبيين ضد سلطان مصر «الصالح نجم الدين أيوب» فتصدَّى له العز، من على منبر الجامع الأموى بدمشق، وهيَّج الأمة ضد خيانته، فعُزِل عن الإفتاء والتدريس والخطابة، واعتقل، حتى اضطر إلى الهجرة إلى مصر، فتولى فيها التدريس بالمدرسة الصالحية، وتولى منصب الإفتاء بمصر، إذ تنازل له عنه الشيخ عبد العظيم المنذرى قائلا: «كنا نفتى قبل حضور الشيخ عز الدين، وأما بعد حضوره فمنصب الفتيا متعين فيه»! وتولى الخطابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص، والإشراف على عمارة المساجد بالدولة، وقاضى القضاة بمصر والوجه القبلى.

ومع عظمة سلطان هذه المناصب التى تولاها العز بن عبد السلام، فإن قيادته للعلماء وللعامة كانت أعظم الوظائف التى تولاها فى عصره، فكان سلطانه «كسلطان للعلماء» أعلى من سلطان «سلاطين الدولة». وعندما كان يغضب من السلطان، فيخرج من القاهرة مهاجراً، يخرج السلطان فى أثره ليسترضيه، ولقد أثرت عنه وقفته فى وجه جور الأمراء المماليك، حتى أفتى ببيعهم؛ لأنهم رقيق لدى الدولة، ووضع أثمانهم فى خزائنها!.

ومع شدته على أمراء عصره، كان شديدا على نفسه فى تطبيق معايير العدل، فلقد أفتى مرة بشىء، ثم ظهر له أنه قد أخطأ فى فتياه، فأخذ ينادى بنفسه على نفسه فى مصر والقاهرة، فيقول: من أفتى له العز بن عبد السلام بكذا فلا يعمل به، فإنه قد أخطأ!.

ولقد بلغ من هيبة سلاطين الدولة لسلطان العلماء «العز بن عبد السلام» ورهبتهم منه الحد الذى جعل السلطان الفارس الظاهر بيبرس يقول عندما رأى جنازة العز تسير من تحت أسوار القلعة: «اليوم استقر أمرى فى الملك!».

وله معارك فكرية ضد أهل الجمود والتقليد، وأهل الشعوذة والخرافة، لا تقل عن معاركه ضد أمراء الجور وظلم السلاطين.

وعلى جبهة الصراع ضد الغزوة الصليبية تواصلت جهوده فى مصر، بعد هجرته إليها من الشام، وكان لجهوده هذه أبلغ الأثر فى التعبئة التى حققت الانتصارات فى معارك «عين جالوت» (٦٥٨هـ ١٢٦٠م)، و«دمياط» (٦١٥هـ ١٢١٨م)، و «المنصورة» (٦٤٨هـ = ١٢٥٠م) ضد الصليبيين.

أما آثاره العلمية والفكرية، فإنها خالدة كمعلم من معالم التراث الإسلامى، فى الفقه، والأصول، والفتيا، والقرآن والحديث وعلومهما، ولقد بقى لنا من هذه الآثار الفكرية ثمانية عشر كتابًا منها:

- التفسير الكبير. مخطوط.
- الإلمام فى أدلة الأحكام. مخطوط.
- قواعد الشريعة. مخطوط.
- الفوائد. مخطوط.
- قواعد الأحكام فى مصالح الأنام. مطبوع.
- بداية السول فى تفضيل الرسول. مطبوع.
- الإشارة إلى الايجاز فى بعض أنواع المجاز. مطبوع.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١- (طبقات الشافعية) للسبكى - طبعة القاهرة - الأولى.

٢- (مسلمون ثوار) للدكتور / محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٨م.

عـزيـز المصـرى
(١٢٩٦ -١٣٨٥هـ - ١٨٧٩-١٩٦٥م)

عـزيز بن على المصـرى: قـائد عـسكرى، أصل أسـرته من البـصـرة وكـانت تعـرف بآل عـرفـات. نزح أحـد جـدوده إلى القـفـقـاس للتـجـارة، وولد له علـى، الذى هـاجـر إلى الاستانة فاقطعه السلطان عبد الحميد أرضاً فى مصـر فـانتقل إليهـا، وبهـا ولد عـزيز عام ١٢٩٦هـ = ١٨٧٩م. وعـاش بالقـاهـرة إلى أن توفى بها عام ١٣٨٥هـ = ١٩٦٥م.

تمثلت فى عزيز المصرى قيم نبيلة متعددة كمـا تمثلت فيـه قدرات عسكرية وسيـاسيـة وإدارية من طراز رفـيع وكـانت حـيـاته من بدايتهـا إلى نهـايتهـا تعـبيـراً عن الجـهـاد بتـوظيف القـدرات الفـائقـة من أجل القـيم النبيلة، وقد نجح فى كثير من مراحل حياته على حين تحول فشله فى المراحل الأخرى إلى وقـود لنجاحـات أكبـر فى مـرحلة لاحقـة من تاريخ أمته، ويكفى على سبيل المثال أن نشير إلى أن عزيز المصرى كان بمثابة الأب الروحى لثـورة يوليـو ١٩٥٢ فى مـصـر ولعـديد من الحركات التحررية فى المنطقة العربية.

كان عـزيز المصرى عسكريا متميزاً ناجحاً درس العـسكرية فـى المؤسـسـة العـسكرية العثـمـانيـة وأظهـر تفـوقـاً مـبكراً فى دراسـتـه العسكرية ثم فى أدائه كضابط شـاب متـميـز بفضل الثقافة والوعى وسعة الأفق، وكان من الذين انتبهوا إلى أن العسكرية وأداءها صورة من صـور الأداء الوطنـى فى المقـام الأول والأخير، وذلك فى مقابل الأغلبية التى كانت تظن العـسكرية وظيـفـة روتينيـة ذات مـزايا فـحـسب، ولم يكن فكره بمعـزل عن الحـيـاة العامة وعن مثاليات الأخلاق، وقد أحس كما أحس بعض زمـلائه من الضبـاط العثـمـانيين فى الامبراطورية المسلحة بأن عليهم دوراً فى إنقـاذ الامـبـراطورية الإسـلامـيـة من حـالة الجمود الفكرى والتعصب التركى والتمسك بأساليب عتيقة فى الحكم والحياة السياسية، ولهذا فإنه مع مجموعات مختلفة من زملائه، ومن خـلال جمعيات متعاقبة كان من طلائع الثوار على الدولة العثمانية ولم تكن ثورته فى إطار السعى للحصول على مقعد الحكم وإنما كـانت مـتوجـهـة فى الأسـاس نحـو الإصـلاح

والتطوير، ولو أن عزيز المصرى وزملاءه كانوا من الذين يستهدفون الوصول إلى مقاعد الحكم لأمكنهم تحقيق هذا منذ مرحلة مبكرة، ولكن مثالياتهم والتزامهم هيأ لهم أن يتصوروا أن بإمكان الدولة العثمانية أن تتعافى من المرض السياسى وأن تتحول إلى نموذج شبيه بالديمقراطيات الغربية التى كانت محيطة بها وبهم، وهكذا فإنه من خلال دراسته فى كلية أركان الحرب العثمانية التقى فكرياً بمجموعة من الساخطين على ما آل إليه نظام حكم السلطان عبد الحميد، وأسهم معهم فى تكوين جمعية «الوطن» عام ١٩٠٦ وهى الجمعية التى تعاونت مع جمعية أخرى أكثر شهرة منها هى «جمعية الاتحاد والترقى» من أجل إقامة دولة عثمانية ديمقراطية ووضع دستور يكفل المساواة لجميع المواطنين العثمانيين، وقد تمكن هؤلاء من القيام بالثورة التركية الأولى فى العصر الجديد فى العاشر من يوليو ١٩٠٨م، ونجحوا فى إجبار السلطان عبد الحميد على إعلان العودة إلى دستور ١٨٧٦م، وأكثر من هذا فقد كان عزيز المصرى أحد القادة البارزين الذين استطاعوا فى إبريل ١٩٠٩م، أن يقمعوا الثورة الرهيبة (أو المضادة) التى قامت على نظام حكمهم الثورى هذا واضطروا فى ذلك الوقت إلى عزل السلطان عبد الحميد وإرساله إلى المنفى وتولية السلطان محمد رشاد الخامس مكانه.

بعد قليل وجد عزيز المصرى وزملاؤه من الضباط العرب أن الاتجاه العنصرى لا يزال يحكم زملاءهم الاتراك الطورانيين الذين شاركوهم فى تحقيق الثورة، ووجدوا أن جماعة الاتحاد والترقى لا تريد أن تتخلى عن النزعة القومية المعادية للعرب على الرغم من صعود دعوة العروبة ونزعات القومية العربية فى مجالات الفكر والأدب وأزدهار مراكز الثقافة العربية فى مطلع القرن العشرين فى القاهرة ودمشق وبغداد والقدس وغيرها من عواصم الولايات العثمانية على حد التعبير المتداول فى ذلك الحين.

هكذا وجد عزيز المصرى نفسه مرة أخرى يقود مجموعة سرية عربية أخرى تنسحب من الاتحاد والترقى لتعمل على تحقيق ما كانت تظنه بمثابة أهداف الأمة العربية التى لم تكن فى ذلك الوقت إلا مجموعة من الشعوب «المنظمة» فى ولايات عثمانية، وبحس السياسى الفطرى الذكى فإن عزيز المصرى قبل التكليف العثمانى بالتصدى لثورة الإمام يحيى فى اليمن، وتمكن بذكاء من أن يعقد الصلح بين الإمام يحيى وبين الدولة العثمانية فى ١٩١١ منطلقا من حرصه على تقوية العناصر العربية فى أطراف الدولة

العثمانية وعدم تبديد قدراتها ومواردها فى مثل هذه الصراعات التى لا يفيد منها أحد.

وتكررت تصرفات عزيز المصرى التى تعبر عن نجاحه فى توظيف قدراته العسكرية من أجل الفكرة العربية حين شارك فى الحرب التركية الإيطالية، وأذاق الإيطاليين صوراً مضيئة من بسالة المقاومة الناجحة، وتمكن من توظيف المقاومة الشعبية الليبية والسنوسية فى قوات شبه نظامية نجحت مع القوات العسكرية العثمانية فى التصدى للقوة العسكرية الإيطالية الجبارة وهو ما أدى إلى الحفاظ للمقاومة الليبية على زخم الندية فى معركة غير متكافئة حتى مع انتهاء الحرب بعقد الحكومة العثمانية (١٩١٢) اتفاقية صلح مع الإيطاليين فى سويسرا، وعلى الرغم من اختلاف الروايات والرؤى حول طبيعة موقف عزيز المصرى من المقاومة الشعبية الليبية متمثلة فى قوات شيوخ القبائل بقيادة عمر المختار وقوات السنوسيين إلا أن عزيز المصرى ترك بصمات واضحة فى نجاحات المقاومة حتى مع التزامه العسكرى بأمر قيادته فى الدولة العثمانية ورفضه تسليم الأسلحة العثمانية للسنوسيين، وهو ما أدى فى النهاية وبحكم طبائع الأشياء، إلى وقوع معركة بينه وبين السنوسيين عاد بعدها إلى الإسكندرية ثم الاستانة فى ١٩١٦، وهنا ينبغى لنا أن نتأمل فى مخاطر المعارك الجانبية التى تفرض نفسها على ذوى الهدف الواحد نتيجة سوء الفهم أو قلة المعلومات أو ردود الأفعال السريعة الناشئة من طبيعة النزعات الثورية المتأججة ومع أن عزيز المصرى لم يكن بريئا تماماً من مثل هذه النزعات قصيرة النظر والنزاعات الناشئة عنها إلا أننا نستطيع أن نتفهم موقفه الحساس وهو الذى كان متهما من الطرفين على حد سواء: فالعثمانيون لا يتجاهلون نزعته العربية الواضحة. والسنوسيون (كعرب محليين) لا يستطيعون تصور ضرورة التزامهم بالكيان الأكبر من أجل تحقيق الهدف القومى على مدى ليس بالبعيد.

وتأتى المرحلة الثالثة من جهاد عزيز المصرى متمثلة فى اشتراكه الفعال فى الثورة العربية التى قادها الشريف حسين شريف مكة مع نهاية الحرب العالمية الأولى وقد كان عزيز المصرى سنداً قوياً لهذه الثورة، وقد شارك فيها من موقع قوة سياسية وعسكرية بارزة الملامح حيث كان زعيما لجمعية العهد التى أسسها مجموعة من الضباط العرب المقاومين للتمييز التركى ضدهم، ويكفى أن نذكر أنه فى أكتوبر ١٩١٣ كان ٣١٥ ضابطاً من مجموع ٤٩٠ ضابطا عربيا فى الجيش العثمانى قد انضموا إلى عزيز المصرى

وجمعيته، وهكذا ألقى القبض عليه فى إبريل ١٩١٤ ووجه إليه الاتهام بأنه يناقض مصلحة الدولة العثمانية ببثه للفكرة العربية بين الأهالى ونصت الاتهامات صراحة على أنه يسعى إلى اقامة دولة عربية يكون بمثابة الرجل الأول فيها.. وبهذه الخلفية الضخمة تحالف عزيز المصرى مع الشريف حسين وخاض معه الثورة التى انتهت بإعلان الشريف حسين ملكًا فى ٢٩ نوفمبر ١٩١٦ وتشكيله حكومة عربية كان عزيز المصرى فيها وزيرًا للحربية ورئيسا لأركان حرب الجيش العربى.. ومرة أخرى عانى عزيز المصرى من الوشايات التى كان من السهل عليها أن تستغل طبيعة وملامح شخصيته الجبارة فى تصويره على نحو ساع للتمرد ذلك أن إمكانات عزيز المصرى كانت تؤهله لأن يكون رجل الدولة الأول لا مجرد وزير دفاع ورئيس أركان.. وهكذا يعود عزيز المصرى إلى مسقط رأسه فى القاهرة فى مارس ١٩١٧ ويبقى عشرين عامًا بعيدًا عن العمل العسكرى، والسياسى المباشر، وإن لم يبتعد عما هو أهم من هذا، وهو تربية أجيال عظيمة شربت منه الوطنية والثورة والعمل العام.

وفى ١٩٣٧ يتاح لمصر بفضل معاهدة ١٩٣٦ أن تبدأ فى تنظيم قواتها المسلحة فتلتفت إلى هذا العسكرى البارز الذى كان قد اكتفى بمنصب مدير كلية البوليس والذى عهد إليه الملك فؤاد بالتربية العسكرية لابنه الملك فاروق.. ويتقلد عزيز المصرى منصب رئيس أركان حرب الجيش المصرى فى ١٩٣٩ وينال رتبة الفريق بعد ما نال رتبة اللواء والباشوية ويمارس عزيز المصرى مرة أخرى دور الأستاذية والأبوية للدفعات التى قامت بثورة ١٩٥٢.

ولم يكن من السهل على بريطانيا مع قيام الحرب العالمية الثانية أن تطمئن إلى عزيز المصرى فى موقع متقدم من الجيش المصرى، وكان هذا هو التفكير الإنجليزى المنطقى. وإن لم يكن يتلاقى بالطبع مع مصلحة مصر، وهكذا ترك عزيز المصرى قيادة الجيش فى ١٩٤٠ وسرعان ما تأكدت الشكوك البريطانية فى مايو ١٩٤١ حين حاول عزيز المصرى وهو فريق متقاعد ورئيس سابق لأركان حرب الجيش المصرى أن يهرب بطائرة حربية مع حسين ذو الفقار صبرى وعبد المنعم عبد الرءوف ليبدأوا أو ليتموا تعاونًا وثيقًا مع القوات الألمانية، ولكن العجلة فى الهرب دفعت إلى خطأ فنى قاد إلى سقوط الطائرة فى قليوب حيث هرب عزيز المصرى وظل هاربًا متخفيًا فى بيت بإمبابة حتى قبض عليه فى ٤ يونيو ١٩٤١ حيث أودع المعتقل

وظل فيه حتى أفرج عنه النحاس باشا فى مارس ١٩٤٢، ولكنه عاد إلى بث الثورة مما دفع قوات التحالف إلى طلب اعتقاله مرة أخرى.

ثم كانت الحرب قبل الأخيرة التى حظيت بنشاط عزيز المصرى وتشجيعه وتخطيطه هى حرب فلسطين ١٩٤٨ حيث تولى تنظيم كتائب المتطوعين فى هذه الحرب وكان معظم هؤلاء المتطوعين من تلاميذه المقربين الذين اختارهم بنفسه وشجعهم على الاستقالة من القوات المسلحة النظامية والانضمام إلى قوات المتطوعين المصريين التى كان لها الفضل فى الحفاظ على جزء كبير من أرض فلسطين والحيلولة دون التهام إسرائيل لأكثر مما التهمته بالفعل.

أما الحرب الأخيرة التى أسهم فيها عزيز المصرى فكانت معارك الفدائيين المصريين فى القناة عام ١٩٥١ وقد بذل عزيز المصرى جهدًا جبارًا فى تنظيم الكتائب المصرية فى هذه المقاومة وكالعهد به فى مغامراته المحسوبة الذكية فقد استغل علاقته بمحافظ القاهرة فى ذلك الوقت فؤاد شيرين باشا واختفى فى منزله وهو المكان الذى لم يكن يدور بخلد السلطات أن تبحث عنه فيه.

وقامت ثورة ١٩٥٢ ورأى رجالها أن لابد من تكريمه وتحييده على نحو يحفظ لهم حقوقهم المادية ويحفظ له حقوقه المعنوية وهكذا اختير له منصبه سفيرًا لمصر فى موسكو على أن يرافقه فى هذا المنصب رجل يحظى بثقة الثوار الجدد.. وكان هذا الرجل هو مراد غالب الذى أزال مؤخرًا الغموض والالتباس حول طبيعة دوره وعلاقته بعزيز المصرى.

وليس من العجيب أن هذا الرجل ولد فى العام الذى ولد فيه النحاس باشا (١٨٧٩م) ومات فى العام نفسه الذى مات فيه النحاس باشا (١٩٦٥م) وقد مثلت حياة الرجلين الزعيمين المثلى العليا لمسارين وطنيين بارزين فى الحياة القومية والوطنية. تكاملاً ولم يتعارضا حتى وصلت مصر بفضل ممارساتهما الذكية العاقلة إلى استقلالها الذى اكتمل لأول مرة حين رفع العلم المصرى على طابا بعد معارك مشرفة على جميع المستويات.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - دكتور. محمد عبد الرحمن برج: عزيز المصرى والحركة العربية.
٢ - دكتور. محمد الجوادى: عظماء المصريين «مجلة روزاليوسف».
٣ - عزيز على المصرى وصحبه : صبرى أبو المجد.
٤ - فؤاد نصحى : الفريق عزيز على المصرى.
٥ - مذكرات عبد المنعم عبد الرءوف، ومذكرات حسين حمودة، ومذكرات عبد العزيز على - الثائر الصامت، ومذكرات محمد مراد غالب.

ابن عساكر
(٤٩٩ - ٥٧١هـ = ١١٠٥ - ١١٧٦م)

هو على بن الحسن بن هبة الله بن الحسن بن عبد الله بن الحسين الدمشقى الشافعى، أبو القاسم، ثقة الدين، المعروف بابن عساكر، محدث، حافظ، فقيه، مؤرخ، رحَّالة، وهو من أعلام القرن السادس الهجرى.

ولد فى دمشق فى شهر المحرم عام ٤٩٩هـ الموافق ١١٠٥م، وتوفى بدمشق فى ١١ من رجب عام ٥٧١ الموافق ١١٧٦م.

كان من كبار فقهاء الشافعية، غلب عليه الحديث فاشتهر به، وجمع فيه ما لم يتفق لغيره، وكان محدِّث الديار الشامية، وطوَّف البلاد وجابها، ولقى المشايخ، وكان رفيقًا للحافظ أبى سعيد عبد الكريم السمعانى فى الرحلة، وكان ديِّنًا، جمع بين معرفة المتون والأسانيد، وصنَّف التصانيف المفيدة، وخرج التخاريج.

رحل إلى العراق سنة ٥٢٠هـ، فسمع من أصحاب التنوخى والبرمكى والجوهرى، ثم رجع إلى دمشق، ومنها توجه إلى مكة، والمدينة، والكوفة، وأصبهان، ومرو، ونيسابور، وهراة، والجبال، وسرخس، وأبيورد، وطوس، والرى، وزنجان، وغيرها من أمهات بلدان ومدن فارس، حيث سمع من عدد من الشيوخ والنساء، يقول ياقوت: إن عدة شيوخه ١٣٠٠، ومن النساء بضع وثمانون امرأة، وحدَّث ببغداد ومكة ونيسابور وأصبهان، وسمع منه جماعة من الحفَّاظ ممن هم أسنّ منه.

وأسرة الرجل لا تحمل اسم «ابن عساكر» ولكنه لقب نُبِذ به، وأثبته ابن الجوزى، فاستمر عليه، وكانت الأسرة معروفة فى دمشق بالعلم والحديث والفقه فى المذهب الشافعى، وقد أصهرت إلى أسرة مثلها فى ذلك هى أسرة القرشى، فابن عساكر سليل الأسرتين، وقد بدأ الاستماع للعلم وهو بعد فى السادسة من العمر، وظل يطلبه حياته كلها فى دمشق ثم فى بغداد، ثم فى مكة والمدينة وغيرها من مدن العراق والجزيرة وفارس، وعاد إلى دمشق للمرة الأخيرة سنة ٥٣٣هـ، وقد وعى كل ما لدى علماء العالم

الإسلامى وأصبح مدرسًا فى المدرسة النورية بدمشق، وجلس يحدِّث نحو أربعين سنة، حتى الوفاة، وقصده طالبو العلم من كل فج.

وخلال التدريس كتب ابن عساكر الكثير، ولكنه منذ أيام الدراسة كان يدارى مشروعًا فى خاطره لتاريخ دمشق، يضاهى به عمل الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد، وقد شرع فيه ثم توقف، ثم سمع أن الأتابكى نور الدين ابن زنكى مهتم بهذا المؤلف، وبإنجازه؛ فأنجزه.

منهج ابن عساكر فى كتابه تاريخ دمشق :

جاء الكتاب فى نحو ثلاثين مجلدًا، تبلغ صفحاتها نحو ١٦ ألف صفحة، صرف فى تأليفها وجمع مادتها ما يزيد على ثلاثين سنة - منذ نحو ٥٢٩هـ حتى ٥٥٩هـ.

وقد خصَّص ابن عساكر المجلد الأول لذكر فضائل دمشق، وبعض المجلد الثانى لدراسة خططها ومساجدها وحماماتها وأفنيتها وكنائسها، ثم أخذ فى الترجمة لكل من نبغ من أبنائها، أو دخلها من غيرهم، أو اجتاز بنواحيها من الخلفاء والولاة والقضاة والعلماء والقراء والنحاة والشعراء والرواة، وقد تتسع حلقة دمشق فى خاطره لتشمل الشام أحيانًا، فيترجم لكل من كان فى صيدا أو حلب، أو بعلبك، أو الرقة، أو الرملة.

وابن عساكر حافظ محدِّث، ومن هنا فإن منهجه هو منهج المحدِّثين من حيث ذكر السند وإن طال أو تعدد، ثم ذكر الخبر، أى أنه نقل رواياته بالأسانيد المتصلة إلى النبى ﷺ والصحابة والتابعين، وأسانيده هذه فيها الصحيح والحسن والضعيف بأنواعه، فلا تؤخذ دون بحث أو نظر، وقد اعتمد ابن عساكر على كتب السابقين وخصوصًا كتب الحديث، وهو يبين ذلك كله.

وقد اتبع فى التراجم الترتيب الأبجدى الدقيق، غير أنه بدأ بمن اسمه «أحمد» تيمنًا باسم الرسول ﷺ، وأنهى الكتاب بمجلد يحوى من عرف بكنيته فقط، ومن ذكر بنسبه، ومن لم يسم فى روايته، ثم النساء والإماء والشواعر، ولا شك أن هذا المنهج فى التأريخ على دقته يضخم من حجم الكتاب جدًا؛ بالحرص على ذكر الإسناد، خاصة وابن عساكر يكرره عند أى اختلاف يسير فى الخبر أو كلماته، كما أن ابن عساكر لم يتبع نظامًا واحدًا فى إيراد الترجمة، فلا الوفاة ولا الدراسة ولا المؤلفات لها مكانها الخاص فى حياة أصحاب التراجم، فالعمل الأوضح فى الكتاب هو الجمع الواسع المحيط، وخاصة إيراد الأحاديث بسندها.

والمجلد الأول - كما أشرنا - مخصص لسيرة النبى ﷺ وهو من أنفع الكتب، لم

يكتب فى السيرة النبوية مثله؛ لأنه يسوق الأخبار ويذكر من خرَّجها من المحدثين، وكثيرًا ما يتكلم على أسانيدها وينقدها نقد العالم البصير، فالرجل من الحفّاظ الكبار، بل هو حافظ الإسلام فى عصره، وكتابه لا يخلو من روايات تفرَّد بها دون غيره.

وجدير بالذكر أن الشيخ عبد القادر بدران قد اختصر تاريخ ابن عساكر، فحذف الأسانيد ووحَّد المكرر، وطبع منه سبعة مجلدات فى مطبعة روضة الشام ١٣٢٩هـ، وغير معروف هل اختصر الكتاب كله أم بعضه فقط؟

مصادر ابن عساكر فى تاريخ دمشق:

اعتمد ابن عساكر فى جمع مادته على ثلاثة أنواع من المصادر: السماع من الشيوخ أولا، ثم المكاتبة معهم، ثم الكتب المخطوطة ومؤلفات السابقين.

وكانت هذه المصادر من الكثرة بحيث إنه لا يمكن استعراض المجلدات كلها تفصيلاً لإحصاء المصادر عددًا، ويكفى أن نعرف أن المجلد الأول أخذ عن ١٥٦ شيخًا بالسماع والإنباء، وعن ١٦ شيخًا بالمكاتبة، وعن تعليقات بخطوط تسعة من الشيوخ منها أربعة عشر كتابًا مخطوطًا، من بينها: البلاذرى، والواقدى، والبخارى، والجهشيارى، والقشيرى، وابن خرداذبه.. وأهم ما صنعه ابن عساكر أنه حفظ بمؤلفه هذا المصادر والكتب التى ألَّفها الدماشقة وغيرهم حول تاريخ دمشق فى عصور سابقة وتعرَّضت للضياع، وإذا كانوا يُشَبِّهون «الطبرى» بمعدة بلورية عظيمة تكشف عن ماهية كل غذاء بداخلها، فكتاب ابن عساكر من النوع نفسه، وعلى كل خبر اسم أو أسماء أصحابه.

وتاريخ ابن عساكر ما يزال إلى اليوم مخطوطًا موزع الأجزاء بين المكتبات المختلفة فى دمشق والقاهرة وإستانبول والهند وغيرها[1]، لم يطبع منه سوى الجزء الأول وبعض الثانى والجزء العاشر سنة ١٣٢٩هـ، ١٣٣٠هـ، بمباشرة المجمع العلمى العربى بدمشق من بين ١٨ مخطوطًا تجمع كافة مجلداته القديمة: الثمانين. وقد اقتطف من هذا الكتاب إسماعيل بن محمد الجراح العجلونى المتوفى عام ١١٦٢هـ = ١٧٤٩م، وهذا المقتطف مخطوط فى «توينكن»[2].

وهناك ابن عساكر (الابن) بهاء الدين أبو محمد القاسم بن على الدمشقى المتوفى سنة ٦٠٠هـ = ١٢٠٤م، وقد كتب ذيلاً على تاريخ أبيه عنوانه «ذيل تاريخ دمشق»، كما كتب كتابين فى الفضائل: فضائل المدينة، وفضائل الجهاد، وله أيضًا «الجامع المستقصى فى فضائل المسجد الأقصى»،

وهو أحد المصدرين الأساسيين اللذين اعتمد عليهما أو استقى منهما «ابن الفركاح» كتابه «باعث النفوس».

وقد اختصر ابن عبد الدائم أبو العباس زين الدين أحمد بن عبد الدائم بن نعمة المقدسى الحنبلى الصالحى، (ولد بنابلس ٥٧٥هـ وتوفى بدمشق ٦٦٨هـ، ودرس فى الشام وبغداد وحران..). اختصر تاريخ ابن عساكر فى كتاب سماه «فاكهة المجالس وفُكاهة المجالس»، ومنه نسخة بخط المؤلف فى «إستانبول»، لها مصورة فى المجمع العلمى العربى بدمشق.

كذلك كتب حمزة بن أسد بن على بن محمد التميمى الدمشقى، الأديب، المؤرخ، الشاعر، والمعروف بأبى يعلى ابن القلانسى، ذيلاً على تاريخ دمشق عنوانه «ذيل تاريخ دمشق».

مؤلفاته :

- تاريخ دمشق، وهو ليس كتاب ابن عساكر الوحيد فى التاريخ، فبين مؤلفاته التى تبلغ الأربعين، ثلاثة عشر مؤلفا آخر فى التاريخ، بعضها فى تاريخ المدن الخمسة: القدس، ومكة، والمدينة المنورة، والخليل، وعسقلان، وبعضها فى المعاجم، وهى أربعة: معجم الشيوخ، وهو نبذ عن مشاهير الرجال وخاصة الشافعية، وله ذيل هو «كتاب الوهم» لمحمد بن عبد الواحد المقدسى المتوفى عام ٦٤٣هـ = ١٢٤٥م[٣]، ومعجم الشيوخ والنبلاء، ومعجم من أجازهم، ومعجم النساء، والمعجمان الأولان مخطوطان حتى الآن.
- الإشراف على شرح الأطراف، فى ٤٨ جزءًا.
- الموافقات، فى ٧٢ جزءًا.
- تهذيب الملتمس من عوالى مالك بن أنس فى ٢١ جزءًا.
- تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى أبى الحسن الأشعرى، وهو مطبوع.
- كشف المغطّى فى فضل الموطأ، وهو مطبوع.
- تبيين الامتنان فى الأمر بالاختتان، وهو مطبوع.
- أربعون حديثًا من أربعين شيخًا من أربعين مدينة.
- معجم الصحابة.
- معجم أسماء القرى والأمصار التى حدَّث فيها ابن عساكر.
- الإشراف على معرفة الأطراف، وهو ثلاثة مجلدات فى الحديث ولا يزال مخطوطًا.

- شيوخ ابن البناء.

- شيخ الحلوانى.

بهذا الجهد الهائل، كان ابن عساكر قمة من قمم التاريخ الشامى والإسلامى والثقافة الإسلامية.

أ.د. عبد الله محمد جمال الدين

الهوامش:

١ - بيانات هذه الأجزاء وأرقامها موجودة فى مقال دائرة المعارف الإسلامية عن ابن عساكر.

٢ - انظر المجلة الأسيوية عام ١٨٩٤ - ١٨٩٦م، ومقال بروكلمان فى دائرة المعارف الإسلامية عن ابن عساكر.

٣ - منه نسخة بمكتبة المتحف البريطانى - فهرس الكتب الشرقية رقم ٧٧٣٥، كذلك بقى للمؤلف قطع من كتابه «الأمالى» بدمشق رقم ٥ ص ٢٩ فهرس الزيات.

مراجع للاستزادة:

١- الذهبى : الإعلام بوفيات الأعلام ١/٢١٠ «مخطوط».

٢- الذهبى : تذكرة الحفاظ ١١٨ - ١٢٣.

٣- الصفدى : الوافى بالوفيات ١٢/٣٥ - ٣٨.

٤- ابن الجوزى : المنتظم ١/٢٦١.

٥- ياقوت : معجم الأدباء ١٣/٧٣ - ٨٧.

٦- ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ٦/٧٧.

٧- دائرة المعارف الإسلامية مادة «ابن عساكر».

٨- اليافعى : مرآة الجنان ٣/٣٩٣ - ٣٩٦.

٩- ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/٢٩٤.

١٠- النعيمى : الدارس: ١/١٠٠ - ١٠١.

١١- أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر ٣/٦٢.

١٢- البغدادى : إيضاح المكنون ١/٢٢٤.

١٣- البغدادى : هدية العارفين ١/٧٠١ - ٧٠٢.. وغير ذلك.

وهناك العديد من المقالات عن ابن عساكر، ذكر مواضعها «عمر رضا كحالة» فى معجم المؤلفين ٧/٦٩- ٧٠.

ابن عطاء الأدَمى

(٠٠٠ - ٣٠٩هـ = ٠٠٠ - ٩٢١م)

هو أبو العباس، أحمد بن محمد بن سهل ابن عطاء الأدَمىِ، نسبة إلى الأدَم، جمع أديم، وهو الجلد.

لم تحدد المصادر التى اطلعنا عليها تاريخ مولده.

أحد كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم، الجامعين بين الظاهر والباطن، والعلم والعمل، كما وصفه بذلك أقرانه ومعاصِروه من الصوفية، ثم الذين ترجموا له من المؤرخين، وهو أحد أعلام القرن الرابع الهجرى.

كان ابن عطاء الأدَمىِ من القانتين، الموصوفين بالاجتهاد فى العبادة، وكثرة الدَّرْس للقرآن، وطول الصحبة له. وقد حُكيت عنه، فى هذا الشأن، حكاياتٌ، لا تخلو من مبالغة، ولكنها تكشف عن جانب من جوانب شخصيته ومجاهداته الروحية، فقد قيل: إنه كان ينام فى اليوم والليلة ساعتين، وإنه كان له فى كل يوم خَتْمة للقرآن الكريم، وكان له فى شهر رمضان ثلاث ختمات فى كل يوم وليلة.

وكان يجمع فى صحبته للقرآن بين التلاوة والتدبر؛ فلقد كان له - إلى جانب ما سبق - ختمة أخرى - يستنبط فيها ما يَمْتَنُّ الله به عليه، مما أُودع فى القرآن من الأخلاق والأذواق والأسرار والأنوار، وقد ظلَّ فى هذه الختمة بضْع عشرة سنة، ثم مات قبل أن يختمها، سنة تسع وثلاثمائة هجرية.

وقيل: إحدى عشرة وثلاثمائة.

وكان من أسباب هذه الصلة الحميمة بالقرآن، أنها تُحقق له سلامة الصدر، وبرد الرضا، ونور اليقين، وتعرفه بأدب العبودية، وتدفعه إلى تعظيم حق الربوبية.

وأثمرت هذه الصلة ثمرتها فيما كان له من ذوق خاص، فى فهم القرآن الكريم، فكان له لسان خاص فى فهم القرآن يختص به.

وقد وصفه أبو نعيم بأنه كان «كثير الحديث»، ولكنه لم يَرو له: إلا حديثًا واحدًا مسندًا.

ويبدو أن ابن عطاء كانت له صلة وثيقة بعلوم أخرى من علوم عصره، ذلك العصر، الذى كان يتَّسم بالموسوعية، ويأنف أهل العلم فيه من الوقوع أسْرى للتخصص الدقيق، الذى اضطر إليه العلماء - فيما بعد - لأسباب

متعددة، ثم إنه يتسق ـ من جهة ثانية ـ مع المكانة التى كانت لابن عطاء بين أقرانه من الصوفية، فكانت له مجالس يلتقى فيها مع تلاميذه ومريديه، ولعل هذه النزعة الموسوعية فى ثقافته كانت ملحوظة فى وصف بعض المتأخرين له بأنه «كان مُفتياً فى علوم الشريعة والحقيقة..».

وعلى الرغم من هذا التنوع وهذه الموسوعية، يبقى التصوف هو المجال الأهم الذى انتسب إليه، واشتهر به ابن عطاء، فجعله الكلاباذى فى مقدمة الذين أقاموا صَرْح التصوف، وعرَّفوا بقضاياه، ونشروا علومه، كما أشار الكلاباذى إلى أن له بعض المؤلفات الصوفية، ومنها الكتاب الذى سمَّاه ـ الكلاباذى ـ «عودة الصفات وبدئها».

وإذا كانت كتب ابن عطاء قد فُقِدت، ومراسلاته لم يبق منها إلا أقل القليل. فإن ما بقى من أقواله يكفى لتقديم صورة عنه، وإن تكن موجزة لآرائه عن التصوف، فى جوانبه المختلفة، ويمكن أن نشير إلى شىء من ذلك فيمايلى:

يقوم التصوف ـ عند ابن عطاء ـ على ركنين متكاملين: يتعلق أولهما بالنفس، ويتعلق ثانيهما بالله تعالى.

والكرامة ـ عنده ـ كرامتان: معرفة واستقامة. فالمعرفة نور يستضىء به القلب، ويزكو العقل، وهى نوع من العلم اللَّدُنىِّ الذى يمنحه الله تعالى لأهل طاعته ومحبته، وقد بيَّن ابن عطاء أن هذا النوع من المعرفة مشروط بمقدِّماته من متابعة آداب الشريعة، وملازمة التقوى، فمن ألْزم نفسه آداب السُّنة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة.

لكن ابن عطاء كان حريصا على نصح أهل هذا العطاء بألا يركنوا إليه، بل ينبغى لهم أن يزهدوا فيه، وأن يعزفوا عنه، وأن تنصرف هِمَمُهُم إلى ما هو أعظم من ذلك وأكرم، وهو ما يُسمى عند الصوفية بالكرامات المعنوية كالطاعة والاستقامة.

وتتضمن أقوال ابن عطاء جوانب نظرية كحديثه عن التوحيد، وما يرتبط به من فناء، وما يتعلق به من نظر إلى الأسباب، وهى أقوال تكتمل بها ملامح هذه الصورة الموجزة التى نقدمها له، كما أنها تسهم مع أمثالها من أقوال غيره من الصوفية فى إعطاء صورة دقيقة للتصوف فى عصره.

ويبدو أن ابن عطاء كان يتجه وجهة الرمز فى بعض حديثه عن مسائل التصوف وقضاياه، وبسبب لجوئه إلى هذه النزعة الرمزية جعله الكلاباذى ضمن الصوفية الذين نشروا علوم الإشارة ولهذا احتاجت بعض أقواله إلى شرح وتفسير.

أ.د. عبد الحميد مدكور

مراجع للاستزادة :

١ ـ طبقات الأولياء لابن الملقن تحقيق نور الدين شريبة ص ٥٩ .

٢ ـ طبقات الصوفية للسلمى ص ٢٦٥ .

٣ ـ حلية الأولياء لأبى نعيم حـ١٠/٣٠٢ ـ ٣٠٥.

٤ ـ صفة الصفوة جـ٢/٢٥٠.

٥ ـ الرسالة القشيرية ٣١.

٦ ـ الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١/١١١.

٧ ـ تاريخ بغداد جـ٥/٢٦.

٨ ـ المنتظم لابن الجوزى جـ١/٣٦٠.

ابن عطاء الله السكندرى
(٠٠٠ - ٧٠٩هـ = ٠٠٠ - ١٣٠٩م)

هو الإمام أبو العباس: أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن عيسى بن الحسين بن عطاء الله السكندرى داراً، الجذامى نسباً، المالكى مذهبا، الصوفى مشربا. وكنيته : أبو الفضل، وأبو العباس، تاج الدين، أحد أعلام القرن السابع الهجرى.

كان عالمًا فقيهًا متكلمًا زاهدًا، جمع بين رئاسة علوم الشريعة، ورئاسة علوم الحقيقة وكان متشرعا، بل رأس علماء الشريعة، وعلماء الحقيقة.

توفى عام ٧٠٩هـ الموافق ١٣٠٩م.

لم تذكر المصادر المتاحة سنة مولده، وإنما تحدثت عن حياته ونشأته، وأنه تبحَّر فى دراسة جميع العلوم من تفسير وحديث وفقه وتصوف وعقيدة وأصول ونحو ولغة وبلاغة، كما تنقل فى طلب العلم بين القاهرة والإسكندرية ودرس على كثير من علماء عصره. كما كان أعجوبة زمانه فى التصوف، متكلما على طريقة أهل التصوف، واعظًا انتفع به خلق كثير، وسلكوا طريقه، وكان شاذلى الطريقة ينتمى إلى أبى الحسن الشاذلى، وأخذ طريقه عن أبى العباس المرسى عن الشيخ أبى الحسن.

ويرجع سبب دخوله للتصوف إلى أمر عجيب، وهو أنه كان فى بداية حياته من المنكرين للتصوف، المعترضين عليه.

وقد ذكر ابن عطاء الله ذلك بنفسه فى كتابه «لطائف المنن فى مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن» فقال :

«كنت لأمره - أى الشيخ أبى العباس - من المنكرين، وعليه من المعترضين، لا لشىء سمعته منه، ولا لشىء صح نقله، ولكن جرت المخاصمة بينى وبين أصحابه، فقلت فيهم قولا عظيما، ثم قلت فى نفسى : دعنى أذهب أنظر هذا الرجل، فصاحبُ الحق له أمارات لايخفى شأنه.. فأتيت إلى مجلسه.. فوجدته يتكلم فى الأنفاس، ومسألة السالكين إلى الله، ومدى معرفتهم به، وقربهم منه، فقال : الأول: الإسلام، وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسم الشريعة. وثانيها : الإيمان، وهو : مقام معرفة حقيقة الشرع بمعرفة

لوازم العبودية. وثالثها : الإحسان، وهو : مقام شهود الحق تعالى فى القلب. وإذا شئت قلتَ: الأول عبادة، والثانى عبودية، والثالث عبودة. وإن شئت قلت : الأول شريعة، والثانى حقيقة، والثالث تحقق، فمازال يقول: وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، وإن شئت قلت، إلى أن بهر عقلى وسلب لُبّى، فعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهى، ومدد ربانى، فأذهب الله ما كان عندى، ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل، فلم أجد فىَّ شيئًا يقبل الاجتماع بالأهل على عادتى، ووجدت معنى غريبا لا أدرى ما هو؟! فانفردت فى مكان أنظر إلى السماء وكواكبها، وما خلق الله فيها من عجائب قدرته، فلمس قلبى أشياء لم أعرفها من قبل، فحملنى ذلك على العودة إليه مرة أخرى، فأتيت إليه فاستؤذن لى عليه، فلما دخلت إليه قام قائما، وتلقانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلاً، واستصغرت نفسى أن أكون أهلاً لذلك، فكان أول ما قلت له: ياسيدى أنا والله أحبك، فقال : أحبَّكَ الله كما أحببتنى. ثم شكوت إليه ما أجده من همومٍ وأحزان، فقال: أحوال العبد أربع لا خامس لها : النعمة، والبليَّة، والطاعة، والمعصية.

فإن كنت فى النعمة فمقتضى الحق منك الشكر، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك الصبر، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار. فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبًا نزعته.

ثم سألنى بعد ذلك بمدة : كيف حالك؟ فقلت : أفتش عن الهمِّ فلم أجده، فقال :

ليلى بوجهكَ مشرقٌ

وظلامه فى الناس سارى

والناس فى سدف الظلام

ونحن فى ضوء النهار

إلزم، فوالله لئن لزمتَ لتكونن مُفْتِيًا فى المذهبين : فى علوم الظاهر، وحقائق الباطن.

ولازم ابن عطاء الله أستاذه، ثم كان من بعده شيخ الطريقة الشاذلية.

كان ـ رحمه الله ـ ممن جنّد نفسه وقلمه للدعوة إلى الله على بصيرة فكتب كثيرًا من الدرر والآثار التى تدل على أصالة مذهبه وعمق فكرته، وقوة إيمانه، وشدة إخلاصه لله عز وجل، وإليه ينسب الفضل الكبير فى بيان ما ينشر الآن من آثار الشيخ أبى العباس المرسى، وفى بيان الكثير أيضا عن الإمام أبى الحسن الشاذلى ـ رحمه الله.

ثم كان بعد ذلك مثالاً عاليًا للفكر الصوفى المستنير، الذى يضع ابن عطاء الله فى الصف

الأول من صفوف المقربين.

قــال عنه الحــافظ الذهبـى : وكــانت له خلال عجيبة، وَوَقْعٌ فى النفوس، ومشاركة فى الفضائل، ورأيت الشيخ تاج الدين الفاروقى، لما رجع من مصر، مُعظِّمًا لوعظه وإشارته، وكان يتكلم بالجامع الأزهر، يمزج كلام القوم بآثارٍ عن السلف، وفنون من العلم. فكثــر أتباعه وكان عليه سيمات الخير، ويقال: إن ثلاثة قصدوا مجلسه فقال أحدهم: لو سلمت من العائلة لتجردت، وقال الآخر : أنا أصلى وأصوم ولا أجد من الصلاح ذرَّة فى قلبى، فقال الثالث : إن صلاتى ما ترضينى، فكيف ترضى ربى؟

فلما حضروا مجلس ابن عطاء الله.. قال فى أثناء كلامــه : ومن الناس من يقــول : فأعاد كلامهم بعينه.

وله مؤلفات عديدة منها :.

١ - التنوير فى إسقاط التدبير.

٢ - لطائف المنن فى مناقب أبى العبــاس المرسى وشيخه أبى الحسن.

٣ - القول المجرد فى معرفة الاسم المفرد.

٤ - تاج العروس فى تهذيب النفوس.

٥ - مفتاح الفلاح فى كيفية السلوك والخلوة والذكر.

٦ - عنوان التوفيق شرح قصيدة أبى مدين التلمسانى.

٧ - الحكم العطائية. وهى من أشهر ما كتبه ابن عطاء الله، وقد قام بشرحها كثير من العلماء فى القديم والحديث ومنهم : ابن عجيبة، وابن عباد النقرى، والشيخ الشرقاوى، والشيخ الشرنوبى، والشيخ زرُّوق وغيرهم، وجميع هذه المؤلفات مطبوعة ومتداولة.

أ.د. عبد الحليم محمود «بتصرف»

مراجع للاستزادة :

١ - الأعلام الزركلى ١/٢٢١.

٢ - البدر الطالع للشوكانى ١/١٠٧.

٣ - حسن المحاضرة للسيوطى ١/٤٥٣.

٤ - شذرات الذهب لابن العماد ٦/١٩-٢٠.

٥ - الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون المالكى. تحقيق : د. محمد الأحمدى أبو النور. ١/٢٤٢.

٦ - طبقات الشاذلية الكبرى. للحسن بن محمد الفاسى ص ٩٧.

٧ - غيث المواهب العلية شرح الحكم العطائية لابن عباد النقرى تحقيق : د. عبد الحليم محمود و د. محمود بن الشريف ١/٣٧.

ابن عطيــة الأندلــسى
(٤٨١هـ - ٥٤٢هـ = ١٠٨٨م - ١١٤٨م)

هو الإمام العلامة شيخ المفسرين أبو محمد عبد الحق بن الحافظ أبى بكر غالب ابن غالب بن عطية المحاربى الغرناطى.

ولد عام ٤٨١هـ الموافق ١٠٨٨م وتوفى عام ٥٤٢هـ الموافق ١١٤٨م.

وقد أثنى عليه العلماء فيقول عنه الإمام الذهبى بأنه : إمام علامة، شيخ المفسرين، حافظ، وكان إمامًا فى الفقه وفى التفسير وفى العربية، قوى المشاركة، ذكيًا فطنًا مدركًا، من أوعية العلم.

وُلِّىَ القضاء بمدينة المرية، وكان غاية فى الدعاء والذكاء والفهم بالعلم.

ولما وُلِّى القضاء توخَّى الحق وعدل فى الحكم.

نشأ ابن عطية فى بيت علم وفضل.

فأبوه: إمام حافظ، وعالم جليل، رحل فى طلب العلم، وتفقه على العلماء.

وكان هو: غاية فى الذكاء، وحسن الفهم، وجلالة التصرف، شغوفًا باقتناء الكتب، وعلى مبلغ عظيم من العلم.

وصفه أبو حيان فى مقدمة البحر المحيط بأنه: أجلّ من صنف فى التفسير، وأفضل من تعرَّض فيه للتنقيح والتحرير.

أما أهم مؤلفاته على الإطلاق وأشهرها فتفسيره المعروف بـ «المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز» وهو كتاب له قيمته العالية بين كتب التفسير، وعند جميع المفسرين.

وذلك: راجع إلى أن مؤلفه أضفى عليه من روحه العلمية الفيَّاضة ما أكسبه دقة، ورواجًا، وقبولاً.

وقد لخَّصه - كما يقول ابن خلدون فى مقدمته - من كتب التفاسير كلها - أى تفاسير المنقول - وتحرَّى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسن المنحى.

يقول الذهبى: وقد أحسن فى هذا التفسير وأبدع، حتى طار صيته كل مطار، وصار أصدق شاهد لمؤلفه بإمامته فى العربية، وغيرها من النواحى العلمية المختلفة.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة :

١ - هدية العارفين ص ٥٠٢ .
٢ - شجرة النور الزكية ١/١٢٩ .
٣ - الأعلام للزركلى ٣/٢٨٢.
٤ - بغية الملتمس للضبى ص ٣٧٦ .
٥ - سير أعلام النبلاء ٩/٥٨٧ .
٦ - التفسير والمفسرون ١/٢٢٨ .
٧ - الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب.
٨ - طبقات المفسرين للداودى ١/٢٦٠، ٢٦١ .
٩ - البحر المحيط ١/٩ .
١٠- مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١ .

على أحمد باكثير
(١٣٢٨-١٣٨٩هـ = ١٩١٠-١٩٦٩م)

على بن أحمد باكثير: ولد فى سورابايا (بأوندنيسا) من أبوين عربيين عام ١٣٢٨هـ الموافق ١٩١٠م، وتوفى بالقاهرة عام ١٣٨٩هـ الموافق ١٩٦٩م.

من أبرز أدباء القرن العشرين، أديب موهوب مطبوع دارس مجدد ومجود سليم الفطرة إسلامى النزعة، وأرسل إلى وطنه حضر موت وهو صغير لينشأ فى وطن أبائه، وهى عادة الحضارمة فى المهجر، وتزوج مبكراً ولكن زوجته توفيت مبكراً، فالتمس السلوى فى الهجرة انتقل إلى الصومال والحجار ثم استقر فى القاهرة، ودرس فى كلية الآداب جامعة القاهرة فى قسم اللغة الإنجليزية وتخرج (١٩٣٨) والتحق بمعهد التربية العالى وتخرج فيه (١٩٤٠) وعمل بالتدريس (٤٠ - ١٩٥٤) فى المنصورة والقاهرة ثم انتقل إلى وزارة الثقافة والإرشاد القومى وتولى مناصب فى إدارة الرقابة على المصنفات الفنية.

بزغ نجمه الأدبى وهو لا يزال طالبا حيث نشر أولى مسرحياته «همام فى بلاد الأحقاف» (١٩٣٤) وترجم رائعة شكسبير «روميو وجوليت» فى شعر مرسل، ثم ألف مسرحيته «أخناتون ونفرتيتى» فى القالب الشعرى الحديث.

ظهرت النزعة الإسلامية واضحة جداً فى أعماله الفنية، وكان نموذجًا للأديب الملتزم بأخلاقيات دينه، وبروح الولاء للإسلام والعروبة، وقد لجأ فى مقدمات أعماله إلى المباشرة فى عرض أفكاره والتأكيد على القيم التى ينحاز إليها، وظل على الدوام يستنهض روح النصر فى العرب والمسلمين.

اتصل ببيئات مختلفة فى القاهرة بعد استقراره فى مصر وهكذا قدر لسلفيته أن تتزود بروافد معاصرة أكدت على قوة المفاهيم التى اعتنقها، وقد كان صاحب عقيدة راسخة وإيمان عميق بالإسلام وبقدرته كما كان مؤمنا أيضًا بمفاخر التراث الإسلامى على مر العصور، كما كان مبجلا لقدرات وعظمة رجال الإسلام وقد وضع

ملحمة إسلامية كبرى فى سيرة الخليفة العادل عمر بن الخطاب (١٩ جزءًا) وقد نشرت ستة أجزاء فقط من هذه الملحمة.

ويمكن القول بأنه بدأ إنتاجه الأدبى بالشعر ثم تحول إلى المسرحية الشعرية وانتهى إلى المسرحية النثرية، وقد أشار إلى أن تجاربه جعلته يقطع بأن النثر هو الأداة المثلى للمسرحية ولا سيما إذا أريد بها أن تكون واقعية، وأن الشعر لا ينبغى أن تكتب به غير المسرحية الغنائية التى يراد بها أن تلحن وتغنى.

وبالإضافة إلى إنتاجه فقد كان على علم واسع وثقافة أصيلة وقد قام برحلات عديدة وشارك فى كثير من المؤتمرات والوفود والأنشطة وظل على الدوام وفيا لمبادئه وثقافته، كانت الصبغة الدينية والخلقية تظلل كل أعماله الأدبية مع عدم التفريط فى المهارة الفنية، وكان حريصا على استهلال جميع أعماله من قصص ومسرحيات بآيات من القرآن الكريم.

وكان من أوائل الأدباء الذين وقفوا بكل ما أمكنهم من قضية فلسطين، وقد نشر فى ١٩٤٥ مسرحية «شيلوك الجديد» متنبئًا بقيام دولة يهودية فى فلسطين ومناديا بأهمية اتباع سياسة المقاطعة الاقتصادية، كما كتب «شعب الله المختار» مسلطا الضوء على مراحل الانحلال والفناء فى الدولة العبرية، وبعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ كتب مسرحية عملاقة بعنوان «التوراة الضائعة» وكان فى نزعته العروبية حريصًا على أن يستوعب التوجهات الإقليمية المحدودة وكان يرى أن إنتاجه عن الفراعنة يصب فى خدمة العروبة.. وقد حارب الاستعمار وكشف أساليبه فى «إمبراطورية المزاد» و «مسمار جحا». من مسرحياته الشعرية: «أخناتون ونفرتيتى» «همام فى عاصمة الأحقاف» و «قصر الهودج». ومن مسرحياته النثرية: «الفرعون الموعود»، «عودة الفردوس»، «سر الحاكم بأمر الله» «أبو دلامة»، «مسرح السياسة»، «امبراطورية فى المزاد» «حمدان قرمط» «إله إسرائيل» «دار ابن لقمان». ومن ملاحمه الشعرية «ذكرى محمد» فى ٢٥٨ بيتا وقد نهج فيها نهج البردة. كما كتب كتابا عنوانه «فن المسرحية من خلال تجاربى الشخصية».

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - جورج سارتون، تاريخ العلم.
٢ - د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب في تقدمه.
٣ - د. محمد كامل حسين، الفصل الرابع من كتاب : أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية.

علـى أدهـم
(١٣١٥ - ١٤٠١هـ = ١٨٩٧م - ١٩٨١م)

ولـد عـلـى أدهـم بـحـى رأس الـتـين بالإسكندرية فى عام ١٣١٥هـ = ١٩ من يونيه ١٨٩٧م، لأب من أصل تركى. جـاء جـده من كوتاهية بتركيا وأنجب ولدين، أصغرهما ولده أدهم، الذى تزوج من مـصـرية، وقـد تلقى الطفل تعليـمـه الأولى بمدرسـتى المنيـاوى والحَجَّـارى، ثم التـحق بمدرسـة رأس التين، وحـصل منهـا على شـهـادة الابتدائيـة عـام ١٩١١م، وانتـقل إلى مـدرسـة رأس التين، الثانوية، فأمضى بها سنتين، وتتلمذ فيها على يد عبد الرحمن شكرى الشاعر الناقد المعلم (١٨٨٦ - ١٩٥٨م)، وعلى يد محـمـود فـهـمى النقـراشى مـدرس الرياضـيـات والوزير بعـد ذلك ثم رئيس الوزراء. ثم رحل إلى المدرسـة الخديوية بالقاهرة كى يتم تعليمه الثانوى بها، ومن ثم تخرج إلى العمل بالوظائف العامة.

بدأ حياته بالعمل فى الصحف والمجلات، وكـانت مجلة «الهلال» التى أنشـأها جـورجى زيدان عام ١٨٩٢م مـدرسـتـه الأدبيـة الأولى - إلا أنه عـاد إلى الإسكندرية مـسـقط رأسـه وتوظف بمصلحـة الجـمـارك، وانضم إلى الجـمـاعـة الأدبيـة بالثـغـر، وتعـرف بالشـعـراء والكتاب، وعلى رأسهم الشاعر عبد الرحمن شكرى أستاذه ومعلمه.

وكان يكتب فى مجلة «البيان» لصاحبها البرقـوقى، ونشـر أبحـاثًا كثيـرة عن مـاتزينى، وترجنيف، ومـتـرلنك، كـمـا نشـر فـى مـجلة «الإنسـانيـة». وقـد اهتم على أدهم بتـرجـمـة آداب الشعوب الأخرى إلى العربيـة، ثم انتقل عام ١٩٢٤م إلى وزارة المعارف، وظل بها حتى عـام ١٩٤٠م، واخـتـيـر بعـدها للعـمل فى سكرتارية النقـراشى باشـا، ثم مـديرًا عـامًا بإدارة الثقافة حتى خروجه إلى المعاش عام ١٩٥٧م، ولم ينقطع عن الكتـابة فى الصـحف والمجـلات وعن التـأليف والتـصنيف؛ نشـر المقـالات الكثيـرة فى الأدب والنقـد، والتـاريخ والفلسفة، والاجتماع والتراجم لعدد كبير من مشاهيـر الأدب الأجانب، كمـا ترجم أبحـاثًا كثـيـرة من الإنجليـزية، حـيث تتسم كتـاباته بالدقـة والعـمق والوفـرة، وتوالت مـقـالاته فى

مـجـلات: البـيـان، والهـلال، والسـيـاسـة الأسـبـوعـيـة، والرسـالـة، والثـقـافـة، والرابطة الإسلامية، والمجلة، والعربى، والفكر المعاصر، وتراث الإنسـانيـة.. كـمـا تولى رئاسـة تحـريـر مجلة «العـربى» التى أصدرتها وزارة الثقافة بالقـاهـرة فى يونيـه ١٩٦٤م لبـعض سنوات، وقـد أشـرف على تحـريـر مـجلة «تراث الإنسـانيـة» وهى سلسلة عنيت بالتـعـريف والبحث والتحليل لروائع الكتب التى أثرت فى الحضارة الإنسانية بأقلام الصفوة من الأدباء والكتاب والعلماء ومنهم على أدهم.

ومن مؤلفاتـه :

١ - محاورات رينان الفلسفية (١٩٢٩م).

٢ - كـمـا كـتـب عن صـقـر قـريش (عبد الرحمن الداخل) (١٩٣٨م).

٣ - والمذاهب السـيـاسـيـة المعـاصـرة (١٩٤٣م).

٤ - والجمعية السرية (١٩٥٤م).

٥ - والمعتمد بن عباد (١٩٦٢م).

٦ - وصور أدبية.

٧ - وصور تاريخية.

٨ - ونظرات فى الحياة والمجتمع.

٩ - والاشتراكية والشيوعية.

١٠ - والهند والغرب.

١١ - ولماذا يشقى الإنسان.

١٢ - وبين الفلسفة والأدب (١٩٧٨م)، وهو مـجـمـوعـة من الفـصـول عليـهـا مـسـحـة من الفلسفة ونفحة من الأدب.

١٣ - وأبو جعفر المنصور (١٩٦٩م).

١٤ - عبد الرحمن الناصر (١٩٧٢م).

ومن إسـهـامـات على أدهم فى مـجلة تراث الإنسانية مـا كتبه عن رواية الحرب والسلم لـ (تولسـتـوى)، وتركيـزه على الفكرة الفلسـفـيـة الكبـرى التى تطالعنا من وراء الرواية، فـهـو يرى أن الإرادة البشرية ليس لها أثر يذكر فى توجيـه الحـوادث ومـصـائر الإنسـانيـة وسيـر الحضـارة، ومن ثم سـخريته من نابليون الذى كان يظن نفسه سيد الأقوام، وسـخريتـه من قـواد نـابليـون البـارزين المعـروفين، وتفـاهـة تفكيرهم وفرط اعتزازهم بشاراتهم اللامعة، وكسـاهم العسكرية الفـخـمـة، وقـد اسـتطاع تولستوى أن يشرح مذهبه فى فلسفة التاريخ شرحا وافيا وبدراسة عميقة جدية.

كتب على أدهم عن مـحـاورات ليوباردى، وهو من الشـخصيات البـارزة فى تاريخ الأدب الأوروبى كواحـد من أعظم شـعـراء إيطاليا فى القـرن التـاسع عـشـر، ولم تقف عـبـقـرية على أدهم عند التـرجـمـة والمقـال والتـأليف، ولم

يقتصر نشاطه عند هذا الحد. وإنما تعدى ذلك إلى المساهمة فى مراجعة الكتب المترجمة (٤٦ كتابًا) ولعله كان من صفوة الرواد الذين أثروا الحياة الثقافية بمصر والعالم العربى حين وجه عنايته إلى الترجمة والكتابة والتأليف فى مجالات جديدة لم يسبقه إليها أحد، مما مهّد لانتشار الفنون الثقافية والجمع بين الأدب والفلسفة.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١ - مؤلفات صاحب السيرة. والكتب التى ترجمها والمذكورة فى المتن.

٢ - مجلة الثقافة : تعريف وفهرسة وتوثيق . د. محمد الجوادى.

على باشا مبارك
(١٢٣٩ - ١٣١١هـ = ١٨٢٤ - ١٨٩٣م)

إذا ذكر الأعلام والأعيان فى تاريخ مصر، منذ نشأة الدولة العلوية إلى زماننا المعاصر، فإن اسم على مبارك يأخذ مكان الصدارة فى هذا الموكب الكبير، فقد كانت حياته من السخاء فى التنوع، بحيث لم تتكرر عند علم آخر من أعلام مصر العزيزة، فى الفترة الزمنية التى حددناها فى مستهل هذه السطور، فلقد عاش فى ريف مصر وصعيدها وعواصمها، ثم كانت رحلته الطويلة إلى فرنسا، وأخرى قصيرة إلى الدولة نفسها، واليونان كما زار تركيا محاربًا.

وأما موطن على مبارك ومسقط رأسه فهو قرية «برنبال الصغرى»، كما يسمى أيضا «برنبال الجديدة»، تمييزا لها عن «برنبال» أخرى هو «برنبال القديمة»، وكلتاهما تقع على شاطئ البحر الصغير بمركز دكرنس - منية النصر حاليا - فى محافظة الدقهلية، وكانت ولادته سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م، أما وفاته فكانت بالقاهرة سنة ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م.

ولقد جمع على مبارك بين ألوان الحياة، من حرمان وشظف فى العيش، وممارسة التجارة حينا والوطنية حينا آخر، وعاش الحياة المدنية السياسية، مثلما مارس الحياة العسكرية، وخاض خمار الحرب لفترة غير قصيرة، وولى عدة وزارات أكثر من مرة، والتى تأتى فى مقدمتها وزارة الأشغال والرى ووزارة الأوقاف، ووزارة المعارف، وما فى وزارة من تلك الوزارات التى ارتقى سدتها، إلا ترك فيها أثرا فى منهج الحكم، وطريق البناء والتجديد وممارسة الإبداع والتشييد هذا فضلا عن تخليد أعماله بما سطر من كتب، وما خلفه من مؤلفات يجيىء على رأسها كتابه الفريد «الخطط التوفيقية» الذى يحمل عنوانا طويلا هو «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة».

إن عنوان هذا الكتاب يحمل سمات ثلاثة هامة، أولها: الوفاء لحاكم مصر الخديو توفيق، إبان تأليفه هذا الكتاب على الرغم من اختلاف المؤرخين فى الحكم على هذا الخديو، وأن أكثرهم يميل إلى تجريحه فى وطنيته، وقليل من أولئك الذين يذكرون محاسنه، بحيث أصبح الطعن فى أسرة

محمد على وأفرادها هو الأصل، وأن ذكر أمجادها فى بناء مصر الحديثه هو الاستثناء. وأما السمة الثانية: فهى ولعه بمطالعة تاريخ مصر، وبخاصة لأولئك المؤرخين الذين جعلوا مصطلح «الخطط» عنوانا لكتبهم، ويجىء فى مقدمة هؤلاء: «المقريزى»، صاحب أشهر مؤلف فى هذا الموضوع، وليس ثمة شك فى أنه رسم على منواله، واستمد من علمه، واغترف من بحره كثيرا من موضوعات كتابه.

وأما السمة الثالثة: فهى احتفاله بمدينة القاهرة احتفالا كبيرا، من حيث تاريخها القديم والوسيط والحديث، وآثارها، ومساجدها، ومدارسها، وأحيائها وشوارعها، وعلمائها، وأوليائها، والزوايا والخانقاوات والكنائس والأديرة، والأضرحة، والحمامات والحوارى والدروب، إلى المدى الذى جعله يخصص لها الأجزاء الأربعة الأولى من كتابه «الخطط التوفيقية». وفى الوقت نفسه خصص الجزء السابع بأكمله لمدينة الإسكندرية، يضاف إلى ذلك، الإفاضة الواسعة فى التعريف بمدن مصر الأخرى، والقرى والنجوع، مهما عظم شأنها، أو ضئول حجمها.

وهنا يجمل بنا ألا ننكر عناية على باشا مبارك بالقرية المصرية، ولم يكن تشابه أسماء العشرات من القرى، حاجزا دون انطلاقه فى وصفها والعناية بها، فمن الأسماء المتكررة لتلك القرى والبلاد، اسم منية وشبرا، وزاوية، ومحلة، وكوم، وسفط، وغير ذلك كثير، ولنضرب لذلك بعض الأمثلة.

منية وجمعها منى بضم الميم، وقد حرف العوام نطق بعضها إلى ميت - بكسر الميم ثم ياء ثم تاء، وقد أورد العالم الكبير على باشا مبارك، مائة وستا وسبعين مدينة وقرية، تحمل هذا الاسم، فمن هذه المنى (جمع منية) المشهورة منية ابن خصيب، وهى مدينة المنيا عاصمة المحافظة المشهورة، ومنية عقبة وهو المعروفة الآن بميت عقبة بحى المهندسين، ومنها منية القمح وهى منيا القمح المشهورة فى محافظة الشرقية، ومنية يزيد، ومنية عيش، ومنية غمر المعروفة الآن بميت غمر. ومن هذه المنى ما يحمل أسماء محببة لطيفة مثل منية القرآن، ومنية المكرم ومنية العز ومنية شرف، ومنية الرخاء، ومنها ما يحمل أسماء مرذولة مثل منية جحيش، ومنية حمير ومنية الخنازير، ومنية العرايا. ومنها ما يحمل أسماء غريبة مثل منية الواط، ومنية معاند، ومنية مرجى سلسيل، ومنية غريط، ومنية الشيخة، ومنية الشيوخ، ومنية سلمنت، ومنية الزرافة، وغير ذلك.

وقد أورد على مبارك اسم واحدة وأربعين قرية تحمل اسم «شبرا»، مضافا إليها اسما يميزها عن غيرها، وشبرا اسم فرعونى بمعى محلة أو بلد. وأحيانا يتكرر اسم المضاف والمضاف إليه مثل شبرا ريس إحداها فى البحيرة والثانية فى المنوفية، وشبرا قباله وهى متكررة فى ثلاث محافظات هى الغربية والمنوفية والدقهلية، وشبرا باص (شرباص) فى الدقهلية والمنوفية وشبرا بلولة السخاوية والمنوفية.

ومن القرى التى تحمل اسم «زاوية» أورد المؤلف منها ثلاثة وثلاثين بلدة. منها على سبيل المثال الزاوية الحمراء والزاوية الخضراء والزواية الصفراء وزاوية المصلوب وزاوية الأموات وزاوية مبارك وزاوية بمم (بمم) ومن هذه الزوايا زاوية البقلى التى ترجم المؤلف لستة وثلاثين شخصية من أعيانها.

وهناك عدد كبير من المدن والقرى يحمل اسم «محلة»، وقد أورد المؤلف منها اثنين وثلاثين بلدة من أشهرها المحلة الكبرى، وقد ترجم المؤلف لاثنتى عشرة شخصية من أبنائها، وفى مقدمتهم المفسر جلال الدين المحلى، ومنها محلة مرحوم بلدة كاتب هذه السطور وقد ترجم المؤلف لاثنين من علمائها أحدهما الشيخ إبراهيم المرحومى الذى كان إماما للجامع الأزهر سنة ألف هجرية ومابعدها.

وهناك أيضا «الكفور» جمع كفر، وقد أورد المؤلف اسم ستة عشر كفرا، أشهرها كما هو معروف كفر الشيخ، وكفر الزيات، وكفر الدوار.

وقد ذكر المؤلف ست عشرة بلدة تحمل اسم «سفط». منها سفط العنب وسفط الخمار وسفط البصل وسفط اللبن وسفط الحناء غاب عنه ذكر سفط الملوك التى تقع فى منتصف طريق السكة الحديد بين كفر الزيات ودمنهور وقد حذف، منها لفظ الملوك بعد سنة ١٩٥٢ واستبدل به اسم آخر لا أذكره.

والأمر الجدير بتكرار ذكره، أن المؤلف يذكر علماء كل بلدة، وأعيانها، مهما كان عددهم، ومهما اختلفت فنونهم.

يصف على مبارك قريته - برنبال الجديدة - فيقول «إن بها مسجداً ومنزلا بناه والده، وفيها أربع مضايف ومنظرة حسنة لبعض أكابرها، ومعملان للدجاج - أى للتفريخ - ومصبغتان، وأربعة أنوال لنسج الصوف، وعشر طواحين، ودكان واحدة تباع فيها العقاقير، وضريح ولى يسمى أبو عيسى، وفيها وابوران، وباعة يبيعون الخص والفسيخ ونحو ذلك، ونواتية، ونجارون،

ومكتب لتعليم القرآن، وحاراتها أربعة ممتدة من الشرق إلى الغرب على استقامة واحدة، وليس بها من الأشجار إلا نخلتان، وكان يعمل بها كل سنة ليلة لسيدى أحمد البدوى، ثم بطل ذلك من سنين».

تلك هى القرية التى ولد فيها على باشا مبارك كما وصفها بقلمه، مما يدل على أن البيئة التى ولد بها بيئة متواضعة، ليست مؤهلة لتفريخ عظماء الرجال، ولكن الحقيقة كانت على النقيض من ذلك تماما فمصر ولادة، وهو تعبير يجرى على لسان كل مصرى، وإن أكثر عباقرة مصر، من علماء ووزراء وأدباء ورجال حكم وجيش واقتصاد وثقافة، ولدوا فى تلك القرى المتواضعة التى قامت بإهدائهم إلى المدينة، التى اغتصبت فضل القرية واستأثرت بعطاء أبنائها.

يتحدث على مبارك عن طفولته فيذكر أن ظروفا مالية قاسية مرت بعائلته، فهاجرت إلى أكثر من بلد مجاورة، وكان عمره إذ ذاك ست سنوات، وكان قد ابتدأ فى تعلم القراءة والكتابة.

ويصف على مبارك والده فيضفى عليه الكثير من الإجلال والاحترام، وذلك فى مجال حديثه عن الأسرة، فيقول: إن إحدى البلاد التى هاجر إليها فى صحبة والده، يطلق عليها عرب السماعنة بالشرقية، ولم يكن عندهم فقهاء، فأنزلوا والده منزل الإكرام والإجلال وانتفعوا منه وانتفع منهم انتفاعا كبيرا، وصار مرجعهم إليه فى الأحكام الدينية. وكان - أى والده - رجلا صالحا، متفقها فى الدين، حسن الأخلاق، فأحبوه حبا شديدا، وبنوا جامعا خاصا جعلوه إمامه.

وفى مناسبة أخرى يصف على مبارك والده فيقول: كان والدى جميل الهيئة أبيض اللون، فصيحا متأدبا، آثار الصلاح والتقوى ظاهرة عليه.

وفى فترة اغتراب والده عن قريته، عاش على مبارك حياة مضطربة مغتربا حينا، برغم طفولته، وعائدا إلى رحاب أبويه حينا آخر، نحو عامين، ثم ختم القرآن الكريم ختم بداية.

وحين شب عودة قليلا مارس على مبارك أعمالا كثيرة، كان بعضها إلحاقه بالسجن لكى يكتب اسماء المسجونين، فعاملوه كأنه سجين، الأمر الذى دفع به إلى الهرب، والتحق بأعمال أخرى كان راتبه الشهرى فيها يتراوح بين خمسين قرشا وخمسة وسبعين قرشا.

إن مجمل القول فى وصف تلك المرحلة من حياة على مبارك هى مايشبه التشرد، وكان أبوه يلاحقه ويعيده إلى البيت مرات

عديدة إلى أن انتهى الأمر به سنة ١٢٥١هـ إلى الالتحاق بمدرسة قصر العينى، وكان لم يتحول بعد إلى مستشفى، وبذلك تكون مرحلة الشقاء ومايشبه التشرد قد مر جانب كبير منها.

أما المرحلة الثانية من مراحل حياة على مبارك، فهى مرحلة التعليم والانفتاح، الذى غير مجرى حياته تغيرا جذريا، فقد انتظم فى مدرسة أبى زعبل فى أواخر سنة ١٢٥٢هـ/ ويصف حاله خلالها من واقع ترجمته لنفسه قائلا: كان أثقل الفنون علىّ وأصعبها فن الهندسة والحساب والنحو، فكنت أراها كالطلاسم، وأرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة»، ولكن صبر الطالب على مبارك ومثابرته جعلته ينبغ فى الهندسة والحساب، وصار أول فرقته، فوقع عليه الاختيار للالتحاق بمدرسة المهندسخانة، وكان ذلك سنة خمس وخمسين، أى بعد ثلاث سنوات من دراسته فى مدرسة أبى زعبل، فأقام بها خمس سنين أخرى، تلقى أثناءها علوم الجبر والميكانيكا والديناميكا وتركيب الآلات وحساب التفاضل وعلم الفلك الذى كان يقوم بتدريسه محمود باشا الفلكى، وأقبل الطالب على مبارك على بقية العلوم التهاما واغترافا؛ مثل الطبوغرافيا، والكيمياء، والطبيعة، والمعادن، والجيولوجيا، والهندسة الوصفية، وقطع الأشجار والأحجار.

ثم ما لبث أن هيأت له المقادير السفر إلى أوروبا سنة ١٢٦٠هـ/ عن طريف سليمان باشا الفرنساوى، ومن الطريف أن راتبه الشهرى فى فرنسا، كان ما قيمته مائتان وخمسون قرشا فكان يحتفظ لنفسه بنصفها، ويبعث بنصفها الآخر إلى أهله فى مصر، وكان أبوه معيلاً، وكان على مبارك هو الذكر الوحيد بين بنات سبع هن شقيقاته، وكان أبوه متزوجا من ثلاث، وفى فرنسا تغلب على صعوبة اللغة الفرنسية، وبعد سنتين من البعثة ألحق بمدرسة الطوبجية والهندسة الحربية بمدرسة «ميتس»، ومنح رتبة الملازم الثانى، قضى فيها سنتين تعلم خلالها فن الاستحكامات الخفيفة والثقيلة والعمارات المائية والهوائية، عسكرية ومدنية، والألغام وفنون الحرب، عاد بعدها إلى مصر فى حكومة عباس باشا الأول، وسار على مبارك يرقى سلم العسكرية حتى وصل إلى رتبة أميرألاى وهى رتبة كبيرة فى أى جيش من جيوش العالم، ولما نشبت الحرب التركية الروسية المعروفة بحرب القرم سنه ١٢٧٠هـ، سافر إلى تركيا واشترك فى الحرب، وزار مدن عاصمة الخلافة، وبعد عامين عاد من رحلته تلك مزودا بفنون الحرب، وعلوم السلام.

ومن ثم بدأ نجم على مبـارك يسطع فى سمـاء الحكم المصـرى، وبخاصـة فى أيام إسمـاعيل فعين ناظرا للقناطر الخيـرية، وأجرى فيها إصلاحات كثيرة، ثم عهد إليه إدارة السكك الحديدية المصرية، وإدارة ديوان المدارس وديوان الأشغال العمومية وفى شهر شوال سنه ١٢٨٥هـ انضم إلى نظارة عمـوم الأوقاف مع بقائه فى وظائفه الأخرى.

كان على مبارك رجلا موهوبا مصلحا، فقام بإنشاءات كثيـرة خدم بها وطنه فقد توسع فى إنشـاء المدارس، وأنشـأ مـدارس للبنات لأول مـرة فى مـصـر، وهو الذى استحدث مدرسة دار العلوم التى تعد قلعة اللغة العربية فى العالم العربى حتى الآن، وجـعل طلابهـا مـخـتـارين من النابهين الأزهريين، ممن تلقـوا بعض الكتب فى العربية والفقه وحفظ القرآن الكريم، وجعلهم يتلقـون بعض المواد المفـقـودة فى الأزهر، كالحساب والهندسة والطبيعة والجغرافيا والخط، مع فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه حنفى، وجعل لهم مرتبا شهريا، ورتب لهم طعام الغذاء نهارا.

وأما المعلمون فى المواد الأخرى، كالهندسة والحساب واللغات، ونحو ذلك، فتقـرر أن يكونوا من نجبـاء خريجى المدارس العالية، كالمهندسخانه والمحاسبة والإدارة وأن يعينوا معيدين زمنًا ثم يكونوا معلمين مشتغلين بالمدارس والمكاتب.

ومن مآثر على مبارك إنشاء كتبخانة عمومية تجمع فيها الكتب المتفرقة فى الجهات الدينية والأوقاف والمساجد ونحوها، فجمعت الكتب وجعل لها ناظر وخدمة، وجعل لها مسئول من علماء الأزهر، لمباشرة الكتب العربية، وآخر لمباشرة الكتب الغربية.

واتسع أمر الإصلاح فشمل التنظيمات فى مرافق المدينة وشوارعها وميادينها، وظل على مبارك فى معركة البناء والإصلاح حتى قامت الثورة العرابية، فأبعد عن السلطة ثم حين انتهت الثورة وتقلد مصطفى باشا رياض منصب رئيس النظار، قلده نظارة الأشغال للمرة الثالثة، كما قلده فى الوقت نفسه نظارة المعارف، يقول على باشا مبارك فى هذه اللحظة، وها أنا الآن قـائم بهـذا الأمر على حساب المصالح بقدر الإمكان.

وهنا لاينبغى أن نهمل الإشارة إلى على مبارك العالم المؤلف، إذ لم يكن الرجل مجرد وزير يأمـر ويصـحح ويخطط، فى نطاق الأشغال والأوقاف والمعارف، وإنما كان عالما ألف كثيرا من الكتب، التى أفادت الدارسين من الطلاب، والمواطنين، التى منها وأشهرها «الخطط التوفيقية»، التى أقتبسنا كثيرا مما فى هذه الدراسة من محتوياتها، كما ألف

قصة أسماها «عالم الدين»، فى ثلاثة مجلدات، وكتاب «حقائق الأخبار فى أوصاف البحار»، وكتاب «خواص الأعداد»، وكلا الكتابين الأخيرين كتاب مدرسى، وكتاب نخبة الفكر فى نيل مصر، وتذكرة المهندسين، وتقريب الهندسة وجغرافية مصر، والميزان فى الأقيسة والمكاييل والأوزان كما أسهم فى ترجمة بعض الكتب الفرنسية الكبرى وعلى وجه التخصيص كتاب خلاصة تاريخ العرب للمستشرق الفرنسى سيديو.

إن عدداً غير قليل من مؤرخى العصر الحديث فى مقدمتهم المرحوم محمد عبدالله عنان يذكره فى ثلاثة من أعيان القرن التاسع عشر، ويؤكدون أنهم من زعماء الأدب العربى الصميم يومئذ منهم على مبارك، والبكرى، والمويلحى، وثمت إجماع على أن على باشا مبارك هو باعث فن الخطط من مرقده الطويل، وهو فن رفيع من فنون العلوم العربية الموسوعية الإسلامية، وكان أول من صنف فيها مؤرخ مصر الكبير أبو عمر محمد بن يوسف الكندى، ثم رسم على منواله المؤرخ المصرى محمد بن سلامة القضاعى المتوفى سنة ٤٥٢هـ بكتابة «المختار فى ذكر الخطط والآثار» وسار على الدرب عدد من العلماء المصريين المؤرخين حتى رزقت مصر بشيخ مؤرخى الخطط ورائدهم تقى الدين المقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ المعاصر لعالم مصر الموسوعى الكبير جلال الدين السيوطى وألف أشهر كتاب فى الخطط وأعرقها، ووضع له عنوانا يتلاءم مع موضوعه هو «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار»، وتعاقبت سلسلة مؤلفى الخطط النابهين المبرزين حتى حل عصر الكسل والتهاون، ثم وهبت مصر - طبقا لما قرره المؤرخ النابه محمد عبدالله عنان - مؤرخها الفذ، ومحقق خططها، ومجدد معالمها، ومحيى محاسنها وذكرياتها وآثارها فى شخص المرحوم على باشا مبارك أحد أركان النهضة العلمية والأدبية المعاصرة.

إن كتاب الخطط التوفيقية ذا العشرين مجلدا لمؤلفه على باشا مبارك السروجى - وهذا اسمه ولقب أسرته - هو آخر مَنْ أنجبت مصر من كتب الموسوعات، فهو يحوى من فنون المعرفة والأدب من شعر ونثر، والتاريخ بمختلف ميادينه وعصوره، والجغرافية والبلدان والتراجم والهندسة بفنونها وعلوم الحرب والكيمياء والفيزياء والرياضيات والتربية والسياسة وفنون الحكم وغير ذلك من علمه الموسوعى بحيث يعد مفخرة علمية من مفاخر مصر بل من مفاخر علماء العرب والمسلمين.

أ. د. مصطفى الشكعة

مراجع للاستزادة :

١ - المواد العلمية المتوافرة فى «الخطط التوفيقية»
٢ - بعض مؤلفات على باشا مبارك (ذكرت فى البحث).
٣ - فتوح مصر لابن عبدالحكم.
٤ - المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الخطط) لتقى الدين المقريزى.
٥ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للإمام جلال الدين السيوطى.
٦ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى.
٧ - الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع لشمس الدين السخاوى.
٨ - العبر والمبتدأ والخبر فى تاريخ من عبر لابن خلدون.
٩ - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار للجبرتى.
١٠- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة.
١١- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية لمحمد عبدالله عنان.
١٢- معجم البلدان لياقوت الحموى.
١٣- المنهل الصافى لأبى المحاسن ابن تغرى بردى.
١٤- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لأبى المحاسن ابن تغرى بردى.
١٥- نهاية الأدب فى آداب العرب للنويرى.
١٦- وصف مصر لعلماء الحملة الفرنسية ترجمة الشايب.
١٧- وفيات الأعيان لشمس الدين ابن خلكان.
١٨- الولاة والقضاة لأبى عمر محمد بن يوسف الكندى.

على حسن عبد القادر
(١٣١٨ - ١٤١٠هـ = ١٩٠١ - ١٩٩٠م)

ولد على حسن عبد القادر فى سنة ١٣١٨هـ = ٢١ من ديسمبر سنة ١٩٠١م، وتخرج فى الأزهر عام ١٩٢٨م، ثم حصل على درجة التخصص من الأزهر برسالته التى قدمها عن المعتزلة عام ١٩٣١م، وعيِّن مدرسًا فى كلية أصول الدين فى العام نفسه.

سافر إلى ألمانيا وحصل على الدكتوراه من جامعة برلين عام ١٩٣٩م برسالته التى قدمها فى موضوع «الفقهاء السبعة فى المدينة وآراؤهم». عمل مديرا للمركز الإسلامى فى لندن فى الأربعينيات، وقد انتهز فرصة إقامته فى إنجلترا للحصول على الدكتوراه من جامعة لندن، وقد حصل عليها عام ١٩٤٨م برسالة قدمها فى التصوف الإسلامى عن أبى القاسم الجنيد ورسائله. عمل أيضًا مديرًا للمركز الإسلامى فى واشنطن، وعيِّن عميدًا لكلية أصول الدين عام ١٩٦١م، ثم عميدًا لكلية الشريعة، وقام بتدريس الفلسفة فى كلية أصول الدين، وتاريخ التشريع الإسلامى فى كلية الشريعة، كما قام أيضا بتدريس الشريعة الإسلامية فى جامعتى القاهرة وعين شمس، وفى معهد الدراسات الإسلامية بالقاهرة، وفى قسم الدراسات الشرقية بجامعة لندن وجامعة كولومبيا بنيويورك. عين عضوا بمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وعضوا بلجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية (المجلس الأعلى للثقافة حاليا)، وكان عضوا فى لجنة الرقابة الشرعية لدار المال الإسلامى، وقد توفى عام ١٤١٠هـ = ١٩٩٠م.

لقد كان الدكتور على حسن عبد القادر - بعد عودته من ألمانيا عام ١٩٣٩م - متأثرًا إلى حدٍّ كبير ببعض الدراسات الاستشراقية، وقد ظهر أثر ذلك واضحًا فى ذلك العام، فى محاضراته التى كان يلقيها على طلاب مرحلة العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه)، فى كلية الشريعة، عن تاريخ التشريع الإسلامى.

ومن أجل تعريف القرَّاء بهذه الدراسات؛

اشترك فى ترجمة كتابين من أهم مؤلفات جولدتسيهر إلى العربية، هما: العقيدة والشريعة فى الإسلام، والمذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن.

ولكن كتابات الدكتور على حسن عبد القادر فيما بعد، كانت تنطوى على نظرات نقدية لأعمال المستشرقين، وإن كان قد ظل حتى نهاية حياته يستفيد من العناصر الإيجابية فى هذه الدراسات، ويقتبس منها ما يدعم به وجهات نظره، وقد كان من أبرز القضايا التى ناقشها نظرية بعض المستشرقين، وبخاصة جولدتسيهر، فى وضع الحديث النبوى، وتذهب هذه النظرية إلى القول بأن: القسم الأكبر من الحديث النبوى ليس إلا نتيجة للتطور الدينى والسياسى والاجتماعى للإسلام فى القرنين الأول والثانى.

وقد ناقش هذه النظرية، وانتهى إلى القول بأن وجهة نظر المستشرقين فى هذا الصدد، لا تعدو أن تكون محاولة لبناء نظرية مفروضة متخيلة، على أخبار تصيَّدوها من أشتات الكتب، وجعلوا مما خرج مخرج الجرح والتعديل - الذى استعمله السلف مبالغة فى تعريف الحديث - حقائق ثابتة، وصورًا صحيحة، كما رد عليها أيضًا بنظرية أخرى سادت أيضًا فى أوساط المستشرقين فى العصر الحديث، وتتفق فى نتيجتها مع وجهات النظر الإسلامية.

وفى عام ١٩٤٧م حقّق مع المستشرق الإنجليزى آربرى كتاب الرياضة وأدب النفس للترمذى، ويشير المحقّقان فى تقديمهما لهذا الكتاب، إلى تأثر التصوف الإسلامى منذ البداية بمؤثرات أجنبية؛ فقد جاء فى هذه المقدمة (ص ٦ - ٧) ما يأتى :

«وقد كان المشرق قبل الفتح الإسلامى ملتقى هاما لثقافات وأديان مختلفة، حيث كان الطريق الرئيس الذى يربط بلاد الصين وبلاد فارس مخترقًا بلاد الهند، وهنا تلاقت الأديان والثقافات المختلفة، فنجد المجوسية بجانب البوذية، بجانب أديان الهند وثقافتها، ومن هذه الجهات شقت النسطورية طريقها إلى الصين، ومنها انتشرت المانوية فى الشرق، كما كانت مجالاً للغزو اليونانى... فكل هذه العناصر المختلفة كان لها من غير شك أثر فى تطور التصوف الإسلامى فى أول الأمر.».

وكان الدكتور على حسن عبد القادر من ناحية أخرى، ينفى ما يذهب إليه العديد من المستشرقين من تأثر الفقه الإسلامى

بمؤثرات أجنبية، ويرى أن الفقه الإسلامى ـ الذى يمّثل المجتمع الإسلامى فى تطوره التاريخى ـ لم يتأثر بأى مؤثرات أجنبية لا فى طريقته أو أصوله أو قواعده، كما أنه حافظ على أصالته من غير أن تؤثر فيه الفلسفات الأخرى، لأنه ليس إلا تفسيرًا للقرآن، واستلهامًا لروحه وتبريرًا لمشروعيته، فهذه الأصول الفقهية والقواعد المذهبية إنما هى تفسيرات للقرآن. ومن هنا يمثّل الفقه الروح الإسلامية والتفكير الإسلامى فى مهدهما وعلى حقيقتهما، وهذا بخلاف «علم الكلام» الذى لا يمثل الطابع الإسلامى الصميم من هذه النواحى؛ فقد دخلته ـ كما يقول ـ عناصر أجنبية من الفلسفة فى مادته وصورته، واشتملت مباحثه على أبحاث لا تمت إلى الدين الإسلامى بصلة، وقام فى أساسه على فكرة التوفيق بين الدين والفلسفة.

ويذهب د. على حسن عبد القادر إلى القول بأن الفقه الإسلامى لا يزال حتى الآن يمّثل العامل الأساسى فى الكفاح الفكرى للإسلام ضد الغرب، فالنهضة الأوروبية الحديثة تقف منا موقفًا سلبيا فى المقام الأول من ناحية حياتنا العملية وسلوكنا الاجتماعى، حيث يرون فيهما تأخرًا وجمودًا ورجعية وبعدا عن التمدن، «ولما كان الفقه هو الذى يمثل هذه الناحية فى حياة المسلمين، كان هو خط الدفاع الأول للإسلام ضد هذه الهجمات المتواصلة من قبل المدنية الغربية، ومن هنا كانت حركات الإصلاح والتقدم الإسلامى، التى يحاول بها المصلحون المسلمون التجديد تبتدئ من الفقه».

وقد تناول فى كتابه «دراسات فى الاقتصاد الإسلامى» قضية المعاملات المعاصرة التى تقوم بها البنوك، وعما إذا كانت تدخل فى باب الربا المحرَّم أم لا. وقد انتهى ـ بعد عرض آراء القدامى والمحدثين ـ إلى أن الربا المقطوع بتحريمه بالقرآن الكريم؛ هو ربا النسيئة الذى كان معمولا به فى الجاهلية، وهذا لا مجال فيه للاجتهاد، أما ربا الفضل الثابت بالسنة فالأمر فيه قابل للاجتهاد، وقرر أن التأمين جائز مباح من حيث المبدأ، من أجل المصلحة والضرورة والحاجة التى تدفع إلى العمل به، كما كان يرى أن فى أبواب المضاربة فى الفقه الإسلامى مجالاً واسعًا يلبِّى حاجة الناس ومصالحهم العمرانية.

بالإضافة إلى الرسائل العلمية المشار إليها ـ والتى حصل الدكتور على حسن عبد القادر بموجبها على درجات علمية من الأزهر وألمانيا وإنجلترا ـ فإن له عدد من المؤلفات فى الشريعة الإسلامية والعقيدة والتصوف، وبعضها بالإنجليزية، كما اشترك فى ترجمة

بعض الكتب الأجنبية إلى العربية. ومن أهم مؤلفاته:

١ - نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى، ويتناول هذا الكتاب نشأة الفقه الإسلامى وتطوره إلى عصر قيام المذاهب الفقهية، كما يتناول أيضا تاريخ القرآن الكريم والحديث النبوى.

٢ - فقه المضاربة فى التطبيق العملى والتجديد الاقتصادى.

٣ - العقيدة الإسلامية فى أدوار التاريخ.

٤ - دراسات فى الاقتصاد الإسلامى والمعاملات المعاصرة.

٥ - الإسلام فى مجرى التاريخ (بالإنجليزية).

٦ - الفقه الإسلامى ومتطلبات العصر.

٧ - الملكية وحيازة الأرض (بالعربية والإنجليزية).

٨ - بحوث فى القضاء والحسبة والفقه الإسلامى فى دائرة الحضارة الإسلامية.

ومن أهم الكتب التى حقَّقَها مايلى:

١ - المعراج، للقشيرى.

٢ - دواء التفريط، للجنيد.

٣ - الرياضة وأدب النفس، للترمذى، وقد حقَّق هذا الكتاب الأخير بالاشتراك مع المستشرق الإنجليزى المعروف آربرى، أستاذ اللغة العربية بجامعة لندن حينذاك.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ - نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى. ص ١٢٦ - ١٣٦.
٢ - الرياضة وأدب النفس. للترمذى، ص ٦ - ٧.
٣ - دراسات فى الاقتصاد الإسلامى والمعاملات المعاصرة، ص ٧ - ١١.
٤ - نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى، ص ٢.
٥ - دراسات فى الاقتصاد الإسلامى، ص ٦٧، ٧٥ وما بعدها.
٦ - مؤلفات الدكتور على حسن عبد القادر المذكورة فى الهوامش التالية.
٧ - مراجع أخرى:
(أ) سجلات كلية أصول الدين بالقاهرة.
(ب) مجلة الأزهر. شعبان ١٤١١هـ - فبراير، مارس ١٩٩١م.
(جـ) السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى - للدكتور/ مصطفى السباعى - المكتب الإسلامى، بيروت، سنة ١٩٧٨م.
(د) العقيدة والشريعة فى الإسلام. للمستشرق جولدتسيهر وترجمة. على حسن عبد القادر وزميليه - دار الكتب الحديثة بمصر، سنة ١٩٥٩م.

أبو على الروذبارى
(٠٠٠ - ٣٢٢ هـ = ٠٠٠ - ٩٣٤م)

هو أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور بن شهريار بن مهرزاذانى ابن فرغد بن كسرى الروذبارى، البغدادى، المصرى. صوفى زاهد، وعابد فقيه أحد أعلام القرن الرابع الهجرى. وروذبار يقال لمواضع عند الأنهار الكبار، وهذا الموضع عند طوس، وقيل: قرية من بغداد.

اختلف فى اسمه أهو محمد بن أحمد، أو أحمد بن محمد، وذكر الخطيب البغدادى هذا الاختلاف فى تاريخ بغداد، ورجَّح أن يكون اسمه: أحمد بن محمد وهذا أصح.

أصله بغدادى من أبناء الرؤساء، وصار شيخ الصوفية ورئيسهم بها، ثم تنقل فى البلاد للسياحة وطلب العلم بين الشام ومصر، واستقر بها ومات فيها سنة ٣٢٢هـ. وقال السمعانى توفى سنة ٣٢٣هـ ودفن بالقرافة، قريبا من ذى النون المصرى. صحب كبار الصوفية فى بغداد والشام ومصر، وجمع بين الفقه والتصوف والحديث والأدب، وكان يقول عن نفسه كما ذكر القشيرى:

«أستاذى فى التصوف: الجنيد، وفى الفقه: أبو العباس بن سريج، وفى الأدب: ثعلب، وفى الحديث: إبراهيم الحربى».

وهو الذى روى عن الجنيد بعض أقواله الشهيرة، والتى تشير إلى علاقة التصوف بالشريعة كقول الجنيد: «مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة». كما حكى عنه هجومه العنيف على القائمين بإسقاط الأعمال والتحلل من التكاليف الشرعية، وكان للروذبارى ابن أخت يسمى أبا عبدالله: أحمد بن عطاء، كان شيخ الشام فى وقته، وقد روى بعض أقوال خاله أبى على.

وقد عرف الصوفية لأبى على الروذبارى قدره ومكانته، فالقشيرى يقول عنه: إنه كان من أعلم المشايخ بالطريقة. كما ذكر غيره من شيوخهم: أنه لم يبق فى زمانهم لهذه الطائفة إلا رجلان: أبو على الروذبارى بمصر، وأبو بكر بن أبى سعدان بالعراق».

والظاهر أن صلة الروذبارى بشيخه الجنيد، ودراسته للفقه والحديث كان لهما أثر واضح فى تصوفه، فالتصوف عنده: «كله

جد فلا تخلطوه بشيء من الهزل». وهو طلب دائم، واستغراق كامل، وإقبال موصول على الله تعالى، دون كلل ولا ملل، فهو: «الإناخة على باب الحبيب وإن طرد عنه».

ودفعه ذلك الفهم للتصوف إلى الوقوف فى وجه أدعياء التصوف، ممن ينتسبون إليه، دون أن يتخلقوا بأخلاقه.

فقد سئل مرة عمن يبيح لنفسه أن يسمع الملاهى، مدعيا أنها حلال له، لأنه وصل إلى درجة لا يؤثر معها اختلاف الأحوال، فقال: نعم قد وصل ولكن إلى سقر.

كما كان رحمه الله كثير التحذير مما يوقع السالكين فى موطن الزلل، وكان يرى أن الآفة تدخل على الخلق من ثلاثة أمور: أولها سقم الطبيعة، وهذا مرض ناشيء عن أكل الحرام، لأن الحرام يصرف صاحبه عن طاعة الله عز وجل، فالله طيب لا يقبل إلا طيباً.

وثانيها: ملازمة العادة، وفسر ذلك بأنه النظر والاستمتاع بالحرام والغيبة، وتلك من آفات الجوارح التى تدنس النفس وتشغلها فى مواصلة الذكر، وشكر النعمة.

وثالثها: فساد الصحبة، وهذه آفة تنشأ من متابعة النفس فيما تشتهيه.

فإذا أراد السالك أن تخلص له طاعته فعليه أن يقاوم تلك الآفات.

كذلك كان ينصح بملازمة الأدب فى حضرة الربوبية واستحضار الهيبة والعظمة والمسارعة إلى التوبة والمداومة عليها، وكان يقول: «إن من الاغترار أن تسيء فيحسن إليك، فتترك الإنابة والتوبة، توهما أنك تسامح فى الهفوات، وترى أن ذلك من أبسط الحق لك».

أ. د. عبد الحميد مدكور

مراجع للاستزادة:

١- طبقات الصوفية للسلمى: تحقيق شريبة ص ٣٥٤- ٣٦٠.

٢- طبقات الأوليات لابن الملقن: تحقيق شريبة ص ٥٠ - ٥٨.

٣- حليه الأولياء لأبى نعيم. جـ١/ ٣٥٦.

٤- الرسالة القشيرية جـ١/١٥١.

٥- الطبقات الكبرى للشعرانى جـ١/٩١٠

٦- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى جـ١/ ٣٢٩- ٣٣٢.

علی بن أبی طالب
(١٠ ق البعثة - ٤٠ هـ)

ابن عم الرسول ﷺ وأول من أسلم من الفتيان فلم يسجد لصنم قط، ومن هنا خص بتعبير (كرم الله وجهه) وهو أحد أساطين الإسلام، كان فى كنف النبى ﷺ منذ نشأته إذ كان أبوه كثير العيال فأراد النبى ﷺ أن يخفف عنه مؤنته فتشرب من روح النبى ﷺ وتخلق بأخلاقه ﷺ وقد تميز رضى الله عنه بالعلم الواسع والفقه الدقيق فضلا عن النظر الثاقب والرأى الراجح الأصيل.

ولد ـ كرّم الله وجهه ـ على أرجح الأقوال فى العام العاشر قبل البعثة المحمدية، وتوفى عام أربعين هجرية بضربة سيف من عبد الرحمن بن ملجم المرادى الخارجى.

عرف - كرم الله وجهه - بالزهد فى الدنيا والبعد عنها فكان متقشفا أشبه ما يكون بالرسول ﷺ وأبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - كما تلبس بالصدق ظاهرا وباطنا فما كان ليخالف قوله فعله فسريرته أشبه بعلانيته.

أما عن شجاعته فحدث ولا حرج فقد نازل صناديد قريش وقتل منهم الكثير وكان صاحب الراية فى غزوة خيبر، ومن هنا ورد فى فضله ومكانته العديد من الأحاديث النبوية.

وقد تولى الخلافة بعد استشهاد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ببيعة أهل الحل والعقد سنة ٣٥ هجرية.

وكان عليه أن يواجه المشاكل التى نجمت عن استشهاد الخليفة عثمان بن عفان، وهى المشاكل التى كانت بداية الفتنة الكبرى فى التاريخ الإسلامى، فحدثت موقعة الجمل التى قاد المعارضة فيها طلحة والزبير وعائشة، وانتهت بهزيمة طلحة والزبير ومقتلهما، ثم اضطر إلى خوض معركة صفين حين طالبه معاوية بن أبى سفيان بالقصاص من قتلة عثمان بن عفان، وكان ذلك أمرا متعذراً لأن عثمان قتل فى فتنة لم يعرف فيها قاتله على التحديد، وقد انتهت الحرب بمسألة التحكيم المشهورة، وظهور حزب الخوارج أول حزب فى الإسلام، وهو الحزب الذى استشهد الإمام

عليٌّ على يد أحد أعضائه وهو عبدالرحمن ابن ملجم، وكان ذلك في رمضان سنة ٤٠ هجرية، وباستشهاده انتهى عصر الخلافة الراشدة.

ويعد الإمام على أبا علم الكلام ومؤسسه ومن ذلك قوله فى القضاء والقدر.

فقد قام شيخ إليه يسأله قائلا: أخبرنا عن مسيرتنا إلى الشام أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ما وطئنا موطئًا ولاهبطنا واديا إلا بقضاء الله وقدره، فقال الشيخ: فعند الله أحتسب عنائى، وما أرى لى من الأجر شيئًا، فقال على: أيها الشيخ لقد عظم الله أجركم فى مسيركم وأنتم سائرون، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ولا إليها مضطرين. فقال الشيخ: فكيف والقضاء والقدر ساقنا؟

فقال: ويحك لعلك ظننت قدرًا لازمًا وقضاءً حتمًا، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب؛ والوعد والوعيد؛ والأمر والنهى، ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسىء ولا المسىء أولى بالذم من المحسن، تلك مقالة عباد الأوثان وجنود الشيطان وشهود الزور وأهل العمى عن الصواب.... إن الله سبحانه أمر تخييرًا، ونهى تحذيرًا، وكلف يسيرًا، ولم يُعْصَ مغلوبا، ولم يُطع مكرها، ولم يرسل الرسل إلى خلقه عبثًا. فقال الشيخ: فما القضاء والقدر اللذان ما سرنا إلابهما؟

فقال على: هما الأمر من الله والحكم، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ فنهض الشيخ مسرورًا، وعرف أن الإيمان بالقضاء والقدر لايتنافى مع اختيار العبد بنحو يصح معه الثواب.

وقد كان على رضي الله عنه فقيهًا متضلعًا فى العلم بصيرًا بدقائق الفقه، وكان مرجعًا لأصحابه فى الفتوى وحل المشكلات الكبيرة، وكان ممن عُرفوا بكثرة الفتوى، وكان يقول: سلونى عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أنزلت بليل أم نهار، فى سهل أو جبل.

وكانت فتاواه مرجعا لغيره، وندرت مسألة من مسائل الشريعة إلا كان له رأى فيها، ويمتاز على بين فقهاء المسلمين فى عصره بأنه جعل الدين موضوعًا من موضوعات التفكر والتأمل، ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، فقد امتاز بالفقه الذى يراد به الفكر المحض، والدراسة الخالصة، وأمعن فيه ليغوص فى أعماقه على الحقيقة العلمية «الحقيقة الفلسفية.

ويقول الدكتور سلام مدكور فى بيان ملكته

الفقهية:

(كان حاد الذكاء، إنسانيًا بكامل معنى الإنسانية، لا يقف فى فقهه عند ظواهر الألفاظ، وإنما يغوص فيها ويبحث عن علل الأحكام ومقصد الشريعة، ولقد كانت تبرز أحكامه فى المناسبات، وتكون فيها بعض المفاجآت التى لا يفهمها كثير من الناس إلا بالتلقى عن مثله من أجلاء الفقهاء).

فقد صح عنه أنه نهى أصحابه عن انتهاب أموال أعدائهم - المقاتلين فى صفين أنصار معاوية - إلا بالسلاح الذى قاتلوا به والدواب التى حاربوا عليها. ولما قيل له: كيف وقد حل لنا قتالهم، فلم لا يحل لنا سبيهم ومالهم؟ قال: ليس على الموحدين سبى، ولا يغنم من أموالهم إلا ما قاتلوا به وعليه، فدعوا مالا تعرفون، والزموا ما تعرفونه.

ولو كان غيره ممن خفى عليه الفقه، أو ممن لا يغوصون غوصه، لاستباح كل سبيهم وأموالهم.

ومن فقهه ـ وقد استشاره عمر فيما يكون عليه الحكم وقد اشتركت امرأة وآخر فى قتل ابن زوجها ـ فأشار علىّ بقتل كل من اشترك فى قتله وقال: أرأيت يا أمير المؤمنين لو أن نفرا اشتركوا فى سرق جزور فأخذ هذا عضواً وهذا عضواً أكنت قاطعهم؟ قال: نعم. قال علىّ: وذلك، فأخذ عمر برأيه.

ومن فقهه أيضا الحكم بتضمين الصناع إذا ما هلك الشىء فى أيديهم حتى يقيم الصانع الدليل على أن الهلاك لم يكن بسبب منه أو إهمال، وقال: إنه لا يصلح الناس إلا ذلك مع أنهم فى الصدر الأول وقبل خلافته كان الحكم أنهم لايضمنون لأن السلعة فى يدهم أمانة، ويد الأمين الأصل فيها عدم الضمان، لكنه رأى تغيير الحال عما كان عليه قبل، لأن الناس دخلهم حب الخيانة والطمع. فقد آثر - رضى الله عنه - جانب المصلحة واتجه إلى ما يسد أمام الطامعين باب العدوان على ما بأيديهم والخيانة فيه.

وكان - رضى الله عنه - بارعا فى حساب الفرائض، فقد روى أن امرأة سألته عن نصيبها فى تركة أخيها الذى مات عن ستمائة دينار، ولم يعطها الورثة سوى دينار واحد، فقال لها: هل لأخيك زوجة؟ قالت: نعم. قال: وبنتان وأم؟ قالت: نعم. ومات عندكم أخ وأخت؟ فقالت : عن اثنى عشر أخا وعنى، فقال: معك حقك الذى خصك!

ويروى أنه سئل يوما فى أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وبنتين فأجاب من فوره: صار ثمنها تسعًا. وسميت هذه المسألة بالمنبرية لأنه أفتى بها وهو على المنبر، ولذا

فإن ابن مسعود قال: إنه أعلم أهل المدينة بالفرائض.

واشتهر بالقضاء والمهارة فيه حتى شهد له النبى ﷺ بأنه أقضى الصحابة. ويروى أنه قال: بعثنى رسول الله قاضيا وأنا حديث السن فقلت: يارسول الله تبعثنى إلى قوم يكون بينهم أحداث ولا علم لى بالقضاء! قال: «**إن الله سيهدى لسانك ويثبت قلبك**». قال علىّ: فما شككت فى قضاء بين اثنين.

ومن أقواله :

١ - علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك على الكذب حيث ينفعك.

٢ - أدب المرء خير من ذهبه.

٣ - الفقيه كل الفقيه من لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من عذاب الله، ولا يرخص فى المعاصى، ولا يدع القرآن رغبة إلى غيره.

ومن وصيته لولديه الحسن والحسين: «أوصيكما بتقوى الله، وألا تبقيا على الدنيا وإن أبقتكما، ولا تبكيا على شىء زوى عنكما، وقولا الحق، وارحما اليتيم، وأغيثا الملهوف، واصنعا للآخرة، وكونا للظالم خصمًا، وللمظلوم ناصرًا، واعملا بما فى كتاب الله ولا تأخذكما فى الله لومة لائم».

ومما أثر عنه قوله: (يا دنيا غرى غيرى، ولقد باينتك ثلاثا لارجعة فيها، فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير، آه من قلة الزاد، وبُعّد السفر، ووحشة الطريق).

أ.د. حامد جامع

مراجع للاستزادة:

١ - الإمام على بن أبى طالب للأستاذ عبد الفتاح عبد المقصود.

٢ - نهج البلاغة للشريف الرضى.

٣ - عبقرية الإمام لعباس محمود العقاد.

٤ - على بن أبى طالب حاكما وفقيها للدكتور حامد جامع.

٥ - فى رحاب علىّ للأستاذ خالد محمد خالد.

٦ - علىّ بن أبى طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة للأستاذ عبد الكريم الخطيب.

٧ - اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا. تحقيق جمال الشيال.

على بن العباس المجوسى
(٠٠٠ - ٤٠٠ هـ = ٠٠٠ - ١٠١٠ م)

ولد بالأهواز، ببلاد فارس، لكن لم تذكر المراجع والمصادر التاريخية عام مولده، إلا أنه توفى عام ٤٠٠ هـ = ١٠١٠م، وكان من أطباء العرب الكبار، وأبرزهم فى التأليف الطبى، وقد ظل كتاب «الملكى» المعروف أيضاً باسم «كامل الصناعة الطبية» بمثابة المرجع الأوفى لدراسة الطب طيلة الفترة التى سبقت ظهور كتاب ابن سينا «القانون» ومع هذا كان العلماء يرون أن «الملكى» يمتاز عن «القانون» بالتفسيرات العلمية والاجرائية وأنه يعول عليه فى الممارسة أكثر من القانون الذى هو كتاب علم أما الملكى فقد كان كتاب فن أيضاً.

ومن الطريف أن صاحب هذا الكتاب المتميز لم يشتهر بكتب أخرى خلافا لما كان شائعاً من كثرة تأليف من يشرعون فى التأليف من علماء الحضارة الإسلامية، ومع هذا فإن هذا الكتاب وحده يدلنا على عالم وطبيب من طراز موسوعى متخصص إلى أقصى درجات الإجادة، وقد ضمّن مقدمة كتابه نقدا لكثير من أسلافه الأطباء الكبار سواء فى ذلك العرب (كالرازى) واليونانيون (أبوقراط وجالينوس) وعنه أوثر القول الموجز بأن أبوقراط يميل إلى الإيجاز والغموض على حين أن جالينوس يميل إلى التوسع والتطويل وقلة العناية، وقد وجه نقداً مماثلاً لكتابى الرازى المشهورين فقال: عن «المنصورى فى التشريح» إنه شديد الاختصار وعن «الحاوى» إن ضخامته وتكاليفه تجعل الحصول عليه مطلباً وعراً.. وقد ألف المجوسى كتابه من جزءين جعل الأول لنظرية الطب وعلومه الأساسية وبايولوجية الأمراض وصورها الاكليكية فضلاً عن عوامل الإصلاح والتغذية وقد فصل القول فى هذه العلوم كلها من خلال عشر مقالات مطولة، أما الجزء الثانى فجعله لطرق العلاج المختلفة وخصص المقالة الأخيرة من هذا الجزء ما يقابل العلوم الصيدلية فى عصرنا الحالى وقد استعرض فى مقالة الأدوية المركبة ثلاثين نوعا أو مجموعة من المجموعة الدوائية.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - د. برهان العابد، مختارات من تاريخ الطب. منشورات جامعة دمشق ١٩٩٩م.
٢ - د. بول غليونجى، قطوف من تاريخ الطب، دار المعارف ١٩٧٩م.
٣ - د. شوكت موفق الشطى، تاريخ الطب. مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧م.

علـى عبـد الـرازق
(١٣٠٥ - ١٣٨٦هـ = ١٨٨٨ - ١٩٦٦م)

وُلد فى بيت كبير من بيوت العلم والسياسة، إذ كان أبُوه حسن عبد الرازق سياسيًا مشهورًا، وهو فى الوقت نفسه من علماء الأزهر يتزيَّى بزىّ العلماء، وكان صديقًا للأستاذ الإمام محمد عبده، الذى دأب على زيارة ندوة حسن عبد الرازق، وكان مصطفى عبد الرازق وأخوه على من طلاب الأزهر، فرأيا فى الإمام قدوة علمية وخلقية، وأخذا فى السير على نهجه.

وُلد على عبد الرازق فى قرية أبى جرج من أعمال محافظة المنيا سنة ١٨٨٨م، وأحاط بالعلوم الدينية واللغوية إحاطة جعلته يحرز شهادة العالمية بنجاح، وقد عُيّن مدرسًا بالأزهر، فآثر أن يدرس للطلاب علوم البلاغة على نهج جديد، إذ كانت «حواشى السعد» حينئذ هى المرجع الأول، مع ما أضافه الإمام محمد عبده من تقرير كتابى «أسرار البلاغة» و«دلائل الإعجاز» للإمام عبد القاهر الجرجانى، وقد قام بشرح فصول منهما، ولكن الوسط العلمى بالأزهر لم يُرحب بهما على وجه مستتير؛ إذ كانت طريقة عبد القاهر تخالف منهج المدرسة السكّاكية فى التعريف والتقعيد وإظهار الاعتراضات اللفظية والمنطقية، وأراد على عبد الرازق أن يستعين بكتابى عبد القاهر فى دروس جديدة يلقيها على الطلاب، فكتب مؤلفًا تحت عنوان «الأمالى» كان طليعة التأليف البلاغى المتحرر بعض الشىء من طريقة الحواشى، وبهذا الكتاب بزغ فجر جديد فى التأليف البلاغى على يد على عبد الرازق، ثم سافر إلى إنجلترا سنة ١٩١٢م، فالتحق بجامعة أكسفورد، وأجاد الإنجليزية إجادة جعلته يقرأ كتب الاستشراق باهتمام، وحين قامت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م رجع إلى مصر بعد عام من نشوبها سنة ١٩١٥م، ليكون قاضيا بمحكمة الإسكندرية الشرعية، وليدرس تطوعا لطلاب المعهد الدينى بالإسكندرية.

وظل الأستاذ قائمًا بوظيفته فى القضاء الشرعى حتى سنة ١٩٢٥م حين أصدر كتابه

«الإسلام وأصول الحكم»؛ فأحدث ضجة عاتية لا يزال صداها يتردد إلى الآن، وقد فُصِل من وظيفته إزاء ما أصر عليه من صحة ما قال، ولكى نقول كلمة الحق فى هذا الكتاب الذى أحدث من البلبلة ما كان موضع صراع بين الأحزاب السياسية، نعلن أن الأستاذ قد اجتهد فأخطأ، لأنه قرر أمورًا غير صحيحة ردَّها الذين تفرغوا لنقده، ومنهم: الإمام محمد الخضر حسين، والشيخ محمد بخيت المطيعى، ومحمد الطاهر بن عاشور وغيرهم، كما جاء رد هيئة كبار العلماء يثبت على الأستاذ ما يلى:

١ - القول بأن الشريعة الإسلامية شريعة روحية محضة لا علاقة لها بالحكم والتنفيذ فى أمور الدنيا.

٢ - القول بأن الدين لا يمنع من أن جهاد النبى ﷺ كان فى سبيل الملك لا فى سبيل الدين.

٣ - القول بأن نظام الحكم فى عهد النبى ﷺ كان موضع غموض وإبهام واضطراب ونقص وموجبًا للحيرة.

٤ - القول بأن مهمة النبى ﷺ كانت بلاغًا للشريعة مجردًا عن الحكم والتنفيذ.

٥ - إنكار إجماع الصحابة على وجوب نصب الإمام، وعلى أنه لابد للأمة من إمام يقوم بأمرها فى الدين والدنيا.

٦ - إنكار أن القضاء وظيفة شرعية.

٧ - القول بأن حكومة أبى بكر والخلفاء الراشدين من بعده كانت حكومة لا دينية.

هذه هى الآراء الخاطئة التى صادفت اعتراض أولى العلم، وقامت بنقضها هيئة كبار العلماء فى بيان أصدرته للناس، كما قام بتفنيدها كبار العلماء فى كتب مستقلة، وقد أشرنا إلى ذلك، وإذا كان الأستاذ قد قرأ كتب الاستشراق قراءة غير ناقدة؛ فإنه تأثر بها فى هذه الآراء بما باعده عن الصواب، ومن الجدير بالذكر أنه رجع عن هذه الآراء رجوعًا صريحًا أصدره فى مقال نشره بمجلة رسالة الإسلام تحت عنوان (الاجتهاد فى نظر الإسلام)، والمقال مدوَّن بالعدد الصادر فى رمضان سنة ١٣٨٠ هـ الموافق يوليو سنة ١٩٥١م فى صفحتى ٢٤٦، ٢٤٧، وقد أشرت إلى تاريخ الصدور ورقم الصفحات، لأقول للذين ينكرون هذا الرجوع الصريح: إن الحق حق ولا مراء فيه، والمجلة بين أيدينا.

قال الأستاذ: «قرأت بحثًا قيِّمًا للأستاذ أحمد أمين جاء فى صدره أنه كان يتجادل معى، فقلت أثناء الجدال: إن دواء ذلك أن ترجع إلى ما نشرته قديمًا من أن رسالة

الإسـلام رسـالة روحـيـة فـقـط، ولنا الحق فيـمـا عـدا ذلك من مـسـائل ومـشـاكل، وقـد وقفت أمام كلمة «رسالة روحانية» ولم تشأ أن تمر دون أن تثير ذكرى قضية قديمة لهذه الكلمة معى، فقد زعم الطاعنون أنى فى هذا البحث قد جعلت الشريعة الإسلامية شريعة روحانية محضة، ورتبوا على ذلك ما طوعته لهم أنفسهم أن يفعلوا، أما أنا فقد رددت عليهم بأنى لم أقل فى هذا الكتاب ولا غيره، ولا قلت شيئا يشبه هذا الرأى ولا يدانيه».

هذا مـا قـاله الأسـتـاذ على فى مـجـال التراجع، لأن الكتاب بأيدينا وهو يقول فيه بصريح العبارة ص ٦٩ من الطبعة الأولى: «ولاية الرسـول على قـومـه ولاية روحـيـة منشـؤهـا إيمان القلب، وولاية الحـاكم ولاية مادية تعتمد على إخضاع الجسم من غير أن يكون له بالقلوب اتصال، تلك زعـامـة دينيـة، وهذه زعـامـة سـيـاسـيـة، ويا بعـد مـا بين السياسة والدين».

وإذن فالرجل قد تراجع صريحا دون أن يقول إنه تراجع، بل بإنكار ما قال من قبل من أن رسالة محمد ﷺ روحية فقط.

وقد لابس الأستاذ الحياة السياسية، ولكنه فى المجال العلمى لم يصدر غير الكتب الآتية:

١ - أمالى على عبد الرازق فى علم البيان وتاريخه.

٢ - الإسـلام وأصـول الحكم (بحث فى الخلافة والحكومة فى الإسلام).

٣ - الإجمـاع فى الشـريعـة الإسـلامـيـة: محاضرات ألقاها على طلاب قسم الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بالقاهرة، وقد عارضه الإمام محمود شلتوت فى بحوثه عن الإجمـاع دون أن يشير إلى الأستـاذ؛ ليكون الحديث موضوعيًا لا ذاتيًا.

٤ - من آثار مصطفى عبد الرازق، وهو مجموعة لمقالات أخيه صُدِّرت بمقدمة طويلة للأستاذ على عبد الرازق، تصلح أن تكون كتابًا مستقلا، وقد جمعت من أخبار الأدب والعلم والسياسة فى هذا العصر ما تعد به مرجعًا مهمًا.

٥ - مقالات متفرقة نشرت بمجلة الهلال ومجلة الثقـافة والسياسـة الأسـبوعيـة، ولو جُمعت لكانت تراثًا حافلا.

ولم يترك الأستاذ على عبدالرازق اهتمامه بتجديد البلاغة، حيث نشر فصولا عن هذا التجديد بمجلة الهلال، والذين يؤرخون للتطور البلاغى فى هذا العصر عليهم أن

يرجعوا إلى ما كتب الأستاذ فى القديم والحديث.

وقد انتخب عضوًا بمجمع اللغة العربية، كما انتخب عضوًا بمجلس النواب ومجلس الشيوخ، كما اختير وزيرًا للأوقاف فى نهاية الأربعينات. وكانت آراؤه فى المجالس الثلاثة ذات نقد وتوجيه، ثم انتقل إلى رحمة الله فى سنة ١٩٦٦م، فأشادت الجرائد بحرية فكره، واهتمامه فى بحوثه بالجدة والابتكار. رحمه الله.

أ. د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١- كتاب الإسلام وأصول الحكم، عدة طبعات.
٢- ما كتبه الأساتذة محمد بخيت المطيعي ومحمد الطاهر بن عاشور، وضياء الدين الريس فى كتب مستقلة خاصة بنقد هذا الكتاب.
٣- أمالى على عبد الرازق فى البلاغة العربية.
٤- الإجماع فى الشريعة الإسلامية (محاضرات ألقيت على طلبة كلية الحقوق بالدراسات العليا).
٥- من آثار مصطفى عبد الرازق - كتاب كبير طبعته دار المعارف بتقديم الدكتور/ طه حسين.
٦- المجمعيون فى خمسين عامًا: للدكتور/ محمد مهدى علام.
٧- مجلة مجمع اللغة العربية جزء ٤٢ / ٢٥٦.
٨- الأعلام للزركلى حـ ٤ / ٢٧٦.

على محمود
(١٢٩٧ - ١٣٦٢هـ = ١٨٨٠م - ١٩٤٢م)

كان الجو المصرى فى عهد على محمودالأول مُشبعًا بالروح الدينية، فما يكاد يمرُّ أسبوع حتى ينعقد بالمسجد عقب صلاة الجمعة مجلس لقراءة القرآن، وكان المسجد الحسينى والمسجد الزينبى من أحظى المساجد احتفالا وزوارًا بهذه القراءة، لأن مشيخة الكبار من القارئين كانوا يتصدرون الحلقة، ومنهم المشايخ/ إسماعيل سكر، وحنفى برعى، ومحمد المناخيلى، وكان الفتى الصغير على محمود لا يترك مجلس الجمعة مهما قامت دونه الحوائل، وفيه ظهرت مواهبه؛ حيث كان أساتذته يفسحون له طريق التلاوة كناشئ صغير.

ولقد وُلد على محمود بالقاهرة سنة ١٢٩٧هـ = ١٨٨٠م بدرب الحجازى بناحية الجمالية قريبا من المسجد الحسينى، وكان كالشيخ محمد رفعت عند ميلاده مُبصرًا، ثم أدركته الآفة بعد سنوات قليلة، فانصرف إلى حفظ القرآن على يد الشيخ أبى هاشم فى مكتبه الملحق بمسجد أم الغلام، وجوّد القرآن، وأخذ بعض مسائل الفقه اليسيرة فى هذا المسجد أيضا. وقد أصيب فيما يقرب من الخامسة عشرة من عمره بوفاة أبيه، وجلس فى المسجد يبكى، فرآه بعض الذين عرفوه قارئا مجيدا، فسأله أحدهم عن بكائه، ثم طمأنه على مستقبله لأنه ذو صوت حسن، وأوسع له فى مجلس القراءة تحت الثريا الكبيرة، فذاع صيته، وكان من عادة المشايخ الكبار فى حفلات المآتم أن يصطحب الشيخ الكبير شابا معه، للمناوبة فى التلاوة حين يضطر الشيخ الكبير للاستراحة، فكان على محمود يجد فرصته فى هذه النوبات، وقد يستقل بالقراءة إذا تأخر شيخه لعذر، ومن هنا أتاح الله له الرزق موفورًا. وقد انفرد الشيخ عن كثير من المشاهير بإجادة التسابيح قُبيل الفجر على المآذن، ثم بالابتهالات الدينية ذات النظم الشعرى فى حفلات الذكر، وكذلك أجاد قراءة قصة المولد النبوى، وكانت حفلات المولد فى زمن الشيخ تكاد تكون شعيرة عند أعيان القاهرة، فأصبح على محمود بطلها المعلم، وما زلنا

للآن نسمع فى الإذاعة القرآنية ابتهالات الرجل وتسابيحه أكثر مما نسمع ترتيله القرآنى.

يقول الأستاذ عبد الرحمن صدقى: «وقد كان نوابغ المقرئين على عهده كثيرين، وهم يختلفون بعضهم عن بعض أشد الاختلاف فى جوهر الصوت وطبقته، وطريقة القراءة وموضع الإجادة، وسر التأثير، فمنهم من كان إلى التضخيم أميل، ومنهم من كان أميل إلى الترقيق، ومنهم من لم يرزق حلاوة الصوت لكنه أوتى المقدرة على التصوير، ومنهم من يعمد إلى التطريب، ومنهم من يظهر فى تلاوته شجى التخشع، وبحة البكاء، وما إلى ذلك من الألوان والألحان، وقد استمع الشيخ على محمود إلى هؤلاء وغيرهم، واشترك فى السهرات مع بعضهم، إلا أن ثروته من الفن ما زالت تزداد ويتوفر حظه منها، حتى أصبح إمام طريقة فى القراءة لا ينافسه فيها منافس، لأنه يجمع فى فنه محاسن هؤلاء جميعًا، فهو إذا رفع صوته بالقراءة رائع الجهارة والتضخيم، وإذا رقّقه كاد يذوب من فرط النعومة واللين، فيبلغ ما لا يبلغ أحد فى قوة الأداء وصدق التصوير».

وقد يظن الذى يسمع الأشرطة المسجلة لقراءاته، أنها تعطى صورة تامة لصوته، وهذا بعيد جدا، شأنه فى ذلك شأن الشيخ محمد رفعت؛ لأن هذه الأشرطة متآكلة من أكثر من ثمانين عامًا، وقد سقطت منها حروف ونبرات، فهى لا تعطى المدلول الصحيح، ومع ذلك فهى شاهد على إتقانه الحميد.

ولا يُغْفل المُتحدِّث عن الشيخ على محمود مكانته فى قراءة القصة النبوية، فقد كانت القصص المشتهرة فى هذا الزمن هى قصص المناوى، والبرعى، والحنْبيهى، وسويدان، والبرزنجى، وفيها من غرائب المعجزات المتخيلة ما يقع موقع القبول من العامة، ولكن الذين درسوا التاريخ النبوى يكذبون هذه الأساطير، ويعرفون أنها لا تزيد شيئًا من مكانة الرسول الأعظم، وهل تُجدى السيرة أن نذكر مثلا أن وحوش المشرق ليلة المولد فرت إلى وحوش المغرب! وكيف وقع هذا؟ لذلك كان الشيخ على محمود يختار قصة البرزنجى لأنها أقل تكلفا وافتعالا من غيرها، وقد بلغ من تأثيره فى إلقائها أن كثيرًا من العامة كانوا يحفظونها حفظًا، وحين اعترض بعض كتّاب الصحف على ما فى القصة من نواحى الافتعال، ووجّه الحديث إلى الشيخ على محمود بالذات، وافق الشيخ على الاعتراض، وطلب من وزارة الأوقاف أن تقيم مسابقة لتأليف قصة نبوية جديدة، فوافقت على ذلك، وتقدم للمسابقة كثير من الأدباء، ففازت

قصة الأستاذ عبد الله عفيفى المسماة (المولد النبوى المختار)، وقد قرظها الأستاذ عبد الوهاب النجار، فقال: إنها على قصرها تذكره ببعض ما كتبه القاضى عياض فى الشفاء. وكانت قصة الأستاذ عبد الله عفيفى جديرة بالذيوع والقبول لولا أن أسلوبها البيانى الجزل قد ارتفع عن مستوى العامة كثيرًا، وهذا ما لاحظه الشيخ على محمود؛ فطلب من الأستاذ عبد الله عفيفى قصة أخرى، تكون سهلة المعنى والمبنى، وتكون مسجوعة على نظام قصص المولد التى تعوّد عليها السامعون فى قصص البرعى واليرزنجى، فاستجاب، وألحق كتابه بالقصة المطلوبة، فجمع الكتاب قصتين لا قصة واحدة.

ومما يدل على صعوبة التأليف لدى الأستاذ عبد الله عفيفى قوله فى بعض القطع التى أعدها للإنشاد الموسيقى أثناء القراءة:

قفْ دون خدر المكرمات مثُولا

وانْثر عليه سلامك الموصولا

وأطِلْ بَمغْناه الوقوف فإنه

بيت أطل بظله جبريلا

فأين هذا مما كان يقال، مثل:

الكون أشرق بهجةً ونعيما

صلوا عليه وسلموا تسليما

وفى حلقات الذكر بالمسجد الحسينى كان الشيخ على محمود غِرّيدَ هذه الحلقات، وله فيها اختيارات تدل على إلمامه بالأدب العربى، واختيار ما يُهيج المشاعر، ولا زالت الإذاعة تختار من مقطوعاته ما كان يردده من قول ابن الفارض:

تِهْ دلالاً فأنت أهلٌ لذاكا

وتحكّم فالحسنُ قد أعطاكا

ولك الأمر فاقضِ ما أنت قاضٍ

فعلى الجمال قد ولاّكا

مع قصيدتى شوقى (ولد الهدى) ، (سلوا قلبى)، وقصيدة البوصيرى (كيف ترقى رقيك الأنبياء).

وقد قال بعض الكُتاب إن الشيخ على قارئ ابتهالات وتسابيح ومنشدُ أذكار بالدرجة الأولى، وقارئ للكتاب المبين بالدرجة الثانية، وهذا ظلم بيّن، لأن الشيخ رحمه الله قد ابتدأ قارئا، وواصل القراءة طيلة حياته، ولم ينقطع إلا فى ثلاثة الأعوام الأخيرة التى خَدَش بها المرض نبرات صوته، وقد تأثر لانقطاعه عن القراءة تأثرًا جعله يبكى! وما أظن تعدد المواهب لدى الرجل تحيف مقامه

حين نقصر إبداعه على لون دون لون، والواقع المشهود ينطق بتفوقه فى كل اتجاه. وقد انتقل إلى رحمة الله فى سنة ١٣٦٢هـ = ١٩٤٢م، فاحتفلت الجرائد بمنعاه، وأقيمت له بدار الأوبرا الملكية حفلة تأبين، خطب فيها وزير الخارجية الدكتور محمد صلاح الدين خطبة شاملة مستوفاة، جمعت تاريخ الفن من خلال حياة الفقيد الكبير.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين، جـ (٤)، للدكتور محمد رجب البيومى.

٢ - مجلة المجلة (العدد الصادر فى أبريل سنة ١٩٦٠م)، مقال للأستاذ عبد الرحمن صدقى.

٣ - مجلة صباح الخير، (مجموعة سنة ١٩٤٢م).

٤ - مجلة المجلة : إبريل سنة ١٩٦٠م.

العماد الأصبهانى
(٥١٩ - ٥٩٧ هـ = ١١٢٥ - ١٢٠١م)

هو أبو عبد الله: محمد بن محمد بن صفىّ الدين أبى الفرج بن نفيس الدين أبى الرجاء محمد ابن حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله، الملقب بالعماد الكاتب الأصبهانى، ويعرف بابن أخى العزيز (عماد الدين أبو عبد الله).

أديب وكاتب وشاعر بيانى وفقيه ومؤرخ، ولد بأصبهان، فى ثانى جمادى الآخرة سنة ٥١٩هـ (وقيل شعبان)، الموافق ١١٢٥م ونشأ بها حيث درس المذهب الشافعى، وقَدِم بغداد، وانتظم فى سلك طلبة المدارس النظامية، ثم عاد إلى أصبهان، فتفقه بها على مذهب الإمام الشافعى، وسمع الحديث، ثم رجع إلى بغداد واشتغل بصناعة الكتابة، فبرع فيها وذاع صيته، واتصل بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة وزير الخليفة العباسى المقتفى، فولاَّه نظر البصرة ثم نظر واسط، ثم توفى ابن هبيرة (سنة ٥٥٥ هـ = ١١٦٠م) فضعف أمره «وبقى فى عيش منكد وجفن مسهد» - على حد تعبير معاصره ابن خلكان - فرحل إلى دمشق سنة ٥٦٢هـ، واستخدمه السلطان نور الدين فى ديوان الإنشاء حيث ارتبط بالشهرزورى، فتولى أمور دمشق من قبل السلطان نور الدين، وكان الشهرزورى يحضر مجالس علم «العماد» فعرف مكانته العلمية؛ ولهذا ولاَّه التدريس بالمدرسة النورية بدمشق (٥٦٧ هـ = ١١٧١م)، وهى التى عرفت بالمدرسة العمادية نسبة إليه، ثم رشح للعمل فى ديوان الإنشاء، فقبل بعد تردد، وعلت منزلته وتفوق حتى أشرف على ديوان الإنشاء (المماثل لوزارة الخارجية الآن)، وقد ساعد على تميزه معرفته بالعربية والفارسية وكتابته بهما، وبعد وفاة نور الدين التقى العماد بصلاح الدين الأيوبى فى حمص سنة (٥٧٠هـ = ١١٧٤م)، وبقى منذئذ ملازمًا له لا يفارقه فى حِلّه وترحاله، وعلت مكانته جدا حتى مدحه معاصروه، ثم مات صلاح الدين، فلزم العماد بيته، واقتصر عمله على التصنيف والتأليف، حتى وافته المنية أول رمضان سنة ٥٩٧ هـ الموافق ١٢٠١م.

ومن أهم مؤلفاته :

- خريدة القصر وجريدة أهل العصر، فى نحو عشرة مجلدات.
- ديوان شعر، فى أربعة مجلدات.
- ديوان رسائل، فى عدد من المجلدات.
- الفتح القسىّ فى الفتح القدسى، فى مجلدين، ويتناول هذا الكتاب أحداث السنوات التى تبدأ من سنة ٥٨٣هـ (سنة «حطين» وفتح بيت المقدس)، وتصل إلى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ، وما حدث من تقسيم مملكته بين أولاده وإخوته وأبناء عمومته.

أ.د. عبد الله جمال الدين

مراجع للاستزادة :

١- تعريف عبد الحكيم راضى، وتقديم أ.د. حامد زيدان غانم لكتاب «الفتح القسى فى الفتح القدسى».
٢- أ.د/ أحمد بدوى: الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، ص ٣٦٤ - ٣٧٢.
٣- د/ شكرى فيصل، وأحمد أمين، وشوقى ضيف: مقدماتهم لكتاب الخريدة.
٤- مظفر سلطان: العماد الأصبهانى.
٥- الذهبى: سير أعلام النبلاء ١٣/٧٩، ٨٠.
٦- الإسنوى: طبقات الشافعية ١٤٥.
٧- ياقوت: معجم الأدباء ١٩/١١ - ١٨.
٨- سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان ٨/٣٢٧ - ٣٣٠.
٩- ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ٦/١٧٨ - ١٧٩.
١٠- أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر ٣/١٠٥.
١١- ابن كثير: البداية والنهاية ١٣/٣٠، ٣١.
١٢- اليافعى: مرآة الجنان ٣/ ٤٩٤.
١٣- النعيمى: الدارس ١/٤٠٨ - ٤١٣.
١٤- ابن العماد: شذرات الذهب ٤/٣٣٢ - ٣٣٤.
١٥- إيضاح المكنون ٢/٩٢.
١٦- خير الدين الزركلى: الأعلام جـ ٤ / ٣٦.
١٧- عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١١/٢٠٤، ٢٠٥.
١٨- دائرة المعارف الإسلامية: مادة العماد.
١٩- بروكلمان: تاريخ الأدب العربى.

ابن العماد الحنبلى
(١٠٣٢ - ١٠٨٩هـ = ١٦٢٣ - ١٦٧٩م)

هو أبو الفلاح عبد الحى بن أحمد بن محمد بن العماد العسكرى الدمشقى الصالحى الحنبلى، المعروف بابن العماد، مؤرخ وفقيه وأديب وعالم بالأدب.

ولد فى الشامن من رجب سنة ١٠٣٢هـ الموافق ١٦٢٣م بدمشق ودرس فيها على رجال المذهب الحنبلى فى القرن الحادى عشر الهجرى، ومن أجلِّهم: الشيخ أيوب، والشيخ عبد الباقى مفتى الحنابلة، والشيخ محمد شمس الدين البلبانى الصالحى.

ولما بلغ من الشباب، رحل إلى القاهرة حيث مكث سنوات طويلة دَرَس فيها على شيوخها ودَرَّس أيضا، ثم عاد إلى الشام حيث كانت دفاتره قد امتلأت بالهوامش والتقييدات، فقد كان من أقدر الناس على الكتابة والتحرير. وفى دمشق لزم الإفادة والتدريس، فانتفع به كثير من أهل العصر.

من أشهر تلاميذه: الشيخ مصطفى الحموى المكى، والمحبى صاحب «خلاصة الأثر».

وتوفى بمكة حاجًا فى ١٦ من ذى الحجة سنة ١٠٨٩هـ الموافق ١٦٧٩م.

ومن أهم مؤلفاته :

- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، وهو مطبوع فى ثمانية أجزاء.
- بقية أولى النهى فى شرح المنتهى، أى منتهى الإرادات، لتقى الدين التنوخى، (فى الفقه الحنبلى).
- شرح البديعية، لابن حجة الحموى.
- معطية الأمان من حنث الأيمان فى الفقه.

ابن العماد وكتابه : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب :

يعتبر هذا الكتاب من أهم كتبه على الإطلاق، ويأتى ابن العماد فى نهايات تقليد طويل للعلماء الحنابلة فى كتابة التاريخ على السنين ومزجه بالتراجم، وكان ابن الجوزى بدأ فى «المنتظم» فى القرن السادس الهجرى، ثم تابعه سبطه فى «مرآة الزمان»، واليونينى فى «ذيل مرآة الزمان». وبلغ هذا الفن ذروته

عن الحافظ الذهبى فى كتابه الضخم «تاريخ الإسلام».

و «شذرات الذهب» ليس فى واقعه أكثر من تلخيص لكتب : تاريخ الإسلام للذهبى، والدرر الكامنة لابن حجر، والضوء اللامع للسخاوى، والكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة للنجم الغزى، وموجزاً ومذيلاً لما ألف على السنين لتاريخ الطبرى، وابن الجوزى، وابن الأثير، ومرآة الزمان، وعيون التواريخ لابن شاكر الكتبى، والبداية والنهاية لابن كثير، وما ألف على البلاد كتاريخ بغداد والشام وقزوين ودمشق وغيرهم من كتب المتقدمين.

وتكمن أهمية كتاب «شذرات الذهب» فى ترجمته لمعاصريه من رجال القرن الحادى عشر الهجرى، ثم فى اعتماده على بعض المصادر التى لم تصل إلينا. رحم الله مؤلفه رحمة واسعة.

أ.د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة :

١- المحبى فى خلاصة الأثر ٢/٣٤٠، ٣٤١.
٢- البغدادى فى إيضاح المكنون ٢/٤٢، ٥٧ وهدية العارفين ١/٥٠٨.
٣- جورجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية ٣/٣١٠.
٤- الزركلى فى الأعلام ٣/٢٩٠.
٥- عمر رضا كحالة فى معجم المؤلفين ٥/١٠٧.
٦- بروكلمان فى تاريخ الأدب العربى ٢/٣٨٣ والملحق ٢/٤٠٣.
٧- شاكر مصطفى فى دول العالم الإسلامى ورجالها ٣/١٦٧٨.

عمر بن الخطاب
(٠٠٠ - ٢٣هـ = ٠٠٠ - ٦٤٤م)

هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل ابن عبد العزى بن رياح، من بنى عدى أحد بطون قريش، ولد فى مكة بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة، أى فى سنة ٤٨٥م ، وكان مشهودًا له فى قريش بالشرف والمكانة، فجعلت قريش إليه السفارة فى الجاهلية، "فكانت قريش إذا وقعت الحرب بينهم أو بينهم وبين غيرهم - بعثوه سفيرا، أى رسولا . وإذا نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر بعثوه منافرا أو مفاخرا"[١].

وأمه حنتمه بنت هاشم بن المغيرة من بنى مخزوم، وهى بنت عم أبى جهل بن هشام بن المغيرة. وقد كان عمر قوى الشكيمة مرهوب الجانب فى الجاهلية، وعندما جاء الإسلام لم يسارع بالدخول فيه بل كان من أشد المعاندين له، ولهذا قال فيه بعض الصحابة من السابقين إلى الإسلام تعبيرا عن يأسه من إسلامه: «لا يسلم عمر حتى يسلم حمار الخطاب»[٢]. وقد بلغ كيد عمر للإسلام حدا جعله يفكر فى قتل الرسول صلى الله عليه وسلم عندما كان يتخذ دار الأرقم بن أبى الأرقم مركزًا لدعوته، ثم شرح الله صدره للإسلام.

وقد أسلم عمر فى العام السادس للبعثة. وتختلف الروايات فى سبب إسلامه، ولعل أشهر هذه الروايات تلك التى تربط بين إسلامه وإسلام أخته فاطمة وزوجها سعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل. ذلك أن عمر عندما علم بإسلامهما تملكه الغضب وتوجه من فوره إلى بيتهما وفى عزمه أن يبطش بهما . ثم انتهى به الأمر بعد أن صفع أخته وأسال الدم من وجهها إلى أن طلب منها أن تعطيه الصحيفة التى كانت تقرأ فيها هى وزوجها وبها سورة طه . فلما قرأها ووصل إلى قوله تعالى ﴿**إننى أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى**﴾[٣]، اشتد به التأثر، فسأل عن مكان الرسول صلى الله عليه وسلم فعلم أنه مع أصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم عند الصفا، فاتجه إلى هناك حيث أعلن إسلامه[٤]. ومما يروى

أيضا فى سبب إسلامه أنه سمع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن أثناء صلاته عند الكعبة، فلما فرغ من صلاته انصرف إلى بيته، فانصرف وراءه عمر حتى أدركه وأقر أمامه بالإسلام(٥) ومهما تعددت الروايات حول سبب إسلام عمر فإن لنا أن نستنتج أن قرار إسلامه لم يكن عفويا بل كان قرارا ناتجا عن روية وتفكير لأن مثل عمر لم يكن ليتخذ قرارا خطيرا كهذا دون إمعان نظر وطول تدبر.

وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدرك ما لإسلام عمر من دور خطير فى تعزيز كلمة الإسلام ورفع رايته؛ ولهذا يؤثر عنه أنه قال: "اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: عمر بن الخطاب أو عمرو بن هشام" يعنى أبا جهل(٦). لقد أعطى إسلام عمر للمسلمين قوة معنوية كبيرة، فقد كان - كما ذكرنا- قوى الشكيمة مرهوب الجانب، فتشجع المسلمون بإسلامه وجهروا بدعوة الإسلام. ويصور ذلك خير تصوير قول عبد الله بن مسعود: «كان إسلام عمر فتحا، وكانت هجرته نصرا، وكانت إمارته رحمة، ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلى فى البيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا»(٧). وقد استمر عمر فى مكة يتحدى قريشا بإسلامه دون خوف، ولما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى فى يده أسهما ومضى نحو الكعبة "والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعا متمكنا، ثم أتى المقام فصلى متمكنا، ثم وقف على الحلق - أى جماعات قريش واحدة واحدة - وقال لهم: شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس أى الأنوف. من أراد أن تثكله أمه ويؤتم ولده ويرمل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى"(٨) فلم يتبعه منهم أحد.

وبعد الهجرة إلى المدينة تأسست الدولة الإسلامية بتحقق العناصر الضرورية لقيام الدولة وهى الأرض والشعب والقيادة. وقد أصبح الرسول ﷺ وهو الرئيس الأعلى للدولة الجديدة، وكان لابد له من معاونين يستند إليهم فى إدارة شئون هذه الدولة، وقد كان أبو بكر وعمر على رأس هؤلاء المعاونين وكانا بمثابة وزيرى رسول الله ﷺ رغم أن لقب «الوزير» لم يكن قد ظهر بعد. يروى ابن كثير بسنده عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ أنه قال: «نزلت فى أبى بكر وعمر، وكانا حواريى رسول الله ﷺ ووزيريه وأبوى المسلمين»(٩). وكان عمر يتصف بالإلهام وسداد الرأى؛ ومن هنا خلع عليه الرسول ﷺ هذا اللقب الرفيع وهو الفاروق وذلك فى قوله: «**إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه، وهو الفاروق، فرق**

الله به بين الحق والباطل»[10]. ونزل القرآن بموافقة عمر فى رأيه فى غير موضع ، وقد قال ابن عمر فى ذلك: «مانزل بالناس أمر قط فقالوا فيه وقال فيه عمر بن الخطاب إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر»[11] فمن هذه المواضع قوله تعالى: ﴿ **واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى** ﴾[12]. فقد نزلت بعد ما قال عمر للرسول ﷺ: «يارسول الله، لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى». ومنها أيضا آية الحجاب، فقد اقترح عمر على الرسول ﷺ أن يأمر نساءه بالحجاب، فنزل قوله تعالى: ﴿ **وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب** ﴾[13]. ومنها ما نزل فى أسرى بدر، فقد رأى أبو بكر قبول الفداء منهم ورأى عمر قتلهم، فنزل قوله تعالى: ﴿ **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم • لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** ﴾[14].

أما بعد وفاة الرسول ﷺ فقد قام عمر بدور حاسم فى بيعة أبى بكر فى اجتماع سقيفة بنى ساعدة . فقد عقد الأنصار عزمهم على اختيار سعد بن عبادة خليفة للرسول ﷺ وطرح سعد بن عبادة وجهة نظر الأنصار فى تطلعهم إلى الخلافة ودافع عنها بشدة ، وكان عمر قد علم بخبر هذا الاجتماع فأسرع إلى أبى بكر وأبى عبيدة يطلب منهما التوجه معه إلى السقيفة والاشتراك فى مناقشاتها التى يترتب على نتائجها تقرير مصير الأمة، ورشح عمر أبا بكر لهذا المنصب الخطير بوصفه أجدر المسلمين به لما يتمتع به فى الإسلام من مكانة لاينافسه فيها غيره[15]. وهكذا تم اختيار أبى بكر أول خليفة للمسلمين فى هذا المؤتمر العظيم الذى أسهم فيه عمر بدور لا ينكر.

وكان عمر لا يكاد يفارق أبا بكر أثناء الفترة التى مارس فيها مهام منصبه (١١ - ١٣هـ = ٦٣٢ - ٦٣٤م)، فقد كان ساعده الأيمن أو «وزيره» الذى لم يكد أبو بكر يقطع أمرًا بدونه.

وقد تولى عمر الخلافة يوم مات أبو بكر وكان أبو بكر قد استشار "أهل الحل والعقد" من المهاجرين والأنصار فى اختيار عمر خليفة للمسلمين من بعده فأمّروه على اختياره وأجمعت عليه الأمة. وقد شهدت خلافة عمر التى استمرت عشر سنوات وبضعة أشهر عددا من التطورات الهائلة فى دولة الإسلام الناشئة. يذكر ابن كثير فى هذا الصدد: أن عمر هو "أول من دعى أمير المؤمنين وأول من كتب التاريخ ... وأول من عسّ بالمدينة ... وجلد فى الخمر ثمانين، وفتح الفتوح، ومصّر الأمصار، وجنّد الأجناد.

ووضع الخراج، ودوّن الدواوين ... واستقضى القضاة"[١٦].

وتستوقفنا هنا بصفة خاصة بضعة أمور، أولها أن عمر أول من استعمل التاريخ الهجرى، واتخذ هذا القرار سنة ١٦ هـ حيث رأى عمر أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة تعد من أخطر أحداث التاريخ الاسلامى، فقد ترتب عليها نشأة الدولة الإسلامية، ومن هنا اتخذها مبدأ للتاريخ الإسلامى[١٧]. وثانى هذه الأمور ما يتصل بالفتوح الإسلامية فى عصر عمر، فقد فتحت الشام والعراق وبلاد الجزيرة وفارس ومصر وبرقة واتسعت الدولة الإسلامية اتساعا هائلا وتدفقت الأموال إلى خزانتها. وقد كان من الضرورى الاعتماد على جيش نظامى يأخذ أفراده رزقا ثابتا من خزانة الدولة الإسلامية ويكون هذا الجيش على أهبة الاستعداد دائما. وقد كان ذلك بديلا ضروريا للاعتماد على الجنود المتطوعين الذين قد لاتسهل الاستعانة بهم فى المواقف الحاسمة. وثالث الأمور التى ينبغى الالتفات إليها هنا تمصير الأمصار، فقد أنشأ عمر البصرة والكوفة والفسطاط لتكون مراكز للجيوش الإسلامية الفاتحة، ثم تحولت هذه المراكز بسرعة إلى أمصار كاملة وانضم إليها غيرها فى عصور لاحقة كالقيروان وواسط وغيرهما. ومن التطورات الهائلة التى حدثت فى عصر عمر نشأة ديوان الخراج وديوان العطاء، فقد رأى عمر أن يجعل الأرض التى استولى عليها المسلمون فى فتوحاتهم ملكية عامة للأمة الإسلامية يدفع عنها أهلها الخراج ويزرعونها. والخراج بمثابة أجرة الأرض. ويدخل هذا الخراج بيت مال المسلمين ليتم الإنفاق منه على مصالح المسلمين، وهكذا نشأ بيت المال فى عصر عمر ونشأ ديوان الخراج الذى يتولى جمع الأموال من مصادرها المشروعة، وكان ذلك خطوة لإنشاء ديوان العطاء الذى يتولى إنفاق هذه الأموال فى وجوهها اللازمة . وأخيرا وليس آخرا فإن عمر جعل القضاء ولاية مستقلة يتفرغ لها صاحبها ويتقاضى نظير القيام بها أجرًا منتظما من بيت مال المسلمين، وهكذا نشأ النظام القضائى فى الإسلام.

كان عصر عمر - إذن - عصرا قفزت فيه نظم الدولة الإسلامية قفزات هائلة إلى الأمام وترسخت جذورها وتأكدت هيبتها وأصبحت فى طليعة القوى العظمى فى العالم.

وقد كان عمر - رغم هذه الإنجازات الهائلة - شديد الزهد، بالغ التواضع، عميق الشفقة برعيته والحرص على مصالحها. وعندما ابتلى المسلمون بعام الرمادة - وهو العام الذى اشتد فيه القحط وصارت الأرض

كلها سوداء فشبهت بالرماد - قال بعض أصحابه : "لو لم يرفع الله سبحانه وتعالى المُحْل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت هما بأمر المسلمين"[١٨]. وكان عمر يقول : "من استعمل فاجرا - أى ولى ظالما شأنا من شئون الرعية - وهو يعلم أنه فاجر، فهو مثله"[١٩]. ومما يروى عنه أيضا : "من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة، لا يستعمله إلا لذلك"، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين"[٢٠].

استشهد عمر يوم الأربعاء لأربع بقين من ذى الحجة سنة ٢٣ هـ على يد أبى لؤلؤة فيروز المجوسى الذى طعنه وهو قائم يصلى الصبح. وعندما سأل عمر قبل أن يلفظ آخر أنفاسه عن هذا الذى طعنه وعلم أنه أبو لؤلؤة قال: "الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة واحدة"[٢١].

أ.د. عبدالرحمن سالم

الهوامش :

١- السيوطى: تاريخ الخلفاء، صـ١٩٩.

٢- ابن هشام: سيرة النبى ﷺ، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، دار الهداية، حـ١، صـ٣٦٥.

٣ - سورة طه: ١٤ .

٤- ابن سعد: الطبقات الكبرى، حـ٣، ص٢٦٧،٢٦٩.

٥- سيرة ابن هشام، حـ١، صـ٣٧٠. وللمزيد من الروايات حول سبب إسلام عمر ارجع إلى : ابن الجوزى: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، صـ١٣،١٧.

٦- ابن الأثير: أسد الغابة فى معرفة الصحابة، حـ٤، صـ ١٤٧.

٧- نفس المصدر ، صـ١٥٢.

٨- نفس المصدر، صـ ١٥٣

٩- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، حـ١،صـ٤٢٠.

١٠- ابن الجوزى: سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، صـ ٢٠

١١- نفس المصدر، صـ٢٢.

١٢- البقرة: ١٢٥.

١٣- الأحزاب: ٥٣.

١٤- الإنفال: ٦٧،٦٨.

١٥- حول تفاصيل السقيفة واختيار أبى بكر ارجع إلى: ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، بيروت، دار صادر: ١٩٧٩، حـ٢، صـ٢٢٥،٢٣١.

١٦- ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ، دار الكتب العلمية: ١٩٨٥، حـ٧،صـ١٢٧،١٢٨ .

١٧- تاريخ الطبرى، حـ٤، صـ٢٨،٢٩ .

١٨- ابن الجوزى: سيرة ومناقب عمر بن الخطاب، صـ٦٧.

١٩- نفس المصدر، صـ٧٣ .

٢٠- نفس المصدر والصفحة.

٢١- تاريخ الطبرى، حـ٤، صـ١٩٢ .

مراجع للاستزادة :

١- ابن الأثير : أسد الغابة فى معرفة الصحابة حـ٤. القاهرة، دار الشعب : ١٩٧٠م.

٢- ابن الجوزى: سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. القاهرة، دار الدعوة الإسلامية: ٢٠٠١م.

٣- السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن): تاريخ الخلفاء. القاهرة، دار الفكر العربى: ١٩٨٨م.

٤- الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك (= تاريخ الطبرى). القاهرة. دار المعارف: ١٩٧٩م.

٥- ابن كثير : البداية والنهاية. بيروت ، دار الكتب العلمية : ١٩٨٥م.

٦- محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، حـ٢. بيروت، دار صادر: ١٩٨٥م.

عمر الخَيَّام
(٤٢٧هـ ـ ٥١٥هـ = ١٠٣٦ - ١١٢١م)

هو غياث الدين أبو الفتح: عمر بن إبراهيم الخيام أو الخيامى النيسابورى، فارسى الأصل، ولعله سمى بالخيام، لأن أباه كان يصنع الخيام. ولد فى نيسابور عاصمة خراسان؛ حيث تعلم وقضى معظم حياته. وتاريخ ميلاده هو على وجه التقريب عام ٤٢٧هـ (١٠٣٦م)، فى عهد أول ملوك السلاجقة أرطغرل. وبلغ أوج الشهرة فى عهد جلال الدين ملك شاه، الذى أولى علوم الفلك رعايته الخاصة، بتوجيه من وزيره نظام الملك. وعلى الرغم من أن عمر الخيام رحل إلى كثير من بلاد خراسان، وإلى مكة المكرمة، وبغداد؛ طلبًا للعلم والدراسة، فقد قضى أغلب حياته فى نيسابور حيث خصص له ملك شاه راتبا ضمن له معيشة طيبة، وتمكَّن بذلك من العكوف على البحث والدراسة.

وقد أخذ علمه فى صباه عن الإمام الموفق وكان صوفيًا فى آرائه، مما كان له أثر خاص فى حياته كشاعر صوفى. ولقى بحلقته نظام الملك، والحسن بن الصباح وهما آيتان فى الفطنة والذكاء، وأنس كل منهم بصاحبيه وتمت بين الثلاثة أحسن صحبة، ثم صار نظام الملك وزيرا للسلطان ألب أرسلان فى الدولة السلجوقية، وصار الحسن بن الصباح زعيم الطائفة الإسماعيلية ومبعث الرعب فى جيوش المسلمين، وقد عرفت فرقته باسم الحشاشين وسموه شيخ الجبل.

توفى عام ٥١٥هـ الموافق ١١٢١م.

كان الخيام ذكيا ثاقب الذهن، سمح البديهة، قوى الذاكرة، حريصا على استطلاع الحقيقة.

وقد تميز عمل عمر الخيام فى الرياضيات بحسن التصنيف والتفريع.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الخيام لم يخلط بين البرهان الجبرى المحض المعتمد على نظرية الأعداد والبرهان التحليلى الهندسى الذى يستند إلى خاصيات الأشكال فيطبقها على الجبر لحل المعادلات، ويقرر أن حل المعادلات العددية الطبيعى يتعين فى استعمال الأساليب الجبرية. ومع ذلك فهو يعترف أنه فى بعض الصور لم يهتد إلى الحل

العددى المناسب ويقر بعجزه ويقتصر على الحل الهندسى تاركا المجال مفتوحا لمن يأتى بعده.

كان عمر الخيام من حفاظ الحديث، كما تميز بالحكمة وسعة الحيلة. ويعتبر فى نظر الكثيرين، التالى لابن سينا فى الفلسفة، وعلوم الحكمة، والمنطق. درس الفلك، والرياضة، والتاريخ، وتخصص فى القراءات، حتى فاق القراء فى عصره. ويعتقد بعضهم خطأ، أنه كان من أهل الحظ حيث اشتهر برباعياته فى التصوف، ولعل السبب فى ذلك، تعدد الترجمات والإضافات التى تعرضت لها رباعياته، بعد أن ضاع أغلبها. والحق، أن الرباعيات مثار اختلاف بين الدارسين، فهناك من يرون فيها إخلاص الخيام فى العبادة، ويستشفون منها علامات التبتل، وحسن السيرة، وآيات التصوف والمعرفة. ثم إن هناك من يرونها، على النقيض من ذلك، كأسًا وشكًا!! أو خمرًا وضياعًا فى بيداء الحياة! وهى عبارة عن مقطعات من أربعة أشطار، يكون الشطر الثالث فيها مطلقًا، بينما الثلاثة الأخرى مقيدة وهى (الدوبيت) بالفارسية. وقد صاغ عمر الخيام رباعياته بالفارسية، رغم أن لغة علمه وثقافته كانت هى العربية. وقد ترجم الرباعيات إلى العربية الشاعر أحمد رامى. وترجمها إلى الإنجليزية إدوارد فتزجرالد. وكان الخيام يترنم ويشدو برباعيات متفرقة فى أوقات فراغه، وفى خلوته، ثم يذيعها عنه فى المجالس مَنْ سمعها من رفاقه وأصحابه. وبمضى الزمن، وبعد العديد من الترجمات، والمزيد من الإضافات، وصلتنا على النحو الذى نعرفه. والرباعيات فى جملتها لا تنادى بالاستمتاع بملاذ الحياة، إذ إنها أشبه بالدعوة إلى اليأس والسخرية، منها بالدعوة إلى الأمل والرضا. والذى صانها وأبقى عليها صورها التعبيرية التى أضافها إليها المترجمون حتى العرب، ومنهم من نقل عن غير الفارسية. وكثير من معانى الخيام مأخوذ من شعراء سابقين. مثل المعرّى، والمتنبى.

مؤلفاته :

من مؤلفاته الجليلة فى الرياضيات والفلك ما جاء منها بالعربية :

- رسالة فى الجبر والمقابلة، توجد منها نسخ مخطوطة فى ليدن، وباريس، وقد نشرها ويبكه Waepcke مع ترجمتها الفرنسية فى باريس عام ١٨٥١م، وتوجد مقالة فى الجبر لعمر الخيام بلندن وقد تكون هى عين الرسالة.
- رسالة فى شرح ما أشكل من مصادرات

كتاب إقليدس، وتوجد منه نسخة مخطوطة فى ليدن، وقد قام بتحقيق هذه الرسالة الأستاذ الدكتور عبد الحميد صبرة عام ١٩٦١م بالإسكندرية.

- الزيج الملكشاهى، وكان الخيام أحد واضعيه مع أبى المظفر الأسفرارى وميمون بن النجيب الواسطى وغيرها.
- مختصر فى الطبيعيات.
- رسالة فى الوجود وهى رسالة فى الكون والتكليف.
- رسالة فى الاحتيال لمعرفة مقدارى الذهب والفضة فى جسم مركب منهما، وهى تطبيق لمبدأ أرشميدس، وتوجد مخطوطة بجوتا بألمانيا وذكرها بروكلمان.
- رسالة : لوازم الأمكنة فى الفصول وعلة اختلاف هواء البلاد والأقاليم.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١- البيهقى : تاريخ حكماء الإسلام، دمشق ١٩٤٦م.
٢- الزركلى : الأعلام جـ٥.
٣- حاجى خليفة : كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، جـ٢ عمر الخيام.
٤- كحالة : معجم المؤلفين، جـ٧، دمشق ١٩٥٧م.
٥- قدرى طوقان : عمر الخيام، المقتطف، جـ٤ مجلد ١٨، مايو ١٩٣٢م.
٦- د. محمد الجوادى : على هوامش الأدب.
٧- د. عبدالمجيد دياب : عمر الخيام.

عمر بن عبد العزيز
(٦١ - ١٠١هـ = ٦٨١ - ٧٢٠م)

هو عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، الأموى القرشى. ويكنى بأبى حفص، ويلقب بأشج بنى أمية؛ لقب بذلك لأنه ركب فرسًا لأبيه، فوقع من فوقها، فشجت جبهته بحافرها.

ولد رضي الله عنه بحلوان مصر سنة ٦١هـ، وكان والده أميرًا بها، وكان أبيض الوجه، نحيف الجسم.

ولما شبَّ بعثه والده إلى المدينة، ليتأدب بآداب أهلها، فكان يتردد على عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود؛ يسمع عنه العلم.

وقد ذكر المؤرخون أن عمر بن عبد العزيز مات مسموما. فقد تألب عليه بعض بنى أمية ودسوا له السم، تخلصا من شدته التى لم يألفوها، لأنه كان لا يحابى أحدا منهم فى عطاء أو قضية، بل كان فى الحق سيفًا لا يخشى فى الله لومة لائم.

وقد توفى رضي الله عنه متأثرًا بالسم سنة ١٠١هـ ومدة خلافته: سنتان وخمسة أشهر وأربعة عشر يوما.

وكان معروفا بالعلم والفتيا، متمكنًا من حديث رسول الله ﷺ، روى منه الكثير عن أنس بن مالك، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب، ويوسف بن عبد الله بن سلام، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، والربيع ابن سبرة، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وغيرهم.

روى عمرو بن ميمون بن مهران عن أبيه أنه قال: «كانت العلماء مع عمر بن عبد العزيز تلامذة».

قال مجاهد: أتيناه لنعلمه؛ فما برحنا حتى تعلَّمنا منه.

والواقع: أنه كان إماما، فقيها مجتهدا، ثبتا حجة، حافظًا، أخذ عنه كثير من التابعين.

أما صلاحه فقد ضرب به المثل، كما ضرب بعدله وزهده.

وقد كان يقرن بجده لأمه عمر بن الخطاب فى عدله، وبالحسن البصرى فى زهده، وبالزهرى فى علمه.

قال أنس بن مالك: «ما صليت خلف إمام

أشبه بصلاة رسول الله ﷺ من هذا الفتى، يريد عمر بن عبد العزيز».

وسئل محمد بن على بن الحسن عن عمر ابن عبد العزيز، فقال: هو نجيب بنى أمية، وإنه ليبعث يوم القيامة أمة وحده.

وقد تولى الخلافة سنة ٩٩ هـ بعهد من سليمان ابن عبد الملك؛

فإنه لما مرض، وثقل، عهد فى كتاب كتبه بالخلافة لعمر، وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب من عبد الله سليمان، أمير المؤمنين. لعمر بن عبد العزيز: إنى قد وليتك الخلافة بعدى، ومن بعدك يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله ولا تختلفوا، فيطمع فيكم».

وختم الكتاب. ثم أرسل إلى كعب بن جابر العبسى، صاحب شرطته، فقال: ادع أهل بيتى، فجمعهم كعب، وأرسل إليهم سليمان بكتابه، وطلب منهم أن يبايعوا عمر بن عبد العزيز، فبايعوه رجلاً رجلاً، وتفرقوا. وعرضت عليه مراكب الخلافة - وهى دواب فارهة، لكل دابة سائس - فقال: ما هذا؟ فقيل: مراكب خلافة. قال: دابتى أوفق لى. وركب دابته وصرف تلك الدواب.

وقيل له: ألا تجلس فى منزل الخلافة؟ فقال: فيه عيال سليمان، وفى منزلى الكفاية، حتى يتحولوا عنه، فأقام فى منزله حتى تحولوا.

وكان أول ما عمله: أن أبطل سبَّ على بن أبى طالب، فقد كانت سياسة بنى أمية اقتضت ذلك، فكتب عمر إلى عماله فى الآفاق بترك ذلك، فتركوه.

وقد حدَّث عمر بن عبد العزيز عن سبب حبه لعلى، وتفرده بذلك من بين بنى أمية، قال: «كنت بالمدينة أتعلم العلم، وكنت ألزم عبد الله ابن عبيد الله، فبلغه أنى أشايع بنى أمية فى كراهة على، فأتيته يومًا وهو يصلى، فأطال الصلاة، فقعدت أنتظر فراغه، فلما فرغ من صلاته التفت إلىَّ، وقال لى: متى علمت أن الله غضب على أهل بدر وبيعة الرضوان، بعد أن رضى عنهم؟ قلت: لم أسمع ذلك. قال: فما الذى بلغنى عنك فى على؟ فقلت: معذرة إلى الله ثم إليك. وتركت ما كنت عليه، فما زلت أحب عليا من يومئذ».

وكان عمر يقرأ فى آخر خطبته ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** ﴾ (سورة النحل : ٩٠) وضعت مكان سب على رضي الله عنه.

وقد سار عمر فى خلافته سيرة جده لأمه ابن الخطاب، فكان فى أقضيته مثال النزاهة والعدالة، وعمل على تخيّر عماله من أهل الرفق والصلاح، فعزل من عرف فيه الميل عن الجادة، وولى بدله الكفء الصالح.

وقد أفرد كثير من العلماء كتبا فى سيرة عمر بن عبد العزيز، فلابن الجوزى كتاب مطبوع، ومثله لعبد الله بن عبد الحكم.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة :

١ - فوات الوفيات ج ٢ ص ١٠٤.
٢ - الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٧٦٦.
٣ - الأعلام ج ٥ ص ٥٠.
٤ - دائرة المعارف وجدى ج ٦ ص ٧٣٨.
٥- فوات الوفيات حـ ١٠٥/٢.
٦- تهذيب التهذيب حـ ٤٧٥/٧.
٧- سير أعلام النبلاء للذهبى حـ٤
٨- حلية الأولياء لأبى نعيم حـ٢٥٣/٥.
٩- صفة الصفوة لأبن الجوزى حـ٦٣/٢.

عمر مكرم
(١١٦٨ - ١٢٣٧هـ = ١٧٥٥ - ١٨٢٢م)

هو السيد ، عمر مكرم بن حسين، السيوطى.. ولد بأسيوط، سنة ١١٦٨ هـ = ١٧٥٥م، فى صعيد مصر، ودرس فى الأزهر.. وتولى نقابة الأشراف، وكان أبرز القيادات الشعبية فى عصره..

بدأ اشتغاله بالعمل العام، وإسهامه فى حل مشكلات مصر - التى كانت ولاية عثمانية - قبل أن يتولى نقابة الأشراف، ويشارك مع كبار شيوخ الأزهر وقضاة الشرع فى قيادة الأمة إبان الحملة الفرنسية على مصر وبعدها.. فمنذ سنة (١٢٠٥هـ = ١٧٩٠م) ظهر اسمه فى تأريخ «الجبرتى» لأحداث الصراع على السلطة بين المماليك.. أى قبل توليه نقابة الأشراف (١٢٠٨هـ = ١٧٩٣م) بثلاث سنوات.. وفى أواخر (١٢٠٩هـ = ١٧٩٥م) قاد مع علماء الأزهر إضراب الاحتجاج على ظلم المماليك، وهو الإضراب الذى انتهى بنزول المماليك على «العهد» الذى صاغه العلماء «برفع المظالم، ومراعاة العدل، وإلغاء الضرائب المستحدثة، وإرسال أموال الحرمين الشريفين إلى مستحقيها... إلخ» - ميثاقًا دستوريًا وإعلانًا لحقوق الإنسان!..

وظل الأمر كذلك إلى ولاية محمد على باشا على مصر، ولما كان محمد على طموحًا إلى بناء «دولة» تفرض سلطانها على «الأمة»، فلقد بدأ صفحة من الصراع ضد زعماء الأمة، وخاصة السيد عمر مكرم.. ولقد نجح فى شق صفوف العلماء، بالترغيب والترهيب، حتى استطاع نفيه من القاهرة إلى دمياط (١٢٢٤هـ = ١٨٠٩م).. فمكث فيها ثلاث سنوات.. ثم انتقل إلى طنطا، فأقام بها ست سنوات.. وبعد أن أذن له محمد على فى الحج إلى بيت الله الحرام، عاد من الحجاز إلى القاهرة، فاستقبلته جماهيرها استقبالا عظيمًا.. ثم اعتكف عن لقاء الجمهور..

لكن محمد على لم تغادره الوساوس والشكوك والمخاوف من نفوذ عمر مكرم، فطلب إليه - بعد فتنة من الفتن - مغادرة القاهرة إلى طنطا (١٢٣٧هـ = ١٨٢٢م).. فلم

يلبث بها طويلا حتى انتقل إلى جوار ربه، بعد حياة حافلة، قاوم فيها قوى الظلم والجور والاستبداد، الداخلية منها والخارجية على السواء.

آراؤه وتأثيراته :

وبسبب وثوق العلاقة بين نقابة الأشراف وبين التنظيمات الصوفية - التى يغلب على مريديها جمهور الفقراء - كانت قيادة عمر مكرم لجمهور العامة أوضح ما تكون خلال أحداث الصراع بين الأمة والمماليك والسلطة العثمانية فى ذلك التاريخ.

على أن القيادة الشعبية لعمر مكرم قد برزت أكثر ما تكون إبان الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣- ١٢١٦هـ = ١٨٩٧-١٨٠١م) فلقد تميَّز موقفه من الاحتلال الفرنسى بالرفض الحاسم والمقاومة الباسلة والدائمة لجيش الاحتلال.. قاد جمهور الأمة فى مقاومة جيش بونابرت.. فلمَّا انهزمت المقاومة انسحب إلى يافا، مع قادة «المقاومة».. ثم عاد - بعد ثمانية أشهر - إلى مصر، بعد غزو بونابرت ليافا، واعتزل الشيوخ الذين تعاونوا مع الاحتلال - وكان الفرنسيون قد نهبوا داره، وصادروا أملاكه، وفصلوه من نقابة الأشراف!..

وظل عمر مكرم يراقب الأحداث إلى أن اندلعت ثورة القاهرة الأولى، فقادها (١٢١٤هـ = ١٨٠٠م)، وقاتلت العامة، بقيادته، جيش الجنرال «كليبر» سبعة وثلاثين يومًا.. فلما خذلت الجند العثمانيون الثوار، وانهزمت ثورة القاهرة، انسحب عمر مكرم من القاهرة مرة ثانية - وعاد الفرنسيون لنهب أملاكه، ولفصله من نقابة الأشراف، وظل بعيدًا عن القاهرة حتى خرج الفرنسيون من مصر (١٢١٦هـ = ١٨٠١م)..

وفى سنة ١٢٢٠هـ = ١٨٠٥م قاد عمر مكرم ثورة العلماء ضد الوالى العثمانى «خورشيد باشا»، وأعلن الوثيقة الشرعية التى تقرِّر حق الأمة فى عزل الولاة الظلمة، بل والخلفاء والسلاطين إذا جاروا، وحقها فى اختيار الولاة والأمراء.. والتى قال فيها: «إن ولاة الأمر هم: العلماء، وحملة الشريعة، والسلطان العادل.. ولقد جرت العادة من قديم الزمان أن أهل البلد يعزلون الولاة.. حتى الخليفة والسلطان إذا سار فيهم بالجور فإنهم يعزلونه ويخلعونه»!

ولقد استجاب السلطان العثمانى لمطالب ثورة العلماء هذه، فعزل الوالى التركى، وأقر اختيار العلماء لمحمد على باشا واليًا على مصر..

ولعدة سنوات من ولاية محمد على حكم مصر، ظلت قيادة عمر مكرم هى الأرجح لدى الجماهير، حتى أن الوالى لم يكن ليستطيع تنفيذ قانون، أو جمع ضريبة، أو نزع سلاح، إلا إذا نادى منادى السيد عمر مكرم على الناس بتنفيذ هذا القانون!.

أ. د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة :

- (تاريخ الجبرتى) طبعة القاهرة، سنة ١٩٥٨م.
- (مسلمون ثوار) للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة، سنة ١٩٨٨م.
- الأعلام للزركلى جـ ٥/ ٦٧.

أبو عمرو الدانى
(٣٧١ - ٤٤٤ هـ = ٩٨١ - ١٠٥٣ م)

هو الإمام الحافظ عالم الأندلس: عثمان ابن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمر مولاهم، القرطبى الأندلسى، ثم الدانى وعرف قديما: بابن الصيرفى، من موالى بنى أمية، وكنيته أبو عمرو الدانى (مالكى المذهب) المجود المقرىء الحاذق.

ولد أبو عمرو فى بلدة: دانية، من بلاد الأندلس سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة للهجرة.

توفى رحمه الله فى يوم الإثنين منتصف شوال سنة أربع وأربعين وأربعمائة، ودفن ليومه بعد العصر بمقبرة دانية، ومشى السلطان أمام نعشه وشيعه خلق كثير.

شيوخه وتلاميذه قرأ عمرو بالروايات على عبد العزيز بن جعفر بن حواس الفارسى، وخلف بن إبراهيم بن خاقان، وأبى الفتح فارس بن أحمد، وأبى الحسن ظاهر بن غلبون، وسمع كتاب السبعة لابن مجاهد من أبى مسلم محمد بن أحمد الكاتب (صاحب البغوى) بسماعه من المؤلف.

كما سمع الحديث من أبى مسلم وهو أكبر شيخ عنده، ومن أحمد بن فراس العبقسى، وعبد الرحمن بن عثمان الزاهد، وحاتم بن عبد الله البزار وأحمد بن فتح الرسّان، ومحمد بن خليفة بن عبد الجبار، والقاضى أحمد بن عمر بن محفوظ الجيزى، وعبد الرحمن بن عمر النحاس، وأبى الحسن على ابن محمد القابس، وأبى عبد الله بن أبى زمنين، وعبد الوهاب بن منير المصرى، وخلق كثير سواهم وقرأ عليه من تلاميذه أبو بكر ابن الفصيح، وأبو الذواد مفرج فتى اقبال الدولة، وأبو الحسن بن يحيى بن أبى زيد بن البياز، وأبو بكر محمد بن المفرج، وأبو الحسن على بن الدستى وأبو داود سليمان بن نجاح، وأبو عبد الله محمد بن مزاحم، وأبو على الحسين بن على بن مبشر، وأبو القاسم خلف بن إبراهيم، وأبو إسحاق إبراهيم بن على، وقد روى عنه بالإجازة أحمد بن محمد ابن عبد الله بن غلبون الخولانى، وأحمد بن عبد الملك بن أبى حمزة المرسى، وهو خاتمة من روى عنه فى الدنيا، وبقى ابن أبى حمزة إلى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة.

ابتدأ في طلب العلم في أول سنة ست وثمانين وثلاث مائة، فرحل إلى المشرق - والمشرق في عرف المغاربة مصر وما بعدها من الشام والعراق وغير ذلك، كما أن المغرب في عرف العجم وأهل العراق مصر وما تغرب عنها - وكانت رحلته سنة سبع وتسعين وثلاثمائة فمكث بالقيروان أربعة أشهر، ثم توجه إلى مصر فدخلها في شوال من السنة فمكث فيها سنة؛ ثم توجه إلى الحجاز فحج في نفس السنة، ثم رجع إلى الأندلس في ذي القعدة سنة تسع وأربعمائة، وخرج إلى الثغر سنة ثلاث وأربعمائة فسكن سرقطة سبعة أعوام ثم رجع إلى قرطبة، وقدم دانية سنة سبع عشرة وأربعمائة فسكنها حتى مات.

وقد برع أبو عمرو الداني في علم القراءات، والحديث ورجاله، والعربية، وغير ذلك، وصنف التصانيف البديعة ففاق أهل زمانه وأقرانه.

كانت بينه وبين ابن حزم الظاهري منافرة ووحشة شديدة أفضت إلى المهاجاة بينهما بالشعر، فلكل واحد منهما في الآخر هجو مقذع . غفر الله لهما.

وله أرجوزة طويلة في القراءة وفي عقود الديانة يقول فيها لمن يقتدى به:

تدرى أخي أين طريق الجنة
طريقه القرآن ثم السنة
كلاهما ببلد الرسول
وموطن الأصحاب خير جيل
ومعدن الأتباع والأخبار
والفقهاء الجلة الأخيار
فأتبعن جماعة المدينة
فالعلم عن نبيهم يرونه
وهم محجة على من سواهم
في النقل والقول وفي فتواهم
واعتمدن على الإمام مالك
إذ قد حوى على جميع ذلك
في الفقه والفتوى إليه المنتهى
إذ قد حوى على جميع ذلك

إلى آخر قصيدته الطويلة.

بلغت مؤلفاته ما يزيد على مائة وعشرين مصنفًا كلها في غاية الحسن والإتقان. منها:

١ - «جامع البيان» في السبعة وطرقها المشهورة والغريبة.

٢ - «إيجاز البيان» في قراءة ورش مجلد واحد.

٣ - «التلخيص في قراءة ورش» كتيب صغير.

٤ - التيسير مجلد.

٥ - «الاقتصار في السبعة»

٦ - «المقنع في رسم المصحف»

٧ - « المحتوى في القراءات الشواذ»

٨ - «الأرجوزة في أصول السنة».

٩ ـ «طبقات القراء وأخبارهم» فى أربعة أشعار صغار.

١٠ ـ «الوقف والابتداء».

١١ ـ «التمهيد لاختلاف قراءة نافع» فى مجلدين.

١٢ ـ «اللامات والراءات لورش».

١٣ ـ «الفتن وما ورد فيها» مجلدان.

١٤ ـ «مذاهب القراء فى الهمزتين» مجلد.

١٥ ـ «اختلافهم فى الياءات» مجلد.

١٦ ـ «الإمالة والفتح لأبى عمرو بن العلاء» مجلد.

أ.د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١- معرفة القراء الكبار ٣٢٥/١ .
غاية النهاية ٥٠٣/١.
٢- سير أعلام النبلاء ٧٨/١٨، ٧٩.
٣- معرفة القراء الكبار ٣٢٧/١.
٤- تاريخ بغداد ١٤٣/١٠.
٥- المنتظم ٣٢٧/١٥ ـ ٣٢٨.
٦- تاريخ الإسلام (وفيات ٤٤١ ـ ٤٦٠)
٧- العبر ٢٨٦/٢.
٨- تذكرة الحفاظ ١١٢٠/٣ ـ ١١٢١.
٩- النجوم الزاهرة. ٥٤/٥.
١٠- شذرات الذهب٢٧٢/٣.
١١- هدية العارفين ٦٥٣/١.
١٢- الرسالة المستطرفة ١٣٩.
١٣- شجرة النور الزكية ١١٥/١.
١٤- الأعلام للزركلى جـ ٤/ ٢٠٦.

عمرو بن عبيد «شيخ المعتزلة»
(٨٠ - ١٤٤هـ = ٦٩٩ - ٧٦١م)

هو أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب البصرى، أصله من الموالى، ولد سنة ٨٠ هـ = ٦٩٩م بالبصرة، وتتلمذ على يد الحسن البصرى، سيد التابعين، واختلف معه فى موقفه من التأويل العقلى للنصوص الدينية، وخرج على نهج أستاذه فى التفسير؛ حيث تعرّف على واصل بن عطاء فى مجلس الحسن البصرى وشاركه فى تأسيس فرقة المعتزلة.

احتل مكانة كبيرة فى تاريخ المدرسة الاعتزالية، وتنسب إليه مع مؤسسها واصل ابن عطاء؛ فقد اشتركا معًا فى تأسيس هذه المدرسة، وكان من أعلم الناس بأمور الدين، إمامًا، مجتهدًا، مجادلا، قوى الحجة فى عرض آرائه والاستدلال عليها، صاحب نزعة عقلية، وهو مع قوة جدله كان ممن يقولون الشعر الذى يخاطب الوجدان الدينى ويؤثر فى سامعيه، كما كان ذا نزعة عقلية فى مجال الحديث والتفسير، أوقف حياته للدفاع عن الإسلام، واشتهر بالزهد والتقوى والورع والعبادة، وكانت فترة رئاسته لمذهب الاعتزال بعد واصل استمرارًا لوجود المدرسة وتأسيسها ونشر أفكارها.

كانت له صلة بالخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، فقد كان صاحبه وصديقه قبل الخلافة، ثم امتدت تلك العلاقة بعد توليه الخلافة، وكان يؤثّر فيه بما ملك من حسن اللسان، وجزالة اللفظ، والعبارات التى ينطق بها. توفى فى طريق مكة ودفن بـ (مران) سنة ١٤٤هـ.

كان لعمرو بن عبيد نزعة عقلية واضحة طبقها على آرائه فى الفقه والتفسير والحديث، ويُعَدّ من المفسرين الذين لم يقفوا بالتفسير عند حد تفسير الآيات فقط بل تعدّاه إلى التأويل؛ كى يؤيد عقائده الكلامية التى يستدل عليها بحجج نقلية، كما اشتهر بنزعته النقديه فى الحديث، وأدى هذا بالبعض إلى القول: إنه رفض الحديث، وأيدوا قولهم هذا بأنه شك فى عدالة بعض الصحابة منذ عهد الفتنة، إلا أن الحقيقة أنه لم يرفض الحديث برمّته، بل كان يرى الأخذ بالأحاديث المشهورة والمتواترة، وأنها توجب

العلم والعمل، غير أنه تحفَّظ فى الأخذ بأحاديث الآحاد.

يُعَدّ عمرو بن عبيد من القائلين بنفى القدر، وأثبت الحرية الإنسانية، ورأى استحالة تكليف الله للإنسان بما لا يطيق؛ لأنه إذا كلفه بما لا يقدر عليه صار ذلك ظلمًا، والله يوصف بالعدل الإلهى، وهذا يقتضى التمكين من التكليف، مصداقًا لقوله تعالى ﴿ **لايكلف الله نفسا إلا وسعها** ﴾ (البقرة ٢٨٦)، فالإنسان يكلف بما يطيق ويقدر، فإذا فقد شرط القدرة سقط عنه التكليف.

كان عمرو بن عبيد فى أول أمره على مذهب الحسن البصرى فيما يتعلق بنفاق مرتكب الكبيرة، غير أنه ترك مذهب الحسن البصرى وانضم إلى مذهب واصل بن عطاء بعد مناظرة تمت بينهما، اقتنع عمرو بمذهب واصل فى المنزلة بين المنزلتين.

ترتبط مسألة الإيمان فى فكره بالمنزلة بين المنزلتين، لأن هذه المسألة تتعلق بالأسماء والأحكام التى تطلق على المؤمن، أو مرتكب الكبيرة، ورأى عمرو بن عبيد أن الإيمان ليس مجرد التصديق بالقلب أو النطق باللسان فقط، وإنما لابد أن تصدقه الجوارح بالعمل، فالإيمان عنده اعتقاد وعمل.

ذهب عمرو بن عبيد إلى أن الله تعالى وعد عباده الطائعين بالجنة والثواب، وتوعد العصاة بالنار والعقاب، وهو لابد منجز وعده ووعيده، لأن خلف الوعد كذب، وخلف الوعيد ظلم، وكل هذا لا يستقيم وعدالته تعالى المطلقة، فضلا عما يقتضيه من التنزيه عن الظلم والكذب، واستدل على هذا بآيات وردت فى القرآن الكريم مؤيدة بأدلة عقلية.

طبق عمرو بن عبيد أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى جانبين: أخلاقى وسياسى، ففى المجال الأخلاقى دعا إلى نشر العدالة والمساواة بين الناس، وكثيرا ما كان يعظ الخليفة المنصور، ولم يغره المال أو المنصب، فكان أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر خالصًا لوجه الله تعالى لإقامة قواعد الدين وأحكامه.

ولعمرو بن عبيد تصوره الخاص فى كيفية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إذ يذهب جميع المعتزلة وبعض الخوارج والزيدية إلى وجوب استعمال القوة، إذا لم يكن دفع المنكر إلا بها، ويفرضون ذلك على أهل الحق.

أما هو فلم ير البدء بالقوة، بل يبدأ بالموعظة الحسنة التى تؤثر فى قلوب سامعيه، وتحفَّظ كثيرًا على فكرة استخدام القوة، وكان يقول: من يحمل السلاح فليس منا، ولم يكن رفضه للقوة رفضًا مطلقًا، ولكنها وسيلة لا يلجأ إليها إلا إذا استنفد كل

الوسائل اللينة، ويشترط التمكن منها، فهو يرفض القوة التى تدفع إلى مجرد التمرد على الحاكم الجائر، أو الفوضى السياسية.

ويشترط عمرو لتمام التمكن للخروج على الحاكم الجائر أن يجتمع عدد مثل ما اجتمع للرسول ﷺ، وكثيرًا ما قدَّم النصائح للخليفة أبى جعفر المنصور واستجاب لها المنصور، كاعتراضه على إسناد ولاية العهد لابنه محمد المهدى، وكذلك حثّه على التخلص من بطانته المقربين، ومن نصائحة الجريئة قوله: وأمُر عمالك بالعدل والإنصاف.

رأى عمرو أن الإمامة شورى وبالبيعة وحول موقفه من إمامة الإمام علىّ؛ ترد عنه عدة روايات، منها رواية شيعية تقول: إنه يرى أن عليًا كان أولى بالحق من غيره. ورواية اعتزالية تقول: اتفق المعتزلة أن بيعة أبى بكر صحيحة، واختلفوا فى التفضيل، وأن عمرًا ابن عبيد فضَّل أبا بكر. ورواية أخرى اعتزالية تقول: إن جميع الخلفاء كانوا عنده أبرارًا، أتقياء، مؤمنين، فقد تقدّمت لهم سوابق حسنة مع رسول الله وهجرة وجهاد، وأعمال جليلة، ولا تستطيع أن تحكم على صحة أى من الروايات المذكورة للكشف عن حقيقة رأيه فى هذه المسألة.

كان لعمرو بن عبيد رأيه فى أصحاب الجمل وفى الأطراف التى تنازعت فى موقعة الجمل، وكذلك فى عثمان وقاتليه وخاذليه، هو: إن أحد الفريقين فاسقٌ لا محالة، كما أن أحد المتلاعنين فاسقٌ، وأقل درجات الفريقين أنه لا تقبل شهادتهما كما لا تقبل شهادة المتلاعنين. فلم يجز قبول شهادة على وطلحة والزبير، وجوّز أن يكون عثمان وعلِيّ عَلى خطأ.

ورأى تفسيق أحد الفريقين، ولم يحدد أيهما، وقال: لو شهد رجلان من أحد الفريقين، من فريق على أو فريق طلحة والزبير، لم تقبل شهادتهما.

مؤلفاته:

من مؤلفاته كتاب التفسير، وكتاب الرد على القدرية، وكتاب العدل والتوحيد..

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١ – الأشعرى: (أبو الحسن) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٦٥م.

٢ – البغدادى (عبدالقاهر): الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة بيروت، سنة ١٩٧٣م.

٣ – الخياط: (أبو الحسن): الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد، تحقيق د. ينبرج. دار الكتب المصرية ـ القاهرة، سنة ١٩٢٥م.

٤ – البلخى (أبو القاسم : باب ذكر المعتزلة ضمن كتاب فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة تحقيق فؤاد سيد. الدار القومية للنشر ـ تونس سنة ١٩٧٤م.

٥ – عبدالجبار (قاضى القضاة): شرح الأصول الخمسة، تحقيق د. عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة، القاهرة، سنة ١٩٦٥م.

٦ – السيد (محمد صالح) عمرو بن عبيد وآراؤه الكلامية ـ مكتبة نهضة الشرق ـ القاهرة، سنة ١٩٨٥م.

أبو عمرو بن العلاء

(٧٠ـ ١٥٤هـ = ٦٩٠ ـ ٧٧١م)

هو زبان بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحسين بن الحارث بن جلهمة، ينتهى نسبه إلى عدنان، وهو الإمام السيد أبو عمرو التميمى المازنى البصرى أحد القراء السبعة، صريح النسب انعقد إجماع الحذاق من النسابين على أنه عربى، وعلى أنه ليس فى نسبه شائبة رق، ولهذا المعنى يشير الشاطبى فى «حرز الأمانى ووجه التهانى» بقوله:

وَأَمَّا الإِمَامُ المازِنِىُّ صَرِيحُهُم

أَبُو عَمْرٍو الْبَصْرِىُّ فَوَالِدُهُ العَلا

ولد أبو عمرو بمكة سنة ثمان وستين، وقيل: سنة سبعين للهجرة = ٦٩٠م.

توفى أبو عمرو بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة على قول أكثر المؤرخين، وقيل: سنة سبع وخمسين ومائة = ٧٧١م وقد قارب التسعين عاماً.

نشأ الإمام أبو عمرو بالبصرة وتوجه مع أبيه إلى الحجاز لما هرب من الحجاج فقرأ بمكة والمدينة، وقرأ بالكوفة والبصرة فليس فى القراء السبعة أكثر شيوخاً منه.

قرأ أبو عمرو على مجاهد، وسعيد بن جبير، ويحيى بن يعمر، وابن كثير، وحميد بن قيس، والحسن البصرى، وأبى العالية الرياحى، وشيبة بن نصاح، وعاصم بن أبى النجود، وعبدالله بن بن إسحاق الحضرمى، ووجوهها.

مدحه الفرزدق وغيره من الشعراء، وكان أعلم الناس بالقرآن والعربية، وأيام العرب والشعر، مع الصدق والثقة والأمانة والدين.

قال الأصمعى: قال لى أبو عمرو: لولا أن ليس لى أن أقرأ إلا بما قرئ لقرأت كذا وكذا من الحروف كذا وكذا.

وقال يونس بن حبيب: لو كان هناك أحد ينبغى أن يؤخذ بقوله فى كل شىء لكان ينبغى أن يؤخذ بقول أبى عمرو بن العلاء.

لقد كان أبو عمرو علامة زمانه فى القراءات والنحو والفقه.

وقال أبو عبيدة: كانت دفاتر أبى عمرو ملء بيت إلى السقف، ثم تنسك فأحرقها وتفرغ للعبادة، وجعل على نفسه أن يختم فى كل ثلاث ليال.

روى عن أبى عمرو البصرى القراءة عرضاً وسماعاً أناس لا يحصون كثرة منهم: أبو زيد سعيد بن أبى أوس، وسلام بن سليمان الطويل، وسهل بن يوسف، وشجاع بن أبى نصر البلخى، والعباس بن الفضل، وعبد الله ابن المبارك، ويحيى بن المبارك اليزيدى، وسيبويه، ويونس بن حبيب، شيخا النحاة، وأخذ عنه النحو يونس بن حبيب، وسيبويه، والخليل بن أحمد، ويحيى اليزيدى، وأخذ عنه الأدب وغيره طائفة منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى والأصمعى، ومعاذ بن مسلم النحوى.

ومن أشهر تلاميذه:

١ ـ حفص بن عمر الدورى الأزدى النحوى.

٢ ـ صالح بن زياد بن عبد الله بن إسماعيل السوس وهما قد أخذا القراءة عن يحيى اليزيدى.

انتهت إليه الإمامة فى القراءة بالبصرة، وكان أبو عمرو لجلالته لا يسأل عن اسمه، وكان من أشراف العرب.

قال أبو عمرو الأسدى : لما أتى نعى أبى عمرو أتيت أولاده لأعزيهم، فبينما أنا عندهم إذ أقبل يونس بن حبيب فقال: نعزيكم ونعزى أنفسنا فى من لا نرى شبها له آخر الزمان، والله لو قُسّم علم أبى عمرو وزهده على مائة إنسان لكانوا كلهم علماء زهاداً، والله لو رآه رسول الله ﷺ لسره ما هو عليه.

ومن منهج أبى عمرو فى القراءة:

١ ـ له بين كل سورتين ـ البسملة، السكت، الوصل، سوى بين الأنفال وبراءة فله القطع، السكت، الوصل، وكل منها بلا بسملة.

٢ ـ له من رواية السوس أو إدغام المتماثلين نحو الرحيم ملك والمتقاربين نحو وشهد شاهد، والمتجانسين نحو ربكم أعلم بكم، بشروط مخصوصة.

٣ ـ له أربع حركات فى المد المتصل من الروايتين، وله فى المد المنفصل القصر والتوسط من رواية الدورى، والقصر فقط من رواية السوس.

٤ ـ يسهل الهمزة الثانية من الهمزتين الواقعتين فى كل كلمة مع إدخال ألف بينهما.

٥ ـ يسقط الهمزة الأولى من الهمزتين الواقعتين فى كلمتين المتفقتين فى الحركة ويغير الهمزة الثانية من المختلفتين.

٦ ـ يبدل الهمزة الساكنة من رواية السوس من طريق الشاطبية ومن الروايتين معاً من طريق طيبة النشر نحو المؤمنون، الذئب، اطمأننتم، سوى ما استثناه له أهل الأداء.

٧ ـ يدغم ذال إذ فى حروف مخصوصة نحو إذ دخلوا، ودال قد فى حروف مخصوصة نحو فقد ظلم، وتاء التأنيث فى بعض الحروف نحو كذبت ثمود، ولام هل فى هل ترى من فطور فى سورة الملك، فهل ترى لهم من باقية بالحاقة ويدغم بعض الحروف الساكنة فى بعض الحروف القريبة منها فى المخرج نحو ـ فنبذتها، ومن يرد ثواب.

٨ ـ يقلل الألفات من ذوات الياء إذا كانت الكلمة التى فيها الألف على وزن فعلى بفتح الفاء نحو السلوى أو كسرها نحو سيماهم أو ضمها نحو المثلى، ويميل الألفات من ذوات الياء إذا وقعت بعد راء نحو اشترى، الذكرى، النصارى، ويميل الألفات التى وقع بعدها راء مكسورة متطرفة نحو وعلى أبصارهم غشاوة من ديارهم ويميل الألف التى وقعت بين راءين الثانية منهما متطرفة مكسورة نحو إن كتاب الأبرار، من الأشرار، ويميل ألف لفظ الناس المجرور من رواية الدورى فقط.

٩ ـ يقف على التاءات التى رسمت فى المصاحف تاء بالهاء نحو بقيت الله خير لكم ـ إن شجرة الزقوم.

١٠ ـ يفتح ياءات الإضافة التى بعدها همزة قطع مفتوحة نحو إنى أعلم أو مكسورة نحو فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده والتى بعدها همزة وصل مقرونة بلام التعريف نحو لاينال عهدى الظالمين، والتى بعدها همزة وصل مجردة من لام التعريف نحو هارون أخى اشدد به أزرى.

١١ ـ يثبت بعض ياءات الزوائد وصلا نحو أجيب دعوة الداع إذا دعان، ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام.

أ.د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١- سير أعلام النبلاء ٤٠٨/٦.
٢- إبراز المعانى ص ٢٨.
٣- النشر ١٢٤/١.
٤- تهذيب التهذيب ١٧٨/١٢.
٥- طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ص ٣٥، ٤، ١٥٩.
٦- جمهرة الأنساب لابن حزم ص ٢١٢.
٧- شذرات الذهب ٢٣٧/١.
٨- معرفة القراء الكبار ١٠٠/١ - ١٠٢، وغاية الاختصار ٣٦/١.
٩- الإندرابى فى كتابه قراءات القراء المعروفين ص ٢٤.
١٠- الأعلام للزركلى ٤١/٣.

ابن العــوام
(٠٠٠ ـ ٥٨٠هـ = ٠٠٠ ١١٨٥م)

هو أبو زكريا ابن محمد بن العوام أصله من أشبيليه.

عالم عربى فذ، يعد بحق أول علماء الزراعة الأكاديميين، وبوسعنا أن نكتشف قيمته من خلال قراءة عناوين أبواب كتابه الكبير «كتاب الفلاحة»، وقد عرف كتابه فى الأوساط الغربية منذ نشر مع ترجمة أسبانية (١٨٠٢م)، وهو كتاب مرجعى جامع لأقوال السابقين فضلا عن خبرات مؤلفه وآرائه. وتنبئ أبواب الكتاب عن عبقرية زراعية مبكرة متمكنة من كافة العلوم الزراعية حسب نظامنا الأكاديمى الحديث، فهو يتعرض لعلوم الأراضى والمحاصيل والبساتين والرى والصرف وتربية الماشية.

وفى الكتاب بالإضافة إلى هذا حس دينى وإيمانى واضح، وهو يذكر فى مقدمة الكتاب الأحاديث الشريفة المتعلقة بالزراعة، ورعاية الأرض والنبات، وبه أيضًا رؤية فلسفية وحرص على الحكمة.

كما ينهج ابن العوام بفطرته فى كتابه نهج كتب العلوم الأكاديمية فى تعريفه للمصطلحات تعريفًا دقيقًا وضبطه للمقاييس، ويرمز للمؤلفين السابقين الذين نقل عنهم برموز.

والكتاب حافل بذكر الطرق العلمية المساعدة على تقييم الأرض والتربة والبذور والمحاصيل .. إلخ.

وقد قسم ابن العوام كتابه إلى جزءين، يقع الأول فى ستة عشر بابًا، ويقع الثانى فى ثمانية عشر بابًا، وقد خص الجزء الأول للحديث عن معرفة نوع الأراضى، وأنواع الأسمدة، وأنواع المياه، والبساتين، واتخاذ الأشجار والثمار، ثم فى تطعيم الأشجار، وتسمية الأشجار المعتاد زراعتها. ويتناول فى الباب الثامن فكرة تركيب الأشجار بعضها فى بعض، أوقاته وكيفية اختيار الأقلام ثم تقليم الأشجار، وفى الباب العاشر يتحدث عن حرارة الأرض المغترسة وتسمية الأشجار التى توافقها، ثم يذكر عملية تذبيل الأرض والأشجار المغروسة وغير المغروسة وما يوافق كل نوع من الذبول، وعلاج الأرض المالحة، وكيفية التسميد ثم يفصل القول فى صفة العمل فى سقى الأشجار والخضر بالمياه وما يحتمل السقى الكثير، ويصف عملية تذكير

الأشجار، ويتحدث عن الأشجار المتحابة والمتنافرة، ويفرد باباً خاصا لعلاج الأشجار من الداء والأمراض، والبقول والخضر، ويتخدث فى باب آخر عما سماه ملحاً مُستطرفة تعمل فى بعض الأشجار والخضر، ويتناول أفكاراً غير تقليدية من قبيل تغيير لون الورد وتدبير الورد حتى يورد، والتفاح حتى يثمر فى غير أيامه. ويشرح كيفية العمل فى اختزان الحبوب والفواكه الغضة واليابسة والتخليل وغيره مما نطلق عليه الآن مسمى الصناعات الزراعية. ويتحدث فى الباب السابع عشر عن كيفية عمل القليب ومنفعته وإصلاح الأرض بعد كلالها، وما يريح الأرض ويصلحها من الحبوب والقطانى، واختيار البذور، واختيار ما يصلح لكل نوع من الحبوب من أنواع الأرض، ومعرفة أوقات الزراعة وصفة العمل فى زراعة الأرز والذرة واللوبيا سقياً وبعلا، ثم زراعة القطانى سقيًا وبعلا، وكذا الكتان والعنب والقطن وبصل الزعفران والفول ثم اتخاذ المباقل واختيار أرضها، وذكر مايصلح أن ينقل، ويخصص أبواباً متتابعة لزراعة البقول ذوات الأصول مثل الشلجم والجزر والفجل ثم القثاء والبطيخ والباذنجان والحنظل ثم البذور المستعملة فى الأدوية كالكمون والكزبرة والكراوية وهو ما نطلق عليه الآن مسمى النباتات الطبية، ويخصص فصلا للرياحين، وثانياً لأنواع النبات التى تتخذ منه الجنان أى البساتين أو الحدائق وثالثاً لاختيار البيادر والمدارس حيث تجمع المحاصيل وتدرس. وخصص الباب الثلاثين لاختيار مواضع البنيان ووقت قطع الخشب ومعاصر الزيت. أما الأبواب الأربع الأخيرة فإنه يستعرض المعلومات الخاصة بـ تغذية وتربية الحيوان وكذا أمراض الحيوان ويتحدث عن كيفية اختيار الجيد ومدة الحمل وعلاج بعض أدوائها ثم التسمين والعلف ثم علاج بعض علل الدواب، مما يدخل فى نطاق الطب البيطرى ـ بيطرة ـ وتحدث فى فصل خاص عن الحيوان الطائر فى البيوت (الدواجن) مثل الحمام والأوز والدجاج ونحل العسل، واقتناء الكلاب للصيد والزرع.

ويذكر الدكتور عبد الحليم منتصر أن «كازبرى» فى فهرسه كان أول من نبّه الأذهان إلى وجود المخطوطات الكاملة لهذا الكتاب بمكتبة الأسكوريال،. وقد نشر بانكويرى هذا الكتاب مع ترجمة أسبانية سنة ١٨٠٣م، وبعد أكثر من نصف قرن نشر «كليمان ميوليه» ترجمة فرنسية لهذا الكتاب ١٨٦٤م ونقد «دوزى» ثم هنكادة كلا من المترجم والناشر.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - جورج سارتون - تاريخ العلم.

٢ - د. عبد الحليم منتصر، تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه.

٣ - د. عزة مريدن، دراسات وتأملات فى العلم والطب والحياة، دمشق ١٩٨٣م.

الغزالـــى
(٤٥٠ - ٥٠٥هـ = ١٠٥٨ - ١١١١م)

هو محمد بن محمد بن محمد الغزالى، الملقب بحجة الإسلام، وزين الدين الطوسى وكنيته : أبو حامد، الفقيه الشافعى، الأصولى المتصوف، الشاعر الأديب، ومن ألقابه أنه مربى السالكين إلى الطريق المستقيم، جامع أشتات العلوم فى المنقول والمعقول. ولد رحمه الله بطوس سنة ٤٥٠ هـ = ١٠٥٨م.

وكان والده فقيرًا صالحًا يغزل الصوف ويبيعه فى دكانه بطوس، وكان لا يأكل إلا من كسب يده، يجالس الفقهاء، ويتوفر على خدمتهم. وكان إذا سمع منهم بكى وتضرع إلى الله أن يرزقه ولدًا فقيهًا. وكان أيضًا يحضر مجالس الوعظ، فإذا تأثر بكى وسأل الله أن يرزقه ولدًا واعظًا؛ فرزقه الله ولدين: أحمد ومحمد، وكان أحمد واعظًا يلين بوعظه الصخور الصم، وكان محمد أفقه أقرانه، وإمام أهل زمانه، وفارس ميدانه.

وقد قرأ فى صباه طرفًا من الفقه ببلده طوس على أحمد بن محمد الراذكانى. ثم سافر فى طلب العلم إلى جرجان لاستماع دروس الإمام أبى نصر الإسماعيلى، وعلق عليه التعليقة، ثم رجع إلى طوس، وأقبل على الاشتغال بهذه التعليقة ثلاث سنين حتى حفظها، ثم سافر إلى نيسابور، وتردد على دروس إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى.

توفى - رحمه الله - سنة خمس وخمسمائة بطوس، ودفن بظاهر الطابران، وهى قصبة طوس، والطابران بفتح الطاء والباء الموحدة.

والغزالى نسبة إلى غزل الصوف، أو غزالة: قرية من قرى طوس.

وكان الغزالى نابغة حيث جدَّ واجتهد فى الاشتغال والاستذكار والاستظهار، حتى برع فى الفقه، والخلاف والجدل، وأصول الدين، وأصول الفقه، والمنطق والحكمة والفلسفة. ونبغ فى مدة وجيزة، حتى صار يشار إليه بالبنان، وصنَّف فى تلك العلوم على عهد

أستاذه إمام الحرمين، ونقد الآراء الزائفة فى هذه العلوم، وتصدَّى للرد عليها.

وكان - رحمه الله - شديد الذكاء، سديد النظر، سليم الفطرة، عجيب الإدراك، قوى الحافظة، مرهف الأحاسيس، بعيد الغور، غواصًا على المعانى الدقيقة، معنيا بالإشارات الرقيقة، جامعًا بين علوم الظاهر والحقيقة، مناظرًا محجاجًا.

أما عن رحلاته فعندما مات إمام الحرمين خرج الغزالى من نيسابور إلى المعسكر قاصدًا الوزير نظام الملك، الذى كان مجلسه مجتمع أهل العلم، وملاذ الأدباء، فناظر الغزالى فى حضرته الأئمة العلماء وظهر عليهم، فاعترفوا بفضله، وتلقاه نظام الملك بالتعظيم والتكريم، وولاَّه تدريس مدرسته ببغداد، وأمره بالتوجه إليها؛ فقدم بغداد سنة ٤٨٤ هـ بالنظامية، فأعجب الناس بحسن كلامه، وفصاحة لسانه، وكمال فضله، وسمو خلقه، وأحبوه من قلوبهم، وأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير، ومكث مدة يدرس وينشر العلم والفتيا، وكان عالى التربية، مسموع الكلمة، مشهور الاسم، تضرب به الأمثال. وتشدّ إليه الرحال، ثم زهد فى تلك المظاهر، فقصد إلى بيت الله الحرام للحج سنة ٤٨٨هـ، واستناب أخاه فى التدريس، فلما رجع توجه إلى الشام، فأقام بمدينة دمشق يشتغل بالعلم فى زاوية الجامع، ثم انتقل إلى بيت المقدس واجتهد فى العبادة، وانقطع عن الناس وتحرى الأماكن الخالية، ثم قصد مصر وأقام بالإسكندرية مدة، وكان قد اعتزم السفر منها بحرًا إلى بلاد المغرب للاجتماع بالأمير يوسف بن تاشفين صاحب مراكش، ولكنه عدل عن ذلك حين بلغه نعيه، فعاد إلى وطنه بطوس، واشتغل بالعلم والعبادة وتصنيف الكتب المفيدة.

ومن أشهر مصنفاته الأجوبة الغزالية فى المسائل الأخروية، وإحياء علوم الدين، والأدب فى الدين، والأربعين فى أصول الدين، وأسرار الحج، والاقتصاد فى الاعتقاد، وإلجام العوام، والإملاء عن إشكالات الإحياء، والرسالة الولدية، والرسالة اللدنية، والرسالة القدسية، وفيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، والتبر المسبوك فى نصيحة الملوك، والحكمة فى مخلوقات الله، وتهافت الفلاسفة، وتنزيه القرآن عن المطاعن، وجواهر القرآن ودرره، ورسالة الطير، وبداية

الهداية، وتهذيب النفوس بالآداب الشرعية، والقسطاس المستقيم، والمستصفى فى الأصول، والمنخول فى الأصول أيضًا، والمكنون فى الأصول كذلك، والبسيط، والوسيط، والوجيز فى الفقه. وقد أحصى العلماء كتبه فأوصلوها إلى المائتين، والمطبوع منها نحو الخمسين.

أ. د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى حـ ٧ / ٢٢

٢ - معجم سركيس.

٣ - وفيات الأعيان لابن خلكان.

٤ - طبقات الشافعية للسبكى.

٥ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى.

الفارابـــى
(٢٦٠ - ٣٣٩ هـ = ٨٧٤ - ٩٥٠ م)

محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان - أى الشريف - المعروف باسم : «أبو نصر الفارابى».

شخصية موسوعية: فيلسوف، منطقى، حكيم، موسيقى. لُقّب بفيلسوف الإسلام ومؤسس الفلسفة العربية. بحث وكتب فى الطب والكيمياء والضوء والفلك والرياضيات وعلم الاجتماع؛ ولهذا لقّب بـ «**المعلم الثانى**».

وُلد عام (٢٦٠هـ = ٨٧٤ م) فى بلدة «وسيج» قرب بلدة «فاراب» فى بلاد الترك، ونُسب إليها.

كان والده جنديًا فقيرًا، وقد رحل معه إلى «بغداد»، فتلقى تعليمه هناك؛ حيث أخذ اللغة العربية عن ابن السراج النحوى ت (٣١٦هـ = ٩٢٩ م)، والمنطق عن أبى بشر متى بن يونس ت (٣١٦ هـ = ٩٤٠ م)، لكن يُروى أنه بعد ذلك أتقن التركية والفارسية واليونانية والسريانية.

ويروى صاحب «عيون الأنباء» أن الفارابى رحل إلى دمشق وكان يعمل أجيرًا هناك فى بستان، وأنه «كان ضعيف الحال حتى إنه كان يسهر الليل للمطالعة والتصنيف، ويستضىء بالقنديل الذى كان للحارس، وبقى كذلك مدة، ثم عظُم شأنه، وظهر فضله، واشتهرت تصانيفه وكثر تلاميذه».

ثم رحل الفارابى بعد ذلك إلى حلب، حيث ضمّه سيف الدولة الحمدانى إلى مجلسه، وبعد هذا سافر إلى مصر، وعاد منها إلى دمشق، واستوطنها إلى حين وفاته فى شهر رجب عام ٣٣٩هـ الموافق ٩٥٠م عن عمر يناهز الثمانين عامًا. ودُفن فى مقبرة باب الصغير، وصلّى عليه سيف الدولة الحمدانى، رحمه الله.

مشروع النهضة لدى الفارابى :

يتمثل مشروع النهضة لدى الفارابى فى منجزاته وإبداعاته، التى ساهمت فى دفع مسيرة النهضة؛ بناء على أسس نظرية وعلمية:

١ - يعد الفارابى أول من وضع نواة أو منهجًا لدائرة معارف، سجل فيها معارف

الإنسانية وعلومها فى عصره، وذلك فى كتابه المعروف : «إحصاء العلوم».

٢ - وطبقًا لأحكام الشريعة الإسلامية، رفض الفارابى «صناعة التنجيم»، وقال ببطلانها، وأظهر فساد علم أحكام النجوم فى رسالته «النكت فيما يصح وما لا يصح من أحكام النجوم»؛ حيث يرى أن من الخطأ الكبير ما يزعمه الزاعمون من أن بعض الكواكب تجلب النحس، وبعضها يجلب السعادة، هذا بالإضافة إلى أن هناك معرفة برهانية يقينية إلى أكمل درجات اليقين، نجدها فى علم النجوم التعليمى. أما دراسة خصائص الأفلاك وتأثيرها فى الأرض وما عليها، فلا نظفر منها بأى لون من ألوان المعرفة، حتى ولو كانت معرفة ظنية، وعليه فإن دعاوى المنجمين ونبوءاتهم لا تستحق منا غير الشك والارتياب.

٣ - وفيما يتعلق بالموسيقى، فقد وضع الفارابى بعض المصطلحات الموسيقية، وأسماء الأصوات التى لا تزال تستعمل إلى الآن، هذا بالإضافة إلى أنه أبدع آلة القانون الموسيقية، كما أنه أول من قدّم وصفًا للرباب ذات الوتر الواحد والوترين المتساويين فى الغلظة، كذلك بحث فى آلة العود والطنبور والمزمار (البوق).

وكان اهتمامه بهذه الآلات المتنوعة راجعًا إلى مفهوم محدد عنده للموسيقى؛ لأن لفظ الموسيقى معناه الألحان، واسم اللحن يقع على جماعة نغم مختلفة رُتِّبت ترتيبًا محدودًا.

ويرى بعض باحثى الغرب، أن كتاب الموسيقى للفارابى توجد فيه أول بوادر «اللوغاريتم» التى منها عُرفت علاقة الموسيقى بالرياضيات.

كما يشير آخرون إلى التشابه الواضح بين آراء الفارابى فى «الجاذبية»، وبين آراء «أينشتاين»، مما يجيز القول بالتأثّر أو توارد الخواطر على حد سواء.

٤ - المدينة الفاضلة : ومعناها المدينة المثالية، وقد اهتم بها الفارابى؛ نظرًا لاهتمامه بالفلسفة، والفلسفة كلها مثالية، لا واقعية، ومع هذا فإن المذهب الذى يرسمه الفيلسوف، إنما هو مذهب ممكن التحقيق فى رأيه؛ اللهم إلا لعوامل خارجة عن إرادته. وفكرة الفارابى عن المجتمع المثالى أو المدينة الفاضلة، إنما هى فكرة تعتبر مركز الدائرة فى فلسفته، أو هى الرباط الذى يجمع جوانب فلسفته.

والفارابى لا يرسم للمدينة الفاضلة نظامًا سياسيًا فقط، وإنما يوضح آراء أهل المدينة الفاضلة، فيبيّن معتقداتهم فيما يتعلق بما

وراء الطبيعة، ثم يوضح معتقداتهم فى الله وفى النبوة ، وفى المبدأ والمصير.

وهو يوضح نظام سلوكهم كأفراد، ونظام سلوكهم كجماعة ونظام علاقتهم بالرئيس، والترابط الاجتماعى بين الرئيس والمرءوس، ثم يبين أسباب انهيار المدن وما يترتب على ذلك من ردود أفعال.

وفى كتابه «آراء أهل المدينة الفاضلة» نرى الفارابى يحيط بالموضوع من كل جوانبه: عقيدة ونظامًا وسلوكًا، وهذا الكتاب يمثل رأى الفارابى الأخير، لأنه من أواخر مؤلفاته تقريبًا.

السعادة المنشودة لأهل المدينة الفاضلة منوطة بعقائد وآراء تخيلها الفارابى فى فلسفته الإلهية والطبيعية والإنسانية:

ففى مجال الألوهية: لم يجعل الفارابى من الوجود الإلهى قضية تحتاج إلى دليل فى كتابه: «آراء أهل المدينة الفاضلة»، وبدأ بالتنزيه المطلق للموجود الأول، نافيًا عنه الشريك والضدّ والحدّ.

ومن الأمور غير المحمودة فى فلسفة الفارابى إزاء المدينة الفاضلة:

- أنه يأخذ بمذهب الفيض الأفلاطونى المحدث، الذى يرى أن الله تعالى يفوض العقول العشرة فى الخلق والتدبير، وهذا مرفوض فى العقيدة الإسلامية ، لأنه وثنية لا ريب فيها، وإن كان أفلوطين له منزلته الرفيعة لدى العقليين.

- أنه رأى السعادة الإنسانية للنفوس الكاملة فى هذه الحياة التى هى الدار الدنيا، وهذا يوقع الخلق جميعًا فى اليأس من رحمة الله تعالى، بل إن الفارابى قد صيّر الفاضل والشرير فى مرتبة واحدة؛ حين جعل مصير الكل إلى العدم.

- هذا بالإضافة إلى ما ظهر من سوء معتقده فى النبوّة، وأنها مكتسبة، وأنها للقوة الخيالية خاصة، مع تفضيله الفلسفة على النبوة، وذلك غاية الغرور.

- كذلك وقع الفارابى فى خطأ فادح حين اعتمد على التأويل العقلى للسمعيات. فقد ذهب إلى أن «القلم» ليس شيئًا جماديًا يُكتب به، ولكنه مَلَكٌ روحانى، و«اللوح» ليس شيئًا مسطحًا يُكتب عليه، لكنه أيضًا مَلَكٌ روحانى.

وكل هذا التأويل والتلفيق الفلسفى، يحملنا على أن نُعرِض بالضرورة عن مدينته الفاضلة، ونعتصم بدين الله عزّ وجلّ.

مؤلفاتــــه :

بلغت مؤلفات الفارابى نحو (١٠٠) مؤلف، لكن فقد معظمها بسبب الفتن التى كانت

تتوالى على بغداد وغيرها من العواصم العربية حينذاك؛ إذ كان عصر الفارابى عصر اضطراب سياسى، لكن كان لمؤلفات الفارابى أثر عظيم فى حضارة الغرب الأوروبى خلال العصر الوسيط، وإليك بعض أسماء كتبه التى بقيت وطبعت:

١ - إحصاء العلوم والتعريف بأغراضها.

٢ - مقالة فى وجوب صناعة الكيمياء والرد على مبطلها.

٣ - كتاب الموسيقى الكبير.

٤ - كتاب الأدوار.

٥ - كتاب أراء أهل المدينة الفاضلة.

٦ - الثمرة المرضية.

٧ - رسائل فى الفلسفة.

٨ - رسالة فصوص الحكمة.

٩ - مقالة فى أغراض ما بعد الطبيعة.

١٠ - رسالة فى الجمع بين رأيى الحكيمين أفلاطون وأرسطو.

١١ - رسالة فى السياسة.

١٢ - كتاب تحصيل السعادة.

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

مراجع للاستزادة:

١- فارمر: تاريخ الموسيقى العربية : (ص ٢٥٣، ٢٧٠، ٤٣٢).
٢- كارادى فو : تراث الإسلام : ص ٦٥، ٥٨٢ . القاهرة .
٣- زيجريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب: ص ١٦٣، القاهرة .
٤- ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء : ٦٠٢-٦٠٩، القاهرة .
٥- البيهقى: تاريخ حكماء الإسلام : ٣٠-٣٥، القاهرة .
٦- بروكلمان : تاريخ الأدب العربى : ٤: ١٣٧-١٥١، القاهرة .
٧- الأعلام للزركلى جـ٧ / ٢٠.
٨ - زهير حمدان: أعلام الحضارة العربية الإسلامية فى العلوم الأساسية والتطبيقية (العهد العباسى والعهد الفاطمى) ٢: ٤٢١-٤٢٢ . منشورات وزارة الثقافة السورية . دمشق، سنة ١٩٩٥م.
٩- مصطفى عبدالرازق: خمسة من أعلام الفكر الإسلامى - ص ٧٢ ، دار الكاتب العربى.
١٠- الفارابى : كتاب الموسيقى الكبير، ص ٤٧، تحقيق غطّاس عبد الملك خشبة، ومراجعة د. محمود الحفنى - دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، بالقاهرة.
١١- زهير حمدان : أعلام الحضارة .. ص ٤٢٤.
١٢- د. عبدالحليم محمود : التفكير الفلسفى فى الإسلام ص٢٤٥-٢٤٩، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٨٤م.
١٣- د. محمد سيد المسيّر : المجتمع المثالى فى الفكر الفلسفى وموقف الإسلام منه. ص١٩٣-١٩٦ ط٢ ، سنة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م - مؤسسة علوم القرآن: دمشق - بيروت.
١٤- د. محمد البهى: الفارابى الموفّق والشارح. ص٤، ط١، سنة ١٤٠١هـ=١٩٨١م مكتبة وهبة بالقاهرة.
١٥- سعيد زايد: الفارابى . ص ٦٥-٦٦ دار المعارف بمصر ، ط٢، سنة ١٩٨٠م.

الفخـر الــرازى
(٥٤٤ ـ ٦٠٦هـ = ١١٥٠ ـ ١٢١٠ م)

هو : مـحـمـد بن عـمـر بن الحـسـن بن الحـسـين بن على، أبو عـبـد الله القـرشى البكرى التيمى الطبرستانى الأصل، الرازى ابن خطيب الرى، الشافعى، المفسر، المتكلم، صاحب التصانيف[١] ولد بالرى سنة ٥٤٤هـ = ١١٥٠م. وكانت وفاته سنة ٦٠٦ هـ = ١٢١٠م.

ويقال فى سبب وفاته: إنه كان بينه وبين الكرّاميّة خلاف كبير، وجدل فى أمور العقيدة، فكان ينال منهم وينالون منه، سبا وتكفيرًا، وأخيرًا: سمُّوه؛ فمات على إثر ذلك، ليستريحوا منه ، يرحمه الله[٢].

وقد أثنى العلماء عليه فقال ابن خلكان : فريد عصره، ونسيج وحده، فاق أهل زمانه فى علم الكلام والمعقولات، له التصانيف المفيدة فى فنون عديدة، منها: تفسير القرآن الكريم؛ جمع فيه كل غريب وغريبة وهو كبير جدًا، لم يكمله[٣].

وقال الذهبى فى السير :علامة، كبير، ذو فنون[٤].

وقال فى تاريخ الإسلام: قال الموفق أحمد ابن أبى أصيبعة فى تاريخه: انتشرت فى الآفاق مصنفات فخر الدين الرازى وتلامذته؛ كان إذا ركب مشى حوله نحو ثلاثمائة تلميذ: فقهاء، وغيرهم.

وكان خوارزم شاه يأتى إليه، وكان شديد الحرص جدًا فى العلوم الشرعية والحكمية، حاد الذهن، كثير البراعة ، قوى النظر فى صناعة الطب، عارفًا بالأدب، له شعر بالفارسى والعربى، وكان ربع القامة، كبير اللحية، فى صورته فخامة، كانوا يقصدونه من البلاد على اختلاف مطالبهم فى العلوم وتفننهم، فكان كل منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرومه منه[٥].

وقال القفطى : قرأ علوم الأوائل وأجادها، وحقَّق علم الأصول، ودخل خراسان ووقف على تصانيف أبى على بن سينا والفارابى، وعلم من ذلك علمًا كثيرًا[٦].

ورحل إلى جهة ما وراء النهر لقصد بن مازة ببخارى، ولم يلق منهم خيرا.

وقال طاش كبرى زاده: إمام المتكلمين، ذو

الباع الواسع فى تعليق العلوم، والاجتماع بالشائع من حقائق المنطوق والمفهوم، بحر ليس للبحر ما عنده من الجواهر، وحبر سما على السما؛ وأين للسماء مثل ما له من الزواهر، وروضة علم تستقل الرياض نفسها أن تحاكى ما لديه من الأزاهر، انتظمت بقدره العظيم عقود الملة الإسلامية، وابتسمت بدره النظيم ثغور المحمدية ، وخاض من العلوم فى بحار عميقة، وراض النفس فى دفع أهل البدع وسلوك الطريقة، وله شعار أوى الأشعرى من سننه إلى ركن شديد، واعتزل المعتزلى علمًا أنه ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد.

وأما الشرعيات: تفسيرًا وفقهًا وأصولاً وغيرها، فكان بحراً لا يجارى، وبدراً - إلا أن هُداه - يشرق نهارًا[٧].

وقال الإسنوى فى طبقات الشافعية: إمام وقته فى العلوم العقلية، وأحد الأئمة فى العلوم الشرعية[٨].

وقال اليافعى فى مرآة الجنان فى وفيات سنة ست وستمائة: فيها توفى الإمام الكبير، العلامة النحرير، الأصولى، المتكلم، المناظر، المفسر، صاحب التصانيف المشهورة فى الآفاق، والحظية فى سوق الإفادة بالاتفاق، والملقب بالإمام عند علماء الأصول، المقرر لشبه مذاهب الفرق والمخالفين، والمبطل لها بإقامة البراهين ، وحيد عصره، ونسيج وحده، الذى قال فيه بعض العلماء :

خصَّه الله برأى هو للغيب طليعة

فيرى الحق بعين دونها حسن الطبيعة

ومدحه الإمام سراج الدين يوسف بن أبى بكر بن محمد السكاكى الخوارزمى قوله:

اعلمن علمًا يقينًا أن رب العالمين

لو قضى فى عالميهم خدمة للأعلمينا

فاق أهل زمانه فى الأصلين والمعقولات وعلم الأوائل[٩].

ومن أشهر مؤلفاته :

فى التفسير: التفسير الكبير.

فى علم الكلام: المطالب العالية، البيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والبطلان.

فى أصول الفقه: المحصول، وعيون السائل وإرشاد الناظر.

فى الحكمة: الملخص، شرح الإشارات.. لابن سينا، شرح عيون الحكمة.

فى الكلمات: السر المكنون.

فى النحو: شرح المفصل .. للزمخشرى.

فى الفقه: شرح الوجيز .. للغزالى.

وغير هذا: كثير، كثير.

وتفسير الفخر الرازى[١٠] يحظى بشهرة واسعة بين العلماء؛ وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير بالأبحاث الفيَّاضة الواسعة، فى نواح شتى من العلم، كما ذكر المناسبات بين الآيات مع بعضها البعض، وكذلك بين السور.

وهو فى هذا التفسير : يرى ما يراه أهل السنة، ويعتقد بكل ما يعتقدونه من مسائل علم الكلام، لا يدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم، والرد عليها.

ولا يكاد يمـــر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها، مع ترويجه لمذهب الشافعى - يقلده - بالأدلة والبراهين.

كما يستطرد بذكر المسائل: الأصولية، والنحوية، والبلاغية، وإن كان لا يتوسع فى ذلك توسعه فى مسائل: العلوم الكونية والرياضية.

وبالجملة: فالكتاب أشبه ما يكون بموسوعة فى علم الكلام، وعلوم الطبيعة والكون، إذ إن هذه الناحية، هى التى غلبت عليه حتى كادت تقلل من أهمية الكتاب كتفسير للقرآن الكريم.

ومن أجل هذا..

قال صاحب كشف الظنون: إن الإمام الفخر الرازى ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة، خرج من شىء إلى شىء، حتى يقضى الناظر العجب.

ونقل عن أبى حيان أنه قال فى البحر المحيط: جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة، لا حاجة لها فى علم التفسير.

ولذلك قال بعض العلماء: فيه كل شىء إلا التفسير.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

الهوامش:

١ - تاريخ الإسلام للذهبى (وفيات ٦٠١ - ٦١٠هـ). وسير أعلام النبلاء ٢١/٥٠٠، ٥٠١ . وأخبار الحكماء للقفطى ص ١٩٠ .
٢ - وفيات الأعيان ٣/٣٨١ وما بعدها.
٣ - سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٠ .
٤ - وفيات الأعيان ٣/ ٣٨١ وما بعدها.
٥ - أخبار الحكماء ص ١٩٠ .
٦ - مفتاح دار السعادة ٢/١١٦ .
٧- طبقات الشافعية ٢/٢٦٠ وما بعدها.
٨ - مرآة الجنان .. لليافعى ٤/ ٧-١١ .
٩ - وفيات الأعيان ٣/ ٣٨١ . وشذرات الذهب ٥/ ٢١ .
١٠ - التفسير والمفسرون ١/٢٩١ وما بعدها.

الفـــراء
(١٤٤ - ٢٠٧هـ = ٧٦١ - ٨٢٢م)

هو أبو زكريا: يحيى بن زياد بن عبد الله الفرَّاء، مولى بنى منقر، وبالرغم مما بلغه الفراء من مكانة رفيعة بين النحاة، ومنزلة عظيمة بين أعلام اللغة، لم نجده يستأثر باهتمام الكتاب والمؤلفين؛ فالأقدمون تعرضوا له بما ليس فيه الكفاية، وكأنهم على عجل حين يصل دور هذا الرجل، فلا نعرف عن مناظراته إلا النزر القليل، ولا عن حياته إلا القليل والبسيط. والأحدثون لم يكن بمقدورهم أن يكونوا للفراء طابعًا ينتقونه مما بين أيديهم من نصوص وأحداث، فكانوا أكثر تحفظًا وتحرزًا، اللهم إلا صاحب كتاب «مدرسة الكوفة»[1]، الذى استطاع أن يستشف طبيعة شخصية الفراء، ويرسم لهذه الشخصية الصورة الناطقة التى تجلت له بعد دراسة مستفيضة لأسانيده وتلاميذه، ثم راح يكتب عنه بكل ما فى الجرأة من معنى، وبكل ما فى الجدة من مواصفات، فيقول: «ولانعرف عن حياة الفراء الأولى كثيرًا، إلا أنه ولد بالكوفة سنة ١٤٤هـ = ٧٦١م من أصل فارسى؛ لأنه لم يكن من ذوى الأسر التى يحسب الكتاب والمؤرخون لها حسابًا، ويملأون الصفحات بكل تافه من ألوان حياته المترفة، فقد كان أبوه مولى لقبيلة عربية انتسب إليها كثير من الصحابة وغيرهم، وهى قبيلة بنى منقر، ونشأ كما نشأ أولاد الفقراء يأخذ حقه من الحياة بالجهد والتعب، ويفرض شخصيته على الزمن فرضًا، ولم يفتح التاريخ على يحيى بن زياد الفراء إلا وهو شاب، عرفه زملاؤه بنفاذ الذهن، ودقة الحس، وقدَّر له أستاذه أبو جعفر الرواسى مستقبلا علميا جليلاً».

ومات الفراء بطريق مكة عام ٢٠٧هـ = ٨٢٢م، وقد قضى أكثر عمره فى بغداد، يتطلب العلم جثوًا على الركب، بين أروقة الجوامع وأفنية المساجد. يقول مسلمة ابن عاصم: دخلت على الفرَّاء فى مرضه، وقد زال عقله، فسمعته يقول: إن نصبًا فنصبًا، وإن رفعًا فرفعًا.

ويكاد يجمع النحاة الأقدمون والأحدثون، أن الفراء من أعلم علماء الكوفة بالنحو بعد

الكسائى، وقد أخذ علمه هذا عن الكسائى، وهو عمدته، ومن أساطين النحو، وأجل أصحابه، ثم أخذ عن أعراب وثق بهم، كما أخذ نبذا عن يونس، وأهل الكوفة يدعون أنه استكثر منه، وأهل البصرة يدفعون عنه هذا الادعاء.

ومهما كان فمن الثابت أن الفرَّاء كان شديد التعلق بأستاذه الكسائى، مأخوذًا به، معجبًا بأدائه، ملازمًا له، لا يفارقه فى سفر ولا حضر، وكان إذا سافر فهو رفيقه يحادثه ويسامره، وإذا أقام فهو جليسه يذاكره العلم ويدارسه، وبعد أن خرج الفرَّاء من تحت كساء أستاذه... خرج وهو على تيهٍ وزهوٍ واعتدادٍ بالنفس، بعد أن نال من كل علم طرفا، فراح يخوض غمار المناظرات مع أعلام اللغة دونما تهيب أو وجل؛ ليخرج منها خروج الظافر المنتصر[٢].

لم يعد الخلفاء والأمراء والملوك فى غنى عن الاتصال بمثل هذه العينات البشرية النادرة، فقد كانت مجالسهم تحفل بالأديب والفقيه واللغوى والقاضى والمؤنس والنديم، وغالبًا ما كان الخلفاء يعهدون إلى هؤلاء مهمة تعليم أولادهم وتأديبهم، وكثيرًا ما وجد الملوك عند هؤلاء الرأى الحصيف، والمشورة الصائبة، فليس من بأس إذن، أن يتردد الفرَّاء على مجالس المأمون ليتبوأ مكانه فيه.

بينما هو ذات يوم على الباب إذ جاء أبو بشر بن الأشرس وكان الواقف بباب المأمون، قال ثمامة: فرأيت أبهة أديب، فجلست إليه ففاتشته عن اللغة فوجدته بحرًا، وفاتشته عن النحو فشاهدته نسيجًا وحده، وعن الفقه فوجدته رجلا فقيهًا عارفًا باختلاف القوم، وبالنجوم ماهرًا، وبالطب خبيرًا، وبأيام العرب وأشعارها حاذقًا، فقلت له: من تكون؟ وما أظنك إلا الفراء. فقال: أنا هو. فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين المأمون، فأمر بإحضاره لوقته، وكان سبب اتصاله به[٣].

وصار الفراء يتردد إلى مجلس المأمون، والمأمون يظاهر عليه من يسائله فى النحو ويناظره فى اللغة، إلا أنه كان يهزمهم تباعًا، ويفحمهم، والمأمون عالم قبل أن يكون حاكمًا، خبير بأقدار العلماء ومراتبهم، فقد أنس فى الفراء حذقًا وسعة اطّلاع.

يقول الخطيب فى تاريخ بغداد[٤]: «فأمره بأن يؤلف له ما يجمع به أصول النحو، وما سمع من العربية، وأمر أن يفرد له بحجرة من حجر الدار، ووكل به له خدمًا وجوارى يقمن بما يحتاج إليه، حتى لا تتشوق نفسه إلى شىء، حتى أنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة، وأتوا له بالورّاقين، وألزمه الأمناء والمنفقين، فكان يملى والوراقون يكتبون، حتى صنَّف الحدود فى سنتين»[٥].

وقد أثنى العلماء عليه فقال ابن الأنبارى: لو لم يكن لأهل بغـداد من علمـاء إلا الكسـائى والفـراء، لكان لهم بهمـا الافتـخار على جميع الناس. وقـالوا: النحـو للفـراء، والفـراء أميـر الأمراء فى النحو. ويقول أبو العباس أحمد ابن يحيى: لولا الفراء لما كانت العربية، لأنه حصنها وضبطها. وقال السيوطى: كان متدينًا متورِّعًا، على تيه وعجب وتعظم. وابن خلكان يعرض له فيقـول: كـان أبرع الكوفيين، وأعلمـهم بالنحـو واللغـة وفنون الأدب، كان فى اللغة بحـرًا، وفى الفـقـه عـارفًا، وفى الطب خبـيـرًا، وبالنجـوم ماهرًا، وبأيام العرب وأشعارها حاذقًا.

وبعـد أن فـرغ الفـراء من تصنيف كـتـاب الحدود، قـال لأصحـابه يومًـا: اجتمعوا حتى أملى عليكم كتـابًا فى القـرآن الكريم، وجعل لهم يوما، فلما حضـروا خرج إليهم. وكـان فى المسجد رجل يؤذن فيه، وكان من القراء، فقال له: اقرأ، مبتدئًا بفاتحة الكتاب؛ ففسَّرها، ثم مـر فى الكتـاب كله على ذلك، يقـرأ الرجل ويفسـر الفـراء. قـال الراوى: «وأردنـا أن نعـد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب المعانى، فلم نضـبطهم، فـعـددنا القـضـاة فكانوا ثمـانين قاضيًا»(٦).

وأدهش المأمـون هذا الكتاب العظيم، الذى استـهـوله القـراء والمفـسـرون، ونال ثناءهم وإعجابهم، حتى قال قـائلهم: «كتاب المعانى كتـاب لا يمكن لأحـد أن يزيـد عليـه». فكانت الرغـبـة شـديدة فى نفس المأمـون، والظروف مواتيـة، بأن يدفع بولديه إلى الفـراء ليلقنهمـا النحو والصرف، ويغرس فى نفوسهما التأدب، فـمـا كـان من الفـراء إلا أن يكون بمسـتـوى المسـئوليـة التى أنيطت إليـه، فلم يبـخل على هذين الحـدثين بجـهـد، ولم يضن عليـهـمـا باهتـمـام، حـتـى صـارا شـديدى التـعلق بأستاذهما، لا يأنسان إلا إلى قربه ومعسول أحاديثه، فضلا عما كان يكنان له من إجلال واحترام.

فقد نهض يومًا إلى بعض حوائجه، فابتدرا إلى نعله يقدمان له، فتنازعا أيهما يقدمها، فاصطلحا أن يقـدم كل واحـد منهمـا فـردا، فـقـدمـاها، وكـان المأمـون له على كل شىء صاحب خبـر، فرفع ذلك الخبـر إليـه، فوجه إلى الفراء من استدعـاه، فلما دخل عليه قال: من أعز الناس؟ قال: مـا أعرف أعز من أمير المؤمنين، قـال: بلى، من إذا نهض يقـاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى رضى كل واحد منهمـا أن يقدم له فردا، قـال: يا أمير المؤمنين لقـد أردت منعـهـمـا عن ذلك، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها، أو أكسر نفوسهما عن شريفة حرصا عليها، وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه: «أنه أمسك للحسن والحسين - رضى الله عنهما - ركـابيهمـا،

حين خـرجـا من عنده» فـقـال له بعض من حضر: أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسن منهـمـا؟ فـقـال له: اسكت يا جـاهل، لا يعـرف الفضل لأهل الفـضل إلا ذوو الفـضل. فـقـال له المأمـون: لو منعـتـهـمـا عن ذلك لأوجعتك لومًا وعتبًا، وألزمتك ذنبًا، وما وضع ما فعلاه من شرفهما، بل رفع قدرهما، وبين عن جـوهـرهـمـا، ولقـد ظهـرت لى مـخـيلة الفراسة بفعلهما، فليس يكبر الرجل وإن كان كـبـيـرا عن ثلاث: عن تواضـعـه لسلطانه، ووالده، ومعلمه العلم، وقد عـوضـتـهـمـا بما فعلاه عشرين ألف دينار، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك(٧).

ويحـدثنا التاريخ بأن أهل الكوفة امـتـازوا بالفقه والحديث والقراءة، ثم تعاطوا بعد أن بات بينهم وبين البصريين شأو بعيد. ودراسة النحو فى الكوفة إنما تبدأ بعد الكسائى، فهو إمـام مـدرسـة الكوفـة، وفى رأى آخـر أنهـمـا الكسـائى والفـراء، رئيسـا المدرسـة، وإليـهـمـا يعزى تأسيسها وتنظيم منهجها، وبهما يبدأ تاريخها.

«وإذا كـان الكسـائى قـد وضع أسس هذه المدرسـة الجـديدة، وجـمع لهـا مـادة درسـهـا، ورسم المنهج الذى يعتمد عليه إنشاؤها، فإن الفـراء قد تكفل بإتمام البناء وتعـهـد المدرسـة بالنمو، وأعاد النظر فيمـا جاء به الكسـائى، فأخذ منه ما يتفق مع طبيعة المدرسة، وبنى منهجـهـا على أسـاس علمى جـديد». وهو منذ البداية فى كتابه معـانى القرآن يضع أسـاسًا لقاعدة قياسية، فيقول: الكتاب أعرب وأقوى فى الحجة من السفر، ومن ثَمَّ يتضح منهجه؛ فـهـو يضع القـرآن الكريم نصب عينيـه؛ لأن الكتاب جـاء من عند الله، بلسـان عـربى مبين لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه(٨).

ثم تابع الفراء مسيرته ناشطًا دون كلل، وله فى العربيـة قصب السبق فى أغلب التخـاريج النحوية الجديدة، فتارة تراه يحمل العربية على الألفـاظ والمعـانى، فيـبـرع ويستحق الصـدارة، وتارة يقلِّب المسألة على وجوهها المختلفة، وله فى كل وجه منها أكثر من تعليل وتفسير.

وآراؤه النحـوية هذه، وتفـسـيـراته لوجـوه الإعـراب يطغى عليـهـمـا الطابع الفلسـفى، فمثلا حين يرى الخليل بن أحمد «كلا» اسم، يراها الفـراء بين الأسمـاء والأفـعـال، فيـقـول: فلا أحكم عليها بالاسم ولا بالفعل، فلا أقول إنهـا اسم، لأنهـا حشـو فى الكلام، ولا تنفـرد كمـا ينفرد الاسم، وأشبهت الفعل لتغيرها فى المكنى والظاهـر، لأنى أقول فى الظاهر: رأيت كـلا الزيدين، ومـررت بكلا الزيدين، وكلمنى كـلا الزيدين، فـلا تتـغـيـر، وأقـول فى المكنى: رأيتهما كليهما، ومررت بهما كليهما، وقام إلىَّ كلاهمـا، فـأشـبـهت الفعل، لأنى أقـول: قضى

زيد ما عليه، فتظهر الألف مع الظاهر، ثم أقول قضيت الحق، فتصير الألف ياء مع المكنى.

ولم يخالف الفراء الخليل، وحسب، وإنما خالف أستاذه الكسائى فى كثير من مذاهبه، فرفع المعطوف على اسم «إن»، أجازه فريق من النحاة فى جميع الأمثلة أو بعضها، ومنهم الكسائى الذى كان يجيز ذلك مطلقًا. أما الفراء «فلم يمنع رفع المعطوف، ولم يجوّزه مطلقًا، بل فصل، وقال: إن خفى إعراب الاسم يكون مبنيا أو معربًا مقدّر الإعراب، جاز الحمل على المحل... إلا فلا»[٩].

ولقد ترك الفراء مؤلفات كثيرة قيمة، وأغلبها فى النحو واللغة. فقد صنَّف:

١ - معانى القرآن.

٢ - البهاء فيما تلحن فيه العامة.

٣ - اللغات.

٤ - المصادر فى القرآن.

٥ - آلة الكتاب.

٦ - النوادر.

٧ - المقصور والممدود.

٨ - فعل وأفعل.

٩ - المذكر والمؤنث.

١٠ - الحدود، مشتملة على ستة وأربعين حدا فى الإعراب، وله فى غير ذلك.

أ. د. عبد الفتاح غنيمة

الهوامش:

١- مهدى المخزومى: مدرسة الكوفة. مطبعة مصطفى البابى. مصر، سنة ١٣٧٧هـ.
٢- الزبيدى: طبقات النحويين واللغويين، ص١٤٠، وأيضا ياقوت: معجم الأدباء، جـ٧ /٢٧٦.
٣- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥ /٢٢٥.
٤- الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد، القاهرة.
٥- ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ٥ /٢٢٧.
٦- الزبيدى: طبقات النحويين واللغويين، ص ١٤١.
٧- صابر أبو السعود: القياس فى النحو، ص١٩٤ وما بعدها.
٨- مهدى المخزومى: مدرسة الكوفة، ص٧٩، ١٢٧. وأيضا الفراء: معانى القرآن، تحقيق نجاتى والنجار، دار الكتب، سنة ١٣٧٤هـ، جـ١ /١٤.
٩- أبو الطيب: مراتب النحويين، ص٨٨.

مراجع للاستزادة:

١- تهذيب التهذيب، لابن حجر، الهند.
٢- طبقات النحويين واللغويين، للزبيدى، مصر.
٢- بغية الوعاة، للسيوطى، مصر.
٤- مدرسة الكوفة، لمهدى المخزومى، مصر.
٥- معجم الأدباء، لياقوت، مصر.
٦- وفيات الأعيان، لابن خلكان، مصر.
٧- تاريخ بغداد، للخطيب، مصر.
٨ - القياس فى النحو، لصابر أبى السعود، مصر.

الفســوى
(٠٠٠ - ٢٧٧هـ = ٠٠٠ - ٨٩٠م)

هو الحافظ أبو يوسف: يعقوب بن سفيان ابن جوان الفارسى الهمذانى، المتوفى سنة ٢٧٧هـ = ٨٩٠ م عن بضع وثمانين سنة، ويذكر بروكلمان أنه توفى بالبصرة سنة ٢٨٨هـ = ٩٠١م.

وعلى كل حال فهو أحد أركان الحديث والحفظ، وهو أيضًا من المؤرخين والجغرافيين، ترك بلده «فسا» سنة ٢١٩هـ، واتجه ناحية دمشق وحمص وفلسطين ومصر، ثم عاد إلى بلده بعد عشر سنوات ليتركه من جديد إلى العراق ومصر، ثم استقر فى العراق، حيث توفى فى مدينة «البصرة»

وللفسوى كتاب ضخم عنوانه «المعرفة والتاريخ» أدخله بروكلمان (٤٣/٣ من الترجمة العربية) ضمن كتب أخبار العباسيين أو أخبار الدولة العباسية، ويبدو أنه يعنى النصف الضائع من هذا الكتاب.

ويبدو أن هذا الكتاب كان يتألف من قسمين، أحدهما، تاريخ عام للأحداث السياسية مرتب على السنين، وقد ضاع معظمه، وكان من مصادر «الذهبى» فى «تاريخ الإسلام»، أما القسم الثانى: فيتعلق بمعرفة الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وقد سلم هذا القسم، ومنه نسخة خطية فى مجلدين كبيرين يشملان عشرين جزءًا من الكتاب، وأحد المجلدين مخطوط فى مكتبة (طوب قبوسراى بإستانبول» مكتبة رمضان كشك رقم ١٥٥٤، وهى الأجزاء من ١٠-١٧ وينتهى الجزء السابع عشر بسنة ٢٤١هـ) والمجلد الثانى موجود فى مكتبة أسعد أفندى هناك أيضًا رقم ٢٣٩١ الأجزاء ١٨-٢٩).

ويبدأ المخطوط بـ ٨٤ صفحة حول الصحابة: اسم كل منهم، ونسبه، مع الحديث الذى روى عنه، ثم يأتى ذكر التابعين، ثم من جاء بعدهم طبقة طبقة، وتنتهى التراجم بترجمة مفصَّلة لبعض كبار الصحابة وأولادهم.

وللفسوى كتاب آخر عنوانه «معجم الشيوخ» رتَّبه على البلدان التى زارها، ومنه الجزءان الثانى والثالث مخطوطان فى

الظاهرية بدمشق تحت رقم ٧٤١٨، ٧٤١٩ ويقعان فى ٤٢ ورقة.

تشابه نسب :

وهذا - المترجم له - غير أبى رفاعة عمارة بن وثيمة بن موسى بن الفرات الفارسى الفسوى، ولد بالفسطاط حيث استوطن الوشّاء - المحدث المؤرخ - بعد رحلة طويلة إلى الأندلس طلبًا للعلم، وقد توفى بها فى ٦ من جمادى الآخرة سنة ٢٨٩هـ = ١٩ مايو ٩٠٢م.

وله كتاب بدء الخلق وقصص الأنبياء، والجزء الأخير منه مخطوط فى الفاتيكان ثالث ١٦٥، ولعله جزء من تاريخه على السنوات.

هذا وذاك غير الفسوى محمد بن أحمد ابن على شهاب الدين، مؤرخ، ولد بإحدى ضواحى «فسا» بفارس، وكان حيا قبل ٦٣٩هـ = ١٢٤١م، ودخل فى خدمة السلطان «جلال الدين منكبرتى» شاه خوارزم، له «سيرة السلطان منكبرتى» المطبوع مع ترجمة فرنسية.

أ.د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة :

١ - شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخون، أربعة أجزاء، دار العلم للملايين ، بيروت، سنة ١٩٧٨م.

٢ - شاكر مصطفى : موسوعة دول العالم الإسلامى ورجالها، أربعة أجزاء، دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٩٣/١٩٩٥م.

٣ - بروكلمان : تاريخ الأدب العربى، الترجمة العربية لعبد الحليم النجار، القاهرة، سنة ١٩٦٢م.

٤ - طبقات الحفاظ للسيوطى ص ٩.

٥ - كشف الظنون لحاجى خليفة ٢٣٤٣ = ١:٢١٩، ٢١٢ = ٢٨٠١ من الطبعة الثانية.

٦ - وفيات الأعيان لابن خلكان ٧٩٢ من نشرة واستنفلد ص ٥٥، ٧٩.

٧ - تاريخ آداب اللغة العربية، جورجى زيدان ٦٣/٣.

٨ - معجم المطبوعات العربية والمعّربة: يوسف إليان.

٩ - الأعلام : خير الدين الزركلى ١٩٨/٨.

١٠ - البغدادى : هدية العارفين ١٢١/٢.

١١ - عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين ٢٠٠/٨، ٢٠١.

١٢ - دائرة المعارف الإسلامية مادة «الفسوى».

ابن فضل الله العُمَرى

(٧٠٠-٧٤٩هـ = ١٣٠٠-١٣٤٨م)

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فضل الله أحمد بن يحيى وينتمى نسبه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ومن هنا يلقب بالعُمَرى، أحد أعلام القرن الثامن الهجرى.

ولد بدمشق فى ٣ من شوال سنة ٧٠٠هـ الموافق ١٣٠٠م، وعاش بها طفولته، ثم وفد غلامًا يافعًا على القاهرة، ودرس بها واتخذها وطنا وموئلا. توفى عام ٧٤٩هـ الموافق ١٣٤٨م دون أن يبلغ الخمسين من عمره.

وتعمق فى علوم الشريعة واللغة والفقه، ونبغ فى الكتابة والإنشاء، وتقلد عدة مناصب هامة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون، فى ولايته الثالثة، وانتهى إلى تقلد ديوان الإنشاء والرسائل فاستحدث فيه كثيرا من الأساليب والأوضاع البديعة، ووضع له دستورا ظل عمدة الكتاب والسلاطين عدة عصور.

ولبث العمرى إلى جانب اضطلاعه بأعباء المناصب العامة، رجل البحث والدرس؛ وعنى عناية خاصة بدرس الجغرافية الطبيعية والسياسية أو الممالك وطبائعها وخواصها؛ ودرس تواريخ الأمم وأحوالها وعجائبها، ولاسيما أمم الشرق النائية مثل أمم التتار والهند والصين. ودرس الفلك أيضًا، ولم يكتف فى درسه بقراءة المصادر والمصنفات القديمة، ولكنه قرن الدرس النظرى بنوع من الدراسة العملية، فتجول فى أنحاء الشام والأناضول والحجاز، وبعض الممالك الإسلامية الأخرى، واستعان فى تعرف أحوال الأمم والممالك التى لم تتح له زيارتها، بأقوال العارفين والثقات، ممن زاروها أو درسوا أحوالها دراسة خاصة، حتى اجتمعت له من ذلك مادة غزيرة تمتاز فى كثير من الأحيان بدقتها وطرافتها.

وقد تبوأ العمرى إمامة البلاغة والبيان والترسل فى عصره، حتى إن الصفدى معاصره وصديقه يفضله فى هذا الفن على القاضى الفاضل، ويصف خلاله ومواهبه الأدبية فى تلك العبارات:

«يتدفق بحره بالجواهر كلامًا، ويتألق إنشاؤه بالبوارق المستعرة نظامًا، ويقطر كلامه فصاحة وبلاغة، وتندى عباراته انسجامًا وصياغة، وينظر إلى غيب المعانى من ستر رقيق، ويغوص فى لجة البيان فيظفر بكبار اللؤلؤ من البحر العميق، قد استوت بديهته وارتجاله، وتأخر عن فروسيته من هذا الفن رجاله، يكتب من رأس قلمه بديهًا ما يعجز القاضى الفاضل أن يدانيه تشبيهًا، وينظم من المقطوع والقصيدة جوهرًا يخجل الروض الذى باكره الحيا مزهرًا، صرف الزمان أمرًا ونهيًا، ودبر الممالك تنفيذًا ورأيًا، ووصل الأرزاق بقلمه، وزويت تواقيعه وهى سجلات لحكمه وحكمه، لا أرى أن اسم الكاتب يصدق على غيره ولا يطلق على سواه». ثم يصفه الصفدى بعد ذلك بالأديب «الكامل» وينوه بقوة ذاكرته، وحسن ذوقه، ويقول لنا إنه، أى العمرى، كان آية فى النثر والنظم والترسل البارع عن الملوك، وأنه «لم ير من يعرف تواريخ الملوك المغل من لدن جنكيز خان معرفته، وكذلك ملوك الهند والأتراك. وأما معرفته الممالك والمسالك، وخطوط الأقاليم والبلدان وخواصها، فإنه فيها إمام وقته».

ولأقوال الصفدى، وهو إمام النقد فى عصره، قيمتها فى التنويه بخلال العمرى الأدبية، والعلمية الفائقة. بيد أن العمرى نفسه مازال خير شاهد بعبقريته، ولاسيما فى فن الإنشاء والترسل، وقد كان العمرى فوق ذلك شاعرًا مجيدًا.

عاش العمرى حياة قصيرة ولكن باهرة؛ وتبوأ ذروة المناصب العامة، كما تبوأ إمامة التفكير والأدب، واستمرت حظوته لدى الملك الناصر طوال عهده.

ترك لنا العمرى تراثًا حافلا ينم عن غزارة مادته ورفيع مواهبه، منه: موسوعته الكبرى «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار».

و«الدعوة المستجابة».

و«صبابة المشتاق» وهو فى المدائح النبوية.

و«سفر السفرة».

و«دمعة الباكى».

و«يقظة الساهر».

و«نفحة الروض» وكلها من كتب الأدب والبيان.

وكتاب «فواضل السمر فى فضائل آل عمر».

وكتاب «الشتويات» وهو رسائل فى الشتاء.

و«النبذة الكافية فى معرفة الكتابة والقافية».

وكتاب «التعريف بالمصطلح الشريف» وهو مجموعة نماذج من الرسائل الملوكية والأميرية وطائفة كبيرة من القصائد والموشحات والتقاليد والمناشير.

قد انتهى إلينا من هذا التراث أهمه وأنفسه؛ فلدينا أولا كتاب «مسالك الأبصار» وهو أهم آثار العمرى وأضخمها؛ وهو فى الواقع موسوعة كبرى تملأ عشرين مجلداً كبيراً ويقول لنا العمرى: إنه أثر الحياة وإنه «قطع فيه عمر الأيام والليالى» وإنه شرع فيه أيام التحاقه بخدمة الملك الناصر، وقد يكون ذلك حوالى سنة ٧٣٠هـ؛ ويبدو من مقدمته أيضا ومن دعائه للملك الناصر بدوام أيامه، أن أنجز نسخته الأولى قبل سنة ٧٤١هـ أعنى قبل وفاة الناصر. بيد أنه يبدو من جهة أخرى أنه زاد فيه بعد ذلك؛ لأنه يصل فى رواية الحوادث إلى سنة ٧٤٣هـ.

ومن المحقق أن العمرى تأثر فى وضع موسوعته بمثل سلفه العظيم النويرى صاحب موسوعة «نهاية الأرب» وهى أول موسوعة من نوعها. غير أنه ينحو فى تقسيمها ومحتوياتها منحا آخر، وبينما يسبغ النويرى على موسوعته صبغة علمية أدبية تاريخية، إذا بالعمرى يسبغ على موسوعته صبغة جغرافية تاريخية، وهو يقسمها إلى قسمين كبيرين: الأول: «فى الأرض»، والثانى فى «سكان الأرض». ويشمل القسم الأول ذكر الأرض وما اشتملت عليه، برًا وبحرًا، وهو نوعان كبيران: المسالك والممالك، ويدخل فى النوع الأول الكلام على أحوال الأرض وصفاتها وعناصرها، وما تحتويه من أنهار وجبال، ثم الكلام على الأقاليم السبعة وهى أساس السبعة وهى أساس الجغرافية القديمة، وما فيها من المدن والجزائر، وما يؤثر عنها من العجائب، ثم الكلام عن الرياح والكواكب والأعراض الطبيعية؛ ويدخل فى القسم الثانى الكلام عن ممالك العالم المعروف يومئذ، مبتدئًا بممالك الهند والسند والتتار، ثم الترك ومصر والشام والحجاز واليمن، ثم ممالك السودان والحبش وإفريقية والأندلس، وفيه بيانات إضافية عن أحوال هذه البلاد ونظمها وخواصها ومحصولها وحيوانها؛ ويبدى العمرى هنا دقة فى البحث والتحرى، ويقدم إلينا أسانيده ومصادره، كلما شعر بمبالغة أو غرابة فيما يروى. ويختتم هذا القسم بالكلام عن العرب الموجودين فى عصره، وأماكن وجودهم ولا سيما فى مصر،

وهو فصل له قيمته فى تعرف الأصول والأنساب. ويشغل هذا القسم الأول من الكتاب نحو عشرة مجلدات.

ويتناول القسم الثانى الكلام على سكان الأرض من طوائف الأمم، وفيه حديث مستفيض عن طوائف العلماء فى الشرق والغرب، ثم الكلام على الأديان والنحل المختلفة، وبعدئذ يجىء الكلام على التاريخ، وهو قسمان: تاريخ الدول التى كانت قبل الإسلام، ثم تاريخ الدول التى قامت بعد الإسلام حتى عصر المؤلف، ويستطرد فيه إلى ذكر الحوادث حتى سنة ٧٤٣هـ أعنى قبل وفاته بنحو خمسة أعوام.

ومن تراث العمرى أثر ذو أهمية خاصة، هو كتاب «التعريف بالمصطلح الشريف». وقد كان العمرى كما رأينا مدى أعوام طويلة ناظرًا لديوان الإنشاء والرسائل، وقد استحدث فى هذا الديوان كثيرًا من الأساليب والأوضاع الجديدة، سواء فى توجيه الرسائل والمخاطبات أو صيغتها؛ ويجب أن نعلم أن ديوان الإنشاء كان فى تلك العصور مجمع المراسلات الداخلية والخارجية. فمنه تصدر الرسائل والمناشير والأوامر والتواقيع إلى الأمراء والحكام وكبار الموظفين؛ ومنه توجه الرسائل إلى مختلف الملوك والدول التى ترتبط بمصر بعلائق سياسية أو تجارية، وإذن فقد كان اختصاصه يتناول ما يسمى اليوم فى لغة السياسة الحديثة بنظم «البروتوكول»، وهى عبارة عن الرسوم والإجراءات التى تجرى عليها الدولة فى تنظيم علائقها الخارجية، سواء فى إجراء المفاوضات السياسية، أو فى عقد المعاهدات، أو مخاطبة الدول الأخرى، أو استقبال ممثليها، ومعاملتهم، أو فى تحرير المكاتبات الدبلوماسية، وكانت مجموعة الرسوم والإجراءات التى تحرى عليها دول السلاطين المصرية فى هذا الميدان تعرف «بالمصطلح الشريف» أو هى تكون جزءًا منه لأن «المصطلح الشريف»، كان يشتمل أيضًا، فضلاً عن رسوم العهود والمفاوضات ورتب المكاتبات السلطانية الداخلية والخارجية، على إجراءات إصدار المناشير والتوقيعات. وإذن فالمصطلح الشريف فى الدول الإسلامية، يقابل فى عصرنا نظم البروتوكول تقريبًا، ولو أنه أوسع مدى.

ويعتبر كتاب العمرى دستور المصطلح الشريف فى مصر الإسلامية، ويعتبره القلقشندى صاحب «صبح الأعشى» أنفس الكتب المصنفة فى هذا الباب. وقد انتفع به القلقشندى فى موسوعته أعظم انتفاع، ونقل

إلينا فوق ذلك طائفة كبيرة من الرسائل، وكلها دليل على ما كان يتمتع به العمرى من المواهب الإنشائية السامية.

وللعمرى آثار ورسائل أخرى كما قدمنا، ولكن معظمها لم يصل إلينا، وما يزال بعضها بعيدًا عن التداول فى بعض المكتبات الأوروبية. على أن «مسالك الأبصار» يبقى دائمًا أعظم آثاره.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١- مؤرخو مصر الإسلامية ومصادر التاريخ المصرى. للكاتب المؤرخ محمد عبد الله عنان ص ٦٨ - ٧٥.
٢ - فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى. ٨/١.
٣ - مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار للعمرى. ٢/١.
٤ - صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى. ٧/١.
٥ - الأعلام للزركلى ٢٦٨/١.

الفضَيل بن عياض
(١٠٥ - ١٨٧ هـ = ٧٢٣ - ٨٠٢م)

هو أبو على الفُضَيل بن عياض بن مسعود التميمى الخراسانى.

ولد سنة ١٠٥هـ= ٧٢٣م فى سمرقند، وتربَّى فى أبيورد.

كان فى شبابه قاطع طريق، ثم تحول بعد ذلك إلى حياة زهد قاسية، ووهب نفسه لدراسة الحديث،حتى عد من الثقات؛ وهذا يدل على تمسكه بالسنة، واقتفائه أثر رسول الله ﷺ.

وكان عالى المكانة لدى هارون الرشيد فى بغداد، انتقل إلى مكة بعد ذلك، وجاور الحرم، وتوفى بها فى المحرم سنة ١٨٧هـ= ٨٠٢ م[١].

مشروعه الحضارى[٢]:

كان أساس الإصلاح عند الفُضَيل هو الزهد فى الدنيا، ولذا وصفه ابن تيمية بأنه «سيد المسلمين فى وقته»، وقد عرفنا أنه فى بداية حياته كان شاطرًا يقطع الطريق بين أبيورد وسرخس.

وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقى الجدران إليها، سمع تاليًا يتلو: ﴿ **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله** ﴾ (سورة الحديد ١٦).

فقال : يا رب قد آن فرجع، فآواه الليل إلى خربة، فإذا هناك رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال قوم: حتى نصبح؛ فإن فُضَيلاً على الطريق يقطع علينا. فتاب الفُضَيل، وأمَّنهم، وجاور الحرم بقية عمره، وقال: "اللهم إنى قد تبت إليك، وجعلت توبتى مجاورة البيت الحرام". ولذا وصفه ابن حجر بأنه الزاهد الخراسانى[٣].

وكان الفُضَيل يلفت النظر إلى معنى عميق للزهد، حيث يقول: "أصل الزهد الرضا عن الله"[٤]. وانطلاقًا من منهج الزهد ينبه الفُضَيل إلى أهم سمة تدل على محبة الله تعالى لعبده، وهى كثرة الابتلاء، كما ينبه إلى أهم علامة تشير إلى بغض الله تعالى لعبده، وهى بسط الرزق أمامه، أو كما يقول الفُضَيل: "إذا أحب الله عبدًا أكثر همه، وإذا أبغض عبدًا وسع عليه دنياه".

وكان يحذر أشد الحذر من معصية الله، وما تعود به على العبد من ضر وأذى،فهو يقول: "إنى لأعصى الله فأعرف ذلك فى خُلُقِ حمارى وخادمى".

ومن نفس الباب يقول :

"لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت علىَّ، ولا أحاسب بها، لكنت أتقذَّرها، كما يتقذَّر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه". ولذا وصفه عبد الله بن المبارك بأنه أورع الناس[٥].

وكان الفُضَيل مهمومًا محزونًا أبدًا، يقول عنه ابن المبارك: "إذا مات الفُضَيل ارتفع الحزن". وقال أبو على الرازى: "صحبت الفُضَيل ثلاثين سنة، ما رأيته ضاحكًا ولا متبسمًا إلا يوم مات ابنه علىّ. فقلت له فى ذلك، فقال: إن الله أحب أمرًا فأحببت ذلك"[٦].

ومن شدة تمسك الفُضَيل بتعاليم الكتاب والسنة، نراه يحذّر من البدع وأهلها أشد التحذير، ونراه يقول عن صاحب البدعة: "لا تأمنه على دينك،ولا تشاوره فى أمرك، ولا تجلس إليه؛ فإنه من جلس إلى صاحب بدعة، ورّثه الله العمى"[٧].

ولعله كان يقصد أبرز أهل البدع فى وقته،وهم "المرجئة" الذين يدّعون أن الإيمان إقرار بلا عمل، مع أن السنة شاهدة بغير ذلك فى أحاديث كثيرة، منها الحديث المشهور: "الإيمان بضع وسبعون شعبة: أفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان".

وبذلك عرف عن الفُضَيل اتصافه بالورع الدائم، والخوف الوافر، والبكاء الكثير، إلى حد أنه كان إذا خرج إلى جنازة أخذ يعظ ويذكر ويجلس فى المقابر حزينًا باكيًا، حتى يقوم وكأنه رجع من الآخرة.

وكانت الآخرة لا تفارق ذهنه، فكان إذا سمع آية : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾. (الذاريات ٥٦) أصابته الرعدة، وأرّقته الخشية من التقصير فى أداء حق الله عليه، فيقول :

"فالويل لى إن سألنى، والويل إن ناقشنى، والويل إن لم ألهم حجتى"[٨].

ومن واجب العبد فى رأى الفُضَيل، أن يبحث عن المحبة التى تربطه بربه، ومن أبرز علاماتها: التقرب إلى الله سبحانه وتعالى بالنوافل، وقيام الليل. كما أن من أوثق عرى الإسلام: "الحب فى الله، والبغض فى الله".

ولذا جرؤ الفُضَيل على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولو كان ذلك لهارون الرشيد نفسه. فرضى الله عن الفُضَيل بن عياض!.

مؤلفاتـــــه :

ينسب له :

١ - "**حـجـاب الأقطار**": باريس ٣: ٢٧٤١ (الأوراق من ٩٥-١٠٩ من القرن الحادى عشر الهجرى، وانظر: فايدا ٣٧٤).

٢ - وقد احتفظ أبو نعيم بعدد كبير من أقواله وآرائه. (انظر: الإبانة لابن بطة ٣٨).

٣ - أما تقدير الخلفاء له فقد ورد فى كـتـــاب بعنوان: «مكارم الأخـــلاق» لمؤلف مجهول(٩).

أ. د. عبد اللطيف محمد العبد

هوامش:

١ - القشيرى : الرسالة القشيرية ص ١٥، مكتبة صبيح بالقاهرة طبعة سنة ١٣٨٦هـ = ١٩٦٦م .
٢ - ابن تيمية : التصوف ص٦٠ القاهرة.
٣ - ابن حجر العسقلانى : تهذيب التهذيب ٨: ٢٩٤ القاهرة.
٤ - د. أبو الوفا التفتازانى: مدخل إلى التصوف الإسلامى ص٨٣، دار الثقافة للنشر والتوزيع بالقاهرة ط سنة ١٩٨٣ م.
٥ - تهذيب التهذيب ٨ : ٢٩٤ القاهرة.
٦ - الرسالة القشيرية ص ١٥ القاهرة.
٧ - ابن بطة : الإبانة ص ٣٦ القاهرة.
٨ - ابن الجوزى : صفة الصفوة ٢ : ١٣١ القاهرة.
٩ - فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربى ص ١٠٧ من المجلد الأول، الجزء الرابع. ترجمة: د. محمود فهمى حجازى، سنة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، وانظر البنغال ١٠٦٢ «صفحة ٢».

مراجع للاستزادة:

١ - بروكلمان : الملحق ١ : ٤٣٠ تحت رقم ٢ أ .
٢ - ابن خلكان : وفيات الأعيان : ١: ٥٢٥ - ٥٢٦ القاهرة .
٣ - الذهبى : ميزان الاعتدال ٢: ٣٣٤ القاهرة.
٤ - السلمى : طبقات الصوفية ٦-١٤ القاهرة .
٥ - ابن العماد : شذرات الذهب ١: ٣١٦-٣١٨ القاهرة.
٦ - ابن كثير : البداية والنهاية ١٠ : ١٩٨ القاهرة.
٧ - د. مصطفى حلمى : الزهاد الأوائل ص ١٩٣ - ١٩٩ . دار الدعوة بالإسكندرية ط ١، سنة ١٤٠٠ هـ / ١٩٧٩م .
٨ - أبو نعيم : حلية الأولياء ٨: ٨٤-١٢٩. القاهرة .

ابن فُـــورَك
(ت ٤٠٦هـ = ١٠١٥م)

هو محمد بن الحسن بن فورك الأنصارى الأصبهانى المعروف بأبى بكر ابن فورَك (بضم الفاء وفتح الراء) المتوفى سنة ٤٠٦هـ = ١٠١٥م، ولم تذكر المراجع شيئًا عن ولادته.

اشتهر بعلم الكلام وعلم الأصول على المذهب الشافعى، سمع من علماء بغداد والبصرة ونيسابور وأقام بها فترة من عمره. اشتغل خلالها بالتدريس فى مدرسة نيسابور التى بناها وعرفت باسمه وظل مهتما بالتدريس فيها فترة طويلة من العمر، كما أقام قريبا من هذه المدرسة ليكون على صلة بما يلقى فيها من دروس للتعلم فى فروع الثقافة الإسلامية المختلفة، كان معاصراً لمحمود بن سبكتكين وكان بينهما نفور وعدم مودة.

سمع «مسند الطيالسى» من عبد الله بن جعفر الأصبهانى، وله تصانيف جمة فى الكلام، وكان رجلاً صالحًا، بلغت مصنفاته قريبًا من مائة مصنف، ودُعى إلى غزنة - بأفغانستان - وجرت له مناظرات، وكان شديد الرد على ابن كرّام، ثم عاد إلى نيسابور فسمُّوه فى الطريق ومشهده بالحيرة ظاهر.

ولما استوطن نيسابور بُنى له بها مدرسة ودار، أحيا الله تعالى به أنواعًا من العلوم وظهرت بركاته على الفقهاء.

ومن أهم مؤلفاته:

١ - مشكل الحديث وغريبه (مطبوع).

٢ - القطامى (ألفه لنظام الملك).

٣ - الحدود (فى الأصول).

٤ - أسماء الرجال.

٥ - غريب القرآن.

٦ - رسالة فى علم التوحيد.

٧ - الإملاء فى الإيضاح والكشف عن وجوه الأحاديث الواردة.

أ.د. محمد السيد الجليند

مراجع للاستزادة:

١ - تاريخ بغداد ١٨٥/٢.

٢ - معجم الأدباء ٤٨٢/٦.

٣ - الوافى بالوفيات للصفدى ٣٤٤/٢.

٤ - تبيين كذب المفترى لابن عساكر ص ٢٣٢.

٥ - طبقات الشافعية للسبكى ٥٢/٣ - ٥٦.

٦ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٢٤٠/٤.

٧ - وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٨٢/١.

٨ - اللباب فى تهذيب الأنساب لابن الأثير ٢٢٦/٢.

الفيروز آبادى

(٧٢٩- ٨١٧هـ = ١٣٢٩- ١٤١٥م)

ولد مجد الدين محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر بن أبى بكر الفيروز آبادى بمدينة (كارزين) بإقليم فارس وهو أحد أقاليم إيران، وكانت ولادته سنة ٧٢٩هـ - ١٣٢٩م، وكان أبوه من علماء اللغة والأدب فى شيراز، فوجهه منذ صغره إلى حفظ القرآن الكريم فحفظه وهو ابن سبع سنين إذ كان سريع الحفظ، واستمر له ذلك فى حياته، وكان يقول: «لا أنام حتى أحفظ مائتى سطر».

وقد بدأ ميله إلى اللغة فى زمن مبكر، فانتقل وهو فى الثامنة من عمره إلى شيراز طلبا للعلم، فأخذ اللغة والأدب بما فى ذلك النحو والصرف وعلوم البلاغة، ثم تلقى الحديث عن محمد بن يوسف الزَّرَنْد الحنفى المدنى. ثم ينتقل بعد ذلك من شيراز إلى العراق فيدخل واسطا ويقرأ بها القراءات العشر على الشهاب أحمد بن على الديوانى، ثم يدخل بغداد فيأخذ عن التاج محمد بن السباك، والسراج عمر بن على القزوينى صحيح البخارى.

وبعد ذلك يدخل دمشق سنة ٧٥٥ هـ فيأخذ عن علمائها ومحدثيها كقاضى القضاة التقى السبكى، وابنه التاج عبدالوهاب، ومحمد بن إسماعيل المعروف بابن الخباز.

وطاف ببلاد الشام يأخذ عن علمائها، واستقر به المقام حينا من الدهر فى بيت المقدس، فأخذ عن صلاح الدين خليل بن كيكلدى العلائى، وكان مدرس المدرسة الصلاحية بالقدس، وفى بيت المقدس عمل مدرسا فى عدة مدارس فيأخذ عنه الكثير من الناس منهم: الصلاح الصفدى.

ولا يقنع بمكانه فى القدس والتدريس بمدارسها، فيرحل إلى القاهرة ويلقى علماءها، كبهاء الدين عبدالله بن عبدالرحمن المشهور بابن عقيل شارح الألفية، وجمال الدين عبدالرحيم الإسنوى، وابن هشام النحوى، ثم قدم إلى مكة المكرمة ومكث بها فترة من حياته مجاورا البيت الحرام، ثم انتقل منها إلى الطائف.

وفى سنة ٧٩٢ هـ عاد إلى بغداد باستدعاء من أحمد بن أويس، ثم رحل بعد ذلك إلى الهند ووصل إلى دِهْلى، ثم ذهب إلى بلاد الأناضول، ثم استقر به المطاف ببلاد اليمن وولى منصب قضاء الأقضية.

وكانت وفاة المجد سنة ٨١٧هـ / ١٤١٥م، وقد مات متمتعا بسمعه وبصره، ودفن بمقبرة الشيخ إسماعيل الجبرتى فى زبيد.

وكان المجد واسع المعرفة، كثير الاستحضار للمستحسن من الشعر والحكايات، وقد ساعده على ذلك قوة حفظه، وكثرة كتبه التى اشتراها، والتى كانت تصاحبه فى ترحاله.

لذلك علت منزلته العلمية والثقافية مما أهله لرواية الحديث ونشره حتى أصبح عَلَمًا مشهورا له، يقول الخزرجى فيه: «كان المجد من الحفاظ المشهورين، والعلماء المذكورين».

وكان المجد شافعى المذهب كأكثر أهل شيراز، وكان يعرض لأحكام العبادات، ويذكر المجد أنه كان يعتمد فيها على الأحاديث الصحيحة، فيذهب إلى مذهب أهل الحديث لا مذهب الفقهاء.

أما فى التصوف: فكانت له نزعة قوية، كما كان واسع الاطلاع على كتب الصوفية وأحوالهم، ويبدو ذلك واضحا حينما يعرض فى «بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز» لنحو التوكل والإخلاص والتوبة، فنراه ينحو نحو الصوفية، وينقل عنهم الشىء الكثير.

وقد أخذ الأدب واللغة، والنحو والصرف وعلوم البلاغة عن القوام عبدالله بن محمود بن النجم.

وتلقى الحديث عن محمد بن يوسف الزَّرَنْدى، وتلقى علوم المنقول عن سعد الدين التفتازانى، والسيد الشريف الجرجانى، وقرأ القراءات العشر على الشهاب أحمد بن على الديوانى ـ ولما دخل بغداد أخذ عن التاج محمد بن السباك، والسراج عمر بن على القزوينى، وعندما دخل دمشق أخذ عن التقى السبكى، وابنه عبدالوهاب، ومحمد بن إسماعيل المعروف بابن الخباز، وابن قيم الضيائية عبدالله بن محمد بن إبراهيم.

أما عن تلاميذه: فعندما عمل مدرسا ببيت المقدس فى عدة مدارس أخذ عنه كثير من الناس منهم: الصلاح الصفدى وغيره.

وله العديد من المؤلفات منها :

١ ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب

العـــزيـز، طبـع بـالمجلس الأعـلـى للشـــئـــون الإسلامية.

٢ ـ تنوير المقباس فى تفسير ابن عباس. طبع بمصر والهند.

٣ ـ قطبة الخشاف شرح خطبة الكشاف.

٤ ـ منح البارى بالسيح الفسيح الجارى فى شرح صحيح البخارى.

٥ ـ القاموس المحيط فى اللغة.

٦ ـ البلغة فى تراجم أئمة النحاة واللغة.

٧ ـ نزهة الأذهان فى تاريخ أصبهان.

٨ ـ سفر السعادة.

٩ ـ منية السول فى دعوات الرسول.

١٠ ـ تعـيـين الفـرقـان للمـعـين على عين عرفات.

أ.د. محمد على النجار «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ـ الضوء اللامع للسخاوى.
٢ـ العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين للفاسى.
٣ـ معجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور.
٤ـ العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية للخزرجى.
٥ـ كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون لحاجى خليفة.

القاسم الرسى
(١٦٩ - ٢٤٦هـ = ٧٨٥ - ٨٦٠م)

من متكلمى فرقة الزيدية. ويعد أهم ممثل لمذهبهم الكلامى. انتشرت آراؤه فى اليمن وظل مذهبه موجوداً حتى الآن. ويسمى مذهبه بمذهب القاسم أوالقاسمية. اقتربت آراؤه الكلامية من الفقه، أكثر من اقترابها من الفكر، ويعد من أكبر علماء المذهب الزيدى فى الفقه.

هو القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الحسنى العلوى أبو محمد المعروف بالرَّسِّى، ينتهى نسبه إلى الإمام على بن أبى طالب، ولد بالمدينة سنة ١٦٩هـ = ٧٨٥م. أخذ العلم عن آبائه، وعن محمد بن منصور المرادى، الذى جمع علوم آل البيت.

خالط علماء المذهب الحنفى فى الفقه، وشيوخ المعتزلة فى الأصول، بايع القاسم الرسى ابن طباطبا، وبعد وفاته سنة ١٩٩هـ دعا القاسم إلى نفسه، فأجابه خلق كثير فى مكة، والمدينة، والكوفة، والرى، وقزوين، وطبرستان، والديلم، وحثُّوه على الظهور. خرج من الحجاز إلى السودان، ومنها إلى مصر وأقام بها متخفيًا طيلة عهد المأمون الذى كان يناصبه العداء، وعمل سرًا وأرسل دعاته إلى الأقاليم، وبايعه الكثيرون، منهم فقيه الزيدية (أحمد بن عيسى بن زيد)، ثم تعقبه بعد المأمون الخليفة المعتصم وأرسل إليه جيشًا يتتبع أثره؛ فبقى القاسم الرسى مختفيا عن الأنظار، حتى عاد إلى مسقط رأسه (الرسى) بالقرب من المدينة المنورة. وعاش بها إلى أن توفى سنة ٢٤٦هـ = ٨٦٠م.

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

١ - مصادر الشريعة :

حدَّد القاسم الرسى مصادر الشريعة بأنها ثلاثة: العقل والكتاب والسنة، فبحجة العقل يُعْرف المعبود. وبحجة الكتاب تتم معرفة التعبد، وبحجة الرسول تعرف كيفية العبادة.

والعقل عند القاسم الرسى أصل الحجتين الأخريين الكتاب والسنة؛ لأنهما عرفا به، ولم يعرف بهما. ثم يأتى الإجماع كحجة رابعة مشتملة على الحجج الثلاث الأولى. ولكل حجة من هذه الحجج الأربع أصل وفرع:

- أصل العقل ما أجمع عليه العقلاء، ولم يختلفوا فيه، أما الفرع فما اختلفوا فيه، ويقع الاختلاف لتفاوت النظر والاستدلال؛ وإجماع العلماء حجة على الفرع الذى وقع فيه الاختلاف.

- وأصل الكتاب هو المحكم، وفرعه هو المتشابه، الذى يرده إلى أصله، لا اختلاف فيه بين أهل التأويل.

- وأصل السنة ما جاء على لسان الرسول، وما وقع عليه الإجماع بين أهل القبلة، والفرع ما اختلفوا فيه عن الرسول، والرجوع فيه يكون إلى أصل الكتاب والعقل والإجماع.

٢- أصول الإسلام :

حدّد القاسم الرسى للإسلام خمسة أصول يجب على المكلف معرفتها :

الأصل الأول: أن الله سبحانه وتعالى واحد، ليس كمثله شىء، خالق كل شىء، يدرك الأبصار، ولا تدركه الأبصار.

الأصل الثانى: أنه تعالى عدل حكيم، لايكلف نفسًا إلا وسعها، ولا يجزيها إلا بما عملت.

الأصل الثالث : أنه تعالى صادق فى وعده ووعيده.

الأصل الرابع : أن القرآن مفصل، محكم، لاخلاف فيه، وأن السنة النبوية تقاس بما يوافق القرآن.

الأصل الخامس : يجب على الولاة العدل فى تقسيم المال على المحتاجين من الأرامل، واليتامى، والزمنى - وهو المريض مرضًا شديدًا، وسائر الضعفاء.

٣- الأصول الخمسة :

أخذ القاسم الرسى بالأصول الخمسة التى قال بها المعتزلة. ولكنه أضاف إليها تصوره الخاص، وتصور فرقته الزيديه :

(أ) أصل التوحيد : يصف القاسم الرسى الله ـ سبحانه ـ بمجموعة من الصفات، منها الوحدة والدوام، الأول والآخر، العالم بالظاهر والباطن، لا يشبه الإنس، لم يتخذ الولد، وليس كمثله شىء، وكل من وصف الله بهيئات خلقه، أو شبهه بشىء من صفاتهم؛ فقد أشرك به.

ومن هنا نقد القاسم الرسى المشبهه، الذين شبَّهوا الله بخلقه، واعتمدوا على الآيات التى تذكر الصفات الخبرية، من يد ووجه وعين، وغيرها، وحرَّفوها بالتأويل ونقضوا بها التنزيل، وأحدثوا أحاديث افتعلوها بضلال، فضلوا وأضلوا كثيرا.

(ب) أصل العدل: ينفى القاسم الرسى أن يكلف الله عباده ما لا يطيقون، أو أن يجازيهم على ما لا يعملون. وقد خَصَّ لبيان هذا الأمر رسالة فى العدل، تركز على إثبات حرية الإنسان، فالله يبتدئ العباد بالنعم والبيان، ولا يبتديهم بالضلال والطغيان، ولم يأمر إنسانًا إلا إذا كان مستطيعًا قادرًا على الفعل، ولو لم يكن لهم عليها استطاعة لما أمرهم بها.

ولو كان الله هو الفاعل لأعمال العباد الخالق لها، فلماذا يخاطبهم بالمدح والذم، فالخطاب دليل على الحرية والعدل، والمعاصى ليست بقضاء الله ولا بقدره، وقد أجمعت الأمة على أن جميع المعاصى جور وظلم، والله منزه على أن يأتى بظلم، وقد رد القاسم الرسى على ما أتى به الجبرية من آيات الجبر، وفسَّرها تفسيرًا يتلاءم مع فكرته فى أن الحسن والقبح من العباد وحدهم.

(جـ) أصل الوعد والوعيد : ويؤكد القاسم الرسى على أن الله صادق فى وعده، لا يجوز أن يخلف وعد ولا وعيد، وقد حدد هذا الأصل فى خمس قضايا:

الأولى : إن من وعده الله بالثواب من المؤمنين، فإنه متى مات على إيمان دخل الجنة خالدًا فيها.

الثانية : إن من توعَّده الله بالعقاب من الكافرين، ومات على كفره خُلِّدَ فى النار.

الثالثة : أن من وعد الله بعقابه من الفساق، ومات مُصرا على فسقه دخل النار مخلدا فيها.

الرابعة : إن أهل الكبائر وغيرهم، يسمون فساقًا لا كفارًا.

الخامسة : إن شفاعة الرسول ﷺ لا تكون إلا للمؤمن، فتزيد من نعيمه.

(د) أصل المنزلة بين المنزلتين : يأخذ القاسم الرسى بفكرة المعتزلة فى أصل المنزلة بين المنزلتين، ووصف مرتكب الكبيرة بأنه ليس مؤمنًا، وكذلك ليس كافرًا، ولا هو من المنافقين، ولكنه فاسق، ذلك اسمه وعليه حكمه، ومن لم يتب من فسقه قبل موته فهو من أهل النار خالدًا فيها.

(هـ) أصل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر : وهو أيضًا أحد الأصول التى تأثر القاسم الرسى فيها بالمعتزلة، واعتمد فيها على قوله تعالى ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وأولئك هم المفلحون** ﴾ (آل عمران آية ١٠٤). فهذا أمر واجب على المؤمن لمقاومة المنكر، فعليه أن يغيره بكل ما أمكنه

من وسائل، وعلى العبد أن يتجنب الفاسقين، وأن يتجنب معاونتهم على فسقهم أو الجلوس معهم فى لهوهم ومعاصيهم.

٤- الإمامـــة :

أضاف القاسم الرسى أصل الإمامة إلى أصول الدين، مختلفًا فى ذلك عن المعتزلة التى تعتبرها فرعًا من فروع الدين، ومتفقًا مع الشيعة التى ترى أن الإمامة أحد الأصول الهامة والأساسية فى الدين، التى يجب أن يلتزم بها المسلم، وأن من تركها فقد ترك أصلا من أصول الدين.

ورأى القاسم الرسى أن الإمامة بعد النبى لعلى بن أبى طالب، يليه ابنه الحسن، وبعده الحسين، وبعد هؤلاء الأئمة الثلاثة تكون الإمامة لمن قام ودعا إلى طاعة الله تعالى من ولد الحسن والحسين، وكان جامعًا لصفات الإمامة، وهو بهذا يتفق والاتجاه الزيدى، الذى لم يحصر الخلافة فى سلالة معينة من آل البيت، يعطيها الإمام الأب إلى الابن، فتكون بالنص وبالاسم.

٥- التوبـــة :

كان للقاسم الرسى آراء فى مسألة التوبة، والتوبة عنده لها وجوه، والتوبة عن كل ذنب تكون بين الله وبين عباده يكفيها الندم للبرء من الذنب، والاستغفار بالقلب واللسان، والإصرار والعزم على ألا يعود إلى شىء من ذلك، وكل ذنب كان بين العبد وبين الناس - مسلم أو غير مسلم - فيجب أن يؤدى إليهم ما أخطأ فيه، وكل أذى يعتذر عنه، وإن كان مالا مغتصبًا يعيده. ولا تقبل التوبة والاستغفار دون ردّ المال، فإن لم يعرف أصحاب المال أو ورثته يتصدق بمقدار ما أخذ منهم على المساكين. وإذا لم يقدر جعله دينًا عليه لأصحابه.

مؤلفاتـــه :

شملت مؤلفاته موضوعات فى علم أصول الدين (علم الكلام)، وعلم الفقه، والزهد. ومن كتبه الكلامية: كتاب (الدليل الكبير فى الرد على الفلاسفة)، كتاب (الدليل الصغير)، كتاب (العدل والتوحيد) الصغير، كتاب (الرد على المشبهة)، كتاب (الرد على النصارى)، كتاب (المسترشد)، كتاب (الأساس فى علم الكلام)، وأيضا كتاب (تثبيت الإمامة). ومن كتبه الفقهية: كتاب (الطهارة)، كتاب (صلاة اليوم والليلة)، كتاب (الناسخ والمنسوخ).

أما الزهد: فله فيه كتاب (سياسة النفس).

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة :

١- أبو زهرة (الشيخ محمد) : الإمام زيد - دار الفكر العربى - القاهرة، سنة ١٩٥٩م.
٢- القاسم الرسى : رسالة ضمن رسائل العدل والتوحيد، تحقيق د. محمد عمارة - دار الهلال - القاهرة.
٣- الشامى (د. فضيلة) تاريخ الفرقة الزيدية، بين القرنين الثانى والثالث - مطبعة الآداب - النجف، سنة ١٩٧٤م.
٤- صبحى (د. أحمد محمود) الزيدية، دار منشأة المعارف الإسكندرية، سنة ١٩٨٠م.
٥- زيادة (محمد بن محمد) تاريخ الزيدية، تحقيق محمد زينهم - نشر مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة، سنة ١٩٩٨م.
٦- الأعلام للزركلى ٥/ ١٧١.

أبو القاسم الزهراوى
(٣٢٥ - ٤٢٧ هـ = ٩٣٦ - ١٠٣٦ م)

هو أبو القاسم: خلف بن عباس الزهراوى الطبيب، وُلد بالزهراء من ضواحى قرطبة حاضرة الأندلس فى عام ٣٢٥هـ/ ٩٣٦م. وتوفى عام ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م، وعاش فى فترة حكم عبد الرحمن الثالث الناصر، وابنه الحكم الثانى، وكان طبيبهما، وقد عرفه الأوروبيون بأسماء أخرى أشهرها «البوكاسس» (Albucasis) وهو تحريف لـ «أبو القاسم».

ويمكن إيجاز أهم خصائص المنهجية العلمية عند الزهراوى وآرائه فيما يلى :

أولاً: يعتبر الزهراوى مثالاً عالياً للطبيب المسلم الحريص على شرف المهنة، والمدرك لمتطلباتها الأخلاقية والعلمية، استناداً إلى توجيهات الدين الإسلامى الحنيف، ولا يزال الكثير من القضايا الطبية التى عالجها فى زمانه مثار جدل حتى يومنا هذا، نذكر منها، على سبيل المثال: مدى المشروعية فى استجابة الطبيب لرغبة مريضه فى أن يضع نهاية حياة مريض طلباً للراحة من عذاب ألم لا يطاق، واحتمال تعرض الطبيب فى ذلك لترغيب أو ترهيب، وفى مثل هذه الأحوال يحذر الزهراوى تلاميذه من الوقوع فيما لا خبرة لهم فيه، كما يحذرهم من خداع المرضى الذين لا أمل فى شفائهم، واستغلال علمهم بذلك فى ابتزاز أموالهم، وينبههم إلى أهمية التسلح بالعلم والمعرفة المستقبلية (Prognosis) لتطور المرض؛ فهو يقول فى مقدمة الباب الثانى من المقالة الثلاثين الخاصة بالجراحة فى كتاب «التصريف» ما نصه:

«ينبغى أن تعلموا يا بَنى أن هذا الباب فيه من الغرر فوق ما فى الباب الأول فى الكىّ، ومن أجل ذلك ينبغى أن يكون التحذير فيه (أى باب الجراحة بأنواعها) أشد؛ لأن العمل فى هذا الباب كثيراً ما يقع فيه الاستفراغ من الدم، الذى به تقوم الحياة عند فتح عرق، أو شق على ورم، أو بطّ خراج، أو علاج جراحة، أو إخراج سهم، أو شق على حصاة، ونحو ذلك مما يقع فى أكثرها الموت، وأنا

أوصيكم عند الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم، فإنه قد يقع إليكم فى هذه الصناعة صنوف من الناس بضروب من الأسقام، فمنهم من قد ضجر بمرضه، وهان عليه الموت لشدة ما يجد من سقمه وطول بليته، وبالمرض من التقرر ما يدل على الموت، ومنهم من يبذل لكم ماله ويغنيكم به رجاء الصحة ومرضه قتَّال؛ فلا ينبغى لكم أن تساعدوا من أتاكم ممن هذه صفته البتة، وليكن حذركم أشد من رغبتكم وحرصكم، ولا تقدموا على شىء من ذلك إلا بعد علم يقين يصح عندكم بما يصير إليه العاقبة المحمودة، واستعملوا فى جميع علاج مرضاكم تقدمة المعرفة والإنذار بما تؤول إليه السلامة، فإن لكم فى ذلك عوناً على اكتساب الثناء والمجد والذكر والحمد، ألهمكُم الله يابنى رشده، ولا حرمكم الصواب والتوفيق، إن ذلك بيده لا إله إلا هو».

وإن شئنا مثالاً آخر لأخلاقيات الطبيب المسلم، نجد الزهراوى يتصدى لحل القيود الاجتماعية والمحاذير التى تصادف الطبيب فى جراحات أمراض النساء، وذلك بدعوتهن إلى تعلم مهنة الطب، كما يظهر حرصه على تقدير ضرورة أن يتكيف الطبيب مع ظروف عصره وبيئته؛ ضماناً لنجاحه، وتظهر عنده فضيلة الحياء المقترنة بالرفق، مما يجب أن يتحلى به الطبيب، ويتضح هذا كله فى قوله - وهو يصف عملية إخراج الحصاة للنساء - فى الفصل الحادى والستين من الباب الثانى: «إن عرض لأحد منهن حصاة فإنه يعسر علاجها ويمتنع لوجوه شتى أحدها: أن المرأة ربما كانت بكراً، والثانى: أنك لا تجد امرأة تبيح نفسها للطبيب إن كانت عفيفة، أو من ذات المحارم، والثالث: أنك لا تجد امرأة تحسن هذه الصناعة ولا سيما العمل باليد (أى الجراحة)، والرابع: أن موضع الشق على الحصاة من النساء بعيد عن موضع الحصاة، فتحتاج إلى شق غائر، وفى ذلك خطر، فإن دعت الضرورة إلى ذلك فينبغى أن تتخذ امرأة طبيبة محسنة - وقليلاً ما توجد - فإن عدمتها فاطلب طبيباً عفيفاً رفيقاً، أو أن تحضر امرأة قابلة محسنة فى أمر النساء، أو امرأة تشير فى هذه الصناعة بعض الإشارة؛ فتحضرها وتأمرها أن تصنع جميع ما تأمرها به».

وفى بيان القيمة المعرفية للعلم، يقول الزهراوى فى معرض حديثه عن «الإخصاء» Castration: «إن الإخصاء فى شريعتنا محرم، ولهذا ينبغى لى ألا أذكره فى كتابى هذا، وإنما ذكرته لوجهين؛ أحدهما: ليكون ذلك فى علم الطبيب إذا سئل عنه، وليعلم علاج من اعتراه، والوجه الآخر. أنا كثيرا ما نحتاج إلى إخصاء بعض الحيوان لمنافعنا».

ثانياً: أظهر الزهراوى استيعابه لطبيعة البحث العلمى، وخصائص المعرفة العلمية على أساس التواصل بين أجيال العلماء عبر العصور، وهو يعزو تخلف مستوى الجراحة فى عصره إلى فقدان التواصل مع خبرة القدامى ومعارفهم، كما يدرك أن إهمال العلم السابق فيه تعطيل لمسيرة التقدم العلمى، وإذا ما ران على العلم جهل بتاريخه، فإنه لا محالة مخفق فى مهمته، وقد حرص على تأكيد القيمة الفائقة لعلوم الأوائل كخطوة منهجية أولى تسبق إجراء البحوث التجريبية، التى يتم من خلالها تجاوز معارف الأقدمين، ففى معرض حديثه عما يحتاج إليه الطبيب فى جبر بعض أنواع الكسور فى العظام، يقول: «إنه قد يدعى هذا الباب من الأطباء والعوام من لم يتصفح قط للقدماء فيه كتاباً، ولا قرأ منه حرفاً، ولهذه العلة صار هذا الفن من العلم فى بلدنا معدوماً، وإنى لم ألق فيه قط محسناً البتة، وإنما استفدت منه ما استفدت لطول قراءتى لكتب الأوائل، وحرصى على فهمها، حتى استخرجت علم ذلك منها، ثم لزمت التجربة والدُّربة طول عمرى».

على أن الزهراوى فى الوقت نفسه ينبه إلى اعتبار الرؤية النقدية للنظريات القديمة، ولا يكون قبولها تقليداً ومشايعة بدون برهان عقلى أو دليل تجريبى، فهو - على سبيل المثال - لا ينساق إلى ما يسلم به بعض الأطباء قبله من أفضلية معدن الذهب على الحديد فى الكىّ، لشرف الذهب على بقية المعادن.

كما يظهر استقلاله فى إيثاره لأساليب معينة لم يسبقه إليها غيره، وذلك فى مثل قوله: «ولست أرى هذين النوعين من الكىّ البتة، إلا فى بعض الناس، وعلى طريق الغرر، وتركه عندى أفضل ومع السلامة»[٦].

ثالثاً: أدرك الزهراوى أن العلاقة جدّ وثيقة بين التقدم العلمى وبين تطوير آلات العمل وأجهزة القياس أو الرصد، التى تكفل المزيد من الدقة والقدرة على التكيف نحو الأفضل، وهو يرى أن مقياس النجاح فى الطب مقياس عملى، يتمثل فى حصول الشفاء، أو تحقيق البرء، بحيث تصبح حالة المريض فى عافيته غيرها فى مرضه، ولعل هذا ما دفعه إلى القول: بأن أجزاء صناعة الجراحة لا تدرك بالوصف، وإنما الصانع الحاذق يقيس بالقليل على الكثير، وبما حضر على ما غاب، فذلك هو ما يُعين على التنبؤ بما عساه يحدث فى ظروف مشابهة، وإذا كان الثراء اللامحدود للواقع يجعل من اللازم الاقتصار على مراقبة عدد محدود من الوقائع، إلى حد يتحقق معه الاطمئنان إلى إدراك قوانين هذا الواقع، وثبات سننه

الحاكمة، فإنه يبقى صحيحاً فى الوقت ذاته أن الاستقرار العلمى للواقع - مهما تكررت مناسبات الحدوث - هو فى النهاية استقراء ناقص، وربما كان من ثمار هذه التصورات المنهجية لطبيعة البحث العلمى لدى الزهراوى ما دفعه إلى ابتكار آلات جراحية جديدة، وتطوير أساليب جراحية رائدة، دفعت بمهنة الطب قفزات إلى الأمام.

أما عن مؤلفاته فأهمها :

«التصريف لمن عجز عن التأليف» ، يُعد أول كتاب علمى مصور فى تاريخ الطب، وهو موسوعة طبية تقع فى ثلاثين جزءًا، ومزودة بوصف الآلات المستخدمة فى إجراء العمليات الجراحية، وكيفية استخدامها، وقد حظيت موسوعة الزهراوى باهتمام كبير لدى أطباء أوروبا، وبقيت مرجعا تدريسيا معتمدا فى الجامعات الأوروبية لعدة قرون.

يتناول الجزء الأول من الكتاب: «العناصر والأخلاط وتركيب العقاقير والتشريح»، ويحوى الجزء الثانى فصولاً فى : «تقسيم الأمراض وأعراضها وكيفية علاجها»، والأجزاء من الثالث حتى الخامس والعشرين تبحث فى: «أطعمة المرضى وكثير من الأصحاء، مرتبة على الأمراض».

ومرة أخرى يتناول علم العقاقير، أو الأدوية، فى الجزءين السابع والعشرين والثامن والعشرين؛ أما الجزء التاسع والعشرون فقد خصصه للبحث فى: «تسمية العقاقير باختلاف اللغات، وشرح الأسماء المركبة الواقعة فى كتب الطب والأكيال والأوزان» ، وأخيراً يختتم الزهراوى موسوعته الطبية بالجزء الثلاثين الخاص بالجراحة.

ويتضح من هذا أن الجزء الأعظم من موسوعة الزهراوى كان مخصصاً لعلم العقاقير، فلم تكن عبقريته تنحصر فى الجراحة وحدها، حيث لقبه «جورج سارتون» بأنه «أكبر جراحى الإسلام» ، وإنما شملت موسوعته أيضاً علم العقاقير؛ لخبرته فى الأدوية المركبة والمفردة، وقد وصفه ابن أبى أصيبعة بأنه: «كان طبيباً فاضلاً خبيراً بالأدوية المفردة المركبة جيد العلاج»، وصنواه فى الطب: الرازى وابن سينا ولكنه فى الجراحة يتقدمهما.

وترى المؤرخة الألمانية (زيجريد هونكة) أن الفضل فى وضع أسس الجراحة الحديثة فى أوروبا، والسمو بهذا النوع من الطب بعد أن كان ينظر إليه فى الغرب نظرة ازدراء، حتى أصبحت الجراحة مستقلة بذاتها، ومعتمدة فى أصولها على علم التشريح، إن الفضل فى هذا كله كان يرجع إلى نجم الجراحة العربية الساطع الزهراوى، والرأى

نفســه تراه مـجلة (لندن كـولينـج) فى أحـد أعدادها الصادرة عام ١٩٨٦م.

ولم يكن تبويب الزهراوى لموسوعته الطبية عملاً عشوائياً، فقد جاء الجزء الثلاثون عن الجراحة ليؤكد ما يلزم للطبيب معرفته قبل ذلك من كليات الطب ومبادئه، وصنوف العلل وكيفية علاجها، ومختلف الأغذية والأدوية، وخصـائصـهـا ومقـاديرها، وذلك فى إشـارة واضــحـة إلى أن الطب القـائم على العـلاج الدوائى تمامـــه وآخــره يكون فى العـــمل الجراحى.

وأول لغـة ترجم إليهـا كـتـاب «التـصـريف» كـانت العـبـرية، ثم ترجم إلى: اللاتينيـة بالبندقية عام ١٤٩٥م، وفينيسيا عام ١٤٩٧م، وستراسبورج عام ١٥٣٢م، وبال عام ١٥٤١م.

كما نشرت له فيما بعد ترجمات عديدة إلى اللغات الحديثة، فقد نشر الجزء الخاص بالجراحة مرتين: إحداهما للنص العربى مع ترجمته اللاتينية بلندن عام ١٧٧٨م، على يد يوحنا شاننج بأكسفورد، وهو محفوظ بدار الكتب المصرية تحت رقم ٩٣٥ طب.

والمرة الثانية للنص العربى فى لكنؤ بالهند عام ١٩٠٨م، وفى عام ١٩٧٣م ظهرت ترجمة الجزء الخاص بالجراحة كاملاً إلى اللغة الإنجليزية فى جامعة كاليفورنيا على يد كل من سبينك ولويس.

أ.د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة:

١ – للوقوف على المخطوطات العربية الموجودة لكتاب «التصريف» والترجمات العديدة له إلى اللاتينية واللغات الأوروبية، وعلى الدراسات المتعلقة به يراجع:

– الدوميلى، «العلم عند العرب وأثره فى تطور العلم العالمى»، الترجمة العربية، دار القلم، القاهرة ١٩٦٢م.

– د. أحمد مختار منصور، دراسة منشورة فى مجلة معهد المخطوطات العربية، الكويت ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٢ – (Spink M.S. And Lewis G.L., Albucasis On Surgery And Instruments, University of California Press, 1973).

٣ – د. مصطفى لبيب عبد الغنى، دور الزهراوى فى تأسيس علم الجراحة، دار الثقافة، القاهرة ٢٠٠٠م.

قتادة السدوسى
(٦١ - ١١٨ هـ = ٦٨٠ - ٧٣٦م)

هو قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز بن عمرو، أبو الخطاب السدوسى البصرى[١] أحد علماء التابعين، والأئمة العاملين، وكان ضرير البصر.

ذكر المزى عن عمرو بن على أنه قال عن قتادة : إنه ولد سنة إحدى وستين للهجرة[٢].

كان قتادة رحمه الله تعالى موضع ثناء كبير من جلة العلماء، من أمثال سعيد بن المسيب، الذى قال فى شأنه : ما جاء عراقى أفضل منه، وقال عنه بكر المزنى : ما رأيت أحفظ منه، وقال معمر : ما رأيت أفقه من الزهرى وحماد وقتادة، وقال أحمد بن حنبل: هو أحفظ أهل البصرة، لا يسمع شيئاً إلا حفظه[٣].

وقال سلام بن مسكين حدثنى عبدالله قال : لما قدم قتادة على سعيد بن المسيب، فجعل يسأله أيامًا وأكثر، فقال له سعيد : أكل ما سألتنى عنه تحفظه ؟ قال : نعم، سألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وقال الحسن فيه كذا، حتى رد عليه حديثًا كثيرًا، فقال سعيد : ما كنت أظن أنه خلق مثلك.

وقال قتادة : ما سمعت شيئًا إلا وعاه قلبى، وقرأت عليه صحيفة جابر مرة واحدة فحفظها، وذكر يومًا فأثنى على علمه وفقهه، ومعرفته بالاختلاف والتفسير، وغير ذلك.

وقال معمر : قال قتادة لسعيد بن أبى عروبة : خذ المصحف، قال : فعرض عليه سورة البقرة، فلم يخطئ فيها حرفًا واحدًا، قال: يا أبا النضر أحكمت ؟ قال : نعم، قال: لأنا لصحيفة جابر أحفظ منى لسورة البقرة، قال : وكنت قرأت عليه.

وبالجملة : فقد كان قتادة رحمه الله تعالى على مبلغ عظيم من العلم فوق ما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله تعالى، حتى قدمه بعضهم على كثير من أقرانه، وجعل بعضهم من النادر تقدم غيره عليه، قال معمر: قلت للزهرى : قتادة أعلم عندك أم مكحول ؟ قال : لا، بل قتادة، وقال عمرو بن على بن مهدى : قتادة أحفظ من خمسين من

مثل حميد الطويل، قال أبو حاتم : صدق ابن مهدى.

وإذا كان البعض يرى غير ذلك فيه، كما ورد فى قول ابن جرير عن مغيرة عن الشعبى: قتادة حاطب ليل، فإن ذلك لا يطعن فى مكانته العلمية، بل أمانته، قال أبو داود الطيالسى عن شعبة : كان قتادة إذا سمع قال: حدثنا، وإذا جاء ما لم يسمع قال : قال فلان، وقال أبو مسلمة سعيد بن يزيد: سمعت أبا قلابة، وقال له رجل : من أسأل ؟ أسأل قتادة ؟ قال : نعم، سل قتادة.

وقال شعبة: حدثنا سفيان بحديث عن قتادة، فقال لى : أوَ كان فى الدنيا مثل قتادة!؟ وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : ما قلت لمحدث قط أعد علىّ، وما سمعت أذناى شيئًا قط إلا وعاه قلبى[٤].

وقال إسحاق بن منصور عن يحيى بن معين : ثقة، وقال أبو زرعة: قتادة من أعلم أصحاب الحسن، وقال أبو حاتم : أثبت أصحاب أنس الزهرى، ثم قتادة، قال : وهو أحب إلَّى من أيوب[٥].

وبعد رحلة عمر حافلة بالعلم والعطاء لقى قتادة رحمه الله تعالى ربه بواسط فى الطاعون، وكان ذلك سنة ثمان عشرة ومائة للهجرة، عن عمر يبلغ السادسة والخمسين، رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه خير الجزاء.

شيوخه وتلاميذه :

١ - شيوخه الذين روى عنهم :

روى قتادة رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك، وجماعة من التابعين، منهم: سعيد بن المسيب، وسعيد بن زيد البصرى، وأبو العالية الرياحى، وشهر بن حوشب، وعطاء، ومجاهد، وعكرمة بن خالد المخزومى، وعكرمة مولى ابن عباس، وعمرو بن شعيب: وأبو الحكم السلمى، وأبو سعيد الأسدى، ومحمد بن سيرين،والحسن البصرى، ومطرف بن عبد الله الشخير،وحفصة بنت سيرين، وغيرهم[٦].

٢ - تلاميذه الذين رووا عنه :

حدث عن قتادة جماعات من الكبار، مثل : أيوب السختيانى، وحماد بن سلمة، وحميد الطويل، وسعيد بن أبى عروبة، والأعمش، وشعبة، والأوزاعى، وهمام بن يحيى[٧].

آثاره العلمية :

لقتادة رحمه الله تعالى منزلة لا تنكر فى تفسير كتاب الله تعالى، حتى جعله كبار المصنفين فى التفسير بالمأثور من مصادرهم، مثل ابن جرير الطبرى رحمه الله (ت ٣١٠هـ) فى تفسيره الموسوم : (جامع البيان عن

تأويل آى القرآن)، وكذلك السيوطى رحمه الله (ت ٩١١هـ) فى تفسيره الموسوم : (الدر المنثور فى التفسير بالمأثور).

وهذه أمثلة من تفسيره ذكرها هذان العالمان الكبيران :

فعند تفسير قول الله تعالى: ﴿ **يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** ﴾ (البقرة: ٢٦٩).

أخرج الطبرى بسنده إلى معمر عن قتادة قال : (الحكمة: القرآن، والفقه فى القرآن)[٨].

وعند تفسيره لقول الله سبحانه : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا** ﴾ (آل عمران: ٧) أخرج الطبرى بسنده عن قتادة قوله : (قالوا كل من عند ربنا، آمنوا بمتشابهه، وعملوا بمحكمه)[٩].

وعند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات** ﴾ (آل عمران: ٢٤) أخرج الطبرى بسنده عن قتادة قوله : (قالوا لن تمسنا النار إلا تحلة القسم التى نصبنا فيها العجل، ثم ينقطع القسم والعذاب عنا)[١٠].

وعند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ **قل سيروا فى الأرض ثم انظرو كيف كان عاقبة المكذبين** ﴾ (الأنعام: ١١) حكى السيوطى عن قتادة فيه قال : (بئس - والله - ما كان عاقبة المكذبين، دمر الله عليهم وأهلكهم، ثم صيرهم إلى النار)[١١].

وعند تفسيره لقول الله تعالى : ﴿ **ولا تقتلوا أولادكم من إملاق** ﴾ (الأنعام: ١٥١) حكى السيوطى عن قتادة فيه قوله : (من خشية الفاقة، قال: وكان أهل الجاهلية يقتل أحدهم ابنته مخافة الفاقة عليها والسبى)[١٢].

منزلة قتادة بعد نقد العلماء له :

على الرغم من انتقاد بعض العلماء لقتادة من جهة رميه بالقدر، إلا أن المحصلة النهائية لم تكن طعنًا فى منزلته باعتباره مفسرًا للقرآن، ومرجعًا من أهم المراجع فى ذلك.

(قال أبو حاتم : سمعت أحمد بن حنبل.. وذكر قتادة، فأطنب فى ذكره، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير، ووصفه بالحفظ والفقه، وقال: قلما تجد من تقدمه، أما المِثْل فلعل.

وقال معمر : سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله تعالى ﴿ **وما كنا له مقرنين** ﴾ (الزخرف: ١٢) فلم يجبنى فقلت : سمعت قتادة يقول : (مطيقين). فسكت، فقلت له : ما تقول يا أبا عمرو ؟ فقال : حسبك قتادة،

ولولا كلامه فى القدر ما عدلت به أحداً من أهل دهره.

وهذا يدل على أن أبا عمرو كان يثق بعلم قتادة، وبتفسيره للقرآن، لولا ما ينسب إليه من الخوض فى القضاء والقدر، وكثيراً ما تحــرج بعض الرواة من الرواية عنه لذلك، ونجـد أصحـاب الصحـاح يخـرجـون له، ويحـتـجــون بروايتــه ويكفــينا هذا فى توثيقه)[١٣].

من أقواله رحمه الله :

قال ابن كثير رحمه الله تعالى : (قال قتادة: من وثق بالله كان الله معه، ومن يكن الله معه تكن معه الفئة التى لا تغلب، والحارس الذى لا ينام، والهادى الذى لا يضل، والعالم الذى لا ينسى، وقال : فى الجنة كوة إلى النار، فيقولون - أى أهل الجنة إذا نظروا فيها - ما بال الأشقياء دخلوا النار، وإنما دخلنا الجنة بفضل تأديبكم لنا ؟ فقالوا : إنا كنا نأمركم ولا نأتمر، وننهاكم ولا ننتهى، وقال : باب من العلم يحفظه الرجل، يطلب به صلاح نفسه وصلاح دينه وصلاح الناس أفضل من عبادة حول كامل)[١٤].

أ.د. محمد السيد جبريل

الهوامش :

١ - ينظر تهذيب التهذيب للإمام محمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) (٤ / ٥٤٠) ط دار إحياء التراث العربي بيروت - الثانية ١٤١٣هـ .

٢ - تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للإمام أبى الحجاج بن يوسف المزى (ت ٧٢٤ هـ) (٢٣ / ٥١٦ ، ٥١٧) تحقيق د . بشار معروف ، ط مؤسسة الرسالة بيروت - الرابعة ١٤١٦ هـ ١٩٩٥ م.

٣ - ينظر البداية والنهاية للحافظ إسماعيل بن كثير (ت ٧٧٤هـ) (٩ / ٣٥٢) ط دار الفقه العربي - الأولى سنة ١٣٥١ هـ ١٩٣٣ م .

٤ - ينظر تهذيب التهذيب :(٤ / ٥٤١).

٥ - ينظر تهذيب التهذيب :(٤ / ٥٤٢، ٥٤٣).

٦- البداية والنهاية :(٣٥٢/٩).

٧- السابق :(٣٥٢/٩)

٨ - تفسير الطبرى: (٣ / ٨٩) ط دار الفكر بيروت (١٤٠٨هـ ١٩٨٨م) .

٩- تفسير الطبرى :(٣ / ١٨٥).

١٠ - تفسير الطبرى :(٣ / ٢١٩).

١١ - الدر المنثور فى التفسير المأثور :(٢ / ٢٥٣) ط دار الفكر (١٩٩٣ م ١٤١٤ هـ).

١٢ - الدر المنثور فى التفسير المأثور :(٣ / ٣٨٣).

١٣ - التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى (١ / ١٢٥ ، ١٢٦) ط دار الكتب الحديثة - الثانية سنة١٣٩٦ هـ ١٩٧٦ م .

١٤ - البداية والنهاية، لابن كثير (٢٥٣/٩، ٣٥٣).

مراجع للاستزادة :

١ - طبقات المفسرين للداودى.

٢ - البداية والنهاية لابن كثير.

ابن قتيبة
(٢١٣ - ٢٧٦هـ = ٨٢٨ - ٨٨٩م)

هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة.

ولد سنة ٢١٣هـ = ٨٢٨م، وقد اختلف المؤرخون في مكان مولده، فقال فريق - منهم ابن النديم، وابن الأثير - إنه ولد في الكوفة. وقال فريق آخر - منهم السمعاني والقفطي - إنه ولد في بغداد، ونشأ بها وترعرع، وكانت يومئذ مهد العلم، وعش الأدب، وموطن الثقافة، وقضى بها الشطر الأكبر من حياته يأخذ العلم عن علمائها، ويتلقَّى معارفه عن أعلامها من أئمة اللغة، وأقطاب الأدب، وعلماء الحديث أمثال :

حاتم السجستاني الذي كان إمامًا في علوم القرآن واللغة والشعر، وأبي الفضل الرياشي اللغوي النحوي، وإسحاق بن راهويه الذي جمع بين الحديث والفقه، والذي كان أحد أئمة الإسلام، ومن أصحاب الشافعي.

وتوفي سنة ٢٧٦هـ = ٨٨٩ م في بغداد.

أقام بالدينور طوال فترة توليه القضاء فنسب إليها.

وقد أخذ العلم عنه عدد من تلاميذه الذين أصبحوا من أئمة اللغة ورجال الفقه والحديث، ومنهم: ابنه القاضي أبو جعفر أحمد بن قتيبة الأديب، وابن درستويه النحوي المشهور، وإبراهيم بن محمد بن أيوب الصائغ.

وقد كان له صلة بأبي الحسن عبيد الله ابن يحيى بن خاقان وزير الدولة العباسية يومئذ، حيث تخلَّى عن الدنايا، وترفَّع عن الصغائر، وحضَّ الناس على مكارم الأخلاق، وجعل من نفسه القدوة الصالحة لهم.

كما كان متواضعًا لا يتعالى على الناس، ولا يدَّعي لنفسه ما ليس لها، ويأخذ العلم والمعرفة عن أي أنسان.

والعلم عنده يطلب في كل مكان، والحكمة تلتقط ولو من أفواه المجانين، ولا ينبغي أن يتعالى المرء مهما بلغ من المراتب ووفرة المعلومات، فالعاقل من يشعر بأنه كلما ازداد معرفة تفتحت أمامه آفاق أوسع تبهره، وعرف أن فوق كل ذي علم عليم، وما أحسن

ما نسب إلى الإمام الشافعى: وإذا ما ازددت علمًا زادنى علمًا بجهلى.

كان ابن قتيبة عالمًا يمثل ثقافة عصره، وكان أديبًا وناقدًا ضليعًا فى الحديث والفقه وعلوم القرآن. تعددت جوانب ثقافته، وتنوعت مناحى معرفته، وشهد له معاصروه بالفضل وغزارة المادة، وسعة الاطلاع، يقول عنه السيوطى: «كان رأسًا فى العربية واللغة والأخبار وأيام الناس، ثقة، دينًا، فاضلا».

ولذلك كثرت مؤلفاته، وتنوعت مادتها، وتعددت مناحيها؛ فله مؤلفات فى الأدب واللغة والنحو والتاريخ، وله مصنَّفات فى الفقه، وله فى الأشربة والأدواء.

نذكر من مؤلفاته: أدب الكاتب، والمعارف، وعيون الأخبار، وطبقات الشعراء، وكتاب الأشربة، وكتاب المعانى الكبير، وكتاب تأويل مشكل القرآن، وكتاب تأويل مختلف الحديث.

أما الكتب التى لم تصل إلى أيدينا من مؤلفاته، فقد ذكرها مؤلفو كتب السير والتراجم والطبقات، أمثال: ابن خلكان فى وفيات الأعيان، وابن الأنبارى فى نزهة الألباب، والقفطى فى إنباه الرواة، وصاحب كشف الظنون، وابن النديم فى كتاب الفهرست.

ويعد كتاب «عيون الأخبار» من أشهر كتب ابن قتيبة، وأعظمها أهمية، ويعدّ من أفضل الكتب التى تقدم للقرّاء مادة طيبة تصقل أذهانهم، وتزيد معارفهم، وقد ألَّفه ليستفيد منه الخاصَّة والعامَّة، وينتفع به طلاب الدنيا والآخرة، ووضح ذلك فى مقدمته حين قال: و«لم أر صوابًا أن يكون كتابى هذا وقفًا على طالب الدنيا دون طالب الآخرة، ولا على خواص الناس دون عوامهم، ولا على ملوكهم دون سوقتهم. فوفيت كل فريق منهم قسمه، ووفرت عليه سهمه».

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١- أدب الكاتب.

٢- عيون الأخبار.

٣- كتاب الأشربة.

٤- كتاب تأويل مشكل القرآن.

٥- كتاب تأويل مشكل الحديث.

القرطبي

(..... - ٦٧١ هـ) - (..... -١٢٧٣ م)

هو محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فَرْح ـ بإسكان الراء والحاء المهملة ـ أبو عبد الله الأنصارى الخزرجى الأندلسى المالكى. ولد فى قرطبة من بلاد الأندلس. وقد رحل القرطبى إلى مصر واستقر بمنية ابن خصيب (شمال أسيوط) وتوفى ودفن بها فى شوال سنة ٦٧١ هـ، فرحمه الله رحمة واسعة(١).

وكان - رحمه الله - من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين، الزاهدين فى الدنيا، المشغولين بما يعينهم من أمر الآخرة.

وبلغ من زهده: أنه اطَّرح التكلف، وصار يمشى بثوب واحد، وعلى رأسه طاقية. وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله وعبادته تارة، وبالتصنيف تارة أخرى، حتى أخرج للناس كتبًا انتفعوا بها(٢).

أقوال العلماء فيه :

قال ابن فرحون: شيخ إمام مفسر، جمع فى تفسير القرآن كتابًا كبيرًا فى اثنى عشر مجلداً سماه «الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآى القرآن»، وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضاً عنها أحكام القرآن واستنباط الأدلة، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ.

وقال ابن العماد فى شذرات الذهب: كان إمامًا عالمًا، من الغوَّاصين على معانى الحديث، حسن التصنيف، جيد النقل(٣).

وقال صاحب دائرة المعارف: ونحن لا نعلم كثيراً عن حياة القرطبى لأنه ولد فى أسبانيا، وكان كثير الترحال.

ويقول الذهبى فى كتابه تاريخ الإسلام: إنه كان إمامًا وعالمًا فى شتى فروع المعرفة، وبحرًا فى معرفة أعمال الآخرين، وهو ما ساهم فى إبراز علمه، وعمق ذكائه، ومكانته المرموقه. ويشير الكتبى إليه بنفس الصفات فى كتابه «عيون التواريخ».

ومن أهم ما ألَّف القرطبى :

١- الأسنى: فى شرح أسماء الله الحسنى.
٢- التذكار فى أفضل الأذكار.
٣- التذكرة بأمور الموتى وأحوال الآخرة.
٤- شرح التقصى.
٥- كتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة.

٦- ورد ذل السؤال.

٧- ثم تفسير القرآن، المسمى: الجامع لأحكام القرآن[٤]، وهو أهم ما ألف.

تفسيره :

من أجلّ التفاسير، وأعظمها نفعًا.. أسقط منه القصص والتاريخ، وأثبت عوضًا عنها: أحكام القرآن الكريم، واستنباط الأدلة، وذكر القراءات، والناسخ والمنسوخ[٥].

وقد ذكر المؤلف ـ رحمه الله ـ فى مقدمة هذا التفسير: السبب الذى حمله على تأليفه، والطريق الذى رسمه لنفسه ليسير عليه فيه، و شروطه التى اشترطها على نفسه فى كتابه. وقد وفى - كما يقول الشيخ الذهبى - بما شرط على نفسه فى هذا التفسير. فهو يعرض لذكر أسباب النزول، والقراءات، والإعراب، ويبين الغريب من ألفاظ القرآن، ويحتكم كثيراً إلى اللغة، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب، ويرد على المعتزلة والقدرية، والروافض، والفلاسفة، وغلاة المتصوفة، كما ينقل عن السلف كثيراً مما أثر عنهم فى التفسير والأحكام، مع نسبة كل قول إلى قائله وفاءً بشرطه، كما ينقل عمن تقدمه فى التفسير.. خصوصاً من ألّف منهم فى كتب الأحكام، مع تعقيبه على ما ينقل منها.

وممن ينقل عنهم كثيرًا: ابن جرير، وابن عطية، وابن العربى، والكيا الهراسى، وأبو بكر الجصاص.

وأما من ناحية الأحكام: فنلاحظ عليه أنه يفيض فى ذكر مسائل الخلاف، ما تعلق بها عن قرب، وما تعلق بها عن بعد، مع بيان أدلة كل قول، دون تعصب منه[٦].

وعلى الجملة: فإن القرطبى ـ رحمه الله ـ فى تفسيره هذا حر فى بحثه، نزيه فى نقده، عف فى مناقشته وجدله، ملم بالتفسير من جميع نواحيه، بارع فى كل فن استطرد إليه وتكلم فيه.

وأما الكتاب: فقد كان الناس محرومين منه إلى زمن قريب، ثم أراد الله له الذيوع بين أولى العلم، فقامت دار الكتب المصرية بطبعه ثم الهيئة العامة للكتاب، ثم توالت بعد ذلك طبعات الكتاب فى مصر وبيروت وغيرهما.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

الهوامش :

١ - الديباج المذهب لابن فرحون ص ٣٦٧ .
٢ - التفسير والمفسرون ٤٥٧/٢ .
٣ - شذرات الذهب ٣٣٥/٥ .
٤ - التفسير والمفسرون ٤٥٧/٢ .
٥ - الديباج المذهب ص ٣١٧ .
٦ - التفسير والمفسرون ٤٥٨/٢ وما بعدها.

مراجع للاستزادة :

١ - معجم المؤلفين ٢٣٩/٨ وما بعدها.
٢ - الأعلام ٣٢٢/٥ .
٣ - دائرة المعارف ٨٢٨٣/٢٦ .
٤ - نفح الطيب ٤٢٨/١.

القَزْوينى
(٦٠٠-٦٨٢هـ = ١٢٠٣-١٢٨٣م)

هو زكريا بن محمد بن محمود القَزوينى.

ولد سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٣م بقَــزوين بين (رشت وطهران). ورَغْم نسبته إلى قَزْوين فهو ينحدر من أسرة عربية أصلية استقر بها المطاف فى العراق العجمى منذ عهد طويل حيث يرجع نسبه الأعلى إلى أنس بن مالك الأنصارى رضي الله عنه.

ولا نعرف شيئا كثيراً عن حياته ومشايخه سوى أنَّه كان بدمشق حوالى عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م حيث تأثر بالصوفى الشهير محيى الدين بن القربى كما ربطته علاقة بضياء الدين بن الأثير (أخ المؤرخ عز الدين، والمحدث مجد الدين، ابنى الأثير). وتولى القزوينى منصب القضاء بمدينتى واسط والحلة بالعراق، فى عهد المستعصم بالله العباسى، الأمر الذى يدل على أنه درس الفقه؛ ولكننا لا نستطيع الجزم بأنه بقى فى منصبه هذا أم تركه فى أعقاب استيلاء المغول على بغداد وسقوط الخلافة العباسية سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، ولكن من المؤكد أنه استطاع أن يتابع دراساته العلمية وكتابة تأليفه إلى أن توفى بعد ذلك بأمد طويل فى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م.

وترجع شهرة القزوينى إلى مصنفين هامين: أحدهما يدخل فى فن الكوزموغرافيا والآخر فى علم الجغرافيا.

أما الكتاب الأول فيحمل عنوان «عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات» الذى رفعه إلى حاكم بغداد فى عهد المغول عطاء الملك الجوينى. ويدل عنوان الكتاب بوضوح على انتماء المصنف إلى نمط كتب العجائب، وهو ينقسم إلى مقدمة تحوى تصنيفا عاما لجميع الموجودات وفقًا لتعريف اليونان لها، وعلى الأخص أرسطو؛ ثم قسمين يعالجان الكلام على العالمين: العلوى والسفلى كل على حدة. ويتناول القسم الأول الذى يبحث فى العالم العلوى - الكلام على الأجرام السماوية (الشمس والقمر والنجوم، وسكان ذلك العالم، أى الملائكة، وكذلك عن التوقيتات والتقاويم العربية السريانية وما يرتبط بها من أعياد ومناسبات.

أما القسم الثانى فخصصه لذكر الأرض وظواهرها، حيث يرد فيه الكلام عن العناصر الأربعة (النار والهواء والماء والرياح)، ويتضمن كذلك وصفًا لتقسيم المعمورة إلى سبعة أقاليم مع بيان أسباب حدوث الزلازل وتكوين الجبال ونشأة الأنهار والمنابع والعيون؛ ويلى ذلك عرض سريع لممالك الطبيعة الثلاث: المعدنية والنباتية والحيوانية، وتبدأ المملكة الأخيرة بالحديث عن الإنسان وخصائصه الأخلاقية وتشريحه وتركيبه العضوى ومميزات الشعوب المختلفة، ويعقب ذلك الحديث عن المخلوقات الأخرى ابتداءً من الجن والغيلان.

وأغلب نسخ كتاب «العجائب» المخطوطة التى وصلت إلينا مزودة بالمنمنمات والتصاوير التى توضح صور المخلوقات العجيبة التى أورد ذكرها القزوينى، وبعض هذه النسخ بلغت فيها هذه الصور قمة فى الجودة والاتقان.

وكتاب «العجائب» للقزوينى هو أكبر أثر فى كتب هذا الفن، كسب انتشاراً واسعاً فى جميع آداب الشرق الإسلامى، فإضافة إلى نسخه العربية المتعددة، توجد للكتاب عدد كبير من الترجمات الفارسية والتركية محفوظة فى مكتبات العالم المختلفة.

وكتاب القزوينى الثانى هو الأثر المعروف بـ «عجائب البلدان» جاء فى عنوان التأليف الأول الذى أنهاه القزوينى سنة ٦٦١هـ/ ١٢٧٥م وتضمن زيادات مهمة فتحمل عنوان: «آثار البلاد وأخبار العباد».

ووصف الأرض فى جغرافية القزوينى موزع على الترتيب التقليدى حيث قسم الأرض إلى سبعة أقاليم، وفى داخل كل إقليم يرد وصف مختلف البلاد والمدن والجبال والجزر والبحيرات والأنهار.. إلخ وفقاً لحروف المعجم، وهو أثناء ذلك لا يغفل إيراد تفاصيل تاريخية وافية وتراجم لمشاهير الرجال المنتسبين لهذه المدن. وتقترب جغرافية القزوينى كثيرًا من ترتيب «معجم البلدان» لياقوت الحموى بل إنه يستعير منه فقرات فى مواضع كثيرة، ولكن لا يمكن مقارنة المادة الجغرافية التى يقدمها القزوينى بمادة ياقوت أو الجغرافيين المسلمين الكلاسيكيين، وإن كانت لا تخلو من روايات طريفة.

وكما هو الحال مع «كتاب العجائب» فقد وجدت كذلك ترجمات فارسية وتركية لكتابه فى الجغرافيا.

ويعد القزوينى بفضل هذين المصنفين من أكثر المؤلفين العرب قرباً إلى الجماهير

بفضل الطريقة التى اتبعها فى تبسيط المعلومات التى يقدمها، فقد اهتم - مثل أقرانه الذين ألفوا فى هذا الفن - يجمع الظواهر التى تحدث على الكرة الأرضية وقام فى مؤلفاته بدور الفلكى والجغرافى والجيولوجى وعالم المعادن والنبات والحيوان إلاّ أنه يفتقر إلى الأصالة فى البحث وعمل التحليل، حيث اكتفى بالنقل والجمع ولكن مع التزام الأمانة فى النقل، مما جعل مصنفيه يفتقران إلى عنصر الذاتية ولكنهما تميزا بالوضوح فى الأسلوب. وقد بلغ هذا الفن مع القزوينى أقصى درجة من الإبداع الفنى حيث تبنى طريقة متميزة فى تبسيط المعارف وأكثر الظواهر تعقيداً وعرضها بطريقة جذابة وواضحة.

أ. د. أيمن فؤاد سيد

مراجع للاستزادة:

١- كراشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى العربى ٢٨٧ - ٢٩٧.

٢- الزركلى: الأعلام ٣: ٤٦؛

٣- Lewicki, T., EI[2] art. of Kowini. IN, pp. 898- 900.

القشيـــرى
(٣٧٦ - ٤٦٥هـ = ٩٨٦م ـ ١٠٧٢م)

هو عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد النيسابورى القشيرى، وكنيته: أبو القاسم ، ولقبه: زين الإسلام، وشهرته القشيرى، وأمه سلمية. وكان ميلاده فى (استوا) إحدى قرى مدينة نيسابور، وتلقى تعليمه الأول ودراساته الدينية فى قريته، أحد أعلام القرن الرابع الهجرى.

وهو عربى النسب من جهة أبيه ومن جهة أمه. فهو بهذه العروبة التى تجرى فى دمائه من أحسن الردود على من يتهمون بأنه نتاج عناصر أجنبية غريبة عن العرب والعروبة.

ترك القشيرى قريته استوا وذهب إلى نيسابور ليتعلم الحساب كى يشارك مع لفيف من أهل قريته فى إصلاح موازين الاقتصاد بها بعد ما اختلت نتيجة ثقل الخراج المفروض عليها.

ولكنه فى نيسابور غَيَّر مسار حياته للمرة الأولى، وذلك حينما وجد نفسه فى بيئة علمية خصبة شدت كل اهتمامه، ودعته للانغماس فيها، والتزود بزاد العلم فى المعقول والمنقول.

تلقى الفقه على يدى الإمام العظيم الإسفراايينى، وأصول الفقه على ابن فورك، والمذهب الشافعى على يدى أبى بكر الطوسى. وإلى جانب ذلك غشى مجالس اللغة والأدب والنحو والعروض وكتب دروسها، كما قرأ مصنفات الباقلانى.

ومعنى هذا أنه تسلح بسلاح الثقافة المألوفة فى عصره عند أوثق أربابها، ومعنى هذا أيضاً أنه قبل أن يلج حومة التصوف كان معداً أحسن إعداد لفهم الشريعة والحقيقة وما يتصل بهما من معارف وضعية، وهذا أيضاً من أحسن الردود على من يتهمون الصوفية وكتاب التصوف بالجهل والشطط والبعد عن الجادة، وأنهم يأمرون تلامذتهم بكسر محابرهم!

وتلعب الصدفة وحدها لتغيير حياته للمرة الثانية.

فقد كان ذات ليلة يحضر مجلس الشيخ أبى على الدقاق الذى كان يتحدث فى «علم القلوب» ومذهب أصحاب الأحوال والمذاقات

والمواجيد، والشريعة والحقيقة وما بينهما من تواصل واتصال.. إلخ وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه على نحو عجيب غريب. ولم يستطع بعد ذلك مفارقة هذا المجلس وصاحبه.. وهو يستمع على الدوام إلى هاتف فى أعماقه: إنك لهذا خلقت!

وحينما اقترب من الشيخ وبسط له بعض حاله، وشكا إليه أنه يعجز عن التوفيق بين مجلسه ومجالس العلوم العقلية والنقلية أشار عليه الشيخ أن يواصل إتقان هذه العلوم إلى درجة الاكتمال.

ومن هذه النصيحة نعرف عنصراً هاماً فى المذهب الصوفى للشيخ القشيرى فيما بعد: هو وجوب تصحيح البداية وتكريس الإيمان بقدر الوسع من الثقافة المنقولة والمعقولة قبل الولوج إلى عالم التصوف حتى يكون البنيان سليم الأساس.

ولم يستطع الشاب الافتراق عن الشيخ، وبادله الشيخ حبًا بحب، وأولاه عنايته ورعايته، وأعجب بسجاياه حتى جاء وقت رضى أن يزوجه بابنته الوحيدة فاطمة التى أنجب منها القشيرى ستة أبناء كلهم عبادلة وكلهم أئمة وكلهم من أرباب الأحوال كما أنجب ابنته (أمة الرحيم) أم عبد الغافر الفارسى صاحب «تاريخ نيسابور» الشهير.

وكان أثر الدقاق فى القشيرى بعيداً جداً، وآية ذلك أن اسمه لا يغيب عنه فى مصنفاته مشفوعاً بالتقدير وبالترحم.

وكان زواجه موفقًا وحياته الأسرية مستقرة. الأمر الذى ساعده على أن يكون مفكرًا سوىّ المزاج، بعيدًا عن التعقيدات والصراعات، واضح الرؤية، مستمسكًا بآداب وقيم حافظ عليها طوال حياته وتظهر جلية فى كل مصنفاته.

ثم يأتى التحول الثالث، وهو هذه المرة يتمثل فى قوة غاشمة ظالمة من خارج محيطه العائلى والعلمى والاجتماعى. ذلك أن القشيرى - شأن الأشاعرة جميعًا - نكبوا ذات يوم نكبة داهمة، وكان ذلك حينما نجح الوزير الكندرى فى استصدار أمر من السلطان (طغرل) بسب المبتدعة فأجاز له السلطان، وإذا بالكندرى يضيف اسم أبى الحسن الأشعرى إلى المبتدعة، ويجرى ذلك على منابر نيسابور فى وقت واحد. وحدثت فتنة هوجاء، وهاج الناس، وشارك الجيش فى الصدام، وتعرض القشيرى وأصحابه للإهانة والضرب والتعذيب، وكان صدى هذه الفتنة لدى السلطان - حين تلقاه فاترًا. فخاب أمل الأشاعرة، ووجدوا أنه من الخير ترك الأهل والديار والنزوح إلى بعيد خارج الوطن.

واستقر المقام بالمنفيين إلى جوار المصطفى الحبيب - صلوات الله عليه وسلامه، وظلوا على هذه الحال عشر سنوات كاملة.

وجاء وقت، اتفق فيه الجمع على أن يحسموا خلاف الرأى بينهم فى العودة أو المنفى عن طريق اختيار واحد منهم يقول كلمته، وتكون هى كلمة الجمع التى لا نقاش فيها، وتم ذلك، وكان المختار لهذه الكلمة الحاسمة المسموعة: القشيرى، ولا أحد غيره.

وقف القشيرى يخطب فى الناس ولا يدرى بماذا يشير، وإذا به فجأة ينكشف له بفراسته على البعد أن (الكندرى) قد انتهى عهده وسقط النظام كله وجاء (ألب أرسلان).. فهتف فرحا:

يا أهل خراسان بلادكم بلادكم، إنى لأرى خصمكم يقطع الآن إربا إربا، ويرسل كل عضو منه إلى ناحية بعيدة.. هيا هيا إلى خراسان!

ويقول السبكى فى «طبقات الشافعية»: وضبط اليوم والتاريخ والساعة وإذا بدعاء الشيخ يستجاب وتتحقق الأمانى.

وعاد القشيرى إلى وطنه نيسابور وقضى السنوات الأخيرة من عمره من ٤٤٥هـ إلى ٤٦٥هـ فى هدوء واستقرار وتتالت مصنفاته، وكثر تلاميذه، وعمت بركاته.

ودفن إلى جوار شيخه الدقاق فى مدينته الحبيبة نيسابور فى عام ٤٦٥هـ رحمه الله رحمة واسعة.

أ. د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى ٤/٥٧.

٢- الرسالة القشيرية للقشيرى.

٣- نحو القلوب الكبير للقشيرى.

٤- طبقات الشافعية للسبكى ٣/٢٤٣.

٥- وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٢٩٩.

٦- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ١١/١٨٣.

القضاعـــى
(٠٠٠-٤٥٤هـ = ٠٠٠-١٠٦٣م)

هو القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى الشافعى المصرى.

ولد فى مصر فى أواخر القرن الرابع الهجرى، فى عصر الحاكم بأمر الله. ودرس الحديث والفقه على مذهب الشافعى، وبرع فيه، وتفوق فى دراسة التاريخ والأدب. وبدأ حياته العامة بتولى القضاء.

ثم تولى التوقيع لأبى القاسم الجرجرائى المعروف بالأقطع وزير الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ابن الحاكم بأمر الله، ثم وزير ولده المستنصر بالله من بعده. ولما توفى الوزير أبو القاسم (سنة ٤٣٦هـ) تقلب القضاعى فى عدة وظائف ومهام رسمية؛ وكان المستنصر بالله يقربه ويثق بحكمته وحسن تصريفه للأمور.

تجول القضاعى ودرَّس فى بغداد ومكة والشام، ووقف على أحوال الدول الإسلامية يومئذ، ومجرى السياسة فى القصور المختلفة، وتبوأ فى البلاط المصرى ذروة الثقة والنفوذ. ثم جاء ظرف عُهد فيه إلى القضاعى بمهمة سياسية دقيقة. ذلك أن الأزمات والفتن الداخلية التى توالت على مصر فى عهد المستنصر بالله، لبثت تتفاقم حتى انتهت بوقوع الغلاء والقحط؛ ثم كانت الطامة الكبرى بوقوع الوباء فى سنة ٤٤٦هـ - (١٠٥٤م)؛ وعانت مصر يومئذ آلامًا ومحنًا مروعة. وتعرف هذه النكبة فى تاريخ مصر الإسلامية «بالشدة العظمى». وقد بدأت كالعادة بالغلاء وندرة الأقوات، وكان بين مصر والدولة البيزنطية يومئذ علائق حسنة، فأرسل المستنصر بالله فى سنة ٤٤٦هـ إلى إمبراطور قسطنطينية، وهو يومئذ قسطنطين السابع، أن يمده بالغلال والمؤن؛ وكانت الدولة البيزنطية تواجه يومئذ خطر السلاجقة الذين أشرفوا على حدودها الشرقية وعاثوا فى آسيا الصغرى؛ وكانت ترى أن تقوى صداقتها وتحالفها مع مصر، فقد كانت تخشى غزواتها من الجنوب ومن البحر؛ فاستجاب قسطنطين لدعوة المستنصر، وتم الاتفاق على أن تُرسل المؤن من قسطنطينية إلى مصر، وأعدت بالفعل لتلك الغاية مقادير

وافرة من الغلال، تقدرها الرواية الإسلامية بأربعمائة ألف أردب. ولكن قسطنطين السابع توفى قبل تنفيذ الاتفاق، وخلفته على عرش قسطنطينية الإمبراطورة تيودورا، واشترطت لإرسال المؤن إلى مصر شروطًا أباها المستنصر، ومنها أن يمدها بالجند لمحاربة السلاجقة، ونشبت بين الفريقين معارك انتصر فيها المصريون بادىء ذى بدء. ولكن الأسطول البيزنطى غزا مياه الشام، وهزم المصريين فى عدة مواقع؛ فكف المستنصر من متابعة الحرب، وعاد إلى المهادنة والمفاوضة، وأرسل إلى بلاط قسطنطينية سفيرًا مختارًا يسعى إلى عقد الصلح، وتنظيم العلائق بين الفريقين.

وكان ذلك السفير المصرى إلى بلاط القياصرة، هو أبو عبد الله القضاعى الذى يحبوه المستنصر بثقته وتقديره. فقصد القضاعى إلى بيزنطة عن طريق الشام؛ وتضع الرواية الإسلامية تاريخ هذه السفارة الشهيرة فى سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥م) ويقع هذا التاريخ فى عصر الإمبراطورة تيودورا التى جلست على العرش سنة ١٠٥٤م وتوفيت فى أغسطس سنة ١٠٥٧م.

وقد وصل القضاعى إلى قسطنطينية فى أواخر عهد الإمبراطورة تيودورا؛ واستمر فى أداء مهمته بعد وفاتها لدى الإمبراطور ميخائيل السادس؛ ومكث حينًا بقسطنطينية؛ ومما يؤيد طول مكث القضاعى بعاصمة القياصرة أنه عنى هنالك بالدرس وجمع المواد التاريخية عن المدينة وخططها. أما مهمة السفير المصرى لدى البلاط البيزنطى فلم تحددها الرواية الإسلامية تحديدًا واضحًا، ولكنا نستنتج مما قدمنا من الظروف والحوادث، أنها كانت تقوم على السعى فى إقناع البلاط البيزنطى بالتحالف مع مصر ضد السلاجقة، وإعانة مصر بالأقوات والمؤن، تنفيذًا للعهود التى قطعها قسطنطين السابع للمستنصر، وتوفى قبل الوفاء بها.

ولكن القضاعى أخفق فى مهمته. ذلك أن السياسة البيزنطية آثرت جانب السلاجقة، لأنهم كانوا يومئذ أشد خطرًا على الدولة الشرقية من مصر، وآثر القيصر أن يتعاقد مع رسول طغرلبك؛ وبعث القضاعى بذلك إلى المستنصر. فرد المستنصر بالقبض على أحبار قمامة ومصادرة نفائسها، واضطربت العلائق بين مصر وبيزنطة مرة أخرى؛ وعاد القضاعى إلى مصر على إثر هذا الفشل. ونستطيع أن نضع تاريخ عودته فى سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٨م) أعنى بعد أن أنفق أكثر من عامين فى رحلته. ثم توفى القضاعى بعد ذلك ببضعة أعوام، فى ١٦ ذى القعدة سنة ٤٥٤هـ - (١٠٦٣م).

وقد كتب القضاعى عدة مصنفات فى الفقه والتاريخ، منها: ١ - كتاب «الشهاب».

٢ - كتاب «مناقب الإمام الشافعى وأخباره».

٣ - كتاب «الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء».

٤ - كتاب «المختار فى ذكر الخطط والآثار».

٥ - كتاب «عيون المعارف».

وقد اندثر معظم هذه الآثار، ولم يصلنا منها سوى كتاب «الشهاب» و«مسند الشهاب» أو «مسند الصحاب» وهما فى الحديث، وكلاهما بمكتبة الإسكوريال وانتهى إلينا أيضاً، كتاب «عيون المعارف» وهو على ما يصفه مؤلفه فى مقدمته «موجز فى ذكر الأنبياء وتاريخ الخلفاء، وولايات الملوك والخلفاء، إلى سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة من الهجرة».

والظاهر أن «عيون المعارف» و«الإنباء عن الأنبياء وتواريخ الخلفاء» هما اسمان لمؤلف واحد حسبما يبدو من مقدمة «عيون المعارف» المشار إليها.

غير أن أهم آثار القضاعى هو بلا ريب كتابه الشهير فى الخطط، وهو المسمى «المختار فى ذكر الخطط والآثار» ولم يصلنا هذا الأثر، ولكن انتهت إلينا منه، على يد الكتاب والمؤرخين المتأخرين، ولا سيما القلقشندى، والمقريزى، وابن تغرى بردى، والسيوطى، شذور كثيرة تدل على قيمته وأهميته؛ وقد كان المؤلف القضاعى فى الخطط أهمية خاصة؛ لأنه آخر رواية كتبت عن خطط مصر والقاهرة قبل أن تغير معالمها فترة الشدة والخراب التى نزلت بمصر أيام المستنصر بالله، وقبل أن تبعث بعد ذلك خلقًا جديداً فى معظم معالمها وصروحها، وهى حقيقة ينوه بها المقريزى فى مقدمة «الخطط» إذ يذكر كتاب القضاعى «المختار» ضمن مصادره ثم يقول: «ومات (أى القضاعى) فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سنى الشدة فدثر ما ذكر ولم يبق إلا يلمع وموضع بلقع». والظاهر مما نُقل إلينا من كتاب القضاعى أنه أثر ضخم، تناول فيه خطط مصر وآثارها وتاريخها منذ الفتح الإسلامى بإفاضة، وأضاف إليه ما انتهت إليه أحوال القاهرة المعزية حتى منتصف القرن الخامس. والظاهر أيضًا أن كتاب «المختار» أنما هو المنعوت «بتاريخ القضاعى» لأن ما نقل إلينا منه من الشذور يمتاز بإفاضة واضحة، ولا وجود له فى الموجز المسمى «عيون المعارف».

وقد كان القضاعى، كما يبدو من آثاره، مؤرخًا دقيقًا ثقة، يزن روايته ويمحصها، وكانت روايته عن مصر الإسلامية، ولاسيما عن حوادث عصره، مصدرًا خصبًا لكثير من المؤرخين المتأخرين؛ ومازالت هذه الرواية ذائعة تتخذ مكانها بين مصادر التاريخ المصرى حتى أواخر القرن التاسع، حيث نرى السيوطى ينقل فى حوادث فتح مصر عن كتاب «الخطط» للقضاعى مكتوبًا بخطه، وفى ذلك ما يؤيد أيضًا أن الكتاب المنعوت «بتاريخ القضاعى» إنما هو كتاب «المختار فى الخطط والآثار».

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١- مؤرخو مصر الإسلامية للمؤرخ محمد عبد الله عنان ص ٥٥ - ٦١.
٢ - حسن المحاضرة للسيوطى ١/٧٠.
٣ - وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٥٨٥.
٤ - طبقات الشافعية للسبكى ٣/٦٣.
٥ - خطط المقريزى ١/٢٥٥.
٦ - الأعلام للزركلى ٦/ ١٤٦.

القلقشندى
(٧٥٦ - ٨٢١هـ = ١٣٥٥ ـ ١٤١٨م)

هو القاضى شهاب الدين: أحمد بن على ابن أحمد الفزارى القلقشندى. ولد بقرية قلقشندة إحدى قرى مركز قليوب، محافظة القليوبية فى سنة ٧٥٦هـ = ١٣٥٥ م ومن أعلام القرن الثامن الهجرى.

درس وتلقى العلم على أكابر علماء عصره فى القاهرة والإسكندرية. وتخصص فى الأدب والفقه الشافعى، وبرع فى علوم البلاغة واللغة والإنشاء، الأمر الذى لفت إليه الأنظار، ومهد له سبل الاضطلاع بالمنصب الذى تؤهله له مواهبه الأدبية والفنية وهو العمل فى ديوان الإنشاء سنة ٧٩١هـ فى عهد السلطان برقوق.

وقد كان لديوان الإنشاء المصرى، منذ أيام الدولة الفاطمية تاريخ حافل، وقد لبث عصوراً مدرسة أدبية زاهرة، يجتمع فيها أقطاب الكتابة، وأئمة النثر والبلاغة ولبث القلقشندى أعوامًا يعمل فى ديوان الإنشاء، واستمر فيه حتى آخر عهد الظاهر برقوق إلى سنة ٨٠١ هـ) أو بعد ذلك بقليل، حتى توفى سنة ٨٢١هـ = ١٤١٨ م.

بدأ القلقشندى مؤلفاته برسالة موجزة، بيَّن فيها ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد، وما تقتضيه من أصول ورسوم وأساليب، فوقعت موقعاً حسناً، وأشير إليه، حسبما يقول، والظاهر أن الإشارة كانت من مصدر عال، وربما كانت من السلطان نفسه، إذ يقول لنا: «إنه قد امتثل الأمر بالسمع والطاعة» ـ وأشير إليه أن يبسط الكلام فى هذا الموضوع، وأن يلحق رسالته بمؤلف جامع فى أصوله وفنونه، فصدع القلقشندى بالأمر، واسترشد بما كتبه ابن فضل الله العمرى من قبل، وقضى أعواماً طويلة فى البحث والتنقيب، واستخرج الوثائق والكتب والمراسلات الخلافية والسلطانية، وغيرها من مختلف أصناف المكاتبات الرسمية والدبلوماسية، حتى اجتمعت لديه من ذلك مادة غزيرة لم يسبق أن اجتمعت من قبل لكاتب فى موضوعه، ورتَّب مؤلفه على مقدمة وعشر مقالات. وإنا لندهش حقاً، إذا علمنا أن هذه المقدمة، وهذه المقالات العشر، تملأ أربعة عشر مجلداً ضخماً، وهى محتويات

الموسوعة العظيمة، التى سمَّاها القلقشندى فى مقدمته بكتاب «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء». وقد يسمى أحياناً «صبح الأعشى فى فنون الإنشاء»، وذلك حسبما يسميه السخاوى فى الضوء اللامع.

والظاهر أن القلقشندى قد بدأ كتابة مؤلفه الجامع حوالى سنة ٨٠٥ هـ إذا قدرنا أنه استغرق فى وضعه عشرة أعوام، فهو يقول لنا فى مقدمته: إنه فرغ من تأليفه فى شوال سنة ٨١٤ هـ.

وقد عنى القلقشندى بنواح أخرى من التاريخ والأدب، فوضع كتاباً فى أنساب العرب عنوانه «نهاية الأرب فى معرفة قبائل العرب»، يستفاد منه أنه كتب فى سنة ٨١٢هـ. وكتاباً آخر فى الأنساب أيضاً عنوانه «قلائد الجمان فى قبائل العربان».

ووضع مختصراً لصبح الأعشى عنوانه «ضوء الصبح المسفر، وجنى الدوح المثمر».

ووضع كتاباً فى الفقه الشافعى عنوانه « «الغيوث الهوامع فى شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع».

وأنشأ القلقشندى كثيراً من النظم الجيِّد، والظاهر أنه قضى أعوامه الأخيرة فى عزلة، بعيداً عن الأعمال والوظائف الرسمية، ولم يتول بعد ديوان الإنشاء، منصباً آخر، بيد أنه ظل كما يحدثنا صاحب شذرات الذهب، محتفظاً بمكانته الرفيعة فى البلاط وفى الدولة، وفى الدوائر العلمية.

هذا، وإذا كنا لا نستطيع أن نعتبر القلقشندى مؤرخاً بالمعنى الحقيقى ولا نستطيع فى نفس الوقت أن نعتبر موسوعة «صبح الأعشى» مؤلفاً تاريخياً محضاً، فإنه لا شك أنها تقدم إلينا بالنسبة لتاريخ مصر بنوع خاص، مجموعة عظيمة من الوثائق الإدارية والسياسية، التى تلقى أعظم الأضواء على مختلف النظم التى قامت عليها الدول الإسلامية المصرية المتعاقبة، ومختلف العلاقات الدبلوماسية التى كانت تعقد خلال العصور الوسطى بين هذه الدول المصرية، ومختلف الدول الإسلامية والنصرانية. وهذا وحده يكفى لأن نسبغ صفة تاريخية قوية على كتاب «صبح الأعشى»، وأن نسبغ على مؤلفه المؤرخ السياسى والإدارى، وهى صفة لها قيمتها الخاصة عند المؤرخ الحديث.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - مؤرخو مصر الإسلامية للمؤرخ محمد عبد الله عنان من ص ٧٦ إلى ص ٨٤ بتصرف

٢ - الأعلام للزركلى جـ ١ / ١٧٧.

٣ - صبح الأعشى جـ ١ / ٩.

٤- بدائع الزهور فى وقائع الدُّهور لابن إياس جـ٤/٢٨٩.

ابن قيم الجوزية
(٦٩١ - ٧٥١هـ = ١٢٩٢ - ١٣٥٠م)

هو محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد ابن حريز الزرعى الدمشقى، الملقب بشمس الدين أبى عبد الله، المعروف بابن قيم الجوزية، الفقيه، الحنبلى، الأصولى، المحدِّث، النحوى، الأديب، الواعظ، الخطيب.

ولد فى السابع من صفر سنة ٦٩١هـ الموافق ١٢٩٢م بدمشق ونشأ بها وكان جرىء الجنان، شجاعًا فى الحق، واسع المعرفة، عالمًا بالخلاف ومذاهب السلف، وكان يميل أول أمره إلى التصوف، ثم اشتغل بالحديث والقرآن وعلومهما والتفقه فيهما، ولازم الاشتغال بالعلم ليلاً ونهارًا، وكان كثير الصلاة والتلاوة، إذا صلَّى الصبح جلس مكانه يذكر الله حتى الضحوة الكبرى، وكان حسن الخلق؛ كثير التودد للناس، جم التواضع، لا يحسد ولا يحقد، وكان يقول: بالصبر واليقين ينال المرء الإمامة فى الدين، وكان أيضا يقول: «لابد للسالك من همِة تُسَيِّره وتُرقِّيه، وعلم يُبصِّره ويهديه»، دَرَّسَ بالمدرسة الصدرية، وأمَّ الناس بعد وفاة أبيه بالجوزية.

توفى - رحمه الله - بدمشق سنة ٧٥١هـ الموافق ١٣٥٠م، ودفن بمقبرة الباب الصغير، ليلة الخميس فى الثالث والعشرين من شهر رجب.

وقد لقى فى سبيل حرية الرأى والجهر بالحق والإعلان عما يعتقد ما لاقى شيخه ابن تيمية من اضطهاد وتعذيب وسجن؛ فقد اعتقل مع شيخه ابن تيمية بالقلعة بعد أن أهين وطيف به محمولا على جمل، ثم أفرج عنه بعد وفاة ابن تيمية، وحبس مرة أخرى لإنكاره شدّ الرحيل لزيارة قبر الخليل.

من شيوخه وتلاميذه:

سمع من التقى سليمان، وأبى بكر بن عبد الدايم، والمطعم، وابن الشيرازى، وإسماعيل ابن مكتوم، وقرأ العربية على أبى الفتح والمجد التونسى، وقرأ الفقه على المجد الحرانى، وأخذ الفرائض عن أبيه أبى بكر، وقرأ الأصول على الصفى الهندى وابن تيمية، وكان أكثر ملازمة لابن تيمية من غيره، فغلب عليه حبه، وقلَّده فى كثير من أقواله وأحواله

حتى كان لا يخرج عن شىء منها غالبًا، وكان ينتصر له، وهو الذى هذَّب كتبه ونشر علمه. أما تلاميذه فلا يحصون عددًا كمصنفاته.

مؤلفاته :

صنَّف تصانيف كثيرة، بلغت نيفا وستين كتابا في مختلف العلوم، منها ما هو كبير يقع فى مجلدات، ومنها ما هو فى مجلد وجميعها جيد ومفيد ومن أشهرها : (إعلام الموقعين عن رب العالمين) فى الأصول، و (حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح)، و (إغاثة اللهفان فى مصايد الشيطان)، و (زاد المعاد فى هدى خير العباد) فى الحديث، و (شفاء العليل فى القضاء والقدر والحكمة والتعليل) فى التوحيد، و (الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية) فى الفقه، و (التبيان فى أقسام القرآن)، و (مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة) وهى من أنفع الكتب، وكلها مطبوعة.

أ. د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة :

١ - طبقات الحنابلة لابن رجب الحنبلى جـ ١ / ٦١.

٢ - البداية والنهاية. لابن كثير جـ ١٤ / ٢٣٤.

٣ - شذرات الذهب لابن العماد جـ ٢ / ١٦٨.

٤ - الفتح المبين لعبد الله المراغي جـ ٢ / ١٦١.

٥ - الأعلام للزركلى جـ ٦ / ٥٦.

٦ - زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم جـ ١ / ١٥.

ابن كثير الدمشقي
(٧٠١ - ٧٧٤هـ = ١٣٠٢ ـ ١٣٧٣ م)

هو: أبو الفداء: إسماعيل بن الخطيب شهاب الدين أبو حفص عمر بن كثير عماد الدين القرشى الشافعى.

ولد فى (الجندل) سنة ٧٠١هـ الموافق سنة ١٣٠٢م.

قدم دمشق وله سبع سنين، مع أخيه بعد موت أبيه، وسمع من العلماء، أخذ عن ابن تيمية، وفتن بحبه، وامتحن بسببه، وناضل عنه، وتابعه فى كثير من آرائه.

حفظ التنبيه ومختصر ابن الحاجب وصحب ابن تيمية وقرأ فى الأصول على الأصبهانى، وكان كثير الإستحضار قليل النسيان، جيد الفهم.

وَلِيَ مشيخة أم الصالح بعد موت الذهبى. كما ولى مشيخة الحديث الأشرفية مدة يسيرة، بعد موت السبكى وأخذت منه.

وقد مات - رحمه الله - سنة ٧٧٤هـ فى شعبان الموافق سنة ١٣٧٣م.

وكان رحمه الله قدوة العلماء والحفاظ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ.

برع فى الفقه والتفسير والنحو، وأمعن النظر فى الرجال والعلل.

ويعتبر تفسيره من أشهر ما دُوِّن فى التفسير المأثور، وهو فى هذه الناحية: الكتاب الثانى بعد تفسير ابن جرير.

وقد اعتنى فيه بالرواية عن مفسرى السلف، حيث فسَّر فيه كلام الله تعالى بالأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحًا وتعديلاً.

وقد قدَّم له ابن كثير بمقدمة طويلة هامة، تعرَّض فيها لكثير من الأمور التى لها تعلق واتصال بالقرآن وتفسيره، ولكن أغلبها من كلام شيخه ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير.

ويمتاز ابن كثير بأنه ينبه إلى ما فى التفسير المأثور من منكرات الإسرائيليات، ويحذِّر منها على وجه الإجمال تارة، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى.

وبالجملة: فهو من خير كتب التفسير بالمأثور، شهد له بذلك العلماء.

من أهم مؤلفاته : تفسير القرآن العظيم.

والأحكام الصغرى فى الحديث.

الاجتهاد فى طلب الجهاد.

البداية و النهاية فى التاريخ.

التكملة فى تاريخ الثقات والضعفاء.

جامع المسانيد.

الطبقات.

علوم الحديث.

الكواكب الدرارى.

مناقب الإمام الشافعى.

الفصول فى سيرة الرسول.

تخريج أحاديث ابن الحاجب.

تفسير القرآن العظيم.

أ. د. عبد الحى الفرماوى

مراجع للاستزادة:

١ - البداية والنهاية فى التاريخ.

٢ - التكملة فى تاريخ الثقات والضعفاء.

٣ - جامع المسانيد.

٤ - الطبقات.

٥ - مناقب الإمام الشافعى.

ابـن كثيـر المكـى
(٤٥ - ١٢٠ هـ = ٦٦٥ - ٧٣٨ م)

هو أبو معبد: عبد الله بن كثير بن عمرو ابن عبد الله بن زاذان بن فيروز بن هرمز الدارى، مولى عمرو بن علقمة الكنانى، وسمى الدارى لأنه من بنى الدارين هانئ، وهم: رهط بنى تميم الدارى. وقيل: لأنه كان عطاراً، والعطار تسميه العرب دارياً نسبة إلى (دَارِين) مَوْضع بالبحرين، وهو أحد القراء السبعة.

أما عن كنيته: فقيل: أبو معبد، وقيل: أبو محمد، وقيل: أبو بكر، وقيل: أبو عباد، وقيل: أبو المطلب، وأشهرها أبو معبد.

ولد ابن كثير بمكة سنة خمس وأربعين للهجرة وقيل سنة ثمان وأربعين من الهجرة.

وتوفى - رحمه الله - سنة عشرين ومائة، وقيل: سنة اثنتين وعشرين ومائة من الهجرة.

نال ابن كثير مكانة عظيمة فى القراءة والإقراء بمكة حتى انتهت إليه رئاسة الإقراء بالمسجد الحرام وصار إماماً يتمسكون به. أحد القراء السبعة.

قال عنه الشاطبى فى منظومته المسماة بحرز الأمانى ووجه التهانى: وهى المنظومة المعروفة باسم الشاطبية :

ومكة عبد الله فيها مقامه

هو ابن كثير كاثر القوم معتلا

وكان ابن كثير قاضى الجماعة بمكة، ونقل الإمام الشافعى قراءة ابن كثير وأثنى عليها وقال: قراءتنا قراءة عبد الله بن كثير وعليها وجدت أهل مكة.

قال الأصمعى: قلت لأبى عمرو أقرأت على ابن كثير؟ قال: نعم، ختمت على ابن كثير بعد ما ختمت على مجاهد، وكان ابن كثير أعلم بالعربية من مجاهد.

وقد عرض ابن كثير القرآن علَى عبد الله ابن السائب المخزومى، ومجاهد ابن جبر، ودرباس مولى عبد الله بن عباس. وعرض عبد الله بن السائب على أُبى بن كعب، وعمر

ابن الخطاب ـ رضى الله عنهم ـ وعرض درباس ومجاهد على ابن عباس، وعرض ابن عباس على أُبى بن كعب، وزيد بن ثابت، وكل من زيد، وأبّى، وعمر، عرضوا على رسول الله ﷺ.

وقد قرأ على ابن كثير كثيرين، منهم: شبل ابن عباد، وإسماعيل بن مسلم، وحماد ابن سلمة، وسفيان بن عيينة، وأبو عمرو بن العلاء، ومعروف بن مشكان، وإسماعيل بن عبد الله بن قسطنطين.

ومن أشهر رواته :

١ ـ أبو الحسن بن محمد بن عبد الله القاسم بن نافع بن بزّة المعروف بـ (البزّى).

٢ ـ وأبو عمرو محمد بن عبد الرحمن بن محمد خالد بن سعيد المكى الملقب بـ (قنبل).

وكان من منهج ابن كثير فى القراءة أنه:

١ ـ يصل هاء الضمير (بواو) إن كانت مضمومة وقبلها حرف ساكن وبعدها حرف متحرك نحو ﴿ **منه آيات** ﴾ ويصلها (بياء) إن كانت مكسورة وقبلها ساكن وبعدها متحرك نحو ﴿ **فيه هدى** ﴾.

٢ ـ يضم ميم الجمع ويصلها (بواو) إن كان بعدها متحرك بلا خلاف عنه.

٣ ـ يقرأ بقصر المنفصل وتوسط المتصل قولا واحداً.

٤ ـ يسهل الهمزة الثانية من الهمزتين من كلمة من غير إدخال ألف بينهما.

٥ ـ يختلف راوياه فى الهمزتين من كلمتين إذا كانتا متفقتين فى الحركة فالبزى يقرأ كقالون ـ أعنى بإسقاط الأولى إن كانتا مفتوحتين، وبتسهيلها إن كانتا مكسورتين أو مضمومتين، وقنبل يقرأ بتسهيل الثانية أو إبدالها حرف مد مثل (ورش) ـ أما مختلفتا الحركة فابن كثير من روايتيه يغير الثانية منهما كما يغيرها قالون وورش.

٦ ـ يفتح ياءات الإضافة إذا كان بعدها همزة قطع مفتوحة، أو همزة وصل مقرونة بلام التعريف، أو مجردة منها على تفصيل يعلم من كتب القراءات.

٧ ـ يثبت بعض الياءات الزائدة وصلاً ووقفاً وكل ذلك مبين على التفصيل فى كتب القراءات، وبيان الخلاف الوارد فى ذلك بين البزى وقنبل.

٨ ـ يقف على التاءات المرسومة فى المصاحف تاءً ـ بالهاء نحو ﴿ **رحمت الله وبركاته** ﴾ ﴿ **وجنت نعيم** ﴾.

أ.د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١ - غاية النهاية ٤٤٣/١ وقراءات القراء المعروفين للأندرابى ص ٦٥.

٢ - السبعة لابن مجاهد ص ٦٤ ومعرفة القراء الكبار ٨٧,١.

٣ - غاية النهاية ٤٤٤/١، وقراءات القراء المعروفين ص ٦٥.

٤ - طبقات ابن سعد ٣٥٦/٥.

٥ - سير أعلام النبلاء ٣١٨/٥.

٦ - شرح النويرى على طيبة النشر ١٩١/١.

٧ - تهذيب التهذيب ٣٦٧/٥.

٨ - النشر ١٢١/١.

٩ - الأعلام للزركلى جـ ١١٥/٤.

الكرجـــى
(٠٠٠ - نحو ٤٠٦ هـ = ٠٠٠ نحو ١٠٢٠م)

هو أبو بكر محـمـد بن الحسن الكرجى، نسـبـة إلى «الكرج»، وهـى مـدينة بين همـذان وأصفهان.

وصفها اليعقوبى فى «البلدان» بأنها تقع بين أربعة جبـال عـامـرة بالضـيـاع والمزارع والقـرى، وأنهـار مطردة وعيـون جارية. وقد عـاش الكرجى فى القرن الخامس الهجـرى (الحادى عشر الميلادى).

وذكـره ابن خلكان فى كـتـابه «وفـيـات الأعيان» عند ترجمته للوزير فخر الملك.

أشار إليه صاحب «كشف الظنون» ثلاث مـرات، فى إحداهمـا يسـمـيـه الكرجى، وفى اثنتين الكرخى، مما سـمح بقـراءته بقـراءتين فى بعض المراجع والسبب - فيما نرى - يعود إلى النسَّاخ الذين لم يلتزموا التنقيط.

وقد ظل الكرجى مغموراً فى جُبٍّ النسيان حـتى عـهـد قـريب، عندمـا لفت بعض المستشـرقين الأنظار إليه، ووصـفـه «سـميث» D.E. smith فى كتابه «تاريخ الرياضيات» بأنه من أعظم الرياضـيين الذين كـان لهم أثر حقيقى فى تقدم العلوم الرياضية، ثم ظهرت بعض مؤلفـاته النفيسة التى تخبر عن بعض مـآثره العلمية، بالرغم من أنها لم تنل حظها بعد من البحث والتحليل.

ولا تذكر المصادر سنة ميلاد الكرجى على وجه التحـديد، وترجح بعض الكتب الحديثة أنه توفى بعد سنة ٤١٠هـ.

مؤلفاته :

١ - الفخرى فى الجبر والمقابلة، نسبة إلى الوزير البغدادى فخر الملك..

٢ - الكافى فى الحساب.

٣ - المقنع فى المساحة.

٤ - نوادر الأشكال.

٥ - البديع فى الحساب.

٦ - المسائل والأجوبة.

٧ - علل الجبر والمقابلة.

٨ - الأجذار.

٩ - المدخل إلى علم النجوم.

١٠- الدور والوصايا.

١١- رسالة فى الاستقرار.

١٢- إنباط المياه الخفية.

كما يذكر له أصحاب الطبقات كتابا فى العقود والأبنية.

ويعكس هذا التنوع فى مؤلفات الكرجى سمة الموسوعية التى تميَّز بها علماء الحضارة الإسلامية.

أ.د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة:

١ - أساسيات العلوم المعاصرة فى التراث الإسلامى، دراسات تأصيلية، د. أحمد فؤاد باشا، دار الهداية، القاهرة ١٩٩٧م.

٢ - مشكلة المياه الجوفية وحلولها فى التراث الإسلامى، لخالد العزب، دار القدس، القاهرة ١٩٩٥م.

٣ - كتاب إنباط المياه الجوفية، للكرجى، تحقيق ودراسة: بغداد عبد المنعم، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.

٤- وفيات الأعيان لابن خلكان حـ٢/٦٥.

٥- شذرات الذهب لابن العماد حـ٣/ ١٨٦.

٦- كشف الظنون حـ٢/٢٣٧.

٧- الأعلام للزركلى حـ٦/٨٣.

الكرمانـــى
(٧١٧ - ٧٨٦هـ)

هو محمد بن يوسف بن على بن محمد بن سعيد السعيدى، نسبة إلى سعيد بن زيد أحد الصحابة العشرة المبشرين بالجنة، الكرمانى الأصل البغدادى الشافعى، أبو عبد الله، شمس الدين.

ولد سنة ٧١٧هـ، على الراجح. وقد ولد فى بلدة كوينان من أعمال كرمان، بينها وبين بلدة كرمان مسيرة ثلاثة أيام.

يقول الكرمانى معرفاً بخراسان وكرمان: «خراسان» بضم الخاء هى المملكة المعروفة موطن الكثير من علماء المسلمين و «كرمان» بكسر الكاف منزل الكرم والكرام، دار أهل السنة والجماعة.

نشأ الكرمانى فى بيت علم وتدين وزهد، فوالده يوسف كان من العلماء العاملين كما يحكى لنا ذلك ابن الكرمانى بقوله : (نشأ والدى رحمه الله بها، واشتغل بها على والده يوسف وكان من العلماء العاملين حكى لى والدى عنه أنه ما كان يأكل إلا من ثمن مصحف شريف يكتبه فى كل شهر بخمسة دراهم يبيعه ويقتات بالخمسة دراهم طول شهره، فإذا انقضى الشهر بعد كتب آخر فينسخه ولا يأكل إلا من ثمنه مع كثرة أملاكه وسعة من الدنيا.

وهكذا حظى الكرمانى بمثل ما حظى به كثير من العلماء فى صغرهم من عناية الأب وحرصه على تعليم أولاده، فكان أبوه هو أول من أخذ عنه العلم، ثم يحكى لنا ابن الكرمانى أن والده لما بلغ مبلغ الرجال ارتحل بعد ذلك إلى كرمان وقرأ بها على علمائها، ثم رحل بعد ذلك بإذن والده إلى شبانكاره ° وهى بلدة من أعمال شيراز - وفيها الشيخ عضد الدين، وفى ذلك يقول ابن الكرمانى : (فلازمه واشتغل عليه وقرأ عليه شرح مختصر ابن الحاجب وكتاب المواقف فى أصول الكلام وغير ذلك، من مؤلفات شيخه عضد الدين، ثم وقع خراب فى بلاد شيراز وقتل سلطانها وكان محسنا إلى والدى، وكان والدى يترحم عليه) أهـ.

أما عن مدة ملازمته للقاضى عضد الدين فقد أفادت مصادر ترجمته أنها اثنتا عشرة سنة، قال الحافظ فى الدرر الكامنة : (ثم

ارتحل إلى شيراز فأخذ عن القاضى عضد الدين ولازمه اثنتى عشرة سنة حتى قرأ عليه تصانيفه)أهـ.

ويواصل الكرمانى رحلاته العلمية متنقلاً بين المدن الإسلامية حتى إن العلامة السخاوى ذكر عنه فى ترجمته لولده يحيى أنه لازمه سفراً وحضراً وجاب معه نحو خمسين مدينة، فالكرمانى لم يكتف بما تلقاه على والده ومشايخ كرمان بل دفعه حبه للعلم والتزود منه إلى الرحلة فى طلبه، فرحل إلى شيراز وأخذ عن القاضى عضد الدين وقرأ عليه تصانيفه والتى كان لها أكبر الأثر فى تكوين شخصية الكرمانى العلمية وبالتالى فى إنتاجه العلمى كما سيأتى .. بإذن الله تعالى.. عند الحديث عن شيوخه ومؤلفاته.

وعن أسماء المدن التى رحل إليها الكرمانى بعد ذلك يقول ابن الكرمانى :

(.. وقصد بغداد ثم قصد الشام ثم أتى مصر ولكنه فى سنة خمس وخمسين وسبعمائة ورد مصر وسلطانها الملك الصالح والأمير الكبير بها شيخون، فأراد السلطان وشيخون أن يقيم والدى بالقاهرة.. وهو يريد أن يحج فحج من طريق الحاج المصرى بعد أن قرأ البخارى بالقاهرة بالجامع الأزهر على الشيخ ناصر الدين الفاروقى وغيره من علمائها، ثم لما حج رجع إلى بغداد وكانت بغداد إذ ذاك بلد عامر بأهله من أحسن بلاد الدنيا، فأقام بها واشتغل بالتأليف، واشتغل الناس عليه فى فنون العلم، وحج مرات وجاور وأنا فى خدمته سنة خمس وسبعين وسبعمائة، ثم رجع إلى بغداد وأقام بها إلى سنة خمس وثمانين فقصد الحج وأنا فى خدمته)أهـ.

ومن أوصافه التى ذكرتها لنا كتب التراجم أنه كان مقبلاً على شأنه لايتردد إلى أبناء الدنيا، قانعاً باليسير، ملازماً للعلم، شريف النفس، متواضعاً، باراً لأهل العلم، متكبراً على أهل الدنيا، وكان تام الخلق فيه بشاشة ومما ذكروه عنه أيضا أنه تبحر فى علوم كثيرة حتى فاق أقرانه وفَضَلَ غالب أهل زمانه، وحدث له حادث وهو فى الرابعة والثلاثين إذ قد تردى من مكان مرتفع فكان لايمشى إلا على عصا، ومع ذلك فقد كان نشيطاً فى تنقلاته ورحلاته، وذكرت المصادر نقلاً عن الشيخ زين الدين العراقى أنه اجتمع به فى الحجاز، وذكر من أوصافه أنه كان شريف النفس مقبلاً على شأنه.

عاش الكرمانى تسعا وستين سنة، واتفق مترجموه على أن وفاته كانت فى يوم الخميس سادس عشر من محرم سنة ست وثمانين وسبعمائة، وتوفى راجعاً من الحج بمنزل يعرف بروض مهنا، ونقله ولده يحيى الذى كان ملازما له إلى بغداد ودفنه فى

موضع كان قد اختاره فى حياته بقرب الشيخ أبى إسحاق الشيرازى وابن الصباغ وغيرهما من العلماء، كما صرح بذلك ولده فى مجمع البحرين.

ويأتى فى مقدمة شيوخه والده بهاء الدين يوسف وكان من العلماء العاملين، وهو أول من أخذ عنه العلم فى صغره، وعضد الدين وهو عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار قاضى قضاة المشرق وشيخ العلماء والشافعية بتلك البلاد، الإِيْجِى الشيرازى شارح مختصر ابن الحاجب وله المواقف.

وقد لازم الكرمانى شيخه العضد اثنتى عشرة سنة وقرأ عليه مؤلفاته، كما تقدم وكان الكرمانى من أنجب تلامذته الذين اشتهروا فى الآفاق، وأثمرت هذه الملازمة لشيخه ما أنتجه الكرمانى من شروح لمؤلفاته، فقد شرح الكرمانى كتاب شيخه شرح مختصر ابن الحاجب فى أصول الفقه، وشرح أيضا المواقف والجواهر فى أصول الكلام لشيخه العضد، وسمى أولهما: الكواشف شرح المواقف، وثانيهما: الزواهر شرح الجواهر، وشرح كذلك كتاب شيخه الفوائد الغياثية فى المعانى والبديع وهو أول مصنفاته كما صرح بذلك ولده يحيى فى مجمع البحرين وهناك ثلاثة من شيوخ الكرمانى لم تذكر منهم المصادر سوى شيخه الفاروقى وذكرهم الكرمانى فى مقدمة كتابه الكواكب الدرارى عند حديثه عن إسناده إلى الإمام البخارى وذلك قوله : (فأما إسنادى إليه فهو من شيوخ متوافرة، وعلماء متكاثرة من أهل الحرمين الشريفين مكة والمدينة، ضاعف الله شرفهما، والقدس والخليل ومصر والشام والعراق وغيرها، ورحلت لأجله خاصة إلى هذه البلاد برها وبحرها لكن السماع التام الشافى والاستماع الكامل الكافى إنما هو من شيوخ ثلاثة:

الأول: الشيخ الإمام العلامة محدث الجامع الأزهر من القاهرة المعزية بالديار المصرية: ناصر الدين محمد بن أبى القاسم ابن إسماعيل بن محمد بن المظفر أبو عبد الله الفاروقى كان شيخاً فقيهاً صوفياً عالماً بما يقرأ ضابطاً مصنفاً، كان يأكل من أجرة الكتابة، وكان قد داوم سنين على قراءة شىء من صحيح البخارى صبيحة كل يوم بالجامع الأزهر مات فى حدود ستين وسبعمائة.

والثانى: الشيخ الإمام الحافظ محدث الحرم الشريف النبوى ﷺ على ساكنه أبو الحسن على بن يوسف بن الحسن الزرندى (بفتح الزاى والراء وإسكان النون وبالمهملة) الأنصارى كان عالم المدينة فى أوانه، المضروب إليه أكباد المطى فى زمانه وكفاه فضلا أنه كان من أصحاب الأسماع عند الروضة الشريفة، وأرباب الإفادة عند العتبة الكريمة المنيفة صلوات الله وسلامه على صاحبها، مات سنة ثنتين وسبعين وسبعمائة.

والثالث: الشيخ الكبير الثقة بقية السلف، قدوة الخلف جمال الدين محمد بن الشيخ شهاب الدين أحمد بن عبد الله بن عبد المعطى الأنصارى المكى محدث الحرم الشريف، الإلهى، كثير الطاعات والعبادات، غزير المناسك والطوافات.

انقطع الكرمانى للعلم انقطاعاً كاملاً، طلباً له فى صغره، ورحلة إليه بعد بلوغه، ثم اشتغالاً به تدريساً وتأليفاً حتى توفاه الله تعالى، وعبارة الحافظ ابن حجر وكثير ممن ترجم له «وتصدى لنشر العلم ببغداد ثلاثين سنة» تدل دلالة على مدى اشتغاله بالعلم ونشره له، ولاريب أن حصيلة تلاميذ هذه السنين الطويلة كبيرة لكن المصادر لم تذكر من تلاميذه إلا القليل - فيما أعلم - وكان ممن صرحت بأسمائهم من تلاميذه :

١ - ولده تقى الدين يحيى بن محمد بن يوسف بن على بن محمد بن سعيد الكرمانى ثم القاهرى الشافعى المعروف بابن الكرمانى.

٢- ولده عبد الحميد بن محمد بن يوسف ابن على بن سعيد حميد الدين الكرمانى.

٣- الجلال أسعد بن محمد محمود الشيرازى الحنفى البغدادى ثم الدمشقى ترجم له الحافظ فى إنباء الغمر بقوله: (أسعد بن محمد بن محمود جلال الدين الشيرازى قدم بغداد صغيراً فاشتغل على الشيخ شمس الدين السمرقندى فى القرآن وفى مذهب الحنفية، ثم حضر مجلس الشيخ شمس الدين الكرمانى وقرأ عليه صحيح البخارى أكثر من عشرين مرة.

٤- القاضى محب الدين البغدادى، ذكره الحافظ ابن حجر ضمن تلامذة الكرمانى.

ألف الكرمانى فى مختلف أنواع العلوم مؤلفات كثيرة، لم يطبع منها ـ فيما أعلم ـ سوى (الكواكب الدرارى فى شرح صحيح البخارى)، ولو لم يكن له إنتاج غيره لكفاه فقد أودع فيه علما كثيراً وجاء كتابه يمثل ثقافة عصره وخلاصة فكره، فضلاً عن أنه موسوعة احتوت على علوم شتى، وخلاصة ما ألف قبله فى هذا المجال، وأول مصنفات الكرمانى كما حكى ذلك ولده يحيى هو شرح الفوائد الغياثية فى المعانى والبيان والمسمى تحقيق الفوائد.

وعن مصنفات الكرمانى يقول ولده يحيى : (وله تصانيف مفيدة منها شرح البخارى وسماه بالكواكب وكمله بمكة المكرمة سنة خمس وسبعين حين مجاورته .. قِبَل الركنين اليمانيين، وله شرح الفوائد الغياثية فى المعانى. والبيان وهى أول مصنفاته، ثم شرح المواقف فى أصول الكلام، ثم الجواهر فى أصول الكلام، وهذه الثلاثة الأصول من مؤلفات شيخه عضد الدين وشرحها، ثم شرح

تفسير البيضاوى وهو آخر مصنفاته، وصل فيه إلى سورة يوسف، ثم اخترمته المنية، وله رسالة فى مسألة الكحل، وفى كافية ابن الحاجب، ورسالة فى التصور والتصديق فى المنطق، وله أنموذج الكشاف).

وأضاف صاحب هدية العارفين إلى تلك المصنفات: (ذيل مسالك الأبصار فى التاريخ) و(شرح أخلاق عضد الدين).

ومن مصنفاته الأخرى التى ذكرتها المصادر غير ما سبق ذكره كتابة (النقود والردود فى الأصول وضمائر القرآن).

ومن مؤلفاته التى نص عليها بنفسه أثناء شرحه كتاب النقود والردود، (الكواشف فى شرح المواقف).

وقد أثنى عليه كثير من العلماء منهم :

تقى الدين المقريزى، ت سنة ٨٤٥هـ حيث يقول فى كتاب السلوك: (ومات عالم بغداد شمس الدين محمد بن يوسف بن على الكرمانى).

والحافظ السيوطى، ت سنة ٩١١هـ فى بغية الوعاة حيث يقول : (الإمام العلامة فى الفقه والحديث والتفسير والأصلين والمعانى والعربية.. ومهر وفاق أقرانه، وفضل غالب أهل زمانه).

وشمس الدين الداودى، ت سنة ٩٤٥هـ حيث يقول فى طبقات المفسرين : (الإمام العلامة فى الفقه والحديث والتفسير والأصلين والمعانى والعربية .. وكان مشاراً إليه بالعراق وتلك البلاد فى العالم).

أ. د. موسى شاهين لاشين

مراجع للاستزادة :

١ - الأعلام للزركلى ١٥٣/٧ وما بعدها.
٢ - إنباء الغمر بأنباء العمر لابن حجر ١٨٢/٢.
٣ - بغية الوعاة سيوطى ٢٧٩/١.
٤ - الدرر الكامنة لابن حجر ٣١٠/٤.
٥ - شذرات الذهب لابن العماد ٢٩٤/٦.
٦ - الضوء اللامع للسخاوى ٢٥٩/١٠، ٢٢٣/١١.
٧ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ٣٠٣/١١.

الكسائـــى
(١١٩ - ١٨٩هـ = ٧٣٧ - ٨٠٥م)

هو على بن حمزة بن عبد الله بن عثمان ابن بهمن بن فيروز، مولى بنى أسد النحوى، وكنيته أبو الحسن، فى نسبه ثلاثة أسماء عربية هى حمزة، عبد الله، عثمان، ثم اسم فارسى هو بهمن ابن فيروز، وقد سمى بالكسائى لأنه كان يلتف بكساء يدل على زهده وفقره، ولد فى «باحمشا» القريبة من- بلدة بالجزيرة بين دجلة والفرات - فى إقليم امتاز بجماله، وخصوبة أرضه، وسحر طبيعته.

نشأ بالكوفة، فقد رحلت إليها أسرته للسعى وراء القوت فى هذه المدينة الفسيحة التى افتتح فيها والده دكانا للتجارة، والتى هيئ فيها للكسائى قسط من التعليم، فاستطاع أن يفتح مكتبا لتعليم القرآن، ويلازم دكان أبيه فى أوقات فراغه، وأبى أن يكون معلم صبيان، واستعان باجتهاده وكفاحه ليكون شيخ مدينة السلام فى عصره، وأن يكون إمام القراءات واللغة والنحو، وأن يسمو بوضعه التعليمى حتى يؤدب الأمين والمأمون ولدى هارون الرشيد.

قرأ القرآن فى صغره، وتعلم اللغة، وشيئا من العلوم الدينية من فقه، وتفسير، وحديث. وكانت الدراسة حلقات فى المساجد والطلاب يتلقون ما يريدون، وما تميل إليه نفوسهم - فاتجه الكسائى إلى تعلم القراءات على شيخه حمزة؛ وتعلم النحو، وبسبب أنه لحن يوما بحضرة جماعة من المشهورين بإتقان اللغة - وكان الكسائى يجالسهم - فعيروه قائلين: «أتجالسنا وأنت تلحن؟» فأنف من هذه الكلمة، واتصل بأستاذه معاذ الهراء حتى يتعلم على يديه، ثم خرج إلى البصرة، ولقى الخليل بن أحمد، وسأله ذات يوم«من أين أخذت علمك هذا؟» قال: «من بوادى الحجاز، ونجد، وتهامة». فأراد الكسائى أن ينهل من المنهل نفسه، فخرج إلى الكوفة خفية، وفى البادية عاش الكسائى زمنا حتى شحب وجهه، وبرزت عظامه، ونفدت ثيابه، فاشترى شملتين، ثم دفعه الحنين إلى وطنه فذهب يقابل أستاذه «حمزة» فى المسجد، ولم يعرفه شيخه لتغيره شكلا، ثم عرفه وسلم عليه، وعاد بعد ذلك إلى بيته، واستأنف سابق

حياته، يقول الرواة: إنه كان فصيح اللسان، مجتهدا فى علوم العربية والقرآن، وآراؤه فى القراءات مشهورة ومعروفة.

وقد قدم الكسائى مع أمير المؤمنين هارون الرشيد، فمرض مرضا خبيثا، فأتاه هارون ماشيا، فخرج من عنده وهو مغموم جدا، فقال لأصحابه: ما أظن الكسائى إلا ميتا، وجعل يسترجع، فجعل القوم يعزونه، ويطيبون نفسه وهو يظهر حزنا... فما لبث أن مات. وكانت وفاته برنبويه من كور الرى، هو ومحمد بن الحسن الفقيه فى وقت واحد. وكانا قد خرجا مع الرشيد إليها. فقال الرشيد: «دفنت الفقه والنحو برنبويه».

شيوخه وتلاميذه:

تلقى الكسائى علمه على أساتذة مشهورين.. فقد درس علوم القرآن على حمزة ابن حبيب الزيات، أما علوم اللغة، فبجانب رحلته إلى الصحراء، فقد تعلم على يد نوابغ عصره، منهم: أبو خطاب عبد الحميد الأخفش، وأبو عبد الرحمن الخليل ابن أحمد، ومعاذ الهراء، وسفيان بن عيينة، وتلقى الشعر عن إسحاق بن عمار الجصاص المتوفى فى أواخر أيام المنصور.

ومن أشهر تلاميذه: على بن الحسن الأحمر، وعلى بن المبارك الكحيانى، والفضل ابن إبراهيم عبد الله الكوفى، والقاسم ابن سليمان أبو عبيد، وهشام بن معاوية، ويحيى ابن زياد الأسلمى المعروف بالفراء، وإسحاق ابن إبراهيم الموصلى.

وأشهر من روى عن الكسائى: أبو العباس يحيى بن ثعلب، درس كتب الكسائى وروى عنه، ومحمد بن جعفر التيمى، وكان من مجودى القراء، ومحمد بن زياد المعروف، بابن الأعرابى، وأخذ عن الكسائى كتاب النوادر، وأبو عمرو حفص بن عمر بن عبد العزيز الدورى، ويعقوب بن إسحاق.

مؤلفاتــــه:

من مؤلفاته:

١- كتاب القراءات.

٢- متشابهات القرآن.

٣- النوادر الكبير.

٤- مختصر فى النحو.

٥- كتاب العدد.

٦- النوادر الأوسط.

٧- النوادر الأصغر.

٨- اختلاف العدد.

٩- كتاب الهجاء.

١٠- كتاب المصادر.

١١- كتاب الحروف.

منهجــه :

وجهته البيئة وجهة خاصة، وجرفته التيارات الفكرية والسياسية إلى معسكر الكوفيين الذين تعضدهم الدولة، أما تأثير البيئة فيرجع إلى اختلاف طبيعة البلدين: فالبصرة متطرفة بدوية، عاشت فى ظلال الحرية، أما الكوفة فهى قريبة من الحيرة. فى بقعة كانت تحت إشراف الأكاسرة، وتطرقت إليها الروح الفارسية، والخضوع لسلطان العقل.

ولقد ضرب الكسائى فى الفيافى والقفار، باحثا جامعا للغة من أفواه أهلها... عاشرهم حتى صار كأحدهم، ثم دنا إلى الحضر يروى ما علم، ثم هو بعد ذلك يميل إلى الدولة التي فتحت له سبيل المجد.. خاصة وأن الجزيرة العربية لم تعد إلا مركزا للدولة التى اتسعت رقعتها اتساعا شمل العرب والعجم، فاتخذ الكسائى طريق السهولة، وقد أعلن عن منهجه بقوله:

إنما النحو قياس يتبع

وبه فى كل أمر ينتفع

هذا هو منهج الكسائى فى اللغة.

ولا شك أن منهج البصريين يهدف إلى صيانة اللغة، فيحصرها فى نطاق لغة القبائل المحدودة، ولكنه بجانب ذلك يعتبر منهجا عقيما، لأنه يقف باللغة ويحول بينها وبين التطور، ولقد ضاق الأدباء والشعراء ذرعا بذلك، أما منهج الكسائى - وهو مذهب أهل الكوفة - فإنه يتفق مع سنة التطور، وهو الصواب... إذ كيف يدعى أن اللغة قد تركزت فى قبائل محدودة، وتهمل لغة أكثر القبائل؟.

ولعل الحياة العلمية شغلت الكسائى، فلم يلتفت لقول الشعر، ولكن سمع عنه بعض قصائد تناولها النقاد بين قادح ومشفق، فقد روى ياقوت فى معجمه: «كان الكسائى أعلم من أبى زيد بالعربية واللغات والنوادر، ولو كان نظر فى الأشعار ما سبقه أحد ولا أدركه أحد بعده».

كتب الكسائى إلى الرشيد - وهو يؤدب محمدا الأمين - بعض أبيات الشعر فضحك الرشيد، وأمر له ببغل بسرجه ولجامه، وبجارية حسناء، وخادم، وعشرة آلاف درهم ومن شعره.

إنما النحو قياس يتبع

وبه فى كل أمر ينتفع

فإذا ما نصر النحو الفتى

مر على المنطق مرا فاتسع

وإذا لم ينصر النحو الفتى

هاب أن ينطق جبنا فانقطع

ومهما يكن من هذا القول أو غيره، فلا نستطيع أن نقول إن له ملكة شعرية حساسة، فالشعر فن، والكسائى عالم .... ولذلك جاء شعره متكلفا ثقيلا.

ويحفظ لنا التاريخ مناظرات عدة بين الكسائى وغيره من العلماء، ولعل من أشهرها تلك المناظرة التى كانت بينه وبين سيبوبه والتى قيل إنها كانت سببًا فى موت سيبوبه حزناً وكمداً، والمناظرة التى كانت بينه وبين صاحبى أبى حنيفة.

وروى عن الدروى قال: «كان أبو يوسف يقع فى الكسائى، ويقول: أى شىء يحسن؟ إنما يحسن شيئا من كلام العرب، فبلغ ذلك الكسائى، فالتقيا عند الرشيد - وكان الرشيد يعظم الكسائى لتأديبه إياه - فقال لأبى يوسف: ما تقول فى رجل قال لامرأته: أنت طالق طالق طالق. قال: واحدة، قال: فإن قال لها: طالق أو طالق أو طالق؟ قال: واحدة. قال: فإن قال لها: طالق ثم طالق ثم طالق؟ قال: واحدة. قال: فإن قال لها: طالق وطالق وطالق؟ قال: واحدة...

قال الكسائى: يا أمير المؤمنين، أخطأ فى اثنتين وأصاب فى اثنتين. أما قوله: أنت طالق طالق طالق، فواحدة.... لأن الاثنتين الباقيتين تأكيد، كما تقول أنت قائم قائم قائم. وأما قوله: أنت طالق أو طالق أو طالق، فهذا شك، فوقعت الأولى التى تتيقن، وأما الوجهان الباقيان فثلاث... لأنه نسق».

وجاء فى وفيات الأعيان عن الكسائى أنه قال: «من تبحر فى علم هدى إلى جميع العلوم». فقال له محمد: «ما تقول فيمن سها فى سجود السهو، هل يسجد مرة أخرى؟ قال: «لا، لأن النحاة تقول: المصغر لا يصغر».

فقال محمد: «ما تقول فى تعليق الطلاق بالملك؟ ». قال: «لا يصح، لأن السيل لا يسبق المطر».

وهذا إن دل على شىء، فإنما يدل على دخول الأقيسة والنظائر وكثرتها فى هذا العصر، الذى امتاز بالعقليات. وكان الكسائى شخصية جذابة، يبدو عليه الوقار والاتزان... لذلك جعله الرشيد من طائفة المجالسين المؤانسين، ولم يغير ذلك من أخلاقه وعاداته، اللهم إلا لباسه، وشهد بأدبه يحيى بن خالد فى المناظرة التى انتصر فيها اليزيدى على الكسائى بحضرة الرشيد، وخرج فيها اليزيدى عن المألوف فى حضرة الخليفة، حتى قال يحيى: «والله لخطأ الكسائى مع أدبه، أحب إلينا من صوابك مع سوء فعلتك!».

كان الكسائى رجلا صدوقا، قال عنه أبو اليزيد: «ما جربت على الكسائى كذبة قط»

ويتجلى تقديسه للصدق فيما حكى عن الفراء قال: «دخلت على الكسائى يوما، كان يبكى، فقلت له: ما يبكيك؟ قال: هذا الملك - يعنى خالد - يوجه إلى ليحضرنى، فيسألنى عن شىء، فإن أبطأت فى الجواب لحقنى منه عتب، وإن بادرت لن آمن من الزلل». قال: «فقلت له: يا أبا الحسن من يعترض عليك؟ قل ما شئت فأنت الكسائى». فأخذ لسانه، وقال: «قطعه الله إن قلت ما لا أعلم!»

وكان الكسائى دائما فى موقف منافسة شديدة بينه وبين معاصريه، فلا يبعد أن يضع فيه بعض حساده والحاقدين عليه، كى يقللوا من مكانته ومنزلته. وصف ابن الأعرابى الكسائى، فقال: «كان أعلم الناس». وقال الخليل بن أحمد المحدث، يشيد بفضل الكسائى: «وأجعل فىِ النحو الكسائى عمدتى، ومن بعده الفراء، ما عشت سرمدا»، وقال الشافعى رضي الله عنه: «من أراد أن يتبحر، فهو عيال على الكسائى».

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة :

١- طبقات النحويين واللغويين، للزبيدى
٢ - مراتب النحويين، لأبى الطيب.
٣ - تاريخ بغداد، للخطيب.
٤ - مجالس العلماء، للزجاج.
٥ - السبعة فى القراءات، لابن مجاهد.
٦ - إنباه الرواة على أنباء النحاة، للقفطى.
٧ - المدارس النحوية، لشوقى ضيف.
٨ - مدرسة الكوفة وأثرها فى النحو واللغة، لمهدى المخزومى.
٩ - الإنصاف فى مسائل الخلاف، لابن الأنبارى.
١٠ - أخبار النحويين البصريين، للسيرافى.
١١ - معجم الأدباء، لياقوت.
١٢ - الأشباه والنظائر، للسيوطى.
١٣ - وفيات الأعيان، لابن خلكان.
١٤ - الفهرست، لابن النديم.

كمال الدين الدميرى
(٤٢ - ٨٠٨هـ = ١٣٤١ - ١٤٠٥م)

هو عمار بن موسى بن عيسى بن على الدميرى، وكنيته: أبو البقاء، كمال الدين، من فقهاء الشافعية، وباحث أديب.

ولد بصعيد مصر فى دميرة عام ٤٢ هـ = ١٣٤١م قبل عصر النهضة العلمية فى أوروبا، وكانت جامعة الأزهر قد أنشئت منذ قرون من أجل تحرير الفكر، وإعلاء شأن العلم، فالتحق بها وثابر على القراءة والبحث والتحصيل حتى أصبح من أئمة العلماء فى هذه الجامعة العتيدة، واشتغل بالعلم واشتهر بأنه على جانب كبير من العلم والمعرفة.

والدميرى من أبرز علماء جامعة الأزهر القديمة الذين أرسوا علم الحياة، وقد أولع بدراسة المخلوقات التى ابتدعتها قدرة الخالق عز وجل، فتوفر على دراسة الحياة الحيوانية. وتوفى عام ٨٠٨ هـ = ١٤٠٥م.

ومن أهم مولفاته كتاب (حياة الحيوان الكبرى)، وقد تحدث فيه عن النواحى العلمية المتعلقة بسلوك الحيوانات وتوالدها، وخصالها، كل ذلك بالإضافة إلى مجالات أخرى أدبية ولغوية، شأنه فى ذلك شأن معظم كتاب وعلماء ذلك العصر.

ويعتبر كتاب الدميري هذا مزيجا من العلم، والأدب، والتاريخ، والفلسفة، والحديث، والقصص، وقد ترجم إلى العديد من اللغات. ويمكن اعتبار الكتاب بمثابة أول مرجع علمى شامل فى علم الحيوان، ظهر فى القرن الرابع عشر الميلادى، فى وقت لم تكن فيه علوم الحياة قد ظهرت بعد.

وقد رتب الدميرى الحيوانات التى كتب عنها فى كتابه ترتيبا أبجديا على طريقة المعجم المعروف، وتناول بالبحث ١٠٦٩ كائنا أو دابة، جعل لكل كائن منها صفات تميزه عن غيره، مما كان معروفا فى ذلك العهد، وقد توسع فى شرح الصفات المشاهدة للحيوانات المشهورة لوفرة ما يعرفه الناس عنها من معلومات، ويحتوى الكتاب على قائمة طويلة من الثدييات التى وصفها الدميرى بطريقته الشائقة مستعرضا أهم الصفات والطبائع التى يحتاج إليها القارئ للتعرف عليها أو

الإحـــاطة بمـزاياهـا، ذلك أنـه اتخـــذ نـفس الأسلوب العلمى الحديث القائم على الرصد والمشاهدة، على أوسع نطاق ممكن.

وبطـبـيـعـة الحـال، وتبـعـا لظـروف ذلك العـصـر، لم يقـتـصـر الدمـيـرى فى مـجـال الدراسات العلمية على مجرد تلك الأوصاف، بل تعـداهـا إلى دراسـات لغـوية تبين أسـمـاء الحـيـوانات خـلال مـراحل نموها المختلفة، وكـذلك مـا يعـرف من أسـمـائهـا فى مـخـتلف بقـاع بلاد العـرب، فـمثـلا البجع المعـروف فى مـصـر يـسـمى فى بلاد العـرب الحـوصل، والدجاجة عند أهل السودان هى الجدادة.

وتحـتل الطيـور منزلة ممتـازة فى كـتـاب الدميرى. وقد استعرض الدميرى كل ما عرفه العرب عن الطيور المنزلية أو البرية استعراضًا شائقًا.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١ - الدميرى : حياة الحيوان الكبرى، تحقيق محمد رشاد الطوبى. مجلة تراث الإنسانية.

٢ - عبدالحليم منتصر : تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه.

٣ - عبدالفتاح مصطفى غنيمة : تاريخ العلوم عند العرب.

الكنــــدى
(١٨٥-نحو ٢٦٠ هـ = ٨٠١ - نحو ٨٧٣م)

هو «أبو يوسف، يعقوب بن إسحاق بن الصبّاح بن عمران بن إسماعيل بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى».

ولد بالكوفة عام ١٨٥هـ = ٨٠١م. وتوفى ببغداد نحو عام ٢٦٠هـ = نحو ٨٧٣م. عن عمر يناهز سبعة وستين عامًا.

وسماه بعضهم «فيلسوف العرب»، لأنه العربى الوحيد الذى اشتغل بالفلسفة بين السريان والصابئة، ولأنهم جميعًا اصطنعوا اللغة العربية أداة للتعبير عن الفلسفة.

كما سماه البعض الآخر: «فيلسوف الإسلام»، لأنه عاش فى ظل الدولة الإسلامية. ووصفه ابن النديم بأنه: «فاضل دهره، وواحد عصره، فى معرفة العلوم القديمة بأسرها».

كان سليل أسرة من ملوك اليمن، وقد تربى الكندى فى قصر الإمارة بالكوفة، وكان والده أميرًا عليها، لكنه ترك قصر الإمارة مع أمه، حيث توفى والده وهو طفل صغير السن، ثم انتقل إلى بغداد وتلقى تعليمه هناك.

وفى بغداد اشتغل الكندى بعلوم الأدب ثم بعلوم الفلسفة جميعها، إلى حد الإتقان. كذلك تعلّم لغات أخرى بما يشبع طموحه العلمى، إلى درجة أنه صار من أبرع التراجمة.

ولم يكد يترك فرعًا من فروع المعرفة، إلا وقد كتب فيه، إلى حد أن ابن النديم قَدَّر تصانيفه بحوالى مائتين وثمانية وواحد وأربعين كتابًا ورسالة. لم يبق منها سوى بضعة وخمسين تقريبًا، لكنها تمثّل طفرة فى تاريخ العلم عند المسلمين.

وقد احتل الكندى المكانة التى تليق به، من ناحية علمه ، ومن جهة نسبه وحسبه، فنال التقدير فى قصور الخلفاء واختاره"المعتصم بالله" مؤدبًا ومعلمًا لولده «أحمد»، وقد صارت بين الأستاذ والتلميذ مودة وصداقة.

وقيل إن دولة المعتصم كانت تتجمل به وبمصنفاته، وقد نتج عن هذه المكانة حُسّاد وخصوم، ومع أنه كان موسرًا وكان مهتمًا بالعلم والتأليف، ولا يناوئ أحداً، فإنه تعرض

للكيد والمؤامرة من أعداء المعرفة والتقدم، فوشوا به لدى «المتوكل» فغضب عليه، وأخذ منه مكتبته، ثم هيأ الله تعالى له الأسباب فاستردها واعتكف إلى أن وافته منيته أواخر عام ٢٥٢هـ رحمه الله تعالى.

كانت الفلسفة هى المشروع الفكرى والحضارى عند الكندى، ولا غرو أن يهجر علم الكلام المزدهر حينذاك على يد المعتزلة، بمجرد الاطلاع على شىءمن الفلسفة اليونانية المترجمة فى ذلك الوقت. وقد تفرغ لتحصيل الفلسفة والمساعدة فى ترجمتها، إلى أن أحاط بجميع مسائلها وفروعها، وهنا بدأ التأليف فيها.

ولأن كثيراً من المسلمين كانوا يتشككون فى الفلسفة، إذ يرون أنها تتعارض مع حقائق الدين، فقد اهتم الفارابى بتوضيح مفهوم الفلسفة والتوفيق بينها وبين تعاليم الدين، فهو يقول:

«إن أعلى الصناعات الإنسانية منزلة، وأشرفها مرتبة، صناعة الفلسفة التى حدُّها:

علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان؛ لأن غرض الفيلسوف فى علمه إصابة الحق، وفى عمله العمل بالحق».

وكان للكندى فضل السبق على مفكرى الإسلام فى مسألة التوفيق بين الدين والفلسفة، بالرغم من أنهم حاولوا ذلك من بعده. وكانت حجته فى التوفيق أن الفلسفة علم الحق، أو علم الأشياء بحقائقها ، وهذا لون من الحكمة، والحكمة ضالة المؤمن فهو أحق بأخذها أنّى وجدها.

لكنه ينعى على من يعارض الفلسفة وهو يجهل حقيقتها وفروعها؛ لأن الحكم على الشىء فرع عن تصوره ، ولابد للمعارضة من برهان.

فالفلسفة كما يرى الكندى - لا تتعارض مع الدين ، لكنها أيضًا لا تقوم مقامه ولا تغنى غناءه، فما هى إلا تنوير عقلى لفهم الدين الذى هو حق وصواب فى كل تعاليمه ، بعكس الفلسفة التى قد تصيب وقد تخطئ فى مسائل الاجتهاد .

ولابد من العلم بأن الفلسفة تتفق مع الدين فى الموضوع من حيث علم الأشياء بحقائقها، كما أنها تتفق معه فى الهدف ؛ لأن كلاً منهما يبحث عن الحق ويؤمن به، وعن الخير ويعمل به. هذا بالإضافة إلى أن كلاً من الدين والفلسفة يقدر العقل ويحض على إعماله.

ولم يؤثر عن الكندى أنه أتى برأى يعارض به أصلاً من أصول الدين ، ولذا فإنه لا يدخل تحت مرمى سهام الإمام الغزالى الذى كفّر الفلاسفة لقولهم: بقدم العالم، وبأن الله لا يعلم الجزئيات، وبأن البعث روحانى فقط.

ومن تمام القول فى المشروع الحضارى للكندى، أنه كان مسجلاً لحضارة عصره من جميع نواحيها. ولا مانع من وصفه بأنه فيلسوف الحضارة العربية والإسلامية فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى.

ومما تمتاز به فلسفة الكندى أنه كان يُخضع الحضارة بشقيها المادى والروحى للقيم الدينية والأخلاقية، حتى لا يطغى جانب على الآخر فتختل المثل، وتنحرف مسيرة الحياة لدى البشر.

كان الكندى غزير التأليف، وقد أشرنا إلى أن ابن النديم قد سجل له ٢٤١ كتابًا ورسالة، موزعة على ١٧ نوعًا من المعرفة، ولم يبق منها سوى بضعة وخمسين كتابًا، طبع منها بالفعل أربعون، ولا يزال الباقى مخطوطًا. وبعض هذه الكتب كان أشبه برسائل صغيرة لا تزيد صفحاتها على عشر.

وقد قام الأب «مكارثى» سنة ١٩٦٢م بجهد مشكور، حيث نشر بحثًا فى بغداد، عن مؤلفات الكندى بعنوان: «التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب» وهو يقع فى ١٢٢ صفحة.

فمن أراد الوقوف على أسماء مؤلفات الكندى فليرجع إلى ابن النديم فى الفهرست، وإلى ابن أبى أصيبعة فى عيون الأنباء، وإلى نشرة الأب مكارثى، ود. الأهوانى فى الكندى فيلسوف العرب.

لكن لا بأس من أن نورد نماذج من كتب الكندى التى طبعت ليسترشد بها طلاب البحث، ومنها:

١ - كتاب الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد.

٢ - كتاب ترتيب كتب أرسطوطاليس.

٣ - كتاب فى ماهية الشىء الذى لا نهاية له.

٤ - رسالة فى الإبانة أنه لا يمكن أن يكون جرم العالم بلا نهاية.

٥ - رسالة الترفق فى الصناعات.

٦ - رسالة فى أن العالم وكلّ ما فيه كُرّىّ الشكل.

٧ - رسالة الإخبار عن صناعة الموسيقى.

٨ - رسالة فى أن طبيعة الفلك مخالفة لطبائع العناصر الأربعة وأنه طبيعة خاصة.

٩ - رسالة فى سجود الجرم الأقصى لباريه.

١٠ - رسالة فى أن النفس جوهر بسيط غير داثر مؤثر فى الأجسام.

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

مراجع للاستزادة :

١ - دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام: ترجمة د. محمد أبو ريدة. ط٤ ،١٩٥٧م. لجنة التأليف والنشر والترجمة بالقاهرة .

٢ - روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ترجمة الدكتور أنيس فريحة - ط١٩٦١م بيروت .

٣ - د. عاطف العراقى : دراسات فى مذاهب فلاسفة المشرق. ط ١٩٦٣م ، دار المعارف بمصر.

٤ - عباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوروبية ط. ٢ . دار المعارف بالقاهرة

٥ - د. عبد الرحمن بدوى : دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى . ط١٩٦٧م . مكتبة الأنجلو المصرية .

٦ - د. عبد المقصود عبد الغنى : أضواء على الفكر الفلسفى . ط١٩٨٦م . مكتبة الزهراء بالقاهرة .

٧ - د. فيصل عون : الفلسفة الإسلامية فى المشرق . ط ١٩٨٢م. مكتبة الحرية الحديثة بالقاهرة .

٨ - مصطفى عبدالرازق : فيلسوف العرب والمعلم الثانى أ د. عبداللطيف العبد ص ٤٨، القاهرة ١٩٤٥م.

٩ - د. أحمد فؤاد الأهوانى: الكندى فيلسوف العرب ص١٦ وما بعدها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م. (سلسلة أعلام العرب - ١٠٨).

١٠- د. محمد أبو ريدة: الكندى وفلسفته، ص١٤، دار الفكر العربى، بالقاهرة، ١٩٥٠م.

١١- د. عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفى فى الإسلام، ص٢٠٩-٢١٤، دار المعارف بمصر ١٩٨٤م.

١٢- الكندى: رسائل فلسفية، ص ٣٧، تحقيق د. محمد أبو ريدة، دار الفكر العربى بالقاهرة ١٩٥٠م.

١٣- رسائل فلسفية ، ص ٣٧ ، ١٠٤.

١٤- د. الأهوانى : الكندى فيلسوف العرب، ص ٣١٣ وما بعدها.

الكوثـــرى
(١٢٩٦ - ١٣٧١هـ = ١٨٧٩ - ١٩٥٢م)

هو محمد زاهد بن الحسن بن على الكوثرى.

ولد الشيخ الكوثرى فى قرية (الحاج حسن أفندى) فى ضواحى (الآستانة)، يوم ٢٧ من شوال سنة ١٢٩٦هـ، تعلم مبادئ العلوم من شيوخ قرية (دوزجة)، ثم غادرها إلى الآستانة سنة ١٣١١هـ، والتحق بمدرسة الحديث، وأكمل تعليمه حتى حصل على شهادة العالمية، وبعد تخرجه عمل مدرسًا، وعارض الحكومة فى بعض آرائها، فتم إقصاؤه فترة عن التدريس، ثم عاد وعمل أستاذا فى (دار الشفقة الإسلامية)، كما انتخب عضوًا فى مجلس وكالة التدريس، وصار وكيلا لهذا المجلس، ثم رئيسا له، ثم أقيل، ورحل إلى مصر واتخذها مركزا لنشر أفكاره الإصلاحية.

وصل إلى القاهرة سنة ١٣٤١هـ، وعمل بتعريب الوثائق التركية فى دار المحفوظات المصرية، حتى توفى سنة ١٣٧١هـ.

ويعد الشيخ الكوثرى أحد علماء الإسلام فى القرن العشرين، جمع بين سعة العلم ودقة النظر، بين علم الرواية وعلم الدراية، كان بارزًا فى علم التفسير وعلم الحديث، بالإضافة إلى العلوم العقلية، له موقف سياسى عارَض فيه الاتجاه الذى ساد تركيا بتقليص حجم العلوم الإسلامية من المناهج الدراسية، ودافع عن ضرورة وجود القدر الكافى من هذه العلوم فى التعليم، عمل فى التدريس والإصلاح التعليمى والدينى والسياسى، وكان مثقفا بألوان من الثقافة العربية الإسلامية، وأجاد الكتابة بعدة لغات: العربية والتركية والفارسية.

ألّف الشيخ زاهد أثناء تواجده فى الآستانة مجموعة مؤلفات، أغلبها ما زال مخطوطا، أما مؤلفاته فى مصر فكانت الأكثر شهرة، وطبع أغلبها.

جمع الشيخ الكوثرى بين الجهاد والاجتهاد؛ جاهد جماعة الاتحاديين، الذين كان بيدهم أمر الدولة، عندما أرادوا أن يُضيِّقوا من حجم الدراسات العربية والدينية

فى مناهج التـعليم، ويقللوا زمنهـا، ودافع الشيخ زاهد ضد هذا، ورأى أن هذا تقصير يضـيع الدين واللغـة من عـقـول الأتراك، فجاهد فى سبيل إعادة العلوم إلى حجمها الأساسى فى المناهج حتى يتمكن طالب علوم الإسلام من استـيـعـاب وهضم العلوم، وخصوصا بالنسبة لأعجمى يتعلم بلسان عربى.

وتراجعت الحكومة بعض الشىء، ولكنها أعادت الأمر بعد ذلك، وسعت إلى إبعاده عن التدريس، كما عزل من منصبه، ولم يفرط فى مصلحة إرضاء لذى جاه، مهما يكن قويا مسيطرًا، وقَبِل أن يُعزَل من منصبه فى سبيل الاستمساك بالمصلحة، ورأى أن الاعتزال فى سبيل المصلحة خير من الامتثال للباطل.

وبعد الحرب العالمية الأولى، وتحول الدولة التركية إلى العلمانية رفض أن يرى بلده دار الإسلام الكبرى، ومقر الخلافة الإسلامية يُقصى الإسلام عنها؛ فاختار الهجرة بعد ما تأكد من فشل كل جهوده الإصلاحية فى بلاده، وأن جهاده لا يلقى الآذان الصاغية.

وقـد طالب حكومتـه أن يكون الدين الإسلامى هو دين الدولة، وأن يكون دستور حكومته، وأن لا تحل الأحكام الوضعية اللادينية محل أحكام شرع الله، حيث دلت نصوص الكتاب والسنة على أن دين الإسلام جامع لمصلحتى الدنيا والآخرة، ومحاولة فصل الدين عن الدولة كفر صارخ، وعداء موجه إلى الدين فى صحيحه.

وأشار الشيخ زاهد إلى أن العرب أكثر الشعوب اهتمامًا بكتابها المقدس، فلم يسبق أن أمة من الأمم فى تاريخ البشر عنيت بكتاب من الكتب قدر اعتناء أمة العرب بالقرآن الكريم حفظًا، ودراسة، وتدوينًا لكل ما له به صلة، منذ فجر الإسلام حتى اليوم، وإلى ما شاء الله.

وتحدث الشيخ زاهد الكوثرى عما عُرِف بالأحرف السبعة، ورأى أن القرآن نزل أولا بلسان قريش، ثم سهل على الأمة أن يقرؤوه بغير لسان قريش، وذلك بعد أن كثر دخول العرب فى الإسلام، فقد ثبت أن ورود التخفيف بذلك كان بعد الفتح.

والقراءات السبع هى قراءات متواترة، تعد أبعاض القرآن، إلا فى بعض مواضع نبه عليها أهل الاختصاص.

كما تناول الشيخ زاهد الكوثرى دراسة علم الحديث، وعرض لمسألة الأحاديث الضعيفة وحديث الجمل، وحديث معاذ بن جبل رضى الله عنه فى اجتهاد الرأى والقياس، وحديث «لا وصية لوارث»، وحديث «من تشبه بقوم فهو منهم»، كما تناول فى هذا العلم أحاديث

الأحكام، وأهم الكتب المؤلفة فيها، وتناوب الأقطار فى الاضطلاع بأعباء علوم السنة على مدى قرون، إن قصَّر فى ذلك قطر قام قطر آخر بواجبه، وأكبر الأقطار حظًا من العلوم، ما بين شرعية وعقلية وأدبية، بلاد العراق أثناء الدولة العباسية، ثم خلفتها فى حيازة العلوم الدولة المصرية، وللمغرب أيضا فضل لا ينكر.

ويُعَرِّف الشيخ زاهد الكوثرى الفقه بأنه هو معرفة الدين، ولا يتصور مغايرة علم الدين للدين، والفقه من العلوم الشريفة؛ لقول النبى ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين**».

ويرى أن تنازع الفقهاء ليس فى كل مسائل الفقه، بل اختلفوا فقط فى الربع من مسائل الفقه لتجاذب أدلة الأحكام، وتفاوت الأفهام، بعد اتفاقهم على ثلاثة أرباع المسائل، والدين ينص على أن المجتهد المخطئ برىء الذمة مأجور، والمجتهد المصيب يضاعف له الأجر، وأن الدين فى كتاب الله هو الطاعة لله فيما أمر به، من الاعتقاد الصحيح والعمل الصالح والخلق، فمن عرف الفقه عرف النفس ما لها وما عليها.

كما كانت له اجتهادات متعددة فى مجال الفقه، منها: رده على مسألة تعدد الزوجات والطلاق، فرأى أن حكم تعدد الزوجات فى الإسلام واضح، وأجلى من أن يشتبه فيه، وأهل الجاهلية كانوا يتزوجون من النساء ما شاءوا غير متقيدين بعدد محدود، وأهل الكتاب غير أهل التلمود كانوا يقتصرون على واحدة، فأتى الإسلام عدلا وسطا بين هذا وذاك، حيث أباح للرجل أن يتزوج أكثر من واحدة، وإن خاف ألا يعدل بينهن فيما يملكه من نفقة وكسوة ومبيت، لا فى الحب الذى لا يملكه ولا يستطيع أن يعدل فيه بنص الكتاب والسنة فواحدة، وتقدير ذلك إلى الزوج لا إلى شخص سواه.

كما تناول الشيخ زاهد الكوثرى بعض الأمور الاعتقادية من خلال عرضه لمسائل فى علم الكلام، فقد تحدث عن مسألة عقيدة التنزيه لله تعالى، ورأى أن هذه العقيدة هى ما آمن به المسلمون منذ فجر التاريخ، وعلى الرغم من ذلك لا يخلو الزمان من بعض الأشخاص الذين يتحدثون ببعض الشطحات فى هذا الأمر.

كما عرض لمسألة الخلود، أى دوام النعيم لأهل الجنة واستمرار العذاب لأهل النار، وأن هذا من الضروريات التى تعلمها من الدين، وقد ورد فى القرآن الكريم وحده من الأدلة نحو مائة آية فى الخلود، منها نحو ستين فى النار، وأربعين آية فى الجنة.

هذا بالإضافة إلى تناوله مسألة الجبر

والاختيار فى كتابه (الاستبصار فى التحدث عن الجبر والاختيار).

من مؤلفاته التى طبعت فى الآستانة أربعة فقط بالعربية، هى: النظم العتيد فى توسل المريد، إرغام المريد فى شرح النظم العتيد، الفوائد الكافية فى العروض والقافية، حنين المتفجع وأنين المتوجع، وهى قصيدة يشرح فيها ويلات الحرب العالمية الأولى، وله كتاب بالتركية هو (الروض الناضر الوردى)، وله بعض مؤلفات ألفها أثناء إقامته القصيرة بالشام.

أما مؤلفاته فى مصر فهى الأكثر والأشهر، وتتعدى العشرين كتابا، منها: صفعات البرهان على صفحات العدوان، الإشفاق على أحكام الطلاق، بلوغ الأمانى فى سيرة الإمام محمد بن حسن الشيبانى، التحرير الوجيز فيما يبتغيه المستجيز. وغيرها، بالإضافة إلى مقدماته وتعليقاته على أكثر من ثلاثين كتابا، ومقالات هامة فى موضوعات متعددة نشرها فى (مجلة الإسلام) و(الشرق العربى).

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١- أبو زهرة (الشيخ محمد) الإمام الكوثرى، مقال ضمن كتاب - مقالات الكوثرى، المكتبة الأزهرية للتراث، سنة ١٩٩٤م.

٢- إسماعيل (الشيخ محمد) مقالة (صاحب السماحة والفضيلة الشيخ الكوثرى) نشر فى مجلة (نور الإسلام)، ومجلة (النذير)، ومجلة (المسلم) و(الوسيلة) و(الرسالة) وأيضا كتاب (مقالات الكوثرى).

٣- الكوثرى (الشيخ محمد زاهد) : مقالات الكوثرى، المكتبة الأزهرية للتراث، سنة ١٩٩٤م.

٤- ولى (عبدالرحمن شاه) محمد زاهد الكوثرى، مجلة الدراسات الإسلامية، عدد ٣ مج ٦ من سبتمبر سنة ١٩٧١م، ص ٧٣.

الماتريـــدى
(٠٠٠ - ٣٣٣هـ = ٠٠٠ - ٩٤٤م)

هــو محمــد بــن محمــد بــن محمود، أبو منصــور الماتريدى، لُقِّب بإمــام الهــدى، وإمــام المتكلمين، ورئيس أهل السنة، والإمــام الزاهد، كمـا لُقِّب بالماتـريدى نسبـة إلى بلدته (ماتريد) أو (ماتريت) بالقرب من سمرقند.

لم تمدنـا المصــادر بالشـىء الكثـيــر عن حـياته وأسـرته، ويقـال إنه ولد حـوالى سنة ٢٣٨هـ، ويقــال إنه توفى سنـة ٣٣٣هـ ودفن بسمرقند.

يحـتل الماتريدى مكانـة كـبـيـرة فى تـاريخ الفكر الإسـلامى، فهو مؤسس مـدرسـة فكرية فى علم العقـائد هـى المدرسة الماتريدية، التى انتشـرت فى بلاد ما وراء النهر، وتقاسمت مع المدرسة الأشعرية العالم الإسلامى.

تميَّـز المنهج الماتريدى بعـدة سمـات، منهـا: التوسط بين العقل والنقل ، النظرة الكليـة فى ربط الجــزئيـات بالكلِّيــات، ورد المســائل الفرعية إلى الأصول، ويتضح هذا فى منهجه أثناء معـالجته لموضوعـات أصول الدين، وأثنـاء الربط بين المسائل الفـرعيـة الفـقـهيـة بأصـول وأحكام فقهية عامة.

ومن سـمــات هذا المنهج أيضـًا الربط بين الفكر والعمل، والاهتمام بالتعريف، حيث وجد أن أكثر المشكلات التى وقع فيها علماء الكلام تعود إلى اختـلافهم حول المفهوم الواحد، كما امتاز منهجـه بالنقد، فكان حـريصـًا على نقد الآراء التى تخالفه ليبين مواطن الضعف فيها:

(أ) المعرفــة:

يُعَـدّ الماتريدى فـى مـقـدمـة علمـاء الكلام الذين بحـثـوا نظرية المعـرفة بطريقـة علميـة منظمـة، تبـدأ من التـعـريف وأنواع المعـرفـة، والفرق بين العلم وغيره من أنواع المعارف.

ويقـسم المعـرفـة إلى ثلاثـة أنواع: مـعـرفـة أوليـة، تحـدث للإنسـان من جهـة قوته العقلية المجــردة، ومــعـــرفــة ضـــرورية، تتم بـالنظرة العقليـة المباشـرة، ومعـرفـة مكتسبـة تأتى عن طريق الاستدلال.

(ب) العالــم:

كـمـا حـرص الماتريدى على تنـاول مـبـحث العالم لإثبات حدوثه، والعالم ينقسم عنده إلى جواهر وأعراض. الجوهر هو المكوِّن للجسم، والعــرَض صـفــة له. والجــسم عنده مــركب

وحادث، والعرَض صفة تلحق بالجسم ولكنه لا يبقى إذ إنه مرتبط بلحظة خلقه، والعرض أقسام، منه ما يختص بالإدراكات كالمحسوسات، ومنه ما يختص بالأكوان كالحركة والسكون.

وقد دافع الماتريدى عن قضية حدوث العالم، ورد على منكريه ممن أثبتوا أن العالم قديم، ووضع أدلة لإثبات الحدوث، من خلال طرق: الخبر (القرآن والسنة) والحس، والعقل.

(جـ) الإلهيات:

قدم الماتريدى أدلة لإثبات وجود الله قائمة على فكرة الحدوث، والنظر فى أحوال العالم، والنظر فى خلق الإنسان، كما أثبت الوحدانية لله تعالى مستشهداً على ذلك بأدلة عقلية، وأخرى نقلية.

وحدَّد الصفات الإلهية وقسمها إلى صفات ذات، وأخرى أفعال، قائلا: إن بينهما وحدة. ودلل على قدم الصفات الإلهية، ومن هذه الصفات: صفة التكوين، وصفة العلم، وصفة الكلام، وصفات الحياة والسمع والبصر.

كما عرض لجواز رؤية الله تعالى يوم القيامة، وأجاز هذه الرؤية لأن كل موجود يمكن رؤيته. والشىء المستحيل رؤيته هو فقط المعدوم، ولما كان الله موجوداً، كان فى الإمكان رؤيته، ولا تعنى الرؤية الإحاطة.

وتناول مسألة الفعل الإلهى، ورفض الماتريدى مفهوم الوجوب الذى يضعه المعتزلة للفعل الإلهى، ورأى أن الله يفعل باختيار لا وجوب عليه، كما نقد المعتزلة فى فكرتهم أن الله يفعل ما هو أصلح، كما رفض فكرة العوض، وغيرها من أفكار حاول المعتزلة نسبتها إلى الفعل الإلهى.

(جـ) الإنسان:

درس الماتريدى الفعل الإنسانى، وعارض كلاً من المذهب الجبرى، والمذهب القدرى،وبيَّن فسادهما، ورأى أن الأفعال الإنسانية مخلوقة للإنسان على صورة الكسب، فالأفعال لله خلقا وإيجادا، وللعباد كسبا، وأن القول بالكسب لا يؤدى إلى تشابه فى الخلق ولا يوجب مشاركة بين الله والعبد، وإضافة الفعل إلى الله من جهة التحقيق وإلى العبد من جهة المجاز.

وقد نقد الماتريدى بعض الأفكار الاعتزالية فى عدم إمكان الله أن يكلف العبد ما لا يطيق، ورد عليهم فى تصورهم للفعل المتولد - أى الفعل غير المباشر - وعارضهم فى فكرة خلق الآجال، والأرزاق، والهداية، والتوفيق، والإضلال، والخذلان، والختم.

(د) السمعيات:

تناول الماتريدى عدة موضوعات تحت باب السمعيات، فى مقدمتها موضوع النبوة، حيث

عرض لها مُفَرِّقًا بين النبى والرسول، وشرح المقصود بالمعجزة التى هى آية صدق للأنبياء وتكلم عن عصمة الأنبياء، والعصمة كما يراها لا تزيل المحنة والابتلاء، فهى لا تكون إلا إذا كان أمر ونهى، وهى لطف من الله يحمل النبى على فعل الخير، ويبعده عن الشر مع بقاء الاختيار له.

كما تناول فى هذا الموضوع مسألة كانت مثارة حينئذ حول (مرتكب الكبيرة)، ما اسمه وما حكمه فى الدنيا والآخرة، وعارض رأى من أسماه كافرًا أو مشركًا، وعارض موقف المعتزلة القائل: إنه فاسق، وقال الماتريدى: إن مرتكب الكبيرة مؤمن، وله الشفاعة والاستغفار، وتقبل توبته.

وتنقسم مؤلفات الماتريدى إلى ثلاثة أقسام رئيسية، هى: التفسير، وعلم الكلام، وأصول الفقه.

من مؤلفاته فى التفسير: كتاب تأويلات أهل السنة أو (تأويلات القرآن). ويُعَدّ من التفاسير الوسيطة، وهو كتاب مشهور لدى الماتريدية ولا يوازيه عندهم غيره.

وفى علم الكلام، له كتاب (التوحيد)، ويُعَدّ أهم مؤلفاته الكلامية، وضع فيه نظرياته الكلامية، وشرح تصوراته لأهم المسائل الاعتقادية، وصار الكتاب الأساسى لمعرفة عقيدة الماتريدية لكل من جاء بعده، وتنسب له كتب أخرى فى علم الكلام، مثل كتاب (المقالات)، وكتاب (بيان وهم المعتزلة)، وكتاب (رد تهذيب الجدل)، وكتاب (رد وعيد الفسّاق)، وكتاب (رد أوائل الأدلة)، وكتاب (رد الأصول الخمسة)، وكتاب (الرد على القرامطة)، وكتاب (رد الإمامة).

ومن مؤلفاته فى علم أصول الفقه، كتابان: الأول: مأخذ الشرائع، والثانى : الجدل. ولم يعثر على أى نسخة منهما.

أ. د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة :

١- أبو عذبة: الروضة البهية فيما بين الأشاعرة والماتريدية، حيدر آباد الدكن - سنة ١٣٢٢هـ.
٢- البزدوى (أبو اليسر): أصول الدين، تحقيق هانز بيترلنس، القاهرة سنة ١٩٦٣م.
٣- الحربى (أحمد بن عوض): الماتريدية، دراسة وتقويما - دار العاصمة، السعودية سنة ١٩٩٢م/ ١٤١٣هـ.
٤- الماتريدى (أبو منصور): تأويلات أهل السنة، تحقيق إبراهيم عوضين، والسيد عوضين. وهو تحقيق لجزء من الكتاب الأصلى. نشر القاهرة ١٣٩١هـ.
٥- الماتريدى (أبو منصور) التوحيد، تحقيق د. فتح الله خليف، بيروت سنة ١٣٩٠هـ.
٦- مصطفى (أحمد ضياء الدين) جامع المتون فى حق أنواع الصفات الإلهية والعقائد الماتريدية - دار الطباعة مصر، سنة ١٢٧٣هـ.
٧- المغربى (د. على عبد الفتاح): إمام أهل السنة والجماعة، أبو منصور الماتريدى، مكتبة وهبة القاهرة، سنة ١٩٨٩م.

ابــن مـاجــه
(٢٠٩هـ - ٢٧٣هـ = ٨٢٤ - ٨٨٧م)

هو الإمام أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الرَّبَعى القزوينى، و«ماجه» ليس جده، وإنما هو لقب أبيه يزيد؛ لأن أغلب المترجمين له قالوا: محمد بن يزيد بن ماجه، واشتهر بذلك، و «القزوينى» نسبة إلى إقليم قزوين، لأن به مولده ونشأته.

ولد سنة تسع ومائتين من الهجرة، الموافق ٨٢٤م ونشأ محبّاً للعلم، فتوجَّه بهمة عالية إلى مجالس العلماء وحلقاتهم يأخذ عنهم، ويتعلم منهم، فسار على الدرب الذى سار عليه من سبقه من أئمة الحديث إقبالا على العلم، وتدوينًا للسنة النبوية. ونمَّى ثروته العلمية بتتبع مدارس الحديث المختلفة فى بلاد طوف بها، فأخذ عن علمائها واستفاد من مناهجها، وكانت نشأة ابن ماجه قائمة على أساس من العلم والعمل والأخذ والعطاء، فتعلَّم وحصَّل، وعمل بما علم، فكان تقيّاً ورعاً مخلصا فى رسالته، ودرس وحفظ وألف ودوّن، ولم يقتصر نشاطه العلمى على التأليف بل تعداه إلى التدريس والتعليم، وكان له تلاميذ رووا عنه.

وقد حصَّل الكثير حتى أصبح إماماً فى الحديث عارفا بعلومه، وجميع مايتعلق به.

وبعد حياة حافلة بالعلم والعمل، ممتلئة بالبحث والتأليف، توفى ابن ماجه فى ٢٢ من رمضان سنة ٢٧٣ هـ الموافق ٨٨٧م، وصلى عليه أخوه أبو بكر، وتولى دفنه أخواه أبو بكر وعبد الله، وابنه عبد الله.

أما عن حيات العلمية فقد قام ابن ماجه برحلات علمية كان من نتائجها تدوين الكثير من الأحاديث إلى جانب ماجمعه من بلده، فطوَّف بكثير من الأقطار والبلاد. فرحل إلى العراق، والحجاز، والشام، ومصر، وغيرها من البلاد، ولقى كثيرًا من أئمة الحديث، وسمع من أصحاب مالك والليث حتى أصبح إمامًا من الأئمة الأعلام، وقد شهد له بالثقة والحفظ كثير من الأئمة.

قال أبو يعلى الخليل بن عبدالله القزوينى: ابن ماجه ثقة كبير، متفق عليه، محتج به، له معرفة وحفظ، ووصفه الذهبى بأنه الحافظ الكبير المفسر.

وقد أثنى العلماء عليه، فقال الخليلى: «ابن

ماجه ثقة كبير متفق عليه، محتج به، له معرفة وحفظ».

وقال الذهبى: «الحافظ الكبير المفسر صاحب السنن والتفسير ومحدث تلك الديار».

وقال ابن كثير: «صاحب كتاب السنن المشهورة، وهى دالة على عمله وعلمه، وتبحره واطلاعه، واتباعه للسنة فى الأصول والفروع».

وقد أتاحت لابن ماجه رحلاته العلمية التى اتسمت بالهمة العالية فى تدوين الحديث أن يلتقى بكثير من شيوخ البلاد الذين أخذ عنهم، فسمع من أبى بكر بن أبى شيبة، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وجبارة بن المغلس، وهشام ابن عمر، ومحمد بن بشار، وعمر بن عثمان بن سعيد، وإبراهيم بن المنذر الحزامى، وعبد الله بن معاوية، والعباس بن الوليد وغيرهم من أئمة الحديث.

وروى عنه: على بن سعيد بن عبد الله، وإبراهيم بن دينار الجرش الهمدانى، وأحمد ابن إبراهيم القزوينى، وسليمان بن يزيد القزوينى، ومحمد بن عيسى الصفاء، وأبو عمرو أحمد بن محمد بن حكيم المدنى الأصبهانى، وغيرهم.

ولابن ماجه مؤلفات كثيرة، منها:

١ - تفسير القرآن الكريم: وهو تفسير حافل كما قال ابن كثير.

٢ - كتاب التاريخ: أرَّخ فيه من عصر الصحابة إلى وقته.

٣ - كتاب السنن المتداول الآن، وهو أحد الكتب الستة.

وهو من أعظم مؤلفاته والمعروف بسنن ابن ماجه.

وقد عد العلماء سنن ابن ماجه سادس الكتب الستة، وأول من أعدها الحافظ أبو الفضل القيسرانى فى كتابه «أطراف الكتب الستة»، ثم تابعه من جاء بعده من العلماء.

وقد قدم هؤلاء العلماء سنن ابن ماجه على «موطأ» مالك - مع أن الموطأ فى درجة الصحيحين - لكثرة زوائد سنن ابن ماجه على الكتب الخمسة، بخلاف الموطأ فإن أحاديثه - إلا القليل منها - موجودة فى الكتب الخمسة.

وخلاصة القول فى سنن ابن ماجه: أنه يشتمل على الصحيح، والحسن، والضعيف، وأن على الباحث والمستدل أن لا يأخذ بحديث منها إلا بعد التحرى ومعرفة درجته.

أ.د. أحمد عمر هاشم

مراجع للاستزادة:

١ - كشف الظنون، ٢ / ١٠٠٤.
٢ - مرآة الجنان لليافعى، ٢ / ١٨٨.
٣ - تهذيب التهذيب، ٩ / ٥٣١.
٤ - تاريخ الأدب العربى، ٣ / ١٩٩.
٥ - أعلام المحدثين ص ٢٨٥.
٦ - مقدمة ابن الصلاح ص ٤٢.
٧ - تذكرة الحفاظ ٢/١٨٩.
٨ - شروط الأئمة الستة للقيسرانى ص ١٦.
٩ - تهذيب الكمال للمزى.

مالك بن أنس
(٩٣ - ١٧٩ هـ = ٧١٢ - ٧٩٥ م)

هو مالك بن أنس بن مالك بن أبى عامر ابن عمرو، الأصبحى المدنى، إمام دار الهجرة. أحد الأئمة الأربعة، وإليه ينسب المالكية. ويكنى بأبى عبد الله. والأصبحى - بفتح الهمزة وسكون الصاد وفتح الباء الموحدة - نسبة إلى ذى أصبح. واسمه الحارث من أجداد مالك.

ولد رحمه الله تعالى بالمدينة سنة ٩٣ هـ ، ولما شب حفظ القرآن، ومالت نفسه إلى طلب العلم.

ويحدث مالك عن ذلك فيقول: قلت لأمى: أأذهب، فأكتب العلم؟ فقالت: تعال فالبس ثياب العلم، فألبستنى ثيابا مشمرة، ووضعت الطويلة على رأسى، وعممتنى فوقها. ثم قالت: اذهب فاكتب الآن. وكانت تقول: اذهب إلى ربيعة، فتعلم من أدبه قبل علمه.

وكان مالك يختلف إلى ربيعة الرأى وإلى عبد الرحمن بن هرمز يسمع منهما ويسألهما، كما أخذ القراءة عن نافع بن أبى نعيم، وسمع الزهرى ونافعا مولى ابن عمر.

ولقد صبر مالك على طلب العلم ولاقى فى سبيل ذلك الشدائد.

قال ابن القاسم: أفضى طلب العلم بمالك إلى أن نقض سقف بيته فباع خشبه، ثم مالت إليه الدنيا بعد ذلك.

وقد نبغ مالك فى علوم شتى، وخاصة: الحديث والفقه، وقد روى عنه أنه قال: كتبت بيدى مائة ألف حديث.

وقال أيضا: كنت آتى سعيد بن المسيب وعروة، والقاسم، وأبا سلمة، وحميدا، وسالما: فأدور عليهم أسمع من كل واحد، من الخمسين حديثا إلى المائة ثم أنصرف، وقد حفظت ذلك كله، من غير أن أخلط حديث هذا، بحديث هذا. قال ابن عيينة: ما رأيت أجود أخذًا للعلم من مالك، وما كان أشد انتقاءه للرجال والعلماء.

وقال أيضًا: دارت مسألة فى مجلس ربيعة، وتكلم فيها ربيعة، فقال مالك: ما تقول يا أبا عثمان؟ فرد عليه ربيعة ردا ما يسر أحدًا أن يقال له، ومالك ساكت، احترامًا

لشيخه، ثم انصرف، وجاء وقت الظهر، فصلى بالمسجد، وجلس وحده بعيدا عن مجلس ربيعة، فجلس إليه قوم فحدثهم، وبعد صلاة المغرب اجتمع إليه خمسون أو أكثر، فحدثهم، فلما كان الغد، اجتمع إليه خلق كثير ثم صار يجلس إلى الناس يحدثهم، وهو ابن سبع عشرة سنة، وعرفت له الأمانة فى النقل والرواية، وبالناس يومئذ حياة ويقظة.

قال ابن عبد الحكم: أفتى مالك مع يحيى ابن سعيد، وربيعة، ونافع وهم شيوخه.

وقال مصعب: كان لمالك حلقة فى حياة نافع أكبر من حلقة نافع.

وكان مالك يقول: «ما جلست للفتيا والتعليم حتى شهد لى سبعون شيخا من أهل العلم».

وقال: «لا خير فيمن يرى نفسه بحالة لا يراه الناس لها أهلا».

وكان مالك معروفا بالصلاح والتقوى، يشهد الصلوات والجنائز ويعود المرضى ويقضى الحقوق، ويجلس فى المسجد، فيجتمع إليه أصحابه. فيعطى كلا مسألته، وكان شديد التحرى فى حديثه وفتياه، لا يحدث إلا عن ثقة، ولا يفتى إلا عن يقين.

وكان مجلسه مجلس وقار وحلم، فقد كان مهيبا نبيلا جليلا، لا يعترى مجلسه شىء من المراء واللغط. ولا رفع الصوت.

وحسبك فى مهابته وجلاله: أن هارون الرشيد الخليفة العباسى كتب إليه ليأتيه فيحدثه. فقال مالك: العلم يؤتى. فقصد الرشيد إلى منزله، فجلس واستند إلى الجدار. فقال مالك: يا أمير المؤمنين، إن من إجلال رسول الله ﷺ إجلال العلم. فجلس بين يديه مستويا فحدثه.

وعرف عن مالك أنه كان إذا أراد أن يحدث توضأ وجلس على صدر فراشه، وسرح لحيته، وتمكن فى جلسته. فسئل عن ذلك؟ فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ.

وكان لا يركب فى المدينة، حتى مع تقدم سنه وضعفه، ويقول: لا أركب فى مدينة دفنت فيها جثمان رسول الله ﷺ.

كان مالك لا يقول إلا ما يعتقد:

سئل يوما عن يمين المكره؟ فقال: لا تلزم، فوشى به إلى جعفر بن سليمان والى المدينة عم المنصور العباسى. وقالوا: إن مالكا لا يرى أيمان بيعتكم لازمة، فاستدعاه وجرده وضربه سبعين سوطا، انخلعت فيها كتفه. وكأنما كانت هذه السياط تيجان مجد، وأوسمة شرف، فقد علت منزلته فى نفوس الناس، وازداد قدره عندهم.

استند مالك فى مذهبه على الكتاب

والسنة والإجماع والقياس، إذا لم يكن هناك نص من كتاب أو سنة. ويعطى عمل أهل المدينة أهمية كبرى، ولا سيما أئمتهم، وفى مقدمتهم: أبو بكر وعمر.

وقد يرد الحديث لأنه لم يجر عليه العمل، ويقول: إن عدم عمل أهل المدينة به دليل على أن هناك ما ينسخه.

ونازعه فى ذلك كثير من فقهاء الأمصار. ومنهم الليث بن سعد المصرى. ويقول مالك: بالمصالح المرسلة، وهى أمور لم يشهد لها من الشرع دليل ببطلان أو باعتبار، وذلك كضرب المتهم بالسرقة للاستنطاق، أجازه مالك، لأن مصلحة المسروق منه تقتضيه.

ومنها: طلاق المفقود زوجها، إذا تضررت بالعزوبة وانتظرت أربع سنين بعد انقطاع خبره. يطلقها الحاكم على زوجها المفقود عند مالك، ثم تتزوج. أخذ فى ذلك برأى عمر رضي الله عنه.

ومن ذلك: عدة المطلقة ونفقتها - تدعى عدم الحيض - قال مالك: تعتد ثلاثة أشهر، ثم تنتظر تسعة أشهر مدة الحمل، فالمجموع سنة، ولا نفقة لها أكثر من ذلك. وله غير ذلك.

تتلمذ لمالك: جمهرة من أكابر العلماء. وما عرف عن عالم تتلمذ له من شيوخه وأكابر أقرانه ما عرف عن مالك.

وقد عدّ القاضى عياض من تتلمذ له من هؤلاء وهؤلاء، فنيفوا على الألف من مشاهير العلماء، سوى من لم يشتهر ولم يعرف.

فمن شيوخه الذين رووا عنه: محمد بن مسلم الزهرى، وقد مات قبل موت مالك بخمس وخمسين سنة، وربيعة بن عبد الرحمن. وقد توفى قبل مالك بثلاث وأربعين سنة، وموسى بن عقبة، وهشام بن عروة، ونافع بن أبى ذئب، وعبد الملك بن جريج، ومحمد بن إسحاق صاحب المغازى، وسليمان ابن مهران الأعمش.

ومن أقرانه: سفيان بن سعيد الثورى. والليث بن سعد المصرى، والإمام الشافعى والأوزاعى، وحماد ابن زيد. وسفيان بن عيينة، وحماد بن سلمة، وأبو حنيفة، وابنه حماد، وأبو يوسف القاضى، وشريك بن عبد الله القاضى.

وبعدهم: عبد الله بن المبارك، ومحمد بن الحسن، وموسى بن طارق القاضى، والوليد ابن مسلم.

ومن أصحابه: عبد الله بن وهب، وعبدالرحمن بن القاسم، وأشهب بن عبدالعزيز، وزيادة بن عبدالرحمن القرطبى، ويحيى بن يحيى بن كثير الليثى، وأبو الحسن على بن زياد التونسى، وأسد بن الفرات، وعبد الملك بن عبد العزيز الماجشون.

أما عن أشهر مؤلفات مالك فهو كتاب الموطأ.

وسبب تأليفه: أن أبا جعفر المنصور قال لمالك: ضع للناس كتابا أحملهم عليه، وجنبه شدائد عبد الله بن عمر، ورخص عبد الله ابن عباس، وشواذ عبد الله بن مسعود.

فقال مالك: إن أصحاب الرسول ﷺ تفرقوا فى البلاد، فأفتى كلٌ فى مصره بما رأى.

ويروى: أن الذى كلمه فى ذلك: هو المهدى، وأن مالكا أبى أن يحمل الناس على مذهبه، ثم وضع الموطأ.

وقال أبو زرعة: لو حلف رجل بالطلاق على أحاديث مالك التى فى الموطأ، أنها كلها صحاح: لم يحنث.

ولمالك مؤلفات جليلة مروية عنه، أكثرها بأسانيد صحيحة غير الموطأ. من أشهرها: رسالته فى القدر والرد على القدرية، وهى تدل على سعة علمه.

ومنها: كتابه فى النجوم، وحساب مدار الزمان.

ومنها: كتاب فى الأقضية فى عشرة أجزاء.

ورسالة: إلى أبى غسان محمد بن المطرف فى الفتوى.

رسالته المشهورة: إلى هارون الرشيد فى الآداب والمواعظ. وكتابه فى تفسير غريب القرآن. ورسالته: إلى الليث بن سعد فى إجماع أهل المدينة. وغيرها.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - الديباج ؛ ١/١٧- ٢٠.

٢ - وفيات الأعيان لابن خلكان ١/٤٣٩.

٣ - الأعلام ج ٥/ ٢٥٧.

٤ - تاريخ التشريع للخضرى ص ١٤٨.

٥- تهذيب التهذيب ١٠/٥.

٦- صفة الصفوة ٢/٩٩.

٧- دليل السالك إلى موطأ الإمام مالك وشرحه.

٨- الانتقاء فى فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء.

٩- جامع الأصول جـ١.

١٠- مفتاح السنة.

مالك بن نبى
(١٩٠٥ - ١٩٧٣م)

مالك بن نبى ـ هو أحد المفكرين المغاربة القلائل الذين كان لهم حضور فى المشرق العربى. خلال الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين وقد كانت السياسات الاستعمارية (الفرنسية فى الغرب، والإنجليزية فى الشرق) تحرص على تمزيق العلاقات القومية بين أجزاء العالم العربى من المحيط إلى الخليج، باتباع نهج سياسى معين يتمثل فى فرض واقع الغربة اللسانية، بتعميم اللغة الفرنسية فى المغرب بأقسامه المعروفة (المغرب، والجزائر وتونس وموريتانيا)، وكانت فرنسا تحلم بفرنسة هذه البلدان، تمهيدا لإدماجها فى كيانها بصورة نهائية، وقد قطعت فى هذه السبيل شوطا بعيدا. وكذلك فعلت بريطانيا، أو حاولت أن تفعل بنشر لسانها الإنجليزى.

ومهما سجل التاريخ من جهود الدولتين فى تذويب الشخصية العربية فى محلول (آرى لاتينى) ـ فإن كل الجهود باءت بالفشل، وسرعان ما علت نبرة الكفاح والتحرر الوطنى، ورجعت الأوطان العربية المسلمة إلى اللسان العربى، وإلى الهوية الإسلامية.

والناظر إلى شخصية (مالك بن نبى) يجد أنها قد جسدت هذه المراحل كلها. فهو قد ولد عام ١٩٠٥، إبان الاحتلال الفرنسى للجزائر، فى مدينة (تبسَّه) Tbeessah، شرقى الجزائر، وأمضى سنى تعليمه الأولى فى المدارس الفرنسية، حتى حصل على الثانوية من مدارس قسنطينة، ثم شد الرحال إلى باريس، حيث التحق بكلية الهندسة، ليتخرج فيها مهندسا كهربائيا.

ولقد سألته ذات يوم عن السر فى هذا التحول عن المهنة التى تخصص فيها إلى الاشتغال بالعمل الفكرى ـ فقال لى: نظرت فوجدت أن بلادى بحاجة إلى مهندس لأفكارها أكثر من حاجتها إلى مهندس كهربى. ويبدو أن مالكا قد تخرج مهندسا فى أواخر العشرينيات من القرن العشرين، وأنه أكب على دراسة العلوم الاجتماعية، وقراءة المراجع التاريخية والأنثروبولوجية، خلال الثلاثينيات، كما كان قد درس مجموعة من أعمال المستشرقين حول الإسلام، وحول شخصية النبى ﷺ، حتى إنه اندمج فى المشكلة الدينية، وكأنه كان يهيىء نفسه للقيام

بدور للدفاع عن الإسلام، وتأكيد صدق الوحى القرآنى، وهى القضية التى شغلت أكثر المستشرقين ليثبتوا عكسها.

ولعل الدافع الأساسى الذى دفع مالكا فى هذا الاتجاه ما كان يكنه من إعجاب عميق بالشيخ عبد الحميد بن باديس. الذى كان يمثل رمزا للعمق التاريخى الذى ينتمى إليه الشعب الجزائرى، رغم محاولات الفرنسة المستمرة.

وأكاد أقطع بأن كتابه (الظاهرة القرآنية) كان أول محاولة له على طريق الكتابة الإسلامية، وقد سجل على غلاف طبعته الفرنسية صفته باعتباره (مهندسا).

وأذكر أنى عندما بدأت أترجم هذا الكتاب - لفت نظرى عبارة لمالك فى السطور الأولى من المقدمة يقول فيها :

«لم يتح لهذا الكتاب أن يرى النور فى صورته الكاملة، فلقد أعدنا تأليف أصوله التى أحرقت فى ظروف خاصة».

وسألته عما يقصد بهذه العبارة - فذكر لى أنه فكر فى تأليف هذا الكتاب خلال فترة اعتقاله فى الأربعينيات، وأنه انتهى من تأليفه (أو تأليف أصوله) فى السجن. وحين جاءت إحدى جاراته البارسيات لتزوره حملها الملف الخاص بالكتاب، فأخفته فى طيات ملابسها حتى لا يقع فى يد إدارة السجن، وخرجت به، وأودعته فى مكان أمين فى انتظار خروج صاحبه من السجن، ولكنها بعد أيام شعرت بأن قوة بوليسية جاءت للتفتيش، فسارعت إلى الملف، وألقت بأصول الكتاب فى فرن المدفأة فأحالته رمادا، وخرج مالك من السجن، وبلغه الخبر المزعج، فاستجمع همته، وعكف على تأليف الكتاب مرة أخرى من الذاكرة، ولم يفته أن يشير إلى هذه الواقعة المثيرة.

إن هذا يدلنا على أن محاولة تأليف (الظاهرة القرآنية) كانت مبكرة فى حياة مالك، وقد تعرَّف فى باريس على الصديق الشيخ محمد عبد الله دراز - الذى كان يدرس بالسوربون تخصص الفلسفة - حوالى عام ١٩٤٧م.

وحين نجحت التجربة الأولى، ونشر الكتاب الأول - أغراه النجاح بالاستمرار، فكتب (شروط النهضة الجزائرية) - الذى تحول فى الترجمة العربية إلى (شروط النهضة) الإسلامية - ولعل ذلك كان فى أوائل الخمسينيات، وتبعه كتابه القيم (وجهة العالم الإسلامى)..........

وكل ذلك كان باللغة الفرنسية، وهى لغة الدراسة والكتابة، والحديث».

ولا مجال للتساؤل هنا عن علاقة مالك باللغة العربية، فقد كان عالمًا معزولا تماما

عن العرب والعربية، وقد حال الاستعمار الفرنسى بين الشعوب المغربية بعامة، والشعب الجزائرى بخاصة - وبين الاتصال باللسان العربى بأى صورة. وهذا هو الذى يدعونا إلى تقرير حقيقة هى: أن مالكا حين لقيته أول عام ١٩٥٧م لم يكن يعرف شيئا قليلا أو كثيرا من اللغة العربية، اللهم إلا بضع كلمات من اللهجة الجزائرية.

وقد كان يعيش منذ بداية دراسته الجامعية - فى وسط فرنسى، وبلغة فرنسية، ومع زوجة فرنسية، وقلم فرنسى.

ولا شك أنه قد شعر بأن اتجاهه إلى التأليف والكتابة، لا قارئ له فى الوسط الفرنسى، وإن كان محررا بالفرنسية. فشد رحاله إلى مصر حوالى عام ١٩٥٥م، إبان انعقاد مؤتمر باندونج، وقد كان يؤذن بولادة اتجاه جديد، هو عالم (الحياد الإيجابى)، وكان للقاهرة دور كبير فى تلك الحركة السياسية العالمية التى تزعمها الثلاثة الزعماء: (نهرو - سوكارنو - عبد الناصر).

وعكف مالك على وضع كتابه عن أثر مؤتمر باندونج فى خلق الاتجاه الإفرسيوى، وكان ذلك بعنوان ·فكرة الإفريقية الآسيوية فى ضوء مؤتمر باندونج)، وطبعته مصلحة الاستعلامات فى سلسلة (دراسات مختارة) - باللغة الفرنسية.

ومع تعدد المحاولات الفكرية فى الأعمال التى قدمها - فإن أحدا لم يعرف عنها شيئا، فقرَّاء الفرنسية فى مصر قليلون، وحينئذ كان لابد من الاتجاه إلى اللغة العربية، عن طريق التماس، من يقوم بترجمة هذه الكتابات المهمة والمتنوعة.

وهكذا كان ميلاد مالك فى اللغة العربية، وفى الحياة العربية أيضا.

ولم يسبق مالكا أحد من الكتاب والأدباء والمفكرين الجزائريين إلى الساحة العربية، لاسيما وأن مجموعة كتبه التى ترجمت أواخر الخمسينيات - قد ظهرت تباعا.

ولذلك صادفت كتبه المترجمة (شروط النهضة - فكرة الإفريقية الآسيوية - الظاهرة القرآنية - وجهة العالم الإسلامى - مشكلة - الثقافة - ميلاد مجتمع - الصراع الفكرى فى البلاد المستعمرة) وقد قام بترجمتها كلها - كاتب هذه السطور - صادفت هذه الكتب رواجا غير عادى، لانفرادها بالسوق الإسلامية من ناحية، ولتشجيع المؤسسات الحكومية لها من ناحية أخرى، وبخاصة وزارتا الأوقاف، والتعليم، وقد ظهرت ترجمة كتاب (الظاهرة القرآنية) بمقدمة رائعة كتبها المرحوم الأستاذ محمود محمد شاكر (عن إعجاز القرآن) مع ما ظفرت به من تحقيق وتعديل الأخطاء الاستشراقية، وما زال هذا

الكتاب يصدر فى طبعات متوالية، ومن جهات عديدة، على مدى الخمسة والأربعين عاما الماضية. كما صدرت ترجمة كتاب (فكرة الإفريقية الآسيوية) بمقدمة للرئيس أنور السادات الذى كان فى ذلك الحين سكرتيرا لمؤتمر التضامن الإفريقى الآسيوى.

والجدير بالذكر فى هذا المقام أن بعض كتب الأستاذ مالك مثل (مشكلة الثقافة، وميلاد مجتمع، والصراع الفكرى، وفكرة كومنولث) وهى كتب بارزة فى قائمة المؤلف - لم تر النور إلا فى الترجمة العربية، أما الأصل الفرنسى فلم يعمل المؤلف على نشره، لأن مضمون هذه الكتب موجه أساسًا إلى العرب والمسلمين، لا إلى الفرنسيين.

ويبدو أن مالكا شعر بأن دوره فى توجيه الحياة العربية الإسلامية لا ينبغى أن يقتصر على الكتابة، بل لابد من أن يكون خطابه موجهًا إلى الجماهير من المثقفين، فبدا يتحرك نحو الشرق، لبنان وسورية، وقد اهتم أصدقاؤه هنالك بتسجيل محاضراته ونشرها فى كتيبات، تشكل فى مجموعها معالجة للواقع الإسلامى فى تلك المجتمعات، على ضوء الفكر الحضارى الذى كان معنيا بترديد مقولاته، وهى دائما دائرة حول التقابل بين: الإسلام والضياع - الحضارة والتخلف - الأشياء والأفكار - التكديس لبناء - العلم والضمير - الصناعة والأخلاق - المادى والغيبى، وأكثر هذه الأفكار وارد فى كتبه الأولى التى أشرنا إلى ترجمتها، فقد أضاف إلى ترجمة (شروط النهضة) مقالة بعنوان: (من التكديس إلى البناء)، وقابل فى الظاهرة القرآنية بين (المذهب المادى والمذهب الغيبى)، وهى لمحات تتسم بالذكاء والتعمق فى أزمة الإنسان المسلم فى عصر ما بعد الموحدين. أى: حتى عصرنا هذا، الذى تتصارع فيه المذاهب والجدليات.

وكان المبدأ الذى يعتمد عليه دائما هو المبدأ القرآنى:

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾.

رحم الله مالكا رحمة تكافئ ما تميز به من إيمان عميق بفكرته، وأمل عظيم فى بعث هذه الأمة الإسلامية، وإحياء تراثها فى واقعها، للتغلب على مشكلات التخلف الحضارى..

وأحب أن أقرر هنا أمرين:

الأمر الأول : أن مالكا كان مفكرا يصب فكره فى لغة فرنسية راقية: فقد كان متمكنا غاية التمكن منها، مبدعاً للكثير من التعبيرات التى تستمد قوتها من أصالة مصدرها القرآنى، وخصوصية اشتقاقها

العربى، ومن ذلك تعبيره عن النموذج المتخلف بكلمة intelleeto man (ويعنى به نموذج المتعالم)، وهى كلمة لفقها مالك من سابقة فرنسية، ولاحقة ألمانية، وقد ذكر لى أن الأكاديمية الفرنسية اعترفت بهذه الصياغة لهذا المفهوم.

الأمر الثانى : أن مالكا عندما انتقل إلى مصر، شعر بضرورة أن يسترد لسانه العربى، وقد حاول ذلك طيلة سنوات إقامته فيها، من متابعته لجهد الترجمة المتواصل لكتبه، إلى جانب استخدامه للعربية فى الأحاديث الشفوية والمحاضرات، ثم إنه حاول أن يكتب بعض أفكاره بالعربية، فى كتابه (مذكرات شاهد القرن) الجزء الأول - وكان واضحا أنها محاولة صعبة، عدل عنها فى الجزء الثانى من تلك المذكرات.

وأخيرا لابد أن نشير فى ختام هذه الترجمة إلى خاصة نفسية كانت من لوازم الأستاذ مالك، وقد أثرت فى شخصيته تأثيرا بالغا، يكاد يصل إلى مستوى العقدة النفسية.

ذلك أن الرجل كان يكره الاستعمار، ويحاربه، وكان يوجه انتقاده إلى المجتمعات الإسلامية لما أصابها من عقدة: (القابلية للاستعمار).

لقد كان يؤكد دائما أن البلاء ليس مقصورا على القوى الاستعمارية التى تفرض (الاستعمار) على الشعوب المستضعفة، بل إن هذه الشعوب هى التى تغرى الاستعمار بالعدوان عليها، بما أصاب نفسيتها من ضعف يغرى أعداءها بافتراسها، وتلك العقدة هى التى أطلق عليها مالك: (القابلية للاستعمار)، وقد كان رحمه الله يرقب أحوال هذه الشعوب، بل لقد كان يرقب أحوال الأفراد فى مختلف البلدان، ويفسر ما هم عليه من رضا بالهوان والضعف والجهل، وما تسير عليه سياسات الزعماء والحكام من مهادنة للعدو، ومخادعة للجماهير - بأن ذلك هو من أثر (القابلية للاستعمار). فكأنه كان يحارب فى جبهتين فى وقت واحد.

وأذكر أن حساسيته تجاه هذه العقيدة كانت تجسد له وجود الاستعمار فى كل مكان، ووراء كل باب، وفى ضمير كل من يتعامل معه، بل بلغ به الأمر إلى حد أن يشك فى كثير ممن يقتربون منه، وكأنهم مرسلون من (الاستعمار) لإيقاع الأذى به، وقد كتب فى مثل هذه المواقف رأيه عن (الاغتيال بوسائل العلم)، وما أظن أن هذا الشك قد تخلى عنه، حتى بعد أن عاد إلى الجزائر وشغل عدة مناصب مهمة فى التعليم العالى (مديرا للجامعة - فوزيرًا للتعليم العالى) - ثم فجأة تخلى عنه النظام الحاكم (بفعل القابلين للاستعمار) فى رأيه التى أصبحت تطارده

حيث يكون (فى ليبيا ـ عندما رحل إليها فى أواخر حياته مؤملا أن يجد مجالا ليست فيه هذه القابلية) ثم فى بلاده الجزائر ـ عندما عاد يائسا من تلك الرحلة الليبية) ليواجه بشىء من المضايقة السياسية، ألزمته الفراش حتى فاضت روحه فى يوم ٣١ من أكتوبر ١٩٧٣م، ولحق بالرفيق الأعلى - إن شاء الله - (مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا).

أ.د. عبد الصبور شاهين

المأمون العباسى
(١٧٠ - ٢١٨هـ = ٧٨٦ - ٨٣٣م)

عبدالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدى بن أبى جعفر المنصور، أبو العباس، سابع الخلفاء من بنى العباس فى العراق، ولد عام ١٧٠هـ، ولى الخلافة (سنة ١٩٨هـ) بعد خلع أخيه الأمين، وتوفى المأمون عام ٨٣٣م.

حاكم إسلامى نادر المثال، إليه وإلى سعة أفقه يرجع الفضل فى جزء من الإنجاز الحضارى الذى حققته الدولة الإسلامية، وقد مكنته سعة أفقه من أن يفتح لأمته أبواب نهضة ارتفعت بها إلى المكانة الأولى فى العصور الوسيطة، هو ابن الخليفة العباسى الشهير هارون الرشيد، وكان هارون قد رتب الأمور بحيث يكون المأمون وليًا لعهد ابنه الأكبر الأمين، غير أن الأمين بعد توليه الحكم أراد أن يأخذ العهد لابنه هو، فنشبت الحرب بين الأخوين وانتهت بقتل الأمين بعد فترة قصيرة من خلافته.

عُنى الخليفة المأمون منذ بداية حكمه بالعلم والفلسفة، وآمن بأهمية الترجمة وجدواها وبذل جهدًا كبيرًا فى ترجمة التراث اليونانى المتاح كله، وفى تصحيح الترجمات وتهذيبها بل إعادة الترجمة فى بعض الأحيان، وعُنى بأن ينجز هذا من خلال مؤسسة علمية كانت هى «بيت الحكمة» التى كانت مؤسسة موجودة من قبل عهده ولكنها تحولت فى عهده إلى أكبر مؤسسة ثقافية فاعلة عرفها العالم فقد أصبحت بمثابة جامعة رفيعة المستوى، ومكتبة نادرة الوجود، وديوان للترجمة والتحرير والنشر واسع النشاط والأثر وكان العلماء المسئولون عن إدارة بيت الحكمة من أرفع مستوى عرفته البشرية، ولم يكن المأمون يضع أى حد للإنفاق على العلم والمعرفة والفلسفة والترجمة بل أنه ضرب أندر مثل فى التاريخ لهذا الاهتمام السياسى بالمعرفة وهو ما تجلى على سبيل المثال فى قيمة مكافآته للعلماء والمترجمين على جهودهم العلمية، وقد كانت هذه المكافأة توازى وزن الكتاب المترجم ذهبًا.

وفضلاً عن هذا فإن المأمون لم يكتف بما جلبه أسلافه من كتب أجنبية وما حوته المكتبات من هذه الكتب ولكنه كان يرسل البعثات لاقتناء هذه الكتب وإحضارها من كل

مظانها فى البلاد السابقة فى الحضارة أو التأليف أو الترجمة... ولولا جهد المأمون ما أمكن للحضارة الإنسانية السابقة عليه أن تتصل بمصر النهضة الحديثة عبر جسر الحضارة الإسلامية، ويكفى فى هذا المجال أن أشير إلى النموذج الآخر الذى ضاع فيه اتصال الحضارة الإنسانية بكثير من أسرار الحضارة المصرية القديمة كنتيجة مباشرة لانعدام وعى المسئولين عن الحضارات التى تلت الحضارة المصرية القديمة مباشرة، أما فى حالة المأمون فقد حفظت جهوده للحضارة الإنسانية أقصى ما يمكن من قيم الحضارات السابقة، وذلك فى وعاء فكرى ضخم استخدم اللغة العربية بعد تطويعها إلى أقصى درجة لاستيعاب كل هذا التراث السابق عليها، وترتيبه وتطويره ثم الإضافة إليه.

وقد انعكست آثار هذه النهضة الفكرية على أسلوب المأمون فى الحكم وإدارة الدولة وتم هذا الانعكاس بطريقة سلسلة مباشرة من دون رفع شعارات أو أيدولوجيات ذلك أن انتشار العلم والحضارة، وتقدير العلماء والمترجمين قد خلق آليات جديدة للحراك الاجتماعى نشأ عنها تطور ذكى ومتدرج للعلاقات الاجتماعية والتكوين النخبوى وهو ما أدى إلى تراجع العنصرية العربية فى تقييم الشرف والحسب والقيمة الاجتماعية تبعاً للنسب والقرابة والأصول... ونشأت بديلاً عن هذا معايير جديدة هى معايير الدول المتحضرة والمتفوقة حضاريا التى تعلى من قيمة العمل والعلم والسلوك والإنتاج وتتنازل عن المعايير التقليدية الموروثة، وهكذا انتشرالزواج المختلط دون أى نوع من الحرج، كما تقبل المجتمع فكرة تعدد الزوجات وقدّر آثارها الإيجابية، وصيغت العلاقات الاجتماعية صياغة أرقى وأكثر فائدة للمجتمع الإسلامى من بقايا نزعات جاهلية حاربتها تعاليمه صراحة، وبذل الخلفاء السابقون جهدهم من أجل إرساء تعاليم الإسلام فيما يتعلق بها حتى جاء المأمون فأنار بالمعرفة عقليات المسلمين حتى تمكنوا من تفهم الجوهر العميق للعلائق الاجتماعية فى دينهم... ويمكننى القول أن أحداً من الحكام فى تاريخ الحضارة الإنسانية لم يحقق النجاح الذى حققه المأمون فى خلق الطبقة الوسطى وتمكينها من مقادير الحياة السياسية والاجتماعية، مما أدى إلى نهضة حضارية أفاد منها الإسلام على مدى قرنين أو ثلاثة تالية ولا تزال الإنسانية كلها تفيد من دوره الحضارى البارز حتى يومنا هذا.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - د. عبد الحليم منتصر. تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه.

٢ - جورج سارتون. تاريخ العلم.

٣ - د. محمد كامل حسين. الفصل الرابع من كتاب أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية.

المــــاوردى

(٣٦٤ - ٤٥٠ هـ = ٩٧٤ - ١٠٥٨م)

هو أبو الحسن ، على بن محمد بن حبيب البصرى المعروف بالماوردى، ولد بالبصرة سنة ٣٦٤ هـ = ٩٧٤م، ودرس على مشاهير علمائها الفقه والحديث والكلام والتفسير وغيرها من علوم الشريعة وعلوم العربية.. ثم انتقل إلى بغداد، فواصل التلقى من علمائها، حتى بلغ مرتبة التدريس والتأليف والإمامة فى كثير من العلوم.

وتولى الماوردى، منصب القضاء.. وتنقل وتدرج فى ولاية القضاء حتى بلغ مرتبة «أقضى القضاة» - وهو الذى يلى منصب «قاضى القضاة» - المماثل لوزير العدل فى زماننا.

ومن البناء الفكرى الذى تركه لنا الماوردى تتأكد إمامته العلمية، لا فى عصره وحده، بل وعلى امتداد تاريخنا الحضارى. وكانت وفاته يوم الثلاثاء سلخ ربيع الأول سنة ٤٥٠ هـ الموافق ٢٦ مايو سنة ١٠٥٨م، وله من العمر ٨٦ سنة، ودفن بمقبرة باب حرب ببغداد.

مؤلفاته واتجاهاته :

من بين الاثنى عشر كتابا التى بقيت لنا من آثاره، تمثل موسوعته فى الفقه (الحاوى الكبير) - وهى تقع فى أكثر من ثلاثين جزءا - ديوانا فى فقه المذهب الشافعى، كما يمثل كتابه الصغير (أدب الدنيا والدين) كتابا فى الحكمة والأدب نادر المثال، أما تراثه فى القضاء - ومنه كتابه الفذ (أدب القاضى) - فهو ذخيرة فى تقاليد القضاء، وفى تقنين فقه المعاملات.. وله فى التفسير، والنبوات، والنحو آثار فكرية متميزة. أما تراثه فى السياسة ، وفى الولايات والأحكام السلطانية فعلامة بارزة على درب تطور هذا العلم فى تراثنا الإسلامى.. فكتاب «الأحكام السلطانية والولايات الدينية» بداية لتميز هذا المبحث عن مباحث علم الكلام، وفيه تقنين للتجربة الإسلامية حتى عصر الماوردى.. وهو مع كتبه (نصيحة الملوك) و(تسهيل النظر) و(قوانين الوزارة وسياسة الملك) ذخيرة فى الفكر السياسى الإسلامى، النظرى منه والتطبيقى.

وعلى الرغم من صغر حجم كتابه (أدب الدنيا والدين) إلا أنه واحد من «كتب الفكر» التى حوت «مذهب» صاحبه فى «الإصلاح».

ففيه يعلمنا الماوردى: أن الإنسان كائن

اجـتـمـاعى.. وأن السلطة فى الاجـتـمـاع الإنسانى مدنيـة.. وأن للإصـلاح ست قواعد، هى: الدين المنيع. والسلطان القـاهر. والعـدل الشـامل، والأمن العام.. وخصب الدار، والأمل الفسيح.

ولقد قدم لقواعد الإصلاح هذه التفاصيل، التى جعلتها مذهبا متكاملا ومنهاجا شاملا فى الإصلاح الاجتماعى.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

- (أدب الدنيا والدين) للماوردى - طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.
- (مسلمون ثوار) للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٨م.

المبـــــرد
(٢١٠ - ٢٨٦هـ = ٨٢٦هـ - ٨٩٩م)

هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالى الأزدى، ولقب «المبـرد» لأن أستـاذه المـازنى لما صنف كتاب «الألف واللام» سـأله عن مسـألة عويصة فأحسن الجواب، فقال له المازنى: قم فأنت المبرد؛ أى المثبت للحق، ولكن منافسيه فى عصره وحاسديه كانوا يتخذون من هذا اللقب منفذا للإساءة إليه والنيل منه، فيقول: إنه المبـرد (بفتح الراء لا بكسـرها)، وهو من أسـرة نبيلة هى (ثمـالة)، وثمـالة من قـبيلة كبيرة لها شـأنها فى الجاهلية والإسلام، وحسـبك أن منهـا الأوس والخـزرج أنصـار الرسول ﷺ.

ولد فى مدينة البصرة من أسرة ثرية، ومن دلائل شرفها أن ابنها محمدا النحوى الذى نترجم له يعرف يوم مولده ويوم وفاته، فقد ذكروا أنه ولد فى يوم عيد الأضحى من سنة ٢١٠هـ وتوفى فى بغداد سنة ٢٨٦هـ[١].

وتلقى المبرد النحو واللغة والأدب من شيوخ عصره، كالأصمعى، وأبى زيد، وأبى عبيدة، والجرمى، والمازنى، ولم يكن بعد سيبويه أعلم بالنحو من المازنى، كما عرف منه ذلك ونوه به تلاميذه وفى مقدمتهم المبرد.

ومن تلاميـذه : أبو إسـحاق الزجـاج، وأبو على الصـفـار، وابن درسـتـويه، وأبو الحـسن الأخفش «الصغير».

وكان المبـرد زعيم مدرسة البصريين، فى الوقت الذى كان فيـه أحمـد بن يحيى ثعلب زعـيم الكوفـيين، ويمتـاز المبـرد على ثعلب بفصاحـة لسانه، ووضـاءة وجهـه، مما جعل الخلفـاء والأمـراء والوزراء يقـبلون عليـه، ويتنافسون فى تكريمه.

كـان المبـرد واسع الأفق، رحب الصـدر، مـتـفـتح الذهن، لا يضـيق بمناوئيـه، ولا منافسيه، حتى لقد روى الهجاء الذى قيل فيه، فقد سئل : ما أشد ما قيل فيك من هجاء؟ قال : قول الشاعر:

سـألنا عـن ثمـالة كل حـى
فقـال القـائلون ومـن ثمـالة

فقلت محمد بن يزيد منهم
فقـالوا زدتـنا بهم جهـالة

وما أسهل الرد على قائل هذا الشعر، محمد بن يزيد لا يزيد قبيلته جهالة، بل يرفعها ويرفع الأمة كلها إلى مواطن النجوم لما أداه للفكر العربى، والبلاغة العربية من فن وعلم.

وإذا كان المبرد عنى بالحديث عن الشعر من جميع نواحيه على مدى صفحات كتاب الكامل، فإنه بعد المقدمة التى جعلها للنبى ﷺ وأصحابه، فماذا قال ؟ وإلى أى حد يتفق والنقد الحديث؟ وينبغى أن نعلم أنه كان مجددا ولا ينظر إلى القديم لقدمه، فيطريه على طول الخط، ولا ينظر إلى الحديث لحداثته فينقص من قدره، بل الميزان عنده واحد للقديم والحديث على السواء، فالمدار على الإجادة أو كما يقول: «وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق، وموقفى أنا معه موقف التلميذ المخلص والناقد معا، ولست فى هذا بعاق له، ولا حائد عن طريقته، بل سعيا إلى تبرئة ساحته، وتكفيلا لمذهبه».

وكان الأخفش الصغير من خاصة تلاميذه فى عصره، ولكن الأخفش حين قرأ «الكامل» كتب تعليقات ناقدة، مكملة منثورة فى غضون الكتاب.

وإليك ما جاء منه فى تأليف العبارة، قال أبو العباس: «من كلام العرب الاختصار المفهم، والإطناب المفخم، وقد يقع الإيماء إلى الشىء فيغنى ذوى الألباب عن كشفه، كما قيل: لمحة دالة، وقد يضطر الشاعر المغلق، والخطيب المصقع، والكاتب البليغ، فيقع فى كلام أحدهم المعنى المستغلق، واللفظ المستكره، فإن انعطفت عليه جنبتا الكلام وغطتا على عواره، وسترتا من شينه، وإن شاء قائل أن يقول: بل الكلام القبيح فى الكلام الحسن أظهر ومجاورته له أشهر، كان ذلك له، ولكن يغتفر السيئ للحسن، والبعيد للقريب».

ومن مؤلفاته :

١ - الكامل فى الأدب.
٢ - المقتضب فى النحو.
٣ - الفاضل والمفضول.
٤ - التعازى والمراثى.
٥ - معانى القرآن.
٦ - الروضة.
٧ - الاشتقاق.
٨ - الأزمنة.
٩ - الخط والهجاء.
١٠ - المدخل إلى سيبويه.
١١ - المقصور والممدود.

١٢ - المذكر والمؤنث.

١٣ - قواعد الشعر.

١٤ - شرح شواهد الكتاب.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

مراجع للاستزادة:

١ - الخصائص ، لابن جنى، تحقيق محمد على النجار، القاهرة.

٢ - إنباه الرواة على أنباه النحاة، للقفطى، مصر.

٣ - معجم الأدباء، لياقوت الحموى، مصر.

٤ - سر صناعة الإعراب، لابن جنى، القاهرة.

٥ - سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجى، القاهرة.

٦ - المبرد حياته وآثاره، للأستاذ محمد عبد الخالق عضيمة، مصر.

مجاهد بن جبر
(٢١ - ١٠٤ هـ = ٦٤٢- ٧٢٢م)

هو مجاهد بن جبر ، أبو الحجاج القرشى المكى المخزومى ، المقرئ المفسر ، مولى[١] السائب بن أبى السائب رضي الله عنه، وقيل مولى ابنه عبد الله بن السائب[٢].

ولد مجاهد - رحمه الله - سنة ٢١هـ الموافق ٦٤٢م فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

على الرغم من أن مجاهدًا ـ رحمه الله تعالى - كان من أخصاء عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما ـ إلا أنه لم يكتف بالرواية عنه.

بل روى كذلك عن عدد كبير من الصحابة وبعض التابعين ، فقد روى عن: على بن أبى طالب، وسعد بن أبى وقاص ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، ورافع ابن خديج ، وأبى سعيد الخدرى ـ رضى الله عن الجميع ـ، وعائشة، وأم سلمة من أمهات المؤمنين ـ رضى الله عنهما ـ، كما روى عن أبى هريرة، وأم هانئ بنت أبى طالب، وجابر ابن عبد الله، وسراقة بن مالك، وعطية القرظى، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، وعبد الله بن السائب المخزومى، وعطاء بن أبى رباح، وعبد الرحمن بن صفوان بن قدامة، وأبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود، وغيرهم الكثير ـ رحم الله الجميع ورضى عنهم[٣].

لقد تتلمذ على يد مجاهد، وروى عنه خلق كثير من التابعين منهم : أبان بن صالح، وإبراهيم بن مهاجر، وأيوب السختيانى، وعكرمة، وعمرو بن دينار، وأبو إسحاق السبيعى، والحكم بن عتيبة، وسعيد بن مسروق، وسليمان الأحول، وسليمان الأعمش، وقتادة بن دعامة السدوسى، وطاووس بن كيسان، وطلحة بن مصرف، وحبيب بن أبى ثابت، والحسن بن عمرو الفقيمى، وسلمة بن كهيل، وعبد الله بن كثير وغيرهم[٤].

بعد رحلة طويلة مباركة امتدت لثلاث وثمانين سنة حافلة بالعطاء والعلم تلقياً وتعليماً ونشراً لقى مجاهد ربه - تبارك وتعالى - فقد توفى على أرجح الأقوال بمكة

وهو ساجد سنة ١٠٤هـ = ٧٢٢م مما يشير إلى التيمن بحسن خاتمته، رحمه الله ـ تعالى ـ وجزاه عن عمله ـ سبحانه ـ وتفسيره خير الجزاء.

كان مجاهد موضع إكبار العلماء له وثنائهم عليه، ولا غرو فقد كان ـ رحمه الله تعالى ـ أهلاً لهذا الفضل ـ ولا يزكى على الله أحد ـ إذ كان هذا العالم الكبير أعلم أهل زمانه بالتفسير، وهذه طائفة من أقوال العلماء فى شأنه :

قال الفضل بن ميمون : سمعت مجاهدا يقول : عرضت القرآن[٥] على ابن عباس ثلاثين مرة. وعن مجاهد نفسه قال: قرأت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آية أسأله فيم نزلت ؟ وكيف كانت ؟ وقال قتادة : أعلم من بقى بالتفسير مجاهد، وقال الثورى عن سلمة بن كهيل : ما رأيت أحداً أراد بهذا العلم وجه الله ـ تعالى ـ إلا عطاء وطاووساً ومجاهداً، وقال ابن سعد: كان ثقة فقيهاً عالماً كثير الحديث، وقال ابن حبان : كان فقيهاً ورعاً عابداً متقناً، وقال أبو جعفر الطبرى : كان قارئاً عالماً، وقال العجلى: مكىّ تابعى ثقة[٦].

وقال الحافظ ابن كثير : (مجاهد أحد أئمة التابعين والمفسرين، كان من أخصاء ابن عباس، وكان أعلم أهل زمانه بالتفسير .. وقال مجاهد نفسه : أخذ ابن عمر بركابى، وقال : وددت لو أن ابنى سالماً وغلامى نافعاً يحفظان حفظك)[٧].

كل هذه المقولات وغيرها مما أثنى به العلماء عليه تعتبر شهادات منهم بعلو مكانته فى التفسير، على أن النصفة العلمية تقتضى القول بأنه مع هذا كله كان بعض العلماء لا يأخذون بتفسيره، وقد روى الذهبي فى «ميزانه» : أن أبا بكر بن عياش قال للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف ـ أو شىء نحوه ـ قال : أخذها من أهل الكتاب[٨].

ويعلق على ذلك الدكتور محمد حسين الذهبى ـ رحمه الله تعالى ـ بقوله : (هذا هو كل ما أخذ على تفسيره، ولكن لم نر أحداً طعن عليه فى صدقه وعدالته، وجملة القول: فإن مجاهداً ثقة بلا مدافعة وإن صح أنه كان يسأل أهل الكتاب فما أظن أنه تخطى حدود ما يجوز له من ذلك، لا سيما وهو تلميذ حبر الأمة ابن عباس، الذى شدد النكير على من يأخذ عن أهل الكتاب ويصدقهم فيما يقولونه مما يدخل تحت حدود النهى الوارد عن رسول الله ﷺ)[٩].

آثاره العلمية فى التفسير :

روى مجاهد ـ كما سبقت الإشارة إليه ـ

عن أعلام الصحابة وعلمائهم، إضافة إلى طول صحبته وملازمته لحبر الأمة عبد الله ابن عباس - رضى الله عنهما - فكان لهذا التلقى المباشر منهم، إضافة إلى مضاء عزمه وهمته، وإقباله على العلم وإخلاصه فى ذلك أثر عظيم فيما خلف من آثار فى التفسير.

وهذه جملة من آثاره العلمية : رواية عن غيره، واجتهاداً من فكره:

قال الطبرانى : حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عبد الرزاق، عن أبى بكر بن عياش قال: أخبرنى أبو يحيى أنه سمع مجاهداً يقول : قال لى ابن عباس : لا تنامن إلا على وضوء، فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه.

وروى الطبرانى عنه أنه قال : فى قوله تعالى : ﴿ **ادفع بالتى هى أحسن** ﴾[10] قال : يسلم عليه إذا لقيه، وقيل هى المصافحة، وروى ابن أبى شيبة عن أبى أمامة عن الأعمش عن مجاهد قال : كان بالمدينة أهل بيت ذوى حاجة عندهم رأس شاة، فأصابوا شيئاً، فقالوا : لو بعثنا بهذا الرأس إلى من هو أحوج إليه منا، فبعثوا به فلم يزل يدور بالمدينة حتى رجع إلى أصحابه الذين خرج من عندهم أولاً.

وقال يحيى بن سعيد القطان: قال مجاهد فى قوله تعالى: ﴿ **واستفزز من استطعت منهم بصوتك** ﴾[11] قال : المزامير، وقال فى قوله تعالى : ﴿ **أنكالاً وجحيماً** ﴾[12] قال : قيوداً، وقال فى قوله تعالى : ﴿ **لا حجة بيننا وبينكم** ﴾[13] قال: لا خصومة، وقال فى قوله تعالى: ﴿ **ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** ﴾[14] قال : عن كل لذة فى الدنيا.

وروى أبو الديبع عن جرير بن عبد الحسيب عن منصور عن مجاهد قال : رن[15] إبليس أربع رنات : حين لعن، وحين أهبط، وحين بعث النبى ﷺ، وحين أنزلت : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ وكان يقال: الرنة والنخرة من الشيطان، فلعن من رن أو نخر.

وروى ابن أبى نجيح عنه فى قوله تعالى : ﴿ **أتبنون بكل ريع آية تعبثون** ﴾[16] قال: بروج الحمام. وقال فى قوله تعالى : ﴿ **أنفقوا من طيبات ما كسبتم** ﴾[17] قال: التجارة ، وروى ليث عن مجاهد قال : ﴿ **إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا** ﴾[18] قال : استقاموا فلم يشركوا حتى ماتوا. وقال فى قوله تعالى : ﴿ **لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة** ﴾[19] الإل: الله - عز وجل -، وقال فى قوله تعالى : ﴿ **بقيت الله خير لكم** ﴾[20] طاعة الله - عز وجل -، وفى قوله تعالى: ﴿ **ولمن خاف مقام ربه جنتان** ﴾[21] هو الذى يذكر الله عند الهم بالمعاصى.

وقال فى قوله تعالى : ﴿ وثيابك فطهر ﴾[٢٢] قال : عملك فأصلح، وفى قوله : ﴿ واسألوا الله من فضله ﴾[٢٣] قال: ليس من عرض الدنيا، وفى قوله: ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به ﴾[٢٤] قال : هم الذين يجيئون بالقرآن قد اتبعوه وعملوا بما فيه، وقال : يقول القرآن للعبد : إنى معك ما اتبعتنى، فإذا لم تعمل بى اتبعتك، وفى قوله تعالى : ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾[٢٥] قال : خذ من دنياك لآخرتك، وذلك أن تعمل فيها بطاعة الله عز وجل[٢٦].

مجاهد والتفسير العقلى :

إذا كان كل يؤخذ من قوله ويرد إلا المعصوم ﷺ فإنه ينبغى أن ينظر إلى آثار مجاهد ـ رحمه الله ـ فى ضوء هذه القاعدة ، خاصة فى المسائل التى أعطى فيها لعقله حرية واسعة فى فهم بعضها من نصوص القرآن الكريم، خاصة تلك التى يبدو ظاهرها بعيداً، فإنه إذا ما مر بنص قرآنى من هذا القبيل، نجده ينزله بكل صراحة على التشبيه والتمثيل، وهذا أمر كان فيما بعد مبدأ معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة فى تفسير القرآن الكريم، وقد فعل ذلك مجاهد ـ رحمه الله ـ فى أكثر من موضع.

فعند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين ﴾[٢٧] يقول القرطبى ـ رحمه الله تعالى ـ : (وروى عن مجاهد فى تفسير هذه الآية : أنه إنما مسخت قلوبهم فقط، وردت أفهامهم كأفهام القردة، ولم يقله غيره من المفسرين فيما أعلم)[٢٨].

وعند تفسيره لقوله سبحانه : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة • إلى ربها ناظرة ﴾[٢٩] ينقل ابن جرير عن مجاهد قوله : (تنتظر الثواب من ربها، لا يراه من خلقه شىء)[٣٠].

ويعلق الدكتور الذهبى ـ رحمه الله تعالى ـ على هذا التفسير بقوله : (وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكئاً قوياً للمعتزلة فيما ذهبوا إليه فى مسألة رؤية الله تعالى .. ثم يقول : ولعل مثل هذا المسلك من مجاهد هو الذى جعل بعض المتورعين الذين كانوا يتحرجون من القول فى القرآن برأيهم يتقون تفسيره، ويلومونه على قوله فى القرآن بمثل هذه الحرية الواسعة فى الرأى .. إلى أن يقول: ومهما يكن من شىء فمجاهد ـ رضى الله عنه ـ إمام فى التفسير غير مدافع، وليس فى إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما يغض من قيمته أو يقلل من مكانته)[٣١].

أ.د. محمد السيد جبريل

الهوامش:

١ – المولى : يطلق على معان أشهرها : الحليف الذى ينصر حليفه ويعينه ، والمعتق ، والقريب بالنسب كالعم وابنه والأخ وابنه ، والعصبات كلهم . لسان العرب : لابن منظور ، مادة (ولى) .

٢ – ينظر : تهذيب الكمال فى أسماء الرجال للإمام أبى الحجاج بن يوسف المزى (ت ٧٢٤ هـ) (٢٧ / ٢٢٨) تحقيق د . بشار معروف ، ط مؤسسة الرسالة ، بيروت – الرابعة (١٤١٦ هـ ١٩٩٥م) .

٣ – ينظر : تهذيب التهذيب للإمام أحمد بن على بن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ هـ) (٥ / ٣٧٣) ط دار إحياء التراث العربي بيروت – الثانية (١٤١٣ هـ ١٩٩٣ م) .

٤ – ينظر : تهذيب الكمال : (٢٧ / ٢٢٩ ، ٢٣٠) .

٥ – معنى عرضت القرآن : قرأته عليه .

٦ – ينظر: تهذيب التهذيب (٥ / ٣٧٤) .

٧ – ينظر : البداية والنهاية للإمام أبى الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت ٧٧٤ هـ) (٥ / ٢٩٣) تحقيق محمد عبد العزيز النجار ، ط دار الغد العربي – الأولى (١٤١٢هـ – ١٩٩١م).

٨ – ميزان الاعتدال : للحافظ أبى عبد الله الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق على محمد البجاوى ، ط دار المعرفة بيروت ، ترجمة رقم ٧٠٧٢ .

٩ – التفسير والمفسرون : د . محمد حسين الذهبي (١ / ١٠٥) ط دار الكتب الحديثة ، الثانية (١٣٩٦ هـ) .

١٠ – سورة فصلت : جزء من الآية (٣٤).

١١ – سورة الإسراء : جزء من الآية (٦٤) .

١٢ – سورة المزمل : جزء من الآية (١٢).

١٣ – سورة الشورى : جزء من الآية (١٥) .

١٤ – سورة التكاثر : آية (١٨) .

١٥ – الرن : هو الصياح والصراخ ، ورن بمعنى صاح ، والمراد هنا أن إبليس – عليه لعنة الله – صرخ فى تلك المواضع تألماً ، والنخر : هو مد الصوت فى الخياشيم .

١٦ – سورة الشعراء : آية (١٢٨).

١٧ – سورة البقرة : جزء من الآية (٢٦٧) .

١٨ – سورة فصلت : جزء من الآية (٣٠).

١٩ – سورة التوبة : جزء من الآية (١٠) .

٢٠ – سورة هود : جزء من الآية (٨٦).

٢١ – سورة الرحمن : آية (٤٦) .

٢٢ – سورة المدثر : آية (٤) .

٢٣ – سورة النساء : جزء من الآية (٣٢) .

٢٤ – سورة الزمر : جزء من الآية (٣٣) .

٢٥ – سورة القصص : جزء من الآية (٧٧) .

٢٦ – ينظر : البداية والنهاية (٥ / ٢٩٢ – ٣٠٠).

٢٧ – سورة البقرة : آية (٦٥) .

٢٨ – الجامع لأحكام القرآن : لأبى عبد الله القرطبي (ت ٦٧١هـ) (١ / ٤٤٣) ط الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٧ .

٢٩– سورة القيامة : آيتان (٢٢ ، ٢٣) .

٣٠ – جامع البيان عن تأويل آى القرآن : لابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) (٢٩ / ١٩٢) ط دار الفكر بيروت (١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م)

٣١ – التفسير والمفسرون : (١ / ١٠٦ ، ١٠٧) .

مراجع للاستزادة:

١ – تذكرة الحفاظ للذهبي .

٢ – طبقات القراء لابن الجزرى .

محمد أحمد أبو زهرة
(١٣١٦-١٣٩٤ هـ = ١٨٩٨ - ١٩٧٤م)

ولد الشيخ محمد أحمد أبو زهرة فى عام ١٣١٦هـ = ١٨٩٨م، بالمحلة الكبرى بمحافظة الغربية بمصر. تعلم فى البداية فى الكُتَّاب والمدرسة الأولية والمدارس الراقية، حيث أتم حفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ العلوم المدنية كالرياضيات والجغرافيا بالإضافة إلى العلوم العربية، ثم التحق بالجامع الأحمدى بطنطا عام ١٩١٣م ومكث فيه ثلاث سنوات. وقد لفت إليه انتباه الشيخ الأحمدى الظواهرى شيخ الجامع الأحمدى، (الذى أصبح شيخا للأزهر فيما بعد)؛ لما كان يتميز به من نبوغ وتفوق، فاقترح له مكافأة مالية ومعاملة خاصة، وفى عام ١٩١٦م التحق أبو زهرة بمدرسة القضاء الشرعى، بعد اجتيازه امتحان مسابقة كان الأول فيها على المتقدمين رغم فارق السن، وفى هذه المدرسة أتم تكوينه العلمى، فقضى فيها أربع سنوات فى القسم الثانوى، وخمس سنوات فى القسم العالى، وتخرّج فيها عام ١٩٢٥م، ويعد من آخر جيل تخرج فى هذه المدرسة؛ حيث تم إلغاؤها بعد ذلك.

ثم عمل بالمحاماة تحت التمرين، وحصل على دبلوم دار العلوم عام ١٩٢٧م، وبعد ذلك عين مدرسا للشريعة واللغة العربية بتجهيزية دار العلوم، ثم بالمدارس الثانوية العامة، وفى عام ١٩٣٣م عين مدرسا للخطابة والجدل وتاريخ الديانات والملل والنحل بكلية أصول الدين، ثم نقل عام ١٩٣٤م مدرسا بكلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول، واستمر فى سلك التدريس إلى أن أصبح أستاذًا ورئيسًا لقسم الشريعة بها، وقد أحيل إلى التقاعد عام ١٩٥٨م، وعين عضوا فى مجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٦٢م. وظل يقوم بالتدريس فى كلية الحقوق بعد تقاعده إلى أن صدرت أوامر عليا إلى الجامعة بمنعه من التدريس، وقد توفى فى عام ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

لقد كان الشيخ أبو زهرة طول حياته يعشق الحرية، ويجهر برأيه الذى يقتنع به لا يخشى فى ذلك لومة لائم أو بطش سلطان، ويقول عن نفسه عندما كان لا يزال يحفظ القرآن فى الكتاب: «كنت أشعر وأنا فى المكتب (الكُتَّاب) بأمرين ظهرا فى حياتى من بعد:

الأمر الأول: اعتزازى بفكرى ونفسى، حتى كان يقال عنى إنى طفل عنيد صاحب رأى.

الأمر الثانى: أنى كنت أتضايق من السيطرة، وأعشق الحرية.

ولعل الأمرين متلازمان، لأن الاعتزاز بالنفس يتولد عنه بغض السيطرة».

وقد جرَّت عليه جرأته فى الجهر برأيه غضب السلطة، فصدرت قرارات فى الستينيات بحرمانه من التدريس فى الجامعة، وإلقاء دروسه ومحاضراته فى المنتديات العامة ودور العبادة، ومن التحدث فى الإذاعة والتليفزيون والكتابة فى الصحف.

وقد كان أبو زهرة مصلحًا اجتماعيًا ينقد أخطاء المجتمع والحكم، وله مواقف شجاعة من قضية الشورى، وضرورة المحافظة على دستور الأمة، ورفضه الشديد للحكم الفردى والاستبداد السياسى.

وقد اهتم الشيخ أبو زهرة بتاريخ الديانات، منطلقا فى دراسة الأديان من منطلق العقل قائلاً: «لأعرف ما فيها من قضايا ما يتفق مع حكم العقل، وتستسيغه الأفكار، وما لا يقبله العقل، بل يلفظه كما يلفظ اللسان مسيخ الطعام وما تمجه الأذواق».

وإذا كان قد درس الديانات الوضعية والسماوية من منطلق عقلى، فقد راح أيضا يدرس المذاهب الإسلامية دراسة موضوعية بروح علمية متجردة، بعيدة عن منطق التحمس الأعمى أو التعصب الذميم، ويشهد بذلك كتابه «تاريخ المذاهب الإسلامية».

وقد كتب عن بعض أئمة الشيعة فى إنصاف؛ مثل كتابه عن الإمام الصادق، وكتابه عن الإمام زيد، مرتفعا بذلك فوق الخلافات المذهبية العقدية بين السنة والشيعة، ويعبر عن ذلك فى كتابه (الإمام الصادق) بقوله: «كتبناه بروح من الحق الثابت وقصدنا بكتابته أن نقرب ولا نفرق».

وقد اهتم الشيخ أبو زهرة اهتماما كبيرا بمعالجة قضايا المجتمع على أسس إسلامية، وقد عنى لذلك بعقد المقارنات بين تنظيم الإسلام للمجتمع وما كانت تشتمل عليه النظم الأخرى قبل الإسلام من تنظيم للمجتمع، كما عنى برسم الخطوط وتوضيح المعالم للمجتمع الإسلامى، وبيان طرق الشريعة فى معالجة أدوائه.

ومن بين الأمور الكثيرة التى وجه إليها سهام نقده فى المجتمع، نقده لما يسمى «بيت الطاعة»، مشيرا إلى أنه ليس هناك فى الإسلام شىء اسمه بيت الطاعة، ولكن الذى فيه هو «بيت الزوجية»، الذى يضم الزوجين

ليعيشا فيه بمقتضى عقد الزواج، عيشة متعاونة رائدها العدل والإنصاف.

وامتداداً لدعوة جمال الدين الأفغانى للوحدة الإسلامية، يؤكد الشيخ أبو زهرة على هذا الجانب مخصصًا كتابًا كبيرًا للوحدة الإسلامية، داعيًا إلى «نبذ كل الأسباب الداعية إلى الفرقة، والإخلاص فى الدعوة إلى الوحدة الإسلامية الحقيقية، التى يكون أساسها إحياء اللغة العربية، وجعلها لغة الثقافة والتفاهم بين المسلمين، وتوحيد السياسة والحرب بإنشاء جامعة إسلامية تكون قادرة على محو العنصرية بين كافة المسلمين».

وكان الشيخ حريصا على تحديد المفاهيم وتوضيح مدلولاتها؛ حتى لا تختلط فى أذهان الناس، وقد كان ذلك واضحا فى كتابه عن تاريخ الجدل وفى كتاباته الأخرى، وكان يرى أن علم أصول الفقه لا يحتاجه طالب الحقوق لفهم الشريعة فقط، بل يحتاجه أيضا ليفهم القوانين نفسها حق الفهم، لأنه علم يبين دلالات الألفاظ، ويضع الضوابط والمقاييس، للأخذ منها عند توافقها وعند تعارضها فى ظواهرها، فهو منهاج قويم لفهم معانى الألفاظ القانونية.

وفى حين يعترف الشيخ أبو زهرة بأهمية الاجتهاد، بوصفه فرض كفاية - كما قرر المذهب الحنفى - وأن الواقع العملى يبين لنا أن باب الاجتهاد المطلق قد أغلق فى القرن الرابع الهجرى، فإنه يعتقد أنه كان من المصلحة الإسلامية إغلاقه؛ نظرًا لفساد الحكم منذ غزو التتار والصليبيين؛ حتى لا يكون هناك مجال للعلماء الذين يرضون الحكام بأن يسهلوا لهم كل شىء عن طريق الفتوى.

للشيخ أبى زهرة إنتاج علمى غزير، وقد وصل عدد الكتب والبحوث التى ألفها حوالى ثمانين كتابًا وبحثًا، ومن أهم مؤلفاته ما يأتى:

١ - الخطابة: أصولها وتاريخها فى أزهى عصورها عند العرب.

٢ - القرآن المعجزة الكبرى.

٣ - تاريخ الجدل.

٤ - محاضرات فى الديانات القديمة.

٥ - محاضرات فى النصرانية.

٦ - تاريخ المذاهب الإسلامية.

٧ - الأحوال الشخصية.

٨ - أصول الفقه.

٩ - الجريمة فى الفقه الإسلامى.

١٠ - فلسفة العقوبة فى الفقه الإسلامى.

١١ - تنظيم الإسلام للمجتمع.

١٢ - العلاقات الدولية فى الإسلام.

١٣ - الاجتهاد.

١٤ - العقيدة الإسلامية كما جاء بها القرآن الكريم.

١٥ - سلسلة مؤلفات عن عدد من أعلام الفكر الإسلامى فى جوانبه المختلفة، بيانها كما يلى: أبو حنيفة، مالك، الشافعى، ابن حنبل، الإمام زيد، الإمام الصادق، ابن حزم، ابن تيمية، الغزالى، ابن خلدون، الزمخشرى، ابن جرير الطبرى، الفخر الرازى، الحسن البصرى، أبو الحسن الأشعرى.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ - مؤلفات الشيخ محمد أبو زهرة السابق الإشارة إليها.

٢ - كتب الكثيرون مقالات عديدة عن الشيخ «أبو زهرة» فى مختلف الصحف والمجلات، فأشادوا بفضله وعلمه وشجاعته. وقد اراد الأستاذ أبو بكر عبد الرازق أن يسهل على القارئ الاطلاع على معظم ما كتب عن الشيخ، فجمعه وضمنه أحد أجزاء كتابه عن ابى زهرة. وقد جاء هذا الكتاب فى أجزائه الثلاثة على النحو التالى:

الجزء الأول: أبو زهرة إمام عصره. حياته وأثره العلمى. دار الاعتصام ١٩٨٥م.

الجزء الثانى: أبو زهرة فى رأى علماء العصر. دار الاعتصام ١٩٨٦م.

الجزء الثالث: أبو زهرة وقضايا العصر. دار الفضيلة. دبى ١٩٨٨م.

محمد أحمد الغمراوى
(١٣٠٩ - ١٣٩٣هـ = ١٨٩٣ - ١٩٧٣م)

ولد الغمراوى فى إحدى مدن محافظة الغربية، فى عام ١٣٠٩هـ = ١٨٩٣م. ونشأ فى أسرة دينية، إذ كان الرابع بين إخوة خمسة حفظوا القرآن جميعًا فى الطفولة وهيئوا للالتحاق بالأزهر الشريف، وقد كان صاحبنا استثناء بينهم حيث قُدِّر له الالتحاق بالمدرسة الابتدائية بطنطا ثم الخديوية بالقاهرة، وكان هواه أن يزامل أشقاءه فى الأزهر. وإذ سار فى غير طريقهم فقد أخذ على نفسه أن يتزود بالثقافتين المختلفتين، فكان يبدأ بعلوم المدرسة، ثم يأخذ كتب إخوته ليقرأها معهم، وليسأل عما يستعصى عليه من معضلات الفقه والتوحيد والنحو والبلاغة.

وذلك توفيق من الله أن هداه إلى الكتب الإسلامية مع ما يقرأ من كتب المدارس فى وقت واحد.

وكان يحس بدافع يحثه إلى التفوق فى علوم الأزهر، وعنده الأصل من كتاب الله يحفظه عن ظهر قلب، ومن حديث البخارى يتناول حفظه وشرحه مع أخيه محمود، الذى قُدِّر له أن يكون شيخا لمعهد الزقازيق الثانوى فيما بعد. وكاتبا مُصاولا تعرفه صُحف المقطم والأهرام والأخبار (الرافعية) فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضى.

توفى بعد أن فرغ لساعته من كتابة آخر مقال لمجلة الأزهر، يناقش فيه قضية السجع فى القرآن معارضا ما اتجه إليه ابن الأثير وابن الصائغ، من دعوى التقديم والتأخير فى الآيات رعاية للفاصلة، وهو منحى أيده الدكتور عبد الرؤوف مخلوف على صفحات مجلة الأزهر، وعارضه الأستاذ الغمراوى، ولكل دليله المختار. ولكن المهم فى ذلك كله أن الرجل فى شيخوخته قد لبى نداء ربه ومداد قلمه على صحيفته لم يجف، فى عام ١٣٩٣هـ الموافق ١٩٧٣م. ليشهد له عند الله بمواصلة الجهاد على وهن الكِبر، وصراع الداء، ولن يضيع ثوابه المضاعف لدى ربّه، فمن جاء بالحسنة فله خير منها، وما يُلقاها إلا الذين صبروا.

وقد اشتهر محمد أحمد الغمراوى بين

الطلاب بغيرته الشديدة على أصول الدين وتعاليم الشريعة، وهى غيرة تجد تطبيقها فى سلوكه الشخصى بين عارفيه، إذ كان أمينا لا يخون، صادقا لا يكذب، وفيا لا يغدر، وله صولة فى الحق تجبره ألا يسكت على الخطأ.

كان المدرسون يشرحون تاريخ أوروبا بإفاضة ويجملون تاريخ الإسلام كله فى باب واحد، فدعا نفرا من زملائه فى الخديوية الثانوية إلى قراءة التاريخ الإسلامى، منهم الأستاذ الدكتور أحمد عبد السلام الكردانى، فألفوا جماعة لقراءة أعلام القرآن وجعلوا يتدارسون كتاب (حُماة الإسلام) الذى ألفه الأستاذ مصطفى نجيب، فكان مسلّما إلى ما فوقه من كتب التراث، وكانت النصوص الأدبية فى عهد دنلوب مقصورة على نماذج مُشتهرة من الشعر العباسى والجاهلى والأموى، فجعل الطالب الطامح يُحضر معه ملازم صفراء من كتب الأزهر تضم أحاديث الرسول ﷺ، لتكون مع كتاب الله فى مقدمة النصوص المحفوظة.

وكان يحافظ على الوضوء والطهارة، لتُتاح له الصلاة فى فسحة الظهيرة، حيث لم تكن للمدارس أماكن للصلاة كعهدنا الآن، ولم يكن تعمقه فى تحصيل الثقافة الدينية بمانعة من التفوق فى علوم المدرسة، بل ربما كان اتصال الجسور مساعدا على التبريز والتفوق لديه، حتى إذا أتم دراسته الثانوية، التحق مع زميله الكردانى بالقسم العلمى بمدرسة المعلمين العليا، وتخرجا معًا حين اشتعلت الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤م، فتأخرت بعثتهما عامين. وقبل ذلك فى سنة ١٩١٤م اجتمع نفر من متخرجى المعلمين العليا ومدرسة الحقوق لينشئوا ما أسموه لجنة التأليف والترجمة والنشر، وليَكِلوا رئاستها إلى الشيخ أحمد أمين، وكان من هؤلاء الأستاذ محمد أحمد الغمراوى، وقد ذكره أحمد أمين، أول ما ذكر من أسماء: أحمد زكى، والكردانى، والعبادى، وخلاف. وأبى حديد، وصبرى أبوعلم، ويوسف الجندى، ممن صمموا على إقامة نهضة علمية مباركة، كانت ذات أثر بعيد فى رقى الثقافة العربية الأصيلة، لأن هذا النفر من الشباب كان يجمع بين الحمية الإسلامية والغيرة القومية، والتطلع الحضارى، على حين كان فريق من تلاميذ (الجريدة) يتجهون فى كتاباتهم وجهة غربية مندفعة لا تعرف الاتئاد، ونفر آخر لا يبعد محيطه الثقافى عن مدى ثقافة العصر المملوكى، وفى هؤلاء وأولئك إفراط وتفريط.

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

عندما جاء شباب لجنة التأليف والترجمة ليبعثوا نهضة علمية ذات وسامة واتزان فى

رقى الثقافة العربية الأصيلة، وكان الأستاذ الغمراوى أذكاهم لهيبا، حين تعرض فى الحديث لتأخر الشرق، ونهوض الغرب، وقد أمده انتكاس المدنية الغربية باشتعال الحرب العالمية بما أخذ يردده طوال حياته من إيضاح الفرق بين التقدم المادى الخادع، والتقدم الخلقى الأصيل، لأن أوروبا حين نهضت نهضتها الحضارية عن طريق البحث العلمى، لم تنهض نهضة خلقية مماثلة عن طريق الدين الصحيح، فأخذت تأكل نفسها، وتهدم مدنيتها، وعلى الذين يشيدون بتقدمها العلمى، أن يعرفوا أن العلم لا ينتسب إلى وطن، وأنه يدور دورته فى الأمم والشعوب متنقلا من الشرق إلى الغرب، ولن يرتفع بناؤه على أساس ثابت إلا إذا ارتكز على أخلاق طاهرة، يدعمها تشريع سماوى لا يأتيه الباطل.

هذا ما اعتقده الغمراوى، ودعا إليه طيلة حياته مع نفر من ذوى مشربه الإصلاحى، وقد ذهب إلى إنجلترا بعد عامين (سنة ١٩١٦م) ليتخصص فى الكيمياء والطبيعة مع صديقه أحمد عبد السلام الكردانى، وجاء إلى مصر ليتحدث أستاذا ومحاضرا ومؤلفا عن الحقائق العلمية فى ضوء القرآن، موضحا الإعجاز العلمى فى الآيات الكريمة، ومعتمدا على الصحيح الثابت من هذه النظريات العلمية، بحيث أصبحت من المقررات التى لا يدخلها أدنى شك، وقد جاء بها القرآن الكريم قبل خمسة عشر قرنا من الزمان.

ولهذا النظر الثاقب فى تفسير الحقائق العلمية فى ضوء الكتاب الكريم حرص الأستاذ الأكبر محمد الأحمدى الظواهرى على اختيار الدكتور الغمراوى أستاذا بقسم الدعوة فى كلية أصول الدين، فقرأ على الطلاب دروسًا فى الإعجاز العلمى للقرآن، نشر بعضها فى كتابه الذائع (فى سنن الله الكونية)، وقد مهد له بمقدمة تدل على مكانة العلم فى القرآن، واتباعه سُنّة الفطرة الهادية إلى الاسترشاد بالعقل، وكان لظهور هذا الكتاب النادر صدى رنان فى الدوائر العلمية، حتى قال عنه الأستاذ فريد وجدى: إنه من أنفس ما قيل فى موضوعه، ونقل صفحات كثيرة منه بمجلة الأزهر التى يشرف على تحريرها! والغريب أن بعض الأدعياء قد تناقلوا بعد عشرين عاما من صدوره حقائقه الرائعة ونسبوها إلى أنفسهم دون حياء، والرجل حى يُرزق يقرأ ويبتسم، ولم تأذن له مثاليته أن يقول للغاصب الناهب: لماذا لم تذكر مصدرك الأوحد؟.

كان عراك الغمراوى فى مضمار الحقائق الكونية وصلتها بالقرآن هو الجهاد الأصغر، أما الجهاد الأكبر فعراكه الجاهد مع محاربة

الانحلال الدينى الوافد مع التيارات الغربية، وهو انحلال ذو مظهر اجتماعى من ناحية، وذو مظهر ثقافى من ناحية ثانية، فمظهره الاجتماعى يتجلى فى كثرة ما ينتشر فى المسارح ودور الخيالة من روايات هابطة تدعو إلى الجريمة، وتشجع الفساد فى الأسرة، حين يكون البطل نجما كبيرا لأنه تحلل من قيود العفة، ففسق عن أمر ربه، وحين سَهُلَ باب المعصية لكل من يرى المسرح ودور الخيالة من شباب إذ يجد الحيلة المحكمة، والتبرير اليسير، كما يتجلى هذا المظهر فيما ينشر فى الصحف من خلاعات مُسِفّة، ومن تهجم على حقائق الإسلام، بدعوى التقدم الحضارى ومحاربة الجمود.

وقد أسف الغمراوى حين قارن بين عهد صباه وعهد كهولته، فوجد العهد الأول ذا حفاظ على نصرة الفضيلة فى مضمار الصحافة، كان الطعن فى الإسلام يوجه من كاتب فرنسى كهانوتو، فتقوم قائمة الصحافة المصرية، وتظل جريدة المؤيد واللواء وغيرهما ميدانًا تركض فى ساحته الأقلام نقدا وتجريحا للباطل، وأما عهد الكهولة فقد أصبح الطعن الظالم يجد أسبابَ التشجيع لدى من رأوا تقدمهم الفكرى فى إطراح الدين، ومجاراة الغرب فى اعتزال ما ينتمى إلى الروحية الصافية، بل يجد بواعث التساهل فى نفوس مؤمنة ما كان لها أن تتساهل، ولكنها تتعلل بضعف القدرة على المقاومة تارة، وبأن الإسلام منيع لا تنال منه هذه الهبات المتتالية، وبأن باب التأويل واسع، إذا كان النص صريحا من كتاب الله، وبأن الحديث النبوى،موضوع إذا خالف موضوع الأهواء الهابطة، وبأن الإجماع ليس طريق التشريع، وأنه لم يتم فى تاريخ الإسلام على وجهه الصحيح.

وكل ذلك قد بحثه الغمراوى وأطال فى تشريحه وتحليله إطالة شافية، يجد القارئ نماذج حية منها فى بعض ما نشره بالأعداد الممتازة من مجلتى الرسالة والثقافة بمناسبة العام الهجرى والمولد النبوى:

«إن القرآن الكريم كلام الله، كما أن النبات والحيوان والكواكب من كلماته، وإن اختلف الخطاب، بكلٍ خاطب الله عباده، وعن كل أعجز خلقه أن يأتوا بمثله، ليكون عجزهم دليلا لهم، وحجة عليهم، أفيدرس الناس آيات الله فى الحيوان والنبات والكواكب لا يتوقعون عيبا، ولا يرون إلا كمالا يتفاقم ويزداد، فلا يجد زكى مبارك فى ذلك ما يلمزهم به، ولا يعد علمهم لذلك غير صحيح، حتى إذا درسوا آيات الله فى الكتاب العزيز، فلم يتوقعوا نقصا، ولم يروا عيبا، ولم يجدوا إلا كمالا وإعجازا لِلَمْزِهِم وهَمْزِهِم وقال: لم يذكروا إلا المحاسن،

كأن هناك بجنب المحاسن عيوبا كان عليهم أن يذكروها، وإلا كانوا غير نقاد».

ولقد ظل الأستاذ الغمراوى يحمل رمح الفارس فى حومة النضال الأدبى حتى آخر عام من وفاته، فما برزت قضية من قضايا الأدب والتربية والاجتماع إلا كان الرجل صاحب الصوت المؤمن فى حلبتها، لقد ناقش قضية سفور المرأة، وناقش قضية الفن القصصى فى القرآن، وناقش قضية ترتيب سور القرآن وفق النزول.

مؤلفاتـــه :

١ - الإسلام فى عصر العلم.

٢ - فى سنن الله الكونية.

٣ - النقد التحليلى، وهو نقد لكتاب طه حسين فى الشعر الجاهلى.

٤ - ترجمة كتاب مرشد المتعلم.

وغيرها من البحوث والدراسات والمقالات والردود فى العديد من المجلات فى عصره.

٥ - بحث عن الجبال فى القرآن.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة :

١ - مقدمة كتاب الإسلام فى عصر العلم، للدكتور الكردانى.

٢ - المنتقى من محاضرات الشبان المسلمين، للأستاذ محب الدين الخطيب.

٣ - النهضة الإسلامية، للدكتور محمد رجب البيومى جـ ٢.

٤ - مجلة الرسالة، العدد (٧٠)، ٥/١١/١٩٣٤م.

٥ - حياتى، للدكتور أحمد أمين، ص ١٥٥، .

٦ - الإسلام فى عصر العلم، ص ٣٢٣.

٧ - الرسالة، العدد ٥٦٣، ١٧/٤/١٩٤٤م.

محمد إقبال
(١٨٧٧ - ١٩٣٨م)

وُلد محمد إقبال فى (سيالكوت) سنة ١٨٧٧م، ونشأ فى بيت اشتهر بالورع، وتعلم فى مدرسة إنجليزية، واجتاز امتحانها بامتياز، ثم تعرف بأستاذ يتقن الفارسية، فغرس فى نفسه حب الثقافة الإسلامية، إلى جانب إلمامه بثقافة العصر، وسافر إلى لاهور فالتحق بكليتها، ليتقن الإنجليزية والعربية وينال وسامين علميين، واتصل بذوى الفضل من رجال التعليم فأفاد منهم كثيرا، وأخذ ينظم الشعر بالفارسية فلفت الأنظار إليه، وأصبح أديبا شهيرا، ثم نال درجة الماجستير فى الفلسفة، وتعين أستاذا بكلية لاهور ثم بكلية الحكومة، ونَزَعَتْ به همته إلى السفر إلى لندن سنة ١٩٠٥م فدرس الفلسفة والاقتصاد بجامعة كامبردج، ولم ينس رسالته الدينية، فأخذ يلقى محاضرات فى موضوعات إسلامية غيرت مفاهيم كثيرة بلندن، وسافر إلى ألمانيا فنال درجة الدكتوراه من جامعة ميونخ فى الفلسفة، ورجع إلى لندن حيث حضر الامتحان النهائى فى الحقوق والاقتصاد، ثم عاد إلى الهند سنة ١٩٠٨م، وقد صار أستاذا صاحب رسالة ومنهج فى العلم، ومفكرا مهتما بشئون المسلمين والإسلام.

وكانت حالة العالم الإسلامى فى كل دوله موضع تفكيره الملح سواء بسواء - كحالة المسلمين بالهند - لذلك ندد بفظائع إيطاليا بطرابلس، وتألب الغرب على تركيا فى البلقان، ونشر من القصائد الحماسية ما جعله شاعر الإسلام الأول فى عصره، وما زال يوالى نشر أفكاره الثائرة سياسيا وعالما ومُنَقِدًا، ويؤلف الكتب الفلسفية والدينية بالإنجليزية والفارسية، ويمثل المسلمين فى المؤتمرات السياسية شرقا وغربا، ويدعو إلى إنشاء دولة إسلامية خالصة حتى لقى ربه فى سنة ١٩٣٨م بعد جهاد جعله بطل الأبطال، ونادرة المفكرين.

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

لقد كانت إقامته فى أوروبا ذات أثر قوى فى اتجاهه، لا لأنه اقتنع بما يجرى بها من تيارات منحرفة، بل لأنه أحس فى أعماقه أن

ما تدعو إليه من القومية الأثرة هو الذى فتن أبناء المسلمين ممن يتعلمون بأوروبا، وصرفهم عن عالمية الإسلام وإنسانيته، إذ إن الوطنية الجغرافية هى التى تَنْخر فى الجسم الإسلامى فتجعله أجزاء متخاذلة، لا ينهض برسالة، ولابد من فكرة إسلامية شاملة، تجعل بلاد الإسلام دارا واحدة، ومن المؤسف أن معارضيه من أبناء الدول الإسلامية لم يرتفعوا إلى مستواه، لأنهم ذهبوا إلى أوروبا دون أن يفهموا شيئا عن مبادئ الإسلام، وقد سحرهم بريق التقدم الصناعى، فظنوا أن أوروبا بهذا التقدم هى المنار الذى يرسل الشعاع، وهو ظن بدده إقبال فى قصائد ثائرة، مثل قصيدته فى رثاء صقلية المسلمة حين مرّ بها، وهتافاته بمجد الحجاز، ورسالة مكة، وصرخة الألم أمام قبر رسول الله ﷺ حين وقف أمامه يبكى حاضر العالم الإسلامى متحسرا على ذهاب ماضيه.

ومن أحسن ما قال فى هذا الصدد قصيدته الشهيرة (منارة السارى) التى تحدث فيها الشاعر بلسان الخضر عن مشاكل السياسة الأوروبية وفظائعها الاستعمارية، وحذّر المسلمين من الوقوع فى شراكها، وقد ترجم الأستاذ مسعود الندوى بعض أبياتها إلى العربية.

أما فلسفته الرائعة، فلسفة القوة، فجاءت طىّ مجموعة تحتوى على الحكم العالية، التى تجعل ذات المسلم مصدر قوته، إذا فهم أسرارها، وبهذا الفهم يُخْضِع الطبيعة لمشيئته، إذ لا يُكَرَّم فى الدنيا من لا يُكَرِّم نفسه، ويُرِى العالمين مبلغ إبائه وسموه، يقول إقبال ما ترجمته: «اتخذ قوتك الذاتية، واجعلها فى مكانة من العلو. وإن ابتغاء مرضاة الله لعبده لن تكون إلا حين يكون قويا غير مستكين».

وقد يضيق ذرعا بما يلمس من حال العالم الإسلامى؛ فيناجى ربه قائلا: «إنى أرى الرحمة تتوالى على الأجانب، أما المسلمون فتتقاذفهم النوائب؛ فأدركهم يا رباه، فإن البلية كل البلية أن الكفار اليوم ينعمون بحور مقصورات، والمسلمون المساكين يُعلَّلون بالحور فقط».

ثم يرجع إلى أيام العزة فى عصر المجاهدين الأولين فيقول: «كلما حانت الصلاة أثناء صليل السيوف، ولت الأمة الحجازية وجهها شطر القبلة، ووقف محمود (السلطان الغزنوى) جوار خادمه فى صف واحد، فلم يبق هناك عبدٌ ولا مولى، أصبحوا جميعا لله عبيدا، ولما وصلوا إلى حضرتك صاروا كتلة واحدة».

لقد علم إقبال أن الوظيفة الحكومية التى

سعى الإنجليز إلى إهدائها إليه بمرتب ضخم، وسيلة إلى تقييد دعوته إلى الأخوة الإسلامية فرفضها فى إباء، وآثر أن يكون مرشدا للناس دون مقابل، كما ألح المسلمون عليه أن يرشح نفسه فى الانتخابات البرلمانية، فقال: لا، أنا منتخب عن الشعب فيما أصدر من مقالات، هذه المقالات التى ناصرت ليبيا وفلسطين والأفغان وسوريا ومصر وكل بلد إسلامى كان يرزح تحت الاحتلال، وكان صوته أقوى الأصوات الداعية لإنشاء الباكستان مسلمة مستقلة، واعترف له بذلك كل من باشر جهوده من الزعماء، وفى طليعتهم القائد الباسل محمد على جناح.

أما قضايا الاشتراكية والشيوعية والنازية والفاشية التى سحرت ألباب المخدوعين فقد عكف الباحث الضليع محمد إقبال على دراستها، ليصدر حكمه ببهرجتها الزائفة، وليحصر الحل الأمثل فى هداية الإسلام، وقد قال أحد المستشرقين: إن تأثير إقبال بقذائفه الصائبة يفوق تأثير جيش مدجج بالسلاح، لأنه مع عاطفته الحارة كان مسلحا بالمنطق الصارم، والحق الملجم، وأن خصمه لا يستطيع منازلته صريحا إذ لابد معه من الاحتيال الشديد. وقد تحدث إقبال عن الفقر مريدا به خلوص النفس من الرغبات الجسمية التى تطفئ جذوة العمل، وتدعو إلى الكسل والخمود، لاسيما أن المسلم فقير بنص الكتاب العزيز، إذ يقول: ﴿ **يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله** ﴾ (فاطر:١٥). وفرق لدى إقبال بين الفقير والزهد، فالزهد اعتزال، ولكن الفقر دعوة للصمود ووثبة إلى الكفاح.

لقد أدى إقبال رسالته فى الحياة، ومضى إلى ربه قبل أن تشرق الباكستان بنورها على الأرض، ولعله الآن سعيدا فى آخرته حين يرى غرسه قد أثمر وآتى أكله من كل زوج بهيج.

مؤلفاته :

١ - بيام مشرق (رسالة المشرق) ترجمة عبد الوهاب عزام.

٢ - ضرب الكليم (ديوان شعرى) ترجمة عبد الوهاب عزام.

٣ - ديوان الأسرار - ترجمة عبد الوهاب عزام.

٤ - أسرار خودى (خودى معناها بالفارسية الذات).

٥ - رموز خودى.

٦ - أرمغان حجاز (أى هدية الحجاز) ديوان شعر.

٧ - جاويد نامة (رسالة الخلود) ديوان شعر.

٨ - بال جبريل (جناح جبريل) بالأردية.

٩ - أقوام شرق - ديوان شعر.

١٠ - الإيمان والاستغناء عن المادة (بحث علمى فلسفى).

١١ - يانك دارا - باللغة الأُردية.

١٢ - مسافر - بالفارسية.

أ. د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - فلسفة إقبال والثقافة الإسلامية فى باكستان (للأستاذين محمد حسن الأعظمى والصاوى شعلان).

٢ - محمد إقبال: سيرته وفلسفته وشعره للدكتور عبد الوهاب عزام.

٣ - محمد إقبال - للأستاذ مسعود الندوى (كُتيب).

٤ - شاعر الإسلام محمد إقبال - أبو الحسن الندوى (كُتيب).

٥ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين - جـ ١ - محمد رجب البيومى.

٦ - آراء مفكرى العرب حول إقبال - نشر السفارة الباكستانية.

٧ - إقبال الشاعر الثائر للدكتور نجيب الكيلانى.

محمد أمين المحبى
(١٠٦١-١١١١هـ = ١٦٥١-١٦٩٩م)

هو: محمد أمين بن فضل الله بن محب الله بن محمد محب الدين بن أبى بكر تقى الدين بن داود بن عبدالرحمن، الحموى الأصل، الدمشقى المولد والدار مؤرخ، باحث، أديب، ولد فى بيت من أشهر بيوتات العلم والدين والمال. فقد عمل محمد محب الدين والد جده بالقضاء كاتبًا بحماه، ثم تركها ونزل إلى دمشق، فكان أول من نزل بها من أجداده.

ثم ارتحل إلى القدس، ومصر، وزار بلاد الروم مرات، وتولى القضاء بمصر والشام، ثم ألقى عصا التسيار بدمشق، فدرَّس بالمدرسة القضائية، توفى عام ١٠١٧هـ ودفن بدمشق، وخلف وراءه ثلاثة أبناء: عبداللطيف وعبدالباقى ومحب الله. وكان محب الله، عالمًا فاضلاً كأبيه، غير أنه لم يعمر طويلاً فتوفى سنة سبع وأربعين وألف هجرية عن ستة وأربعين عامًا، وخلف وراءه ثمانية أبناء أحدهم فضل الله والد المحبى. وسار فضل الله على نهج أبيه وجده فأخذ معارف العصر على علماء دمشق، وأتقن الفارسية والتركية، واشتغل فترة بالقضاء، فعمل نائبًا لقاضى مصر، ثم عاد إلى دمشق مريضًا، وعكف على التأليف فترة، ثم تولى قضاء بيروت فترة، ثم عاد بعدها إلى دمشق بعد أن عاده المرض، فرجع إلى التأليف، فوضع ذيلاً على كتاب (التاريخ) لبدر الدين البورينى المتوفى سنة ١٠٢٤هـ.

وكان حسن المعرفة بفنون الأدب، وعنه أخذ المحبى الإنشاء وتلقى أساليبه منه، وقد حزن المحبى على وفاة أبيه حزنًا شديدًا.

وفى هذا البيت الكريم، تهيأت الأسباب لمحمد أمين أن ينشأ نشأة علمية دينية، بدأ رحلة الطلب فتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن وجوَّده على الشيخ إبراهيم بن رمضان الدمشقى المتوفى سنة ١٠٧٩هـ، والمعروف بالسقاء، وبعد أن ختمه فى الحادية عشرة من عمره، واصل رحلة طلبه للعلم فى هذه السن الباكرة.

تلقى المحبى العلم على شيوخ أجلاء من أعلام العصر، ويُذكر له أنه لم ينس فضلهم

ولم يغفل عن ذكرهم، فترجم لهم فى (خلاصة الأثر) أو فى (نفحة الريحانة).

وكان المحبى - كأبيه وأجداده. شغوفا بالترحال، وكانت إستانبول مطمح العلماء وسراة الناس.

دخلها المحبى فى الخامسة والعشرين من عمره، وهناك تنقل بين (بروسة) ومنها إلى (أدرنة) وفيها التقى بعبدالقادر البغدادى صاحب (خزانة الأدب).

وطاب المقام له فى (القسطنطينية) فقضى بها خمس سنين يتردد على معاهد العلم ومجالس العلماء، وفى أثنائها التقى بشيخ الإسلام محمد الأنكورى، ولازم شيخه محمد بن لطف الله بن زكريا المشهور بشيخ محمد العربى، وعنه يقول: «.. توجهت إليه بكليتى، وأوقفت أملى مذ أنا يافع عليه».

ولما قضى الله بموت أستاذه سنة اثنين وتسعين وألف هجرية، رأى المحبى أن الدهر قد عانده فى الديار والأحباب، فعاد إلى دمشق؛ ثم كانت رحلته إلى الحجاز للحج والمجاورة، وفى أثناء تلك الرحلة جمع مادة كتابيه (نفحة الريحانة) و(خلاصة الأثر) فيما يتصل بأخبار اليمن والبحرين والحجاز؛ ثم عاد إلى الشام، وقضى بها فترة منعزلاً عن الناس، حتى ورد إليها الأستاذ زين العابدين البكرى الصديقى المصرى، المتوفى سنة سبع ومائة وألف هجرية، فأخرجه من عزلته وأشار عليه بالرحلة إلى مصر، حين هم بالرجوع إليها، ولكن عائقًا خلفه، فظل بدمشق إلى أن قدم إليها المولى عبدالباقى المعروف بعارف، فى طريقه إلى القاهرة فصحبه إليها.

وفى القاهرة طاب له العيش والتأليف فى كنف الأستاذ زين العابدين، والقاضى عبدالباقى، وفى هذه الفترة من حياته يقول فى مقدمة (نفحة الريحانة): فلهذا صفا فكرى فى هذه الأيام من الشوائب، وشرعت بأمرهما فى نسخ ما سودته أولا وثانيا.

وقد اشتغل المحبى بالقضاء، فناب فى مكة ومصر... وعند عودته إلى دمشق اشتغل بالتدريس، حيث ولى تدريس الأمينية وبقيت عليه إلى وفاته.

وفى دمشق تواردت عليه الأسقام، وفى ثامن عشر من جمادى الأولى سنة إحدى عشرة ومائة وألف هجرية = ١٦٩٩م توفى المحبى، ودفن بتربة الذهبية من مرج الدحداح قبالة قبر العارف بالله أبى شامة.

وكان رحمه الله شاعرًا مجيدًا وناثرًا ماهرًا، ومؤرخًا محققًا، ولغويًا مدققا. برع

فى نظم الشعر، وله فيه ديوان. وكتابه (نفحة الريحانة) يفيض بمعارضاته ومراسلاته للشعراء، كما أنه ساق فى نهايته جملة من شعره، بدأها بمقتطفات من مقصورته النبوية:

دع الهوى فآفةُ العقل الهوى

ومن أطاعه من المجد فقد هوى

وذكر بعدها أرجوزته فى الأمثال التى يقول فى مطلعها:

أحسن ما سارت به الأمثالُ

حمدُ إله ما له مثال

وجاء فى عقبها عدد من مقطّعاته ومفرداته.

وله نثر جميل كأنه الشعر فى نسقه وأخيلته، غير أن فيه صنعة متكلفة كانت من سمات عصره البارزة، ونجد ذلك واضحًا فى صدر ترجماته لمعاصريه فى (خلاصة الأثر) وفى (نفحة الريحانة)، كما نجده فى مراسلاته ومحاوراته.

ومن أهم مؤلفاته :

١- جَنَى الجنتين فى تمييز نوعى المثنيين.

٢- حصة على ديوان المتنبى.

٣- خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر. فى أربعة مجلدات.

٤- الدر المرصوف فى الصفة والموصوف.

٥- ديوان شعر.

٦- قصد السبيل فيما فى اللغة العربية من الدخيل.

٧- ما يعول عليه فى المضاف والمضاف إليه.

٨- نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة.

٩- الناموس على القاموس. وهو حاشية وتعليق على القاموس المحيط للفيروز آبادى. مات دون إكماله.

١٠- كتاب الأمثال، وجميع هذه المؤلفات منها ما هو مطبوع، ومنها ما هو مخطوط.

أ.د. محمد حسن عبد العزيز

مراجع للاستزادة:

١- الأعلام للزركلى، حـ٦ / ٤١.
٢- ما يعول عليه فى المضاف والمضاف إليه. للمحبى تحقيق: د. محمد حسن عبدالعزيز، حـ١ / ٩ - ٢٣ بتصرف.
٣- سلك الدرر للمحبى، حـ٤ / ٨٦.
٤- خلاصة الأثر، حـ٣ / ٣٢٢.
٥- نفحة الريحانة، حـ١ / ١٧.
٦- تاريخ آداب اللغة العربية، لجورجى زيدان حـ٣ / ٢٩٥.

محمد بخيت المطيعى
(١٢٧١ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٥٤ - ١٩٣٥ م)

هو محمد بخيت بن حسين المطيعى الحنفى.

ولد رحمه الله - تعالى - ببلدة المطيعة، مركز ومديرية أسيوط، سنة ١٢٧١هـ الموافق ١٨٥٤م، وانتقل إلى رحمة الله سنة ١٣٥٤هـ الموافق ١٩٣٥م.

التحق بكُتَّاب بلدته، وتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم كله وجوَّده، ثم التحق بالأزهر الشريف فى عام ١٢٨٢هـ، وأخذ فى تلقى العلوم الشرعية والعربية، وكان حنفى المذهب، وتتلمذ على كبار الشيوخ فى الأزهر وخارجه، وكان منهم: السيد جمال الدين الأفغانى، والشيخ حسن الطويل، وغيرهم.

نال شهادة العالمية من الدرجة الأولى فى أواخر عام ١٢٩٢هـ.

أنعم عليه بكسوة التشريفة مكافأة له على نبوغه وفضله، واستمر فى تلقّى العلوم على شيوخه الكبار من علماء الأزهر.

وفى سنة ١٢٩٥هـ اشتغل بتدريس علوم الفقه والتوحيد والمنطق، إلى أن عُيِّن قاضيًا فى ١٢٩٧هـ، واستمر يترقَّى فى سلك القضاء إلى أن عُيِّن مفتشًا شرعيًا بنظارة الحقانية (وزارة العدل) فى ١٣١٠هـ، ثم قاضيًا للإسكندرية ورئيسًا لمجلسها الشرعى فى ١٣١١هـ، ثم عُيِّن عضوًا بمحكمة مصر الشرعية ورئيسا لمجلسها العلمى، ثم عضوًا أول بمحكمة مصر العليا الشرعية، وفى هذه الأثناء ناب عن قاضى مصر الشيخ عبد الله جمال الدين لمدة ستة أشهر ، ثم عُيِّن بدله.

ونقل إلى إفتاء نظارة الحقانية (وزارة العدل) فى أوائل ١٩١٢م، وأحيل عليه قضاء مصر نيابة عن القاضى نسيب أفندى.

وفى ٩ من صفر ١٣٣٣هـ عين مفتيا للديار المصرية، واستمر يشغل هذا المنصب حتى ١٦ من شوال ١٣٣٨هـ، أصدر خلالها حوالى ٢٠٢٨ فتوى، وكانت له فتاوى جريئة. ومن مزايا فضله أنه فى أى بلد حلَّ فيه لم ينقطع عن تدريس العلوم الشرعية النقلية والعقلية وغيرها لطلبة العلم ومريدى المعرفة.

مؤلفاته :

وفضلا عن كل هذا، ومع كثرة مشاغله

بأعماله الرسمية فإنه ألَّف الكثير من الكتب، والتى منها على سبيل المثال:

١- إرشاد الأمة إلى أحكام أهل الذمة.

٢- حسن البيان فى دفع ما ورد من السنة على القرآن.

٣- الكلمات الحسان فى الأحرف السبعة وجمع القرآن.

٤- الأجوبة المصرية عن الأسئلة التونسية.

٥- حقيقة الإسلام وأصول الحكم.

٦- إرشاد العباد فى الوقف على الأولاد.

٧- الكلمات الطيبات فى الإسراء والمعراج.

٨- حسن الكلام فيما يتعلق بالسنة والبدع والأحكام.

٩- إزاحة الوهم فى مسألتى الفوتوغراف والسكورتاه.

١٠- القول المفيد فى علم التوحيد.

١١- البدر الساطع على جمع الجوامع فى أصول الفقه.

١٢- المراهنات اليمانية فى الوقف على الذرية.

١٣- القول الجامع فى الطلاق.

١٤- رفع الأغلاق عن مشروع الزواج والطلاق.

وغير ذلك من المؤلفات التى زادت عن العشرين مؤلفًا.

هذا بجانب وقته الكبير الذى خصصه للإفتاء، حتى اشتهر عنه أنه صاحب الاختصاص الأشهر فى استنباط الأحكام الشرعية، وإسنادها إلى أصولها، وتطبيقها على مختلف حوادث الزمان.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - الكنز الثمين، لفرج سليمان داود، ص ١٢٠.

٢ - الأعلام. لخير الدين الزركلى. الطبعة الثانية ٦ / ٢٧٤.

محمد البهــى
(١٩٠٥ - ١٩٨٢م)

ولد محمد البهى فى قرية «أسمانية» التابعة لمركز شبراخيت بمحافظة البحيرة بمصر فى ٣ أغسطس/١٩٠٥م. وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم التحق عام ١٩١٧م بمعهد دسوق الدينى، وبعد ثلاث سنوات انتقل إلى معهد طنطا الدينى، ثم إلى معهد الإسكندرية الدينى، حيث حصل منه على الشهادة الثانوية الأزهرية. وبعد ذلك تابع دراسته فى الأزهر الشريف بالقاهرة، وحصل على شهادة العالمية النظامية، بعد أن تقدم إلى الامتحان من الخارج مختصرا بذلك المدة الدراسية، ثم التحق بقسم التخصص فى البلاغة والأدب، وأتم دراسته فى هذا القسم وحصل على درجة التخصص عام ١٩٣١م، وكان البحث الذى تقدم به للحصول على هذه الدرجة بعنوان «أثر الفكر الإغريقى فى الأدب العربى نثرا ونظما».

وفى سبتمبر ١٩٣١م سافر إلى ألمانيا لدراسة الفلسفة، مبعوثا من مجلس مديرية البحيرة على البعثة التى كانت ممولة إحياءً لذكرى الشيخ محمد عبده. وقد حصل على الدكتوراه من جامعة هامبورج عام ١٩٣٦م، وكانت رسالته للدكتوراه فى موضوع «الشيخ محمد عبده والتربية القومية فى مصر».

وبعد عودته إلى مصر اشتغل بتدريس الفلسفة فى كلية أصول الدين، ثم نقل عام ١٩٥٠م إلى كلية اللغة العربية أستاذا ورئيسا لقسم الفلسفة، وعمل بجانب التدريس مديراً عاما للثقافة الإسلامية بالأزهر، ثم عين أول مدير لجامعة الأزهر بعد صدور قانون تطوير الأزهر عام ١٩٦١م. وفى سبتمبر ١٩٦٢م عين وزيرا للأوقاف وشئون الأزهر. وفى مارس ١٩٦٤م عين مرة أخرى مديرا لجامعة الأزهر، فاستقال. وعُين أستاذا للفلسفة الإسلامية بكلية الآداب بجامعة القاهرة. وعندما بلغ الستين من عمره، ترك التدريس وتفرغ للكتابة والتأليف، إلى أن وافته المنية فى ١٠ سبتمبر ١٩٨٢م، وعمره سبعة وسبعون عاما.

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

يتضح من كتابات الدكتور محمد البهى فى فترة الستينيات أنه كان يبدو متحمسا للاشتراكية العربية، بوصفها نظاما حتميا لإعادة الوضع الإسلامى[1]، وكان يذهب إلى القول بأنه: لا سبيل إذن للمجتمعات الإسلامية المعاصرة من أمرين معا يحتمهما الإسلام.

أولا : تسلم مال الأعداء، وهو رأس المال الأجنبى الذى حماه الأجنبى باستعماره.

وثانيا : إبقاؤه ملكية عامة، وطريق ذلك هو التأميم.

ولكنه كان يفهم الاشتراكية العربية على أنها نظام يجمع بين الملكية العامة فى مصادر الإنتاج الرئيسية، والملكية الخاصة، والإيمان بالله وبدينه، والمساواة، وعلاقات الأخوة والتعاون مع الشعوب النامية[2].

ومن هنا كانت دعوته لعلماء المسلمين أن يشاركوا فى مساندة هذا النظام، بالفقه وبالفلسفة الإسلامية وبالنصيحة وبتحرير الاقتصاد القومى. ولكن أمله خاب فى الاشتراكية العربية بعد أن أثبتت التجربة فشل كل الشعارات التى رفعتها. وقد تم حذف الكثير مما كتبه عن الاشتراكية العربية من كثير من كتبه عند إعادة طبعها، وأصبح لايؤمن إلا بحلول إسلامية خالصة.

وقد وقف الدكتور البهى موقفا صارما ضد تيار الفكر المادى التاريخى (تهافت الفكر المادى التاريخى ١٩٧٥م). وقد بين فى هذا الكتاب مدى تخلف الفكر الماركسى اللينينى وإفلاسه فى تحقيق العدالة الاجتماعية، ومدى بعده عن إيجاد مجتمع إنسانى عديم الطبقات، ومدى نفاذه فى الاحتفاظ بالسلطة عن طريق استخدام الإرهاب والتعذيب والتجويع والإذلال. فالتقدمية التى يدعيها لا صلة لها بالتقدم فى إنسانية الإنسان، وهو إذ يدعى العدالة يحقق الظلم، ويخلق طبقة بدل طبقة، ويحارب الدين، ويمنع المجتمع الماركسى أن يطل على الفكر الإنسانى الآخر غير الماركسى[3].

وكما وجه الدكتور البهى نقده للفكر الماركسى وجه أيضا سهام نقده للفكر الغربى الاستعمارى، الذى يريد إبقاء المسلمين فى موقع التخلف. ومن هنا كان كتابه «الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى» الذى قصد به - كما يقول - «بيان السبيل لمن يحرص فى الشرق الإسلامى على الاستقلال فى التفكير وفى السياسة من مفكرى الإسلام وزعماء السياسة بينهم. وهذا السبيل ليس

هو سبيل الغرب الذى يدعونا إليه، لأن فى سبيل الغرب قبول الاستعمار والمذلة والدعوة إلى التخلف، وإنما هو سبيل الشرق (الإسلامى) الذى يريد أن يتحرر من استعمار الغرب وإذلاله وحرصه على أن يبقى متخلفا»[٤].

ولم يكن الدكتور البهى يترك فرصة إلا ويهاجم بشدة الفكر المادى فى مختلف أشكاله وصوره. وهذا ما يلحظه المرء بوضوح فى معظم كتبه، حتى مؤلفاته فى تفسير القرآن الكريم راح يبين فيها أن الوحى المكى قد حارب مادية الفكر التى كانت تسيطر على عقول العرب المكيين. وما المادية المعاصرة إلا شكل آخر من أشكال المادية لايختلف فى أساسه عن المادية القديمة.

ويرى الدكتور البهى أن حل مشكلات المجتمعات الإسلامية المعاصرة يكمن فى الحلول الإسلامية، وليس فى الحلول المستوردة من الشرق أو الغرب. وقد حاول أن يوضح ذلك فى كتابه «الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة»، تناول فيه الرأى الإسلامى فى حل عدد من المشكلات التى تسود المجتمعات الإسلامية المعاصرة وهى مشكلات: العلمانية والديمقراطية، ومشكلة الاقتصاد فى المجتمع، ومشكلة العمل فى المصانع، ومشكلة التأمين والبنوك، ومشكلة ازدياد السكان، والإسلام فى تجربة الحياة الصناعية المعاصرة.

وهكذا كان حريصا على عرض وجهات النظر الإسلامية فى مواجهة التيارات المعاصرة، ويشير إلى ذلك فى سيرته الذاتية[٥]، بقوله: «وأعتقد أنى قد ساهمت إلى حد ما فى عرض الإسلام فى مواجهة التحديات الأيديولوجية الماركسية والمنطقية الوضعية».

ولكن الدكتور البهى فى نقده للفكر الماركسى من جانب والفكر الغربى الرأسمالى من جانب آخر، وفى نقده لتيارات الفكر الإغريقى، لم يكن يدعو إلى انغلاق الفكر الإسلامى على نفسه، ولكنه كان يدعو إلى التأنى فى القبول أو الرفض، ويعبر عن هذا الموقف بقوله: «إن الأمة الإسلامية فى حاضرها لاينبغى أن تغلق النوافذ دون الفكر المعاصر، كما لم تغلقها دون الفكر الإغريقى فى الماضى، ولا الفكر الفارسى أو الهندى أو الدينى المسيحى اليهودى، ولكن يجب أن تتريث فى قبوله، ولا تتوانى فى رده إن كان يحمل خطرا يهدد وجودها واستقلال ذاتيتها كما فعلت بالأمس»[٦]. فالقصد إذن هو تقييم

هذا الفكر الوافد «بهدف أن تبقى رسالة الله فى بعد عن صفة الإنسان؛ كى ترسم الطريق المستقيم لهداية الناس جميعا، كما يبقى الفكر الإنسانى مستقلا عن أن تشوبه عقيدة أو إيمان؛ كى لايحجم الإنسان عن نقده وتقييمه»[٧].

مؤلفاته :

للدكتور محمد البهى إنتاج علمى غزير ومتنوع، ومعظم هذا الإنتاج ألفه فى العشرين عاما الأخيرة من حياته بعد أن تفرغ للتأليف. وقد بلغ عدد الكتب التى ألفها ٢٣ كتابا، وعدد الرسائل الصغيرة ٢٢ رسالة، وقام بتفسير ٢٣ سورة من سور القرآن الكريم، بالإضافة إلى تفسير «جزء عمّ» كله. وأهم مؤلفاته المبكرة فى الفلسفة الإسلامية كتابه «الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى» (١٩٤٨م).

أما الكتاب الذى كان سبب شهرته فى العالم العربى والإسلامى فهو كتابه: «الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى» (١٩٥٧م).

ومن بين مؤلفاته التى توالى صدورها منذ أواسط الستينيات، نذكر بصفة خاصة المؤلفات التالية:

١ - الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم.

٢ - الفكر الإسلامى المعاصر: الجزء الأول: مشكلات الأسرة والتكافل. الجزء الثانى: مشكلات الحكم والتوجيه.

٣ - الإسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر.

٤ - طبقية المجتمع الأوروبى وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامى المعاصر.

٥ - منهج القرآن فى تطوير المجتمع.

٦ - تهافت الفكر المادى التاريخى.

٧ - من مفاهيم القرآن فى العقيدة والشريعة.

٨ - المجتمع الحضارى وتحدياته من توجيه القرآن الكريم.

٩ - الإسلام فى حياة المسلم.

وقبل وفاته بعامين كتب سيرته الذاتية وقد صدرت بعد وفاته بعنوان: «حياتى فى رحاب الأزهر: طالبا وأستاذا ووزيرا». ويُعد هذا الكتاب وثيقة هامة لتسجيل بعض الأحداث التى مرت به، ولها صلة ببعض التطورات السياسية والأحداث التى مرت بالأزهر.

أ. د. محمود حمدى زقزوق

الهوامش :

١ - الإسلام ونظم الحكم المعاصرة. ص ٧٩.
٢ - المرجع السابق، ص ٨٧.
٣ - تهافت الفكر المادى التاريخى، ص ٧، ٨.
٤ - المرجع السابق، ص ٢٠.
٥ - حياتى فى رحاب الأزهر طالبًا وأستاذًا ووزيرًا. ص ١٣٩ .
٦ - الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى. ص ٦.
٧ - المرجع السابق، ص ١٢.

مراجع للاستزادة :

أولاً : مؤلفات الدكتور محمد البهى وبخاصة المؤلفات المذكورة فى الهوامش التالية.
ثانيًا : العديد من المقالات التى كتبت عن الدكتور محمد البهى فى كثير من الصحف والمجلات فى مصر والعالم العربى، فضلا عن بعض الرسائل الجامعية التى قدمت إلى جامعة الأزهر حول فكره وآرائه الإصلاحية.

محمد توفيق البكرى
(١٢٨٧ - ١٣٥١ هـ = ١٨٧٠ - ١٩٣٢م)

هو محمد توفيق بن على بن محمد البكرى الصدِّيقى شاعر وأديب مترسل من أعيان مصر، مولده ووفاته بالقاهرة، ينتهى نسبه إلى أبى بكر الصديق رضي الله عنه وينتسب من جهة أخواله إلى الحسين بن على سبط رسول الله ﷺ. عاصر توفيق البكرى شاعرى مصر الكبيرين فى الثلث الأول من القرن العشرين : أحمد شوقى، وحافظ إبراهيم . وكان من الاتفاق أنه ولد فى تاريخ قريب من مولدهما، وأن وفاته كانت فى نفس السنة التى توفيا فيها .

تولى نقابة الأشراف ومشيخة مشايخ الصوفية فى سنة ١٣٠٩هـ = ١٨٩٢م وهو فى الثانية والعشرين من عمره، وعين عضوًا دائمًا فى مجلس شورى القوانين. ووفد على السلطان العثمانى عبد الحميد فى الآستانة سنة ١٨٩٢م فبالغ السلطان فى إكرامه والحفاوة به حتى إنه أنعم عليه برتبة الوزارة وقضاء العسكر، ولم يسبق فى تاريخ الدولة العثمانية منح مثل هذه الرتبة لمن هم فى سن البكرى. وزار أوروبا مرتين عرف خلالهما باريس وفيينا، وكان يجيد الفرنسية والتركية ويتكلم الإنجليزية. وتوثقت صلته بالخديوى عباس حلمى خلال السنوات الأولى من ولايته حكم مصر (١٨٩٢ - ١٩١٤م)، فمدحه شعرًا ونثرًا ، ونال حظوة لديه، غير أن العلاقات ساءت بينهما بعد ذلك، فهجاه سرا بشعر اشترك فى نظمه مع الكاتب المعروف مصطفى لطفى المنفلوطى ، واشتدت العداوة بينه وبين الخديوى مما ألجأه إلى الانزواء والعزلة، وتسبب ذلك فى إصابته بآلام نفسية اضطرته إلى الهجرة من مصر، فرحل إلى بيروت حيث ظل يعالج على مدى ست عشرة سنة (١٩١٢ - ١٩٢٨م) فى مصحة «العصفورية» للأمراض النفسية. وعلى الرغم من نفى عباس حلمى وعزله فى سنة ١٩١٤م فقد بقى الشيخ البكرى يعانى من حالة غريبة أصبحت نوعًا من الهوس، إذ كان يعتقد أن أعوان الخديوى السابق يتربصون به لقتله، فكان يخالط الناس، ويقابل زواره وهو فى حالة طبيعية ، فإذا جاء ذكر عباس حلمى،

تهـيـج وخــرج عن طوره. وطالب بعض أدباء مصـر بعودته إلى مـصـر، فعـاد سنة ١٩٢٨م، ولكنه استـمـر فى عزلتـه حتى وفـاته فى سنة ١٣٥١هـ الموافق ١٩٣٢م.

كـانت بداياته الأدبيـة تبـشـر له بمسـتـقـبل مـرموق، إذ بدأ الكتابة ونظم الشـعـر وهو فى العـشـرينيـات من عـمـره، وألف كتـبًا حظيت بالقـبـول من أدباء عـصـره، غـيـر أن ذكـره لم يلبث أن أفل نجـمــه، وذلك لأسـبـاب منهـا مـعـاداته للخديوى، ونزوعـه للعـزلة والانطواء، بالإضـافـة إلى وقـوعـه بين أعـلام الشـعـراء المعـاصـرين له مـثل شـوقـى، وحـافظ، وخليل مطران، ولعل من أسـبـاب ذلك أيضـا اتجـاهـه المسـرف فى المحـافظة، وتقليـد القـدمــاء، واسـتـخـدامـه الغـريب والحـوشى من الألفـاظ مما باعد بينه وبين ذوق العصر.

ويعـد «صـهـاريج اللؤلؤ» نموذجًـا لأسلوب البكرى فى شعره ونثره، ويقول فى مقدمته : «فـهـذا كلمـات من النثـر وأبيـات من الشـعـر ضـمنتهـا نخبًا من الحكم، وأقاويل من جوامع الكلم»، ويشـيـر إلى أنه سـيلتـزم فـيـه أسلوبًا يشبه «فصيح كلام الحجاج، وغـريب رؤبة بن العـجـاج». والكتـاب مـجـمـوعـة من المقـالات النثرية والقصـائد والمقطعات الشعـرية، تبلغ أربعة عشر نصًا فى موضوعات وصفية، أو خـــواطر وتأمــلات تـأتى فى عـــرض المديح والرثاء.

وهو فى النصـوص النثـرية يلتـزم السـجع ويكثـــر من الإشـــارات إلى التـــراث العـــربى القديم، وشخصيات التاريخ الإسلامى، على نحو لا يستطيع معه القارئ أن يفهمه إلا إذا كـان مـسـتـوعـبًـا لهـذا التـراث، ولغـتـه حـافلة بالغريب من الألفاظ مما اقتضى من شارحيه أن يتوسعـا فى التفسيـر والتعليق، وكثيـرًا مـا يعـمـل على تطويع لغـــة المعـاجم القـديمة لمسـتـحـدثات الحـضـارة الحـديثـة، أو يقـتـرح ألفـاظا عـربيـة لتـعـابيـر إفـرنجـيــة، مـثل استخدامه لـ «بيوت الأمتعة» لما نسميه اليوم المتـاحف، و«المسـمـعـة» للهـاتف أو التليـفـون، و«الفنزج» للرقص الأوروبى، و«حـمـاد» للفظ الشكر الفرنسى merci، و«قهرمانة» لما يسميه الأوروبيون camarera (أى القيمة، على غرف البيت)، و«مرحى» للفظ التشجيع "bravo".

وفى المقالة الأولى بعنوان «القسطنطينية» يسـجل لنا رحلتـه بالسـفـينة إلى حـاضـرة الخلافة العثمانية ، ويقدم وصفا مفصلاً للمـدينة : مـبـانيـهـا ومـسـاجـدهـا وأسـواقـهـا وشوارعها ومتنزهاتها وسكانها، ويختم المقال بمديح للسلطان عبد الحميد «أمير المؤمنين» يصـوغـه نثـرًا، ثم يشـفـعـه بقـصـيدة من سـتـة وثلاثين بيـتًـا يهنئـه فـيـهـا بانتـصـاراته على اليونانيين. ونستشف من خلال وصفه لجمال

التركيات و«الجرجيات» معرفته بالمجتمعات الأوروبية وثقافتها، فهو يقول : إنه جمال لا مثيل له لدى الإفرنجيات، إلا فيما رسمه المصور الإيطالى رافائيل للملائكة، أو فى أشعار دانتى والشاعر الفرنسى لامارتين. وفى المقال الثانى بعنوان «نابوليون» يقف على قبر العاهل الفرنسى فى باريس، ويصف معاركه التى انتصر فيها على خصومه وبصفة خاصة على قيصرى روسيا والنمسا، ثم يصوره فى منفاه بعد هزيمته الأخيرة وزوال ملكه. ويبدو أنه قصد من هذه المقالة معارضة شوقى فى قصيدته النونية «على قبر نابوليون».

والنص الثالث قصيدة فى تسعين بيتًا يتغنى فيها بمصر وطبيعتها وإن كان قد بدأها على طريقة الشعراء القدماء بالبكاء على ديار مَيَّة، ويختمها بمديح للخديوى عباس قبل أن تفسد العلاقة بينه وبين السلطان. ويكرر هذا المديح فى النص الخامس، وهو فى وصف رحلة بحرية له من أوروبا عائدًا إلى مصر، إلا أنه صاغ هذا المديح فى قصيدة من ثلاثين بيتًا وجعل عنوانها «خديوى مصر».

والنص الثامن وهو بعنوان «الفنزج» (ويجعل مقابله البالو)، فى وصف مَرْقَص فى فيينا، واللفظ يعنى فى الأصل لونا من ألوان الرقص الفارسى، ولكن البكرى أراد أن يعبر به عن الرقص الأوروبى، ويلفت النظر هنا أن لشوقى أيضا قصيدتين فى نفس الموضوع.

ونجد مثل هذا التوافق بين الشاعرين فى مقالة البكرى الثانية عشرة، بعنوان «غابة بولونيا» وفيها يصف باريس وشوارعها وتماثيلها، ثم غابة بولونيا فى مختلف ساعات النهار والليل، ويعرج على حديقتى النباتات والحيوان فيها. والفرق بينه وبين شوقى فى قصيدته التى تحمل العنوان نفسه هو أن البكرى كان موضوعيًا محايدًا فى وصفه، على حين أن شوقى أودع قصيدته ذكرياته الحميمة عن أيام ماضية قضاها فى هذا الغاب.

النص العاشر وهو بعنوان «صلاح الدين بن أيوب» مقالة زاوج فيها البكرى بين النثر والشعر، وفيها يستعيد ذكرى البطل الإسلامى وانتصاره فى حطين واسترداده بيت المقدس، وأكثر هذه المقالة فى وصف مشاهد القتال.

والنص الحادى عشر قصيدة فى رثاء أبيه والفخر ببيته الذى يرتفع نسبه إلى الصديق أبى بكر ﷺ، ومن الواضح أن هذه القصيدة الميمية فى وزنها وقافيتها معارضة لقصيدة المتنبى فى رثاء جدته. ومن الاتفاق بين

البكرى وشوقى أيضا أن أمير الشعراء عارض القصيدة نفسها فى مرثيته لوالدته أثناء منفاه فى أسبانيا.

والنص الثالث عشر بعنوان «ذات القوافى» وهو قصيدة تبدو محاكاة للرباعيات الفارسية إذ هى تتألف من مقطوعات، كل مقطوعة من بيتين بقافية مختلفة، وإن كانت المقطوعات كلها من بحر واحد هو المتقارب. أما موضوعها فهو غزل تقليدى فى محبوبة يدعوها «ميَّة».

وباقى النصوص مقالات قصيرة أو مقطوعات شعرية، أودعها المؤلف بعض تأملاته فى الطبيعة والمجتمع وموضوعات أخرى مثل العزلة والشيب.

وقد خلف توفيق البكرى عدداً من الكتب يرجع معظمها إلى شبابه المبكر، نذكر منها اثنين فى تاريخ أسرته وأعلام أهل بيته وأنسابهم هما: «بيت الصديق» و«بيت السادات الوفائية» من مشايخ الصوفية، وكتب ذات طابع اجتماعى وتربوى مثل «المستقبل للإسلام» و«التعليم والإرشاد». وفى ميدان الأدب «أراجيز العرب» وفيه يبدو ولعه بهذا اللون من النظم الذى يحفل بغريب اللغة، و«فحول البلاغة» وهو إشادة بأعلام الكتاب المترسلين القدماء وعرض لمختارات من نماذج كتاباتهم، وهو كتاب قام بتقريظه شعراً حافظ إبراهيم، وأشهر كتبه النثرية «صهاريج اللؤلؤ» الذى توفر على شرحه اثنان من علماء اللغة، هما أحمد أمين الشنقيطى، وأبو بكر محمد لطفى. وعلى الرغم من كثرة شعره فإنه لم يقدم على أن ينشره فى ديوان.

أ.د. محمود على مكى

مراجع للاستزادة:

١ - أعمال محمد توفيق البكرى الواردة فى المادة.

٢ - الزركلى: الأعلام، بيروت ١٩٧٩م، ٦/٦٥ - ٦٦.

٣ - أحمد عبيد: مشاهير شعراء العصر، دمشق ١٩٢٢م، ١/١٦٨.

٤ - عمر الدسوقى: فى الأدب الحديث، القاهرة ١٩٥٠م، ٢/٣٥٤.

٥ - أحمد شوقى: الشوقيات، القصائد المشار إليها فى المادة.

٦ - محمد صبرى السوربونى: الشوقيات المجهولة، ٢/١١٤-١١٥.

٧ - حافظ إبراهيم: ديوانه ١/١٤٨، ١٨٨.

محمد الحافظ التجانى
(١٣١٥ - ١٣٩٨هـ = ١٨٩٧ - ١٩٧٨م)

هو السيد محمد الحافظ بن عبد اللطيف ابن سالم التجانى المصرى المالكى الحسينى.

ولد سنة ١٣١٥ هـ فى ربيع الثانى = ١٨٩٧م فى بلدة كفر قورص مركز أشمون بالمنوفية فى مصر.

نشأ بين أبوين كريمين حرصا على تهذيبه والعناية به.

قرأ القرآن الكريم على الشيخ عبد الله حمادة، ثم حبب إليه الاشتغال بالعلم، فكان يختلف إلى حلقات العلم بالأزهر المعمور. وكان يطالع كل ما يصل إليه من الكتب، ثم دخل مدرسة السيد محمد رشيد رضا - رحمه الله - وبعد أن تخرج منها صحب جملة من العلماء، فأخذ العربية عن الشيخ يوسف الكومى، وقرأ الفقه المالكى على الشيخ عبد المنعم القاسم، وقرأ الأصول على الشيخ محمد ماضى البنهاوى، والتفسير على الشيخ يوسف الدجوى.

ولازم العارف بالله تعالى الشيخ سلامة القضاعى الشافعى، واستفاد منه إفادات جمّة، وحمل منه مسائل مهمة.

وقد شغف الشيخ بحديث الرسول ﷺ، وحرص على اقتناء كتبه ومطالعتها والسهر فى تدوين الفوائد، وكان يمكث فى المكتبات الأيام والليالى المتوالية فى البحث والاطلاع بدون أن يمل، وكان يقول: (إن من مِنَّة الحق - تبارك وتعالى - أن علق قلبى بكتب السنة المطهرة).

رحل إلى الحجاز عدة مرات، وإلى السودان والمغرب والشام، وروى فى هذه البلاد عن كبار علمائها، وهؤلاء العلماء أسانيدهم مشهورة معروفة، بل لبعضهم فهارس مطبوعة كالشيخ محمد عبد الحى الكتانى.

وفى أثناء سياحاته طالع الكثير من كتب الحديث بمكتبات الحرمين الشريفين، ومكتبة مسجد الجزار، والمكتبة الظاهرية بدمشق ومكتبة القرويين بفاس وغيرها، وحصل على كثير من المخطوطات بالتصوير أو النسخ.

كان يواظب كل ليلة سبت بعد صلاة العشاء على شرح كتاب «الموطأ» للإمام مالك، وكانت طريقته فى الشرح أنه بعد أن يقرأ القارئ الحديث يتكلم على اللغات، ثم الأحكام مع بيان كل مذهب بدليله، وأحيانا كان يسأل

الحاضرون فيجيبهم بالأدلة، وكان الدرس يستمر بعد العشاء لمدة ثلاث ساعات، ثم يجلس مع من شاء للمذاكرة، إلى الفجر أو القريب منه، وكان يقول: (إنى أشفى بالعلم).

وكان يحث تلاميذه على طلب العلم، وأنشأ فى كل زاوية مكتبة كبيرة ليطلع عليها أبناؤها، أما مكتبته الخاصة فهى من أكبر المكتبات بالقاهرة، وكان يفتحها للراغبين فى البحث والاطلاع.

وكان كثير الفكر والذكر، دائم المجاهدة على عقيدة أهل السنة والجماعة، وقام بالفرائض علما وعملا ظاهرا وباطنا.

توفى رحمه الله سنة ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

من شيوخه : الشيخ محمد زاهد الكوثرى، العلامة السيد أحمد بن محمد بن الصديق الغمارى الذى كان يصفه المترجم بالإمامة فى الحديث ويثنى على مصنفاته، الشيخ ألفا هاشم بن أحمد بن سعيد الفوتى المدنى، الشيخ مدكور الصفطاوى، القاضى أحمد سكيرج، الشيخ محمد بن إبراهيم السمالوطى، الشيخ على بن سرور الزنكلونى، الشيخ كمال الدين القاوقجى، الشيخ عبد الستار الدهلوى، الشيخ السيد علوى بن عباس المالكى، الشيخ بركة بدر الدين بن يوسف البيبانى، والشيخ محمد عبد الحى الكتانى.

ومن تلاميذه: الشيخ محمد متولى الشعراوى.

مؤلفاته:

١ - ترتيب وتقريب مسند الإمام أحمد.

٢ - ترتيب ذخائر المواريث للنابلسى.

٣ - ترتيب تخريج أحاديث الإحياء على حروف المعجم، وأمام كل حديث تعليق السيد مرتضى الزبيدى.

٤ - تخريج أحاديث جواهر المعانى، وطبع بمجلته (طريق الحق) جزء منه.

٥ - تعقيبات على استدراكات الحافظ الذهبى على الحاكم النيسابورى، ولم يكمل.

٦ - فهرس الطبقات الكبرى للشعرانى.

٧ - فهرس كنز العمال للمتقى الهندى.

٨ - الحد الأوسط بين من أفرط وفرط، فى التوحيد.

٩ - رد أوهام القاديانية فى قوله تعالى: ﴿ وخاتم النبيين ﴾.

١٠ - رسول الإسلام ﷺ ورسالته الجامعة.

١١ - سبيل الكمال.

١٢ - سنة الرسول ﷺ، طبع مجمع البحوث الإسلامية

١٣ - رد أكاذيب المفترين على أهل اليقين.

١٤ - تخريج أحاديث كتاب «اللمع» لأبى نصر الطوسى، طبع بنهاية الكتاب المذكور.

١٥ - تفسير سورة الفاتحة، وسورة البقرة، والأجزاء الستة الأخيرة من القرآن، نشرها بمجلته «طريق الحق».

أ.د. أحمد عمر هاشم

محمد حسنين مخلوف

(١٢٧٧-١٣٥٥هـ = ١٨٦١ - ١٩٣٦م)

هو محمد حسنين محمد على مخلوف العدوى المالكى.

نبت فى أرومة عريقة فى الحسب والنسب، ببنى عدى إحدى قرى مركز منفلوط بمديرية أسيوط.

ولد فى منتصف شهر رمضان سنة ١٢٧٧هـ الموافق ١٨٦١م، وكان والده العلامة الشيخ حسنين محمد على مخلوف من كبار علماء الأزهر. أقام به سنين، ثم عاد إلى بلده يعلم أهلها الفقه والدين وعلوم القرآن- وجده لأمه العلامة التقى الشيخ محمد خضارى، أحد أعلام الأزهر فى مستهل القرن الثالث عشر الهجرى.

وفى أول فبراير سنة ١٨٩٧م عين أمينا لمكتبة الأزهر، وعنى بأمرها كثيرًا حتى تم إنشاؤها على نظام بديع. وكانت الصلة وثيقة بينه وبين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، فكان عضده الأقوى من الأزهريين فى مشروعاته الإصلاحية.

كان رحمه الله أول من اختير عضوا فى هيئة كبار العلماء، بعد صدور قانون الأزهر رقم (١) لسنة ١٩٠٨م، ثم القانون رقم (١٠) لسنة ١٩١١م.

عين مفتشا أول للأزهر والمعاهد الدينية ولم يكن للأزهر عهد بهذه الوظيفة من قبل، فأخذ ينفذ الإصلاحات والنظم التى سنها القانون الحديث فى الأزهر ومعاهد طنطا ودسوق ودمياط. ثم عين شيخا للجامع الأحمدى، فاقترح إنشاء معهد على النظام الحديث، وتم ذلك فوضع أساسه فى ١١ فبراير سنة ١٩١١ م. وهو أول معهد عرفته المعاهد الدينية يدرس فيه الطلاب فى فصول وعلى مقاعد وبنظام مدرسى جامع بين القديم والحديث. وارتقى المعهد الأحمدى فى عهده ارتقاءًا ضارع به الأزهر بل فاقه كثيرًا. ثم عين مديرا للأزهر والمعاهد الدينية فى ١٥ سبتمبر سنة ١٩١٣م. ولم يكن لهذه الوظيفة وجود فى الأزهر من قبل، فقام بتنفيذ قانون المعاهد وبالإصلاح الهام فيها، واتجه فى ذلك إلى ترقية التعليم بالوسائل الصحيحة، فلقى

من الأزهريين مقاومة عنيفة، ودس له ذوو الأغراض كثيرا من الدسائس، فاعتزل الوظائف الإدارية فى عهد السلطان حسين كامل فى سنة ١٩١٦م.

كان طوال عهده معروفا بعلو النفس، وبعد الهمة، والجود، والسخاء، وصدق الوفاء، ومساعدة البائسين والفقراء. وكان أبيا لا يعرف الضراعة والخنوع، وقورا حسن الحديث يترفع عن الغيبة، وذكر المثالب، والتسمع إليها ويدعو إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، وكان كثير التعبد وتلاوة القرآن الكريم، تلاوة تدبر وإمعان.

عاد بعد اعتزاله المناصب سيرته الأولى فى الدراسة والتأليف، فعكف عليهما عكوفا منقطع النظير، وكانت دروسه بعد الغروب غاصة بالعلماء ومتقدمى الطلاب، وقد عنى كثيرًا بتدريس أصول الفقه فقرأ «جمع الجوامع» مرتين فى أربعة عشر عاما، وكتب عليه حاشية كبيرة قيمة تبلغ مجلدين، لم تطبع للآن. وألف كتابا قيما سماه « بلوغ السول فى مدخل علم الأصول»، عرض فيه للقياس والاستحسان والمصالح المرسلة، وأوضح فيه المنهج الأصولى والفقهى والخلافى فى استنباط الأحكام الشرعية، وكان تفسير البيضاوى آخر كتاب يدرسه للطلاب، وتوفى فى ٣ إبريل ١٩٣٦م.

وقد حفظ القرآن الكريم بعد وفاة والده، وحفظ المتون وتلقى مبادئ العلوم على الأستاذ الجليل الشيخ حسن الهوارى، ثم رحل إلى الأزهر فجد واجتهد فى تلقى العلوم الأزهرية المعروفة، وسمت همته إلى كثير من العلوم غير المقررة بالأزهر، كالحساب والجبر والمساحة والهيئة والفلسفة. فتلقى أكثرها على شيخيه الجليلين الشيخ حسن الطويل والشيخ أحمد أبى خطوة، وقرأها لإخوانه وتلاميذه بالأزهر ومسجد محمد بك أبى الذهب، ومما قرأه رسالة بهاء الدين العاملى التى كتب عليها حاشية طبعت إذ ذاك. وكتاب الجغمينى فى الهيئة، حيث استفاد منها تلاميذ عديدون منهم الأعلام الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر، والسيد محمد عاشور الصدفى، والشيخ عبدالفتاح المكاوى، والشيخ على إدريس العدوى، والشيخ إبراهيم الجبالى، والشيخ محمد زيد بك، والشيخ عبدالرازق القاضى بك، والشيخ محمد عز العرب بك، وكثير غيرهم ممن لا نحصيهم عدا.

ومن أجلِّ شيوخه بالأزهر، المشايخ : الطويل، وأبو خطوة، وأحمد الرفاعى الفيومى المالكى، ومحمد خاطر العدوى، وحسن داود، ومحمد عنتر المطيعى، وعرفة، والبحيرى، والمغربى، رحمهم الله أجمعين. وأستاذه فى

الطريق العارف بالله تعالى أبو المعارف الشيخ أحمد شرقاوى الخلوتى المتوفى سنة ١٩١٦م، وكان أثيرا عنده، ولقبه أبا الفتوح، وفى ساحته المباركة بدير السعادة من أعمال فرشوط ألف المترجم كثيرًا من رسائله فى التوحيد، والتصوف، والفلسفة. وقد نال شهادة العالمية من الدرجة الأولى فى ٥ شعبان سنة ١٣٠٥هـ فى أول امتحان أجراه الشيخ الإنبابى شيخ الجامع الأزهر إثر توليه المشيخة.

ومن مؤلفاته «حاشية» على رسالة بهاء الدين العاملى فى الحساب مطبوعة، وحاشية كبيرة قيمة على جمع الجوامع فى الأصول فى مجلدين لم تطبع، وكتاب «بلوغ السول فى مدخل علم الأصول» اشتمل على عدة مباحث، أهمها: مباحث الاجتهاد والتقليد وحجية القياس والاستحسان والمصالح المرسلة، وأوضح فيه المنهج الأصولى فى استنباط الأحكام الشرعية.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١- الإعلام الشرقية، للزركلى مجاهد، حـ٢ / ١١٦٠.

٢- معجم المطبوعات، ١٦٤٨.

٣- الأعلام للزركلى، حـ٦/ ٩٦..

محمد حسين هيكـــل

(١٣٠٥ - ١٣٧٦هـ = ١٨٨٨م - ١٩٥٦م)

هو محمد بن حسين بن سالم هيكل، ولد عام ١٣٠٥هـ = ١٨٨٨م بقرية كفر غنام إحدى قرى محافظة الدقهلية لأب يتمتع بكثير من مظاهر الوجاهة الاجتماعية والاقتصادية، فقد كان عمدة قريته كفر غنام مركز السنبلاوين.

التحق هيكل بالمدرسة الابتدائية، وحصل على شهادة إتمام الدراسة بها عام ١٩٠١م، وهو فى الثالثة عشرة من عمره، ليواصل بعد ذلك إتمام دراسته الثانوية بالمدرسة الخديوية. وبعد حصوله على شهادة البكالوريا عام ١٩٠٥م اتجه إلى دراسة الحقوق، مضيفًا إلى ذلك الولع بدراسة الآداب العربية ثم الغربية بتوجيه من أستاذه أحمد لطفى السيد، وبتشجيع منه أيضًا بدأ هيكل يكتب فى صحيفة حزب الأمة.

وسافر هيكل إلى باريس بعد حصوله على الليسانس عام ١٩٠٩م وبعد ثلاث سنوات حصل على درجة الدكتوراه فى الاقتصاد السياسى عام ١٩١٢م، وكان موضوع رسالته (دين مصر العام)، ثم عاد إلى مصر متخذًا من الصحافة منبرًا له فكتب فى شتى المجالات السياسية منها والعلمية، ثم أنشأ عام ١٩٢٦م مجلة السياسة الأسبوعية التى لعبت دورًا كبيرًا فى الحياة الفكرية والأدبية.

وتولى تدريس القانون المدنى بالجامعة المصرية. ثم اختير وزيرًا للمعارف عدة مرات، وتم اختياره عام ١٩٤٥م رئيسًا لمجلس الشيوخ.

وقد مثل مصر فى أكثر من مؤتمر برلمانى وعالمى، كما رأس وفد مصر فى هيئة الأمم المتحدة أكثر من مرة.

من المعروف أن محمد حسين هيكل كان رائد كتاب الرواية العربية، ولكنه كان فى الوقت نفسه مهتما بقضايا الفكر والفلسفة، كما كان له باع طويل فى التراجم والسير، وكان علما بارزا من أعلام السياسة على المستويين النظرى والعملى، وكان مع ذلك كله غزير الإنتاج فى الإسلاميات، كما كان بالإضافة إلى ذلك رائدا له مكانته فى تاريخ الصحافة العربية فى مصر.

أما تكوينه الثقافى فقد جمع بين الثقافتين

العربية والغربية وامتزجتا فى أعماقه فى توازن وانسجام، وبرهن بذلك على سطحية من يرى أن التعمق فى الثقافة الغربية يؤدى إلى اغتراب المثقف العربى. لقد أدى ذلك بهيكل إلى فهم أعمق لحضارته العربية الإسلامية ونظرة أرحب وأفق أوسع.

فمؤلفات هيكل فى التراجم والسير الإسلامية ترسم صورة واضحة لتطوره الفكرى وتبين أنه لم يتخل عن أصول حضارته العربية الإسلامية.

وكما كتب هيكل بإعجاب عن بعض الشخصيات الغربية مثل روسو فإنه فى الوقت نفسه قد كتب بانبهار شديد عن حياة محمد وأبى بكر وعمر وعثمان. ولكنه ينبه فى هذا الصدد إلى أن كتابته فى هذا الجانب ليست بحثا دينيا محضا «كما قد يظن بعضهم، بل الغاية أن تعرف الإنسانية كيف تسلك سبيلها إلى الكمال الذى دلها محمد على طريقته».

وهنا يريد أن يكشف عن الحقائق الإسلامية الصحيحة فى مواجهة التشويه الذى ألحقه بالإسلام أناس، إما جاهلون بتعاليمه أو متعصبون لا يريدون أن يروا الحقائق واضحة جلية، ولكنه فى الوقت نفسه يرفض مغالاة المغالين من المسلمين، الذين أضافوا إلى سيرة الرسول ﷺ وصحابته أمورًا غير معقولة، تسىء إليهم، وهكذا سار فى كتابته على الطريقة العلمية التى يرى أنها أسمى ما وصلت إليه الإنسانية فى سبيل تحرير الفكر.

وتُبرز كتابات هيكل الأصالة المصرية التى كان يعتز بها كل الاعتزاز، فبعد أن رشف من كل الثقافات وتسلح بأمضى الأسلحة العلمية، عاد يقلب النظر ويُمعِن الفكر فيما يمكن أن يكون مقومات أساسية للشخصية المصرية المتفتحة على كل جديد مفيد، ولكنها فى الوقت نفسه لديها وعى أصيل بالتاريخ يحميها من أخطار القطيعة الثقافية، التى يمكن أن تفصلها عن جذورها الضاربة فى أعماق التاريخ، تلك الجذور التى إذا قطعت تاهت معالم هذه الشخصية. وهذا ما كان يسعى إليه الاستعمار لإضعاف الروح المعنوية حتى تظل البلاد مرتعًا خصبًا للاستعمار والمستعمرين.

فهيكل إذن أحد الرواد العظام الذين شقُّوا طريق الاستنارة أمام جماهير الأمة، باعثًا فيهم الوعى بالتاريخ، للمحافظة على أصالة الشخصية المصرية، وفى ذلك يقول: «لقد نشأت فى مصر الحضارة الأولى، وعليها تقلَّبت كل الحضارات والأديان التى تبعتها ... وهذه الحضارات التى تعاقبت على مصر تأثرت كلها إلى حد بعيد بالحضارة

المصرية القديمة، وأثرت فيها، ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم، لا فى البرديات والمقابر وكفى، بل فى نفوسنا نحن الذين ورثنا هذه الحضارة».

ويعترف هيكل بما للرواد السابقين عليه من فضل، ويشير إلى أنه قد كان للكثير من مقالات الشيخ محمد عبده، فى «العروة الوثقى» مع أستاذه جمال الدين الأفغانى، أبلغ الأثر فى نفسه.

ولعل هذا التأثر بمحمد عبده كان وراء رفض هيكل للخصومة المصطنعة بين العلم والدين، واعتبر أنها خصومة بين رجال الدين ورجال العلم، بعيدة فى أساسها كل البعد عن الدين والعلم، وترتكز على حرص كل طائفة على الاستئثار بالسلطة.

وقد كتب هيكل فى هذا الصدد العديد من المقالات التى جمعت فى كتابه عن «الإيمان والمعرفة والفلسفة»، ويلح هيكل على نفى التناقض بين الدين لذاته والعلم لذاته.

وفى جانب آخر يلاحظ هيكل أن مصر لا تزال تتأرجح بين العقليتين العربية والغربية، هذا التأرجح الذى يحدث - كما يقول - حينا بعد حين، ويثير الكثير من المناقشات الحادة التى تؤثر تأثيراً واضحًا فى الاتجاهات العامة فى مصر، ويعبر عن أمل الكثيرين فى التوصل إلى صيغة تؤدى إلى اندماج العقليتين، غير أنهم - كما يقول - لم يصلوا بعد إلى ما يريدون.

ولكننا نستطيع أن نقول إن هيكل نفسه قد نجح فى التوصل إلى هذا الدمج المأمول فى شخصه بين هاتين العقليتين. ومن هنا يُعد نموذجا يحتذى.

والواقع أن هذه القضية التى أثارها هيكل فى هذا الصدد لا تزال قائمة حتى اليوم، مع أنه لم يعد فى مقدور شعب من الشعوب أن يعزل نفسه عما يدور فى هذا العالم، فالتشابك بين الحضارات، والتداخل بين الثقافات، أصبح من الأمور التى لا يمكن تجاهلها أو الوقوف فى طريقها.

ومن القضايا التى اهتم بها هيكل ونبّه الأذهان إليها قضية الدور الذى لعبه شعب مصر فى كل ما مر به من أحداث، ففى مذكراته فى السياسة يلاحظ «أنه كثيرا ما نسى المؤرخون نصيب الشعب المصرى فى توجيه الحوادث التى مرت به، واكتفوا بذكر الوقائع الحربية التى شهدتها موانئ مصر وأراضيها، ولو أنهم ذكروا مواقف الشعب من هذه الحوادث لحكموا بأنه كان صاحب الأثر الحاسم فى النتائج التى انتهت إليها».

تلك كانت بعض الأمثلة من مواقف هيكل وجهوده التنويرية فى مجالات عديدة.

ونحن لا نزال حتى اليوم أحوج ما نكون إلى الاستنارة العقلية والدينية. ولا شك أن محمد حسين هيكل له بصمات لا تمحى فى هذا المجال. وإننا إذ نذكر مآثره العظيمة، فإننا لعلى يقين من أن الغرس الذى غرسه هو ورواد نهضتنا المعاصرة، سيؤتى ثماره، وأن الأجيال الجديدة لن تنسى مآثره.

لهيكل إنتاج غزير ومتنوع، ومن أهم مؤلفاته ما يلى:

١ - حياة محمد.
٢ - فى منزل الوحى.
٣ - الصديق أبو بكر.
٤ - الفاروق عمر.
٥ - عثمان بن عفان.
٦ - الحكومة الإسلامية.
٧ - الإمبراطورية الإسلامية.
٨ - ثورة الأدب.
٩ - تراجم شرقية وغربية.
١٠ - فى أوقات الفراغ.
١١ - جان جاك روسو.
١٢ - زينب.
١٣ - مذكرات فى السياسة المصرية.
١٤ - إلى ولدى.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ - مؤلفات الدكتور محمد حسين هيكل.
٢ - الأعلام للزركلى ١٠٧/٦، دار القلم.
٣ - الدكتور محمد حسين هيكل - حياته وتراثه الأدبى، للدكتور طه وادى - مكتبة النهضة المصرية.

محمد الخضر حسين
(١٢٩٣ - ١٣٧٧هـ = ١٨٧٦ - ١٩٥٨م)

هو محمد الخضر بن الحسين بن على بن عمر الحسنى التونسى ولد بمدينة نفطة فى جنوب تونس فى ٢٦ من رجب ١٢٩٣هـ (١٨٧٦م)، وقد التحق بجامع الزيتونة بتونس عام (١٨٨٧م)، وحصل على شهادة التطويع عام ١٨٩٨م، وهى شهادة تمكن حاملها من التطوع لإلقاء دروس فى جامع الزيتونة، كما تؤهله للظفر بمناصب علمية أو دينية عديدة، وبخاصة إذا كان صاحبها يتمتع بنبوغ وجد وسعة معرفة.

وفى عام ١٩٠٤م أنشأ أول مجلة عربية أدبية علمية فى شمال إفريقيا هى مجلة «السعادة العظمى»، وتولى عام ١٩٠٥م قضاء بلدة بنزرت، ولكنه استقال بعد شهور قليلة، وعاد للتدريس بجامع الزيتونة، ثم بالمدرسة الصادقية.

رحل إلى الشرق عام ١٩١٢م وأقام فى دمشق، ورحل إلى الآستانة وبرلين، وفى عام ١٩٢٠م استقر فى مصر، وحصل على الجنسية المصرية عام ١٩٣٢م، وامتدت فترة إقامته فى مصر حتى وفاته، وفى مصر ظهرت قيمته العلمية وبرزت مكانته الثقافية.

وقد أسس عام ١٩٢٨م مع عدد من علماء الأزهر «جمعية الهداية الإسلامية»، وكان أول رئيس لها، وأصدرت الجمعية مجلة «الهداية الإسلامية» فى أكتوبر ١٩٢٨م، وظلت تصدر شهريًا إلى أن توقفت أثناء الحرب العالمية الثانية، وقد كان الشيخ محمد الخضر حسين مع صديقه الحميم تيمور باشا فى طليعة المؤسسين لجمعية الشبان المسلمين عام ١٩٢٨م، وعندما أصدر الأزهر مجلة نور الإسلام (مجلة الأزهر فيما بعد) عام ١٩٣٠م أسندت إليه رئاسة تحريرها، وقد تم اختيار الشيخ عضوا بالمجمع العلمى العربى بدمشق عام ١٩١٩م، وعضوا فى مجمع اللغة العربية بالقاهرة فى أول تشكيل له عام ١٩٣٣م، وعين عضوا بجماعة كبار العلماء بالأزهر عام ١٩٥٠م، وقد تولى مشيخة الأزهر عام ١٩٥٢م، واستقال منها عام ١٩٥٤م، ولكنه ظل يمارس نشاطه العلمى حتى آخر لحظة فى

حياته، وكان آخر مقال نشر له فى عدد فبراير ١٩٥٨م من مجلة لواء الإسلام، وهو الشهر الذى توفى فيه.

لقد كان الشيخ صاحب غيرة دينية، ونزعة إصلاحية معتدلة، تجلت فى مقالاته وبحوثه ومؤلفاته، وقد اهتم فى مقالاته العديدة التى جمعت فيما بعد فى كتابه «رسائل الإصلاح» بمجالات الدين والأخلاق والاجتماع، واهتم بصفة خاصة بالميدان الأخلاقى، فركز على الخصال التى يجب أن يتحلَّى بها الفرد، وبخاصة العالِم، وما يجب أن تتحلَّى به الجماعة حتى تسلم من التفكك والانحلال، وتعرض لموضوع الإسلام والمدنية الحديثة، مبينا أهمية الدين فى المجتمعات الحديثة، وضرورة عناية حكوماتها بنشره، وأن تستمد قوانينها من تشريعه الواسع النطاق، وهاجم «ضلالة فصل الدين عن السياسة».

وقد كان الشيخ من دعاة الرابطة الإسلامية، المدافعين عن نظام الخلافة، ودعوة المسلمين إلى ضرورة المحافظة على هذا النظام، لأن الإسلام دين ودولة، وكان من دعاة الاجتهاد، وقد بيّن قيمته فى الشريعة الإسلامية، مؤكدًا على أن الشريعة الغراء تساير كل عصر، وتحفظ مصالح كل جيل.

وانطلاقا من اقتناعه بضرورة نظام الخلافة للأمة الإسلامية رأيناه يدافع عنه بكل صلابة فى نقضه لكتاب «الإسلام وأصول الحكم» للشيخ على عبد الرازق، فقد ذهب الشيخ على عبد الرازق فى كتابه هذا إلى أن نظام الخلافة لا يمت إلى الدين الإسلامى بصلة، إذ لم ينص عليه القرآن الكريم ولا السنة النبوية، كما أن وجوده فى هذا العصر لم يعد أمرًا ضرويًا نظرًا لقيام حكومات إسلامية، وقد فنّد الشيخ الخضر حسين فى كتابه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم» ما جاء فى كتاب الشيخ على عبد الرازق فقرة فقرة؛ بهدف أن «يميط اللثام عن وجه الصواب فى هذه المباحث الدينية والتاريخية» كما يقول.

ومن منطلق الغيرة الدينية أيضا رأينا الشيخ يرد على الدكتور طه حسين، فقد أصدر الدكتور طه حسين كتابه «فى الشعر الجاهلى» عام ١٩٢٦م، وانتهى فيه إلى أن أغلب الأشعار الجاهلية لا تعبر عن واقع المجتمع الجاهلى، وهى منتحلة لأسباب دينية وسياسية وشعوبية، وذهب إلى أن القرآن يُعد أصدق مرآة للعصر الجاهلى من الناحية اللغوية والاجتماعية والدينية، وقد استخدم الدكتور طه حسين فى بحثه منهج الشك الديكارتى مؤكدا أن «المستقبل لمنهج ديكارت

لا لمنهج القدماء».

وقد رد الشيخ الخضر حسين ردا تفصيليا على كل ما جاء فى كتاب الدكتور طه حسين، مؤكدًا أنه لا يعارض المؤلف فى انتهاج الأسلوب الذى يريده فى بحثه، بشرط ألا يكون فى ذلك مساس بالدين الإسلامى وانحراف عن الحقيقة، وبيّن أن منهج الشك ليس جديدًا، فقد ذهب إليه الغزالى وابن خلدون قبل ديكارت، واتهم طه حسين بأنه أغار على نظرية المستشرق الإنجليزى مرجليوث فى الشعر الجاهلى التى نشرها فى مقال بمجلة الدراسات الآسيوية الملكية عام ١٩٢٥م، ونسبها إلى نفسه.

وقد نال كتاب الشيخ الخضر حسين، «نقض كتاب فى الشعر الجاهلى»، تقدير عدد من علماء الإسلام المعاصرين والأدباء العرب البارزين فى ذلك الوقت؛ لما اشتمل عليه من نقاش موضوعى، ولما قدمه من حجج لغوية وتاريخية.

أما القصائد الشعرية للشيخ محمد الخضر حسين، فإنها تكشف عن جانب آخر من جوانب ثقافته، وقد تناول الشيخ فى شعره أغراضًا متنوعة أهمها الإخوانيات، والقضايا الوطنية والسياسية، والرثاء، والوصف، والوجدانيات، والاجتماعيات، والإسلاميات، ولكن شعره يخلو تماما من أغراض المدح والهجاء والغزل.

للشيخ محمد الخضر حسين مؤلفات عديدة وأبحاث مختلفة، من أهمها:

١ - القياس فى اللغة العربية (١٩٣٤م)، وبهذا البحث نال عضوية جماعة كبار العلماء.

٢ - الخيال فى الشعر العربى (١٩٢٢م).

٣ - محمد رسول الله وخاتم النبيين (١٩٣٣م).

٤ - نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم (١٩٢٦م).

٥ - نقض كتاب فى الشعر الجاهلى (١٩٢٧م).

٦ - رسائل الإصلاح (فى ثلاثة أجزاء) (١٩٣٩م).

٧ - خواطر الحياة ـ ديوان شعر (١٩٤٦، ١٩٥٣م).

٨ - بلاغة القرآن (١٩٧١م).

٩ - القاديانية والبهائية.

وللشيخ بالإضافة إلى ذلك العديد من المقالات والبحوث فى موضوعات متنوعة، نذكر منها: الحرية فى الإسلام، حياة اللغة العربية، العظمة، الخطابة عند العرب، علماء

الإسلام فى الأندلس، ويُعد كتاباه «نقض كتاب الإسلام وأصول الحكم»، و«نقض كتاب فى الشعر الجاهلى»، من أبرز الكتب التى كان لها أثرها فى ذيوع اسمه فى الأوساط العلمية والأدبية.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ – من أهم ما كتب عن الشيخ محمد الخضر حسين الكتاب الذى ألفه (محمد مواعدة) بعنوان: «محمد الخضر حسين. حياته وآثاره»، من نشر الدار التونسية للنشر عام ١٩٧٤م. ويقع الكتاب فى ٣٦٣ صفحة من القطع المتوسط، ويشتمل هذا الكتاب أيضًا على ملحق يقارب ثلث الكتاب، يشتمل على ما كتبه الشيخ عن رحلاته إلى الجزائر ودمشق، ورحلته الشرقية.

٢ – مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن. من تأليف على عبد العظيم. ج٢، القاهرة ١٩٧٩م.

٣ – الأزهر فى ألف عام، للدكتور أحمد محمد عوف، سلسلة البحوث الإسلامية بالأزهر، إبريل ١٩٧٠م.

٤ – الشيخ محمد الخضر حسين عالم الزيتونة والأزهر، من تأليف: أبو بكر عبد الرازق.

٥ – وقد كَتَبَ عن الشيخ أيضًا محب الدين الخطيب فى مجلة الأزهر (الجزء الثامن من المجلد التاسع والعشرين. شعبان ١٣٧٧هـ)، كما كتب عنه الدكتور عبد الحليم محمود فى كتابه «الحمد لله هذه حياتى».

محمد خليل عبد الخالق
(١٣١٣ - ١٣٦٩ هـ = ١٨٩٥ - ١٩٥٠م)

ولد محمد خليل عبد الخالق فى القاهرة سنة ١٣١٣هـ الموافق ٢٣ من مايو سنة ١٨٩٥م، ودرس الطب من سنة ١٩١٣م - فى مدرسة طب قصر العينى - إلى سنة ١٩١٧م، وأدى الامتحان النهائى بتفوق عظيم، فكان الأول بين زملائه طوال سنى الدراسة، وقد أشير إلى هذا النجاح الباهر فى أول عدد ظهر من «المجلة الطبية المصرية»، وفى عام ١٩١٨م اختارته الحكومة لإرساله فى بعثة إلى لندن لدراسة طب المناطق الحارة والطفيليات، وظل هناك إلى سنة ١٩٢٠م، وانتخب أثناء بعثته عضواً فى اللجنة التى كلفت بدراسة مرض الإنكلستوما فى مناجم «كورنويل Cornwale»، ولما عرفت وزارة المستعمرات البريطانية كفاءته الممتازة عينته عضواً فى اللجنة التى أرسلتها لدراسة داء الفيل فى الهند الغربية.

وكان من حظ العالم المصرى محمد خليل عبد الخالق أن تلقى العلم على الأستاذ العالمى «باتريك ماتسون»، الذى يعود إليه الفضل فى الكشف عن كثير من أمراض المناطق الحارة، عندما كان يعمل فى «أموى Amoy» بالصين، كما تلقى العلم على الأستاذ «ليبر Leiper» الذى كشف عن دورة البلهارسيا فى المبنى القديم لكلية الطب، وهو نفس المكان الذى كشف فيه العالم الألمانى «لوس» عن دورة الإنكلستوما.

عُين محمد خليل عبد الخالق بعد عودته إلى مصر وكيلاً لقسم الأمراض المتوطنة بمعامل وزارة الصحة، وانتدب لتدريس علم الطفيليات بمدرسة الطب فى أكتوبر سنة ١٩٢٤م إلى أكتوبر ١٩٢٥م، بالإضافة إلى منصبه كأستاذ منتدب للطفيليات بكلية الطب البيطرى. وفى عام ١٩٢٥م فضلته مدرسة الطب على المتقدمين من الأجانب، فعينته أستاذا لعلم الطفيليات.

وقد كرس الدكتور محمد خليل عبدالخالق حياته العلمية لإنماء المعارف والأبحاث المبتكرة فى الطفيليات وطب المناطق الحارة والصحة، فحظى بتقدير أقرانه ومعاصريه،

وجذب انتباه كبار العلماء فى أنحاء العالم بمؤلفاته العلمية.

وكان - رحمه الله - زاهدًا فى الحياة، على الرغم من أنه جمع ثروة طائلة أثناء حياته، مستعينا بخبرته وعلمه فى الاقتصاد والزراعة والإدارة، وهو أول مصرى نشر قائمة ثروته تحت عنوان «من أين لنا هذا؟»، ومن يطلع على هذه القائمة لابد أن يقف ليتأمل ويفكر فى هذه العقلية العلمية الراجحة، التى اتخذت من البحث العلمى ومنهجه دليلًا إلى تنظيم الأعمال، وترتيب الحسابات وتعزيزها بالمراجع والمستندات الدامغة.

وقد اشترك الدكتور خليل مع الدكتور على إبراهيم فى تنظيم كلية الطب وتمصيرها، بإحلال الأساتذة المصريين محل المدرسين الإنجليز والأجانب، وكان لا يعرف الكلل أو الملل فى أداء رسالته هذه حتى قال له «السير كوبر برى» الذى أحضرته الحكومة المصرية لتنظيم كلية الطب: «نحن علمناك لتكون حربًا علينا بكفاءتك الممتازة».

واشترك أيضا مع الدكتور على إبراهيم، حين كان وزيرًا للصحة فى تنظيم وزارة الصحة، وظل هذا التنظيم قائما فى جوهره، ونُشر عدد من أعداد المجلة الطبية المصرية فى هذا التنسيق الفنى والإدارى.

وحينما تولى الدكتور خليل الحجر الصحى سنة ١٩٤٤م أدخل عليه الكثير من الإصلاح، وأنهى خدمات الخبراء الأجانب، وظل يكافح لاستعادة السلطة الصحية لمصر على المطارات الإنجليزية فى منطقة القنال، ولكن المنية عاجلته فى سنة ١٩٥٠م، وكان - رحمه الله - يخشى أن تغزو الأوبئة البلاد عن طريق تلك المطارات، فلما نحته وزارة الصحة عن وكالة الحجر الصحى تحقق ما كان يخشاه، وغزت الكوليرا مصر من منطقة القنال، ولطالما كتب كثيرا من المقالات، وألقى عديدًا من المحاضرات عن مواضيع الكوليرا والدفاع عن مصر ضد غزوها بالكوليرا من الهند عن طريق القناة. والذى يطلع على المذكرات المبوبة والمراجع المنسقة المرتبة ترتيبا عالميا دقيقا، والتى وضعها ليدافع بها عن حقوق مصر الصحية يوقن بعبقريته، ويؤمن به كعالم رائد يحق لكل عربى أن يفخر به وبآثاره وإنجازاته العلمية.

ويمكن إيجاز أهم المآثر والخدمات العلمية التى أنجزها الدكتور محمد خليل عبدالخالق فيما يلى :

١ - اهتم بالتراث الطبى، ولفت الأنظار إلى اكتشاف طفيلية الإنكلستوما على يد الشيخ الرئيس ابن سينا، الذى وصفها

بالتفصيل لأول مرة فى الفصل الخامس الخاص بالديدان المعوية من كتابه «القانون فى الطب»، وسمّاها «الدودة المستديرة» وتحدث عن أعراض المرض الذى تسببه، فكتب عن هذا الفتح الكبير فى عالم الطب مقالًا فى مجلة «الرسالة» جاء فيه: «.. قد كان لى الشرف فى عام ١٩٢١م أن قمت بفحص ما جاء فى كتاب «القانون فى الطب»، وتبين لى أن الدودة المستديرة التى ذكرها ابن سينا هى ما نسميه الآن «بالإنكلستوما» ، وقد أعاد «دو بينى» اكتشافها بإيطاليا عام ١٧٣٨م.

أى بعد اكتشاف ابن سينا لها بتسعمائة سنة تقريبا، ولقد أخذ جميع المؤلفين فى علم الطفيليات بهذا الرأى فى المؤلفات الحديثة، كما أخذت به مؤسسة «روكفلر» الأمريكية التى تعنى بجمع كل ما يكتب عن هذا المرض، ولذلك كتبت هذا ليطلع عليه الناس ويضيفوا إلى اكتشافات ابن سينا العديدة، هذا الاكتشاف العظيم الذى هو أكثر الأمراض انتشارًا فى العالم الآن....».

٢ - أسس معهد الأبحاث ومستشفى الأمراض المتوطنة عام ١٩٣١م ونقل إليه قسم البلهارسيا والإنكلستوما بمعامل وزارة الصحة، وأصبح المعهد مدرسة أبحاث معروفة فى جميع بلاد العالم، يؤمه كثير من العلماء لمناقشة موضوعات علمية مختلفة أو للتدريب، وقام هذا المعهد أيضا بحل الكثير من مشاكل مصر الصحية.

٣ - أتم فى سنة ١٩٣٣م بحثه الشهير عن دورة حياة الطفيلى المعروف باسم «الهتروفس»، حينما كشف سنة ١٩٢٣م أن سمك البورى يؤدى وظيفة المضيف الوسيط الثانى، وظل المضيف الأول غير معروف إلى أن كشف عنه فى سنة ١٩٣٣م وبيّن أنه هو القوقعة المسماة «بالبيرنيللا كوينكا» ولقد عالج بالبحث الدءوب ذلك الموضوع المعقد، ألا وهو ظهور «الميكرو فيلاريا بنكروفتى» فى الدم أثناء الليل واختفاؤها منه أثناء النهار. وأرجع هذا إلى أن وجود أغلب دودة الفيلاريا فى الجهاز الليمفاوى للحبل المنوى والأطراف السفلى للجسم، ومرور الميكروفيلاريا من القناة الصدرية أثناء نوم المصاب بهذا المرض وازدياد سرعة اللمف بعد هضم الطعام وامتصاصه، وأن اجتماع هذه العوامل يصل بالحد الأقصى لعدد «الميكروفيلاريا» فى الدم الدائرى حول منتصف الليل. ولقد حظيت نظريته هذه بتأييد كثير من العلماء الأفذاذ، أمثال «ليبر Leiper» فى مؤتمر طب المناطق الحارة بهولندا عام ١٩٣٨م.

٤ - فى سنة ١٩٣٩م اختير - بالإضافة إلى مناصبه الأخرى - مراقبا عاما لمصلحة الأمراض المتوطنة بوزارة الصحة، وأتيح له وهو فى هذا المنصب أن يقوم بحملته المشهورة لمكافحة بعوضة «الجامبيا» التى كانت قد غزت البلاد من الجنوب وسببت وباء «الملاريا» الهائل الذى ظلت البلاد تخشى غائلته أكثر من عامين.

٥ - ومن أعماله البارزة: نجاح مؤتمر «تأثير الرى والصرف على الزراعة والصحة» الذى قامت به الأكاديمية المصرية للعلوم بمجهوداته، فشرح فيه الأضرار الجسيمة التى تسببها مشروعات الرى الدائم فى نشر عدوى البلهارسيا، وكان الدكتور خليل من أوائل العلماء الذى أثبتوا فائدة كبريتات النحاس فى مكافحة وإبادة قواقع البلهارسيا، ونفذ ذلك بالفعل بنجاح منقطع النظير فى الواحات وكوم امبو، حيث انخفضت نسبة البلهارسيا فى الواحات من ٦٣٪ إلى ٣٪.

ويضاف إلى ذلك ما امتاز به الدكتور خليل ومدرسته العلمية لتوزيع الأمراض الطفيلية ومقدار انتشارها بين سكان مصر، وما جمع من المعلومات بواسطة الأبحاث المعملية والميدانية عن القواقع الناقلة لعدوى البلهارسيا ما يكفى لكتابة مجلد ضخم.

٦ - فى عام ١٩٤٧م شارك مع الدكتور السنهورى فى تنظيم الجامعة السورية، ولما قدمت له الحكومة السورية شيكا بمبلغ كبير لقاء خدماته، رفض قبوله قائلا: «إنه يسعده أن يعمل كعربى فى خدمة دولة عربية ويكفيه هذا فخرا»، ولم يقبل شيئا، ولذلك منحه رئيس الجمهورية السورية وسام الاستحقاق السورى.

٧ - نشر الدكتور خليل أكثر من مائتى رسالة علمية فى الفروع المختلفة لطب المناطق الحارة والطفيليات، ويكفى أن يلقى المرء نظرة على مراجعها ليعلم مدى النجاح العظيم الذى ناله كعالم فى الطفيليات وطبيب من أطباء المناطق الحارة الأفذاذ، ومما لا شك فيه أن مؤلفاته عن البلهارسيا والملاريا وداء الفيل واللشمانيا ذات قيمة عظيمة لجميع المشتغلين بعلاج ومكافحة تلك الأمراض، فقد أصبح مركب «الفؤادين» بعد أبحاثه التى أجراها عنه معترفا به من جميع أطباء المناطق الحارة فى علاج البلهارسيا، واعترافا بفضله نسبت عدة طفيليات إلى اسمه.

هذا، وقد حصل الدكتور محمد خليل عبد الخالق على كثير من الأوسمة المصرية والأجنبية تقديرا لكفاءته الممتازة وأبحاثه

المبتكرة، كما مثَّل بلاده فى مؤتمرات عدة فكان مفخرة لها بين الدول، ويذكر له زملاؤه المصريون الجهد الكبير الذى بذله فى تأسيس الجمعية الطبية، كما يذكر له الأطباء العرب دوره المهم فى تنسيق المؤتمرات الطبية العربية التى قوت أواصر الاتحاد والصداقة على مستوى العالم العربى.

أ.د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة:

١ - د. أحمد فؤاد باشا، التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة، مطبعة دار المعارف ١٩٨٣م.

٢ - د. أحمد الحلوانى، مجلة رسالة العلم، العدد الرابع، ديسمبر ١٩٥٨م.

٣- الأعلام للزركلى ٦/١١٨.

محمد رشيد رضا
(١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)

هو السيد، محمد رشيد بن على رضا بن محمد شمس بن محمد بهاء الدين بن منلا على خليفة.

ولد بقرية «القلمون» سنة ١٢٨٢هـ = ١٨٦٥م، وإليها ينسب لقبه «القلمونى»، وهى فى نواحى طرابلس الشام بشمال لبنان، وأصل أسرته من بغداد.

وفى القرية حفظ القرآن الكريم، ووجهته أسرته إلى العلم الدينى، فدرس بالمدرسة الوطنية الإسلامية بطرابلس، ثم فى بيروت، وبعد دراسة علوم القرآن والحديث والفقه واللغة - على النمط الشبيه بالأزهر - نال شهادة (العالمية) من طرابلس الشام.

وفى المرحلة الأولى من تكوينه الفكرى، غلب عليه منهاج «المنقول والمأثورات»، وتأثر كثيرًا بكتاب «إحياء علوم الدين» للغزالى، فمال إلى الزهد والتصوف، وانخرط - مريدا - فى «الطريقة النقشبندية»، ومارس الوعظ والإرشاد فى قريته والقرى المحيطة بها، وعينه «متصرف» طرابلس - الذى أعجب بخطابته - عضوا فى «شعبة المعارف».

لكن يظل الإنجاز الأعظم لرشيد رضا على الجبهة الفكرية إصداره وتحريره مجلة المنار، وإذاعته لفكر محمد عبده وجمال الدين الأفغانى، ومواصلته جهود محمد عبده فى تفسير القرآن (تفسير المنار)، وتأريخه لحياة محمد عبده ومدرسته، والكتب الكثيرة والفتاوى العديدة التى واصل فيها وبها حركة التيار التجديدى، والتى خاض بها الكثير من المعارك الكبرى التى شهدها العالم الإسلامى فى مرحلة الزحف الاستعمارى والفكر التغريبى على عالم الإسلام.

وفى (١٣١٠هـ = ١٨٩٢م) حدث له تحول فى توجهه الفكرى، إذ بينما هو يقلب فى أوراق والده، عثر على بعض أعداد مجلة (العروة الوثقى) التى أصدرها - من باريس - جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ = ١٨٣٨- ١٨٩٧م) ومحمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ = هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) فى سنة ١٨٨٤م، فأحدث فكرها فى عقله انقلابا عميقا وشاملاً، وبدأ بهذا الفكر مرحلة من حياته أصبح فيها - وعلى امتداد أكثر من

أربعين عـامـا - ترجـمـان فكر هـذا التـيـار الإصلاحى فـى اليقظة الإسـلاميـة الحـديثة، وقد تحدث هو نفسـه عن هذا التحـول الذى أحـدثتـه فى فكره أعـداد (العـروة الوثقى) فقـال: «.. لقد كـان كل عدد منها كسلك من الكهرباء، اتصل بى فـأحـدث فـى نفسـى من الهزة والانفعال والحرارة والاشتعال ما قذف بى من طور إلى طور ومن حـال إلى حـال.. وتعلمت منهـا : أن الإسـلام ليس روحـانيـا أخرويا فقط، بل هـو دين روحانى جسمانى، أخروى دنيوى، من مقـاصده هداية الإنسان إلى السيادة فى الأرض بالحق، ليكون خليفة الله فى تقرير المحبة والعدل، فتعلقت نفسى بوجـوب إرشـاد المسلمين عـامـة إلى المدنيـة والمحافظة على ملكهم، ومباراة الأمم العزيزة فـى العلوم والفنون والصناعـات، وجـمـيـع مـقـومـات الحـيـاة، فطفـقت أستـعـد لذلك استعدادًا..»..

ومنذ ذلك التـاريخ سـعـى رشـيـد رضـا لصحبـة الأفغـانى، فلمـا لم يتيـسـر له ذلك هاجـر إلى مـصـر (١٣١٥هـ = ١٨٩٧م) فلقى الإمام محـمـد عبده، واتفق معـه على أن يكون تلميذه، وترجمان فكره، وأصدر مجلة (المنار) التى ظلت منبر هذا التيـار التـجديدى لأكثر من أربعين عاما.

وبعد وفاة الإمام محمد عبده (١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م) واسـتـقـلال رشـيـد رضـا بالقـيـادة الفكرية لهذا التيـار، زاد اقـترابه من «العـمل السيـاسـى»، فاهتم بمعـالجة علاقات العرب بالأتراك، والمسـألة الشـرقـيـة، والتـدخل الاسـتـعـمـارى الغـربى فى الشـرق الإسـلامى، وشـئـون الخـلافـة الإسـلامـيـة، والخطر الصهيونى على فلسطين، وكان أحد أقطاب (حزب اللامركزية) الذى أراد إصلاح الإدارة العـثـمـانيـة، على نحـو يحـفظ وحـدة الدولة ويستجيب للطموحات العربية المشروعة فى إطارها، وهو الحـزب الذى تكون (١٣٣٠هـ = ١٩١٢م)، كـمـا كـانت له عـلاقـات بالمشـاريع السيـاسـيـة للشـريف حسين بن على (١٢٧٠-١٣٥٠هـ = ١٨٥٤-١٩٣١م)، والملك عبدالعزيز آل سـعـود (١٢٩٣-١٣٧٣ هـ = ١٨٧٦-١٩٥٣م).

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١ - (مسلمون ثوار)، للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٨م.

٢ - (تاريخ الأستاذ الإمام)، لرشيد رضا - طبعة القاهرة سنة ١٩٣١م.

محمد رضا الشبيبى
(١٣٠٦-١٣٨٥هـ = ١٨٨٩-١٩٦٥م)

هو محمد رضا بن محمد جواد بن محمد ابن شبيب بن إبراهيم بن صقر الشبيبى، شاعر وأديب عراقى، وأحد أعضاء المجامع العلمية فى دمشق والقاهرة وبغداد، وينسب إلى جده، شبيب بن صقر البطائحى، من بنى أسد، ومحمد رضا الشبيبى أحد أعلام القرن الرابع عشر الهجرى.

ولد فى مدينة النجف بدولة العراق عام ١٣٠٦هـ - ١٨٨٩م، وبها نشأ وتعلم فى مدارس العراق فدرس العلوم العربية والإسلامية.

وبعد الحرب العالمية الأولى كان له نشاط ملحوظ. سافر إلى الحجاز لأداء فريضة الحج إلى بيت الله الحرام، وكان ذلك أواخر ١٣٣٧هـ، وعند عودته مرَّ بدمشق فأقام بها إلى ١٣٣٩هـ - ١٩٢٠م، واتصل بزعماء الثورة العربية فى الحجاز والشام، وشارك فى الثورة العراقية، وبعد تأسيس المملكة فى العراق أقام ببغداد، وتقلد وظائف عدة، فأسندت إليه وزارة المعارف فى العراق خمس مرات ثم انتخب رئيسًا لمجلس النواب فى بغداد مرتين، كما انتخب رئيسًا لمجلس الأعيان «الشيوخ»، وانتخب رئيسًا للمجمع العلمى العراقى ثلاث مرات، وكان عضوا مراسلاً فى المجمع العلمى بدمشق، ومنحته جامعة القاهرة درجة الدكتوراه الفخرية.

وفى سنة ١٩٤٨م انتخب عضوا عاملاً بمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

وكان الأستاذ الشبيبى شاعرًا جيدًا يجيد نظم الشعر فى أغراض شتى منها: الوطنيات والأخلاقيات، ويتفاعل مع الحوادث الكبرى، فيعبر عنها بالشعر. أما فى مجال التأليف والبحث، فله الكثير من الأبحاث والمقالات التى تزيد على العشرين بحثًا فى أغراض شتى:

وقد ظل فى رئاسته للمجمع العلمى العراقى ببغداد إلى أن توفى فى سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

وللأستاذ الشبيبى مؤلفات منها:

- ديوان الشبيبى.
- أصول ألفاظ اللهجة العراقية.
- التربية فى الإسلام.

- مؤرخ العراق ابن الفوطى البغدادى.
- رحلة فى بادية السماوات.
- تراثنا الفلسفى.
- أدب المغاربة والأندلسيين.
- المأنوس من لغة القاموس.

كما قام بتحقيق الكتب التالية:

- إحصاء العلوم، للفارابى.
- الإفادات والإنشادات، لابن اسحاق إبراهيم بن موسى الشطبى.
- تسمية أبطال العرب وقائليهم فى الإسلام.

أ.د. ضاحى عبد الباقى

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى، جـ٦/١٢٧.
٢ - المجمعيون فى خمسين عامًا د. محمد مهدى علام، ص ٢٧٦.
٣ - تاريخ الأدب العصرى فى العراق. قسم المنظوم.
٤ - مجلة المجمع العلمى العربى، جـ٨/٢٩٤.

محمد رفعت
(١٣٠٠ - ١٣٦٩هـ = ١٨٨٢ - ١٩٥٠م)

هو محمد بن محمود رفعت: أشهر القراء فى العصر الحديث.

ولد الشيخ محمد رفعت بمنزل أسرته بشارع المغربلين فى القاهرة فى سنة ١٣٠٠هـ = مايو سنة ١٨٨٢م، وكان والده تاجرًا ميسورًا، وقد أصيب ببصره بعد عامين من مولده، وظلت من نوره بقية ضئيلة فقدها سنة ١٩٣٠م وفى الخامسة من عمره أدخله والده مكتب يشتك بدرب الجماميز، وهو قريب من مسجد فاضل باشا الذى ظل محمد رفعت يقرأ فيه سورة الكهف يوم الجمعة من سنة ١٩١٨م إلى سنة ١٩٤٤م حيث أقعده المرض. ومنذ بلغ الخامسة عشر من عمره، وهو يقرأ القرآن فى المساجد والمحافل ثم انتقل إلى حى البغالة بالسيدة زينب فاستفاضت شهرته لقراءته بمسجد السيدة زينب، فى الفجر وفى ليالى رمضان بالذات، ودُعى إلى الأقاليم فى ليلات الأعراس والمآتم فانتشر صيته بالقطر، وحين بدأت الإذاعة اللاسلكية إرسالها سنة ١٩٣٤م كان محمد رفعت قارئها المفضل، فلم يأخذ منزلته سابق أو لاحق، ثم أصيب فى حنجرته سنة ١٩٤٤م، فأقعده المرض عن تلاوة آى الكتاب، وظل يعانى برح الداء حتى ارتحل إلى جوار ربه فى سنة ١٣٦٩هـ = مايو سنة ١٩٥٠م.

نشأ الرجل نشأةً متواضعة، فلم يحذق أصول النغم على أستاذ محترف، بل كانت أذنه المطبوعة دليل توفيقه، فهو يستلهمها وحدها الصواب، فتهديه، وكان من الطبيعى أن يدرس أصول التلاوة من مد وقطع وإدغام وإظهار، وهى ميسورة يلم بها أكثر المقرئين، فليست تساوى فتيلا إذا جانبتها الموهبة الأخاذة!! وكم فى الناس من يحيط بها من القراء دون أن يبلغ معشار ما لدى رفعت من سحر بهيج.

وإذا كانت دراسته الثقافية لا تتيح له أن يتفهم معانى الإعجاز فى كتاب العربية الأول، فقد كانت روحه المشرقة الصافية تصل إلى المعنى المراد عن طريق الفطرة الملهمة، والسليقة المطبوعة، فهو يعرف مواضع

الترهيب والزجر، وأساليب التشويق والترغيب، فيكون فى الأولى إعصارا عنيفا، وفى الثانية نسيما رقيقا يهب على روض شذى، فكأنَّ معانى الكتاب العزيز تفسر تفسيرا واضحا فى تلاوته!! حتى ليسأل السامع: درس الرجل شروح القرآن دراسة الحاذق، ثم استطاع أن يصور المعنى فى أنغام متساوقة مصقولة؟ تلك معجزة (رفعت) الخالدة!! فقد فسر كتاب الله بما لا يبلغه سواه من القراء.

وثانية نسجلها للرجل، فقد أثبت بتغريده الساحر موسيقية القرآن إثباتا لا يحتمل الشك، فشدوهُ الفريد فى تسلسله وامتداده يرينا من فنون البلاغة أعاجيب، فيظهر لك انسجام الألفاظ، وتآلف المعانى، وقوة التصوير، وروعة الإيحاء، بما لا تحتاج معه إلى أستاذ فنى أديب، وإن كتاب الله ليظهر فى إعجازه البليغ مسموعا من حنجرة رفعت الموهوبة، فيدعو عشاق الأساليب أن يُتابعوا هذا الطراز القشيب فى بهجة وافتتان.

وأنا أعتقد أن الرجل نفسه لا يدرك من اصطلاحات القول وتعريفات البلغاء شيئا، ولكنه ينطق بالإعجاز عن طبيعة أصيلة، كما يأتى البدر بالضوء، والزهر بالأريج.

وكم يدهشك الشيخ محمد رفعت حين توازن بينه وبين غيره من المقرئين!! فهو يقرأ القرآن قراءة متصلة متماسكة، فلا ينتقل فجأة من آية إلى آية، أو منتصف سورة إلى ختام غيرها، كما يعمد عشاق الإطراء والمديح من أدعياء المقرئين، فترى أحدهم يترك ما يفيض فيه من معنى أخاذ، ثم يعمد إلى معنى لا صلة له بما يقول، دون أن يتم المعنى الأول، ولا سبب يدعو إلى هذا النشاز المزعج غير ما يدركه المقرئ من أن أول سورة الرحمن مثلا أو آخر سورة القمر مما يوافق إبداعه الخاص، ويستهوى جمهوره الأمى!! ولا عليه بعد ذلك إن أتم كلام الله أو بتره بترًا يدعو إلى المؤاخذة والتثريب! هذا مسلك مستكر يستميل الأسماع بتلاعب الصوت ومد الحروف، وإظهار التحنّن والتواجد فى غير موضعهما، حتى ليخيل إليك أنّ مَنْ يفعلون ذلك من المقرئين، على وقارهم المنتظر، ناشئون خلعاء يغنون، لا يقرؤون!!.

قرأ مرة قول الله - عز وجل - فى سورة القصص عن موسى عليه السلام: ﴿ **فجاءته إحداهما تمشى على استحياء قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا** ﴾ (القصص:٢٥). فوقف عند قوله: ﴿ **تمشى** ﴾ ثم بدأ بقوله: ﴿ **على استحياء قالت** ﴾، فظن بعض السامعين من دارسى النحو والبلاغة أن الرجل قد أخطأ، ورجاه أن يصل، فابتسم رفعت وقال: أرى أنها قالت على استحياء،

ولا أرى - كما فهمت أنت - أنها تمشى على استحياء، لأن الحياء فى القول ألزم منه فى السير!! وكان ردا طريفا يدل على أن الشيخ قد فهم كل كلمة مما رتل على الناس، بل جاوز فهم العامة بفطرته الموهوبة إلى أفهام الخاصة من الدارسين.

ولم يكن الأستاذ فنانا فى أدائه الصوتى فحسب، بل كانت روح الفنان تغمر جوانب مضيئة فى حياته الخاصة والعامة. فأثبت بذلك أن الموهبة الرفيعة كلٌّ لا يتجزأ، فإذا أسعدت إنسانا ما ببعض هباتها الجزيلة، فإنها تبسط جناحيها على مختلف مشاعره ومكتمل عناصره، ومن نلمس لديه من الفنانين شذوذ الموهبة فلا يمكن أن يكون أصيلا فى إبداعها، بل ربما كان التصنع سبيله إلى الطبع المختلس، وقد نهضت نقائصه النفسية لتشى بتزييف موهبته وشايةً بلقاء!!.

كان محمد رفعت يحاسب نفسه حسابا عسيرا فى كل خطوة يسيرها بين الناس، فلا يُقيم من العروض المادية ميزانا للتواصل والانقباض، إلا إذا وجد من التصرفات المقصودة ما يهدف إلى المساس بكرامته، والنيل من موهبته عن طريق ملتو خداع، وبهذا وحده نعلل ثورته على الإذاعة المصرية حين انتقصت من أجره، وفضلت غيره عليه دون سبب معقول، فقد انسحب الشيخ لا لضآلة ما يأخذ، بل لما يوحى به هذا التصرف من إهانة متعمدة، وتقدير طائش. وفى حياة الرجل من الترفع والبذل ما يثبت أريحيته النادرة، ووفاءه الحميد، فقد كان يتقاضى فى الليلة الواحدة مبلغا يصل فى بعض الأحيان إلى مائة جنيه!! ولكنه كان يرفض هذا المبلغ عن سماحة إذا كانت الليلة جمعة فى غير القاهرة، حذرا أن تفوته قراءة الكهف فى مسجده المعتاد، غير ناظر فى سبيل وفائه إلى ما يضيع عليه من ثروة تتلمّظ لها الشفاه.

بل إنه حين استطارت شهرته، ونقلت الإذاعة صوته الملائكى إلى شتى ربوع الإسلام، رأت وزارة الأوقاف أن تنقله إلى مسجد شهير من مساجد القاهرة ذات الدوى والصليل، ولكن الشيخ أبى أن يفارق مسجدا ألفه وعرفه أناسه، مهما بلغ من التواضع حدًا لا يتكافأ مع عظمة الفنان الموهوب، وقد كان الناس يمرون بمسجد (فاضل) بدرب الجماميز، فيجدون الطريق مليئة بالبسط والفراش إذ ضاق المسجد بأهليه، فاضطر المصلون إلى التحلق حوله فى مختلف الطرقات، وجلسوا فى وهج الظهيرة يستروحون من صوت الشيخ نسيما يبدد الحر اللافح، ويمس الشغاف بالفرحة والحنين.

وحين ترصد له الدهر فى حنجرته الذهبية، فحاربه فى موطن خلوده وسر عبقريته، آثر الانزواء فى منزله المتواضع من غير صخب أو ضجيج، وتعرض لضروب أليمة من الفاقة والاحتياج، إذ كان لا يبقى على شىء من كسبه الوفير، وقد تناقلت الصحف على غير إرادته نبأ فاقته فسارع عشاقه إلى التبرع، وقدموا إليه ألف جنيه ليستعين بها على الدواء والشفاء، ولكن روح الفنان تأبى الهوان، فقد برم رفعت بما أذيع، وأعلن شكره للمساهمين متلطفا فى رد المال لأصحابه، آبيا أن يلتمس الشفاء عن طريق الاكتساب!!.

وقد غفلت الإذاعة عن تسجيل صوت الرجل فى حياته، حتى إذا لمست حاجة السامعين إلى سحره، ذهبت تتلمس الأشرطة الخاصة لدى عشاقه ممن استطاعوا أن يحرزوا بعض إبداعه، ومن المؤسف أن أكثر هذه الأسطوانات يسىء إلى صوت الرجل!! لأنه سجل فى خريف حياته حين بدأت العلة تثقل على حنجرته الماسية، وفرق شاسع بين ما سمعناه من صوت الرجل، وما نسمعه الآن من أشرطة متآكلة، هى بمثابة الخط المقلوب على ورق النشاف، وهكذا نترك الفنان الموهوب يحترق فى دنيا الجحود والنكران، تتنابه العلل وتبرح به الفاقة، حتى إذا حان أجله فى سنة ١٣٦٩هـ = مايو سنة ١٩٥٠م، وأخذنا نتحسر على وفاته وقد رثاه كبار الكتاب والشعراء بما ينبئ عن قدره العظيم.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين، د. محمد رجب البيومى.

٢- الأعلام، للزركلى ٧/٩١.

محمد سالم الحفنى

(١١٠٠-١١٨١هـ = ١٦٩٠-١٧٦٧م)

هو أبو الأنوار: محمد بن سالم بن أحمد الحفنى، شمس الدين. أحد أعلام القرن الثانى عشر الهجرى.

أنبتته الوراثة الصالحة، ورفعته الثقافة الواسعة، وصقلته التجارب العديدة، وزكته الصوفية السامية، فاجتمعت فيه عناصر التوفيق كلها، وقلما تجتمع فى إنسان إلا لاحظته العناية الربانية فهو شريف حسينى من جهة أم أبيه ترك بنت السيد سالم بن محمد... ابن السيد برطع المدفون ببركة الحاج، وكان الانتساب للرسول ﷺ فى هذا الزمن يلزم صاحبه بالتمسك بسنته الشريفة والتزام تقوى الله ليتفق هذا مع شرف نسبه الكريم ﷺ.

ولد - كما يقول الجبرتى - على رأس المائة (١١٠٠) هـ ببلدة حفنا بالقصر من أعمال بلبيس بمحافظة الشرقية، وانتسب إليها، ونشأ بها، ثم وفد إلى القاهرة فى الرابعة عشر من عمره. وأخذ العلم عن أشهر علماء عصره واجتهد حتى تمهر وقرأ ودرّس وأفاد من حياة أشياخه وأجازوه بالإفتاء والتدريس، ومن أشهر مشايخه العلامة الشيخ محمد البديرى الدمياطى الشهير بابن الميت أخذ عنه التفسير والحديث، والإحياء للإمام الغزالى، وصحيح البخارى، وصحيح مسلم، وسنن أبى داود، والنسائى، وابن ماجه، والموطأ، ومسند الشافعى، والمعاجم الثلاثة: «الكبير والأوسط والصغير» للطبرانى، وصحيح ابن حبان، والمستدرك للنيسابورى، وحلية الأولياء لأبى نعيم.

أما ثقافته فهى متنوعة متعددة، فقد حفظ القرآن الكريم فى طفولته، ثم اشتغل بحفظ المتون فحفظ ألفية ابن مالك، والجوهرة، والرحبية، وأبا شجاع وغيرها.

وفى الثانية والعشرين من عمره كان قد تبحر فى علوم النحو والفقه والمنطق والحديث والأصول وعلم الكلام، وبرع فى العروض وظهرت مواهبه الأدبية فى الشعر وفنونه بالفصحى والعامية، كما ظهرت براعته فى النثر طبقا للأسلوب السائد فى

عصره، فأذن له مشايخه وأجازوه بالإفتاء والتدريس فى هذه السن المبكرة، وأما تجاربه العديدة فإنه ذاق مرارة الفقر، فلم تذله القلة، وذاق حلاوة الغنى، فلم تبطره الثروة، وكان آية فى المروءة والسخاء، وعلى الرغم من مناصبه العديدة ووصوله إلى الذروة، فإنه كان متواضعا جم الحياء، كريم النفس، رحب الصدر، متمسكا بالمروءة والوفاء.

وأما مسلكه الصوفى فقد تاقت إليه نفسه وهو فى ريعان الشباب، فقد كان يتردد على زواية الشيخ شاهين الخلوتى بسفح ويمكث فيها الليالى متحنثا متعبدا.

ثم أخذ العهد بعد الثلاثين على الشيخ أحمد الشاذلى المغربى المعروف بالقوى ثم تلقى الطريقة الخلوتية عن شيخها العلامة «قدوة السالكين ومربى المريدين الإمام السيد مصطفى بن كمال الدين الصديقى البكرى» كما وصفه الجبرتى ولازمه ولقن الطريقة لكثيرين من أعلامها البارزين.

ولما جلس للتدريس التف حوله الطلبة، وذاع صيته وشهد له علماء عصره بالتقدم والرسوخ، ولكنه كان فى فاقة من العيش اضطرته إلى أن ينسخ الكتب يبيعها للراغبين، ثم فرج الله كربه، وأقبلت عليه الدنيا، فترك النسخ إلى التعليم والتأليف وكان يدرس لطلبته المصادر العلمية العميقة مثل: الأشمونى فى النحو والصرف، وجمع الجوامع فى أصول الفقه للسبكى، ومختصر السعد فى البلاغة، واشتغل بعلم العروض حتى برع فيه، وصاغ الشعر فى كثير من بحوره بالفصحى والعامية، مع بديهة سريعة وموهبة أصيلة، وكانت لمجالسه العلمية أهمية كبرى، وله هيبة ووقار لايكاد أحد يسأله لمهابته وجلالته، وكان كريم النفس سخى اليد «مهيب الشكل، عظيم اللحية أبيضها كأن على وجهه قنديلاً من النور، وكان على جانب عظيم من الحلم.

ومن مكارم أخلاقه: أصغاؤه لكل متكلم ولو تحدث بالخزعبلات، مع انبساطه إليه، وإظهار المحبة له، ولو أطال عليه، ومن رآه مدعيا شيئا سلم له فى دعواه، ومن مكارم أخلاقه أنه لو سأله إنسان أعز حاجة عليه أعطاها له كائنه ما كانت ويجد لذلك أنسا وانشراحاً».

ذكر الجبرتى أن وفاته فى يوم السبت قبل ظهر اليوم السابع والعشرين من ربيع الأول سنة إحدى وثمانين ومائة وألف للهجرة ودفن يوم الأحد بعد أن أقيمت الصلاة عليه فى الأزهر فى مشهد عظيم جدا وكان يوم هول كبير وقبره بالقرب من مدفن الشيخ عبد الوهاب العفيفى، ومدفن الخديوى توفيق بقرافة المجاورين.

شهد له أساتذته جميعا بالعلم والفضل، وكان الشيخ العلامة مصطفى العزيزى إذا رفع إليه سؤال يرسله إليه.

وقد لهجت الألسنة فى عصره بذكره وتناقل الناس روايات عديدة عما منحه الله إياه من كرامات ومكاشفات وخوارق عديدة، وقد زاده كرمه مكانة فى النفوس ومحبة فى القلوب، فقد كانت له صدقات وصلات خفية وظاهرة وكان راتب بيته من الخبز نحو الإردب، والطاحون دائمة الدوران، وكذلك دق البن، وشربات السكر، ولا ينقطع ورود الواردين ليلا ونهارا، ويجتمع على مائدته الأربعون، والخمسون، والستون، ويصرف على بيوت أتباعه والمنتسبين إليه، وشاع ذكره فى الأرض، وأقبل عليه الوافدون بالطول والعرض، هانده الملوك، وقصده الأمير والصعلوك، فكل من طلب شيئا من أمور الدنيا أو الآخرة وجده، وكان رزقه فيضا إلهيا وتسابق العلماء فى عصره إلى استجازته وإلى الكتابة عنه، فقد ألف العلامة الشيخ حسن المكى المعروف بشمة كتابا فى نسبه ومناقبه. وألف العلامة الشيخ محمد الدمنهورى المعروف بالهلباوى كتابا فى مناقب الشيخ ومدائحه. وكان الولاة والأمراء يلهجون بكراماته ومناقبه ومنزلته السامية عند الله، قال الوزير محمد باشا راغب لبعض بنى السقاف:

وإنما لقبنا جدكم بالسقاف، لكونه كان سقفا على اليمن من البلاء، وكذلك فإن الشيخ الحفناوى سقف على مصر من نزول البلاء».

وقيل لبعض الأمراء إن الأستاذ الحفنى من عجائب مصر فقال: «بل قال من عجائب الدنيا».

وقد أفاض الجبرتى فى ذكر سلوكه الصوفى وترقيه على يد شيخه الصوفى الكبير السيد مصطفى بن كمال الدين البكرى الصديقى ورحلته إليه فى بيت المقدس وتحدث عن الطريقة الخلوتية وسلسلتها، وعمن أخذ الطريقة على يد الشيخ الحفنى من أعلام الصوفية، ومنهم الشيخ عبدالله الشرقاوى، وهو الشيخ الثانى عشر من شيوخ الأزهر، وغيره من أقطاب التصوف فى ذلك الزمان، وكما استجازه العلماء وكتبوا عنه ولهج الشعراء بمدحه وصاغوا فيه القصائد المسهبة. فمن الشعراء البارعين الذين لهجوا بمدحه الشاعر المشهور ابن الصلاحى وكان من تلاميذ الإمام، حضر دروسه ولازمه وانتسب إليه فلاحظته أنواره ولبسته أسراره وقد أجازه الشيخ بمروياته فقال فيه قصيدة طويلة.

ومن الذين لهجوا بمدحه الشيخ يوسف الحفناوى حيث أشاد بمناقبة ومناقب الطريقة الخلوتية.

ومدحه الشيخ مصطفى اللقيمى مع السيد البكرى بقصيدة رمزية صوفية رقيقة.

كان الشيخ الإمام يتمتع بموهبه أدبية ظهرت فى شعره ونثره، وإن كانت قيود عصره كبلت مواهبه بأغلال السجع وطغيان المحسنات البديعية، ولكنه كان فى شعره يتحرر أحيانا من بعض هذه القيود.

ترك الإمام الحفنى عددا من المصنفات العلمية والأدبية ومنها:

١- الثمرة البهية فى أسماء الصحابة البدرية فى التاريخ.

٢- حاشية على شرح الأشمونى لألفيه ابن مالك فى النحو.

٣- أنفس نفائس الدرر، وهو حاشية على شرح همزية البوصيرى لابن حجر الهيثمى.

٤- حاشية على شرح السمرقندى على الرسالة العضدية للإيجى فى علم الوضع.

٥- حاشية على الجامع الصغير للسيوطى فى الحديث. فى جزأين.

٦- رسالة فى التقليد فى الفروع فى أصول الفقه.

٧- حاشية على شرح الفوائد الشنشورية للشنشورى على الرحبية فى المواريث.

٨- حاشية على السبط الماردينى للياسمينية فى الجبر والمقابلة.

٩- رسالة فى الأحاديث المتعلقة برؤية النبى ﷺ سماها درر التنوير برؤية البشير النذير.

١٠ - رسالة فى فضل التسبيح والتحميد فى الفضائل والأدب.

١١- حاشية على شرح الحفيد على مختصر جده السعد التفتازانى فى البلاغة.

١٢- شرح المسألة الملفقة فى تحليل المطلقة (ثلاثا).

١٣- مختصر شرح منظومة المنينى الدمشقى فى مصطلح الحديث.

أ.د. محمد الجوادى

محمد شـــرف
(١٣٠٧ - ١٣٦٨ هـ = ١٨٩٠ ـ ١٩٤٩ م)

ولد الدكتور محمد شرف عام ١٨٩٠م.

وهو طبيب مصرى عبقرى، فاق كل معاصريه ولاحقيه بما وضع من قاموس طبى ضخم كبير تمكن فيه من وضع المقابلات العربية للمصطلحات الطبية وأسماء النباتات والعقاقير، وقد عكف على عمله هذا أكثر من عشر سنوات، وكان نشر قاموسه فتحاً كبيراً ولا يزال قاموسه حتى الآن كنزًا نغترف منه، وقد رزق التجويد والأمانة والدقة وسعة الأفق والذكاء. بالإضافة إلى الدأب والإتقان والانقطاع للعلم، والتصوف من أهله.

وكان قبل هذا كله طبيبا ناجحا مارس الطب والجراحة والتعليم الطبى، وقد تخرج فى بريطانيا، وعرضت عليه وظائف كثيرة فيها وفى تركيا: لكنه آثر مواطنيه بخدمته وعلمه، وقد عمل كبيرا لأطباء مستشفى السويس، وكان هذا منصبه حين صدر القرار الخاص بتعينه ضمن عشرة من كبار العلماء كأعضاء فى مجمع اللغة العربية (١٩٤٦م) كما كان يشغل منصبا كبيرا بكلية الطب (القصر العينى) عند وفاته فى عام ١٩٤٩م.

وقد قدرت الأوساط الطبية والعلمية جهد الدكتور شرف فى هذا المعجم، كما اعتمدت الجمعية الطبية المصرية معجمه كمرجع للمصطلحات، وقررت الاكتفاء به، ورحبت بأى إضافة عليه أو تصحيح، وشكلت لجنة لفحص الاقتراحات التى ترد إليها.

وللدكتور شرف رسالتان مهمتان فى المصطلحات.

الأولى عن مصطلحات النبات. وفيها ينقد معجم أسماء النبات للدكتور أحمد عيسى.

والثانية عن المصطلحات العلمية الطبية والنباتية.

وقد بلغ تفوق الدكتور شرف فى اللغة الحد الذى جعله يقدم لمجمع اللغة العربية بحثاً عن مادة «أبد» كنموذج للمعجم الكبير.

أما فى معجمه فقد حرص فى الألفاظ التى اختارها على مجموعة من القواعد والمعايير كان من أهمها على نحو ما لخصه هو نفسه منهجه: أن تكون الألفاظ العربية

المختارة صحيحة الأصل قويمة المنشأ ومن أحسن ما يمكن إيراده لمقابلة الألفاظ الفرنجية. وأن يكون مقابل اللفظة الفرنجية بقدر المستطاع لفظة عربية واحدة بسيطة بحيث لو احتاج الكاتب إلى أن ينسب إليها أو يضيف إليها لفظا أو أكثر يسهل عليه ذلك. وأن تفيد الألفاظ المختارة المعانى المطلوبة بأقل ما يكون من الوقت والكُلْفَة، أو بمجرد سماعها أو قراءتها، بدون إجهاد الفكر وإسراف القوة العصبية لتفهمها، مع ذكر الفوارق بين المترادفات وأشباه المترادفات وتخصيصها، وعدم الضن على الألفاظ الفرنجية أو العربية بالمعانى المختلفة التى تؤديها.

كما كان يميل إلى الاتجاه فى الوضع والاشتقاق على أسلوب العرب فلا تخالف المنصوص والمقيس على المنصوص والمسموع من أولى العلم، ولا تخالف القواعد التى جاء بها الذين هداهم الله لعلوم اللغة.

وكان يحرص على تخير الألفاظ السهلة المأخذ والتلقّى، وإيثار العذب المستمع على المستثقل، وتفضيل ما كان موافقا للذوق العصرى المصقول، ورفض استعمال ما شنع تآلفه، والإقلال مما طال وأمَلَّ بكثرة حروفه الحلقية الثقيلة أو تطلب الكلفة فى النطق به.

وبالإضافة إلى هذا كله كان حريصا على أن تكون المعانى صحيحة والألفاظ المختارة مخصصة على المراد منها؛ بحيث تكون، على حد تعبيره، كالسمة المميزة للموسوم، أو الرسم المختار للمرسوم، والحد المميز للمحدود، لأن الألفاظ للمعانى أزِمَّة وعليها أدِلَّة، أن تكون أسماء النبات والحيوان والمعادن مطابقة تمام المطابقة للتسمية العلمية الحديثة، مع بيان الفروق متى وجدت بين التسمية الحديثة والقديمة، وذلك منعًا لفقد الاتصال بالمؤلفات العربية القديمة.

وقد تميز منهجه بضبط الألفاظ بالشكل حرصا على سلامة اللغة وحتى لا يغلق على القارئ فهمها.

كذلك اختط الدكتور شرف طريقة قويمة تتبع لتصوير الكلمات المعربة والأعلام الفرنجية بالحروف العربية.

أ. د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - مقدمة قاموس الدكتور شرف.

٢ - مجلات مجمع اللغة العربية.

محمد صبرى السربونى
(١٣٠٨ ـ ١٣٩٨ هـ = ١٨٩٠ ـ ١٩٧٨ م)

ولد محمد صبرى السربونى ١٣٠٨ هـ الموافق ١٨٩٠م، وظهرت عليه علامات النجابة والذكاء منذ صغره، أتم تعليمه الأول فى مصر، ثم سافر إلى باريس ليحصل على ليسانس الآداب من جامعة السربون، ثم حصل بعد ذلك على درجة الدكتوراه من نفس الجامعة، وهو أول مصرى يحصل على شهادة دكتوراه الدولة فى الآداب عام ١٩٢٤م. وقد عاد بعدها إلى مصر حيث عمل بالتدريس فى الجامعة، وقبلها فى مدرسة المعلمين، كما عمل أستاذًا للتاريخ فى دار العلوم، كما انتدب لبعض الوظائف المهمة، فكان مديراً للمطبوعات، ثم اختير ليكون أول عميد لمعهد المكتبات عند إنشائه فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، وهو المعهد الذى تحول بعد ذلك إلى قسمٍ للمكتبات.

ويبدو أن تعيين السربونى مديراً لهذا المعهد المبتكر فى ذلك الوقت، كان ذكاء من طه حسين؛ لاستغلال جهد السربونى وطاقته، بعد أن تخطاه الدكتور السنهورى فى التعيين كمدير عام لدار الكتب ١٩٤٦م، حين خلت هذه الوظيفة، وكان السربونى فى ذلك الوقت نائبًا لمدير دار الكتب.

لم يطل العهد بالسربونى فى منصب عميد معهد الوثائق والمكتبات فى جامعة القاهرة، إذ كان واحدًا من الذين أخرجتهم الثورة من مناصبهم، فى بداية عهدها تحت شعار التطهير.

وكان قبل عام ١٩٣٩م انتدبته الحكومة للعمل كمدير للبعثة التعليمية المصرية فى جنيف.

ويعد محمد صبرى السربونى من أبرز المفكرين المصريين المعاصرين، الذين جمعوا التفوق فى الأدب والتاريخ معًا، كما تميز بقدرات نقدية عالية، وبكتابات تاريخية رائعة.

وقد توفى عام ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

قدم الكثير من المؤلفات:

فله من الكتابات الأدبية : سلسلة كتب عن الشعراء بدأها بكتابه شعراء العصر، وقد نشره فى شبابه، وصدر الجزء الأول منه عام

١٩١٠م، بمقدمة للأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى، ثم صدر الجزء الثانى بمقدمة للشاعر العراقى جميل صدقى الزهاوى، ثم أصدر كتبًا أخرى عن (محمود سامى البارودى)، و (إسماعيل صبرى)، وفيما بعد أصدر سلسلة كتب كان أولها : (امرؤ القيس ١٩٤٤م)، وثانيها (الشعر الجاهلى خصائصه وأعلامه)، وثالثها : (ذو الرمة ١٩٤٦م)، ورابعها : (أبو عبادة النجدى ١٩٤٦م).

وإلى محمد صبرى السربونى يعود الفضل، فى نشر مجموعة كبيرة من شعر أمير الشعراء أحمد شوقى، لم تنشر فى ديوان شوقى، وقد نشرها باسم (الشوقيات المجهولة ١٩٦٠ - ١٩٦٨م).

وقد طبعت مطبعة دار الكتب هذه الكتب أكثر من مرة، وله أيضًا كتاب عن خليل مطران من أروع ما كتب سنة ١٩٦٠م.

وبالإضافة إلى هذه الدراسات القيمة عن الشعراء، نشر السربونى كتابًا بعنوان: «أدب وتاريخ»، وكتابًا آخر بعنوان : «ذكرى الماضى»، وقد ضمنه مجموعة من مقالاته فى صباه.

أما دراساته التاريخية، التى لا تزال تحظى بقيمة كبيرة فقد بدأها بحماس وطنى، عندما شارك بجهده فى الثورة المصرية (١٩١٩م)، وعمل على مساعدة الوفد المصرى فى فرساى، بكتاباته التى تميزت بالقدرة البيانية، فضلاً عن الإحاطة التاريخية، وقد ألف عقب هذه الفترة كتابًا من جزأين بعنوان «الثورة المصرية»، صدر الجزء الأول منه فى سنة ١٩١٩م، والثانى فى سنة ١٩٢١م، كما نشر كتابًا ثالثًا بعنوان: «المسألة المصرية».

أما رسالة الدكتوراه فكانت بعنوان «نشأة الروح القومية فى مصر»، وفيما بعد بذل السربونى جهده لتأليف مرجعين ضخمين عن الإمبراطورية المصرية فى عهد محمد على والمسألة الشرقية، والإمبراطورية فى عهد إسماعيل والتدخل الإنجليزى الفرنسى. ونشر كتابًا آخر عن السودان المصرى (١٨٢١ - ١٩٤٨م)، وكتابًا عن مصر فى إفريقيا الشمالية، وفى هذين الكتابين اجتمعت الوطنية المتدفقة بالبحث العلمى الأصيل، وظهر نموذج نادر للمؤرخ الوطنى الذى يملأ الحماس قلبه مع عقل ذكى، وأسلوب علمى. وقد تفوق محمد صبرى فى كتابه هذا بفضل موهبته العالية وقدراته المتميزة، كما أنه تمكن من دراسة وثائق قصر عابدين مستعينًا بأحد أصدقائه، الذين يعرفون التركية، وبالإضافة إلى هذا فقد تفرغ للبحث فى مكتبات العواصم الأوروبية.

وتحفل دراساته الأدبية بتوظيف جيد للتاريخ والدراسات التاريخية، لتوسيع مدارك البحث، وضبط أساليبه، وتحفل دراساته

التاريخية بالروح التى منحتها حرارة الوجدان، إضافة إلى دقة العلم وسعة الاطلاع.

لمحمد صبرى السربونى بالإضافة إلى هذا، دراسات تاريخية متميزة منها : (تاريخ الحركة الاستقلالية فى إيطاليا).

بالإضافة لهذا كله كان السربونى شاعرًا، وقد نشرت له الأهرام فى شبابه قصيدة وطنية، فى أثناء الحرب الإيطالية على ليبيا، ونسبت القصيدة من باب الخطأ إلى الشاعر الكبير إسماعيل صبرى باشا.

وعلى نحو ما أفاد سعد زغلول من موهبة محمد صبرى السربونى، فقد أفاد منه النقراشى فى سنة ١٩٤٧م حيث كلفه بوضع دراسة عن السودان.

وفى عهد الثورة، وعقب تأميم قناة السويس نشر السربونى كتابه: «أسرار قضية التدويل واتفاقية ١٨٨٨م» وقد نشر عام ١٩٥٧م، وكتابه: «فضيحة السويس» ١٩٥٨م.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - مائة شخصية مصرية وشخصية، ص ٢٣٥ : ٢٣٧.
٢ - تتمة الأعلام للزركلى لمحمد خير رمضان يوسف ٢/ ٤٠.
٣ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب. دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٩٠م.
٤ - أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية. مركز مطبوعات اليونسكو. القاهرة.
٥ - تاريخ العلم. جورج سارتون. دار المعارف ١٩٩١م.

محمد عبد الله عنان
(١٣١٦ـ ١٤٤٠هـ = ١٨٩٨ - ١٩٨٠م)

ولد محمد عبدالله عنان فى سنة ١٨٩٨م بقرية بشلا مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية، وقد تلقى تعليمه الأوَّلى فى كُتَّاب القرية، وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم، وانتقلت الأسرة إلى القاهرة، فتلقى دروسه الابتدائية فى مدرسة العقادين الأميرية، ثم انتقل إلى المدرسة الخديوية الثانوية، ثم درس القانون فى مدرسة الحقوق، وتخرج فيها سنة ١٩١٨م، وآثر الاشتغال بالمحاماة، ثم اجتذبته الكتابة والترجمة، واختار لنفسه ميدان التاريخ حتى أصبح يعرف به دون القانون، ثم عمل بإدارة المطبوعات قبيل الحرب العالمية الثانية، وترقى فيها حتى صار وكيلا لها ، ثم نقل إلى وزارة المعارف مراقباً للثقافة العامة، واستقال منها بعد ذلك؛ حيث تفرغ لبحوثه التاريخية.

وانتخب لعضوية مجمع اللغة العربية سنة ١٩٧٦م، فى الكرسى الذى خلا بوفاة المرحوم الدكتور عبدالحكيم الرفاعى.

وللأستاذ محمد عبدالله عنان نشاط علمى وافر، فله أكثر من عشرين مؤلفا تعد من المؤلفات البارزة فى مجال تاريخ الإسلام فى العصور الوسطى ، سواء فى مصر أو فى الأندلس، وأكثرها فى تاريخ الأندلس، هذا عدا مقالاته وبحوثه التى نشرتها الصحف المصرية والدوريات العربية والأجنبية.

ومنذ أن انتخب الأستاذ محمد عبدالله عنان لعضوية المجمع، وهو يشارك فى أعماله التى أسهم بجهد وافر فى عملها، وله كلمة فى حفل استقباله، وقد قال عنه الأستاذ على النجدى ناصف يوم استقباله : (ولم يتبوأ الأستاذ عنان مكانه هذا بين أنداده، وفى قلوب قرائه، عفوًا ميسورًا، أو قدرًا مقدورًا، ولكن جهدًا كبيرًا، وصنيعًا مشكورًا، يتمثلان فى آثار له حسان، وبحوث شائعة متعددة، أصاب الناس منها علمًا غزيرًا، ومتاعًا طيبًا لا لغو فيه ولا تأثيم).

والأستاذ عنان كان حريصا على حضور جلسات المجلس ولجانه، إلا فى الضرورة القصوى.

ويعترف الأستاذ محمد مهدى علام، فى إجلال وتوقير، بفضل كتب أستاذنا محمد عبدالله عنان على ثقافته، فقد قرأ له منذ الشباب المبكر، ثم سعد بلقائه فى باكورة الستينات، عندما عهد إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية تأليف لجنة يشترك فيها عضو من كل لجنة من لجان المجلس؛ لتختار أسماء الأبطال فى التاريخ العربى والإسلامى، لتكون موضع احتفال قومى فى تواريخ ميلادهم أو وفاتهم. وكان الأستاذ محمد عبدالله عنان ممثلا للجنة التاريخ، وحدث أن كان من بين الأسماء المقترحة للاحتفال ببطولتها اسم سليمان الحلبى، قاتل كليبر، القائد الفرنسى الذى ناب عن نابليون فى مصر فى الحملة الفرنسية، فعارض هذا الأستاذ المؤرخ قائلا : نحن لا نؤيد الاغتيال السياسى، ولا يليق أن نعد هذه الشخصية من بين أبطال الإسلام، ووافقت اللجنة على رأيه، والأستاذ محمد عبدالله عنان حاصل على جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية سنة ١٩٧٦م.

وتوفى الأستاذ عنان - رحمه الله - سنة ١٩٨٠م.

ومن مؤلفاته: تاريخ المؤتمرات السياسية، تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدّامة، مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام (بالعربية والإنجليزية)، ديوان التحقيق والمحاكمات الكبرى، مصر الإسلامية وتاريخ الخطط فيها.

مؤرخو مصر الإسلامية، كتبه فى الثلاثينات، وكان دافعه شغف شديد للتنقيب فى تاريخ مصر الإسلامية ، وكان لدى المرحوم الأستاذ محمد عبدالله عنان طموح أن يقوم بدراسة شاملة لسائر مؤرخى مصر الإسلامية من ابن الحكم إلى الجبرتى، ولكن الظروف لم تسمح له بذلك على أكمله ، فقام تباعًا بدراسة ستة عشر مؤرخاً، هم: عبدالرحمن ابن عبدالحكم، وأبو عمر الكندى، والحسن بن زولاق، وعز الملك المسبحى، وأبو عبدالله القضاعى، وهؤلاء يمثلون العصر الفاطمى، أما الذين يمثلون العصر المملوكى حتى العصر الحديث، فهم: شهاب الدين النويرى، وابن فضل الله العمرى، وأبو العباس القلقشندى، وتقى الدين المقريزى، والحافظ ابن حجر العسقلانى، وأبو المحاسن بن تغرى بردى، وشمس الدين السخاوى، وجلال الدين السيوطى، وابن إياس، ومحمد بن أبى السرور البكرى، وعبدالرحمن الجبرتى. وهؤلاء هم الذين ساهموا بقسط كبير فى تكوين تراثنا التاريخى، وقد حاول أستاذنا الراحل أن يتقصى سائر آثارهم وتراثهم التاريخى ولا سيما المخطوط منه.

ومن مؤلفاته أيضا : الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية، تاريخ الجامع الأزهر، ابن خلدون - حياته وتراثه الفكرى، دولة الإسلام فى الأندلس (جزآن)، دول الطوائف، عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا.

ومن مؤلفاته أيضا : (لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكرى)، فلسان الدين ابن الخطيب (٧١٣-٧٧٦هـ) من شعراء وأطباء الأندلس وكتابها المشهورين، تولى الكتابة فى عهد السلطان يوسف الأول، ثم تولى الوزارة بعد ذلك فى عام ٧٤٩هـ، ولابن الخطيب مصنفات كثيرة لعل أهمها الإحاطة فى أخبار غرناطة، والذى حققه أستاذنا الراحل محمد عبدالله بن عنان، وقد اشتهر لسان الدين بن الخطيب بأنه من أسرة تبوأت مناصب الرياسة.

ومن مؤلفات أستاذنا محمد عبدالله عنان أيضا : الإحاطة فى أخبار غرناطة - تحقيق، تراجم إسلامية - شرقية أندلسية، ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب (لابن الخطيب) - تحقيق، مأساة مايرلنج، المذاهب الاجتماعية الحديثة ، المآسى والصور الغوامض.

وقد شغل الأستاذ محمد عبدالله عنان خلال الخمسة والعشرين عامًا الأخيرة من حياته بدراسة التاريخ الأندلسى، وغلب عليه هذا الاتجاه على كل اتجاه دراسى آخر، واستطاع أن يخرج فى هذه الفترة الطويلة من الدراسات الأندلسية الشاقة تاريخ الأندلس كاملا، منذ بدايته إلى نهايته فى سبعة مجلدات كبيرة.

أ.د. عبد الفتاح غنيمة

محمد عبد الرحمن بيصار
(١٩١٠ - ١٩٨٢م)

ولد محمد عبد الرحمن بيصار فى ٢٠ أكتوبر ١٩١٠م فى بلدة «السالمية» التابعة لمركز «فوه» بمحافظة كفر الشيخ. وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم التحق بمعهد دسوق الدينى. حيث أنهى فيه دراسته الابتدائية، ثم التحق بالمرحلة الثانوية بمعهد طنطا الدينى. وقد ألف فى هذه المرحلة رواية سماها «بؤس اليتامى» تناول فيها ما يتعرض له الأيتام من ظلم الأوصياء، ثم انتقل إلى معهد الإسكندرية الدينى وحصل منه على الشهادة الثانوية الأزهرية، والتحق بكلية أصول الدين وتخرج فيها عام ١٩٣٩م. وبعد ذلك واصل دراساته العليا فى تخصص العقيدة والفلسفة، وحصل على الشهادة العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه) عام ١٩٤٥م، وفى العام التالى عين مدرسا بكلية أصول الدين. وفى عام ١٩٤٩م سافر إلى إنجلترا مبعوثا من الأزهر حيث حصل على الدكتوراه فى الفلسفة من جامعة أدنبره عام ١٩٥٤م. وبعد عودته عاد إلى التدريس بكلية أصول الدين. وفى عام ١٩٥٥م عين مديرًا للمركز الإسلامى فى واشنطن، ثم عاد عام ١٩٥٩م للعمل بكلية أصول الدين. وفى عام ١٩٦٣م اختاره الأزهر رئيسا لبعثته التعليمية فى ليبيا. وقد عين عام ١٩٦٨م أمينا عاما للمجلس الأعلى للأزهر، ثم أمينا عاما لمجمع البحوث الإسلامية عام ١٩٧٠م، ثم وكيلا للأزهر عام ١٩٧٤م، ثم وزيرا للأوقاف وشئون الأزهر عام ١٩٧٨م، ثم عين شيخا للأزهر عام ١٩٧٩م، وتوفى بالقاهرة عام ١٩٨١م.

يذهب الدكتور بيصار إلى القول بأن القضايا التى أثيرت فى الفكر الإسلامى حول الألوهية لم تكن مجرد نقل عن حضارات أو ثقافات غريبة عن المجتمع الإسلامى أو نتيجة للتأثر بعوامل خارجية - كما يذهب إلى ذلك كثير من المستشرقين - وإنما كانت هناك عوامل داخلية هامة ساعدت على إثارة هذه المشكلات. وتتلخص هذه العوامل فى الحرية الفكرية التى منحها الإسلام لأتباعه فى شئون عقيدتهم، ومطالبة القرآن للإنسان بالتأمل والتفكير فى ملكوت السموات والأرض لإدراك حقائق الكون وكشف أسراره

وتحديد مركز الإنسان فيه، وإشادة الإسلام بفضل العلم والمعرفة وتعظيمه لشأن العلماء. وذلك بالإضافة إلى رد شبهات الوافدين على الإسلام والمنحرفين عنه بمنطق عقلى رشيد.

ويؤكد الدكتور بيصار أن الهدف لأصحاب الآراء المختلفة من المسلمين فى أى مشكلة من مشاكل الألوهية كان السمو بالذات الإلهية والمبالغة فى تنزيهها. ومن هنا فلا ينبغى أن نوجه لوما إلى أحد هؤلاء الباحثين بالكفر والمروق، بل علينا أن ندرس آراءه بأسلوب علمى دقيق لإبراز ما قد يكون قد وقع فيه من خطأ قد يكون غير مقصود.

وينبه الدكتور بيصار فى هذا الصدد إلى ضرورة مراعاة التفرقة الواضحة بين الإسلام، كما جاء فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين فهمنا نحن للإسلام أو محاولاتنا لتفسير قضاياه وشرح نصوصه، ويرى أن عدم التمييز بين هذين الوجهين كان السبب فى الأخطاء التى وقع فيها المستشرقون فى الكثير من الأحكام التى يصدرونها على الإسلام وهو منها براء.

وفى تناوله لقضية النزاع بين الدين والفلسفة بصفة عامة يرى الدكتور بيصار أن هذا النزاع قد انتهى فى الفلسفة الحديثة باتفاق رجال الدين ورجال الفلسفة على «أن يختص الدين بعلم المغيبات والحقائق اللامادية، وأن يسد هذا الركن من أركان المعرفة الإنسانية، كما تختص الفلسفة بعلم المحسوسات وأن تسد هذا الفراغ فى الناحية المادية من محيط المعرفة الإنسانية كذلك. ويُعد هذا التصافى بين الدين والفلسفة رفعا لما قد يبدو بينهما من تناقض أو خلاف»، ويشير إلى أن رفع التناقض بين الدين والفلسفة قد سبق إليه ابن رشد فى كتابه فصل المقال(١).

ويذهب الدكتور بيصار إلى مخالفة الرأى القائل بأن محاربة الغزالى للفلسفة فى المشرق قد قضت على الفلسفة، وأن الغزالى كان سببا فى انحطاط الفلسفة فى المشرق، ويرى أن فى ذلك مبالغة. فالفلسفة فى المشرق ظلت قائمة بعد الغزالى وكثر طلابها والمؤلفون فيها، وضاقت الفجوة بينها وبين علم الكلام حتى اختلطت مسائلها بمسائله وجمعتا فى مؤلف واحد.

ولكن الدكتور بيصار يعترف فى الوقت نفسه بأن الفلسفة مع هذا لم تستطع بعد الغزالى أن تحرز لنفسها المكانة الأولى والحرية الكاملة التى كانت تحظى بهما أيام ابن سينا، وذلك فضلا عن انعدام التجديد فى الميدان الفلسفى فى المشرق بعد الغزالى(٢).

ويرفض الدكتور بيصار ما يذهب إليه بعض الباحثين من أن ابن رشد لم يكن من القائلين بقدم العالم، وأنه عندما كان يقرر قدم العالم لم يكن يعدو فى ذلك أن يكون شارحا لآراء أرسطو فى هذه المسألة، ويرى د. بيصار أن كتب ابن رشد الأخرى - التى لا تعد شروحا لآراء أرسطو - مثل كتاب التهافت وفصل المقال تدل على أن ابن رشد كان من القائلين بقدم العالم.

وقد كان الدكتور بيصار - عندما كان شيخا للأزهر - من مؤيدى التعديلات الإصلاحية التى أدخلت على قانون الأحوال الشخصية فى عهد الرئيس السادات رغم المعارضة الشديدة التى قوبلت بها هذه التعديلات حينذاك من بعض علماء الأزهر. وقد أعلن تأييده للتعديلات الجديدة فى ندوة تليفزيونية اشترك معه فيها الشيخ جاد الحق (مفتى الجمهورية حينذاك) والشيخ عبد المنعم النمر (وزير الأوقاف حينذاك).

مؤلفاتـــــه :

تدور مؤلفات الدكتور بيصار بصفة عامة حول مجالى الفلسفة وعلم الكلام، وأهم هذه المؤلفات ما يلى:

١ - العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع.

٢ - الوجود والخلود فى فلسفة ابن رشد.

٣ - الفلسفة اليونانية: مقدمات ومذاهب.

٤ - تأملات فى الفلسفة الحديثة والمعاصرة.

وله بالإضافة إلى هذا بحوث ودراسات حول الموضوعات التالية: الحقيقة والمعرفة على نهج العقائد النسفية، العالم بين القدم والحدوث، الوجوب والإمكان والامتناع، شروح مختارة لكتاب المواقف لعضد الدين الإيجى، تعليقات على شرح قطب الدين الرازى لمتن الشمسية، الإسلام بين العقائد والأديان، الإسلام والمسيحية، إثبات العقائد الإسلامية بين النصيين والعقليين، الحرب والسلام فى الإسلام (بالإنجليزية).

أ.د. محمود حمدى زقزوق

الهوامش :

١ - الفلسفة اليونانية، ص ٢٤.

٢ - الوجود والخلود، ص ١٦.

مراجع للاستزادة :

أولاً : مؤلفات الدكتور بيصار المشار إليها سابقا وبخاصة ما جاء فى الهامشين التاليين.

ثانياً : مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن من تأليف على عبد العظيم ج ٢ . القاهرة ١٩٧٩ .

محمد عبده «الإمام»
(١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ = ١٨٤٩ - ١٩٠٥م)

هو الإمام محمد عبده بن حسن خير الله. ولد بقرية «محلة نصر» مركز «شبراخيت» محافظة «البحيرة» لأسرة تعتز برجالها، الذين قاوموا مظالم الولاة والحكام، وضحوا فى سبيل ذلك بالأرض والمال والرجال والاستقرار..

وبعد أن تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن بـ«كتاب» القرية، أخذ طريقه إلى التعليم الأزهرى بالمعهد «الأحمدى» بطنطا (١٢٧٩ هـ - ١٨٦٢م)، لكن عقم أساليب التدريس صدته عن طلب العلم، فعاد إلى القرية، وتزوج، ورغب فى الاشتغال - كإخوته - فى فلاحة الأرض، لكن والده أصر على عودته إلى طلب العلم، فهرب إلى أخوال أبيه فى قرية «كنيسة أورين»، وهناك لقيه الشيخ درويش خضر، وكان صوفيا - من الطريقة السنوسية - وعلى يده فتح الله صدره لطلب العلم، فعاد إلى طنطا .. ثم غادرها إلى الأزهر بالقاهرة، حيث تحول مجرى حياته عندما تعرف سنة (١٢٨٨ هـ = ١٨٧١م) على جمال الدين الأفغانى (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ = ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) وتتلمذ على يديه ، ولازم حلقات درسه، حتى غدا أصدق أصدقائه، وأبرز خلفائه فى حركته الإصلاحية وتيار الجامعة الإسلامية.

وبعد أن تخرج محمد عبده فى الأزهر (١٢٩٤ هـ = ١٨٧٧م) عين مدرسا للتاريخ بمدرسة دار العلوم العليا، كما درس بمدرسة الألسن، وشرح لطلابه مقدمة ابن خلدون، وعلم الاجتماع والعمران.. وكان يكتب فى الصحافة.. ويعمل بالسياسة، مع أستاذه الأفغانى، من خلال «الحزب الوطنى الحر»..

وعندما نفى الأفغانى من مصر (١٢٩٦هـ = ١٨٧٩م) عزل محمد عبده من التدريس، وحددت إقامته بقريته، إلى أن استصدر له ناظر النظار رياض باشا (١٢٥٠ - ١٣٢٩هـ = ١٨٣٤ - ١٩١١م) عفوا خديويا، وعينه محررا أولاً لصحيفة «الوقائع المصرية» . فطورها، وأنشأ بها قسما غير رسمى : نشر فيه - هو وغيره - الكثير من المقالات الفكرية فى مختلف الفنون.

آراؤه واتجاهاته الفكرية:

لم يكن محمد عبده من أنصار «الثورة » طريقا للتغيير، وإنما كان من أنصار الإصلاح التدريجى، وخاصة بواسطة التربية والتهذيب والتعليم، وصولا إلى تكوين النخبة التى تربى الأمة، حتى تأتيها ثمرات الإصلاح ناضجة راسخة وبالتدريج.. وكان الحزب الجهادى ـ العسكرى ـ الذى كان يقوده أحمد عرابى باشا (١٢٥٧ - ١٣٣٩ هـ = ١٨٤١ - ١٩١١م) قد دخل بمصر إلى طريق الثورة.. وبعد مظاهرة عابدين ـ ٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١م ـ التى جاءت لمصر بالحكم النيابى والدستور، والتى أعقبتها ـ أيضا ـ تهديدات إنجليزية وفرنسية لاستقلال مصر، انخرط محمد عبده وحزبه فى خضم الثورة العرابية، لكنه مثل فى قيادتها جناح الاعتدال .. حتى إذا هزمت الثورة، واحتل الإنجليز مصر ـ سبتمبر سنة ١٨٨٢م حوكم مع زعماء الثورة، ونفى إلى خارج البلاد ثلاث سنوات، امتدت إلى ست سنوات .. ولقد بدأ منفاه ببيروت.. ومنها لحق بالأفغانى فى باريس، حيث انخرط فى العمل السياسى، رئيسا لتحرير مجلة «العروة الوثقى» ونائبا للأفغانى فى رئاسة التنظيم الذى تنطق باسمه هذه المجلة ـ (جمعية العروة الوثقى) ـ السرية ـ وبهذه الصفة تنقل سرا، فى كثير من البلاد راعيا ومتابعا «عقود التنظيم» و «خلاياه»..

وبعد توقف المجلة.. وانقضاء السنوات الثلاثة المحكوم عليه بالنفى فيها.. تطرق اليأس من العمل السياسى المباشر إلى نفس محمد عبده، وعاودته الرغبة فى الإصلاح بمنهاج التربية والتعليم والتجديد الفكرى وإصلاح مناهج التفكير لدى المسلمين، ففارق أستاذه، وعاد إلى بيروت معلما بالمدرسة السلطانية، ومفسرا للقرآن بالمسجد العمرى، ومؤلفًا ومحققًا لكتب التراث الإسلامى.

وبدأ محمد عبده المرحلة التى تفرغ فيها للاجتهاد والتجديد، حتى غدا المهندس الأول لفكر هذه الحركة الإصلاحية.. فعلى حين اتفق والأفغانى فى منهاج التجديد الفكرى، ركز الأفغانى على العمل السياسى، وتفرغ محمد عبده للتجديد الفكرى والتربية والتعليم. ومن خلال مواقعه ومناصبه التى تولاّها كرَّس جهوده للعمل الفكرى.. فخاض المعارك الفكرية الكبرى مع «جابرييل هانوتو» (١٨٥٣ -١٩٤٤م) دفاعا عن الإسلام .. ومع «فرح أنطون» (١٨٦١ - ١٩٢٢م) دفاعا عن الإسلام وحضارته.. ومن خلال مجلة (المنار) التى أصدرها تلميذه رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤هـ = ١٨٦٥ - ١٩٣٥م). وبلغت دعوته فى التجديد والإصلاح إلى كل أرجاء العالم الإسلامى.. وكان تفسيره لما فسر من القرآن الكريم.. ورسالته التى جدد بها علم الكلام الإسلامى (رسالة التوحيد).. مع معاركه

الفكرية .. وفتاواه .. المعالم الفكرية لمشروع النهضة الإسلامية، الذى تجاوز جمود أهل التقليد، ورفض تبعية المنبهرين بالحضارة الغربية الغازية.. فمن موقع الوسطية الإسلامية، صاغ الأستاذ الإمام للأمة معاصرة إسلامية متميزة، هى الامتداد المتطور لأصالتها الإسلامية المتميزة..

وإلى جانب المشروع الفكرى : ركز ـ فى الميدان العملى ـ على إصلاح المؤسسات الثلاث التى تقوم على صياغة العقل والوجدان الإسلامى : الأزهر .. والمساجد.. والمحاكم الشرعية.. ولقد حقق فى هذا الميدان نجاحات لم تبلغ الحد الذى كان يريده؟...

وفى (أعماله الكاملة) ـ بمجلداتها الخمسة ـ تتمثل واحدة من أبرز ثمرات الفكر الإصلاحى فى عصرنا الحديث.

وفى (١٣٠٦هـ = ١٨٨٩م) نجحت مساعى أصدقائه فعاد إلى مصر.. وإذا كان هو قد أدار ظهره للعمل السياسى المباشر، فإن الخديوى توفيق (١٢٦٨ - ١٣٠٩هـ = ١٨٥٢ - ١٨٩٢م) لم يقنع بذلك، فأبعده عن مهنته المحببة: التدريس.. فاشتغل بالقضاء، حتى أصبح مستشارا بمحكمة الاستئناف سنة ١٨٩١م، وكان قد عين فى «مجلس شورى» القوانين (١٣١٧ هـ - ١٨٩٩م). وشارك فى تأسيس الجمعية الخيرية الإسلامية (١٣١٠ هـ - ١٨٩٢م) ورأسها فى (١٣١٨ هـ - ١٩٠٠م) .. وأسس - لإحياء التراث - «جمعية إحياء الكتب العربية» (١٣١٨ هـ = ١٩٠٠م).. وتولى منصب مفتى الديار المصرية (١٣١٧هـ = ١٨٩٩م)..

أ. د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة :

١ - الإمام محمد عبده : مجدد الدنيا بتجديد الدين، للدكتور محمد عمارة . طبعة دار الشروق . القاهرة سنة ١٩٨٨م.

٢ - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٣م.

٣ - محمد عبده، للإمام مصطفى عبد الرازق.

٤ - تاريخ الأستاذ الإمام. لرشيد رضا.

محمد بن عبد الوهاب
(١١١٥ - ١٢٠٦هـ = ١٧٠٣ - ١٧٩٢م)

هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمى النجدى، شيخ الدعوة التجديدية السلفية الذى تنسب إليه (الوهابية)، بشبه الجزيرة العربية.

ولد ونشأ فى «العيينة» - بنجد سنة ١١١٥هـ = ١٧٠٣م، ورحل إلى الحجاز والبصرة، وتعلم بالمدينة المنورة، ثم استقر بنجد فى «حريملاء» حيث كان والده قاضيها - ومنها انتقل إلى مسقط رأسه «العيينة» داعيا إلى مذهب السلف - مدرسة أهل الحديث - مركزًا دعوته على تطهير عقيدة التوحيد مما شابها من تصورات وبدع وأوهام. وبعد حقبة من التعاون مع أمير «العيينة» - عثمان بن حمد بن معمر - تخلى الأمير عن دعوة الشيخ، فغادرها إلى «الدرعية» حيث تحالف مع أميرها محمد بن سعود، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الدعوة السلفية مذهب الدولة السعودية، فوضع الأمير محمد بن سعود، قوة إمارته فى خدمة الدعوة، وخاض المعارك ضد القبائل الرافضة لها، وكان ابن عبد الرهاب رجل الدعوة، بل وفى طليعة جيش الإمارة، التى اتسعت حدودها فشملت الجزيرة، وأجزاء من اليمن ومكة والمدينة والحجاز.

ولقد استمر أمراء آل سعود - عبد العزيز ابن محمد، وسعود بن عبد العزيز - فى دعم الشيخ ابن عبد الوهاب، والعمل على نشر دعوته، واتخاذها مذهب الإمارة. وتوفى سنة ١٢٠٦هـ - ١٧٩٢م.

آراؤه واتجاهاته :

يعد محمد بن عبد الوهاب أهم من انتقل بالتجديد الإسلامى، فى العصر الحديث، من إطار التجديد الفردى والمشروع الفكرى إلى إطار «الدعوة» التى اتخذت لها «دولة» تحميها وتقاتل فى سبيل نشرها، الأمر الذى جعل لدعوته من التأثير والاستمرارية ما لم تحظ بهما دعوات تجديدية أخرى، ربما كانت أرسخ منها قدما فى فكر التجديد.

ولقد كان تجديد الشيخ ابن عبد الوهاب واجتهاده اختيارا فى إطار المذهب الحنبلى،

واستدعاء لنصوص ومقولات أعلامه - وخاصة منهم، مؤسس المذهب الإمام أحمد ابن حنبل (١٦٤- ٢٤١هـ = ٧٨٠ - ٨٥٥م)، وشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١- ٧٢٨هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨م). كان اجتهاد اختيارات فى إطار المذهب، استدعى النصوص والمقولات التى تنقى عقيدة التوحيد مما ران عليها وشابها من مظاهر الشرك والبدع والخرافات، على النحو الذى ناسب بيئة نجد ومشكلاتها فى ذلك التاريخ.

مؤلفاته :

ولأن «الدولة» قد نصرت «الدعوة»، فلقد امتد تأثيرها واستمر مكانا وزمانا.

ولقد ترك الشيخ محمد بن عبد الوهاب العديد من الكتب والرسائل التى عالج فيها المشكلات التى اهتمت بها دعوته التجديدية الإصلاحية، منها (كتاب التوحيد) و (كشف الشبهات) و (تفسير سورة الفاتحة) و (أصول الإيمان) و (تفسير شهادة أن لا إله إلا الله) و (معرفة العبد ربه ودينه ونبيه) و (المسائل التى خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية) - وفيها أكثر من مائة مسألة - و (فضل الإسلام) و (نصيحة المسلمين) و (معنى الكلمة الطيبة) و (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) و (مجموعة خطب) و (مفيد المستفيد) و (رسالة فى أن التقليد جائز لا واجب) و (كتاب الكبائر).

وحتى عناوين هذه الرسائل تفصح عن مضامينها، التى ركزت على تنقية عقيدة التوحيد، والعودة فيها إلى التصور الإسلامى النقى، الذى رسخته المدرسة السلفية فى تراث الإسلام.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة :

١ - مجموعة التوحيد، رسائل للإمام محمد بن عبد الوهاب. طبعة المكتبة السلفية - القاهرة.

٢ - تيارات الفكر الإسلامى، للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٩١م.

محمد بن عمر بن مبارك الحضرمي
(٨٦٩-٩٣٠هـ = ١٤٦٥-١٥٢٤م)

هو محمد بن عمر بن مبارك الحميرى الحضرمى الشافعى الشهير ببحرق. أديب، صوفى، فقيه من أعلام اليمن فى القرن العاشر الهجرى.

ولد فى ليلة النصف من شعبان سنة ٨٦٩هـ الموافق ١٤٦٥ م بحضرموت، وبها نشأ، فحفظ القرآن الكريم وبعض متون العلوم الإسلامية والعربية، ثم انتقل إلى عدة بلدان بعضها فى داخل بلاد اليمن، وبعضها فى خارجه، فرحل إلى الشِّحر، ثم إلى بندرعَدَن، ومنها إلى الحَرَمَين لأداء المناسك. ثم عاد إلى الديار اليمنية وقد أكْرَمه سُلطان هذه البلاد عامر بن عبدالوهاب الذى مدحه بعدة قصائد سارت بها الركبان واستلذت بها العقول. وتولى القضاء فى الشِّحر وكان عادلا فى قضائه، لكنه عزل نفسه، وتوجه إلى عدن فرحب به أميرها «مرجان» ولما مات سافر إلى الهند فقرَّ به سلطانها مظفر لَمَّا خَبَر علمه وورعه وفضله ثم انتقل إلى رحمة الله. وقيل إنه مات مسموما وذلك بسبب هذه الخطوة إذ حسده الوزراء وذلك فى العشرين من شعبان عام ٩٣٠ هـ (١٥٢٤ م).

تتَلْمذ على طائفة من مشاهير عصره نذكر منهم :

١- عبد الله عبد الرحمن بافضل، وأخذ منه فى الشِّحر.

٢- عبد الله بن أحمد بامخرمة، وقد لازمه فى عَدَن ملازمة تامة واستفاد منه فى التفسير والحديث والفقه والعربية.

٣- أبو بكر عبد الله العيدروس، أخذ عنه التصوف فى عَدَن.

٤- الحسن بن عبدالرحمن وأخذ عنه التصوف فى زَبِيد.

٥- الحافظ السخاوى، وقد ذكره فى كتابه «الضوء اللامع».

وترك طائفة كبيرة من المؤلفات فى مختلف العلوم العربية والإسلامية عدا السفر الكبير الذى يعد بعضه منظومات للعلوم وبعضه شعر مناسبات فى المدح وغيره نذكر من هذه المؤلفات وبعضها أراجيز علمية.

١- الأسرار النبوية فى اختصار الجزرية.

٢- السيرة النبوية.

٣- تحفة الأحباب وطرفة الأصحاب فى شرح مُلْحَة الإعراب للحريرى.

٤- ترتيب السلوك إلى ملك الملوك.

٥- الحسام المسلول على منقصى أصحاب الرسول.

٦- حلية البنات والبنين فيما يحتاج إليه من أمر الدين.

٧- عقد الدرر فى الإيمان بالقضاء والقدر.

٨- فتح الأقفال وضرب الأمثال فى شرح لامية الأفعال «لابن مالك فى النحو».

٩- مختصر الترغيب والترهيب للمنذرى.

١٠- مواجب القدوس فى مناقب ابن العيدروس.

١١- مختصر نهاية الناشرى فى علم القراءات.

١٢- أرجوزة فى الحساب، وشرحها.

١٣- رسالة فى الفلك.

١٤- فى إثبات رسالة هارون أخى موسى وكفر فرعون.

١٥- نشر العلم، فى شرح لامية العجم.

أ.د. ضاحى عبد الباقى

مراجع للاستزادة:

١ - النور السافر للعيدوروس.

٢ - السنا الباهر.

٣ - شذرات الذهب لابن العماد الحنبلى.

٤ - الضوء اللامع للسخاوى.

٥ - كشف الظنون لحاجى خليفة.

٦- هدية العارفين.

٧- الأعلام، لخير الدين الزركلى.

٨- معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة.

٩- معجم المطبوعات العربية والمعربة، ليوسف إليان سَرْكيس.

محمد الغزالى السقا
(١٣٣٥ - ١٤١٦هـ = ١٩١٧ - ١٩٩٦م)

هو «الفقيه - الداعية - المجدد» الشيخ محمد الغزالى السقا..

مصرى المولد، والنشأة.. ولد لأسرة ريفية فقيرة ومتدينة- فى قرية «نكلا العنب» مركز «إيتاى البارود» محافظة «البحيرة» - بدلتا مصر - يوم السبت ٥ ذى الحجة سنة ١٣٣٥هـ الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٩١٧م. ولقد اختار له والده اسم «محمد الغزالى»، تيمنا بحجة الإسلام «أبو حامد الغزالى»؛ لنزعة صوفية لدى الوالد..

وكان أكبر إخوته.. السبعة.. ولقد نشأ وأسرته الفقيرة تعلق عليه الآمال. ولقد أتم حفظ القرآن الكريم وهو فى العاشرة من عمره، والتحق - طالبا للعلم الإسلامى - بالمعهد الدينى - التابع للأزهر الشريف - بمدينة الإسكندرية، فحصل على شهادة «الابتدائية» سنة ١٩٣٢م.. ومن نفس المعهد - القسم الثانوى - حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية سنة ١٩٣٧م.

والتحق بالتعليم العالى الأزهرى - كلية «أصول الدين» بالقاهرة.. وفيها تلقى العلم على كوكبة من كبار العلماء، منهم الشيخ عبد العظيم الزرقانى.. والإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت - وتخرج من «أصول الدين» فنال الشهادة «العالية» سنة ١٩٤١م.. كما حصل - من نفس الكلية - على إجازة الدعوة والإرشاد سنة ١٩٤٣م..

وفى نفس العام الذى التحق فيه بكلية أصول الدين - سنة ١٩٣٧م - التقى بمرشد جماعة الإخوان المسلمين، الشيخ حسن البنا (١٣٢٤- ١٣٦٨هـ = ١٩٠٦ - ١٩٤٩م) وأصبح عضواً بالجماعة، فبدأت بذلك أهم تحولات حياته الفكرية والعملية..

ولقد تزوج الشيخ الغزالى، وهو لا يزال طالبا بكلية أصول الدين.

المناصب التى تولاها :

بدأت ممارسته للدعوة الإسلامية أثناء طلبه العلم بكلية أصول الدين، عندما عمل إماما وخطيبا بأحد مساجد القاهرة.. فلما تخرج سنة ١٩٤١م، عين - فى العام التالى -

سنة ١٩٤٢م - بوزارة الأوقاف - إماما وخطيبا بمسجد «العتبة الخضراء» - بوسط القاهرة.. وتدرج فى مناصب الدعوة والوعظ والإرشاد، بوزارة الأوقاف المصرية، فتولى التفتيش بالمساجد.. والوعظ بالأزهر الشريف.. ووكيلا، فمديرا للمساجد.. فمديرا للتدريب.. فمديرا للدعوة والإرشاد فى ٢ يوليو سنة ١٩٧١م.. فوكيلا لوزارة الأوقاف لشئون الدعوة الإسلامية فى مارس سنة ١٩٨١م.

تفتحت مواهبه الأدبية والفكرية على يدى الشيخ حسن البنا، وفى صحافة جماعة الإخوان - التى أصبح من كُتابها - حتى أطلق عليه لقب «أديب الدعوة».

ولقد تحمل الشيخ الغزالى نصيبه من المحن التى أصابت جماعة الإخوان المسلمين.. فقضى فى معتقل «الطور» - بشبه جزيرة سيناء - قرابة العام سنة ١٩٤٩م.. وأقل من عام فى سجن «طره» إبان التحقيقات مع الشهيد سيد قطب سنة ١٩٦٥م..

ولما شارك فى «المؤتمر الوطنى للقوى الشعبية» سنة ١٩٦٢م، كانت له مواقف أثارت ضده حملة صحفية قادها عدد من الصحفيين اليساريين، وانتصرت له فيها جماهير المساجد.. وكان يخطب الجمعة بمسجد عمرو بن العاص، فتحتشد لسماعه عشرات الألوف.. وعندما كانت تثير انتقاداته الدولة، فتهم بتقييد حريته، كانت تتحرك لنصرته مظاهرات جماهير المساجد.. وفى السبعينات كان له - هو والشيخ محمدأبو زهرة - موقف معارض للتعديلات التى اعتزمت الدولة إدخالها على قانون الأحوال الشخصية - فكان يرى أن مشكلة مصر هى فى عجز شبابها عن تكاليف الزواج، وليست المشكلة فى تعدد الزوجات.. فضاقت الدولة بمعارضته ومنعته من الخطابة بجامع عمرو ابن العاص، وسحبوا منه اختصاصاته فى وظائف الدعوة، فجلس يشتغل بالتأليف.

وفى سنة ١٩٥٢ - ١٩٥٣م شغل وظيفة رئيس «التكية المصرية» بمكة المكرمة.. وعمل فى قطر.. أستاذا زائرا - ما بين سنة ١٩٨٢م وسنة ١٩٨٥م.. وعاش بالجزائر مابين سنة ١٩٨٥م وسنة ١٩٨٨م منشأ وراعيا لجامعتها الإسلامية - جامعة الأمير عبد القادر، ومشرفا على مجلسها العلمى..

آراؤه وتأثيراته :

ولقد امتلك الشيخ الغزالى حرية المفكر واستقلالية المجدد منذ بداية عقد الخمسينيات، عندما استقل عن جماعة الإخوان المسلمين - لخلافه مع مرشدها العام

الأستاذ حسن الهضيبى.. فكان تفرغه للدعوة والتأليف.. وظل محافظا على استقلالية الفكر حتى بعد أن عادت المودة والتعاون والعلاقات مع جماعة الإخوان فى سنوات عمره الأخيرة..

شيوخه :

وإذا كان الشيخ الغزالى قد تتلمذ على حسن البنا، الذى تتلمذ على رشيد رضا، تلميذ محمد عبده ـ أنجب تلاميذ جمال الدين الأفغانى ـ فلقد حدد الشيخ الغزالى منهاج هذه المدرسة، التى ينتمى إليها مشروعه الفكرى التجديدى - فى معرض حديثه عن مدارس الفكر الإسلامى - مدرسة الرأى.. والأثر.. والموازنة بينهما - كما هو الحال عند ابن تيمية - مع ميل للأثر.. ومدرسة الاختيار الشخصى والتنسيق بين وجهات النظر المختلفة - حدد منهاج مدرسته، التى وازنت بين «الرأى» و«الأثر» على نحو متميز عن موازنة مدرسة ابن تيمية، وذلك «بترويجها للعقل، وتقديم دليله، واعتبارها العقل أصلا للنقل. وهى تقدم الكتاب على السنة، وتجعل إيماءات الكتاب أولى بالأخذ من أحاديث الآحاد. وهى ترفض مبدأ النسخ، وتنكر إنكارا حاسما أن يكون فى القرآن نص انتهى أمده. وترى المذهبية فكرا إسلاميا قد ينتفع به، ولكنه غير ملزم، ومن ثم فهى تنكر التقليد المذهبى، وتحترم علم الأئمة، وتعمل على أن يسود الإسلام العالم بعقائده وقيمه الأساسية، ولا تلقى بالا إلى مقالات الفرق والمذاهب القديمة أو الحديثة»[1].

تأثيره فيمن حوله :

ولقد كان الشيخ الغزالى يوجز الحديث عن الإسلام عندما يقول إنه: «قلب تقىّ، وعقل ذكى» معبرا بذلك عن منهاج الوسطية الإسلامية الجامع، فى مصادر العرفة، بين كتابى الله : الوحى المسطور، وكتاب الكون المنظور ... فى سبيل المعرفة، بين : العقل والنقل والتجربة والوجدان.. ولذلك كان عطاء الشيخ الغزالى فى «القدوة» منافسا لعطائه فى «الفكر»، كما برئ مشروعه الفكرى من الفصام بين العقل والقلب، وامتزجت فيه الرؤية لمشكلات الأمة والإنسانية، والماضى والحاضر والمستقبل جميعًا[2]..

وكان داعية لتحرير العقل الإسلامى من قيود الجمود والتقليد، وذلك بالتمييز بين مصادر الإسلام المعصومة وبين الفكر الإسلامى غير المعصوم، ورفض الإدعاء بأن الأولين لم يدعو للآخرين مجالا فى الاجتهاد والتجديد «فالإسلام هو صائغ الأئمة المجتهدين، وهم لم يصوغوه.. ومصادر

الإسلام معصومة، لأنها عند الله، ولكن التفكير فيها والاستنباط منها غير معصوم، لأنه من عند الناس.. والأئمة الأوائل كانوا روادًا فى تأسيس الفقه الإسلامى، والرائد قد يشغله الاكتشاف عن الموازنة والتقدير، ولعل من يجىء بعده يكون أقدر على التنظيم والمراجعة والموازنة والاختيار..»[٣].

وكان يرى أن صلاح دنيا الناس، بالعدالة الاجتماعية، شرط لصلاح قلوبهم بدين الإسلام.. فعدالة الإسلام هى الطريق إلى فضائل الإسلام وتقوى القلوب.. «إذ من العسير أن تملأ قلب إنسان بالهدى، إذا كانت معدته خالية!.. أو أن تكسوه بلباس التقوى، إذا كان جسده عاريا!.. فلابد من التمهيد الاقتصادى الواسع، والإصلاح العمرانى الشامل، إذا كنا مخلصين حقا فى محاربة الرذائل باسم الدين، أو راغبين حقا فى هداية الناس لرب العالمين!»[٤].

وكان يدعو – فى فهم المصدر الأول للإسلام: القرآن الكريم – إلى تدبر محاوره الجامعة: التوحيد، الذى هو قانون الوجود ونظام الحياة، وطريق تحرير الإنسان وملكاته من العبودية للطواغيت.. وآيات الله الكونية، المبثوثة فى الأنفس والآفاق، والتى على نسقها ترتفع أركان الدين وأعلام الإيمان.. والقصص القرآنى، كأداة للتربية والتزكية، ومعالم على طريق الاعتقاد الدينى.. ونبأ الغيب والبعث والجزاء، ودوره فى بناء الأخلاق.. والتربية والتشريع، لصلاح الدنيا، الذى يتأسس عليه صلاح يوم الدين[٥].

وكان مدافعا عن سنة رسول الله ﷺ، فهى مع القرآن «قوام الإسلام، وهى الامتداد لسنا القرآن، والتفسير لمعناه، والتحقيق لأهدافه ووصاياه.. وكما أنه لا فقه إلا بسنّة، فلا سنّة بغير فقه.. والحكم الدينى لا يؤخذ من حديث واحد مفصول عن غيره، وإنما يضم الحديث إلى الحديث، ثم تقارن الأحاديث المجموعة بما دل عليه القرآن الكريم، فإن القرآن هو الإطار الذى تعمل الأحاديث فى نطاقه لا تعدوه.. والأحكام فى الأحاديث الصحيحة مأخوذة ومستنبطة من القرآن، استنبطها النبى - ﷺ - من القرآن بتأييد إلهى وبيان ربانى» فهى بيان نبوى للبلاغ القرآنى، وإراءة من الله لنبيه ليفصّل ما أجمله القرآن[٦].

كان عضوًا فى «مجمع البحوث الإسلامية» بالأزهر الشريف.. و«المجمع الملكى لبحوث الحضارة الإسلامية» بالأردن – و«المعهد العالمى للفكر الإسلامى» بواشنطن– و«الهيئة الخيرية الإسلامية العالمية» بالكويت... الخ... الخ.

كما حصل على العديد من الأوسمة والجوائز.. من مثل:

١ - وسام الأسير - وهو أعلى وسام بالجزائر - سنة ١٩٨٨م.

٢ - جائزة الملك فيصل العالمية - لخدمة الإسلام - سنة ١٩٨٩م.

٣ - جائزة الامتياز - من باكستان - سنة ١٩٩١م.

٤ - جائزة الدولة التقديرية - من مصر - سنة ١٩٩١م.

٥ - جائزة على وعثمان حافظ - لمفكر العام - سنة ١٩٩١م.

وكان من أواخرها رحلته إلى الأمم المتحدة - حيث خطب فى عيدها الخمسين، ممثلا للأزهر الشريف سنة ١٩٩٦م.. وأمضى بين مسلمى أمريكا - فى تلك الرحلة ثلاثة أسابيع..

وبعد أسابيع من عودته سافر إلى المملكة العربية السعودية، للمشاركة فى المهرجان الوطنى للثقافة - الجنادرية - حيث لبى نداء ربه، فصعدت روحه إلى بارئها - فى قاعة الملك فيصل، مساء يوم الجمعة ١٧ شوال سنة ١٤١٦هـ ٩ مارس سنة ١٩٩٦م.. ليدفن «بالبقيع»، فى المدينة المنورة، عاصمة النبوة، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

مؤلفات الشيخ الغزالى :

١ - الإسلام والأوضاع الاقتصادية، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٧م.

٢ - الإسلام والمناهج الاشتراكية.

٣ - الإسلام والاستبداد السياسى.

٤ - الإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٧م.

٥ - من هنا نعلم، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦.

٦ - تأملات فى الدين والحياة، طبعة دار الدعوة، الإسكندرية، سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٧ - خلق المسلم، طبعة دار الدعوة سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

٨ - عقيدة المسلم، طبعة دار الدعوة سنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٩ - التعصب والتسامح.

١٠ - فقه السيرة، طبعة دار الدعوة سنة ١٩٨٨م.

١١ - فى موكب الدعوة.

١٢ - ظلام من الغرب.

١٣ - جدد حياتك، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦م.

١٤ - ليس من الإسلام.

١٥ - من معالم الحق.

١٦ - كيف نفهم الإسلام، طبعة دار

الدعوة، سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٧ - الاستعمار أحقاد وأطماع.

١٨ - نظرات فى القرآن، طبعة نهضة مصر سنة١٩٩٦م.

١٩ - مع الله ، دراسات فى الدعوة والدعاة.

٢٠ - معركة المصحف، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦م.

٢١ - كفاح دين، طبعة مكتبة وهبة، القاهرة سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٢٢ - الإسلام والطاقات المعطلة.

٢٣ - حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة، طبعة دار الدعوة سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٢٤ - هذا ديننا، طبعة دار الشروق، القاهرة، سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٢٥ - حقيقة القومية العربية وأسطورة البعث العربى.

٢٦ - الجانب العاطفى من الإسلام.

٢٧ - دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦م.

٢٨ - ركائز الإيمان بين العقل والقلب، طبعة مكتبة وهبة، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٢٩ - حصاد الغرور، طبعة مكتبة وهبة سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٣٠ - الإسلام فى وجه الزحف الأحمر.

٣١ - قذائف الحق.

٣٢ - الدعوة الإسلامية تستقبل القرن الخامس عشر، طبعة مكتبة وهبة سنة ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣٣ - فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء، طبعة دار الاعتصام، القاهرة، سنة ١٩٨٠م.

٣٤ - دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، طبعة دار الوفاء ، القاهرة، سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣٥ - واقع العالم الإسلامى فى مطلع القرن الخامس عشر.

٣٦ - مشكلات فى طريق الحياة الإسلامية، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦م.

٣٧ - هموم داعية، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦م.

٣٨ - مائة سؤال فى الإسلام، طبعة دار ثابت، القاهرة سنة ١٩٨١م.

٣٩ - علل وأدوية، طبعة دار الدعوة سنة ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٤٠ - مستقبل الإسلام خارج أرضه وكيف نفكر فيه، طبعة الأردن، عمان سنة ١٩٨٤م.

٤١ - قصة حياة.

٤٢ - سر تأخر العرب والمسلمين، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦م.

٤٣ - الطريق من هنا.

٤٤ - جهاد الدعوة بين عجز الداخل وكيد الخارج.

٤٥ - الحق المر، جـ ١ - جـ ٥، طبعة نهضة مصر سنة ١٩٩٦م.

٤٦ - من معالم الحق فى كفاحنا الإسلامى الحديث.

٤٧ - الغزو الثقافى يمتد فى فراغنا، طبعة الأردن، عمان سنة ١٩٨٥م.

٤٨ - المحاور الخمسة للقرآن الكريم، طبعة دار الصحوة ودار الوفاء، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٤٩ - السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، طبعة دار الشروق سنة ١٩٩٦م.

٥٠ - قضايا المرأة بين التقاليد الراكدة والوافدة، طبعة دار الشروق سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

٥١ - تراثنا الفكرى فى ميزان الشرع والعقل، طبعة دار الشروق سمة ١٩٩١م - ١٤١١هـ.

٥٢ - كيف نتعامل مع القرآن الكريم، طبعة المعهد العالمى للفكر الإسلامى، واشنطن سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٥٣ - صيحة تحذير من دعاة التنصير، طبعة دار الصحوة.

٥٤ - نحو تفسير موضوعى للقرآن الكريم، طبعة دار الشروق سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٥٥ - كنوز من السنة.

أ.د. محمد عمارة

الهوامش:

١ - دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين، للشيخ محمد الغزالى، طبعة دار الوفاء - القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٦٩-٧٠.

٢ - (دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين) ص٦٩-٧٧ طبعة دار الوفاء - القاهرة سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

٣ - (دستور الوحدة الثقافية) ص ٨٥-٩٣.

٤ - (الإسلام والأوضاع الاقتصادية) ص٦١، ٦٢، طبعة سنة ١٩٨٧م.

٥ - (المحاور الخمسة للقرآن الكريم) طبعة سنة ١٩٩٤م.

٦ - (دستور الوحدة الثقافية) ص ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٣٨، و(السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث) ص١١٨، ١١٩ طبعة سنة ١٩٨٩م. و(هذا ديننا) ص ١٩٧، طبعة سنة ١٩٦٥.

مراجع للاستزادة:

١ - دكتور محمد عمارة (الشيخ الغزالى: الموقع الفكرى.. والمعارك الفكرية)، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة سنة ١٩٩٢م.

٢ - دكتور يوسف القرضاوى (الشيخ الغزالى كما عرفته.. رحلة نصف قرن)، طبعة دار الوفاء سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٣ - محمد شلبى (الشيخ الغزالى ومعركة المصحف فى العالم الإسلامى)، طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م.

٤ - د. أحمد حجازى السقا (دفع الشبهات عن الشيخ محمد الغزالى)، طبعة القاهرة.

٥ - د. عامر النجار (نظرات فى فكر الغزالى)، طبعة القاهرة.

محمد غلاب

(١٣١٦ - ١٣٩٠ هـ = ١٨٩٩ - ١٩٧٠م)

ولد محمد غلاب حوالى عام ١٣١٦هـ الموافق ١٨٩٩م، فى بلدة بنى خالد التابعة لمركز ملوى بمحافظة أسيوط بمصر. التحق بالأزهر عام ١٩١٧م، وحصل على الشهادة الثانوية الأزهرية عام ١٩٢٤م، ثم التحق بالجامعة المصرية، وانتسب لمدرسة الحقوق الفرنسية. سافر إلى فرنسا عام ١٩٢٦م وحصل على دكتوراه فى الآداب من جامعة ليون عام ١٩٢٩م، وعاد إلى مصر فى العام نفسه، واشتغل بالصحافة وأنشأ مجلة النهضة الفكرية عام ١٩٣٠م، واشترك فى تحرير مجلة الأزهر. وفى عام ١٩٣٢م عمل بالتدريس بكلية أصول الدين بالأزهر، واستمر فى عمله هذا أستاذا للفلسفة حتى بعد إحالته إلى التقاعد عام ١٩٥٩م. وقد توفى فى سنة ١٣٩٠هـ الموافق ٢٦/٧/١٩٧٠م.

ولقد اهتم الدكتور غلاب بدراسة تاريخ الفكر الإنسانى الفلسفى فى مراحله المختلفة، وخصص لتاريخ الفلسفة الإغريقية كتابا من جزءين. ويرجع اهتمامه بالتأكيد على ضرورة دراسة تاريخ الفلسفة الإغريقية بصفة خاصة، إلى ما يراه من أن «العلوم الإسلامية مؤسسة منذ بدء نشأتها على علوم اليونان وأفكار اليونان، بل وعلى أوهام اليونان... فصار هذا التاريخ والحالة هذه كالمقدمة الضرورية لتاريخ التمدن الإسلامى، لا يسع أحدا من هذه الأمة إهماله، ولا طالب الحكمة جهله»[1].

ولكن الدكتور غلاب لا يريد أن يفهم أحد من ذلك أن الفلاسفة المسلمين كانوا مجرد مقلدين أو مترجمين للفلسفة الإغريقية، أو أنهم قد اكتفوا بالتعليق والشرح لهذه الفلسفة. فمثل هذا الفهم يُعد فى رأيه بعيدا عن الصحة بُعد الوجود عن العدم. فقد كان فلاسفة الإسلام فى نظره «فلاسفة بأسمى ما فى هذه الكلمة من معانٍ، قد فهموا تلك الفلسفة (الإغريقية) أعمق الفهم... ووضحوا منها ما غمض، وبسطوا ما تعقد، وأناروا ما أظلم، وبرهنوا على ما أعوزه البرهان».

ولم تعد مذاهب فلاسفة الإغريق - بعد أن درسها العرب - كما كانت حين وضعها

أصحابها، فقد قام الفلاسفة المسلمون بإصلاحها وتحليلها وتعليلها وتحويرها، ووجهوا إلى شروحها وتعليقاتها الإغريقية والإسكندرية نقدا عميقا بصيرا بأدق الشئون الفلسفية. وأضافوا إلى ذلك عناصر جديدة ذات قيمة أساسية، استخلصوها من المبادئ القرآنية.

ويصور الدكتور غلاب علاقة فلاسفة المسلمين بالفلسفة الإغريقية تصويرا أكثر وضوحا بقوله: «إن الحقيقة الناصعة، هى أن فلاسفة الإسلام لم يزيدوا على أنهم استعاروا من أساتذتهم الإغريق أدوات النظر الفكرى كالمنطق.... كما استعاروا عناصر فلسفتهم الطبيعية، ومبادئ فلسفتهم العليا أو ما بعد الطبيعة، وما إلى ذلك من الأسس التى أعدها أولئك الفلاسفة العظماء من الإغريق خير إعداد، ووجد فلاسفة الإسلام أنها لا تتعارض مع العقيدة فعضُّوا عليها بالنواجذ، واستفادوا منها أعظم استفادة ممكنة. ولكن الذى لا سبيل إلى الشك فيه أن القرآن هو المنبع الرئيسى الذى انتهل منه أولئك الأعلام رحيق الحكمة العالية. فالقرآن هو أول كتاب سماوى فرض تعلم الفلسفة على أتباعه فرضا، وأوجب عليهم التفكير فى أسرار الكون وخفايا الوجود».[٢].

ويعتقد الدكتور غلاب أن من خصائص «العقلية الشرقية»، المقدرة على قبول المظهرين المتعارضين من منبع واحد دون شعور بالتنافر الطبيعى المتأصل بينهما. ويدلل على ذلك بأن فلاسفة الإسلام لم يقلقهم إسناد التنسك المستفيض الوارد فى كتاب الربوبية إلى أرسطو، مع علمهم التام باتجاهه الواقعى المعتمد على الحِسِّ اعتمادا لا هوادة فيه. وقد استساغوا صدور هذه المتناقضات الواضحة من أرسطو دون أن يثير ذلك لديهم شيئا من الضيق أو الارتباك، بصرف النظر عما أبداه الفارابى من ريبة باهتة سرعان ما خاب وميضها أمام سلطان أرسطو. ولكن الدكتور غلاب يستدرك ويقول: إن هذه الظاهرة كانت فى الفلسفة المغربية أقل منها فى الفلسفة المشرقية، ويعلل ذلك بأن «نشوء النقد واضطرام شعلة المعارك العقلية بين المفكرين كانا من أسباب هذه اليقظة وذلك الاحتياط».[٣].

ولم يقتصر اهتمام الدكتور غلاب على مجالى الفلسفة القديمة والفلسفة الإسلامية، بل امتد ليشمل الفلسفة الحديثة، وأراد بذلك «توطيد دعائم الصلة بين ثقافتنا وبين الفلسفة الحديثة، حتى نبرهن على أننا نحيا لأنفسنا وفى عصرنا، لا للأقدمين وفى عصورهم، كما يقال عنا»[٤].

وبجانب اهتمامه بتاريخ الفلسفة بصفة

عامة اهتم بصفة خاصة بدراسة بعض القضايا الفلسفية، فخصص لمشكلة المعرفة عند مفكرى المسلمين كتابًا كبيرًا، كما خصص لمشكلة الألوهية كتابا مستقلا، تناول فيه هذه المشكلة من وجهات النظر الاجتماعية والعقلية والروحانية، أى من منطلق منتجات الفكر الإنسانى؛ ليبين كيف كانت رحلة هذا الفكر فى عصوره المختلفة، ولدى الشعوب المختلفة حول هذه القضية.

ومن بين الاهتمامات العديدة للدكتور غلاب اهتمامه بالدراسات الاستشراقية. ولكنه يوسع من دائرة مصطلح المستشرقين، فيُدْخِل فيه كل الباحثين الغربيين، الذين تناولوا الإسلام من قريب أو من بعيد، سواء كانوا من المستشرقين بالمعنى الضيق لهذا المصطلح، أو من مؤرخى الأديان، أو علماء الاجتماع، أو السياسة، ممن لهم شهرة وأتباع.

وفى نقاشه للآراء الاستشراقية يسير على منهج بعيد عن التعصب أو المجاملة أو الخضوع للعواطف والأهواء. وعلى أساس ذلك يقدر للنزهاء من بين المستشرقين جهودهم المخلصة فى محاولاتهم المنصفة لفهم المبادئ الإسلامية، كما ينبه فى الوقت نفسه إلى أخطاء من ضل سبيل الرشاد من أولئك الباحثين، وينقض ما تحتوى عليه دراساتهم من شر، أو سوء، أو خطأ، أو سطحية. ويرى الدكتور غلاب أنه ينبغى أن نضع بحوث المستشرقين فى طليعة دراساتنا لعدة أسباب، من بينها أن الطريق الوحيد الذى تسلكه المبادئ الإسلامية للتغلغل فى أصقاع الغرب هو طريق مؤلفات المستشرقين، وأن الشعوب الغربية وحكوماتها تصدر أحكامها على الإسلام طبقا لما يبرزه المستشرقون، وأن سوء التفاهم بيننا وبين تلك الشعوب وحكوماتها، يرجع إلى ما تشتمل عليه هذه الدراسات من زيف وتشويه، هذا فضلا عن أن بعض شبابنا يتلقفون كل ما يرد عن الغرب دون تعقل وتمحيص.

وهذا كله يحتم علينا أن نجعل بحوث المستشرقين فى مقدمة اهتماماتنا، وأن نمنحها الصدارة فى دراساتنا وتحليلاتنا[٥].

وللدكتور محمد غلاب إنتاج علمى غزير ومتنوع، يدل على مدى ما كان لديه من اهتمامات متعددة. ومن أهم مؤلفاته نشير بصفة خاصة إلى المؤلفات التالية :

١ – الفلسفة الشرقية.

٢ – الفلسفة الإغريقية (جزءان).

٣ – الفلسفة العامة.

٤ – الأخلاق النظرية.

٥ – الفلسفة الإسلامية فى المغرب.

٦ – مشكلة الألوهية.

٧ - مبادئ وقيم إسلامية.

٨ - نظرات استشراقية فى الإسلام.

٩ - المعرفة عند مفكرى المسلمين.

١٠ - إخوان الصفا.

١١ - الخصوبة والخلود فى إنتاج أفلاطون.

١٢ - ينابيع الفكر الإسلامى.

١٣ - من أخلاق الإسلام.

١٤ - أيام خالدة فى تاريخ الإسلام.

١٥ - مشكلات الساعة فى مجتمعنا.

١٦ - المذاهب الفلسفية العظمى فى الفلسفة الحديثة.

١٧ - دراسات معاصرة عن الإسلام والمسلمين.

١٨ - من صهاريج المعرفة فى الشرق والغرب.

١٩ - من أماجد مفكرى المسلمين: الفارابى وابن سينا.

٢٠ - هذا هو الإسلام.

وللدكتور غلاب بالإضافة إلى ذلك العديد من الترجمات من الفرنسية إلى العربية فى الأدب والفلسفة، ونخص بالذكر من بينها ما يلى:

١ - تاريخ الفلسفة لإميل بريهييه.

٢ - تيارات الفكر الفلسفى الفرنسى.

٣ - الأدب الهللينى.

٤ - الآداب الأوروبية الحديثة.

٥ - الفلاحون.

٦ - الضحية.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

الهوامش:

١ - الفلسفة الإغريقية. ١ / ١١.

٢ - المعرفة عند مفكرى المسلمين. ص ٦ - ٨.

٣ - الفلسفة الإسلامية فى المغرب. ص ٩ - ١٠.

٤ - المذاهب الفلسفية العظمى فى العصور الحديثة. ص ٣.

٥ - نظرات استشراقية فى الإسلام. ص ٣ - ٥.

مراجع للاستزادة:

١ - سجلات كلية أصول الدين بالقاهرة.

٢ - مؤلفات الدكتور محمد غلاب المذكورة فى الهوامش التالية.

محمد بن فتح الله بدران
(١٩١٠ - ١٩٧٠م)

ولد «محمد بن فتح الله بدران» فى ١٩١٠/٦/٩م فى بلدة «قصور الأمراء» بالمنوفية. التحق بالأزهر وتخرج من كلية أصول الدين عام ١٩٣٧م، ثم حصل على شهادة العالمية من درجة أستاذ فى العقيدة والفلسفة عام ١٩٤٦م، وعين فى العام نفسه مدرسا فى كلية أصول الدين، وتدرج فى سلك التدريس حتى أصبح أستاذا ورئيسا لقسم الدعوة عام ١٩٦٨م. وقد توفى فى ١٩٧٠/١١/٨م. وكان له نشاط ملحوظ بمحاضراته الدينية العديدة فى المحافل العامة ووسائل الإعلام المسموعة والمرئية.

إن أهم آراء الشيخ بدران يجدها المرء فى ثنايا كتابه «الفلسفة الحديثة فى الميزان وتأسيس القواعد من القرآن». وفى هذا الكتاب يرى الشيخ بدران أن العالم الآن يعانى أزمات أخلاقية شاملة، وأن أشد هذه الأزمات تعقيدا هى الأزمة الأخلاقية فى التفكير، ويرجع ذلك إلى عدة أسباب يتمثل **أولها:** فى الغرور بما أنجزه العلم. **وثانيها:** فى الفردية والأنانية والآلية، أو العلمانية والسطحية والفوضوية. **وثالثها:** فى الاستعمار الفكرى[١]، الذى يرمى إلى تقويض ديننا وأخلاقنا وأفكارنا ولغتنا ومثلنا وأمجادنا وفلسفتنا[٢].

ويركز الشيخ بدران على نقد الفلسفة الحديثة مبينا ـ من وجهة نظره ـ تهافتها. ويأخذ على عاتقه وبخاصة فى كتابه «الفلسفة الحديثة فى الميزان» القيام بتأسيس القواعد التى يجب أن تقوم عليها الفلسفة الحديثة من القرآن، لأن القرآن وحده هو المجدد لشباب الأمم والشعوب فى كل زمان ومكان[٣]. ويفرق بين التطور العلمى فى مجال الظواهر المادية وبين الفلسفة ويقول: «أنا لا أنتقص من شأن العلم والعلماء هناك، الذين كشفوا عن الظواهر المادية، وإنما أتربص بالفلسفة والفلاسفة هنا وهناك، الذين خدعوا عن السرائر الإنسانية»[٤].

ويجادل فى استحقاق الفلسفة الحديثة لوصف (حديثة)، ويرفض إطلاق هذا الوصف عليها لأن لفظ حديثة ـ كما يقول[٥]: يحمل فى طياته معنى أنها غير مسبوقة، فهو

حكم بالأولية. وهذا ادعاء ينقصه الدليل المبنى على الاستقراء التام. ولكن رفضه للفلسفة الحديثة لا يعنى الجمود ولا رفض إنتاج العقل العالمى، فهو يدعو كل مفكر وذى ثقافة «أن يعمق تفكيره بمعرفة تفكير الآخرين. فمن لا يعرف ثقافة غيره لا يمكن أن تكمل ثقافته. وإنما أحتم أن نقرأ لجميع الناس، من جميع الأجناس، ولكن على منهج وأساس، أريد أن نقرأ للجميع، لنضع كل واحد فى مكانه اللائق به من تراثنا وتراث الإنسانية»[٦].

ويعود للتأكيد على أن الحكمة أو الفلسفة لا ينبغى أن تؤخذ إلا من القرآن «وإن كانت الفلسفة شيئا فلا يكون تبيانها إلا بالقرآن، ومن القرآن، وإن لم تكن شيئا فلا حاجة لنا بها، بل ولا طريق لنا إليها»[٧].

ويربط الشيخ فتح الله بدران بين التفكير كله والأخلاق الفاضلة، ويرى أن أصحاب التفكير الصحيح الصادق هم أولوا الألباب، وهؤلاء هم أصحاب الأخلاق الفاضلة[٨]، والمعرفة يجب أن تصدر عن الأخلاق، فالأخلاق أولا، ثم المعرفة ثانيا، ثم التفكير ثالثا، ثم الإنتاج رابعا.

والإنسانية اليوم متخمة بالتفكير ولكنها فى مجاعة خلقية، ويرجع سبب ذلك إلى العقليين الذين أخضعوا الأخلاق لعقلهم وتفكيرهم، فى حين أن عقلهم محدود بالبيئة والثقافة والميول والاتجاهات والصحة والمرض والاحتياج والاستغناء[٩].

ويرى أن ركائز الحضارة الإنسانية تنحصر فى أربعة أمور هى: «أن يكتشف الإنسان حقيقته، ويؤكد إنسانيته، ويحقق خلافته لله على الأرض، ويخلص لربه عبادته»[١٠].

كان أول إنتاج علمى للشيخ بدران تحقيقه لكتاب «الملل والنحل» للشهرستانى. وقد كان هذا الكتاب هو الرسالة العلمية التى تقدم بها للحصول على درجة العالمية من درجة أستاذ (الدكتوراه). وجاء على صفحة الغلاف أنه «خرجه، وحقق نصوصه، وعرض أصوله، وابتكر فهارسه، وانفرد بتقسيمه، ومهد لتخريجه، وعلق عليه، وألف له ولمؤلفه». وقد طبع هذا الكتاب فى مجلدين على نفقة الأزهر. ولكن عندما طبع لم يشتمل على المدخل إلى هذا الكتاب، والذى ألفه الشيخ بدران تحت عنوان: «المدخل إلى كتاب الملل والنحل». وقد تناول موضوعاته - كما يقول - فى قسمين كبيرين: أولهما عالج فيه الأبحاث التالية: واجباتنا العلمية، التخريج العلمى، تقرير قواعده نظريا وعمليا، تخريج كتاب «الملل والنحل»، التعريف بأصول الكتاب وبخاصة المخطوطة منها، تقسيم الكتاب. أما القسم الثانى فقد تحدث فيه بالتفصيل عن

عصر الشهرستانى وعن الشهرستانى نفسه وعن كتابه «الملل والنحل».

أما بقية مؤلفات الشيخ بدران فأهمها ما يأتى:

١ - العقيدة والفطرة.

٢ - تاريخ الأديان المقارن.

٣ - المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب.

٤ - الفلسفة الحديثة فى الميزان وتأسيس القواعد من القرآن.

ويقع هذا الكتاب الأخير فى طبعته الثانية فى حوالى سبعمائة صفحة. وأسلوب الكتاب تغلب عليه النزعة الخطابية والعبارات الأدبية الحماسية.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

الهوامش:

١ - الفلسفة الحديثة فى الميزان، ص ١٩ - ٢٠.
٢ - المصدر السابق، ص ٣٨.
٣ - المصدر السابق، ص ٣٩.
٤ - المصدر السابق، ص ٣٨.
٥ - المصدر السابق، ص ١٠٢.
٦ - المصدر السابق، ص ١٠٦ - ١٠٧.
٧ - المصدر السابق، ص ١١٤.
٨ - المصدر السابق، ص ٢٧٧ - ٢٧٨.
٩ - المصدر السابق، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.
١٠ - المصدر السابق، ص ٢٥١.

مراجع للاستزادة:

١ - سجلات كلية أصول الدين بالقاهرة.
٢ - من مؤلفات الشيخ محمد بن فتح الله بدران:
(أ) الفسلفة الحديثة فى الميزان وتأسيس القوعد من القرآن، مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٩م.
(ب) كتاب الملل والنحل للشهرستانى، بتحقيق محمد بن فتح الله بدران، القسم الأول ١٩٥١م، القسم الثانى ١٩٥٥م، الطبعة الأولى، مطبعة الأزهر.
(جـ) المدخل إلى كتاب الملل والنحل، مخطوط بمكتبة كلية أصول الدين، ١٩٤٦م.

محمد فريد وجدى
(١٢٩٥ - ١٣٧٣هـ = ١٨٧٧ - ١٩٥٤م)

هو محمد فريد بن مصطفى وجدى. وُلد الأستاذ محمد فريد فى سنة ١٢٩٥هـ = ١٨٧٧م، ونشأ بالإسكندرية، وتلقى تعليمه الابتدائى بها، ثم التحق بمدرسة ثانوية بالقاهرة ولم يتم تعليمه بها، إذ رأى فى كثرة المواد التى لا تهمُّ الطالب المسلم ما زهده فيها، فآثر الدراسة المستقلة بعد أن أتقن الفرنسية إتقانا جعله أحد المؤلفين بها، بل إنه أصدر قبل أن يبلغ العشرين كتابا يشرح مبادئ الإسلام بهذه اللغة. ونال من تقدير المنصفين ما قوى عزيمته على التعمق فى الدين الإسلامى وشرح حقائقه لغير المسلمين كى يخففوا من حملاتهم التبشيرية التى كانت تجد من الاحتلال الإنجليزى لمصر أقوى نصير.

وكتاب «الإسلام والمدنية» الذى ابتدأ به حياته الفكرية كان مثار إعجاب المنصفين شرقا وغربا، وقد جعله بعضهم فى مرتبة «رسالة التوحيد» لإمام العصر الشيخ محمد عبده، وهو الباكورة فى تآليف الأستاذ.

وتمثلت العصامية العلمية فى شخص الأستاذ محمد فريد وجدى تمثلا رائعا، فقد اتجه بنفسه إلى تحصيل معارف كثيرة تيسرت له دون توجيه من أحد، وقد أصبح بما حصله من هذه المعارف الواسعة المحيطة علما من أعلام الشرق والإسلام.

كان والده محافظا لدمياط وله اهتمام بالمباحث الدينية، فجعل يعقد فى منزله كل أسبوع ندوة يحضرها علماء المعهد الدينى بدمياط، حيث تكون مجالا للبحث الهادئ فى ما يدور فى المجتمع من مشكلات فكرية، ودهش العلماء لما كان يبديه ولده الشاب الناهض من معارف واسعة، فأعجبوا به، وشدوا عزمه، ومنذ هذا الوقت، والشاب المطلع يغمر جرائد: اللواء، والدستور، والمؤيد، والأهرام ببحوثه الدقيقة، فلفت الأنظار إليه، وعُدَّ من حملة الأقلام الذائدة عن الإسلام، يذكر اسمه بجوار محمد عبده، وعلى يوسف، وعبد الرحمن الكواكبى، وهم مَنْ هم!

وقد أراد أن يفهم القرآن فهما دقيقا

فرجع إلى كتب التفسير فوجدها لعهده تغرق فى مسائل النحو والبلاغة وغيرهما دون أن تعطى مضمونا شافيا للنص القرآنى، فأخذ يقرأ ما يقرأ، ثم يكتب التفسير المراد بلغة سهلة تناسب القارئ المتطلع، واجتمع له بما كتبه لنفسه شرح وجيز مشرق، فلمس حاجة المسلمين إليه، وأصدر تفسيره الميسر، فتقبله القراء، وتعددت طبعاته لسنوات طويلة. ومازال الكتاب بعد مرور أكثر من قرن يتجدد طبعه؛ لأن ما ينفع الناس يمكث فى الأرض.

وقد كانت مصر فى مطلع هذا القرن فى حاجة ماسة إلى ذخيرة من المعارف الإنسانية فى شتى العلوم المختلفة، وليس بها من المؤلفات العصرية ما يسد هذا الفراغ، فصمم على أن يصدر وحده «دائرة معارف القرن العشرين» فى عشرة مجلدات، فكانت جامعة ثقافية لقراء اللغة العربية، وقررتها نظارة المعارف فى مكتبات المدارس، وتعددت طبعاتها، ويعتبر جهد الأستاذ فى هذا النطاق جهدا بطوليا يقرب من الإعجاز إذ كيف يقوم فردٌ واحد بما تقوم به عدة لجان من مختلف التخصصات! وقد انتقل الأستاذ إلى رحمة الله سنة ١٩٥٤م، فكتب عنه الكثيرون من عارفى فضله، وقال الأستاذ عباس محمود العقاد فى مقال ضافٍ: إنه فريد عصره، وما وجد اسم فى هذا العصر يوافق صفته غير اسم «فريد».

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

وقد قدر له أن يكون المدافع الأول، والناقد الجهير لكل ما يكتب عن الإسلام، ويتضمن ما يجب أن يصحح من الأخطاء، فامتلأت الجرائد لعهده بمناقشات علمية للكتب المغرضة، والمقالات المهاجمة يكتبها الأستاذ بقلم عف نزيه، وله فى هذا المجال كتابه الشهير عن «المرأة المسلمة» ردا على الأستاذ قاسم أمين، وكتابه «نقد كتاب الشعر الجاهلى» ردا على الدكتور طه حسين، وكتابه «على أطلال المذهب المادى» فى أربعة أجزاء، رداً على أنصار نظرية دارون، وكتابه «ليس من هنا نبدأ» ردا على الأستاذ محمد خالد، وكتابه «الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة الأجنبية» ردا على الأستاذ محمد سليمان، ولو جمعنا مقالاته المنشورة بالجرائد والمجلات على مدى نصف قرن لكانت مكتبة حافلة، وقد جمعت بعضها فى كتاب نشرته المؤسسة اللبنانية المصرية تحت عنوان «مناقشات وردود».

كما أصدر مجلات علمية مثل «الحياة» التى عنيت بالمعارف الحديثة، ومثل جريدة «الدستور» اليومية التى حاربت الاحتلال، وكانت تنطق باسم الحزب الوطنى، ثم استقلت لاختلاف فى وجهات النظر، كما

رأس تحرير مجلة «الأزهر» ثمانية عشر عاما، فارتفع بمستواها العلمى حيث نشرت فصولا لكتّاب الغرب تحمل الشبهات المغرضة، ثم أعقبتها بردود قاطعة كتبها الأستاذ فريد وجدى، ومع هذا الجهد فقد كانت المجلات الرفيعة تدعوه للإسهام فى تحريرها كالرسالة، والهلال، والمعرفة، والمقتطف، والحديث، فكان يلبى ما يطلب منه، فتحتل مقالاته الصدارة فى هذه المجلات. وقد تستكتبه صحف إقليمية متواضعة فيلبى باهتمام.

ومما يذكر له أنه مع اطلاعه الشامل على التيارات الفكرية المعاصرة لم يخرج فى كتاباته عما يخص الإسلام من البحوث، لأنه كان يقف فى خط الدفاع الأول، ويرى من حقه أن يحصر جهده فى هذا الموطن النبيل، فهو مجاهد صاحب رسالة.

وقد اتجه الأستاذ وجدى إلى الأبحاث الروحية، فأصدر مجلة خاصة بها، وأفرد لها أجزاء متتابعة من مؤلفاته، وقد جعل من هذه البحوث الخاصة باستحضار الأرواح والتنويم المغناطيسى، حجة قوية تقف فى وجوه من ينكرون عالم الغيب من الماديين ويجحدون فاطر السموات والأرض، وقد ساعدته الاكتشافات الأوروبية الحديثة مساعدة تامة، فأخذ يفسر الظواهر العلمية فى ضوء الحقيقة الكبرى التى جاءت بها الأديان السماوية، فأتاحت له ثقافته المتشعبة فى علوم النفس، والاجتماع، والفلسفة فيضا زاخرا من الحجج العلمية، أكسبت بحوثه قوة تجذب الأنظار، وكان أسلوبه الجدلى، وطريقته النقدية موضع الارتياح من معارضيه، فكانوا يسجلون ذلك فى ردودهم مغتبطين.

وحين كتب الأساتذة الكبار من أمثال: عباس العقاد، وطه حسين، ومحمد حسين هيكل، وتوفيق الحكيم كتبا مستقلة عن رسول الله ﷺ لاقت قبول الناقدين، وحازت شهرة مستفيضة، أخذ الأستاذ فريد وجدى ينقدها فى دقة وأمانة مع الترحيب كل الترحيب باتجاهها، ثم رأى أن يصدر كتابا خاصا بالسيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة، فكان موضع التقدير، إذ تحدث عن الوحى السماوىّ حديثا يقنع أصحاب الاتجاه العلمى، وأيد كلامه بنقول مستفيضة تثبت صدق الوحى، كما رد على الشبهات التى حبكت عن رسول الله ﷺ جهلا أو سفها، فوضع الحق فى نصابه، وكتابه فى السيرة المحمدية درة غالية فى عقد هذه الدراسات الخاصة بنبى الإسلام، وقد نشره متفرقا، وقمت بجمعه، وأصدرته المؤسسة اللبنانية المصرية. كما قد نقل كتابه «المرأة المسلمة» مترجما إلى اللغات

الإسلامية كالتركية والفارسية والأردية، وصادف ارتياح الكثيرين، إذ كشف هذا الكتاب عن عمق المؤلف فى دراساته الاجتماعية، وبصره باختلاف المنازع البشرية من الشرق والغرب، وإلمامه بما تخوف منه كثير من أساطين التشريع فى أوروبا حين رأوا المرأة تتبرج وتغشى المواقف المريبة دون استنكار، وحين تمتهن فى المعامل حاملة الأثقال، وواقفة أمام النيران المشتعلة فى الأفران، وملطخة بسواد الفحم فى المناجم! وكل ذلك مما يخالف طبيعتها دون إنكار، مع الائتناس بآراء أئمة الاجتماع فى العصر الحديث.

وبالإضافة إلى ما ذكرنا من مؤلفاته فإن له:

١ - مهمة الإسلام فى العالم.

٢ - الإسلام دين عام خالد.

٣ - معالم الإسلام.

٤ - فصول من السيرة.

٥ - الإسلام فى عصر العلم.

٦ - الوجديات.

٧ - الحديقة الفكرية.

وقد توج هذا كله «دائرة معارف القرن العشرين» فى عشرة مجلدات كبار، وقد طُبعت أخيرا فى لبنان وتداولها القراء حيث لم تذهب جدّتها العلمية بتوالى السنين.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين - للدكتور محمد رجب البيومى جـ١.

٢ - محمد فريد وجدى (كتاب) للدكتور محمد رجب البيومى (دار القلم ببيروت).

٣ - محمد فريد وجدى (كتاب) للأستاذ أنور الجندى (الهيئة القومية للكتاب).

٤ - من حياتى - (كتاب) للأستاذ طاهر الطناحى.

٥ - رجال عرفتهم - للأستاذ عباس محمود العقاد (كتاب الهلال).

٦ - الأعلام - للزركلى - المجلد السادس ص ٣٢٩ - الطبعة السادسة.

٧ - جريدة المصرى (١/٤/١٩٥٤م) للأستاذ عبد الحميد جلال.

٨ - جريدة الأهرام (١٧/٢/١٩٥٤م) للأستاذ محمد عبد الغنى حسن.

٩ - جريدة الأهرام (١٠/٢/١٩٥٤م) للأستاذ محمد يوسف خليفة.

محمد فؤاد عبد الباقى
(١٢٩٨ - ١٣٨٨ هـ = ١٨٨٢ - ١٩٦٨م)

هو محمد فؤاد عبد الباقى صالح، ولد فى يوم الأربعاء الثامن من شهر مارس سنة ١٨٨٢م ببلدة «ميت حلفا» بمحافظة القليوبية، كان أبوه يعمل بالإدارة المالية لوزارة الحربية مما جعله يتنقل بحكم عمله بين العديد من الأماكن مع أسرته، وكانت أمه من مواليد «برنبال» التابعة لمركز دكرنس بمحافظة الدقهلية.

لم يكد محمد فؤاد عبد الباقى يستقر فى مهده الأول حتى بُشّر أبوه بالترقى فى عمله والانتقال إلى القاهرة، ومن ثم كانت نشأته فى واحد من أشهر أحياء القاهرة وهو حى «السيدة زينب» وما أن أتم عامه الخامس حتى رزق بأخت له، ثم اضطرته ظروف عمل والده إلى السفر مع الأسرة إلى السودان بـ «وادى حلفا» ولكن لم يدم به الحال على ذلك طويلاً؛ إذ غادر السودان مع الأسرة عائداً إلى مصر، واستقر فى أسوان.

التحق بمدرسة أسوان الابتدائية، وبعد عام ونصف العام غادرت الأسرة أسوان إلى القاهرة حيث التحق بمدرسة عباس الابتدائية والتى أسهمت بدور أساسى فى تكوين مفردات العلم لديه، وفى تلك الأثناء، توفيت أمه، فكان فطاماً مبكراً له، فلم يجد مفراً من وحشة الحياة بعد أمه سوى المكتبة يطالع أسرار كتبها ويستعين باطلاعه هذا فى دراسته وتنمية فكره، حتى أصبحت القراءة والاطلاع والتردد على المكتبات واقتناء الكتب من أحب هواياته منذ نعومة أظفاره.التحق بمدرسة الأمريكان فى حى الأزبكية سنة ١٨٩٧م وعمره أنذاك خمسة عشر عاماً، وهو فى كل ذلك يتنقل مع والده وأخته من سكن إلى سكن بين أحياء العباسية وبولاق والبغالة من أحياء القاهرة، فلم ينتظم فى دراسة رسمية مألوفة بل كان يدرس دراسة حرة تضطرب حسب هواه ورغبته واستعداده.

قام بالتدريس فى بعض المدارس الحرة والمدارس الحكومية وعمل ناظراً لمدرسة بإحدى قرى الوجه البحرى سنة ١٩٠٠م، وقد ساعده على ذلك - رغم حداثة سنه - ثقافته

الواسعة إضافة إلى ما يتسم به من طول فارع، وبنيان شديد، وشخصية قوية، وظل شاغلاً لهذا المنصب سنتين ونصفاً، ثم اشتغل مدرساً لمادة الرياضة فى مدرسة أخرى لعام واحد (١٩٠٣ - ١٩٠٤م)، ثم اختار العمل بعد ذلك فى المدرسة التحضيرية الكبرى بدرب الجماميز سنة ١٩٠٤م.

التحق بالعمل مترجماً بالبنك الزراعى فى ٣٠ من ديسمبر سنة ١٩٠٥م وعمره آنذاك ثلاثة وعشرون عاماً، حيث وجد أن الفرصة أصبحت سانحة له للقراءة والتعلم، فبدأ بالقراءة الواسعة فى الأدب الفرنسى، وخاصة لفيكتور هوجو ولامارتين، كما أقبل على أمهات الكتب فى الأدب العربى، وكانت وظيفته معيناً له على الاتساع والتأصيل فى العلم كما توسع فى دراسة الإنجليزية فالتحق بمدرسة «برلتز».

تزوج فى حياة والده سنة ١٩١٠م ورزقه الله ثلاثة بنين وابنتين، وتزوج والده فى أخريات عمره فرزقه الله بـ «فاطمة» فكانت هى الأخت غير الشقيقة له، التى قام برعايتها بعد وفاة والده سنة ١٩٢١م وعمرها لم يتجاوز عامين.

وبعد أن صفَّى البنك الزراعى أعماله، تفرغ للإنتاج العلمى وترك الوظيفة، ليفتح داراً للنشر الإسلامى مكث يديرها طويلاً، إضافة إلى عضويته فى اللجنة الاستشارية للمجامع العلمية للمستشرقين.

بدأ فى أخريات حياته يسير وفق نظام نباتى صارم، مع الصيام شبه الدائم، وكأنه يحشد نفسه بذلك لأعماله الدينية العلمية، حتى أسماه تلامذته ومريدوه (صائم الدهر).

أصيب فى عينيه بالمياه البيضاء والزرقاء، ففقد بصره تماماً فى أخريات عمره، وفى أوائل سنة ١٣٨٨هـ الموافق ٢٢ من فبراير سنة ١٩٦٨م وافته المنية مخلفاً وراءه تراثاً علمياً عظيماً لا غنى عنه لكل باحث فى القرآن الكريم والسنة النبوية وعلومهما.

التقى محمد فؤاد عبد الباقى بالسيد/ محمد رشيد رضا (صاحب المنار) فى العام التالى لوفاة والده سنة١٩٢٢، فكان لقاء لم يقدر له الفراق، حيث لازمه ملازمة المريد لشيخه، وكانت علاقته به أيقظت ونبهت فيه قدراته العلمية.

كما التقى بالشيخ أحمد محمد شاكر فأخذ ينهل منه ويتوجه بإرشاده.

ومن تلاميذه : الدكتورة/ نعمت الحكيم، والدكتورة/ نعمات فؤاد، والتى لزمته طالبة ومتعلمة، وكان لقربها الشديد منه تعلماً ومدارسة وشبهاً فى اسم الأب ما أوقع بعض

من ترجم له فى وهم خاطئ بأنها ابنة أخيه، ولعل ما زاد من وهمهم أن الأستاذ/ محمد فؤاد عبد الباقى كان معجباً بذكائها وحسن تعلمها حتى ليعدها ابنته المجتباه.

كان محمد فؤاد عبد الباقى يهيم بحب الخلافة الإسلامية فى بدء شبابه حيث عاصرها، ونظم فيها شعراً، كما كان عاشقاً للتأنق وراغباً الكمال فى كل شىء، وكان لايوقت إلا وفقاً للتوقيت العربى تأسياً بالنظام العربى الإسلامى، وتنظيماً ليومه وفق الفرائض الإسلامية والسنن الكونية.

كان يعد رشيد رضا التلميذ الأول للشيخ محمد عبده، ولولاه لما عرفنا الشيخ محمد عبده، لأن مجلة المنار نشرت تفسير الإمام وعرفت به، وأن بهجت البيطار عالم الشام هو أشبه الناس من بعده به.

وعن رأيه فى كتاب السيد رشيد رضا فى الربا قال إن رشيد لم ينته فيه إلى الرأى الفصل، وأنه نفسه كان يعلم ذلك، وحول ما أشيع عن صلة السيد/ رشيد بالإنجليز غضب الأستاذ/ محمد فؤاد رافعاً صوته بالنفى مبيناً أنه كانت له صلة بالوهابيين والحجازيين.

وكان أكثر ما يثير غضبه الخطأ فى الدين وعدم الأمانة فى العلم، كما كانت سيرة الرسول ﷺ هى أكثر ما يهز وجدانه ويثير مشاعره رقة وحنانا.

وحين وقعت النكسة سنة ١٩٦٧م كانت غصة فى حلقه ومرارة لاتكاد تغادر فؤاده، لكنه كان واثقاً من نصر الله ويعلم أن هذه ما هى إلا محنة لا تعبر عن واقع الإرادة الإسلامية العربية المصرية وأن لها ما بعدها.

وإن كان علم التحقيق لا يكاد يوصف به إلا العلماء، فقد أبى محمد فؤاد عبد الباقى إلا أن يتسنم ذرى العلم والعلماء، فاكتفى بالتحقيق علماً وبالقرآن والسنة وعلومهما عملاً، فكان بحق سيد المحققين فى زمانه.

ومن مؤلفاته :

١ - تفصيل آيات القرآن الكريم (ترجمة لكتاب جول لابوم).

٢ - معجم غريب القرآن.

٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

٤ - تيسير المنفعة بكتابى مفتاح كنوز السنة والمعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف.

٥ - جامع مسانيد صحيح البخارى.

٦ - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.

٧ - مفتاح كنوز السنة (ترجمة).

٨ – الأدب المفرد للبخارى. (أشرف على تصحيحه وطبعه)

٩ – محاسن التأويل للقاسمى (أشرف على تصحيحه وطبعه)

١٠ – شواهد التوضيح والتصريح لمشكلات الجامع الصحيح لابن مالك (أشرف على تصحيحه وطبعه).

١١ – تصحيح وترقيم الجزء الثالث من جامع الترمذى.

أ. د. موسى شاهين لاشين

مراجع للاستزادة:

١ – خادم القرآن والسنة : إعداد/ أيمن إبراهيم طاجن – طه محمد نور – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – العدد (٦) ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

٢ – صاحب فهارس القرآن الكريم والحديث، بقلم د/ نعمات أحمد فؤاد، مجلة العربى الكويتية، ١٨ من سبتمبر سنة ١٩٦٨م.

٣ – الفقيد محمد فؤاد عبد الباقى، بقلم د/ أحمد الشرباصى. مجلة الأديب اللبنانية، سبتمبر سنة ١٩٦٨م

٤ – الطبقة الثانية من المحققين الأعلام، بقلم د/ السيد الجميلى. مجلة الأزهر – القاهرة سنة ١٩٩٦م.

محمد كرد على
(١٢٩٣ - ١٣٧٢ هـ = ١٨٧٦ - ١٩٥٣م)

هو محمد بن عبد الرزاق بن محمد كرد على، رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق، ومؤسسه وأحد أعلام القرن الرابع عشر الهجرى.

ولد فى دمشق سنة ١٢٩٣هـ = ١٨٧٦ ميلادية وعاش مُكافحا حتى توفى بعد أن جاوز الثمانين فى عام ١٣٧٢هـ الموافق ١٩٥٣م، وقد تعلم فى المدرسة الابتدائية، ثم فى العسكرية الإعدادية، فالمدرسة العازرية الفرنسية، ولكنه اجتهد اجتهادا شخصيا، وعاشر كبار أهل الفضل من علماء بلده حتى أجاد ثلاث لغات، وظهرت دلائل نبوغه فسمت به همته إلى الهجرة إلى مصر، ليجد الزاد الدسم والميدان المتسع، ففاز بغنم كبير.

ذكر محمد كرد على أنه حين قدم إلى مصر لازم مجلس الأستاذ الإمام محمد عبده، وافتخر بالانتساب إليه، وأُدهش بسيرته ومسلكه، وكان يحضر دروسه فى التفسير مرتين كل أسبوع، ويغشى مجلسه العلمى فى منزله بعين شمس دائما، وقد أشار الإمام ذات مرة إلى مقال نشره فى المقتطف مقرظا منوها، فلفت الأنظار العلية من جلسائه إلى الكاتب الناشئ، فذاع له صيت بالجودة والنبوغ، وأصبح من ذوى القلم السائر بين الناس.

كما أن محمد كرد على تحدث عن أستاذه الشيخ طاهر الجزائرى حديث التلميذ المريد، وترجم له فى مقدمة كتابه (كنوز الأجداد) ترجمة حافلة، والشيخ الجزائرى يساير الإمام محمد عبده فى نزعته الإصلاحية وعمله على إحياء اللغة، وتجديد الأدب، وإن كانت طاقته دون طاقته، وقد بذل جهدا حميدا فى تهيئة النفوس للإصلاح فى ربوع الشام، وشارك فى أعمال ثقافية وتأليفية يقدرها المخلصون.

وأذكر أن الأستاذ قد أهدى كتابه (خطط الشام) إلى العلامة الأبر أحمد تيمور، وقال فى مقدمة الإهداء مخاطبا تيمور:

«رأيتك بعد عالمى مصر والشام، ومفخر العرب وحجة الإسلام، أستاذينا العظيمين:

الشيخ محمد عبده، والشيخ طاهر الجزائرى رحمهما الله - فرداً فى المعاصرين من بنى قومى، بأخلاقك الطهر، وعلومك الغر، وحرصك على نشر آثار السلف، وتثقيفك عقول الخلف».

ثم والى الحديث عن جهد تيمور فى بعث همته، والأخذ بيده، وإرشاده إلى مواضع الضعف، وتقليده المنن المتلاحقة، وإمداده بشتى المصادر، مما تهيأ له به أن يكتب كتابه الحافل فى ستة أجزاء ضخام، ورجع فيها إلى أمهات الكتب فى اللغة العربية، وفى غيرها كالتركية والفرنسية، ثم توج الكتاب برسم كبير للعلامة أحمد تيمور شغل صفحة طويلة. وهذا يدل على أن تيمور قد بذل له جهد ما يستطيع نقدا وتوجيها فوق ما أمده به من خزانته الحافلة بأنفس ذخائر التراث، فإذا أضفنا اسمه إلى اسمى محمد عبده، وطاهر الجزائرى لم نكن بمبدعين.

وكان كرد على كاتبا متنوع الاتجاه، لم يعكف على فن واحد يجعله مدار تخصصه، وكذلك كان نوابغ عصره وأساتذة جيله، وإذا كان الشيخ محمد عبده أستاذه الأمثل، قد اتجه فى منحاه الكتابى إلى الدفاع عن الإسلام، وإلى بعث اللغة العربية، وإلى إصلاح المجتمع الإسلامى، فإن هذه الأغراض الثلاثة أيضا كانت أبرز ما اتجه إليه الأستاذ محمد كرد على فى مؤلفاته الكثيرة، ولا ننكر أن تفرغه العلمى بالنسبة لأعباء الأستاذ الإمام من ناحية، وبالنسبة إلى اختلاف الجيل من ناحية ثانية، وإلى ما امتد من عمر الأستاذ من ناحية ثالثة، كل ذلك كان عامل دسم قوى فى ما ترك من آثار، دون أن ننكر روح الإمام القوية التى هى أساس عبقريته الواثبة، تلك التى تكتفى بالطيران عن المسير.

ففى مجال الدفاع عن الإسلام نختار من مؤلفات الرجل كتابه الرائع «الإسلام والحضارة العربية» وهو جزءان كبيران يقعان فى تسعمائة صفحة، كلها تحفل بالمفيد المستطاب.

وقد ذكر أن التأليف فى هذا الموضوع ضرورة من الضرورات، لأن التراث القديم قد بدأ ينكشف، وقد حفل بما يثبت أصالة الحضارة الإسلامية، ويرد على هؤلاء الذين يهرفون بأن الإسلام عدو المدنية والارتقاء، وفيهم أعلام رؤوس أقوامهم، لهم صيتهم القوى، وأثرهم البعيد، فلابد إذا من تصحيح هفوات من أساءوا وما برحوا يسيئون للعرب دينهم ورسولهم، وينتقضون الحضارة العربية فى أمم الغرب والشرق.

وكانت نبرة الكاتب هادئة غير صاخبة، وذلك أجدى وأنفع، فبدأ الكاتب متفائلا بأن

بشائر الإنصاف قد ظهرت فى أوروبا على ألسنة أقلام محايدة، بدأت تعترف بالحق، وأخذت ترد على ما أفكه أسلاف شاؤوا أن يمحقوا كل ساطع من نور الإسلام، وامتد الحديث ليشمل عوامل الجفاء لدى كتاب الغرب، وتحكم سلطان الأهواء والمعتقدات.

وخاض الكاتب فى فنه الأصيل حيث تحدث عن صعوبة درس التاريخ، واختلاف رواياته وتضارب وقائعه، واستشهد بما قاله أئمة هذا الميدان فى الشرق والغرب استشهاد من يراجع ويوازن ويعلل.

وقد ظهر تأثره بالفيلسوف الفرنسى (جوستاف لوبون) واضحا إذ نقل خلاصات جيدة مما قال عن الحضارة العربية، قبل أن يترجم كتابه إلى لغة العرب.

كما أبدع المؤلف حين كشف عن عوار الناقدين فى الشرق والغرب من أمثال رينان، وجانو، ولامانس، ولويس شيخو، ودفعه ذلك إلى أن يصحح وقائع كثيرة كتبها الحاقدون بلسان الباطل، فأفاض فى تهمة إحراق مكتبة الإسكندرية، وجلا وجه البراءة مما يقطع الشك فى صفحات تعد من نفائس الكتاب، ولم يفته أن يتحدث عن أسباب الحقد الشعوبى شرقا وغربا، وعن متعصبة الشعوبية، وموقف الإسلام من النصرانية.

لم يكن الأستاذ كرد على خطابيا يكتفى بالحماسة المشتعلة دون برهان، لكنه حدد النقاط، وعين المحور، ورسم الدائرة حين ألم بأمهات المسائل التى يرددها الشعوبيون، فتحدث عن موقفهم من الرسول ﷺ كاشفا بعض ما حاكوه عنه من الأراجيف، فإذا أشبع الحديث إشباعا ثنى بموقفهم من القرآن، وإرجافهم بعقيدة القضاء والقدر، وتعدد الزوجات والطلاق، والحجاب، والاسترقاق، والمسكرات (ومن العجيب أن يكون تحريم الخمر والمسكرات مدعاة نقد للإسلام!!) ووالى الحديث عن الربا وما قيل عنه، وعن التصوير والنقش وهذا الفصل من أنفس ذخائر الكتاب.

ثم أفاض الأستاذ فى الحديث عن العرب فى الجاهلية والإسلام، وأكثر ما قاله فى ذلك ذائع مشتهر، ولكن النصوص التى نقلها عن جوستاف لوبون ودوزى وأضرابهما طريقة جديدة بالنسبة للقارئ العربى.

وقد أفاض فى الحديث عن ثراء بعض الصحابة والتابعين بما يشى ببعض المبالغة ، لا أقول إنها مبالغة الأستاذ كرد على، ولكنها مبالغة من نقل عنهم! وكأن الرجل أراد أن يبرر ثراء الأمويين - وهواه معهم - بما رآه فى كتب الأسمار والمحاضرات، وبعض المصادر التاريخية التى تجمع الغث والسمين، وتروى فى الصفحة الواحدة ما يتعارض

ويتضارب، ليجىء كاتب ما، فيختار من هذه المتناقضات ما يتفق ومنحاه، تاركا ما يجاورها، وكأن الذى كتب الأولى ورواها لم يكتب الثانية.

ولا يخفى المنصف إعجابه الرائع بما كتبه المؤلف تحت عنوان (حال الغرب فى شباب الإسلام) إذ استنطق الصحف التاريخية عن يقين، فتحدث عما غرقت فيه أوروبا فى ظل الهمجية والتوحش، وسرد من الصور المماثلة ما لا سبيل إلى إنكاره، ودبج فصلا رائعا عن تأثير العرب فى الأمم المغلوبة، فعرض أحوال هذه الأمم قبل الفتح الإسلامى، ثم بسط الحديث عن رحمة الإسلام فى معاملة أهل الذمة من النصارى واليهود، ونقل عن (هنرى دى كاسترى) بعض ما ذكره فى كتاب (الإسلام خواطر وسوانح) مقارنا بما ذكره الإمام محمد عبده فى هذا الصدد فى (رسالة التوحيد)، وأوضح كيف اعتمد خلفاء الإسلام على كثير من النصارى حتى فى قيادة الجيوش.

فإذا أشبع الحديث عن تسامح المسلمين انتقل إلى بيان أثر العلوم العربية فى أوروبا، موضحا ما أملاه التعصب على نفر من المغرضين حاولوا أن يجردوا العرب من كل أثر علمى، حتى ضج من ذلك نفر من باحثى الغرب، إذ هالهم أن يجدوا إخوانهم يندفعون فى تيار من التعصب الأعمى يسدل على العيون غشاوة فلا تبصره، ويلقى فى القلوب غلظة تميل معها إلى الافتيات والادعاء والتطاول، ومن هؤلاء المنصفين الأستاذ (دارير) مؤلف كتاب (تاريخ الارتقاء العلمى).

وأما أثره فى إحياء اللغة العربية، وأعيان الأدب ورجال الفكر، فهو حديث يحتاج إلى قدرة قادرة فى إيجازه، إذ كان أكبرَ هم الكاتب فى حياته، فقد أنشأ مجلة «المقتبس» ليحيى مآثر الأدباء الفنية، ويؤرخ لمواقفهم الحيوية، وينشر فى صفحات التراث ما فيه النفع المحقق.

ثم وقف على إصدار مجلة «المجمع العلمى» أمدا كبيرا ليواصل رسالته الأدبية فى عزيمة لا تعرف الكلل، وعلى صفحات هذه المجلة الراقية نشر أدق المباحث، وقد كان رئيس المجمع العلمى، كما تولى وزارة المعارف بسوريا مرتين، وعيِّن عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة مع الرعيل الأول لأعضائه.

إن آثار الأستاذ الكبير محمد كرد على تضمن له الخلود، وتضعه فى مصاف الرواد بين قادة النهضة الإسلامية، وأرباب القلم الدائب المجاهد من كتاب العروبة، وفى قراءة هذه الآثار حوافز إلى العمل المثمر، والاطلاع الدائب والكفاح المتصل، لأن صاحبها الكبير

لم ينقطع يوما واحدا عن التحبير والتأليف...

رحمه الله.

مؤلفاته:

- أقوالنا وأفعالنا، مجموعة مقالات.
- أمراء البيان.
- كنوز الأجداد.
- غوطة دمشق.
- القديم والحديث.
- تحقيق كتاب سيرة أحمد بن طولون، للبلوى.
- تحقيق كتاب المستجاد من فعلات الأوجاد، للتنوخى.
- تحقيق تاريخ حكماء الإسلام، لظهير الدين البيهقى.
- تحقيق كتاب الأشربة، لابن قتيبة.
- تحقيق كتاب البيزرة، لبازيار العزيز الفاطمى.
- خطط الشام.
- غرائب الغرب.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - محمد كرد على للأستاذ سامى الكيالى.
٢ - مذكرات الأستاذ كرد على أربعة أجزاء.
٣ - المجمعيون فى خمسين عاما للدكتور مهدى علام
٤ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين للدكتور محمد رجب البيومى.
٥ - الأعلام للزركلى ٦/٢٠٢.
٦ - افتتاحية الجزء الأول من كتاب (خطط الشام).

محمد متولى الشعراوى
(١٣٢٩ - ١٤١٩هـ = ١٩١١ - ١٩٩٨م)

ولد محمد متولى الشعراوى فى ١٦ إبريل سنة ١٩١١م بقرية دقادوس مركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية، وحفظ القرآن الكريم فى قريته، وتلقى التعليم الدينى بمعهد الزقازيق، فكلية اللغة العربية بالأزهر، حتى حصل على الشهادة العالمية سنة ١٩٤١م. وبعدها نال إجازة التدريس سنة ١٩٤٣م، وعين مدرسا بمعهد طنطا الأزهرى ثم معهد الإسكندرية ثم معهد الزقازيق، وأعير للعمل بالسعودية سنة ١٩٥٠م مدرسا بجامعة الملك عبد العزيز، وعاد لمصر ليكون وكيلا لمعهد طنطا سنة ١٩٦٠م، فمديرا للدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف سنة ١٩٦١م فمفتشا للعلوم العربية بالأزهر سنة ١٩٦٢م، فرئيسا لبعثة الأزهر بالجزائر سنة ١٩٦٦م فأستاذا زائرا بجامعة الملك عبد العزيز سنة ١٩٧٠م، فرئيسا لقسم الدراسات العليا بها سنة ١٩٧٢م، وعاد إلى مصر، وقد طار صيته العلمى فعين وزيرا للأوقاف سنة ١٩٨٠م، فعضوا بمجمع البحوث الإسلامية سنة ١٩٨٠م، وانتخب عضوا بمجمع اللغة العربية سنة ١٩٨٨م، كان الأستاذ محمد متولى الشعراوى ظاهرةً علمية فريدة، حيث تألّق نجمه فجأة بعد الخمسين، فجذب الأنظار إليه على نحو غير معهود وتناقل حديثه الخاصة والعامة معاً إذ استطاع أن يرضى الجانبين بما رزق من وضوح الأسلوب، وقوة الحجاج، وقد تهافتت الإذاعات المرئية والمسموعة فى شتى بقاع العالم العربى على تسجيل دروسه الأسبوعية. كما تطلعت دور النشر إلى طبع مؤلفاته على أوسع نطاق، وكان اسمه يسبق مقدمه فى الرحلات التى قام بها داخل العالم العربى وخارجه، مما لم يقدر لغيره على هذا النحو المنفرد، وذلك لأن الرجل جمع من مواهب الإقناع إلقاءً وتعبيراً، وتفهما لنفسيات المستمعين ما جعله مطمع الأنظار، وحين لقى ربّه فى ٢٢ صفر سنة ١٤١٩هـ الموافق ١٧ يونيو سنة ١٩٩٨م ودعه الجمهور بما فاق كل تصور فى التشييع. ودفن بقرية دقادوس مسقط رأسه.

كانت دروس التفسير هى العماد الأول لنشر أفكاره الدينية، والاجتماعية، والخلقية،

وقد صادفت ذيوعاً مستفيضاً بما سلكه من منهج فى إلقائها، إذ يسوق أفكاره متناسقة متسلسلة، ويجعلها شبيهة بالقضايا المنطقية ذات النتائج الملزمة دون غموض، فإذا اتضحت القضية أيدها بالنص القرآنى المحكم، فيكون بعد الاقتناع السابق دليلاً ملزمًا لا يقبل النقض، وقد أخذ عليه استطراده فى بعض الأحيان، وهو نوع من التشويق يرضى الكثرة التى ترحب بالطرائف النادرة، وحين جمع تفسيره فى مجلدات متتالية، حذف الاستطرادات، ومضى التفسير على سننه المعهود، وقد أوجد الشيخ بهذه الدروس ذات الإقبال الكاسح جامعة علمية شعبية، تنتقل إلى المشاهدين فى منازلهم، فتعطيهم الدروس الشافية، وكأنهم يجلسون فى معهد علمى.

كان تفسير الإمام الشعراوى ركنا قويا من أركان الرسوخ الإيمانى فى قلوب المسلمين، ومن مزاياه أن الشيخ اتصل بشذورٍ من علوم النفس والتربية والاجتماع، والعلوم الحديثة فأعتملت فى نفسه، وساقها فى طيات الشرح فاقتنع بها المنصتون.

وكانت قضايا المجتمع الإسلامى شغله الشاغل فى درس التفسير، فكل ما تعج به الصحف من قضايا المرأة والشيوعية والرأسمالية والوجودية كانت مجال تفكير الشيخ، فهو يلتمس المناسبة فى الآية الكريمة، ويشن النقد الجارح على من يحاولون تجاهل النص القرآنى، موضحاً أنهم بسلوكهم المخطئ، ليسوا مع المنطق فى شىء! وقد خاصم الشيخ رءوس التفكير المارق علناً، فاضطروا إلى السكوت عما يأفكون، بعد أن دعاهم للمناظرة علناً أمام الجمهور فعلموا أن الموقف موقف الفصل وما هو بالهزل، فتراجعوا صامتين.

وقد رزقه الله من حسن الاستنباط، وعمق التحليل ما قمع كل ضلال، وضرب المثل لذلك بما تحداه به أحدهم حين سأله بقوله: إن الله يقول عن نفسه ﴿ **ويعلم ما فى الأرحام** ﴾ (لقمان ٣٤) وها نحن الآن نعرف ما فى الأرحام بالكشف الإشعاعى، فرد الشيخ فى رسوخ: ومن قال إن علم الأرحام مقصور على الذكورة والأنوثة فحسب، ألا يتضمن هذا العلم هيئة الولد، ولونه، وحالته التى سيكون عليها، شقياً أو سعيداً، ممتد العمر أم مختزله، هادئ النفس أم منفعلا؟ ويسمع المعترض فيصمت.

وقد تواضع الشيخ حين كرر أن ما يلقيه من الدروس ليس تفسيرا للقرآن، ولكنه خواطر إيمانية، تفد على قلب المؤمن فيفصح بما جاش فى خاطره، ولو أن القرآن يمكن تفسيره بما تمناه الله دون نقص لكان

الرسول ﷺ أولى بتفسيره، لكنه يبين للناس مايفيدهم على قدر حاجتهم، وهذا احتياط إيمانى لايمنع أن نقول إن هذه الخواطر من صميم التفسير، لأنها تدور فى فلك الكتاب المبين.

وقد تحدث الشيخ عن الإعجاز القرآنى فقرر أنه لا يكون فى السورة أو الآية أو الكلمة فحسب، بل فى كل حرف واستشهد لذلك بما يؤيد منحاه كما قرر أن القرآن كتاب الزمن والإعجاز، بتوالى العصور، وسيجد من وجوهه فى الغد ما لا نعرفه اليوم.

ومن أعظم ما كتبه الأستاذ، كتاب (رد على الملاحدة والعلمانيين) وفيه قرر أن العلمانية ازدهرت فى أوروبا لأن الكنيسة تحكمت فى الناس أما الإسلام فليس فى حاجة إليها، إذ ليس لدينا تسلط كنسىٌّ، وليس لدينا حجر على الفكر، وإذا كانت الكنيسة بسيطرتها قد عاقت التقدم الفكرى، فالإسلام بسماحته وعدالته قد حمى الحرية، وترك للعلم أن يغزو الكون بما يكشف عن مخبآته، وأعلام الأمة فى العصور الزاهرة هم الذين رفعوا الحضارة الإنسانية فى بغداد والقاهرة وقرطبة حين كانت أوروبا غارقة فى الظلمات، والذى يقرأ هذا الكتاب يجده قد صحح مفهوم العقيدة، ثم انتقل إلى المذاهب المعاصرة فحاربها بسلاح لا يفلّ، وختم القول بالحديث عن قضية المرأة فى الإسلام فأوضح كيف صان هذا الدين كرامتها، ولم يجعلها خليلة تمتهن، بل زوجة ذات حق، ولها شخصيتها المالية التى تنكرها أكثر قوانين أوروبا الآن!

وباب الأسئلة والأجوبة يصور معدن الشعراوى الفقيه، حيث حفل بإجابات قاطعة لم تغرق فى النقول الفقهية والتعريفات الاصطلاحية، بل اتجهت إلى العقل المباشر، تشرح له القضية، فإذا اتضح مدلولها جاء السند القرآنى، أو الأثر النبوى مؤيداً الفتوى بما يوجب الاقتناع، وإذا كانت الأسئلة قد نشرت أولاً على مدى سنوات فى مجلة (حواء) مع الإجابة المقنعة فإن أكثرها قد دار حول المرأة، وقد جهر الأستاذ برأى الإسلام فى مجلة جاهرت كثيرا بما يخالف قول الله، ولكن الشيخ قد لقف الأباطيل فبددها، ولم تستطع المجلة أن توقف النشر، لأن السائلات والسائلين يطلبون رأى الشعراوى بالذات، وعلى يده فهمت قضية المرأة على وجهها الصحيح.

إن مؤلفات الرجل كثيرة موفورة، وقد طبعت عدة طبعات فشرقت وغربت، وقدمت للقراء مكتبة مستنيرة صادفت هوى المخلصين، وأقنعت من حَيَّ عن بينة،

ومازالت تطبع إلى الآن فتشفى صدور قوم مؤمنين، رحم الله الشيخ، وأنزله منازل الشرفاء من المجاهدين.

١ - تفسير الشعراوى ظهر منه عن دار الأخبار أكثر من سبعة عشر مجلدا والبقية تأتى، وهو أوفى مرجع لآراء الإمام، ومنزلته منه كمنزلة (المنار) من مؤلفات السيد محمد رشيد رضا.

٢ - القضاء والقدر.

٣ - السحر.

٤ - الربا.

٥ - الرحلات.

٦ - الغيب.

٧ - قصص الأنبياء.

٨ - قصص الحيوان فى القرآن.

٩ - معجزة القرآن.

١٠ - الإسراء والمعراج.

١١ - ١٠٠ سؤال وجواب.

١٢ - رد على الملاحدة.

١٣ - محمد ﷺ.

١٤ - خطب الشعراوى.

١٥ - الخير والشر.

١٦ - المرأة فى القرآن الكريم.

١٧ - شبهات وأباطيل.

١٨ - الحلال والحرام.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - كتاب الشعراوى الذى لا نعرفه: للأستاذ سعيد أبو العينين.

٢ - الإمام الشعراوى، للدكتور أحمد عمر هاشم.

٣ - محمد المتولى الشعراوى (جولة فى فكره الموسوعى) للدكتور محمد رجب البيومى.

٤ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين للدكتور محمد رجب البيومى جـ (٤) دار القلم.

محمد محيى الدين عبد الحميد
(١٢١٨ - ١٣٩٣هـ = ١٩٠٠ - ١٩٧٢م)

يعتبر الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد آية فى بابه؛ فقد ألف وحقق فى علوم شتى، وجاوز فى ذلك أكثر من مائة كتاب، وقد قال الأستاذ محمد على النجار فى تأبينه: «إن ما قيل عن الطبرى يصدق عليه؛ إذ كان الطبرى إماما فى القراءة وإماما فى الحديث وإماما فى النحو وإماما فى الحساب، وكذلك كان محيى الدين مع إمامته فى علوم أخرى غير التى ذكرت عن الطبرى».

ولد سنة ١٣١٨هـ = ١٩٠٠م، فى قريته كفر الحمام بمحافظة الشرقية والتحق بالأزهر ونال شهادة العالمية النظامية سنة ١٩٢٥م، وحقق بعض الكتب العلمية وهو طالب، وعين مدرسا بمعهد القاهرة الأزهرى عقب تخرجه، ثم مدرسا بكلية اللغة العربية عقب إنشائها سنة ١٩٣١م، وأستاذا بتخصص المادة سنة ١٩٣٥م، وأعير إلى السودان أستاذا بكلية الحقوق أربع سنوات فألف فى موادها كتبا كثيرة كانت من أهم مراجع الطلاب والمدرسين، ورجع سنة ١٩٤٣م أستاذًا بكلية اللغة، فوكيلا لها، فمفتشا بالمعاهد الدينية سنة ١٩٤٦م، فأستاذا بكلية أصول الدين، فمديرا للتفتيش بالأزهر سنة ١٩٥٢م، فعميدا لكلية اللغة العربية سنة ١٩٥٤م، واختير رئيسا للجنة الفتوى، ورئيسا للجنة إحياء التراث، وعضوا بارزا بمجمع اللغة العربية، ومجمع البحوث الإسلامية، وقد قال الشيخ النجار: «إنه أتى على الأزهر حين من الدهر، وجل ما يدرس فى معاهده من تأليف الأستاذ محيى الدين عبد الحميد، أو إخراجه.

وأدركت هذا العصر إذ لم يخل عام دراسى واحد من كتب شتى أخرجها هذا الأستاذ، ولم تطبع كتب ابن مالك وابن هشام وابن عقيل والسعد التفتازانى والأشمونى محققة مرة فى طبعة جيدة إلا بإخراجه، وغيرها كثير، وتنقله فى التدريس بكليات اللغة وأصول الدين والحقوق دليل على تعدد مواهبه».

وكانت تحقيقاته لبعض الكتب كشرح ابن عقيل والأشمونى والقطر وشذور الذهب تعتبر كتبا مستقلة؛ لأنها كانت تأخذ نصف

الصفحة فى كل كتاب، وله تعقيبات نحوية على هؤلاء الكبار، فيها التخطئة المؤيدة بالدليل، وكأن إماما يناقش إماما، وقد يكتفى فى كتب التاريخ كالوفيات ومروج الذهب بالتعليق اليسير، لأن التاريخ لدى السابقين رواية، ومن حفظ حجة على من لم يحفظ، وهو فى تحقيقه لكتاب مغنى اللبيب لابن هشام قد استطرد كثيرا، فشرحه فى سبعة أجزاء كبيرة تنبئ عن اطلاع غزير، ولكن الناشرين أحجموا عن نشره، لأن أكثرهم يبحث عن الكسب المادى، وقارئ المغنى غالبا سيكتفى بالنسخة المقتضبة التى حققها محيى الدين أيضا فتوالت طبعاتها. وبقيت الأجزاء السبعة مخطوطة للآن، وكذلك الجزآن الأخيران من شرح الأشمونى على الألفية، حيث فاقت تعليقات الأستاذ على الكتاب كلَّ حدٍّ، ولم يجد من يكمل الشرح من الطابعين.

وللأستاذ مقدمات علمية رائعة تدل على أنه باحث جيد، لو تفرغ للتأليف الخالص لأبدع الكثير، وأشير إلى مقدمتين رائعتين هما مقدمته لكتاب (مقالات الإسلاميين للأشعرى) ومقدمته لكتاب (تهذيب السعد) حيث ألمّ فى الأولى بتاريخ دقيق لعلم الكلام منذ بدأت أصوله حتى اكتمل وتشعب وتعددت فرقه بعد الأشعرى، فى وضوح خالص يدل على صحة الفهم وصدق الاستنباط، كما ألم فى المقدمة الثانية بتاريخ علم البلاغة تأريخا وافيا، وذلك قبل أن تظهر الكتب المستقلة فى تاريخ هذا الفن بسنوات عدة، إلا المقالات السديدة التى كتبها الأستاذ محمد الخضر حسين فى مجلة «الهداية» قبل كتاب الأستاذ محيى الدين عبد الحميد بست سنوات.

والحديث عن كل كتاب من مكتبة جاوزت المائة من كتب التحقيق لا يتيسر، والاكتفاء بنشر بعض الكتب المحققة يدل ولا يستوعب، ولكنى أذكر مثالا واحدا لجهد الأستاذ فى إخراج كتاب «العمدة» لابن رشيق، فقد وجد للعمدة ثلاث طبعات سوابق إحداها محرفة تونسية، والأخريان مليئتان بالتحريف، والنقص والتصحيف، فاضطر إلى البحث فى دار الكتب بالقاهرة فوجد نسختين مخطوطتين لناسخين مختلفين، ذكر اسميهما وتاريخ النسخ، وخصائص كل نسخة فى مقدمة العمدة، فجمع هذه الخمس وقام بالمفاضلة الدقيقة بين المختلف من النصوص، يقول الأستاذ: «ولو أردت أن أحدثك عن المراجع التى استخلصت لك الصواب من بينها لهالَك الأمر، وخرج الحال فى نظرك عن حد المستساغ المعقول، ولكنها على كل حال حقيقة لا غلو فيها ولا إغراق، وستقف بنفسك حين

تقرأ الكتاب بعد هذا على ما كابدت من العناء والمشقة، وكنت أحب أن أذكر لك عند كل تصويبة أثرها فى خطأ أصول الكتاب، وكيف أصلحت؟ ومصدر إصلاحها، ولكنى اكتفيت فى التنبيه على بعض ذلك، وتركت بعضه لعلمى أن ذلك لا يعنى غير نفر قليل من القراء، وهؤلاء يكتفون باللمحة، ويجتزئون بالخبر، وكان لابد أن أجد زيادة فى بعض النسخ عما فى بعضها الآخر، أو أعثر على سقطة فى كلام نقله المؤلف عن كتاب آخر، بعد مراجعة هذا النقل، فاكتفيت بوضع الزائد بين قوسين [ ] ونبهت على مواطن الزيادة».

أقول: إن ضيق المقام يحول دون الاستشهاد ببعض ما صنع الشيخ، فماذا يقول الذين يعيبون الرجل بسرعة التحقيق، لأنه لم يذكر الأخطاء التى تولى تصويبها، وهو يراعى حق القارئ فى نسخة مصححة مضبوطة، لا فى التباهى بكثرة المراجع دون جدوى.

وقد نقده بعض المتسرعين مدعيا عدم كثرة التعليق على كتاب «وفيات الأعيان»، ونسى أن الرجل قال فى مقدمة الكتاب بعد أن ذكر الطبعات الست التى سبقت طبعته، وقرأها جميعها واعتمد عليها: «ولم يكن لى بد من مراجعة هذه النسخ كلها، بعضها على بعض، وترقيم الكتاب، وتحقيق النص بالرجوع إلى ما أمكن الرجوع إليه من الأصول التى أخذ عنها المؤلف، وضبط ما يحتاج إلى الضبط من أعلام الأناسىّ والأماكن والألفاظ الغريبة، وإن ضبط المؤلف لفظا بحثت عنه، فإن وجدت ما يخالف فى ضبط هذا اللفظ بينته فى أسفل الصفحات، وشرحت ما ظننت أن القارئ المتوسط يحتاج إلى شرحه، وبينت اختلاف النسخ، وضبطت فى أسفل الصفحات بالحروف بعض ما لم يضبطه المؤلف، عدا ضبطى له بالشكل فى أثناء الكتاب، وعزمت أن أضع له أنواعا جمة من الفهارس لا أقول عنها أكثر من أنها ستهوّن على كل باحث سبيل الانتفاع بهذا الكتاب». (وقد فعل).

ومما يخرج عن نطاق الحصر ما صنعه الأستاذ محيى الدين من العناية بنشر «شرح ابن يعيش على المفصل للزمخشرى» فى عشرة أجزاء، لم يوقع عليها باسمه، ولم يدخلها فى حساب ما نشره من الكتب الكثيرة، لأنه رأى أن شرحه لم يستكمل بعد، والناشر يتسرع فى اطّراح الكتاب لاحتياج الطلاب إليه، فأعطاه ما تم تحقيقه والتعليق عليه طالبا عدم نشر اسمه، إذ لا يستريح أن ينشر اسمه على عمل هو فى حاجة إلى إتمام. وتلك هى الأمانة التى تفتقد النظير.

والرجل العظيم سيذكر بآثاره المستفيضة التى سنشير إلى بعضها الآن، وقد انتقل إلى رحمة الله فى نهاية سنة ١٩٧٢م بعد أن ترك فراغا هائلا فى شتى أبواب العلم.

من مؤلفاته :

١ - الأحوال الشخصية فى الشريعة الإسلامية.

٢ - أحكام المواريث فى الشريعة الإسلامية.

٣ - آداب البحث والمناظرة.

٤ - تصريف الأفعال.

٥ - تفسير جزء عم.

٦ - حياة المتنبى ومناحى إبداعه.

ومن مؤلفاته فى مجال التحقيق:

١ - شرح ابن عقيل ، الأصل مع التفصيل الوافى فى أسفل كل صحيفة.

٢ - شرح شذور الذهب، الأصل مع التفصيل الوافى فى أسفل كل صحيفة.

٣ - شرح القطر، الأصل مع التفصيل الوافى فى أسفل كل صحيفة.

٤ - شرح أوضح المسالك، الأصل مع التفصيل الوافى فى أسفل كل صحيفة.

٥ - تحقيق مغنى اللبيب لابن هشام (كتابان) أحدهما موجز مطبوع، والآخر مستوعب مخطوط.

٦ - شرح الأشمونى على الألفية (كتابان) أحدهما موجز مطبوع، والآخر مستوعب مخطوط.

٧ - الإنصاف فى مسائل الخلاف لابن الأنبارى.

٨ - الإيضاح فى علوم البلاغة للقزوينى.

٩ - الموازنة بين البحترى وأبى تمام للآمدى.

١٠ - شرح الحماسة للتبريزى.

١١ - وفيات الأعيان لابن خلكان.

١٢ - نفح الطيب للمقرى.

١٣ - مروج الذهب للمسعودى.

١٤ - مقالات الإسلاميين للأشعرى.

١٥ - شرح مقامات الهمذانى.

١٦ - شرح نهج البلاغة للإمام محمد عبده.

١٧ - العمدة لابن رشيق القيروانى.

١٨ - الوافى بالوفيات لابن شاكر.

١٩ - التحفة السنية بشرح الآجرومية (وهى للتأليف أقرب).

٢٠ - تنقيح الأزهرية للشيخ خالد.

٢١ - تحقيق أربعة أجزاء من خزانة الأدب للبغدادى.

٢٢ - مجمع الأمثال للميدانى.

٢٣ - شرح اللباب للميدانى.

٢٤ - شـــرح الإقناع فى حل ألفـــاظ أبى شجاع للخطيب.

٢٥ - شرح النهاية فى شرح الغاية لمحمد ابن البصير.

٢٦ - سنن أبى داود.

٢٧ - شرح ألفية السيوطى فى الحديث.

٢٨ - الفرق بين الفرق للبغدادى.

٢٩ - الترغيب والترهيب للمنذرى.

٣٠ - سيرة ابن هشام النبوية.

٣١ - شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة.

٣٢ - شرح الشريف الرضى.

٣٣ - شرح المعلقات.

٣٤ - يتيمة الدهر للثعالبى.

٣٥ - معاهد التنصيص للعباسى.

٣٦ - المثل الثائر لابن الأثير.

٣٧ - أدب الكاتب لابن قتيبة.

٣٨ - تاريخ الخلفاء للسيوطى.

٣٩ - زهر الآداب للحصرى.

٤٠ - الموافقات للشاطبى.

٤١ - منهاج الوصول فى علم الأصول.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين، جـ (٢) للدكتور رجب البيومى.
٢ - مجلة مجمع اللغة العربية جزء ٣٢ ص ١٨٣.
٣ - محمد محيى الدين نحويًا (رسالة مخطوطة بمكتبة كلية اللغة العربية بالقاهرة).
٤ - مقدمات تحقيقاته إذ بها حديث طيب عن جهوده.
٥ - الأعلام للزركلى ٧/٩٢.
٦ - المجمعيون فى خمسين عاما. ومحمد مهدى ص ٣١٦.

محمد مصطفى المراغى
(١٢٩٨ - ١٣٦٤هـ = ١٨٨١ - ١٩٤٥م)

ولد الشيخ محمد مصطفى المراغى فى ٩ من مارس ١٨٨١م فى بلدة المراغة بمديرية سوهاج، وقد التحق بالأزهر بعد أن أتم حفظ القرآن الكريم، وتلقى العلم على كبار المشايخ، واتصل بالإمام محمد عبده، وانتفع بدروسه فى التاريخ والاجتماع وغيرهما من العلوم، وتوثقت صلته به، وسار على نهجه فى الإصلاح والتجديد. حصل على الشهادة العالمية عام ١٣٢٢هـ (١٩٠٤م)، وكان الأول على زملائه وكان عمره آنذاك ثلاثة وعشرين عاما، وهى سن مبكرة بالنسبة إلى علماء الأزهر.

تولى قضاء مديرية دنقلة بالسودان عام ١٩٠٤م بناء على ترشيح الشيخ محمد عبده، ولكنه استقال عام ١٩٠٧م وعاد إلى مصر، ثم عين عام ١٩٠٨م فى منصب قاضى القضاة فى السودان، وظل فى هذا المنصب حتى عام ١٩١٩م؛ وكان شديد الاعتزاز بكرامته، مستمسكا بالحق لا يحيد عنه، وبعد عودته إلى مصر تدرج فى مناصب القضاء إلى أن صار رئيسا للمحكمة العليا الشرعية عام ١٩٢٣م، ثم عُيِّن شيخا للأزهر فى مايو ١٩٢٨م، وهو فى السابعة والأربعين من عمره، وكان مَعْنيًا بإصلاح الأزهر، فلما وجد أن هناك عقبات كثيرة تحول بينه وبين الأهداف التى ينشدها استقال من منصبه فى أكتوبر ١٩٢٩م، وفى أبريل ١٩٣٥م أُعيد تعيينه شيخًا للأزهر استجابة لنداءات كثير من الزعماء المصلحين، والإضرابات العديدة التى قام بها الأزهريون مطالبين بعودة الإمام إلى الأزهر؛ لتحقيق ما نادى به من إصلاح، وظل فى منصبه إلى أن توفى عام ١٩٤٥م.

وقبل وفاته بأيام تعرض لمحنة قاسية، فقد انتوى الملك فاروق طلاق زوجته الملكة فريدة، وطلب من الشيخ المراغى فتوى تحرم عليها الزواج من بعده، ورفض الشيخ، فأرسل إليه الرسل يلحون عليه، وكان يعالج بمستشفى المواساة بالإسكندرية فرفض الاستجابة، فذهب الملك إليه بالمستشفى محتداً، وطال بينهما الجدل، فصاح المراغى قائلا: «إن المراغى لا يستطيع أن يُحرم ما أحل الله»، وانتكست صحة الشيخ بعد هذه المقابلة، ولم يلبث إلا قليلا حتى وافاه الأجل المحتوم.

لقد كان الشيخ المراغى مَعْنِيا بقضية الإصلاح والتجديد، مُتَرَسِّمًا فى ذلك خطى الإمام محمد عبده، وفى أثناء توليه عددًا من المناصب القضائية الكبرى فى مصر، فى الفترة ما بين عام ١٩١٩م وعام ١٩٢٨م، قام بالكثير من الإصلاحات الهامة، وفى مقدمتها قانون الأحوال الشخصية، فقد شكَّل لجنة برئاسته لتنظيم الأحوال الشخصية، ووجَّه اللجنة إلى عدم التقيد بمذهب أبى حنيفة الذى كان معمولا به حتى ذلك الحين، ولم يكن القضاة يحيدون عنه إلى مذهب آخر، ولكن المراغى رأى الأخذ بغيره من المذاهب إذا كان فيها ما يتفق مع المصلحة العامة للمجتمع، ومن بين توجيهاته للجنة قوله: «ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان، وأنا لا يعوزنى بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم، إن الشريعة الإسلامية فيها من السماحة والتوسعة ما يجعلنا نجد فى تفريعاتها وأحكامها فى القضايا المدنية والجنائية كل ما يفيدنا وينفعنا فى كل وقت، وما يوافق رغائبنا وحاجاتنا وتقدمنا فى كل حين، ونحن فى ذلك كله ملازمون لحدود شريعتنا ... إن من ينظر فى أقوال الأئمة من مذهب أبى حنيفة... يجد التجديد فى الأحكام الشرعية ميسورا لنا، ويجد بطلان الدوام لأحكام معينة وبقائها حيث يبقى الدهر من الأمور البدهية، ومعنى هذا أن المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية فهى قابلة بحكم الشرع للتجديد والتغيير».

ونتيجة لذلك صدر قانون الأحوال الشخصية عام ١٩٢٠م، وتوالت إصلاحات المراغى بعد ذلك فى هذا المجال.

وقد دعا المراغى إلى فتح باب الاجتهاد، كما دعا إلى العمل على توحيد المذاهب الإسلامية بقدر الإمكان، وطالب الفقهاء بأن يترفقوا بالناس، «وأن يراعوا قواعد اليسر التى هى أخص صفات الإسلام، ولا يوقعوهم فى الحرج».

وكما حاول التقريب بين المذاهب الفقهية حاول أيضًا التقريب بين طوائف المسلمين، وبذل فى هذا السبيل بعض المحاولات، حيث أجرى محادثات مع أغاخان فى عام ١٩٣٨م، كانت ترمى إلى تكوين هيئة للبحث الدينى تستهدف توثيق الروابط بين المسلمين فى جميع أنحاء العالم، وإقامة نوع من التعاون بين الهيئات التعليمية فى البلاد الإسلامية، وتبسيط قواعد الدين الإسلامى وتعاليمه، والتوفيق بين المسلمين مهما اختلفت مذاهبهم وفرقهم.

ولكن هذه المحاولات من جانب الشيخ لم تجد طريقها إلى التنفيذ، ولكن لعلها هى التى دفعت إلى إنشاء «جماعة التقريب بين

المذاهب الإسلامية»، والتى تعثرت هى الأخرى وتجمد نشاطها بعد أن نشطت فترة من الزمان.

وفى مجال إصلاح الأزهر شكّل فور توليه مشيخة الأزهر لجانًا لإعادة النظر فى قوانين الأزهر ومناهج الدراسة فيه، واهتم بالدراسات العليا، واقترح إنشاء ثلاث كليات مدة الدراسة فيها أربع سنوات، تتخصص إحداها فى علوم العربية، والثانية فى علوم الشريعة، والثالثة فى علوم أصول الدين، مع إنشاء أقسام للتخصص تنقسم إلى نوعين رئيسيين: نوع للتخصص فى المهنة ومدته سنتان، ونوع للتخصص فى المادة (يعادل الدكتوراه الحالية)، وبالإضافة إلى ذلك تقسيم الدراسة فى المرحلة قبل الجامعية إلى مرحلتين: مرحلة ابتدائية مدتها أربع سنوات، ومرحلة ثانوية ومدتها خمس سنوات، وقد صدرت بذلك القوانين التى تضمنت هذه الإصلاحات.

وقد شكّل الشيخ المراغى لجنة للفتوى من كبار العلماء للرد على الأسئلة التى تتلقاها من الأفراد والهيئات فى مصر والعالم الإسلامى، وغيرّ اسم هيئة كبار العلماء إلى جماعة كبار العلماء، واشترط فى أعضائها - بجانب الشروط القديمة - أن يكون العضو فيها من العلماء الذين لهم إسهام بارز فى الثقافة الدينية، وأن يقدم رسالة علمية تتسم بالجدة والابتكار، وجعل أعضاءها ثلاثين عضوا، وأصبحت أكبر هيئة دينية فى العالم الإسلامى.

وقد دعا المراغى إلى ترجمة القرآن الكريم، وقدّم فى ذلك بحثا قيّمًا قدّمه إلى جماعة كبار العلماء، وقد ثارت ضجة كبرى حول هذه الدعوة ما بين مؤيد ومعارض، وعلى الرغم من أن مجلس الوزراء قد وافق على المشروع فى أبريل عام ١٩٣٦م، واعتمد له حينذاك عشرين ألف جنيه، إلا أن الموضوع تعثر تنفيذه، ويبدو أن الحكومة قد اضطرت إلى التراجع تحت ضغط المعارضين.

ومن المواقف العديدة المشرفة للمراغى أنه أعلن رأيه فى الحرب العالمية الثانية، من فوق منبر مسجد الرفاعى، قائلا: «نسأل الله أن يجنبنا ويلات حرب لا ناقة لنا فيها ولا جمل»، وقد أحدثت كلمته هذه ضجة كبرى هزت الحكومة المصرية، وأقلقت الحكومة الإنجليزية، فطلبت بيانا من الحكومة المصرية، فاتصل رئيس الوزراء بالإمام المراغى وخاطبه بلهجة حادة، فقال له الشيخ: «أمثلك يهدد شيخ الأزهر؟ وشيخ الأزهر أقوى بمركزه ونفوذه بين المسلمين من رئيس الحكومة، ولو شئت لارتقيت منبر مسجد الحسين وأثرت عليك الرأى العام، ولو

فعلت لوجدت نفسك على الفور بين عامة الشعب»، وهدأت العاصفة لأن الإنجليز أرادوا أن يتفادوا الصدام مع الشيخ.

وقد أنشأ قبل وفاته بشهر واحد مراقبة خاصة للبحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر، تختص بالنشر والترجمة والعلاقات الإسلامية والبعوث العلمية والدعاة.

ولقد اشتملت مؤلفات الشيخ المراغى على برامجه الإصلاحية سواء فى الأزهر أو فى قوانين الأسرة، بالإضافة إلى مؤلفاته ودروسه فى تفسير القرآن الكريم، وبعض القضايا الفقهية واللغوية.

ومن أهم مؤلفاته ما يلى:

١ - الأولياء والمحجورون، «وهو بحث فقهى لا يزال مخطوطا بمكتبة الأزهر، يتناول فيه موضوع الحجر على السفهاء، والذين يتولون أمورهم بعد الحجر، وقد نال الشيخ بهذا البحث عضوية هيئة كبار العلماء.

٢ - تفسير جزء تبارك، وهو أيضا لا يزال مخطوطا، وقد قصد به الشيخ أن يكون تكملة لتفسير جزء عمَّ للإمام محمد عبده.

٣ - بحث فى وجوب ترجمة القرآن الكريم، مطبعة الرغائب ١٩٣٦م.

٤ - رسالة بعنوان: «الزمالة الإنسانية» كتبها لمؤتمر الأديان فى لندن، مطبعة الرغائب ١٩٣٦م.

٥ - بحوث فى التشريع الإسلامى وأسانيد قانون الزواج رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩م.

٦ - مباحث لغوية بلاغية.

٧ - دروس دينية نشرت بمجلة الأزهر، تشتمل على تفسير لبعض سور القرآن الكريم، وقد ألقى الشيخ هذه الدروس فى المساجد الكبرى فى القاهرة والإسكندرية، وحضرها الملك فاروق فى الفترة من عام ١٣٥٦هـ حتى ١٣٦٤هـ، وقد نشرت هذه الدروس أيضا فى كتيبات مستقلة.

٨ - مجموعة من المقالات والخطب. نشرت نماذج منها فى نهاية كتاب «الشيخ المراغى بأقلام الكتاب».

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ - مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن. تاليف على عبد العظيم - ج٢. القاهرة ١٩٧٨م.
٢ - المجددون فى الإسلام. تأليف عبد المتعال الصعيدى. القاهرة ١٩٦٢م.
٣ - الأزهر فى ألف عام للدكتور أحمد محمد عوف. من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٠م.
٤ - دائرة المعارف الإسلامية. مادة الأزهر. المجلد الثالث، طبعة دار الشعب.
٥ - تراجم الأعلام المعاصرين. تأليف أنور الجندى. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.
٦ - تاريخ الإصلاح فى الأزهر للشيخ عبد المتعال الصعيدى (جزآن). مكتبة الاعتماد. بدون تاريخ.

محمد مهدى علاّم
(١٣١٨ - ١٤١٣هـ = ١٩٠٠ - ١٩٩٢م)

ولد محمد مهدى علام فى سنة ١٣١٨ هـ = ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٠م بالقاهرة. تلقى دراسته الابتدائية بمدرسة جوهر اللاله، والدراسة الثانوية بمدرسة عثمان باشا ماهر، ثم تقدم لامتحان المسابقة للقبول بدار العلوم فى نوفمبر سنة ١٩١٦م، وكان أول الناجحين. بدأ الدراسة بدار العلوم من يناير ١٩١٧م وتخرج فى يونيه سنة ١٩٢٢م، فأرسل فى بعثة علمية إلى إنجلترا، فاستكمل دراسته العليا فى جامعات إكستر، ولندن، ومانشستر. وقد شملت دراسته العليا: الأدب الإنجليزى، واللغة العبرية، واللغة الفارسية، واللغة الألمانية، وعلم النفس. وحصل فى هذه الدراسات على دبلومات عالية، وعلى درجة الدكتوراه. وتوفى فى سنة ١٤١٣هـ الموافق ١٩٩٢/٥/١٩م.

ومن أعماله أنه قام بالتدريس فى كلية دار العلوم، وفى قسم التخصص بجامعة الأزهر (١٩٢٨ - ١٩٣٦م) وفى جامعة مانشستر (١٩٣٦ - ١٩٤٨م)، وفى قسم الدراسات العليا لشعبة اللغة الإنجليزية بكلية الدراسات الإنسانية بجامعة الأزهر (١٩٦٢ - ١٩٨٣م). وكان أستاذا للنقد الأدبى بالمعهد العالى للتمثيل (١٩٥٢ - ١٩٥٧م).

وأسهم فى إنشاء كلية الآداب جامعة عين شمس سنة ١٩٥٠م، وشغل فيها كرسى الأستاذية للغة العربية وآدابها، وكرسى الأستاذية للغة الإنجليزية وآدابها، وكان عميدا للكلية ٧ سنوات (١٩٥٤ - ١٩٦١م). وحين بلغ سن التقاعد عين أستاذا غير متفرغ بها، وظل يمارس عمله هناك فى محاضراته عن اللغة العربية لليسانس، وفى محاضراته عن اللغة الإنجليزية والترجمة للدراسات العليا حتى عام ١٩٩٠م.

وقد انتدب هذا العلم الكبير ليكون معلما خاصا للملك فاروق الأول، عندما كان وليا لعهد الدولة فى عامى ١٩٣٠/١٩٣١م، وقد أشرف على عديد من رسائل الدراسات العليا فى الأدب العربى والأدب الإنجليزى، للماجستير والدكتوراه.

وكان عميدا لمفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف (١٩٤٨ - ١٩٥٠م)، كما كان رئيسا منتدبا لقسم اللغة الإنجليزية بمدرسة الألسن عند إعادة افتتاحها (١٩٥١ - ١٩٦٣م). وعين رئيسا لمجلس إدارة المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (١٩٦٢ - ١٩٦٤م)، ثم عين مستشارا لوزارة الإرشاد القومى (الثقافة) ١٩٦٤ - ١٩٦٩م، وكان مستشارا للمؤتمر الإسلامى (١٩٥٦ - ١٩٦٢م)، وكان عضوا بالمجلس الأعلى لدار الكتب (دار الوثائق القومية) من سنة ١٩٤٩م لأكثر من عشرين عاما.

وكان رئيسا لتحرير مجلة «حوليات كلية الآداب» لجامعة عين شمس (١٩٥٠ - ١٩٦١م)، كما كان نائب رئيس التحرير لصحيفة دار العلوم (١٩٣٤ - ١٩٣٧م).

وكان عضو لجان الفحص للإنتاج العلمى لترقية الأساتذة المساعدين والأساتذة، فى لجان اللغة العربية، واللغة الإنجليزية، لمدة عشرين سنة، وكان عضوا فى لجنة ترقية الأساتذة للغة الإنجليزية بكليات جامعة الأزهر.

وكان عضوا مؤسسا لمجمع البحوث الإسلامية بالأزهر من سنة ١٩٦١م، ومقرراً للجنة إحياء التراث الإسلامى فيه. وعين عضوا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة فى إبريل سنة ١٩٦١م، ضمن العشرة الذين عينوا فى سنة ١٩٦١م بمناسبة زيادة عدد الأعضاء، وتعديل قانون المجمع.

وللدكتور مهدى علام نشاط موصول فى مجلس المجمع، ومؤتمره، ولجانه، فهو مشرف على مجلة المجمع، ومقرر لجنة المعجم الكبير، ومقرر لجنة الأدب، ومقرر لجنة التراث، ومقرر لجنة الأصول، وعضو لجنة الطب، ولجنة الهندسة.

انتخب أمينا عاما فى سنة ١٩٧٧م ثم انتخب نائبا لرئيس المجمع فى ديسمبر ١٩٨٣م.

وكان عضوا مؤسسا للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب (ثم للعلوم الاجتماعية) منذ إنشائه سنة ١٩٥٦م إلى أن حل محله المجلس الأعلى للثقافة، ومقررا فيه للجنة الدراسات الأدبية. وكان عضوا فى المجلس الأعلى للثقافة. ومقررا لشعبة الآداب فيها، وعضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، وعضوا بالمجلس القومى المتخصص للثقافة والأدب والإعلام، وعضواً بالمجمع العلمى المصرى.

ومن مؤلفاته :

فلسفة العقوبة.

فلسفة الكذب.

فلسفة المتنبى.

المتنبى بين نفسيته وشاعريته. مقصورة حازم القرطاجنى (تحقيق).

نظرية فى نشأة فن «المقصورة» فى الأدب العربى. تربية الشباب فى الإسلام (بالعربية والإنجليزية).

نظرية الوسط بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين.

رفاعة الطهطاوى.

عائشة أم المؤمنين.

نثر حفنى ناصف (بالاشتراك).

المطالعة الوافية للمدارس الثانوية - جزآن (بالاشتراك). النقد والبلاغة - جزآن (بالاشتراك).

قواعد اللغة العربية: النحو، والصرف، المعانى. البيان، البديع - ٧ أجزاء (بالاشتراك).

أحمد حسن الزيات.

جوزف لندن سميث: الرجل والفنان (بالعربية والإنجليزية).

بين اليراع والقرطاس، الروح الثورية لبرنالد شو (بالإنجليزية).

مجمع اللغة العربية فى ثلاثين عاما.

(المجمعيون: المائة الكرام) المجمعيون فى خمسين عاما.

دراسات أدبية، مراجعة لترجمة كتاب «علم الاجتماع» تأليف الدكتور موريس جنزبرج، ترجمة الدكتور فؤاد زكريا، «فرعون والنسر» أو «عودة المجد» ملحمة بالشعر العربى، ترجمة للملحمة الإنجليزية من شعر السيدة ثريا مهدى علام، نشر مكتبة لبنان، «السلام الذى أعرفه» ترجمة بالشعر الإنجليزى لهذه القصيدة الطويلة لمحمود حسن إسماعيل، مراجعة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية والتعليق على آراء المستشرقين فى الأجزاء التى صدرت من سنة ١٩٤٩م حتى سنة ١٩٦١م. مراجعة التحقيق والتقديم بمقدمات علمية للكتب التى صدرت من مطبوعات المجمع.

النياشين والجوائز التى حصل عليها:

وقد حصل على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب (١٩٧٦م)، وهو حائز لوسام الجمهورية من الطبقة الثالثة (١٩٥٦م)، ووسام الجمهورية من الطبقة الثانية (١٩٧٧م)، ووسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى (١٩٨٣م). ووسام العلوم والفنون (١٩٩١م).

وقد مثل مصر فى عدة مؤتمرات، رئيسا لوفدها فى جميع المؤتمرات التى عقدت لحركة التضامن الإفريقى - الآسيوى، وحركة عدم الانحياز، والحياد الإيجابى - فى مختلف بلاد العالم - من سنة ١٩٥٧م حتى سنة ١٩٦٣م، ولوفد مصر لمؤتمر حقوق التأليف المنعقد فى تونس ١٩٧٦م، ولمؤتمر الأدباء العرب فى الكويت والعراق، وفى الندوة الإسلامية العالمية التى عقدت فى لاهور فى باكستان ١٩٥٨م حيث كان المتحدث الرسمى باسم مصر. وأول مؤتمر حضره خارج مصر بعد الثورة، كان مؤتمر الخريجين فى الأردن سنة ١٩٥٤م.

وفى سنة ١٩٤٥م مثل الحكومة السعودية (منتدبا من الحكومة المصرية) فى أول اجتماع للأمم المتحدة فى لندن لتأليف هيئة اليونسكو.

وقد ساهم الدكتور/مهدى علام فى شبابه بدور رائد مع طلبة المدارس العليا (الكليات حاليا) فى مقاومة الاحتلال البريطانى، حيث إنه إبان ثورة ١٩١٩م كان العضو الممثل لدار العلوم فى لجنة المدارس العليا التى كانت تعمل فى سرية تامة لتغذية الروح الوطنية فى الشعب.

وقد كرمه الرئيس محمد حسنى مبارك فى الثالث من نوفمبر عام ١٩٩١م بوسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى، بمناسبة الاحتفال بالعيد المئوى لكلية دار العلوم، حيث ألقى الدكتور مهدى علام كلمة قدامى الخريجين فى هذه المناسبة.

وقد استقبله رئيس الجمهورية فى هذا الحفل استقبالا حضاريا يليق بمكانته، وبرعاية رئيس الجمهورية له وللعلماء.

أ.د. أحمد كشك

مراجع للاستزادة:

١ - المجمعيون فى خمسين عاما، تقويم دار العلوم.

٢ - المجمعيون فى خمسين عاما د. محمد مهدى علام ص ٣٢٣، ط. الهيئة العامة للمطابع الأميرية، مجمع اللغة العربية.

محمد يوسف موسى
« ١٨٩٩ - ١٩٦٣م »

ولد فى ريف مصر فى نهاية القرن التاسع عشر سنة ١٨٩٩م ونشأ يتيما فى أسرة مثقفة بين أمه وأخوته وأعمامه وأخواله، حيث توفى والده فى السنة الأولى من ولادته، وكانت أمه تحفظ القرآن الكريم مثل أبيها وإخوتها من آل والى، ومثل زوجها الذى درس فى الأزهر فترة ثم انقطع للزراعة، فجده لأمه الشيخ حسين والى الكبير، وخاله الشيخ حسين والى أحد أعلام الأزهر والسكرتير العام للمجلس الأعلى للأزهر، وخاله الدكتور حامد والى الذى درس فى الأزهر ودار العلوم ثم درس الطب وأصبح كبيرا للأطباء فى وزارة المعارف، وخاله الدكتور أحمد والى الذى درس الطب وعمل به، وخاله: إبراهيم والى الذى درس فى الأزهر ودار العلوم وإنجلترا ثم عمل مدرسا بدار العلوم ومفتشا بوزارة المعارف.

نشأ محمد يوسف موسى فى هذه الأسرة العلمية وحرصت أمه على أن يكون كأخواله فوجهته إلى كُتّاب القرية لحفظ القرآن رغم معارضة عمه الذى كان يريده فلاحا لرعاية الزراعة، وتوقعت أمه أن يكون لابنها شأن عظيم، وقد ظهرت بوادر ذلك الشأن فى حفظه للقرآن حيث كان يحفظ لوحه بمجرد كتابته، ولما أتم حفظ القرآن التحق بالأزهر سنة ١٩١٢م، واستمر به.

تطوره العلمى والعملى : نال شهادة العالمية حيث عين مدرسا بمعهد الزقازيق الدينى وقد حال ضعف بصره دون الاستمرار فى وظيفته ودون التحاقه بالتخصص العالى كطالب منتظم فانتسب للدراسة وحصل على التخصص وكان ترتيبه الأول. ودرس اللغة الفرنسية والحقوق واشتغل بالمحاماة الشرعية ولمع فيها وفى سنة ١٩٣٦م ترك المحاماة وعاد للتدريس فى المعاهد الأزهرية وفى سنة ١٩٣٧م اختير للتدريس فى كلية أصول الدين لمقررات الفلسفة والأخلاق وكان له منهجه الجديد الناقد والمتفتح وكانت له كتابات فى الصحف والمجلات تدعو إلى تطوير التعليم الأزهرى، وفى سنة ١٩٣٨م سافر إلى فرنسا

للحصول على درجة الدكتوراه بإشراف الأستاذين ماسينيون ومصطفى عبد الرازق، وناقش الدكتوراه فى الدين والفلسفة فى رأى ابن رشد وفلاسفة العصر الوسيط، وكان أول أزهرى ينال هذه الدرجة العلمية الممتازة، واختير وهو طالب فى فرنسا خبيرا بالمجمع اللغوى بالقاهرة وبعد الدكتوراه منحه الأزهر أجازة خاصة فى رحلة علمية لأسبانيا وبلاد المغرب العربى فاطلع فيها على مؤلفات عظيمة ومخطوطات نادرة، وبعد هذه الجولة عاد للعمل فى الأزهر كما كان قبل البعثة فى كلية أصول الدين ونشأ بينه وبين شيوخ الأزهر خلاف حول تطوير الأزهر ومقرراته، وخاصة توحيد المرحلتين الابتدائية والثانوية بين الأزهر والتعليم العام، وقد أدى ذلك الخلاف إلى تركه الأزهر والانتقال للتدريس فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول أستاذا مساعدا للشريعة الإسلامية، وقد أثبت جدارته الفائقة وبهر طلابه بغزارة علمه وسعة معارفه وشمول نظرته وفى سنة ١٩٥٥م اختير أستاذا ورئيسا لقسم الشريعة بكلية الحقوق جامعة عين شمس وظل بها حتى أحيل للمعاش سنة ١٩٥٩م، وقد امتد تدريسه وعلمه إلى جامعة الخرطوم فأحدث فيها تغييرات جذرية فى التدريس والإدارة.

وفى سنة ١٩٦٠م عين مستشاراً للدعوة والثقافة بوزارة الأوقاف فأصدر مجلة «منبر الإسلام» وشكل لجانا عدة لتفسير عصرى للقرآن وللتأليف فى الفقه والحديث، وعلى يديه تم تسجيل المصحف المرتل وقيام مؤسسة الزكاة، ولظروف صحية ترك الوزارة واكتفى بالمشاركة فى بعض اللجان والمؤتمرات وكتابة البحوث العلمية والأحاديث الإذاعية.

كانت حياته كلها للعلم والبحث وهموم الأمة فحال ذلك دون زواجه وتكوين أسرة.

علمه ومنهجه : من خلال هذه الرحلة العلمية الطويلة بين الكتاتيب ومعاهد الأزهر وكلياته ومصر وفرنسا والخرطوم والفلسفة والشريعة وجامعتى القاهرة وعين شمس ولجان وزارة الأوقاف والشئون الاجتماعية والبحوث والمؤتمرات والأحاديث الإذاعية والكتابات الصحفية نجد أنفسنا أمام موسوعة علمية متنقلة كان لها شخصيتها ومنهجها فى تجلية الإسلام وأحكامه وإبراز صورته الصحيحة ومرونته، وبيان تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان، والاشتغال بقضايا الأمة وهمومها ومحاولة النهوض بها وتطويرها والسعى لتطوير التعليم لتحقيق نهضة الأمة وتطورها، وقد اتخذ من تلاميذه ومحبيه أسرة له يفتح لهم بيته ويتلقاهم كل يوم جمعة بلا ميعاد وفى أثناء الأسبوع بموعد حيث يكون مشغولا بالقراءة والكتابة

من الصباح الباكر حتى العاشرة مساء.

ولذا ترك لنا ثروة علمية هائلة ومؤلفات عديدة أهمها:

١- مباحث فى فلسفة الأخلاق، مطبعة الأزهر سنة ١٩٤٣م.

٢- الأخلاق فى الإسلام، الطبعة الثانية بيروت ١٩٩١م.

٣- فلسفة الأخلاق فى الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية، مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٥م.

٤- تاريخ الأخلاق، ط٣ دار الكتاب العربى- مصر

٥- القرآن والفلسفة، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٨م.

٦- بين الدين والفلسفة، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٥٩م.

٧- ابن رشد الفيلسوف - سلسلة أعلام الإسلام.

٨- الفقه الإسلامى، مدخل لدراسته ونظام المعاملات فيه، دار الكتاب العربى.

٩- دروس فى فقه الكتاب والسنة: البيوع منهج وتطبيق، مطبعة البرلمان بالقاهرة.

١٠- الأموال ونظرية العقد فى الفقه الإسلامى، دار الفكر العربى بالقاهرة سنة ١٩٨٧م.

١١- التركة والميراث فى الفقه الإسلامى، طبع دار المعرفة بالقاهرة.

١٢- أحكام الأحوال الشخصية فى الفقه الإسلامى، ط٢ سنة ١٩٥٨م.

١٣- تاريخ الفقه الإسلامى - دار الكتب الحديثة بالقاهرة سنة ١٩٥٨م.

١٤- المدخل لدراسة الفقه الإسلامى - دار الفكر العربى.

١٥- أبو حنيفة - والقيم الإنسانية فى مذهبه - مكتبة نهضة مصر.

١٦- التشريع الإسلامى وأثره فى الفقه الغربى - وزارة الثقافة سنة ١٩٦٠م.

١٧- الإسلام ومشكلاتنا الحاضرة - المكتب الفنى للنشر بالقاهرة سنة ١٩٥٨م.

١٨- الإسلام وحاجة الإنسانية إليه - ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

١٩- الإسلام والحياة - مكتبة وهبة القاهرة.

٢٠- نظام الحكم فى الإسلام - دار الفكر العربى بالقاهرة.

٢١- ابن تيمية - سلسلة أعلام العرب.

٢٢- الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد للجوينى، تحقيق وتعليق، مكتبة الخانجى، هذا علاوة على بعض الكتب المشتركة، وبعض الكتب المترجمة، وعدد من البحوث والمقالات.

وقد لاقت كل هذه المؤلفات اهتماما بالغا من القراء وثناء من العلماء والباحثين حتى إن بعضها طبع أكثر من طبعة، وذلك لشمولها وتنوع موضوعاتها وجدة منهجها وأسلوبها يقول الشيخ مصطفى عبد الرازق عن كتابه «تاريخ الأخلاق»: «اطلعت أخيرا على كتاب للأستاذ الفاضل الشيخ محمد يوسف موسى اسمه (تاريخ الأخلاق) يطبع للمرة الثانية فى عامين، وإنى لأعرف الأستاذ الشاب عالما موفور النشاط، موفور الذكاء، كريم الأخلاق، مغرما بالدرس والتماس المزيد من العرفان ومن تجمعت له هذه الخلال فى عنفوان شبابه فقد استكمل كل أدوات النجاح فى الحياة العلمية. وأسأل الله أن يزيد صديقى الأستاذ قوة فى سبيل خدمة العلم وتوفيقا، وأن يخلد اسمه فى سجل العاملين السابقين فى نهضة الدراسات الفلسفية والأخلاقية».

مرض عالمنا الجليل فى آخر أيامه بداء السكر وتأثر نظره بذلك، ولبى نداء ربه فى صباح اليوم الثامن من شهر أغسطس سنة ١٩٦٣م وترك على مكتبه فتاوى وإجابات أذيعت بعد وفاته.

أ.د. محمد نبيل غنايم

مراجع للاستزادة:

١ - تقويم دار العلوم

٢- محمد يوسف موسى - الدكتور محمد الدسوقى - دار القلم دمشق سنة ٢٠٠٣م.

٣- مجلة المنهل السعودية.

محمــود تيمــور
(١٣١١ - ١٣٩٣هـ = ١٨٩٤ - ١٩٧٣م)

هو محمود بن أحمد بن اسماعيل تيمور ولد محمود تيمور بالقاهرة سنة ١٣١١هـ = ١٨٩٤م، في أسرة معروفة بالثراء، مشهورة بالعلم والأدب، وكان والده أحمد تيمور عالمًا بالتراث العربي، وله مؤلفات كثيرة أسدت إلى اللغة العربية أجل الخدمات، وكان شقيقه الأكبر محمد تيمور من الرواد الأوائل للقصة المصرية، وله نتاج كثير من الأقاصيص الاجتماعية بالرغم من أنه مات وهو في شرخ الشباب.

وفي ظل هذه البيئة العلمية الأدبية أحب كاتبنا منذ نشأته القراءة والاطلاع، وكانت مكتبة والده عامرة بأمهات الكتب العربية، وغيرها من وسائل إشباع هذا الميل في نفسه، وكان في يسر من العيش، هيأ له القيام برحلات مختلفة إلى بلاد الغرب طلباً للدراسة والاطلاع والنزهة والاستشفاء أحيانًا، وطالما سجل مشاهداته في تلك الرحلات وخواطره عنها في مقالات ممتعة نشرتها له الصحف والمجلات.

وفي عام ١٩٣١م شارك في مؤتمر المستشرقين الذي عقد بمدينة (لَيّدن) بهولندا، وفيه قدم بحثا باللغة الفرنسية عن النزاع بين العامية والفصحى في الأدب العربي الحديث.

وعكف تيمور طوال حياته على الفن الذي عشقه، وصرف إليه كل اهتمامه وجهده وهو (فن القصة) فأنتج فيه إنتاجًا غزيرًا، أحله مكانا ممتازا بين كتاب الطبقة الأولى للقصة العربية في العصر الحديث.

وكان - رحمه الله - من أطيب الناس نفسا، وأصفاهم طبعًا، وأقومهم خلقًا، نال «جائزة الدولة التقديرية» في الأدب، اعترافا بما أضافه إلى المكتبة العربية، من ثروة أدبية غنية، ومنحه المجمع اللغوي جائزة القصة سنة ١٩٤٧م، كما رشحته مكانته الأدبية لأن ينتخب عضوا بالمجمع اللغوي في مصر حيث كان ثاني أديب منتخب في هذا المجمع بعد المازني، وقد عمد محمود تيمور إلى أعماله الأدبية التي نشرها بلغة مختلطة بالعامية

فنقحها فى طبعات جديدة بعد توثق صلته بالمجمع اللغوى[٤].

وقد توفى فى سنة ١٣٩٣هـ الموافق أغسطس سنة ١٩٧٣م.

- كان (محمود تيمور) ذا موهبة أدبية خصبة يتسم بما يميز الفنان من رهافة الحس ودقة العاطفة، وقوة الشعور بالجمال، والقدرة على التعبير عما يحبه.
- أتقن اللغة الفرنسية، وقرأ لكبار كتابها وأدبائها، واطلع على روائع القصص الفرنسى، وتابع الإنتاج القصصى ومذاهبه فى الأعمال الفرنسية والآثار المترجمة إليها.

وقد عاصر الكاتب نشأة القصة العربية، وحركة تطورها منذ بدأت ترجمة، فاقتباسا، فتقليدا، فابتكارا حتى استوت وأضحت مورقة مزهرة، وكان وفيا لهذا الفن الذى كلف به، وتتبع آثاره وتطوراته على المستوى الوطنى والعالمى.

كان من أقوى العوامل لسبقه فى مضماره، إيمانه القوى برسالته ورغبته المتحمسة فى أن تصبح القصة العربية واضحة الملامح جلية الشخصية، بين فنون البيان، بالرغم من حداثة عهدها بالقياس إلى غيرها من الفنون البيانية التى تمتد أعراقها إلى الماضى البعيد.

أولع تيمور أول أمره بالأدب القصصى ذى الطابع الرومانسى، ولهذا كانت مجموعاته القصصية الأولى رومانسية النزعة، فيها إلى المبالغة فى التصوير والإمعان فى الخيال، ومنها مجموعة قصصه (فرعون الصغير).

ثم أخذ يتخلص تدريجيًا، من الرومانسية ويتجه إلى الواقعية واستقام عليها فنه القصصى، وربما كان ذلك راجعًا إلى أسباب منها : التطور القوى الذى أدرك الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى مختلف الميادين، لأن الأدب بوجه عام وأدب القصة بوجه خاص مرآة للمجتمع، يفصح عن جوانب حياته ونفسية أهله، ونمو الوعى القومى إبان النهضة، ذلك الوعى الذى أدى إلى دعم الشخصية العربية، وإظهار المقومات الخاصة للأمة.

ومن مميزات فنه القصصى فى هذا الطور أنه يمثل الفن الواقعى، فينقل عن الحياة وما يجرى فيها من المواقف والأحداث والشخصيات فى موضوعية، ودون جنوح إلى الخيال وتحليق فى آفاقه البعيدة. وليس معنى هذا أنه لا يضفى على القصص من ذاته، بل إنه يخرجها من خلال نفسه وأحاسيسه، غير مبتعد عن الواقع الذى يستوحى عناصرها منه بحيث تظهر وكأنها تعيش فيه، كما أنه فى نزعته الواقعية يصور

أهل الريف وبساطتهم، من حيث المشاهد وملامح الشخصيات والعادات والتقاليد، وقد اتسع فى قصصه حتى أصبح ذو نزعة إنسانية. كما أنه بلغ مدى بعيدًا فى فن القصة من نواحيها المختلفة من حيث: البناء والحبكة الفنية ورسم الشخصيات فى براعة حتى لتحس أنفاسها وتلمح الحياة فى كلماتها وحركاتها، كما تحس أن قلبه مملوء عطفًا عليها. وكانت له قدرة بارعة على استخدام اللغة الفصحى، والتزامها والتأنق فيها أحيانًا، ولكنها فى جملتها من السهل الممتنع.

هذا وقد تنوع إنتاج (تيمور) بين القصة القصيرة، والرواية، ولكن أشد ما يميزه ويحببه إلى النفوس فنيته التى بلغت غايتها فى قصصه الواقعى والإنسانى.

كتب (محمود تيمور) الرواية، وبعض المسرحيات، وأفاض فى القصة القصيرة، وله إلى جانب ذلك - كتب فى الرحلات والدراسات الأدبية - وأكثرها حول الفن القصصى.

وقد بلغ عدد مؤلفاته واحدًا وسبعين مؤلفًا، ترجم الكثير منها إلى اللغات الأجنبية.

ويعد تيمور بهذا كله من بناة فن القصة الذين يعتز بهم الأدب العربى الحديث.

أما فى مجمع اللغة العربية فقد عنى بألفاظ الحضارة ووضع مقابلات عربية لها، كما عنى بدراسة اللغة العربية المعاصرة والاستغناء بالعامية وشارك على الدوام فى الجهود اللغوية المتميزة لهذا المجمع.

أ.د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة:

١ - أدب وطرب، د. جمال الدين الرمادى، ط دار النهضة العربية - القاهرة.

٢ - مع رواد الفكر، محمد شلبى، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٢م.

٣ - المنتخب من أدب العرب، أحمد أمين وعلى الجارم، ط دار الكتاب العربى بمصر ١٩٥٣م.

٤ - ثلاثية التاريخ وأساسه فى الأدب من بين سطور حياتنا الأدبية. د محمد الجوادى.

٥- الأعلام للزركلى ٧/١٦٥.

محمود حمدى الفلكى

(١٢٣٠ - ١٣٠٢ = ١٨١٥ - ١٨٨٥ م)

ولد محمود أحمد حمدى فى بلد الحصة بمحافظة الغربية عام ١٢٣٠هـ = ١٨١٥م، وذهب إلى الإسكندرية وهو فى العاشرة من عمره، ثم درس فى المهندسخانة عندما كانت بالقلعة، ثم عُين مدرسا بها عام ١٨٣٤م، وكانت قد انتقلت إلى بولاق وأعيد تنظيمها لتضم كلا من مدرسة المهندسين ومدرسة التعدين، بالإضافة إلى مرصد فلكى. وقضى محمود أحمد ستة عشر عاما فى التدريس قبل أن يختاره على مبارك فى عام ١٨٥٠م ضمن بعثة إلى باريس لدراسة الفلك والرياضيات، ثم عاد إلى مصر عام ١٨٥٩م، وعرف باسم محمود حمدى الفلكى، وكان ظاهرة علمية فريدة بما خلف من إنجازات قيمة فى مجالات الفلك والجغرافيا والأرصاد والرياضيات.

عندما سافر الفلكى إلى أوروبا وهو فى الخامسة والثلاثين، وقد خبر من أمور الحياة ما جعل حكمه ناضجًا ورأيه سديداً، فنزل باريس وهى حينئذ مركز العلم فى أوروبا، بل فى العالم أجمع، ودرس على أيدى علماء الرياضيات والفلك، وتنقل بين العواصم والمدن الأوروبية المختلفة من أدنبرة ودبلن شمالاً إلى فيينا وبراج شرقًا، وزار المراصد والجامعات الكبيرة.

وكانت وفاته فى سنة ١٣٠٢هـ الموافق ١٩ من يوليو سنة ١٨٨٥م.

ومن مؤلفاته :

أتم عدة بحوث فلكية وجيوفيزيقية، نشير إليها فيما يلى :

١ - نشر فى سنة ١٨٥٥م بحثا عن التقويمين: الإسرائيلى والإسلامى.

٢ - نشر فى سنة ١٨٥٦م بحثًا عن شدة المجال المغناطيسى للأرض فى بلجيكا وألمانيا وفرنسا، وقارن بين قياساته وقياسات كوتيليت Quetelet سنة ١٨٢٩م.

واستنتج من ذلك أن المركبة الأفقية للمجال المغناطيسى قد زادت فى المدة ما بين القياسين وخاصة فى منطقة النمسا، ونشر

هذا البحث فى مطبوعات الأكاديمية الملكية فى بلجيكا، وجاء فيه أنه من تأليف (محمود الفلكى المصرى مدير مرصد القاهرة، وعضو بالجمعيات العلمية، إرسالية علمية بأمر والى مصر).

٣ - نشر فى مجلة أعمال المجمع الفرنسى Combtes Rendues بتاريخ ١٣ أكتوبر سنة ١٨٥٦م دراسة مفصلة لزاوية الميل وشدة المجال المغناطيسى فى منطقة باريس وما حولها، ولاحظ مقدار تغير المركبة الأفقية فى اتجاه الشمال والغرب، وكيف أن تغييرها أسرع من تغيير الشدة الكلية للمجال، وهذا يستدعى حتماً تغيراً فى زاوية الميل.

٤ - وفى صيف سنة ١٨٥٥م سافر محمود إلى إنجلترا وأيرلندا وأسكتلندا وهولندا وبلجيكا وألمانيا، وقاس العناصر المغناطيسية فى ٤٥ مكانًا مختلفًا، ورسم الخطوط المتساوية الشدة والمتساوية الانحراف فى منطقة تمتد ١٤° طولية من دبلن إلى نهر الراين و ٧ درجات عرضية من باريس إلى أدنبرة، وقارن هذه الأرصاد بخريطة «سابين» Sabine التى تمت سنة ١٨٢٧م واقتصرت على الجزائر البريطانية فقط.

ونشر البحث فى موضوعات الأكاديمية البلجيكية سنة ١٨٥٦م وجاء فى مقدمته: «لما تفضل والينا الأفخم سمو سعيد باشا بإبداء رضائه عن العمل الذى قدمته للأكاديمية الملكية البلجيكية عام ١٨٥٤م عن القوة المغناطيسية الأرضية وتغيرها فى ألمانيا وبلجيكا، أمرنى أن أسافر إلى الجزائر البريطانية لكى أزور المراصد الرئيسية هناك وأتعرف على علماء هذه البلاد وأقيس العناصر المغناطيسية وأقارنها بما يحصل عليه فى القارة تمهيدًا لقياسها فيما بعد فى مصر». وأشار فى آخر البحث إلى توصية مسيو «كوتيليت» Quetelet السكرتير الدائم للأكاديمية الملكية البلجيكية، و «جومار» عضو المعهد الفرنسى، والمراسل العلمى للوالى، ونلاحظ هنا اهتمام محمود الفلكى بالقياسات المغناطيسية وترتيبه عمل مثلها فى مصر تحقيقًا لرغبة محمد على التى أبداها عند إنشاء مرصد بولاق.

ولبيان أهمية هذه الدراسات عن المغناطيسية الأرضية نرجع إلى تاريخ هذا الفرع من العلم فنجد أن «هالى» Halley رسم أول خريطة مغناطيسية سنة ١٧٠٠م، وأن التغيرات فى العناصر المغناطيسية للأرض لم تكن قد حققت بدقة حتى أوائل القرن التاسع عشر، وأن أول معمل خاص بدراسة المغناطيسية الأرضية أسسه الرياضى الفلكى المشهور «جاوس» سنة ١٨٣٤م فى جوتنجن،

وأن أول دراسات المغناطيسية الأرضية فى الإمبراطورية البريطانية بدأت عام ١٨٤٠م على يد «إدوارد سابين». وللمغناطيسية الأرضية أهمية فى الملاحة البحرية وأبحاث الفلكى فيها تدل على أنه كان مسايرًا لروح العصر.

٥ - وفى سنة ١٨٥٨م كتب رسالة فى تحقيق تاريخ ميلاد النبى ﷺ وتاريخ الهجرة بالاستناد إلى بعض الظواهر الفلكية، وترجمت هذه الرسالة إلى اللغة العربية ونشرت تحت عنوان «نتائج الإفهام فى تقويم العرب قبل الإسلام». والرسالة جزءان: الأول قدم فيه المؤلف ثلاثة من النصوص الإسلامية المحققة، وهذه الأدلة الثلاثة هى:

١ - كسوف الشمس يوم وفاة إبراهيم ابن النبى ﷺ من «مارية القبطية». عن المغيرة بن شعبة - قال : كسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ فقال ﷺ : «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته»[1] والمتواتر أن وفاة إبراهيم حدثت فى السنة العاشرة من الهجرة. وقد حسب الفلكى بالرجوع إلى الجداول الخاصة بحركات الشمس والقمر التاريخ الذى حدث فيه هذا الكسوف فى المدينة (ونلاحظ أنه اعتبر موقع المدينة المنورة على خط ٣٧٢٩° شرقى باريس، لأن الجداول كانت فرنسية الأصل، ولم يكن خط زوال جرينتش قد اتفق عليه عالمياً كأساس لحساب خطوط الطول)، فوجد بالحساب أن هناك كسوفاً للشمس فى منتصف التاسعة من صباح ٢٧ من يناير سنة ٦٣٢ ميلادية، وهذا يقابل ٢٩ من شوال سنة ١٠ هجرية.

٢ - تعيين تاريخ الهجرة استناداً إلى ما جاء فى السيرة الحلبية «وفى كلام الحافظ ابن ناصر الدين عن ابن عباس - رضى الله عنهما : أن رسول الله ﷺ قدم المدينة يوم عاشوراء فإذا اليهود صيام، فقال رسول الله ﷺ : ما هذا؟ قالوا هذا يوم أغرق الله تعالى فيه فرعون ونجى فيه موسى، فقال رسول الله ﷺ أنا أولى بموسى. فأمر رسول الله ﷺ بصومه»[2]، وعاشوراء هو العاشر من محرم بينما الهجرة كانت فى ربيع الأول، فإذا رجعنا القهقرى بالتاريخ متبعين التقويم العربى القمرى والتقويم الإسرائيلى الشمسى حتى يتحدا، وبعد مراجعة علماء الهيئة والحديث انتهى محمود الفلكى إلى أن النبى ﷺ دخل المدينة يوم الاثنين ٢٠ من سبتمبر سنة ٦٢٢م الموافق ١٠ من تشرين وهو عيد كيبور عند اليهود.

٣ - جاء فى الخبر المتواتر أن ميلاد النبى ﷺ كان بعد اقتران بين زحل والمشترى فى برج العقرب، وأنه كان فى نيسان. وبالحساب

وجد أن هذا الاقتران حدث فى ٢٩ أو ٣٠ من مارس سنة ٥٧١ ميلادية، وبمراجعة مختلف الأسانيد توصل الفلكى إلى تحديد ميلاد النبى ﷺ يوم الاثنين ٩ من ربيع الأول الموافق ٢٠ من إبريل سنة ٥٧١م.

وأما الجزء الثانى من هذه الرسالة القيمة فيبحث فى أمر التقويم عند العرب فى الجاهلية، معتمدًا على التواريخ الثلاثة السالفة، ورواية عن خسوف للقمر فى السنة الرابعة الهجرية، وأدلة متفرقة أخرى تتم جميعًا على أن التقويم الجاهلى كان قمريًا بحتًا. وقد حقق أيضًا عمر النبى ﷺ .

هذه هى أبحاث الفلكى فى مدة التحاقه بالبعثة فى أوروبا من سنة ١٨٥٠ إلى ١٨٥٩م. وهى تدل على مقدرة عظيمة وكفاءة فى فرعين مختلفين كل الاختلاف من الدراسة:

الأول : علم التقاويم والأزياج واستعمال الجداول الفلكية.

والثانى : دراسة المغناطيسية الأرضية.

أ.د. أحمد فؤاد باشا

الهوامش:

١ - موطأ مالك، ١/١٨٦، حديث رقم (٤٤٤).

٢ - مسند الطيالسى ١/٣٤٢.

محمود خليل الحصرى

(١٣٣٥-١٤٠١هـ = ١٩١٧-١٩٨٠م)

ولد الشيخ محمود بن السيد بن على بن خليل بن الحصرى فى ٣٠ من ذى القعدة ١٣٣٥هـ الموافق ١٧ من سبتمبر ١٩١٧م بقرية شبرا النملة مركز طنطا محافظة الغربية، وقد نذره والده لخدمة القرآن الكريم فألحقه بكُتّاب القرية عند بلوغه الرابعة من عمره، فكان يحفظ القرآن سماعى ثم يكتب ما حفظه على الألواح بعد أن تعلم الحروف الأبجدية، وكان يذهب من قريته إلى المسجد الأحمدى بطنطا ماشياً يوميا ليحفظ القرآن ويجوده.

أتم حفظ القرآن الكريم وأتم تجويده وهو ابن ثمانى سنوات.

وحصل على إجازة بالقراءات العشر الصغرى من طريق الشاطبية والدرة من الشيخ إبراهيم أحمد سلام.

عُيِّن قارئا للسورة يوم الجمعة ثم صدر قرار وزارى بقيامه بمهمة الإشراف الفنى على مقارئ محافظة الغربية.

ثم انتُدِب للقراءة فى مسجد سيدى أحمد البدوى بطنطا سنة ١٩٥٠م.

وعندما تُوفِىَ الشيخ الصيفى الذى كان قارئا للسورة بمسجد الإمام الحسين بالقاهرة تم تشكيل لجنة من كل من : فضيلة الشيخ على بن محمد الضباع شيخ المقارئ المصرية آنذاك، وفضيلة الشيخ عبدالفتاح بن عبدالغنى بن القاضى شيخ المقارئ المصرية السابق، والشيخ عامر بن السيد عثمان شيخ المقارئ المصرية السابق، فاختارته اللجنة قارئ سورة للمسجد الحسينى.

كما حصل مرة أخرى على إجازة بالقراءات العشر الصغرى من الشاطبية والدرة من فضيلة الشيخ على بن محمد بن الضباع.

- عُين مفتشا للمقارئ المصرية.
- عُين وكيلا لمشيخة المقارئ المصرية.
- وفى عام ١٩٥٨م تخصص فى علوم القراءات العشر وطرقها ورواياتها بجميع أسانيدها ونال عنها شهادة القراءات العشر من الأزهر الشريف.
- وقد حصل على إجازة بقراءات الأئمة

الثلاثة المتممة للقراءات العشر بمضمن متن الدرة للإمام المحقق ابن الجزرى من فضيلة الشيخ عبدالفتاح بن عبدالغنى بن القاضى فى ١٧ من شهر ذى القعدة سنة ١٣٧٨هـ الموافق ٢٥ من مايو ١٩٥٩م.

- وفى عام ١٩٥٩م عُين مراجعا ومصححا للمصاحف بقرار مشيخة الأزهر الشريف.

- وفى عام ١٩٦١م صدر قرار جمهورى بتعيين فضيلته شيخا لعموم المقارئ المصرية.

- وفى عام ١٩٦١م سجل أول مصحف مرتل فى أنحاء العالم برواية حفص عن عاصم وظلت إذاعة القرآن الكريم تقتصر على إذاعة صوته منفردا ما يقرب من ١٠ سنوات.

- وفى عام ١٩٦٢م عُين نائبا لرئيس لجنة مراجعة المصاحف وتصحيحها بالأزهر الشريف ثم رئيسا لها بعد ذلك.

- وفى عام ١٩٦٤م سجل أول مصحف مرتل فى أنحاء العالم برواية ورش عن نافع المدنى.

- وفى عام ١٩٦٦م عُين مستشارا فنيا لشئون القرآن الكريم بوزارة الأوقاف واختاره اتحاد قراء العالم الإسلامى رئيسا لقراء العالم الإسلامى بمؤتمر اقرأ بكراتشى بدولة باكستان.

- وفى عام ١٩٦٧م عُين خبيرا بمجمع البحوث الإسلامية لشئون القرآن الكريم (هيئة كبار العلماء) وحصل على وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى فى عيد العلم.

- وفى عام ١٩٦٨م سجل أول مصحف مرتل فى أنحاء العالم برواية قالون عن نافع ورواية الدورى عن أبى عمرو البصرى.

- وفى عام ١٩٦٩م سجل أول مصحف معلم فى أنحاء العالم برواية حفص عن عاصم.

- وقد قام الشيخ بالعديد من الرحلات لنشر وتعليم القرآن فسافر إلى العديد من الدول العربية والإسلامية والأوربية وكان أول من قرأ القرآن الكريم فى مبنى الأمم المتحدة أثناء زيارته لها بناء على طلب جميع الوفود العربية والإسلامية عام ١٩٧٧م، وكذلك أول من أذن للصلاة بمبنى الأمم المتحدة، وكذلك رتل القرآن الكريم فى القاعة الملكية وقاعة هيوارث المطلة على نهر التايمز بلندن عام ١٩٧٨م، وهو أول من رتل القرآن الكريم فى الكونجرس الأمريكى أثناء زيارته لأمريكا.

- وعندما استخدمت المكبرات الصوتية دعى فضيلته ليكون أول من قرأ القرآن بهذه المكبرات بالحرم المكى، وصدر مرسوم ملكى من الملك عبدالعزيز أنه كلما زار الشيخ الحرم يقوم بالقراءة فيه.

- وفى يوم الاثنين ١٦ من شهر المحرم عام ١٤٠١هـ الموافق ٢٤ من نوفمبر ١٩٨٠م وفور انتهائه من صلاة العشاء بعد عودته من الحج انتقل إلى جوار ربه الكريم، وكانت آخر قراءة له فى الحرمين المكى والمدنى.

- وقد أوصى فضيلته بثلث تركته للإنفاق منها على مشروعات البر والخير وخدمة المسجدين اللذين شيدهما بالقاهرة وطنطا، وكذلك المعهد الأزهرى الذى شيده بطنطا ومكاتب تحفيظ القرآن الكريم.

وكان من دور الشيخ فى خدمة القرآن:

١- يعتبر الشيخ أول من أحيا الجمع بين حسن الأداء لمعايير الأداء الصوتى والمحافظة على أحكام القراءة المتواترة عن رسول الله ﷺ فى العصر الحديث.

٢- هو أول من وثق المصحف الشريف توثيقا صوتيا وقد اعتبر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية هذا التوثيق معيارا للأداء.

٣- هو أول من نادى بإنشاء نقابة لقراء القرآن الكريم تراعى مصالحهم وتضمن لهم سبل العيش الكريم.

٤- نادى بإنشاء مكاتب لتحفيظ القرآن بجميع أنحاء المدن والقرى، وقام بإنشاء مكتب لتحفيظ القرآن الكريم بالقاهرة وكذلك بقرية شبرا النملة مسقط رأسه.

ومن خصائص قراءته:

تتميز قراءة الشيخ: بمتانة القراءة، ورزانة الصوت، وحسن المخارج، والعناية بمقادير المدود والغنات، ومراتب التفخيم والترقيق، وتوفية الحركات، والاهتمام بالوقف والإبتداء حسبما رسمه علماء الفن وتواتر عن رسول الله ﷺ.

وللشيخ أكثر من عشر مؤلفات فى علوم القرآن الكريم منها:

- أحكام قراءة القرآن الكريم.
- القراءات العشر من الشاطبية والدرة.
- معالم الاهتداء إلى معرفة الوقف والابتداء.
- الفتح الكبير فى الاستعاذة والتكبير.
- أحسن الأثر فى تاريخ القراء الأربعة عشر.
- مع القرآن الكريم.
- قراءة ورش عن الإمام نافع المدنى.
- قراءة الدورى عن أبى عمرو البصرى.
- نور القلوب فى قراءة الإمام يعقوب.
- السبيل الميسر فى قراءة الإمام أبى جعفر.
- حسن المسرة فى الجمع بين الشاطبية والدرة.

• النهج الجديد فى علم التجويد.

• رحلاتى فى الإسلام.

وله مقالات عديدة فى مجلة لواء الإسلام.

وله مخطوطات لباقى القراءات العشر تحت النشر.

أ.د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١- تتمه الأعلام للزركلى أ. محمد خير رمضان يوسف، جـ٢/١٦٤.

محمود سامى البارودى
(١٢٥٥ - ١٣٢٢هـ = ١٨٣٩ - ١٩٠٤م)

هو محمود سامى بن حسن حسنى بن عبد الله البارودى المصرى، أحد رواد الشعر فى العصر الحديث.

ولد محمود سامى البارودى فى عام (١٢٥٥ هجرية = ١٨٣٩م) وكانت حياته حافلة بالأحداث، شأنها فى ذلك شأن تلك الفترة الصاخبة من تاريخ مصر.

وقد ولد لأبوين من الجراكسة، أما لقب البارودى فهو نسبة إلى مدينة إيتاى البارود فى محافظة البحيرة، التى كان أحد أجداده ملتزماً لها.

وقد توفى أبوه وهو فى السابعة فكفله بعض أهله وتعهدوه بالرعاية، وقد تخرج من المدرسة الحربية فى عام ١٢٧١هـ - ١٨٥٤م وهو فى السادسة عشرة من عمره؛ ولكن الجيش قد «سُرِّح» فى عهد سعيد باشا والى مصر آنذاك، فتعرض لأول محنة يواجهها فى حياته، وكانت تسريته تتمثل فى العودة إلى الماضى فعاد إلى أجداده العرب، والعربى، كما يقول «محمد حسين هيكل» فى مقدمته لديوان الشاعر، جَدٌّ لكل من تكلم العربية، فعاش معهم وشاركهم معاركهم التى أغنته فى صباه عن معارك الحاضر الغائبة، وشاركهم كذلك كل شىء فى تلك الحياة «جدها وهزلها، حلوها ومرها، ففيه الغزل، والوصف، والحكمة» وفيه كل ما يراه الطامح الشاب جديراً بحياة الشاعر الحقة.

ولقد رأى من الأمراء فى تاريخ الأمة العربية شعراء مجيدين خلَّد الدهر شعرهم، مثل ابن المعتز، والشريف الرضى، وأبى فراس الحمدانى، بل وامرئ القيس، ولم يكترث لمن انتقده بسبب اتجاهه لكتابة الشعر، بل لامهم على تجاهلهم لتراث لغتهم الحافل.

والتحق بوزارة الخارجية، وتعلم اللغتين التركية والفارسية وقضى فترة فى الآستانة (استامبول) ثم عاد إلى مصر فى عهد إسماعيل باشا، وكان فى الرابعة والعشرين من عمره، وقد عقد العزم على أن يشارك فى النهضة التى حمل لواءها إسماعيل باشا، فزاول عمله فى الجيش وترقى فى مراتبه، ثم سافر فى بعثة إلى فرنسا وإنجلترا، ثم عاد إلى مصر وبدأ يشارك فى حملات الجيش

المصرى العسكرية التى نرى أصداءها فى هذه المختارات من الديوان، فشارك القوات المصرية فى الحملة التى قامت بها لإخماد التمرد فى جزيرة كريت، والحملة التى انضمت إلى صفوف القوات العثمانية التى كانت تحارب روسيا.

وكان الشعر همه الأول، فذاع صيته، وأحبه القراء، وكانت ملامح أسلوبه الخاص بدأت تتضح، فكان كما يقول الدكتور محمد حسين هيكل: يهتم بالمرئى أى ما يسميه «المنظور» من الأشياء، خصوصاً عندما يبتعد عن المحاكاة ويختط لنفسه طريقاً خاصاً، فبرع فى تصوير أحداث الحياة من حوله، وهى حياة قلقة مضطربة، فعاش فترة ذاق فيها حلاوة اللهو فى الشباب، وأكثر من قول الشعر فى ذلك، وإن كان ذلك لا يعدو أن يكون تمهيداً لقوله فى الأغراض الأخرى التى بهرته فى شعر القدماء.

وأبدع البارودى فى هذا اللون الذى يمكن أن نطلق عليه «شعر الشباب» قبل أن تبدأ الأحداث السياسية الجليلة فى مصر فى الاستيلاء على «شيطان» شعره، إذ ما لبثت الحركة القومية، أن تفجرت، وهب الشعب مطالباً بمعارضة التدخل الأجنبى، وإلى التثبت بالحكم النيابى والشورى، وسيلة إلى الإصلاح، وكان إن انتقلت الحركة القومية من المدنيين إلى العسكريين، ووجد البارودى نفسه يخوض غمارها موزع النفس بين ولائه للخديوى «توفيق» وبين ولائه «لمصر» وللمصريين، وهذا الموقف هو الذى جعله يرتبط بالجانبين معاً، ومن ثم لم يبرز فى الصفوف الأولى للثورة العرابية، بل ظل فى عداد الصف الثانى، ولما أخفقت الثورة وحوكم زعماؤها حكم عليه معهم لأنه شجعهم ولم يتنصل منهم. ونفى مع زملائه من زعماء الثورة إلى سيلان (سرنديب) فأقام بها أكثر من سبعة عشر عاماً كانت تصله أثناءها أنباء وفاة أحبائه، وأصدقائه، فيرثيهم، ثم يتفجر فى أعماقه الحنين إلى مصر، ويغلبه الأسى فيكتب أجمل أشعاره، وبدأت صحته تعتل وبصره يذوى، فأشفق المسئولون عليه وقرر الخديو «عباس حلمى» العفو عنه وإعادته إلى مصر، فعاد إلى مصر فى مطلع القرن العشرين، ولقى من ترحاب الناس ما عوَّضه عن سنوات الغربة، ولكن بصره كان قد ذهب، ثم وافاه الأجل فى (شوال ١٣٢٢هـ = الموافق ١٩٠٤م) تاركاً الديوان الذى لم يطبع فى حياته.

وكان للبارودى الفضل فى إحياء الشعر وتجديده، فقد كان الشعر فى عهده صورة مُشَوَّهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة؛ نظم مرتبكة، وتكلف باد، وصناعة فاشية،

ومعنى سقيم، فجلاَّه فى خاطره وصقله على لسانه، فجاء حلو اللفظ نقى العبارة. نقض البارودى شعر ابن المعتز، وأبى فِراس، والرضى، وعاد به إلى المنابع الأولى فاستخرج من مجموع تلك الأساليب أسلوبه الرائق الفخم. لذلك تحس وأنت تقرأ قصيدة من نظمه أن أرواح أولئك الفحول تحوم حول روحه، وتحلق فوق أبياته.

وما كان البارودى مبتكر معان، ولا مبتدع أساليب، ولكنه كان رائضا فوافا وصائغ قريض: قد كلف بالنغمة؛ وانصرف إلى الصنعة. فآثر المعنى الضئيل فى اللفظ الجزل، على المعنى البليغ فى اللفظ الغث، وقد أجاد وأبدع فى الفخر والحماسة والوصف.

ومن آثاره ومؤلفاته :

١- ديوان البارودى. مطبوع ويقع فى جزئين. حققه وشرحه على الجارم، وشفيق معروف وقدم له الدكتور محمد حسين هيكل.

٢ ـ مختارات البارودى. مطبوع فى أربعة أجزاء. وهو عبارة عن مختارات من الشعر العربى فى عصور الشعر المزدهرة.

أ.د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة:

١ - مقدمة ديوان البارودى، ط ١ شرح على الجارم وشفيق معروف، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٢م.

٢ - تاريخ الأدب العربى للزيات، ط ٢٤ القاهرة.

٣ - المختار من شعر البارودى، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة سنة ١٩٩٨م.

٤ - البارودى رائد الشعر الحديث، د. شوقى ضيف، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٦٤م.

٥ - الأعلام للزركلى جـ ٧/ ١٧١.

محمود شلتـــوت
(١٣١٠ - ١٣٨٣هـ = ١٨٩٣ - ١٩٦٣م)

ولد الشيخ محمود شلتوت فى منية بنى منصور مركز إيتاى البارود بمحافظة البحيرة عام ١٣١٠هـ = ١٨٩٣م. وبعد أن أتم حفظ القرآن الكريم التحق بمعهد الإسكندرية الدينى. وحصل على شهادة العالمية من الأزهر عام ١٩١٨م، وكان أول الناجحين فيها. عين مدرسا بمعهد الإسكندرية الدينى عام ١٩١٩م، ثم نقل فى عهد الشيخ المراغى (شيخ الأزهر حينذاك) مدرسا بالقسم العالى بالأزهر، وكان من مؤيدى الشيخ المراغى فى اتجاهاته لإصلاح الأزهر، وأعلن ذلك فى مقالاته فى جريدة السياسة اليومية. وعندما استقال الشيخ المراغى بعد المعارضة القوية لحركته الإصلاحية وفصل الشيخ شلتوت من منصبه فى عهد الشيخ الظواهرى، فعمل بالمحاماة أمام المحاكم الشرعية. وفى فبراير ١٩٣٥م أُعيد إلى عمله بالأزهر وعين مدرسا بكلية الشريعة، ولما عاد المراغى شيخا للأزهر عينه وكيلا لكلية الشريعة.

وقد اشترك الشيخ شلتوت ـ ممثلا للأزهر ـ فى مؤتمر القانون الدولى المقارن بمدينة لاهاى فى هولندا عام ١٩٣٧م، وقدم للمؤتمر بحثا عنوانه «المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية». وقد اختير عضوا بجماعة كبار العلماء عام ١٩٤١م، وعضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦م، ومراقبا عاما للبحوث والثقافة بالأزهر عام ١٩٥٠م، ومستشارا للمؤتمر الإسلامى ووكيلا للأزهر عام ١٩٥٧م، ثم عين شيخا للأزهر عام ١٩٥٨م، وظل فى هذا المنصب حتى وفاته عام ١٣٨٣ هـ = ١٩٦٣م.

وقد كان الشيخ شلتوت محل تقدير فى العالم الإسلامى، وزار عددا من البلاد الإسلامية ومنحته عدة دول الدكتوراه الفخرية، وأوسمة الشرف، تقديرا لعلمه، وفضله، واعترافا بمنزلته الرفيعة، ومكانته السامية.

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

لقد كان الشيخ شلتوت عالما مجددا واسع الأفق، يدعو إلى الحرية المذهبية الصحيحة

المستقيمة على نهج الإسلام، وكان يرفض العصبية الضيقة والتعصب الأعمى لمذاهب فقهية معينة. وكان يتطلع إلى تحقيق الوحدة الإسلامية، بعد أن تفرق شمل المسلمين ومزقتهم العصبيات الجنسية والفروق المذهبية والخلافات الطائفية، فبدأ جهاده فى «جماعة التقريب بين المذاهب الإسلامية». وقد كان متحمسا أشد التحمس لدعوة التقريب التى قال عنها: «إن دعوة التقريب هى دعوة التوحيد والوحدة، هى دعوة الإسلام والسلام... لقد آمنت بفكرة التقريب كمنهج قويم، وأسهمت منذ أول يوم فى جماعتها، وفى وجوه نشاط دارها بأمور كثيرة». ومن هنا أصدر فتواه الشهيرة - عندما كان شيخا للأزهر - بجواز التعبد على المذهب الفقهى للشيعة الإمامية، وهو المذهب الجعفرى، كسائر مذاهب أهل السنة. وقال: «ينبغى للمسلمين أن يعرفوا ذلك، وأن يتخلصوا من العصبية بغير الحق لمذاهب معينة، فما كان دين الله وما كانت شريعته تابعة لمذهب أو مقصورة على مذهب، فالكل مجتهدون مقبولون عند الله تعالى، يجوز - لمن ليس أهلا للنظر والاجتهاد - تقليدهم والعمل بما يقررونه فى فقههم، ولا فرق فى ذلك بين العبادات والمعاملات».

وقد كان الشيخ شلتوت فى طليعة المنادين بالتجديد والإصلاح فى الأزهر، ويعد من ألمع الناشئين فى مدرسة الشيخ محمد عبده والشيخ المراغى والشيخ عبد المجيد سليم، فقد حمل راية الإصلاح والتجديد من بعدهم، وطالب «بأن يعاد النظر فى مناهج الأزهر وكتبه على الوجه الذى تُعبر به تلك الكتب والمناهج عن النهضة الحديثة»، وقال: إن الذى نريده يعد انقلابا، ولكنه انقلاب محبب إلى النفوس الغيورة على ماضيها المتطلعة إلى مستقبلها. وقد وجدت دعوته آذانا صاغية من قادة الثورة حينذاك، فصدر قانون تطوير الأزهر عام ١٩٦١م فى عهد مشيخته للأزهر.

وقد دعا الشيخ شلتوت فى تفسيره للقرآن الكريم، إلى ضرورة تجنب أمرين فى التفسير وقع فيهما الكثيرون وكان ينبغى أن يظل القرآن بعيدا عنهما.

الأمر الأول: هو استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والمذاهب فى المجتمع الإسلامى، والتنافس فى العصبيات السياسية والمذهبية، حيث امتدت أيدى أصحاب الفرق المختلفة إلى القرآن يؤولون آياته لتتوافق مع مذاهبهم، أو يخرجونها عن بيانها الواضح لكيلا تصلح لمذاهب خصومهم، وبذلك جعلوا القرآن تابعا بعد أن كان متبوعا ومحكوما عليه بعد أن كان حاكما.

أما الأمر الثانى: فهو استنباط العلوم

الكونية والمعارف النظرية الحديثة من القرآن.

ويرى الشيخ شلتوت أن هذا اتجاه خاطئ فى تفسير القرآن لعدة أسباب: **أولها:** أن القرآن أنزله الله ليكون كتاب هداية للناس، وليس كتابا يتحدث إليهم عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف، **وثانيها:** أن هذا الاتجاه يحمل أصحابه والمغرمين به على تأويل القرآن تأويلا متكلفا، يتنافى مع الإعجاز ولايسيغه الذوق السليم. **وثالثها:** أنه يعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم فى كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولاالرأى الأخير. فقد يصح اليوم فى نظر العلم ما يصبح غدا من الخرافات - فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها، وتحمل تبعات الخطأ فيها، ولأوقفنا أنفسنا بذلك موقفا حرجا فى الدفاع عنه.

ويشير الشيخ شلتوت فى هذا الصدد إلى أنه: «حسبنا أن القرآن لم يصادم - ولن يصادم - حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول».

وقد كان الشيخ شلتوت فقيها مجتهدا صاحب رأى، وله فتاوى جريئة فى المعاملات المالية التى لم تكن معروفة لدى الفقهاء السابقين. فقد أفتى بجواز الأرباح المحددة بنسب للأسهم فى الشركات التعاونية، وقال: إن هذه الشركات تعد نوعا جديدا من الشركة أحدثه أهل التفكير فى طرق الاقتصاد والاستثمار، وليس فيه ظلم لأحد أو استغلال لحاجة أحد، كما أباح الأرباح المحددة التى تدفعها مصلحة البريد لأصحاب الأموال المودعة لديها فى صناديق التوفير، ورأى أن هذا الربح لا يعد من الربا المحرم. فقد قصد بهذا الإيداع حفظ مال المودع من الضياع، وتعويد نفسه على التوفير والاقتصاد من ناحية، ومن ناحية أخرى قصد به إمداد المصلحة بزيادة رأس مالها ليتسع نطاق معاملاتها وتكثر أرباحها فينتفع العمال، والموظفون، وتنتفع الحكومة بفاضل الأرباح. وقد بين الشيخ شلتوت أن الربا المحرم هو الربا الذى «حُدِّد بالعرف الذى نزل فيه القرآن، بالدَّين يكون لرجل على آخر، فيطالبه به عند حلول أجله فيقول له الآخر: أخِّر دينك وأزيدك على مالك. فيفعلان ذلك (وهو الربا أضعافا مضاعفة) فنهاهم الله عنه فى الإسلام». وهذا النوع من الربا ينطوى على ظلم عظيم واستغلال فاحش لحاجة الفقير. (الفتاوى ٣٤٨ وما بعدها).

مؤلفاتـــــه :

تحظى مؤلفات الشيخ شلتوت بالانتشار الواسع فى شتى أنحاء العالم العربى والإسلامى، ولاتزال حتى الآن يعاد طبعها فى

فترات زمنية متقاربة، وقد طبع بعضها للمرة السادسة عشرة. وأهم هذه المؤلفات مايلى:

١ - الإسلام عقيدة وشريعة - دار الشروق ١٩٩٠م (الطبعة السادسة عشرة).

٢ - من توجيهات الإسلام - دار الشروق ١٩٨٧م (الطبعة الثامنة)، وقد جاء العنوان الفرعى لهذا الكتاب على النحو التالى: «تصحيح بعض المفاهيم الدينية - توضيح موقف الإسلام من بعض المشاكل - الأخلاق الإسلامية - ضروب من العبادات».

٣ - تفسير القرآن الكريم - الأجزاء العشرة الأولى - دار الشروق ١٩٨٨م (الطبعة الحادية عشرة).

وهذا التفسير ليس مثل التفاسير المعتادة للقرآن، والتى تفسر القرآن آية آية، وإنما هو تفسير عام يلجأ إلى إبراز جوهر كل سورة، وما تهدف إليه، مفصلا القول فى بيان أبرز القضايا التى اشتملت عليها السورة.

٤ - الفتاوى: دراسة لمشكلات المسلم المعاصر فى حياته اليومية العامة - دار الشروق ١٩٩١م (الطبعة السادسة عشرة).

وللشيخ شلتوت بالإضافة إلى ذلك بحوث أخرى أهمها: «المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية». وقد نال بهذا البحث عضوية جماعة كبار العلماء. وله أيضا: الإسلام والعلاقات الدولية فى السلم والحرب.

وفضلا عن ذلك كان الشيخ شلتوت صاحب نشاط ملحوظ فى الحياة الثقافية الدينية عن طريق العديد من المحاضرات التى كان يلقيها فى المنتديات العامة، والأحاديث الإذاعية، والمقالات الكثيرة فى الصحف والمجلات.

أ. د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ - مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن. تأليف على عبد العظيم. جـ ٢، القاهرة ١٩٧٨م.
٢ - الأزهر فى ألف عام للدكتور أحمد محمد عوف. من مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ١٩٧٠م.
٣ - تراجم الأعلام المعاصرين: تأليف أنور الجندى. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٠م.

محمود محمد قاسم

(١٣٣١ - ١٣٩٣هـ = ١٩١٣ - ١٩٧٣م)

هو محمود محمد قاسم، واحد من كبار الرواد المعاصرين فى الفكر الفلسفى فى العالم الإسلامى والعربى، ولد فى ٣ من يوليو سنة ١٩١٣م بقرية «كفر دنوهيا» التابعة لمركز الزقازيق محافظة الشرقية بمصر، كان هو الابن الرابع من بين ثمانية أبناء، كان والده مدرسا بمدرسة المعلمين بالزقازيق، وهو من خريجى دار العلوم، توفى والده وهو فى التاسعة من العمر، تلقى تعليمه الأولى بالزقازيق بالمدرسة الابتدائية حتى وصل إلى السنة الرابعة ثم تركها وعاد إلى قريته (كفر دنوهيا) حيث حفظ القرآن الكريم تنفيذا لإرادة والده لكى يلتحق فيما بعد بدار العلوم.

التحق بعد ذلك بالمدرسة التحضيرية بالزقازيق ومكث بها عامين، ثم التحق بمدرسة المعلمين ولكن ناظر المدرسة أوصى بخروجه منها لما لمسه فيه من حدة الذكاء والطموح الكبير فى فكره وسلوكه، فخرج منها ليلتحق بتجهيزية دار العلوم تحقيقا لرغبة والده، ثم التحق بدار العلوم حيث حصل على الليسانس بتفوق سنة ١٩٣٧م.

عين مدرسا ابتدائيا بالواحات الخارجة لمدة شهرين، ثم اختير للبعثة إلى فرنسا فى ٧ من يناير سنة ١٩٣٨م وكان يرافقه فى البعثة مجموعة من أعلام مصر : الشيخ محمد عبد الله دراز، الشيخ عبد الحليم محمود، الشيخ محمد الفحام، وكلهم من شيوخ الأزهر الكبار، وفى فرنسا حصل على مجموعة من الدبلومات فى علم الاجتماع سنة ١٩٣٩م، وفى علم النفس سنة ١٩٤٠م، وفى الفلسفة والمنطق سنة ١٩٤١م، وفى تاريخ الفلسفة سنة ١٩٤٢م وفى فقه اللغة سنة ١٩٤١م، ثم حصل على دكتوراه الدولة بمرتبة الشرف الأولى سنة ١٩٤٥م عن «نظرية المعرفة عند ابن رشد وتأويلها لدى توما الأكوينى»، ثم عاد من البعثة فى ١٩٤٥/١١/٣٠م حيث عين مدرسا فى دار العلوم، وأخذ يترقى إلى درجة أستاذ مساعد سنة ١٩٥٠م، ثم إلى درجة أستاذ سنة ١٩٥٦م، ثم عين عميدا لدار العلوم فى ١٩٦٢/٦/٣٠م وظل يشغل هذا المنصب حتى ١٩٧٢/٦/٢٩م.

عاش محمود قاسم حياته كلها بين متعلم ومعلم، وكان اهتمامه كله تجسيدا لرسالة أستاذ الجامعة الجاد فى عمله الرافض لأسلوب الفوضى، كلماته محددة المعانى ليست بالفضفاضة، رافض للتزيد والمتاجرة بالشعارات الزائفة، كان يعتز بشخصيته وبرأيه العلمى الذى يرى فيه تصويبات لكثير من أخطاء المستشرقين الذين يعاملهم من منطلق الندية وليس الدونية، تراه فتهابه وتخشاه، وتتكلم معه فتكبره وتحترمه، كان يكره المجاملات، يأبى الضيم، وينتصر للضعيف، ويعتز بالحق ويدافع عنه، ويمتاز بالصراحة والوضوح، وقد دفع كثيرا من حياته ثمنا لاعتزازه بنفسه ووضوحه، عارضه كثير من أصحاب الأهواء والمصالح ولكنه لم يأبه بذلك، وكانت مدة عمادته لدار العلوم أزهى عصور الكلية نشاطا وعلما.

كان صديقا صدوقًا لكثير من العلماء من أعلام عصره، وقد أفادت الكلية من هذه الصداقات.

تميزت مدرسته العلمية بتعدد الروافد، كما كان تلاميذه من كافة الاتجاهات والأيدولوجيات ولم يجل إلا قيمة العلم والبحث العلمى.

كان مهتما بفكر ابن رشد وتراث المعتزلة لما فيهما من مظاهر الاهتمام بالعقل والمنهج العقلى، وقد بدا ذلك واضحا فى مؤلفاته ومحاوراته العلمية، كذلك كان شغوفا بإظهار محاسن الإسلام والحضارة الإسلامية وبيان فضلها على الغرب، خاصة آثار ابن رشد فى بعث النهضة الأوروبية المعاصرة، كان مهتمًا بالبحث فى أسباب تدهور المسلمين والطريق إلى الإصلاح، ولذلك كان كتابه «الإسلام بين أمسه وغده» يمثل منهجا قائما فى الإصلاح، وفى رأيه أن صلاح العالم والحاكم هى البداية الضرورية للإصلاح الحقيقى.

اختلف مع د/ عبد الواحد وافى، وكان الأخير معجبا «بدوركايم» الفيلسوف الفرنسى معتنقا رأيه مدافعا عنه فى أن الإنسان ابن بيئته تشكله البيئة كما تشاء، أما محمود قاسم فكان يرفض هذا الرأى ويرى أن دوركايم أحادى النظرة، منكر لدور الأنبياء والمصلحين، مكذب للرسالات السماوية. وكان يدور بينهما حوار حاد حول هذا الموقف مما أثرى الحركة الفكرية بين تلامذتهما فى هذه الفترة.

وكان يقول لنا : إن الإفراط فى التسامح الذى يتميز به العالم الإسلامى كان سببا فى ضياع حقوقهم أمام العالم.

تعتبر مؤلفاته مرجعا أساسيا لدارسى الفلسفة الإسلامية من أبناء هذا الجيل، ومن يأتى بعدهم.

ومن أهم آرائه فى النهضة وعناصرها الضرورية : أن الحرية ضرورة إنسانية وفريضة دينية لابد من تحقيقها ومحاربة الاستبداد السياسى. وأن الحضارات الإنسانية تحمل معالم العقائد لأبنائها الذين يدينون بها ولا حضارة بلا عقيدة. وأن الإسلام قوى بنفسه ضعيف بأبنائه. وأن افتقاد الجدية فى السلوك الجماعى للمسلمين أضاع الحاضر من بين أيديهم. وأنه لابد من الانفتاح على الحضارة الغربية، نفيد منها كما أفادت من حضارتنا. وأن العلم ودوره فى حياة المسلمين ينبغى أن يحتل مكان الأولوية.

تنوع نشاط محمود قاسم العلمى بين التأليف والترجمة وتحقيق التراث بالإضافة إلى المؤتمرات والمحاضرات الأكاديمية والندوات الثقافية.

(أ) فى مجال التأليف :

١ - فى النفس والعقل لفلاسفة الإسلام والإغريق.

٢ - المنطق الحديث ومناهج البحث.

٣ - ابن رشد وفلسفته الدينية.

٤ - مقدمة فى نقد مدارس علم الكلام.

٥ - نصوص مختارة من الفلسفة الإسلامية.

٦ - الإسلام بين أمسه وغده.

٧ - جمال الدين الأفغانى فى حياته وفلسفته.

٨ - الإمام عبد الحميد بن باديس.

٩ - دراسات فى الفلسفة الإسلامية.

١٠ - الخيال فى مذهب محيى الدين بن عربى.

١١ - ابن عربى وليبنز الألمانى.

١٢ - تربية الطفل بين الغزالى وجان جاك روسو.

(ب) فى الترجمة (من الفرنسية إلى العربية) :

١ - التطور الخالق: هنرى برجسون.

٢ - هنرى برجسون. حياته وفلسفته. أندريه كرسون.

٣ - فلسفة أوجست كونت: ليفى بريل.

٤ - اتجاهات الفلسفة المعاصرة: إميل بريبه.

٥ - التربية الوظيفية. إدوارد كلاباريد.

٦ - ميلاد الذكاء عند الطفل.

٧ - قواعد المنهج فى علم الاجتماع، إميل دوركايم.

٨ - مقدمة فى علم النفس الاجتماعى، شارل بلوندل.

٩ – مبادئ علم الاجتماع الدينى. روجيه باستيد.

١٠ – الأخلاق وعلم العادات الأخلاقية. ليفى بريل.

١١ – تاريخ الأدب الفرنسى. جوستاف لانسون.

(جـ) فى تحقيق التراث :

١ – الشفاء، لابن سينا.

٢ – مناهج الأدلة فى عقائد الملة، لابن رشد.

٣ – تلخيص منطق أرسطو، لابن رشد.

(العبارة ـ الشعر ـ الجدل ـ البرهان ـ المقولات).

٤ – المغنى فى أبواب التوحيد والعدل، للقاضى عبد الجبار

أ.د. محمد السيد الجليند

مراجع للاستزادة :

١ – محمود قاسم كما عرفته، د/ إبراهيم بيومى مدكور.

٢ – ذكرياتى عن محمود قاسم، د/ الظاهر مكى.

٣ – حياة محمود قاسم فى سطور، د/ حامد طاهر.

٤ – صورة البطل أستاذا فى الجامعة، د/ السعيد بدوى.

٥ – محمود قاسم فى صحبة ابن رشد، د/ محمد السيد الجليند.

٦ – النهضة فى فكر محمود قاسم، د/ عبد الحميد مدكور.

٧ – محمود قاسم والدراسات الكلامية فى مصر، د/ حسن الشافعى.

مدحت باشا
(١٢٣٨ - ١٣٠١هـ = ١٨٢٢ - ١٨٨٣م)

هو مدحت باشا (أو أحمد مدحت) ابن حاجى حافظ أشرف أفندى، أبو الأحرار، العثمانى. ولد فى اسطنبول فى عام ١٢٣٨هـ الموافق ١٨٢٢م. وتوفى فى سنة ١٣٠١هـ الموافق ١٨٨٣م.

وكان من أبرز رجال الإصلاح الاجتماعى والسياسى فى نهاية عهد الدولة العثمانية، تمتع بفكر رفيع المستوى، وبقدرات إدارية متميزة، وبفهم سياسى عصرى، وكان فكره قادرًا لو أن الظروف ساعدته على أن يحفظ للدولة العثمانية روح الوجود والحياة، بما يمكن من استمرار الخلافة الإسلامية فى العصر الحديث، لكن الظروف التاريخية كانت أقوى بكثير من إرادته وطموحاته.

وكان من رجال الحكم فى الدولة العثمانية، وقد وصل بفضل كفايته الشخصية وقدراته إلى مراحل متقدمة من دولاب الحكم، ودفعه اقتناعه إلى المشاركة فى خلع السلطان عبد العزيز، وأصبح رئيسا للوزراء فى العهد التالى أى فى عهد السلطان عبد الحميد، وبدأ من موقعه هذا فى سلسلة من الإصلاحات السياسية والاجتماعية، كان من أبرزها إعلان الدستور الذى تضمن مبدأ مشاركة المواطنين جميعا فى الحكم، من غير تفرقة بين عنصر أو دين، كما واجه الفساد المتفاقم، لكنه ووجه بتحالف طبيعى غير مكتوب بين كل أصحاب المصالح، بدءً من السلطان عبد الحميد الذى فهم بعض جوانب الإصلاح السياسى على أنها وسيلة للحد من إرادته على الرغم من مسئوليته، كما رفع رجال الدين شعار منافية التشريعات المدنية للدين الإسلامى، واستشعر ذوو النفوذ قرب نهاية نفوذهم القائم على التمكن من مراكز صنع القرار فى دولة استبدادية قديمة، ولم تكن الدول الأجنبية لترحب بالإصلاح فى إمبراطورية كبرى كان الكل يتملظ للحصول على نصيبه منها، وفى المقابل لم تكن للقوى الإصلاحية المؤمنة بأفكار مدحت باشا قدرة فاعلة من أجل الانتصار عليه، ولا حتى الحفاظ عليه فى موقعه، بل إن الإصلاحيين من ذوى الأفكار المختلفة عن أفكاره لم يكونوا على استعداد للتلاقى معه من أجل هدف مشترك.. وهكذا

فقد مدحت باشا منصبه بسرعة، ثم تطور الأمر إلى محاكمة، وقرار بالنفى، ثم إلى ما هو أقصى من هذا وهو الاغتيال خنقا وهو فى منفاه.

كان مدحت باشا متطوراً، حريصا على إفادة المجتمع الإسلامى من وضعيته المتميزة فى دولة كبيرة، وإفادته فى نفس الوقت من عناصر النهضة الأوروبية المعاصرة ومؤسساتها وآليات الحكم والإدارة، وكان مدحت باشا يرى على سبيل المثال: أن الشورى التى أمر بها الإسلام، تقتضى وجود ما يسميه الأوربيون بالبرلمان، وكان يرى أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى أمر بهما الإسلام، يقتضى ما تسميه الديمقراطيات الغربية، إتاحة قدر أكبر من الحريات: حرية الصحف فى النقد، وحرية الأفراد فى الكتابة والتأليف والنشر، وحرية المجتمع فى إبداء الرأى.

ولهذا كان مدحت باشا حريصا على إعلان الدستور بمجرد توليه رئاسة الوزارة، وقد انعكست الإصلاحات السياسية التى بدأها على سير الأمور والحياة السياسية فى كثير من الولايات العثمانية فى ذلك الحين، ومنها مصر على سبيل المثال، كما أن سيرة حياته وإصلاحاته وتضحيته من أجلها، براحته ومجده ومنصبه ثم بحياته تحولت إلى نموذج بارزا فى ضمير أمته، مما مهد للثورات التالية داخل الدولة العثمانية وإن كانت حركة التاريخ لم تهئ لهذه الثورات والحركات الاصلاحية أن تصب فى مصلحة الدولة الإسلامية. نتيجة لتخلف حضارى طال عهده ولتآمر أجنبى ذكى تمكن من تحقيق أهداف إمبريالية لا تزال الأمم الإسلامية تعانى منها إلى الآن.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى جـ ١٩٥/٧.

٢ - الأدب العربى الحديث عمر الدسوقى ٣٢١.

٣ - دراسات وتراجم عراقية ١٢٦.

٤ - آثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية - مركز مطبوعات اليونسكو - القاهرة.

٥ - تاريخ العلم ودور العلماء فى تقدمه، د. عبد الحليم منتصر، دار المعارف ط الثامنة ١٩٩٠م.

مــراد هوفمـــان
(١٣٥٠ - ٠٠٠ هـ = ١٩٣١ - ٠٠٠ م)

هو مفكر ألمانى مسلم، اسمه الحقيقى (ويلفريد هوفمان)، ولد مراد هوفمان فى ٦ من يوليه سنة ١٩٣١م لأسرة كاثوليكية فى اشافينبرج بألمانيا، حيث أمضى سنواته الأولى معاصرًا للحرب العالمية الثانية، فشاهد ويلات الحرب، وصراع التكنولوجيا الحديثة، وانهيار القيم الإنسانية، بدأ دراساته الجامعية سنة ١٩٥٠م فى Union College جامعة هارفارد.

عمل هوفمان فى الإدارة الخارجية الألمانية من سنة ١٩٦١م حتى سنة ١٩٩٤م وتخصص فى مسائل الدفاع النووى، كانت آخر مناصبه مدير استعلامات الناتو فى بروكسل من سنة ١٩٨٣ ـ ١٩٨٧م، ثم سفير ألمانيا فى الجزائر سنة ١٩٨٧ ـ ١٩٩٠م، ثم سفير ألمانيا فى المغرب من سنة ١٩٩٠ ـ ١٩٩٤م. عكف على دراسة القرآن، وأيقن أن اعتناق الإسلام هو النتيجة المنطقية الوحيدة لبحثه عن الحقيقة النهائية للحياة، واختار لنفسه اسم (مراد)، واصبح الآن هو (مراد هوفمان)، اعتنق الإسلام سنة ١٩٨٠م، وأدى العمرة سنة ١٩٨٢م، ثم الحج سنة ١٩٩٢م.

كتب فى سنة ١٩٨٥م كتابه (يوميات ألمانى مسلم)، ثم طبع بالإنجليزية سنة ١٩٨٧م فى كولون، ثم أعيد طبعه بالألمانية سنة ١٩٩٠م، وبالفرنسية سنة ١٩٩٠م بالجزائر، ثم بالفرنسية مرة أخرى فى الرباط سنة ١٩٩٣م، وأخيرًا طبع بالعربية سنة ١٩٩٣م بالقاهرة، وقام بترجمته عباس رشدى العمارى.

وله كتاب (الإسلام كبديل) نشر بالألمانية سنة ١٩٩٢م، ثم أعيد طبعه بعدها بعام فى ميونخ وترجم إلى الإنجليزية والعربية عام ١٩٩٣م. وقد أثار هذا الكتاب اهتمام ألمانيا والعالم، ويعد هذا الكتاب مرافعة مثيرة ومتميزة، ودفاعًا عن الإسلام باعتباره كبديل للأساليب والمبادئ المتبعة فى الحياة البشرية، خاصة بالنسبة للغربيين.

استند الكاتب إلى المبادئ الكلاسيكية الإسلامية، حيث اكتسب خبرة فى جغرافيات

واجتماعيات العالم العربى من خلال عمله دبلوماسيا وسفيرًا لألمانيا فى بلدان عربية إسلامية، وزياراته المختلفة لعدد من البلاد الإسلامية، وتعمد الكاتب التطرق إلى جميع الموضوعات الحساسة لإزالة الحواجز، وتبديد صورة الإسلام العدو، التى افترضها الغرب الأوروبى على مر العصور، وتكمن أهمية الكتاب فى توضيح الأبعاد الحقيقية للدين الإسلامى أمام الفكر الغربى.

وله كتاب الإسلام عام ٢٠٠٠م ترجمة عادل المعلم، وطبع بالقاهرة سنة ١٩٩٥م، ومن مؤلفاته أيضا «طريق فلسفى إلى الإسلام»، «دور الفلسفة الإسلامية».

يعتبر مراد هوفمان من أبرز ناقدى الغرب فقد تعرف على الثقافة الأوروبية بشقّيها الدينى والفلسفى، وعرف عقم الفكر الاجتماعى الغربى، وما ينطوى عليه من إنكار لكل القيم المتعلقة بمصير الجانب الروحانى فى الإنسان، ورأى أنه بعد إفلاس النظام والعقيدة الشيوعية منذ عام ١٩٩٠م، وعلامات الخطر بأزمة روحية أخلاقية فى الغرب تأخذ فى الظهور، وأن المسيحية تمر بتغيير فى المشروع، وأن ما كان يُسَمَّى بمشروع التحديث أخذ يتساقط، وأخذ مفكرو الغرب يشكّون فى أن افتراضاتهم الأساسية التى افترضوها لمشروع التقدم والتنوير صحيحة.

فقد تشرَّب الغرب، واستنشق كارل ماركس، وتشارلز داروين، وفردريك نيتشة، وسيجموند فرويد، وكل الفلسفة الوضعية والعلمية، وأصبحت الأكثرية لا تستريح لفكرة الله، وصار الدين عندهم خرافة، وأفيون الشعوب، وعلامة على خداع النفس، وهو ما حذر منه هوفمان ورأى أنه السبب لانهيار الغرب، لأنه نوع من الإلحاد والشرك الجديد، ومن هنا كان صراع أوروبا مع الإسلام ليس من جهة مواجهة بين دين وآخر، ولكن مواجهة بين مواقف مختلطة وثنية جديدة وبين دين إسلامى يعتنقه أكثر من مليار مسلم.

يشير مراد هوفمان إلى أن الإسلام كان إبان الصراع بين العالم الغربى والشيوعية يستطيع أن يعتبر نفسه الطريق الثالث المباينة لهما، أى أنه الخيار الحر المستقل عن كليهما لفهم العالم والتعامل معه عقائديا، أما اليوم فإن الإسلام يطرح نفسه بديلا لكلا النظامين، وذلك لتوفير الحياة على أفضل وجه، وتذليل مشكلاتها المستفحلة حيث يعتقد الغرب بصفة عامة أن أسلوب الحياة الأمريكى سيفرض نفسه على العالم.

وأصبح جنرالات الناتو يضعون فى حسابهم أن أكثر المواجهات العسكرية احتمالا فى المستقبل لن تكون بين الشرق والغرب. ولكن بين الشمال والجنوب، فالإسلام - فى

نظرهم - هو العدو المتنامى المرتقب، هذا بالنسبة للساسة والعسكريين، أما بالنسبة للمواطن الغربى، فإن المعلومات الصحيحة عن الإسلام تنقصه، والمرء عدو ما يجهله، والجهل يورث الكراهية والبغضاء، وعدم المعرفة الذى ينجم عنه الخوف قد يؤدى إلى تشويه حضارة ما، أو تقديم صورة مزيفة لها، وهذا ما انطبق على الإسلام أمام أعين المواطن الغربى، ومن هنا رأى ضرورة توضيح حقيقة الإسلام بدءًا من المدارس الثانوية؛ لتصحيح المعلومات التى يتلقاها الطلاب، وعمل فحص للكتب المدرسية فى الدنمارك وفنلندا وهولندا وإيطاليا، لإزالة ما بها من مزاعم تشوه صورة الدين الإسلامى، ومعالجة التحامل الغربى ضد الإسلام، وضرورة بناء جسور متينة بين الشمال الغربى والجنوب الإسلامى.

وقد أرجع مراد هوفمان العداء الأوروبى للإسلام لعدة أسباب، منها:

(ا) الصراع الدموى بين الأوروبيين والمسلمين فى الصراع السياسى والتجارى للسيطرة على البحر المتوسط.

(ب) عداوتهم للإسلام لاعتقادهم أن محمدا ﷺ ليس نبيًا.

(جـ) اعتقادهم بأن الإسلام دين قتال وعدوان، وأنه انتشر بالقوة العسكرية.

ويأخذ هوفمان فى تفنيد هذه الحجج، ويرى أن أهمها الحجة الثالثة القائلة بأن الدين الإسلامى انتشر فى أوروبا بقوة السيف، فيقول : «لا يستطيع العالم المسيحى أن يعترف ببساطة أن الإسلام انتشر، لأنه، حرر الشعوب التى كابدت الحكم القيصرى والبابوى والكسروى، وأن كثيرًا من المسيحيين الذين ظلمتهم مجتمعاتهم رحبوا بالإسلام؛ وهجر الناس الكنائس أفواجًا، ودخلوا فى الإسلام. وما هذا فما زال العالم الغربى مُصِرا على الأسطورة التى اخترعها وصدَّقها بأن الإسلام انتشر بالسيف والنار، وأصبحت إدانة الإسلام جزءًا لا يتجزأ من العقلية الغربية، التى تظهر فى صور كثيرة منها تطبيق المعايير المزدوجة، ويكفى دليلا على ذلك أن الغرب يكيل بمكيالين فى قضية الإرهاب، فإذا هاجم إرهابى من خارج العالم الإسلامى هدفًا جاءت تقارير الإعلام أنه مقاتل أو محارب، ولا نسمع مطلقا لقب (متعصب كاثوليكى) أو (متعصب اشتراكى)، أما إذا ألقى شخص من الشرق الأوسط قنبلة فينسب العمل لمسلم متعصب، حتى لو كان ذلك العربى مسيحى أو بعثى ملحد.

ويشير هوفمان إلى أن العلاقة الطويلة بين الغرب والإسلام، لم يصحبها معرفة كنه الإسلام وأن فلاسفته وعلماءه ساهموا بشكل

كبير فى صنع الحضارة الغربية، وأن دراسات المستشرقين كانت فى أغلبها غير منصفة، كان البعض منهم ينظر إلى الإسلام إما بعيون قساوسة مبشرين بالمسيحية مثل جب، أو علم الاجتماع الماركسى مثل رودنسون، أو بطريقة الانتربولوجى المتخصص فى الأعراق البشرية، ويعتبر المسلمين شعبًا بدائيا يرى التعجيل بدراسته قبل انقراضه، وكان معظم المستشرقين بوعى أو بغير وعى أداة لخدمة الاستعمار، ومنهم من كان جاسوسا للغرب. بالفعل، ولكن ظهر أخيرًا اتجاه آخر متعاطف مع الإسلام حاول تصويب صورة الإسلام لدى الأوروبيين.

يؤكد د. مراد هوفمان أن المتأمل البعيد الرؤية يرى أن الزحف الإسلامى فى القرن الحادى والعشرين صار مسيطرا وممكنا انتشاره دينًا لأغلبية البشر، وهذا ما تؤكده مجريات الأمور، وقد أصبح حقيقة واقعية فهو لا يطرح نفسه بديلا اختياريا للمجتمعات الغربية، بل إنه بالفعل هو البديل الوحيد الذى سينقذ إنسان الغرب من حالة التدهور الأخلاقى والاجتماعى والفكرى.

فالإسلام يحقق للمسلم ألوانًا من الحياة السعيدة، التى تتحقق فعلا من اتباع تعاليم هذا الدين، عندما يحرم المسلم على نفسه شرب الخمر، وأكل الخنزير، وباقى المحرمات، ويتطهر ويتوضأ للصلاة مؤديًا سائر الشعائر، ثم يشرح آثار ذلك كله على حياة الإنسان بحيث ينشرح صدره وتتحقق الصحة الجسمية والنفسية، ويتخلص من آفات حضارة الغرب، وأشار هوفمان إلى اتخاذ الإسلام بديلا للانهيار الغربى.

وأخذ يلقى محاضرات عن الإسلام فى عدد من المدن الأمريكية، وصرح فى مؤتمر (الإسلام والغرب) الذى عقد فى القاهرة سنة ١٤١٨هـ/١٩٩٧م أن فرصة الإسلام فى الانتشار فى أمريكا أفضل بكثير من فرصته فى أوروبا، حيث ينتشر الإسلام بسرعة، حتى أنه من بين كل خمسة أطباء فى أمريكا يوجد طبيب مسلم.

ويعلِّل هوفمان أسباب تدهور العالم الإسلامى ويرجعها إلى أسباب، منها: سقوط مراكز الحضارة الزاهرة فى قرطبة سنة ١٢٣٦هـ وفى بغداد سنة ١٢٥٨هـ ولم يسترد العالم الإسلامى حتى اليوم قواه.

السبب الثانى إنه منذ القرن الرابع عشر استقر لدى الجمهور أن الشريعة والعلوم الإسلامية تعلو ولا يعلى عليها، وأن السلف الصالح القريب من المصادر الأولى قد أحاط علمًا بكل شىء، وقتله بحثا وفهمًا، مما أدى إلى حالة من الركود والجمود غريبة عن

الإسلام، والسبب الثالث، وهو فى نظره أخطر الأسباب، وهو ليس موجوداً داخل العالم الإسلامى بل خارجه فى العالم الغربى، الذى أصبح المذهب العقلى والعلمى لا يعترف إلا بالعقل مصدرا للمعرفة، وصارت الجماهير هناك تعيش نوعًا من الإلحاد الساذج.

ويضع هوفمان للمسلمين طريقًا للإصلاح، ومجموعة من المقترحات التى إذا استخدمت ستهيئ للإسلام أعظم الفرص، ليصبح ديانة العالم الأولى فى القرن الحادى والعشرين، واقترح وجوب الإصلاح فى المجالات الآتية: التعليم والتكنولوجيا، فك قيود المرأة، حقوق الإنسان، نظرية الدولة والاقتصاد، محاربة السحر والخرافات، العمل فى تطوير مجال الاتصالات، تقديم الإسلام كنظام شامل لحقوق الإنسان، والتمييز الواضح بين الإسلام كديانة والإسلام كحضارة، توضيح السنة الصحيحة من غيرها، وأن نتوقف عن الخلط بين المقاصد الإسلامية الرئيسية وغيرها الثانوية، وتوضيح بعض الممارسات التى أصلها العادة وليس الدين، إذ قد تكتسب بعض العادات نوعًا من الشرعية لطول فترة استمرارها، ومنها العادات التى تبطل حرية المرأة التى خوَّلها القرآن للمرأة.

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١- هوفمان (مراد): يوميات ألمانى مسلم، ترجمة عباس رشدى العمارى، مركز الأهرام للترجمة والنشر، القاهرة سنة ١٩٩٢م.

٢- هوفمان (مراد): الإسلام كبديل، ترجمة د. غريب محمد غريب، مؤسسة العلم الحديث بيروت ط١ سنة ١٩٩٣م.

٣- هوفمان (مراد): الإسلام عام ٢٠٠٠ ترجمة عادل المعلم، دار الشروق، القاهرة بيروت سنة ١٩٩٥م.

٤- سكويه (روجيه دوبا): إظهار الإسلام، مكتبة الشروق، القاهرة سنة ١٩٩٤م.

٥- حلمى (محمد): علماء الغرب يدخلون الإسلام، النهضة العربية للصحافة والإعلان، القاهرة سنة ١٩٩٤م.

٦- حلمى (مصطفى): صيحة مسلم قادم من الغرب، دار الدعوة بالإسكندرية.

٧- حلمى (مصطفى): الفكر الإسلامى فى مواجهة الغزو الثقافى فى العصر الحديث. دار الدعوة. القاهرة سنة ١٩٩٨م.

المسعـــودى
(٠٠٠ - ٣٤٦هـ = ٠٠٠ - ٩٥٧م)

على بن الحسين بن على، أبو الحسن المسعودى، من ذرية عبد الله بن مسعود، أقام بمصر وتوفى فيها عام ٣٤٦هـ الموافق٩٥٧م.

عالم موسوعى فذ، يعتبر بمثابة أول المجددين بين علماء التاريخ والجغرافيا المسلمين، ففى التاريخ كان المسعودى أول من حرر كتابة التاريخ من النمط الذى كان سائداً قبله برواية التاريخ بالأسانيد والمصادر على نحو ما كان يفعل الطبرى مثلاً متأثراً (فى كتابة التاريخ) بأسلوب رواية الأحاديث النبوية الشريفة الملتزم بذكر المصادر والإسناد بطريقة العنعنة، كما أنه أول من حرر التاريخ من القالب الدينى وجعله علما مستقلاً، وقد أسدى المسعودى إلى علم الجغرافيا فى الحضارة الإسلامية فضلاً مماثلاً حيث أضفى عليها النزعة المعرفية والابستمولوجية وجعل طابعها معرفيا بحتا بعد أن كانت أقرب إلى نوع من أنواع الجغرافيا الإدارية مرتبطة فى المقام الأول بتنظيم البريد وتحصيل الخراج. وقد تمكن المسعودى من الوصول إلى هذين الانجازين بفضل عقلية فذة نادرة تزودت فى شبابها بالتراث الأدبى والعلمى وراجعت هذا التراث أكثر من مرة، كما امتازت بحس معرفى ناقد، وبقدرات بيانية عالية فضلاً عما أتيح له من رحلات عديدة براً وبحراً، حتى ليمكن القول بأنه زار كل الأوطان والبلاد المعمورة فى عصره. وهكذا تكونت له عقلية متفردة سابقة على عقليات أسلافه ومعاصريه، وكان زاده المعرفى والموضوعى والفلسفى عميقاً واسعاً مما جعله فى كتاباته أديبا قاصا بارعا سلس الأسلوب دون أن ينشغل بالمحسنات أو شكلية الكتابة، وكتابه «مروج الذهب» شاهد على قدراته البيانية وعلى معارفه الواسعة التى انتظمت التاريخ الطبيعى والأنثروبيولوجى وعلوم الدين والطب فضلا عن التاريخ والجغرافيا وطبائع الشعوب وتاريخ العقائد، وقد وصف المستشرق البريطانى هاملتون جب هذا الكتاب بأنه أمتع كتاب فى اللغة

العربية، وربما كان السبب فى هذا راجعا إلى فيض النوادر التى احتواها هذا الكتاب الموسوعى الخالد فضلاً عن المعلومات الغزيرة التى ضمها فى نسيج واحد جميل الألوان متين الصياغة.

د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة :

١ - معجم الأدباء.

٢ - تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه د. عبد الحليم منتصر دار المعارف، الطبعة الثامنة ١٩٩٠م.

٣ - أثر العرب والإسلام فى النهضة الأوروبية د. محمد كامل حسين مركز مطبوعات اليونسكو ـ القاهرة.

٤ - تاريخ العلم لجورج سارتون دار المعارف ١٩٩١م.

مِسْكَويـــه

(٣٢٠ - ٤٢١ هـ = ٩٣٢ - ١٠٣١م)

هو أحمد بن محمد بن يعقوب، الملقب "مِسْكَويه". ويطلق عليه اسم "أبى على الخازن"، وصاحب "تجارب الأمم". واختلف فى اسم "مِسْكَويه" : هل هو لقبه، أو لقب جده ؟. وتبعًا لذلك هل يكتب "ابن مِسْكَويه" أو "مِسْكَويه" فقط ؟ والراجح أنه لقبه. وقد ولد عام ٣٢٠هـ بالعراق[١].

ويرى ياقوت أنه كان مجوسيًا وأسلم، لكن الأرجح أنه ربما كان والده مجوسيًا وأسلم؛ لأن والد مِسْكَويه اسمه "محمد". كما ذكر هو فى كتابه "تجارب الأمم" ١: ٣١٠، ١٣٦، ولا يعقل أنه قد غيّر اسمه واسم والده.

وقد درس مِسْكَويه التاريخ، وقرأ تاريخ الطبرى على ابن كامل القاضى المتوفى عام ٣٥٠هـ كما سمع منه الكثير. ودرس علوم الأوائل، خصوصًا على يد ابن الخمّار الذى كان واسع الاطلاع على علوم الأوائل، وبخاصة المنطق والطب والكيمياء، ومع هذا فإن مِسْكَويه لم يكن ذا عقلية فلسفية، ولذا اتهم - زورا - بأنه كان قاصر الفهم[٢].

ونظراً لميول مِسْكَويه إلى الكيمياء، فقد اتهم باطلاً بأنه كان حريصا على الدنيا وعلى طلب المال، وأنه كان بخيلاً، وأنه كان منافقًا نظرا لتعلقه بذوى السلطان[٣]. ولكن هؤلاء الأعلام، لابد أن يكون لهم وشاة وحساد، حقدًا عليهم.

وقد صحب مِسْكَويه، أبا الفضل محمد ابن العميد، الذى كان وزير ركن الدولة أبى الحسن بن بويه الديلمى والد عضد الدولة، واستمرت هذه الصحبة سبع سنين لازمه فيها ليلاً ونهارًا، واتخذه ابن العميد خازنا لكتبه، فقام على ذلك العمل خير قيام، ومن هنا لقب باسم " الخازن" أى خازن الكتب. كما استمر مِسْكَويه يتنقل فى خدمة بنى بويه وتولى بعض المناصب الرفيعة لديهم، وكان على صلة وثيقة ببهاء الدولة أبى نصر بن عضد الدولة بن ركن الدولة، صاحب العراق وفارس المتوفى عام ٤٠٣ هـ.

وقد عمر مِسْكَويه طويلاً، وتوفى بأصبهان فى ٩ صفر سنة ٤٢١ هـ = ١٦ فبراير سنة ١٠٣٠م أى عن عُمر قارب المائة عام[٤].

كان مِسْكَويه مشهورًا بالفضل والعلم والأدب والبلاغة والشعر. غير أنه فى المسائل الأخلاقية كان يعلو كعبه ويرتفع فيها اسمه.

فلا يكاد يذكر مِسْكَويه، إلا وينصرف الذهن إلى جهوده وفلسفته الأخلاقية(٥).

وقد وضع فى الأخلاق كتابه المشهور: "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق". وكذلك تكلم فى "الفوز الأصغر" على النواحى الأخلاقية. لكنه فى "تهذيب الأخلاق" : فصّل أصول الأخلاق، وضبط أنواعها، وميز حدودها، فى عبارات علمية عالية، محكمة الصنع، دقيقة الوضع.

فلا غرو أن نقول إن مشروع النهضة لدى مِسْكَويه، هو "التربية الأخلاقية"، والتى حشد لها كل طاقاته، وركز عليها فى مؤلفاته العامة والخاصة. لهذا فإنه تكلم عن الأخلاق من جهة أقسامها، ومن جهة إمكان تغيّرها وتبدلها، ومن جهة فضائلها وطرقها وذلك فى كتابه : «تهذيب الأخلاق».

فمن حيث الأقسام : يرى مِسْكَويه أن الخلق ضربان : جبلى وكسبى:

فالجبلىّ : ما طبعت عليه النفس من أول الفطرة، وتركّز فى النفس وكان ملكة لها . وهذا الخلق الجبلىّ يجعل صاحبه يصدر الأفعال التى يقتضيها هذا الخلق من غير فكر أو توان، أو تكلف، وكأنه يملك صاحبه، ويدفعه إلى مقتضاه من غير اختيار أو روية. فالذى جُبل على الكرم يدفعه هذا الخلق إلى مد يده بالإعطاء من غير تكلف أو اختيار أو توان أو عناء .

أما الخلق الكسبى: فهو نتيجة مكتسبة من البيئة أو الدين. وهو فى أول أمره يكون حالاً للنفس، فإذا مرن عليه صاحبه واعتاده، أصبح ملكة مركوزة فى النفس تملك صاحبها، وتدفعه إلى العمل بسهولة ومن غير فكر ورويّة(٦).

أما تغير الخلق وانتقاله : فهو ممكن فى رأى مِسْكَويه، سواء أكان جبليًا أم كسبيًا، وسواء أكان حالاً للنفس أم ملكة لها . فالذى فطر على الشح أو اكتسبه من البيئة، يمكن أن يتعود على الكرم والعطاء ببطء أو بسرعة، كما يشهد بذلك الواقع فى تربية الصبيان. ولو لم يكن ذلك أمرًا ممكنًا، لما كان للقوة العاقلة معنى، ولبطلت القوانين، وترك الناس همجًا، ولما كان لتربية الأولاد من معنى. وهذا التغير يؤيده الواقع والعقل والشرع. فكما نشاهد من كان فى صباه متصفًا بالرذيلة مذمومًا، أصبح فى شبابه متصفًا بالفضيلة محمودًا .

وإن إنزال الكتب وإرسال الرسل بالشرائع والأديان، إنما هو لدعوة الناس إلى التخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل. فلو كان ذلك أمرًا غير ممكن، لبطلت الرسالات والأديان، ولما كان للموعظة والإرشاد أى معنى، بل لما كان للعقل الذى منحه الله ـ تعالى ـ للإنسان أى فائدة.

أما من جهة فضائل الأخلاق وطرقها :

فإن مِسْكَويه يرى أن الفضائل نوعان :

١ - الفضيلة الفلسفية : هى الحكمة النظرية التى تناسب النفس الناطقة ؛ فإن هذه النفس تتشوّف بطبيعتها إلى العلوم والمعارف وتطلبها ؛ لأن فى ذلك كمالها.

ومن المعلوم أن مِسْكَويه كان له اهتمام كبير بالحكمة وجمعها من حضارات الأمم العربية والإسلامية والفارسية والهندية والرومية، التماسًا لتقويم النفس وسمو الأخلاق(٧).

٢ - أما الفضائل الأخلاقية أو العملية: فتتكون من فضيلة الحكمة وفضيلة الشجاعة وفضيلة العفة وفضيلة العدالة. وينبغى أن يعلم أن للنفس ثلاث قوى : عاقلة، وغضبية، وشهوية.

فالقوة العاقلة إذا اعتدلت، نشأ عنها الفضيلة الأولى، وهى الحكمة التى هى وسط بين السفه والبله. وإذا اعتدلت القوة الغضبية نشأ عنها الفضيلة الثانية، وهى الشجاعة. التى هى وسط بين الجبن والتهور. وإذا اعتدلت القوة الشهوية نشأ عنها الفضيلة الثالثة، وهى العفة التى هى وسط بين الشره والجمود. ثم باعتدال هذه القوى الثلاث تنشأ الفضيلة الرابعة من مجموعها، وهى العدالة(٨).

وتسمى تلك الفضائل الأربع، بالفضائل الأخلاقية أو العملية، وهى تجمع الفضائل المحمودة على وجه العموم، وتعتبر حدا فاصلاً بينها وبين الرذائل، إذ الرذيلة خروج عن الاعتدال: إما بالإفراط، وإما بالتفريط، ولا يستكمل المرء الفضائل، إلا بالمعرفة والعمل، أى بمجموع الفضائل الفلسفية والعملية.

وقد تحدث مِسْكَويه عن تعهده بأن يتمسك هو شخصيًا بهذه الفضائل، وأن يتجنب تلك التى ذكرها فى وصيته التى كتبها فى حجم صفحة ونشرت فى مقدمة الترجمة له فى أول الجزء الخامس من مؤلفه: «تجارب الأمم»، طبع ١٣٣٢هـ، ١٩١٤م مطبعة الكردى بمصر.

وقد يُشْتَمُّ هنا تأثر مسكويه بآراء أفلاطون وأرسطو، وهذا لا يعيب فكره فى شىء؛ فليس هناك حضارة محض ابتكار. وحسبه أنه لم يناقض تعاليم الإسلام فى تلك الجوانب الأخلاقية، فقد دعا القرآن الكريم إلى الاعتدال فى كل شىء حتى فى العبادة نفسها، كما فى قوله تعالى : ﴿ **ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا** ﴾ [الإسراء : ١١٠]. وفى قوله تعالى: ﴿ **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا** ﴾[الإسراء : ٢٩].

هذا وإن حديث مِسْكَويه عن الأخلاق وما ينتج عنها من فضائل - ليرتبط ارتباطًا وثيقًا

"بالسعادة" : ذلك أن السعادة فى الدنيا ليست فى اللذة الجسمية والمتاع الزائل والأموال والمناصب. والذين يتكالبون على اللذات الدنيوية ظنًا منهم أنها السعادة، فإنما هم رعاع الجهال الذين تجردوا من حصافة العقل وأصالة الرأى، وأنهم تجافوا عن الصواب، وانزلقوا نحو الشقاء؛ لأنهم لم يدركوا أن سعادة الدنيا والآخرة إنما هى فى اجتماع الحكمة النظرية والعملية(٩).

وقد بعث الله ـ عز وجل ـ أنبياءه ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ لدعوة الناس إلى الحكمة بقسميها النظرى والعملى، أى لدعوة الناس إلى العلم والمعرفة والتخلق بالأخلاق الفاضلة؛ التى يصدر عنها الخير والأفعال الجميلة.

واستكمالاً لمكارم الأخلاق وما تثمره من سعادة، ينبه مِسْكَويه على أمر هام، هو أن الله ـ تعالى ـ قد خلق الإنسان مدنيا بطبعه، أى أنه محتاج فى معيشته وضروريات حياته وتمام بقائه إلى الاجتماع ببنى نوعه، حتى تتحقق المعاونة والمساندة والمعاوضة بين الأفراد، وهذا من أهم الفوارق بين الإنسان والحيوان.

فالإنسان محتاج إلى مَنْ يعاونه فى بناء مسكن، وصنع غذاء وكساء. وإن حياة العزلة لا يأتى معها خير، ولن يبلغ الإنسان معها الكمال، ولن توصله إلى تبادل المحبة بينه وبين الآخرين، كما يتوهم الرهبان والنساك والمتوحدون(١٠).

وإن الدين الحنيف قد حث على الاجتماع ودعا إليه، وجعل صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة، كما أوجب صلاة الجمعة فى جماعة كل أسبوع. وشرع فريضة الحج ليترابط الناس الذين يأتون من كل فج عميق. قال الله تعالى : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ [المائدة:٢]. وقال ﷺ : «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**».

وبذلك نرى أن المشروع الحضارى لدى مِسْكَويه، يقوم على الأخلاق التى تدعمها المعرفة والحكمة، والتى تثمر السعادة فى الدنيا والآخرة.

وله مؤلفات عديدة منها :

١ – الفوز الأكبر : (فى الأخلاق). طبع سنة ١٣١٩هـ=١٩٠١م بيروت، وفى القاهرة، ١٣٢٥هـ=١٩٠٧م.

٢ – الفوز الأصغر : (فى الأخلاق)، طبع سنة ١٣١٩هـ = ١٩٠١م بيروت.

٣ – تجارب الأمم : (فى التاريخ) ابتداؤه من بعد الطوفان، وانتهاؤه إلى سنة ٣٦٩هـ. وقد نشر مجزءًا حتى تم فى لندن عام ١٩٢١م.

٤ – أنس الفريد : (مجموع يتضمن أخبارًا وأشعارًا وحكمًا وأمثالاً).

٥ - ترتيب العادات : (فى الأخلاق والسياسة).

٦ - المستوفى : (أشعار مختارة).

٧ - الحكمة الخالدة (أو جاويدان خرد): تقديم وتحقيق : د. عبد الرحمن بدوى طبع عام ١٩٥٢م مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

٨ - كتاب الجامع.

٩ - كتاب السير : (ذكر فيه ما يُسيّر به الرجل نفسه من أمور دنياه، ومزجه بالأثر والحكمة والشعر).

١٠ - كتاب فى الأدوية المفردة: (فى الطب).

١١ - كتاب فى تركيب الباجات من الأطعمة: (ذكره القفطى وقال : "أحكمه غاية الإحكام، وأتى فيه من أصول علم الطبيخ وفروعه بكل غريب حسن").

١٢ - كتاب الأشربة.

١٣ - كتاب تهذيب الأخلاق : (وهو أشهر كتبه تداولاً بين الناس. وقد طبع عدة مرات فى : الهند ١٨٥٤م، استانبول ١٨٨٠م، القاهرة : ١٨٨٠م،١٨٨٧م، ١٩٠٥م، ١٩١١م).

١٤ - رسالة فى اللذات والآلام فى جوهر النفس: (مخطوط راغب باستانبول، مجموع رقم ١٤٦٣).

١٥ - أجوبة وأسئلة فى النفس والعقل: (فى المجموع السالف الذكر).

١٦ - الجواب فى المسائل الثلاث: (مخطوط فى طهران - فهرست مكتبة المجلس ج٢، برقم ٦٣٤، رقم ٣١ فيه).

١٧ - رسالة فى جواب فى سؤال على بن محمد أبى حيان الصوفى فى حقيقة العدل: (مخطوط مكتبة مشهد بإيران ج ١ برقم ٤٣ رقم ١٣٧ فيه).

١٨ - طهارة النفس: (مخطوط كوبريلى برقم ٧٦٧، ومنه مصورة بدار الكتب المصرية بالقاهرة (ط ٢ ج ١، ملحق : ٣٤)[11].

أ.د. عبد اللطيف محمد العبد

هوامش :

١ - د. عبد الرحمن بدوى : مقدمة التحقيق للحكمة الخالدة لابن مِسْكَويه، ص ١٤- ١٥، ٢١ طبعة ١٩٥٢ م مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة.

٢ - التوحيدى : الإمتاع والمؤانسة ١ : ٣٥ - ٣٦ طبعة القاهرة.

٣ - انظر ص ١٧ مقدمة د. بدوى للحكمة الخالدة.

٤ - ياقوت : إرشاد الأريب ٢ : ٨٨ - ٩٦، ٥:٥ طبعة القاهرة.

٥ - انظر: طاهر عبد المجيد: الفلسفة الإسلامية ٢: ٢٥-٣٧. طبع ١٢٨٩هـ=١٩٦٩م مطبعة دار التأليف بمصر.

٦ - مِسْكَويه : تهذيب الأخلاق ص ٢٥، طبع ١٣١٧هـ مطبعة الترقى بمصر.

٧ - مِسْكَويه : الحكمة الخالدة ص ٥-٦ تحقيق د. عبد الرحمن بدوى.

٨ - مِسْكَويه : تهذيب الأخلاق ص ١٥- ١٨.

٩ - مِسْكَويه : تهذيب الأخلاق ص ٦٥ وما بعدها.

١٠ - مِسْكَويه : تهذيب الأخلاق ص ١١٦ وما بعدها.

١١ - انظر مقدمة د. عبد الرحمن بدوى لكتاب الحكمة الخالدة ص ٢١ - ٢٤.

مراجع للاستزادة :

١ - كتب مِسْكَويه التى ذكرناها آنفا، وهى تقرب من ١٨ كتابا ورسالة.

٢ - ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء - طبع القاهرة.

٣ - الثعالبى : تتمة اليتيمة - طبع طهران ١٣٥٣هـ.

٤ - ابن القفطى : تراجم الحكماء، طبع ١٩٠٨م- القاهرة.

مسلم بن الحجاج

(٢٠٦ - ٢٦١ هـ = ٨٢٠ - ٨٧٥م)

هو الإمام أبو الحسين : مسلم بن الحجاج ابن مسلم بن ورد بن كوشان، القشيرى نسبا، النيسابورى وطنا، صاحب «المسند الصحيح» وأحد الأئمة والحفاظ المتقنين.

قيل : إنه ولد سنة مائتين واثنتين، وقيل مائتين وأربع، وقيل مائتين وست، والأرجح الرأى الأخير وهو أنه ولد سنة ست ومائتين لما روى أنه (توفى مسلم بن الحجاج رحمه الله عشية الأحد، ودفن يوم الاثنين لخمس بقين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين وهو ابن خمس وخمسين سنة رحمه الله ورضى عنه)[1]. فإذا ما تبين أن وفاته كانت سنة إحدى وستين ومائتين وأنه عاش من العمر خمسًا وخمسين سنة فتكون ولادته فى سنة ست ومائتين على الأرجح.

وقد ولد الإمام مسلم بنيسابور وهى أحسن مدن خراسان، ونشأ شغوفا بالعلم، طلبه منذ صغره، وساعده على طلب العلم ما كان يتمتع به من ثروة علمية، كما كان لمسلم بعض العقارات التى أنفق منها فى شئون الحياة وطلبه للعلم، واشتغل فى مطلع حياته بزازا إلى جانب طلبه للحديث.

واقتدى مسلم بالبخارى فى تأليف صحيحه، وكان شديد الحب والتقدير له، وعندما جاء البخارى نيسابور لازمه مسلم وترك من أجله شيخه محمد بن يحيى الذهلى الذى كان يقول: (من زعم أن لفظى بالقرآن مخلوق فهو مبتدع ولا يجالس ولا يكلم، ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل فاتهموه، فإنه لا يحضر مجلسه إلا من كان على مذهبه). فانقطع الناس عن البخارى إلا مسلم بن الحجاج وأحمد بن سلمة. ولما قال الذهلى ذلك، قام مسلم على رؤوس الناس وبعث إلى الذهلى جميع ما كان كتبه عنه على ظهر حمال، فاستحكمت بذلك الوحشة وتخلى عنه وعن زيارته)[2]، وقد ترك الإمام مسلم الرواية عنه فى الصحيح وغيره.

ويعتبر الإمام مسلم أحد أركان الحديث الذين ضربوا فيه بسهم وافر واشتركوا فى تدوينه بنصيب كبير، ومناقبه مشهورة

وسيرته عاطرة، قال فيه شيخه محمد بن عبد الوهاب الفراء: كان مسلم من علماء الناس وأوعية العلم، ما علمته إلا خيرا، وكان بزازا، وكان أبوه الحجاج من المشيخة. وقال ابن الأخرم: إنما خرجت من مدينتنا هذه من رجال الحديث ثلاثة: محمد بن يحيى، وإبراهيم بن أبى طالب، ومسلما. وقال ابن عقدة: قلما يقع الغلط لمسلم فى الرجال؛ لأنه كتب الحديث على وجهه[٣].

وهذه الأقوال من شيوخه ومعاصريه إنما تدل على كرم نشأته وطيب منبته وعظيم سيرته ومدى اجتهاده وأمانته فى طلب الحديث الشريف.

عاش الإمام مسلم حياة مباركة حافلة بالبحث العلمى الجاد والضبط والحفظ والإتقان، وشق طريق حياته يساعده على ذلك قوة حافظته وسعة أفقه الفكرى مما جعل الكثيرين من الأئمة يثنون عليه ويقدمونه على مشايخ عصرهم فى معرفة الصحيح[٤]، قال فيه ابن أبى حاتم: كان من الحفاظ، كتبت عنه بالرى. وقال أبو قريش الحافظ: حفاظ الدنيا أربعة: وذكر منهم مسلما، وهو إنما يريد بذلك الذين بلغوا فى الحفظ والإتقان درجة سامية، ولا غرابة فى ذلك فالإمام مسلم تتلمذ على يد الإمام البخارى وسار على دربه ونظر فى علمه وأخذ عنه.

ابتدأ الإمام مسلم الإقبال على العلم منذ نعومة أظفاره سنة ثمانى عشرة ومائتين فسمع من شيوخ بلدته، ثم حج سنة عشرين فسمع من القعنبى ومن بعض الشيوخ الذين التقى بهم فى البلاد التى سارع فيها، ثم أسرع فى العودة إلى وطنه، وقام قبل سنة ثلاثين برحلة واسعة طوف فيها بمعظم الأقطار الإسلامية ليضم إلى علم بلده مرويات أخرى من بلاد غيرها.

فسمع بخراسان: يحيى بن يحيى، وإسحاق ابن راهويه وغيرهما، وسمع بالرى: محمد ابن مهران الجمال، وأبا غسان، وغيرهما، وسمع بالعراق: أحمد بن حنبل، وعبد الله بن مسلمة القعنبى وغيرهما، وبالحجاز: سعيد ابن منصور، وأبا مصعب وغيرهما، وبمصر: عمرو بن سواد، وحرملة بن يحيى وغيرهما[٥] وشيوخه كثيرون ولا يحصيهم العد.

وقد قدم الإمام مسلم إلى بغداد غير مرة فروى عنه أهلها، وكان آخر قدومه سنة تسع وخمسين ومائتين[٦].

وممن روى عن الإمام مسلم كثيرون من أئمة عصره الحفاظ وكان من بينهم جماعات فى درجته منهم: أبو حاتم الرازى، وموسى بن فضل، وأحمد بن سلمة، وأبو عيسى

الترمذى، وأبو بكر بن خزيمة، ويحيى بن على، وأبو عوانة الإسفراييني وآخرون لا يحصون[٧].

وقد أجمع العلماء على إمامته في الحديث وتضلعه في الرواية. ومن أكبر الدلائل على إمامته وحذقه في هذه الصنعة كتاب «المسند الصحيح»، الذى بلغ في حسن الترتيب وتلخيص الطرق مبلغا عظيمًا.

وكان الإمام مسلم صنو الإمام البخارى فى ضبطه وحفظه وفى ورعه، فجمع بين العلم والعمل، وكان له فضل كبير في المحافظة على السنة وعلومها وصيانة الحديث من الأعداء والجهلاء، كما تصدى للرد على ما أثير من شبه ضد المحدثين.

واعترف بفضل الإمام مسلم وثقته وصدقه كثير من الأئمة، يقول أبو بكر الجارودى: «حدثنا مسلم بن الحجاج وكان من أوعية العلم»، وقال مسلمة بن قاسم: «ثقة جليل القدر من الأمة». وقال ابن أبى حاتم: «كتبت عنه وكان ثقة من الحفاظ له معرفة بالحديث، وسئل أبى عنه فقال: صدوق»[٨]. ولما كان للإمام مسلم هذه المكانة العلمية الجليلة، فقد تأثر به كثير من العلماء، وحاول بعض النيسابوريين أن ينسجوا على منواله فلم يبلغوا شأوه، وصنفوا المستخرجات على كتابه، وقد أجمع العلماء على علو مرتبته وحذقه فى هذه الصنعة وتقدمه فيها تقدما عظيما. قال النووى: «ومن أكبر الدلائل على ذلك كتابه الصحيح الذى لم يوجد فى كتاب قبله ولا بعده من حسن الترتيب وتلخيص طرق الحديث بغير زيادة ولا نقصان والاحتراز من التحول فى الأسانيد عند اتفاقها من غير زيادة وتنبيهه على ما فى ألفاظ الرواة من اختلاف فى متن أو إسناد ولو فى حرف، واعتنائه بالتنبيه على الروايات المصرحة بسماع المدلسين وغير ذلك مما هو معروف فى كتابه»[٩]. وفى قول النووى هذا نرى أنه استخلص أكبر الدلائل على حذق الإمام مسلم فى الصنعة الحديثية فساقها من استقرائه للكتاب وأجملها فى هذه العبارة وهى دلائل تدل بحق على مكانة المسند الصحيح وعظم شأن صاحبه.

عدد أحاديث صحيح مسلم :

عدد أحاديث صحيح مسلم دون المكررة أربعة آلاف، روى الإمام أبو عمرو بن الصلاح بسنده عن أبى قريش الحافظ قال: كنت عند أبى زرعة الرازى، فجاء مسلم بن الحجاج فسلم على وجلس ساعة وتذاكرا، فلما قام قلت له: هذا جمع أربعة آلاف حديث فى الصحيح قال. أبو زرعة: فلمن ترك الباقى؟ قال الشيخ: أراد أن كتابه هذا أربعة آلاف حديث أصول دون المكررات[١١]. وأما عدد

صحيح مسلم بالمكرر فهو كثير، روى عن أحمد بن سلمة أنه قال: كتبت مع مسلم فى تأليف صحيحه خمس عشرة سنة وهو اثنا عشر ألف حديث. وقد انتقى الإمام مسلم هذه الأحاديث من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة، فقد روى عنه أنه قال: «صنفت هذا المسند الصحيح من ثلاثمائة ألف حديث مسموعة». وقد وافق الإمام مسلم الإمام البخارى على تخريج ما فيه إلا ثمانى مائة وعشرين حديثا، وجملة ما فى صحيح مسلم بإسقاط المكرر نحو أربعة آلاف، قال العراقى، وهو يزيد على البخارى بالمكرر لكثرة طرقه، قال: وقد رأيت عن أبى الفضل أحمد بن سلمة أنه اثنا عشر ألف حديث، وقال المابنجى: ثمانية آلاف[12]، وأرجح رأى ابن سلمة، فهو الذى اشترك مع الإمام مسلم فى كتابه الصحيح، ومكث معه خمس عشرة سنة، فرأى من مارس التدوين مع صاحبه أقرب إلى الصحة.

وله مؤلفات عديدة منها:[10] :

١ - المسند الكبير: وقد رتبه على الرجال.

٢ - الجامع وقد رتبه على الأبواب.

٣ - الأسماء والكنى: فى أربعة أجزاء.

٤ - الأفراد والوحدان.

٥ - مشايخ الثورى.

٦ - تسمية شيوخ مالك وسفيان وشعبة.

٧ - كتاب المخضرمين.

٨ - كتاب أولاد الصحابة.

٩ - الطبقات.

١٠ - أوهام المحدثين.

١١ - كتاب التمييز.

١٢ - العلل.

١٣ - أفراد الشاميين.

أ.د. أحمد عمر هاشم

الهوامش:

١ - مقدمة النووى على شرح صحيح مسلم ص ٧، ط الشعب ، وتهذيب التهذيب جـ ١٠، ص ١٢٧.
٢ - هدى السارى ص ٤٩٢ ، وفيات الأعيان جـ ٢، ص ١١٩، مرآة الجنان لليافعى جـ ٢، ص ١٧٥.
٣ - مقدمة تحفة الأحوذى جـ ١، ص ١٢٢.
٤ - مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم، ص ٧، تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ٢، ص ١٥٠.
٥ - مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم، ص ٧ ط الشعب، تهذيب الأسماء واللغات جـ ٢، ص ٩١.
٦ - وفيات الأعيان جـ ٢، ص ١١٩.
٧ - مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم، ص ٧.
٨ - تذكرة الحفاظ للذهبى جـ ٢، ص ١٨٢، مقدمة تحفة الأحوذى جـ ١، ص ٢٣.
٩ - تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ ٢، ص ٩٠.
١٠ - مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم، تهذيب الأسماء واللغات للنووى جـ ٢، ص ٩١.
١١ - مقدمة شرح النووى على صحيح مسلم، ص ١٥.
١٢ - تدريب الراوى، ص ٥١.

مصطفى إسماعيل
(١٣٢٣ - ١٣٩٨هـ = ١٩٠٥ - ١٩٧٨م)

وُلد مصطفى إسماعيل بقرية (ميت غزال) مركز السنطة محافظة الغربية، فى ١٧ من يونيو سنة ١٩٠٥م، فى أسرة متوسطة الثراء، وكان لجده ولوع بقراءة القرآن أورثه ولَده الذى كان يشتغل بالفلاحة، وقد أصر على أن يكون وليده مصطفى من أهل القرآن، فدفع به فى سنّ الخامسة إلى كُتّاب القرية، وحفظ القرآن به، وكان لصوته رنةٌ حبيبة بين التلاميذ، فصارت له شهرةٌ بجودة التلاوة وهو فى سن العاشرة، وأحب أقرباؤه أن يسمعوه قارئا، فشغفوا به، وبدا للأسرة أن يلتحق التلميذ النجيب بالمعهد الدينى بطنطا، فأصر جده على أن يحفظ متون التجويد قبل الالتحاق، وأعد له مدرسًا خاصا بالتلاوة، حتى مهر فيها، وسمع منه مدرسه ثلاثين ختمة؛ لأنه كان يُبْهَر بصوته ولا يمل استماعه، وقد انتظم فى المعهد بطنطا فى سن الرابعة عشرة، وفى خلال دراسته كان يقرأ القرآن بالجامع الأحمدى؛ فانجذب إليه سامعوه، وفى أثناء العطلة الصيفية كان يرجع إلى القرية، فيتلو القرآن فى المحافل العامة، وقد تناقل القرويون أحاديث إبداعه الصوتى، فكانوا يدعونه فى المواسم العامة، وقد سُرَّ جده بذلك، وقال له: لا تهتم بالأجر كثيرًا أو قليلاً، ويكفى أنك تُذَكِّر الناس بكتاب الله.

وقد أصيب بمرض طارئ عاقه عن إتمام الدراسة بالمعهد، وبعد شفائه اتجه إلى خدمة القرآن، مكتفيا بما حصل من علوم الدين بالمعهد، ولعل اشتغاله بإقامة ليالى المآتم فى القرى المجاورة كان من أهم عوامل انقطاعه، وقد اتسعت شهرته بالقراءة حين تلا القرآن فى مأتم ثرى كبير من رجال طنطا، وحضر المأتم كثير من أعيان القاهرة، فعرفوا معدنه الصوتى، وأكثروا من دعوته إلى العاصمة فى المواسم المختلفة، فأخذ صيته يمتد من الأقاليم إلى العاصمة الكبرى.

وفى إحدى الحفلات الآهلة بقراءة كتاب الله، كان الشيخ محمد سلام هو القارئ الأول، وأطال القراءة مدى أربع ساعات حتى أجهد نفسه، ونزل من المنصة فواصل مصطفى القراءة على نحو لم يعهد من قبل، فاستزاده السامعون حتى بلغت الساعة الثانية

والنصف، وتأكد الشاب المتطلع أنه صار قارئا جيدا يحب القاهريون استماعه، ثم أتاح الحظ له فرصة ذهبية، حين ذهب ليشترك فى رابطة القراء، ولم يكن الشيخ الصيفى يعلم عنه شيئا، فطلب منه أن يُسْمِعه بعض ترتيله، فأتى بما أدهش، فقال له الشيخ الصيفى: حظك سعيد يا بنى، ستقرأ الليلة فى الإذاعة فى احتفال المولد النبوى، لأن الشيخ عبد الفتاح الشعشاعى قد اعتذر لمرضه، وأنا أبحث عن بديل له، فساقك الله إلىّ، ولم يصدق مصطفى ما قاله الشيخ لغرابته بالنسبة لقارئ ناشئ، ولكن الشيخ طمأنه، وذكر أن مدة التلاوة ستكون نصف ساعة فقط، فعليك أن تختار ما يناسب الذكرى، وقد توجه الشيخ مصطفى إلى مسجد الحسين، قبل الموعد، وصلى ركعتين راجيا أن يوفقه الله، وكان الحفل يذاع من مسجد الحسين.

يقول الشيخ مصطفى: «امتلأ مسجد الحسين بالناس فلم يكن فيه مكان لمزيد منهم، وكان الناس يضجون بالتكبير والتهليل أثناء القراءة، وحين تركت (الدكة) ونزلت إلى ساحة المسجد، تعذر علىّ أن أشق طريقى، ووجدت الناس يزدحمون حولى كازدحامهم فى المسجد، ويسيرون ورائى، وكانت ليلة مباركة.

وكانت إذاعة الاحتفال بالمولد النبوى على هذا الوجه الكريم، سببا لالتفات الكبار من رجال القصر الملكى إلى صوت مصطفى، فاستدعاه مراد محسن باشا، ومحمد حيدر باشا، وهنّآه على ما رزق من حلاوة الصوت، وقررا أن يكون القارئ فى احتفال ذكرى الملك فؤاد سنة ١٩٤٢م، حيث يحضر جلالة الملك الاحتفال مع كبار الأمراء والوزراء، وكان الاحتفال مذاعا للعامة، فطارت شهرة مصطفى وأصبح من قراء الصف الأول، ثم جاء شهر رمضان فاختير للقراءة فى قصر رأس التين حيث يقيم الملك! وتتابعت حفلات القصر منذ هذا التاريخ وقارئها الأول مصطفى إسماعيل، فبلغ من الاشتهار ما لا مطمع وراءه، وبخاصة أنه اختير مقرئا لسورة الكهف بالجامع الأزهر على هذا المدى المتواصل، وجعلت الإذاعة تنقل خطب الجمعة وما قبلها من تلاوة الشيخ، فعرفه المسلمون فى كل مكان يتلى فيه القرآن.

وقد توفى ـ رحمه الله ـ سنة ١٩٧٨م.

اشتدت أشواق السامعين فى العالمين العربى والإسلامى إلى رؤية الشيخ مصطفى، فتعددت أسفاره إلى عواصم الدول الإسلامية، وارتحل إلى أمريكا وأوروبا وآسيا، فسمعه الناس فى سان فرنسيسكو، وباريس، ولندن، وكوالالمبور، وأنقرة، وإستانبول، وطهران، ودمشق، وبيروت، ومكة المكرمة،

والمدينة المنورة، والقدس الشريف، ومنح فى سنة ١٩٦٥م أول وسام يناله قارئ القرآن فى عيد العلم، ونال وسام الأرز من رئيس وزراء لبنان، وفى سنة ١٩٧٣م دعاه الرئيس التركى إلى مقابلته بحفاوة بالغة بالقصر الجمهورى بأنقرة، ثم أهداه مصحفا شريفا مكتوبا بماء الذهب، وفى ختام هذه الزيارات كانت زيارته مع الرئيس أنور السادات إلى المسجد الأقصى سنة ١٩٧٧م، وتلا القرآن فى المسجد فتناقلته الأقمار الصناعية، وكان يوما مشهودًا.

وقد عقد كثير من الكُتَّاب موازنات بين صوتى الشيخ محمد رفعت وصوت الشيخ مصطفى إسماعيل، فعرفوا للشيخ رفعت منزلته الأستاذية، وذلك حق، وقد قال الأستاذ كمال النجمى عن صوت مصطفى إسماعيل:

«كان له أسلوبه الخاص فى التعامل مع آذان المستمعين، فكان يبدأ القراءة بصوت منخفض، ويستمر كذلك يجرب صوته، ويعلو به درجة درجة، ثم درجتين درجتين، ثم ثلاث درجات، على السلم الموسيقى، لينزل مرة أخرى إلى درجة القرار، ثم يرتفع ثانيا من درجة واحدة إلى درجتين، ثم ثلاث درجات، ومنها إلى الدرجة الرابعة، وينزل فى النهاية إلى درجة القرار».

كما ذكر الأستاذ كمال النجمى موازنة بين صوت الشيخ محمد رفعت وصوت الشيخ مصطفى إسماعيل، هذه الموازنة حكاها شيخ رابطة القراء، وأستاذ القراءات بالأزهر الشريف الشيخ عبد الفتاح القاضى، حيث قال: إن صوت الشيخ محمد رفعت يعلو على صوت الشيخ مصطفى لمدة نصف ساعة من قراءته، فإذا بلغ هذا المبلغ جهد، أما الشيخ مصطفى فيستمر الساعة وأكثر دون أن يجهد، وهذا كلام يحتاج إلى تعقيب، لأن الشيخ القاضى قد سمع الشيخ محمد رفعت وهو كهل لا تساعده صحته على الإطالة، كما سمع الشيخ مصطفى وهو شاب متدفق الحيوية ريان الفتوة، فكان من الطبيعى أن يجهد الكهل وألا يجهد الفتى، ولو أدرك الشيخ القاضى شباب رفعت، وسمع قراءته إذ ذاك؛ لاختلف الحكم لديه.

لقد ظل الشيخ مصطفى متمتعًا بحب الجماهير، وكرامة الحياة، حتى لقى ربه سعيدًا بما أسلف من جهاد قرآنى حميد.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١ - مصطفى إسماعيل، للأستاذ كمال النجمى.

مصطفى صادق الرافعى
(١٢٩٨ - ١٣٥٦ هـ = ١٨٨٠ - ١٩٣٧م)

هو مصطفى صادق بن عبدالرزاق، الذى ينتهى نسبه إلى عبدالقادر الرافعي، عالم بالأدب وكاتب وشاعر، أصل أسرته من طرابلس الشام فى لبنان، هاجر أجداده إلى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر، وولد مصطفى صادق سنة ١٨٨٠م فى بلدة بهتيم (فى محافظة القليوبية)، حيث كان أبوه الشيخ عبدالرزاق قاضيا يتنقل بحكم عمله بين مدن مصر، فاستقر أخيرًا بمدنية طنطا عاصمة محافظة الغربية، وبها نشأ مصطفى.

ولم يحصل الرافعى على أى مؤهل دراسى رسمى، وإنما علَّم نفسه بنفسه، وبدأ حياته الأدبية شاعرًا متصلاً بالقصر حتى لقب بشاعر الملك، ثم تخلى عن هذه الصلة معتزا بكبريائه. وقد أصيب بالصمم مما حمله على التزام العزلة فى طنطا، حيث عمل موظفا فى محكمتها، وقضى بها معظم حياته حتى وفاته فى ١٠ من مايو ١٩٣٧م.

وكان باكورة أعماله ديوان من ثلاثة أجزاء نشره بين سنتى ١٩٠٣ و١٩٠٦م، وظل ينظم الشعر حتى وفاته، إلا أنه لم يجمعه فى دواوين أخرى، ومع ذلك فقد اشتهرت من نظمه أناشيد وطنية كان من أشيعها نشيده: «اسلمى يا مصر إننى الفدا».

اتجه الرافعى إلى الكتابة النثرية التى أصبح له فيها أسلوب مميز سَمَّاهُ «المقالة البيانية» وذلك فى مقالاته التى يضمها كتاب «وحى القلم» (فى ثلاثة أجزاء)، وكذلك فى مقالاته الإبداعية التى صور فيها خطرات نفسه ودقائق مشاعره، وجمعها فى عدة كتب هى : حديث القمر، ورسائل الأحزان، والسحاب الأحمر، وأوراق الورد، والمساكين.

وكان الرافعى واحدًا من عشاق الأديبة اللبنانية «مىّ زيادة» صاحبة الصالون الأدبى الذى كان يتردد عليه كبار أدباء مصر، غير أن انطواءه وكبرياءه أنهيا قصة هذا الحب.

ويتألف إنتاج الرافعي النثرى - إلى جانب ما ذكرناه من كتب - من دراساته للأدب العربى ومساجلاته مع مفكرى عصره وأدبائه، وهى المساجلات التى تحولت إلى معارك ضارية جعلت خصومه يتمالأون عليه ويعملون على إخمال ذكره.

أما دراساته الأدبية فأهمها كتابه «تاريخ

آداب العرب» (١٩١١م) الذى يتألف من ثلاثة أجزاء: الأول والثالث هما اللذان يعدان تاريخًا حقيقيا للأدب العربى، ففى الأول يبدأ بالحديث عن الأدب والمؤدِّبين، وعلوم الأدب وكتبه، ويفصل الحديث عن العرب وأصلهم وبلادهم، واللغة العربية وأصلها، والقبائل العربية وفروعها ومنازلها، وينتقل للحديث عن جهود اللغويين العرب ومدرستى البصرة والكوفة فى النحو، ويبسط الحديث فى الرواية والرواة ناقلاً عن كتب القدماء كل ما يتصل بهذا الموضوع، ويثير قضية انتحال الشعر قبل أن يتناولها الدكتور طه حسين بخمس عشرة سنة. وحينما ظهر هذا الجزء أثنى عليه كثيرون ممن سيصبحون خصوماً للرافعى بعد ذلك، ومنهم: أحمد لطفى السيد، وطه حسين.

وأما الجزء الثانى من الكتاب فقد أفرده الرافعى لإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وهو يبدأ بموضوعات عن القرآن وتاريخ جمعه، وقراءاته، ومفرداته وتأثيره فى اللغة وآدابها، والعلوم المستنبطة منه، ثم يناقش آراء القدماء فى تصورهم لإعجاز القرآن : الجاحظ والباقلانى، وعبدالقاهر الجرجانى ، وينتهى إلى أن إعجاز القرآن بلاغى فى المقام الأول، ثم يعرض بالتفصيل العناصر التى يتركب منها من الحروف والأصوات إلى الجملة فالآية فالسورة، بحيث يكون كل من هذه العناصر معجزاً، وبحيث لا يمكن فيه أن يبدل حرف بحرف ولا لفظ بلفظ، مما يدل على أنه فوق الطبيعة البشرية. وقد نال هذا الكتاب ثناءً كبيرًا من جمهور القراء حتى من جانب الزعماء السياسيين مثل سعد زغلول والكتاب غير المسلمين مثل يعقوب صروف. وهو فعلاً يعد من أجود ما حرره قلم الرافعى.

وقد شهدت السنوات الأولى من القرن العشرين تغيرات خطيرة على المستوى العالمى والإسلامى والعربى، ولا سيما فى أثر نهاية الحرب العالمية الأولى، وكان من أهم الأحداث ثورة الشعب المصرى من أجل الاستقلال وسقوط الخلافة العثمانية وتحول تركيا إلى دولة علمانية مما أدى إلى انحسار دعوة الجامعة الإسلامية وبروز أيديولوجيات قومية محلية، كالمصرية الفرعونية فى مصر، والفينيقية فى بلاد الشام، والبربرية فى بلاد المغرب، ومع هذه الحركات العنصرية ظهرت نزعات إلحادية تدعو إلى تقليص دور الدين فى حياة المجتمع، وإلى إحلال العامية محل العربية، أو كتابة العربية بحروف لاتينية على نحو ما فعلت تركيا تحت حكم كمال أتاتورك. وقد شايع بعض هذه الحركات عدد من كبار المفكرين المصريين مثل أحمد لطفى السيد ومحمد حسين هيكل، وطه حسين، ومنصور فهمى، وسلامة موسى، على تفاوت بينهم فى درجات قبولهم لهذه الأفكار، وكان معظمهم يدين بالأخذ بأسباب

الحضارة الأوروبية من أجل الارتقاء بالمجتمع العربى. وتصدى الرافعى لهذه الحركات فى سلسلة من المقالات كان يكتبها بين سنتى ١٩٠٨م و١٩٢٩م، ثم جمعها فى كتابه «تحت راية القرآن» أو «المعركة بين القديم والجديد» ، وقد كان الرافعى راسخ العقيدة فى أن رسالته الأولى هى تفنيد تلك الأفكار التى يرى فيها عدواناً على الإسلام وعلى اللسان العربى الذى نزل به القرآن. فهو يقول فى إحدى مقالاته فى وحى القلم (٣/ ٣٠٠) : «إنه يخيل إلىّ دائمًا أننى رسول لغوى بعثت للدفاع عن القرآن ولغته وبيانه» . وساق ذلك إلى معركة عنيفة مع طه حسين تناولت جانبين : الأول حول الأدب الجديد الذى كان ينادى به طه حسين، وكان هذا يندد بأسلوب الرافعى ويتهمه بتقليد كُتَّاب الترسل فى العصر العباسى وبمجافاة ذوق العصر، والجانب الثانى هو ما طرحه طه حسين فى كتابه «فى الشعر الجاهلى» من أفكار حول قضية الانتحال فى الشعر الجاهلى وذيولها، إذ كان الرافعى يرى فى مناقشة طه حسين لهذه القضية تهجماً على القرآن الكريم وعدوانا على المقدسات الإسلامية. وكان من المعارك المريرة التى خاضها الرافعى معركته مع عباس محمود العقاد التى أنتجت كتابه «على السّفّود» الذى خرج فيه الرافعى عن حدود أدب الحوار والنقد، إذ تحول إلى ضرب من السباب الجارح. وللرافعى مقالات سياسية أدرجها فى كتابه «وحى القلم» دافع فيها عن الخلافة العثمانية وندد بإلغاء أتاتورك لها، وهاجم فيها من كانوا ينادون باتخاذ القبعة غطاء للرأس من أمثال سلامة موسى، وحول قضية فلسطين التى وضعها فى إطارها الإسلامى لا العربى، وفى الدفاع عن قضية الوحدة العربية على أن تكون ضمن منظومة تجمع عالم الإسلام.

وقد صمد الرافعى فى هذه المعارك على الرغم من تمالؤ خصومه عليه، وكانوا رواد الفكر والأدب فى أيامه، وقد أدى هذا إلى إخمال ذكره إلى حد ما، وإلى حرمانه من أن يتبوأ المكانة التى كان جديراً بها فى الحياة الأدبية. ومع ذلك فقد كان للرافعى بعض الأثر فى فكر خصومه أنفسهم، إذ تحول الكثيرون منهم عن آرائهم السابقة وعادوا إلى التمسك بالمفاهيم الإسلامية والدفاع عن اللغة العربية كما نرى فى إسلاميات طه حسين، وعبقريات العقاد، وتفنيده لدعاوى الطاعنين فى الإسلام، وكتب محمد حسين هيكل «فى منزل الوحى» و«حياة محمد» و«الصديق أبو بكر» و«الفاروق عمر».

أ. د. محمود على مكى

مراجع للاستزادة:

١- خير الدين الزركلى : الأعلام ٧/ ٢٣٥.

٢- مصطفى الشكعة : مصطفى صادق الرافعى: كاتباً عربياً ومفكراً إسلاميا.

٢- محمد سعيد العريان : حياة الرافعى.

٤- محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر.

٥- كمال نشأت : الرافعى (فى سلسلة أعلام العربى).

مصطفى صبرى

(١٢٨٦ - ١٣٧٣هـ = ١٨٦٩ - ١٩٥٤م)

آخر شيوخ الإسلام فى الدولة العثمانية، عالم وسياسى ومصلح ومجاهد، هو مصطفى صبرى بن أحمد بن محمد التوقادى القاذآبادى ولد بمدينة توقاد إحدى ولايات سيواس بالأناضول بتركيا فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٦٩م.

تلقى تعليمه الأولى فى مسقط رأسه، حيث حفظ القرآن الكريم وهو فى سن الصبا على يد أستاذه الشيخ أحمد أفندى زاده، ثم رحل بعد ذلك إلى قيصرية إحدى ولايات سيواس حيث درس العلوم الشرعية على يد الشيخ محمد أمين الدوريكى، وأتم دراسته بالأستانة على يد الشيخ أحمد عاصم وكيل الدرس بالمشيخة الإسلامية، وكذلك الشيخ محمد عاطف بك الإستانبولى، واجتاز امتحان التخرج وحصل على الأستاذية، ثم اشتغل بالتدريس فى جامع السلطان محمد الفاتح وهو فى الثانية والعشرين من عمره، ثم اختاره السلطان ليعمل مدرسا للدين لأفراد الأسرة الحاكمة. وقد عين مدرسا بدرجة أستاذ عام سنة ١٣١٦هـ (١٩٠٠م) حتى سنة ١٣٣٢هـ (١٩١٦م)، ثم عمل أمينا لمكتبة السلطان عبد الحميد الثانى، وانتخب نائبا عن مدينة توقاد فى مجلس النواب وذلك سنة ١٩٠٨م بعد إعلان الدستور، وكان خطيبا مفوها بالمجلس حيث استمر يلقى خطبته عن الحرية بالمجلس أربعة أيام فى جلسات متتابعة، مما لفت أنظار المشتغلين بالسياسة من أعضاء جمعية الاتحاد والترقى إلى خطورة الرجل على مستقبل السلطة الكمالية، وبدأوا من تاريخها يحددون نشاطه.

فرضت عليه الإقامة الجبرية (تحديد الإقامة) بقرار من جمعية الاتحاد والترقى فى مدينة «بيلة جك» وذلك بسبب تأسيسه لحزب الحرية والائتلاف الذى تكون من العرب والأروام والتركمان لمعارضة الدعوة إلى القومية الطورانية التى تبناها حزب الاتحاد والترقى، ثم ألغى قرار تحديد الإقامة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، وعاد الشيخ إلى إستانبول حيث عين عضوا بدار الحكمة ثم رئيسا لها فى عهد السلطان وحيد الدين سنة

١٩١٨م، الذى أصدر قرارا بتعيين الشيخ مصطفى صبرى شيخا للإسلام سنة ١٩١٩م وذلك بعد فوز حزبه «الحرية والائتلاف» فى الانتخابات، وتولى حزبه الوزارة، ثم تولى الشيخ منصب «الصدر الأعظم» بالنيابة عن فريد باشا حين سافر إلى باريس لحضور مؤتمر الصلح - ثم انتخب عضوا فى مجلس الأعيان مدى الحياة.

لقد أصيب الشيخ بالأسى والحزن لما أصيبت الخلافة العثمانية التى كانت تمثل وحدة المسلمين، وكذلك النشاط العلمانى الذى ساد فى ميادين الثقافة والسياسة فى الدولة العثمانية على يد «أتاتورك» وأعضاء الاتحاد والترقى، فأخذ يدعو إلى تشكيل حزب جديد هو «حزب الحرية والائتلاف» ليعارض به هذا النشاط العلمانى، ويتبنى الفكر الإسلامى الصحيح ليعيد للخلافة الإسلامية مكانتها، فاستقال من منصبه «كشيخ للإسلام» ليصبح حرا فى رأيه ومواقفه السياسية، وقام بتأليف حزبه المذكور، وبدأ نشاطه الحزبى بالدعوة إلى جعل الشريعة الإسلامية مصدرا أساسيا ووحيدا لإدارة شئون الخلافة العثمانية، وكان نتيجة ذلك أن عزل من منصبه سنة ١٩٢٠م وبدأ العلمانيون يناصبونه العداء ويدبرون له المكائد.

ولكن حزبه قد اشتد عوده وقوى على مواجهة الخصوم فأعلن المبادئ الأساسية التى دعا إليها الأمة كلها لتلتف حولها، وهى:

١ - التمسك بالشريعة الإسلامية كمصدر للتشريع ومنهج أهل السنة والجماعة.

٢ - العمل على إعادة الهيبة والمكانة التاريخية للخلافة العثمانية كرمز لوحدة المسلمين كما كانت فى تاريخها العريق.

٣ - إيقاظ الهمم وتنشيط العقول لمواجهة الزحف العلمانى والتغريب الحضارى الزاحف على المسلمين.

وبدأ الشيخ يستل سيف الدفاع عن الإسلام وقضاياه ضد النشاط العلمانى، وما آثاره من شكوك حول الإسلام والقرآن والنبى محمد ﷺ، وأسس صحيفة «يارين» وجعلها المنبر الحر لأصحاب الكلمة الإسلامية، وتولى الشيخ مواجهة خصومه من منبر هذه الصحيفة، وأخذ يظهر للناس حقيقة الدور الذى يقوم به أتاتورك هو وجمعية الاتحاد والترقى، وأن دورهما معا هو القضاء على الخلافة الإسلامية والإسلام معا، وتحويل تركيا إلى دولة لا دينية تحت مسمى التقدم والتطور والتقليد الأعمى للغرب، وكشف للناس حقيقة المؤامرة التى يقودها أتاتورك، وأخذ يدق أجراس الخطر محذرا من مؤامرة الكماليين ضد الخلافة.

قامت جمعية الاتحاد والترقى بالقبض على مصطفى صبرى واعتقاله، فهرب الشيخ إلى مصر مهاجرا إليها للمرة الأولى سنة ١٩١٣م، ثم ظل يتنقل من بلد إلى آخر حتى تم القبض عليه مرة أخرى وأعيد إلى الآستانة، وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى صدر قرار من مصطفى كمال أتاتورك وحكومته بإعدام مائة وخمسين شخصية بارزة من تركيا وكان على رأسهم الشيخ مصطفى صبرى وابنه إبراهيم، فلجأ الشيخ وأسرته إلى مصر على سفينة يونانية، ولما أراد الكماليون أن يمنعوا الباخرة من الإبحار ويعتقلوا الشيخ هو ومن معه، تدخل الإنجليز لحمايته ومنعوا الكماليين من احتجاز السفينة، فصادرت الحكومة الكمالية كل ممتلكات الشيخ ولم يحمل معه إلى مصر سوى كتبه التى اضطر إلى بيعها مع حلى أسرته ليسدد نفقات السفر والإقامة بمصر، ولما وصل إلى مصر لم يحسن المصريون استقباله، فتوجه إلى الحجاز بدعوة من الشريف حسين ملك الحجاز فأقام بها فترة قصيرة، وعاد إلى مصر مرة ثانية، ومنها إلى لبنان، حيث طبع كتابه العظيم «النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة».

ومن لبنان سافر إلى اليونان حيث أصدر صحيفة «يارين» ومعناها المستقبل أو الغد للرد على العلمانيين فى أرض الخلافة، وتعددت رحلاته من بلد إلى آخر إلى أن استقر به المقام أخيرا فى مصر فى حالة سيئة جدا لشدة الفقر التى عاشها، ولم ينقذه إلا وزير الأوقاف المصرى الذى عين ابنه إبراهيم موظفا فى وزارة المالية، ثم نقله طه حسين موظفًا بمكتبة جامعة القاهرة، ثم عين مدرسا للغة التركية والفارسية بآداب الإسكندرية.

استقر المقام للشيخ بمصر فالتف حوله كبار علماء مصر ومفكريها أمثال رشيد رضا، ومحب الدين الخطيب، والعقاد، وطه حسين، وأحمد أمين، والشيخ أحمد شاكر، ومحمود شاكر، والشيخ الخضرى، وكان بيته ملتقى لهؤلاء العلماء جميعا ولغيرهم، حيث كانت تعقد الندوات وتدور المناقشات حول قضايا الأمة، والخلافة، والاستعمار، ومشاكل المسلمين، وأسس هو ومجموعة من هؤلاء العلماء لجنة النهوض بالمساجد التى كان أبرز أعضائها الشيخ المراغى والشيخ محمود شلتوت من مشايخ الأزهر الشريف.

وظل الشيخ يكافح بقلمه وفكره، ويدافع عن الإسلام والمسلمين إلى أن وافته منيته فى ٢٧ من رجب سنة ١٣٧٣هـ الموافق ١٢ من مارس سنة ١٩٥٤م.

وأثناء إقامته بمصر كان يكتب فى صحيفة

الأهرام وفى غيرها مما ساعد على انتشار فكره وآرائه بين جمهور المثقفين، فكان منهم المؤيد والمدافع عنه، وكان منهم المعارض والمؤيد للكماليين، وقد أسهمت إقامته بالقاهرة فى صحوة إسلامية كبيرة أزعجت الاستعمار وأيقظت حركات التحرر فى ربوع العالم العربى.

وله مؤلفات عديدة منها :

١ - موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين.

٢ - النكير على منكرى النعمة.

٣ - مسألة ترجمة القرآن.

٤ - الإمامة الكبرى (بالتركية).

٥ - قولى فى المرأة.

٦ - تحت سلطان القدر.

كما قام بالرد على آراء على عبد الرازق فى كتابه «الإسلام وأصول الحكم»، وطه حسين فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر»، وسلامة موسى، وقاسم أمين، ومنصور فهمى، وفتحى زغلول، وكانت له جولات مع هؤلاء جميعا.

أ.د. محمد السيد الجليند

مراجع للاستزادة :

١ - النكير على منكرى النعمة، مصطفى صبرى.

٢ - موقف العقل من رب العالمين، مصطفى صبرى.

٣ - الإسلام والخلافة فى العصر الحديث، محمد ضياء الدين الريس.

٤ - المؤامرة على إسقاط الخلافة، فهمى الشناوى.

٥ - عالم الدين الذى قال لا للعلمانية والتغريب - محمد حرب، بحث بمجلة المجتمع الكويتية.

٦ - الأسرار الخفية وراء إلغاء الخلافة العثمانية - مصطفى حلمى.

٧ - الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر، محمد محمد حسين.

٨ - صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم، عبد الفتاح أبو غدة.

مصطفى عبد الرازق
(١٣٠٢ - ١٣٦٧هـ = ١٨٨٥ - ١٩٤٧م)

ولد الشيخ مصطفى عبدالرازق عام ١٣٠٢هـ = ١٨٨٥م، فى قرية (أبو جرج) بمحافظة المنيا بمصر، لأسرة مرموقة عرفت باتصالها بالعلم وانشغالها بالقضاء أجيالاً وراء أجيال، وهناك من الشواهد والقرائن ما يدل على أن ميراث هذه الأسرة من الاشتغال بالقضاء يرجع إلى عام ١٧٥٢م.

وفى كتاب القرية حفظ الشيخ مصطفى عبدالرازق القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة ثم التحق بعد ذلك بالأزهر فيما بين العاشرة والحادية عشرة من عمره، وغلب عليه حينذاك فى بداية الأمر الميل نحو الأدب ونظم الشعر وكان يراسل الصحف والمجلات على حداثة سنه، ثم اتصل بالأستاذ الإمام محمد عبده الذى كانت تربطه بوالده الشيخ حسن عبدالرازق أواصر من العمل العام: السياسى منه والخيرى. فقد كانا عضوين فى مجلس شورى القوانين كما كانا عضوين كذلك فى الجمعية الخيرية الإسلامية، فتوثقت العلاقة بين الشيخ الإمام وتلميذه.

وقد حصل الشيخ مصطفى على شهادة العالمية من الأزهر الشريف عام ١٩٠٨م، وسرعان ما انتدب للتدريس فى مدرسة القضاء الشرعى فى السنة ذاتها، غير أن طموح الشيخ لم يقف عند هذا الحد فسافر إلى باريس عام ١٩٠٩م، وهناك تعلم الفرنسية وحضر دروس الأستاذ دركهايم فى الاجتماع، ثم انتقل عام ١٩١١م إلى مدينة ليون ليشتغل مع الأستاذ إدوارد لامير فى دراسة أصول الشريعة الإسلامية، وحضر فى جامعة ليون دروس الأستاذ جوبلو فى تاريخ الفلسفة، ودروسًا فى تاريخ الأدب الفرنسى، وتولى تدريس اللغة العربية فى كلية ليون خلفا لمدرسها الذى كان قد ندب للتدريس فى الجامعة المصرية.

وبعد أن عاد الشيخ مصطفى إلى مصر عام ١٩١٤م عين موظفا فى المجلس الأعلى للأزهر عام ١٩١٥م فسكرتيرًا له ثم عين مفتشًا بالمحاكم الشرعية عام ١٩٢٠م.

وفى عام ١٩٢٧م تم تعيينه أستاذًا مساعدًا

للفلسفة بكلية الآداب جامعة فؤاد الأول - جامعة القاهرة الآن - ثم أستاذًا للفلسفة عام ١٩٣٥م.

ثم أسندت إليه وزارة الأوقاف عدة مرات، ثم عين بعد ذلك شيخاً للأزهر عام ١٩٤٥م وفى ١٥ فبراير ١٩٤٧م انتقل إلى رحمة الله.

بجانب هذه الوظائف التى تولاها الشيخ مصطفى عبدالرازق كان له نشاط آخر فى مجالات عدة. ومن ذلك عضوية الجمعية الخيرية الإسلامية ثم رئاسته لمجلس إدارتها، واختياره عضوًا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٠، ومقالاته الكثيرة فى الصحف وإلقاء المحاضرات فى العديد من المنتديات.

أما أسلوبه فى التعليم فيحدثنا عنه شقيقه الشيخ على عبد الرازق فيقول: (كان له أسلوب خاص فى التعليم الجامعى لا يكاد ينهجه غيره من الأساتذة خصوصًا فى مصر، فالتعليم عنده لم يكن مجرد إلقاء الدرس على الطلاب وتلقينهم إياه ولكنه عبارة عن صلة عقلية ينشئها بينه وبين طلابه فهو يشركهم معه فى بحث الموضوعات واستخراجها من مظانها وفى مناقشة المسائل وفهم النصوص وتحرير الآراء - وهدف كل ذلك أن يراجعهم ويراجعونه ويعينهم ويعينونه وكلهم لكلهم أساتذة وكلهم لكلهم طلاب).

وقد تتلمذ عليه الرعيل الأول من أساتذة الفلسفة فى مصر. ويعد كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) أهم المؤلفات التى صدرت فى هذا الصدد فى القرن العشرين.

وله غير ذلك العديد من المؤلفات من أهمها ما يلى:

١ - فيلسوف العرب والمعلم الثانى. [فى سيرة الكندى والفارابى].

٢ - الدين والوحى والإسلام.

٣ - البهاء زهير وشعره.

٤ - الإمام محمد عبده.

٥ - الإمام الشافعى.

٦ - الليث بن سعد.

وقد نشر شقيقه الشيخ على عبد الرازق كتابًا فى منتصف الخمسينيات ضمنه بعض أعماله التى لم تنشر مع ترجمة وافية لحياته وجعل عنوانه (من آثار مصطفى عبدالرازق).

وأول ما يسترعى الانتباه فى حياة الشيخ مصطفى عبد الرازق هو ذلك الرباط القوى المبكر الذى كان يربط بين الشيخ محمد عبده والشاب مصطفى عبد الرازق. فالشاب الطموح كان يجمع كل ما يكتبه الشيخ ويلتهمه التهاما ويدرك تماما رسالة الشيخ محمد عبده الإصلاحية. وقد تمثل ذلك فى قصيدة

استقبل بها الإمام محمد عبده عام ١٩٠٥م وجاء فى مطلعها:

أقبل عليك تحية وسلام

يا ساهرا والمسلمون نيام

والشطر الثانى من هذا البيت يوضح لنا ما كان يؤمن به مصطفى عبد الرازق - ولم تكن عمره حينذاك تزيد على عشرين عاما - وما يكنه من مشاعر للشيخ الإمام، وتقدير لجهوده فى إيقاظ المسلمين والنهوض بهم. وقد استمر هذا التقدير للشيخ محمد عبده ملازما لمصطفى عبد الرازق حتى نهاية حياته. وقد دفعه ذلك حينما كان فى باريس إلى ترجمة رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده إلى الفرنسية بالاشتراك مع صديق له من المستشرقين، مما يؤكد لنا أن مصطفى عبد الرازق كان امتدادا أصيلا للأستاذ الإمام محمد عبده - رحمهما الله.

وإذا قلنا إن مصطفى عبد الرازق يعد امتدادا لمحمد عبده فإن ذلك يعنى الكثير، إنه يعنى تواصل جهود التنوير والإصلاح على المستويات الدينية والفكرية والاجتماعية، وقد نهض مصطفى عبد الرازق بهذه المهمة الجليلة نهوضا يحسب له كمفكر مستنير، يعكس الطبيعة الصافية للإسلام.

أما الشيخ محمد عبده فإنه من جانبه قد توسم فى الشاب مصطفى عبد الرازق كل معانى الخير، وقد عبر عن ذلك بما كتبه له، قائلا: «ما سررت بشىء سرورى أنك شعرت فى حداثتك بما لم يشعر به الكبار من قومك، ولو أُذن لوالد أن يقابل وجه ولده بالمدح لسقت إليك من الثناء ما يملأ عليك الفضاء، ولكنى أكتفى بالإخلاص فى الدعاء أن يمتعنى الله فى نهايتك بما تفرسته فى بدايتك»، وقد تحققت نبوءة الأستاذ الإمام فى الشاب مصطفى عبد الرازق.

أما الأمر الثانى الجدير بالذكر فى حياة مصطفى عبد الرازق فهو صلته بالثقافة الغربية، تلك الصلة التى أطلّت به على عالم جديد فى الفكر وفى السلوك وفى التقدم والرقى، فراح يغترف من العلم ما استطاع، وفى الوقت نفسه كان يقلقه أشد القلق ما عليه المجتمع المصرى من تخلف، ومن أجل ذلك كان يستنهض الهمم للعمل والوصول بالبلاد إلى أعلى درجات الرقى والتقدم، ويعبر عن ذلك بقوله : «أنا أستبطئ سيرنا فى سبيل التقدم، وأتوق إلى رؤية مصر حرة راقية تلعب دورها فى العالم، وكم أتمنى أن أُلقى فى قلب كل مصرى شعلةً من هذا القلق الذى عندى، لأن شعورنا جميعا بالحاجة إلى الرقى هو الذى يسرع خطواتنا إليه».

ولأن العمل من أجل رقى البلاد يتأسس

على حب البلاد، فقد كان ينادى بحب النيل كما يحب الأوروبيون الأنهار التى يتدفق ماؤها فى بلادهم، ولم يكن يقصد من هذا الحب مجرد التعبير عن تلك العواطف الدفينة فى النفوس، بل كان يمهد الأرض لترجمة هذا الحب إلى عمل نافع للوطن وللمواطنين، كما فعل ويفعل أهل أوروبا من العمل المتواصل لرقى بلادهم.

ومن ناحية أخرى مكّنته صلته بالثقافة الغربية من الاطّلاع على ما يقوله الغرب عن الشرق، فحفّزه ذلك إلى البحث فى جذور الفكر الإسلامى، مما استطاع به تصحيح الكثير من المفاهيم المغلوطة والأفكار الخاطئة عن التراث الإسلامى والعقلية الإسلامية، وبحكم الثقافة المتنوعة للشيخ مصطفى عبد الرازق اتجه إلى التوفيق بين القديم والجديد، وبين الشرق والغرب، وهذا ما عبر عنه المرحوم الدكتور إبراهيم مدكور بقوله فى عبارته الجميلة بدلالتها البالغة: إنه قرّب الأزهر من السوربون.

وهو من غير شك الذى مهد الطريق لمن تقلدوا مشيخة الأزهر فيما بعد، ولغيرهم من أبناء الأزهر للدراسة فى السوربون، وكان منهم الدكتور عبد الرحمن تاج، والدكتور محمد الفحام، والدكتور عبد الحليم محمود، والدكتور محمد عبد الله دراز، ومحمد يوسف موسى، وعفيفى عبد الفتاح، وغيرهم؛ فكانت له الريادة فى هذا المجال بعد أن كانت الشقة قد بعدت بين الأزهر وأوروبا منذ رفاعة الطهطاوى.

أما الأمر الثالث الذى نود أن نشير إليه فى هذا المقام فهو ريادته لدراسة الفلسفة الإسلامية، فإليه يرجع الفضل فى جعلها علما يدرس فى الجامعات، وقد ضم إليها علم الكلام والتصوف وأصول الفقه، وكل من جاء بعده فى مجال الفلسفة الإسلامية مدين له بالكثير، سواء اتفق معه فى الرأى أم كان مخالفا له، فهو الإمام فى هذا المجال بلا جدال، وصاحب مدرسة لها بصماتها الواضحة فى الدراسات الفلسفية الإسلامية فى مصر وفى العالم العربى.

وكتابه «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية» سيظل نبعًا فيّاضًا لكل الباحثين فى الفكر الإسلامى، ولم يكن الدكتور إبراهيم مدكور مجافيا للصواب حين قال عنه: إنه رئيس مدرسة وإمام جيل.

أما الأمر الرابع الجدير بالذكر فيتمثل فى أن مصطفى عبد الرازق كان رجل مبادئ، ورجل قيم، تجسدت فيه الفضائل والأخلاق الرفيعة، وشهد بذلك كل من عرفه من قريب أو بعيد، فقد كان يعتقد أن ثمة شيئا فوق العلم وفوق الفن، وهذا الشىء هو ما يطلق

عليه اسم الأخلاق، وقد كان سلوكه تطبيقا عمليا رائعا لكل ما يؤمن به من قيم نبيلة، الأمر الذى يضعه فى مقدمة المصلحين الأخلاقيين وكبار المجددين للفكر وللسلوك على السواء.

أ.د. محمود حمدى زقزوق

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى جـ٧/٢٣١ . - دار القلم.

٢ - من آثار مصطفى عبد الرازق للشيخ على عبد الرازق - دار المعارف ١٩٥٧.

٣ - مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتى الآن لعلى عبد العظيم جـ ٢ /٧٩ القاهرة ١٩٧٩.

مصطفى لطفى المنفلوطى

(١٢٨٩ - ١٣٤٣ هـ = ١٨٧٢ - ١٩٢٤م)

ولد السيد «مصطفى لطفى» بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط سنة ١٢٨٩ هـ = ١٨٧٢م ونشأ فى بيت كريم بالدين جليل بالفقه، توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة الصوفية، قرابة مائتى سنة. ونهج «المنفلوطى» سبيل آبائه فحفظ القرآن فى الكتاب. وتلقى العلم بالأزهر، ولكنه كان يحفظ الأشعار، ويتصيد الشوارد ويصوغ القريض، وينشئ الرسائل، وذاع صيته فى الأزهر بذكاء القريحة وروعة الأسلوب فقربه الأستاذ «محمد عبده»، ورسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من الأدب والحياة، ثم يستفيد «المنفلوطى» من قربه من الإمام وصلته بـ «سعد باشا زغلول»، ومع قربه من هذين العظيمين كان قربه من صاحب (المؤيد). وهؤلاء الثلاثة كانوا أقوى العناصر فى تكوين «المنفلوطى الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده. وفى أثناء طلبه فى الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديوى «عباس حلمى الثانى» بقصيدة نشرها فى إحدى الصحف الأسبوعية فحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى فى السجن مدة العقوبة. ولما قبض الله الأستاذ الإمام محمد عبده إلى رحمته جزع «المنفلوطى» على وفاته، ورجع مقطوع الرجاء إلى بلده. ثم أنعش الله عاثر أمله بعد فترة من الزمن، فهب يبتغى فى جريدة (المؤيد) الوسيلة والنجاح. وسرعان ما صارت إلى «سعد باشا» وزارة المعارف، فعينه محررًا عربيا لها. ولما تحول إلى وزارة الحقانية (العدل) حوله معه وولاه فيها مثل هذا المنصب. حتى إذا قام البرلمان عينه «سعد باشا» فى وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى توفاه الله وهو فى العقد الخامس من عمره.

كان أديبًا فى ظاهره وباطنه، فهو مؤتلف الخلق، متلائم الذوق، متناسق الفكر، متسق الأسلوب، منسجم الزى، لا تلمح فى قوله ولا فى فعله غرور العبقرية. وكان صحيح الفهم فى بطء، سليم الفكر فى جهد، دقيق الحس فى سكون، عفيف اللسان. وهذه الخلال تظهر صاحبها للناس فى مظهر الغبى الجاهل، فهو لذلك كان يتقى المجالس،

ويتجنب الجدل، ويكره الخطابة، ثم هو إلى ذلك: رقيق القلب، عف الضمير، سليم الصدر، صحيح العقيدة، كريم اليد، موزع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته.

كان المنفلوطى أديباً موهوباً، حظ الطبع فى أدبه أكثر من حظ الصنعة، وكان النثر الفنى على عهده لونا من أدب القاضى الفاضل، أو أثراً مائلاً لفن ابن خلدون، ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين، إنما كان أسلوب «المنفلوطى» فى عصره كأسلوب ابن خلدون فى عصره، بديعاً أنشأه الطبع القوى على غير مثال.

عالج «المنفلوطى» الأقصوصة وبلغ فى إجادتها شأوا ما كان ينتظر ممن نشأ كنشأته فى جيل كجيله. وسر الذيوع فى أدب المنفلوطى «أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب، وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع فى أدب «المنفلوطى» الذى يصف الألم ويمثل العيوب فى أسلوب طلى، وبيان عذب، وسياق مطرد، ولفظ مختار. فالمنفلوطى فى النثر كان «كالبارودى» فى الشعر: كلاهما أحيا وجدد. ونهج وعبَّد، ونقل الأسلوب من حال إلى حال.

ومن مؤلفاته :

كتاب (النظرات) فى ثلاثة أجزاء جمع فيه مانشره فى (المؤيد) من الفصول فى النقد والاجتماع والوصف والقصص. وكتاب (العبرات) وهو مجموعة من الأقاصيص المنقولة والموضوعة. ثم (مختارات المنفلوطى) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم. وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية: تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لألفونس كار، وبول وفرجينى (الفضيلة) لبرناردى سان بيير، وسيرانو دبرجراك (الشاعر) لأدمون رستان، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل، فأضافت إلى ثراء الأدب العربى ثروة، وكانت للفن القصصى الحديث قوة وقدوة.

أ.د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة :

١ ـ مراجعات فى الآداب والفنون، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربى، بيروت.
٢ ـ تطور النقد العربى الحديث، عبدالعزيز الدسوقى، ط ١، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.
٣ ـ الأساس فى النقد الأدبى، دكتور مصطفى مندور، دكتور أحمد الحوفى ط ٥، ١٩٧٠م.
٤ ـ مصطفى لطفى المنفلوطى، حياته وأدبه، دكتور محمد أبو الأنوار، مكتبة الشباب القاهرة، ١٩٨١م.
٥ ـ ديوان أمير الشعراء، جـ ٣، المكتبة التجارية ١٩٧٠م.

معاذ بن جبل رضي الله عنه
(٢٠ق - هـ - ١٨هـ = ٦٠٣ - ٦٣٩م)

هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس بن عابد بن عدى بن كعب بن عمرو بن أدى بن على بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن عدى ابن بابى بن تميم بن كعب بن سلمة أبو عبد الرحمن الأنصارى الخزرجى وأمه هند بنت سهل من بنى رفاعة.

ولد فى المدينة قبل الهجرة بتسعة عشر عاما، ونشأ فيها، وأسلم وعمره ثمانية عشر عاما، قال أبو إدريس الخولانى: كان أبيض وضىء الوجه براق الثنايا أكحل العينين، وقال كعب بن مالك، كان شابا جميلا سمحا، من خير شباب قومه، وقال الواقدى: كان من أجمل الرجال، وكان طويل القامة حسن الثغر والمنطق عظيم العينين أبيض جعدا.

قدم معاذ من اليمن فى خلافة أبى بكر واستأذنه فى الخروج مع الجيوش لينال الشهادة، فأذن له، وحاول عمر منعه لحاجة الناس إلى علمه وفقهه، ولكن أبا بكر أذن له فخرج عند ذلك إلى الشام. قال المدائنى: مات معاذ بن جبل بناحية الأردن فى طاعون عمواس سنة ثمان عشرة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة ولم يولد له قط كما قال الواقدى، وذكر أبو حاتم الرازى أنه مات وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وقال غيره: كان سنه ثلاثا وثلاثين سنة، قال أبو عمر: كان عمر رضي الله عنه قد استعمل معاذا على الشام حين مات أبو عبيدة فمات من عامه ذلك فى ذلك الطاعون، فاستعمل موضعه عمرو بن العاص، وعمواس قرية بين الرملة وبيت المقدس، وقد روى أن معاذا كان لايدعو بشىء إلا ويستجاب له. قال ابن حجر وكانت وفاته بالطاعون فى الشام سنة سبع عشرة أو التى بعدها، وهو قول الأكثر وعاش أربعا وثلاثين سنة. رحمه الله رحمة واسعة ورضى عنه وأرضاه.

ومن مناقبه ومنزلته أنه شهد بيعة العقبة وبدرا والمشاهد كلها، أحبه رسول الله ﷺ وشهد له بالعلم، وأحبه كبار الصحابة وشهدوا له بالفضل فمن ذلك ما رواه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «**نعم الرجل أبو بكر، نعم الرجل عمر، نعم الرجل معاذ بن جبل**»، وعن معاذ رضي الله عنه قال : لقينى رسول الله ﷺ فقال : يامعاذ إنى لأحبك فى الله،

قلت وأنا والله يارسول الله أحبك فى الله، قال : أفلا أعلمك كلمات تقولهن دبر كل صلاة «رب أعنى على ذكرك وشكرك وحسن طاعتك». وقد دعا له النبى ﷺ، فقد روى عاصم بن حميد قائلا: إن معاذ بن جبل لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن خرج يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته فلما فرغ قال ﷺ يامعاذ إنك عسى ألا تلقانى بعد عامى هذا، ولعلك أن تمر بمسجدى ومقامى، فبكى معاذ خشيًا لفراق رسول الله ﷺ، فقال له الرسول ﷺ: لا تبك يامعاذ، إن البكاء من الشيطان، ثم دعا له بقوله: حفظك الله من بين يديك ومن خلفك، وذرأ عنك شر الإنس والجن، «وعن أبى موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعثه ومعاذًا إلى اليمن، قال لهما: يسرا ولاتعسرا وتطاوعا ولاتنفرا».. وعن أنس مرفوعا «أرحم أمتى بأمتى أبو بكر، وأشدهم فى دين الله عمر، وأصدقها حياء عثمان، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ، وأفرضهم زيد، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة». وقال معاذ رضي الله عنه: لما بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قال لى: كيف تقضى إن عرض قضاء؟ قلت: بما فى كتاب الله، قال: فإن لم يكن فى كتاب الله؟ قلت: بما قضى رسول الله، قال: فإن لم يكن فيما قضى به الرسول قلت : أجتهد رأيى ولا آلو، فضرب صدرى وقال: الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله، ومن أقوال الصحابة وشهادتهم له وثنائهم عليه ما روى عن عمر قال: لو أدركت معاذا ثم وليته ثم لقيت ربى فقال: من استخلفت على أمة محمد؟ لقلت: سمعت نبيك وعبدك محمدا ﷺ يقول «يأتى معاذ بن جبل بين يدى العلماء برتوه - أى رمية سهم أو مد البصر - يسبقهم». وروى قتادة عن أنس قال : جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ أربعة كلهم من الأنصار، أبى بن كعب، وزيد. ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وعن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ «خذو القرآن من أربعة: من ابن مسعود، وأبى، ومعاذ بن جبل، وسالم مولى أبى حذيفة». وقال ابن مسعود: إن معاذا كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يكن من المشركين، إنا كنا لنشبه معاذا بإبراهيم عليه السلام. تلك بعض المناقب والفضائل التى رويت لمعاذ بن جبل رضي الله عنه وأرضاه.

وأما عن روايته وعلمه فقد تلقى معاذ بن جبل القرآن والعلم والخلق على يدى رسول ﷺ، وشهد معه المشاهد كلها وروى عنه أحاديث كثيرة، وروى عن معاذ بن جبل من الصحابة كثيرون منهم: ابن عباس وابن عمر وابن أبى أوفى الأشعرى، وعبد الرحمن بن سمرة، وجابر، وأنس وآخرون من كبار التابعين، ونظرا لعلمه ونبوغه وفقهه وورعه قال عنه رسول الله ﷺ : «معاذ بن جبل أعلم

الناس بحرام الله وحلاله». ولذلك اختاره قاضيا إلى الجند باليمن يقضى بينهم ويعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقبض الصدقات من العمال الذين باليمن. وروى موسى بن على بن رباح عن أبيه قال: خطب عمر بن الخطاب بالناس بالجابية فقال: من أراد الفقه فليأت معاذ بن جبل، وكان عمر يقول حين خرج معاذ بن جبل إلى الشام: لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه، وفيما كان يفتيهم به، ولقد كنت كلمت أبا بكر أن يحبسه لحاجة الناس إليه، فأبى علىّ وقال: رجل أراد وجها - يعنى الشهادة - فلا أحبسُه، قلت: إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه. وهذا أبو سلمة الخولانى يقول: دخلت مسجد حمص، فإذا فيه زهاء ثلاثين كهلا من الصحابة، وإذا فيهم شاب أكحل العينين براق الثنايا ساكت فقلت من هذا؟ قيل: معاذ بن جبل، فوقعت محبته فى قلبى، وفى رواية الموطأ عن أبى إدريس الخولانى قال: دخلت مسجد دمشق فإذا فتى براق الثنايا وإذا الناس معه، فإذا اختلفوا فى شىء أسندوه إليه وصدروا عن رأيه، فسألت عنه فضيلاً؟ هذا معاذ بن جبل رضي الله عنه، فلما كان من الغد هجرت - أى بكرت للمسجد - فوجدته قد سبقنى بالتهجير ووجدته يصلى فانتظرته حتى قضى صلاته، ثم جئته من قبل وجهه فسلمت عليه، ثم قلت: والله إنى لأحبك لله، قال: آلله؟ فقلت: الله، فقال: آلله، فقلت: الله؟ فأخذ بحبوة ردائى فجبذنى إليه، فقال: أبشر فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: وجبت محبتى للمتحابين فىّ والمتجالسين فىّ والمتزاورين فىّ، والمتباذلين فىّ». حديث صحيح رواه مالك بإسناد صحيح.

وقال أبو نعيم فى الحلية: إمام الفقهاء وكنز العلماء. وقال عمر: عجزت النساء أن يلدن مثل معاذ ولولا معاذ لهلك عمر، أخرجه محمد بن مخلد العطار فى فوائده. وفى طبقات ابن سعد أن النبى ﷺ كتب إلى أهل اليمن لما بعث معاذا: إنى بعثت لكم خير أهلى.

نحن إذًا أمام موسوعة علمية جليلة، بالفقه، والحلال والحرام، والحديث، والقضاء، والقرآن، وحسن الخلق، ورعا وحلما وسخاء وحياء، مع الوسامة والجمال والبطولة والشجاعة رضي الله عنه وأرضاه.

أ.د. محمد نبيل غنايم

مراجع للاستزادة:

١ -الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر.
٢- الاستيعاب فى أسماء الأصحاب لابن عبد البر.
٣-الحلية لأبى نعيم.
٤- الطبقات لابن سعد.
٥- الاصطفا فى سيرة المصطفى لمحمد نبهان الخباز.
٦- دليل الفالحين شرح رياض الصالحين.
٧- أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير.

المقـــرى
(٩٨٦ - ١٠٤١هـ = ١٥٧٨ - ١٦٣٢م)

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، شهاب الدين، أبو العباس، المقرى، التلمسانى، الحافظ، المؤرخ، الأديب، صاحب (نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب).

والمقَّرِى نسبة إلى مقَّرَة، موطن أسرته القديم، وهى بلدة من أعمال قسنطية، وإليها ينتسب عدد من أكابر علماء المغرب.

ولد سنة ٩٨٦هـ = ١٥٧٨م فى مدينة تلمسان. وبها نشأ، وقد نشأ بها أبوه وأجداده من قبل، وتلقى بها دراسته الأولى، ودرس الأدب والحديث والفقه المالكى دراسة حسنة، وكان بين أساتذته عمه أبو عثمان سعيد المقرى مفتى تلمسان، وكانت تلمسان - مازالت حتى عصره - من أهم مراكز الدراسة الدينية بالمغرب الأوسط. وزار فاس لأول مرة سنة ١١٠٩هـ، وقضى بها حيناً فى الدرس، ثم عاد إلى تلمسان فى أواخر سنة ١٠١٠هـ وأقام بها حتى سنة ١٠١٣هـ. وفى هذه السنة ارتحل إلى فاس مرة أخرى واستقر بها، وكان ذلك فى فاتحة عصر السلطان أبى المعالى زيدان السعدى، وسنحت له فى فاس عاصمة المغرب الدينية والعلمية فرص الدرس المستفيض، ولاسيما فى المكتبة السلطانية، واتصل بمولاى زيدان وآله الأشراف السعديين أمراء مراكش، وولى الإمامة والخطابة لجامع القرويين الشهير بفاس، ثم ولى الإفتاء، واستمر فى منصبه حتى سنة ١٠٢٧هـ.

وفى أواخر سنة ١٠٢٧هـ اعتزم المقرى الرحلة إلى المشرق. وأنه أرغم على ذلك لأسباب وظروف يشير إليها ولا يوضحها، ونستطيع فهم هذه الظروف التى قضت عليه بالرحيل عن الوطن، على ضوء الحوادث التى كانت تجوزها مملكة فاس يومئذ، فقد تولى مولاى زيدان الملك دون أخويه المأمون وأبى فارس (سنة ١٠١٢هـ) ولم يلبث أن نشبت بينهما حروب أهلية متوالية، وهزم مولاى زيدان أولا وفر إلى تلمسان، ثم استعاد ملكه بعد عدة محاولات دموية، وبعد أن أجلى عنه غير مرة، فى سنة ١٠١٨هـ. بيد أن عهده كان مضطرباً فياضاً بالحروب والفتن. ولاريب أن المقرى لم ترقه هذه الحياة المضطربة، وأنه

اضطر إلى مغادرة المغرب تفادياً من عواقب الفتن والدسائس المستمرة، التى كانت تكدر صفو الحياة فى فاس، خصوصاً وقد نسب إليه أنه كان ينتمى إلى بعض الأطراف المتنازعة، وكان يخشى بذلك أن يقع فى يد الخصوم الظافرين فتسوء العاقبة. ومن هنا غادر المقرى وطنه فى أواخر شهر رمضان سنة ١٠٢٧هـ وركب البحر إلى مصر، وعانى من اضطرابه وروعته أهوالا مروعة. فكان الخوف مضاعفاً، ووصل إلى مصر بعد رحلة شاقة مزعجة فى أواخر سنة ١٠٢٧هـ، ونزل بالقاهرة فبهرته معالمها ومحاسنها، برغم ما أصابها فى ظل الحكم التركى من عفاء وتدهور، وأقام بها أشهراً، ثم اعتزم الرحلة إلى الحج فى أواخر سنة ١٠٢٨هـ (١٦١٨م)، فركب البحر إلى الحجاز، وطاف بالأماكن المقدسة، وعاد إلى القاهرة فى الحرم من العام التالى، ثم زار بيت المقدس فى شهر ربيع الأول، وعاد إلى القاهرة واستقر بها، وتزوج سيدة مصرية من سيدات الأسرة الوفائية، ولكنه لم يكن زواجاً موفقاً، وقد فصمت عراه وكرر المقرى الرحلة إلى الحجاز، وأدى فريضة الحج مراراً، فلم تأتى سنة ١٠٣٧هـ، حتى كان قد أداها خمس مرات، وجاور أثناء الحج فى مكة وفقاً لتقاليد العصر، وألقى بها كثيراً من دروسه، وأملى الحديث فى المدينة، وعاد إلى مصر من حجته الخامسة فى فاتحة سنة ١٠٣٧هـ (١٦٢٧).

واستقر المقرى فى القاهرة طوال هذه الأعوام، ولازم الدرس والتدريس بالجامع الأزهر، وتبوأ مكانته فى مجتمع مصر العلمى والأدبى، وكان يمضى كثيراً من الوقت برواق المغاربة، منقباً فى مكتبة هذا الرواق الغنية.

وفى رجب زار المقرى بيت المقدس مرة أخرى، وألقى بعض دروسه بالمسجد الأقصى، ثم غادرها بعد بضعة أسابيع إلى دمشق، فبهرته محاسنها كما بهرته القاهرة من قبل، ورحب به كبير علمائها ومفتيها الشيخ عبد الرحمن عماد الدين، واتصل بكثير من أدبائها وأعيانها، وبالأخص بالمولى: أحمد أفندى شاهين وهو من أعيانها الأدباء، وألقى بعض دروسه فى الحديث فى الجامع الأموى، فاحتشد الطلاب حوله من كل صوب، وحفل به المجتمع الدمشقى، وكان يُبكى السامعين بخطبه ومواعظه، ويتسابق العلماء والطلاب إلى لثم يده، وكان أثناء إقامته بدمشق يكثر الحديث فى حلقاتها الأدبية، عن الأندلس ومحاسن تاريخها وذكرياتها، وبالأخص عن وزيرها الكبير ابن الخطيب.

وعاد المقرى إلى القاهرة بعد أن أنفق فى دمشق بضعة أسابيع، وعكف حيناً على إنجاز المهمة التى أخذها على نفسه، وهى البدء فى كتابة ترجمة ابن الخطيب، والتعريف بمآثره

وتراثه، وبدأ بوضع مؤلفه حسبما يخبرنا فى شهر ذى القعدة سنة ١٠٣٧، ويقول لنا إنه استطاع أن ينجز منه قسماً لا بأس به، ولكن عاقته عن إتمامه مشاغل وهموم. والظاهر أن المقرى لم يكن فى مقامه النائى عن وطنه، هانئاً قرير البال، فهو يحدثنا غير مرة عن آلام الغربة ومتاعبها.

وكان المقرى منذ عوده من دمشق قد طلق زوجته الوفائية، ووضع بذلك حداً لتلك الحياة الزوجية الكدرة. وما كاد يتم مؤلفه حتى أزمع العودة إلى دمشق ليتصل فيها بأصدقائه، وليطلعهم على مؤلفه الذى وضعه نزولا على إشارته. ولكن الموت عاجلة فتوفى فى جمادى الآخرة سنة ١٠٤١هـ (يناير ١٦٣١م)، ودفن بقرافة المجاورين بالقاهرة.

غير أن ذلك المؤلف الأول لم يكن هو «نفح الطيب» كما انتهى إلينا. ذلك أنه خطرت للمقرى بعد الفراغ من التعريف بابن الخطيب فكرة أخرى، هى أن يمهد لكتابه بذكر الأندلس وتاريخها ومحاسنها وذكرياتها، وتطورت هذه الفكرة حتى غدت هيكل الكتاب الأصلى، فاستمر فى الكتابة عاماً وبضعة أشهر أخرى. وأتم مؤلفه حسب وضعه الجديد، كما يحدثنا فى خاتمة كتابه فى آخر ذى الحجة سنة ١٠٣٩هـ (١٦٢٩ - ١٦٣٠م) واختار عندئذ لكتابه اسماً جديداً، هو الذى انتهى به إلينا وهو:

«نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب».

والواقع أنه من التواضع أن يُسمى «نفح الطيب» كتاباً. فهو موسوعة ضخمة عن الأندلس وتاريخها وجغرافيتها وآدابها. ومن المدهش حقاً أن يستطيع المقرى أن يضع مثل هذا الأثر الضخم فى مثل هذه المدة القصيرة، ولكن سنرى أن فضل المقرى فى وضعه، يرجع إلى الاقتباس أكثر مما يرجع إلى التأليف، وسنرى مع ذلك أن للمقرى فى هذا الاقتباس فضلا لايقدر، وأن نفح الطيب هو من أقيم مصادرنا العربية عن تاريخ الأندلس وآدابها.

وأما عن منهجه فى كتابه «نفح الطيب» فإنه: يقسم كتابه عن الأندلس إلى قسمين كبيرين: يخصص أولهما للتعريف بالأندلس وتاريخها وآدابها. والثانى للتعريف بابن الخطيب. ويشمل كل قسم على ثمانية أبواب. ويشمل الأول وصف الأندلس وجغرافيتها، وفتحها على يد موسى وطارق، وتاريخها فى عهد الولاة وبنى أمية وملوك الطوائف، ووصف قرطبة ومعاهدها وضواحيها ومتنزهاتها، ثم التعريف بالراحلين من الأندلس إلى المشرق والوافدين من المشرق على الأندلس، واستعراض آداب الأندلس ومنثورها ومنظومها، ثم تاريخ الصراع الأخير بين الأندلس وأسبانيا النصرانية، وسقوطها

الأخير فى يد النصارى. ويشتمل القسم الثانى على نشأة ابن الخطيب وتدرجه فى طريق المجد، وما لقى من الأحداث والمحن، حتى وفاته، وذكر أساتذته وشيوخه، وما وجه إليه من الرسائل ونثره ونظمه، وذكر مؤلفاته، وذكر بعض تلامذته الآخذين عنه، ثم ذكر أولاده ووصيته.

وذلك أن المقرى لم يكن مؤرخاً بالمعنى الحقيقى بل كان أديباً فقط، وهو لايزعم أنه مؤرخ أو محقق أو ناقد، وإنما يقول لنا أنه ناقل فقط، يورد من المعلومات والشذور ما اتفق، ولايعنى بتمحيصها أو تحقيقها.

ولكنا نشعر مع ذلك أن للمقرى فى كتابه شخصية قوية، ونشعر بالأخص أن حرارة تنبعث من هذه الصحف الأندلسية. ذلك أن المقرى يكتب عن الأندلس. بروح يضطرم إعجاباً وأسى. ولا غرو فقد كانت ذكريات الأندلس ماتزال فى عصره حية مضطرمة فى المغرب، ولم يكن قد مضى أكثر من قرن على سقوط الأندلس النهائى فى يد أسبانيا النصرانية، بل لقد وقع فى عصر المقرى بالذات حادث أذكى هذه الذكريات المشجية، هو نفى «الموريسكيين» أو العرب المتنصرين من أسبانيا (فى سنة ١٠١٨هـ - ١٦٠٩م). والعرب المتنصرون هم بقية الشعب الأندلسى المجيد، أرغموا على التنصر بعد سقوط الأندلس، وقد وفدت منهم عند النفى عشرات الألوف إلى ثغور المغرب وقواعده، وعاد معظمهم إلى الإسلام، وشهد المقرى هذه الخاتمة المؤسية، وهو يومئذ بفاس، وشهد ألوفاً من أولئك العرب المتنصرين، وتركت هذه الذكريات والمشاهد المؤلفة فى نفسه أعمق الآثار، وأذكت فى نفسه بلا ريب شغف التنقيب عن تاريخ الأندلس وأحوالها وآدابها، ولم يستصحب معه حين الرحلة سوى القليل من المراجع، ومنها أوراق سودها وأشياء علقت بذاكرته. ويقول لنا أيضاً «إنه لو أحضر ما خلفه مما جمع فى ذلك الغرض وألف، لقرت به عيون وسرت به ألباب...»، وإذا كان المقرى يعنى بهذا القليل من مادته ما ضمنه كتابه، فلا ريب أن ما جمعه من المواد الأصلية كان غزيراً جداً، ذلك لأن هذا القليل الذى ضمنه «نفح الطيب» هو فى ذاته مجموعة حافلة من المواد والوثائق المختلفة، التى تلقى أعظم الضياء على تاريخ الأندلس وآدابها.

وقد قلنا إن المقرى ناقل ومصنف، ولكن له فى هذا النقل والتصنيف فضلا لايقدر، فقد نقل إلينا عشرات الشذور والوثائق من مصادر أندلسية جليلة، لا وجود لها اليوم، بل نقل إلينا رسائل وكتباً برمتها، بددت ولم نظفر بأصولها حتى اليوم، ولولا عناية المقرى بنقلها وتصنيفها، لحرمنا إلى الأبد من هذه المراجع والوثائق الهامة.

ولقد كان المغرب الأقصى حتى عصر المقرى أعظم مستودع لتراث الأندلس الأدبى، وكانت مكاتب المغرب ولاسيما مكتبة الأشراف السعديين عامرة إلى ذلك العهد، بكثير من الآثار الأندلسية النادرة، وكان لمولاى زيدان سلطان فاس لعهد المقرى، شغف خاص بجمع الكتب النادرة، وقد انتفع المقرى بهذا التراث الحافل، واغترف منه وقيد ما شاء. ولكن الظاهر أيضا أن هذا التراث قد بدد معظمه بعدئذ بقليل.

وقد جمع المقرى مادته ودون مذكراته أثناء مقامه بفاس بين سنتى ١٠١٣ - ١٠١٧هـ، (١٦٠٢ - ١٦٠٦م) وكان بذلك من أواخر أولئك الذين استطاعوا من أدباء جيله، أن يظفروا بمراجعة هذا التراث والانتفاع به.

ومما يدل على أن المقرى انتفع بنوع خاص بالمراجعة فى مكتبة مولاى زيدان التى فقدت، أنه ينقل عن نسخة وحيدة من مسند الخطيب ابن مرزوق التلمسانى، كانت ضمن هذه المجموعة ولا تزال فى الإسكوريال. وكذلك يستقى معظم روايته عن سقوط غرناطة وعن العرب المتنصرين من كتاب «أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر»، وقد كانت منه نسخة وحيدة أيضاً فى الإسكوريال. وقد ضاعت فيما بعد.

ولا يتسع المقام هنا لاستعراض المصادر العديدة التى نقل عنها المقرى، ما ضاع منها ومايزال قائماً. ويكتفى أن نقول إن طائفة كبيرة من المصادر الأندلسية الجليلة التى ينقل عنها قد اختفت ودرست معالمها، وقد نقل المقرى عن تاريخ ابن حيان الكبير مؤرخ الأندلس، وهو الذى انتهت إلينا من مؤلفه الكبير «المقتبس» فى العصر الأخير قطع كثيرة، وكذا عن تواريخ الحميدى والحجارى وابن بشكوال والرازى وابن سعيد الأندلسى وغيرهم، وكتب عديدة لابن الخطيب ماتزال مخطوطة، وكان من أخصب مصادره أيضاً نسخة كاملة من كتاب «الذخيرة» لابن بسام، ومازال معظمه مخطوطاً حتى اليوم، وآثار كثيرة أخرى لم يظفر البحث الحديث بشىء من أصولها القديمة، وقد نقل المقرى إلينا الكثير منها، وهذا مما يزيد اليوم فى فضله وفى أهمية كتابه.

ويتصل بمجهود المقرى عن الأندلس كتابه «أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض» وهو سفر كبير يخصصه لترجمة الفقيه الكبير عياض السبتى، واستعراض آثاره على نحو ما يكتب عن ابن الخطيب. بيد أنه يستطرد كعادته ويذهب فى الحديث شجوناً شتى، وينقل إلينا بعض الأقوال والوثائق المتعلقة بسقوط غرناطة، وتاريخ الموريسكيين أو العرب المتنصرين.

ولهذه الوثائق على قلتها وإيجازها أهمية خاصة، لأنها كل ما انتهى إلينا من الرواية

الإسـلامـيــة فى هذا الموطن، وهى أقــوال معـاصـرين للمـأسـاة شهـدوا بعض حـوادثها بأعـينهم، أو سـمـعـوا أخـبـارهـا فى الضـفـة الأخرى عن الأندلسيين الواردين على المغرب، منها رسالة لمجهول يظهر أنه من معـاصـرى سـقـوط غـرناطة يصف فـيـهـا نقض ملك قشتالة لعهوده أزاء المسلمين، وما اتخذه النصارى من وسائل الإرغام والقهر لإكراه المسلمين على التنصر، وما فرضته محاكم التحقيق (التفتيش) على المخالفين من العقوبات المروعة، ومنها قصيدة طويلة لأبى العباس أحمد الدقون أحد علماء المغرب فى القرن التاسع وعنوانها «الموعظة الغراء بأخذ الحمراء» يرثى فيها الأندلس، ومنها أيضاً وثيقة ذات أهمية تاريخية خاصة، وهى رسالة كتبها أندلسى متنصر عقب سقوط غرناطة إلى بايزيد الثانى سلطان الترك يستغيث به، ويستصرخه لنصرة إخوانه العرب المتنصرين، ويصف له فى شعر قوى التعبير على الرغم من ركاكته، ما يصيب العرب المتنصرين من أهوال ديوان التحقيق وروائع مطاردته وعقوباته، وهذه غيرها من الوثائق والشذور التى ينقلها إلينا المقرى، فى «أزهار الرياض» قد ضاعت أصولها، ولولا عناية المقرى بنقلها لما ظفرنا بها.

وهذان الأثران الكبيران هما أهم ما فى تراث المقرى. بيد أن للمقرى ثبتاً آخر من الكتب والرسائل الأدبية والدينية انتهى إلينا معظمه، ومن ذلك «إضاءة الدجنة فى عقائد أهل السنة» و«فتح المتعال فى مدح النعال المستشرفة بخير الأنام» و«حسن الثنى فى العفو عمن جنى» «وقطف المهتصر فى أخبار المختصر» و«عرف النشق فى أخبار دمشق» و«روض الآس العاطر الأنفاس فى ذكر من لقبته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس» و«الدر الثمين فى أسماء الهادى الأمين» وغيرها.

ويقول لنا المقرى إنه حينما كان بالمغرب، اعتزم أن يضع كتاباً ممتعاً عن بلدة تلمسان بعنوان «أنواء نيسان فى أنباء تلمسان»، وأنه كتب بعضه بالفعل، ثم حالت الأقدار دون إتمامه. ويقول لنا أيضاً إنه كان ينوى، متيمناً بأمداح النبى، أن يؤلف كتاباً عنوانه «روضة التعليم فى ذكر الصلاة والتسليم، على من خصه الله تعالى بالإسراء والمعاينة والتكليم». ولكنه لم يوفق إلى كتابته.

هذا وتحتفظ المكتبة الملكية فى كوبنهاجن بنسخة مخطوطة من مؤلف للمقرى عنوانه «كتاب تاريخ الجمان فى أخبار الزمان».

وقد كتب المقرى معظم كتبه فى القاهرة، وكتب بعضها فى مكة، والمرجح أنها كتبت جميعها أو كتب معظمها قبل «نفح الطيب» لأن المقرى لم يعش بعد كتابته طويلا كما رأينا.

وكان المقرى يحتل فى المجتمع القاهرى الأدبى مكانة رفيعة، ويكفى أن نذكر هنا ما وصفه به المحبى، الذى ترجمه بعد ذلك بنحو نصف قرن: «حافظ المغرب لم ير نظيره فى جودة القريحة، وصفاء الذهن وقوة البديهة، وكان فى غاية باهرة فى علم الكلام والتفسير والحديث، ومعجزاً باهراً فى الآداب والمحاضرات»، والواقع أن المقرى يكتب بأسلوب قوى وبيان ساحر، يشهدان له بغزارة البلاغة فى عصر كان الأدب العربى يجوز فيه مرحلة انحطاط قوى.

وقد أخرجت مطبعة بولاق كتاب «نفح الطيب» كاملا فى سنة ١٢٧٩هـ (١٨٦٢م) فى أربعة أجزاء كبيرة، وكان جماعة من المستشرقين على رأسهم العلامة دوزى قد عملت قبل ذلك لإخراج القسم الأول من كتاب «نفح الطيب» وهو الخاص بالأندلس بين سنتى ١٨٥٥ ـ ١٨٦١م تحت عنوان Analectes sur l'Histoire et Littérature des Arabes d'Espagne ومهد لهذه الطبعة المستشرق دوجا بترجمة للمقرى. وطبع نفح الطيب بالقاهرة بعد ذلك أكثر من مرة فى أربعة أجزاء أيضاً على نسق طبعة بولاق. ونشر فى تونس الجزء الأول من أزهار الرياض فى سنة ١٩٢٢، ونشرت بعض آثار المقرى الأدبية مثل كتاب «حسن الثنا فى العفو عمن جنى» (القاهرة). وظهرت فى سنة ١٨٤٠م فى لندن ترجمة إنجليزية ملخصة للقسم الأول من نفح الطيب، بقلم المستشرق الإسبانى الدون جاينجوس تحت عنوان «تاريخ الدول الإسلامية فى أسبانيا» The History of the Mohamedan Dynaties in Spain مقروناً بتعليقات وفهارس قيمة، وترجم للمقرى غير من ذكرناهم أكثر من مستشرق، مثل فستنفلد فى كتابه «مؤرخو العرب» بالألمانية، وبروكلمان فى «تاريخ لأدب العربى» (بالألمانية أيضاً). والأستاذ ليفى بروفنسال فى كتابه «مؤرخو الأشراف» بالفرنسية، وآخرون غير هؤلاء.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - تراجم إسلامية. لمحمد عبد الله عنان ص٣٧٣ - ٣٨٦ بتصرف.
٢ - معجم البلدان لياقوت الحموى.
٣ - نفح الطيب للمقرى جـ٤/٦٧٥.
٤ - أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض جـ١/١٠.
٥ - خلاصة الأثر للمحبى جـ١/٣٠٢.
٦ - الأعلام للزركلى جـ١/٢٣٧.
٧ - المراجع العربية لعبد الله إسماعيل الصاوى ص ١٠٧ - ١٢٧.

المقريـــزى
(٧٦٦ - ٨٤٥هـ = ١٣٦٥ - ١٤٤٢م)

تقى الدين أبو العباس: أحمد بن على بن عبد القادر، المقريزى، الشافعى، شيخ مؤرخى مصر الإسلامية. ينتسب إلى أسرةٍ ترجع أصولها إلى بعلبك فى لبنان الحالية، وتشير نسبة المقريزى إلى إحدى حارات هذه المدينة التى تعرف بحارة المَقَارِزَة.

ولد المقريزى فى حارة برجوان بالقاهرة سنة ٧٦٦هـ = ١٣٦٥م.

ورغم أن جَدَّ المقريزى الشيخ محيى الدين أبا محمد عبد القادر بن محمد بن إبراهيم، قد تردد على القاهرة إلا أنه لم يستقر بها، فقد توفى بدمشق فى ١٢ ربيع الأول سنة ٧٣٣هـ = ١٣٣٢م. وكان علاء الدين على بن عبد القادر، والد المقريزى، هو الذى انتقل نهائيًا إلى القاهرة، حيث تزوج بها واستقر فيها حتى وفاته سنة ٧٧٩هـ = ١٣٨٤م.

كان مذهب أسرة المقريزى، على الأقل اعتبارًا من جد المقريزى، هو المذهب الحنبلى، فقد كان عبد القادر بن محمد المقريزى من أعيان فقهاء الحنابلة ومن كبار المحدثين. وعندما هاجر ولده على بن عبد القادر إلى مصر واستقر فى القاهرة «باشر التوقيع السلطانى وعدة وظائف، وكان الأغلب عليه صناعة كتابة الإنشاء والحساب». ورغم أن المذاهب الشائعة فى مصر فى هذا الوقت كانت المذهب الشافعى والمذهب المالكى، فقد صاهر والد المقريزى أسرة حنفية المذهب، حيث تزوج من ابنة أحد كبار فقهاء الحنفية، وتدعى أسماء ابنة الشيخ شمس الدين محمد ابن عبد الرحمن بن على بن الصائغ، فى المحرم سنة ٧٦٥هـ = ١٣٦٤م، الذى شغل بعض الوظائف الهامة، حيث تولى إفتاء دار العدل سنة ٧٦٥هـ = ١٣٦٤م، ثم تولى قضاء العسكر وتدريس المذهب الحنفى بجامع ابن طولون سنة ٧٧٣هـ = ١٣٧٢م، وكان الطلبة يترددون على داره ليلاً لأخذ علم القراءات عليه، إلى أن توفى فى سنة ٧٧٦هـ = ١٣٧٥م.

هكذا نشأ المقريزى فى بيت علم، وحتى يستفيد من علاقات جده لأمه وصلاته العلمية، تلقى المقريزى علومه الدينية على المذهب الحنفى بدلاً من المذهب الذى كان

عليه أباؤه، وظل كذلك حتى بعد وفاة جده ابن الصائغ سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٥م. ولكن بعد وفاة والد المقريزى على بن عبد القادر بعد ذلك بثلاث سنوات سنة ٧٧٩هـ/١٣٧٨م، تحول شافعيا واستقر على هذا المذهب حتى وفاته، فقد كان المقريزى يرى أن انتسابه للمذهب الشافعى سيساعده على الاندماج فى المجتمع المصرى، أكثر من المذهب الحنبلى؛ مذهب أبائه، والأكثر تشدداً من المذهب الحنفى، الذى كان يرى أنه أكثر تسامحاً، وإن احتفظ له ببعض الخباء، يتضح من معاداته بعد ذلك للكثيرين من المنتسبين لهذا المذهب، ومنهم المؤرخ صارم الدين المعروف بابن دقماق.

وتتلمذ المقريزى لمشيخة فاضلة من علماء عصره، بلغوا حسب إحصائه لهم - كما نقل عنه السخاوى - ستمائة نفس، أخذ عنهم الفقه، والحديث، والقراءات، واللغة، والنحو، والأدب، والتاريخ.

ولا شك أن أهم شيوخ المقريزى الذين أثروا فيه واستفاد منهم، وعلى الأخص فى مجال التاريخ وخاصة التاريخ العمرانى والاقتصادى والاجتماعى، أستاذه مؤسس علم الاجتماع العلامة التونسى عبد الرحمن بن خلدون. فقد اجتمع المقريزى بابن خلدون منذ قدومه إلى مصر واستقراره بها سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م. وترجم المقريزى لشيخه ابن خلدون ترجمة مطولة فى كتابه «درر العقود الفريدة»، أظهر فيها إعجابه الشديد به وبكتابه «العبر وديوان المبتدأ والخبر».

ومن خلال مقدمته لكتابه «المواعظ والاعتبار» المعروف بـ «الخطط»، نرى المقريزى مواطنا مصريا غيورا كرس جهده العلمى، طوال حياته، لكتابة تاريخ مصر السياسى والاجتماعى والاقتصادى، ولإحياء معالم مسقط رأسه القاهرة، وتوضيح مجاهلها، وتجديد مآثرها وترجمة أعيانها. يقول فى مقدمة «الخطط»: «كانت مصر هى مسقط رأسى، وملعب أترابى، ومجمع ناسى، ومغنى عشيرتى وحامتى، وموطن خاصتى وعامتى، وجَوّىِ الذى رُبّى جناحى فى وكره وعش مأربى». ويقول عن مسقط رأسه حارة برجوان: «وما برحنا ونحن شباب نفاخر بحارة برجوان سكان جميع حارات القاهرة».

وعندما بلغ المقريزى أشده تقلب فى العديد من الوظائف الديوانية، حيث باشر التوقيع السلطانى عند القاضى بدر الدين محمد بن فضل الله العمرى، جالساً بقاعة الإنشاء المجاورة لقاعة الصاحب بقلعة القاهرة إلى نحو سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م.

وفى ١١ رجب سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م ولى المقريزى حسبة القاهرة والوجه البحرى،

مفوضا عن شمس الدين محمد المحاسبى، وفى ١٧ ذى القعدة من العام نفسه خلع عليه وكتب له بحسبة القاهرة، بعد تولى الناصر فرج بن برقوق. ولا شك أن شغله لوظيفة الحسبة قد منحه تدريبًا عمليًا حول بعض القضايا الاقتصادية، استعان بها فى مؤلفاته خاصة «إغاثة الأمة»؛ كما أن مباشرته للتوقيع السلطانى بديوان الإنشاء عرَّفه بعالم رجال الدولة ومشاكله، التى لا شك فى إفادته منها كمؤرخ فيما بعد.

وقد تولى المقريزى كذلك فى تواريخ نجهلها نيابة الحكم، والخطابة بجامع عمرو وبمدرسة السلطان حسن، وإمامة ونظر جامع الحاكم. وربما شغل المقريزى هذه الوظائف فى الفترة التى اتصل فيها بالسلطان الظاهر برقوق، بواسطة شيخه عبد الرحمن بن خلدون، حيث نال منه حظوة. وفى هذه الفترة وَطَّد المقريزى صلته بأحد كبار الأمراء هو يَشْبَك بن عبد الله الأتابكى الشعبانى الذى لعب دورًا نشطًا فى أثناء الاضطرابات الدامية التى سادت فى زمن الناصر فرج بن برقوق. وربما بسبب هذه العلة، دخل المقريزى إلى دمشق بصحبة الناصر فرج فى فترة مليئة بالفوضى السياسية، وأخذ يتردد عليها حتى سنة ٨١٥هـ = ١٤١٢م، حيث تولى بها نظر وقف القلانسى والبيمارستان النورى، وتدريس دار الحديث الأشرفية والمدرسة الإقبالية. وعَرَضَ عليه الناصر فرج أثناء وجوده بالشام قضاء الشافعية، فأبى قبوله؛ لأنه شعر أن وراء هذا العرض بعض الشبهات.

كانت إقامة المقريزى فى دمشق هذه الفترة، هربًا من الجو السياسى المضطرب والخطير، الذى كان سائدًا حينئذ فى العاصمة المصرية. وعندما عاد المقريزى إلى القاهرة سنة ٨١٥هـ = ١٤١٢م إثر مقتل الناصر فرج، كان النظام المملوكى قد بدأ يعرف استقرارًا نسبيًا فى زمن سلطنة المؤيد شيخ المحمودى (٨١٥ - ٨٢٥هـ = ١٤١٢م - ١٤٢١م) ويبدو أن المقريزى قد وضع آمالاً كبارًا فى السلطان الجديد، وربما كانت هناك صلة بين هذه المشاعر وتقلد المقريزى تدريس الحديث بالمدرسة المؤيدية، التى أنشأها السلطان، ملاصقة لباب زويلة بالقاهرة، ولا ندرى الوقت الذى أمضاه المقريزى فى تولى وظيفة تدريس الحديث بالمؤيدية، وربما انتهت هذه المدة بوفاة المؤيد نفسه سنة ٨٢٥هـ = ١٤٢١م.

وطوال العشرين عامًا التالية أعرض المقريزى عن الوظائف العامة، وأبعده عنها السلاطين وخاصة برسباى «فأقام ببلده عاكفًا على الاشتغال بالتاريخ حتى اشتهر به

ذكره، وبَعُد فيه صيته»، كما يقول السخاوى، ولم يقطع هذا الاعتكاف سوى مجاورته فى مكة بين سنتى ٨٣٤هـ/١٤٣٠م و٨٣٩هـ/١٤٣٥م حيث حدَّث فيها ببعض مروياته وتصانيفه؛ ومن أهمها كتاب «إمتاع الأسماع»، الذى بدأ فى إسماعه فى أول أيام رمضان سنة ٨٣٤هـ/١٤٣٠م بالمسجد الحرام تجاه الميزاب.

وقد استغل المقريزى مجاورته فى مكة فى جمع معلومات لبعض مؤلفاته الصغيرة، وخاصة عن بلاد العرب الجنوبية والحبشة، عن طريق اتصاله بحجاج بيت الله، وهى المؤلفات التى كتب مسوداتها هناك سنة ٨٣٩هـ = ١٤٣٥م، وبَيَّضها بعد عودته إلى القاهرة سنة ٨٤١هـ = ١٤٣٧م حيث ظل مقيمًا منقطعا فى داره بحارة برجوان «ملازما للعبادة والخلوة لا يتردد إلى أحد إلا لضرورة» يكمل مؤلفاته التى زادت على مائتى مجلدة كبار، حتى وافاه الأجل بعد مرض طويل فى عصر يوم الخميس سادس عشر رمضان سنة ٨٤٥هـ = ٦ فبراير سنة ١٤٤٢م ودفن فى اليوم التالى بحوش الصوفية البيبرسية خارج باب النصر بالقاهرة رحمه الله.

وخلف لنا المقريزى العديد من المؤلفات التى يغلب عليها جميعا علم التاريخ. وأهم هذه المؤلفات التى خلدت اسم المقريزى كتابه الرائد: «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار» وبلغ فن التأليف فى الخطط ذروته مع هذا الكتاب الذى يحتل مكان الصدارة بين بقية مؤلفاته. وهذا الكتاب بإجماع آراء الباحثين أهم كتاب فى تاريخ مصر وجغرافيتها وطبوغرافية عاصمتها، منذ الفتح الإسلامى حتى القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى.

وخصص المقريزى كذلك العديد من كتبه؛ ليعرض فيها تطور تاريخ مصر عبر القرون. وبما أن كتاب «المواعظ والاعتبار» يحتل مكان القلب بين إنتاجه الفكرى، فقد قصد المقريزى أن يشرح ما أجمله فى هذا الكتاب من أخبار الدول الإسلامية، التى تعاقبت حكم مصر مع فى بعض مؤلفات تاريخية مفصلة. فالوقت الذى لم تكن فيه الفسطاط سوى عاصمة إقليم (٢١ - ٣٥٨هـ = ٦٤١ - ٩٦٥م) سجَّل المقريزى أحداثه التاريخية فى كتاب «عقد جواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط»، وهو كتاب مفقود إلى الآن.

أما الفترة التالية لذلك والتى أصبحت فيها مصر خلافة مستقلة تناوئ العباسيين (٣٥٨ - ٥٦٧هـ = ٩٦٩ - ١١٧١م)، وبنى فيها الفاطميون - حكام مصر الجدد - مدينة القاهرة لتكون عاصمة الإمبراطورية العالمية

التى حلموا بتكوينها، فقد سجل المقريزى تاريخها فى مؤلف كبير هو «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا».

وعندما أصبحت قلعة الجبل مركز الحكم فى مصر، سجل المقريزى تاريخ السلاطين سادة القلعة وخلفاء صلاح الدين والمماليك، فى تاريخ ضخم للسلاطين الأيوبيين والمماليك وصل فيه إلى ما قبل وفاته مباشرة (٥٦٧ - ٨٤٤هـ = ١١٧١ - ١٤٤١م)، عنوانه «السلوك لمعرفة دول الملوك».

وعلى ذلك فإنه توجد بين وصف المقريزى لمدن وآثار مصر، وخطط عاصمتها، وبين مؤلفاته التاريخية الكبيرة، وحدة عميقة هى فعالية المؤرخ، التى تقوده إلى عرض وتحليل ما أدمجه أو اختصره فى مؤلفه الذى يحتل مكان الصدارة بين جميع مؤلفاته.

وبدأ المقريزى أثناء تأليفه هذه المؤلفات الضخمة، فى إعداد معجم ضخم ترجم فيه لمشاهير العلماء والأدباء والشعراء، الذين عاشوا فى مصر أو قدموا إليها منذ الفتح الإسلامى وحتى أواسط القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، هو كتاب «التاريخ الكبير المقفى»، أو «المقفى الكبير»، ذكر أبو المحاسن بن تغرى بردى تلميذ المقريزى، أنه قال له: «لو كمل هذا التاريخ على ما أختاره لجاوز الثمانين مجلداً».

وعندما ناهز المقريزى من العمر الخمسين (بعد سنة ٨١٦هـ/١٤١٣م)، فقد معظم أصحابه وأقربائه، واشتد حزنه لفقدهم فأملى ما حَضَره من أبنائهم فى كتاب سماه «درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة»، ثم جمع فيه بعد ذلك أخبار من أدركه من الملوك والأمراء وأعيان الكتاب والوزراء، وكذلك رواة الحديث والفقهاء، من ابتداء سنة ستين وسبعمائة.

وأثناء مجاورته بمكة ابتداء من سنة ٨٣٤هـ = ١٤٣٠م، ألف المقريزى كتابه «إمتاع الأسماع بما للرسول ﷺ من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع»، كما كتب كتابا آخر عنوانه «الخبر عن البشر» جعله كالمدخل إلى كتاب «إمتاع الأسماع».

أما مؤلفات المقريزى الصغيرة، فقد تناول فيها عرضًا موجزًا لتاريخ بعض أطراف العالم الإسلامى، مما لم يعن به مؤرخون آخرون مثل «الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام»، و«الطرق الغريبة فى أخبار وادى حضرموت العجيبة»؛ أو ترجم فيها تراجم مختصرة لمجموعة من الملوك مثل كتابيه «الذهب المسبوك بذكر من حج من الخلفاء والملوك» و«تراجم ملوك الغرب»، وناقش المقريزى فى مجموعة أخرى من الرسائل بعض مشكلات أو نواحى التاريخ

الإسلامى، يمثلها كتاب «النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم»، وكتاب «معرفة ما يجب لآل البيت»، وكتاب «ضوء السارى فى معرفة خبر تميم الدارى»، وكتاب «الإشارة والإعلام ببناء الكعبة وبيت الله الحرام».

واهتم المقريزى أيضا بدراسة بعض النواحى العلمية البحتة، وبالتأريخ لبعض المظاهر الاجتماعية والاقتصادية فى العالم الإسلامى عامة أو فى مصر خاصة، يمثلها كتاب «المقاصد السنية لمعرفة الأجسام المعدنية»، وكتاب «شذور العقود فى ذكر النقود»، و«الأوزان والأكيال الشرعية»، وكتاب «نَحْل عبر النحل» وكتاب «البيان والإعراب بمن نزل مصر من الأعراب» وكتاب «إزالة التعب والغناء فى معرفة حل الفناء»، و«الإشارة والإيماء إلى حل لغز الماء» وأخيرًا كتاب «إغاثة الأمة بكشف الغمة»، الذى يؤرخ فيه المقريزى للغلاء والمجاعات التى أصابت مصر منذ أقدم العصور إلى سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٨م وأسبابها.

أ. د. إيمن فؤاد سيد

مراجع للاستزادة:

١- انظر ترجمة المقريزى عند، ابن حجر، إنباء الغمر بأبناء العمر ٤:١٨٧ - ١٨٨.

٢- العينى: عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان (تحقيق عبد الرزاق القرموط، القاهرة - الزهراء للإعلام العربى ١٩٨٩م) ٥٧٤.

٣- أبى المحاسن: النجوم الزاهرة ١٥:٤٩٠ - ٤٩١، المنهل الصافى ١:٤١٥ - ٤٢٠، حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور (تحقيق فهيم محمد شلتوت، القاهرة ١٩٩٠م) ١:٣٩ - ٤١.

٤- ابن الصيرفى: نزهة النفوس والأبدان ٤:٢٤٢ - ٢٢٤.

٥- السخاوى: الضوء اللامع ٢:٢١ - ٢٥، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ٢١ - ٢٤.

٦- ابن إياس: بدائع الزهور ٢:٢٣١ - ٢٣٢.

٧- الشوكانى: البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن التاسع ١:٧٩ - ٨١.

٨- على مبارك: الخطط التوفيقية ٩: ٦٩ - ٧٠.

٩- محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية ٤٤ - ٥٩، مؤرخو مصر الإسلامية ٨٥ - ١٠٤.

١٠- محمد مصطفى زيادة: المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ٦ - ١٧.

١١- كراتشكوفسكى: تاريخ الأدب الجغرافى العربى ٤٧٦ - ٤٨٧.

١٢- سعيد عبد الفتاح عاشور: «أضواء جديدة على المؤرخ أحمد بن على المقريزى وكتاباته»، عالم الفكر - الكويت ١٤ (١٩٨٦) ٤٥٣ - ٤٩٨.

١٣- أيمن فؤاد سيد: «ملاحظات حول تأليف خطط المقريزى»، مجلة معهد المخطوطات العربية ٢٦ (نوفمبر ١٩٨٠م) ١٣ - ٣٦.

١٤- محمد كمال الدين عز الدين على، المقريزى مؤرخا، بيروت: عالم الكتب ١٩٩٠؛ مجموعة من العلماء: دراسات عن المقريزى: القاهرة ١٩٧١م.

١٥- Brockelman., GAL II, 47 (38), S II, 36-38; id., EI[1] art. al-Makrîzî III p. 186; Rosenthal, F., EI[2]., art. al-Makrîzî VI, pp. 177-178; Fu'âd Sayyid, A., "Remarques sur la composition des Khitat de Makrîzî d'après un manuscrit autographe", Hammages à la mémoire de Serge Sauneron, IFAO 1979, II, pp. 231-258; Garcin, J.-Cl., "Al-Makrizi, un historien; encyclopédique du afro-oriental", Les Africains IX (Paris 1978) pp. 197-223; Rabbat, N.O., "Al-Makrizi Khitat, an Egyptain Lieu de mémoire" in The Cairo Hertage - Eassys in Honor of Lalia Ali Ibrahim, ed. by Doris Behrens - Abouseif, Cairo - AUC 2000, pp. 16-30; Jarrar, S. "Al-Makrizi's Reivention of Egyptain Historiography through Archeitecural History ", pp. 31-54. ؛ ومقدمة أيمن فؤاد سيد لنشرة كتاب «المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار»، لندن - مؤسسة الفرقان للتراث.

ابن المقفع
(١٠٦ - ١٤٢هـ = ٧٢٤ - ٧٥٩م)

هو أبو محمد: عبد الله بن المقفع، فارسى الأصل، كان اسمه قبل إسلامه: دَوْزَبَة، وكنيته: أبا عمرو، فلما أسلم، سُمِّىَ: عبد الله، وكنى بأبى محمد.

ويرجع لقبه بابن المقفع إلى أن أباه: «دَوْزَبَة» كان مُتولياً خراج بلاد فارس من قِبل الحجاج، فأخذ بعض أموال السلطان، فضربه الحجاج على يديه فتقفعتا، فلقب بالمقفع، وقيل غير ذلك.

كان ابن المقفع أحد فحول البلاغة، وأول من عرَّب وألف، وأول من أدخل إلى العربية الحكمة الفارسية، والمنطق اليونانى، وعلم الأخلاق، وسياسة الاجتماع، وهو أحد أعلام القرن الثانى الهجرى.

ولد مجوسيا مزدكيا، فى العراق سنة ١٠٦هـ الموافق سنة ٧٢٤م وأسلم على يد عيسى بن على، عم الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى.

وقتل فى البصرة سنة ١٤٢هـ الموافق ٧٥٩م، قَتَله سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عزل سليمان، لضغينة عليه، واتهامه من حساده بالزندقة والكيد للإسلام. ولم يُحَقَّق معه قبل قتله على ذلك، ولم يثبت عليه شىء من هذه التهمة فى كتبه.

وترجع نشأته إلى وَلاءِ بنى الأهتم فى البصرة، وهم أهل فصاحة وبلاغة، بالإضافة إلى أن البصرة آنذاك، كانت حَلَبَة العرب، ومجمع الفقهاء، والرواة، والمحدثين وأصحاب اللغة، ومنتدى البلغاء والشعراء، مما كان له أعظم الأثر فى تربيته ونشأته وتهيئته لأن يصير من أكبر كتاب العربية وعلمائها وأدبائها والمترجمين إليها.

وكان ابن المقفع مشهوراً بذكائه، وسعة علمه، حتى قيل عنه: «إنه لم يكن فى العجم أذكى منه».

وكان كريماً جواداً، وافر المروءة، وقد اشتهر بحبه للصديق أبى بكر رضى الله عنه.

ولما ذاع فضله، استكتبه فى عصر بنى أمية، داود بن يوسف بن عمر بن هبيرة، أحد ولاة بنى أمية على العراق، ثم كَتَبَ فى عصر

بنى العباس، لعيسى بن على، عمِّ الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى، أيام ولايته على كِرْمَانَ وعلى يديه أسلم بمحضر من الناس، وتسمى: عبد الله، وكنى بأبى محمد، بدل أبى عمرو.

وبلغ من أخلاقه وبلاغته: أنه كان نادرة فى الذكاء، غاية فى جمع علوم اللغة، والحكمة، وتاريخ الفرس، متأدباً متعففاً، قليل الاختلاط إلا بمن على شاكلته، كثير الوفاء لأصحابه، وكان أُمَّةً فى البلاغة، ورصانة القول، وشرف المعانى، إلى بيان غرض، وسهولة لفظ، ورشاقة أسلوب ولا توصف بلاغته، بأحسن مما وصف هو البلاغة فى قوله:

«البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظنَّ أنه يحسن مثلها». وكان يرى أن التتبع لغريب الكلام طمعاً فى نيل البلاغة هو العِيُّ الأكبر.

ولابن المقفع أسلوب خاص به، هو السهل الممتنع، وإننا نجد فى هذا الأسلوب أفكاراً مُنسَّقة، وقوة منطق وألفاظاً سهلة، فصيحة ومنتقاة، قوية المدلول على المعانى ونجد فيها من البلاغة أرفع درجاتها.

وقد ترجم ابن المقفع كُتُباً عديدة من الفارسية إلى العربية، ومن أشهرها:

١- كتاب كليلة ودمنة. وهو كتاب يرمى إلى إصلاح الأخلاق وتهذيب العقول.

٢- كتاب الأدب الكبير.

٣- كتاب الأدب الصغير.

٤- كتاب الدرة اليتيمة. وكلها مطبوعة متداولة.

وإذا كان ابن المقفع على كونه فى تفكيره أعجميا، يتعصب لآداب قومه وعلومهم، فلا يُرى فى كتبه من العربية إلا اللغة، وقلَّما استشهد بشعر، أو مثل، أو حكمة، أو أشار إلى وقائع العرب وآرائهم، فإن فضله إلى العربية عظيم، فهو أول من أدخل إليها الحكمة الفارسية، وأول من عنى فى الإسلام بترجمة كتب المنطق اليونانى، ورَفَعَ النثر العربى فى كتبه إلى أعلى درجات الفن، ورفع معالم صناعة الإنشاء والترسُّل.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - أمراء البيان لمحمد كرد على ص٩٩.

٢- لسان الميزان لابن حجر جـ٣/٣٦٦..

٣- البداية والنهاية لابن كثير جـ١٠/٩٦.

٤- الأعلام للزركلى جـ٤/١٤٠.

٥- الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه، لأحمد الاسكندرى ومصطفى عنان ص٢٠٥.

٦- كليلة ودمنة: ترجمة عبد الله بن المقفع ص٧

ملك حفنى ناصف
(باحثة البادية)
(١٣٠٤ - ١٣٣٧ هـ = ١٨٨٦ ـ ١٩١٨م)

هى ملك ابنة الشاعر محمد الكاتب حفنى بك ناصف، ولدت بالقاهرة، ونالت الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠م من مدرسة السنية، وهى أول سنة تقدمت فيها الفتيات المصريات إلى نيل هذه الشهادة، ثم انتقلت إلى قسم المعلمات فى هذه المدرسة فنالت منها إجازة التدريس، ومارست بعد ذلك التعليم فى مدارس البنات الأميرية، وفى سنة ١٩٠٧م بنى بها «عبد الستار الباسل» وهو سرىٌ من سراة قبيلة الرماح بالفيوم، فتركت التدريس وعكفت على الكتابة والتأليف، وعاشت مع زوجها عيشة الزوجة المخلصة البرَّة، حتى توفيت بالحمى الإسبانية فى أكتوبر من سنة ١٩١٨م وهى فى نضرة الشبيبة.

تعهدها والدها الكريم منذ طفولتها، فغذاها بأدبه، ونفث فيها من روحه، فأخذت تعالج القريض وهى فى الحادية عشرة من عمرها.

عنيت بنهضة المرأة المصرية بعد قاسم أمين، فكانت أول مصرية مسلمة جاهرت بالدعوة العامة إلى هذا العمل، وقد ألقت فى هذا الموضوع سلسلة من المحاضرات فى دار الجريدة التى كان يصدرها حزب الأمة، ويرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفى السيد، وكتبت عنه طائفة من المقالات فى هذه الصحيفة بإمضاء «باحثة البادية» فصار لقبًا غلب عليها.

جمعت هذه المقالات فى كتاب عنوانه «النسائيات» ونشر وطبع فى القاهرة، ثم شرعت فى آخر حياتها تؤلف كتابًا مطولا سمته «حقوق النساء» أنجزت منه ثلاث مقالات، ثم حالت المنية عن إتمامه.

أظهر ما تدل عليه كتابة الباحثة من أخلاقها عذوبة الروح، وسراءة الخلق، وذكاء الطبع، وصحة الدين، والرغبة فى الإصلاح.

أ. د. محمد مصطفى سلام

مراجع للاستزادة:

١ ـ تاريخ الأدب العربى، أحمد حسن الزيات، ط ٢٤، القاهرة.
٢ ـ المنتخب من أدب العرب، أحمد أمين ـ على الجارم، دار الكتاب العربى، القاهرة ١٩٥٣م.
٣ ـ النسائيات، مجموعة مقالات نشرت فى الجريدة فى موضوع المرأة المصرية بقلم باحثة البادية، دار الهدى للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة.

ابن منظــــور
(٦٣٠-٧١١هـ = ١٢٣٢-١٣١١م)

هو الإمام محمد بن مُكَرَّم بن على بن أحمد الأنصارى، الرُّوَيْفِعى، الإفريقى، ثم المصرى. القاضى. وكنيته جمال الدين، أبو الفضل. وينتهى نسبه إلى رُوَيْفِع بن ثابت الأنصارى الصحابى رضي الله عنه.

من أشهر علماء العربية، وأحد أعلام القرن السابع الهجرى.

ولد بمصر فى يوم الاثنين الثانى والعشرين من المحرم سنة ثلاثين وستمائة للهجرة = ١٢٣٢م، وقيل ولد فى طرابلس الغرب.

وتوفى فى شعبان سنة إحدى عشرة وسبعمائة للهجرة = ١٣١١م.

نشأ فى طلب العلم وتلقى عن كثير من علماء عصره ومنهم:

يوسف بن المخيلى، وعبد الرحمن بن الطفيل، ومرتضى بن حاتم، وابن المقير.

وكان شيخاً فاضلاً، وإماماً حجة فى اللغة، وقد خدم فى ديوان الإنشاء بمصر، ثم ولى القضاء فى طرابلس، وعاد إلى مصر وظل بها حتى توفى فيها.

وعنه تلقى العلم كثير من العلماء وعلى رأسهم: الإمام السبكى والحافظ الذهبى.

وقد ترجم لابن منظور كثير من العلماء ومنهم:

شمس الدين الذهبى فى موسوعته الشهيرة «سير أعلام النبلاء».

كما ترجم له الحافظ ابن حجر فى كتابه «الدرر الكامنة».

وابن شاكر الكتبى فى «فوات الوفيات».

ثم الحافظ السيوطى فى كتابيه: «بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة»، «وحسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة».

هذا بالإضافة إلى أن ابن منظور قد تكلم عن نسبه فى كتابه: لسان العرب فى مادة (جرب).

قال عنه ابن حجر: «كان مغرما باختصار كتب الأدب المطولة».

وقال عنه الصفدى: «لا أعرف فى كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره».

ابن منظور ومنهجه فى «لسان العرب»:

يعد لسان العرب أعظم موسوعة عربية جامعة فى اللغة والتفسير والحديث والشعر والحكم والأمثال وأخبار العرب ووصاياهم وبعض خطبهم .

ويورد فيه الإمام ابن منظور كثيرا من الشواهد ويشرحها شرحاً وافيا، قل أن يعثر عليه من غيره فى المراجع والمصادر.

ويكاد يختص بهذه الميزة دون سائر المعاجم العربية. وإذا كان كتاب «الصحاح» للجوهرى شرح فيه مؤلفه ٤٠,٠٠٠ ألف مادة، و«القاموس المحيط» للفيروزآبادى شرح فيه مؤلفه ٦٠,٠٠٠ ستين ألف مادة.

فإن معجم «لسان العرب» شرح فيه مؤلفه ٨٠,٠٠٠ ثمانين ألف مادة.

وقد ذكر ابن منظور فى مقدمة كتابه «لسان العرب»: أنه جمع فيه كتاب «تهذيب اللغة» لأبى منصور محمد الأزهرى، و«المحكم» لأبى الحسن على بن سيده، و«الصحاح» لأبى نصر إسماعيل الجوهرى، و«أمالى» أبى محمد بن برى على الصحاح، و«النهاية» لابن الأثير الجزرى.

وذكر أنه أدى الأمانة فى نقل تلك الأصول من غير تصرف.

و«لسان العرب» جمع ما فى تلك الكتب جميعها وجعلها فى متناول كل طالب بالإضافة إلى ما زاده عليها من تحقيقات قيمة، وزيادات من نتاج فكره وعقله، مما يجعل من لسان العرب خير مرجع لكتابين هما:

«تهذيب اللغة» لأبى منصور الأزهرى، و«المحكم فى اللغة» لأبى الحسن على بن سيده.

وأخيراً ويمكن إجمال فوائده فى النقاط التالية:

١- غزارة المادة وسعتها، فقد استوعب جميع ألفاظ اللغة العربية تقريباً، وهو أشبه بالموسوعة اللغوية منه إلى المعجم.

٢- سهولة ترتيب المواد، فالباحث فى اللسان لا تقابله أى صعوبة سوى الكثرة الهائلة فى مواده.

٣- عنايته بلغات القبائل ولهجاتها، فهو يعرض للمادة ويستقصيها فى اللهجات العربية القديمة ليحدثنا عن نطقها وعن ميزانها الصرفى وإعرابها إلى آخر هذه المباحث التى يحتاج إليها الدارس.

٤- إكثاره من الشواهد من القرآن الكريم والحديث الشريف والشعر، والإفاضة فى الشواهد الشعرية.

٥- ذكره للمصادر التى أخذ عنها مادته، مما ييسر للباحث أمر تتبع الشواهد أو المواد فى مصادرها الأساسية. قد قصد ابن منظور فى معجمه إلى تحقيق أمرين:

١- الاستقصاء ٢- الترتيب.

ولعله لاحظ أن المعاجم السابقة له لا تحقق الأمرين معا، إنما تحقق أحدهما فقط، فبينما اتجه «المحكم» مثلاً إلى الاستقصاء، كان هم «الصحاح» الترتيب، فأراد ابن منظور أن يجمع فى اللسان بين غزارة مادة المحكم، ودقة ترتيب الصحاح.

ومن أهم مؤلفاته وأشهر كتبه:

١ - لسان العرب. ويقع فى عشرين مجلدًا مطبوعًا. جمع فيه أمهات كتب اللغة، فكاد يغنى عنها جميعاً.

ويعد لسان العرب من أضخم المعاجم العربية على الإطلاق.

ومن مؤلفاته أيضا:

٢ - مختار الأغانى ويقع فى ١٢ جزءاً.

٣ - مختصر مفردات ابن البيطار.

٤ - نثار الأزهار فى الليل والنهار.

٥ - سرور النفس بمدارك الحواس الخمس. يقع فى مجلدين.

وهو اختصار وتهذيب لكتاب مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب للإمام أحمد ابن يوسف التيفاشى.

٦ - لطائف الذخيرة. مختصر الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام.

٧ - مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر.

٨ - مختصر تاريخ بغداد للسمعانى.

٩ - مختصر كتاب الحيوان للجاحظ.

١٠ - أخبار أبى نواس.

١١ - مختصر أخبار المذاكرة ونشوار المحاضرة.

١٢ - والمنتخب والمختار فى النوادر والأشعار.

أ.د. أحمد عبد المجيد هريدى

مراجع للاستزادة:

١- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى جـ٢/٢٦٥.
٢- الدرر الكامنة لابن حجر جـ٤/٢٦٢.
٣- بغية الوعاة للسيوطى جـ١/١٠٦.
٤- حسن المحاضرة للسيوطى جـ١/٢١٩.
٥- الأعلام للزركلى جـ٧/١٠٨.
٦- نكت الهميان ص٢٧٥.
٧- مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده جـ١/١٠٦.
٨- المراجع العربية. عبد الله إسماعيل الصاوى ص٨٢.
٩- مجلة المجمع العلمى العربى م٣٢/٤٦٦.
١٠- فى المكتبة العربية والمصادر. د. أحمد عبد المجيد هريدى ص٨٦.

موسى بن نصير
(١٩ - ٩٧هـ = ٦٤٠ - ٧١٥م)

هو موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمى بالولاء، أبو عبد الرحمن، تابعى، فاتح الأندلس، وكان من أعظم الزعماء والقادة الذين وجهتهم الخلافة إلى الغرب، كما كان أول فاتح مسلم، استطاع أن ينشر الإسلام على يديه فى القارة الأوروبية.

ولد فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، سنة ١٩هـ = ٦٤٠م فى قرية وادى القرى شمالى الحجاز.

وأما عن نسبته: فإنه ينتسب إلى بكر بن وائل، وإن أباه نصيرًا كان ممن سباهم خالد ابن الوليد فى موقعة عين التمر. وقيل: إنه ينتسب بطريق الولاء إلى بنى لخم، وإن أباه نصيرًا كان على حرس معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه، ثم كان وصيفًا لعبد العزيز بن مروان فأعتقه.

وأما عن حياة موسى فقد تقلب فى بعض المناصب العسكرية والإدارية الهامة، قبل أن يعهد إليه بحكم إفريقية، وقاد بعض الحملات البحرية فى عصر معاوية، وغزا قبرص وغيرها من الجزر القريبة.

وكان عبد العزيز بن مروان أمير مصر قد توفى قبل ذلك سنة ٨٥ هـ، وندب عبد الملك ولده عبد الله أميرًا على مصر، فدخلها فى جمادى الآخرة سنة ٨٦ هـ قبيل وفاة أبيه بأشهر قلائل، وعزل عبد الله حسان بن النعمان عن ولاية إفريقية، واختار لولايتها موسى ابن نصير. وكانت إفريقية تابعة يومئذ لمصر فى شئون الحكم والإدارة، وكانت ولاية موسى لإفريقية على أرجح الأقوال فى سنة ٨٩هـ (٧٠٨م).

وكان موسى بن نصير قد اختبر مفاوز إفريقية من قبل، وسيَّره عبد العزيز بن مروان فى سنة ٨٤ هـ إلى برقة، فافتتح درنة وسبى من أهلها جموعًا غفيرة وكان البربر لا يزالون على اضطرابهم وتمردهم، يتحينون الفرصة للثورة كلما سنحت. فما كاد موسى يلى الحكم حتى نزعوا إلى الثورة شأنهم عند كل تغيير فى الحكم، ولكنهم أخطأوا تقدير عزم الحاكم الجديد وصرامته. وسرعان ما سحقت الثورة فى كل ناحية، ومزَّق موسى جموعهم بيد من حديد، ودوَّخ هوارة وزناتة وكتامة وصنهاجة

وغيرها من القبائل البربرية القوية، ثم سار إلى طنجة وهى آخر معقل اعتصم به الثوار، فافتتحها وولَّى عليها جنديًا عظيمًا هو طارق ابن زياد الليثى، وأثخن فى مفاوز المغرب الأقصى وطهَّرها من العصاة والمتآمرين، واستمال إليه وجوه القبائل، وحشد فى جيشه آلافاً من البربر المسالمين، واهتم بنشر الإسلام بين القبائل، فذاع بينهم ذيوعًا كبيرًا.

وظل هذا القائد فى جهاده وحروبه، حتى توفى سنة ٩٧هـ، وقيل: سنة ٩٩هـ، وهو فى نحو الثمانين من عمره.

وكان (الرومان) بعد أن أخفقوا فى الحرب البرية، ويئسوا من استعادة إفريقية،قد لجأوا إلى غزو الثغور ونهبها. فابتنى موسى دارًا عظيمة للصناعة على مقربة من أطلال قرطاجنة، وأنشأ أسطولاً لحماية الثغور. وكان العرب قد بدأوا غزواتهم البحرية الأولى فى تلك المياه قبل ذلك بعدة أعوام، وسيَّر موسى ولده عبد الله فى السفن إلى الجزر القريبة فغزا جزائر البليار (الجزائر الشرقية) وكانت يومئذ من أملاك ملك أسبانيا القوطى، وافتتح منها ميورقة ومنورقة. وسارت حملات بحرية أخرى إلى صقلية وسردانية وعاثت فى ثغورها.

وهكذا بسط العرب سلطانهم على شمال إفريقية كله فى البر والبحر، ولم يبق من ثغوره بيد غيرهم بعد افتتاح طنجة سوى ثغر سبتة، وكانت يومئذ من أملاك إسبانيا ويحكمها أمير من القوط يدعى الكونت يوليان. وكانت قد استطاعت لمنعتها الطبيعية ويقظة حاكمها، أن ترد هجمات العرب: وكان موسى يتوق إلى افتتاح هذا المعقل الحصين. بيد أن مشاريعه فى الفتح لم تكن لتقف عند سبتة، بل كانت تجاوزها إلى ما وراء البحر من الممالك والأمم المجهولة.

وكانت مملكة القوط فى الضفة الأخرى من المضيق قد هرمت وأصابها الوهن؛ وكانت وقت أن اقترب العرب من شواطئها فريسة الاضطراب والفوضى، تمزقها الخلافات الداخلية، ويقتتل حول عرشها الزعماء المتنافسون. وكان على عرش القوط يومئذ ملك شديد البأس والعزم هو رُذَريك، ولكنه كان يواجه خطر الانقضاض المستمر؛ ولم يكن ملكاً شرعياً ولكنه استطاع أن ينتزع العرش من صاحبه الشرعى الملك وتيزا (أو غيطشة) عقب ثورة دبرها بمؤازرة رجال الدين والأشراف الناقمين. ومع أنه استطاع أن يوطد سلطانه إلى حين، فإن الخطر لبث مع ذلك محدقاً بعرشه وملكه، وكان اقتراب العرب من شوطئ الجزيرة يحفز خصومه إلى التماس الوسيلة لإسقاطه وسحقه. وكان الكونت يوليان من أنصار الحكم القديم، ومن

خصوم الحكم الجديد، يخشى عواقبه على مركزه وسلطانه؛ وكان غنيًا شديد البأس وافر الأتباع والجند، بعيدًا عن سلطة العرش، يقبض على مفتاح إسبانيا بحكمه لسبتة والمضيق؛ فاستقر الرأى على الاستنجاد بالعرب جيران الكونت. وهذا هو التعليل التاريخى للتحالف الذى عقد بين الكونت يوليان وبين موسى بن نصير، وانتهى بفتح العرب لإسبانيا.

ولقد اتصل الكونت يوليان بموسى بن نصير ودعاه إلى فتح إسبانيا، ووقعت المفاوضة بينهما فى ذلك المشروع الخطير. والظاهر أن يوليان وحلفاءه لم يقصدوا بهذه الدعوة أن يفتتح العرب إسبانيا لأنفسهم، وأن يستأثروا بملكها، بل كان مشروعهم على الأرجح أن يستعينوا بالعرب على محاربة المغتصب، وإسقاطه واستخلاص الملك لأنفسهم. وهذا تصوير للمشروع يؤيده منطق الحوادث وتشير إليه الرواية العربية.

وكان موسى قد وقف على أحوال إسبانيا وخصبها وغناها، واستطاع أن يقدر أهمية هذا الفتح وجليل مغانمه ومزاياه؛ فلما وقف من يوليان وحلفائه على ما تعانيه إسبانيا من أسباب التفرق والضعف، وأيقن أنه يستطيع الاعتماد على عون يوليان وحلفائه، كتب إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ويستأذنه فى الفتح؛ فكتب إليه الوليد أن يختبره بالسرايا، وألا يزج بالمسلمين إلى أهوال البحر. ومع أن المسلمين كانوا قد تمرسوا فى أهوال البحر واختبروا هذه المياه بالحملات والفتوح الناجحة، فإن موسى لم يسعه إلا النزول على نصح الخليفة. فجهَّز خمسمائة مقاتل بينهم مائة فارس، بقيادة ضابط من البربر يدعى طريف بن مالك، فعبروا البحر من سبتة فى أربع سفن قدّمها يوليان، إلى البقعة المقابلة التى سميت جزيرة طريف باسم قائد الحملة، وذلك فى رمضان سنة إحدى وتسعين هجرية (يولية سنة ٧١٠م). وجاست الحملة خلال الجزيرة الخضراء، بإرشاد يوليان، وأصابت كثيرًا من الغنائم، واستقبلت بالإكرام والترحيب، وشهدت كثيرًا من مظاهر خصب الجزيرة وغناها؛ ثم عادت سالمة، وسُرّ موسى بنتائج الحملة واستبشر بالفوز.

وفى شهر رجب سنة ٩٢هـ (أبريل سنة ٧١١م) جهز موسى جيشًا من العرب والبربر يبلغ سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق بن زياد الليثى حاكم طنجة. وقد اختلف فى أصل فاتح الأندلس ونسبته، فقيل هو فارسى من همذان وإنه كان مولى لموسى بن نصير، وقيل إنه ينتمى إلى بطن من بطون البربر وهو الأرجح. وكان طارق جنديًا عظيمًا ظهر فى

غزوات المغرب بفائق شجاعته وبراعته، وقدّر موسى خلاله ومواهبه، فاختاره لحكم طنجة وما حولها وهى يومئذ أخطر مناطق المغرب وأشدها اضطراماً؛ ثم اختاره لفتح الأندلس. وعبر طارق البحر بجيشه فى سفن يوليان ونزل بالبقعة التى ما زالت تحمل اسمه إلى اليوم أعنى جبل طارق، وذلك فى يوم الاثنين الخامس من رجب سنة ٩٢هـ (٢٧ أبريل سنة ٧١١م) واخترق الجزيرة الخضراء بإرشاد يوليان، ثم زحف على ولاية الجزيرة واحتل قلاعها، بعد أن هزم جموعًا من القوط تصدت لوقفه. وبادر حكام الولايات المجاورة بإخطار بلاط طليطلة بالخطر الداهم. وكان رُذَريك أو لذريق يشتغل يومئذ بمحاربة بعض الخوارج فى الولايات الشمالية، فأسرع إلى طليطلة شاعرًا بفداحة الخطر الذى يهدد عرشه وأمته، وبعث قائده إديكو لرد العدو حتى يستكمل أهبته، ولكن طارقاً هزمه وتابع سيره صوب عاصمة القوط.

وكان ردريك أميرًا شجاعًا وافر العزم، ولكنه كان طاغية يثير بقسوته وصرامته حوله كثيراً من البغضاء والخصومة. وكان حزب العرش القديم الذى يلتف حول أبناء الملك السابق وتيزا (غيطشة) يتربص به ويعمل على إسقاطه؛ وكانت ريح الخلاف والتفرق تعصف بالشعب القوطى كله. ومع ذلك فقد اعتصم القوط حين الخطر الداهم بنوع من الاتحاد. واستطاع ردريك أن يجمع حوله معظم الأمراء والأشراف والأساقفة، وحشد هؤلاء رجالهم وأتباعهم. واجتمع للقوط يومئذ جيش ضخم تقدره بعض الروايات بمائة ألف. وسار ردريك نحو الجنوب للقاء المسلمين، وكان طارق قد وقف على أمر هذه الأهبة العظيمة، فكتب إلى موسى يستنجد به، فأمدّه بخمسة آلاف مقاتل، فبلغ المسلمون اثنى عشر ألفًا، وانضم إليهم يوليان فى قوة من صحبه وأتباعه.

كان القوط أضعاف المسلمين، وكان المسلمون يقاتلون فى أرض العدو فى هضاب ووهاد صعبة؛ ولكن قائدهم الجرىء تقدم إلى الموقعة الحاسمة بعزم، فكان اللقاء بين الجيشين فى سهل شريش على مقربة من قادس شمالى مدينة شدونة أو شذونة (مدينا سيدونيا) على ضفاف نهر وادى لكه (الجوادليت)، وذلك فى الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ٩٢هـ (١٩ من يولية سنة ٧١١م)؛ وفرق النهر بين الجيشين مدى أيام ثلاثة لم تقع فيها بينهما سوى مصادمات بسيطة، وفى اليوم الرابع التحم الجيشان ونشبت بينهما معركة عامة، واستمر القتال بينهما على أشده مدى أربعة أيام؛ وكان الجيش القوطى بالرغم من ضخامته مفكك

العرى منحل العزائم؛ وكانت الخيانة تعصف بصفوفه وقيادته؛ فلم يأت اليوم الرابع حتى كتب النصر للمسلمين وهزم القوط شر هزيمة، ومزّقوا شرّ ممزق وغرق ملكهم ردريك فى النهر.

كانت شذونة موقعة الفصل، وفيها دالت دولة القوط وغنم الإسلام مُلْك إسبانيا. وساد الرعب على القوط فاعتصموا بالحصون والجبال، وتفرقوا فى السهل، وذاعت أنباء النصر، فعبر إلى الجيش الفاتح سيل من المجاهدين والمغامرين من العرب والبربر. وزحف طارق بجيشه شمالا صوب طليطلة عاصمة المملكة القوطية؛ وسارت حملات متفرقة إلى قرطبة وغرناطة وإلبيرة ومالقة ومرسية، فافتتحت كلها تباعًا. وبعد أن استولى طارق على طليطلة، تابع زحفه شمالاً واخترق قشتالة وليون حتى أسترقه، ثم جبال أستورياس (أشتوريش) واستمر فى سيره حتى أشرف على شواطئ بسكونيه، ثم عاد إلى طليطلة حيث تلقى أوامر موسى بوقف الفتح، وكان ذلك لعام فقط من عبوره إلى إسبانيا.

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل البواعث التى حملت موسى على أن يصدر أوامره إلى طارق بوقف الفتح. والبعض يعلل غضب موسى على طارق ولحاقه به، بأن طارقاً خالف الأوامر الصادرة إليه بألا يتجاوز قرطبة أو حيث تقع هزيمة القوط. وهذا تعليل حسن يتفق مع ما أثر عن موسى من الحيطة والحذر، فقد ينكب المسلمون إذا توغلوا فى أراض ومسالك مجهولة. وعلى أى حال فقد عبر موسى البحر إلى إسبانيا فى عشرة آلاف من العرب وثمانية آلاف من البربر، فى سفن صنعها خصيصًا لذلك، يحفزه شغف الفتح بالرغم من شيخوخته، ونزل بولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان، وذلك فى رمضان سنة ثلاث وتسعين هجرية (يونيه سنة ٧١٢م). وبدأ موسى زحفه بالاستيلاء على مدينة شذونة. ثم سار إلى قرمونة وهى يومئذ من أمنع معاقل الأندلس فاستولى عليها بمعاونة يوليان وأصحابه: وقصد بعدئذ إلى إشبيلية أعظم قواعد الأندلس، فافتتحها بعد أن حاصرها شهراً. ثم سار إلى ماردة وحاصرها مدة، وقُتل تحت أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين، ولكنها انتهت بالتسليم فى رمضان أو شوال سنة أربع وتسعين هجرية على أن تكون أموال الغائبين والكنائس غنيمة للمسلمين دية لمن قتل منهم. وقصد موسى بعدئذ إلى طليطلة فالتقى بطارق على مقربة منها، وكان قد سار إلى استقباله، ووضع الاثنان خطة مشتركة لافتتاح ما بقى من إسبانيا. ثم زحفا نحو الشمال الشرقى

واخترقا أراضى الثغر الأعلى (أراجون)، وافتتحا سرقسطة وطركونة وبرشلونة وغيرها من المدن والمعاقل. ثم افترق الفاتحان، فسار طارق غربًا ليغزو جلِّيقة وليتم القضاء على فلول القوط. وسار موسى شمالا فاخترق جبال البرنيه، وغزا ولاية لانجدوك أو سبتمانيا وكانت عندئذ تابعة لملوك القوط، واستولى على قرقشونة وأربونة. ثم نفذ إلى مملكة الفرنج وغزا وادى الرون حتى مدينة ليون. فاضطرب أمراء الفرنج وأخذوا فى الأهبة لرد الغزاة، ويقال إن المعارك الأولى بين العرب والفرنج وقعت فى تلك السهول على مقربة من أربونة.

وهنا فكر القائد الجرىء فى أن يخترق بجيشه جميع أوربا غازياً، وأن يصل إلى الشام من طريق قسطنطينية، وأن يفتتح فى طريقه أمم النصرانية والفرنجة كلها. ولم يك ثمة ما يحول دون تنفيذ هذا المشروع الضخم. فقد كان الإسلام يومئذ فى ذروة الفتوة والبأس؛ وكانت جيوشه تقتحم أرجاء العالم القديم ظافرة أينما حلَّت؛ وكانت أمم الغرب من جهة أخرى يسودها انحلال شامل؛ وكانت مملكة الفرنج وهى أضخمها وأقواها يمزقها الخلاف والتفرق؛ وقد بدأ العرب فعلا بغزوها؛ ولم يتح للنصرانية بعد أن توحّد جهودها لرد الإسلام، ولم تقم فيها زعامة قوية تجمع كلمتها وتنظم قواها فى جبهة دفاعية موحدة؛ ولم تكن أوربا فى ذلك الحين سوى مزيج مضطرب من الأمم والقبائل المتنافرة، تمزقها المطامع والأهواء المختلفة؛ فكان الإسلام الظافر يستطيع غزوها وفتحها.

غير أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى موسى يحذره من التوغل بالمسلمين فى دروب مجهولة، ويأمره بالعودة. فارتد موسى مرغماً آسفاً، ولكنه تمهل فى العودة حتى يتم إخضاع معاقل جلِّيقية التى اعتصمت بها فلول القوط؛ فاخترق جليقية واستولى على معظم قلاعها ومعاقلها، ومزق كل قوة تصدّت لمقاومته، ولم يبق من النصارى سوى شراذم يسيرة التفت حول زعيم يدعى بلاجيوس أو بلايوس، ولجأت إلى قاصية جليقية. وبينما كان موسى يتأهب للحاق بها وسحقها، إذ وصله كتاب آخر من دمشق يستدعيه وطارقاً ويأمرهما بتعجيل العودة. ومهما كانت البواعث التى دفعت الوليد إلى استدعاء فاتحى الأندلس، فلا ريب أنه كان خطراً على مستقبل الإسلام فى إسبانيا. ذلك أن هذه الجموع الضئيلة من القوط، التى نجت من المطاردة واعتصمت بصخور جليقية، لم تلبث أن نمت وقويت وكانت منشأ المملكة النصرانية التى قامت فى الشمال،

ولبثت قروناً تكافح دولة الإسلام فى إسبانيا حتى انتهت بالقضاء عليها.

وفى ذلك الحين كان عبد العزيز بن موسى، قد افتتح المنطقة الواقعة بين مالقة وبلنسية، وأخمد الثورة فى إشبيلية وباجة. وافتتح لبلة وغيرها من المعاقل والحصون، وأبدى فى معاملة البلاد المفتوحة كثيراً من الرفق والاعتدال والتسامح.

واتخذ موسى أهبته للعودة إلى دمشق نزولا على أوامر الخليفة، فنظَّم حكومة الأندلس قبل رحيله وجعل حاضرتها إشبيلية لاتصالها بالبحر، وكانت حاضرتها أيام الرومان، واختار لولايتها ولده عبد العزيز، واستخلف على المغرب الأقصى ولده عبد الملك، وعلى إفريقية ولده الأكبر عبد الله. وفى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين (أغسطس سنة ٧١٥م) قفل راجعًا إلى المشرق وطارق معه، وفى ركبه من نفيس التحف والغنائم ما لا يقدر ولا يوصف، ومن أشراف السبى عدد عظيم.

وتختلف الروايات العربية فى مصير موسى بن نصير وفى أمر لقائه بالخليفة. فقيل: إنه وصل إلى دمشق قبل وفاة الوليد بن عبد الملك وقدم إليه الأخماس والغنائم فأكرمه وأحسن إجازته، وقيل: بل وصل عقب وفاة الوليد وارتقاء أخيه سليمان بن عبد الملك عرش الخلافة وإن سليمان غضب عليه ونكبه. على أنه يمكن الجمع بين القولين؛ أعنى وفود موسى على الوليد ثم نكبته على يد سليمان. وهنالك ما يرجح أن موسى لحق بالوليد قبيل وفاته؛ فإن ابن عبد الحكم وهو أقدم رواة فتوح الأندلس يقول لنا إن موسى بن نصير مرّ بمدينة الفسطاط فى أواخر شهر ربيع الأول سنة ست وتسعين للهجرة فى طريقه إلى دمشق، وقد توفى الوليد فى منتصف جمادى الآخرة من هذا العام، أعنى بعد وصول موسى إلى مصر بأكثر من شهرين ونصف. ولما كانت مسافة السفر بين الفسطاط ودمشق لا تجاوز فى هذا العصر بضعة أسابيع فإنه كان ثمة من الوقت ما يكفى لمقدم موسى على الوليد قبل وفاته. على أن الرواية من جهة أخرى تكاد تجمع على أن سليمان سخط على فاتح الأندلس ونكبه. ذلك أن موسى وصل إلى الشام والوليد فى مرض موته، فكتب إليه سليمان ولى العهد يومئذ أن يتمهل فى السير حتى يموت الوليد، فيقدم عليه فى صدر خلافته بما يحمل من جليل التحف والغنائم. فأبى موسى وجدّ فى السير حتى قدم والوليد حىّ، فسلم إليه الأخماس والغنائم؛ ثم توفى الوليد بعد ذلك بقليل مستخلفًا سليمان على كرسى الخلافة؛ فغضب سليمان على موسى، وزاد فى سخطه عليه،

ما قدمه فى حقه طارق ومغيث فاتح قرطبة من مختلف التهم. وفى الحال أمر بعزله واتهمه وبنيه باختلاس أموال عظيمة، وقضى عليه بردها، وبالغ فى إهانته وتعذيبه، ثم ألقاه إلى ظلام السجن. واستجار موسى بصديقه يزيد بن المهلب من نقمة سليمان، وكان من أخصائه وذوى النفوذ لديه، فألح يزيد على سليمان حتى عفا عنه، وأعفاه من الغرامة الفادحة التى قضى بها عليه، ويقال بل عفا عن حياته ولم يعفه من الغرامة، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه.

هذا ما تردده الروايات الإسلامية عن مصير موسى بن نصير. ومهما كان من الأمر فإن فاتح الأندلس لم يلق الجزاء الحق، بل غمط حقه وفضله أشنع غمط؛ وأبدت الخلافة بهذا التصرف أنها لم تقدر فى هذا الموطن للبطولة قدرها؛ ولم تقدر عظمة الفتح الباهر الذى غنمته على يد رجلها وقائدها.

وكان موسى بن نصير من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين فى القرن الأول للهجرة، وقد ظهرت براعته الإدارية فى جميع المناصب التى تقلدها، كما ظهرت براعته الحربية فى جميع الحملات البرية والبحرية التى قادها. على أن هذه المواهب تبدو بنوع خاص فى حكمه لإفريقية، حيث كانت الحكومة الإسلامية تواجه شعبًا شديد المراس يضطرم بعوامل الانتقاض والفتنة. وإذا كان موسى قد أبدى فى معالجة الموقف وإخماد الفتنة كثيراً من الحزم والشدة، فقد أبدى فى الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب وبراعة فى سياستها وقيادتها. وكان موسى فوق مواهبه الإدارية والعسكرية غزير العلم والأدب، متمكناً من الحديث والفقه، عالماً بالفلك، مجيداً للنثر والنظم.

وإلى موسى بن نصير يرجع الفضل الأول فى عبور الإسلام إلى أوربا من الغرب وقيام دولته فيها، بعد أن أخفقت محاولته فى العبور إليها من المشرق عن طريق قسطنطينية؛ ومع أن سيل الفتح الإسلامى ردّ غير بعيد فى سهول بلاط الشهداء، فإن الإسلام استطاع مع ذلك أن يستقر فى إسبانيا قرونًا يبهر بضوء مدنيته الزاهرة جميع الأمم الأوربية فى العصور الوسطى.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ ـ تراجم إسلامية للمؤرخ محمد عبد الله عنان ص ١٢٦ ـ ١٢٨ بتصرف.
٢ ـ الأعلام للزركلى ٧/ ٢٢٠.
٣ ـ نفح الطيب للمقرى ١/ ١٣٣.
٤ ـ وفيات الأعيان لابن خلكان ٢/ ١٨١.
٥ ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير ٤/ ٢١٤.
٦ ـ الإمامة والسياسة لابن قتيبة ٢/ ٧٦.
٧ ـ فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ٢١١.

نافع بن الأزرق
(٠٠٠ ـ ٦٥هـ = ٠٠٠ ـ ٦٨٥م)

هو أبو راشد ، نافع بن الأزرق بن قيس الحنفى، البكرى الوائلى، الحرورى المتوفى (٦٥هـ = ٦٨٥م)، زعيم فرقة الأزارقة - التى نسبت إليه - من الخوارج.. ويسمى الحرورى، كواحد من الخوارج الذين تبلورت فرقتهم، على عهد على بن أبى طالب ﵁ (٢٣ ق.هـ = ٤٠هـ/ ٦٠٠ - ٦٦١م) فى قرية «حروراء» - من ضواحى الكوفة - فسموا لذلك - بالحرورية، نسبة إلى «حروراء»!.

وكان نافع بن الأزرق من أهل البصرة، وأحد فقهائها.. بدأ حياته العلمية بصحبة عبد الله بن عباس ـ رضى الله عنهما..

وعندما بدأت الثورة على عثمان بن عفان ﵁ (٤٧ق.هـ - ٣٥هـ = ٥٧٧ - ٦٥٦م) أواخر عهده، كان نافع وأصحابه من أنصار هذه الثورة، التى استهدفت عزل الخليفة الراشد الثالث، لما رأوا من ضعفه عن كبح جماح قرابته من بنى أمية، الذين استأثروا بالحكم من دون الناس. ولقد عبر الأزارقة عن رأيهم فى عثمان بقولهم: «إنه آثر القربى، ورفع الدرة، ووضع السوط، ومزق الكتاب، وضرب مُنكِر الجَور، وآوى طريد رسول الله ﷺ، وضرب السابقين بالفضل وحرمهم، وأخذ الفىء فقسمه فى فُسّاق قريش ومُجّان العرب!».

وبعد انقضاء عهد عثمان بن عفان ﵁ باستشهاده، كان نافع بن الأزرق وأنصاره من أعوان على بن أبى طالب ﵁، ناصروه وقاتلوا معه ضد جميع خصومه ومعارضيه: طلحة بن عبيد الله (٢٨ق. هـ - ٣٦هـ = ٥٩٦ - ٦٥٦م) والزبير بن العوام (٢٨ق. هـ - ٣٦هـ = ٥٩٦ - ٦٥٦م).. ثم معاوية بن أبى سفيان (٢٠ق. هـ - ٦٠هـ = ٦٠٣- ٦٨٠م).. وعندما ظهرت نتيجة «التحكيم» بين على ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ فى «صِفِّين»؛ كان نافع بن الأزرق من زعماء الخوارج الذين رفضوا هذه النتيجة، ورفعوا شعار «لا حكم إلا لله» فسموا «بالمُحَكِّمة».. وبالحرورية، لاجتماعهم فى حروراء.. وبالخوارج - لخروجهم على الدين ومروقهم منه - فى رأى خصومهم - ولخروجهم إلى الدين، ضد أئمة الجور - كما يقولون هم.

وقتل نافع بن الأزرق فى المعركة التى دارت فى «دولاب» على مقربة من الأهواز.

وقد كان نافع بن الأزرق - ككل الخوارج - يرى الإمامة والخلافة فيمن يصلح لها وتتوافر فيه شروطها.. رافضين احتكار قريش لها واستئثارها بها دون المسلمين.. كما كانوا يرون - على عكس الشيعة - أن طريق الخلافة والإمامة هو الشورى والاختيار والبيعة من الأمة للإمام.. وليس النص والتعيين والوراثة..

وفى تقييم التاريخ السياسى لدولة الخلافة الراشدة.. أعلنوا ولاءهم لعهدى أبى بكر وعمر وتولوا عثمان بن عفان فى السنوات التى سبقت سيطرة قرابته على شئون الخلافة، وأعلنوا براءتهم منه فى هذه السنوات.. كما تولوا على بن أبى طالب حتى وقعة «التحكيم»، ثم تبرأوا منه بعد التحكيم..

أما تقييمهم للانقلاب الأموى ولدولة بنى أمية فهو الرفض لهم والبراءة منهم، باعتبارهم مرتكبين للذنوب الكبائر ومصرين عليها!

وعندما احتدم الجدل بين فقهاء الأمة حول حكم مرتكب الكبيرة.. فى حقبة اشتداد الصراع ضد بنى أمية.. وقال قوم: إنه منافق، وقال آخرون: إنه مؤمن، وقال فريق ثالث: إنه فاسق.. كان رأى نافع بن الأزرق - الذى كان يقود، يومئذ، أكبر ثورات الخوارج ضد الدولة الأموية - إن مرتكب الكبيرة - والمعنى والمراد بالدرجة الأولى بنو أمية وعمالهم وأنصارهم - كافر، ومخلد فى النار.. فكان ذلك بداية فكر التكفير لمن ينطق بالشهادتين فى تاريخ الفكر الإسلامى! ولقد تراوح التكفير بين «كفر الشرك» وبين «كفر النعمة» أى الجحود لأنعم الله!

كذلك، انحاز الخوارج إلى القول بحرية الإنسان واختياره، ورفضوا «الجبر» الذى كان بنو أمية يبررون به ما أحدثوه فى فلسفة الخلافة وعلاقة الحاكم بالمحكوم من تغييرات!

وشددوا على فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وانطلقوا منها إلى نظرية فى «الثورة» وتجريد السيف ضد ولاة الجور والفسق والضعف يمكن تسميتها بـ «نظرية الثورة المستمرة»!.. فلقد «أوجبوا» الثورة والخروج إذا بلغ عدد الثائرين أربعين رجلاً.. وسموا هذا الحد «حد الشراة»، أى الذين اشتروا الجنة عندما باعوا أرواحهم.. فعليهم «واجب الخروج» - الثورة - «حتى يموتوا أو يظهر دين الله، ويخمد الكفر والجور!».

أما إذا كان عدد الثوار فوق الثلاثة، ودون الأربعين.. فإنهم يكونون على «حد الدفاع» يقفون من أعدائهم موقف الدفاع، لا موقف الخروج والهجوم! فإذا كان العدد دون الثلاثة جاز لهم القعود، وكانوا على «مسلك

الكتمان».. فإذا قامت دولتهم، وظهر أمرهم، فهم، حينئذ، على «حد الظهور»! أى أن الموقف من الثورة والخروج قد تراوح بين: «مسلك الكتمان».. و«حد الدفاع».. و«حد الشراة».. و«حد الظهور»!..

وعندما ثار عبد الله بن الزبير (١-٧٣هـ = ٦٢٢- ٦٩٢م) بمكة، على عهد يزيد بن معاوية (٢٥- ٦٤هـ = ٦٤٥- ٦٨٣م) دعا نافع بن الأزرق ثوار الخوارج فى البصرة إلى الخروج إلى مكة لمناصرة ابن الزبير ضد بنى أمية، وللدفاع عن بيت الله الحرام ضد حصار الجيش الأموى.. وقال لأصحابه: «إن الله قد أنزل عليكم الكتاب، وفرض عليكم فيه الجهاد، واحتج عليكم بالبيان، وقد جرد فيكم السيوف أهل الظلم والغَشْم، وهذا من قد ثار بمكة، فاخرجوا بنا نأت البيت ونلق هذا الرجل، فإن يكن على رأينا جاهدنا معه العدو، وإن يكن على غير رأينا دافعنا عن البيت ما استطعنا، ونظرنا بعد ذلك فى أمورنا..».

فخرجوا بقيادته إلى مكة، إبان اشتداد القتال بين ابن الزبير وجيش يزيد بن معاوية، فقاتلوا معه ضد جيش يزيد.. فلما توفى يزيد، ورجع جيشه عن حصار مكة.. أراد نافع بن الأزرق وأصحابه محاورة ابن الزبير لمعرفة رأيه فى عثمان بن عفان؟.. وهل هو على مثل رأيهم فيه؟.. أم هو من المخالفين؟.. ولقد انتهت المناظرة بينهما بإعلان ابن الزبير خلافه لهم فى أمر عثمان.. فرفضوا نصرته.. وغادروا مكة عائدين إلى البصرة مرة أخرى..

وفى البصرة تواصل الصراع بين الخوارج، يقودهم نافع بن الأزرق، وبين ولاة بنى أمية.. حتى اضطربت البصرة بالفتنة التى حدثت بين بعض قبائلها.. فانتهزها الخوارج وثاروا كبرى ثوراتهم، التى بدأت بتحطيم أبواب السجون، والخروج إلى الأهواز.. وفى الأهواز.. ومن حول البصرة.. دارت موجات من القتال الضارى، الذى استمر لعدة شهور.. وفيه قتل العديد من الولاة والقواد الذين تتابعوا على قيادة جيش بنى أمية.. وقتل كذلك نافع بن الأزرق فى المعركة التى دارت فى «دولاب»، على مقربة من الأهواز..

ولقد كانت ثورة الأزارقة هذه أعظم ثورات الخوارج ضد دولة بنى أمية.. حتى لقد كانت النزيف الذى أصاب تلك الدولة بالإعياء.. فأجهزت عليها ثورة الجند الخراسانية.. وقطف ثمارها بنو العباس!.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

- (تاريخ الطبرى) - جـ ٥ - طبعة دار المعارف - القاهرة - بتحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم..
- (تيارات الفكر الإسلامى) - للدكتور محمد عمارة - طبعة بيروت سنة ١٩٨٥م.

نافع المدنى
(٧٠ - ١٦٩ هـ = ٦٨٨ - ٢٧٨٥ م)

هو نافع بن عبد الرحمن بن أبى نعيم الليثى مولاهم أبو رويم المقرئ المدنى. الإمام العلم أحد القراء السبعة، أصله من أصبهان.

واختلف فى كنيته. فقيل: أبو عبد الرحمن، وقيل: أبو الحسن. وقيل: أبو رويم، وقيل: أبو نعيم، وقيل: أبو محمد، وقيل: أبو عبد الله، وأشهرها أبو عبد الرحمن، وأحبها إليه أبو الحسن. ويؤكد ذلك ما ذكره الهمذانى فى كتابه مسنداً إلى أبى عمر الدورى يقول: سمعت إسماعيل بن جعفر يقول: سمعت نافعاً يقول: قال لى أستاذى أبو جعفر: قد عرفنا اسمك فما كنيتك؟ فقلت: إن أبى سمانى نافعًا، ترى أن تكنينى - فقال: أنت وجهك حسن، وخلقك حسن، وقراءتك حسنة، وأنت أبو الحسن.

ولد نافع فى سنة (٧٠هـ = ٦٨٨م) وتوفى نافع «رحمه الله» سنة (١٦٩هـ = ٧٨٥م).

قرأ نافع على كثير من التابعين قد يصل عددهم إلى سبعين تابعياً - وهم جميعاً قد قرأوا على الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - أشهرهم:

- عبد الرحمن بن هرمز الأعرج - وأبى جعفر القارئ وشيبة بن نصاح بن سرجس المدنى، ومسلم بن جندب، ويزيد بن رومان، وصالح بن خوّاب.

ومن تلاميذه: إسماعيل بن جعفر، وعيسى ابن وردان الحذاء، وسليمان بن مسلم بن جماز، ومالك بن أنس وخلق كثير غيرهم.

ومن أشهر رواته:

١ - عيسى بن مينا بن وردان بن عيسى الملقب بقالون قارئ المدينة.

٢ - عثمان بن سعيد بن عبد الله بن عمرو ابن سليمان أبو سعيد المصرى الملقب بورش.

حاز الإمام نافع مكانةً عاليةً بين أئمة القراءة، وأثنى عليه تلاميذه ثناءً جميلا، كما أثنى عليه الأئمة ونوّهوا بعظيم شأنه. لقد كان - رحمه الله - عالما بوجوه القراءات متبعاً لآثار الأئمة. حتى صار إماماً لأهل المدينة دهراً طويلاً أقرأ فيه خلقاً كثيرا.

قال سعيد بن منصور: سمعت مالك بن

أنس يقول: قراء أهل المدينة ستة، قيل له: قراءة نافع؟ قال: نعم.

وقال أيضاً: هو إمام الناس فى القراءة.

ويرى أنه كان إذا تكلم يشم من فيه رائحة المسك، فقيل له: يا أبا عبد الله أو يا أبا رويم، أتتطيب كلما قعدت تقرئ؟ قال: ما أمس طيباً، ولكنى رأيت النبى ﷺ وهو يقرأ فى فىَّ فمن ذلك الوقت أشم من فىّ هذه الرائحة.

ولذلك يقول الإمام الشاطبى - رحمه الله- فى منظومته «حرز الأمانى ووجه التهانى» والمسماة «بالشاطبية» يقول مشيراً إلى هذا الأثر:

فأما الكريم السِّر فى الطيب نافع

فذاك الذى اختار المدينة نزلا

ولعلنا نلحظ من هذه الرواية التى أوردها الذهبى وغيره أهلية هذا الإمام لهذا الفضل الذى خصه به الرسول ﷺ ولا غرابة فى ذلك، فهو طيب الأخلاق، حسن السيرة، ثقة مأمون فى قراءته.

قال الأصمعى: كان نافع من القراء الفقهاء العباد.

روى أبو بكر بن مجاهد فى سبعته عن محمد بن اسحاق المسيبى عن أبيه قال: لما حضرت نافعا الوفاة قال له ابناه: أوصنا، قال: ﴿ **فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم** ﴾ [الأنفال: ١]. ﴿ **واتقو الله إن كنتم مؤمنين** ﴾ [المائدة: ١١٢].

أ. د. أحمد المعصراوى

مراجع للاستزادة:

١ - معرفة القراء الكبار ١/١٠٧.
٢ - غاية الاختصار ١/١٢.
٣ - غاية النهاية ٢/٣٣٠.
٤ - النشر فى القراءات العشر١/١١٢.
٥ - تهذيب التهذيب ١٠/٤٠٧.
٦ - خلاصة الخزرجى ص ٣٤٣.
٧ - إتحاف فضلاء البشر ١/١٩.
٨ - تاريخ القراء العشر ورواتهم للشيخ عبد الفتاح القاضى ص ١٣.
٩ - الأعلام للزركلى ٥/٨.

نجم الدين النسفى
(٤٦١ - ٥٣٧ هـ = ١٠٦٨ - ١١٤٢م)

هو عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل أبو حفص المعروف بنجم الدين النسفى عالم بالتفسير، والأدب، والتاريخ، وأحد فقهاء الحنفية، ولد بنسف سنة ٤٦١هـ، وعرف بنسبته إليها، فهو النسفى مولدا، وكانت وفاته بسمرقند سنة ٥٣٧ هـ.

له مؤلفات فى العقيدة التى عرف بالتأليف فيها، حيث مال فى كتابه (العقائد النسفية) إلى طريقة الجمع بين المعتزلة والأشاعرة فى بعض المسائل الخلافية الكبرى كما هو الشأن فى مدرسة أبى منصور الماتريدى.

عرف بشهرته الكبيرة فى فقه المذهب الحنفى، وكانت له ميول للأدب والتاريخ، وله فى التفسير مؤلفات غير أنه لم يشتهر بها، ولم يعرف بين علماء التفسير مثل النسفى المفسر المعروف (عبد الله بن أحمد) صاحب تفسير النسفى المشهور.

أ.د. محمد السيد الجليند

مراجع للاستزادة:

١ - الفوائد البهية. ص ١٤٩.
٢ - الجواهر المضيَّة ١/٣٩٤.
٣ - لسان الميزان ٤/٣٢٧.
٤ - إرشاد الأريب ٦/٥٣.
٥- الأعلام للزركلى جـ٥/٦٠.

نديم الجسر
(١٣١٥ - ١٤٠٠هـ = ١٨٩٧ - ١٩٨٠م)

ولد الشيخ نديم الجسر بطرابلس عام ١٣١٥هـ = ١٨٩٧م، فى أسرة مصرية الأصل، تلقى بعض المعارف على يد والده العلأمة الشيخ (حسين الجسر) وبعد وفاة والده كفله شقيقه الشيخ (محمد الجسر)، الذى كان من أبرز رجال السياسة فى طرابلس.

أتم دراسته فى حمص ثم فى بيروت، والتحق بالعمل فى سلك القضاء وتولى عدة مناصب، منها مستشار بمحكمة الاستئناف، وعضو بمجلس العدل، والقضاء الشرعى، حيث قام بتنظيم دائرة الأوقاف الإسلامية، ثم انتخب سنة ١٣٧٧هـ = ١٩٥٧م نائبا عن مدينة طرابلس بمجلس النواب، ثم مفتيا لشمال لبنان، وعضوا فى مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، وقد توفى سنة ١٤٠٠هـ =١٩٨٠م، وبعد وفاته أطلقت جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية بطرابلس اسمه على قاعة مكتبتها اعترافا بفضله وعلمه.

قضى الشيخ نديم الجزء الأكبر من حياته فى مقاومة الاستعمار الذى سيطر على الوطن العربى، منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، وأخذ يقاوم أساليبهم، ويكشف أهدافهم الساعية إلى إشاعة الفتنة بين العرب والعجم، أو بين السنة والشيعة.

كما دافع الشيخ نديم عن عروبة لبنان، مؤكدًا أن اللبنانيين كلهم عرب، حتى ولو كانت لهم أصول غير عربية، لأنهم توحدوا تحت لغة واحدة، وإن تعددت الأديان، وأن وحدة الدين ليست شرطا أساسيًا فى تكوين الوطن.

وأشار الشيخ نديم إلى أن ازدهار الوطن يكون بتعاون أبناء الوطن جميعا، مسلمين ومسيحيين، فلا تفرقة فى بلد عربى بين مسلم ومسيحى، حيث يتجاور المسجد والكنيسة، وقد كفل الإسلام لغير المسلم حق العبادة.

كما تناول الشيخ نديم فى المجال السياسى، نكبة احتلال فلسطين من قبل الصهيونية العالمية، ودعا إلى يقظة العرب جميعا على اختلاف أديانهم لمواجهة

الصهيونية، وأكد أن دولة إسرائيل إلى زوال، لأنها محرومة من الأمان الكافى لاستمرار وجودها، مثلها مثل الصليبيين الذين استطاع العرب أن يطردوهم من بلادهم، وأن معونة الدول الغربية لهذا الكيان المصطنع لن تدوم، وتاريخ العلاقات المسيحية اليهودية تشهد على أنه ليس بينهما عاطفة أو مودة، وأن النصر فى النهاية للعرب بعد أن يتحدوا ويأخذوا بأساليب التقدم العلمى.

كما عالج الشيخ نديم فى هذا المجال الاجتماعى عدة مشكلات وآفات، وجد أنها تهدد كيان أمته، وحدد طرق العلاج المستمدة من تعاليم الإسلام، وكان على رأس هذه المشكلات: الاقتصاد والأخلاق والأسرة والمرأة.

أما فى المجال الاقتصادى فقد وجد أن من الآفات التى أصابت المجتمع العربى الإسراف والتبذير، فدعا إلى قيام المشرع بالحجر على المبذر حتى يحفظ له ماله، وأن الإسراف يؤدى إلى الإفساد.

وأشار إلى أنه من أهم الفضائل التى يجب أن يتحلى بها المسلم فضيلة الحرية، فهى سر التقدم والرخاء، وهى وسيلة إنشاء الحضارة الراقية، ووسيلة العقل لتحقيق كرامته، وأن الإسلام قد نص صراحة على حرية الإنسان فى التفكير والعبادة واعتبرها من الأمور البدهية.

وقد تحدث الشيخ نديم عن حق المرأة فى العلم، وأن فى تعليمها إصلاحا للمجتمع بأسره، لأن المرأة نصف المجتمع، وهى المسئولة عن تربية النشء الذى هو مستقبل المجتمع، ونادى بحريتها فى اختيار الزوج، وحريتها فى التصرف فى أموالها، وحق العمل فى الوظائف العامة، بل رأى أن الإسلام قد أجاز لها أن تتولى القضاء.

وتضمنت إسهامات الشيخ نديم لإصلاح المجال الدينى الاهتمام بأمرين:

الأول: إصلاح المؤسسات الدينية، والثانى إصلاح المجال الفكرى.

أما عن إصلاح المؤسسات الدينية، حاول الشيخ نديم علاج بعض المشكلات التى لحقت بالمحاكم الشرعية، ودعا إلى حسن اختيار القضاة الشرعيين والإشراف على أعمالهم ومحاسبتهم عليها، وأن تتم مراقبة المحاكم الشرعية مراقبة صارمة من خلال هيئة من كبار القضاة المسلمين.

كما حاول إصلاح دائرة الأوقاف، وشرع فى إعداد فرق المراقبة والمراجعة على أعمالها، ووضع دراسة للاستفادة **من** الأوقاف الإسلامية، كما كانت دار الفتوى من المؤسسات التى أولاها الشيخ نديم جهوده الإصلاحية.

أما الإصلاح الفكرى، فقد تمثل فى عدد من الأعمال الدينية الفكرية التى قدمها الشيخ نديم محاولا إظهار حقيقة الإسلام،

وتخليصه مما لحق به من أوهام، فاتجه إلى تفسير القرآن والتدليل على إعجازه، حيث إن الإعجاز لا يظهر فى بلاغته فقط، بل هو معجز لكل علماء الطبيعة والاجتماع والنفس والتربية والفلسفة والتاريخ، بما يكشف لهم من حقائق.

وتناول فى تفسيره للقرآن، مسألة المحكم والمتشابه، وعرَّف كل منهما بأن المحكمات هى الأصل والأساس الذى ترد إليه الفروع، والمتشابهات: هى ما تتحير العقول فى فهمها. وطلب من المؤمنين رد المتشابهات إلى المحكمات حتى يخلص الفهم من الالتباس.

والفيلسوف، فى رأيه - يتلاقى مع النبى فى شىء واحد: هو الإيمان بوجود الله، وقد حث على طلب الاستزادة من الفلسفة والتعمق فى دراستها، حيث لا تتعارض مع الإيمان، وطالب رجال الدين بالإقبال على دراسة الفلسفة للاطلاع على أسرار الوجود.

ومن أهم مؤلفاته :

١ - قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، وقد تم ترجمة هذا الكتاب إلى عدة لغات.

٢ - غريب القرآن ومتشابهه، يشرح فيه معانى الكلمات الصعبة الواردة فى القرآن.

٣ - القرآن والسنة فى التربية الإسلامية، جمع فيه الآيات والأحاديث النبوية التى تتحدث عن الفضائل.

٤ - فلسفة الحرية فى الإسلام، يبين فيه صلاحية الإسلام لمعالجة مشاكل المجتمع الحديث.

٥ - تراثنا بين التقدمية والرجعية، ورأى فيه آن التراث الإسلامى لا يعارض التقدم، بل يدفع إليه.

٦ - ركائز التفكير الإسلامى، وأشاد فيه بدور العقل وأهميته فى الإسلام، هذا بالإضافة إلى كتبه الأخرى، ومنها (الإسلام فى العالم المعاصر) ، (وجوه الحكمة والإنصاف) ، (شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين)، (الجواب الإلهى)، (موجز الفلسفة الغربية) ، (مجموعة سمر النديم)، (قانون السببية عند الغزالى) هذا بالإضافة إلى مجموعة أشعار وخطب ومحاضرات.

أ. د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١ - الشيخ نديم الجسر: قصة الإيمان بيروت سنة ١٩٦٩م.
٢ - الشيخ نديم الجسر: غريب القرآن ومتشابهاته - طرابلس سنة ١٩٧٤م.
٣ - الشيخ نديم الجسر: القرآن والسنة فى التربية الإسلامية - القاهرة سنة ١٩٦٧م.
٤ - الشيخ نديم الجسر: فلسفة الحرية فى الإسلام، طرابلس (د.ت)
٥ - الشيخ نديم الجسر: شبابنا المثقف أمام الإيمان والتدين - القاهرة سنة ١٩٧٠م.
٦ - د. محمد رنيقة: الشيخ نديم الجسر، العلامة المجاهد - دار المعارف العمومية بيروت سنة ١٩٩٢م.

النسائــــى

(٢١٥ - ٣٠٣ هـ = ٨٣٠ ـ ٩١٥م)

هو أبو عبد الرحمن: أحمد بن على بن شعيب بن على بن سنان بن بحربن دينار النسائى الحافظ، صاحب السنن الصغرى والكبرى.

ولد بنسا - من بلاد خراسان - سنة خمس عشرة ومائتين للهجرة، وقيل: أربع عشرة ومائتين ونشأ محبا للعلم، فطوف بكثير من الأقطار الإسلامية، ورحل إلى قتيبة وهو ابن خمس عشرة سنة، وقال: أقمت عنده سنة وشهرين. واستطاع بجهوده المخلصة للعلم وبما منحه الله ـ تعالى ـ من مواهب فطرية أن يحتل مكانة سامية فى الحفظ والإتقان والدقة العالية، والتحرى الشديد حتى قال فيه أبو على الحافظ النيسابورى: للنسائى شرط فى الرجال أشد من شرط مسلم.

وجمع النسائى بين العلم والعمل، فكان يجتهد فى العبادة ليلا ونهارا، ويكثر من العبادة حتى قيل: إنه كان يصوم يوما ويفطر يوما. كما كان مواظبا على الحج والجهاد، شجاعا متمرسا على أساليب الحرب، خرج مع أمير مصر غازيا، فوصفوا من شهامته وشجاعته وإقامته السنن المأثورة فى فداء المسلمين واحترازه من مجالس الأمير الذى معه الشىء الكثير الذى يشهد بمكانته وعظمته.

وكان النسائى محبا للعلم والعلماء شغوفًا بالمعرفة والتحصيل، وما أن بلغ الخامسة عشرة إلا ورحل إلى العلماء فى بلاد كثيرة، فرحل إلى قتيبة بن سعيد البلخى، ومكث عنده سنة وشهرين، وأخذ عنه الحديث وشارك فى السماع منه أئمة الحديث البخارى ومسلم وأبو داود، ورحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر والجزيرة، وضم ما سمعه من علماء بلده إلى ما سمعه من علماء هذه الأمصار، فجمع ثروة علمية هائلة، وبرع فى الحديث حتى قيل: إنه أحفظ من مسلم ابن الحجاج. وقدم مصر، وطاب له المقام بها فأقام طويلا، وظل يمارس نشاطه العلمى بها، وأخذ عنه الناس، ثم خرج من مصر قبيل وفاته سنة ٣٠٢ هـ، وتوجه إلى دمشق.

ومن شيوخه الذين تلقى عنهم ونهل من مواردهم: قتيبة بن سعيد، وإسحاق بن إبراهيم بن راهويه، وحميد بن مسعدة، وعلى ابن خشرم، ومحمد بن عبد الأعلى، والحارث ابن مسكين، وهناد بن السرى، ومحمد بن بشار، ومحمود بن غيلان، وأبو داود السجستانى، والترمذى صاحب الجامع، وهشام بن عمار، وأبو كريب، وسويد بن نصر.

ومن الذين أخذوا عنه الحديث، وتلقوا عنه: أبو بشر الدولابى، وأبو القاسم الطبرانى صاحب المعاجم الثلاثة، وأبو جعفر الطحاوى، ومحمد بن هارون بن شعيب، وأبو الميمون بن راشد، وإبراهيم بن محمد، وصالح بن سنان، وأبو على الحسين بن محمد النيسابورى، وحمزة الكنانى، وأبو بكر أحمد بن إسحاق السنى الحافظ ـ وهو راوية السنن ـ وغيرهم.

وكان الإمام النسائى إلى جانب مكانته العلمية فى السنة وعلومها فقيها، ظاهر الاجتهاد، ومما يدل على خبرته وعمقه فى هذا الجانب: انتقاؤه للتراجم، ومختاراته من الأحاديث حتى قال فيه الدارقطنى: (كان أفقه مشايخ عصره فى مصر وأعلمهم بالحديث والرجال) وقال الحاكم أبو عبد الله: (أما كلام أبى عبد الرحمن على فقه الحديث فأكثر من أن نذكر، ومن نظر فى كتابه «السنن» تحير فى حسن كلامه).

- وله مؤلفات عديدة منها :

١ - السنن الكبرى.

٢ - السنن الصغرى المسماة «المجتبى».

٣ - الخصائص.

٤ - فضائل الصحابة.

٥ - المناسك.

واتهم النسائى بالتشيع، وربما كان أساس هذا الاتهام أنه ألف كتاب «الخصائص» فى فضل على رضي الله عنه وآل البيت.

وأرى أن النسائى براء من هذه التهمة، أما الباعث له على تأليف كتاب «الخصائص» فهو ما ذكره فى إجابته على بعض السائلين، فقد قيل: كيف تركت تصنيف فضائل الشيخين؟ فقال: «دخلت إلى دمشق، والمنحرف عن على رضي الله عنه كثير، فصنفت كتاب «الخصائص» رجاء أن يهديهم الله تعالى». ثم صنف بعد ذلك «فضائل الصحابة رضى الله عنهم».

وقال محمد بن إسحاق الأصبهانى : سمعت مشايخنا بمصر يقولون: إن أبا عبد الرحمن فارق مصر فى آخر عمره، وخرج إلى دمشق، فسئل عن معاوية وما روى من فضائله، فقال: «أما يرضى معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضل؟» وفى رواية أخرى: «ما أعرف له فضيلة»، ولعلهم كانوا

يرغبون أن يؤلف فى فضائل معاوية، فلما كان جوابه هكذا كان ذلك سببا فيما لاقاه من محنة. وقال الحافظ أبو الحسن الدارقطنى: (لما امتحن النسائى بدمشق قال: احملونى إلى مكة، فحمل إليها، فتوفى بها).

وقد شهد للنسائى كثير من العلماء بالثقة والحفظ وعرفوا له مكانته العلمية، قال الدارقطنى: (كان أبو بكر بن الحداد الفقيه كثير الحديث، ولم يحدث عن أحد غير أبى عبد الرحمن النسائى فقط، قال: رضيت به حجة بينى وبين الله تعالى).

وقال ابن خلكان : (توفى يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثلاث وثلاثمائة بمكة حرسها الله تعالى).

وقيل : توفى بالرملة من أرض فلسطين.

والراجح أنه توفى بالرملة - بلدة بفلسطين، وصوب الذهبى هذا الرأى، وجزم به ابن يونس وممن قال بوفاته بفلسطين : أبو جعفر الطحاوى، وأبو بكر بن نقطة رحمهم الله.

أ.د. أحمد عمر هاشم

مراجع للاستزادة :

١ - وفيات الأعيان ٢٥/١.

٢ - الحديث والمحدثون ص ٣٥٨.

٣ - تذكرة الحفاظ ٢٤١/٢.

٤ - طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى ١٥/٣.

٥ - تهذيب التهذيب لابن حجر ٣٨/١.

٦ - البداية والنهاية ١٢٤/١١.

٧ ـ كشف الظنون ١٠٦/٢.

النسفـــى
(٠٠٠ - ٧٠١هـ = ٠٠٠-١٣١٠م)

هو أبو البركات، عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى حافظ الدين، فقيه حنفى، مفسر، أحد الزُّهاد المتأخرين، والأئمة المعتبرين. كان إمامًا كاملا عديم النظير فى زمانه، رأسا فى الفقه والأصول، بارعًا فى الحديث ومعانيه، بصيرًا بكتاب الله تعالى، وهو صاحب التصانيف المفيدة المعتبرة فى الفقه والأصول وغيرهما. وكانت وفاة النسفى - رحمه الله - سنة ٧٠١هـ (إحدى وسبعمائة من الهجرة) = ١٣١٠م، ودفن ببلدة أيذج[1] فرضى الله عنه وأرضاه.

تفقَّه الإمام النسفى على كثير من مشايخ عصره، وأخذ عنهم، ومن هؤلاء: شمس الأئمة الكردى وعليه تفقه، وأحمد بن محمد العتابى الذى روى عنه الزيادات.

وقد ترك العديد من المؤلفات النافعة المفيدة منها : «متن الوافى» فى الفروع، وشرحه «الكافى»، و«كنز الدقائق» فى الفقه أيضًا، و«المنار» فى أصول الفقه، و«العُمدة» فى أصول الدين، و«مدارك التنزيل وحقائق التأويل»، فى التفسير، وغير ذلك من المؤلفات التى تداولها العلماء، وتناولوها دراسة وبحثًا.

وهذا التفسير، اختصره النسفى - رحمه الله - من تفسير البيضاوى ومن الكشاف للزمخشرى، غير أنه ترك ما فى الكشاف من الاعتزالات، وجرى فيه على مذهب أهل السنة والجماعة، وهو تفسير وسط بين الطول والقصر، جمع فيه صاحبه بين وجوه الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليه «الكشاف» من النكت البلاغية، والمحسنات البديعية، والكشف عن المعانى الدقيقة الخفية، وأورد فيه ما أورده الزمخشرى فى تفسيره من الأسئلة والأجوبة، لكن لا على طريقته من قوله: «فإن قيل... قلت» بل جعل ذلك فى الغالب كلامًا مدرجًا ضمن شرحه للآية، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب «الكشاف» من ذكره للأحاديث الموضوعة فى فضائل السور.

أما عن منهجه فى «مدارك التنزيل» فقد قال رحمه الله: «قد سألنى من تتعين إجابته،

كتابًا وسطًا فى التأويلات، جامعًا لوجوه الإعراب والقراءات، متضمنًا لدقائق علمى البديع والإشارات، حاليًا بأقاويل أهل السنة والجماعة، خاليا من أباطيل أهل البدع والضلالة، ليس بالطويل الممل، ولا بالقصير المخل، وكنت أقدم فيه رجلاً وأؤخر أخرى، استقصارا لقوة البشر عن درك هذا الوطر، وأخذا لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر، حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة، وأتممته فى مدة يسيرة، وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل».

وأما من ناحية المسائل النحوية : فكان النسفى - رحمه الله - جامعا بين وجوه الإعراب والقراءات، غير أنه من ناحية الإعراب لا يستطرد كثيرا، ولا يزج بالتفاصيل النحوية فى تفسيره كما يفعل غيره.

وأما من ناحية القراءات فهو ملتزم للقراءات السبع المتواترة مع نسبة كل قراءة إلى قارئها.

وأما من ناحية مسائل الفقه :

فنجده يعرض للمذاهب الفقهية عند تفسيره لآية من آيات الأحكام التى لها تعلق وارتباط بالآية، ويوجه الأقوال ولكن بدون توسع.

وهو ينتصر لمذهبه الحنفى ويرد على من خالفه فى كثير من الأحيان، وإن أردت الوقوف على ذلك فارجع إليه عند تفسيره مثلا لقوله تعالى ﴿ **والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء** ﴾. [البقرة : ٢٢٨].

ومما نلحظه على هذا التفسير أنه مقل جدا فى ذكره للإسرائيليات، وما يذكره من ذلك يمر عليه بدون أن يتعقبه أحيانا، وأحيانا يتعقبه ولا يرتضيه.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ **وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب • إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط** ﴾ [ص: ٢١، ٢٢]. نراه - بعد أن يذكر من الروايات ما لا يتنافى مع عصمة داود عليه السلام يقول ما نصه: «وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يقتله ليتزوجها - يعنى زوجة أوريا - فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء الناس، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء، وقال علىّ رضي الله عنه: «من حدَّثكم بحديث داود عليه السلام على ما يرويه القصاص، جلدته مائة وستين، وهو حد الفرية على الأنبياء»[٢].

ومثلاً عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ **ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب** ﴾ [ص: ٣٤]... نراه : يذكر من الروايات ما لا يتنافى مع عصمة سليمان

ﷺ، ثم يقول ما نصه: «وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان، وعبادة الوثن فى بيت سليمان ﷺ، فمن أباطيل اليهود»[٣].

هذا .. وإن الكتاب لمتداول بين أهل العلم، ومطبوع فى أربعة أجزاء متوسطة الحجم، وقد نفع الله به الناس كما نفعهم بغيره من مؤلفات النسفى - رحمه الله.

أ.د. عبد الحى الفرماوى

الهوامش:

١ - قال فى القاموس (١٧٧/١): وأيذج كأحمد بلد بكردستان.
٢ - الجزء الرابع من تفسيره ص ٢٩ - ٣٠.
٣ - الجزء الرابع من تفسيره ص ٣٢.

مراجع للاستزادة:

١ - الدر الكامنة ٢٤٧/٢.
٢ - الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص ١٠٢.

النفس الزكيـــة
(٩٣ - ١٤٥هـ = ٧١٢ - ٧٦٢م)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب الملقب بالنفس الزكية. أحد علماء وأئمة آل البيت.

ولد بالمدينة عام ٩٣هـ = ٧١٢م وفيها نشأ ونهل من العلم حتى صار أغزر شباب آل البيت علمًا، وجمع إلى العلم براعة فى الخطابة، وشجاعة وفروسية وسخاء وكرما، مع صلاح وتقوى. ولقد أعادت شمائله إلى شباب المدينة صورة «أسد الله .. وسيد الشهداء» حمزة بن عبد المطلب من جديد.. واشتهر، لذلك باسم «النفس الزكية». توفى فى عام ١٤٥هـ الموافق ٧٦٢م.

انحاز إلى صفوف المعارضة الثائرة على بنى أمية، فشارك مع المعتزلة فى الثورة التى قادها من الكوفة زيد بن على (٧٩ - ١٢٢هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠م) ... وبعد هزيمتها ظل على ولائه للمعارضة الثائرة... فلما تصاعدت وقائع ومعارك الثوار ضد الدولة الأموية ولاحت نذر انهيارها، عقد قادة الفرق والأحزاب الثائرة مؤتمرًا بمكة المكرمة، تدارسوا فيه مستقبل الخلافة، واستقر الرأى على إعادتها إلى إطار الشورى والاختيار والبيعة، وإنهاء مرحلة الانحراف بها إلى الوراثة والملك العضود، وعقدوا البيعة للنفس الزكية إماما وخليفة للمسلمين، يتولى السلطان عندما تجهز الثورة على بقايا المقاومة الأموية.

لكن الجند الخراسانيين، بقيادة أبى مسلم الخراسانى (١٣٧هـ ٧٥٤م) - وهم شعوبيون، كارهون للعرب - دبروا أمرا آخر، فأفضت الأحداث بنقل الخلافة - عند انهيار الدولة الأموية - إلى الفرع العباسى فى الثورة - الذى مثله أبو العباس السفاح (١٠٤ - ١٣٦هـ = ٧٢٢ - ٧٥٤م) بدلا من الفرع العلوى، الذى كان يمثله النفس الزكية.

وبعد أن استقر الملك للعباسيين، ظل محمدٌ النفس الزكية على معارضته لهذا الانقلاب، فأعلن ثورته، من المدينة، ضد حكم أبى جعفر المنصور (٩٥ - ١٥٨هـ = ٧١٤-

٧٧٥م) وكان معه المعتزلة والعلويون وكثيرون من الذين بقوا على ولائهم للبيعة التى عقدت له قبل الانقلاب الشعوبى الذى حولها إلى العباسيين، ولقد أيد كثير من العلماء - ومنهم الإمام مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩هـ = ٧١٢ - ٧٩٥م) ثورة النفس الزكيـة... وأحل الإمـام مالك أولئك الذين اضطروا إلى مبايعة خلفاء بن العباس من أيمانهم قائلا: «ببطلان بيعة المكره ويمين الإكراه!» ولقى بسبب ذلك الأذى والاضطهاد.

لكن الثورة التى قادها النفس الزكية والتى سيطرت على المدينة فى رجب سنة ١٤٥هـ والتى أرسلت ولاتها إلى مكة والشام والبصرة ومصر وخراسان واليمن والجزيرة والرى والمغرب - قد أجهزت عليها الجيوش العباسية فى الرابع عشر من رمضان - أى بعد شهرين ونصف من قيامها.

لكنها تواصلت، فى البصرة بقيادة إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن - أخى النفس الزكية.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١ - مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى - تحقيق: السيد صقر - طبعة المعرفة - بيروت.

٢ - مسلمون ثوار للدكتور محمد عمارة - طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٨٨م.

٣ - الأعلام للزركلى جـ ٦/ ٢٢٠.

ابن النفيس
(٦٠٧ـ ٦٨٧هـ ـ ١٢١٠ ـ ١٢٨٨م)

هو عـــلاء الدين على بن أبى الحـــزم القـرشى الملقب بابن النفـيس، أسـتـاذ الطب بالديار المصـرية ومن أكـبـر أطبـاء العـرب المسلمين، وأحد أعلام القرن السابع الهجرى.

ولد بدمـشق حوالى سنه ٦٠٧هـ = ١٢١٠م ورحل إلى القاهرة وأقام بها حتى بلغ الثمانين من عمره، وتوفى بها سنه ٦٨٧هـ = ١٢٨٨م.

ويعد ابن النفيس صاحب الفضل الأول فى اكتشاف وفهم الدورة الدموية وتشريح القلب والأوعية الدموية، فقد تمكن من الوصول إلى الحقيقة التى نعرفها الآن من أن الحاجز بين البُطين فى القلب حـاجـز كـامل لا يحـتـوى ثقوبا، وكـان المعـتـقـد قبل هذا أن الحـاجـز يحوى ثقوبا تكفل الاتصال بين البُطين ، وظل الأطبـاء يتناقلون هـذا المعـتـقـد منذ عـهـد جالينوس حتى اكتشف ابن النفيس من خلال التشريح خطأ هذا المعتقد، وقد فسر مؤرخو الطب المعـاصـرون هذا بأن جـالينوس كـان يشـرح أطفـالا مـاتوا وهم مـصـابون بالثـقب الحاجزى البُطينى.

كذلك كان ابن النفيس سبـاقـا إلى القول بأن القلب يرتوى من خـلال الشـريان التـاجى المحيط به، وكان الاعتقاد قبل هذا أن القلب يأخذ غذاءه من الدم الذى فى تجاويفه.

وإلى ابن النفيس يعود الفضل فى اكتشاف مـا أسمـاه تجاويف أو منافذ مـحسوسـة فيمـا بين الأوردة والشرايين، وهـى التى عرفت فيما بعد باسم الشعيرات الدموية.

أمـا الاكـتـشـاف الأكـبـر لابن النفـيس فهـو وصفه للدورة الدموية الصغرى التى تنقل الدم مـن البُطين الأيمن إلـى الرئتين ثم إلـى القلب وذلك فـى مـقـابل الاعـتـقـاد السـابق بأن الدم ينتـقل من البطين الأيمن إلى البطين الأيسـر مباشرة عبر ثقوب الحاجز البطينى.

كان ابن النفيس عالمـا مبرزا فى جيله، ولد فى دمـشق فى عـهـد الملك العـادل أخـو الملك النـاصـر صـلاح الدين الأيوبى ودرس الطب فى البـيـمـارسـتـان النورى الكبـيـر فى دمـشق ثم انتـقل إلى القـاهرة التى كـانت أبرز حـوافـر العلم فى الدولة الإسـلامـيـة فى ذلك الوقت. (وكـذلك فـعل المؤرخ الطبـى العظيم ابن أبى أصـيـبـعـة الذى ولد قـبله بعشـر سنوات) وفى القـاهرة اختـيـر رئيسـا لقسم طب العيون فى

البيمارستان الناصرى، ثم أصبح رئيسا لأطباء البيمارستان المنصورى وهو أعلى منصب طبى فى مصر فى ذلك الوقت، وقد ظل يمارس الطب باقتدار وحظى بثقه الحكام المتعاقبين، ووهب حياته للطب فلم يتزوج، وتوفى فى عهد السلطان قلاوون، وقد أوصى بكل ثروته للمستشفى المنصورى، وكان من أملاكه دار فاخرة ومكتبة خاصة عُدَّتْ بمثابة أعظم مكتبة علمية فى ذلك العصر.

تميز ابن النفيس بقدرات ذهنية وعلمية هائلة، كان يملى كتبه من الذاكرة دون حاجة إلى النقل من المراجع وكان سريع البديهة قوى الملاحظة، وتروى عنه فى هذا الشأن حكايات كثيرة، وكان متبحرا فى العلوم والمعارف.

وقد ألف فى الأدب والفلسفه: «فاضل بن ناطق»، وفى التاريخ «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية»، وفى علم الحديث: «مختصر علم الحديث»، وفى الفقه «التنبيه إلى طرق الشافعية»، وفى النحو «طريق الفصاحة».

أما فى الطب فقد ترك «تفاسير العلل وأسباب الأمراض، و «الشامل فى الطب»، «والمهذب فى الكحل»، «والمختار فى الأغذية»، وروى أنه كان وهو كبير الأطباء فى المستشفى المنصورى يقوم بتدريس علوم الدين فى المدرسة المسرورية.

كان ابن النفيس لاحقا لابن سينا، وقد ألف كتابه «شرح تشريح القانون» مفصلاً القول فى آراءه التى عقب بها على الآراء التشريحية لابن سينا فى كتابه الأشهر «القانون» وقد ظل هذا الكتاب مجهولا للعامة حتى اكتشف الطبيب المصرى محيى الدين التطاوى نسخة نادرة من مخطوطته فى مكتبة برلين (١٩٢١م) وقد حقق هذه المخطوطة ونال عنها درجة الدكتوراة فى رسالة بعنوان «ابن النفيس المكتشف الحقيقى للدورة الدموية»، وقد واصل عدد من كبار الأطباء المهتمين بتاريخ الطب العربى الاهتمام بجهود ابن النفيس وفكره حتى أمكن لنا أن نصل الآن إلى قيمته العلمية العظيمة، ومع هذا تبقى للرأى الذى يحتفظ بالفضل للأوربيين فى الكشوفات التى سبق إليها ابن النفيس وجاهته، إذ أن ابن النفيس اكتشف ما اكتشفه وسجله دون أن يتصل اكتشافه بمدرسة علمية مستمرة تتبنى فكره إلى أن نقل الأوروبيون آراءه وطوروها ودافعوا عنها ونسبوها إلى أنفسهم فى القرن السادس عشر والسابع عشر الميلادى أى بعد خمسمائة سنة من كشوف ابن النفيس.

أ.د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى.

٢ - الموجز فى الطب لابن النفيس.

٣ - الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية لابن النفيس.

٤ - تاريخ الإسلام للذهبى.

النويـــرى
(٦٦٠ - ٧٣٢هـ = ١٢٦٢ - ١٣٣٢م)

هو شهاب الدين: أحمد بن عبد الوهاب ابن محمد المعروف بالنُّويرى، ولم يُعْثر على تاريخ مولده. ولكن الظاهر أنه ولد حوالى سنة ٦٦٠هـ = ١٢٦٢م وتوفى سنة ٧٣٢هـ أو ٧٣٣هـ (١٣٣٢م). درس النويرى بالقاهرة فى الأزهر الشريف، والظاهر أنه تخصص نوعاً فى دراسة الحديث والتاريخ والأدب، واشتغل فى شبابه بنسخ الكتب الجليلة، وكان أنيق الخط، يكتب النسخة من صحيح البخارى ويبيعها بألف دينار. وظهر النويرى بكفاياته الأدبية واتصل ببلاط الملك الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية (٦٩٣ - ٧٠٨هـ) ثم الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١هـ) ونال عطفه وحظوته، وتقلب فى عدة وظائف إدارية ومالية ظهرت فيها جميعاً كفايته وتفوقه.

ويعدد النويرى لنا بعض هذه الوظائف فى كتابه «نهاية الأرب» فيقول: إنه مارس الكتابة وبسط الخرائد، وتولى أعمال الحسبة، والمقايسات، والمحاسبة والتحصيلات، والنظر على الغلات والاعتصار، والعلوفات والمبيعات وغيرها.

ويقول ابن حجر فى «الدرر الكامنة» : إن الملك الناصر وكَّل النويرى فى بعض أموره، وإنه باشر نظر الجيش بطرابلس وهى وظيفة عسكرية هامة. ولا ريب أن هذا المزج والتباين فى نواحى الحياة الأدبية والعملية معاً كان له أثر كبير فى تكوين النويرى وتوسيع معارفه العامة، وثقافته النظامية والإدارية والمالية، التى يبرهن على متانتها فى مواضع كثيرة من موسوعته.

ثم عاف النويرى هذه الحياة الإدارية الجافة، فنبذها وتطلع إلى الأدب والانقطاع له. وعكف على الدرس والمطالعة الواسعة حتى ارتوى. وخطرت له عندئذ فكرة إخراج موسوعته الضخمة.

ونستطيع أن نضع الفترة التى شغلها النويرى بالدرس والتنقيب ما بين سنة ٧١٠ و ٧٢٠هـ. والظاهر أنه قطع حياته فى الوظائف العامة فى الأعوام العشرة التى سبقت هذه الفترة، أى فى عهد سلطنة الملك الناصر الثانية، ثم انقطع إلى البحث والدرس بعد

ذلك. وعلى أى حال فقد أخرج لنا النويرى أول جزء من موسوعته الكبرى فى ذى القعدة سنة ٧٢١هـ حسبما يقرر ذلك فى خاتمة هذا الجزء. ولكن يبدو أيضاً من نظام هذا المؤلف الضخم وتبويبه، أن النويرى قد وضع تصميمه وهيكله جميعاً قبل أن يبدأ فى كتابته، وأنه استوعب من قبل جميع مواده ومراجعه. ومن المحقق أن النويرى اعتمد فى مجهوده على مادة غزيرة من المراجع فى جميع فنون الأدب العربى. ذلك أن ما يقدمه إلينا النويرى فى ثوب «كتاب يستأنس به ويرجع إليه» إنما هو موسوعة ضخمة جمعت طائفة عظيمة من المواد والمعارف الأدبية والتاريخية الحافلة، التى لم يجمعها من قبل ولا من بعد كتاب فى الأدب العربى.

ومن مؤلفاته: تلك الموسوعة المدهشة، التى شغلت حياة أدبية حافلة بأسرها. وتسمى: «نهاية الأرب فى فنون الأدب» وهو بذلك يعطيها طابعها الأدبى. فالنويرى لم يعالج فى موسوعته إلا ما كان «الأدب» يسيغه، ولكن بأوسع المعانى. فالأدب المحض، والتاريخ والجغرافية، والسياسة الملكية، والبيان والبديع، والأمثال والأوصاف، مما يفيض فيه النويرى، ولكنه لا يتناول الكلام على المواد العلمية المحضة مثل الطب، والرياضة، والكيمياء وغيرها، وإذا كان يفيض فى الكلام على فروع يطبعها الطابع العلمى مثل أنواع الحيوان والنبات، فإنه يعالجها من الناحية الوصفية والأدبية أيضاً. وتشغل موسوعة «نهاية الأرب» واحداً وثلاثين مجلداً ضخماً كل مجلد يشغل جزئين. ونستطيع أن نتصور من تأمل هذا القدر، أى مجهود شاق اضطلع به النويرى واستطاع أن يخرجه بمفرده.

وقد وضع النويرى لموسوعته تصميماً مدهشاً يقوم على خمسة «فنون»، وكل فن ينقسم إلى خمسة أقسام، وكل قسم ينقسم إلى عدد من الأبواب، وهذه الفنون الخمسة تنقسم إلى مجموعتين كبيرتين: الأولى تشمل من الفن الأول إلى الفن الرابع، وتشغل عشرة مجلدات من الطبعة التى أصدرتها دار الكتب، وتشتمل المجموعة الثانية على الفن الخامس فقط، وتشغل واحداً وعشرين مجلداً.

وفى محتويات نهاية الأرب، وفى جمعها فى صعيد واحد، وفى تنظيمها على هذا النحو، ما يشهد بكثير من البراعة والجلد. ومن المحقق أن مجهود النويرى يقوم بالأخص على النقل من المراجع والأسفار المتقدمة. ولكن هذا المجهود يطبعه ذوق خاص لا شك فى قيمته ونفاسته. ومن المحقق أيضاً أن موسوعة النويرى التاريخية تتبوأ بين المراجع التاريخية الكبرى مقاماً رفيعاً، وقد اهتم البحث الأوروبى منذ بعيد بمجهود النويرى

التاريخى ونشرت بعض أبوابه، وترجمت إلى اللاتينية والفرنسية، وبالأخص تاريخ صقلية وإفريقية.

ومن الواضح أن التاريخ يشغل فى موسوعة النويرى، أكبر أقسامها، فإن الفنون الأربعة الأولى منها لا تشغل فيها سوى ثلاثة عشر مجلداً من واحد وثلاثين مجلداً من المخطوط (وهى تقابل فى المطبوع اثنى عشر مجلداً).

ومع براعة النويرى فى التنظيم والتبويب، ثم من سلاسته فى العرض التاريخى، فإنه يعد مؤرخاً قبل كل شىء. وإذا كان النويرى لم يخص مصر بمجهوده التاريخى، على نحو ما فعل المقريزى وابن تغرى بردى، فإنه يفرد لتاريخها حيزاً كبيراً يشغل أربعة مجلدات، أولها يشمل تاريخ الدولة الفاطمية، والثانى يشمل تاريخ الدولة الأيوبية، والثالث يشمل تاريخ الشام والصليبيين، والرابع يشمل تاريخ الدولة المملوكية حتى العصر الذى عاش فيه، مرتباً بحسب السنين.

أ. محمد عبد الله عنان «بتصرف»

مراجع للاستزادة:

١ - مؤرخو مصر الإسلامية.

٢ - وفيات الأعيان.

٣ - حسن المحاضرة.

٤ - خطط المقريزى.

٥ - الأعلام للزركلى.

النيسابـــورى
(٠٠٠ـ ٧٢٨هـ = ٠٠٠ـ ١٣٢٧)

هو الإمـــام نظام الدين بن الحـــسن بن محمد بن الحسين، الخرسانى النيسابورى، المعروف بالنظام الأعرج.

لم يعرف تاريخ ميلاده وتوفى عام ٧٢٨ هـ الموافق ١٣٢٧م .

كـان ـ رحـمـه الله ـ من أسـاطين العلم بنيسابور، ملماً بالعلوم العقلية، جامعاً لفنون اللغة العربية، له القدم الراسخ فى صناعة الإنشاء، والمعرفة الوافرة بعلم التأويل والتفسير.

وكـان ـ رحـمـه الله ـ على مبلغ عظيم من الورع والتقوى، والزهد والتصوف، كما يظهر ذلك جلياً فى تفسيره.

سلك الإمام النيسابورى: مسلكاً منفرداً بين المفسرين. ذلك أنه كان يذكر الآيات القرآنية أولا، ثم يذكر القراءات، مع التزامه ألا يذكر إلا ما كان منها منسوباً إلى الأئمة العشرة، وإضافة كل قراءة إلى صاحبها الذى تنسب إليه.

ثم يذكر الوقوف مع التعليل لكل وقف منها. ثم : يشرع فى التفسير، مبتدئا بذكر المناسبة، وربط اللاحق بالسابق، مع عناية كبيرة بذلك، سرت إليه من التفسير الكبير للفخر الرازى.

ثم : يبين معانى الآيات بأسلوب بديع. يشتمل على : إبراز المقدرات، وإظهار المضمرات، وتأويل المتشابهات، وتصريح الكنايات، وتحقيق المجاز والاستعارة، وتفصيل المذاهب الفقهية، مع توجيه أدلة كل مذهب، وما حملت عليه الآية القرآنية؛ لتكون مؤيدة لمذهب من المذاهب، أو غير متعارضة معه ولا منافية له.

نجد الإمام النيسابورى: يخوض فى المسائل الكلامية، فيذكر مذهب أهل السنة، ومذهب غيرهم، مع ذكره أدلة كل مذهب، وانتصاره لمذهب أهل السنة. فمثلاً: عند تفسيره لقوله تعالى: (ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرًا ... الآية) "الأنعام ٢٥" نجده يقول: وفى الآية دلالة على أن الله تعالى هو الذى يصرف عن الإيمان، ويحول بين المرء وبين

قلبه، وقالت المعتزلة لايمكن إجراؤها على ظاهرها؛ وإلا كان حجة للكفار، ولأنه يكون تكليفاً للعاجز، ولم يتوجه ذمهم فى قولهم : (وقالوا قلوبنا غلف) "البقرة ٨٨" فلابد من التأويل، وذلك من وجوه... ثم ساق خمسة أوجه للمعتزلة: ثم تعقبها بالرد؛ تفنيداً لمذهب المعتزلة، وتصحيحاً لمذهب أهل السنة.

وقد كان النيسابورى ـ رحمه الله ـ صوفياً كبيراً. فنراه لذلك: يستطرد أثناء التفسير.. إلى كثير من المواعظ، والحكم.

وقد اختصر النيسابورى تفسيره هذا: من التفسير الكبير للفخر الرازى، وضم إلى ذلك، بعض ما جاء فى الكشاف، وغيره من التفاسير، وضمنه ما ثبت لديه من تفاسير هذه الأمة، من الصحابة والتابعين.

ومن مؤلفاته الأخرى شرحه على متن الشافية، فى فن الصرف، للإمام ابن الحاجب، وهو معروف بشرح النظام. وشرحه على تذكرة الخواجة نصير الملة والدين، الطوسى، فى علم الهيئة، وهو المسمى بتوضيح التذكرة. ورسائل فى علم الحساب.

وكتاب فى أوقاف القرآن، على حذو ما كتبه السجاوندى المشهور.

أ. د. عبد الحى الفرماوى

أبـو هريــرة
(٢١ق هـ-٥٩هـ - ٦٠٢-٦٧٩م)

هو عـبـد الرحـمن بن صـخـر الدوسى اليمـانى، الملقب بأبى هريرة. صـاحب رسـول الله ﷺ، من أكثـر الصحـابة رضى الله عنهم حـفظاً لحـديث رسـول الله ﷺ، وهـو من ولد ثعلبـة بن سليم بن فـهم بن غنم بن دوس اليمـانى، فـهـو دوسى، نسـبـة إلى دوس بن عـدنان بن عـبـد الله بن زهران بن كـعب بن الحـارث.. الأزدى، والأزد من أعظم قـبـائل العرب وأشهرها.

كـان اسمـه فى الجـاهليـة: عـبـد شـمس، وقـيل: غـيـر ذلك، فـسـمـاه رسـول الله ﷺ عبد الرحمن.

ومن هنا قـال السيـوطى: فى اسمـه واسم أبيه نحو، ثلاثين قولاً.

وقـال النووى: أصـحـهـا: عـبـد الرحـمن بن صخر.

وذكـر يونس بن بكيـر الأويسى عن ابن إسحاق قـال: حدثنى بعض أصحـابنا عن أبى هريرة، قـال: كـان اسمى فى الجـاهليـة: عـبـد شمس، فُسميت فى الإسلام: عبد الرحمن، وإنما كنيت بأبى هـريرة، لأنى وجــدت هـرة فجعلتها فى كمى، فقيل لى: ماهذه؟

قلت: هرة، قيل: فأنت أبو هريرة.

نشـأ يتيمـاً ضـعيفـاً فى الجـاهليـة، وقـدم المدينة سنة سـبع للهـجـرة، ورسـول الله ﷺ بخيبر، وأسلم عام خيبر، وشهدها مع رسول الله ﷺ ثم لزمه، وواظب عليه رغبة فى العلم، راضـيـاً بشـبع بطنه فكانت يده مع يد رسـول الله ﷺ، وكـان يدور معه حيث دار، وكـان من أحـفظ الصـحــابة رضى الله عنهم، وكــان يحـضـر مـا لا يحـضـر سـائر المهـاجـرين والأنصـار، لاشـتـغـال المهـاجـرين بالتـجـارة، والأنصـار بحوائجـهم وقد روى عن النبى ﷺ ٥٣٧٤ حديثا.

وقد شـهد له رسـول الله ﷺ بأنه حـريص على العلم والحديث.

وقـال أبو هريرة للنبى ﷺ: يارسـول الله، إنى قد سمعت منك حديثاً كثيراً، وأنا أخشى أن أنسى فقال:

«أبسط رداءك» قال: فبسطته، فغرف بيده فيه، ثم قال: «ضُمَّهُ»، فضممته، فما نسيت شيئاً بعده.

قال البخارى: روى عن أبى هريرة رضي الله عنه أكثر من ثمانمائة رجل ما بين صحابى وتابعى.

وممن روى عنه من الصحابة: ابن عباس، وابن عمر، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك، وواثلة بن الأسقع وعائشة أم المؤمنين رضى الله عنهم أجمعين.

ولد رضي الله عنه: قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة.

ويفهم ذلك من قوله رضي الله عنه عنه فيما ذكره ابن حجر العسقلانى فى الإصابة فى تمييز الصحابة:

«وإنما قدم قبل وفاة رسول الله ﷺ بيسير، فقال أبو هريرة: قدمت ورسول الله ﷺ بخيبر، وأنا يومئذ قد زدت على الثلاثين، فأقمت معه حتى مات، أدور معه فى بيوت نسائه وأخدمه، وأغزو معه، وأحج، فكنت أعلم الناس بحديثه، وقد سبقنى قوم بصحبته، فكانوا يعرفون لزومى له، فيسألوننى عن حديثه، منهم: عمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، ولا والله لا يخفى علىَّ كل حديث كان بالمدينة، وكل من كانت له من رسول الله ﷺ».

وتوفى بالعقيق فى المدينة المنورة سنة ٥٩هـ تسع وخمسين للهجرة = ٦٧٩م وصلى عليه الوليد بن عقبة بن أبى سفيان، وكان يومئذ أميراً على المدينة.

قال الواقدى: توفى سنة تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

وقيل: توفى سنة ٥٧هـ، وقيل: ٥٨ هـ.

وأما عن حياته العلمية واتجاهاته رضي الله عنه.

فمنها ما ذكره ابن حجر العسقلانى فى تهذيب التهذيب قال:

«جاء رجل إلى زيد بن ثابت فسأله عن شىء، فقال له زيد: عليك بأبى هريرة، فإنى بينما أنا وأبو هريرة وفلان فى المسجد، ذات يوم ندعو الله تعالى ونذكره، إذ خرج علينا النبى ﷺ حتى جلس إلينا، فسكتنا، فقال: عودوا إلى الذى كنتم فيه، قال زيد: فدعوت أنا وصاحبى قبل أبى هريرة، وجعل رسول الله ﷺ يؤمِّن على دعائنا - أى يقول: آمين.

ثم دعا أبو هريرة، فقال: اللهم إنى أسألك ما سألك صاحباى، وأسألك علماً لا ينسى، فقال ﷺ: آمين.

فقلنا يارسول الله ونحن نسأل علماً لا ينسى، فقال: سبقكم بها الغلام الدوسى.

ومن هنا كان أبو هريرة وعاء من أوعية العلم ببركة دعاء النبى ﷺ له. ومن كبار أئمة الصحابة فى الحديث، مع عبادته وجلالته، وتواضعه وورعه، ولم يكن أحد أكثر منه حديثاً من أصحاب النبى ﷺ إلا عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

إلا أن ظروف عبد الله بن عمرو وتنقله

مع أبيه بين الحجاز ومصر والشام، وعدم استقراره، وانشغاله فى العبادة عن التحديث عن رسول الله ﷺ، جعل ما روى عنه أقل مما روى عن أبى هريرة بكثير.

وقد استكثر بعض الصحابة، رضى الله عنهم حديث أبى هريرة عن الرسول ﷺ حين كانت سياسة الصحابة الإقلال من حديث رسول الله (ﷺ) كيلا ينصرف الناس عن القرآن، وخوفاً من الخطأ والكذب على النبى (ﷺ).

وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمره بالإقلال من الرواية عن رسول الله (ﷺ)، إلا أنه عاد فسمح له حين عرف علمه ومكانته وورعه.

وكان أبو هريرة رضي الله عنه يذكر أسباب كثرة حديثه فيقول: إنكم لتقولون أكثر أبو هريرة عن النبى (ﷺ)، والله الموعد، - يقصد اللقاء بين يدى الله عز وجل يوم القيامة - ويقولون: ما للمهاجرين لا يحدثون عن رسول الله (ﷺ) هذه الأحاديث، وإن أصحابى من المهاجرين كانت تشغلهم أرضوهم والقيام عليها، وإنى كنت امرءاً مسكينا، ألزم رسول الله (ﷺ) على ملء بطنى، وكنت أكثر مجالسة رسول الله ﷺ)، أحضر إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا، وإن النبى (ﷺ) حدثنا يوماً فقال: من يبسط ثوبه حتى أفرغ فيه من حديثى، ثم يقبضه إليه فلا ينسى شيئاً مما سمعه منى أبداً، فبسطت ثوبى، فحدثنى ثم قبضه إلىّ، فو الله ما كنت نسيت شيئا سمعته منه.

وكان رضي الله عنه يقول: وايم الله لولا آية فى كتاب الله ما حدّثتكم بشىء أبدًا ثم يتلو قوله تعالى: ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون** ﴾ (البقرة ١٥٩).

وكان يدعو الناس إلى نشر العلم، وعدم الكذب على رسول الله (ﷺ)، ومن ذلك ما رواه عن النبى (ﷺ) أن قال: «**من سئل عن علم فكتمه، ألجم بلجام من نار يوم القيامة**». أخرجه أحمد فى مسنده.

وهكذا كان يشعر أبو هريرة أن من واجبه أن يفقه الناس، ويعلمهم ما سمعه من الصادق المصدوق (ﷺ) ويرى إلزاماً عليه، لذلك لم يتوان فى نشر العلم ولم يقصد فيه، وأفتى الناس أكثر من عشرين سنة، وكان طلاب العلم وأصحاب المسائل لا ينقطعون عنه لعلمه الجم، وحفظه الجيد، حيث كان من أعلم الصحابة رضى الله عنهم بسنة رسول الله (ﷺ).

وكان رضي الله عنه حين يعقد حلقات الحديث الشريف يسمح لبعض طلابه بالكتابة عنه.

وقد ثبت أنه أملى على التابعى الثقة: بشير بن نهيك الدوسى البصرى بعض

حديثه، وقرأ بشير ما كتبه عن أبى هريرة عليه قبل أن يفارقه.

ويحفظ لنا التاريخ وثيقة تاريخية علمية قيمة لما أملاه أبو هريرة على تلميذه همام بن منبه المولود سنة ٤٠ هـ والمتوفى سنة ١٣١هـ.

فقد لقى همام بن منبه، وهو أحد أعلام التابعين الثقات، أبا هريرة وكتب عنه كثيراً من حديث رسول الله ﷺ وجمعه فى صحيفة وسماها (بالصحيفة الصحيحة) على مثال: الصحيفة الصادقة لعبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما.

وحق له أن يسميها بالصحيحة، لأنه كتبها عن صحابى خالط رسول الله (ﷺ) أربع سنين وروى عنه الكثير.

وقد وصلتنا هذه الصحيفة كاملة، كما رواها همام بن منبه عن أبى هريرة، وقد عثر على هذه الصحيفة وحققها الدكتور محمد حميد الله، من مخطوطتين متماثلتين فى دمشق وبرلين.

ويوجد لهذه الصحيفة نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٩٨١ حديث).

وترجع أهمية هذه الصحيفة إلى أن الإمام أحمد نقلها بتمامها فى مسنده كما نقل الإمام البخارى كثيراً من أحاديثها فى صحيحه فى مواضع شتى.

ولها فى نفس الوقت أهمية تاريخية فى تدوين الحديث الشريف، فهى حجة قاطعة ودليل واضح على أن الحديث النبوى دوّن فى عصر مبكر خلافاً للخطأ الشائع: أن الحديث النبوى لم يدون إلا فى أوائل القرن الثانى الهجرى.

وذلك لأن همام بن منبه لقى أبا هريرة قبل وفاته وكتب عنه هذه الوثيقة العلمية، وقد توفى أبو هريرة سنة ٥٩هـ فمعنى ذلك أنها دونت قبل سنة ٥٩هـ، أى فى منتصف القرن الأول الهجرى وبهذا يكون لأبى هريرة فضل كبير فى تشجيع طلاب العلم على تدوين الحديث الشريف وحفظه.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - الاستيعاب فى معرفة الأصحاب حـ٤/٣٣٢ ت ٣٢٤١.

٢ - الإصابة فى تمييز الصحابة حـ٧/٣٤٨ ت ١٠٦٨٠.

٣ - تحرير أسماء الصحابة حـ٢/٢٠٩.

٤ - جمهرة أنساب العرب ص ٣٥٨.

٥ - أبو هريرة راوية الإسلام - سلسلة أعلام العرب ٢٢ لمحمد عجاج الخطيب.

٦ - إسعاف المبطأ برجال الموطأ للسيوطى ص ٤٦.

٧ - تهذيب الأسماء واللغات حـ٢/٢٧٠

٨ - الأعلام للزركلى حـ٣/٢٠٨.

٩ - تهذيب التهذيب حـ١٢/٢٦٦.

ابن هشام «اللغوى»
(٧٠٨ - ٧٦١هـ = ١٣٠٩ ـ ١٣٦٠م)

هو عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف الشهير بابن هشام، وكنيته أبو محمد ـ ولقبه جمال الدين. أحد أئمة العربية، من أعلام القرن الثامن الهجرى.

ولد بالقاهرة فى شهر ذى القعدة سنة ٧٠٨هـ.

وتوفى أيضا بالقاهرة فى شهر ذى القعدة سنة ٧٦١هـ. أى أنه عاش ثلاثا وخمسين عاما.

ويعتبر ابن هشام أديب النحاة حقا، فقد بان أن النحو عنده ذوق ونص، وسياق واستعمال.

وقد ملك هذا العالم اللغوى المصرى حرفة توصيل قواعد النحو بدقة وإتقان، واشتهر بالتحقيق وسعة الاطلاع والاقتدار على التصرف فى الكلام وذاع صيته فى العالم العربى والإسلامى حتى قال عنه ابن خلدون فى مقدمته: ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له: ابن هشام، أنحى من سيبويه.

ويقول المؤرخون عنه:

«وتصدَّر الشيخ جمال الدين ابن هشام لنفع الطالبين، وانفرد بالفوائد الغريبة، والمباحث الدقيقة والاستدراكات العجيبة، والتحقيق البالغ، والاطلاع المفرط، والاقتدار على التصرف فى الكلام، والملكة التى كان يتمكن بها من التعبير عن مقصوده بما يريد مسهبا وموجزا».

وقد ترك للعربية تراثاً ضخمًا، جُلّه يدور حول النحو ومشكلاته، ومحاولة رؤيته من خلال سياقات النص القرآنى والشعرى.

وقد ترك ابن هشام ثروة كبيرة فى اللغة منها :

١ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك.

٢ - التذكرة، وقد قال عنها السيوطى بأنها فى خمسة عشر مجلداً.

٣ - الروضة الأدبية فى شواهد علوم العربية، وهو شرح للشواهد الشعرية التى أوردها ابن جنى فى كتابه اللمع.

٤ – شذور الذهب فى معرفة كلام العرب.

٥ – قطر الندى وبل الصدى.

٦ – شرح اللمعة البدرية.

٧ – مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب

وقد طبع هذا الكتاب فى طهران والقاهرة مرارا، وعليه شروح كثيرة طبع منها عدد واف.

وعن هذا الكتاب يقول ابن خلدون:

«ووصل إلينا بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب إلى جمال الدين ابن هشام من علمائها، استوفى فيه أحكام الإعراب مجملة ومفصلة، وتكلم على الحروف والمفردات والجمل، وحذف ما فى الصناعة من التكرار فى أكثر أبوابها، وسماه بالمغنى فى الإعراب، وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها، وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها. فوقفنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة، ووفور بضاعته فيها، وكأنه ينحى فى طريقته منحاة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى واتبعوا مصطلح تعليمه، فأتى من ذلك بشىء عجيب دال على قوة ملكته واطلاعه».

إن هذا العالم اللغوى أفصحت مؤلفاته عن دور تعليمى واضح، مع جانب وظيفى يجعل نظام اللغة واضحا وضوح اللغة دون تعسف أو إغراق أو تأويل.

أ.د. أحمد كشك

مراجع للاستزادة:

١ – الدرر الكامنة فى تراجم المائة الثامنة ٢/٣٠٨.

٢ – مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ١/١٥٩.

٣ – النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١٠/٣٣٦.

٤ – الأعلام للزركلى ٤/١٤٧.

٥ – معجم المطبوعات العربية ص ٢٧٢.

٦ – مقدمة ابن خلدون.

ابن هشام «المؤرخ»
(... - ٢١٣هـ)

هو أبو محمد، جمال الدين: عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى، الذهلى، السدوسى، المعافرى، البصرى، والمعافر قبيلة من اليمن كبيرة يُنْسَب إليها بشر كثير، عامتهم بمصر، وذهل قبيلة من ربيعة ترجع إلى ذهل بن شيبان، فهو على هذا عدنانى، أما سدوس فهو ابن شيبان، ولكن الظاهر أنه حميرى من أنفسهم لا مولى لهم.

والظاهر أنه ولد فى البصرة، ولا يعرف تاريخ ولادته، وقد نشأ فى البصرة وتلقى العلم فيها، وبرع فى الأدب والعربية حتى وصف بالنحوى، وقد رحل إلى مصر بعد أن اكتمل علمه فى البصرة، واستقر بها، ونشر فيها علمه حتى صار عالم مصر فى الغريب والشعر، وكان نسَّابة، كما كان ميله إلى الأخبار شديدًا، ومن هنا كان اشتهاره بالمغازى والسير، قال عنه «السهيلى» فى «الروض الأنف» فى شرح سيرة رسول الله ﷺ: «إنه مشهور بحمل العلم، متقدم فى علم النسب والنحو، وهو من مصر، وأصله من البصرة».

وتوفى ابن هشام سنة ٢١٣هـ، وقيل ٢١٨هـ.

تهذيب سيرة ابن إسحاق:

روى سيرة ابن إسحاق راويان كلاهما ثقة: الأول: يونس بن بكير المتوفى سنة ١٩٩هـ، ومنها نسخة مخطوطة بمكتبة القرويين بفاس تحت رقم ٧٢٧، وعلى رواية البكائى، ورواية إبراهيم بن سعيد، اعتمد ابن عبد البر فى «الدرر فى اختصار المغازى والسير».

والراوية الثانى لسيرة ابن إسحاق هو: زياد ابن عبد الله البكائى، وقد وصف بأنه أثبت الناس فى روايته لسيرة ابن إسحاق، ويقال فى ذلك - كما فى «تهذيب التهذيب» -: إنه باع داره وخرج يدور مع ابن إسحاق حتى سمع منه الكتاب، وكانت وفاته سنة ١٨٣هـ.

وقد طبع «وستنفلد» سيرة ابن هشام، وترجمها Weil إلى الألمانية، ونشرت ١٨٦٤م، كذلك نشرها محمد محيى الدين عبد الحميد فى أربعة مجلدات بالقاهرة سنة ١٩٣٧م، ونشرت فى مصر فى تعليقات لمحمود الطهطاوى سنة ١٣٢٤هـ، ونشرها مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى بالقاهرة سنة ١٩٥٥م، كما نشرها محمد بيومى فى مجلدين سنة ١٩٩٥م، وأعدت لجنة السيرة بالمجلس الأعلى للشئون

الإسلامية بمصر تهذيبًا لها نشر فى مجلدين.

وقد شرح السيرة كل من:

- عبد الرحمن بن عبد الله السهيلى، المتوفى ٥٨١هـ بعنوان «الروض الأنف فى شرح السيرة النبوية لابن هشام» نشر فى مجلدين بالقاهرة سنة ١٩١١م، وأعد السهيلى نفسه مختصرًا له.

- «الإملاء المختصر فى شرح غريب السيرة»، لأبى ذر مصعب بن محمد بن مسعود الخشنى الجيانى، ت٦٠٤هـ، وهو مخطوط بالظاهرية وبفاس ومطبوع فى استانبول.

- «الميرة فى حل مشكلة السيرة» ليوسف ابن عبد الهادى، ت٩٠٩هـ=١٠٥٣م، ومنه مخطوط فى الظاهرية بخط المؤلف.

وقد اختصر سيرة ابن هشام كثير من المؤلفين، استوفاهم «فؤاد سزكين» فى: تاريخ التراث العربى ٤٧٥/١-٤٨٠، القاهرة ١٩٧٧م.

إن ابن هشام قد ترك من سيرة ابن إسحاق بعض الأشعار التى لم ير أحدًا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأمورًا أخرى لم تثبت صحتها عنده، ومما ينبغى ذكره أن كثيرًا مما حذفه ابن هشام ذَكَرَهُ غيره من المؤرخين، كالطبرى، وغيره .

ومن أهم مؤلفاته :

١- تهذيب السيرة النبوية لابن إسحاق، وسيأتى الحديث عنه.

٢- كتاب التيجان فى ملوك حمير ، يرويه بسنده عن وهب بن منبه، وله رواية أخرى عن حمَّاد بن السائب الكلبى، ومنه نسخ مخطوطة فى المتحف البريطانى، وتونس واستانبول، ودمشق، وقد طبع فى حيدر آباد الدكن بالهند سنة ١٣٤٧هـ = ١٩٢٨م بإشراف جماعة من العلماء كما طبع فى القاهرة فى سلسلة الذخائر سنة ١٩٩٦م.

٣- القصائد الحميرية فى أخبار اليمن وملوكها فى الجاهلية، مخطوط.

٤- شرح ما وقع فى أشعار السير من الغريب ... وغير ذلك.

أ. د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة :

١ - محمد سرور بن نايف زين العابدين- دراسات فى السيرة النبوية، دار الأرقم - برمنجهام - المملكة المتحدة ١٩٨٦م.

٢ - مقدمة الشيخ محمد بيومى فى نشرته للسيرة النبوية لابن هشام، مكتبة الإيمان، المنصورة، جمهورية مصر العربية ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

٣ - مقدمة أ. د. شوقى ضيف لكتاب «الدرر فى اختصار المغازى والسير» لابن عبد البر، نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٩٥م.

٤ - أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ٢ الطبعة الصادرة ضمن مشروع مكتبة الأسرة، القاهرة ١٩٩٨م.

٥ - السهيلى: عبد الرحمن بن عبد الله: الروض الأنف الباسم، مجلدان، القاهرة ١٩١١م.

٦ - الذهبى: سير أعلام النبلاء ٢٣٦/٧ .

٧ - ابن خلكان: وفيات الأعيان ٣٨٠/٣ . «نشرة إحسان عباس».

٨ - عمر رضا كحالة: معجم المؤلفين ١٦٢/٦ .

٩ - خير الدين الزركلى: الأعلام ٣١٤/٤.

١٠- القفطى: إنباه الرواة ٢١١/٢ - ٢١٢.

١١- السيوطى: حسن المحاضرة ٣٠٦/١.

١٢- وبغية الوعاة ٣١٥.

١٣- ابن العماد: شذرات الذهب ٤٥/٢.

١٤- أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر ٣١/٢ - ٣٢.

١٥- اليافعى: مرآة الجنان ٧٧/٢.

١٦- بروكلمان: تاريخ الأدب العربى ١٢/٣ من الترجمة العربية.

١٧- دائرة المعارف الإسلامية، مادة ابن هشام.

الهمدانـــى
(٢٨٠ - ٣٣٤هـ = ٨٩٣ - ٩٤٥م)

هو أبو محمد: الحسن بن أحمد بن يعقوب ابن يوسف بن داود بن سليمان الأرحبى البكيلى الهمدانى، المعروف بابن الحائك الذى لقبه قومه «لسان اليمن» اعتزازًا به، وافتخارًا لمعارفه وبلاغته، وقد أخبر الهمدانى نفسه بنسبه هذا فى الجزء العاشر من كتابه «الإكليل» وسلسله إلى قبيلة همدان - بفتح الهاء وسكون الميم - التى لها بقية حتى اليوم. كذلك تكنى الهمدانى بأحد أولاده «محمد»، كما حدث بذلك فى مضامين كتبه حيث يقول: قال أبو محمد يعنى به نفسه وأحيانًا يرفعه بعض المؤرخين إلى جده يعقوب بقولهم: قال ابن يعقوب، أو يذكرونه باسم ابن الحائك ولا ندرى لذلك سببا.

ولد الهمدانى بصنعاء اليمن فى عام ٢٨٠هـ (حوالى ٨٩٣م)، وتوفى بمدينة «ريدة» شمالى صنعاء فى تاريخ يتعذر إلى الآن تحديده بدقة. وإن كان يظن أنه تجاوز العقد الرابع من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى). درس علوم الأوائل فمهر فيها وبرع. وقال عنه المؤرخون: إنه أفضل من ظهر ببلاد اليمن. فقد كان ملمًا بالعديد من فروع المعرفة، كغيره من علماء الحضارة الإسلامية الموسوعيين. وبلغت مؤلفاته بضعة وعشرين كتابا، معظمها ضخم وفياض، ومعظمها مفقود.

اشتغل بالجمالة فى شرخ شبابه متنقلا بين صعدة ومكة لنقل الحجيج والتجار، وقد كان أبوه رحالة دخل الكوفة والبصرة وبغداد وعمان ومصر، كما كان لأجداده بصر بالإبل منذ أن كانوا فى مشرق اليمن، واشتغلوا بالجمالة بعد أن استقروا فى صنعاء، وإن كان منهم من عنى بالصناعات والتعدين.

وفى حوالى عام ٣٠٥هـ استقر الهمدانى بمكة لأكثر من ست سنوات، جاور فيها الحرم والعلماء، وتفتحت له آفاق المعرفة، فاتسعت بسطته فى العلم، وأفاد منه فى فنون كثيرة. لكنه رجع مرة أخرى إلى اليمن حوالى ٣١١هـ، ونزل صعدة وهى إذ ذاك قاعدة أئمة الزيدية ومحطة هامة على طريق التجارة الممتد أقصى جنوب اليمن عبر مكة إلى بلاد الشام، ونقطة تجمع الحجيج من مختلف الجهات اليمنية، ومركز استقطاب كثير من العلماء والأدباء والشعراء

وطلاب العلم، وكذلك التجار من داخل اليمن وخارجها. فكان أن أفاد الهمدانى من فنون العلم التى كانت تزخر بها، كما أسهم بنصيب وافر فى ازدهار الحركة الأدبية والفكرية آنذاك. ولا سيما فى ميادين الشعر والسياسة والأخبار والأنساب والعلم الطبيعى والفلسفة وعلوم الإنسان وغيرها.

وقد استدل البعض من سيرة الهمدانى على أنه لم يبرح أرض اليمن إلا إلى مكة المكرمة، ومن ثم لم تتوافر لديه كل منافذ العلم والمعرفة التى توفرت عادة لأمثاله من علماء الحضارة الإسلامية، الذين امتلكوا ناصية علوم عصرهم ومعارف من سبقهم عن طريق الاحتكاك والمعايشة المباشرة، لحاضرة الخلافة الإسلامية وعواصمها بكل ما فيها من مظاهر النهضة ومقومات التحصيل المعرفى.

لكن التحليل الموضوعى لسيرته وترجمته يؤكد حرصه على مجالسة كبار العلماء والإفادة من علمهم وخبراتهم، بالإضافة إلى حرصه الشديد على اقتناء أمهات الكتب فى مختلف الفنون أثناء مجاورته بمكة، التى يتوافد عليها الحجيج من كل حدب وصوب، حاملين معهم كل جديد عن أخبار بلادهم وأحوالها. فانفتح له بذلك - على حد تعبيره فى المقالة العاشرة من سرائر الحكمة - باب من المنطق نفيس وانكشط عنه كثير من الجهل، وأوسع فى العلم، وأعاد شيئا، وأفاد منه فى فنون كثيرة.

كما أضافت إقامته فى صعدة بعد عودته إليها رافدا جديدًا من روافد ثقافته لما كانت تتمتع به من استقرار وازدهار فى ذلك الوقت، فأخذ الهمدانى من علمائها، ووسم بالعلم بين أهلها. ولم تكن إقامته بصنعاء أقل أثرا فى تشكيل ثقافته وإثراء معارفه، حيث اتصل اتصالا وثيقا بأبى نصر محمد بن عبد الله اليهرى (أو الجندصى)، وهو العالم الذى وصفه الهمدانى نفسه بقوله: شيخ حِمير وناسبها وعلامتها وحامل سفرها ووارث ما ادخرته ملوك حِمير فى خزائنها من مكنون عملها، وقارئ مسندها والمحيط بلغاتها. وما زال لنا معولا فى المشكلات، وربما وردت منه بحرًا لا تكدره الدلاء ولا تلوب دونه الظماء، فأغنانى نهله دون علله، وأوسعنى كفاية البعض دون كماله.

من ناحية أخرى، لا يستبعد البعض أن يكون الهمدانى قد ضرب بسهم وافر فى معرفته للغة الإغريق وأنه كان يجيدها بحذق ولوذعية، وأن أول ما درس فى حداثة سنه المبكرة هى العلوم الرياضية والفلك والنجوم والطب والفلسفة والجغرافية، وأنه نهل منها حتى بلغ الغاية القصوى فيها.

وإن صح هذا الرأى، وهو فى رأينا أقرب ما يكون إلى الصحة، فإنه يضيف تعزيزًا قويا لتفسير إسهامات الهمدانى فى علوم متنوعة،

واتساع معرفته اتساعا يدعو إلى الاستغراب والدهشة بالنسبة لرجل عاش فى بقعة توشك أن تكون فى ذلك العهد منعزلة عن العالم. كما أن هذا الرأى يقدم نبعا جديداً لفيض هذا العالم الموسوعى، خاصة إذا وضع علمه ونهجه فى المكان الصحيح من عصره.

مؤلفاته :

١ - أشهر مؤلفات الهمدانى كتاب «الإكليل»: الذى يتألف من عشرة مجلدات لم يظهر منها إلا أربعة أجزاء فقط، وهو موسوعة علمية تتناول التاريخ والإنسان والثقافة فى اليمن القديم.

٢ - كتاب «صفة جزيرة العرب»: الذى يعرض الملامح الطبيعية والأجناس والقبائل والحيوانات والثروة المعدنية فى شبه الجزيرة العربية، ويعتبر أول عمل علمى جغرافى فى القرن العاشر الميلادى فى محيط الحضارة الإسلامية.

٣ - كتاب «سرائر الحكمة»: الذى يحتوى على ثلاثين مقالة فى التعريف بعلم الهيئة (الفلك) ومقادير حركة الكواكب وأحكام النجوم، ولم يعثر منه إلا على المقالة العاشرة التى استدل منها حديثا على مكان وتاريخ مولده.

وقد أدى اكتشاف مؤلفات الهمدانى تباعًا إلى جذب أنظار المؤرخين والمحققين والمستشرقين نحو عالم إسلامى كبير، يقف على قدم المساواة مع علماء عصره الأفذاذ أمثال: أبى بكر الرازى، وأبى عبد الله البتانى وأبى الوفاء البوزجانى وغيرهم، وكان آخر ما عثر عليه من مؤلفاته كتاب «الجوهرتين العتيقتين»: الذى كشف النقاب عن جوانب علمية وتقنية هامة لم تكن معروفة عن الهمدانى من قبل.

أ.د. أحمد فؤاد باشا

مراجع للاستزادة :

١ - الاتجاه العلمى عند الهمدانى، د. أحمد فؤاد باشا، مجلة المسلم المعاصر، العدد (٥٧) السنة ١٥ (١٩٩٠م).

٢ - مجلة الإكليل، ترجمة الهمدانى للدكتور يوسف محمد عبد الله، العدد الأول، السنة الثانية، صنعاء اليمن ١٤٠٢هـ.

٣ - التراث العلمى للحضارة الإسلامية ومكانته فى تاريخ العلم والحضارة، د. أحمد فؤاد باشا، القاهرة ١٩٨٣م.

٤ - أساسيات العلوم المعاصرة فى التراث الإسلامى - دراسات تأصيلية، د. أحمد فؤاد باشا، دار الهداية، القاهرة ١٩٩٧م.

٥ - الأعلام للزركلى ٢/١٧٩.

ابن الهيثـــم
(٣٥٤ - ٤٣٢هـ = ٩٦٥ - ١٠٣٨م)

هو أبو على بن الحسن بن الهيثم أصله من البصرة.

ويقال إنه ولد عام ٣٥٤ هـ الموافق ٩٦٥م، ثم انتقل إلى مصر وأقام فيها حتى وفاته عام ٤٣٢هـ الموافق ١٠٣٨م.

كان خارق الذكاء بارعا فى العلوم ولم يماثله أحد من أهل زمانه فى العلوم الرياضية.

لخص كثيراً من كتب أرسطوطاليس وكتب جالينوس ورد فى كتاب تاريخ الحكماء وضع جمال الدين أبو الحسن ابن القفطى. أنه بلغ الحاكم بأمر الله خبر ابن الهيثم وتفوقه فى العلوم فاشتاقت نفسه إلى رؤيته، ثم نقل عنه أنه قال «لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة أو نقص.

فدعاه الحاكم بأمر الله إلى مصر، وعند وصوله استقبله الحاكم وأمر بإكرامه وطالبه بما وعد به من أمر النيل. فسار ومعه جماعة من الصناع ليستعين بهم على هندسته التى خطرت له، ولما سار إلى الإقليم تحقق أن الذى يقصده ليس بممكن، وعاد خجلا فلم يجد طريقا للخروج من هذه المشكلة إلاّ إظهار الجنون، وأقام بمنزله حتى تحقق من وفاة الحاكم بأمر الله عام ٤١١ هـ.

وبعد ذلك خرج من داره واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر وبدأ فى كتابة أعماله العلمية فى الفيزياء والرياضيات.

ومن أهم كتبه كتاب المناظر فى علم الضوء الذى وضع فيه مفاهيم جديدة للرؤية تختلف تماما عن مفاهيم بطليموس التى كانت سائدة. فقد ذكر بطليموس أن الرؤية تتم بخروج شعاع من العين إلى الجسم المرئى ثم يرتد الشعاع من الجسم إلى العين فتتم الرؤية. فقال ابن الهيثم أنه لو صدق بطليموس لكان من الممكن الرؤية فى الظلام.

ووضع المفهوم الجديد بأن الضوء يسقط على الجسم المرئى وينعكس إلى العين التى تشعر بوجود هذا الجسم وتتم الرؤية.

كما وضع ابن الهيثم، فى رسالته الأخرى

نظرية تقول بأن الضوء إذا اخترق الأجسام الشفافة فإنه يتحرك فى أقل زمن ممكن. وبعد ذلك بستة قرون ادعى الفيزيائى الفرنسى فيرما بأنه صاحب هذه النظرية وسماها نظرية الزمن الأقل، وعرفت فى المراجع باسم «أساسية فيرما».

ومن هذه النظرية وغيرها وضع ابن الهيثم أسس تعديل أو تصحيح الرؤية التى ظهرت بعد ذلك على صورة النظارة الطبية.

ولابن الهيثم جهود فى الرياضيات منها: حل معادلات من الدرجة الثالثة، وكذلك تحديد حجم المجسم الحادث من إدارة قطعة من القطع المكافىء حول محوره. وله مقالة فى تحديد ارتفاع الجبال.

قبل وفات ابن الهيثم وضع كتابا بعنوان «شكوك على بطليموس» تناول فيه بالنقد ثلاثة مؤلفات للرياضى الفلكى بطليموس وهذه المؤلفات هى «المجطى» والاقتصاص، و «المناظر».

وكما قال ابن الهيثم فى هذا الكتاب إن لم يكن يرمى إلى تقليل شأن بطليموس فى ميدان العلوم، فهو يعرف مكانة هذا الرجل المشهور بالفضيلة المتفنن فى المعانى الرياضية، ولكن ابن الهيثم يقول أنه يضع سلطان الحق فوق كل سلطان.

أ.د. على حلمى موسى

مراجع للاستزادة:

١ - الأعلام للزركلى.

٢ - تاريخ الإسلام للذهبى.

٣ - وفيات الأعيان ابن خلكان.

٤ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى.

٥ - حسن المحاضرة للسيوطى.

واصل بن عطاء
(٨٠ - ١٣١هـ = ٧٠٠ - ٧٤٨م)

هو واصل بن عطاء الملقب بالغزال، ولد بالمدينة سنة ٨٠ هـ = ٧٠٠م درس على يد (محمد ابن الحنفية)، ثم انتقل إلى البصرة، وحضر مجلس الحسن البصرى، سيد التابعين، وعالم البصرة وزاهدها، ولازمه عدة سنين، وكان شديد الانتباه فى دروسه، وكثير الإنصات إلى كلامه، واختلف معه فى حكم مرتكب الكبيرة، وخرج مكوِّنًا جماعة المعتزلة؛ مع صديقه عمرو بن عبيد، فهو مؤسس فرقة المعتزلة الكلامية، وأحد بلغاء العرب وشعرائها، اشتهر بعلم الجدل والمناظرة، وعرف بالزهد، كرَّس جزءًا كبيرًا من حياته لنشر عقائد التوحيد، ووضع الأسس الأولى لمدرسة المعتزلة؛ مدرسة العدل والتوحيد.

وفى البصرة التقى واصل بمعبد الجهنى القائل بقدرة الإنسان على أعماله، كما تقابل مع الجهم بن صفوان الذى أنكر صفات الله القديمة، وعنهما أخذ هذه الأفكار مكوِّنًا تصوره الكلامى، ومستفيدًا من آرائهما فى مذهبه.

كان واصل يتسم بلثغة فى كلامه، فلا يستطيع أن ينطق حرف الراء، ويتجنب هذا الحرف فى حديثه، ويقال: إنه كتب خطبة طويلة ليس بها حرف الراء، مما يدل على قوة بلاغته، وقد وصلتنا من هذه الخطبة بعض الشذرات.

سعى واصل بن عطاء بعد تكوين جماعة المعتزلة إلى نشر عقيدة التوحيد كما يفهمها المعتزلة؛ فأرسل تلاميذه إلى خراسان واليمن والجزيرة، والكوفة، وأرمينيا، وكان هؤلاء يحاورون أصحاب الملل والمذاهب والأفكار، ويدعونهم إلى عقيدة التوحيد، وكان هؤلاء نواة حوله لنشر مذهب الاعتزال، وتوفى سنة ١٣١هـ = ٧٤٨م.

وقد عرف بكثرة مؤلفاته فى مختلف الفنون المعروفة فى عصره، منها:

كتاب «الألف» مسألة فى الرد على المانوية، كتاب «أصناف المرجئة»، كتاب «التوبة»، كتاب «معانى القرآن»، كتاب «الخطبة التى أسقط منها الراء»، كتاب «طبقات أهل العلم والجهل»، كتاب «المنزلة بين المنزلتين»، كتاب

«الخطب فى التوحيد والعدل»، كتاب «السبيل إلى معرفة الحق»، كتاب «ما جرى بينه وبين عمرو بن عبيد»، كتاب «الدعوة»، كتاب «الفتيا»، وبعض الخطب فى النكاح، والرد على جعفر الصادق، بالإضافة إلى أبيات من الشعر.

أما عن آرائه فقد كان واصل بن عطاء مؤسس مذهب، وحتّمت عليه رئاسته المذهبية أن يُجَادل خصومه ويُقْنعهم بصواب رأيه، وكان سلاحه فى ذلك الاحتجاج بالعقل مع الفرق غير الإسلامية، وبالنقل مع الفرق الإسلامية، وكان القرآن هو المصدر الأول عنده، الذى يستدل به فى مناظراته، واعتبر أن طريق المعرفة والوصول إلى الحق لا يكون إلا بكتاب الله.

وكان لواصل رصيد هام فى تفسير القرآن، أو على الأقل صارت له مفاهيم معينة للآيات التى يستدل بها على صحة آرائه الكلامية. ولعل هذه المفاهيم هى التى ضمنها كتابه (معانى القرآن)، ولا أدل على مكانته فى تفسيره من ذكره فى جملة المفسرين.

وقد تناول واصل فى تفسيره بعض المسائل الخاصة بالمحكم والمتشابه، وعرّف المحكم بأنه ما أعلم الله - سبحانه - به، والمتشابه هو ما أخفى الله عن العباد، وهى الآيات التى يحتمل ظاهرها التأويل.

كذلك اهتم بالحديث نظرًا للارتباط الحتمى بين القرآن والسنة، وقد أهمل مؤرخو الحديث ذكر مكانة واصل فى هذا المجال، إلا أن كتب فرقته تذكر أن له اهتمامًا بالسنة. كما كانت له آراء جريئة فى الأخبار، وشروط قبولها، وتقسيماتها، ورأى أن الحق يعرف من وجوه أربعة: كتاب ناطق (القرآن)، وخبر مجتمع عليه (السنة)، وحجة العقل، وإجماع من الأمة. وقد حدد موقفه من الاستدلال بالحديث، وهو أن يكون خبرًا مجتمعًا عليه أى أن يكون متواترا حسب اصطلاح المحدثين، ويرفض أحاديث الآحاد، كما تابعه فى ذلك المعتزلة من بعده.

وبرع واصل فى الفقه، وصار من أعلم الناس بغامض الفتيا. ثم انتصب لتدريس هذا العلم، وبيان آراء الفقهاء والتابعين واختلافهم فى الفتيا، وكان يسعى من وراء ذلك إلى تعريف الناس بالتصورات العقدية التى توصل لها، وإطلاعهم على المبادئ الاعتزالية التى أقرها، وكان يقول: «لولا أنى أدعو الناس إلى العلم بالدين بذكر اختلاف الناس فى الفتيا ما نظرت فى حرف منه، ولكن أطمع بذلك أن أجلبهم إلى العلم».

وله فى أصول الفقه إسهامات بارزة، فقد ذهب إلى أن النسخ لا يتناول جميع أقسام الحكم الشرعى، وإنما هو يتناول قسمين

فقط، وهما الأمر والنهى، وبنى ذلك على تقسيمه للكلام المفيد إلى أمر ونهى وخبر، وهذا التقسيم راعى فيه حال المخاطب، كما قال بعدم جواز نسخ الأخبار، وذلك فى الواقع تنزيه للذات الإلهية عن الاتصاف بالكذب.

(أ) المنزلة بين المنزلتين :

قدَّم واصل بن عطاء الصورة الأولى للنسق الاعتزالى، الذى سيتطور بعد ذلك على يد أعلام المدرسة، ولم تكن أصول الاعتزال الخمسة قد تكونت بعد، فقد تناول بعض هذه الأصول، وكان أول أصل تميَّز به عن معاصريه هو المنزلة بين المنزلتين، وهى القاعدة التى وضع أساسها ليحل مشكلة كانت مثارة فى عصره حول حكم مرتكب الكبيرة، إذ اختلف المسلمون فى هذا الوقت حولها وانقسموا إلى اتجاهين:

الأول: مثَّله المرجئة التى قالت: إن مرتكب الكبيرة لا يخرج عن دائرة الإسلام، وترجئ الحكم عليه للآخرة. إذا شاء الله أدخله النار، أو عفا عنه وأدخله الجنة.

والرأى الثانى: مثَّله الخوارج، التى وصفت مرتكب الكبيرة بالكفر، وحكمت عليه بالقتل فى الدنيا، والخلود فى النار فى الآخرة.

أما واصل، فقال: إنه لا يسمى مؤمنًا ولا كافرًا، وإنما فى منزلة بين المنزلتين، لأن الإيمان عبارة عن خصال خير، إذا اجتمعت فى الإنسان سُمِّى المرء مؤمنًا، وهو اسم مدح، ومرتكب الكبيرة لم يستجمع كل هذه الصفات فلا يسمى مؤمنًا، وأيضا لا يسمى كافرًا؛ لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه، ولكنها ليست كاملة، ولذا أسماه فاسقا، وإذا خرج مرتكب الكبيرة من الدنيا من غير توبة، فهو فى النار، ولكن فى درجة أقل من درجة الكافر.

وبهذا الرأى الذى انفرد به واصل عن بقية المسلمين سُمِّى هو وفرقته بالمعتزلة: لاعتزالهم رأى الأمة فى هذه المسألة، والبعض الآخر رأى أنهم سمُّوا بالاعتزال بسبب زهد رؤساء جماعتهم الأولى: واصل، وعمرو بن عبيد، وتعددت الآراء فى سبب هذه التسمية.

(ب) التوحيد :

وهو الأصل الذى خطَّ واصل بن عطاء بعض أفكاره الرئيسية، ثم أتى بعده المعتزلة لاستكمال هذا الأصل، وأهم فكرة حاول إثباتها من خلال هذا الأصل هو إثبات توحيد الذات الإلهية ضد المخالفين للإسلام من القائلين بالثنوية أو التعدد، وقد أرسل طلابه شرقًا وغربًا ليدعوا إلى فكرة التوحيد.

وكانت القاعدة عنده تقول بنفى صفات البارى تعالى من العلم والقدرة والإرادة، وغرضه من ذلك استحالة وجود إلهين

قديمين: الذات، والصفات، وأن من أثبت معنى صفة قديمة فقد قال بإلهين، ونفى الصفات عنده كان خوفًا من أن ينتهى الأمر بالمسلمين إلى ما وقع فيه النصارى الذين فرَّقوا بين ثلاث صفات إلهية ذاتية، هى : الوجود، والعلم، والحياة، وجعلوا كل صفة منها مستقلة بذاتها، وأطلقوا عليها اسم الأقانيم الثلاثة.

(جـ) العدل :

انشغل واصل بأصل العدل الإلهى، الذى أصبح بعد ذلك شعارًا لفرقة المعتزلة، فهم أصحاب العدل والتوحيد، وبعد أن استقر مفهوم التوحيد أصبح أصل العدل أهم أصولهم الكلامية. وبسبب هذا الأصل أطلق عليهم رواد الحرية الإنسانية عند المسلمين.

وينسب إلى واصل أنه قد تبنَّى مذهب القدرية، ونادى بالحرية الإنسانية؛ فقال: إن الله -تعالى - حكيم عادل لا يجوز أن يضاف إليه الشر أو الظلم، ولا يجوز أن يريد من العباد خلاف ما يأمر به، وأن يحكم عليهم بما لم يفعلوه.

والإنسان عنده هو فاعل الخير والشر، الإيمان والكفر، الطاعة والمعصية، وهو الفاعل الحقيقى لكل أفعاله، ومسئول عنها مسئولية تامة. فالإنسان مكلَّف، والتكليف أساس الجزاء، والله - تعالى - أقدره على فعله، وأن للإنسان شعورًا نفسيًا. بأن له حرية ذاتية. وأن له القدرة على الفعل والترك، ومن أنكر ذلك فقد أنكر الضرورة. وأن أفعاله تنحصر فى الحركات الاختيارية والسكنات والاعتمادات والنظر والعلم، أما حركته الاضطرارية فليس للمرء إرادة فيها.

(د) آراؤه فى الإمامة :

رأى واصل أن الإمامة عقد واختيار، وتكون الإمامة فى كل شخص قائما بالكتاب والسنة مستجمعًا للشرائط المعتبرة، بغض النظر عن كونه قرشيا أو غير قرشى، وينسب له القول بصحة خلافة أبى بكر، وقد تابعه المعتزلة على ذلك، أما موقفه من أفضلية الصحابة فلجأ إلى التوقف فيها، وتوقف فى أبى بكر وعلى بن أبى طالب أيهما أفضل، أما عثمان فقد رأى أفضلية علىّ على عثمان. ونتيجة لهذا الرأى نُعِت واصل بأنه شيعى وربما نُسِب إلى الشيعة لأنه تتلمذ على مدرسة (محمد بن الحنفية) الشيعية.

أ.د. منى أبو زيد

ابن وافد
(٣٨٩ ـ ٤٦٧ هـ = ٩٩٨ ـ ١٠٧٤م)

هو عبد الرحمن بن عبد الكريم بن يحيى ابن وافد بن مهند، ويكنى بأبى المطرف اللخمى. رائد علم المادة الطبية فى الحضارة الغربية الإسلامية، عالم طب وصيدلة ونبات. وكان من أشراف مدينة طليطلة ووزرائها.

ولد فى مدينة طليطلة سنة ٣٨٩هـ الموافق سنة ٩٩٨م وتوفى سنة ٤٦٧هـ الموافق ١٠٧٤م.

استوطن قرطبة وأخذ الطب عن أبى القاسم الزهراوى، وكان لا يرى التداوى بالأدوية ما أمكن التداوى بالأغذية، أو بما هو قريب منها، فإذا دعت الضرورة للأدوية فمن الأفضل التداوى بمفردها لا بمركبها، فإن اضطر إلى المركب منها كان على الطبيب ألا يكثر من التركيب، بجمع الأدوية وترتيبها نحوا من عشرين سنة، لتصحيح أسمائها، وتحديد صفاتها وخصائصها، وتفضيل قواها ودرجاتها، ووضع بعد هذا أهم كتاب فى العصور الوسطى عن العقاقير وهو كتاب: الأدوية المفردة، وقد جمع فيه ما تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس فى الأدوية المفردة، ورتبته ترتيباً علمياً وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية باسم: «كتاب فى العقاقير البسيطة» كما ترجم إلى العبرية والكاتلونية. وبالإضافة إلى عمادته للعلوم الصيدلية كانت لتآليفه الطبية وممارساته قيمة كبرى ومن هذه المؤلفات:

«منظومة فى الطب» وتتألف من ٥٠٠٠ بيت، وهى مرتبة فى ست مقالات، المقالات الأربعة الأولى منها: فى الأمراض من الرأس إلى القدم، المقالة الخامسة لأمراض العين، وهى فى أربعمائة بيت، والمقالة السادسة أفردها للحميات،

وله كتاب: «الوساد فى الطب»، وهو عن الأمراض ومعالجتها من الرأس إلى القدم، والدهونات والأدوية والعلاجات وقطورات العين.

وله: «تدقيق النظر فى علاج حاسة البصر»، وقد اعتمد عليه أطباء كثيرون مثل خليفة ابن أبى المحاسن الحلبى، واختصره محمد على البالسى.

وله كتب أخرى عن «الحمامات، والمجربات فى الطب.

وعلى صعيد ثالث تثبت الببليوجرافيات.

ولابن وافد مؤلفات زراعية منها كتابه: «مجموع فى الفلاحة» وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة اللاتينية.

أ.د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ - د. إبراهيم بيومى مدكور: الطب العربى: جوانب من الحضارة الإسلامية. اتحاد الجامعات العربية ١٩٨٠م.

٢ - تاريخ الطب من فن المداواة إلى علم التشخيص. ترجمة د. إبراهيم البجلانى، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ٢٠٠٢م.

٣ - معهد التراث العلمى العربى جامعة حلب: أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ١٩٧٧م.

٤ - د. عزة مريدن: دراسات وتأملات فى العلم والطب والحياة، دمشق، ١٩٨٣م.

٥ - د. برهان العابد: مختارات من تاريخ الطب.

٦ - د. بول غليونجى: قطوف من تاريخ الطب.

الواقـــدى
(١٣٠ - ٢٠٧هـ = ٧٤٧ - ٨٢٣م)

هو أبو عبد الله: محمد بن عمر بن واقد السهمى الأسلمى المدنى الواقدى، وقد لقب «بالواقدى» نسبة لاسم عرف به أبوه وجده وهو «واقـد»، ثم «أسلمى» لانتمائه بالولاء لعبد الله بن بريدة بن الحصين من بنى أسلم المدنيين، فالواقدى مولى لبنى سهم إحدى بطون بنى أسلم.

اشتغل بالحديث والمغازى، وهو من أقدم المؤرخين وأشهرهم، أديب، فقيه مفسر طبيب يداوى بالأعشاب.

ولد بالمدينة المنورة سنة ١٣٠هـ = ٧٤٧م آخر خلافة مروان بن محمد، تاجر فيها بالحنطة وضاعت ثروته، وتوفى فى بغداد، وهو يومئذ قاضٍ بها عن ٧٨ عامًا، وكان ذلك فى الحادى عشر من ذى الحجة سنة مائتان وسبع من الهجرة - على الأرجح = ٨٢٣م ودفن فى مقابر «الخيزران» أم هارون الرشيد.

وتلقى العلم سماعا عن مالك بن أنس بالمدينة فى الفقه والحديث بخاصة، كما تلقى عن سفيان الثورى «عالم البصرة»، وروى عن ثور بن يزيد، وعن ابن جريج رأس علم الحديث وطبقتهما، كما سمع من أبى ذئب، والأوزاعى عالم الشام، ومعمر بن راشد عالم اليمن، ولقى صغار التابعين مبكرًا، وسمع منهم وممن بعدهم فى الشام والحجاز وغير ذلك، وحدَّث عن أبيه، وكان ماهرًا جمّاعة للعلم رحالة فيه.

وفى سنة ١٨٠هـ غادر إلى العراق، فقدم بغداد أيام الرشيد - الذى كان قد تعرف عليه أثناء حجه - ووجد أن الخليفة والبلاط قد غادروا إلى «الرقة» فى بلاد الشام فأرخى مطيته ناحية هناك ولحق بهم، فتلقاه البرامكة ويحيى بن خالد البرمكى خاصة، وأقبل الخير عليه من كل جانب، ثم عاد إلى «بغداد» زمن «المأمون» فقربه الخليفة منه، وتولى قضاء الجانب الشرقى من بغداد زمن الرشيد والمأمون، وكان جمّاعة للكتب يشتريها ويستنسخها، وقد كتب مرة إلى المأمون يشكو ضائقة لحقته وركبه بسببها دين، فوقَّع

المأمون فيها بخطه: فيك خلتان: سخاء وحياء، فالسخاء أطلق يديك بتبذير ما ملكت، والحياء حملك أن ذكرت لنا بعض دينك، وقد أمرنا لك بضعف ما سألت، وإن كنا قد قصرنا عن بلوغ حاجتك، فبجنايتك على نفسك، وإن كنا بلغنا بغيتك فزد فى بسطة يدك، فإن خزائن الله مفتوحة ويده بالخير مبسوطة، وأنت حدثتنى حين كنت على قضاء الرشيد أن النبى ﷺ قال للزبير: «**يا زبير إن مفاتيح الرزق بإزاء العرش، ينزل الله سبحانه للعباد أرزاقهم على قدر نفقاتهم، فمن كثّر كثر ماله، ومن قلّل قلّل الله عليه**». قال الواقدى: وكنت نسيت الحديث فكانت مذاكرته إياى أعجب إلىّ من صلته (جائزته).

وقد ذكر المسعودى فى «مروج الذهب»، والخطيب فى «تاريخ بغداد»، ما يستدل منه على أريحيته وشدة كرمه، وقد شاع ذلك عنه واشتهر بالسخاء؛ مما سبب له اضطرابا ماديا ظل يعانى منه طول حياته، حتى إنه عندما مات لم يكن يملك ثمن ما يتكفن به، رغم ما ناله من عطايا، لقد كان المأمون يكرمه ويبالغ فى رعايته حتى بعد نكبة البرامكة.

للواقدى كتب كثيرة فى فنون مختلفة، وابن النديم يذكر له فى «الفهرست» ٢٨ كتابا، يتناول معظمها العصر الإسلامى دون الجاهلى، التى يبدو أنه لم يكن يعلم عنها شيئا كما ذكر ابن حجر فى «تهذيب التهذيب».

وكان يجتهد فى جمع الأحاديث حتى بلغ ما جمعه منها عشرين ألف حديث، ويقول ابن النديم: إنه كان عنده غلامان يعملان ليلا ونهارا فى نسخ الكتب، ويقول عنه تلميذه ابن سعد فى «الطبقات»: إنه «كان عالما بالمغازى والسير والفتوح واختلاف الناس فى الحديث والأحكام، واجتماعهم على ما اجتمعوا عليه، وقد فسر ذلك فى كتب استخرجها ووضعها وحدث بها».

والواقدى واحد من ثلاثة من المعاصرين لابن إسحاق كتبوا المغازى، وهم معمر بن راشد (١٥٤) هـ، وأبو معشر (١٧٠هـ)، ثم موسى بن عقبة.

وإذا كان الواقدى معتبرًا من مدرسة المدينة، فقد قضى أعوامه الثلاثين الأخيرة فى بغداد وولى القضاء بها.

ويبدو أن الواقدى فى «المغازى» أكثر ارتباطا بأساليب المدينة، وأكثر دقة من ابن إسحاق، فلم يهتم بالفترات السابقة على الإسلام، ولا بالعصر الجاهلى، كما فعل ابن إسحاق، وركز اهتمامه فى السيرة، ونهجه فى

العرض منظم ومنطقى، ويهتم بتحديد المواقع الجغرافية حتى بلغ من حرصه فى ذلك أن زار المواقع بنفسه.

يقول الخطيب البغدادى: «كان الواقدى كلما ذكرت له وقعة، ذهب إلى مكانها فعاينه، وأشهر من روى عنه كاتبه محمد بن سعد صاحب «الطبقات الكبير»، وعندما حج الرشيد سنة ١٧٠هـ طلب من وزيره «يحيى بن خالد البرمكى» أن يبحث له عن عالم خبير بالمواضع التى تذكر بتاريخ الرسول ﷺ ليزورها، فوقع الاختيار على الواقدى».

ولما ضاقت به الحال انتقل إلى بغداد سنة ١٨٠هـ - وكان وقتها علما من أعلام الحديث والفقه والمغازى، ومن بغداد اتجه إلى الرقة حيث مقر الرشيد فأكرم الخليفة وفادته وأسبغ عليه. قال: ما أدركت رجلاً من أبناء الصحابة وأبناء الشهداء ولا موالى لهم إلا سألته: هل سمعت أحدا من أهلك يخبرك عن مشهده وأين قتل؟ فإذا أعلمنى، مضيتُ إلى الموضع فأعاينه، ولقد مضيت إلى «المريسيع» فنظرت إليها وما علمت غزوة إلا مضيت إلى الموضع حتى أعاينه، روى هارون القروى قال: رأيت الواقدى بمكة ومعه ركوة فقلت: أين تريد؟ قال: أريد أن أمضى إلى «حنين» حتى أرى الموضع والواقعة.

ويرغم ميوله العلوية فإنه كان بعيدا عن التعصب حتى إن «ابن النديم» اتهمه بالتقية، لكن الشيعة لا يعدونه فى رجالاتهم، وقد بلغ بمراقبته الناس فى علمه أنه كان يأخذ عن ابن إسحاق كثيرا، وقد يمتدحه ولكنه لا يصرح باسمه أبدا لموضع ابن إسحاق من ارتياب أهل المدينة فيه، وكما لم يذكر ابن إسحاق لموقف علماء المدينة منه، لم يأخذ عن «وهب بن منبه» لكثرة القصص والإسرائيليات عنده، بينما أكثر من الأخذ عن «عروة بن الزبير» لمؤهلاته التاريخية الطيبة، وهذا لم يمنع الواقدى من إبداء الإعجاب الشديد بابن إسحاق، يقول عنه فى الترجمة الموجودة عند الطبرى:

«وكان من أهل العلم بالمغازى - مغازى رسول الله ﷺ - وبأيام العرب وأخبارهم وأنسابهم، راوية لأشعارهم، كثير الحديث، غزير العلم، طلاّبة له مقدّما فى العلم بكل ذلك، ثقة».

وإذا كان أهل الحديث لا يقبلون الواقدى كل القبول، فإن المؤرخين يوثقونه فى السيرة والمغازى والفقه والفتوح، ويرى فيه المستشرقون المؤرخ الأول بسبب دقته زمنيًا وجغرافيًا وبسبب اعتماده على الوثائق.

و «الواقدى ثقة». ومع ذلك فهناك إجماع

على أنه إمام فى المغازى، قال ابن النديم:

«كان عالما بالمغازى والسير والفتوح، واختلاف الناس فى الحديث والفقه والأحكام والأخبار»، ومثل هذا عند «الخطيب البغدادى وابن سعد وغيرهما».

لقد طبق الواقدى المنهج التاريخى العلمى- وتلك إحدى مميزاته بين كُتاب السيرة والمغازى - فقد كان يرتب تفاصيل الحوادث بطريقة منطقية التزم بها، فهو يبدأ مغازيه بذكر قائمة من الرواة الذين نقل عنهم الأخبار وقد وصل عددهم خمسة وعشرين - معظمهم مدنيون - وهم رواته الرئيسيون، غير من ذكرهم تلميذه ابن سعد.

ثم يبدأ فيتناول الغزوات واحدة بعد واحدة، محددًا تاريخ الغزوة بدقة وفق التسلسل الزمنى، وقد يذكر تفاصيل جغرافية تتعلق بموقع الغزوة، ثم يذكر الغزوات التى قادها النبى ﷺ بنفسه، وأسماء من استخلفهم على المدينة أثناء غزواته صلوات الله وسلامه عليه، ويذكر أخيرًا شعار المسلمين فى القتال، ويلتزم أسلوبًا موحدًا فى تقديمه لكل غزوة، فهو يذكر اسمها وتاريخها ومن تولى الإمارة فيها، وقد يذكر اسم المستخلف على المدينة، وبعض التفاصيل الجغرافية وغيرها، مأخوذة مما ذكر هو فى مقدمة الكتاب.

وكثيرًا ما كان يقدِّم إسنادًا جامعًا؛ أى أنه يجمع الأسانيد والرجال لمتن واحد ويستخدم الإسناد بدقة وفقًا لمنهج المحدثين، فى أسلوب مسهب مفصل واضح وصريح بعيدًا عن المبالغات والأساطير، ويقتبس من الشعر، ولكن فى قصد لا يبلغ ما فعله ابن إسحاق، كما يحرص على ذكر الوثائق الأصلية والبحث عنها، وإذا كانت الغزوة قد وردت بشأنها آيات قرآنية كثيرة، فإنه كان يفردها وحدها مع تفسير لها، ويضع كل ذلك فى آخر الغزوة، وفى الغزوات الهامة يذكر أسماء الذين شهدوها وأسماء من استشهد فيها.

وهكذا كان للرجل منهجٌ واحدٌ يستخدمه فى كل الغزوات، مع تفاصيل جغرافية بما يوحى أنه كان على دراية بدقائق الأخبار التى جمعها من رحلاته فى الشرق والغرب لطلب العلم.

إن هذه التفاصيل الجغرافية عند الواقدى تجعله معبرًا عن أساس يسمى بالأدب الجغرافى العربى، الذى يثنى عليه من جاء بعده مثل تلميذه ابن سعد، والبلاذرى، ومن كتب بعدهما فى الفتوح والبلدان.

ثم إن الواقدى يتميز كذلك بالنظام المتكامل للتواريخ. وكثير من المغازى غير

المؤرخة عند ابن إسحاق مثل غزوة بنى قينقاع، وسرية ذى القصة، وغزوة ذات السلاسل، كلها لها عند الواقدى تاريخ محدد، وبرغم ذلك ينبغى الحذر عند ذكره تاريخ بعض الحوادث، وهذا لا ينفى دقته إذا قارنا ما عنده بالتواريخ المماثلة فى كتب السيرة الأخرى، هذا فضلا عما انفرد به من ذكر أخبار نجدها فى مغازيه ولا نجدها عند غيره، مثلا السرية الأولى إلى ذى القصة.

ويتميز الواقدى كذلك بأنه يسلط الأضواء على مشاهد من الحياة فى فجر الإسلام، مثل الأصنام والعادات والزراعة والأكل، وكل مظاهر الحياة فى المجتمع الإسلامى فى الفترة ما بين الهجرة إلى وفاة النبى ﷺ.

يضاف لهذا كله اتباعه لمنهج نقدى واعٍ فى اختيار أفكاره، وتنظيمها، والتعبير عن آرائه الشخصية لا تجدها حتى عند البلاذرى الذى توفى بعده بسبعين سنة.

إن «مغازى الواقدى» أكمل وأتم مصدر محايد لسيرة النبى ﷺ فى المدينة.

أما كتبه التاريخية التى تجمع مادة ضخمة، فقد دونها بصورة حسنة ومن مؤلفاته :

- أخبار مكة.
- أزواج النبى ﷺ.
- وفاة النبى ﷺ.
- السقيفة وبيعة أبى بكر رضي الله عنه.
- كتاب السيرة.
- سيرة أبى بكر رضي الله عنه ووفاته.
- تاريخ الفقهاء.
- يوم الجمل.
- كتاب صفين. ومنه اقتبس ابن أبى الحديد قطعة فى كتابه عن «صفين» فى «شرح نهج البلاغة».
- مولد الحسن والحسين.
- مقتل الحسين.
- تصانيف القبائل ومراتبها.
- كتاب الآداب.
- كتاب غلط الحديث.
- كتاب الصوائف، ومنه قطعة اقتبسها ابن عساكر فى تاريخ دمشق ١/٣٨٥.
- ضرب الدنانير والدراهم.
- وضع عمر الدواوين.
- مراعى قريش والأنصار فى القطائع.
- أمر الحبشة والفيل.
- حرب الأوس والخزرج.
- كتاب ذكر القرآن وكتاب فى تفسير القرآن العظيم.

- كتاب الردة والدار، والمقصود «بالدار» مقتل عثمان رضي الله عنه.
- فتوح الشام: وقد طبعت مرات آخرها فى مجلدين بتحقيق طه عبد الرءوف سعد، كما طبع فى الإسكندرية بدون تاريخ، ويتضمن الكتاب فتح الشام ومصر والعراق.
- كتاب فتوح إفريقية أو فتح إفريقية، طبع فى تونس فى جزءين سنة ١٣١٥هـ، بمعرفة عبد الرحمن الصنادلى.
- فتح مصر والإسكندرية أو فتح منف والإسكندرية، فى جزءين مطبوع بعناية «هماكر» مع تعليقات باللغة اللاتينية سنة ١٢٤١هـ = ١٨٢٥م.
- كتاب فتح البهنسا والفيوم من أرض مصر، طبع فى القاهرة سنة ١٢٨٠هـ، بعنوان «فتوح البهنسا وما فيها من العجائب والغرائب وما وقع فيها للصحابة».

وهذه الكتب مشكوك فى نسبتها للواقدى، إذ إنها تحمل الطابع الأسطورى الذى لا يعرفه الواقدى، كما أن فيها إشارات إلى القرن السادس والسابع الهجريين (سيدى أبو مدين، سيدى «أبو الحجاج» الأقصرى..) مما يكاد يجزم بأن هذه الكتب - فى حالتها التى وصلت إلينا على الأقل - ليست للواقدى وقد دخلتها الأسطورة فى الغالب بعد القرن السابع الهجرى.

- التاريخ الكبير أو التاريخ والمغازى والمبعث، الذى يتناول تاريخ الخلفاء حتى سنة ١٧٩هـ = ٧٩٥م.
- الطبقات ، وهو فى طبقات الصحابة وسلالتهم فى المدينة، وفى طبقات المحدثين فى الكوفة والبصرة.
- المغازى.

أ.د. عبد الله محمد جمال الدين

مراجع للاستزادة :

١ - ابن سيد الناس : عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، مجلدان، بيروت، لبنان بدون تاريخ.
٢ - مارسدن جونز: مقدمة نشرته لكتاب «المغازى» للواقدى، الطبعة الثالثة، ٣ مجلدات، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٤م.
٣ - يوسف هوروفتش: المغازى الأولى ومؤلفوها، ترجمه للعربية حسين نصار، القاهرة ١٩٤٩م.
٤ - عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح: معالم الثقافة الإسلامية فى القرنين الأولين من الهجرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ٢٠٠٢م.
٥ - فاروق حمادة : مصادر السيرة النبوية وتقويمها، الدار البيضاء ١٩٨٩م.
٦ - فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربى، نقله للعربية محمود فهمى حجازى وفهمى أبو الفضل، القاهرة ١٩٧٧م.
٧ - شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون، أربعة أجزاء، بيروت ١٩٧٨م.
٨ - دائرة المعارف الإسلامية، مادة «الواقدى»، جـ٣٢ ص ١٠١١١، من الترجمة العربية التى أشرف على إصدارها مركز التراث فى إمارة الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة.
٩ - تهذيب التهذيب ٣٦٥/٩.
١٠- الطبقات ٣١٤/٥.
١١- انظر : سعد زغلول عبد الحميد : فتح العرب للمغرب بين الحقيقة والأسطورة: دراسة ونقد لمخطوط فتوح إفريقية للواقدى، مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية، المجلد ١٦، سنة ١٩٦٢م، ص ١-٤٣ الإسكندرية ١٩٦٣م. وانظر أيضًا : شاكر مصطفى: التاريخ العربى والمؤرخون، جـ١، ص١٦٤ هامش١.
١٢- انظر المقدمة التى كتبها مارسدن جونز لكتاب المغازى، جـ١، ص ٢٩ - ٣٥.

ابن الوزير
(٧٧٥ _ ٨٤٠هـ = ١٣٧٣ _ ١٤٣٦م)

هو الإمام محمد بن إبراهيم بن على بن المرتضى بن المفضل الحسنى القاسمى، أبو عبد الله، عز الدين. من آل الوزير اليمانى، ولد فى رجب سنة ٧٧٥هـ الموافق ١٣٧٣م فى منطقة تسمى هجرة الظهراوين من شظب، وهو جبل عال باليمن.

توفى يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من المحرم غرة سنة ٨٤٠هـ الموافق سنة ١٤٣٦م.

اشتهرت أسرته بالعلم، فسار على منهجهم، وحفظ القرآن الكريم، وتلقى علوم النحو والصرف والمعانى والبيان والفقه وأصوله.

تنقَّل بين مدينة «صعدة» و«صنعاء» للالتقاء بشيوخ العلم، فأخذ علوم العربية والتفسير عن القاضى محمد بن حمزة، وقرأ علم الأصول على القاضى عبد الله حسن الدوادى. وانتقل إلى تعز ثم مكة طلبًا للعلم، وانقطع لدراسة القرآن والسنة، واشتغل بعلومهما.

وكان من كبار الأئمة الزيديين باليمن، اشتهر بالاجتهاد والتفسير والحديث والفقه والكلام، حدحه علماء عصره، ويذكره الإمام الشوكانى بقوله: «لو قلت إن اليمن لم تنجب مثله لم أبعد عن الصواب». لم يحجر على أتباعه حرية التفكير، ولا قيَّدهم بالتزام نصوصه وآرائه، ولكنه أطلق لهم العنان ،وترك لهم الخيار، بعد أن جعل باب الاجتهاد مفتوحًا حتى بلغ أقصى درجاته.

وقد شارك ابن الوزير فى الأحداث السياسية فى عصره، فدعم مع إخوانه الإمام المنصور على بن صلاح الدين الأيوبى ضد الإمام المهدى أحمد بن يحيى المرتضى، مما أثار عليه حقد أتباعه فأشاعوا عنه الأكاذيب.

وتصدّى ابن الوزير للتدريس، فأقبل عليه طلبة العلم من كل مكان؛ لينهلوا من علومه الواسعة ومعارفه المتنوعة، وحصر اهتمامه الأول فى نشر علوم الكتاب والسنة وتدريسها، وذاع صيته بين الناس، فخاف على نفسه من فتنة الشهرة وحب الدنيا، فعزف عن المُضِى فى هذا الطريق، والتزم العزلة، والزهد، والعبادة، والأذكار، وقيام الليل، وصيام النهار،

تأديب النفس، واعتزل الناس، واشتغل الذكر. وبقى على هذا الحال.

آراؤه واتجاهاته الفكرية:

١ - الشعر والنثر:

لابن الوزير شعر كثير فى أغراض شتى، وأكثره فى مدح علم الحديث ومدح أهله، وقد أثنى عليه بعض العلماء ووصفوه، بأن «له فى حديث النبى ﷺ الباع المديد والشأن البعيد الذى ما عليه مزيد ، وله شعر تحسده عليه زهر النجوم وتود لو أنها فى مسلكه المنظوم».

٢ - الزهد:

عاش ابن الوزير أواخر حياته زاهدًا ملازماً للخلوات، والتى ينقطع فيها للعبادة، ويشير إلى أن الدنيا سريعة الفناء، وأن مدة العمر ـ مهما طال - قصيرة، وينصح الإنسان بألا يفتن بها، وعليه قطع حبائل الأمل، فإن لم يمت فجأة مرض فجأة، وكان عليه أن يستعد للرحيل بترقيق القلب بالخشوع، والتهيؤ للفراق، فلا ينشغل إلا بمن سينقذه فى الآخرة، وينصح الإنسان قائلا: «اتخذ الله فى كل أمر عمادك»، ويدعو إلى الخلوة للذكر والعبادة، والإكثار من الأعمال الصالحة، والاهتداء بنور القرآن، الذى يصفه بأنه طبيب النفوس.

٣ - الاجتهاد:

عرف عن ابن الوزير اجتهاده الكامل المطلق، وهو يختلف عن اجتهاد بعض المتأخرين الذين اكتفوا بترجيح أدلة بعض الأئمة على بعض، أما اجتهاد ابن الوزير فكان كاجتهاد أئمة المذاهب، لا كالمرجحين الذين يرجحون قولاً على آخر.

٤ - نقد الفلسفة وعلم الكلام:

عاصر ابن الوزير فترة تحولت فيها الأمة الإسلامية إلى دول ممزقة، وفرق متناحرة، وشيع ومذاهب، يكفر بعضها بعضا.

وقد بدأ ابن الوزير حياته الفكرية بدراسة مذاهب المتكلمين، ورأى وجوب النظر، واعتقد أن من قلّد فى الاعتقاد كفر، ولكن دراسته للفرق لم ترضه، وقال عنها : «وما زلت أرى كل فرقة من المتكلمين تداوى أقوالا مريضة، وتقوّى أجنحة مهيضة، فلم أحصل على طائل».

ورأى أن علم الكلام قد نشأ كأثر مباشر وقوى للفكر اليونانى، وأنه قدّم بحوثا لا طائل تحتها، وأن معارفه مضيعة للوقت، وأساليبه ومذاهبه ليست بالطرق الموصلة إلى الأدلة الحاسمة، وكان هذا العلم ـ فيما يرى ابن الوزير ـ سببًا من أسباب تمزق الأمة الواحدة، وتناحرها، وتكفير بعضها البعض.

وأشار ابن الوزير إلى أن علماء الكلام قد

خاضوا - على سبيل المثال - فى مسائل تتعلق بالقضاء والقدر، على الرغم مما ورد من النهى عن الخوض فيه من جهة العموم والخصوص، فمن جهة العموم قاله تعالى ﴿ **ولا تقف ما ليس لك به علم** ﴾ [الإسراء: ٣٦] وما ورد فيه بالخصوص فيذكر عشرة أحاديث فى النهى عن هذا الأمر.

كما ينتقد ابن الوزير التفكير الفلسفى الذى صاغته أهواء البشر، وابتعدوا به عن الاهتداء بالنور الإلهى، وأن أساليب الفلسفة قد تضل أكثر من أن تفيد، على العكس من أساليب القرآن وأساليب الرسل التى أخذت بيد الإنسان إلى الإيمان، وأخرجته من ظلمة الشك إلى نور اليقين، وقد كرَّس ابن الوزير كتابه (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) لتوضيح هذه الفكرة.

٥ - منهجه:

اعتمد ابن الوزير فى منهجه على مصدرين أساسيين، هما الكتاب والسنة، ورأى فى القرآن المعول الأول لعلوم الإسلام، فهو الأصل والأساس، وأن السنة هى المفسرة للقرآن بشهادة قوله تعالى: ﴿ **لتبين للناس مانزِّل إليهم** ﴾ [النحل: ٤٤]، وهو الذى قال الله تعالى فيه تصريحا: ﴿ **إن هو إلا وحى يوحى** ﴾ [النجم: ٤]، وهى التى وصفها الصادق الأمين بمماثلة القرآن المبين قائلا: «**إنى أوتيت القرآن ومثله معه**». ولذا انقطع ابن الوزير لدراسة الكتاب والسنة، وكتب قصيدة دالية طويلة يفخر ويعتز فيها بتمسكه بهما وحدهما، وبحبه لرسول الله «ﷺ».

ورأى أن هناك مجالات لا يمكن استخدام العقل فيها، مثل الغيبيات، فلا ينبغى أن يتكلف العقل الخوض فيها أو التفلسف فى تأويلها، وقد عمل على توجيه الأمة إلى منطق القرآن، وإلى العمل الذى رسم منهجه القرآن، وبين للأمة أسباب الاختلاف، ودافع عن أئمة أهل السنة، وبيَّن خدماتهم الجليلة فى مجال الحديث، والمقاييس العلمية التى وضعوها، وبحوثهم وتراجمهم وتواريخهم فى خدمة السنة، ونفى عنهم ما يتهمون به من آراء فى حرية الاختيار والعدل فهم لا يقولون بالجبر، بل إنهم على منهج الكتاب والسنة فى هداية الإنسان إلى النجدين.

وقدَّم ابن الوزير فى المجلد الثانى من كتابه (العواصم والقواصم) تنزيها للإمام أحمد بن حنبل عن القول بالتشبيه والتجسيم، ورد على من نسب الإمام مالك إلى الجمود لعدم ممارسته لعلم الكلام والمعقولات، وخصَّص لهذا الرد أربعة عشر وجها، ودافع عن الإمام الشافعى فى مسألة الرؤية، كما دافع عن الإمام البخارى صاحب كتاب الصحيح، ورد على من ألزمه الجبر

ببعض ما فى كتابه «الصحيح»، كما وضح رأيهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق.

مؤلفاتـــه :

اشـــتغل ابن الوزير بالتـــأليف منذ سن مـبكرة، ولم ينقطع عن التـأليف حـتى قُـرب وفاته، ومن أشهر هذه المؤلفات:

- إيثار الحق على الخلق فى معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته على مناهج الرسل والسلف، ويُعَدُّ هذا الكتاب آخر ما ألفه.

- كتاب (البرهان القاطع فى معرفة الصانع وجميع ما جاءت به الشرائع).

وكتاب (تحرير الكلام فى مسألة الرؤية وما دار بين المعتزلة والأشعرية).

وكتاب (ترجيح أساليب اليونان فى أصول الأديان).

وكتاب (تنقيح الأنظار فى علوم الآثار).

وكتاب (حصر آيات الأحكام).

وكتاب (العواصم والقواصم فى الذب عن سنة أبى القاسم)، ويقع الكتاب فى أربعة مجلدات، وهو من أهم كتبه، وغيرها من مؤلفات.

أ. د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة :

١ - أبو زهرة (الشيخ محمد): الإمام زيد، دار الفكر العربى . القاهرة سنة ١٩٥٩م.

٢ - زبارة (محمد بن محمد): تاريخ الزيدية، تحقيق محمد زينهم، نشر مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة سنة ١٩٩٨م.

٣ - صبحى (د. أحمد محمود): الزيدية، مؤسسة الزهراء للإعلام العربى . القاهرة سنة ١٩٨٤م.

٤ -الشوكانى: البدر الطالع جـ٢.

٥ - ابن الوزير: العواصم والقواصم فى الذب عن سنة أبى القاسم - تحقيق/ شعيب الأرناؤط، ومقدمة بقلم القاضى إسماعيل الأكوع، وإبراهيم الوزير، مؤسسة الرسالة - بيروت ط٢ سنة ١٩٩٢م.

يحيى بن الحسين
(٢٢٠- ٢٩٨هـ = ٨٣٥ - ٩١١م)

هو الإمام الهادى إلى الحق، أبو الحسين، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب.

ولد بالمدينة المنورة (سنة ٢٢٠هـ = ٨٨٥م) .. وذلك قبل وفاة جده - القاسم ابن إبراهيم الرسى - أول أئمة الزيدية الرَّسِّيِّين - بسنة واحدة.

وتوفى الهادى إلى الحق : يحيى بن الحسين، بمدينة «صعدة» اليمنية فى العشرين من شهر ذى الحجة سنة ٢٩٨هـ، أغسطس سنة ٩١١م.

وقيل: إنه قد مات مسموما. وقبره ومشهده بمسجده الجامع مشهور حتى الآن.

كان يسكن «الفرع» من أرض الحجاز - من نواحى «الربذة» - على الطريق بين مكة والمدينة - كان يسكنها مع أبيه وأعمامه.

ولقد نشأ يحيى بن الحسين فقيها عالما ورعا مع امتيازه فى الفروسية والشجاعة والبطولة، حتى قيل إنه كان يطحن الحنطة بكفه إذا ضغط عليها!.

وفى سن الخامسة والثلاثين عقدت له البيعة بإمامة الزيدية وكانت الزيدية هى الفرقة العلوية المنافسة لبنى العباس وصاحبة الثورات المتعددة منذ إمامها الأول زيد بن على بن الحسين (٧٩ - ١٢٢هـ = ٦٩٨ - ٧٤٠م)، الذى ثار بالكوفة على عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك (٧١ - ١٢٥هـ = ٩٦٠ - ٧٤٣م).

وكانت التبعية ليحيى بن الحسين على عهد الخليفة العباسى المعتضد (٢٤٢ - ٢٨٩هـ ٨٥٧- ٩٠٢م)، وبعد محاولة غير ناجحة قام بها يحيى بن الحسين لإقامة دولة زيدية بأرض اليمن، عاد مرة ثانية إلى الحجاز، ثم عاد فكرر المحاولة مرة أخرى، بعد أن دعاه أهل اليمن إليهم، وراسله أحد ملوكها، وهو أبو العتاهية الهمدانى، فذهب الإمام يحيى إلى اليمن، ودخل إلى مدينة صعدة فى شهر صفر سنة ٢٨٤هـ - مارس

سنة ٨٩٧م - حيث نجح فى إقامة دولة زيدية مستقرة باليمن لأول مرة فى تاريخ الدول والثورات الزيدية، فلقد بايعه أبو العتاهية الهمدانى، وقام بتأليف وإصلاح العلاقات بين العديد من القبائل التى بايعته بالإمامة، مثل قبائل خولان - التى أنهى فتنتهم - وبنى الحارث بن كعب، وبنى عبد المدان.

ثم قام بفتح بلاد «نجران» وأقام بها مدة، وخاض المعارك العديدة ضد ولاة بنى العباس وأحرز عليهم الانتصارات، فلقد كان الإمام يحيى بن الحسين إلى جانب إمامته فى العلم - وخاصة علم الكلام - إماما فى الشجاعة وفنون القتال، وكانت مقدرته الحربية تتميز باهتمامه بالجوانب العملية، إذ كان يشارك بنفسه فى المعارك الحربية، مطبقا المبدأ الزيدى فى الإمامة وشروط الإمام وصفاته، إذ الإمام عندهم ليس الذى تصله الإمامة بالوصية والوراثة، وإنما هو الذى يجرد السيف مقاتلا ولاة الجور والضعف والفساد!.

ولقد غزا القرامطة، فى عهده، بلاد اليمن، واحتلوا صنعاء، وكان يقود جيشهم على بن الفضل - وأصله عامل نجار من أهل الكوفة!. ودارت معارك كثيرة بين يحيى بن الحسين وبين الجيش القرمطى، حتى لقد أحصيت له ضدهم ثلاث وسبعون معركة.

وعندما اشتد بأس القرامطة، خلال هذا الصراع، وخافهم الناس، جمع الإمام يحيى أنصاره، وكانوا ألف رجل، وخطب فيهم قائلا: «أتفزعون وأنتم ألفا رجل؟! .. أنتم ألف، وأنا أقوم مقام ألف..» . ثم انتخب منهم ثلاثمائة رجل، سلحهم بأسلحة الباقين، وشن بهم هجوما ليليا على جيش القرامطة، وفى غفلة منهم، فحقق النصر الذى أجلاهم به عن صنعاء.

وقد امتدت حدود دولته إلى ما وراء اليمن، حتى لقد خطب خطباء مكة فدعوا له على منابرها سبع سنوات. وضربت السكة (النقود) باسمه، فكان المؤسس الحقيقى لدولة الإمامة الزيدية باليمن، والتى حكمها أئمة أغلبهم من نسله، فاستمر حكمها حتى ثورة اليمن فى جمادى الأولى سنة ١٣٨٢هـ، سبتمبر سنة ١٩٦٢م.

لقد كان الإمام يحيى، فى الفقه، على مذهب الإمام زيد بن على، وله فى الفقه كتاب (الوافى فى فقه الهادوية الزيدية). وهو مجموع فتاواه، وفتاوى جده القاسم الرَّسِّى - جمعها أبو الحسن على بن بلال الآملى الزيدى - ولأهمية جهوده العلمية فى هذا الميدان، سمى المذهب الفقهى الذى ساد دوائر الزيدية باليمن، منذ عهده وحتى الآن، بمذهب الهادوية الزيدية.

ولم تكن الحياة الفكرية للإمام يحيى بن الحسين بأقل خصوبة من حياته السياسية والحربية، بل لقد سبقت إمامته الفكرية إمامته السياسية، فقبل حروبه باليمن ودولته فيها اشتهر بنشاطه الفكرى ومؤلفاته العلمية فى بلاد «الديلم» و «آمل» و «العراق». وكان الفكر السياسى والتأليف فى الإمامة ميدانا من الميادين الفكرية التى قدم فيها العديد من الكتب والرسائل، فله فى هذا الفن :

١ - (كتاب فيه معرفة الله، وإثبات النبوة والإمامة).

٢ - و (جواب مسألة النبوة والإمامة).

٣ - و (تثبيت إمامة أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضي الله عنه).

٤ - و (كتاب فى تثبيت الإمامة).

٥ - و (عهد أهل الذمة).

هذا غير كتبه ورسائله فى (تفسير القرآن العظيم) وفى مسائل علم الكلام وأصول الدين، الذى كان فيه - ككل الزيدية - على مذهب المعتزلة، وهى كتب ورسائل يقترب عددها من الخمسين.

أ.د. محمد عمارة

مراجع للاستزادة:

١ - رسائل العدل والتوحيد دراسة وتحقيق: دكتور محمد عمارة - طبعة القاهرة سنة ١٩٨٧م.

٢- الأعلام للزركلى ٨/١٤١.

يحيى بن حمزة «المؤيد»
(٦٦٩ - ٧٤٥هـ = ١٢٧٠ - ١٣٤٤م)

هو أبو إدريس: يحيى بن حمزة بن على بن إبراهيم الحسينى العلوى الطالبى، ويمتد نسبه إلى الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق. لُقِّب بالمؤيد بالله، أو المؤيد برب العزة.

ولد سنه ٦٦٩ هـ = ١٢٧٠م بمدينة (صنعاء)، ويُعَدّ من كبار علماء الزيدية. اشتهر بالزهد، جمع بين العلم والعمل، جاهد فى سبيل نشر آرائه، أخذ العلم عن الإمام يحيى بن محمد السراحى، والفقيه عامر بن زيد الشماخ، صحب الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى فى حربه ضد الإسماعيلية بمدينة (همدان)، واستمرت الحروب مدة طويلة حتى مال الجميع إلى الصلح، قام بالإمامة سنة ٧٢٩ هـ وبقى بها حتى توفى فى حصن (حران) سنة ٧٤٩هـ عن واحد وثمانين عاما.

ومن آرائه واتجاهاته :

١ - الإلهيات :

قصد الإمام يحيى بن حمزة إلى إثبات وجود الله بعدة أدلة مستمدة من الأدلة القرآنية النقلية، ومن أدلة المعتزلة العقلية.

كما أثبت وحدانية الله - تعالى - بالاعتماد على دليل التمانع، وهو دليل معروف لدى علماء الكلام اعتمدوا فيه على قوله تعالى: ﴿ **لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا** ﴾ (الأنبياء: آية ٢٢)، وأثبت وحدانية الله ووحدته.

والله عنده واحد، بمعنى أنه - تعالى - لا يجوز عليه التَّجزؤ والانقسام، وواحد بمعنى أنه لا يشاركه غيره فى صفاته، وواحد أى يستحق العبادة دون غيره وأنه لا قديم سواه.

٢ - العدل :

بحث الإمام يحيى بن حمزة تحت أصل العدل مسألة الحرية الإنسانية، ونفى أن يكون الله - تعالى - فاعلا لأفعال العباد، وفسَّر حقيقة الفعل أنه يعنى ما يحدث حسب الدواعى، والفعل الإنسانى صادر من مختار قادر عليه حسب دواع معينة دعته إلى إحداثه، وهو فعل إرادى له صفة زائدة على مجرد طبيعة الفعل، وهذه الصفة هى موضوع الجزاء.

ويقدم الإمام يحيى بن حمزة أدلته على إثبات الفعل للإنسان من خلال تفرقته بين الفعل الضرورى والفعل الاختيارى، الذى يدرك كل إنسان أنه واقع منه، ومتوقف على دواعيه، هذا بالإضافة إلى وجود الذم والمدح، فهما أيضًا دليلان على أن الإنسان لا يمدح أو يذم إلا على فعله، ثم يتناول موضوع التكليف واللطف وغيره.

٣ - الإمامة :

يتناول يحيى بن حمزة عدة موضوعات تحت أصل الإمامة، منها ما يصير به الإمام إمامًا، والثانى الطريق إلى إمامة أمير المؤمنين، والطريق إلى إمامة أولاده، ويحدد شروطاً للإمام، منها: النص والدعوة والعقد.

أما النص، فإن حصوله إما من جهة الله، أو من جهة رسوله، أو من جهة إمام الزمان، والنص إما خفى أو جلى، وكان النص الخفى هو طريق الإمامة لأئمة ثلاثة هم على، والحسن، والحسين رضى الله عنهم.

أما الدعوة فهى طريق الإمامة لمن جاء بعدهم ممن هو أهل لها.

وأما العقد والاختيار فهو وسيلة أخرى تلجأ إليها فرق المعتزلة والأشعرية والخوارج، ولكن يفضل يحيى بن حمزة طريق الدعوة.

ويقدم يحيى بن حمزة الطرق الدالة على إمامة الإمام على بن أبى طالب رضي الله عنه، المعتمدة على فكرة الولاية المستمدة من قوله تعالى: ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون**﴾(المائدة:٥٥). ويشرح معنى الولاية وأن المقصود بها الإمام على رضي الله عنه، كما يؤكد هذا بحديث الرسول ﷺ يوم الغدير فى قوله: «**ألست أولى بكم من أنفسكم؟**» قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: «**من كنت مولاه فعلى مولاه**». ويدعم رأيه بكثير من الأحاديث النبوية.

أما الطريق إلى ولاية أولاد الإمام على رضي الله عنه، فيرى أن الطريق إلى إمامة الحسنين قول الرسول ﷺ: «**الحسن والحسين إمامان قاما أو قعدا**». والطريق إلى إمامة أولادهما الدعوة والخروج.

ترك مؤلفات فى موضوعات متنوعة، فمن مؤلفاته فى علم الكلام: التحقيق فى إزالة الإكفار والتفسيق، والتمهيد لأدلة مسائل التوحيد، والجواب الرايق فى تنزيه الخالق، والجواب القاطع للتمويه عما يرد على المحكم والتنزيه، والجواب الناطق بالصواب القاطع لعرى الشك والارتياب، والجوابات الوافية بالبراهين الشافية، والرسالة الوازعة لصالح الأمة من الاعتراض على الأئمة، والشامل لحقائق الأدلة العقلية، وأصول المسائل

الدينية، والقسطاس، والكاشفة للغمة عن الاعتراض على الأئمة، وكتاب الوعد والوعيد، وكتاب مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنية الأشرار، وكتاب الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام.

ومن مؤلفاته فى الفقه وأصول الفقه: الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، وكتاب العدة فى المدخل إلى العمدة، والعمدة فى الفقه فى ستة مجلدات. وهذه كتبه فى الفقه، أما أصول الفقه فله: كتاب الكوكب الوقاد فى أحكام الاجتهاد، وكتاب نهاية الوصول إلى علم الأصول، وكتاب الحاوى فى أصول الفقه، بالإضافة إلى مؤلفات فى الزهد وعلم الحديث، وعلم التفسير والبلاغة.

أ.د. منى أبو زيد

مراجع للاستزادة:

١ - أبو زهرة (الشيخ محمد): الإمام زيد ـ دار الفكر العربى ـ القاهرة سنة ١٩٥٩م.
٢ - زبارة (محمد بن محمد): تاريخ الزيدية، تحقيق محمد زينهم، نشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة سنة ١٩٩٨م.
٣ - صبحى (د. أحمد محمود) الزيدية، مؤسسة الزهراء للإعلام العربى ـ القاهرة سنة ١٩٨٤م.
٤ - الإمام يحيى بن حمزة، الإفحام لأفئدة الباطنية الطغام، نشر د. على سامى النشار، د. فيصل عون. منشأة المعارف الإسكندرية.
٥- الأعلام للزركلى ١٤٣/٨.

أبو يزيد البسطامى
(١٨٨ - ٢٦١ هـ = ٨٠٤ - ٨٧٥م)

هو طيفور بن عيسى بن آدم بن عيسى بن على، وكنيته: أبو يزيد، ومشهور بأبى يزيد البسطامى نسبة إلى «بسطام»: بلدة من بلاد خراسان مما يلى جهة العراق، وبعض المصادر تنسبه باسم: طيفور بن عيسى بن سرو شان، وتذكر أن جده «سرو شان» كان مجوسيا ثم أسلم وحسن إسلامه. و«طيفور»: اسم لطائر صغير، وقد انتشرت هذه التسمية فى قبيلة أبى يزيد وفيما جاورها من القبائل تيمنًا باسمه، وكان الناس - فيما يقال: «يسمون باسمه ويكنون بكنيته تبركاً واستسعاداً».

تصمت المصادر عن بيان تاريخ ميلاده، وإن كان بعضها يتحدث بتفصيل قليل عن مكان ولادته: فقد ولدته أمه فى حى من أحياء المجوس، يسمى: «محلة مويدان»، ثم انتقلت به بعد ذلك إلى بعض أحياء المسلمين، وهو «محلة بويذان»، وكان فى هذه المحلة مسجد صغير يختلف إليه أبو يزيد، ويفضله على المسجد الجامع رغم تجاور المسجدين تحاشيا للأعراب الجالسين حول المسجد الجامع، وكانوا يقفون احترامًا له، فكان هذا يثقل على نفسه ويشق عليها، ولم يلبث أبو يزيد أن وسَّع فى المسجد الصغير وبنى صومعة إلى جواره، تردد عليها أولا ثم سكنها بعد ذلك، وهى الصومعة التى نسبت إليه فيما بعد، ويذكر المؤرخون أن البيت الذى ولد فيه البسطامى تهيَّبه الناس؛ فلم يسكنوا فيه بعد وفاته؛ وإنما حوَّلوه إلى مسجد يصلون فيه.

ولأبى يزيد أخوان: آدم وعلى، وأختان لا نعرف اسميهما.. وكان شديد البر بأمه، وقد قيل له مرة: بم بلغت ما بلغت؟ فقال: أنتم تقولون ما تقولون، وإنما أرى ذلك من رضاء الأم. وكانت أمه زاهدة عابدة شديدة الستر والحياء، غريبة فى النساء بخوفها ورجائها.

تصفه كتب التراجم بأنه: سلطان العارفين، وأحد كبار مشايخ القوم: زهدًا وعبادةً وعرفانًا وأحوالاً، وتقول بعض المصادر: إنه «نادرة زمانه حالاً وأنفاسا وورعًا وزهدًا واتقاءً وإيناسًا». ويضيف السلمى أنه روى

الحديث، وساق له حديثًا بإسناده إلى أبى سعيد الخدرى[1].

توفى أبو يزيد سنة ٢٦١هـ أو ٢٦٤هـ، ويقال: إنه «توفى سنة أربع وثلاثين ومائتين عن ثلاث وسبعين سنة».

لا تمدنا المصادر بقدر كاف من المعلومات يسمح بتكوين صورة تاريخية دقيقة لنشأته العلميـة وتطورها، ولكن يمكن من تسقّط الروايات وتتبعها أن نتبين أنه كان سنيًا على مذهب الأحناف، وأنه درس علم التوحيد على يد صديقه أبى على السندى، وأنه لم يترك تراثا مدَّونا من الكتب أو الرسائل أو غيرهما، لكنه ترك تراثا شفهيًا فى صورة مرويات... ويعد نص كتاب: «النور من كلمات أبى طيفور»، لأبى الفضل محمد بن على السهلجى (٣٨٩هـ - ٤٧٦هـ) أوفى المصادر وأجمعها لحياة أبى يزيد وتاريخه العلمى والصوفى، ففى هذا الكتاب ما يزيد على خمسمائة رواية من كلام أبى يزيد حفظها السهلجى ونقلها عن طائفة من الشيوخ الذين اضطلعوا بنقل تراث أبى يزيد نقلا شفهيا، وقال عنهم: «هؤلاء كلهم رواة أبى يزيد، رحمهم الله!»[2]، وقد جرى السهلجى فى توثيق هذه المرويات على عادة القدماء من ذكر السند قبل ذكر النص، على غرار ما هو معروف عند علماء الحديث فى فن الرواية.

وقد حقق نص الكتاب ونشره الدكتور عبد الرحمن بدوى، بعنوان: «شطحات الصوفية»[3].

ومن هذه المرويات يتبين أن أبا يزيد تتلمذ وخدم ثلاثة عشر وثلاثمائة شيخًا وأستاذًا، من بينهم الإمام جعفر الصادق[4]، وأنه مارس مهنة السقى للإمام جعفر عامين كاملين، ولذلك سُمِّى: «طيفور السقاء».

ويذكر السهلجى أن الإمام جعفر قال له: «أرى فيك أثر جدى»، وأمره بأن يعود إلى منزله ويدعو الخلق إلى الله تعالى: «فرجع ولم يسكن قلبه»[5]، ولأبى يزيد تلاميذ ومريدون كثيرون، يأتى فى مقدمتهم : أبو موسى الديبلى، الذى نقل معظم أخباره ومروياته.

يُصَنَّف أبو يزيد ضمن الشخصيات الصوفية الغامضة، ويرجع السبب فى ذلك إلى أنه كان يتخذ من أسلوب «الشطح» أداة للتعبير عن أذواقه ومواجيده الروحية، فكثيرا ما كان يرسل عباراته فى صورة «شطحات» معقدة تشكل على السامع وتستغلق عليه، ولا تستقيم على قواعد العقائد كما جاء بها صريح القرآن الكريم والسنة المطهرة.

والشطح - كما يعرِّفه الصوفية - هو: «عبارة مستغربة فى وصف وجد فاض بقوته

وهاج بشدة غليانه وغلبته»[٦]. وفيما يقول الجرجاني، هو: «كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى، تصدر من أهل المعرفة باضطرار واضطراب... فإنه دعوى حق يفصح بها العارف لكن من غير إذن إلهي»[٧].

وأكثر الصوفية يقبلونه ويعذرون أصحابه، للمفارقات الحادة التي تصاحب أرباب الشطح، من شدة الوجد ومشاهدة العارف مع قصور اللغة عن الوفاء بترجمة هذه المشاهدات. ومع هاتين الصعوبتين تضطرب العبارة وتشكل على أفهام السامعين، ولذلك يرى كثير من الصوفية أنه لا يحق لأحد أن ينكر على أحد من أصحاب الشطح إذا كان معروفا بالصلاح والتقوى والعلم، وقصارى الأمر عند من لم يفهم إشارات هؤلاء أن يكل أمرهم إلى الله[٨].

وعبارات الشطح وإن ظهرت - على استحياء - قبل أبي يزيد في بعض مأثوت إبراهيم بن أدهم ورابعة العدوية فإنها في مرويات أبي يزيد قد اكتملت لها أبعادها، واستقر معناها، وأصبحت لغة ثابتة في التعبير عن مواجيد العارف وأذواقه.

ويعد أبو يزيد أول من توسَّع في اللجوء إلى الشطحات لشرح الأذواق العرفانية، وقد شغلت أقواله وغرائبه كثيرًا من شيوخ التصوف الذين جاءوا من بعده، مما حمل الجنيد - شيخ الطائفة - على أن يتناول بعضاً منها بالشرح والتأويل، وقد نقل صاحب اللمع جزءًا من شرح الجنيد لشطحات أبي يزيد[٩]، ودفاعه عنه، ومناظرته لبعض الشيوخ الرافضين لكلام أبي يزيد ومنهم من كان يكفره كابن سالم البصري.

ومن مأثورات أبي يزيد ومروياته التي أوغرت عليه صدور العلماء وأنكرها بعض الصوفية أيضًا، قوله:

- كفر أهل الهمة أسلم من إيمان أهل المنة.
- سبحاني.
- ما النار؟ لأستئذن إليها غدا، وأقول: اجعلني لأهلها فداء.
- ما الجنة ؟ لعبة صبيان ومراد أهل الدنيا.
- ما المحّدثون؟ إن خاطبهم رجل عن رجل، فقد خاطبنا القلب عن الرب.
- وقال في اليهود - مخاطبًا الله عز وجل: هبهم لي ما هؤلاء حتى تعذبهم؟!

أ.د. أحمد الطيب

الهوامش:

١ - طبقات الصوفية ص ٦٩.

٢ - كتاب النور ص ٨٢.

٣ - وكالة المطبوعات ، الكويت، الطبعة الثالثة، سنة ١٩٧٨م.

وقد انتقد H.Ritter طبعة عبد الرحمن بدوي هذه ووصفها بأنها طبعة غير موفقة، دائرة المعارف الإسلامية مادة: «أبو يزيد».

٤ - ينكر ماسينيون قصة تلمذة أبي يزيد على يدي الإمام جعفر انطلاقا من أن الإمام جعفر متوفى سنة ١٤٨هـ وأن أبا يزيد لم يولد قبل سنة ١٦١هـ، ويرجح أنه تتلمذ على أحد الأئمة بعد جعفر الصادق (انظر مقال: روجيه دي لادريير: أبو يزيد البسطامي ومأثوراته الروحية - بالفرنسية - والمنشور في مجلة أرابيكا، مجلد ١٤، ١٩٦٧م «ص٨٠ هامش١»).

٥ - كتاب النور ص ٦٣.

٦ - اللمع ص ٤٥٣.

٧ - التعريفات: مادة شطح.

٨ - اللمع ص ٤٥٤.

٩ - انظر السابق نفسه ص ٤٥٩ - ٤٧٧.

مراجع للاستزادة:

١ - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، تحقيق الدكتور/ عبد الحليم محمود، طه عبدالباقي سرور، دار الكتب الحديثة، مصر ١٣٨٠هـ - ١٩٦٠م.

٢ - أبو عبد الرحمن السلمي، طبقات الصوفية، تحقيق نور الدين شريبة، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م (الطبعة الثالثة).

٣ - أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصفهاني: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء (الجزء العاشر) مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤١٦هـ - ١٩٦٦م.

٤ - شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (حوادث ووفيات ٢٦١ - ٢٧٠هـ) دار الكتاب العربي ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

٥ - دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول مادة: أبو اليزيد.

6- Abdel Wahab Meddeb/ les Dits De Bestami Fayard/1989.

7- R. DELRDI'E/ Abu Yazid Al Bistmi et son enseignement Spirituel/ ARABICA T.XIV, annee 1967.

يوحنا بن ماسويه
(٠٠٠- ٢٤٣ هـ = ٠٠٠- ٨٥٧م)

يوحنا بن ماسويه، أبو زكريا: من علماء الأطباء. سريانى الأصل، عربى المنشأ توفى عام ٢٤٣هـ الموافق ٨٥٧م.

رائد المترجمين العرب فى عصر النهضة، وهو طبيب الخلفاء العباسيين وعميد الترجمة المسئول عنها على مدى عهود الرشيد والأمين والمأمون والمعتصم والمتوكل، كان أبوه صيدلانيا فى جنديسا بور (خوزستان) ثم عمل طبيبًا للعيون فى بغداد، وذاع صيته، واختاره هارون الرشيد من أطبائه، وقد نشأ ابنه يوحنا فى كنفه فى بغداد، وكان أحد الذين عهد إليهم هارون الرشيد بترجمة ما وجد من كتب الطب القديمة فى بلاد الروم التى فتحها المسلمون كأنقرة وعمورية، وولاه الرشيد مسئولية أمانة الترجمة، ببيت الحكمة، وعين له مساعدين، وجمع بين وظيفتى الترجمة والطب، وفى عهد المأمون صار رئيسا لبيت الحكمة كله، ونال ثقة الخلفاء العباسيين المتوالين، وبلغ ببعضم الأمر ألا يأكلوا إلا فى حضوره، وقد حاز شهرة واسعة وثروة طائلة، وعاش حياته كلها فى بغداد التى ولد بها وتوفى فيها، وكان مجلسه فى بغداد أعمر مجلس، وكان مسيحيا ثم أسلم وتسمى باسم يحيى.

وهو من الأطباء المؤلفين الأوائل الذين اعتمدوا فى تأليفهم على ما ترجموه، ومعظم كتبه رسائل فى موضوعات محددة، لكنه رائد. وفضلا عن هذا فإن فضله فى وضع المصطلحات الطبية العربية لا ينكر، وله كتابات فى العلوم الصيدلية وقد ترجم كتاباه عن «دغل العين» و«الحميات» إلى العبرية وعدّ فى الأوساط الغربية بمثابة رائد فى علم الحميات، كما أن كتابه «دغل العين» هو أقدم كتاب تعليمى، عرفه العالم فى طب العيون ويعرف فى الغرب باسم Mesue.

تفوق فى علاج أمراض العيون والتأليف عنها وهو أول مَنْ وصف مرض «السَّبل القرنى» وأدرك طبيعته الالتهابية ووصف صورته الأكلينيكية، وله فى أمراض العيون كتاب بعنوان «معرفة محنة الكحالين» وألفه

على هيئة أسئلة وأجوبة، وهو أشبه بالكتب التى نسميها الآن نماذج الامتحانات التى تساعد الطلاب على التقدم للامتحانات. كذلك فإنه أول طبيب فى العالم وصف مرض الجذام وسماه بهذا الاسم ومن المؤلفات المنسوبة إليه أيضا: «نوادر الطب» وقد كتبه ابن ماسويه إلى الطبيب حنين بن إسحاق، وكان قد انقطع عن مجلسه، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغتين العبرية واللاتينية.

وله فى الطب العام: «مختصر فى معرفة أجناس الطب وذكر معدنه». و«المنجى فى التداوى من صنوف الأمراض والشكاوى» و«تركيب خلق الإنسان وأجزائه وعدد أعضائه ومفاصله وعروقه» و«ذكر خواص مختارة على ترتيب العلل». وله فى العلوم الصيدلية وعلم الأدوية: «فى تركيب وسقى الأدوية المسهلة بحسب الأزمنة وبحسب الأمزجة، وكيف ينبغى أن تسقى» ولمن؟ ومتى وله فى أمراض الجهاز الهضمى «كيف يمنع الإسهال إذا أفرط». و«تركيب الأدوية المسهلة وإصلاحها وخاصة كل دواء منها ومنفعته». و«جواهر الطب المفردة بصفاتها ومعادنها». و«ماء الشعير». و«خواص الأغذية والبقول والفواكه واللحوم والألبان وأعضاء الحيوان والأباريز والأفاوية». وله فى أمراض النساء والتوليد: «علاج النساء اللواتى لا يحملن حتى يحبلن». وله فى الطب الوقائى: «تدبير الأصحاء». وله فى الطب النفسى: «الماليخوليا وأسبابها وعلاماتها وعلاجها».

ولابن ماسويه كتب طبية أخرى فى دفع مضار الأغذية ، وفى الأشربة، وفى الفصد والحجامة، وفى الجذام، وفى دخول الحمامات ومنافعها ومضارها، وفى السموم وعلاجها، وفى الجنين، وفى المعدة، القولونج، والتشريح، وفى الصداع وعلله وأوجاعه وجميع أدويته، وفى السدد والعلل المولدة لكل نوع وجميع علاجاته.

ومن كتبه «البرهان» و«الكمال والتمام» و«السموم وعلاجها».

أ. د. محمد الجوادى

مراجع للاستزادة:

١ – الطب العربى: د. إبراهيم مدكور.

٢ – مختارات من تاريخ الطب: د. برهان العابد.

٣ – قطوف من تاريخ الطب: د. بول غليونجى.

٤ – تاريخ الطب من فن المداواة إلى علم التشخيص، د. جان شارل سورنيا ترجمة: إبراهيم البجلانى.

أبـــو يـــوسف
(١١٣ - ١٨٢هـ = ٧٣١ - ٧٩٨م)

يصح أن يقال عن أبى يوسف: إنه أول من حفظ علم الفقه عن أبى حنيفة، ورواه فأدى الأمانة حقها، والسعادة كل السعادة فى اختيار العلم المؤدى للخير الأبدى، والحياة الطيبة المرضية، وهو علم الدين المرتبط به كل علم.

توفى سنة اثنتين وثمانين ومائة (فعزى الإسلام بعضه بعضًا بموته) ومشى الرشيد فى جنازته، وصلى عليه، ودفنه فى مقبرة أهله من مقابر قريش بكرخ بغداد.

هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن سعد الأنصارى، ولد فى سنة ثلاث عشرة ومائة، وكان جده أحد الصحابة ﷺ ممن أبلى البلاء الحسن فى الوقائع النبوية، وشهد الخندق، فرآه النبى ﷺ يقاتل قتالا شديدا على حداثة سنه، فمسح بيده الشريفة على رأسه، فبقيت فى الذرارى بركتها.

مات أبوه، وهو صغير فقير، لم يكن له ما يطعمه الخبز، ويسقيه الماء، فأسلمته أمه إلى قصار، فكان يفر منه، ويمر على حلقة درس أبى حنيفة النعمان فلما طال ذلك عليها جاءت إلى الإمام، وقالت له: إن ولدى هذا صبى يتيم فقير، وقد أفسدته علىَّ. فقال لها: دعيه فسيأكل الفالوذج فى أطباق الفيروزج، وناولها مائة درهم، وقال: إذا فرغت فأعلمينى، وكان يتعهدها بعد ذلك كأنما يخبر بنفاد ما عندها. ولم يزل أبو يوسف حتى صار رأس الحلقة، وانتهت إليه الرئاسة الدينية والدنيوية، والإمامة فى الفقه والحديث، وحفظ التفاسير والسير وأيام العرب.

كانت تهمز بأبى يوسف نفسه إلى رقىّ وكمال، وسعادة حال، وتسمو به إلى مقام رشد بلغه طريق الهدى الإلهى الداخل تحت قوله تعالى: ﴿ **إنا هديناه السبيل** ﴾ [الإنسان: ٣] فقدر بهذا السلوك على تمزيق الحجب، وأصبح إماما فى الحديث، ونفسه البارة تتنقل فى رياض المعرفة، كأنما ذلك من بركة تلك المسحة.

نذكره بعد أبى حنيفة؛ لأنه فى مقام حسن الختام لبراعة استهلال ترجمة الإمام؛ إذ المذهب الحنفى أخذ عن أبى حنيفة بالتلقين، وحفظ عن أبى يوسف بالتدوين. وكما ملأ الإمام به الصدور - حلى به القاضى

الصدور، فنقله من ضيق النفوس إلى سعة الطروس، فهو إكليل التاج، ومفتاح ذلك الرتاج الذى كمل نمو نبات العلم بتعهده، وتكامل علو بنائه الشامخ على يده.

تولى القضاء ببغداد لثلاثة من الخلفاء: المهدى، والهادى، والرشيد على كراهة منه لرقى مقام القضاء. وكان يقول: ليتنى لم أدخل فى القضية. كان محبوبا لخلفاء وقته وزمانه. وكان عند الرشيد حظيا مكينا. وهو أول من دعى قاضى القضاة؛ لأن الخليفة كان يستتيبه فى سائر الأقاليم التى كان يحكم عليها. وهو أول من غير لباس العلماء بهذا الزى. وما كان لأحد أن يطمع فى رياسة بلدة فيها أبو يوسف.

جمع شروط القضاء وآدابه وأحكامه: من صدق اللهجة، وعفاف الطعمة وحسن السمت، وكثرة الوقار، وعظم الأناة، وعزة النفس، وكرامة الخلق، وقلة الحرج، ولطف الطبع، ورقة الحجاب، وسعة الصدر، والصلابة فى الحق، والتواضع لله، والثقة فى ذاته، والإيثار فى إقامة الحدود، والمساواة بين الخصوم، والتثبت فى سماع الحجة، فلم يتعمد جورا، ولم يحاب خصما. وكل أحكامه كانت بما يوافق الكتاب والسنة.

كان سريع الجواب (ونعم السلاح الناصر الجواب الحاضر)، حج مع الرشيد معادلا له، فلما دخل مكة صلى (هارون) بالناس الظهر ركعتين، فلما سلم قام أبو يوسف، وقال: يا أهل مكة، (أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر) فقال رجل من فقهاء مكة: نحن أفقه من أن نعلّم، فقال له أبو يوسف: (لو كنت فقيها ما تكلمت فى صلاتك) فطرب لها (هارون) والحاضرون. ومن أغرب ما سمع عن محفوظه، وسعة اطلاعه أنه لم يجر على لسانه فى حديثه مع الرشيد فى أثناء مصاحبته فى سفره هذا شيئا معادا، فلم يكرر له خبرا ذكره، ولم يعد له حكاية رواها، ولا وصل إلى مكان إلا وأخبر الرشيد باسمه ونعته له، واستشهد عليه بشىء إن كان ثم ذلك. وناهيك بإمام تخرج على أبى حنيفة رضي الله عنه وسمع من أبى إسحاق الشيبانى، ويحيى ابن سعيد الأنصارى وتلك الطبقة. وكان أفقه أهل عصره، لم يتقدمه فى زمانه أحد، يحفظ من المنسوخ عشرين ألفا فما ظنك بالناسخ؟

أراد الأعداء الحط من هذا المقام العالى، فما وجدوا إليه سبيلا، فجاءوا لبعض أبواب، وصاغوا منها مسائل مجعولة فى الفقه والفتوى، خرّجوها على غير وجهها، وتوسعوا فيها بأكثر من حدودها، وافتروها عليه، وتصنعوا فى روايتها عنه، كأنهم يستدلون بها على سعة علمه، وسمو قوته وقدرته، وكأنهم من أشد المطرين له المعجبين برأيه فيها، وهم فى الحقيقة من ألد أعدائه الذين يسرون له العداوة والبغضاء. نشروا ذلك بيد بعض

المسلمين الذين تدخل عليهم الحيل، ولا تتكشف لهم أوجه المسائل، ثم عدوها عليه بعد انتشارها من أشد العيوب، وهو برىء منها فما أجدره بقول العربى: زنوه وحدوه.

ذكروا له أشياء كثيرة فى مسائل طلاق وزواج وعتق وغيره - تجنبناها، ورووا عنه لطائف تخيرنا منها بعض الشىء: فمن ذلك ما يحكى أن الرشيد خاصم زبيدة فى شىء فأغضبها وأغضبته، فحلف عليها بالطلاق ألا تبيت ليلتها فى ولايته ومملكته، ثم ندم على ذلك لشدة حبه وفرط غرامه بها، فسأل الفقهاء عن وجه الحيلة، فعجزوا، ثم استدعى أبا يوسف، وسأله: هل من حيلة؟ قال: نعم. قال: وما هى؟ قال: قل لها يا أمير المؤمنين: تبيت فى المسجد؛ لأنه لا ولاية لك عليه؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿ **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا** ﴾ [الجن : ١٨] فسر الرشيد بذلك كثيرا.

ومما يذكر فى معرض لطائفه أيضا أن الرشيد رأى فى ليلة من الليالى خنفساء تدب على بساطه، فأمر بتعذيب الخادم، فقال له أبو يوسف: يا أمير المؤمنين، إن الحيوان بجملته يألف الأضواء، والخادم قد تعهد البساط، ونحاها عنه، ولكنها كلما نحيت تعود. فأمر الرشيد أن تحمل وتنحى بعيدا، ففعل فعادت، ثم أمر أن تحمل وتبعد أكثر من الأول، ففعل فعادت، فعفا الرشيد عن الخادم بفضل القاضى.

ومن لطائفه أنه كان يحادث من يختلفون إليه فى حلقة درسه فجلس إليه مرة رجل، وأطال الصمت فقال له: ألا تتكلم؟ فقال له: متى يفطر الصائم؟ فقال: إذا غابت الشمس. قال: فإن لم تغب إلى نصف الليل؟ فضحك أبو يوسف وقال: قد أصبت فى صمتك، وأخطأنا فى استدعاء نطقك.

وقد أوصى قبل موته بكثير من ماله لأهل العلم بمكة، والمدينة، والكوفة، وبغداد. واستمرت موارد خيراته ومآثره جارية ما شاء الله أعواما وقرونا.

كان أبو يوسف أول من وضع الكتب فى أصول الفقه، وأملى المسائل ودونها، وبث علم أبى حنيفة فى أقطار الأرض ومن كتبه: الخراج، الآثار وهو مسند أبى حنيفة، واختلاف الأمصار، والنوادر والأمالى فى الفقه.. وغيرها. ولم يكن فى زمنه بين أصحابه ثقة أحفظ لسنة النبى ﷺ وأوعى لكتاب الله منه.

أ.د. على جمعة محمد

مراجع للاستزادة:

١ - مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة جـ/ ١٠٠ وما بعدها.

٢- الفهرست لأبى النديم ٣٠٣.

٣- أخبار القضاة لوكيع جـ٣/ ٢٥٤.

٤- الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية جـ٢/ ٢٢٠.

٥- الأعلام للزركلى جـ٨/ ٩٣.

٦- حاة الإسلام. لمصطفى نجيب جـ٢/ ٨٨.

يوسف الدجوى
(١٢٨٧ - ١٣٦٥هـ = ١٨٧٠ - ١٩٤٦م)

وُلد يوسف الدجوى بقرية (دجوة) من أعمال قليوب بمصر سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠م) من أب عربى ينتمى إلى بنى حبيب، وأم يرجع نسبها إلى الحسن السبط ﷺ، وقد أصيب بفقد بصره فى صغره، فَعَزَّاه والده بأنه سيلتحق بالأزهر ليكون عالما جليلا، وبدأ بذلك حين أتم حفظ القرآن، فتلقى العلم على كبار أساتذة الأزهر إذ ذاك - ثم حاز درجة العالمية سنة ١٣١٢هـ ونالها بتفوق عظيم، حتى قصد منزله كبار العلماء ممن امتحنوه ليشهدوا بنبوغه الملحوظ.

ولما أسست المشيخة الأزهرية مجلة «الأزهر»، كان أول من وقع اختيارها عليه للتحرير بها الأستاذ الدجوى، فكتب فيها البحوث الممتعة، فى الدين والتفسير والحكمة، وبقى على موافاتها حتى وفاته، وقد تَرْجم له قلم الترجمة بالمجلة كتابه القيم «رسائل السلام» إلى اللغة الإنجليزية، وطبعت منه عشرة آلاف نسخة بعث بها لمن لا يقرءون العربية من الأجانب الراغبين.

وقد اشتهر الشيخ فى صدر شبابه ، لأنه تصدر لإلقاء دروس فى التفسير بالرواق العباسى بالأزهر اقتداء بالإمام محمد عبده بعد رحيله بأمد واسع، فأُخِذ الطلاب بروعة ما ألقى، وكتبوا من تفسيره الشىء الكثير، وقد ذكر ابن أخيه الشيخ عبد الرافع الدجوى أنه جمع من تفسيره فى عام واحد فقط أربعين كراسة، وهو يحاول طبعها فلا يجد المستجيب!

وهو عالمٌ شغل معاصريه بكثرة ما ألقى من الدروس الدينية، والمحاضرات العلمية، وما أصدر من الفتاوى الفقهية، إذ كان مرجعا أمينا للفتوى، تصدر إليه عشرات الأسئلة شهريا فيجيب عليها بوثوق، ولو جمع ما كتب فى هذا المجال لكان كنزا ثمينا .

وعندما توفى الشيخ، شيع باحتفال مهيب، وكان ذلك فى عام ١٣٦٥هـ الموافق ١٩٤٦م.

آراؤه واتجاهاته الفكرية :

فى أثناء تدريسه بالأزهر ألف جمعية دينية سماها (جمعية النهضة الإسلامية)

واختار لها ذوى الغيرة من رجال مصر، فكانت أختا لسابقتها جمعية (مكارم الأخلاق)، فأديتا رسالة جليلة فى مقاومة التبشير الذى شجع الاحتلال الإنجليزى ذيوعه على نحو أقلق الغيورين، فكان الأساتذة: يوسف الدجوى، وعبد الوهاب النجار، وزكى سند، ممن صمدوا لدفع افتراءات التبشير. ومن الشباب الأزهرى الذين تربوا فى جمعية النهضة الأساتذة: محمود أبو العيون، وعلى سرور الزنكلونى، وعبد الباقى سرور نعيم، وعبد الله عفيفى، وكلهم قد احتل مكانا مرموقا بجهاده النبيل، وبتوجيه الشيخ يوسف فى اجتماعاته الليلية بدار النهضة!

أما ثقة الأزهر به فقد كانت فى أعلى درجاتها ، إذ انتدبه شيخ الأزهر الأستاذ سليم البشرى لوضع كتاب يبين حقائق الإسلام استجابة لرسالة باحث أمريكى هو (إيفان. م. دى) اعتنق الدين ويريد التعمق فى مسائله؛ لأنه يعيش فى وسط يناقشه بما لايملك أن يدفع به، فرحب الدجوى باختياره، وكتب فى أيام معدودة كتابه الشهير (رسائل السلام) متحدثا عن عالمية الدين، وكيف جاء لهداية البشرية جميعا، فى كل زمان ومكان، ثم أفاض فى ذكر آداب الإسلام وأوامره ونواهيه، وخصّ الجانب الأخلاقى بتفصيل شاف. وكان كتاب الدجوى بعد ما كتبه الأستاذ الإمام من قبل من أحسن الكتب الهادية إلى دين الله.

ثم قامت جمعية الشبان المسلمين بالقاهرة واعتمدت على المحاضرات العلمية التى يلقيها كبار العلماء توجيها للشباب المفتون بشبهات الغرب، وكان الشيخ الدجوى من فرسان هذه الحلبة، وقد اختار الأستاذ محب الدين الخطيب طائفة من هذه المحاضرات صدرت فى جزءين تحت عنوان (المنتقى) ومن بين مختاراتها محاضرات الأستاذ الدجوى!

ثم راجت فى مصر أسطورة داروين عن نشأة الكون، ولاقت إعجاب من يكتفون بالقشور عن اللباب، فانبرى الأستاذ لتفنيدها فى عدة محاضرات، انتفع فيها بما قاله معارضوه من الغرب، مستشهدا بآراء العلامة (كاميل فلا مريون) وغيره، ولعل هذا وأمثاله ما دعا الأستاذ محمد فريد وجدى أن يقول فى تأبينه: «ومن مميزات الفقيد أنه يأنس إلى البحوث النفسية الحديثة فى أوروبا، ويراها خير أداة لكسر شوكة الماديين، وقد اعتمد فى كتاباته على ما حققوه منها، ولا يخشى فى ذلك لومة لائم».

ولم يتقيد الشيخ بالمذهب المالكى فى

فتاويه الفقهية بل امتد نظره إلى المذاهب المختلفة ليختار منها ما ترجح لديه بالدليل.

على أن الشيخ لم يكن من ذوى التعصب لرأيه، بل كان يقدم لفتاويه بأنها محض اجتهاد، وأن رأيه ليس الأوحد الذى لا تحيد عنه، وأنه حين يسأل عن حكم فقهى يذكر ما يرجحه من آراء العلماء فى هذا الحكم، وليس معنى ذلك أنه لا خلاف فيه، بل معناه أن المختار هو ما يتجه إليه، ثم ينصح قارئه بأن يعلم «أن المجتهد الذى يأخذ من الكتاب والسنة لابد أن يكون عالما بمواقع العموم والخصوص، والإطلاق والتقيد، عارفا كل حديث، باحثا عما عسى أن يكون فيه من علة خفية لا يعرفها إلا دُقاق الحفاظ، عالما بطرق الترجيح ليقدم بعضها على بعض عند التعارض». وهو بذلك يرد على من يقول - عن خطأ واضح - أنه يكتفى بالحديث والقرآن عن كتب المذاهب! وهو عن القرآن والحديث بمكان بعيد، رحم الله الشيخ وأكرم مثواه.

مؤلفاتـــــه :

١ - خلاصة علم الوضع.

٢ - تنبيه المؤمنين لمحاسن الدين.

٣ - سبيل السعادة.

٤ - رسائل السلام ورسل الإسلام.

٥ - رسالة فى تفسير قول الله تعالى: ﴿ **لا يسأل عما يفعل** ﴾ [الأنبياء : ٢٣].

٦ - صواعق من نار فى الرد على صاحب المنار.

٧ - الجواب المنيف فى الرد على مدعى التحريف فى القرآن الشريف.

٨ - الرد على كتاب الإسلام وأصول الحكم.

٩ - (مفاهيم إسلامية: مقالات وفتاوى) مجلدان كبيران جُمعا بعد وفاته.

ومؤلفاته كثيرة، ولكن فضله أكبر منها، لأن دروسه كانت ذات استفاضة لم تتح له عند التأليف وهو منفرد يملى، وقد لاحظ ذلك الدكتور زكى مبارك فيما كتبه فى تفسير قوله تعالى: ﴿ **لا يسأل عما يفعل** ﴾ وهى تتحدث عن مسألة دقيقة من مسائل علم الكلام.

وإذ كانت هذه الكتب محدودة الانتشار بعد انقضاء أكثر من سبعين عاما على طبعها، فقد أحسن الأستاذ الأكبر عبد الحليم محمود - رحمه الله - حين أمر بجمع كثير من مقالات الشيخ فى مجلدين كبيرين تحت عنوان «مفاهيم إسلامية: مقالات وفتاوى» وقد جاء المجلد الأول فى سبعمائة واثنتين وثلاثين صفحة، وجاء المجلد الثانى فى ثمانمائة وأربع وأربعين من الصفحات.

وبمراجعة الجزء الأول نجد أنه بدأ بما كتبه الأستاذ عن الإلهيات، حيث خاض فى مسائل دقيقة تتحدث عن ضرورة الإيمان والرد على الطبيعيين فى نكران الحقائق اليقينية، وعن البعث، وحرية الإنسان، والقضاء والقدر، والتوسل، والاستغاثة، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية، ومقر الأرواح بعد الموت، وتنزيه الله - تعالى - عن المكان والجهة، والتنويم المغناطيسى واستحضار الأرواح، وأفعال العباد، والشرك وعقوبته الأخروية، وحاجة الإنسان إلى الشريعة.

ثم جاء بعد هذا الباب، جزء ممتع عن النبوات بعد الإلهيات، إذ أفاض الشيخ فى مقالات عن نبوة خاتم الأنبياء ﷺ وعن المعراج، وقصص الأنبياء، وحياتهم فى القبر، والإسراء والمعراج، وعن مواقف رائعة لرسول الله ﷺ تؤكد صدق نبوته وغيرها.

أما الجزء الثالث فخاص بالتفسير، حيث صدرت عن الشيخ شروح شافية لسور كثيرة من جزء عم، وفيها استطرادات مليئة بالعبر النافعة، وختم الجزء الرابع بما جمع من فتاوى الشيخ الفقهية وقد امتدت من ص ٣٨٩ إلى ص ٨٤٠ فشملت من القضايا ما يعالج شئون العصر.

أ.د. محمد رجب البيومى

مراجع للاستزادة:

١- الغيث المروى فى فضائل الشيخ الدجوى، للشيخ عبد الرافع الدجوى.
٢- النهضة الإسلامية فى سير أعلامها المعاصرين جـ (٢) للدكتور محمد رجب البيومى.
٣- مقالات الكوثرى: للأستاذ محمد زاهد الكوثرى.
٤- الأعلام للزركلى - الجزء الثامن ص ٢١٦.
٥- فى عالم المكفوفين للدكتور أحمد الشرباصى.
٦- الأخلاق، عند الغزالى، للدكتور زكى مبارك.

فهرس موسوعة أعلام الفكر الإسلامى